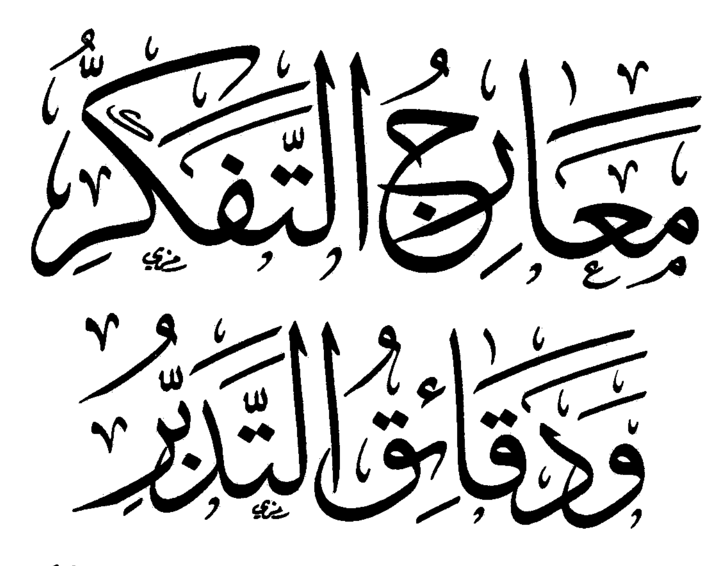
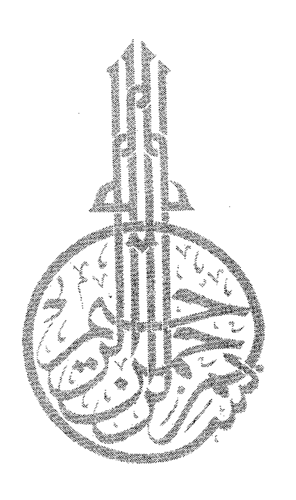


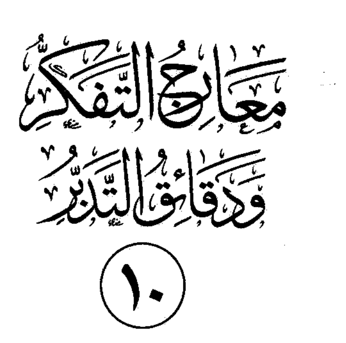
تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد العاشر
تفسير السور التالية:
يونس/٥١ وهود/٥٢ ويوسف/٥٣

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني






معارج التفكر
ودقائق التدبر
١٠



الطبعة الثانية
١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م

تُطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق
هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
www.alkalam-sy.com

الدار الشامية - بيروت
هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)
ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدّة
٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

سورة يونُس

١٠ مصحف ٥١ نـزول

وهي سورةٌ مكيةٌ قالُوا:

إلَّا الآيات (٤٠ و٩٤ و٩٥ و٩٦)

فهي مَدَنِية والله أعلم

وآياتها (١٠٩)



(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ

---

١ ـ • في ﴿الٓر﴾ سكت أبو جعْفر على «ألف» و«لام» و«راء» سكتَةً خفيفةً من غير تَنَفُّس.

٢ـ • قرأَ نَافِعٌ وَأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبُو جعفر، ويعقوب: [لَسِحْرٌ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة [لَسَاحِرٌ].
وبين القراءَتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ قال الكافرون عما جاء به الرَّسُول هو سِحْرٌ مُبين، وقالوا عن الرسول هو ساحِرٌ مبين.

٣ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ من فعل: تَذَكَّرَ يَتَذَكَّرُ، وَهَذِهِ تُنَاسِبُ حال بعض المخاطبين وقرأها باقي القُرَّاء العشرة.
[تَذَّكَّرُونَ] أَصْلُها: تَتَذَكَّرونَ، أُدْغِمَتْ التَّاءُ بالذَّالِ، وهذه تناسب حال بعض المخاطبين، الذين يحتاجون تشديداً.

٤ ـ • قرأ أبُو جعفر: [أَنَّهُ يَبْدَؤُ] بفتح هَمْزَة «أَنَّ» على أن الجملة تعليلية. وقرأها باقي القراء العشرة ﴿إِنَّهُ يَبْدَؤُ﴾ بكسر هَمْزَة «إِنَّ» على أن الجملة ابتدائية. وبين القراءتين تكامل.

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَفِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَتِنَا غَفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَأْوَلهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَرُ فِي جَنَّتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَلهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَلهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَلَمِينَ ﴿١٠﴾ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَنِهِمْ

٥ - • قرأ قُنْبل: [ضِئَاءً] بإبدال الياء همزة وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿ضِيَاءً﴾. والقراءتان وجهان من الأداء في العربية.

٥ - • قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمرو، وحفص، ويعقوب: ﴿يُفَصِّلُ﴾ بالياء، وقرأها باقي القراء العشرة [نُفَصِّلُ] بنُون المتكلِّم العظيم، ومؤدّى القراءتَيْن واحِد.

١١ - • قرأ ابن عامِر: [لَقَضَى إِلَيهِمْ أَجَلَهُمْ] ببناء فعل «قضى» للمعلوم ونصب «أَجَلَهم» أي: لقضىٰ الله إليهم أجَلَهُم.

وكذلك قرأها يعقوب ولكن بضم الهاء من «إِلَيْهُمْ».

وقرأها حَمْزَة: ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ ببناء فعل «قَضَىٰ» لما لَمْ يُسَمَّ فاعله،

يَعۡمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمۡ يَدۡعُنَآ إِلَىٰ ضُرّٖ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡمُسۡرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾ قُل لَّوۡ شَآءَ

= وبضم هاء الضمير من «إليهُم» والمعنى: لَقُضِي إليهم أجلُهم من رَبِّهم.
وكذلك قرأها باقي القُرَّاء العشرة، ولكن بكسر هاء الضمِير مِنْ «إِلَيْهِمْ».

١٣ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَهُمْ] بإسكان السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بضمها.
والقراءتان وجهان عربيّان للكلمة.

١٥ ـ • قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر: [لِقَاءَنَا اتِ] بإبدال الهمزة الساكنة في الوصل حرف مدّ من جنْس سابقتها، وهو وجه من وجوه الأداء.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإثبات الهمزة: ﴿لِقَاءَنَا أْئتِ﴾.

١٥ ـ • قرأَ ابْن كثير: [بِقُرَانٍ] بحذف الهمزة.
وكذلك قرأها حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القراء العشرة ﴿بِقُرْءَانٍ﴾ بإثبات الهمزة.

١٥ ـ • فتح ياء المتكلم في ﴿لِيَ أَنْ﴾ وفي: ﴿إِنِّيَ أَخَافُ﴾ نافع، وابن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جَعْفر.
وأسكنها الباقون.

ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ
فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ
ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا
يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ
﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم

= وفتحها في: [**نَفْسِيَ أَنْ**] نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها الباقون.

١٦ ـ ● قرأ البزّي في إحدى روايتين عن ابن كثير: [**وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ**] بالإثبات.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَلا أَدْرَاكُمْ بِهِ**﴾ بالنفي، وهي الرواية الثانية للبزّي عن ابن كثير.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

١٨ ـ ● قرأ أبو جعفر [**أتنبُونَ**]. وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التسهيلُ والإبدال ياء.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**أَتُنَبِئُونَ**﴾ وهذه القراءات وجوهٌ من الأداء.

١٨ ـ ● قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] بضمير المخاطبين.
وقرأها باقي القُرّاء العشرة: ﴿**عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ بضمير الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

مَّكۡرٞ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسۡرَعُ مَكۡرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكۡتُبُونَ مَا تَمۡكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا

٢١ ـ • قرأ أبو عَمرو: [رُسْلَنَا] بإسْكَانِ السّين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿رُسُلَنَا﴾ بضم السين.
وهما وجْهان عربيان في النطق.

٢١ ـ • قرأ رَوْح: [مَا يَمْكُرُونَ] بضمير الغائبين.
وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٢٢ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جَعْفَر: [يَنْشُرُكُمْ] من فِعْل «نَشَرَ» وقَرأَهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من فِعْل «سَيَّرَ».
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.
فالله يَنْشُر الناس في البرّ والْبَحْر وهو يُسَيِّرُهُمْ فيهما. النشر: البَثُّ والتوزيع.

٢٣ ـ • قرأ حفص: ﴿مَتَاعَ﴾ بالنَّصب، على أنها حال.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مَتَاعُ] بالرَّفع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو متاعُ الحياة الدنيا، وَبَيْنَ القراءَتَين تفنُّنٌ في البيان.

فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ

٢٥ ـ • قرأ قُنبل، ورُوَيْس: [سِرَاطٍ] وقرأها خلف عن حمزة بإشمام الصّاد زاياً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿صِرَاطٍ﴾.
وهي وجُوهٌ عربيّةٌ لنُطق الكلمة.

٢٧ ـ • قرأ ابنُ كثير، والكسائي، ويعقوب: [قِطْعاً] بإسكان الطاء، وهو اسمٌ للجزء من زمن اللَّيل المظلم.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة ﴿قِطَعاً﴾ بفتح الطاء، وهو جمع «قِطْعَة» وهي الجزء المقتطَعُ من الشيء.
ومؤدى القراءتين واحد. أو هو من التفنّنِ والتكامُلِ في أداء المعنى المراد.

٣٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَفٌ: [تَتْلُو] أي: تَتْبَعُ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تَبْلُو﴾ أي: تكشف.
فبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ

٣١ ـ • قرأ ابْن كثير، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وشعبة: [الْمَيْت] بإسكان الياء دون تشدِيدٍ في الموضعين.

وقرأ باقي القراء العشرة بتَشْدِيد الياء فيهما مكْسُورة.

٣٣ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبُو جَعفر: ﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾ بالجمع.

وَقَرَأها بَاقي القراء العشرة [كَلِمَتُ رَبِّكَ] بالإفراد.

ومؤدى القراءتَيْن واحد، فالمفرد المضاف إلى المعْرفة يَعُمّ.

٣٥ ـ • قرأ قالُون بخُلْفٍ عنه: ﴿لا يَهَدِّي﴾ بفتح الهاء وتَشْدِيد الدّالِ المكسورة.

وقرأها أبو عَمْرو بفتح الياء واختلاس فتحة الهاء مع تشديد الدّال المكسورة.

وقرأها قالون وأبو جعفر بفتح الياء وإسكاء الهاء مع تشديد الدال المكسورة.

وقرأها ورش، وابن كثير، وابن عامر: بفتح الياء والهاء وتشديد الدّال المكسورة.

وقرأها شعبة بِكَسْرِ الياء والهاء مع تشديد الياء المكسورة.

وقرأها حفص، ويعقوب بفتح الياء وكسْرِ الهاء مع تشديد الدال المكسورة.

وقرأها باقي القراء بفتح الياء وكسر الهاء وكسْر الدال بلا تشديد.

وهٰذه القراءات وجُوه من الأداء مع بعض اختلافٍ في المعاني بين «يَهْدِي» و«يَهْتَدِي» إذْ بينهما تكامُلٌ في أداء المعنى المراد.

إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ

---

٣٧ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف، ورُوَيْس بإشمام الصاد صوت الزاي من كلمة ﴿تَصْدِيقَ﴾.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالصاد الخالصة.

٣٩ - • قرأ رُوَيْس [يَأْتِهُمْ] بضم هاء الضمير. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هذه الهاء. وهما لغتان عربيّتان.

٤٤ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [وَلَكِنِ النَّاسُ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾.

ومُؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولٞۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي

٤٥ ـ • قرأ حفص: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بضمير الغائب، أي: يحشُرهم الله تعالى.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ] بضمير المتكلم العظيم.
ومؤادهما واحد، وهما من التفنّن في التعبير.

٥٣ ـ • قرأ أبو جعفرٍ: [وَيَسْتَنْبُونَكَ].
وكذلك حمزَةُ في الوقف، وله التسهيل والإبدالُ ياءً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ﴾ والقراءتان من اللَّهجات العربية.

٥٣ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرُو، وأبو جَعفر: ﴿وَرَبِّيَ إِنَّهُ﴾ بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة بالإسْكان.
فتح ياء المتكلم وإسكانُها لغتان عربيّتان.

ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ

٥٦ ـ • قرأ يعقوب: [**تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعموم.
وقرأها باقي القراء العشرة [**تُرْجَعُونَ**] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.
وبين القراءتين تكاملٌ، أي: يُرْجِعكُمُ الله فترجِعُونَ مطاوِعينَ بالقهر.

٥٨ ـ • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: ﴿**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ**﴾.
وقرأها رُوَيْس: [**فَلْتَفْرَحُوا**] ﴿**تَجْمَعُونَ**﴾.
وقرأها باقي القرَّاء العشرة: ﴿**فَلْيَفْرَحُوا**﴾ ـ ﴿**يَجْمَعُونَ**﴾.
ومُؤَدّى القراءات واحد، وهي من التفنُّن بين الغيبة والخطاب.

٦١ ـ • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [**شَانٍ**] بإبدال الهمزة ألفاً، وكذلك حَمْزَة في الوقف، وهذا الإبدال نطق عربي.
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**شَأْنٍ**﴾.

شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا

---

٦١ ـ • قرأ الكسائي: [**يَعْزِبُ**] بكَسْرِ الزاي.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**يَعْزُبُ**﴾ بضمّ الزاي.

والقراءتان وجهان عربيّان في النطق.

٦١ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿**وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ**﴾ برفع «أصغر» و«أكْبر».

وقرأهما باقي القراء العشرة بفتح «أَصْغَرَ» و«أَكْبَرَ»، وهُما وَجْهان نحويّانِ جائزان.

٦٢ ـ • قرأ يَعقوب: [**لاَ خَوْفَ عَلَيهُمْ**] بفتح «خَوْفَ» وضمّ هاء «عَلَيْهُمْ».

وقرأها حمزة [**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهُمْ**] برفْع «خَوْفٌ» وضم هاء «عَلَيْهُمْ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**﴾ برفع «خَوْفٌ» وكسر هَاءِ «عَلَيْهِمْ».

وهي وجوهٌ جائزة.

٦٥ ـ • قرأ نافع: [**وَلاَ يُحْزِنْكَ**] من فعل «أَحْزَنَهُ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿**وَلاَ يَحْزُنْكَ**﴾ من فعل «حَزَنَهُ».

حَزَنَه وأَحْزَنَه: لغتان عربيتان متكافئتان.

ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلۡغَنِيُّۖ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ

---

٧١ - • قرأ رُوَيس: [فَاجْمَعُوا] من فعل: «جَمَعَ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَأَجْمِعُوا﴾ مِنْ فِعْلِ: «أَجْمَعَ» ومؤدّىٰ القراءتين واحد.

٧١ - • قرأ يعقوب: [وَشُرَكَاؤُكُمْ] بالرفع عطفاً على ضمير ﴿فَأَجْمِعُوا﴾.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ بالنّصب على تقدير: وادْعُوا شرَكاءكم، أو على أنّ الواو بمعنى «مع».

٧١ - • قرأ يعقوب: [وَلاَ تُنْظِرُونِي] بإثبات ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بحذف ياء المتكلم.

٧٢ - • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جعفر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ﴾ بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاءِ العشرة بالإسْكان.

ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ

٧٩ ـ • أبدل ورش، والسّوسي، وكذلك أبو جعفر في وصل الهمزة الساكنة واواً مدّية في: ﴿فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي﴾ فقالوا: فِرْعَوْنُ وتوني.
وباقي القرّاء قرؤوها بالتحقيق.

٧٩ ـ • قرأ حَمْزَةُ، والكسائي، وخَلَفْ: [بِكُلِّ سَحَّارٍ] مبالغة ساحر.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِكُلِّ سَاحِرٍ﴾.
وبين القراءتين تكامل فقد دَلّا على أنّ فِرْعَوْن طَلَب كلَّ سَحّار، ثمَّ طَلَبَ كلَّ سَاحِرٍ.

٨١ ـ • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: [بِهِ آلسِّحْرُ] بزيادة همزة استفهامٍ قبل همزة الوصل.

عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا

= وقرأها الباقون: ﴿**به السِّحْرُ**﴾.
فدلَّت القراءتان على أنّ موسى عليه السلام قال لهم أوّلاً مستفهماً فقالوا له: نعم. وعند المباراة قال لهم مثبتاً غير مستفهم.

٨٧ - • قرأ ورش، وأبو عمرو، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: ﴿**بُيُوتاً - بُيُوتَكُمْ**﴾ بضم الباء.
وقرأهما باقي القرّاء العشرة بكسر الباء. وهما لغتان عربيتان.

٨٨ - • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: ﴿**لِيُضِلُّوا**﴾ من فعل «أَضَلَّ».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**لِيَضِلُّوا**] من فعل «ضَلَّ».
فَدَلَّتِ القراءتَان على أَنَّ مُوسى عليه السلام قال في دُعائه لِرَبِّه: لِيَضِلُّوا وَلِيُضِلُّوا.

فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِ بَنُوٓا إِسْرَآءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن

٨٩ ـ • قرأ ابن ذَكْوان: [وَلاَ تَتْبِعَانِ] بكسر النون دون تشديد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلاَ تَتَّبِعَانِّ﴾ بكسر النون مع التشديد.
ودَلّت القراءتان على أنّ الله عزَّ وجلَّ أكّد لموسَىٰ وهارون أولاً تأكيداً مخففاً، ثم تأكيداً مشدّداً.

٩٠ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [آمَنْتُ إِنَّهُ] بكَسْرِ همزة «إِنَّه» على أنّ الجملة مستأنفة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ﴾ بفتح همزة «أَنَّهُ» على تقدير: آمنت بأنَّهُ لَا إله إلَّا الَّذِي آمنت به بنو إسرائيل.
فدلَّتِ القراءتان على أنَّ فرعون قال القَوْلَيْن بالتتابُع حينما أدْركه الغرق.

٩٢ ـ • قرأ يَعْقُوب: [نُنْجِيكَ] مِنْ فعل: «أَنْجى».
وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من فِعْل: «نَجّى».
والقراءتان متكافئتان، لأنَّ الفعل المهموز أَخُو الفِعْلِ المضعّف.

٩٤ ـ • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخَلَف: [فَسَلْ].
وقرأها باقِي القُرّاء العشرة: ﴿فَاسْأَلْ﴾.

قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن

= هاتان القراءتان لغتان عربيّتان لفعل الأمرِ من «سَأَلَ».

٩٦ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر: [**كَلِمَاتُ**] بالجمع.
وقرأها باقي القرّاء العشرة ﴿**كَلِمَتُ**﴾ بالإفراد.
ومؤدّى القراءتين واحد، فالمفرد المضاف إلى معرفة يَعُمُّ.

١٠٠ ـ • قرأ شعبة: [**وَنَجْعَلُ**] بنون المتكلّم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿**وَيَجْعَلُ**﴾ بضمير الغائب الذي يعود على الله جلَّ جلاله.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

١٠١ ـ • قرأ عاصم، وحَمْزَة، ويعقوب: ﴿**قُلِ انظُرُوا**﴾ بِكَسْرِ اللّام.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**قُلُ انْظُرُوا**] بضَمّ اللّام.
وهما وجهان عربيان في النُّطْقِ. وفي الضم مُراعاة ضمّ الظاء.

قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

١٠٣ ـ • قرأ أبو عمْرو: [نُنَجِي رُسْلَنَا] من فعل: «نَجَّى» وبإسكان السِّين.
وقرأها يعقوب: ﴿نُنجِيْ رُسُلَنَا﴾ من فعل «أَنْجَى» وبضمّ السّين.
وقَرَأَها باقي القرّاء العشْرةُ: ﴿نُنَجِّي رُسُلَنَا﴾ من فعل «نَجَّىٰ» وبضم السِّين.
وهي قراءات متكافئة لغة.

١٠٣ ـ • قرأ حفص، والكسائي، ويعقوب: [نُنْجِ المؤمِنِينَ] من فعل «أَنجَى».
وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُنَجِّ المؤمِنِينَ﴾ من فعل «نَجَّى». والقراءتان متكافئتان.
ووقف يعقوب بالياء في «نُنْجِي». وحذف باقي القراء هذه الياء وصلاً ووقفاً.

(٢)
موضوع سورة «يونس»

بعد قراءة السّورة مرّاتٍ عَدِيداتٍ، مع التأمل واستذكار ما سبَقَ من القضايا الّتي جاءت في سورة (الإسراء) النازلة قبل سورة (يونس) وقضايا اشتملَتْ عَليْها سُوَرٌ نزلَتْ قبل سورة (الإسراء) ظهر لي أنّ موضوع سورة (يونس) كما يلي:

متابَعَةُ بياناتٍ شَارِحَاتٍ، ومُفَصِّلاتٍ، ومُضَافَاتٍ، بِشَأْنِ قضايا اشْتَمَلَتْ عليها سورة (الإسراء) وقضايا جاءت في سُوَرٍ نَازِلَةٍ قَبْلَها، وبشأن معالجاتٍ للمواقف الّتي جَمَدَ عندها كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكَّة، أَوْ تَطَوَّرُوا إليها، وبشأن تَرْبياتٍ للرَّسُولِ ﷺ وللمُؤْمِنين، اقتَضَتْهَا الحِكْمَةُ إبَّانَ نُزُولِ سورة (يُونُس) وبعضُ هٰذه القضايا كانَتْ تَعْتَلِجُ في نَفْسِهِ أَوْ نُفُوسِ المؤْمِنِينَ، دُونَ أَنْ يُصَرِّحَ الرَّسُولُ أو المؤمِنُونَ بها، ونُدْرِكُها من المعالجة التَّرْبَوِيَّة الواردة في السُّورة.

وتَظْهَرُ لنَا في هٰذِهِ السُّورة حِكْمَةُ الله السَّامِيَة، العلاجيَّة والتَرْبَوِيَّة في متابعة أحداثِ مسيرةِ الرَّسُولِ الدَّعَويَّة لغَيْرِ المؤمنين، والقياديَّةِ للمؤمنين، وتَظْهَرُ لَنَا حكمة الله جلَّ جلالُهُ في مخاطبته رسُولَه ﷺ، والمقصودُ بعض الَّذين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه، مَعَ إسْمَاعِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ بأنَّ الرَّسُولَ مأمُورٌ من رَبِّهِ بالإيمانِ والعِبَادةِ والطَّاعَةِ كسَائِر النَّاس، وأنّ الجزاء الرَّبَّانيّ يَشْمَلُ بالْعَدْلِ أو بالفضل جميع عباده، بدءاً من الرسُولِ المعْصُومِ أفضل خَلْقِه، ونزولاً حتَّىٰ أَهْلِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ.

(٣)
دروس سورة (يونس)

بَدَا لي تقسيم هذه السورة إلى عشرين دَرْساً.

الدرس الأول: وهو الآيات من (١ ـ ١٠).

وهو يتضمَّنُ ما يلي:

(١) الثناء على القرآن بأنَّه حكيم.

(٢) عرض كون الكافرين تَعَجَّبُوا من أن يكون الرَّسُول رجُلاً منهم، فأنْكَرُوا رسالَتَهُ، ولا دَلِيلَ لَهُمْ إلَّا التَّعَجُّب، وهو ليس بدليلٍ مطلقاً، وقد أنْذَرَهُمُ الله بعذابٍ يَوْمَ الدِّين، وأطْلَقَ عليهم عنوان: «النَّاس».

أما المؤمنون فقد بشَّرَهُمُ الله بأنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ.

(٣) بيانُ تَرْوِيجِ المشرِكين مقولَتَهُمْ بشأن الرسول ﷺ أنَّهُ ساحِرٌ مُبين، مؤكِّدِين ما سَبَقَ أنْ قَالُوه في مَراحِلَ سابقة.

(٤) معالجة المعنيّين بالمعالَجَةِ، بإثبات رُبُوبيَّة الله، والمطالبة بعبادته، وبالترهيب من عذاب اللهِ للكافِرين، وبالترغيب بنعيم الجنّة للمؤمنين.

الدرس الثاني: وهو الآية (١١).

وهو يتضمن متابعةَ معالجة استعجال النَّاس ما يَرَوْنه خيراً لهم، وهو في حقيقتِه شرٌ لهم.

فقد سبق في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) بيانُ أنّ الإنسان يَدْعُو بالشرّ دعاءه بالخير، بسبب كونه عجولاً، وقد جاء هذا الموضوع في الآية (١١) وفي الآية (١٨) منها.

الدرس الثالث: وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

وهو يتضمن متابعة وَصْفِ حالِ الإنسان إذا مسّه الضرّ، ثم إذا كشف الله عنه الضرّ.

وقد سَبَقَ بيانُ هٰذِهِ القضية في الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

وتضمَّنَتْ هٰذه المتابَعَةُ الإنذار بإهْلَاكٍ مُعَجَّل.

الدرس الرابع: وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧).

وهو يَتَضَمَّنُ بيَانَ مُتَابَعَةِ مطالَبَةِ الذين كفروا بأن يأتي الرسُولُ بقرآنٍ غير القرآن الذي يتْلُوهُ عليهم، على أن تكون مضامينُ القرآنِ الجديد مطابقةً لما يُرْضِيهم، لا لِلْحَقِّ والخير والفضيلة.

ويتضمَّنُ مُعَالجَةَ هذا الطلب التعنّتِيِّ الباطل.

الدرس الخامس: وهو الآيتان (١٨ و١٩).

ويتضمن متابعة بيان حال كفَّار مكَّة الشّركي، مع معالجة ما أضافُوهُ من ادِّعاء أنَّ شُركاءَهم يَشْفَعُونَ لهم عند الله. ومع بيان أنّ الناس كانُوا أمَّةً واحدة مؤمِنَةً منْذُ عَهْدِ آدَمَ فَمَا بَعْدَه، فاخْتَلَفُوا بِدُخُولِ الشركيَّاتِ إلى عقائدهم، ومَعَ بيان الحكمة من تأجيل معاقَبَتِهم إلى يَوْمِ الدِّين.

الدَّرس السَّادس: وهو الآية (٢٠).

ويتضمن بيان متابَعَةِ مُطَالَبَةِ أَئِمَّةِ كُفَّارِ مَكَّة بآيات ماديَّة كعصا موسى عليه السلام، معَ تَعْلِيم الرَّسُولِ فَكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أمَّتِه، ما يقولُهُ جواباً على هذه المطالبة التَّعَنُّتِيَّة.

الدرس السابع: وهو الآيات من (٢١ ـ ٢٣).

وهو يتضمّن متابعة حال الإنسان الذي جاء في الدَّرس الثالث من هذه السّورة بيانُه.

الدرس الثامن: وهو الآيات من (٢٤ ـ ٣٠).

وهو يتضمَّن الإقْنَاعَ بواقع حالِ الحياة الدُّنيا، وأنَّها حياةُ فناء وزوال، وليسَتْ حياة بقاء.

أمَّا حياة البقاء فهي الحياة الأخرى الّتي لَهَا دَارَانِ، دار نعيم خالدة، ودارُ عذاب.

الدَّرس التاسع: وهو الآيات من (٣١ ـ ٣٦).

وهو يتضمن تعليم الرَّسُولِ فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّتِه جِدَالاً للمشركينَ، حوْلَ تفصيلات من صفاتِ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ.

الدرس العاشر: وهو الآياتُ من (٣٧ ـ ٤١).

وهو يتضمَّن متابَعَةَ المعالجةِ بشأنِ القرآن، وأنَّهُ مُنَزَّلٌ حقّاً من عند الله، ولا يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مِنْ قولِ إِنْسٍ ولا جِنّ.

الدرس الحادي عشر: وهو الآيتان: (٤٢ و٤٣).

وهو يتضمَّن بيان واقع حال المدعُوّين، فمنهم من يستمعون للرسول، ومنهم من لا يسْتَمعُون، ومنهم من يَنْظُرُون إليه، ومنهم من لا يَنْظُرُون، مع البيان الرَّبَّاني بشأن هذا الواقع.

الدرس الثاني عشر: وهو الآيَاتُ (٤٤ ـ ٥٤).

وهو يتضَمَّن بيان أنّ الله لا يظلم الناس شيئاً، مع تذكيرٍ بالجزاء المؤجّل والجزاء المعجَّل.

الدرس الثالث عشر: وهو الآيتان: (٥٥ و٥٦).

وهو يتضمَّن بيان حقائق من القاعدة الإيمانية:

- لله ما في السماوات والأرض.
- وعْدُ اللهِ حَق.
- اللهُ يُحْيِي ويُمِيت.

الدرس الرابع عشر: وهو الآية: (٥٧).

ويتضمنُ خطاب الناس بشأن القرآن، وما فيه من موعظة، وشفاء لما في الصُّدُور، وهُدىً ورحمة للمؤمنين.

الدرس الخامس عشر: وهو الآيات من (٥٨ ـ ٦١).

وهو يتضَمَّنُ تعليمَ الرَّسُولِ فكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته بعْضَ ما يقولُه للمشركين، مع معالجتهم بشأن افترائهم على الله بشأن الحلال والحرام في أحكام الدّين، وتحذيرهم من مغبّة ذلك يوم القيامة.

الدرس السادس عشر: وهو الآيات من (٦٢ ـ ٦٤).

ويتضمَّن بيان من هم أولياءُ الله، مع ذكر بعض جزائِهِمْ عند ربِّهِمْ يَوْم الدّين.

الدرس السابع عشر: وهو الآيات من (٦٥ ـ ٧٠).

ويتضمّن تَرْبية الرَّسُول ﷺ، بشأن أقوال المشركين المؤذية له، والمستَهِينَة بِهِ لِضَعْفِهِ وضعف الَّذِينَ آمَنُوا به عن رَدِّ أذاهم، مع المعالجة المناسِبَة.

الدرس الثامن عشر: وهو الآيات من (٧١ ـ ٩٣).

ويتضمن تحذير المشركين من مصير تكذيبهم بآيات الله، وأنهم بتكذيبهم يُعَرّضون نفوسهم لعقاب مُعَجَّل، بإهلاكٍ عامٍّ شامل، نظير الذي حَصَل لقَوْمِ نُوحٍ، والّذين جاءوا من بَعْدِهِم (أي: قوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب) أو نظير ما حصل لِفِرْعَوْن ومَلَئِه وجنُوده.

الدرس التاسع عشر: وهو الآيات من (٩٤ ـ ٩٨).

ويتضمَّن خطاب الله عزَّ وجلّ لرَسُوله (والمراد خطاب الّذِين يَشُكُّون فيما أنزلَ اللهُ إليه) بأنْ يَسْأَلَ الَّذِين يَقْرَؤُونَ الكتاب السَّابق للقرآن، ليتأكَّدَ المرادُون بالخطاب من صِحَّةِ ما جاء في القرآن من إهْلَاك كُفَّار القرون الأولى، ولا سيما فرعون وجنوده.

الدرس العشرون: وهو الآيات من (٩٩ ـ ١٠٩) آخر السّورة.

ويتضمَّن تعليمات مُوَجَّهاتٍ من الله لرسُوله تَرْبيةً له، بشأن ما يعْتَلِجُ في نفسه، وتعليماتٍ بشأن بعض أساليب الإقناع الَّتي يَنْبَغي للرَّسُولِ توجيهها للمدْعُوِّين.

وهٰذه التعليمات تتضمَّن توجيهاً رَبَّانياً للمدْعُوِّين بأُسْلُوبٍ غير مباشر، إذْ ظاهرها يُفِيدُ أنَّها مُوَجَّهَةٌ لِلرَّسُول ﷺ، وهي في حَقِيقَتِها تتضمَّنُ توجيهاً غير مباشر للمدعُوِّين إلى الإيمان والإسلام.



(٤)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١ ـ ١٠)

قال الله عزَّ وجلَّ:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ

ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

تمهيد:

(١) بدأ هذا الدرسُ بتمجيد القرآن بأنَّهُ كتابٌ حكيم، أي: وكونُهُ حكيماً يَدُلُّ على أنَّهُ تَنْزِيلٌ من رَبّ الْعَالمين.

(٢) وعَرَضَ بَعْدَ بيانِ كَوْنِ القرآنِ حكيماً، الْمَوْقِفَ الّذِي أَصَرَّ عَلَيْهِ كُبراءُ كُفَّار قريشٍ إبَّانَ التنزيل، وهو تكذيبُهم بأنَّ محمّداً رَسُولُ اللهِ، إذْ تَعَجَّبُوا أَنْ يَكونَ رَسُولُ اللهِ رجُلاً من النَّاس يُنْذِرُ الكافِرِينَ منهم بعذابِ الله، ويُبَشّر الّذينَ آمَنُوا بأنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبّهم.

وإذْ أدهَشَهُمُ القرآنُ بما فيه من إعجازٍ بلاغي زَعَمُوا أَنَّهُ مِنْ قبيل السِّحر، وقالوا عن الرَّسُول ﷺ: إنَّ هٰذا لسَاحِرٌ مُبِين.

(٣) وبَعْد عَرْضِ مَوْقِفِهِمُ الَّذِي أصرُّوا عليه دُونَ أَنْ يَتزَحْزَحُوا عَنْ عَقائدهم الشِّرْكِيَّة، عَالَجَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لإقناعِهِمْ بالْبَدْءِ بإثباتِ الرُّبُوبيَّةِ كُلِّهَا لَهُ، جَلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في الوُجودِ كُلِّهِ.

وأَبَانَ لَهُمْ أَنَّ آلِهَتَهُمْ كَما لَا تَمْلِكُ شَيْئاً من الرُّبُوبِيَّةِ في الْوُجُود فَهِيَ لَا تَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ لَهُمْ عِنْدَهُ، إذْ لَا شَفِيعَ عِنْدَ اللهِ إلَّا مِنْ بَعْدِ إذْنِه، وهو لَمْ يأْذَنْ لِآلِهَتِهِمْ بأنْ يَشْفَعُوا لأحَدٍ عِنْدَه، ولا سيما الَّذِينَ هُمْ مُشْرِكُون بِرَبّهم.

وأَمَرهم اللهُ بأَنْ يَعْبُدوه وحْدَه، وأبَانَ لَهُمْ أَنّ مَرْجِعَهُمْ بَعْدَ الموتِ

والبعثِ إِلَيْهِ لِلْحِسَابِ، وَفَصلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء، هٰذَا وَعْدٌ مِنَ اللهِ رَبِّهِمْ، وَوَعْدُ اللهِ حقّ، فهو الذي يَبْدَأ الخَلْقَ ثمَّ يُعِيدُه، لِيَجْزِيَ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات بالثَّوابِ الّذي وَعَدهم به، وتنفيذ هذا الجزاء معادلٌ لنصوص الْوَعْدِ، وَثَبَتَ في نصوص أخرى أنَّهُ تباركَ وتعالىٰ يَزِيدُهم من فضله، ولِيجْزيَ الّذين كَفَرُوا بِعذابٍ أليم بِسَبَبِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي رِحْلَةِ امتحانهم يكْفُرُونَ بما أمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

(٤) وجاء في هذا الدَّرس بَعْدَ ما سبَقَ عَرْضُ بَعْضِ آياتِ رُبُوبِيَّةِ الله جلَّ جلالُهُ في ظواهِرِ الكونِ.

(٥) وأخيراً جاء في الدرسِ عَرْضٌ فيه بَعْضُ تَفْصِيلٍ بشَأْنِ الكافرين المكذِّبينَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وبشأْنِ جزائهم فيه، وبشأن الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحات وثوابِهِمْ في جنَّاتِ النّعيم.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

• ﴿الٓرۚ﴾: هذه من الحروف المقطعة التي بدأ الله بها بعض السّور، وقَدْ سَبقَ بيان ما يَكْفِي بشأنها في تَدبّر أوَّلِ سُورَةِ (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿.. تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾.

جاءت الإشارة إلىٰ آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد للدّلالة على ارْتفاع مكانَتِها في بلاغَتِها، وفي المعاني السَّامِيَةِ الّتي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا دَلَالَاتُ جُمَلِها.

وسُمِّيَتْ أَجْزَاءُ السّورة الّتي تَنْتَهِي بفاصِلَاتِها «آيات» لأنَّ فيها عَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ علَى كوْنِها مُنَزَّلَاتٍ من عِنْدِ الله، ولَيْسَتْ من كَلَامِ إنْسٍ ولا جِنٍّ وَلَا غَيْرِهما من خَلْقِ الله.

وأُطْلِقَ على الْقُرآن لفظ «الكِتَاب» للدّلَالَةِ على وُجُوب تَدْوِينهِ بالكِتَابَةِ، وَجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاس كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، مَحْمِيّاً من التحريف والتغيير، بالزِّيادَةِ، أو النقص، أو التبديل.

و«ال» في لفظ «الكتاب» للكمال.

﴿الْحَكِيمِ﴾: أي: المحكَمُ، والمُحْكَمُ هُو الّذي وُضِعَ فيه كُلُّ شَيْءٍ في أفضل المواضع وأحْسَنِها وأَتْقَنِها مِنْه، واختِيرَ لَهُ أَفْضَلُ الأشياء وأَتْقَنُهَا وأحْسَنُها مِنْ كُلِّ الْبَدَائِل القابِلَةِ للاختيار.

والقرآن هو مُحْكَمٌ في بنائِهِ اللَّفْظِي، ومُحْكَمٌ في معانيه، ومُحْكَمٌ فيما اشتمل عليه من أوامرَ ونواهيَ ووصايا وأحْكام، ومُحْكَمٌ فيما اشْتَمَلَ عليه من تَرْبيَةٍ ومُعَالجَاتٍ وإقْنَاعَاتٍ وجَدَلِيَّات، وتعليم، وَبَيَانٍ للصراط المستقيم.

وهٰذه هي المرَّةُ الثانيةُ في نجوم التنزيل الّتي وصف الله بها القرآن بأنَّه حكيم، وهي خَمْسُ مَرَّات، وإذْ كان اللهُ عزَّ وجلَّ حَكِيماً فلا بُدَّ أَنْ يكونَ كلامه حكيماً.

الأولى: في سورة (يس/٤١ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

الثانية: في سورة (يونس/٥١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

الثالثة: في سورة (هود/٥٢ نزول) فقد جاء فيها وصف القرآن بأنّه كتاب أُحْكِمَتْ آياتُهُ، أي: فهو مُحْكَم، فقال الله عزَّ وجلَّ فيها: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

الرابعة: في سورة (لقمان/٥٧ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

الخامسة: في سورة (الزخرف/٦٣ نزول) فقال الله عزَّ وجلَّ فيها:
﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾.

وقد جاء في صَدْر هٰذه السُّورَةِ بيان أنّ القرآن حَكِيمٌ في كُلّ عناصره، ليكون بمثابَةِ تقديم دَليلٍ على صِدْقِ الرَّسُولِ في أنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسُولُه، فكِتابٌ حَكِيمٌ في كلِّ عناصِرِه لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ عند اللهِ الْعَلِيم الحكيم، وقد جاء هذا الدَّليل تمهيداً لِمَا جاء في الآية الثانية، وإشعاراً بأنَّ الكافِرينَ جَحَدُوا مقتضىٰ هذا الدليل.

ويُدْرِكُ المتدبر أنَّ في الكلام مطويّا يُفْهَمُ باللزوم الفكري، أي: تِلْكَ آيات الكتاب الحكيم الَّذي نوحي به إلى عبْدنا ونبينا ورَسُولِنا محمدِ بن عبد الله.

قولُ الله تعالى:

• ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

وفي القراءة الأخرىٰ: **[إنَّ هٰذا لَسِحْرٌ مُبينٌ]**.

وقد سبَقَ في سورة (ص/٣٨ نزول) بيان أَنَّهُمْ قالوا بشأن الرَّسُول ﷺ هٰذا سَاحِرٌ كَذَّابٌ، إذْ جاءَ فيها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤﴾.

فَدَلَّ هذا على أنّهم إبَّان نُزُول سورة (يونس/ ٥١ نزول) زادُوا مقالَتَهُم تَوْكيداً، وادّعاءً بأَنَّ كَوْنَهُ ساحِراً أَمْرٌ مُبِينٌ وَاضِحٌ جَلِيّ، وبأَنَّ سِحْرَهُ يَتَعَلَّقُ بما يأتي به من كلام بَلِيغ يَأْسِرُ الْعُقُولَ والنُّفُوسَ، فقالُوا بشَأْنِ الرَّسُول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾ وقالُوا بشأْنِ القرآن: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ ومَعْلُومٌ أنَّ كُلّاً من الادّعائَيْنِ يَلْزَمُ عنْهُ الآخَرُ، وهم بهذا يَتَهَرَّبُونَ من إِعْلَانِ الحقّ والإِذْعَانِ له.

• ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ .. ﴿٢﴾﴾:

استفهام تعجيبيٌّ من أمرِ مُنْكِرِي رِسالة الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، بحُجَّةِ التعجُّبِ والاسْتِغْرَابِ والاستِبْعَادِ، مع أنَّ قَضِيَّةَ النُّبُوَّة والإرْسال لا تَحْتَاجُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَخْتَارَ الله عزَّ وجلَّ عَبْداً من عباده بحكمَتِهِ، ويُوحِي إِلَيْهِ بِبَيَانَاتٍ وعلوم وأوامِرَ وَنَوَاهِيَ ووصَايَا، ويأمُرَهُ بِتَبْلِيغِهَا للنَّاس، وهَلْ في هٰذَا اسْتِحَالَةٌ عَقْلِيَّةٌ أَو اسْتِحَالَةٌ عَادِيَّة؟!

إنَّها من الممكناتِ في مَوازِين العقول السَّلِيمَةِ، وممَّا جَرَتْ به عادَةُ اللهِ بِالنِّسْبَةِ إلى سَائِرِ المرسَلِين السَّابِقِين، وقد سَبَقَ أَنْ أوحَىٰ اللهُ إِلَى كَثيرٍ من أنبيائه السَّابقين، فما الدَّاعي إلى هذا التعجب؟!

إنّ عَجَبَ مُكَذِّبي الرَّسُولِ في نبوّته ورسالَتِه، هو الَّذي يَسْتَدْعِي التعجُّبَ والاستِبْعَادَ والاستغرابَ حقّاً، فتعَجَّبُوا يَا أيُّها العقَلاءُ المؤمنُونَ مِنْ هؤلاء المنكِرينَ المكذّبين بحُجَّةِ التعجُّب.

وفي هذا الاستفهام التعجيبي معنى التلويم والتثريب والتوبيخ.

﴿لِلنَّاسِ﴾ يُرادُ بِإِطْلَاقِ عبارة «الناس» الّذِينَ كذَّبُوا وكَفَرُوا بذريعة التعجّب، فهم الذين يُوَجَّهُ لهم الإنْذار، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿عَجَبًا﴾ فيما أَرَى مُقَدَّم عليه، للاهتمام بإظهار قباحة أن يَتَعَجَّبَ ناسٌ لهم فكر من أمْرٍ لا يَصِحُّ عقلاً أن يتعجَّبوا منه، ولفظ «عجباً» خبر «كان».

العَجَبُ: مصْدَرُ «عَجِبَ مِنه، يَعْجَبُ، عَجَباً، وعَجْباً، وعُجْباً» أي: أَنْكَرَهُ إِذْ لَمْ يَعْتَدْهُ.

﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ﴾ المصدرُ المؤوّل من «أَنْ» و«أَوْحَيْنَا» اسْم «كان» أي: أكان وَحْيُنَا إلى رجُلٍ مِنْهُمْ عَجَباً يَسْتَدْعِي الإنكار؟!

الوحي: في المفهوم الدّيني، إعلامُ الله رَسُولاً من رُسُلِه، أو نبيّاً من

أنبيائه ما يشاءُ من كلامٍ أو معنى، بطريقة تُفِيدُ الْعِلْمَ الْيَقِينيَّ القاطِعَ بما أعْلَمَهُ اللهُ به.

﴿إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إلى رَجُلٍ من جِنْسِ بني آدم، وفي اختيار لفظ «رَجُلٍ» إشْعَارٌ بأنَّ الْوَحْيَ في قَضَايَا الدِّينِ جَعَلَهُ اللهُ خاصّاً بالرِّجال مِنْ جِنْسِ الناس لِلنّاس.

• ﴿.. أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ .. ﴿٢﴾﴾.

﴿أَنْ﴾ أي: بأن أنْذر الناس، وبَشِّرِ الّذين آمنوا، وحذف الجار قبل «أَنْ» جائز باطراد، أوْ تَفْسِيريّةٌ لمضمون ﴿أَوْحَيْنَآ﴾ والمعنى: تضمّن مَا أَوْحَيْنَا بِهِ إلى رسُولِنَا قضيّتَيْنِ كُلّيَّتَيْنِ.

القَضِيَّةُ الأُولى: إنْذارُ الكافِرِينَ المكذِّبينَ بعذابٍ أبَدِيّ في دار العذاب يوم الدّين، دَلَّ عَلَيْهَا قَولُهُ تعالَى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ أُطْلِقَ على الكافِرِينَ المكَذِّبينَ عُنْوَانُ «النَّاس» إذْ هُمُ النِّسْبَةُ الأَكْثَرُ، الّذِينَ لم يَكْتَسِبُوا بَعْدُ صِفَةَ «الَّذِينَ آمَنُوا».

لم يُبَيَّنْ في هذه الآية ما أُنْذِرُوا بِهِ لِلْعِلْمِ به من دلالةِ نُصُوصٍ أُخْرَىٰ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (يُونس).

القضيَّة الثَّانِيَةُ: تَبْشِيرُ الَّذِين آمَنُوا بِأَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تَعالَى في الآية: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾.

﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ أي: قَدَماً نِعْمتْ هِيَ قَدَماً، أُطْلِقَ لَفْظُ الْقَدَم وأُرِيدَ بها المكانَةُ والمنْزِلَةُ الَّتي يَحْتَلُّهَا المؤمِنُ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الدين، ولهذا جاء عند المفسِّرين: «مَنْزِل صِدْق، درجَةٌ عالية» ونحو هذا.

أقول: تقول العرب: فُلَانٌ رَجُلُ صِدْقٍ، أي: نِعْم هو رَجُلاً، وفُلَانَةٌ امرأة صِدْقٍ، أي: نِعْمَتْ هي امرأةً.

فهذه العبارة وأمثالها من صِيَغِ الثناء والْحَمْدِ، ومنها في القرآن المجيد: «قَدَمُ صِدْق، مَقْعَدُ صِدْق، لِسَانُ صِدْقٍ، مُبَوَّأُ صِدْقٍ، مُدْخَلُ صِدْقٍ، مُخْرَجُ صِدْقٍ».

وهذا التعبير من إضافة الموصوف إلى صِفَته، أصْلُهُ: قَدَمٌ صِدْقٌ، ومَقْعَدٌ صِدْقٌ، وهكذا. أي: حَقَّقَ الموصُوفُ في الواقِعِ كُلَّ مَا يُطْلَبُ من كمال صِفَاته، فاستَحَقَّ الثناءَ والمدْحَ بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بَيْنَهُ وبَيْنَ الصُّورَةِ المُثْلَى لِنَوْعِهِ، وذلك هو الصِّدْقُ حَقاً.

فالمعنى: وَبَشِّر الّذِينَ آمَنُوا بأنّ لَهُمْ مكانَةً ومَنْزِلَةً حَسَنَةً رَفيعة لَهَا صِفَاتُ الكمالِ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ نَوْعِهَا في جَنَّاتِ النَّعِيم، ولمّا كَانَتْ جَنَّاتُ النعيم مَنَازِلَ وَدَرَجَاتٍ مُتَفَاضِلَاتٍ، فَلِكُلِّ مُؤْمِنٍ بِحَسَبِ عَمَلِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ مَنْزِلَةٌ كَامِلَةٌ مُلَائِمَةٌ لِدَرَجَته، فالعبارَةُ الْقُرْآنِيَّةُ تَشْمَلُ كُلَّ الدَّرَجَاتِ المتَفَاضِلَات، لأنّ كلَّ دَرَجَةٍ مِنْهَا هي الدَّرَجَةُ الكامِلَةُ بالنِّسْبَةِ إلى مُسْتَحِقِّيها، كَدَرَجَةِ المئة بالنسبَةِ إلى أهل الصَّفِّ الأدْنَىٰ، ودَرَجَةِ المئَةِ بالنسبة إلى الصُّفُوف فَوْقه، الأَعْلَى فَالْأَعْلَى.

الإنْذَار: الإعْلَامُ بمكْرُوهٍ قادِمٍ، ولَوْ كَانَ مبنياً على سبَب.

التبشير: الإعْلَامُ بسارٍّ مُفْرِحٍ قَدْ حَصَلَ، أو سَيَحْصُل، ولَوْ كَانَ مبْنِياً عَلَى سَبَب.

• ﴿.. قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ يُشِيرُونَ إلى الرَّسُولِ محمَّد ﷺ الَّذِي يأسِرُ النَّاسَ بما يَتْلُو عَلَيْهِمْ من قُرآن.

وجاء في القراءة الأُخْرَىٰ: [.. **قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ**] يُشيرُونَ إلى القرآن الَّذِي يَتْلُوهُ على الناس رَسُولُ الله محمد ﷺ فَدَلَّتِ

القراءتان على أَنَّ الكافِرينَ قَالُوا كُلًّا من القولَيْن، فَوَصَفُوا القرآن بأنَّهُ نَوْعٌ من السِّحْر، ووصَفُوا الرَّسُولَ بأنَّهُ سَاحِرٌ.

إنَّهم نَفَرُوا مِنْ أَنْ يَعْتَرِفُوا بالحَقِّ ويُذْعِنُوا لَهُ، ويُؤْمِنُوا بأنَّ الآيَاتِ الّتي يَتْلُوهَا عَلَيْهِم تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العالمين، لِئَلَّا يَتَّبِعُوا مَا جاء فِيها، مَعَ شُعُورِهِمْ بعَظَمَتِها وَتَأْثِيرها على الْعُقُولِ والقُلُوب والنُّفُوس، فتذَرَّعُوا لتَحْسِينِ نُفُورِهم ورَفْضِهِمْ وَجُحُودِهم بالحقّ باتِّهَام الرَّسُول بأَنَّهُ سَاحِرٌ، واتّهام القرآن بأنَّهُ نَوْعٌ من السِّحْر.

وقد جاءت هذه الجملة مفْصُولَةً غَيْرَ مَوْصُولَةٍ بِحَرْفِ الْعَطْفِ، إذْ جاءت جواباً لسؤال مُقَدَّرٍ ذِهْناً، مضْمُونه: فَمَاذَا قَالُوا عن الرَّسُولِ وعن القرآن إذْ كَذَّبُوا بِهِمَا؟

فجاء الجواب: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾. [**إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ**].

وفي اسْتِعمالهم اسم الإشارة «هٰذا» الموضوع للمشار إليه القريب، معنى استهانتِهم بهما.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى: [**أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ**]؟ أصْلُها: أفلا تَتَذَكَّرُونَ.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، إذْ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟ تُنَاسِبُ أحوال بَعْضِ المخاطَبين، و[**أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ**]؟ تُنَاسِبُ أحْوَال آخَرين، يُطَالَبُون بأن يُبَالِغُوا بتكلُّف التّذكُّر.

تمهيد:

يُعلِّمُنا رَبُّنا جلَّ جلالُهُ أسْلُوبَ الْعَوْدَةِ إلَى الإقناعِ بأركان القاعِدَة

الإيمانيَّةِ فِي الدِّين، لدَىٰ دَعْوَةِ المشركين، أو الكافِرينَ بِبَعْضِ صفاتِ رَبّ العالمين، ولوازِمِها الفكريَّةِ، فآمَنُوا بأفكارٍ باطلةٍ، والْتَزَمُوا بلَوازِمِهَا في السُّلُوك.

فهذا هو المنْهَجُ السَّلِيمُ في الإقْناعِ بِالْحَقِّ، والحِوَارِ المُجْدِي، والمجادَلَةِ بالَّتِي هي أحْسَن.

أمّا الحِوَارُ والمُجادَلَةُ فِي الْفُرُوعِ قَبْلَ تَصْحِيح القاعدة الإيمانية ولوازمها الفكريّة والسُّلُوكيّة، فَعَمَلٌ غيْرُ ذِي جَدْوىٰ، ورُبّما يكون ضَرَرُهُ أَكْثَرَ مِنْ نَفْعِهِ.

إنّ المتدبّر المتأمِّلَ يُدْرِك من خِلَالِ تَدَبُّرِهِ لِهٰذِهِ الآية، وإيرادِها عَقِب بيان تَكْذِيبِ المشركينَ للرَّسُول، وتكْذِيبهم بآيات القرآن المجيد، أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَعُودُ بِهِمْ إِلىٰ إثباتِ رُبُوبِيَّةِ رَبّهِمْ الشامِلَةِ لِكُلِّ الْوُجود، والّتي لَا يُشَارِكُهُ فِي شيءٍ من عناصِرِهَا شَرِيكٌ ما، لأنَّهم إذَا آمَنُوا بهٰذِهِ الحقيقة، سَقَطَ شِرْكُهم، وسقطَتْ كُلُّ لوازِمِه الفكريّة والسُّلُوكِيَّة، فصَفَتْ قُلُوبُهم لإدْرَاكِ أَنّ محمّداً عبْدُ اللهِ ونَبِيُّهُ ورَسُولُهُ حَقّاً، وأَنَّ مَا يَتْلُوهُ عليهم من القرآن المجيد، هو مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِمْ الْعَلِيم الحكيم حَقّاً وصِدْقاً.

وبهذا يكونُ حالُ مَنْ لدَيْهِ قابليَّةٌ ما للاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحقّ، أكْثر لِيناً، وأَقْرَبَ إلى الإيمانِ بالحقِّ الرَّبَّانِيِّ، والدُّخُولِ في الإسلامِ، وأكْثَرَ قُدْرَة علَى مُجَافَاةِ مَا هُو فِيهِ من كُفْرٍ وعِنَادٍ وتَقْلِيدٍ أَعْمَىٰ.

التدبُّر التحليلي:

هذه الآية الثالثة من السُّورة تَشْتَمِلُ على خطاب المكذّبين للرَّسُول، والمكذّبين بالقرآن، ببَيانِ خَمْسِ صفاتٍ من صفاتِ رَبِّهم، فيقولُ اللهُ عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ أي: إِنَّ خَالِقَكُمْ، وَمُمِدَّكُمْ بالْبَقَاءِ، وَرَازِقَكُمْ، وَمُحْيِيَكُمْ، وَمُمِيتَكُمْ، وَوَاضِعَكُمْ في الحياةِ الدُّنيا موضعَ الابتلاء،

ومطالبكم بالإيمان والطاعة، وباعِثكُمْ إلىٰ الحياةِ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، ومُحاسِبَكُمْ، وَمُجَازِيَكم، والمتَصَرِّفَ بِكُلِّ أُمُورِكم، صِغَارِهَا وكبَارِها، والَّذِي يَسْتَجِيب لكم إذا دَعَوْتُمُوه، مِنْ صِفاتِهِ ما يلي:

الصِّفَةُ الأُولَى: أنَّ اسْمَهُ العَلَم الجامِعَ لِكُلّ صفاتِه: «الله»: دَلَّ على هٰذِهِ الصفَةِ قولُهُ تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إنَّ رَبَّكُمُ الذي لا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ على أيّ معنىً من معاني الرُّبُوبيَّة اسْمُهُ الله.

الصفة الثانية: أنَّهُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: خَلَقَ كُلَّ هٰذِهِ الكائِنَاتِ السَّبْع السَّامِيَاتِ فَوْقَكُمْ، والّتي تَعْرِفُونَ أَنَّهَا سماوات، ويَدْخُلُ في خَلْقِهَا خَلْقُ مَا فِيهَا، وخَلَقَ الْأَرْضَ الَّتِي تَسْكُنُونها، وخَلَقَ كُلَّ مَا فِيها، وتَمَّ خَلْقُ السَّماواتِ والأرض في سِتَّة مَقَادِيرَ زَمَنِيَّة.

سمَّىٰ الله عزّ وجلَّ كُلَّ مِقْدَارٍ زَمَنِيٍّ مِنْهَا يوماً، وقد عَرَفْنَا من استقراء النُّصُوص القرآنيَّةِ أنَّ لَفْظَ «يَوْم» يُطْلَقُ على مقدارٍ زَمَنِيٍّ ما يخْتَلِفُ باخْتِلَافِ القاعِدَةِ الّتي يَسْتَنِدُ إليها حسابُ زمَنِ اليوم، وقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ يَوْمَ بَعْضِ الكواكِب أقْصَرُ مِنْ يَوْم الأرْض، وأَنَّ يَوْمَ بَعْضِهَا أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الأرض، ولِكُلِّ نَجْمٍ دَوْرَةٌ يَتِمُّ بِتَمَامِها يَوْمُه، وللمجرَّاتِ أَيَّامٌ طَوِيلَةٌ جدّاً.

وجاء في القرآن بيان أنّ مقدار بعْضِ الأيام عند الله كألف سَنَةٍ ممّا يَعُدُّ الناس في الأرض، وجاء فيه أيضاً أنَّ مِقدار بعض الأيام خَمْسُونَ ألف سنة ممَّا يَعُدُّ الناس.

فالله أعْلَمُ بمقَادِير الأيّام الّتي خَلَقَ فِيها السَّماوات والأرض، مع إيمانِنا بأنَّ الله جلَّ جلالُهُ قادِرٌ علىٰ أَنْ يَخْلُقَهَا بأقلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ بِأَمْرِ التكوين، لو شاء ذلك، إنَّما أَمْرُهُ إذَا أَرَادَ شيئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُوَ يكونُ على وفْقِ مُرَادِهِ فيه.

الصِّفَةُ الثَّالِثَة: أَنَّهُ بَعْدَ فَاصِلٍ زَمَنِيٍّ مُتَرَاخٍ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ، دَلَّ على هٰذِهِ الصِّفَةِ قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

الاستواء: هو في اللُّغة الاستقامَةُ والاعتدال، ويقالُ لُغَةً: اسْتَوَى عَلَى كَذَا، أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ فَوْقَه. ويُقَال: اسْتَوىٰ إلى فِعْلِ كذا، أي: اعْتَدَلَ واسْتَقَامَ مُتَوَجِّهاً لِفِعْلِهِ، قاصداً إليه، لا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ آخر.

وأَحْسَنُ بَيَانٍ بِشَأْنِ الاستواء الَّذِي وَصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نفسه ما قالَهُ الإمامُ مالِكٌ إِمَامُ دَارِ الهجرة:

«الكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُول، والاسْتِوَاءُ غَيْرُ مَجْهُولٍ، والْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ، والسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَة».

الْعَرْش: الْعَرْش مَخْلُوقٌ أَعْظَمُ فَوْقَ السّماواتِ السَّبْعِ ومُحِيطٌ بِهَا.

وروي أنَّ السماواتِ بالنسبة إليه كحلْقَةٍ مُلْقَاةٍ في أَرْضِ فَلَاة واسعة، والله أعلم.

الصفة الرابعة: أَنَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانَهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: يُدَبِّرُ أُمُورَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَكْوَانِ كُلِّهَا، فَهِيَ خَلْقُهُ، وَتَصْرِيفُ أُمُورِهَا بِتَدْبِيرٍ حَكِيمٍ مِنْ صِفَاته، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقٍ لَهُ، حَتَّىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوق، ومن المخلُوقاتِ الصُّغْرَىٰ الَّتِي يُدَبِّر اللهُ الرَّبُّ أُمُورَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهَا، الْفَيْرُوسَاتُ، وما هُوَ أَصْغَرُ مِنها، وهذه الجملة خبرٌ ثانٍ.

التدبير: إعْدادُ الخُطَطِ الدَّقِيقَةِ السَّلِيمَةِ الحكيمة، الّتي تكْفُلُ أحْسَنَ العواقِب الّتي تكونُ في أواخِرِ الْأُمُورِ وأدْبَارها.

الصفة الخامسة: أَنَّهُ لَا شَفَاعَةَ لِأَحَدٍ تُقْبَلُ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ، دَلَّ عَلَى هذه الصفة قَوْلُ الله تعالى في الآية: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي: لَا يُوجَدُ شَفِيعٌ مَهْما كَانَ ذا قَرْبٍ مِن اللهِ يَشْفَعُ لِأَحدٍ عِنْدَهُ إِلَّا مِنْ

بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ ضِمْنَ شُرُوطٍ أبانَها اللهُ في غَيْرِ هٰذِهِ الآية[1]، وهذه الجملة خَبَرٌ ثالث.

لفظُ «مِنْ» في عِبارَةِ ﴿مَا مِن شَفِيعٍ﴾ زِيدَتْ فِي النَّصِّ لإفادة استِغْرَاقِ عُمُومِ النَّفْيِ والتَّنْصِيصِ عَلَيْهِ.

وقد جيء بهٰذه الصِّفَةِ تَوْطِئَة لما جاء في الآية (١٨) من هٰذه السورة، إذْ لمَّا دَمَغَتِ المشركين الحُجَجُ البرهانيّة الّتِي تُثْبتُ أَنَّ آلِهَتَهُم الّتِي يَعْبُدونَها من دُون الله لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، اتَّخَذَ بَعْضُهُمْ ذَرِيعَةً لِتَحْسِينِ عِبادَتِها بأَنَّ آلِهَتَهُمْ تَشْفَعُ لهم عِنْدَ اللهِ، فَجَعَلُوا يُكَرِّرُونَ مَقُولَةَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ فأبَان اللهُ عزّ وجلّ أَنَّهُمْ يَفْتَرون على رَبِّهِمْ في هٰذا الادّعاءِ الباطل، كما سَيَأْتِي إن شاء الله لدى تدبّر الآية (١٨).

وبَعْدَ أن ذَكَرَ الله عزَّ وجَلَّ هٰذِهِ الصِّفَاتِ الخمس للرَّب جَلَّ جَلَالَه، خاطَبَ المشركين المكذّبين للرَّسُول والمكَذِّبين بالقرآن بقوله لهم:

﴿... ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾:

أي: ذَلِكُمُ اللهُ العظيمُ الجليلُ الْعَليُّ الأعْلَىٰ هُو رَبُّكُمُ الَّذِي لا يُشَارِكُهُ في رُبُوبيَّتِهِ أَحَدٌ، فاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أحداً، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، فَهُو وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وعِبادَةُ غَيْرِهِ وَلَوْ عَلَى سبيل الإشراك عُدْوانٌ عَلى حَقِّهِ تَبارَكَ وَتَعالى.

استعمل اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّ الله هو العلي الأعلى.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾ ـ [أَفَلا تَذَّكَّرُونَ]؟؟ استفهامٌ فيه مَعْنَىٰ الحثِّ

---

(١) انظر الملحق الثاني التابع لتدبُّر سورة (طه/ ٤٥ نزول) حول: «الشفاعة يَوْمَ الدِّين وأنواعها».

والحضّ على التذكّر، والتَّلويمِ والتثريب على تَرْكِ التَّذَكُّر المطلوب.

فعل: «تَذَكَّر، يَتَذَكَّر» ومَصْدَرُه وتصاريفُه، اسْتُعمل في القرآن المجيد للدَّلالَة على الأثرِ النَّفْسِيِّ والْقَلْبِيِّ لحضور المعلومَةِ المطلوب حضُورُها في الذَّاكِرَةِ، اسْتِدْعاءً لَهَا من مخازِنِ المَعْرِفَةِ، أَوْ وُرُوداً حَدِيثاً لها من الخارج، عَنْ طَرِيق بيانٍ وارِدٍ، أَوْ تَأَمُّلٍ فِكْرِيٍّ ذَاتِي، أو بتأثيرِ حَدَثٍ، أو ظَاهِرَةٍ كَوْنِيَّة، أو غير ذلك.

فصار هٰذا المرادُ بهٰذِهِ المادَّة اللُّغَوِيَّة بمثَابَةِ مصْطَلَحٍ قُرْآنِي، كمُصْطَلَح الصلاة، ومصطلح الزّكاة، في الدَّلَالَةِ عَلَىٰ معَانِيها الدِّينِيَّةِ.

وهٰذا الأثر النَّفْسِيُّ والْقَلْبِيُّ هو المطلوبُ الدّيني من الذِّكْرِ والتَّذَكّر، واكتِسَابِ المعارِف الدينيَّة، وهو الدَّافِعُ للسُّلُوكِ الدينيِّ الملائِم له، والمطلوبِ فيه.

قول الله تعالى:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾.

في هذه الآية مُتَابَعَةٌ لخطاب المكذبين للرَّسُول والمكذّبين بالقرآن من المشركين، رغبةً في إقناعهم بعناصر القاعدة الإيمانيّة الكبرىٰ.

وبَعْدَ بيان تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّة للهِ الرَّبِّ جَلَّ جلالُهُ، والأمْرِ بعبادته، يَتَسَاءَلُ الْفِكْرُ: لمَاذا نَعْبُدُ الله؟

وبالتأمُّلِ مَعَ دَلَالَاتِ النُّصُوصِ الَّتِي نَزَلَتْ قبل نزُولِ سورة (يُونس) نُدْرِكُ أنّ الرَّبَّ قَدْ خَلَقَ النَّاسَ لَيَبْلُوَهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا.

وهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ الامْتِحَانَ يَسْتَتْبِعُ الجَزَاءَ حَتْماً، ولمّا كانت ظُروف

الحَياةِ الدُّنْيا خالِيَةً من تَحْقِيقِ الجزاءِ الملائِمِ الَّذِي تقتضيه حِكْمَةُ الحكيم، كَانَ لَا بُدَّ أَنْ نُدْرِكَ أَنَّ الرَّبَّ جَلَّ جَلاَلُهُ قَدْ أَعَدَّ ظُرُوف حَياةٍ أُخرَىٰ فِي خُطَّةِ التكوين لتَحْقِيقِ الجزاء الأمْثَل.

ولبيان هذه الحقيقة خاطَبَ اللهُ المكذّبين مُدْخِلاً لَهُمْ ضِمْنَ عُمُومِ النَّاسِ فقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾: أي: إنَّكُمْ سَتَمُوتُونَ كما تَعْلَمُون، ولكِنْ بَعْدَ الموْتِ وَمُرُورِ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ سَوْفَ تُبْعَثُونَ إِلَىٰ الحياة مَرَّةً أخْرَىٰ، وَبَعْدَ هذا البَعْثِ يكُونُ رُجُوعُكُمْ إلى حِسَابِ رَبِّكُمْ، وفَصْلِ قَضَائِهِ بَيْنَكُمْ، وتَحْقِيقِ جزائِهِ على ما قَدَّمْتُمْ فِي رِحْلَة امْتِحَانِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا.

﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: **الْمَرْجِعُ**: مَصْدَرٌ ميميٌّ، واسْمُ مَكَانٍ واسْمُ زَمَانِ الرُّجُوع، وهٰذهِ المعاني الثَّلاثَة صَالِحَةٌ لأنْ تَكُونَ مُرادَةً هُنا، فإلى الله الرُّجُوع، وإِلَىٰ اللهِ تَعْيِينُ زَمانِ الرُّجُوع، وإِلَيْهِ تَهْيِئَةُ مكانِ الرُّجُوع.

﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ من الضمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ وهي مؤكدةٌ له، وناصَّةٌ على العموم.

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾: أي: إليه مَرْجعكم جَميعاً رُجُوعاً وَعْدَ الله حقّاً، فـ«وَعْدَ اللهِ» نَائب مَفْعُول مُطْلَق مُبَيِّنٌ لِنَوْعِهِ، و«حَقّاً» مفْعول مطلق جيء به لتوكيد مضمون جُمْلَةِ ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

● ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: لـمَّـا كـان الـمـكـذّبـونَ لـلـرَّسُـول والمكذّبون بالْقُرآن مُكَذِّبينَ أيضاً بخبر الْبَعْثِ وَيَوْمِ الدِّين، كَانَ مِنَ الحكمة في البيان تقديمُ دليلٍ يَدْفَعُ شبْهَةَ استِبْعَادِ واسْتِغْرَابِ الْبَعْثِ إلى الحياة مرَّة أُخْرىٰ، بَعْدَ الموت وفناء الأجْساد، وهذا الدّليل يَعْتَمِدُ على بَدِيهِيَّةٍ عَقْلِيَّة، وهي أَنَّ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ دُونَ أَنْ يَكُونَ شَيئاً مذكوراً، قَادِرٌ بَدَاهَةً عَلَى أَنْ يُعِيدَهُ بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُ وَيُفْنِي جَسَدَهُ، فَهُوَ أَزَلِيٌّ أَبَدِيٌّ، وَصِفَاتُهُ كُلُّها أزَلِيَّةٌ أَبَدِيَّة، فإذا أَخْبَرَ هُوَ جَلَّ جَلاَلُهُ بِأَنَّهُ سَيَبْعَثُ الْمَوْتَى إِلَى الْحَياةِ مَرَّةً أُخْرى

بَعْدَ أَنْ يُمِيتَهُمْ وَيُفْنِي أَجْسَادَهُمْ، لِيُحَاسِبَهُمْ، وَيفْصِلَ قَضَاءَه فِيهم، ويُجَازِيَهُمْ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ خَبَرُهُ حَقّاً وَصِدْقاً.

وعلى قراءة فتح همزة «أنّه» يكون التقدير: وَعْدَ الله حَقّاً لِأَنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه.

● ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِۚ﴾: في هٰذِهِ العبارة بيان الحِكْمةِ والغَرضِ مِنْ إحياءِ النَّاسِ بعد مَوْتهم وفناء أجسادهم، وهُوَ تَحْقِيقُ الجزاءِ يَوْمَ الدّين، علَى مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدنيا، ولولا هٰذا لَكانَ خَلْقُ النَّاسِ بِصِفَاتِهِمْ الَّتِي وَهَبَهُمُ اللهُ إِيَّاهَا عَبَثاً، وَقَدْ تَنَزَّهَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُهُ ـ عَنِ الْعَبَثِ في أفعاله.

الجزاء: مقابلَةُ الْعَملِ بما يُلائِمُه من خَيْرٍ أَوْ شَرّ، فَيَكُونُ بمقابلة الحسنة بمثْلها فما فَوْقَ تفضُّلاً، وبمقابَلَةِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَدْلاً، فَبِمَا دُونَها تجاوزاً وصفحاً.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: الَّذين صَدَّقُوا تَصْدِيقاً إرَادِيّاً قلبيّاً بكلّ مَا أَوْجَبَ اللهُ عليهم أَنْ يُؤْمِنُوا به، وهي أَرْكان الإيمان الستَّة، وتَفْصيلاتُها وفُروعُها الثابتَةُ بيقين.

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي: وَعَبَّرُوا بسُلُوكهم الإرادِيّ في أَعْمالٍ باطِنَةٍ وظاهِرَةٍ عن صِحَّةِ إيمانهم وصِدْقِهِمْ فيه.

﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ **القِسْطُ**: بكَسْرِ القاف هو العدل، وهو من المصادر الّتي يوصف بها الواحد والجمع، أمّا القَسْطُ بفتح القاف فهو الْجَوْرُ، وهو ضِدُّ الْعَدْل.

جاءَ الْقِسْطُ هُنَا بَيَاناً لجزاءِ الذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ فِي نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ، أنَّ جزاءَهُمُ العظيمَ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ إِنَّمَا يَكُونُ بِفَضْلٍ مِنَ اللهِ عليهم، وهو فَوْق قانُون القِسْط والْعَدْل.

وهٰذا يُثيرُ تَساؤُلاً عَنِ الحِكْمَةِ الدَّاعِيَةِ لِذِكْرِ الْقِسْطِ في هذا النصّ؟.

أقول:

أوّلاً: إنَّ ذِكْر القِسْطِ الَّذِي هُو أدْنَىٰ دَرَجاتِ جزاء الَّذِين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات، ويكُون بوِقَايَتِهِم من العذاب وحمايتهم مِنْهُ، لا يَنْفِي تفضُّل اللهِ عليهم بدرجات كثيراتٍ من النَّعِيم فَوْقَ ذَلِكَ، وهو ما جاء بيانُه في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ كثِيرة، وَفْقَ مَنْهَجِ القرآن في تَوْزِيعِ أَفْكَارِ الموضوع الواحد على عَدَدٍ مِنَ النُّصُوصِ فِي عَدَدٍ مِنْ سُوَر القرآن.

ثانياً: إذَا أَدْرَكْنَا أَنَّ وَعْدَ اللهِ لَهُمْ بالجزاء العظيم على سبيل التَّفَضُّلِ بالغاً ما بلَغَ، قَدْ جَعَلَ لَهُمْ حقّاً على كَرَمِ اللهِ وَجُودِهِ العظيم، أَنْ يَفِيَ لَهُمْ بما وَعَدَهُمْ بِهِ، ووفَاءُ اللهِ لَهُمْ بهذا الوعْدِ هُو من القسط.

وبهذا ينْحَلُّ الإشكالُ، وتتم الإجابَةُ على السؤال، ولا تعارض حينئذ بَيْنَه وبين ما جاء في الصحيح عن الرسول ﷺ بقوله:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجنَّة».

قالوا: ولا أنت يا رسُولَ الله؟!

قال: «وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ».

﴿.. وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾:

من إبداعِ القرآنِ في بَيَانِهِ، التَّنْوِيعُ فِي أسَالِيب العرض بَيْنَ المتقابلات، وبين الأقسام، وبَيْنَ المتماثلات والأشباه والنظائر.

وقد جاء هنا بيان لقطة من عذاب الّذِين كفروا يوم الدّين في جهنم بأُسْلُوب مخالِفٍ لأُسْلُوبِ بيانِ جزاء الّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالحاتِ بالقسط.

﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾: أي: في جهنَّمَ دَارِ عذابِ الَّذِينَ كَفَرُوا.

من حَمِيم: أي: من مَاءٍ حَارٍّ شَدِيدِ الحَرارَة، فالَّذِينَ كفروا شرابُهُمْ في جَهَنَّم الّذي يُضطرون إلى أن يَشْرَبُوا مِنْهُ لِشِدَّةِ ظَمَئِهم هُو مَاءٌ شديد الحرارة، فَهُوَ الّذي هو شرابٌ لهم فيها مُعَدٌّ جُزْءاً من عذابهم.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: أي: وعقابٌ مؤلِمٌ لَهُمْ. **أليم**: أي: مؤلم، فعِيل بمَعْنَىٰ مُفْعل.

﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾: الباء سببيّة، أي: بسَبَبِ مَا كَانُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا يَكْفُرون بالحقّ الَّذي أمَرَ اللهُ عباده بأن يُؤْمِنُوا به. أو هي بمعنىٰ التَّعْوِيض والمقابَلَة.

السببيَّةُ، والمقابلَة والتَّعْوِيض، من معاني حَرْف الجرّ «الباء».

الكُفْرُ: في المفْهُوم الدّينيّ هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقّ ببراهِينِه، هذا ما تَدُلُّ عليه الاستعمالَات القرآنية المختلفة. وهو يتلاءم مع المعنى اللُّغوي وهو السَّتْر، فالكافر يسْتُرُ أدلَّة الإيمانِ ويَجْحَدُها.

قول الله تعالىٰ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾: أي: رَبُّكُم الَّذي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْبُدُوه وَحْده، وَلَا تُشْرِكُوا بِعبَادَتِهِ شيئاً، ولا تَعْبُدُوا غَيْرَهُ، هو الَّذي امْتَنَّ على عَبَادِهِ في الأرض، فجَعَلَ لَهُمُ الشَّمْسَ ذَاتَ ضِيَاءٍ، كوكباً نارِيّاً مُشْتَعِلاً ذا لَهَبٍ، يَبُثُّ أشِعَةً حَارَّة نَافِعَةً لِسُكَّانِ الأرض منافِعَ مُخْتَلِفَةً

جَلِيلَةً لحيواتهم، وجَعَلَ الْقَمَر نوراً، أي: ذَا نُور، فهو يبثُّ نُوراً بارِداً لَا حَرَارَة له، نافعاً لسُكّان الأرض.

ضِيَاءً: مصدر ضَاءَ، تقول لُغَةً: «ضَاءَ الشيْءُ يَضُوءُ ضَوْءاً وضِيَاءً» أي: نشرَ أشِعَّة حارّة تكشف الظلمات.

وجاء في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) ذكْر الشَّمس بِعُنْوان «سِرَاج» ووصْفُ الْقَمَر بأَنَّهُ منير، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

وكذلِكَ أبَانَ نُوحٌ عليه السلام لقومه، فقال الله عزَّ وجلَّ حكايَةً لِقَوْلِهِ لقَوْمِهِ في سورة (نوح/ ٧١ نزول).:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

ومعلُومٌ أنَّ السِّراجَ ذُو لَهَبٍ نَارِيٍّ، فدَلَّتْ هذه النُّصُوص علىٰ ما أثْبَتَتْهُ المعارِف الإنسانيّة الّتي جاءت متأخّرَةً من أنَّ الْقَمَر عاكِسُ نُورٍ فقط، ولَيْسَ لهُ ضِيَاءٌ ذَاتِيٌّ صَادِرٌ عنه. وأثبتَتِ المعارِف الإنْسَانِيَّةُ أنَّ الطّاقَةَ الشمْسِيَّةَ الّتي تَصِلُ إلى الأرض، هي سَبَبُ كُلِّ مَظَاهِرِ الحياة فيها، ولولا الطَّاقَةُ الشَّمسِيَّةُ لَبرَدَتْ، وَجَمدَت، ولَمَا كَانَتْ صَالِحَةً لِظُهُورِ الحيَاة عَلَيْهَا.

ولَا شَكَّ أَنَّ كُلّاً مِنَ الشَّمْسِ والْقَمَر مُسَخَّرٌ بِرَحْمَةِ اللهِ وعنايَتهِ لمصالح الأحياء على الأرض.

• ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾: أي: وقَدَّرَ فَلَكَ الْقَمَر الَّذي يَسِير فيه سابحاً فجعَلَهُ مَنَازِلَ، ضُمِّنَ فِعلُ «قَدَّر» معنى فعل «جَعَلَ» فَنَصَبَ لفظ «مَنَازِلَ» فأغْنَتِ الجملةُ عن جُمْلَتَيْن، وحُذِفَ بهَذا الإجراء مفْعُولُ «قَدَّرَ» وأُثْبِتَ مفْعُول «جَعَل».

وقد درس علماء الفَلَكِ حَرَكَة الْقَمَر في دَوْرَتِهِ الشَّهْرِيَّة حول الأرض فاكْتَشَفُوا مَنَازِلَهُ في فَلَكِهِ في السماء، ورأوا أنَّها نظام ثابتٌ مُحْكَمٌ بتَقْدِير الله.

منازل القمر عند علماء الفلك:

قالوا: منازل الْقَمَرِ صُوَر نُجُوم تَتَخَلَّلُ الْبُرُوج، وكُلُّ بُرْجٍ يَحْوِي مَنْزِلَتَيْنِ وَثُلُثاً، ويَتَنَقَّلُ الْقَمَرُ بَيْنَ هٰذِهِ النجوم بِدِقَّةٍ بمقدار (١٢,٨) درجة على وجْهِ التقريب، أي: هو يَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ في مَنْزِلَةٍ مِنْ هٰذِهِ المنَازل، ويَعُودُ إلى مَوْقِعه الأصْلِيّ بَعْدَ (٢٨) منزلَة، ثم يَسْتَتِرُ ليلة (٢٨) إذا كان الشهر (٢٩) يوماً، أو يَسْتَتِرُ ليلَةَ (٢٩) إذَا كان الشّهْر (٣٠) يوماً.

وقد سمَّى الْعَرَبُ هذه المنازل بأسماء[١]، وهي:

١ ـ الشَّرطَان	٢ ـ الْبُطَيْن	٣ ـ الثريَّا	٤ ـ الدَّبَران
٥ ـ الهَقْعَة	٦ ـ الْهَنْعَة	٧ ـ الذّرَاع	٨ ـ النَّثْرَة
٩ ـ الطَّرْف	١٠ ـ الجبهة	١١ ـ الزُّبْرَة	١٢ ـ الصِّرْفة
١٣ ـ الْعَوَّا	١٤ ـ السِّمَاك	١٥ ـ الْغَفْر	١٦ ـ الزُّبَّانا
١٧ ـ الإكليل	١٨ ـ القلْب	١٩ ـ الشَّوْلَة	٢٠ ـ النَّعائم
٢١ ـ الْبَلَدَة	٢٢ ـ سعد الذابح	٢٣ ـ سَعْد بُلَع	٢٤ ـ سَعد السُّعُودِ
٢٥ ـ سَعْد الأخْبِية	٢٦ ـ الفَرْغُ المقدّم	٢٧ ـ الْفَرْغُ المؤخّر	٢٨ ـ الرِّشاء

والوجْهُ المواجهُ للشَّمْسِ من القمر في دورتِه الشَّهْرِيَّة حوْل الأرض، يُعْطي من النور بمقدار ما يَرىٰ سُكَّانُ الأرض من هٰذا الوجه، وبهذا تظْهَر الأهِلَّة التكامليّة حتَّىٰ يَصِيرَ الْقَمَرُ بَدْراً في منْتَصَفِ الشَّهْرِ، ثم تظهر الأهلّة التّناقصيَّةُ حتَّىٰ ليلَةِ المَحَاق، التي لا يَرَى فِيها سُكَّانُ الأرض شيئاً من وَجْهِ الْقَمر المواجه للشمس، ويكونُ القمَرُ بين الشَّمْس والأرض تماماً.

ويَدُور الْقَمرُ حَوْلَ الأرض في مَدَارٍ بَيْضِيّ.

---

(١) انظر الموسوعة العربية (التقويم الهجري).

وهذا التقدير المتقَنُ المحكَمُ البديع هو من عجائب صُنْعِ الله في كَوْنه، ومن عِنَايَتِهِ الجليلَةِ بِعِبَادِهِ.

• ﴿لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَۚ﴾: أي: إنَّ توالي اللَّيْل والنهار متداوِلَيْن من فوائده عِلْمُ عَدَدِ السّنِينَ الْقَمَريّة والشمسيَّة، إذ نظام تداول اللَّيل والنهار له ارْتباطان سبَق بيانهما لدى تدبر الآية (١٢) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وكذلك سبق فيه بيان الحساب.

• ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّۚ﴾: المشارُ إِلَيْهِ باسم الإشارة «ذَٰلِكَ» كلُّ ما جاء في الآيات (٣) و(٤) و(٥) من مظاهر صُنْعِه وإتقانِهِ في كَوْنِه.

والمعنى: ما خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ في كَوْنِهِ عملاً بَاطِلاً لَيْسَ لَهُ غايَاتٌ حكيماتٌ، وما خَلَقَهُ عَبَثاً مِنَ الْعبث، بَلْ خَلَقَهُ مُتَّصِفاً بِالْحَقِّ الذي هو ضِدُّ الباطِلِ والْعَبَث.

ونُدْرِكُ مِنْ هٰذَا الْحَقِّ اشْتِمَالَ مَا خَلَقَ اللهُ على صفاتٍ دالَّاتٍ عَلَى صِفَاتِ الخالِقِ الْجَلِيلَةِ، ومِنْهَا عِلْمُهُ، واختيارُهُ الحكِيمُ، وقُدْرَتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا مَا يَشَاءُ ويختار، وإتْقَانُهُ الباهِرِ لمَا يَخْلُقُ، وإبْدَاعُهُ لما يَخْلُقُ على غَيْرِ مِثَالٍ سَبَق، إلى سائر صفاتِ رُبُوبِيَّتِهِ ووحدانِيَّتِهِ فيها، الَّتي يلْزَمُ عَنْهَا وحْدَانِيَّتُه في إلٰهِيَّتِهِ.

فَهِيَ آياتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ الْحَقَائِقِ الْإِيمَانِيَّةِ، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عباده الَّذِينَ وَضَعَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنيا موضع الامتحان أَنْ يُؤْمِنُوا بها، ووضْعُ هٰذه الآياتِ في الكَوْنِ هُوَ مِنَ الحَقِّ الَّذِي لا بَاطِلَ فِيهِ ولا عَبَث.

• ﴿.. يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ۝٥﴾ في هٰذِه الْفِقْرة يُبيّن الله عزَّ وجلَّ أَنَّ تَنْبيهَهُ عَلَىٰ آثارِ صفَاتِهِ في كَوْنِهِ بِصُورَةٍ مفصَّلَةٍ ومنها حديثه عن الشمسِ وضيائها، والقمر ونوره ومنازِله، مُوَجَّهٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهِم دافِعٌ أَنْ يَعْلَمُوا أَسْرَارَ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ، وعظيم إتْقَانِهِ لما خَلَق، رغْبَةً في إدْرَاكِهِمْ الحقَّ

الّذي يُكَلّفُهُم اللهُ أن يُؤْمِنُوا بِهِ، فإذَا آمَنُوا إيماناً صادقاً أَسْلَمُوا لَهُ، واجْتَهَدُوا في اتِّباعِ أوامره ونواهيه ووصَايَاهُ، والْعَمَلِ بشرائِعِهِ، على مقادير استِطَاعَاتِهِم، وتغلُّبِهِمْ عَلَى أهوائِهم وشهواتِهم وغرائِزهم الضاغِطَةِ على إراداتهم.

قوله الله تعالى:

﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾.

اختلاف اللّيل والنَّهار هو تَضَادُّهما في الظُّلْمَةِ والضِّياءِ، وفي كُلٍّ من هٰذَيْنِ المتضادَّين منافِعُ جَلِيلَةٌ لِسُكَّانِ الأَرْضِ، يُدْرِكُهَا كُلُّ ذِي فِكْرٍ يَتعاقَبُ في حياتِهِ اللَّيْلُ النَّهار، إذْ يَنْتَفِعُ فِي ضِيَاءِ النَّهارِ بِمَنَافِعَ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ الانْتِفَاعُ بِهَا فِي اللَّيْلِ، وَيَنْتَفِعُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ بمنافع لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ الانتفاع بها في النهار.

ففي عبارة: ﴿إِنَّ فِي ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضافَةُ تَفْصِيلٍ إلَىٰ مَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ من آيات الله في الكَوْن.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وفي كُلِّ مَا خَلَقَ اللهُ في السَّمَاوَاتِ، مَهْمَا امْتَدَّتْ أبْعَادُها، ممَّا يَسْتَطِيعُ المخْلُوقُونَ في الأرض إدْراكه، وفي كُلّ ما خَلَقَ اللهُ في الأرض كذَلِكَ.

﴿.. لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾: أي: لَعَلَامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَى عَظِيم قُدْرَةِ الله جَلَّ جَلالُه، وعلَىٰ عظيم عَدْله، وهٰذه الآيات يَنْتَفِعُ بدَلَالَاتِهَا الْعُقَلاءُ، الَّذِينَ يَسْتَبْصِرُونَ الأشياءَ الَّتي تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا عُقُوبَاتٌ رَبَّانِيَّةٌ مُؤلِمَاتٌ مُوجِعَاتٌ، فَيَتَّقُونَها، ويَجْتَنِبُونها، مَخَافَةَ أَنْ تُسَبِّبَ لَهُمْ عُقُوبَاتِ رَبِّهم، الَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلى اقترافهم لها، لما فيها من مَعْصِيَةٍ للهِ جَالِبَةٍ لسَخَطِه وَنِقْمَتِهِ وعُقُوبَتِهِ.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾.

في هذه الآياتِ بيانُ لقْطَة عامَّةٍ من جَزاءِ الَّذِينَ كَفَرُوا، ولقَطاتٍ من جزاء الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات، وفي كُلٍّ مِنْهُما مُتابَعَةٌ لِمَا جَاءَ في الآية الرَّابِعَةِ، بَعْدَ فَاصِلٍ عَرَضَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيه بَعْضَ آياتِه في كَوْنه، ويَدُلُّنا هٰذَا الإجراء على أَنَّ مِنَ الحِكْمَةِ الدَّعَوِيَّةِ التَّنَقُّلَ التراوُحِيّ بَيْنَ الإِقْنَاعِ الفكريِّ بِالْحَقِّ، والتَّرْغِيبِ والترهيبِ لاسْتِثَارة مِحْوَرَي الطَّمَعِ والْخَوْفِ داخِلَ النفس.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾: أي: إِنَّ الَّذِينَ لا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَ رَبِّهِمْ يَوْم الدِّين لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَنْفِيذِ الجزاء بالثواب أو بالعقاب.

الرَّجاء: هو مُطْلَقُ التَّوَقُّعِ للمرغُوبِ فيه، أو للمخوف منه.

وسَبَبُ عَدَمِ تَوَقُّعِ هٰؤُلاء لقاءَ رَبِّهِمْ شِدَّةُ تَعَلُّقِهِمْ بالحَيَاةِ الدُّنيا، مع تَكذِيبِهِمْ بنبأ الجزاءِ الرَّبَّاني يَوْمَ الدِّين، الَّذي أنبأَتْ بِهِ نُصُوصُ كِتَابِ اللهِ المجيد، وأقوالُ رَسُولِهِ الكريم ذي الخُلُق العظيم، وتتابَعَتْ على بيانه رسالات الأنبياء والمرسلين.

• ﴿وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: أي: واكْتَفَوْا لمطالب نُفُوسِهِمْ بمَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، فلَمْ تَرْتَقِ إلَى التَّعَلُّقِ بالسَّعَادَةِ الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النَّعِيمِ يَوْمَ الدِّين.

• ﴿وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا﴾: أي: وكانُوا في غايَةِ السُّكُونِ والارتياح والخُلُوِّ

مِنَ الْقَلَقِ والاضْطِرابِ لما يُصِيبُونَهُ من مَتَاعِ الحياة الدنيا ولذَّاتِهَا وزيناتها.

• ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧﴾: أي: وكانَ مِنْ تأثير عَدم تَوَقُّعِهِم لقاءَنَا يَوْمَ الدين، ورِضَاهُمْ بالحياة الدُّنيا، واطْمِئْنَانِهِم بها، أَنْ غَفَلُوا غفْلَةً تَامَّةً عَنْ إدْرَاكِ آيَاتِنَا الكَوْنِيَّة، وآياتِنا الإعجازِيَّة، وآياتِنا الجزائِيَّة، وآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّة الَّتي أنْزَلْنَاهَا فِي كِتَابِنَا.

وهُنَا يَكْتَشِفُ المتَدَبِّرُ مَطْوِيّاً هو نَتِيجَةُ هٰذِهِ الأمُور، وهو أَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَكْفُرُوا بِرَبِّهِمْ، ويَجْحَدُوا الحقَّ الَّذِي كَلَّفَهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا به، وأَنْ تَكُونَ مُكْتَسَبَاتُهُمْ الإرَادِيَّة فِي الحياة الدُّنيا عَلَى خلاف أوامر الله ونواهيه ووَصَايَاهُ لعباده، وشرائِعِه الَّتي أنْزَلَهَا لبيان مواد ابتلائهم في ظروف امتحانهم في الحياة الدنيا.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٨﴾: أي: أولـئـك البُعَدَاء عَنْ رَحَمَاتِ اللهِ المتَسَفِّلُون، سَوْفَ يَكُونُ مَكَانُهُمْ وَمَنْزِلُهُمْ الَّذِي يأْوُونَ إِلَيْهِ يَوْمَ الدِّينِ بالقضاء الرَّبَّانِي دَارَ العذاب النّار، بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ مِنْ جَرَائِمَ كُبْرَىٰ وَآثامٍ، في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

أُشِيرَ إِلَيْهِمْ باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، للدَّلالَةِ علَى أَنَّهُمْ بُعَدَاءُ عن رَحْمَةِ اللهِ في أوْدِيَةِ الانْحِطَاطِ العميق، في اتِّجَاهِ سَحِيق أسْفَلِ سافِلِينَ.

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: جاء البيان عن الذينَ آمَنُوا مَفْصُولاً غَيْر معطوفٍ بالواو للإشعارِ بكمال الانقطاع بَيْنَهُمْ وبين الذين كَفرُوا، ولَوْ كَانَ عُنْوانُ الجزاءِ عُنْواناً عَامّاً شاملاً للجزاء بالثواب والجزاء بالْعقاب. وأُخِّرَ بيان ثَوابِهِمْ هُنَا على عَكْسِ مَا جَاءَ في الآية (٤) للتَّنْوِيعِ في التَّرْتِيب، ولختم الدَّرْس بالترغيب.

أي: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً صَادقاً، وعَبَّرُوا عن إيمانهم الصحيح الصادِقِ، بأَعْمالٍ إرادِيَّة صالِحَةٍ فِي السُّلُوك النَّفْسِيِّ وفي السُّلُوكِ

الْجَسَدِيِّ الظَّاهِرِ. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: وعملوا المكتَسَبَاتِ الصالحاتِ بإرادتهم.

• ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾: أي: يَحْكُمُ لَهُمْ رَبُّهُمْ يَوْمَ الدِّينَ في مَحْكَمَةِ الحسَابِ وفَصْلِ القضاء، بأَنَّهُمْ كَانُوا فِي الحياةِ الدُّنيا مَهْدِيّين بِإرَادَاتِهِمُ الحرَّة، وذٰلِكَ بِسَبَبِ إيمانِهِم الإرادِيِّ الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، الَّذِي عَبَّرُوا عَنْ صِدْقِهِمْ فِيهِ بأَعْمَالٍ صَالحة.

• ﴿.. تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ قَدَّمَ هٰذا الْبَيَانُ لَقْطَةً تَصْوِيرِيَّةً مِنْ لَقَطاتِ ثَوَابِهِمْ يَوْمَ الدِّينِ وهُمْ فِي جَنَّاتِ النَّعيم، أي: إنَّهُمْ يَكُونُونَ فِي قُصُورِهِمْ أو عَلَى شُرُفَاتِهَا، مُنَعَّمِينَ بِمَا هُوَ فَوْقَ أمانِيهِم، وتَجْرِي مِنْ تَحْتِ قُصُورِهِمْ أنواعُ الأنْهَارِ الَّتِي جَاء وَصْفُها فِي غَيْرِ هٰذَا النَّصِّ.

جُمِعَتِ «الْجَنَّاتُ» نظراً إلىٰ الأَجْزاءِ الْعُظْمَىٰ الّتي تَشْتَمِلُ عليها دار المتَّقِين يوم الدّينِ، والأقْسَامِ الّتي يُطْلَقُ على كُلّ قِسْمٍ منها «جَنَّة» إذْ هو مسْتَوْفٍ لكُلِّ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ الموجُود في كُلِّ الدّار.

وأطْلِقَ لَفْظُ «النَّعِيم» لأنّ هذا اللَّفظ هو المخَصَّصُ لِلَذَّاتِ يَوْمَ الدِّين، أمّا ما في الدُّنيا من لذَّاتٍ على اختلافها فاللفظ المخصَّصُ لها «متاع» لأنَّ المتاع هو مَا يُنْتَفَعُ بِهِ مُؤَقّتاً وَمَصِيرُهُ إلى الزّوال.

• ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾: **دَعْوَاهُمْ**: أي: دُعَاؤُهم، الدَّعْوَىٰ مَصْدَرٌ كالدُّعاء وهو النداء. **سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ**: أي: تَنْزِيهاً لَكَ يَا أَللَّهُ من كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِجَنابِكَ وعظيم سُلْطَانِكَ وكمالِ صِفَاتِكَ.

﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾: أي: والتَّحِيَّةُ الّتي يُحَيَّوْن بها من قِبَلِ الملائكةِ والوِلْدَانِ المخلّدين وغيرِهم من أهْلِ الجنَّةِ عِبارَةُ «سَلام». أي: لَكُمُ الأَمْنُ

الدَّائِمُ فِي كُلِّ مَا تُحِبُّونَ وَتَتَمَنَّوْنَ وَتَشْتَهُونَ وَتَتَنَعَّمُونَ به، مع السَّلامَةِ من كل مَا تَكْرَهُونَ وَلَوْ أَدْنَىٰ كراهِيَة.

• ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وآخِرُ دُعَائِهِم الّذي يَدْعُونَهُ رَبَّهُمْ أَنْ يَقُولوا: الحمدُ للهِ رَبّ العالَمِينَ.

وقد سَبَقَ تَحْلِيلُ عبارة الحمْدِ هٰذهِ مَرَّاتٍ.

الدُّعاء: يُطْلَقُ في الْقُرْآنِ عَلَىٰ كُلِّ ذِكْرٍ وَتَسْبِيحٍ للهِ عزَّ وجلَّ، ولو لَمْ يَقْتَرِنْ بِطَلَبٍ وسُؤَالِ حاجَة، لأنَّ مَنْ شَغلَهُ ذِكْرُ اللهِ عَنْ مَسْأَلَتِهِ، أَعْطاهُ الله مِنْ فَضْلِهِ أَفْضلَ مَا يُعْطِي السَّائِلِينَ، وأَهْلُ الْجنَّةِ يَأْتِيهِمْ مَا يَتَمَنَّونَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَسْأَلُوا، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَذْكُرُوا اللهَ مُسَبِّحِينَ حَامِدِينَ بأَعْظَمِ عِبارَاتِ الحمد.

«أَنْ» في عِبَارَةِ ﴿أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَفْسِيرِيَّة، أوْ هي المخفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَة. كِلَا الاحْتِمَالَيْنِ جائِزَانِ نَحْوِيّاً، ومَقْبُولان فِكْرِيّاً.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس سورة (يونس).

والحمدُ لله على معونَتِه ومَدَدِه وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



(٥)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (يونس) وهو الآية (١١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾.

وفي قراءة ابن عامر: [لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجَلَهُمْ] الفاعل ضمير يَعُود على لفظ الجلالة، وقراءة الجمهور بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه.

والقراءتان متكافِئتان، وهما من التَّفَنُّنِ في التعبير.

في هذه الآية متابَعَةٌ لما جاء في الآية (١١) من سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول اللهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

وسبَقَ أَنْ ظَهَرَ بالتَّدبُّر أنَّ معنَىٰ هٰذِهِ الآية هو كما يلي:

ويَدْعُو الإنْسَانُ بِالشَّرِّ فِي حقيقَةِ الأمْرِ الْخَافِيَةِ عَلَيْه، دُعَاءَهُ بالْخَيْرِ الَّذِي يَتَهَيَّأُ لهُ بِتَعَجُّلِهِ وَقِصَرِ نَظَرِهِ وَعَدَمِ شُمُولِ مَعْرِفَتِهِ، والسَّبَبُ كَوْنُهُ عَجُولاً يَتَّبِعُ أَهْوَاءَهُ وَشَهَوَاتِهِ فَيُلْقِي ذَلِكَ غِشَاوَةً عَلَى بَصِيرَتِهِ.

وسَبَقَ التحليلُ الإعرابيُّ لهذا التعبير الَّذِي جاء فِي هٰذه الآية.

وجاءَتِ المتابَعَةُ في آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ من دُرُوسِ سورة (يونس/ ٥١ نزول) ببيان الحكمة من عَدَمِ تَلْبِيَةِ اللهِ دُعَاءَ الإنْسَانِ مَا يَدْعُو بِهِ مِنْ شَرٍّ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ وَهُوَ يَحْسَبُهُ خَيْراً عَظِيماً لَهُ.

فالمعنى الَّذِي يَحْسُنُ أَنْ نَفْهَمَهُ مِن هٰذِهِ الآية هو كما يلي:

إِنَّ الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسَمَتْ حِكْمَتُه ـ لا يَسْتَجِيبُ للنَّاسِ كُلَّ مَا يَسْأَلُونَ رَبَّهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنْيَا، مُسْتَعْجِلِين فِيهَا حظوظَهُم من اللَّذَّاتِ ومُرْضِيَاتِ الأهْوَاءِ والشَّهواتِ والْغَرَائِز، وحُبِّ التكاثُر والتَّفَاخُر والْعُلُوِّ فِي الأَرْض، لأنَّهُمْ يَسْتَعْجِلُونَ ما هو شرٌّ لَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَهُمْ، إِذْ طَبَائِعُ نُفُوسِهِمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَتَجْعَلُهُمْ يَطْغَوْنَ وَيَبْغُوْنَ فِي الأرض، إذَا نَالُوا كلَّ مَطَالِبِ نُفُوسِهِم فيها.

ولَوْ يُعَجِّلُ اللهُ للنَّاسِ هٰذِهِ الحظُوظَ الَّتِي هِيَ شَرٌّ لَهُمْ فِي حَقِيقَةِ الأمْرِ وهم يَحْسَبُونَها خَيْراً، لَطَغَوْا وَبَغَوْا في الأرْضِ ولأَفْسَدُوا إفْسَاداً عَرِيضاً جدّاً، وعِنْدَئِذٍ تَقْضِي الْحِكمَةُ الرَّبَّانِيَّةُ أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً شامِلاً عامّاً، قَبْلَ أَنْ يَنْتَهِيَ أَجَلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لابْتِلائِه في رِحْلَةِ امْتِحانِهِ، وهو الأجَلُ المقدَّرُ له، وعِنْدَئِذٍ يُنْهَىٰ إلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فِي الحياة الدُّنيا بقَضاءٍ وَقَدَرٍ حَكِيمَيْن، إذْ يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَاب.

لكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَا يُعَجِّلُ للنَّاس كُلَّ مَا يَطْلُبُونَ من مَتَاعِ الحياةِ الدنيا وزينَاتِها، بَلْ يَسْتَجِيبُ مِنْ مَطَالِبِهِمْ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بما فَطَرَ عَلَيْه كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، ويُعَامِلُهُمْ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَة (الإسراء/ ٥٠ نزول):

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾.

أمّا مَنْ يُعَجِّلُ اللهُ لَهُمْ وافراً مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيا وزيناتِها، بحَسَبِ عِلْمِهِ بطبائِعِ نُفُوسِهِمْ، وحِكْمَتِهِ فِي ابْتِلَائِهِم، فالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ مِنْهُمْ لِقَاءَ رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ، فإنَّ الله ـ جَلَّتْ حِكْمَتُه ـ يَتْرُكُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ بِمَا آتاهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنْيا وَزِينَاتِها يَعْمَهُونَ.

الْعَمَهُ: انْطِمَاسٌ فِي الْبَصِيرَة، مُنَاظِرٌ لِلْعَمىٰ فِي الْبَصَرِ.

وقَدْ دَلَّتِ النُّصُوصُ القرآنية على أنّ كُلَّ اخْتِيَارَاتِ اللهِ وتصارِيفهُ في كونِه حكيمة، وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبر التحليلي للدرس الثالث من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١٢ - ١٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [رُسْلَهُمْ] بإسْكان السين، وهما لغتان عربيتان.

تمهيد:

في هذه الآيات متابَعَةٌ ذَاتُ إضافَات لِمَا جاء في الآيات من (٦٧ - ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول الله عزَّ وجلَّ فيها خطاباً للناس:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾.

والإضَافَاتُ التي جاءت في آيات سورة (يونس/٥١ نزول) تَصِفُ حَالَ الإنسان إذا مَسَّهُ الضرّ، إذْ يَدْعُو رَبَّهُ في أيَّة حالة يكون عَلَيْها، فإذَا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ ضُرَّهُ أَعْرَضَ عَنْ رَبِّهِ، ونَسِيَ حَالَتَهُ السابقة معه، وجاءت فيها المعالجة للكافِرينَ بالتَّلْويحِ بإنذارِهِمْ بالإهْلَاكِ العام الشَّامِلِ، كما

أَهْلَكَ اللهُ كُفَّارَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِهِمْ لَمَّا ظَلَمُوا، وَبِبَيَانِ أَنّ سُنَّتَهُ تَعَالَى ثَابِتَةٌ تَشْمَلُ جَمِيعَ المجرمين.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

الْمَسُّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ على وُصُولِ سَطْحِ الشيء، إلَى سَطْحِ الشيءِ الآخر، دون الدُّخُولِ في شيء تَحْتَ السَّطْح.

الإنسان: المراد به هُنَا الإنْسَانُ الْمُسْرِفُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بارْتكاب المعاصي، بدَليل قوله تعالىٰ في آخِرِ الآية: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وَيَنْطَبِقُ على فِئَةٍ من المشركين المعنيين بالمعالجة والخطاب.

الضُّرُّ: سُوءُ الحالِ في الْبَدَنِ أَوِ المالِ أو الولَدِ والأهل، ونَحْو ذلك، و(ال) للجنس، أي: ضرٌّ ما.

دَعَانَا: أي: سَأَلَنَا مُتَذَلِّلاً لِنَكْشِفَ عَنْهُ مَا مَسَّهُ من ضرّ.

لِجَنْبِهِ: أي: حَالَة كَوْنِهِ مُلْزِماً لجَنْبِهِ فِرَاشَهُ من ضُرٍّ نَزَلَ بِهِ.

الْجَنْبُ: من الإنسان شِقُّهُ الأيْمَنُ أو الأيْسَر، والمضطجعُ يجعلُه على الأرضِ أو الفراشِ لراحَتِه، جاء الْبَدْءُ بهذا لأنَّهُ أشَدُّ الأحْوال.

أو قاعداً: أي: أو حالَة كَوْنِهِ قاعداً، غَيْرَ مُحْتَاج لأنْ يضطجع.

أو قائماً: أي: أو حالَة كَوْنِهِ قَائماً لأنَّ ضُرَّهُ قَدْ لَا يكون متعلقاً بجَسده فيُقْعِدَه أو يُضْجِعَهُ.

فَلَمَّا: أي: فَحِينَ، وهي ظرفية، وتختص بالماضي، وتحتاج جواباً لما فيها من معنى الشرط.

كَشَفْنَا عَنْهُ: أي: أَزَلْنَا عَنْهُ، بِضَميرِ المتكَلِّمِ العظيم، **كَشْفُ الضَّرِّ**: رُفْعُه وإزالَته.

زُيّنَ: التزيينُ: التحْسِين والتجميل.

للمُسْرِفِين: أي: للمتَجَاوِزِينَ حَدَّ الحقّ، أو الحِكْمَةِ، أو ما يَقْتَضِيه الْعَقْلُ الرَّاجِح.

المعنى: وإِذَا مَسَّ الإنْسَانَ ذَا الإسْرَافِ عَلى نَفْسِهِ من دركة أخف الشرك ضُرٌّ ما بقضاء الله وقَدَرِه، دَعَا رَبَّه في مختلِفِ أحْوَالِه، مُؤْمِناً بأَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضُّرَّ عَنْهُ إلَّا هُوَ، سَوَاءٌ أكان قَدْ أَضْجعَهُ الضُّرُّ، فَجَعلَهُ يُلْزِمُ جَنْبَهُ فِرَاشَه، أو أَقْعَدَهُ، أو كان ضُرّاً غَيْرَ مُضْجِعٍ وَلَا مُقْعِد، بَلْ يَجْعَلُ الإنْسَانَ قَائِماً يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مُتَضَرّعاً يَقُولُ: يَا رَبّ يَا رَبُّ، سائلاً أَنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُ مَا مَسَّهُ مِنْ ضُرٍّ، فكَيْفَ بِهِ لَوْ كَان الضُّرُّ داخِلاً إِلىٰ عُمْقِه ومُنْزِلاً بِهِ أَلَماً شَديداً؟!

وعَقِبَ أَنْ يَسْتَجِيبَ الله دُعَاءَهُ بعظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَكْشِفَ عَنْهُ مَا مَسَّهُ من الضُّرّ، يُعْرِضُ عَنْ رَبِّهِ، وَيَمُرُّ في حَيَاتِهِ لقضاءِ شهواته ولذّاتِهِ وَمَصالِحه ومَنافِعِه ومَتَاعَاتِهِ مِنْ دُنْيَاهُ، كَأَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ لَهُ أَنْ دَعَا رَبَّهُ إِلَىٰ كَشْفِ ضُرٍّ قَدْ مَسَّهُ.

إِنَّهُ يَرَىٰ بِسُوءِ تَقْدِيرِه، واستجابَتِهِ لِوَسَاوس الشيطان، أنَّ اهتمامه بنفسه فقط وانْشِغَالَهُ بِمَتَاعِهِ مِن الحياة الدُّنيا أَمْرٌ حَسَنٌ جميلٌ، يُحقّقُ لَهُ لذَّاتِهِ وما يَهْوَىٰ مِنْ دُنْياه، مَعَ أَنَّ عَمَلَهُ بَالِغُ القُبْحِ لِمَا فِيهِ من اسْتِهَانَةٍ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِن حَمْدٍ وَشُكْرٍ لِرَبِّهِ عَلَى مَا أَوْلَاهُ مِنْ فَضْلِهِ، ولما فِيه مِنْ إِعْرَاضٍ عَنه، وقد كان قد التجأ إليه في حالة الضرّ الّذي مسّه.

﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٢﴾ ونَظِيرُ دَاءِ تَزْيِين الْقَبِيح الَّذِي يُصَابُ بِهِ هذا الإنْسَان في نَفْسه، يَكُونُ لسائِرِ المسْرِفِين المتجاوزين حُدُودَ الحقّ والخير والفضيلة، في مفْهُومَاتِهِمْ وفي جميع أنواع مُكْتَسبَاتِهِمُ الإراديّةِ من أعمال نَفْسِيَّة وَجَسَدِيَّةٍ، إذْ تُزَيِّنُها وَتُحَسِّنُهَا لَهُمْ أهْوَاؤُهُمْ وَوَسَاوِسُ شياطِينهم.

وَبَعْدَ وَصْفِ هذا الصِّنْفِ المَعْنِيّ بالْبَيَانِ، اقْتَضَتِ الحكْمَةُ مُعَالَجَةَ نُفُوسِهِمْ بالتَّلْوِيحِ بالْعِقَابِ المُعَجَّل، كما أهْلَكَ اللهُ ظَالمي الْقُرُونِ السَّابقة. فقال الله تعالى مُخَاطِباً لهم:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٣ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ۝١٤﴾.

يؤكِّدُ اللهُ لَهُمْ بعِبَارَة «لَقَدْ» أَنَّهُ أَهْلَكَ بعظمة رُبوبيّته الّتي دَلَّ عليها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، إهْلاكاً عَامّاً شاملاً الْقُرُونَ من الناس الَّذِين ظَلَمُوا وأصَرُّوا عَلَى ظُلْمِهِمْ، بِكُفْرِهِمْ وطغيانهم وإفْسادِهم في الأرض، وقد جاءتْهُمْ رُسُلُهُمْ من رَبّهم مَصْحُوبِينَ بالْبَيِّنَاتِ الجليّات، الشَّامِلَاتِ لِبَيِّنَاتِ إثْبَاتِ نُبُوَّاتِهِمْ ورسَالاتهم، وللحجَج والبراهين بشَأن الْقَاعِدَةِ الإيمانية، والتطبيقاتِ الإسلاميَّة، والشامِلَةِ للنُّصُوصِ الكلاميَّةِ المنزَّلَةِ من رَبِّهِمْ والمطلُوبِ مِنْهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا بما جَاءَ فيها وَيَتَّبِعُوا تَعْلِيمَاتِها.

وَمَا كَانُوا مُسْتَعِدِّين لِأَنْ يُؤْمِنُوا بإراداتهم الحرَّة مَهْمَا أُمْهِلُوا، لانطِمَاسِ بَصَائِرِهِم بما أَلْهَاهُمْ عَن الحقِّ والْهُدَىٰ من التعلُّق الكامل بزيناتِ الحياة الدنيا، وأَهْوَائِهِمْ وشهواتهم منها، فانْحَدَرُوا بذَلِكَ إلى الدَّرَكَةِ الَّتي يُوصَفُ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهَا بأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ.

ولَمَّا كَانت سُنَّةُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ في عبادِه وَاحِدَةً، فما أجْرَاهُ لِلْمُجْرِمِينَ

السَّابقين من إهلاكٍ شَامِلٍ سَيُجْرِي نظيرَه لِكُلّ الْمُجْرِمِينَ الَّذِينَ يَتَتَابَعُونَ في الْعُصُورِ ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

وخاطبهم اللهُ عزَّ وجلَّ بعد هذا التَّلْوِيح بالإهلاك بقوله:

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

خلائف: جمع «خَلِيفَة» يكون بمعْنَىٰ «فاعل» ويكون بمعنى «مفعول» وهو مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ فيَحُلُّ مَحَلَّه، إذا كان بمعنى اسم الفاعل، ومَن يَخْلُفُهُ غَيْرُه فيَحُلُّ محلَّه إذا كان بمعنى اسْم المفعول.

أي: ثمَّ بَعْدَ حينٍ من الزّمن توالَدَتْ أجيالٌ وَجَعَلْنَاكُمْ حَالّين في أماكِنِ المهْلَكِين السَّابقين، فَصِرْتُم بِجَعْلِنَا لَكُمْ خَلَائِفَ في الأرض من بَعْدِهم، لِتَقْضُوا رِحْلَةَ امتِحَانِكُمْ بِحَسَبِ آجالِكُمْ المقدّرَةِ لكم، وخِلَالَ مُدَّةِ امْتِحَانِكُمْ نَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، وَنُسَجِّلُ عليكم أعمالَكُمْ، لِنُحَاسِبَكُمْ عَلَيْهَا يَوْمَ الدّينِ، وَلِنَقْضِيَ بَيْنَكُمْ، ولنُجَازِيَكُمْ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ بِحَسَبِ قَضَائِنَا فِيكُمْ عَادِلِينَ أَوْ مُتَفَضِّلِينَ.

﴿لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾: أي: لنَنْظُرَ أعْمَالَكُمْ علىٰ أيِّ حالٍ تكُونُ في دَرَجَاتِ الخير أَوْ دَرَكَاتِ الشّر.

وجاء في العبارة استعمال فِعْل «نَنْظُر» للدَّلَالَةِ على أَقْوَى وسائل الإدْرَاكِ الحسِّي الشُّهُودِيّ، وهُوَ الإدْرَاكُ بالرُّؤْيَةِ البصريّة، ويُحْمَلُ فِعْلُ «نَنْظُر» أيضاً على الإدْرَاكِ العِلْميّ، فيكون الفِعْلُ شاملاً للمُشَاهَدَةِ البصريّة، والإدْرَاك العِلْمِيّ، كإدْراك النّياتِ والأفكار وحَرَكَاتِ النفوس الإرادِيَّة.

وبهذا يتمُّ تَدَبُّر الدَّرْس الثالث من دروس سورة (يونس).

والحمد لله على معونته ومدَدِه وفتحه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُروس سورة (يونس) وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآىِٕ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

قرأ الجمهور: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ بالنفي، وقرأ البزّي عن ابن كثير [**وَلَأَدْرَاكُمْ بِهِ**] بالإثبات، وبَيْنَ القراءتَيْن تكاملٌ في أداء المعنىٰ المراد، سيأتي إن شاء الله لدى التدبُّر بيانه.

تمهيد:

في هذا الدرس مُتابَعَةٌ لِمَا جاءَ في الآية (٧٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي قول الله عزَّ وجلَّ فيها خِطاباً لِرَسُوله ﷺ:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾﴾.

وفي هذه المتابعة يُعَلّم اللهُ عزَّ وجلّ رسُولَهُ، مَا يَرُدُّ به عَلَى الَّذِينَ يُطَالِبُونَهُ بِأَنْ يأْتِي بقرآنٍ آخرَ يُوافِقُ أهواءهُمْ غَيْرِ هٰذَا القرآن الَّذِي يَتْلُو من آياتِهِ عَلَيهِمْ، إِذْ يَتَعرَّضُ لِشِرْكيَّاتِهم وقبائحهم بِبَيَانِ أَنَّها باطِلٌ، وَيَتَعرَّضُ لِتَلْوِيمِهِمْ وتَثْرِيبِهِمْ عَلَىٰ تَمَسُّكِهِمْ بِالْبَاطِلِ، فِي مُعْتَقَدَاتِهِمْ، وبما فِيهِ ظُلْمٌ وَبَغْيٌ وَطُغْيَانٌ وَفِسْقٌ وَفُحْشٌ في أَعْمَالهم واختياراتِهِمْ السُّلُوكِيَّة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ... ﴿١٥﴾﴾.

أي: وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَى المبَلَّغِينَ في بِيئَةِ الرَّسُول ﷺ، وهِيَ البيئَةُ الْمَكِّيَّةُ يَوْمَئِذٍ آياتُ الرَّبِّ الْجَلِيل العظيم، حَالَةَ كَوْنِهَا بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ جَلِيَّاتٍ، هادِيَاتٍ إلى الحقّ والخير والرُّشْد، وأدْرَكَ الَّذِينَ لَا يَخْشَوْنَ عِقَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّين لِأَنَّهُمْ لَا يَتَوَقَّعُونَ لِقَاءَه، ولَا مُحَاسَبَته لَهُمْ، وفَصْلَ قَضَائِهِ فِيهِم، ومُعَاقَبَتَهُ لهم، ما فيها من تثريب لَهُمْ، وَتَقْبِيحٍ لشركيَّاتِهم ولَوَازِمِهَا في سُلُوكِهِمْ النفسيّ والْجَسَدِيّ، قالُوا للرَّسُول ﷺ: ائْتِ بقُرْآنٍ غَيْرِ هٰذا الْقُرْآن، أَوْ بَدِّلِ الآيات الَّتِي تَسُوؤُنا بآيَاتٍ أُخْرَى غَيْرِها.

ومُرَادُهم أنْ يأتِيَ بقرآنٍ يوافِقُ أهْوَاءَهُمْ، أَو يُبَدِّلَ مَا يَسُوؤُهم من آياتِهِ بآياتٍ تُرْضِيهِمْ إذْ تُوافِقُ أهْوَاءَهم ومُعْتَقَدَاتِهم وأنْوَاعَ سُلُوكهم الباطل، أَوْلَا تَتَعَرَّضُ لِمَا يَسُوؤُهُم، فيأتي بحكايات وقصصٍ تسَلّيهم وتُمْتِعُهُمْ بغرائبها وآدابها.

فقال الله لرسوله ﷺ:

• ﴿..... قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾:

أي: قُلْ لَهُمْ إنَّ هٰذَا القرآن مِنْ كلام رَبِّي، ولَيْسَ شيءٌ هو مِنْهُ مِن عِنْدِي ولا من تأليفي ولا من صُنْعي ولا مِنْ قَوْلِي، فَلَيْسَ باسْتِطَاعَتِي أَنْ أُبَدِّلَ مَا أَتْلُوهُ مِنْهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِي، لِأَنَّ رَبِّي لَا يُمَكِّنُنِي مِنْ ذٰلِكَ، فَهُوَ لَا يُوجَدُ فِي الْوَاقِع، أَنَا مَا أَتَّبِعُ في تِلَاوَةِ الْقُرآنِ إلَّا ما يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ قِبَلِ رَبِّي، ولَوْ حَاوَلْتُ تَبْدِيلَ شيءٍ مِنْهُ أكُونُ عَاصِياً لِرَبِّي، لِأَنَّهُ لَمْ يأْذَنْ لِي

بذلك، وإنّي أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْم عَظِيم، لأنّ هذا التبديلَ افتراءٌ عَلَيْهِ، وهو من الجرائم العُظْمَى الّتِي لَا تُغْفَر، إذْ هُو مِنْ أشدّ أنواع الظُّلم.

• ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾: أي: ما يَحْصُل لي هذا التَّبْدِيلُ من جِهَةِ نَفْسِي، لأنَّنِي لَا أَسْتَطِيعُهُ، فأنَا غَيْرُ مُمكَّنٍ مِنْهُ، وَمَا لَسْتُ مُمكَّناً مِنْهُ لَا يَكُونُ فِي الواقع.

التِّلْقاء: مَصْدَرٌ كَاللِّقَاءِ، أو اسم مَصْدَرٍ لِلِّقَاءِ، كما قال ابْنُ سِيدَه.

وتوسَّع العربُ في استعمال كلمة «تِلْقَاء» فاستَعْمَلُوهَا ظَرْفَ مكان بمَعْنَىٰ جِهَةِ اللِّقاء والمقابلَة، ونَصَبُوها عَلَىٰ الظّرْفِيَّة.

• ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ﴾: أي: ما اتَّبِعْ في تِلَاوَتِي لِآيَاتِ القرْآن إلَّا يُوحِيهِ رَبِّي إِلَيَّ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْهُ ولا حَرْفٌ واحِدٌ هُوَ مِنْ عِنْدِي.

ولَمْ يأْذَنْ لِي رَبِّي أَنْ أُضِيفَ أَوْ أَحْذِفَ أَوْ أُبدِّلَ شَيْئاً من كلماتِهِ أو حُرُوفِهِ، بلْ حَرَّمَ عَليَّ ذَلِكَ تَحْرِيماً مُشَدَّداً، وَجَعَلَهُ مِنَ الجرائم العظمىٰ. في هذه العبارة قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو من قبيل القصر الإضافي.

• ﴿.. إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾: أي: إنّي أخاف إنْ عَصَيْتُ رَبِّي بالإضافَةِ أو الحذف أو التَّبْدِيل في آيات كتابه عَذَابَ يَوْم عظيم، هو عذابُ يوم الدِّين، فاعْلَمُوا أنَّهُ لَنْ تَكُونَ مِنِّي هذه المعصية العظمَىٰ، بدَلَالةِ استعمال حَرْفِ «إنْ» الشرطيّة.

روي عن مجاهد، أنَّ مِن الذين قالُوا للرسول ﷺ ما ذَكَرَهُ القرآن ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ عبْدَ اللهِ بْنَ أُمَيَّة، والْوَلِيدَ بْنَ المغيرَة، وَمِكْرَز بْنَ حَفْص، وعَمْرَو بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي قَيْسٍ، والْعَاصَ بْنَ عَامر، وأنَّهم قالوا للنبيِّ ﷺ: ائْتِ بقرآن لَيْسَ فيه تَرْكُ عبادة الأصنام، اللَّاتِ، والْعُزَّى، ومَنَاة، وهُبَل، ولَيْسَ فيه عَيْبُها.

وقال الله عزّ وجلّ لرَسُوله أيضاً:

• ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

وفي قراءة البزّي عن ابن كثير في إحْدىٰ رِوايَتَيْنِ عنه **[وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ]** بالإثبات.

في هٰذِهِ الآية مُتابَعَةٌ لِمَا جَاء في الآية (١٥) من تعليم الرّسُول ﷺ وُجُوهَ الرُّدُودِ الإقناعيَّةِ لمطالَبَتِهم بِتَبْدِيلِ القرآن.

الْمَعْنَى: لَوْ شَاءَ اللهُ أَنْ لَا أَتْلُوَهُ عَلَيْكُمْ لَمَا أَوْحَىٰ بِهِ إِلَيَّ، وَلَمَا أَمَرَني بتَبْلِيغِهِ وتِلَاوَتِهِ عَلىٰ النَّاس، فَمَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ، وَلَا أَعْلَمَكُمْ بِهِ بِوَسِيلَةِ تَبْلِيغي، بِمُقْتَضَىٰ قِرَاءَة الْجُمْهُورِ: ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾.

ولَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْلَمَكُمْ بِهِ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ وَسِيلَةِ تَبْلِيغي، فالكِتَابُ كِتَابُهُ وَالأَمْرُ أَمْرُه، دَلَّتْ عَلى هٰذا الْمَعْنَىٰ رِوَايَةُ الْبَزِّي عَنِ ابْن كثير: **[وَلأَدْرَاكُمْ بِهِ]** ولِلْبَزِّي رِوَايَةٌ أُخْرى كقراءة الجمهور. فبين القراءتَيْن تكامل في أداء المعنيَيْنِ.

ويَدُلُّ علَىٰ أنَّ تلاوَتي للقرآن مِنْ وَحْي رَبِّي وَتَكْلِيفِي أَنْ أَتْلُوهُ عَلَيْكُمْ، أنّي لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً قَضَيْتُ فِيهِ شَبَابي، وأكْثَرَ مِنْ عَشْرِ سنواتٍ من كُهُولَتِي، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنِّي بَيَانٌ قولِيٌّ أُوَجِّهُهُ للنَّاس، ولا سيما بيانٌ بَليغٌ فيه نُصْحٌ وإرشاد وحِكْمَةٌ وتَعْلِيم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟! أي: أفلا تُدْرِكُونَ بِعُقُولِكُمْ إدْراكاً عِلْمِيّاً أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ لِإِنسَانٍ مَوْهُوبِ قُدْراتٍ بَيَانِيَّةٍ بِفِطْرَتِهِ أَنْ يَعِيش شبابَهُ وكُهُولَتَهُ حَتَّى شيخُوخَتِهِ، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مَا يُعَبِّرُ بِهِ عَن أفكاره وأحَاسِيسِهِ وَمَشَاعِرِهِ، ببيان يَشْعُرُ بأنَّه يُعْجِبُ أَهْلَ البيان.

وأَفَلَا تَعْقِلُونَ أَهْوَاءَكُمْ عَنِ الجنُوحِ الَّذِي جَعْلَكُمْ تُكَذِّبُونَ بِكِتَابِ الله المعْجِز، الَّذِي يُوحِي بِهِ إلىٰ عَبْدٍ من عباده، وقد كانَ يجب عَلَيْكُمْ أنْ تُؤْمِنُوا بِنُبُوَّتِهِ ورسَالَتِهِ، استِدْلَالاً بما يَتْلُوهُ مِنْ كِتَابِ رَبِّكُمْ الحقِّ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَالَّذِي لَو اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ على أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِهِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.

العقل: عَقْلان: عَقْلٌ عِلْمِيّ، وعَقْلٌ إراديّ.

لَبِثْتُ فِيكم: أي: أَقَمْتُ فِيكُمْ تُشَاهِدُونَ نَشْأَتِي وَكُلَّ تَصَرّفَاتِي.

وَلاَ أَدْراكم: أي: وَلَا أَعْلَمَكُمْ، يُقَالُ لغة: «أَدْراهُ بالشيء» أي: أعْلَمَهُ بِهِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ أَبَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنَّ افْتِرَاءَ الكَذِبَ عَلَيْهِ الَّذِي يطالِبُ به الَّذين كَفَرُوا رَسُولَ رَبّهم، وأَنَّ التَّكْذِيب بآيَاتِهِ المنَزَّلَاتِ مُتَسَاوِيَان في كَوْنِهِما ظُلْماً عَظِيماً مِنْ دَرَكَةِ الإجْرَامِ، الَّذِي يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُوهُ عَذَابَ الْحَرِيق بالنار، فقال تعالى:

• ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾؟؟

استفهام يرادُ به النفي، أي: لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هٰذَيْنِ الفريقين:

(١) الفريق الَّذي يَفْتَرِي على اللهِ كَذِباً، فَيَقُول: هٰذا مِنْ كَلَامِ اللهِ وهو ليس من كلامِهِ، أو يقول: هذا حُكْمُ الله، وهو لا يَمْلِكُ دَلِيلاً صحيحاً على أنَّهُ حُكْمُ الله، أو نحو ذلك من افتراءٍ على الله.

(٢) وَالفريق الذي يُكَذِّبُ بآيَاتِ اللهِ مع قيام البرهان العقليّ على أنَّها آيَاتُ الله.

قَدْ يُشَارِكُهما في دَرَكَةِ الظُّلْم آخرُونَ، ولَكِنْ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنْهُما، ودَرَكَتُهُمَا هِيَ الدَّرَكَةُ الَّتي يَحْتَلُّهَا المجْرِمُونَ.

الظُّلْم: تجاوز الحدّ، ووَضْعُ الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

الافتراء: اختلاق الكذب، واصْطِنَاعُهُ عَنْ عَمْد.

الْمُجْرِم: في المفهوم القرآني هو المعتدي بِذَنْبٍ كبير يستحقُّ عَلَيْهِ الْخُلُود في عذَابِ النّار.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾: أي: إنّ الشأن العظيم هو لا يظفر المجرمون بما يريدون ولا يَفُوزُون بجنَّات النعيم، الفلاح والإفلاح الظفر بالمراد المطموع فيه.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الرابع من دروسِ سورة (يونس).

والحمْدُ لله على توفيقه ومعونته ومَدَدِه وفتحه.



(٨)
التدبر التحليلي للدرس الخامس من دُرُوس سورة (يونس)
الآيتان: (١٨ و١٩)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [**عَمَّا تُشْرِكُونَ**] بأسْلوب الخطاب، وبين القراءتَيْنِ تكامل في الأداء البياني، إحداهما بأسْلُوب الحديث عن المشركين بضمير الغائبين، فالكلام مُوجَّهٌ لغيرهم، والأخرىٰ بضمير المخاطَبين، فالْكَلام مُوجَّهٌ لَهُم.

تمهيد:

البيان في هذا الدَّرْس يُتابع مُعَالَجَة أئمة الكافِرين من مشركي مكَّة إبَّان التّنْزِيل.

وبمراجَعَةِ السُّور الَّتي نزلَتْ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) لا نَجِدُ فيها حَدِيثاً يَدُلُّ علَىٰ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يقُولُونَ إِنَّ آلِهَتَهُمُ الَّتِي يَعْبُدُونَها تَشْفَعُ لهم عِنْدَ رَبِّهِمْ، فيما لَوْ صَدَقَ نَبَأُ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدِّين، بلْ هُم يُنْكِرُونَ الْبَعْثَ وَيَوْمَ الدّين.

ونفهم من هٰذا أَنَّهُمْ لمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِم التَّلْوِيمُ والتثريب والتوبيخ، بأنَّهم يَعْبُدون مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهم، دُونَ أَنْ يَجِدُوا حُجَّةً تُثْبِتُ أَنَّ آلِهَتَهُمْ تَنْفَعُ أَوْ تَضُرُّ، لَجَؤُوا إلى ادِّعاء أَنَّ آلهتهم تَشفَعُ لَهُمْ عِنْدَ رَبّهم، فِيمَا لَوْ كَانَ نَبَأُ الْبَعْثِ وَيَوْم الدِّينِ حَقّاً وَصِدْقاً، فَصَارُوا يَقُولُون مُكَرِّرِينَ مَقَالَتَهُمْ: هٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله، لإقناع جماهيرهم التابعين لهم الَّذين يُقَلِّدُونَهم، بِفَائِدَة عبادَتِهِمْ لآلهَتهم الّتي جَعَلُوا لها رُموزاً أوثاناً يَعْبُدُونها.

ورُوِي أنّ أحَد المشركين واسْمُه النضر بن الحارث قال ذلك، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: قال النَّضْر: إذا كانَ يَوْمُ القيامة شَفَعَتْ لِي اللَّات، والْعُزَّىٰ.

وعبارة: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تُفِيدُ أَنَّها صَارَتْ مقالَةً دَائِرَةً على أَلْسِنَةِ المشركين، إذْ صاروا يَتَذَرَّعُونَ بها، لئلَّا يُعَيَّرُوا بأَنَّهم يَعْبُدُون آلِهَةً لَا تَضُرُّهم ولَا تَنْفَعُهُم.

وجاء في هذا النَّصّ تَقْدِيم عبارة: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ على عبارة ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ للتّنْويع المتكافئ، ففي الآية (٥٥) من سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) جاء البيان على عكْسِ هذا الترتيب، وكذلك جاء في الآية (١٠٦) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) وكذلك جاء في الآية (٦٦) من سورة (الأنبياء/

٧٣ نزول) وفي الآية (٧١) من سورة (الأنعام/ ٥٥ نزول) وفي الآية (٧٣) من سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) أمّا في الآية (١٢) من سورة (الحج/ ١٠٣ نزول) فقد جاء فيها الترتيب على ما جاء في الآية (١٨) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

ومن هٰذا يظهر لنا أنَّ تَقْدِيم نَفْي نَفْع آلِهَةِ المشركين على نَفْي ضَرَرِها قد جاء في القرآن خمس مرّات، أمّا عَكْسُهُ فقد جاء مَرَّتَيْنِ فقط، ومَعْلُومٌ أَنَّ رَجَاءَ النَّفْعَ مِنْ عِبَادَتِهَا هو الَّذِي يَقُوم فِي أَذْهَانِ عابِدِيهَا، بِنِسْبَةٍ أكْبر من نِسْبَةِ خَوْفِهِمْ مِنْ ضَرِرِهَا لَهُمْ أو طَمَعِهِم بأَنْ تَضُرَّ أعْدَاءَهم، فلا دَاعِيَ لَتَكَلُّفِ التَّعْلِيلَاتِ في النُّصُوصِ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ... ﴿١٨﴾﴾:

أي: ويَعْبُدُ المشركون مَعْبُودَاتٍ هي بطبيعتِها تقع دونَ الله عزّ وجلّ، في مقابل اتصافه بالْفَوْقِيَّةِ المطلَقَةِ، فهو سُبْحَانَهُ العليُّ الأعْلَىٰ، وهذه المعبوداتُ لَا تَضُرُّهُم شيئاً حَتَّىٰ يَدْفعُوا عن أنفسهم بِعبادَتِها ضَرَرَها، وَلَا تَنْفَعُهُم بِشَيْءٍ حَتَّىٰ يَجْلُبُوا لأنْفُسِهِمْ بعبادَتِها نَفْعَها.

قوله تعالى:

﴿.. وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ ... ﴿١٨﴾﴾:

أي: وصاروا يُرَدِّدُونَ هٰذِهِ المقالة، وبالتأمُّل التحليلي الّذي سَبَقَ في التمهيد، مع مُراجَعة السّور التي نزلَتْ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) يَظْهَرُ للمتدبّر أنَّ هٰذِهِ المقالة ظَهَرَتْ إبَّانَ نُزُول هذه السُّورَة، لِيَدْفَعَ المشركون عن أنْفُسِهم مَعَرَّةَ عبادَتِهِمْ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ، الَّتِي شَنَّعَ عَلَيْهِمْ بها الْقُرآنُ فيما نزلَ مِنْهُ قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول).

وبهٰذِهِ المقالَةِ أحَالَ المشركُونَ نَفْعَ عبادتهم لآلِهَتِهِمْ عَلى أَمْرٍ غَيْبِيٍّ مُسْتَقْبَلِيّ في الحياةِ الدُّنْيا، أَوْ مُسْتَقْبَلِيّ في الحيَاةِ الأخرى، إنْ كَانَ الْبَعْثُ وَيَوْمُ الدِّينِ حَقّاً وَصِدْقا.

وَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ الرَّدَّ عَلَيْهِمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ هٰذِهِ الْفِرْيَةِ الَّتِي افْتَرَوهَا عَلَىٰ رَبّهم فَقَالَ لَهُ:

﴿.. قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ .. ﴿١٨﴾﴾:

أي: أتُخْبِرُونَ اللهَ الْعَلِيمَ بكلِّ شيءٍ بخَبَرٍ باطِلٍ هُو لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبأٌ حَقٌّ، بَلْ يَعْلَمُ أَنَّهُ نَبأٌ كَذِبٌ بَاطِلٌ، لأنَّهُ ـ جلَّ جلالُه وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ لم يَجْعَلْ لِآلِهَتِهِمْ شِفَاعَةً عِنْدَه، فَلَوْ شَفَعُوا لِأَحدٍ لَمْ يَقْبَلْ شفاعَتَهُمْ، لَكِنَّهُمْ لَنْ يَشْفَعُوا، إِذْ لا يُمَكِّنُهُمُ اللهُ من الشفاعة للمشركين ولَوْ كان من يَعْبُدُونَهُمْ من الملائِكة أو المرسَلِينَ من أُولي الْعَزْم.

ومن عجيبِ البيان في هٰذه العبارة بيانُ أنَّ النَّبأَ الْكَذِبَ لَا يَعْلَمُهُ اللهُ، أي: لَا يَعْلَمُ اللهُ كَوْنَهُ حَقّاً وَصِدْقاً، وَبَدَهِيٌّ أَنَّ مَا لَا يَعْلَمُ اللهُ كَوْنَهُ حَقّاً وَصِدْقاً وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَاطِلاً وَكَذِباً، وهذا من أَبْدع الأساليب غير المباشرة، وهو يعْتَمِدُ على إثباتِ النقيض بأسْلُوبِ نَفْي نَقِيضِهِ.

النَّبأ: الخَبَرُ الْبَارز ذو الأهميَّة، وبُروز النبأ هُنا كونُهُ ظاهِرَ الْبُطْلَانِ وظاهرَ كَوْنِهِ افْتِراءً عَلَىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ.

وختم الله الآية بقوله:

﴿... سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾: أي: تَنَزَّه اللهُ جلَّ جَلالُه، وَتَسَامَىٰ عَنِ افتراءاتِ المشركين، باختلاقِ الآلِهَةِ الشركاء، وبادّعاء أَنَّها تَشْفَعُ لعَابِدِيها عنْدَه.

قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ . . . ﴿١٩﴾﴾:

جاء هذا البيانُ لإثباتِ أَنَّ العقائد الشِّرْكِيَّة عقائِدُ طَارِئَةٌ على النّاس، ولم تَكُنْ مَوجُودَة في أجيال البشريَّة الأولى، فقد كان المجتمع البشري في الْأَجيالِ الأولَى مُجْتَمعاً مُوَحِّداً لِلَّهِ في رُبُوبيَّتِهِ وَفِي إلٰهيَّتِهِ، مُؤْمِناً إيماناً صَادِقاً، ومُسْلِماً إسْلاماً صَحِيحاً، الْتِزاماً بما تَلَقَّوا مِنْ تَعْلِيمَاتِ دِين اللهِ الحقِّ، الَّذِي أَمْلاهُ عليهم آدَمُ عليه السلام.

فَدَخلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِيهِمُ الشِّرْكُ فاخْتَلَفُوا، إذ ثَبَتَ فريقٌ مِنْهُم على إيمانِهِ وإسْلامِهِ الصحيحين، ودَخلَتْ على آخَرين عقائِدُ شِرْكِيَّةٌ باطِلَةٌ مُخْتَلِفَة.

هذا هو الحَقُّ، وما يَذْكُرُهُ مُلاحِدَةُ عُلَمَاء الاجْتِمَاع مِمَّا هو مخالفٌ لهذا الحقّ، باطِلٌ لَا شَكَّ فِي بُطْلَانِهِ، وهو من الافتراء على التاريخ الْبَشَرِيِّ، تَذَرُّعاً بأوْهَامٍ اصْطَنَعُوهَا.

قول الله تعالى:

• ﴿. . . وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾:

أي: ولَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، أَتَمَّ اللهُ بِها قَضَاءَهُ وَقَدَرَهُ بتأْجِيلِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ القضاءِ وتنفِيذِ الجزاء إلَىٰ يَوْم الدِّينِ، يَوْم الجزاء الْأَكْبَر، الَّذِي تَكُونُ فِيهِ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْل الرَّبَّانِيَّة شامِلَةً لِكُلِّ الَّذِينَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضع الامْتِحَانِ فِي ظروفِ الحياة الدنيا، لكَانَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا عَنِ خطِّ الوَحْدَةِ البشريَّةِ على دِينَ اللهِ الَّذِي تَلَقَّوْهُ عَنِ أَبِيهِمْ آدَمَ، مُسْتَحِقِّينَ أَنْ يَقْضِيَ اللهُ بهم قَضَاءَهُ بالْعَدْلِ بَعْدَ مُحاسَبَتِهِمْ، وأَنْ يُنَفِّذَ فيهم مَا يَسْتَحِقُّونَ مِنْ جَزَاءٍ، وهكذا أَمْثالُهُمْ من بَعْدِهِمْ.

لَكِنَّ خُطَّةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبْلَ بَدْءِ الْخَلْقِ قَضَتْ بِأَنْ تَكُونَ حَيَاةٌ أُولَىٰ قَصيرة يَجْرِي فِيها الامتحان، وأَنْ تَكُونَ حَياةٌ أُخْرَىٰ أَبَدِيَّةٌ يَجْرِي فِيهَا الحساب، وَفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء، وما تَقَرَّرَ في هٰذِهِ الْخُطَّةِ هُو الْأَحْكَمُ فِي تَدْبِيراتِ الْخَلْقِ.

على أنَّ الميّتَ فِي عَهْدِ آدَمَ، وآخِرَ مَيِّتٍ من الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، يَكُونُ حالُهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ بالنِّسْبَةِ إلى شُعُورِهِمْ بِمُرُورِ الزَّمَنَ سَوَاءً، لِأَنَّ إِحْسَاسَ الأَرْوَاحِ أَو النُّفُوس بَيْنَ الموتِ والْبَعْثِ بِمُرُورِ الزَّمَنِ يَكُونُ مُنْعَدِماً، والْمَبْعُوثُونَ لَا يَشْعُرُونَ عند الْبَعْثِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا فِي نَوْمَةٍ من نَوْمَاتِ الضُّحَىٰ، أو نَوْمَةٍ من نَوْمات العشِيِّ، مع كُلّ مَا مَرَّ عَلَيْهِمْ من نَعِيمٍ أو عذابٍ في مُدَّةَ الْبَرْزَخ.

وهذا البيان قَدْ جَاءَ نظيرُه في القرآن خَمْسَ مَرَّاتٍ، وكلُّها تَدُلُّ على المَعْنَىٰ الذي دَلَّ عليه هذا النص من سورة (يونس) مع اختلاف في المناسَبات.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرس الخامس من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على توفيقه ومَدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.



(٩)
التدبّر التحليليّ للدرس السادس من دُروس سورة (يونس) الآية (٢٠)

قال اللهُ عزَّ وجل:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الآية مُتابَعَةٌ لِمَا جَاءَ في الآيات من (٩٠ ـ ٩٣) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) إذْ جاء فيها تَعْلِيقُ أَئِمَّةِ المشركين في مكة إيمانَهُمْ بالرَّسُول على أَنْ يأتِيَهُمْ بآياتٍ مادِّيَّةٍ يَقْتَرِحُونَها، وهم في ذَلِكَ مُتَعَنِّتُونَ كَاذِبُون.

ودلَّتْ هذه الآيَةُ مِنْ سُورَةِ (يونس/ ٥١ نزول) عَلَىٰ أَنَّهُمْ جَعَلُوا يُكَرِّرُونَ مطالبة الرَّسُولِ بآيَةٍ مَادِّيَّةٍ عَلَى وَفْقِ مُقْتَرَحَاتِهِم، وأَنَّهُمْ اتَّخَذُوا عَدَمَ اسْتِجَابَةِ الرَّسُولِ لِمُقْتَرَحَاتِهِمْ ذَرِيعَةً لاتِّهَامِهِ بأَنَّهُ لَيْسَ رَسُولاً مُرْسلاً مِنْ رَبّ الْعَالمين، ويُشَيِّعُونَ في جُمْهُورِ المشركين لإبْعَادِهم عن الاستجابَةِ لِدَعْوَته قائلين: هَلَّا أنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّهِ كَمَا طَلَبْنَا منه، لو كان رَسُولاً من رَبِّهِ حَقّاً وَصِدْقاً لَأُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، فكانَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ يُعَلِّمَ اللهُ رَسُولَهُ مَا يَرُدُّ بِه عَلَيْهِمْ، إذْ كانت هٰذه الإشَاعَةُ الإعلاميَّة تتَرَدَّدُ إبَّانَ نزول سورة (يونس).

التدبُّر التحليلي:

• ﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي: ويَقُول أئِمَّةُ مُشْرِكي مَكَّة، ويُرَدِّدُها تأثُّراً بهم بَعْضُ أتباعهم تَرْدِيداً بَبَّغاوِيّاً، أخذاً من استعمال الفعل المضارع: «يَقُولُون» الّذي يُفيد التكرارَ والتجدُّد.

• ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: أي: هَلَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ من رَبِّهِ كَمَا اقْتَرَحْنَا عَلَيْهِ، مثل عصا موسى، وناقة صالح.

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أبان اللهُ عزّ وجَلَّ الْحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ إرسَالِ الآيات الَّتِي يَتَعَنَّتُ بالمطالَبَةِ بِإرْسَالِها الَّذِينَ كَفَرُوا، في الآية (٥٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فقال اللهُ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ۝٥٩﴾.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هٰذِهِ الآيَة في مَوْقِعها من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول).

وجاءت هنا في الآية (٢٠) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) إضَافَةُ بيانٍ بأسْلُوبِ تَعْليمِيٍّ من اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ مَا يَقُولُهُ لهم:

﴿.. فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ۝٢٠﴾:

أيْ: فَقُل لَهُمْ: إنَّ الإتْيَانَ بآياتٍ خَوارِقَ لَا تَكُونُ أسْبَابُها إلَّا غَيْبِيَّة دَاخِلَةً فِي عَالِمِ الْغَيْبِ، وَالْغَيْبُ كُلُّهُ إِنَّمَا هُوَ للهِ وَحْدَهُ، هُوَ الَّذِي يَتَصَرَّفُ فِيهِ عَلَىٰ مَا يَشَاء، فإنِ اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ لمقْتَرَحَاتِكُمْ بإنْزَال الآيَات الْخَوارِقِ الَّتِي ذَكَرْتُمُوهَا أَنْزَلَها، وإذا اقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لا يَسْتَجِيبَ لمُقْتَرَحَاتِكُمْ لِعِلْمِهِ بأنَّهُ لَوْ أَنْزَلَهَا كَمَا اقْتَرحْتُمْ، لَمَا آمَنتُم، وَلَأَصْرَرْتُمْ عَلَى مَوْقِفِ الكُفْرِ كَمَا أَصَرَّتْ ثَمُودُ إذِ اسْتَجابَ لِطَلَبِهِمُ الناقَةَ كَما وَصَفُوا، مِنْ صَخْرَةٍ عَيَّنُوها، فَعَقَرُوها فَأَهْلَكَهُمُ اللهُ إهلاكاً جَماعيّاً شامِلاً، باستثناء الذين آمَنُوا بصالح عليه السَّلاَمُ واتَّبَعُوهُ.

وبما أنَّ الآياتِ الخوارِقَ تَأْتِي مِنْ عالم الْغَيْبِ الَّذِي استأثر الله به لنَفْسِهِ، وهٰذا الْغَيْبُ يَخْضَعُ لأمْرِ التكْوينِ الرَّبَّانِي، وَلَيْسَ يَخْضَعُ لنظام الأسباب والمسبَّبات الَّتِي مَكَّنَ اللهُ عباده منها بحَسَبِ تفاضُلِ عِلْمِهِمْ وقُدْرَاتهم، فما عَلَيْنَا جَميعاً إلَّا أن نَنْتَظِرَ مَا تَجْرِي به حِكْمَتُهُ إرْسالاً للآيَاتِ أو عَدَمَ إرسالٍ لها، وأنا فِي هٰذا مِثْلُكُمْ فانْتَظِرُوا إنّي مَعَكُمْ من المنتظِرِينَ، وقَدْ عَلِمَ اللهُ طَلَبَكُمْ الآيات المادّيات الخارقات لنظام الأسباب والمسببات.

وبهذا تمّ تدبّر الدرس السادس والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته.

❊ ❊ ❊

(١٠)

التّدبر التحليلي للدّرس السابع من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٢١ ـ ٢٣)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

القراءات:

(٢١) ● قُرِئَ: **[رُسْلَنَا]** بإسْكان السين. وقرأ الجمهور ﴿رُسُلَنَا﴾ بضمّ السّين.

وقُرِئ: **[مَا يَمْكُرُونَ]** بضمير الغائبين. وقرأ الجمهور ﴿مَا تَمْكُرُونَ﴾ بضمير المخاطبين.

(٢٢) ● قرئ: **[يَنْشُرُكُمْ]** من فعل «نَشَرَ» وقرأها الجمهور ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من فعل «سَيَّرَ».

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ مُتَّصِلُ بالدَّرس الثالث من دُرُوس السّورة الآيات من (١٢ ـ ١٤) وهي الآيات التي جاءت فيها مُتابَعَةٌ ذاتُ إضافات لما جاء في الآيات من (٦٧ ـ ٦٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) على طَرِيقَة

القرآنِ في تَوْزيعِ عناصر الموضوع الواحد في السّورة الواحدة، أو في عَدَدٍ من السُّور.

وفي هذه الآيات من (٢١ ـ ٢٣) إضافاتٌ لم تَأْتِ في النَّصَّيْن السابقين، كما سيأتي في التدبّر إن شاء الله.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

من آيات الله التَّذْكيريَّة لعِبادِه في تصاريف الكون، أَنْ يُنْزِلَ بهم البأسَاءَ والضَّرَّاءَ رَغْبَةً فِي أَنْ يَتذَكَّرُوا رَبَّهُمْ الَّذِي بِيَدِهِ تَدْبيرُ أمُورِ الكون وَتَصاريفُها، فيتضَرَّعُوا لَهُ داعِين خاضِعين، ثم يُبَدِّلُ اللهُ أحْوالَهُمْ فَيَجْعَلُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحسَنَةَ، لِيَنْظُرَ أَحْوالَهُمْ، هل أفادَهُمُ التذكيرُ بالبأساء والضَّرَّاء استقامَةً على طاعة اللهِ والخضوع له في أحوال السَّرَّاء، أمْ عادُوا إلَىٰ ما كانُوا عليْهِ قَبْلَ التَّذْكير عِصْياناً وبَغْياً في الأرْض وعدواناً وظلْماً، أو كُفْراً وجُحُوداً.

جاء بيان هذِهِ السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّة الّتي هي من آياته التذكيريّة، فيما سَبَقَ أَنْ أنزل في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) فقال الله عزّ وجلَّ فيها:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

الْبأْساء: الجوع والمشقة والفقر وضَنْك العيش، والحرب.

الضَّرّاء: الشّدّة وكلُّ حالة تَضُرُّ في الأموال أو الأنفس.

السَّرَّاء: النِّعْمَةُ والرَّخاءُ والمسَرَّة.

هذه سنَّةُ الله في عباده بالنسبة إلى آياته التذكيرية، الّتي يُذَكِّر بها عباده.

وقد سبق تدبُّرُ هَاتَيْن الآيتين في مَوْضعهما من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول).

فما هي أحوال الناسِ بالنسْبَةِ إلى آيات اللهِ التذكيريَّة؟.

(١) أمّا الكافرون بالرَّب الخالق مِنَ الذّراري، فَيَقُولُونَ: ظاهِرَاتٌ طَبيعيَّةٌ تَتَقَلَّبُ بها أَحْوَالُ الكَوْنِ بَيْنَ الضَّرَّاءِ والسَّرَّاء، ولَيْسَ وراءَهَا قَصْدٌ تَذْكِيريٌّ من رَبّ خالِقٍ يُصَرِّفُ أحْدَاثَ الكَوْنِ وَتَغَيُّرَاته بِحِكْمَتهِ، وهؤلاء هم الَّذِينَ جاء البيان بشَأْنِهم في نَصِّ سورة (الأعراف).

(٢) وأمَّا المشرِكون وَمَنْ هم على حافَّةِ الشِّرْك من المسْرِفين بكَثْرَةِ المعاصِي، فقد سَبَقَ في الآية (١٢) من سورة (يونس/ ٥١ نزول) الّتي نتدَبَّرُها بيَانُ أنَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ إلَىٰ اللهِ إذا مَسَّهُمُ الضُّرُّ، وعَقِبَ أنْ يَكْشِفَ اللهُ عَنْهُمُ الضُّرَّ يُعْرِضُونَ عَنْ واجباتهم تُجاهَهُ، ويَسْتغْرِقُونَ في أهوائهم وشهواتهم، ولذَّاتِهِمْ من زِينَةِ الحياة الدُّنيا مُسْرِفين، وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّر هذِهِ الآيَةِ بمقدار ما فتح الله.

(٣) وَأمَّا غُلاةُ أَهْلِ الكُفرِ الْمُجْرِمُونَ الشَّياطين، الَّذِين يَتّخِذُون ما

يَسْتَطِيعُون مِنْ وَسَائِلَ لإضْلال الناس، فإنَّهم يَسْتَخْدِمُون ما يَهَبُهُم اللهُ مِنْ سَعَةٍ في الرِّزْقِ وَتَمْكِينٍ في الأرضِ بمَكْرٍ شَدِيدٍ لحَمْلِ النّاسِ على الكُفْرِ باللهِ، وإبْعَادِهم عن صراطِهِ المسْتَقِيم، وقَدْ كانُوا قَبْلَ هذِهِ السَّعَةِ والتَّمْكِينِ في ضَرَّاءَ يَتَمَنَّونَ الْخَلاصَ مِنْها.

وباستطاعَةِ المتدبّر إدْرَاكُ أنَّ هؤلاءِ هم المعنيُّون بقول اللهِ عزّ وجلَّ في سورة (يونس/ ٥١ نزول):

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾:

يَظْهَرُ أنَّ الْمُرَادَ بلَفْظِ «الناس» في هذه الآيَة هم الَّذِين يَمْكُرُونَ بآيَاتِ الله، إذَا أَذَاقَهُمُ اللهُ آثارَ رَحْمَتِهِ من بَعْدِ ضرَّاء مَسَّتْهُمْ، وهذا يَنْطَبِقُ على دُعَاةِ الضَّلالِ، شياطِينِ الْفَسَادِ والإفساد في الأرْضِ مِنَ النّاس.

وَجاء اسْتِعْمالُ فِعْلِ: ﴿أَذَقْنَا﴾ للدَّلالَة على معنى «مَتَّعْنا» فأصْلُ الذَّوْقِ للطَّعام، وعُمِّمَ في الاسْتِعمال القرآني ليشْمَلَ الإحسَاسَ باللَّذَّاتِ وبالآلام، من أيّ طريق من طُرُق الإحْسَاس، وهو في الأصل استعارةٌ قَائِمةٌ على تَشبيهِ الإحْسَاسَات المختلفة بِذَوْقِ الطعام ما كان منْهُ طيّباً مُسْتَسَاغاً، وما كان منْهُ كريهاً مُرّاً، أو هو من قبيلِ التوسُّعِ في الدَّلالَة من حَاسَّةٍ إلى سَائر الحواسّ.

وأُطْلِقَ لَفْظُ «رَحْمَة» والمرادُ أَثَرُها، فَرَحْمَةُ اللهِ صِفَةٌ من صفاتِهِ جَلَّ جَلَالُه، من آثارِها الإنْعامُ والإكرامُ وكُلُّ عطَاءٍ فيه نَفْعٌ وخَيْرٌ للعِبَاد.

والمرادُ بالْمَسِّ مَا يُحْدِثُهُ الْتِصَاقُ سَطْح الماسِّ بسَطْحِ الممْسُوسِ من أَثَرٍ فيه لذَّةٌ أَوْ أَلَمٌ.

الْمَكْرُ: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفَاءٍ عَنِ الممْكُورِ بِهِ، بخير أو بشرّ.

• ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ﴾: «إذا» هذه فجائية، و«إذا» الأولى في الآيَة ظرفية شَرْطية.

والمعنى: وحِينَ نُنْعِمُ عليهم فنُوَسِّعُ لهم مِمَّا يُحِبُّون من زيناتِ الحياة الدنْيا ووسائل متاعِهِمْ فيها، يُفاجِئُونَ بأن يَمْكِرُوا في آياتِ الله.

ومَكْرُهُمْ في آيات الله يكون بِتَدْبيراتٍ خفيَّاتٍ يُحَرِّفُونَ بها فيما تدلّ عَلَيْهِ مِنْ صفاتِ اللهِ، وحِكْمَتِه في تصاريفِ كَوْنه، فيُفَسِّرُونَ مثلاً آياتِهِ الكونية الْعُظْمَىٰ بأنَّها من آثار حَرَكَةِ ذرَّاتِ الكَوْنِ الطبيعِيَّة، دُون الحاجَةِ إلى خالقٍ مُدبِّر مُتْقِنٍ حَكيم قَدِيرٍ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ويختار، ويُعَلِّلُون آياتِهِ الجزائيَّة بأنَّها ظَواهِرُ طبيعيَّة جاءت على سبيل المصادفة، ولَيْسَتْ آثار قَصْدٍ جَزائيّ مِنْ خالِقٍ رَبٍّ عَلِيم حكيم قدير، يُصَرِّف أحْدَاث الكَوْنِ عَلَى وَفْقِ حِكْمَتِه، ويُرَوِّجُونَ مقالاتهم هذه بين الجماهير الّتي تنطَلِي عَلَيْها حِيَلُ الأخْبَاثِ، وتضليلات الشياطين من الناس، الّذين يُضِلُّون في الأرْض، لتحقيق منافع لهم من إضلالِ مَنْ يَسْتَجِيبُون لَهُمْ مِنَ الّذِين لا يُعْمِلُونَ عقولهم في الْبَحْث العلمي، والبراهِينِ العقليَّة. ويُحَرِّفُونَ في آيات الله البيانِيَّة المنَزَّلَة، فيُفسِّرُونها تفسيراتٍ بَاطِلَاتٍ فاسِدَاتٍ مُوافقاتٍ لأهوائهم، ثُمَّ يَسْعَوْن لاستثمار مَكْرِهِمْ في تحقيقِ مصالحهم المُرْضِيَات لأهوائهم وشهواتهم ولَذَّاتهم وأنواع متاعهم من زِيناتِ الحياة الدنيا.

وقد عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلَى اللهِ مِنْ أُمَّتِه أنْ يَقُولَ لهذا الفريق المضِلّ مِنْ شياطين الإنْسِ: إنَّكُمْ تَمْكُرُونَ في آياتِ الله، واللهُ أسْرَعُ مِنْكُمْ مَكْراً، إذْ يُدَبِّرُ تَدْبيراتٍ يُحْبِطُ بِهَا وَسَائِلكُمُ المكْرِيَّة، فتكُونُونَ خَائِبِينَ فِي مَساعِيكُمْ، لَا تحققُونَ بها مقاصِدَكُمُ الشِّرِّيرَةَ، إلَّا فيمَنْ يَسْتَجِيبون لكُمْ لأَنَّ أهواءَهم مُشَابِهَةٌ لأهْوَائِكُمْ، فأنْتُمْ وإيَّاهم إلى الجحيم صائِرُون، وفي عَذاب اللهِ خالِدُون، واعْلَمُوا أنَّ رُسُلَ اللهِ من الملائكةِ الكاتِبين المراقبين

لأعمالكم، يَكْتبُونَ كلَّ صغيرة وكبيرةٍ ممَّا تَمْكُرُون، وسَوْفَ يُحَاسِبُكُمْ اللهُ عَلَيْها يَوْمَ الدِّين، ويَقْضِي علَيْكُمْ بقَضَائِه العادلِ، ويُدْخِلُكُمْ خالِدِين مجرمين، في الدّرْك الأسْفَل من الجحيم.

وضَرَبَ اللهُ عزَّ وجَلَّ مَثَلاً من السُّلُوك الشخصي لفريق مِنْ هٰؤُلاءِ المضلّين، أَنَّهُمْ إذا رَكِبُوا الْفُلْكَ لِيَنْتَقِلُوا جَرْياً عَلَىٰ الماء من مكانٍ إلىٰ مكانٍ، أو لتَحْقِيقِ مَنَافِعَ وَمَصَالِحَ لَهُمْ في الْبَحْرِ، عَلَىٰ عَادَةِ رُكَّابِ السُّفُنِ في البحار، فقد تَقْتَضِي حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُجْرِيَ لَهُمُ الْفُلْكَ جَرْياً سارّاً آمِناً مُسْعِداً مُرِيحاً في ابتِدَاءِ الأمْرِ، بريحٍ طَيّبَةٍ مُوافِقَةٍ لِجَرْيِ الْفُلْكِ عَلَىٰ مَا يُرَادُ مِنْها، امْتِحاناً لَهُمْ، هَلْ يَحْمَدُونَ رَبَّهُمْ وَيَشْكُرُونَه أم لا؟ وَقَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يُسَلِّط عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ الْبَحْرِ رِيحاً شَدِيدَةً تَعْصِفُ عَصْفاً، فَتَهُزُّ لَهُمْ فُلْكَهُمْ هزّاً عنيفاً مُخِيفاً، وتجْعَلُ أَمْوَاجَ الْبَحْرِ ثَائِرَةً مُضْطَرِبَةً، تَضْرِبُ كُلَّ جِهَاتِها، يَمِينَها وَشِمَالَها وَأَمَامَها وَخَلْفَها، وَتَرْفَعُها وَتَخْفِضُها، فيَغْلِبُ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ أَنَّهُمْ هَالِكُونَ لَا مَحَالَةَ، وَتَنْقَطِعُ مطامِعُهُم مِنْ كُلِّ أَسْبَابِ النَّجاةِ الكَوْنِيَّة.

عندئذٍ يَجِدُون أَنَّهُمْ مضطرّون إلى الالْتِجَاءِ إلَىٰ رَبِّهم الَّذِي بِيَدِهِ مَفَاتِيحُ كُلِّ شيءٍ في الكَوْنِ، وهو القدير على مَا يَشَاء، لَا يُعْجِزُهُ إسْكَانُ البحارِ مَهْمَا كَانتْ في أَوْجِ ثَوْرَتها وهِياجها، ولا تَهْدِئَةُ الرِّيحِ مَهْمَا كَانَتْ فِي أَوْجِ قُوَّتِها وسُرْعَتِها وعُنْفِها، فَيَدْعُونَ رَبَّهُمْ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُونَ فِي دُعَائِهِمْ لَهُ شَيْئاً وَلَا أَحداً، وَيَعِدُونَ رَبَّهُمْ قائِلين: رَبَّنَا لَئِنْ خَلَّصْتَنَا مِنْ هٰذِهِ الْمُرْهِبَةِ الشَّدِيدَةِ المحيطَةِ بالْمُهْلِكَاتِ لَنَكُونَنَّ لَكَ مِنَ الْحَامِدِينَ الشَّاكِرِينَ، الْقَائِمِينَ بِمَا يَجِبُ عَلَيْنَا تُجاهَكَ من طَاعَةٍ وعبادة.

وقَدْ تَقتضي حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يَكْشِفَ عَنْهُمْ مَا أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ بَلَاءٍ، لِيَمْتَحِنَ صِدْقَهُمْ فِيما عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ، إذْ دَعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّين، فَيُسَكِّنُ

الْأَمْوَاجَ الثَّائِرَةَ والرِّيحَ الْعَاصِفَ، وَيُعِيدُ حَالَةَ الْفُلْكِ إلى مِثْلِ مَا كَانت عليْهِ جاريَةً بِرِيحٍ طيِّبةٍ.

لَكِنَّهُمْ حِينَ يَصِلُونَ إلى الْبَرِّ نَاجِينَ بقضاء اللهِ وقَدَرِهِ، واستجابَةً لِدُعَائِهِم، يَعُودُونَ إلى مَا كَانُو عَلَيْهِ مِنْ بَغْيٍ فِي الْأَرْضِ بغير الحق، وفَسَادٍ وإفْسَادٍ، وَضَلَالٍ وإضْلال، وتَمَرُّدٍ عَلَىٰ طاعَةِ رَبِّ العباد.

فَهَلْ يُثْمِرُ لَهُمْ بَغْيُهُمْ فِي الحياة الدُّنيا الَّتِي يَسْتَمْتِعُونَ بها مَتَاعاً قليلاً زَائِلاً، سَعَادَةً أَبَدِيَّةً أَمْ شقاءً خالِدِينَ فِيه؟!

إنَّ الواقِعَ الَّذِي سَوْفَ يَكونُ يَوْمَ الدِّين، يُثْبِتُ لهم أَنَّ بَغْيَهُمْ فِي الحياة الدُّنيا قَدْ صَارَ وَبَالاً عليْهم، وعَذَاباً خالداً في دار الْعَذاب النَّارِ يَوْمَ الجزاء الأكبر، وكانَ عليهم أَنْ يُدْرِكُوا هٰذِهِ الحَقِيقَةَ، بِما آتاهُمْ مِنْ قُدْرَاتِ تَفْكِيرٍ وفَهْمٍ لِظَاهِرَاتِ الكَوْنِ، وما تَدُلّ عَلَيْهِ من صِفَاتِ بَارِئِها وَمُدَبِّرِ أَحْدَاثِها بِحِكْمَتِهِ، وَبِتَصْدِيقِ مَا جَاءَ فِي بَيَانَاتِ اللهِ عَلَى لِسَانِ رُسُلِهِ، وبِمُلَاحَظَةِ آياتِ اللهِ الجزائيَّةِ الَّتِي دَلَّتْ عَلَيْها الْوَقائع التارِيخيَّة، لأَنَّها نَماذِجُ وأَمْثِلَةٌ مِنْ قانُونِ الْجَزاءِ الرَّبَّاني.

لكنَّهُمْ طَغَتْ عَلَيْهِمْ أهواؤُهم وشَهَواتُهُمْ ولَذَّاتُهُمْ من الحياةِ الدُّنْيا، وأحبُّوا العاجِلَةَ فَتَعَلَّقُوا بها، فَغَشَّتْ عَلَى بصائِرِهِمُ الْأَوْهَام، فاسْتَحْذَتْ إرادَاتُهُمْ، وصَارَتْ أُلْعُوبَةً بأيْدِي أَهْوَائهم وشهواتهم، بَدَلَ أَنْ تَكُونَ مَهْدِيَّةً رَاشِدَةً تَتَّبِعُ هَدْيَ الْعَقْلِ الرَّشِيد، وهَدْيَ كتابِ اللهِ المجيد.

مع فقرات النّصّ في التدبّر.

قول الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ . . . ﴿٢٢﴾﴾ يبدأ النَّصُّ بِعَرْضِ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَراتِ الْقَاعِدَةِ الإيمانيَّة، وهِيَ أَنَّ تَسْيِيرَ النَّاسِ في الْبَرِّ والْبَحْرِ مِنْ آثَارِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ لعبادِه، خلْقاً وإمداداً، وتَدْبيراً، وتهيئَةً للأسْبابِ، ومُتَابَعَةً بالْعِلْم

والمراقَبَة، وتَوْفِيقاً، ودَفعاً للمَوانِع، وامْتِحَاناً للإرادات في اختياراتها، وإلى غير ذلك من صفاتِ رُبُوبيَّتِه ذاتِ العلاقة في كُلِّ حَركةٍ وسَكَنَةٍ في الأكْوان.

ويُقاسُ على التَّسْيير في البرّ والْبَحْر التَّسْييرُ في الْجَوِّ، بَلْ هُو أولَى، لأنَّ للتَّسْيِيرِ في الجوِّ شُرُوطاً أكْثَرَ وأدَقَّ، فهو أَحْوَجُ إلى رُبُوبيَّةِ الرَّبّ للتَّمْكِينِ مِنْهُ، وللحفظ والحماية والرِّعَايَةِ الدَّائِمَةِ، ضِمْنَ سُنَنِ اللهِ السَّبَبِيَّة.

ولَمَّا كان التَّسْييرُ في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ يَنْتَشِرُ بِحَسَبِ مَصَالِحِ الناسِ في كُلِّ الأبعادِ، انْطِلَاقاً مِنْ مَرَاكِزِ دَوائِرِ التَّحَرُّكِ، ولاَ يَتْبَعَ خطّاً واحداً، كَانَ من الحِكْمَةِ في البيان التَّنْبيه على أنَّ اللهَ هُوَ الذي يَنْشُرُهُمْ أيْضاً كما أنَّهُ يُسَيِّرُهم، فجاءت القراءة الأخرى: **[هُوَ الَّذِي يَنْشُرُكُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ]**.

النَّشْر: من معانيه التفريق والْبَثُّ والتوزيعُ، وهو المرادُ هُنَا، وسبب انتشار النّاسِ في مُخْتَلِفِ الأمَاكِنِ اخْتِلَافُ مصَالِحِهِمْ ومُرَادَاتِهِمْ الّتِي جَعَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ تحْقِيقَهَا في أمَاكِنَ شَتَّىٰ من الْبَرِّ والْبَحْرِ، وهُو جلَّ جَلَالُهُ الَّذِي يَجْعَلُ للنُّفُوسِ مطالب، ويَجعَلُ فيها الرَّغبات لتَحْقِيقِها، ويُلْهِمُ عُقُولَ النَّاسِ وَيُعَلِّمُها أمَاكِنَ وُجُودِها ووسائِلَ الوصول إلَيْها، ويَمْنَحُها الْقُوىٰ، ويُقْدِرُها على اتِّخَاذِ الأسْبَاب، ويَدْفَعُ عَنْها العوائق والموانع، ويُذَلِّلُ لَهَا العقبات.

قول اللهِ تَعالى:

• ﴿... حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وتَكُونُون في تسْيِير اللهِ ونَشْرِهِ لَكُم فِي أمَاكِنَ شَتَّىٰ مِنَ الْبَرِّ والْبَحْرِ، ومن احْتِمَالاتِ سَيْرِكُمْ وانتِشَارِكم أَنْ تكُونُوا رَاكِبِينَ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لبَعْضِ مصالحكم، ويَكُونُ هٰذا غَايَةً سَبَبِيَّةً مِنْ غايات مَقَاصِدِكُمْ، أَوْ غايَةً ذَاتِيَّة إذْ تُرِيدُونَ الاسْتِمْتَاعَ بِرُكُوبِ الْفُلْكِ في البحر. دَلَّ على هٰذ لفظ «حتَّى».

الْفُلْك: مَرْكَبُ الْبَحْر، يُطْلَقُ علَىٰ الواحِد والاثنين، والجمع. ويجوز تَذْكيرُه وتأْنيثُه، فتَقُول: هو الْفُلْك، وهي الْفُلك.

والخِطَابُ بهٰذِهِ العِبَارَة مُوجَّهٌ لِكُلِّ صَالحٍ للخطابِ من الناس، يَتَعَرَّضُ لمِثْل مَا جَاءَ في الآيَةِ مِنْ أحْدَاث.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿... وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا ... (٢٢)﴾:

الْتفَتَ النَّصُّ عَنْ مُواجَهَةِ المخاطَبينَ لِأَنَّهُمْ عُمُومُ النَّاسِ، وفيهم مَنْ لَا يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ وَصْفُ الْبَغْي بَعْدِ النجاةِ ممَّا أحَاطَ بهم من أسْبَابٍ مُرْعِبَةٍ لَهُمْ بأنَّهُمْ هالِكُونَ لَا مَحالَةَ مَا لَمْ يَتَدَخَّلْ قَضاءُ الله وَقَدَرُهُ بنجاتهم، فجاء الحديثُ عن المقصودين بالبيان بضمير الغائبين.

أي: والْفُلْكُ جَرَيْنَ بِهِمْ بريحٍ طَيِّبَةٍ مُلَائِمَةٍ لتَسْيِيرِها تَسْيِيراً سارّاً مُرِيحاً مُفْرِحاً، فَفَرِحُوا بها.

جاء وصْفُ الْفُلْكِ بالْجَمْع المؤنَّثِ، إشَارَةً إلى أَنَّ هٰذا الحَدثَ من مُكَرَّراتِ الأَحْدَاثِ في تَصَارِيف اللهِ لأحْدَاث الكَوْنِ وتَغَيُّرَاته.

الطيِّب: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ علَىٰ كُلِّ شيءٍ مُفِيدٍ نَافعٍ لَا ضَرَرَ فيه ولا خَبَث.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿... جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ... (٢٢)﴾: أي: جاءتها رِيحٌ من نوعِ الرِّيح العاصِف، وهي الّتي إذَا هَبَّتْ بِشدَّةٍ حَمَلَتِ الْعَصْفَ، وهو ما على وَجْهِ الأرْضِ من نباتٍ يَابِسٍ، وأوراقٍ وأعواد، فتَدُورُ بِهِ وتَرْمِيهِ كَيْفَمَا اتَّفَق.

يقال لغةً: ريحٌ عاصِفٌ، وريحٌ عاصِفَةٌ، بالتذكير والتَّأنيث.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ أي: وَجاءَ فُلْكَهُم الْمَوْجُ من كُلِّ مَكَانٍ حَوْلَهَا، يَضْرِبُها عَنْ يَمِينها، وعَنْ شمالِهَا، ومن أَمَامِها ومِنْ خَلْفِها، ويَرْفَعُهَا ويَخْفِضُهَا مِنْ تَحْتِها.

لفظ ﴿مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ يُرادُ به كُلُّ مَكَانٍ حَوْلَ الْفُلْكَ، وهذا الْقَيْدُ يُفْهَمُ ذِهْناً وَلَوْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ في اللَّفْظ، فَهُو مِنَ الْعُمُومِ المُقَيَّدِ بِمُحِيطٍ خاصّ يُدْرَكُ عَقْلاً، وهو من أمْثِلَةِ تَخْصِيصِ الْعُموم بالعقل.

قول الله تعالى:

• ﴿... وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ... ﴿٢٢﴾﴾: أي: وظَنُّوا ظَنّاً رَاجِحاً أنَّهُم هالِكُونَ، إذْ أحَاطَتْ أَسْبَابُ إهْلاكِهِمْ إحَاطَةً كامِلَةً بفُلْكِهِمْ.

يُقَال لغة: «أَحَاطَ الشيءُ بالشَّيْءِ يُحِيطُ إحاطَةً» أي: الْتَفَّ حَوْلَهُ من كُلِّ جِهَاتِه.

أَصْلُ الإحاطَةِ بالشَّيْء الْقُدْرَةُ على الْقَبْضِ عَلَيْهِ، أَوْ تَحقيقُ المراد بِهِ مِنْ كُلِّ جهاتِه وجَوانبه. يقالُ لغة: «أَحَاطَ الْجَيْشُ بالْبَلَدِ» أي: صَارَ مِثْلَ السّوار حَوْلَ بُنْيَانِها.

واسْتُعْمِلَت الإحَاطَةُ بمعْنَى الْعِلْم بالشيءِ عِلْماً شامِلاً كُلَّ نواحيه وجوانبه.

ولَمْ يَجْزِمُوا بأنَّهم هالِكونَ لَا محالَة، لأنَّهُم قَدْ بقي لدَيهم احْتِمالُ أَنْ ينجيَهُم رَبُّهُمْ، إذَا دَعَوْهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدُّعاء الّذِي هو مُخُّ العِبادَة في دين اللهِ لِعبادِه، فَلَا يُشْرِكُونَ أحَداً معَ رَبِّهِمْ في دُعائهم له، وعزَمُوا عَلَىٰ إجراء تَجْرِبَةِ دُعَاءِ اللهِ أن يُنْجِيَهُمْ، وأَنْ يُعَاهِدُوه علَى أن يَكُونوا مِنَ الشَّاكِرِينَ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: حتَّىٰ إذا كانَ ما سبَقَ بيانُهُ وظَنُّوا ظنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ هالِكُونَ، دَعُووا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدّين.

الإخْلَاصُ للهِ فِي الدّين: هو عبادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَريكَ لَه، والدُّعَاءُ مُخُّ العبادة ومِنْ أَوَائِلِها الكُبْرَىٰ.

وقالوا في دُعَائِهِمْ رَبَّهُمْ: رَبَّنَا لَئِنْ أَنْجيتَنا مِنْ هذِهِ الأَحْدَاثِ المُرْعِبَةِ لَنا، والَّتي ظَنَنَّا ظَنّاً رَاجحاً أنَّها مُهْلِكَةٌ لَنا، لَنَكُونَنَّ مِنَ الْحَامِدِينَ الشَّاكِرِينَ لَكَ.

اللّام في ﴿لَئِنۡ﴾ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِيٍّ، ويُسمّيها النحاةُ مُوَطِّئَةً لِلْقَسَم.

﴿أَنجَيۡتَنَا﴾: أيْ: خَلَّصْتَنَا.

﴿مِنۡ هَٰذِهِۦ﴾: أي: من هذِهِ الأَحْدَاثِ الْمُحِيطَةِ الْمُرْهِبَةِ المهلكةِ إذا لَمْ تُنْجِنَا أنْتَ بأَلْطَافِكَ رَبَّنا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: أي: نُعَاهِدُكَ رَبَّنا إنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هذِهِ أَنْ نَكُونَ مِنَ الحامِدِينَ الشَّاكِرِينَ لَك.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ إنْعَامِ المنْعِم بما يُرْضِيهِ مِنْ عَمَلٍ، وقَدْ يَدْخُلُ فِي عُمُومِه الْحَمْد، باعتباره عَملاً من أعْمالِ اللِّسَان، إلَّا أَنَّ الْحَمْدَ يَخْتَصُّ بالثَّناء، ولا يَشْمَلُ كُلَّ عَناصِرِ الشُّكر الّتي يُطَالِبُ اللهُ بها عبادَه المكلّفين في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدُّنيا.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ... ﴿٢٣﴾﴾: أي: فَحِينَ أَنْجَىٰ اللهُ جلَّ جَلالُهُ بِحِكْمَتِه هَؤلَاء المعنيّين بالبيان، الّذين عاهدوه بأنْ يكونوا من الحامِدِينَ الشَّاكِرِين، فاجَؤُوا بأنّهم يَنْقُضُون عَهْدَهُمْ الّذي عاهَدُوه رَبَّهُمْ، وفَاجَؤُوا بأنَّهُمْ يَبْغُونَ في الأَرْضِ بَغْياً بِغَيْرِ الحق.

الْبَغْي: تجاوز الحدّ المأْذُونِ به في السُّلُوكِ الإرادي، وإذا كان هذا التجاوز عَنِ الحدِّ في النّظام العامّ عِقَاباً لِلْبُغَاة بالْعَدْلِ كَانَ تَجاوُزاً بالحقّ، ولَا يُلامُ عليْه المتجاوز، فكانَ مِنَ الحكْمةِ في البيان إثباتُ قَيْدِ: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ ولَا عِبْرَةَ بكَثْرَةِ اسْتِعْمال «الْبَغْي» في الدَّلالَةِ على ما يَكُونُ بغَيْرِ الحقّ، فالدّقةُ في البيان تَلْتَزِمُ بالْوَضْعِ اللُّغوِيّ لِلْكَلِمَة ومَا تَقْتَضِيه من قُيُود إبْعَاداً للاحْتمالَاتِ غير المرادات.

وبَعْدَ أَنْ وَصَفَ اللهُ عزّ وجلَّ هؤلاء المعنيِّين بالبيان، خاطَبَهُمُ اللهُ عزّ وجلّ بقوله:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: يا أيُّها النَّاسُ الْبُغَاةُ الْكَافِرُونَ بأنْعُم الله عليكُم، النَّاقِضُونَ لمَا عَاهَدْتُم رَبّكُمْ عَلَيْه، مَا بَغْيُكُمْ بِغَيْرِ الحقّ إلَّا أَنْتُم مُعَاقَبُونَ عَلَيْهِ عقاباً أليماً عنْدَ رَبّكم يَوْمَ الجزاء الأكْبر، وبهذا يَكُونُ بَغْيُكُمْ وَبالاً عليكم، ويكُونُ مَا تُصِيبُونَهُ من مُرْضِيَاتِ أهْوَائكم وشهواتِكُم بِبَغْيِكُمْ مَتَاعاً قلِيلاً زَائلاً من أَنْواع متاع الحياة الدُّنيا.

والعبارة على تقدير: إنّما بَغْيُكُمْ مُسْتَمْتِعِينَ بِهِ مَتَاعَ الحياة الدُّنيا وبَالٌ عَلَىٰ أنْفُسِكُمْ إذْ تَجْنُونَ علَيْها جِنَايَةً عَظِيمةً تجْلُبُ لَكُمْ عذاباً أليماً عنْدَ رَبِّكُم، فَبَعْد اسْتِمْتَاعِكُمْ متاعَ الحياة الدنيا، تموتُون ثُمَّ إِلَىٰ رَبّكُمْ تُرْجعُون بَعْدَ البعث، لمحاسبتكُمْ، وفَصْلِ قضائِهِ بَيْنَكُمْ، وتنفيذِ جزائِه.

عبارة: ﴿.. فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ تقْتَضِي لوازِمَ يَدُلُّ عَلَيْها الفِكْر، وتَدُلُّ عَلَيْها النُّصُوص، فهِيَ كِنَايَةٌ عَنْها، وهذه اللّوازم يَدْخُلَ فيها الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾: أي: فَنُخْبِرُكُم، **النبأ**: الخبر البارز المهمّ.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كُنْتُمْ في رِحْلَةِ امتحانِكُمْ في الحياة الدنيا تَعْمَلُونَ بإراداتِكُمُ الحرَّة، من أعمال إراديَّة نَفْسِيَّةٍ كالكُفر، والنيَّات، والحَسَد، وتَدْبِير مُخَطَّطاتِ إضْلال عباد الله، ومُقَاومَةِ دعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانيّة، ومن أعمالٍ جَسَدِيَّةٍ كعبادة غَيْرِ الله، وارتكاب محرَّمات الْقَتْل، وأكْلِ أموال النَّاس بالبَاطِلِ، والفواحِش، إلى غير ذلك.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرس السابع من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه ومَعُونتِه وفَتْحِه.

❀ ❀ ❀

(١١)
التدبّر التحليلي للدّرس الثامن من دُروس سورة (يونس)
الآيات من (٢٤ ـ ٣٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ

جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

القراءات:

(٢٥) لفظة ﴿صِرَٰطٍ﴾: فيها قراءة أخرى بالسّين «سراط».

(٢٧) لفظة ﴿قِطَعًا﴾ فيها قراءة أُخْرَىٰ بإسكان الطاء «قِطْعاً».

(٣٠) لفظة [**تبْلُو**] فيها قراءة أخرَىٰ وهي [**تتْلُو**].

تمهيد:

في هذه الآيات إقناعٌ بواقعِ الحياة الدّنْيا، وأنّها حيَاةُ فَناءٍ، ولَيْسَتْ حياة بقاء، أمَّا حياة البقاء فهي الحياة الأخرى بَعْدَ الموت والبعث، وفيها داران، دارُ نعيمٍ خالد، ودار عذَاب بالْعَدْل، ومن العدْلِ جَعْلُ الكافِرين المجرِمين خالِدين فيها.

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

• ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

ضرَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ مَثَلاً لكُلِّ الحَياةِ الدُّنيا بفَصْلٍ من فُصُولها الزّراعِيَّة، في سَنَةٍ مِنْ سَنَواتِها، واختير في هذا الْفَصْل أنْ يكُونَ من الْفُصولِ البَهِيجَةِ الّتي تَنْمُو زُرُوعُها نَماءً عَظِيماً يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ، مُزَخْرَفاً بأزْهَارِهِ الرَّائِعَة، المنْثُورَةِ علَىٰ خُضْرَتِه المالِئَةِ سَطْحَ الأَرْض.

لكِنَّ هذا الْفَصْل الزّراعيّ الرائع أتَتْهُ بتقدير اللهِ وقضائه عواصِفُ وقواصِفُ وَوَسَائِلُ مُدَمِّرَةٌ مُهْلِكَةٌ أُخرَىٰ، فَجَعَلَتْ كلَّ مَا عَلَى الأرْضِ من نباتات هالِكَةً تَالِفَةً مُبَدَّدَةً، وصَارَتِ الأرض جَرْدَاءَ لَا زَهْرَ فيها ولا ثَمر ولَا نَبات، كأنَّها لَمْ تَكُنْ ذَاتَ نباتٍ وَخُضْرَة وزهْرٍ وثَمرٍ ونُضْرَةٍ ورَوْنَقٍ وزُخْرُف.

وهكذا تَنْتَهي الحَياةُ الدُّنيا كُلُّها، ثُمَّ تَكُونُ بَعْدَها أحْدَاثُ الحياة الأخرىٰ، الَّتي هي حَياةُ البقاء، وفيها يكُونُ الحسَابُ، وفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء بِعَدْلِ اللهِ أو بِفَضْلِه، بِحَسَبِ واقع حالِ المقْضِيّ لَهُ، أو المقضيّ عَلَيْه.

● ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . .﴾ «إنَّما» أداة حَصْرٍ وقَصْر، قَصَرَ الله عزّ وجلّ بِهِ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيَا كلِّها علَىٰ مَا جاء تَفْصِيلٌ لَهُ في بِقيّة الآية، وهُوَ قَصْرٌ إضَافيٌّ، أي: بالإضافَةِ إلى صِفَتَي الْفَنَاءِ والْبَقاء، والصُّورَةُ الَّتي جاءَتْ فِي المثَلِ صُورَةٌ مُنْتَهِيَةٌ بِفَناءٍ مفاجِئ.

● ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . . ﴿٢٤﴾﴾:

كَانَ من الممكِنِ أَنْ يُؤْتَىٰ بِتَعْبِير أخْصَرَ مِن هذا، مِثْل: «كَحَدَائِقَ ذَات بَهْجَةٍ» أو «كَفَصْلٍ زراعيّ نفيس النّبات».

لكِنَّ التَّفْصِيلَ الّذي جاء في العبارة القرآنيَّة قَدْ أدْمَجَ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ إتْقَانِ صُنْعِ اللهِ في تَصَارِيفه، ومِنَّتِهِ العظيمة على عباده بما يأكُلونَ، وبما تأكُلُ أنْعَامُهُم.

فاللهُ عزّ وجلَّ هو الَّذِي يُنْزِلُ الماء من السَّحَابِ، بتَدْبِيره لأحْدَاثٍ سَبَبِيَّةٍ في كَوْنه، وهو الذي يَجْعَلُ الماءَ بتَقديره يَخْتَلِطُ بِهِ نباتُ الأرض، فَيَنْمُو، ويُزْهِرُ ويُثْمِر، وهو الَّذِي يَجْعَلُ أصْنَافاً من النبات صالِحَةً لغذاء الناس، فَهُمْ يأكُلُونَ مِنْهُ، وأصنافاً أخْرَىٰ صالِحَةً لغذاء الأنعام فَهِي تَأْكُلُ مِنه.

ودَلَّتْ عِبَارَة: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ عَلَىٰ أنَّ الماء يَدْخُلُ في كُلِّ خلَايا النَّبَاتات حَتَّىٰ يكُونَ مخْتَلِطاً فيها اختلاطَ الذَّرّات بالذَّرّاتِ، لِتَتِمَّ بِذلِكَ عَجَائِبُ النَّمَاءِ على وَفْقِ خَصَائِصِ كلِّ نَوْعٍ وكُلِّ صِنْفٍ وكُلِّ فَرْدٍ من أفرادِ النَّبَاتَاتِ والأزهار والثّمار.

الأنعام: هي الأموال الراعية، وهي الإبل والبقر والغنم، ولفظ «الأنْعَام» يُذَكّر ويُؤَنّث.

• ﴿.. حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ... ﴿٢٤﴾﴾: أي: وأَخذَ نَباتُ الأرضِ يَنْمُو بقضاءِ اللهِ وقَدَرِهِ وخَلْقِه تِباعاً مَعَ الوحداتِ الزَّمَنِيَّة الصُّغْرَىٰ، حتَّىٰ أَخذَتِ الأرْضُ بما نَمَا فيها من نباتٍ زُخْرُفَها، وازّيَّنَتْ بخُضْرَتها ونُضْرَتِها وَشَجرِها وَأزْهارِها وثمَرَاتها.

الزُّخْرُف: كَمَالُ حُسْنِ الشيء، ويُطْلَقُ علَىٰ الذَّهب، ويُطْلَقُ على الزينة، والمعنَىٰ الأوّل هو الملائم هُنا في الآية.

﴿وَٱزَّيَّنَتۡ﴾: أصْلها: تزينت، قلبت تاءها زاياً وأُدغمت بالزاي.

﴿.. وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ ..﴾: أي: وظَنَّ أهْلُ الأَرْضِ ظَنّاً رَاجحاً أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَىٰ الانْتِفَاعِ بِكُلِّ مَا أَنْبَتَتْ مِنْ نَباتٍ نافعٍ بَهِيجٍ، وَلَيْسَ بَيْنَهُم وبَيْنَ الانْتِفاع به إلّا أن يَحْصُدوا زَرْعَهُ ويَقْطِفُوا زَهْرَهُ، وَيَجْمَعُوا ثَمراتِه.

﴿.. أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ..﴾ أي: أَتاهَا أَثَرُ أَمْرِ اللهِ بإهْلَاكِها وَإبَادَةِ كُلِّ مَا نبتَ فِيها، فَجَعَلها اللهُ هَالِكَةً مُبدَّدَةً لا أثَرَ لِشَيْءٍ مِنَ النَّبَاتِ عَلَيْها.

الْحَصِيد: هو المحْصُود من الزَّرْعِ بالمنْجَل، ويَأتي الْحَصْدُ بمعنى الاستئصال، يقال لغة: «حَصَدَ الْقَوْمَ بالسَّيْفِ» أي: قَتَلَهُمْ واسْتَأْصَلَهُمْ، وهذا المعنَىٰ هُو الملائم هُنَا.

﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾: أي: كأنَّها لَمْ تَكُنْ عَامِرَةً بالخيرات قَبْلَ يَوْمِ إهلاكها، وإبادَةِ مَا كانَ عَلَيْها، إذْ صارت قاحِلَةً جرْداء.

﴿.. كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: أي: أبَنَّا للمتفكّرينَ بالتَّفصيل الكَلَامِيّ ولوازِم دَلَالَاتِهِ الْفِكْرِيَّة، كَيْفَ تكونُ نهايَةُ الحَياةِ الدُّنْيا، رغْبَةً في أنْ لَا تَأْسِرَهم بزيناتها ومتَاعِها الزائل، كَذلِكَ نُفَصّلُ الآياتِ في كُلِّ مَوْضوعٍ دِينيٍّ لِقَوْمٍ يَتفَكَّرُون، فَيَهديهِمْ تفكُّرُهُمْ إلَىٰ الحقّ، فإذا عَقَلُوا الْتَزمُوا صِراطَه المستقيم.

التفصيل: التَّبْيين، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظْهَارِ مَا بَيْنَها من انْفِصَالٍ وَلَوْ لم يَكُنْ مَرْئِيّاً، لتمييز بعْضِها عن بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفِكْرِي.

قول الله تعالى:

- ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾:

دارُ السَّلَام: هي الجنَّة يَوْمَ الدِّين، إذْ جَعَلَها اللهُ عزَّ وجَلَّ آمِنَةً خالِيَةً من كُلِّ مَكْرُوهٍ يُخافُ حُصُولُه، فَلَا أكْدَارَ فيها ولَا منغِّصات، ولا مُسْتَقْذَرات ولَا خبائث، بل كُلُّها نَقاءٌ وطهارَةٌ وأمْنٌ، حتَّىٰ تَحِيَّةُ أهْلِ الجنَّةِ في الجنَّة «سَلامٌ».

بَعْدَ أنْ أبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ مَثَلَ الحياة الدُّنيا، وتَضَمَّنَ هذا البيان الدَّعْوَةَ إلَى عَدَم التعلُّقِ بها تَعَلُّقاً صَارِفاً عَن الْعَمَل للآخِرَة الخالِدَةِ الَّتي لا مَوْتَ فيها ولا فناء، وفيها دارٌ عظيمةٌ هي دار سَلام ونَعِيم خالد، وكانَ هذا البيان يَتَضمَّن معنى قول الله تعالى: لَا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدُّنيا، جَاءَ عطْفُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ على هذا المعْنَىٰ المسْتَفادِ ذِهْناً من جُمْلَةِ الْمَثَل.

المعنى: اللهُ يَدْعُوكم أيّها الموضُوعُونَ في الحَياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ إلى أَنْ لَا تَغُرَّكُمُ الحياةُ الدُّنْيا، لأنّها حَياة فانِيَةٌ سَرِيعةُ الزّوال، ويَدْعُوكم إلى دار السَّلام الجنَّةِ، الَّتِي لَا تخافونَ فيها مَرَضاً ولَا مَوْتاً ولا جُوعاً ولا ظمأً ولَا شيئاً مِمَّا تَكْرَهون.

يَدْعُو: أي: يَطْلُبُ مُرَغِّباً حاثّاً، وهذا أحَدُ معاني هذا الفعل.

﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: أي: واللهُ يَهْدِي من يشاءُ الهِدَايَة الموصلَةَ إلَى دَارِ السَّلام، إذْ آمَنَ بما أوْجَبَ اللهُ على عباده المكلَّفِين أَنْ يُؤْمِنُوا بِه، إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم مُشْتَمِلٍ على التْكاليفِ العمليَّةِ، النَّفْسِيَّةِ والجَسَدِيَّة، مُوصِلٍ إلى دَارِ السَّلام الّتي دَعَا اللهُ إلَيْها، ففاعِلُ المشيئَةِ بمقْتضَىٰ هذا الْفَهْمِ هُو الإنسانُ المؤمِن.

وإذَا اعتَبَرْنَا أَنَّ فَاعِلَ المشيئَةِ ضَمِيرٌ يعُودُ على اللهِ عزّ وجلّ، فالمعْنَى: ويَهْدِي مَنْ يَشَاءُ اللهُ هِدَايَتَهُ لأَنَّهُ آمَنَ إيماناً صَحِيحاً صادقاً، إلى صراطٍ عمليٍّ مُسْتَقِيم يُوصِلُهُ إلى دَارِ السَّلام، ثم تكُونُ دَرَجاتُهُ فيها بحَسَب سَعْيِهِ ومُجَاهَدَتِهِ لمطَالِبِ نَفْسه، واقْتِحامِهِ عَقَباتِها، وهذِهِ الْهِدايَةُ الرَّبَّانِيَّةُ لَهُ هِيَ دَلَالَةٌ وتَوْفِيقٌ ومَعُونَة، وليْسَتْ هِدَايَةَ جَبْرٍ لِمَسْلُوبِ الإرادة، ومن لَوَازِمِ دلَالة هذه الهداية وجُود فريقين: مَهْدِيٍّ وغير مَهْدِيّ.

ونَحْنُ نَعْلَم أنَّ مَشِيئَةَ اللهِ عزَّ وجلّ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، ولَا تتناقَضُ

ولَا تَتعارَضُ مع مَشِيئةِ التَّخْيِيرِ الّذِي مَنَحَهُ عبادَهُ المكلَّفِين، إذْ لَا جَبْرَ مَعَ التَّخْيِير للتَّناقُضِ بيْنَهُمَا. وتعقيباً على وُجود مَهْدِيين وغير مَهْدِيّين جاء:

قول الله تعالى:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ بَيانُ بَعْضِ تَفْصِيلٍ لجزاءِ الَّذِين أحَسَنُوا في رحلَةِ امتحانهم، وجزاءِ الَّذِين كَسَبُوا السَّيِّئات، وهذا الجزاء يَنالُونَهُ يوْمَ الدّين، ومَا جاء فيهما مُنْسَجِمٌ مع مَنْهَجِ الْقُرْآنِ في تَجْزِئَة عَناصِرِ الترغيب والترهيب، وتوزيعها في مواضِعَ كثيرة من القرآن المجيد، لأنّ العلاج الدوائيّ يَحْتَاجُ إلى هذِهِ التجزئة.

● ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾: أي: للذِّينَ فَعَلُوا أفعالاً حَسَنَةً في رحلة امتحانهم في الحياة الدنيا. يقال لغة: «أَحْسَنَ فُلانٌ» أي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ، والْمُرَادُ هُنَا الفِعْلُ الْحَسَنُ الّذِي يَرْضَاهُ اللهُ عزّ وجَلَّ، واسم الموصول وصِلَتُه خَبَرٌ مُقَدَّم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾: مُبْتَدأ متَأَخّر ومعطوفٌ عليه. والمرادُ بالحسنَىٰ الجنَّةُ دَارُ السَّلام. **الْحُسْنَىٰ**: مُؤَنَّثُ «الأحْسَن» ومعلومٌ أنّ الجنَّةَ أفْضَلُ دارٍ مُسْعِدَةٍ، أعَدَّها الله لسُكْنَىٰ المؤمنين المتَّقِين يوْمَ الدِّينَ خَالِدِينَ فيها.

وثَبَتَ في الصحيح أن المرادَ بالزِّيَادَةِ النَّظَرُ إلى وَجْهِ اللهِ الكريم، على ما رواه مُسْلِمٌ والإمام أحْمَدٌ وغيرهما، أنّ رسُول الله ﷺ تلا قولَ الله عزّ وجلّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ الآية وقال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَىٰ مُنادٍ: يَا أَهْلَ

الْجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أنْ يِنْجِزَكُمُوهُ، فيقولُون: وَمَا هُو؟. أَلَمْ يُثْقِلْ مَوازِينَنَا؟؟. أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النارِ؟؟. قال: فَيُكْشَفُ لَهُمُ الحجابُ فَيَنْظُرُونَ إلَيْه، فوَاللهِ مَا أعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ».

وروى ٱبْن جَرير عن أبي مُوسَىٰ الأشْعَرِيّ عَن رَسُول اللهِ ﷺ أنَّهُ قال:

«إنَّ اللهَ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقيامَةِ مُنَادِياً يُنَادِي: يَا أَهْلَ الجنَّةِ ـ بِصَوْتٍ يُسْمِعُ أَوَّلَهُمْ وآخِرَهُمْ ـ إنَّ اللهَ وَعَدَكُمُ الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَة، فالْحُسْنَىٰ الْجَنَّةُ، والزيادَةُ النَّظَرُ إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ عزّ وجلّ».

● ﴿.. وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ .. ﴿٢٦﴾﴾: أي: ولا يَغْشَىٰ وَلَا يَعْلُو وُجُوهَهُمْ ذَرَّاتٌ سَوْداء كالدُّخان، ولَا عَلامَاتُ ذِلَّةٍ يَشْعُرُونَ بها فِي نُفُوسهم.

يُقَالُ لغةً: «رَهِقَ الشَّيْءُ الرَّجُلَ، يَرْهَقُهُ، رَهْقاً» أي: غَشِيَهُ وعَلَاه.

الْقَتَر: لَوْنُ غُبارٍ ضَارِبٍ إلى السَّواد، كالّذِي يُشَاهَدُ على وجُوهِ الْعُمَّالِ الّذِين يَعْمَلُونَ بِتَنْظِيفِ الآلَاتِ الحدِيدِيَّةِ المتَّسِخَةِ بأوْسَاخ من غُبَارٍ أسْوَد.

الذِّلَّة: الشُّعُورُ بالضَّعْفِ والْهَوَانِ في عُمْقِ النَّفْسِ، ولَهُ آثارٌ تَغْشَىٰ الْوُجُوه، والمرادُ هٰذِهِ الآثار.

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أشار الله عزّ وجلَّ إلى الذين أحْسَنُوا في رحلة امتحانهم إيماناً وعملاً باسم الإشارة الموضوع للبعيدين، للدّلالَةِ على بُعْدِ مَنْزِلَتِهِم ارْتفاعاً.

أَصْحَابُ الجنَّة: أي: مُلازموها دَواماً لَا يَخْرُجُونَ مِنْها، فالصاحِبُ ملازم، وصَاحِبُ الشَّيْءِ المختَصُّ بالانْتِفاع بما فيه من مَنافِع، فهو كالمالِكِ لَهُ.

وَأَكَّدَ اللهُ عَزّ وجَلَّ دَوَامَ مَلازمَتِهِم للْجَنَّةِ وَنَعِيمها بِقَوْلِهِ ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ومَعْنَى الخُلُودِ في الجنَّةِ الْبَقَاءُ الّذِي لَا نِهَايَةَ له.

• ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ .. ﴿٢٧﴾﴾: كَسْبُ الشيء فِعْله، وكَسْبُ الإثْمِ تَحَمُّله باخْتِيَار الكاسب.

ومعْنَىٰ: كَسَبُوا السَّيئَات، كَسَبُوا الْفَعَلَاتِ والمكْسُوبات السّيّئَاتِ من أعمال نَفْسِيَّةٍ أَوْ جَسَدِيَّة، حتَّىٰ دَرَكَةِ ما لا يَغْفِرُهُ الله.

السّيِّئة: الفَعْلَةُ القَبِيحَةُ المكْروهة، والْخَصْلَةُ المكروهة، وكُلُّ نَازِلَةٍ مَكْرُوهَةٍ هي سَيِّئَةٌ في اللُّغَة.

وفِعْلُ السّيئاتِ هو فِعْلُ مَا نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ في الدِّين الذي اصطفاه لعباده، وهو يَشْمَلُ تَرْكَ مَا أَمَرَ اللهُ بفِعْله، فالتَّرْكُ فِعْلٌ مُضَادٌّ للفعل المأمُور به، إذَا كان تَرْكاً إراديّاً.

واسم الموصول وصلتُه مُبتَدأ، وخَبَرُه الجملَةُ التالية:

• ﴿.. جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا .. ﴿٢٧﴾﴾:

أي: يَنْطَبِقُ عَلَيْهِمْ قَانُونُ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ، وهو أَنَّ جَزَاءَ كُلِّ سَيِّئَةٍ كَسَبُوها كائِنٌ بِمثْلِهَا، إِذَا لَمْ يَعْفُ اللهُ عَنْهَا بِفَضْلِهِ عَلَىٰ وفْقِ حِكْمَته، وَقَدْ يَجْزِي بأقَلَّ مِنْ مِثْلِها تجاوزاً أو صفحاً، ولكِنْ لَا يَجزي السّيِّئَة بأكْثَرَ من مِثْلِها، فاللهُ جلَّ جَلَالُهُ لَا يَظْلِمُ أحداً شيئاً.

• ﴿.. وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ..﴾: أي: وتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمْ وَسَائِرَ جُسُومِهِمْ آثار مشَاعِرِ ضَعْفٍ وَهوانٍ في نفوسهم.

• ﴿.. مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ ..﴾: أي: مَالَهُمْ من حَامٍ يَحْمِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ بالْعَدْل.

«**من الله**» متعلّق بـ«عاصِم» و«مِنْ» في: ﴿مِنْ عَاصِمٍۖ﴾ لتَوْكيد عُمُوم النفي والتَّنْصِيصِ علَيْه.

• ﴿.. كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ ... ﴿٢٧﴾﴾: أي: تَكُونُ وُجُوهُهُمْ سَوْداءَ مُظْلِمَةً، كأنَّما غَطَّتْ جُلُودَهَا قِطَعٌ مِنَ اللَّيْلِ، حَالَةَ كوْنِهِ مظْلِماً ظلاماً دَامساً لَا تختلط به أنوار قَمَرٍ ولَا نُجُومٍ، وهذا يكون حينَما تكُونُ السّماء محجوبَةً بسُحُبٍ كثيفَةٍ مُظْلِمَة.

لَفْظُ ﴿قِطَعًا﴾ جَمْعُ قِطْعَة، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كأنّما غَشَّتْ وَجْهَهُ قِطْعَةٌ من لَيْلٍ مُظْلِم.

وجاء في الْقِرَاءَة الأخْرَى: [**قِطْعاً**] بإسْكان الطاء. «**القِطْعُ**» اسم لِلجُزْءِ مِن زَمَنِ لَيْلٍ مُظْلمٍ، ونفهم مِنْ هذه القراءة أَنَّهُمْ حِينَ يُحْشَرُونَ وتَلْتَصِقُ أجْسَادُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ يَكُونُ مَنْظَرُهُم مُجْتَمِعِينَ كَجُزْءٍ مِنْ لَيْلٍ مُظْلِمٍ باعتبار أنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ كأنَّما غَشِيَتْهُ قِطْعَةٌ من لَيْلٍ مظْلِمٍ لا نور فيه.

• ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾:

أشار اللهُ عزّ وجَلَّ إلى الّذينَ كَسَبُوا السّيِّئَاتِ حتَّىٰ دَرَكَةِ مَا لا يَغْفِرُهُ اللهُ، وهو الشِّرْكُ فما هو أَقْبَحُ مِنْه في رِحْلَةِ امتحانهم، باسم الإشارة الْمَوْضُوعِ للمشار إليهم الْبَعِيدِينَ، للدَّلَالَةِ على بُعْدِهم عن مَهَابط رَحَمَاتِ الله، تَسَفُّلاً في الدَّرَكات وانْحِطَاطاً في اتِّجاه مَكَانِ أسْفَلِ سافِلين.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾: أي: ملازمُوها دَواماً، لا يَخْرُجُونَ منها، فالصاحِبُ ملازم، وقَدْ جُوزوا بهذِهِ الملازَمَةِ لعذابِ النَّار لاستحقاقِهِم لها، بسَبَبِ كُفْرِهم، ومَا كَسَبُوا من كُبْرَيَاتِ المعاصِي والفساد والإفساد في الأرْض.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

في هذِهِ الآياتِ بيانُ لقَطاتٍ من مَشْهَدٍ من مَشاهِدِ يَوْمِ القِيَامة، وفيه سَبْعُ لقَطات:

اللَّقْطةُ الأولَى: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾: أي: وحِينَ نَحْشُرُ الّذِينَ كانُوا مَوْضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان حالةَ كونِهِم جَمِيعاً.

الحشْر: السَّوْقُ والجمع.

وكلمة «يَوْم» مستَعْمَلَةٌ بمَعْنَىٰ «حِين» الدَّالّ على زَمَنٍ ما من يوم القيامة، ومثل هذا الاستعمال متكرّر في القرآن المجيد.

أي: وضَعْ أيُّها المتَلَقِّي في ذَاكِرَتِكَ حِينَ نَسُوقُ ونَجْمَعُ كُلَّ الَّذِينَ كانوا مَوْضوعين في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحان، بَعْدَ البَعْثِ إلى الحياة الأخرىٰ.

فلَفْظُ «يَوْمَ» مفْعُولٌ فيه لِفِعْلٍ محذوفٍ تَقْديره: «اذْكُر» أي: ضَعْ في ذاكِرَتِك.

اللَّقْطة الثانية: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجَلّ: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ من حَشْرِهِمْ جَمِيعاً نَنْقُلُ غَيْرَ الْمُشْرِكينَ وشُرَكائِهِمْ إلى مَكَانٍ آخر، ونَقُولُ للَّذِينَ أشْرَكُوا: الْزَمُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ.

لفظ «مَكَانَكُمْ» منْصُوبٌ بِفِعْلٍ مطوِيٍّ تقديرُه: «الْزَمُوا» ومثل هذا شائِعٌ في كلام العرب.

اللَّقْطَةُ الثالثة: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وَجَلّ: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ﴾: أي: فَفَصَلْنَا وَفَرَّقْنَا بَيْنَ الْمُشْرِكِينَ وشُرَكَائِهِمْ.

التَّزْيِيلُ: هو في اللُّغَةِ الْفَصْلُ والتَّفْرِيقُ بَيْنَ المختَلِطِين.

اللَّقْطَةُ الرابعة: دَلَّ عليها قَوْلُ الله عزّ وجل: ﴿.. وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

تُشْعِرُ هذهِ العبارة بِأنَّ المشركين قالُوا لشركائِهم، أنْقِذُونا من وَرْطَتِنا العظْمَى، فَقَدْ كُنَّا فِي الحياةِ الدُّنْيا نَعْبُدُكُمْ، ونَتَّخِذُكُمْ شُرَكَاءَ للهِ من دُونِه، ويُجِيبُهُم شرَكاؤهم بقولهم لَهُمْ: ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدون.

أفهم من هذا الحوار أنَّ آلِهَةَ المشركين الّذِينَ يُحْشَرُونَ مَعَهُمْ، بَشَرٌ أو مَلَائكَةٌ أَوْ جِنّ، وأَنَّ الأَوْثَانَ كَانَتْ صُوراً أو رُمُوزاً لهم، وأنَّهُمْ بعبادَةِ الصُّوَرِ والرُّمُوز كانوا يَعْبُدونَ في الحقِيقَةِ الأحياء، أو الّذِينَ كَانُوا أحْيَاء وكانوا صُلَحاء، أو موهوبينَ قُوىً مُتَفَوِّقَة على نُظَرَائهم في حيواتهم، فعبَدَهُمْ عابِدُون لَهُمْ مِنْ دُونِ الله، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّ لَهُمْ قُوىً فَائِقَةً هي من عناصر رُبُوبِيَّةِ الرَّبّ الخالق، واتَّخذُوا لَهُمْ صُوراً أَوْ رُمُوزاً، وتوهَّمُوا أَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ بِعِبَادَتِهِمْ لهم، فيَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ، وقلَّدَتْهُمْ أجيالُهُمْ في ذلك.

لَكِنَّ مَعْبُودِيهِمْ كَانوا لَا يَشْعُرُونَ بِعِبَادَةِ عابديهم، والأحْيَاءُ من الملائكةِ كانوا عَنْ عبادتِهِمْ غافِلِينَ، وهذِهِ الْغَفْلَةُ هي أحْسَنُ أحوالِ المعْبُودِين.

ولكِنْ ما مَعْنَىٰ قَوْلِ شُرَكَائِهِم لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ إيَّانا تَعْبُدُون؟!.

الَّذِي أفْهَمُهُ مِنْ هَذا أَنَّ مَعْبُودِيهِمْ يَقُولُونَ لهم: إنّكُمْ مَا كُنْتُمْ في الحقيقَةِ تَعْبُدُونَنا، بَلْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أهْوَاءَكُمْ وشَهَوَاتِكُمْ وتَعْبُدُونَ الشيطان بطَاعَتِهِ فيما يأمُرُكُمْ بِهِ من فِعْلِ الشَّرّ، وفيمَا يَنْهاكُمْ عَنْهُ من الإيمان

الصّحيح باللهِ رَبّكُمْ وَبما أَمَرَكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا به، ومن فِعْلِ الصّالحاتِ الّتي أَمَرَكُمْ رَبُّكُمْ بفِعْلِها، وَمِنْ عِبادَتِكُمْ للشَّيْطَانِ بطَاعَتِهِ طَاعَتُكُمْ لَهُ في اتّخاذِنَا آلِهَةً مِنْ دُونِ الله، ونَحْنُ لَا عِلْمَ لَنَا بِذَلِكَ ولَمْ نَأْمُرْكُمْ به.

وَيجادِلُ المشرِكُونَ شُرَكَاءَهُمْ، حِرْصاً مِنْهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَحْمِلَ شُرَكَاؤُهم مَعَهُمْ شَيْئاً من الْعَذَابِ الّذِي يَسْتَحِقُّهُ المشركون، وهُنَا تَأْتي اللّقْطَةُ الخامِسَةُ من المشهد.

اللّقْطَةُ الخامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عزّ وَجلَّ: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فإنْ كُنْتُمْ أَيُّهَا المشْرِكُونَ لَا تُصَدِّقُونَنَا، فاللهُ يَشْهَدُ لَنَا بأَنَّنَا لَمْ نَدْعُكُمْ إِلَى عِبادَتِنَا، وَلَمْ نَطْلُبْ مِنْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُونا آلِهَةً شُركاءَ للهِ من دُونه، ولَمْ يَكُنْ لَنَا عِلْمٌ بِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنَا مِنْ دون الله، وَأَدْنَىٰ أَحْوَالِنَا أَنَّنَا كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَنَا لَغَافِلِينَ، لَا نُدْرِكُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ في الحياة الدُّنْيا، لأَنَّنَا كُنَّا مُنْصَرِفِين انْصِرَافاً كُلِيّاً إلى ما نَحْنُ مَشْغُولُونَ بِهِ من أُمُورِنا.

﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾: أي: فكَفَىٰ اللهُ، والباء مَزِيدَةٌ للتوكيد، ومعنى «كَفَى» أغْنَى.

﴿شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: أي: عالماً بِنَا وَبِكُمْ عِلْمَ شُهُودٍ، فَهُوَ يَشْهَدُ لَنَا بِأَنَّنَا بُرَءَاءُ من دَعْوَتِكُمْ لعِبادَتِنا، وَيَشْهَدُ لَنَا بأَنَّنا لَمْ نَكُنْ نَعْلَمُ بأَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَنا، ولفظ ﴿شَهِيدًۢا﴾ تمييز.

﴿.. إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾: «إِنْ» هي المخفَّفة من الثقيلة، واسْمُها ضمير الشأنِ واجب الحذف. واللام في: ﴿لَغَٰفِلِينَ﴾ هي الفارقَةُ بَيْن «إِنْ» المخفَّفَة من الثقيلة، وبين «إِنْ» النافية.

اللّقطة السادسة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ .. ﴿٣٠﴾﴾:

أي: هُنَالِكَ في المكان البعيد وهو الْمَحْشَرُ، تَكْشِفُ كُلَّ نَفْسٍ كانت مَوْضُوعَةً في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، مَا أَسْلَفَتْ من كِسْبٍ نَفْسِيٍّ أَوْ جَسَدِيّ.

﴿مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ﴾: أي: مَا سَبَقَ أَنْ عَمِلَتْ في الحياة الدُّنْيَا في رحلة امتحانها.

وفي القراءة الأخْرَىٰ: [**تَتْلُو**] أي: تَتْبَعُ، وقَدْ يَكُونُ المرادُ تَتَبُّعَهَا في كتابِ أَعْمَالِها مَا سَبَقَ في رَحْلَة امْتِحَانِهَا أَنْ عَمِلَتْ في الحياةِ الدُّنيا، وهذا التَّتَبُّعُ يُؤَدِّي إلى الكشْفِ الّذي دَلَّتْ عَلَيْهِ قراءة: ﴿تَبۡلُواْ﴾.

اللّقطة السَّابعة: دَلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿.. وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: وبَعْدَ الحشْرِ والْفَصْلِ بَيْنَ المشْرِكِينَ وَشُرَكائِهم، وكَشْفِ الَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ مُفْرَداتِ سَيِّئاتِهِم في صُحُفِ أعْمَالِهِمْ، يُرَدُّونَ إلى مَوْقِفِ مُحَاسَبَتِهِمْ، والقضاء بشأْنِهم في مَحْكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، وحينئذٍ يَجِدُونَ أَنَّهُمْ قَدْ ضَاعَ مِنْهُمْ كُلُّ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَهُ من باطِلٍ بشِرْكِيَّاتِهِمْ وَلَوازِمِهَا في السُّلُوك النفسيّ والجسَدِيّ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الدَّرْسِ الثامن من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.



(١٢)

التدبّر التحليلي للدرس التاسع من دُروس سورة (يونس)
الآيات من (٣١ ـ ٣٦)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا

تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

القراءات:

(٣١) • قرأ ٱبْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْنُ عامِرٍ، وشُعْبَةُ: **[الْمَيْت]** بإسكان الياء دون تشديد في الموضعَيْن. وقرأهُما باقي القراء العشرة بتشديد الياء مكْسُورة، وهما لُغتَانِ متكافئتَان للكلمة.

(٣٣) • قرأ نافع وابْنُ عَامِرٍ، وأبُو جَعْفَر: **[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** بالجمعِ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بالإفراد.

ومؤدّى القراءتَيْن واحد، فالمفرد المضاف إلى المعرفة يَعُمَّ فهو كالجمع.

(٣٥) • في: ﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾ وُجُوهٌ من القراءات سبَقَ بيانُها في حاشية نَصِّ السُّورَة، ومعظمها وُجُوهٌ من الأداء، مع بعض اختلافٍ تكامليّ في أداء المعنى المراد بَيْنَ «يَهْدِي» و«يَهْتَدِي» وهو ظاهر.

تَمْهيد:

في هذه الآيات تَعْلِيمٌ من اللهِ عزّ وجلَّ لِرَسُوله ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّتِهِ، فِقراتٍ جِدَالِيَّةً للمشْركين، حَوْلَ تفصيلاتٍ منْ رُبُوبِيَّةِ اللهِ

لكَوْنِه، الَّتِي تَدُلُّ علَى أَنَّهُ لَا شَرِيكَ له في رُبوبيّتِه، باعْتِبَارِ أَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبيَّةِ للهِ يَلْزَمُ عَنْهُ عَقْلاً لُزُوماً مُبَاشراً توحِيدُ الإلَهِيَّةِ له، إذ الإلَهِيَّةُ حَقُّ مَنْ هُوَ رَبٌّ، ولا إلَهِيَّة بِبُرْهَانِ الْعَقْلِ إلّا لِمَنْ هُوَ الرَّبُّ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ، أو لِمَنْ يَأْمُرُ هُوَ بِعِبَادَتِهِ، ولكِنَّ اللهَ عزّ وجلّ مع بُرْهَانِ الْعَقْل نَهَىٰ عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِه، وَجَعَلَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ إشْرَاكاً بِهِ، وكُفْراً لَا يَغْفِرُهُ، مع احْتِمَال أَنْ يَغْفِرَ مَا دُونَهُ مِنَ المعاصِي لِمَنْ يَشاء.

وفي هذه الآيات مُتَابَعَةٌ لِمَا جاءَ في الدرس الخامس من دُروس سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهو الآية (١٢) منها.

وقد سبق أن عرفْنَا أَنَّ سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) قَد اشْتَمَلَت على مُتَابَعَات فيها إضافاتٌ وشَرْحٌ وَتَفْصِيلٌ لقضايا اشْتَمَلَتْ عليها سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) فكَأَنَّها امْتِدَادٌ لها.

التدبّر التحليلي:

قول الله تَعالى لِرَسُولِه فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مُعَلِّماً فقراتٍ جداليَّة للمشركين:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أنْكَرَ المشرِكُون المعنيُّونَ بالمعالجةِ في مَسِيرَةِ الدَّعْوَةِ المكيَّة أَنْ يكُونَ اللهُ هُو الرَّحمٰن، أي: أنْكَرُوا اتّصافَهُ بالرَّحْمَةِ، وإنكارُهُم رَحْمَتَهُ يَتَضَمَّنُ إنْكَارَهُم أَنْ يكُونَ رَازِقاً، فَهُمْ يَلْتَمِسُونَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ آلِهَتِهِمْ ومن عبادَاتِهم لها، إذْ يَجْعَلُونَ مع اللهِ شُرَكَاءَ أَرْبَاباً، فِي بَعْضِ عناصِرِ الرُّبُوبيَّة ومِنْها الرِّزْق، أمّا خَلْقُ السَّمَاواتِ والأَرْض، فيؤْمِنُونَ بأَنَّه للهِ وحْدَه، لَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ في هذِهِ الرُّبُوبيَّة.

وقَدْ سَبَقَ في سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) في الآيتَيْن (٦١ و٦٢) بَيَانُ ما يَدُلُّ على أنَّهُ جَلَّ جَلالُهُ رَحْمانٌ ورَحِيمٌ بِعِبادِه، كما ظَهر لدى تَدبُّرِهما في مَوْضِعِهما.

ويعالج الجِدَالُ هُنَا إثْبَاتَ رُبُوبيَّةِ اللهِ في الرِّزْقِ بِصُورَةٍ صَرِيحة، وإثْبَاتَ رُبُوبيَّةِ اللهِ في أنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصارَ مَنْحاً وسَلْباً، وفي أنَّهُ هو وَحْدَهُ الَّذي يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيّ، وفي أنَّهُ هُو وَحْدَهُ الَّذِي يُدَبِّرَ الأَمْرَ كُلَّهُ في الأكْوانِ مِنْ أقْرب كائنٍ إلَيْنَا إلى أبْعَدِ كائنٍ مَخْلُوقٍ في الوجُودِ كُلّه، فَهِيَ أَرْبَعُ قَضَايَا يُثِيرُ المناظر المحَاوِرُ المؤمِنُ الدَّاعِي إلَى اللهِ جِدَالاً حَوْلَها بالَّتِي هي أحْسَنُ مع المشركين، ويُقَدِّمُ مُنَاظَرَتَهُ بأسْلُوب طَرْح السُّؤَال لاستخراج ما عند المشرِكِ من إجابَةٍ حوْلَ سُؤَالِهِ، فإنِ ادَّعَىٰ أنَّ الآلِهَةَ الَّتِي يَعْبُدُها مِنْ دُونِ الله هي الّتي تَرْزُق، وهي الّتي تَمْلِكُ السَّمْعَ والأبْصار، وهي الّتي تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتَخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحَيّ، وهي الّتي تُدبِّر أَمْرَ الكَوْنَ، فَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ لادِّعَاءٍ يَكُونُ هُو الخَاسِرَ المغْلُوبَ لَدَى مُنَاظَرَتِهِ حَوْلَها، إذْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدْ جواباً يَدَّعِيهِ فقَدْ أَلْزَمَ نَفْسَهُ بِسَمَاعِ بَرَاهِينِ الدَّاعِي إلَى اللهِ، ثُمَّ إنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الاعْتِرَافِ بالْحَقِّ إذا قَامَتْ عَلَيْهِ الحجَّةُ الْبُرْهَانِيَّة، فإنَّهُ سيقول: إنَّ الرَّبَّ الّذِي يَفْعَلُ ويَمْلِكُ كُلَّ ذَلِكَ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه، وعندئذٍ يَصِلُ الداعي إلى اللهِ إلَى مَا يَرُومُ مِن الإقناعِ بالحق، ويَتَسنَّىٰ لَه أَنْ يَقُولَ للَذِينَ يُنَاظِرُهم من المشركين: كَيْفَ تَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ رَبِّكُمْ مَنْ لَيْسَ له من الرُّبوبيَّةِ شيءٌ، أفلَا تخافُونَ من عقاب اللهِ لَكُمْ في دَارِ العذاب النَّار يوْمَ الدّين، فتَتَّقُونَ ذَلِك بنَبْذِ الشّرْكِ كُلِّه، وبالإيمان بأنَّ الله واحِدٌ في رُبوبيّته وواحدٌ في إلَهِيَّته.

● **فالْحِوارُ حَوْل القضيَة الأولى**: أَعْطَىٰ اللهُ عزّ وجلَّ مِفْتَاحَهُ بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ . . . ﴿٣١﴾﴾؟.

من المعْلُومِ المشاهَدِ أنَّ رِزْقَ الأَحْيَاءِ كُلّها مُرْتَبِطٌ بِمَا تُنْبِتُ الأرض، ومَا تُنْبِتُ الأرْضُ لَا يَكُونُ بحَسَبِ أنْظِمَةِ الكَوْنِ السَبَبِيَّةِ إلَّا بالماء وحَرَارَة ضِياء الشَّمْس، والماء الصالِحُ لإنْبَاتِ الزُّرُوع وسُقْيَا الأحْيَاء يَنْزِلُ مطراً مِنَ السَّحَاب، وأمْرُ تَبَخُّرِه بالْحرارة وتجميعهِ سُحُباً وإنْزَالِهِ مطَراً خَاضِعٌ لِرَبٍّ واحِدٍ مُهَيْمِنٍ عَلَى الكون.

فَهَلْ يَدَّعِي أحَدٌ مِنَ المشْرِكِينَ أنَّ إنبات الزُّرُوع في الأرْضِ ومَدَّ الأرْضِ بحرارة الشَّمْسِ الَّتِي هي في السَّمَاءِ، وإنْزَالَ المطرِ مِنَ السَّحَابِ بَعْدَ تَبْخِيْرِهِ وجَعْلِهِ غَمَاماً هو من صُنْعِ آلِهتِهِمُ الَّتي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ اللهِ؟.

إنَّ عقائد المشركين في آلِهتِهِمْ لَمْ تكُنْ تَصِلُ إلى هذا الادّعاء، فَلَا سَبِيلَ لَهُمْ بَعْدَ حِوارٍ جَدَلِيٍّ بالّتِي هِيَ أحْسَنُ إلَّا أنْ يُفْحَمُوا، فَلا يَحيروا جواباً، أو أنْ يَعْتَرِفُوا بأنّ اللهَ هو الرَّبُّ الّذِي يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرْض، ولكِنَّ هذا الاعْتراف لَا يأتي عَقِبَ السؤال مباشَرَة، بل بَعْدَ فِقراتِ حوارٍ جَدَلي يطُول أو يقصر.

والتعبير الملائم لزَمَنِ اعترافهم هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله.

● **والحِوارُ حَوْل الْقَضِيَّة الثّانِيَة:** أعطى اللهُ عزّ وجَلَّ مفتاحَهُ بِقَوْله تعالى: ﴿.. أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ .. ﴿٣١﴾﴾؟

[السمع]: مَصْدَرُ «سَمِعَ يَسْمَعُ سَمْعاً» فالمراد به هنَا الحدَثُ وَهُوَ سَمْعُ الأَصْوَاتِ وإدْرَاكُها في مَنَاطِقِ إدْرَاكِها في الدّماغ.

الأَبْصَارُ: جَمْعُ «الْبَصَر» والمرادُ به أداةُ الإبْصَارِ، ولِهَذَا جاء مَجْمُوعاً لِيَعُمَّ كُلَّ عُيُونِ الْمُبْصِرين.

وبالتأمُّل نقيس على «السَّمْعِ» الّذي هو الحدَث «الْبَصَرَ» الّذي هو الحدَثُ أيضاً، ونَقِيسُ على «الأبْصَارِ» الّتي هي الْعُيُونُ أدَواتُ الإبْصار «الآذَانَ» الّتي هي أدوات تَوْصِيلِ الأصوات إلى مراكز السَّمْعِ فِي الدِّماغ،

فيكُونُ المعنَىٰ: أمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ والأسْمَاعَ، والْبَصَرَ والأَبْصَار، وقد اكْتَفَى النَّصُّ بمَلْفُوظِهِ بواحِدٍ من الحدَثِ والأَدَاة، اعْتِمَاداً على الفِكْرِ القياسِيّ الّذِي يَسْتَخْرِجُ المطْوِيّ بالقياس، وهذا من الإيجاز الذي له نظائر كثيرة في القرآن.

«أم» من عبارة [أَمَّنْ] هي «أم» المنْقَطِعَة، وهي بمَعْنَى «بَلْ» مع استفهام مُسْتَأْنَف، وفي «أمْ» هنا مَعْنَى الإضراب الانتقالي، من استفهام سابِقٍ عن الرّزْقِ، إلى استِفْهَام عَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأسْمَاع، والْبَصَرَ والأَبْصَار.

والمرادُ بِمَلْكِهَا مَلْكُ إيجادِها ابْتِدَاءً، وإمْدَادِها بالبقاء إلى آجالِها، وسَلْبِهَا إذا اقتضَتْ حِكْمَةُ مَانِحِها سَلْبَها، وكُلِّ تَغْيِيرٍ فيها زيادَةً وَنَقْصاً في ذَواتِها وصِفَاتها.

إنَّ المتفكِّر المتأمِّلَ لا بُدَّ أَنْ يُدْرِك أَنَّ السَّمْعَ والأَسْمَاع، والْبَصَرَ والأَبْصَارَ لَا يَمْلِكُ ما سَبَقَ بيانُهُ بِشَأْنِها إلَّا رَبُّ السَّمَاواتِ والأَرْضِ، خالِقُ كُلِّ شيءٍ ومُتْقِنُ كُلِّ شيءٍ صُنْعاً، ولا أحدَ مِنْ آلِهَةِ المشرِكين يَمْلِكُ مِنْ ذَلِكَ شيئاً، وكذلِكَ سَائِرُ المخلُوقين.

أمّا رِجالُ البَحْث الْعِلْمِيّ الَّذِينَ دَرَسُوا خَصَائِصَ وصفاتِ السَّمْعِ والأَسْمَاع، والْبصَرِ والأَبْصَارِ، فَمُنْصِفُوهُمْ يَشْهَدُون أَنَّهُ لَا رَبَّ إلَّا الله، فَلا إلَهَ إلَّا هو.

ولمّا كان مِلْكُ السَّمْعِ والأَسْمَاعِ والْبَصَرِ والأَبْصَارِ بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ السَّابقِ، لَمْ يَكُنِ المشركُونَ يَعْتَقِدُونَهُ لآلِهَتِهِم فلا سبيل لَهُمْ بَعْدَ حِوارٍ جَدَلِيٍّ بالَّتي هِيَ أحْسَن، إلَّا أنْ يُفْحَمُوا فَلا يحيروا جواباً، أو أَنْ يَعْتَرِفُوا بأَنَّ اللهَ هُوَ الرَّبُّ الّذِي يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَسْمَاعَ والْبَصَر والأَبصار، ولَكِنَّ هذا الاعْتِرافَ لَا يأتي عَقِبَ السؤال مباشَرَةَ، بَلْ بَعْدَ حِوارٍ جدليّ يَطُولُ أو يَقْصُرُ.

والتعبير الملائم لزمن اعترافهم هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: هو الله.

• **والحِوارُ حَوْلَ القضيَّة الثالِثَة**: أعطىٰ اللهُ عزّ وجل مفتاحَهُ بقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ .. ﴿٣١﴾﴾؟:

• إنَّ إخراجَ الْحَيّ من الميّت لَهُ ظَوَاهِرُ في الكَوْنِ كثيرة جدّاً:

(١) فالحياة النباتِيَّة تَكُونُ من الْبُزُور الّتي لَا حَيَاةَ فِيها، فإذا أَحَاطَ بِهَا الماءُ في تُرْبَةٍ صَالِحَةٍ للإمْدَادِ بالعناصر الغذائيَّةِ الصالحَةِ لإنباتِ الزُّرُوع، دَبَتِ الحياةُ النباتيَّة فيها، وأخَذَتْ تَنْمُو حتَّىٰ تتَحَوَّلَ الأَرْضُ من أَرْضٍ جَرْدَاءَ إلَى أَرْضٍ خَضِرَةٍ نَضِرَةٍ مُزْهِرَةٍ مُثْمِرَةٍ، بما ظهر فيها من حياة نباتيَّةٍ بَهِيجَة.

(٢) والحياة الحيوانيَّةُ تَكُونُ من الأَغْذِيَةِ الَّتي لَا حَيَاةَ فيها، وَبخَلْقِ اللهِ لها في الأَجْسَادِ الحَيَّةِ تَكُونُ مِنْهَا نُطَفٌ تَحْتَوي علَى كائِنَاتٍ صُغْرَىٰ ذَاتِ حَيَاةٍ، ومِنْ بَعْضِها تَنْعَقِدُ الأَجنَّة، ثُمَّ تَخْرُجُ أَحْيَاءٌ مُخْتَلِفَة الأَشْكَالِ والصِّفَاتِ والمقادِيرِ والخصائِص، وتَنْتَشِرُ في الكَوْنِ أَحْيَاءٌ لَا يُحْصِي أعدادَها إلَّا رَبُّها الخالِقُ لها، وإيجادُها هو مِنْ أَمْثِلَةِ إِخْرَاجِ الحيِّ من المَيّت.

وكانُوا يُمَثِّلُونَ بإخْرَاج فِراخ الطَّيْرِ والحشراتِ من بُيُوضِها، وهذا مِنْ تَقْرِيب الأَمْثِلَةِ للعامّة.

والمُتفكِّرُ في الكَوْنِ يَجِدُ أَنَّ كُلَّ حَيٍّ في الْوُجُودِ قَدْ أَخْرَجَهُ اللهُ من مَيّتٍ لا حياة فيه، وهذا لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يفْعَله، إذْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ في كَوْنِهِ أَسْباباً لإخراج الحيِّ من الميّت، والقرار النهائي لعلماء الأحياء أنَّ الحياة لَا تَكُونُ إلَّا اشْتقاقاً مِنَ الأحياء السابقة، وتناسلاً مِنْها، أمّا تَحْوِيلُ المادّةِ الَّتي لا حياة فيها إلى خَلِيَّة ذَاتِ حياة، أو مَخْلُوقٍ حَيّ، فَهُو أَمْرٌ لَا يَقْدرُ عَلَيْه إلَّا اللهُ رَبّ السماواتِ والأرضِ، جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

• وإنَّ إخراج الميّتِ مِنَ الحيِّ لَهُ أيْضاً ظَوَاهِرُ كَوْنِيَّةٌ كَثِيرَة:

(١) يَقُولُ عُلَماءُ الكونيّات، إنَّ ثَلاثَة بلَايين خَلِيَّة تَمُوتُ في كُلِّ دَقِيقَةٍ دَاخِلَ جِسْمِ الإنْسَانِ الحيّ، وهذا من إخراج المَيّتِ من الحيّ، وتَتَوَلَّدُ في الدَّقيقة نَفْسِهَا ثَلاَثَةُ بَلايين خَلِيَّة جَدِيدَة بالانْقِسَامِ الْخَلَوي، عِوَضاً عن الْخَلَايَا الميّتَة.

ويَقُولون: إنَّ خَلَايَا الجِلْدِ الميّتَةَ تَتَقَشّر، بَيْنَما تَمُرُّ الخَلَايَا الميّتَة مِنْ خَلَايا الأعْضَاءِ الدَّاخِلِيَّةِ إلَىٰ خَارِجِ الْجِسْمِ مع الْفَضَلات.

(٢) وفي المُشَاهدات الدائمة نُشَاهِدُ بأبْصَارِنا الأحياءَ تَمُوتُ إذا جاءَتْ آجال مَوْتها، فيَتَحَوَّلُ الْجِسْمُ الْحَيُّ إلَى جِسْمٍ مَيِّتٍ لا حياة لَهُ بأَقَلَّ مِنْ ثَانِيَة، وهَذَا مِنْ أمْثِلَةِ إخراجِ الميّتِ من الحيّ.

ويخرجُ المِسْكُ الَّذِي لَا حياة فيه، من غُدَّةٍ مِنْ غُدَدِ غَزَالِ المسْكِ الذَّكر، وتَقَعُ هذِهِ الغُدَّة تَحْتَ جِلْدِ بطْنِ هذا الغزال.

ويخْرُجُ العَنْبر من حوت يُعْرف باسم «حُوتِ العنبر».

ويخْرُجُ اللّبَنُ (الحليب) من الحيواناتِ الإنَاثِ اللّبُون.

وكلُّ ذَلِكَ من إخراج الميّتِ من الحيّ، والفاعل لذلِكَ والقادر عليه رَبُّ السَّمَاواتِ والأرض.

ولم يَكُنِ المشرِكُونَ يَعْتَقِدُونَ أنَّ هذِهِ الإخراجَاتِ من فِعْلِ آلِهَتِهِمُ الَّتِي يَعْبُدونَها مِنْ دُونِ الله ولكنّهم قَدْ يعْتَقِدونَ أنّها ظواهر طبيعية، أو أن لآلِهَتِهِمْ تأثيراً فيها.

ويكونُ حَالُهُمْ مع هذا السؤال كحالِهم مع السُّؤالَيْن الأوَّل والثاني.

والتعبير الملائم لزَمَنِ اعْتَرافِهِمْ بأنَّ الله هُو الذي يُخْرِجُ الحيَّ من الميّتِ، وهو الّذي يُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الْحيّ، إذا اعْترفوا، هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: هُو الله.

• **والحِوَارُ حَوْلَ القضية الرابعة:** أعطىٰ اللهُ عزّ وجلّ مِفْتاحه بقَوْله تَعالى: ﴿.. وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ .. ﴿٣١﴾﴾:

هذا السُّؤالُ يَتَعلَّقُ بتَدْبير أمْرِ الكَوْنِ كُلِّهِ أَرْضِهِ وسَمَواته، وهذا التدبير يَشْمَلُ قَضاء اللهِ وقَدَرَهُ لكُلِّ شيء، ويَشْمَلُ تصارِيفَهُ لحركاتِ وتَغيُّرَاتِ كُلِّ صَغِير وكَبِيرٍ فيه.

إنَّ مُراقبة التَّدْبيرِ المتعَلّقِ بجُزْءٍ صَغِيرٍ من أجْزَاءِ أجْسَادِنَا، كالْعَيْنِ، أوِ الأُذُنِ، أو الْقَلْب، أو الكَبِدِ، أو جانِبٍ من الدّماغ، يُذْهِلُنَا، ويَجْعَلُ أهْلَ الإنْصَافِ يُؤْمِنُونَ فَوْراً بأنَ تَدْبيرَاتِ الكَوْنِ لَا تَكُونُ إلّا مِنَ اللهِ الرَّبّ الخالِقِ الذي بيَدِه مَلَكُوتُ كُلِّ شيءٍ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير.

وهذا التَّدْبير الشَّاملُ لِلْكوْنِ لَا يَدَّعِيهِ المشركون لآلهَتِهِم الّتِي يَعْبُدُونَها من دُون الله، إلّا أنَّهُمْ قَدْ يَتَفكَّرُون حتَّى يُدْرِكُوه، ويُدْرِكُوا عظمَتَهُ، ويُدْرِكوا عَجْز غَيْرِ الله الرَّب عَنِ الْقِيَام به، والمنْصِفُون مِنْهم يقولُون بَعْدَ حوارٍ جدليّ يَطُول أو يَقْصُر، لا يُدَبّر أمْرَ الكَوْنِ كُلّه إلّا اللهُ الرَّبُّ جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

فالتعبير الملائم لزَمَن اعترافهم بأنّ اللهَ هو الذي يُدبر الأمر إذَا اعْتَرَفُوا هو: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو الله.

ولِكُلِّ مَا سَبَقَ جاء التعقيب الرَّبّاني في آخر بيان مفاتيح الحوار الّجَدَليّ ذي المراحِلِ الأرْبع، بقول الله عزّ وجل:

[فَسَيقُولُونَ الله] وهُنَا يُعلّمُ اللهُ عزّ وجلّ الدَّاعِي أَنْ يَقُولَ لِلْمُشْرِكين الْمُصِرِّينَ على عَقِيدَتِهِم الشِّرْكيّة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟! أي: أفَتُصِرُّون عَلَىٰ مَوْقِفِكُم الْبَاطِلِ الذي لا حُجَّة لَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ يوم القيامَة، فَلَا تَجْعَلُونَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَذَابِ رَبّكُمُ الأبَديّ، وِقَايَةً تَقِيكُمْ، وهذِهِ الوِقَايَة سَهْلَةٌ عليكم، إنَّها تكُونَ بأن تَنْبذُوا عقائِدكُم الشركيَّة، وتُؤْمِنُوا بأنَّهُ لَا رَبَّ في الوجود كلّهِ إلّا الله، فلا إلَهَ إلَّا هو وحْدَه لَا شريكَ له.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

فَصَلَ الله عزّ وجلّ بهاتَيْنِ الْآيَتَيْن المرحلة الأولى من مراحل التعليم الجدلي عن التالية لها: أمّا الآية الأولىٰ منهما فَمُوَجَّهَةٌ للمشْركين المقْصُودينَ بالمعالَجَةِ الإقناعيّة والترهيبيّة ـ وأمَّا الآيَةُ الثانيَةُ مِنْهُما فَمُوَجَّهَةٌ لكُلّ صَالحٍ للخطاب ببيانٍ رَبَّاني.

وبَعْدَهُمَا يأتي تَعْلِيمٌ حِواريٌّ جَدَلِيٌّ لِمَجْلِسٍ حواريٍّ جَدَلِيّ آخَرَ، يَدُورَ الحِوَارُ الجداليُّ فيه حول آلِهَةِ المشركين التي يَعْبُدونها من دُونِ الله رَبّ السماواتِ والأرضِ وربّ كُلِّ شيء.

• ﴿فَذَٰلِكُمُ﴾ أي: العَظِيمُ الْجَلِيلُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى الّذي يَرْزُقُكُمْ من السَّمَاءِ والأرض، ويَمْلِكُ السَّمْعَ والْأَسْمَاع، والْبَصَرَ والْأَبْصَار، ويُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ المِيّتِ، ويُخْرِجُ الْمَيّتَ مِنَ الْحَيّ، ويُدَبّرُ كُلَّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الكَوْن تَقْدِيراً وقضاءً، وَتَصَارِيفَ مَعَ وَحَدَاتِ الزّمَنِ الصُّغْرىٰ، واللّحَظَاتِ والآنات.

• ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الَّذِي يَجِبُ عليكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بأَنَّهُ الرَّبُّ الأَحَدُ في كَوْنِه، استدلَالاً من آيات رُبُوبيّته في كُلِّ شَيْءٍ، وأَنْ تُؤْمِنُوا بأنَّه هو وَحْدَهُ المسْتَحِقُّ للعبادَة بمُقْتَضىٰ تَفَرُّدِهِ في الرُّبوبيَّةِ، فلَا تَعْبُدوا مِنْ دُونه أحداً، إذْ لَا إلَه في الوجود بحَقٍّ إلّا الله الّذِي هو ربّكُمُ الْحَقّ.

• ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ . . .﴾؟ أي: فَمَا الَّذِي يَكُونُ بَعْدَ مَوْقِعِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ كُلُّ الحقّ في مَوْضُوعِهِ، إلّا الضَّلَالُ والضَّيَاعُ عَنْه، والباطِلُ المباينُ له مُبَايَنَةَ النَّقِيضِ للنّقِيضِ؟!.

«مَاذَا» استفهامٌ مُمْتَزِجٌ باسْم الموصول «ذَا».

وجواب هذا الاستفهام: لَيسَ بَعْدَ الحقِّ الذي هو كُلُّ الحقّ في موضوعه إلَّا الضلالُ والضَّياعُ والباطِلُ المباينُ لَهُ مُبايَنَةَ النقيض للنقيض.

هنا يأتي تَوْبِيخُ المشركين على انْصِرافِهِمْ عَنْ هٰذا الحقِّ العظيم المتعلِّق بربِّهِمْ وهذا الانْصِرَافُ يَجُرُّهُمْ على وُجُوهِهِم إلى الخُلُودِ في عذاب النار فقال الله تعالى لهم: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾؟ أيْ: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ عَنْ هذا الحقِّ الجلِيِّ الواضِحِ بِبَرَاهِينِهِ، إلى مذاهِب الشِّرْكِ بالله الَّتِي قامَتِ البراهينُ علىٰ بُطْلانِها، وأنَّهَا ضَلَالٌ مُبِين؟

«أنَّىٰ» هُنَا اسْتِفْهامِيَّةٌ بمعْنَىٰ «كَيْفَ»؟

تُصْرَفُون: أي: تُرَدُّونَ وَتُبْعَدُون، والْمُرَادُ رَدُّهُمْ وإبْعَادُهُمْ عن الأخْذِ بالحقِّ المتَعَلِّقِ بِرَبِّهِم، والإلْتِزَام به.

وجاء الفِعْلُ مَبْنِيّاً لمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ للإشعار بأنَّ أصْلَ فِطْرَتِهِمْ أنْ يُؤْمِنُوا بالحقّ ويَلْتَزِمُوا به، فَكَيْفَ اسْتَجابُوا لِما يَصْرِفُهُمْ عَنْهُ وَهُوَ يُتابِعُ تأثِيرَهُ فِيهِم آناً فآنا؟

لَدَىٰ تَحلِيلِ طبائع النُّفُوسِ نُلَاحِظُ أنَّ الصّارِفَ لِهم عن هذا الحقِّ العظيم المبين عَوامِلُ من دَاخِلِ نُفُوسِهُمْ هي الأَهْوَاءُ، والشَّهوات، ورَغباتُ الْفُجُورِ، والتَّقَالِيدُ العَمْيَاء، وعوامِلُ خارِجيَّةٌ تُؤثِّرُ فِيهِمْ بالتَّزْيين والتّحْسِين مِنْ وَسَاوِسِ شياطين الجنّ والإنْس، وإطماعاتهم التَّسويليَّة بالْبَاطِل، الَّتِي تُحَبِّبُ لَهُمْ التعلُّقَ بالْعَاجِلَةِ وَتَرْكَ الآخِرَة، مع الزُّيُوفِ الفكْرِيَّةِ الَّتي يَصْطَنِعُهَا حَمَلَةُ أَلْوِيَةِ الضَّلَالِ في الأرضِ، ويُقَدِّمُونَها بِزُخْرُفٍ مِنَ الْقَوْلِ القائم على المغالطاتِ وسَتْرِ مَوَاقِعِ الحقّ بالأكاذيب والظُّلُماتِ وأنواع الغشاوات المُزَيَّناتِ بالألْوانِ والأَصْبَاغِ الزّاهيات، ولَيْسَ فيها من الحقّ شيْء.

وتَوجَّهَ الله عزّ وجلَّ بَعْدَ مُخَاطَبَتِه للمشركين مخاطَبَةً تَثْرِيبيَّة وتوبيخيّة، لكُلِّ صالحٍ للخطاب ذي فِكْرٍ بأسْلُوب الْخِطَاب الإفرادِيّ، لتحْمِيلِهِ مَسْؤُولِيَّة تَدَبُّر الخطاب، فقال تعالى له:

• ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

• ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: أي: ثبتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أيُّها المتلَقِّي المتفكِّرُ الرَّشيد، بمُقْتَضىٰ سُنَنِه السَّبَبِيَّة.

• ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾: أي: عَلَىٰ الّذين خَرَجُوا بإراداتٍ جازماتٍ، وعِنَادٍ بِحُمْقٍ وإصْرَارٍ على الباطل، عَنْ كُلّ مَا تقتضيه براهينُ الحقّ، ومواعِظُ الترغيب والترهيب.

• ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: أنَّهُم لَنْ يُؤْمِنُوا مستَقْبلاً، مَهْمَا أُمْهِلُوا، ومَهْما قُدِّمَتْ لَهُمْ من أدِلَّةٍ بُرْهَانيَّةٍ، ومَوَاعِظَ تَرْغيبيَّةٍ وَتَرهِيبيَّة، إذْ مَا سَبَقَ أَنْ قُدِّمَ لَهُمْ كافٍ لاستجابَةِ مَنْ لَدَيْهِ أقَلُّ مِقْدارٍ مِنَ الاستِعْداد لِقَبُول الحقِّ واتّباعِه ولو بنِسْبَةٍ دُنْيا.

فالمعنى: كذَلِكَ الحقّ الَّذي دَلَّتْ عليه آيَاتٌ من آيَاتِ الله في كَوْنِه، مِن أنَّهُ لَا رَبَّ في الْوُجُودِ إلَّا الله، فَلا إلَه إلَّا هُو، حَقَّتْ وثَبَتَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بمُقْتَضىٰ سُنَنِه السَّبَبيةِ في كَوْنِهِ، أنَّ الَّذين فَسقُوا خارِجين باراداتِهم الحرَّةِ، مُعَانِدِين، ومُصِرِّينَ علَىٰ الباطل، مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّهُ بَاطِلٌ، وبَعْدَ مَعْرِفَتِهِم الحقَّ بِبَرَاهِينه الْجَلِيَّة، وبَعْدَ تَرْغيبهم بِجَنَّاتِ النَّعِيم، وتَرْهِيبهِمْ من الْخُلُودِ في العذاب الأَلِيم، لَنْ يُؤْمِنوا مُسْتَقْبَلاً بأنَّهُ لَا إلَه إلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوات والأرض، ولَنْ يُؤْمِنُوا بالدِّينِ الحقّ الذي جاءَهم به الرَّسُول بلاغاً عن رَبّهم، فَمَا سَبَقَ أنْ عُولجوُا به من إقناع فِكْريّ بِبَرَاهِينَ جَلِيّة، ومواعظ تَرْغِيبيَّةٍ وَتَرْهِيبيَّة، يَكْفِي لاستجابَةِ مَنْ لَدَيْهِ أقَلّ مِقْدارٍ من الاسْتِعْداد لِقَبُول الحقّ واتّباعِهِ، ولو بِنِسْبَةٍ دُنْيَا تُنْجِيهِ من الْخُلُودِ في عذاب النار.

والمعْنيُّونَ بهذا بَعْضُ أئمَّةِ الكُفْرِ والشِّرْكِ في مَكَّة، الَّذِين ظَهَرَ فيما بَعْدُ أنَّهُمْ مَاتُوا علَىٰ شِرْكِهِمْ، وتَكْذِيبهمْ رَسُولَ رَبّهم، إذْ كانت نُفُوسُهُمْ

مُوقِنَةٌ إِلَّا أَنَّهُمْ كانوا جاحِدِين الحقَّ مع عِلْمِهِمْ بأنّه حَقٌّ.

ويُفْهَمْ مِنْ هَذا تَوْجِيه الدَّاعي إلى اللهِ للإِعْراض عن دَعْوَةِ هذا الصِّنْف المعاند المكابرِ بالباطل، وتوجيه الطاقات لمجاهدة الّذين لم يَنْقَطِعَ الأمَلُ من استجابَتِهم.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟:

تضمَّنَتْ هاتانِ الآيتان توجِيه الداعي إلى الله أنْ يَعْقِدَ مَجْلِسَ مناظرة مع المشركين، غَيْرَ المجْلِسَ السَّابِق الذي وَجَّهَتْ لِعَقْدِه الآيَة (٣١) من هذا الدَّرْس مِن دُرُوس السورة.

ومفتاحُ هٰذِه المناظَرَةِ سؤالُ الداعي إلى اللهِ المشركينَ عَنْ آلِهَتِهِمْ، هل يَسْتطيعُ واحِدٌ مِنْهُمْ أنْ يخلق شيئاً ثُمَّ يُعِيدَهُ إلى مِثْلِ مَا كانَ علَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَفْنَىٰ، هَلْ يُوجَدُ واحِدٌ مِنْهُمْ يَهْدِي إلى الْحَقِّ ويَدُلُّ عَلَيْه.

والمراد بآلِهَةِ المشركين هُنَا الصُّوَرُ والرُّمُوزُ الوثنيَّةُ الَّتِي اتَّخذُوها آلِهَةً يَعْبُدُونها منْ دُونِ الله.

• **فالسُّؤَالُ الأوّل من أسْئِلَة هٰذِه المناظَرَة:** دَلَّ عليه قول اللهِ عزّ وجل: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ..﴾؟.

أي: هلْ بعْضُ آلِهَتِكُمْ الَّتِي جَعَلْتُمُوها شُرَكَاءَ للهِ في رُبُوبيّتِهِ، فاستحقَّت في تَوَهُّمِكُمْ أَنْ تَجْعَلُوهَا شُرَكاءَ للهِ في إلَهِيَّته، مَنْ يَخْلُقُ خَلْقاً ما، ثُمَّ يُعِيدُه إلى مِثْلِ ما كانَ عَلَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَفْنَىٰ؟؟.

إنَّ المشْرِكين لا يَسْتِطيعُونَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ بَعْضَ إلهتِهِم الوثنيَّةِ تَفْعَلُ ذَلك، ولا بُدَّ أَنْ يَعْجِزُوا عَنْ الإجابَةِ بالإيجاب، مع اقترانِ إجابَتِهِمْ بدَليلِ الإثبات.

عندئذٍ يقول الدّاعي إلى الله مَا جاء في التعليم الرَّبَّاني: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: أي: اللهُ بِرُبُوبِيَّتِهِ العظيمة الْجَلِيلَةِ يَبْدأ خَلْقَ مَا يَشاءُ من خَلْق، ثم هو قادر على أَنْ يُعِيدَهُ إلى مثْلِ مَا كانَ عَلَيْهِ بَعْدَ فَنَائِهِ وَتفَتُّتِ أجْزَائِه.

قَد يقولُ المشركون: وَمَا الدَّلِيلُ علىٰ هذا الَّذِي تَدَّعيه أيُّها الداعي إلى الله.

وهُنَا يَعْرِضُ الدَّاعي إلى اللهِ ظَاهِرَةَ إنْبَاتِ الزُّرُوعِ والْأَشجار، وإعادَتِها إلى مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ، ممَّا أَوْدَعَ الرَّبُّ الخَالِقُ في نَوَيَاتِ البزور الصُّغرىٰ «الجيناتِ» الوراثيَّةَ الَّتي تَنْمُو النباتاتُ على وَفْقِ خرائِطها، فَتَعُودُ إلى مِثْلِ ما كانت عَلَيْهِ بَعْدَ فَنَائِها بتَحطّمِها وَتَفَتُّتِ ذَرّاتها.

ولا بُدَّ أَنْ يَسْكُتَ المشْرِكُونَ الْعُقَلاءُ عَن الاعْتِرَاضِ على هذا الجواب، وعَنْدَئذٍ يَقُولُ لهم الدَّاعي إلى الله مَا جَاءَ في التَّعْلِيم الرَّباني: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: فَكَيْفَ تُصْرَفُونَ فَتُرَدُّونَ وَتُبْعَدُونَ عن الحقِّ المتعلّق بِرَبّكُمْ والالْتَزام به، وهُنَا يأتي البَيَانُ الَّذِي سبَقَ آنفاً لدىٰ تدَبر ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

• **والسُّؤَال الثاني من أسْئِلَة هٰذِهِ المناظَرَة:** دَلَّ عَلَيْهِ قولُ الله عزّ وجلِ: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ... ﴿٣٥﴾﴾؟؟: أي: هَـلْ بَـعْـضُ آلِهتِكُمُ الْوَثَنِيَّة الَّتِي جَعَلْتُمُوهَا شَرَكَاءَ للهِ في إلَٰهيَّتِه، مَنْ يَنْطِقُ أو يُبِينُ أو يَعْمَلُ عَمَلاً فَيَهْدِي ببيَانِهِ أَوْ عَمَلِهِ لِلْحَقّ.

إنَّ أوْثَانَ المشركينَ لَا تُبِينُ شيئاً وَلَا تَدُلُّ عَلَىٰ شيءٍ حَقّاً كَانَ أَمْ

باطِلاً، وهُنَا يُلَاحِظُ المتدبّر أنَّ الله عزّ وجلَّ ذَكَرَ في التَّعْلِيم الْهِدَايَةَ لِلْحَقِّ، للدَّلَالَة علَىٰ أَنَّ العِنَايَةَ الرَّبَّانِيَّة في الْهِدَايَةِ مُوَجَّهَةٌ دَواماً لِلْحَقِّ، فلَا يُقَدِّمُ اللهُ عزّ وجَلَّ من الاحْتِمالَات إلَّا مَا هُوَ دَاخِلٌ في مجالَاتِ عنايَتِهِ جلَّ جلالُهُ وَسَمَتْ حكْمَتُه.

ولا بُدَّ أنْ يَسْكُتَ المشركون إذ لَا يَسْتَطيعُونَ أَنْ يَدَّعُوا أَنَّ أوثانهم تَهْدِي لشيء.

عندئِذٍ يقولُ الدَّاعي إلى الله ما جاء في التَّعْلِيمِ الرَّبَّاني: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ . .﴾ فَمَا جَاءَ في كتابِهِ الْمُنزَّلِ، وعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ مِن الْهِدَايَةِ لِلْحَقِّ، واستعمل هنا حَرْف الجرّ اللّام، أمَّا بالنِّسْبَةِ إلى المشركين فاسْتُعْمِلَ حَرْف الجرّ «إلى» لإعْطائهم مُدَّةً أطْوَلَ وَإمكانياتٍ سَببيَّةً أكْثَرَ، وفي هذا تَعْجيزٌ أكْثَرُ لآلِهَتِهِم.

وبَعْدَ إثباتِ هٰذِهِ الحقيقة يَقُولُ الداعي إلىٰ الله للمشركين ما جاء في التعليم الرَّبَّاني: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟؟.

﴿لَّا يَهِدِّىٓ﴾: أي: لَا يَهْتَدِي. وكذلِكَ «لَا يَهَدِّي» بفَتْحِ الهاء. أي: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وهُوَ الله ورَسُولُهُ المبلّغُ عَنْهُ أَكْثَرُ بحُكْمِ الْعَقْلِ الرشيدِ استحقاقاً أَنْ يُتَّبَعَ، أمْ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِشَيْءٍ إلَّا أَنْ تُخْلَقَ لَهُ الْهِدَايَة، أو تُصْنَعَ فِيهِ الْهِدايَةُ مِنْ قادِرٍ عليها، والمراد بالّذي لَا يهتَدِي آلِهَةُ المشْرِكينَ الوَثَنِيَّة الّتِي يَتّبِعُونها ويَعْبُدُونها من دون الله.

وعُبِّرَ عنها بلفظ «مَنْ» الموضوع لذى الْعِلْم مخاطَبَةً للمشركين بحَسَب اعتقادهم في أوثانِهِم، مع ملاحظَةِ مَنْ تَرْمُزُ إليهم هٰذِهِ الأَوْثَانُ من ذوي حيَاةٍ وعِلْم.

وإذا كانَ حُكْمُ الْعَقْلِ الرَّشِيدِ يَفْرِضُ عَلَىٰ ذوي الْعَقْلِ والرُّشْدِ

اتِّبَاعَ اللهِ، وَمَا جَاءَ عن الله بلاغاً على لسَانِ رُسُوله، فأيّ شَيْءٍ هو لَكُمْ أيّهَا المشركون من حُجَّةٍ تَحْتَجُّونَ بِها عند رَبّكُمْ، في اتّباعِكُمْ أوثاناً لَا تَهْتَدِي إلى شيءٍ إلّا أنْ تُهْدَىٰ؟ كَيْفَ تَحْكُمُونَ بِصِحّةِ اتّباعِها وقَدْ منَحكُمْ رَبُّكُمْ عُقُولاً تُفَكِّرُونَ بها، وتُدْرِكُونَ بِهَا الحقّ والباطل، والخير والشّر.

وهُنَا جاء التعليق الرَّبَّاني على ما أبانَ عزَّ وجلَّ في المناظَرَةِ التعليميَّة بقَوْله تَعالى:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

في هذا التعليق الرَّبَّانيِّ بيان ثلاثِ قضايَا:

القضيَّة الأولى: دلَّ عَلَيْها قول الله عزّ وجلَّ في الآية: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾: أي: ومَا يتَّبعُ أكْثَر المشركين الّذِينَ سبَقَ في الآيات تعْلِيم الداعي إلى اللهِ بَعْض طرائِقِ مُنَاظَرَتِهم في شِرْكِيَّاتِهِمْ، إلّا ظنّاً ضَعِيفاً توَهُّمِيّاً، لا يَصِحُّ الاعْتِمَادُ علَيْهِ في أيٍّ أمْرٍ من أمُور تَصرُّفاتِ الإنْسَان في حياته، مَهْمَا كانَ غَيْرَ ذِي قِيمَةٍ في نَفْسِهِ، فضلاً عن أن يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ في قَضِيَّةٍ عُظْمَىٰ يُفْضِي بِهِ اعتمادُهُ علَيْها إلَىٰ الكُفْرِ بِرَبِّهِ، فإلَىٰ الْخُلُودِ في عذابِ النار يوم الدّين.

دلَّ تَنْكِيرُ كَلمةِ ﴿ظَنًّا﴾ على تحقير هذا النوْع من الظّنِّ وتَقْلِيل قيمَتِه، مع قَرِينَة اليقينِ الْبرهانيِّ على توحيد الله في رُبوبيّتِه وإلٰهيّته الذي سبق بيَانُ الْبُرْهانِ عَليْه في جَوْلَاتَ المناظرتين.

الظّنُّ: في اللُّغةِ يُسْتعْمَل فيما هُو دُونَ اليَقِينِ من الإدْراكِ الْمَعْرِفي، وتنازُلاً في الدَّرَجاتِ حتَّىٰ دَرَجَةِ الظَّنِّ التَوهُّمِيِّ الدُّنْيا وتُعْطَىٰ كُلُّ دَرَجَةٍ من دَرَجاتِهِ بِحَسَبِ قِيمَتِها في مَنْحِ الْإدْراكَ الذِّهْنِيّ للفِكْرَةِ المقَدَّمَةِ بِهِ قُوَّةً وَضَعْفاً، ولَا يُقْبَلُ من الظَّنّ مَا يُخَالِفُ الْيَقِينَ حَتْماً، ولَا يُقْبَلُ من الظَّنّ ما

يَتَرَدَّدُ بَيْنَ احْتِمَالَيْنِ مُتَكافِئَيْن، ولا ما هو ظنٌّ مَرْجُوح، وأدْنَىٰ الظُّنُونِ المرجُوحَةِ الظَّنونُ التَّوَهُّمِيَّة، كظُنُونِ المشركين في آلهتهم.

وقد اسْتَقْرَأْتُ اسْتِعْمالَاتِ الظَّنِّ ومُشْتقَّاتِه في الْقُرْآنِ المجيد، فوجَدْتُها كلَّها مُوافِقَةً لمعْنَىٰ الظَّنِّ في اللُّغَةِ بحَسَبِ دَرَجاتِهِ قُوَّةً وضَعْفاً، وأنَّهُ لَا يَصِلُ إلىٰ دَرَجَةِ العلْم الْيَقينيّ حَتْماً على خلاف المشهور عند العلماء[١]. أخذاً بظواهر بعض النصوص، الَّتي بدا لي بالتحليلِ أنَّ الظَّنَّ فيها ليس مستعملاً بمعنَىٰ اليقين، بل هو مستعمل فيما هو دونَهُ.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾: أي: إنَّ الظَّنَّ الَّذِي هو من هذا النوع من الظَّنِّ الّذي يَتّبِعُهُ المشْرِكُون، والّذِي يَتْرُكُ البراهِينَ المثبتَةَ أنَّ الله واحِدٌ لا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّته وَلَا في آلِهيَّتِهِ، لَا يَكْفِي شيئاً مِنْ مطْلُوبِ الحقّ ولا سيمَا الحقُّ الرَّبَّانيُّ في قضايا الإيمان الكبرى، ذَاتِ الأدِلَّة الْبُرْهَانِيَّة الَّتي هِيَ في مُتَنَاوَلِ كلِّ ذي فِكْرٍ سليم.

فَعُموم العبارة هنا مُخَصَّصٌ بِقرائن السِّبَاقِ، إذ الموضوع يتَعَلَّقُ بتوحيد رُبوبيَّةِ اللهِ وإلٰهِيَّتِهِ، وما يُناقِضُهُ من شركياتِ المشْرِكين.

لَا يُغْنِي: أي: لا يكفي.

من الْحَقّ: أي: من مطْلُوب الحقِّ من الأدِلّة التي تُثْبِتُه.

وهذا لا يَتَنَافَىٰ مع وجوب الْعَمَلِ بالظّنِّ الرَّاجح حينَ لَا يُسْتَطاعُ الوصُولُ إلىٰ الْيَقين، وبناء على الظّنّ الرَّاجِحِ يجتَهِدُ المجْتَهِدُونَ في استِنْبَاطِ أحكام الشريعة العمليّة، الّتي يتَوَصَّلُ إلَيْها الفُقَهاء المجتهدون.

---

(١) انظر القاعدة (١٦) من كتاب «قواعد التدبُّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلَّ» كلمة (الظن).

القضيّة الثالِثَة: دلَّ عَلَيْها قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾: أي: إنَّ الله عَليمٌ بما يفْعَلُ المشركُونَ وسَيُحَاسِبُهُمْ على كفْرِهِمْ وجَرَائمهم وَسيُجازِيهِمْ إذا ماتُوا على شِرْكهم بالْخُلُودِ في عذابِ النار، كما أبَانَ في نُصُوصٍ كَثِيرَةٍ نَزَلَتْ قَبْلَ هٰذِهِ الآية في سُوَر القرآنِ المجيد.

عَلِيم: أي: بالِغٌ عِلْمُهُ الاستغراقَ الشّامِلَ لكلّ صغيرة وكبيرة ممَّا يَفْعَلُونَ، إذْ هو ـ جلَّ جلالُهُ ـ مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ علماً.

وبهذا تَمَّ تَدَبّر الدّرس التاسع من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحة ومَدَدِه وتوفيقه ومعونته.



(١٣)
التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس سورة (يونس) الآيات من (٣٧ ـ ٤١)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

القراءات:

(٣٩) • قرأ رُوَيس: [يَأْتِيهُمْ] بضَمّ هَاء الضمير، وقرأها باقي القراء العشرة بكَسْر هٰذِهِ الهاء. وهما لغتان عَرَبيّتان.

تمهيد:

في هذا الدرس مُتَابَعَةٌ لمعالجة المكذبين بالقرآن، لإقناعِهِمْ بأنَّه مُنَزَّلٌ حَقّاً من عند الله عزّ وجلَّ، ولا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ إنْسٍ ولا جنّ.

وهذه المتابعة موصولة بالآيَتَيْنِ الأولى والثانية من السورة، والآيات من (١٥ ـ ١٧) منها.

وموصولة بالآية (٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) والآيتين (٤٥ و٤٦) والآية (٧٣) والآية (٨٢) والآيتين (٨٨ و٨٩) والآيتين (١٠٥ و١٠٦) منها أيضاً.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

اشتملت الآية (٣٧) وهي الأولى في هذا الدرس على بيان خمس قضايا:

القضيّة الأولى: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

العطف في أوّل هٰذه الجملة هو من قَبيلِ عَطْفِ الْقَضَايا بَعْضِهَا على

بَعْضٍ، دُون مُلَاحظةِ ترابُطٍ في الْجُزْئيَاتِ اللَّاتي تَشْتَمِلُ عَلَيْها، وهذا من الأساليب القرآنيَّة الَّتِي نُلَاحِظُها في السُّور.

ولامُ الجحود بَعْدَ الكَوْنِ المنْفِيّ محذوفَةٌ لفظاً مُقَدَّرَةٌ ذِهْناً قبل ﴿أَن﴾ المصدريَّة النَّاصِبة.

المعنى: وَمَا كان هَذَا القرآنُ بصِفَاته الإعجازيَّةِ ذَا إمْكَانٍ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ الله، أي: لِأَنْ يُبْدِعَهُ أو يُؤَلِّفَهُ أَوْ يَقُولَهُ كُلُّ مَنْ هُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، إنْسٌ أَوْجِنٌّ أَوْ مَلَائِكَة، فادَّعَاءُ المشْركين أنَّ مُحمَّداً افْتَراه علَىٰ رَبِّه، أي: صَنَعَهُ وزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ قَدْ أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إِلَيْهِ، ادّعَاءٌ ظَاهِرُ البُطْلانِ، لِأَنَّ الْقُرْآن لا يُمْكِنُ لِكُلِّ مَنْ هُمْ دُونَ اللهِ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ بالنَّظَرِ إلى صِفَاتِهِ الْإِعجازِيَّةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْها، والَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ غَيْرُ اللهِ المحيط بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً، الحكيم الخبير، أَنْ يصْطَنِعُوه أَوْ يَصْطَنِعُوا مِثْله.

الافتراء: اخْتِلَاقُ الكذِب واصْطِناعُهُ عن تَعَمُّد، والمرادُ هنا اصطناع القول، ونسبَتُهُ إلى غَيْرِ قَائله.

أمّا جوانب إعجاز القرآن فكثيرة، ذكر البلاغيّون مِنْها الإعجاز البلاغي، وذكر الباحِثُونَ في حَقَائِقِهِ إعجازَ مُطَابَقَتِهِ لِلْحَقِّ في كلِّ ما أبانَهُ من حقائق، فلا يأتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه. وَذَكَرَ الباحِثُونَ في أحكامه وشرائِعه إعْجَازَ مَطَابَقَتِها لمصالح العباد، بخلاف كلّ ما يضَعُهُ الْبَشَرُ من أَحْكامٍ وَتَشْرِيعاتٍ، وذَكَرَ الباحِثُونَ فيما جاء في القرآن من بياناتٍ عن حقائِقَ كَوْنيَّة في ما أَسْمَوْهُ الإعجازَ الْعِلْمِيّ، مطابقةَ ما جاء فيه لمَا تَوَصَّلَ إِلَيْهِ الباحِثُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الكُوْنِيَّاتِ من حَقَائِقَ قالَ الْعُلَماءُ فيها كَلِمَتَهُمُ الْأَخِيرَة.

إلى غير ما سبَقَ مِنْ جوانِبَ إعجازيَّةٍ ظَهَرَ بَعْضُهَا، وسَيَظْهَرُ في المستَقْبَلِ مِنْها مَا يُدْهِشُ الْعُلَماء البَاحِثِين، فالله ـ جلَّ جلالُه ـ سَيُرِي

الناسَ آياتِهِ في الْآفَاقِ وَفِي أنْفُسِهِمْ حتَّى يَتبيَّن لَهُمْ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ من الله رَبِّ العالَمِين العليم الحكيم الخبير الْعَزِيز الرَّحْمٰنِ الرحيم.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: مِنْ كُلِّ مَنْ هُمْ غَيْرُ اللهِ إذْ هُمْ دُونَهُ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُم سُلْطانُه، فَهُوَ الْعَلِيُّ الأَعْلَىٰ.

القضيَّة الثانيةُ: دَلَّ علَيْها قَوْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ: ﴿وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾:

أي: لَمْ يَكُنْ مُمْكِناً أَنْ يُفْتَرَىٰ مَصْنُوعاً مِنْ دُونِ اللهِ، ولكِنْ كَانَ تَنْزِيلَ رَبِّ العالَمِين، ومِمَّا دَلَّ على هٰذِهِ الحقيقَة أنَّهُ كَانَ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْه، إذْ جاء في الكُتُب الرَّبَّانِيَّة السَّابِقَةِ لَهُ بِشَارَاتٌ به وبالرُّسُولِ الّذِي يَنْطِقُ بِهِ مُبَلِّغاً إيَّاهُ عَنْ رَبِّهِ الّذِي يُوحي بِهِ إلَيْهِ.

فَواقِعُ حال القرآنِ المجيد تَصديقُ مَا جَاءَ من بِشاراتٍ عَنْهُ وَعَنِ الرَّسُول الذي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ.

﴿تَصۡدِيقَ﴾ منصوبٌ على أنَّه خبر «كانَ» المحذوفة هي واسمها. ولفظ «تصْدِيق» مَصْدَرُ «صَدَّقَه، يُصَدِّقُه» والمصْدَرُ قَدْ يُسْتَعملُ بمعنىٰ اسْمِ الفاعل، أي: هو مُصَدِّقٌ، وقد يُسْتَعْمَلُ بمعنى اسم المُفْعُولِ، أي: هُوَ مُصَدَّقٌ، والظاهر أنَّ هذا المعنى هو المراد هُنَا، والمصْدَرُ هنا مُضَافُ إلى الْمُصَدِّقِ للقرآن، والموصوفُ بأنَّهُ مُصَدَّقٌ هُوَ القرآن، فالْمَعْنَى أَنَّ القرآنَ مصَدَّقٌ أنَّهُ حَقٌّ من عند الله، ومُصَدِّقُهَ ما جاء مِنْ بَشائر في الكُتُب التي أُنْزِلَتْ من قَبْلِهِ، وهذا مَا يَدُلُّ عَلَيْه السِّبَاقُ والسّياق.

أمّا كَوْنُ القرآنِ مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ فقد جاء بيانُه في نُصُوصٍ مُتَعَدِّدة أخرى، منها قول الله عزّ وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾﴾:

وبهذا تتكَامَلُ النُّصُوصُ في دَلَالَاتِها، ضِمْنَ طَرِيقَةِ القرآن في تَوْزيع الأفْكَارِ المرادِ بيَانُها على النُّصُوص.

القضيَّة الثالثة: دَلَّ عَليْهَا قولُ الله عزّ وجلَّ: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: وهو معطوف على ﴿تَصْدِيقَ﴾.

من الظاهر أنَّ المراد بالكِتَابِ جِنْسُ الكُتُبِ السَّابقَةِ الَّتِي أنْزَلَها الله على رُسُلِهِ السَّابقِين لبِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ.

وكُوْنُ ما جَاءَ في القرآن تفصيلاً لهَا يَدُلُّ عَلَى أنَّ الكُتُبَ السَّابقَةَ فيها مجملاتٌ جَاءَ في القرآن تفصيلٌ لها، وفيها نُصوصٌ غامِضةُ الدَّلَالَاتِ أو مُتَشَابِهَاتٌ، وَجاء في القرآن بيانٌ وَتَوْضِيحٌ لمَا اشْتَمَلَتْ علَيْهِ من المعاني.

التفصيل: التَّبْيين، والتوضيح، وكَشْفُ حُدُودِ الأجزاء المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظهار مَا بَيْنَها من انفصال ولو لم يكُنْ مَرْئيّاً، لتمْييزِ بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ في الإدْرَاكِ الفكريّ.

ومن التفْصيل: كليّاتٌ جاءَتْ في الكُتُب السَّابِقَةِ، وجاء في القرآن المجيد بيان جزئياتٍ لها، مثل كليَّةِ تَحْريم أكْلِ أموال الناس بالباطل، ومن تفصيل هذِه الكليَّة بيانُ تَحْريمِ السَّرِقَة، وتَحْرِيمِ السَّلْبِ ظُلْماً وعُدْواناً، وتَحْريمِ الغِشِّ في الْبَيْعِ والشراء، وتحريمِ الاحتكارات الظالمات، وتَحْرِيم الْغَرَر، إلى غير ذلك من تفصيلات، بَعْضُها جاء صريحاً في القرآن، وبعْضُها جاء في بيَانَاتِ الرَّسُول ﷺ، وبَعْضُها جاء في القرآن التوجيه الإلْزاميُّ لِقياسِهَا علَىٰ مَا جاء في القرآن.

القضية الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾:

الرَّيْبُ: هو في اللُّغَةِ الشّكّ، ونفيُ الشَّكّ عن القرآن يَنْصَبُّ على مَا زَعَمَهُ المكذِّبُونَ بِهِ من أنَّ محمّداً اصْطَنَعَهُ وافْتَراهُ على رَبِّهِ، إذْ نَسَبَهُ إلَيْه.

أي: لَا شَكَّ في أَنَّ القرآنَ تَنْزِيلٌ من عند اللهِ أَوْحَىٰ الله بِهِ إلى رسُوله مُحمَّد ﷺ.

القضيّة الخامسة: دلَّ علَيْها قَوْل الله عزّ وجل: ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: هو مُنَزَّلٌ ومُوحىً بِهِ من لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمين، فَهُوَ من كلامِهِ عزَّ وجلَّ، ولَيْسَ مِنْ كلام جِبْرِيلَ الَّذي كانَ رسولَ تبليغِهِ للرَّسُول محمّد ﷺ، ولا من كلامِ محمّد، ولَا مِنْ كلَامٍ وَاحِدٍ، ولَا أكْثَرَ مِنْ دون الله.

لفظ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يراد به هُنَا كُلُّ مَا سِوَىٰ اللهِ، جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَسمَتْ حكمتُه.

قول الله عزّ وجلَّ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

يُبيّنُ الله عزَّ وَجلّ في هذِهِ الآيَةِ ادّعَاءَ المشركين الَّذِينَ كَذَّبُوا بالقرآن زاعِمِينَ أَنَّ محمّداً ﷺ تَقوَّلَهُ علَىٰ رَبِّهِ، فَلَيْسَ هُوَ مِنْ كَلامِ ربِّهِ، بَلْ هُو من كلامِه، أو أعانَهُ عَلَيْهِ إنْسٌ أو جنٌّ، ونَسَبَهُ إلى الله افتراءً عَلَيْه. ويُعَلِّمُ فيها رَسُولَهُ الرَّدَّ عليْهِم بمَا يَفْضَحُ ادّعَاءَهُمُ الكاذِبَ، ويَجْعَلُهُمْ يَنْقَطِعُونَ وَلَا يَجِدُون جواباً.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾؟: في هٰذِه العِبارَةِ استفهامٌ إنكاريٌّ تَعْجيبيٌّ من مَقُولَة المكذبين بالقرآن أَنَّ محمّداً افتراه على رَبّه، وهذا الاستفهام مُمْتَزِج بمَعْنَىٰ الذي الإضرابِ تَدُلُّ عليه «بل» وهو إضرابٌ انتقالي

«أَمْ» هي بمَعْنَىٰ «بَلْ» مع استفهام مقدّر معها، والاستفهام هنا استفهام انكاريٌّ تَعْجيبي. فمِنْ خصائص «أم» أنها تَعطِفُ استفهاماً مقدّراً، فهي بقُوّةِ «بلْ» مع استفهام.

أي: بل. أَيقُولُ المكَذِّبُون مُحَمَّدٌ افْتَرَىٰ القرآن ونسَبَهُ إلى ربِّهِ؟! إنّ كلامَهُمْ هذا باطِلٌ ظَاهِرُ البُطْلَان، وكلامُهُمْ يَتَّضَمَّنُ ادّعَاءَ أنَّ محمّداً أو غَيْرَهُ مِنَ الْبَشَر لو اجْتَمَعُوا قادرون على أَنْ يأتُوا بمِثْلِ هذا القرآن الْمُعْجز، وهُمْ غَيْر صَادِقين في هذا الادّعاء، بَلْ هم كَاذِبُونَ، وقَدْ يكُونُ بَعْضُهُمْ واهِمين.

والرَّدُ المفْحِمُ لهذا الإدّعاء، هُو تَحَدِّيهِمْ بأَنْ يأتُوا بِمِثْلِهِ أو بِسُورَة مِثْلِه، وأَنْ يَسْتَعِينُوا بِمَنْ يَسْتَطِيعُون الاسْتِعَانَةَ بِهِ مِنْ دُون الله، إنْ كانُوا صَادِقينَ في زَعْمِهِمْ قُدْرَةَ غَيْرِ اللهِ علَىٰ الإتيان بمِثْلِه، فقال اللهُ عزّ وجلّ لرسوله:

﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

هذا أحَدُ الأجْوِبَة الَّتِي علّمَ اللهُ رسُولَهُ أَنْ يُجيبَ بها على هٰذَا الإدّعاء من أدّعاءاتهم الّتِي كَرَّرُوها في مقالاتهم الإعْلاميّة الظالمة.

وقد أنزل الله عزّ وجلّ قبل هذا في سورة [الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وجاءَ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

وخَاطَبَ الله عزّ وجلّ المُرْتَابِينَ مِنْ ما نَزَّل اللهُ على رسوله من قرآن. في أوَّلِ سُورة مَدَنِيَّةٍ، فقال عزّ وجل في سورة (البقرة/٢ مصحف/

٨٧ نـــزول): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فجاء في هَذِهِ النُّصوص التحدِّي بالإتيان بمثْلِ القرآنِ كُلّه، وجاء فيها التحدِّي بالإتيان بسُورَةٍ مِثْلِه، وجاء فيها التحدِّي بالْإتْيان بعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِه. ولكن جاءَ فيها التحدِّي بالإتيان بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ بَعْدَ التَّحَدِّي بالْإتيان بسُورَةٍ مِثْلِهِ في تَرْتِيب النُّزُول، إذْ جاء هٰذا في سورة (هود/ ٥٢ نزول) بَعْدَ التَّحَدِّي بالإتيان بسُورَةٍ مثله في سورة (يونس/ ٥١ نزول) على خلاف المتبادِر من التحدِّي بالْأَقَلِّ بَعْدَ التحدِّي بالْأَكْثر.

فما الْحِكْمَةُ مِنْ هذا الإجراء؟

أقول:

لمَّا جاء التحدّي بالقرآن عموماً في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) كان وقْعُهُ على المكذِّبين بأنَّهُ كلامُ الله مُثيراً لاعتراضهم بأنَّ الرَّسُولَ لَمْ يَأْتِ بالقرآن جُمْلَةً واحِدَةً، حتَّىٰ يتحدَّانَابه، إنَّما يأتينا به مُفَرَّقاً نَجْماً بَعْدَ نَجْم، ولَمْ يَسْتَكْمِلْ بَعْدُ قُرْآنَهُ حتَّىٰ يَتَحدَّانابِهِ، ولَسْنَا نَدْرِي مَاذا سَيَأْتِينا به ممَّا يَذْكُرُ أنَّهُ قُرْآن.

فأنْزَل الله عزّ وجَلَّ في سُورَة (يونس/ ٥١ نزول) تَحَدِّيَهُمْ بأن يأتُوا بسُورَةٍ مِثله مُسْتَعينين بِمَنْ يَسْتطيعون الاستعانة به من دُون الله، مع العِلْم بأن السّور القريبة التنْزيل مِن سورَة (يونس/ ٥١ نزول) هي ما يلي:

- سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهي (١١١) آية.
- سورة (القصص/ ٤٩ نزول) وهي (٨٨) آية.
- سورة (النمل/ ٤٨ نزول) وهي (٩٣) آية.
- سورة (الشعراء/ ٤٧ نزول) وهي (٢٢٧) آية.

- سورة (الواقعة/ ٤٦ نزول) وهي (٩٦) آية.
- سورة (طه/ ٤٥ نزول) وهي (١٣٥) آية.
- سورة (مَرْيم/ ٤٤ نزول) وهي (٩٨) آية.
- سورة (فاطر/ ٤٣ نزول) وهي (٤٥) آية.
- سورة (الفرقان/ ٤٢ نزول) وهي (٧٧) آية.

فهي ونحوها المَغْنِيَّات بالتحدّي.

ولعَلَّ بعْض المكذبين تَساءَلَ بلِسَانِهِ أَوْ بنَفْسه: أيتَحَدَّانَا محمّد بأنْ نأتي بسُورَةٍ ممَّا جاءَنا بِهِ مِنْ قِصَارِ السُّوَر، كَسُورَتي (الفلق) و(الناس) وسورة (قريش) وسورة (الكافرون) وسورة (المسَد)؟! إنَّنا سَنَأْتِي بِمِثْلِ سُورَةٍ من هذه السُّوَر وأشباهها.

وقطعاً لِلْجدَلِ فيما يُمْكِنُ أنْ يَتَحدَّوا بهِ من قَوْلٍ مُمَاثِلٍ لِبَعْضِ قصار السُّور فيما يَزْعُمُون، أنزل اللهُ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) تَحدِّيَهُمْ بأن يأتُوا بعَشْرِ سُوَر مُمَاثلات لعشْر سُورٍ من قِصَار سُوَر القرآن، الَّتِي ظَنُّوا أنّ بإمْكَانِهِمْ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ واحِدَةٍ منْها، وأَنْ يُثِيرُوا بِهِ جَدَلاً حَوْلَ المماثَلَةِ أَوْ عَدَمِهَا.

ثُمَّ أَنْزَل اللهُ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مَدَنيّة تَحدِّيَ المُرْتَابين بالقرآن بأَنْ يأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِه (أي: من غير قصار السُّور).

علىٰ أَنَّهُمْ لَنْ يسْتَطِيعُوا أَنْ يأتُوا بسُورَةٍ من مِثْلِ قِصارِ سُوَر القرآن ضِمْنَ الأَبْعَادِ الواسِعَة لتدبُّرها، ولكنْ عَلَّمَ الله رَسُولَهُ أَنْ يتحدّاهم بِمِثْلِ عشر سُوَر من قصار السُّورِ قَطْعاً لِجَدَلِيَّاتِهِمْ، لأنّهم إذا أمكنَهُمْ أنْ يجادِلُوا بشَأْنْ ما يُمَاثِلُ سُورَةً قَصِيرَةً واحِدَة، فإنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يُجادِلُوا بما يَزْعُمُونَ مماثلَتَهُ لِعَشْرِ سُوَرٍ قِصار.

وهذا من الأساليب الجَداليَّة التي يُرْشِدُنا اللهُ عزّ وجل إليها، كما فعَلَ سَيّدُنا إبراهيم عليه السَّلام في مناظَرَتِهِ لِنُمْرُود، وهو ما جاء بيانُه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرَة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نُزُول):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

انتقل إبراهيمُ علَيْهِ السّلامُ في مُناظَرَتِهِ مِنْ مِثَالٍ اسْتَطاع نمرود أن يُغَالِطَ فيه، إلى مِثَالٍ لا يَسْتَطِيعُ أن يُغالِطَ فيه، وهذا من البراعَة في أساليب المناظرات.

قوْلُ الله تعالى:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:

أي: لَيْسُوا صَادِقِينَ مع أنْفُسِهِمْ في ادّعاءِ قُدْرَةِ الذين هُمْ من دُون الله علَىٰ أن يأتُوا بِمِثْلِ هَذا القرآن، الّذي يَتْلُوهُ الرَّسُولُ محمّد ﷺ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ فحرْف «بل» يَعْطِفُ على مَطْوِيٍّ من السَّهْلِ إدْراكُهُ مِنْ تَدَبّرِ السِّباق، الإحاطَةُ بالشيء: الالْتِفَافُ حَوْلَهُ من كُلِّ جِهَاتِهِ وَكُلّ جَوانِبِهِ، كالكُرَةِ المجَوَّفَةِ المحِيطَةِ بما هو في داخِلها، والإحاطَةُ بالشّيْءِ عِلْماً تكُونُ بِمَعْرِفَةِ كُلِّ عناصِره وصفاته، والإحاطَة بالكلام عِلْماً تكُونُ بمعْرِفَة كُلِّ دَلاَلاَتِهِ الّتِي تُفْهَمُ من صريح اللّفْظ، ومن اللّوازم الفكريَّةِ الّتِي يَقْتَضِيهَا صَرِيحُ اللّفظ، أو يُدْرِكُهَا الْفِكْرُ اسْتِنْباطاً من لوازم المعانِي، ومِنَ القرائِن السَّابِقَةِ واللّاحِقَة، وهذِهِ الإحاطَةُ العلميَّة هي الّتِي يَسْعَىٰ للوصول إلَيْها المتدبّرُونَ لِكلام الله عزّ وجلّ.

ففي هذه العبارة حَثٌّ ضمنيٌّ على أن يتدَبَّرُوا القرآن ليُدْرِكوا أنَّهُ كَلَامُ الله.

المعنى: إنَّهُمْ لَمْ يَتدَبَّرُوا الْقُرآن كَما يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَدَبَّرُوه، فَلَمْ يُحِيطُوا بمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أن يُحِيطُوا بِهِ من المعاني الَّتِي يَدُلّ عليها، والَّتِي يُدْرِكونَ بها أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ، فكذَّبُوا بِأَنَّهُ كَلامُ اللهِ، ووَحْيٌ أوحَىٰ الله عزّ وجلَّ بهِ إلَىٰ مُحمّدٍ، وهَذا يَكفِيهِمْ شاهداً على أنَّ محمّداً رَسُولُ رَبِّه حقّاً وصِدْقاً، وأنَّهُ يُبلِّغُ عَنْ رَبّه مَا يأمُرُه بأنْ يُبلِّغَهُ.

إنَّهُمْ لو تَدَبَّرُوا القرآن فأحاطُوا بدَلَالَاتِهِ علماً، لوَجَدُوا في وِجْدَانَاتِهِمْ ما يُوَبِّخُهُمْ على التّكْذِيب بأنَّهُ كلامُ الله، ووحيٌ يُوحِي به اللهُ إلى رسولِه محمّد ﷺ، إلّا أنَّهُمْ اسْتَمَعُوا إليه استماعاً سَرِيعاً، فوجُدوا في معانِيهِ ما يُنَاقِضُ اعتِقاداتِهم بشأن شِرْكياتِهِم الباطلات، وبشأن بَعْضِ أعمالهم الّتي يُحِبُّونَ ممارَسَتَها في حياتهم، فأطْلَقُوا عِبارَاتِ التكذيب به، وادّعاءَ أنّ محمّداً ينْسُبُهُ إلى رَبِّهِ افتراءً عليه.

• ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾:

التأويل: يأتي بمعنى الإرْجاع، ويأتي بمعنَىٰ التصْيِير، وهذا المعنى الثاني هو المراد هنا. يُقَال لغة: «أوَّلَ فُلَانٌ الشيْءَ إلى كذا تأويلاً» أي صَيَّرَهُ إلَيْه. والْخَبرُ والوعْدُ الّذي يتضمَّن الحديثَ عمَّا سيَكُونُ في المستقبل، تأْوِيلُهُ يَكُونُ بتَحْقِيقِهِ وإيقاعِهِ على الْوَجْهِ الّذِي جَاء في الْوَعد.

وقد جاء في القرآن إنْذَارُ المكذِّبين المعانِدين الجاحِدين بعقوبات مُعَجَّلاتٍ في الدُّنيا غيرِ الْعُقُوبَات المؤخَّراتِ إلى يَوْم الدّين، وقد جاء في هٰذِهِ العبارَةِ إشْعارُهُمْ باقْتراب تَصْيِيرِهَا أمْراً واقعاً محقَّقاً،

﴿لَمَّا﴾: من جوازم الفعل المضارع، وهو حرف نفي، وجزْم، وقَلْبٍ لمعنى الفعل المضارع وجعْلِهِ ماضِياً، وقد تُسْتَعْمَلُ لِتَوَقُّعِ قُرْبِ وقُوع ما نَفَتْهُ، مثل: صَلّيْنَا الفَجْرَ ولمَّا تَطْلُعِ الشَمْسُ.

فالمعنى: واقْتَرَبَ تَصْيِيرُ ما أُنْذِروا به من عُقُوبَاتٍ معجَّلاتٍ فِي الدنيا أمْراً واقِعاً مُتَحقِّقاً، فَلْيَحْذَرُوا وُقُوعَ ما أُنْذِرُوا به، إنْ كانوا من أولي الألْبَاب.

لقد جاء هذا الإنْذارُ بَعْد بيان أنَّهُ يجبُ عليهم أوّلاً أن يَتَدَبَّرُوا القرآن بوعْيٍ وتفكير سليم.

• ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾:
أي: كَذَلِكَ التكْذِيب الضّالِّ عن الحقِّ ضَلَالاً بَعِيداً جدّاً، الَّذي كذَّبَهُ كُبَرَاءُ مُشْرِكي مَكَّةَ، إذْ كَذَّبُوا بالقرآن فظَلَمُوا، كذَّبَ الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ مُكَذِّبي القُرُونِ الأُولَى بِكُتُبِ رَبِهِم الّتي أوحَىٰ بها إلى رُسُلِهِ لِيُبَلِّغُوهُمْ إيّاها، فأنْزلَ رَبُّهُمْ بِهِمْ عُقُوبَاتٍ سَاحِقَاتٍ مَاحِقَاتٍ، فانْظُرْ أيُّهَا المتَلَقِّي الدَّرَّاكُ المتفكِّرُ بعَيْنِ بَصَرِكَ إلى آثَار الدَّمَار الَّذِي أنْزَلَهُ بقُرَاهُمْ ومُدُنِهِمْ، وانْظُرْ بِعَيْنِ بَصِيرَتِكَ إلى آثار قَانُون الجزاء الرَّبَّاني، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ فِيه لَا تَبْدِيلَ فِيها ولَا تَحْوِيلَ لها.

جاء هذا البيانُ كاشفاً للمراد بعبارة: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أَبَانَ الله عزَّ وجلَّ بهذه الآيَة حِكْمَتَهُ في عَدَمِ إنْزَالِ الْعِقَاب الْمُعَجّل بالكُفَّارِ المكَذِّبينَ بأنَّ القرآن كلامُ الله يُوحِي به إلى رُسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، وهي أنَّهُ قَدْ عَلِمَ أنَّ فِي نُفُوسِ بَعْضِهِمُ مَيْلاً إلى الإيمان، واسْتِعْداداً لِأَنْ يُؤْمِنَ بإرادَةٍ حُرَّةٍ إيمَاناً صَادِقاً، لَوْ أُمْهِلَ وَتُوبِعَ بالإقناع والترغيب والترهيب، وَعَلِمَ أَنَّ آخَرِين مِنْهم قَدْ وصَلُوا إلى حالَةٍ ميؤوسٍ مِنْ إصْلاحِهِم معها عن طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة، ولهذا فلَيْس من الحكمةِ أَنْ يُنْزِلَ بهم عِقَاباً جَمَاعِيّاً شاملاً مُهْلكاً، بل الحكمة تقتضي إمهالَهُمْ، ومُعَاقَبَة

الميْؤُوسِ مِنْهُم بِعُقُوبَاتٍ إفراديَّة، أو مُجَزَّأةٍ على جَمَاعَةٍ فجماعَة.

• ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: ومِنْ هؤلاء المكذّبين مَنْ لَدَيْهِمُ الاستِعْدادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا به مسْتَقْبلاً، إذْ عَلِمَ الله في قُلُوبِهِمْ خيراً يَجْعَلُهُمْ يُؤْمِنُونَ بالْحَقِّ ولَوْ بَعْدَ حين.

• ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْداد لِأَنْ يُؤْمِنُوا مستقْبلاً به، مَهْما أُمْهِلُوا، إذْ عَلِمَ اللهُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ في قُلُوبِهِمْ خَيْرٌ يَجْعَلُهم يُؤمِنُون بالْحَقِّ ولَوْ بَعْدَ حِين.

• ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: وهؤلاء الذين لا خَيْرَ في قُلُوبهم يَدْفَعُهُمْ إلى الإيمان مستقْبلاً، رَبُّكَ أيّها المتَلَقِّي الرَّشيد أعْلَمُ مِنْ كلِّ ذي عِلْمٍ بِما في نُفُوسِهم وقُلُوبِهِمْ من شرّ، وبِأَنَّهُمْ فاسِدُونَ مُفْسِدُونَ.

إنَّهُمْ إذا كانُوا مُفْسِدِين دُعَاةً للضَّلالِ فَلابُدَّ أَنْ يَكُونُوا فاسِدِين، وهؤلاء يستَحِقُّونَ أَنْ تَنزلَ بِهِمْ مُهْلِكاتٌ خَاصَّةٌ، وقَدْ حَصَل هذا بمَقْتَلِهِم أذِلَّاءَ مُهَانِينَ في غُزْوَةِ بَدْرٍ الكُبْرَىٰ، وأَهْلَكَ اللهُ بَعْضَهُمْ قبل ذَلِك وهُمُ الذين عناهم اللهُ عزّ وجل بقوله في سُورَةِ (الحجر/ ٥٤ نزول).

﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

وقد جَاءَت العبارة عَامَّةً لإثبات شُمُولِ عِلْمِ اللهِ بما في نُفُوسِ الناس، وأنَّهُ أعْلَمُ مِنْ كلِّ عَلِيمٍ بها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الْمَقْصُودِينَ بالبَيَان يَدْخُلُونَ فِي هذا الْعُموم بداهَةً.

وقَدْ تَرَجَّحَ لديّ هذا الْفَهْمُ لِلْآيَة، لِأَنَّ الإيمان في التَّعْبيراتِ القرآنِيَّة يُرادُ بِهِ التَّصْدِيقُ الإراديُّ الْقَلْبِيُّ، وهٰذا لَا بُدَّ أَنْ يكونَ مِنْ أَثَرِهِ الاعْترافُ باللِّسَان، وهو مُنافٍ لِلْوَصْفِ الحاليِّ بأَنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ وظالِمُونَ، وبَدَهِيٌّ أنَّ النَّقِيضَيْنِ لَا يَجْتَمِعَان، فَلَا يكونُونَ مُكَذِّبِينَ بما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِه، ومُؤْمِنِينَ مَعاً، وجهة التكذيب والإيمان واحِدَةٌ، وهي القرآن وكَوْنُهُ كلَاماً مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ الله رَبِّ العالمين.

ومن المعلوم أنَّ الفعلَ المضارع يُسْتَعْمل في الحال والاستقبال، وهُنَا قد اسْتُعْمِلَ في الاستِقْبال، فَلا إشكال.

قول الله تعالى خطاباً لرسولِهِ ﷺ:

• ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

دَلَّ قول الله لرسوله: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ﴾ باسْتِعْمالِ «إِنْ» الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فيما هو غَيْرُ واقع، أو في المشكُوكِ فيه، على أنَّهم مَا كَذَّبُوا الرَّسُولَ فيما بَلَّغَهُمْ عَنْ رَبِّه، ولٰكِنَّهُمْ جَحَدُوا بآياتِ الله مَعَ عِلْمِهِمْ بأنَّها حَقٌّ، وقَدْ جاء التصريح بهٰذِهِ الحقيقة في قَوْلِ اللهِ عزّ وجَلَّ لِرَسُوله في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

﴿قَدْ﴾ حرفٌ معناه التحقيق. أيْ: نُحقِّقُ لَكَ أَنَّنا نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُه بشأْنِكَ الَّذِين كذَّبُوك فِيمَا تُبلِّغُهُ عن رَبِّكَ، فكُنْ عَلَىٰ عِلْم بأَنَّهُمْ فِي الحقيقة لا يُكَذِّبُونَكَ، بَلْ يَعْلَمُونَ صِدْقَكَ، ولكنَّهُمْ يَجْحَدُونَ بآياتِ الله ظُلْماً وعِنَاداً بغَيْر حَقٍّ، وهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّها آياتُ الله، ويتّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَشَهَواتِهم ومطالِبَهُمْ من الحياة الدّنيا.

وَقَدْ عَلَّمَ الله رَسُولَهُ في آيَةِ (يُونُسَ) أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهم بقوله:

﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: أَنَا وإِيَّاكُمْ خاضِعُونَ لِمُرَاقَبَةِ اللهِ وَمُحَاسَبَتِه وفَصْلِ قضائِهِ ومُجازاتِهِ على أعمالِنَا.

والمسؤوليَّة عِنْدَ اللهِ مسؤوليَّةٌ فَرْدِيَّة، أَنَا يكونُ لي أَثَرُ عَمَلِي خيراً

كان أَمْ شَرّاً، فإنْ كُنْتُ كاذِباً أَفْتَرِي علَىٰ رَبِّي فأنا وحْدِي الّذِي أنالُ عِقَابَ افْتِرَائي علَيْه، وأنْتُمْ بَرِيئُونَ مِنْ مسؤوليَّةِ ما أعْمَل، ومن الْجَزاءِ علَيْهِ، وكُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ لَهُ أَثَرُ عَمَلِهِ خيراً كَانَ أمْ شراً، فإذَا كذَّبَ بآيَاتِ الله وهُوَ يَعْلَمُ أنَّهَا حقٌّ فَهُو وحْدَهُ الّذي ينَالُ عنْدَ رَبِّه عِقَابَ تَكْذِيبِهِ بالحقِّ، وكُفْرِه بالْحَقّ، وأنَا بَرِيءٌ مِنْ مَسْؤُوليّةِ ظُلْمِه، ومن الجزاء عَلَيْه.

فاعْمَلُوا مَا شئْتُمْ فإنَّكُمْ مُلَاقُونَ جزاءَ أعْمَالِكُم، وأنَا أعْمَلُ مَا أشَاءُ فإنّي مُلاقٍ جزَاءَ عَمَلِي، لَا أُلْزِمُكُمْ بشَيْءٍ أَنْتُمْ لَهُ كارِهُون، وعليكُمْ أنْ لا تُلْزِمُوني أو تُلْزِمُوا أحداً مِمَّنْ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني بشيء نَحْنُ لَهُ كارِهُونَ. إنَّهُ لَا إكْرَاهَ في الدِّين.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس العاشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومعونته ومَدَدِه.



(١٤)
التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُروس سورة (يونس) الآيتان: (٤٢ و٤٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

تمهيد:

أبان الله عزّ وجَلَّ في هَاتَيْنِ الآيَتَيْن أحْوَالَ الكَفَرَةِ المكَذِّبِينَ بالقرآن، من كفَّارِ مَكَّة إبَّانَ التنزيلِ، بالنِّسْبَةِ إلى تلاوتِهِ الْقُرْآن، وإلى بيانَاتِهِ الإقناعيَّة والترغيبيَّة والترهيبيَّة، ودَلَّ هذا البيان على أنَّهُمْ ثَلاثَةُ أقْسامٍ:

القِسْمُ الأول: مُدْبِرُونَ لَا يَسْتَمِعُون إلَىٰ أقوالِ الرسُولِ ولو كانوا لا يُواجِهُونَهُ ولَا يَنْظُرُونَ إلَيْه، وهذا القِسْمُ مطْوِيٌّ في النّصِّ غَيْرُ مُصَرَّحٍ به، ولكِنْ يُفْهَمُ باللُّزُوم ٱلعَقْلِيّ من ذِكْرِ الْقِسْمَيْن الآخَرَيْن.

الْقِسْمُ الثانِي: قِسْمٌ يَسْتَمعُونَ إلَىٰ أَقْوالِ الرَّسُولِ مُقَابِلينَ له، أَوْ مُعْرِضين عَنْ يمينهِ، أو مُعْرِضِينَ عَنْ شِمَالِهِ، أو مُدْبِرِينَ عَنْه، وَتَصِلُ إلَىٰ آذانِهِمْ أصْوَاتُ أقوالِهِ وتِلَاوَاتِهِ لآيَات كِتَاب الله، لكِنَّهُمْ في الْحَقِيقَةِ لَا تَصِلُ إلى جهاز الإدراك السَّمعيّ لَدِيْهِمْ في أدْمِغَتِهِمْ تِلَاواتُهُ ولا أقواله فَلا يتدبّرونها.

القِسْمُ الثالث: قِسْمٌ يَجْلِسُونَ في مجلسِ الرَّسُولِ ويَنْظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إلَيه، وهم بالنسبة إلى الاستماع يَسْتَمِعُون إلى تلاواتِه وأقوالِه، كأهل القسم الثاني، وَلَكِنَّ بَصِيرَتَهُمْ بَصِيرَةٌ عَمْيَاءُ لَا تَنْفُذُ إلى داخِلِها الإشْرَاقَاتُ النَّبَوِيَّةُ، ولَا تأثيراتُها في الّذِينَ لدَيْهم الاستعداد لاستقبال أنوار الْهِدَايَة، فَهُمْ مَحْجُوبُونَ دَاخِلِيّاً بِحجَابٍ كثِيفٍ من أهواء نفوسهم، وشَهَواتِهِمْ، وتعَلُّقِهِمْ بالحياة الدّنيا وإيثارهِمْ لها على الآخرة، فأَنَّىٰ أَنْ تُؤَثر فيهم البيانات الرَّبّانيَّة، والإشراقات النبوية.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى خِطاباً لِرَسُوله ﷺ، ويشملُ بإرْشاده كلّ داعٍ إلى الله من أمَّته.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: وَمِنَ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ ٱلْمَعْنِيِّينَ بالمعَالجَةِ في السّورَةِ، مَنْ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وهُمْ يُواجِهُونَكَ، أوهم مُعْرِضُونَ عَنْكَ مِنْ ذَاتِ الْيَمِين أو من ذَاتِ الشَّمَالِ أو من وَرَائِكِ، ويَصلُ صَوْتُكَ إلَى آذَانِهم، ولَكِنَّ مَا يَسْمَعُونَهُ لَا يَصِلُ إلىٰ أَذْهَانهم وعُقُولهم، فَهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِما يَسْمَعُونَ،

وَلَا يَتَدَبَّرُونَ مَا تَتْلُوهُ عليهم، ولَا يَفْهَمُونَهُ فهماً حَسناً بِعُقُولهم، وَلَا يَعْقِلُونَه مُسْتَذْكِرِينَ له.

إنَّ مراكِزَ الإدْراكِ الواعي في أَدْمِغَتِهِمْ صَمَّاءُ عَنْ إدْراك الحقِّ والْهُدَىٰ، مُغَلَّفَةٌ بأغْشِيَةٍ من الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، وإراداتُهُمُ الحرَّةُ رَافِضَةٌ ابْتِداءً قَبُولَ الحقِّ ولو أدْركوه، ولَا تَسْتَجيب للهدَايَة ولو فَهِمُوا دَلَالَات البيان الرَّبَّانِيّ الّذي يَدُلُّ عليها.

لَقَدْ طُوِيَ في النَّصِّ التَّصْريحُ بِعَدَمِ إدْراكِهم الإدْراكَ النافِعَ لما يَسْمَعُون، وجَاءَت الكِنايَةُ عَنْهُ بُقَوْلِ اللهِ لِرَسُوله:

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾؟!.

أي: لَا تَطْمَعْ باسْمَاعِهم إسْماعاً مؤثراً نافعاً لهم، لأنَّهم بمثَابَةِ الصُّمِّ في مَرَاكِزِ الإدْراكِ الواعِي دَاخِلَ نُفوسِهِمْ عن سماع الحقِّ والهُدَىٰ، إذْ هِيَ مَحْجُوبَةٌ بالرَّفْضِ ابْتِدَاءً مِنْ قبل السَّماع، وهم لَا يَعْقِلُونَ عقْلاً إراديّاً أهْوَاءَهم وشهَواتِهم ورَغباتِهم الجامحاتِ الجانحات عَنْ صِرَاطِ الْهُدَىٰ، بكَفِّها ومنعها عن المزالِقِ والمهاوي.

إنَّ المطْمُوعَ بإسْمَاعِهِمْ هم الّذين لا يكونُونَ ذَوِي صَمَمٍ داخِلِيٍّ بحُجُبٍ من الأهواء والشهواتِ والرَّغباتِ الجامحاتِ الجانحات، ويَمْلكُونَ إرادَاتٍ قَوِيَّاتٍ تَعْقِلُ هٰذِهِ الثَّائِرَاتِ في نفوسهم، وَتَضْبِطُهَا عَنِ الجنُوحِ الظَّالم الآثِم إلى مَوَاقِعِ الكُفْرِ والْفُجُور فالْمَهَالِكِ فالْعَذاب الْأَليم الأبَدِيّ.

والْغَرَضُ من الاستفهام في العبارة النَّفي، **والمعنى**: أيَشْتَدُّ حِرْصُكَ، يا مُحمَّدُ على إسْمَاعِهِمْ إسْمَاعاً واصِلاً إلى عُمْقِ مداركِهم الوَاعِيَة الّتي تُؤَثِّرُ فيهم تأثيراً هَادِياً، طامعاً بذلك، إنّهُمْ صُمٌّ صَمماً نَفْسِيّاً عن اسْتِماعِ بيَاناتِ الحقّ والْهُدَىٰ، وهم لَا يَعْقِلُونَ دَوافِعَ نُفُوسِهِمْ عَنْ شَرٍّ وإثم، فَلَا تَطْمَعْ فيما أنت حريصٌ عليه، فأنْتَ بَشَرٌ لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ، ولا سيما الّذين لا يَعْقِلُون.

العقل: عقلان: عَقْلٌ عِلْمِيّ يَفْهَمُ ويعِي ويَحْفَظ، وعَقْلٌ إرادي يَضْبِطُ ويْمنعُ عن المزالق والمهاوي.

قول الله تعالى خطاباً لرسوله ﷺ ويشْمَلُ بإرشاده كلّ داعٍ إلى الله من أُمَّته:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ومِنَ الكَفَرَةِ المكَذِّبينَ بالْقُرْآن المعنيِّينَ بالمعالجَةِ في السّورَةِ، مَنْ يُنْظُرُ إلَيْكَ حَاضِراً مَجْلِسَك أَوْ مَوْقِفَكَ الَّذِي تَتْلُو فِيه آياتِ القرآنِ، أو تُحَدِّثُ فِيه داعياً إلى رَبِّك بالحكمة والموعِظَةِ الحسَنَة، لَكِنْ لَا تَصِلُ إِلَىٰ قُلُوبِهِمْ إشراقاتُ النُّبوَّةِ ذَاتِ التأْثِيرِ في قُلُوب الَّذِينَ لَدَيْهِمْ استعدادٌ لاستقبال أنوار الهداية النُّبويَّة، فَهُمْ بِمَثابَةِ الْعُمْيِ الّذِينَ لَا يَرَوْن، لِأَنَّ بصائِرَهُمْ مَحْجُوبَةٌ بِحِجَابٍ كثيفٍ من أَهَواء نُفُوسِهم وشهواتِهِم وتقالِيدهم العمياء، ولأنَّ إراداتهمُ الحرَّةَ رافِضَةٌ ابْتِدَاءً تَلَقِّيَ إشراقاتِ النبوّة.

فَهُمْ مَعَ المسْتَمِعِين لَا يَسْمَعُونَ، ومَعَ النَّاظِرِينَ لَا يُبْصِرُونَ.

والغرض من الاستفهام في العبارة هنا النفي، كالاستفهام في العبارة السَّابقة.

والمعنى: أَيَشْتَدُّ حِرْصُكَ يا مُحَمَّد علىٰ أَنْ تَصِلَ إلى قُلُوبِهِمْ إشراقَاتِ النُّبُوّة، فَتُؤَثِّر فيها تأثيراً هادِياً، طامعاً بأَنْ يَسْتَجِيبوا لدَعْوَتِك.

إنّ بَصَائِرَهم بَصَائِرُ مَحْجُوبَةٌ عَنْ تَلَقِّي أنوار الْهِدَايَة، فَهُمْ يَنْظُرون إِلَيْكَ وَلكِنَّهُمْ لَايُبْصِرُون، فَلَا تَطْمَعْ فيما أَنْتَ حَرِيصٌ عَلَيْه، فأنْتَ بَشَر لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَهْديَ عُمْيَ الْبَصائِر.

إنَّ هَؤَلَاءِ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ في الظاهِرِ وهُمْ صُمُّ أَجْهِزَةِ الإدْراكِ الواعِي دَاخِلَ نُفُوسهم، وَيَنْظُرُونَ إِلَيْكَ في الظاهِرِ وَهُمْ عُمْيُ الْبَصائِرِ، فَلَا تُؤَثِّرُ في

دَاخِلِهِمُ الْأَقْوالُ الهادية الَّتِي تُحَدِّثُهُمْ بها، ولَا الْإِشْرَاقَاتُ النَّبويَّةُ التي تؤثّر في الَّذِين لَدَيهم الاسْتِعْداد. لِتَلَقِي الإشْرَاقَاتِ النَّبويَّةِ والانْتِفَاعِ بها.

لم يأْتِ التَّصريحُ في هٰذه العبارة باسْتِماعِهِمْ، اكتفاءً بَدَلَالَة حُضُورِهم مَجَالِسَ الرَّسُولِ أَوْ مَوَاقِفَ دَعْوَتِه، وَنَظَرِهِمْ إِلَيْهِ، فإنَّ الحاضِرَ الناظرَ لَا بُدَّ أَنْ يَسْتَمِعَ مَا لَمْ يَكُنْ أصَمَّ في أُذُنَيْهِ، فهو دَاخِلٌ في قِسْمِ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾.

ورُوعي في هذا القِسْم المسْتَمِع معنى «مَنْ» الجمعيّ، ورُوعي في القسم الثاني معنى لفظ «مَنْ» الإفرادي، فجرَىٰ التنويع التَّفنُّني مع مُلَاحَظَةِ أنَّ المستمعين يُمَثِّلُونَ جماعات من الجهات الأَرْبَعَ للمحدّث، أمّا النَّاظِرُون فيمثّلونَ المواجِهِين لِوَجْهِهِ فقط.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الحادي عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على مَدَدِه ومعونته وتوفيقه وفتحه.



(١٥)
التدبّر التحليلي للدّرْس الثاني عشر من دُرُوس سورة (يونس) الآيات من (٤٤ ـ ٥٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

القراءات:

(٤٤) • قرأ حمزة، والكسائي، وخَلَف: [**وَلَكِنِ النَّاسُ**] «لَكِنْ» هُنا حَرْف ابْتداءٍ لإفادة الاستدراك، وتأتي بَعْدَهُ جُمْلَةٌ، وهو غير عامل.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ﴾ «لَكِنَّ» هُنَا من أخواتِ «إنّ» الّتي تَنْصِبُ الاسْمَ وَتَرْفع الخبر، وتفيد الاسْتِدراك، مثل «لَكِنْ».

ومؤدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

(٤٥) • قرأ حفص ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ بضمير الغائب، أي: يحشُرُهم الله تعالى.

وقرأها باقي العشرة: [**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ**] بضَمِير المتكلّم العظيم.

ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التّفنُّن في التعبير، وفي قراءة الجمهور تربية المهابة من الربّ العظيم.

(٥٣) • قرأ أبُو جَعْفر: [**وَيَسْتَنْبُونَكَ**] بحذف الهمزة وضمّ الباء مراعَاةً للواو الساكنة بَعْدَها.

وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التسهيل والإبدالُ ياء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾ على الأصل.

والقراءَتان من اللّهجات العربية.

(٥٣) • قرأ نافعٌ، وأبو عَمْرو، وأَبو جَعْفر: [وَرَبِيَ إِنَّهُ] بفَتْح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

فتح ياء المتكلّم وإسكانُها لغتان عَرَبيّتان.

تمهيد:

يتناول هذا الدّرْس بيَان حقائق من موضوع الجزاء الرَّبّانيّ المؤجَّلِ إلى يوم الدين، والمعجَّل في الدّنيا إذا اقتضت حكمَةُ الله إنْزَالَ عذابٍ مُعَجّل في قَوْمٍ أو بعضِ قوم.

ويُعَلِّم الله عزَّ وجلَّ رسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته، مَا يجيب به السائلين عن وَقْتِ مَا أُنْذِرُوا به مِنْ عذاب، أو عَنْ كوْنِهِ حقّاً.

وذِكْرُ هذه الحقائق في هذا الدرسِ عن الجزاء المؤجّل والمعجَّل، مع ما فيه من تعليم إجابةِ السَّائلين إبّانَ التنزيل عَنْ وقْتِهِ أو عَنْ كوْنِه حقّاً، يتضَمَّنُ تَرْهيباً شديداً للشّاكّين أو المكذّبين، ولكن بأسْلُوبٍ بَدِيعٍ غَيْرِ مُباشر.

التدبّر التحليلي:

قال الله تعالى:

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

دلَّتْ هٰذِهِ الْآيَةُ علىٰ الحقِيقَةِ العامَّةِ الكُبْرىٰ لقَانُونِ الجزاء الرَّبّانِيّ للعبادِ الموضوعين مَوْضعَ الامتحان والتكليف.

إنَّ جزاءَ اللهِ بالعقابِ قاعِدَتُهُ الْعَدْلُ وقَدْ يكُونُ الْعَدْلُ مصْحُوباً بالفضلِ والتَّجاوز عَنْ بَعْضِ الخطايا وعدم المعاقبة عليها.

وإنَّ جزاء اللهِ بالثواب قاعِدَتُهُ الْفَضْلُ بمُضَاعَفَةِ العَمل، وبِمُضَاعَفَةِ الثَّوَاب عليه، ومن هذا الفَضْلِ غُفْرانُ اللهِ وَعَفْوُهُ عمَّا يَشَاءُ مِنْ ذُنوبِ المؤمنين.

وبناءً على قاعِدَتي الْفَضْلِ والْعَدْلِ فإنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النّاسَ شيئاً مَهْما كان صَغِيراً، فلا يُعَاقِبُ مستحقّاً للعقابِ بأكْثَرَ من استحقاقه ولو بمثْقَالِ ذَرَّة، بلْ قد يكونُ أقلَّ من استحقاقه بالعفو والتجاوز عن كثير من الخطايا، وقد أكّدَ اللهُ عزّ وجل هذه الحقيقة بقوله:

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾: في هذه العبارة توكيد بالمؤكدين «إنّ ـ والجملة الاسمية» والقضيّة المؤكّدَة أنَّ اللهَ لَا يظلم الناسَ شيئاً في أيّ حالٍ من الأحوال، ولا سيما في التكليف والحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

• ﴿.. وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾: أي: ولكِنَّ النَّاسَ لَا يَظْلِمُونَ بِكُفْرِهم وَمَعْصِيَتِهم رَبَّهُمْ إلَّا أَنْفُسَهُم، إذْ يُعَرِّضُونَها بِمَا كَسَبُوا من آثامٍ وَجرائم لِعُقُوباتِ رَبِّهم لَهُمْ جزاءً وِفَاقاً.

استفيد الْقَصْرُ من تقديم المفْعُولِ به ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على الْفِعْلِ ﴿يَظْلِمُونَ﴾ كما يقولُ البلاغيون، أي: ولكِنَّ النَّاسَ لَا يَظْلِمُونَ إلَّا أَنْفُسَهُمْ.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ بضَمِيرِ المتكَلّم العظيم.

أي: ويومَ يحْشُر اللهُ عزّ وجلّ العِبَادَ بَعْدَ الْبَعْثِ للحياة الأخْرى،

حَياةِ الحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاءِ، يَكُونُ من أحْدَاثِه في العبادِ المحشُورين ثلاثَةُ أحْدَاث:

الحدث الأول: شُعُورُهُم بأنَّهُمْ لَمْ يَلْبَثُوا في البَرْزَخ بَيْنَ الموت والْبَعْثِ إلّا سَاعَةً مِنَ النَّهارِ المعْهُودِ لدَيْهِم في الحياة الدُّنيا، دَلَّ عَلَىٰ هٰذا الحدَثِ قول اللهِ عزَّ وجلَّ في الآية: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾:

﴿كَأَن﴾: هي المخفَّفةُ من الثقيلَة «كَأَنَّ» وهي حرف تشبيه، واسْمُها محذوف تقديره: كَأَنَّهم.

﴿لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾: أي: لَمْ يُقِيمُوا في قُبورِهِمْ وَمَدَافِنِ أجْسَادِهِمْ فِي الأرض، طَوال مُدَّةِ البرْزخ بيْنَ الموتِ والبعْثِ.

﴿إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾: أي: إلَّا سَاعَةً مِنْ أَرْبَعِ وعشرينَ ساعَةً من النَّهارِ الْمَعْهُودِ لَدَيْهِمْ في الحياة الدنيا.

«ال» في لفْظِ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ عَهْدِيَّة.

والمعنى: أنَّ إدْراكَ نُفُوسِهِمْ للزَّمَنِ الّذِي مَرَّ عَلَيْهِمْ مُنْذُ مَوْتِهِم حتَّىٰ بَعْثِهِمْ يُشْبِهُ إدْراكَ نُفُوسِهِمْ لِمُرور ساعَةٍ واحِدَةٍ من النهار المعهود لهم في الحياة الدّنيا، ولَوْ كَانَ الزَّمَنُ الّذِي مَرَّ عليهم أكْثَرَ من مليارات السنين، ونُدْرِكُ هُنَا أنَّ مِقْياسَ الزّمَنِ يُعْتَبَرُ بحَسَبِ الإحْسَاسِ النفسيّ به لا بحَسَبِ الواقِعِ الكَوْني، فمَنْ ماتَ في عَصْرِ آدم عليه السَّلام، يكُونُ إحْسَاسُه بالزَّمَنِ الذي قضَاهُ في البرزخ عند البعث، مماثلاً لإحْسَاس آخِرِ مَيِّتٍ من الناس في الحياة الدُّنيا، وهذا لا يَتَنافىٰ مع مَشاعر اللَّذَّاتِ والآلام النفسيَّةِ في مُدَّة البرزَخ، فيما يُعْرَفُ بنَعِيم الْقَبْرِ وعَذَابه، لأنَّ الإحْسَاسَ بالزَّمَنِ يُلْغَىٰ في الإدْرَاكِ الحسّيّ النَّفْسِيّ لَدَىٰ الموتَىٰ، لكِنْ لَا يُلْغَىٰ الإحْسَاس بالنعيم والعذاب.

الحدث الثاني: أنَّ المبْعُوثين المحْشُورين في أرْضِ المحشر يَتَعارَفُونَ

بَيْنَهُمْ، دَلَّ على هذا الحدَث قولُ اللهِ عزّ وجلَّ في الآية: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يَحْصُلُ بَيْنَهُمْ تَعَارُف، فالّذين كَانَ بَعْضُهُمْ يَعْرِفُ بعْضاً في الحياة الدُّنْيا يَتَذَكَّرُونَ سَابِقَ مَعْرِفَتِهم، ويتحادَثُونَ بِشَأْنها.

وَيَبْحَثُ الأتْباع عَنْ قادَتِهِمْ في الدُّنيا، ولو كانُوا لَا يَعْرِفُونَ أشخاصهم وصُوَرَهُم، حتَّىٰ يَرَوْهُمْ وَيَعْرِفُوهُمْ، كأَتباعِ أَئِمَّةِ المتَّقِين، وأَئِمَّةِ الْفُجَّار.

ويَعْرِف المسْلِمُونَ رَسُولَهُمْ وأصْحَابَهُ، ويَعْرِفُ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ رُسُلَهُمْ وَحَوَارِيِّيهم، وتتَّسِعُ دَوائر التَّعَارُفِ بِحَسَبِ اهْتِمَامِ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ يومَئذٍ، فقد يَبْحَثُ عن أصُولِهِ وفُروعه وسائِرِ رَحِمِهِ لِيَتَعَرَّفَ عليهم، فيتَيَسَّرُ له ذَلِك.

إن عموم لفظ ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ يَشْمَلُ كُلَّ ذَلِكَ وغيره.

الحدث الثالث: أنَّ الّذِينَ كانُوا في الحياة قَدْ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ يَوْمَ الدّين، يتَحقَّقُونَ أنَّهُمْ قَدْ خَسِرُوا كُلَّ شيءٍ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، خَسِرُوا السَّعَادَة في دار النعيم، وخَسِرُوا رَاحَتَهُمْ وخَلاصَهُمْ مِنَ العذاب الأليم الَّذي يُلاقُونَهُ في الجحيم، دار عذاب الكافرين المجرمين. وَيَتَحَقَّقُونَ أنَّهُمْ مَا كانُوا مُهْتَدِين في الحياة الدُّنيا، بل كانوا ضالّين ضلالاً بَعِيداً، دَلَّ علَىٰ هذا الحدث قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآية:

﴿.. قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: قَدْ خسِرَ الّذِينَ كانوا في الحياة الدُّنيا قَدْ كَذَّبُوا بالْبَعْثِ وبِيَوْمِ الدّين، وبِلِقَاءِ اللهِ للْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، تمهيداً لتحقيق الجزاء. وهم يُدْرِكُونَ يَوْمَئِذٍ أنَّهُمْ خَاسِرُونَ، وأنَّهُمْ لم يكُونُوا في الحياة الدُّنيا مُهْتَدِين، بَلْ كانُوا ضَالِّين بِكُفْرِهم ضَلَالاً مُبيناً وبَعِيداً عن صراط الْحَقّ.

قول اللهِ تعالى خِطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَإِمَّا﴾: «إمَّا» كلمةٌ مُرَكَّبةٌ من «إِنْ» الشرطِيَّة، و«مَا» المؤكّدة للتعْلِيقِ الشرطيّ.

﴿نُرِيَنَّكَ﴾: فعل الشرط مجزوم بـ«إنْ» ومؤكَّدٌ بِنُونِ التوكيد الثقيلة.

﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾: أي: هو العذاب المعجَّلُ عِقَاباً لإصرارهم على الكفر والتكذيب. وجواب الشرط مطويٌّ تقديره: فأنت تراه. وقد أراه عزّ وجل مصارع أئمتهم في بَدْرٍ بعد حين.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: أي: قَبْلَ أنْ نُرِيَكَ بعضَ الّذي نَعِدُهم.

﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: أي: فإلينا مَرجِعُهُمْ يَوْمَ الدِّين، إذْ نَبْعَثُهُمْ بَعْدَ البرزَخ إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، ويَومَئِذٍ تَرَىٰ ما وَعَدْنَاهُمْ من الجزاء الأكبر. وهذه الجملة جواب الشرط في: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾.

• ﴿.. ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

الشّهيدُ: الحاضِرُ المراقِبُ العالِمُ بمَا شَهِدَه. ويأتي بمعنىٰ المخْبِرِ بما عَلِمَهُ عَنْ شُهُود، والصيغة صيغَةُ مبالغة، فَهُوَ جلَّ جَلالُه يَعْلَمُ كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة عِلْمَ شُهودٍ لا تَخْفَىٰ عليه خافية.

واللهُ عَزَّ وَجَلَّ رَقيبٌ شَهِيدٌ عَلِيمٌ بكُلِّ ما يَعْمَلُ المقْصُودُون بالْبَيَان والمعالجَة. وشَهِيدٌ مُخْبِرٌ يَوْمَ الدّين بما كانوا يَعْمَلُون. ورُوعي في الجملة معنى الإخبار يوم الدّين بما كانوا يَعْمَلُونَ في الدنيا، فَجِيءَ بِحَرْف الْعَطْفِ «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على التراخي. ورُوعي فيها مَعْنَىٰ الحضورِ والمراقبةِ والْعِلْمِ التّامّ مع تَوالِي الوَحَدات الزمنيَّةِ، فجيء بالْفِعْلِ المضارع في ﴿مَا يَفْعَلُونَ﴾

الدَّال علَىٰ التجدُّدِ التتابُعِيِّ مع توالي أَزْمَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

وأصْلُ العبارة: واللهُ شهِيدٌ في الحياة الدُّنيا على ما يَفْعَلُونَ مع توالي الأزْمان، ثُمَّ هُوَ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ يوْمَ الدِّين يُخْبِرُهم بما كانوا يَعْمَلُونَ في الحياة الدُّنيا، فيخْبِرُهم عِنْدَ مُحاسَبَتِهِمْ بِجَرَائِمِهِم الَّتي كانوا قد اكْتَسَبُوها في الحياة الدنيا، فَعَلْتُمْ كذا وفَعَلْتُمْ كذا. ولا يُشْتَرَط في شَهادَتِهِ عليهم الاستقصاء.

ودَمْجُ هاتين العبارتَيْن بعبارةٍ واحِدَةٍ مِنْ بدائع الإيجاز في القرآن المجيد. هذا ما فتح الله به عليَّ من فَهْمٍ في هذه العبارة.

قول الله تعالى:

• ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السَّالِفَةِ نبيٌّ رسُولٌ قَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُرْسِلَهُ إِلَيْها، لِيُبَلِّغَها مَا فَرَضَ اللهُ على كُلِّ مُكَلَّفٍ فيها مِنْ إيمانٍ وعملٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم في الحياة الدنيا.

فإذا جاء رَسُولُهُم علىٰ وَفْقِ مَا قَدَّرَ اللهُ وقضَىٰ، وبلَّغَهُمْ مَا فَرَضَ اللهُ على مكَلَّفِيهم الموضوعين موضِعَ الامتحان، آمَنَ بِهِ وبِمَا جاء بِهِ عَنْ رَبِّهِ مَنْ آمَنَ، وَكَفَر بِهِ وبما جاء بِهِ عَنْ رَبِّهِ مَنْ كَفر، وقاوَمَ كُفَّارُ أُمّتِهِ دَعْوَتَهُ، وعَادَوْه وعَادَوْا مَنْ آمَنُوا بِهِ، ورُبَّما دَبَّرُوا خُطَط الخلاص مِنْهم، كما دَلَّتْ عَلَىٰ هذا نُصُوصٌ قُرآنية كثيرة. فاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ عزّ وجلَّ بِمُقْتَضَىٰ قواعِدِ وسُنَنِ جزائِهِ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَهُمْ بالْقِسْط، في أَنْ يُنْجِيَ المؤمنين، ويُهْلِكَ الكَفَرَةَ الْمُجْرِمِينَ الظَّالمين، وأنْفذَ اللهُ بِهِمْ قَضَاءَهُ، وحِينَ أَنْفَذَ بِهِمْ قَضَاءَهُ وقَدَرَه، كَانُوا لَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً، بَلْ كَانُوا يُعَامَلُونَ بالْعَدْلِ أَوْ بالْفَضْلِ.

القسط: العدل.

وقد دَلّت نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَةٌ على أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أرْسَلَ إلَىٰ كُلِّ أُمَّةٍ سَلَفَتْ نَبِيّاً رَسُولاً.

● فمنها قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وَمَا مِنْ أمَّةٍ سَلَفَتْ إلَّا سَلَفَ فِيها نَذِيرٌ أنْذَرَها عِقَابَ رَبّها إذا كَفَرَت وعَصَتْ، بَعْدَ أَنْ بَلَّغَهَا مَا يَجِبُ علَىٰ مكلّفِيها تجاهَهُ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

● ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: إنَّ عاقبة المكذّبين السَّابقين إهْلَاكٌ شَامِلٌ، وَدَمَارٌ لِمُدُنهم وقراهم ولكلِّ مَا كانوا يَمْلِكُونَ.

الأمّة: تُطْلَقُ في الاستعمال القرآنيّ على كُلّ مجموعَةٍ تجمَعُها صفاتٌ أو خصائصُ أو روابط مُتَمَيِّزة.

وكلُّ أُمَّةٍ أُرْسِلَ إليها رسُولٌ مِنْ رَبِّها، فهِيَ أُمَّةُ بلَاغِ ذلك الرسول. ومن أجابَهُ منهم فهم أُمَّة الإجَابَة، ومن قام بواجب الدَّعْوَةِ إلى اللهِ منهم فَهُمْ أُمَّةُ الدَّعْوَة، ومن قامَ بواجب الجهاد في سبيل الله منهم فَهُمْ أُمَّةُ الجهاد، والفقهاء منهم أمَّة الاستنباط والْفتوىٰ.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

دلَّتْ هاتان الآيتان على أنّ المكَذِّبين منْ أئِمَّةِ الكُفْر إبَّانَ التنزيل، المعنيِّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَة، كانُوا يُكرِّرُون مَقَالَتَهُمْ للرَّسُول وللمؤمِنين تَعْلِيقاً على ما أُنْذِرُوا به من عذابِ اللهِ الْمُعَجَّلِ في الدُّنيا لهم إذا أصَرُّوا على كفرهم وتكذيبهم ومعانَدَتِهم للحقّ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾؟ أي: في أيِّ وقْتٍ يَتَحَقَّقُ الموعُودُ بِهِ مِنْ عَذَابنا؟ أَخْبِرُونَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بأنَّ عَذَابَ اللهِ سَيَنْزِلُ بنا، كما نزل بعادٍ وثمود وقَوْمِ شعيب وقوم لوط.

يُطْلَقُ الوعْدُ على الإخبار بما سيَكُونُ من خَيْرٍ أَوْ شرّ، والمراد به هُنَا الإخبار بما سينْزِلُ بِهِمْ ممَّا يسوؤُهم ويُؤْلمهم ويُهْلِكُ مَنْ يُهْلِكُ مِنهم.

وأطْلِقُ لفظ «الوَعْدِ» على الموعُودِ به، وفي العبارة محذوف يَسْهُلُ اسْتِخْرَاجه، أي: متى زَمَنُ تَحْقِيق هذا الموعُودِ بِهِ؟ وجواب الشرط مطويٌّ في العبارة: أي: إن كنتم صادقين فأخبرُونا.

وبعد عرض مقولتهم الّتي صاروا يكرّرُونها علّم الله رسُولَهُ ما يجيبهم به على إلحاحهم بهذا السؤال التَّعنُّتِيِّ الذي لا يَسْأَلُهُ عاقِلٌ رَشيد، وقد اشتمل التعليم على فِقْرَتين:

الفِقْرَةُ الأولى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ . .﴾:

أي: لَسْتَ أَنَا الَّذِي أُنْزِلُ بِكُمْ عذابَ رَبِّكم، ولَمْ أَكُنْ إلَّا مُبلِّغَ وعْدِ اللهِ لكم علىٰ مَا أَوْحَىٰ إليَّ بِهِ، ولَمْ يُعْلِمْني بالوقت الّذِي سيُنْزِلُ فيه بكُم عقابَه. وإنِّي بَيْنَ يَدَيْ رَبّي مِثْلُكُمْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي دفْعَ ولَا رَفْعَ ضَرٍّ،

وَلَا جَلْبَ نَفْعٍ إلَّا مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَجْعَلَنِي أمْلِكُه، فكَيفَ أخبركم بما لم يُعْلِمْنِي به الله؟!

هذه الفقرة دَلَّتْ عَنْ طَرِيقِ الأسْلُوبِ الكِنَائي علَىٰ ما أَوْضَحْتُهُ في التَّدبُّر.

الفِقَرة الثانية: ﴿.. لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: لِكُلِّ أمَّةٍ أنْذَرَهَا اللهُ بِعِقَابٍ مُعَجَّل، لأَنَّهَا كَفَرَت وكذَّبَتْ رَسُولَ رَبِّها وبما جاء به عنه، أجَلٌ عِنْدَ اللهِ مَعْلُومٌ له وقد لا يُعْلِمُ به رَسُولَه، فإذا جَاءَ أجَلُهُمْ (وهُو وَقْتُ إنْزَالِ عقابِهِ فيهم) فإنَّهم لَا يَسْتَطِيعُونَ تَأْخيرَ إنزالِهِ سَاعَةً زَمَنِيَّةً مَهْمَا كانت قَلِيلَةَ المقدار (المراد بالسَّاعَةِ هُنَا مِقْدَارٌ زَمَنِيٌّ مَا وإنْ قَلّ) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ تقديم عمَلٍ صالحٍ كالإيمان بما كانوا بِهِ يكْفُرون، إذْ فَاتَ وقْتُ قَبُول التوبَةِ والإيمان وأيّ عمل صالح عند بَدْءِ نزول بوادر العقاب الرَّبَّانيّ، فشأنُ بوادر نزول عذاب الله كشأنِ الغرغرة عند حضور الموت، يقفل معها باب التوبة.

قول الله تعالى متابعاً تعليم رسوله ما يجيب به المعنيّين بالمعالجة:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾:

﴿بَيَـٰتًا﴾: أي: في اللّيل، وهو مَصدرُ «بَاتَ يَبِيت، وَبَاتُ، بَيْتاً، وبيَاتاً، ومَبيتاً» أي: أدْركه اللّيل نَامَ أوْ لم يَنَم، وهو منصوبٌ على الظرفية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا ...﴾؟ أي: قُلْ لهم: إنّ سُؤالكم بإلْحاحٍ وتكرارٍ عَنْ وَقْتِ إنْزَالِ ما وَعَدَكُمْ اللهُ بِهِ من عذابٍ إذا أصْرَرْتُمْ على كفرِكم وتَكْذيبكم رسُولَ رَبّكم، ومعاداتِه ومُعَادَاةِ الّذِينَ آمَنُوا

بِهِ واتَّبعُوه، يَسْتَحِثُّ رَبَّكُمْ على أَنْ يُعَجِّلَ لَكُمْ عذَابَه، دُونَ أَنْ يُعْلِمَكُمْ بوَقْتِه، بل يأتيكُم بِهِ مُباغَتَةً.

أَخْبِرُوني بَعْدَ أَنْ تَتفَكَّرُوا وَتَتَّضِحَ لَكُمُ الرُّؤْيَةُ الفكريّة، إنْ أتاكُمْ عَذَابُ رَبِّكُمْ مُباغَتَةً، لَيْلاً أَوْ نهاراً بتَدْبيرٍ مُحْكَمٍ، فمَاذا يكُونُ من تَصَرُّفِكم؟!

جوابُ الشرط في ﴿إِنْ أَتَـٰكُمْ﴾ مَطْوِيٌّ ومِنَ السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ، وهو: فَمَاذا يكُونُ مِنْ تَصَرُّفِكُمْ؟ أَتَسْتَقْبِلُونَهُ بمَسَرَّةٍ وَتَرْحَاب؟ أمْ بخوفٍ وهَلَعٍ وَتَوْبَةٍ وَإيمانٍ وَنَدَمٍ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْكُمْ.

اعْلَمُوا أنَّ عَذَابَ اللهِ المعَجَّلَ لَا يأْتِيكُمْ إلَّا بَغْتَةً، فَلا تُكَذِّبُوا به مُتَذَرِّعِينَ بالسُّؤال عَنْ وَقْتِ إنْزَالِه.

بَعْدَ هذا التعليم تَحَدَّثَ اللهُ عزّ وجلَّ عَنِ المعنيِّينَ بالمعالَجَةِ، دُونَ أَنْ يُواجِهَهُم بالخِطَاب فقال تَعالَى:

﴿.. مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟! أي: مَا الَّذي يَسْتَعْجِلُ مِنْ عذابِنَا هؤُلَاءِ الكفرَةُ المكذِّبُونَ الْمُجْرِمُونَ بالإثْمِ العظيم؟

المجْرِمُون: المجْرِم: هو في اللُّغَةِ المتعدِّي بذنْبٍ كبير، وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عُنْواناً مقابلاً لِلْمُسْلِمين، ووصفاً للكافرينَ الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللهُ في الدُّنيا، ووَصْفاً للمعَذَّبِينَ في النار، فالمجرمُون في الاصْطِلَاحِ القرآنيّ هم مستحِقُّو الْخُلُودِ في عذاب النار يَوْم الدين.

والتصريحُ بوَصْفِ المعنيِّينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ بأنَّهم مُجْرِمُونَ، جيءِ به للدّلَالَة على أنَّ مَا هم فيه يَجْعَلُهُم من المستحقّين الخلُودَ في عذاب النار يوم الدّين.

وطرحُ الاستفهام عَنِ الّذي يستَعْجِلُونَه يَدُلُّ على أنَّ أَنواعَ عذابِ اللهِ لمستحقيه كثيرَةٌ، ومِنْهُ:

• عذابُ الأوْجَاعِ والآلَامِ بأمْرَاضٍ مُضْنِيَةٍ.

• عذابُ الْجُوعِ والخوْفِ والتَّشْرِيد في الأرضِ مع الْفَقْرِ والذِّلَّة.

• عَذَابُ الجوائحِ المدَمِّرَةِ المتْلِفَةِ والقاتلة.

• عذابُ الإهلاكاتِ الفرْدِيَّة.

• عَذَابُ الانْكِسَارِ والْهَزِيمَةِ فِي الْحَرْبِ وَخَسَارَةِ الممتلكاتِ والأسْرِ والْقَتْل.

• عذَابُ الإهْلَاكِ والتَّدمِيرِ العامِّ الشَّامِلِ السَّاحِقِ الماحِق، كما حَصَل لقوم نوح، وعادٍ وثَمُود وقوم لوط وقوم شعيب وفرعَوْنَ وجنُودِه ومَلَئِه.

فما الَّذي يَسْتَعْجِلُونَهُ مِنْ هٰذه الأنواع وأشْبَاهِهَا من أنواعِ عذاب رَبّهم؟ إنَّ كلَّ نوعٍ مِنْهَا مخيفٌ مُثِيرٌ للهَلَعِ كريه، إنَّ هٰذا هُوَ ما يقْتَضِيه إلحاحُهُمْ بالسُّؤَالِ عَن وَقْتِ تَحقِيقِ ما وَعَدَهُمْ بِهِ رَبُّهم من عَذَابٍ على جرائمهم.

وبَعْدَ هٰذا الْتفَتَ البيانُ الرَّبَّانِيُّ إلى مُخاطَبَتِهِمْ لإثَارَة انتبَاهِهِم، فقال الله عزَّ وجلَّ لَهُمْ:

﴿.. أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ... ﴿٥١﴾﴾: أي: أَبَعْدَ إمْهَالٍ لَكُمْ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، رَغْبَةً في أَنْ تُؤْمِنُوا تَائِبينَ، إذَا وَقَعَ بِكُمُ العذابُ الّذِي قَدَّرْنا وقَضَيْنَا أَنْ نُنْزِلَهُ بِكُمْ مُباغَتَةً أعْلَنْتُم إيمَانَكُمْ به، الدَّالَّ علىٰ إيمانِكُمْ برَبّكُمْ وَبِرَسُولِه وبما بلَّغَكُمْ عَنْه. ولَكِنْ لَا يَنْفَعُكُمْ، سَاعَتَئِذٍ إيمانُكُمْ، فَقَدِ انْتَهَىٰ أَجَلُ امْتِحَانِكُمْ، وَجَاءَ زَمَنُ مُحَاسَبَتِكُمْ وَمُجَازَاتِكُمْ عَلَىٰ مَا أَسْلَفْتُمْ في الأيّام الخالية.

وَيُقَالُ لَكُمْ وأَنْتُمْ تُعَذَّبُونَ رَدّاً على إعلانِكُمْ إيمانَكُمْ وتَوْبَتِكُمْ وَنَدَمِكُمْ:

﴿.. ءَآلۡـَٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝٥١﴾؟! أي: أَأَلآنَ آمَنْتُم بِصِدْقِ وَعْدِ رَبّكُمْ بَعْدَ أنْ وَقَعَ بِكُمْ وَذُقْتُمْ آلامَه. إنَّ المقبولَ عند رَبكُمْ هو الإيمانُ بالْغَيْب ببُرْهَانِ العَقْل، لا الإيمانُ عن شُهُودٍ بالْحَواسِّ الجسَدِيَّة، فَهَذا إيمانٌ تَسْتَجِيبُ لدَواعِيهِ البهائم والحشرات، والمطْلُوبُ من ذوي العقول أنْ يُؤْمِنُوا بما وَهَبَهُمُ اللهُ من قُدْرَاتٍ على إدْراكِ أَرْكانِ الإيمان بعقُولهم، لَا أَنْ يَتْرُكوا الْبَرَاهِينَ العقلِيّة، ويَجْحَدُوها، فَلَا يُؤْمِنُوا حتَّىٰ يُشَاهِدُوا ويُدْرِكُوا بِحَوَاسِّهِمْ الْجَسَدِيَّة، مَا أَمَرَهُمْ رَبُّهُمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ.

الجار والمجرور في: ﴿بِهِۦ﴾ معمولٌ للفعل في: ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ قُدِّم مُرَاعاةً لرُؤوسِ الآيات.

وسيأتي في الآيَتَيْنِ (٩٠ و٩١) من هذه السّورة بيانُ أنَّ فِرْعَوْنَ لم يَنْفَعْهُ إيمانُهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ، وقيلَ لَهُ: ﴿ءَآلۡـَٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾.

قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ۝٥٢﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ البَعْثِ والحسابِ وفَصْلِ الْقَضاء وتَنْفِيذِ الجزاء بإدْخَالِهِم جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرمينَ الظّالِمين، إذَا سألُوا استئنافَ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم، أَوْ تخفيفَ يَوْمٍ مِن الْعَذَابِ عَنْهُمْ قيل لهم: ذوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ، هَلْ تُجْزَونَ إلَّا بِمُسَاوِي مَا كُنْتُمْ تكْسِبُونَ في الحياة الدُّنيا، إذْ كُنْتُمْ فيها مَوْضُوعينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ وتكْسِبونَ مُكْتَسَبَاتِكُمْ بإرادَةٍ حُرَّةٍ مُخْتَارَةٍ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فَرَضَ اللهُ عليكُم، وقَدْ أُنبِئْتُمْ بهذا المصِير الذي أَنتم فِيه إذا كَفَرْتُمْ وكَذَّبْتُمْ رسُولَ رَبِّكُمْ فيما أَوْعَدَكُمْ به من الخلُودِ في العذاب الأليم.

وُصِفُوا بالْمُجْرِمين في الآية (٥٠) وهنا في الآية (٥٢) وُصِفُوا بأنَّهم

كانُوا ظالِمِين، إذْ هُمْ مُجْرِمُون باعتبار، وظَالِمُونَ باعتبار آخر، ولَهُم صفاتٌ أُخْرَىٰ خسِيسَةٌ قبيحةٌ باعتباراتٍ أخرى، يَصِفُهُمْ بها البيانُ القرآني، وقد يَضَعُ الوصْفَ في مَوْقِعِ الضَّمِير الّذِي يَعُودُ عليهم، لبيان اتِّصافِهِمْ به.

وهذا من أساليب القرآن البيانيَّة الإيجازيَّةِ النفيسة.

الْخُلْد: الْبَقَاءُ الدَّائمُ الّذِي لَا نهاية له، وهو مَصْدَر «خَلَدَ، يخْلُد» وإضافَة لفظ «عذاب» إلَىٰ «الْخُلْد» هي علَىٰ تَقْدِير اللّام الّتي تفيد الاختصاص، أي: العذابَ المختصَّ بالْخُلْد.

وجاء إطْلاقُ فِعْلِ «ذُوقُوا» على سبيل الاستعارة، تشبيهاً للإحساسِ بالأَلَم بذَوْقِ الطَّعَامِ باللّسَان، وظاهرٌ أَنَّ الذّوْقَ نَوْعٌ من أنواعِ الإحساس بِشَكْلٍ عامٍّ.

والباء في ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ سببيّة، أي: بسَبَبِ ما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ في الحياة الدّنيا من جرائم وآثام. أو هي للتَّعْدِية إذا فَهِمْنَا العبارة على معنَىٰ: تُجْزَوْنَ بِمُسَاوي مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ، طُوِي لفظ «مُساوي» واكْتُفِي باسْم الموصول «مَا» على اعتبار أنّ عَيْنَ الشَّيْءِ يقَعُ مَوْقع مُساويه.

والاسْتفهامُ مُسْتَعْمَلٌ بمعْنَىٰ «النفي»، أيْ: لَا تُجْزَوْنَ إلّا بما كُنْتُم تَعْمَلُونَ.

قول اللهِ تعالى خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

مقالَةُ: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾؟ أي: الوعْدُ بالعذَابِ المعَجَّلِ إذَا أصَرُّوا على مَوْقِفِهِم العنادِي، إمَّا أنْ تكُونَ مَقَالَةَ بَعْضٍ من المعنِيِّين بالمعالجة، وإمّا أنْ تكونَ أسْلُوباً من أسَالِيبِ المرَاوغاتِ الجدَلِيّةِ اتّفَقَ المكذّبُونَ على طَرْحِها.

ومهما يكُنْ من أمْرٍ فالْجَوَابُ في كِلْتَا الْحالَتَيْن هو مَا جاء في التَّعْلِيم الرَّبّاني للرسول ﷺ.

﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾: أي: وَيَسْتخبِرُونَك، بمعنىٰ: يطْلُبُونَ منْكَ يَا مُحَمَّدُ أنْ تُخْبِرَهُمْ. الطّالبُونَ هُمُ المعنيُّونَ بالمعالجة في السُّورَة، وفيهم من قَسَتْ قُلُوبُهم فهي كالحجارة أو أشدُّ قَسْوَةً، وفيهم من في قُلُوبِهِمْ قابليَّةٌ أَنْ يُؤْمِنُوا إذَا أُمْهِلُوا وَعُولجوا.

﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾: أي: أحَقٌّ مَا جَاءَ في الْوَعْدِ بالْعَذَابِ المعَجَّل، أَمْ هو أسْلُوبٌ مِنْ أسَالِيبِ التخويف الّتِي لَا يُرَادُ بها تحْقيقُ الموْعُودِ بِه في الواقع. ويَتَرَجَّحُ لدَيَّ أَنّ مَنْ طَرَحَ هٰذا السُّؤَال هم من الذين فِي قُلُوبِهِمْ قابليَّةٌ لأنْ يُؤْمِنُوا إذَا أُمْهِلُوا وعُولجوا بأناةٍ وحكمة.

ومنَ البدَهِيّ أنْ يكونَ جوابُ هذا السؤال إيجاباً مؤكّداً بالمؤكدات، فقال الله تعالىٰ مُعَلِّماً:

- ﴿.. قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣﴾:

﴿إِى﴾: حَرْفُ جواب بمعنى «نعم» ولا تَقَعُ إلّا قَبْلَ الْقَسَم.

﴿وَرَبِّىٓ﴾: الواو هي «واو الْقَسَم» والمقْسَمُ به «رَبّي».

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾: أي: إنَّ وَعْدَ اللهِ لكُمْ بالعذاب المعجَّل وَعْدٌ حَقٌّ، وليس مُجَرَّدَ وَعْدٍ تَخْوِيفيٍّ حتَّىٰ تَسْتَهِينُوا به.

اشتَمَلَتْ جُمْلَةُ الجواب على المؤكّدات التاليات: «القسم ـ إنّ ـ الجملةِ الاسميّة ـ اللّامُ المزَحْلَقَة».

لمَّا كانَ السُّؤَال استِنْبَاءً عَنْ جدِّيَّةِ الوَعْدِ بالعذاب المعَجَّل، وعَنْ كوْنِه حقّاً، لم يكُنِ المناسِبُ في الجواب إلّا الإيجاب، مع التأْكِيدِ بأقْوَىٰ مُؤَكِّداتِ الأخبار، وهي ما جاء في التعليم الرَّبّاني.

واشْتَمَلَ الجوابُ إضافَةً تُلائِمُ حَال المراوغين، والّذِينَ لَيْسَتْ في قُلُوبهم قابليَّةٌ لأنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا، وهي عبارة:

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾: أي: وَمَا أَنْتُمْ بِقَادِرِينَ على الإفْلاتِ مِنْ عذاب رَبِّكُمْ، إِذَا شَاءَ إِنْزَالَهُ بكُم. يقالُ لُغَةً: «أعْجَزَ فُلَانٌ» أي: سبَقَ فلَمْ يُدْرَكْ، ويقال: «أعْجَزَ فُلَانٌ فُلَاناً» أي: فَاتَهُ فلَمْ يُدْرِكْه.

قول اللهِ تَعالى:

• ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

تَصِفُ هٰذه الآيَةُ حَالَةَ المجرمين الَّذين سبَقَ أنْ أُنْذِرُوا بعَذَاب اللهِ، فَكَذَّبُوا بالنُّذُرِ، وأصَرُّوا عَلَىٰ مواقِفِهِم الإجراميَّة الظالمة، حينَ يَرَوْنَ مُقَدِّمَاتِ عَذَابِ اللهِ مُقْبِلَةً علَيْهِم، أو بَدَأَتْ أوائِلُها تَنْزِلُ عَلَىٰ أَرْضِهِمْ وَمَساكِنِهِم ومُمْتلكاتهم.

والوصْفُ في هذه الآية يكْشِفُ أمْرَين:

الأمْرُ الأول: أنَّهم يكونُون مستَعِدّينَ لِأَنْ يَبْذُلُوا كُلَّ مَا يَمْلِكُونَ فِداءً، لإنْقَاذِ أنْفُسِهِمْ من الْعَذَابِ المرتَقَب نُزُولُهُ فيهم بَعْدَ لحظَاتٍ أَوْ سَاعات، فلَوْ أَنَّ لكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا في الأرْضِ كُلِّها، أو مِثْلَ مَا في الأرْضِ كُلّها من أموالٍ ومُمْتَلَكَاتٍ، وأُذِنَ لَهُ بأنْ يفتدي نَفْسَهُ من العذاب، لقَدَّمَ كُلَّ ما يَمْلِكُ فِداءً لإنقاذ نفسه من الْعَذاب، لكنْ لا يُقْبَلُ عند اللهِ فداءٌ ما ساعَتَئِذٍ.

ما قيمة امتلاك الإنْسَانِ كُلَّ مَا في الدُّنيا، إذَا كانَ خاسراً نَفْسَهُ بعْدَ لحظات أو ساعات، أو مُصَاباً بعذابٍ وشقاء أبَدِيَّيْن. إنَّهُ عِنْدَئِذٍ يُدْرِكُ أَنَّ نَفْسَه وخَلاصَهُ من العذاب أغْلَىٰ عِنْدَهُ مِن كلِّ مُمْتَلَكَاتِ الوجود.

دلَّ علىٰ هذا الأمر قولُ الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: أي: حِينَ تَرَىٰ بَوادِرَ وَسَائِل التعذيب الرَّبَّاني للظالمين، وهي مِنهم.

﴿لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾: أي: لقَدَّمَتْهُ فِدْيَةً لإنقاذِها وحِمَايَتِها من عذابِ الله، لَوْ كَانَ ذَلِكَ يُقْبَلُ مِنْهَا عِنْدَ رَبّها.

يُقَال لغة: «افْتَدَىٰ فُلَانٌ» أي: قَدَّمَ الفِدْيَةَ عَنْ نَفْسِه، ليسْتَنْقِذَهَا مِمَّا قُضِيَ أَنْ يَنْزِلَ بها من عذابٍ، أو مَكْرُوهٍ تَخْشَاه. ويقال: «افْتَدَىٰ فُلَانٌ بكذا» أي: قَدَّمَهُ فِدْيَةً.

الأمر الثاني: أَنَّهُمْ يُسِرُّونَ في أَنْفُسِهِمُ النَّدَامَةَ، دَلَّ عَلَيْهِ قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾. أي: حينَ رَأَوْا بَوَادِرَ وَسَائلَ العذاب الرَّبَّاني لهم جزاء ظلمهم.

أَسَرَّ الشيءَ: أي: كتَمَهُ في نَفْسِه، ولَمْ يُعْلِنْه للآخرين.

نَدامَة الإنْسان: حُزْنُهُ وأَسَفُهُ علَىٰ مَا كَانَ قَدْ كَسَبَهُ بإرادته الحرَّة دُون إكراهٍ ولا إجبار، وتَمَنِّيهِ أَنْ لا يكون قَدْ كسبه، مع تلويمه نفسه.

دَلَّ إسْرَارُهُم النَّدامَةَ على أَنَّهُمْ كُبُرَاءُ قَوْمِهِمْ، وأئِمَّتُهُمْ، فَهُمْ لا يُرِيدُون أَنْ يفْتَضِحُوا أَمَامَ أَتْبَاعِهِمْ بِأَنَّهُمْ نادِمُون، إذْ ما زال الكِبْرُ يَعْمَلُ في صُدُورِهِم أعْمَاله.

ولٰكِنْ لا فداء، ولا يَنْفَعُهُمْ نَدَمُهُمْ، وقَضَىٰ اللهُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ جرائمهم بالْعَدْل، وهُمْ لَا يُظْلَمُونَ عِنْدَ إنْزَالِ الْعَذَاب المعجل فيهم، ولا يُظْلَمُونَ بعد ذلك يَوْمَ الدّين، دَلَّ على هذا قول الله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٥٤﴾.

وبهذا تمّ تدبر الدرس الثاني عشر من دروس سورة (يونس).

والحمد لله على مدَده ومعونته وتوفيقه وفتحِه.

(١٦)

التدبّر التحليليّ للدرس الثالث عشر من دُروس سورة (يونس) الآيتان (٥٥ و٥٦)

قال الله عزّ وجل:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

القراءات:

(٥٦) • قَرَأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء للمعلوم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿تُرۡجَعُونَ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني، أي: تُرْجَعُونَ بإرْجاع اللهِ لَكُمْ، فَأَنْتُمْ تَرْجِعُونَ مُطاوِعينَ بالْقَهْر.

تَمْهِيد:

في هذا الدرْس تنبيهٌ شَدِيدٌ على عناصر من القاعدة الإيمَانِيَّة، وتذكيرٌ بها، وتَوْكيدٌ وإرْسَاخٌ لها، بَعْدَ أنْ سَبَقَ في السُّورة ما يَقْتَضِي التنبيهَ علَيْها، وتوكيدَها وإرْسَاخَها، وهذه العناصر هي:

(١) أنّ كُلَّ ما في السَّماوَاتِ والأرض مِلْكٌ لِلَّهِ جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سلطانُه.

(٢) أنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، فَهُو عزّ وجلّ لا يُخْلِفُ الميعاد، ولكِنَّ أكْثَرَ الناس لَا يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة، فهُمْ إمَّا كافِرُون باللّهِ أو بِبَعْضِ صفاته، أو غافِلُونَ لَاهُونَ بما هم فيه من الحياة الدُّنيا.

(٣) أنّ اللهَ هُو الّذي يُحْيِي ويُمِيت، أي: يُدْخِلُ الرُّوحَ في الجسَد فيكُونُ الْجَسَدُ حَيّاً، وَيَفْصِلُ الرُّوحَ عن الْجَسَدِ فيكُونُ الجسَدُ مَيّتاً.

(٤) أنّ الناسَ جَمِيعاً يَرْجِعُونَ إلى الحياةِ الأخرىٰ بَعْدَ مَوْتهم وبعثهم لملاقاة ربّهم، ومحاسَبَتِهم، وفَصْلِ القضاء بينهم، ومجازاتهم علَىٰ ما كَسَبُوا بإرَادَاتِهِمْ الحرَّة في الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء.

التدبّر التحليلي:

﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاح وَتَنبيهٍ وتحقيق، إذْ هي مركَّبَةٌ من همزة الاستفهام و«لَا» النافية. وهمزةُ الاستفهام إذَا دخَلَتْ على النَّفْي أفادَت التحقيق. ويتَعَيَّنُ كَسْر همْزَة «إِنَّ» بَعْدَ «أَلَا».

• ﴿.. إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ .. ﴿٥٥﴾﴾: اللّام في: ﴿لِلَّهِ﴾ هي لِلْملْك. و«مَا» من أَلْفَاظ العموم.

والمعنى: انْتَبِهُوا وَتَحَقَّقُوا وأَرْسِخُوا في قُلُوبِكُمْ مِنْ عَنَاصِرِ القَاعِدَة الإيمانيةِ مَا أُبيّنُهُ لَكُمْ وأُذَكِّرُكم به: إنَّ كُلَّ مَا فِي السَّمَاواتِ والأرض مِلْكٌ لِلَّه، إذْ هو مَخْلُوقٌ له.

ومَا في السَّمَاوات والأرض يَشْمَلُ كُلَّ مَوْجُودٍ سوَىٰ الله، إذ الموجوداتُ إمَّا أَنْ تَكُونَ في الأرضِ، وإِمَّا أَنْ تَكُونَ في غَيْرِ الأرض، ومَا هُوَ في غَيْرِ الأرض هُو في السَّمَاواتِ حَوْلَها، فيَشْمَلُ كُلَّ الموجوداتِ في كلِّ شيءٍ عَلَا علَىٰ الأرض، أي: كان في جهة الْعُلُوِّ بالنسْبَةِ إليها.

• ﴿.. أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

جاء في هذه العبارة إعادَةُ ذِكْر أداة الاستفتاح والتنْبيهِ والتحقيق ﴿أَلَآ﴾ اهْتِمَاماً بإرْسَاخ العنْصُرِ الثاني من عناصِرِ القاعدة الإيمانيَّة، الّتي اشتمل عليها هذا الدَّرْس، وهُو:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾: هذا التوكيد موصُولٌ بما جاء في الآية (٤٨) والآية (٥٣) بشأن وعْدِ الله للمكذِّبين الكفرة، بالجزاء المعجّلِ والمؤجل إذا لم يتوبُوا ويُؤْمِنُوا ويُصْلِحُوا.

إي: إنَّ كُلَّ وعْدٍ يَعِدُهُ الله عبادَهُ بالخير أو بالشّرِّ هُو وَعْدٌ حَقٌّ، أي: هو صِدْقٌ مُطابقٌ لمَا قَدَّرَهُ اللهُ وقَضىٰ أَنْ يفْعَلَهُ في المستقبل، والله لَا يُخْلِفُ الميعاد، فهو مطابق لما سيكون حتماً.

القولُ الحقّ: هو الْمُطابِقُ للواقع الّذِي كَانَ، أو هو كائِنٌ، أو سيكون.

والوعْدُ الحقّ: هو الخبر الصِّدْق الّذِي سيَكُونُ الواقِعُ على وَفْقِهِ تماماً بِلا خِلاف.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾: أي: ولكِنَّ أَكْثَر النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقّ، لِأَنَّهُمْ كافِرُونَ بصفاتِهِ أو بِبَعْضِ صِفَاته، أَوْ غَافِلُونَ عَنْها، أَوْ لا يُقَدِّرُونَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه، إذْ لَمْ يَبْحَثُوا عَنْ أدلَّةِ كمالِ صِفَاتِهِ وتَنَزُّهِهِ عَنْ أن يَعِدَ بِمَا لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، أَوْ أَنْ يُخْلِفَ المِيعَاد.

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ... ﴿٥٦﴾﴾: لَمْ يأْتِ في هذه العبارة ما يَدُلُّ على أنّ الإحياء والإماتَة مَقْصُوران على اللهِ عزَّ وجلَّ، إذْ لَا أحَدَ في الوجود يُحْيِي ويُمِيتُ إمَاتَةً حقيقيةً غيرُه، لكِنْ جاء في القرآن عِبَارات مماثلات لهٰذه العبارة وفيها مَا يَدُلُّ على القصر، إذْ جاء فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾: دَلَّ علَىٰ القَصْرِ فيها تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْنادِ.

وقُدِّمَ بيانُ الإحياء على بيان الإماتة، لأَنّ الجنينَ في أوّلِ أمْرِه يَكُونُ غير ذِي حياة إنْسانِيَّةٍ، حتَّىٰ يأْمُرَ اللهُ الْمَلَكَ المكلّفَ أن يَنْفُخَ الرُّوحَ الإنسانيّةَ فيه، فينْفُخُ فيه الرُّوح فَيُحْيِيهِ اللهُ. ثمَّ هو الّذي يأمُرُ الملَكَ المكلَّفَ أنْ يَقْبِضَ رُوحُه، فيقْبِضُهَا، فَيُمِيتُهُ الله.

أمّا اتّخَاذُ الأسْبَابِ الّتي جَعَلَها اللهُ أسْبَاباً يَحْدُث بها المَوْتُ، فَقَدْ

مَكَّنَ مِنْهَا عِباده، ولكن لَا يَتمُّ الأمْرُ إلَّا بمَشيئتِه أو إذْنِه، ولا تتحقَّقُ الإماتَةُ إلّا بخَلْقِه.

وقد سبَق أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ الْإحياء يكونُ بالتَّزْويج بين الرُّوح والجسَدِ، المخْلُوقِ بكيفيَّةٍ مُقَدَّرَةٍ بِمقادير صَالِحَةٍ لظُهُورِ الحياة فيه، ضِمْن نظام اللهِ في خَلْقه. وأنّ الإماتَة تكونُ بفَصْلِ الرُّوحِ عَنِ الجَسَد.

وسبَقَ أَنْ عَلِمْنَا أَنَّ الرُّوح تُخْلَقُ بأمْرِ التكوينِ الرَّبّاني مباشرةً، دُونَ اسْتِخْدَامِ شيءٍ مَخْلُوقٍ سابقٍ لها في عناصر الكون، بخِلَاف جَسدِ الإنسان مثلاً، فإنَّهُ مَخْلُوقٌ من الطِّيْن، أمّا رُوحُهُ فتأتي من أمْرِ اللهِ التكوينيّ مباشرةً، فإذَا نُفِخَتْ في الْجَسَدِ الَّذِي خَلَقَهُ اللهُ من عناصِرَ سابقةٍ له، صار الجسَدُ كائناً حيّاً.

هذا هو نظام اللهِ في الخلْق، ولو شاء نظاماً آخَرَ لفَعل.

وجاءت عبارة ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ التذكيرية تمهيداً لِلْقَوْلِ التذكيري في آخر الدّرس:

﴿.. وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٥٦﴾ وفي القراءة الأخرىٰ: **[وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ]**: أي: وإلى حساب رَبّكم، وفَصْلِ قضائِهِ، وَتَنْفِيذِ جزائِه، أيُّها الناس الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، تُرْجَعُونَ بِخَلْقِهِ، فَتَرْجِعُونَ مطاوِعين بالْجَبْر، بَعْدَ بَعْثِكُمْ وإخْراجِكُمْ من خَلِيَّةٍ مَحْفُوظَةٍ في الأرضِ من بقايا أجْسَادِكُمْ، وهي الموجودَةُ داخِلَ عَجْبِ الذَّنب، إذْ صَحَّ عَنِ الرَّسُول ﷺ أَنَّ كُلَّ شيءٍ يَفْنَىٰ في الإنْسَانِ إلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، وهو جُزَيءٌ في أصْلِ الذَّنب، عنْدَ رَأسِ الْعُصْعُص.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الثالث عشر من دُرُوس سورة (يُونس).

والحَمْدُ للهِ على معونَتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

(١٧)
التدبر التحليلي للدرس الرابع عشر من دُروس سورة (يونس) الآية (٥٧)

قال الله عزّ وجَلّ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾.

تمهيد:

هذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جَاءَ في السُّورَةِ بِشَأْنِ القرآن، في الآية (١) والآيات من (١٥ ـ ١٧) والآيات من (٣٧ ـ ٤٠).

وموصُولٌ أيضاً بما جاء بشأن القرآن في سُورَةِ (الإسْراء/ ٥٠ نزول) النازلَة قبل سورة (يونس/ ٥١ نزول) إذْ قَدْ ظَهَرَ بالتدبّر أَنَّ مَوْضوعَ سورة (يُونس) امتدادٌ لمَوْضُوع سورة (الإسْراء) والله أعلم.

التدبّر التحليلي:

• ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: خطابٌ مُوَجَّهٌ مِنَ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُهُ للنَّاسِ جَمِيعاً.

• ﴿قَدْ جَآءَتْكُم﴾: أي: قَدْ وَصَلَتْ إليكُمْ في آياتِ القرآن المجيد، بَعْدَ أَنْ جاءَ بها جِبْرِيلُ رَسُولُ الوحْيِ من رَبّكم، وأوْحَىٰ بها إلى الرسول مُحَمَّد ﷺ، وبَلَّغَها كَمَا تَلَقَّاهَا مِن الْوَحْي، وَصَارَتْ حاضِرَةً عِنْدَكم والمطلوبُ أنْ تَتَدَبَّرُوها بأَمْرِ رَبّكم.

وهٰذه الَّتِي جاءَتْكُمْ في آيات القرآن المجيد هي:

(١) ﴿مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: أي: بيانٌ فيه تَرْغيبٌ وَتَرْهِيب.

الموعِظَة: مَا يكونُ به الوعْظُ من قَوْل أو فِعْل.

والوعْظ: هو النُّصْحُ بالفِعْل أو بالتَّرْك المقرونُ بما يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ في النفس، للانتفاع بالنُّصْحِ، واتّباع ما هدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أو تَرْكاً. قال ٱبْنُ سِيدَه: هُو تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثوابٍ وعِقَاب.

من المعلوم أنَّ النَّفْس الإنسانِيَّة تَتَأَثَّرُ بِحَرَكَتَين دَائِرَتَيْنِ تدوران فيها، إِحْدَاهُمَا على مِحْوَرِ الْخَوْفِ، والْأُخْرَىٰ على مِحْوَرِ الطَّمَعِ، وتَحْرِيكُهما علَىٰ هٰذَيْنِ الْمِحْوَرَيْنِ للاسْتِفَادَةِ من تأثيرِهِمَا في النَّفْس هُوَ الوَعْظُ.

وقَدْ اشْتَمَلَ القرآنُ الْمَجِيدُ على نُصُوصٍ كثِيرَةٍ فيها مواعِظُ بالترغيب والتَّرْهِيب، بالإضافَةِ إلى نُصُوصِ الإقناعِ الفكريِّ بالإيضاح والتحليل، وبالجدالِ بالّتي هي أحْسَنُ.

وجاءَتْ عبارَةُ: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ في خطابِ النَّاسِ، للدَّلَالَة علَىٰ عِظَمِ مِقْدَارِ هٰذِهِ الموعظة، لمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ من التحْذير من الخلود في عذاب النار، والترغيبِ في الخلُودِ في جنَّاتِ النعيم يَوْمَ الدين.

أي: إنَّ رَبَّكُمُ الخالِقَ لَكُمْ والخالِقَ لجميعِ الأكوان الدُّنيويَّة والأُخْرَوِيَّة، هو الّذِي يُوَجِّهُ لَكُمْ فِي آياتِ كتابِهِ الموعِظَةَ رَغْبَةً في أَنْ تَتعِظُوا فَتَنَالُوا سَعَادَةَ الدَّارَيْن.

(٢) ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾: أي: وجاءَكُمْ في آيات القرآنِ الْمَجِيد شفاءٌ لما في الصُّدُور من أمْرَاضٍ.

أُطْلِقَ المرَضُ في القرآن على الكُفْر بالحقّ، وعلى النفاق فما دُونه، وعلى حُبِّ معْصِيَةِ الله، وعلى أمراض الحسَدِ والحِقْدِ وابْتِغَاءِ الشّرّ، وعَلَىٰ المَيْلِ إلى الشهواتِ المحرّمة.

وأُطْلِقَ على الأمراض الجسَدِيَّةِ بحسَبِ الوضع اللُّغوي.

فَيَنْبَغِي أنْ نفهم أنَّ الشِّفَاءَ المرادَ بهذه العبارة شامِلٌ للشفاء من الأمْرَاضِ المعنويَّة ومن الْأَمْرَاضِ المادِّيَّةِ الَّتِي تَصِلُ إصَابَتُها إلى الصُّدُور، وهي الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ في الإنْسَانِ الواقِعةُ بَعْدَ طبَقَةِ سطْحِ النفس، وبَعْدَها طَبَقَةُ الْقَلْبِ فالْفُؤَادِ، وإطْلَاقُ الصَّدْرِ يَشْمَلُ طبقَتَي الْقَلْبِ والْفُؤَاد.

إنَّ حقَائِقَ الْقُرآن الاعتقاديَّةِ تَشْفِي من الْجَهْلِ بالخالق الربِّ، والغاية من الخلْقِ، والمصير بَعْدَ رِحْلَةِ الحياة الدنيا، وتشفِي من العقائد الباطلة الشركيّة والإلحادية، وكُلِّ صُوَرِ الكُفْرِ بالحقّ أو جحودِه بالنسبة إلى هذه القضايا الكبرىٰ.

وإنَّ قضايا القرآن الأخلاقيَّة تَشفِي من الرّذائل الْخُلُقِيَّةِ، ومن أنواع السُّلُوك الّتِي هي تعبيراتٌ عمليّة عنها.

وإنَّ كثيراً من الوصايا القرآنية تَشْفي من الأمراض النفسيَّة ومن عُقَدِها.

وَإنَّ أحْكامَ القرآن المنَظِّمَة للعلاقات الاجتماعيَّة، تَشْفِي المجتَمَعَ الْبَشَرِيَّ من الشحناء والبغضاء والْعَدَاوَاتِ والشِّقَاق والتقاتُلِ.

وشفاءُ ما في الصُّدور يُخَلِّصُ الناسَ من الأمراضِ الدَّاخليّة ذاتِ الآثار السيّئة القبيحة في السُّلُوكِ الْعَمَلِيّ النَّفْسِيِّ والْجَسَدِي.

إنّ شفاء ما في الصُّدور هو السَّبَبُ الأعظم لصلاح الأفراد والمجتمعات.

(٣) ﴿وَهُدًى﴾: **الْهُدَى**: هو الرشاد، والدَّلالة على الخير، وهو ضِدُّ الضلال. وفي القرآن دَلَالَةٌ للأفراد والجماعات، إلى مَا فيه صلاح دُنياهم، وسعادتُهُمْ في آخِرتهم.

ولفظ «الْهُدَى» مصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيه» أُطْلِقَ على القرآن، للدّلالَةِ علَىٰ

أنّ كلَّ شَيْءٍ في القرآنِ يَهْدِي إلى الحقِّ والخير وفضائل الأعمال، فَهُو بمثابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

(٤) ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾: **الرَّحْمَةُ**: صفَةٌ نَفْسِيَّةٌ من آثارها إرادَةُ الْخَيْرِ لِلْمَرْحُوم. والقرآن أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ الله بعِبادِه، وفي آياتِهِ عَطاءٌ ثَرٌّ من عطاءات الخير للناس أجمعين، بما فيها من دَلَالاتٍ على كلِّ مَا فيه صَلاحُ دُنيا النّاس، وسعادة آخِرَتهم.

وبهذا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفُ بأَنَّهُ رَحْمَةٌ، وهٰذا من إطلاق اسم الشَّيْء على آثاره، فهو من المجاز المرسل.

ولمَّا كانَ المؤمنُون هم الّذينَ يَسْتَفِيدُون من الرَّحْمَةِ الَّتي تَشْتَمِلُ عليها آيات القرآن المجيد، كَانَ من الحكمة في البيان تقييدُ رحْمَتِهِ بأَنَّها خَاصَّةٌ بِالْمُؤْمنين، فقال تَعالَىٰ: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ فَمَنْ آمَنَ بأَنَّ القرآنَ كلامُ الله، وآمَنَ بِصِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، ومِنْهَا أَنَّهُ الرَّحْمٰنُ الرَّحيم، أَدْرَكَ أَنَّ آيَاتِ كِتَابِ اللهِ هي من آثار رَحْمَتِهِ بِعِبَادِه، فَهُو يَتَّبِعُ مَا تَهْدِي إِلَيْهِ، لِيَنَالَ خَيْرَي الدُّنيا والآخرة.

وهذه العبارة تُبَيِّنُ لأولي الألباب المتدبّرين لآيات كتاب الله، قِيمةَ الإيمانِ الصَّحِيح الصادق في حياة الإنسان، وفي اختياراتِه السُّلُوكيَّة النفسيَّة والْجَسَدِيَّة.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الرابع عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على توفيقه ومعونته ومَدَدِه وفتحه.

(١٨)

التدبّر التحليليّ للدرس الخامس عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٥٨ ـ ٦١)

قال الله عزّ وجل خطاباً للرسول ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ

أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

القراءات:

(٥٨) • قرأ ابن عامر، وأبو جعفر: [**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ**].

وقرأها رُوَيس: [**فَبِذَلِكَ فَلْتَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا تَجْمَعُونَ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

ومؤدّىٰ هٰذِه القراءات واحِد، وهي من التفنُّن بين الخطاب والغيبة. وبعضها اقتضاه التوجيه التعليميّ بالحديث عن الغائبين، وبتعليمهم مخاطبة المدعوّيين.

(٦١) • قرأ السُّوسي، وأبو جَعْفر: [**شَان**] بإبْدال الهمزة ألفاً.

وقرأها حمزَة كذلِك في الوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿شَأْنٍ﴾ بحسب الأصل.

(٦١) • قَرأ الكِسَائي: [**وَمَا يَعْزِبُ**] بكسر الزاي.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ بضَمّ الزاي.

والقراءتان وجهان عربيان في النطق.

(٦١) • قرأ حمزة، ويعقوب، وخلف: [**وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ**] برفع «أَصْغَرُ» و«أَكْبَرُ».

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾ بفتح «أصْغَرَ» و«أكْبَرَ».

وهما وَجهان عَرَبيان جائزان، فرفعهما لُوحظ فيه عطفهما على مَحَلِّ «مِثْقَال» إذ هو فاعلٌ في المعنى لـ ﴿يَعْزُبُ﴾ مجرُورٌ لفظاً بحرْف الجرّ الزائد لتوكيد العموم والتّنصيص عليه. وفتْحُهما لوحظ فيهما أنهما معطوفان على ﴿ذَرَّةٍ﴾ وهما مَمْنُوعان من الصّرف فَيُجَرَّانِ بالفتحة ولا يُنَوَّنان.

تَمْهيد:

في هذا الدَّرْس يُعَلّم اللهُ رَسُولَهُ ﷺ فَكُلَّ دَاعٍ إلى الله مِنْ أُمَّتِه، تَوْجيهَ دَعْوَةٍ إقناعِيَّةٍ بِشَأْن القرآن ومَا جاء فيه من موعظة من رَبّهم، وشفاءٍ لمَا في الصُّدُور، وهُدىً ورَحْمَة، رَغْبَةً في استجابة غير المستجيبينَ بَعْدُ من الناس، وتَثْبِيتاً للمُستجيبين، وإعلاماً لَهُمْ بما يُخَفِّفُ تَعَلُّقَهُمْ بِالدُّنيا، ويَرْبِطُ قُلُوبَهُمْ بفَضْلِ اللهِ المُدَّخَرِ للمتّقين والأبْرار والمحسنين. وَأَنْ يُبَيِّنَ للمشركين عُدْوانَهُمْ على رُبوبيَّة اللهِ في التَّحْرِيم والتحليل، دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ جلَّ جلاله، بل هم فيه يَفْتَرُونَ علَيْهِ في إصدار أحكامٍ دِينيَّة لَمْ يُنْزِلْها ولم يأذَنْ لَهُمْ بأنْ يضعُوها مِنْ عِنْدِ أنفسهم.

وفيه وعيدٌ للّذين يفْتَرُونَ على الله الكَذِبَ، ومِنْهُ إصْدار أحكام لَمْ يُنْزِلْها، ولَمْ يأْذَن بوَضْعِها، إذْ هِيَ من خصائِصِ رُبُوبيّته.

وفيه بيانُ مُراقبةِ اللهِ لعبادِه دَواماً مُراقَبَةَ شُهُود، فَلَا يَبْعُدُ عَنْهُ ولا يَخْفَىٰ عليه مقدارُ ذَرَّةٍ ولا أصْغَرُ من ذَرَّةٍ ولَا أَكْبَرُ، إذْ هو مَعْلُوم لَهُ تبارك وتعالى، ومُسَجَّلٌ عِنْدَهُ في كتابٍ، ثم هو يُحَاسِب عليه، ويقْضِي بشأنه، ويجازي على وَفْقِ قضائه.

التدبّر التحليلي:

قول الله عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ فلكلّ داعٍ إلى الله من أمته:

﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾.

أي: قُلْ للنَّاسِ أيُّها الدَّاعي إلىٰ اللهِ مُبيّناً وَمُقْنِعاً: إذَا كُنْتُمْ تُرِيدُونَ تحقيقَ مصَالحِ دُنْياكم، والظَّفَرَ بالسّعادة في أُخْرَاكُم، والْفَرَحَ بما يُرْضيكم، فاتّبِعُوا وَاسْتَمْسِكُوا بما جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ فَضْلٍ فِي آيَاتِ كِتَابِهِ المجيد، ومن آثارِ رَحْمَتِه، إذِ اشْتَمَلَ كتابُه على مَوْعِظَةٍ لكم منه، وشفاءٍ لِمَا في الصُّدور وَرَحْمَةٍ عظيمة.

وَإِذَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ بِشَيْءٍ فيه خَيْرٌ عظيمٌ لَكُمْ، في عاجلِ أمْرِكُمْ وآجِلِهِ، فَبِذَلِكَ الّذِي جَاءَكُمْ مِنْ رَبّكُمْ في كِتَابِهِ الْمَجِيدِ فافْرَحُوا. إنَّكُمْ تَفْرَحُونَ بِمَا تَجْمَعُونَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، وبِمَا يُمْتِعُكُمْ مِنْها مَتَاعاً فانِياً سَرِيعَ الزَّوَالِ، وَلَوْ أَبْصَرْتُمُ الحقِيقَةَ الباقيةَ الخالِدَة، لأَدْرَكْتُمْ أنَّ اتِّبَاعَكُمْ واسْتِمْساكَكُمْ بما جاءكم مِنْ رَبّكُمْ في كِتَابِهِ الْمَجِيدِ هُوَ خَيْرٌ وأجَلُّ وأعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا تَجْمَعُونَ مِمَّا زُيِّنَ للنَّاسِ من الحياة الدُّنيا.

فالمعنى: ﴿قُلْ﴾: اسْتَمْسِكُوا ﴿بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾ ممَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ آياتُ كتابِهِ، واتَّبِعُوا مَا هَدَاكُمْ رَبّكُمْ إلَيْهِ لِتَظْفَرُوا بِخَيْرَي الدُّنْيا والآخرة، اللَّذَيْن يُفْرِحَانِكُمْ فَرحاً حَقِيقِيّاً مُمْتَداً إِلَىٰ الأبَد، وإنْ كُنْتُمْ حَرِيصِينَ علىٰ أَنْ تَفْرَحُوا فَرَحاً حَقِيقِيّاً ﴿فَبِذَٰلِكَ﴾ الَّذي جَاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، وبِالْحِرْصِ على الاسْتِمْسَاكِ به واتّباع ما جاء فِيهِ من وَصَايا ربّكُمْ [**فَلْتَفْرَحُوا**] واعْلَمُوا أَنَّ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَكُمْ فيما لَوْ اسْتَمْسَكْتُمْ به واتّبَعْتُمْ وَصَاياه ﴿هُوَ خَيْرٌ﴾ لكُمْ [**مِنْ**] كُلّ [**مَا**] تَجْمَعُونَ مِنْ فانيات الْحَيَاةِ الدُّنيا، ومن كُلِّ ما تَسْتَمتِعُونَ به منها.

قول اللهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله ﷺ فلكُلّ دَاعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

في هذا البيان يُعَلِّم اللهُ عزَّ وجلَّ الدَّاعِيَ إلى الله أسلوباً من أساليب إقناعِ الّذِينَ يَفْتَرُون علَىٰ اللهِ، فيما هُو من خصائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ وإلَٰهِيَّتِهِ لِعِبَاده، وهي أَحْكامُ التحريم والتحليل، فَيُحَرِّمُونَ مَا لَمْ يُحَرِّمْه الله عزّ وجلّ، وقَدْ يُحِلُّونَ مَا حَرَّمَهُ اللهُ، فَيُحَرِّمُونَ بأحكامِ جاهليَّة مِنَ الْأَنْعَام ومِنَ المآكل مَا لم يُحَرِّمْهُ اللهُ، كتَحْرِيم أهل الجاهليَّةِ الْبَحِيرةَ، والسَّائبةَ، والْوَصِيلَة، والْحاميَ، وكتَحْرِيمهم على الّذين كانُوا يطوفون بالبيتِ عراةً الوَدَك (وهو الدَّسَمُ والدُّهن) مَا أقامُوا في الموْسِمِ، وكتَحْلِيلِهِمْ أكْلَ الْمَيْتَةِ والدَّمِ.

وكانَ أوَّلُ ما نَزَلَ بِشَأْنِ أحْكامِ التَّحريم والتّحليلِ الجاهليّة فِي القرآن المجيد، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) خطاباً لرسوله، ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدَبُّرُ هذا النَّصّ في مكانِهِ من سورة (الأعراف).

ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ الآيَتَيْن (٥٩ و٦٠) من سورة (يُونس/ ٥١ نزول) الّتي نتدبَّرُها.

ثُمَّ أنْزَلَ اللهُ عزّ وجَلَّ الآيات من (١٣٨ ـ ١٤٠) من سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) وقَدْ جاء فيها بَعْضُ تفصيل لأحكام الجاهلية في تحريم بَعْضِ الأنْعَام وبَعْضِ الحرْث، ضِمْنَ صِفَاتٍ وحُدُودٍ افترائيَّةٍ حَدَّدُوها، وزَعَمُوا أَنَّها أَحْكامٌ رَبَّانِيَّةٌ تَعَبُّدِيَّة افتراءً علَىٰ الله.

ثم أَنْزَلَ اللهُ عزّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) الآيَة (١٠٣) وفيها ذكْرٌ تَفْصِيليٌّ لِلْأَنْعَامِ الَّتي حَرَّمَها أَهْلُ الجاهلية، فجاء فيها ذِكْرُ البحيرة والسَّائِبَةِ والْوَصِيلَةِ والْحَامي[1].

وأقتصر هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ مَا جَاءَ في سورة (يونس) الجارِي تَدَبُّرُ آياتها بما يفْتَحُ الله.

قول اللهِ تعالى لرسوله ﷺ فلكلّ داعٍ إلى اللهِ من أمَّته:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا .. ﴿٥٩﴾﴾:

في هٰذِهِ الآيَةِ تَعْلِيمُ أُسْلُوبٍ إقْنَاعِيٍّ من الله عزّ وجلّ، كي يُوَجِّهَهُ الرَّسُول ﷺ فالدَّاعي إلى دينِ اللهِ من أمَّته، للمشركين وأمْثَالِهِم، الّذِين يُشَارِكُونَ اللهَ جلَّ جلالُهُ فيما هُو من خَصَائِصِ إلَهِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، الَّذين يُفِيضُ علَيْهِمْ مِنْ عطاءاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ولَوْلاها لَمْ يَكُونُوا شيئاً، أَوْ لم يَبْقَوْا لحظَةً واحدةً في الوجود إنْ قَطَعَها عنهم، وهٰذه المشارَكَةُ للهِ فِي إلَهِيَّتِهِ تظْهَرُ في أُمُورٍ شتَّىٰ، ومِنْها إصْدَارُ أحكام التَّحْرِيمِ والتحليلِ من عِنْدِ أنْفُسِهِمْ، أو من قادَتِهِم الزَّمَنِيِّين، أو مِنْ سَدَنَةِ أَوْثَانِهِمْ، دُون إذْنٍ من اللهِ، أو افْتِرَاءً عَلَيْهِ بِادِّعَاءِ أَنَّها أَحْكَامُ اللهِ، أو عُدْواناً علَىٰ حَقِّ إلَهيّتِهِ لَهُم زاعِمين أنَّ للبَشَر حقّاً في إصْدَار أحكام التحريم والتحليل.

الرِّزْق: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ممّا يُؤْكل، ويُشْرَبُ، ويُلْبَسُ، ويُتَداوَى به، وقَدْ يُطْلَقُ على ما هو سَبَبٌ لذلك مجازاً. وقَدْ يُعَمَّمُ فَيشْمَلُ كُلَّ عطاءٍ رَبَّانيّ، مثل عطاء الذُّرّيّة، وعَطاء العلم، وغير ذلك.

● ﴿.. قُلْ أَرَءَيْتُم ..﴾: أي: أتفكَّرْتُمْ تَفكُّراً سَلِيماً فرأيْتُمْ بعُقُولكُم

---

(١) انظر هَذا البحث في كتاب «بصائر للمسلم المعاصر» تحت عنوان «الغُلُوّ في الأحكام الشرعِيَّة» الصفحات من (٣٢٦ ـ ٣٣٢) للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

مِثْلَمَا تَرَوْنَ بأعينكُمْ وأبْصَارِكم. إذا كُنْتُمْ لَمْ تَتَفَكَّرُوا هذا التفكُّرَ السَّلِيمَ، فافْعَلُوه لِتَرَوْا.

• ﴿.. مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ ..﴾: أي: مَا خَلَقَ اللهُ رَبُّكُمْ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ وأسْبَابِهِ وَوَسَائِله.

أُطْلِقَ لفظ [أَنْزَلَ] بمعنىٰ «خَلَقَ» لأنَّ كُلَّ خَلْقِ اللهِ وصُنْعِهِ ولوْ كان في الأرض ومِنَ الأرْض هو إنْزَالٌ، فاللهُ عزّ وجلَّ هو الْعَلِيُّ الأعْلَىٰ، وأوامرُ خَلْقِهِ تَنْزِلُ إلَىٰ مواقِعِها في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ مِنْ صِفَاتِهِ العليَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهَا في عُلُوِّها ذُو عُلُوٍّ مَهْمَا سَمَا وعلا، فخَلْقُهُ إنْزَال، وعَطاءاتُهُ لِخَلْقِه إنْزَال.

• ﴿.. فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ..﴾: أي: فجَعَلْتُمْ بأوْضَاع مِنْكُمْ قِسْماً ممّا أحَلّ اللهُ مِنْهُ حَراماً، وبَعْضاً مِنْهُ مِمَّا حَرَّمَ عليكم أَنْ تَأْكُلُوه أَوْ تَشْرَبُوه حَلَالاً، مع أنَّهُ رِزْقٌ يُنْتَفَعُ بِهِ في غير الأكْلِ والشُّرْبِ، كأنْ يَكُونَ سماداً للأرْض تمتَصُّ مِنْهُ النباتاتُ عناصِرَ تكُونُ لكُمْ فيما بَعْدُ رِزْقاً حلالاً طيّباً، وثمراتٍ نافعات، فَهُوَ رِزْقٌ بِوَجْهٍ عامٍّ، وهي أحْكام الجاهليّة الّتي سبَقَ ذِكْرُ بَعْضِها.

وقَدْ طُوِيَ في النَّصِّ هُنَا بيانُ تَقْرِير الَّذِينَ يُوَجَّهُ لهم الإقْنَاعُ، بشأنِ أحكامهم الجاهليَّةِ في الأنْعَام والحرْث، لِبنَاءِ الإقْنَاعِ التالي عليه:

﴿.. قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾؟:

أي: قل لَهُمْ: أَنْتُمْ بَيْنَ احْتِمَالَيْن:

الاحْتِمَالُ الأول: أنْ تَدَّعُوا أَنَّ اللهَ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ بأَنْ تُصْدِرُوا أحْكَامَ تَحْرِيمٍ وتَحْلِيلٍ على ما يَبْدُو لكم، وهي أحكامٌ خاصَّةٌ بإلَٰهِيَّةِ اللهِ الرَّبّ لعباده، إذْ هي من عناصِرِ عبادتِهِمْ لَه، جل جلالُهُ وعظم سلطانه.

أَفَأَذِنَ اللهُ الرَّبُّ لكُم بهَذا وهو صاحِبُ الحقِّ دُونَ غيرِه في أحكام التحريم والتحليل التَّعَبُّدِيّة؟!

قُدِّمَ في العبارة لفظ الجلالةِ «الله» للتَّنْبيه على أنَّ اللهَ هو وَحْدَهُ الَّذِي لَهُ حَقُّ الإِذْنِ لِبَعْضِ عباده بإصْدَارِ أحكام التحريم والتحليل التَّعَبُّدية.

دلّ على هذا الاحتمال قولُ الله تعالَىٰ: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾؟

الاحتمال الثاني: أَنْ تَكُونُوا في هذه الأحكام تَفْتَرونَ على اللهِ إذْ تَدَّعُون أنَّها أحْكَامٌ رَبَّانِيَّة، أو تَفْتَرون على الله في ادّعاء أَنَّ من حَقِّكُمْ أَنْ تُصدِرُوهَا دُونَ إذْن مِنْهُ، ودون أنْ تَكُونَ أحكاماً مُنَزَّلَةً من لَدُنه جلَّ جلاله.

دَلَّ على هذا الاحتِمال بشقَّيْهِ قول اللهِ تعالَىٰ: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟ أي: بَلْ. أعَلَىٰ اللهِ تَفْتَرُون، إذْ لَمْ يَأْذَنِ اللهُ لَكُمْ، وهذا الافتراء له وجْهان:

الوجْهُ الأَوَّل: أَنْ تَزْعُموا أَنَّها أحْكامٌ مُنَزَّلَةٌ مِنْ عِنْد الله.

الوجه الثاني: أَنْ تَزْعُموا أنَّ مِنْ حَقِّكُمْ أَنْ تُصْدِرُوا أحكام تحريم وتحليل للناس على مَا تَرَوْنَ بِعُقُولكم وأهوائكم.

• والرَّدُّ على الاحتمال الأوّل يكون بمطالَبَتِهِمْ بالدَّليل على أنّ اللهَ سبحانَهُ وتعالى قَدْ أَذِنَ لَهُمْ، ولَنْ يَجِدُوا دَليلاً غير الادّعَاءِ الكاذب، وهذا ساقط بداهة.

• والرَّدُّ على الوجه الأول من الاحتمال الثاني يكونُ بمطالَبَتِهِمْ بالدّليلِ على أنّها مُنَزَّلَةٌ مِنْ عند الله، ولَنْ يَجِدُوا أيضاً دَليلاً غير الادّعَاءِ الكاذب، وهٰذا ساقط بداهة.

• والرَّدُّ على الوجْهِ الثاني من الاحتمال الثاني يكون بإثبات أَنَّ أحكام التحريم والتحليل من خصائص إلَهِيَّة الرَّبّ لعباده، فَلَيْسَ لأحدٍ أَنْ

يُشَارِكَ اللهَ في إلَهيّتِه، إذْ لَيْسَ لأحَدٍ من دون الله مشاركَةٌ للهِ في رُبُوبيَّتِه. وفي هذا ترهيبٌ شديدٌ للَّذِينَ يَتَجَرَّؤُون على الفتاوَىٰ في دين الله بالتحريم والتحليلِ دُونَ دَليل شَرْعِيٍّ أَذِنَ اللهُ بالاستناد إلَيْهِ دَليلاً.

قول اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

هذا البيان يَصْلُحُ أَنْ يكُونَ مِنْ توابعِ التعليم الإقناعي، ويَصْلُحُ أنْ يكونَ بياناً مُوجّهاً لكُلِّ مُتَلَقٍّ حَرِيصٍ على الانتفاعِ بما يُبَيِّنُهُ اللهُ مِنْ قضايا، وهذا الثاني هو الأظهر، وعلى الأوّل يَفْهَمُ منه الدَّاعي إلى دين الله أسلوباً إقناعيّاً فيه تهديدٌ ضِمْنِيٌّ بعقوبَةِ الّذِينَ يفترون على الله يوم الدين، مقرونٌ ببيان قضيتين ذواتي شأن.

وفي هذا البيان ذكر موجَزاتِ ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلّ عليْها قولُ اللهِ عزَّ وَجَلَّ في الآية:

﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ..﴾؟ أي: وَمَا هُو ظَنُّ الَّذِينَ يفْتَرُونَ على اللهِ الْحُكْمَ أو الْقَوْلَ الْكَذِب؟. يُقَالُ لُغَةً: «افْتَرَىٰ الكَذِبَ، وافْتَرَىٰ الْقَوْلَ» أي: اخْتَلَقَهُ، فلَفْظُ: ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ في الآيةِ مَفْعُولٌ به لفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ﴾: أَيْ: وما ظَنُّهُمْ فِي جَزَاءِ اللهِ يَوْمَ القيامة؟! أيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مَبْعُوثِينَ فلَا جزاء؟!. أيَظُنُّونَ أنَّ الله ـ إنْ بَعَثَهُم يَوْم القيامة ـ فَإِنَّهُ لَا يجازيهم بالعذاب الأَلِيمِ لافترائهم عليه، والافتراءُ عليه جلَّ جلالُهُ من أقْبَحِ أنواع الظلم؟!

وحولَ هٰذَيْنِ الظَّنَّيْنِ تَدُور مقالاتُ الكافرين بشأن يَوْم القيامة، وقد

أبانَ اللهُ عزّ وجلّ هٰذَا بقوله في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) يَعْرِضُ مقالَةَ الكافر:

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ بشأن الكافر صاحِبِ الجنَّتَيْنِ وهُو يُحاوِرُ صَاحِبَهُ المؤمِنَ، في قصّتِهما الّتي ذَكرها تبارَكَ وتعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾.

القضيّة الثانِيَةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ في الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾:

دلَّتْ هذه العبارة مع السِّياقِ الَّذِي جاءَ قَبْلَها، عَلَىٰ أَنَّ اللهَ يَتَفَضَّلُ على عباده ومِنْهُمُ الّذِينَ يَفْتَرُونَ علَيْهِ الكَذِبَ، فَلَا يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعُقُوبَة، بَلْ يُمْهِلُهُمْ، ويُطَوّلُ لَهُمْ أجَلَ امتحانهم، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبُوا وَيُؤْمِنُوا وَيُصْلِحُوا ليتُوبَ علَيْهِم ويَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُم وَكُفْرِيَّاتِهم.

الفضل: هو في الأصْلِ الزّيادة، والبقيَّةُ منَ الشيء، واستُعْمِل بمَعْنَى الابْتِدَاء بالإحْسَانِ والْعَطَاءِ من الخير، مادّيّاً كانَ أم معنويّاً، واشْتَهَرَ بهذا المعنى وهو المراد هُنا.

والمتأمِّلُ في عطاءاتِ اللهِ لِعبَادِه يُدْرِكُ بِيَقِينٍ أنَّ كُلَّ عَطاءٍ يُعْطِيهِ هُو فَضْلٌ مِنْهُ، أي: ابْتِدَاءٌ بالإحْسَان.

أمَّا الابْتِلَاء بالمصَائِب فَهُوَ إحْدَىٰ وَسَائِلِ اختِبَارَاتِ اللهِ لعباده الموضُوعِينَ في الحياة الدُّنيا موضِعَ الابْتِلاء.

وأمّا الْعُقُوبَاتُ فَهِيَ نَتَائِجُ عَدْلِيَّةٌ لاخْتِيارَاتِ الموضوعين مَوْضع الامْتِحَان، وهُمُ الجانُون بِها علَىٰ نُفُوسِهِمْ، وهُمُ الظالمون لها، واللهُ جلَّ جلالُهُ لَا يَظْلِمُ أحَداً شيْئاً، مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فمَا دُونَها، بَلْ يَعْفُو عَنْ كثير.

وقد جاء توكيد العبارة بالمؤكدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة».

وجاء تنكير ﴿فَضْلٍ﴾ للدَّلاَلَة على أنَّهُ فَضْلٌ عَظِيمٌ جدّاً.

القضيّة الثالثة: دَلَّ علَيْها قول اللهِ عزّ وجلَّ في الآيَة: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾:

أي: ومَعَ أنَّ اللهَ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلطانُه ـ لَذُو فَضْلٍ عظيمٍ على النَّاس، ومِنْهُ فَضْلُ الإمْهَالِ الطويلِ، رَغْبَةً في إيمانِهِم بإراداتِهِم الحرَّة، لَكِنَّ أكْثَرَهُمْ كافِرُونَ، لَا يَشْكُرُونَ اللهَ رَبَّهُمْ عَلَىٰ فَضْلِهِ العظيم عليهم، أَدْنَى شُكْرٍ، بإيمانٍ إراديٍّ صَادِقٍ بما أَوْجَبَ عَلَيْهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، وإعْلَانِهِمْ هذا الإيمان.

الشُّكْرُ: مُقَابَلَةُ الْعَمَلِ الْحَسَنِ الّذِي فيه إنْعَامٌ وَتَفَضُّلٌ عَلَىٰ مَنْ يَجِبُ عليه الشُّكر بما يُرْضِي المنْعِمَ المتفضل، ويَدْخُلُ في عُمُومِهِ الْحَمْدُ، وهُوَ الثناء بالجميل.

قَوْلُ اللهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

﴿شَأْنٍ﴾: كَلِمَةٌ عَامَّةٌ تُطلَقُ علىٰ أيّ حالٍ يَكُونُ فيها أو علَيْها الكائن، وهي كالأمْر.

﴿شُهُودًا﴾: جمع «شاهد» وهو الحاضر المراقب.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي: إذْ تَنْدَفِعُونَ فيه بِهِمَّةٍ وقُوَّة. «أَفَاضَ يُفِيضُ إِفَاضَةً» أي: انْدَفَعَ بِهِمَّةٍ وقُوَّة.

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ﴾: أي: وما يَبْعُدُ وَمَا يَخْفَىٰ، يقال لغة: «عَزَبَ يَعْزُبُ وَيَعْزِبُ عُزُوباً» أي: بعُدَ وخَفِي.

﴿مِن مِّثْقَالِ﴾: مِثْقَالُ الشَّيْء: مِثْلُهُ في وَزْنِه.

في هذه الآية يُوجِّهُ الله عزّ وجلّ خطابَهُ للرَّسُولِ ﷺ، فَلِأَصْحَابِهِ المجاهِدِين في سبيلِ نَشْرِ دِينِهِ، لإشعارهم بأنَّ اللهَ مَعَهُمْ مُؤَيِّدُهم وَنَاصِرُهم، وسَيَجْزِيهِمْ في الدُّنيا عِزّاً وتَمْكِيناً، كما وعَدَهم، وسَوْف يَجْزِيهم في الآخِرَة مَا يُرْضيهم وفَوْقَ مَا يُرْضِيهِمْ، ممَّا لَا يَقَعُ في أمانيهم، كما وَعَدَهُمْ أيضاً.

وفي هٰذا حَثٌّ لَهُمْ علَىٰ مُتَابَعَةِ مجاهَدَتِهِم في سبيلِ ربّهم.

• ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ .. ﴿٦١﴾﴾:

الخطابُ هُنَا مُوَجَّهٌ للرَّسُول ﷺ، وهو في مَضْمُونِهِ مُوَجَّهٌ أيضاً لِأَصْحَابِهِ التَّابِعِينَ له، والدَّاعِينَ بِدَعْوَته.

وأرَىٰ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي: ﴿مِنْهُ﴾ يَعُودُ على كِتَاب اللهِ الّذِي دَلَّتْ عليه الآية (٥٧):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ومَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ مَا أيِّ شَأْنٍ، خَاصٍّ بِكَ، أو غير خاصٍّ بكَ، كالدَّعْوَةِ إلى دِينِ رَبِّكَ بالحكمة والموعِظَةِ الحسنة، ومَا تَتْلُو مِنْ كِتَاب رَبِّكَ مِنْ قُرْآنٍ.

القرآنُ هنا: مَصْدَرُ قَرَأَ، وهو مُسْتَعْمَلٌ بمَعْنَى اسْم المفعول، أي: من مَقْرُوءٍ.

التِّلاوَة: هِيَ مُتَابَعَةُ المتْلُوِّ من الكِتَابِ بالقراءة حَرْفاً بحَرْف، وكَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، وآيَةً بآيَةٍ.

والْتَفَتَ البيان بِتَوجيهِ الخِطَابِ للرَّسُول ومَعَهُ أصْحَابُهُ المجاهِدُونَ معَهُ في سبيل رَبِّهم فقال الله تعالى:

• ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ..﴾:

أي: وَلَا تَعْمَلُون مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ تَدْعُون فيه إلَىٰ دِينِ رَبّكُم، وتَتَحَمَّلُون فيه أَذَى أَعْدَاءِ دَعْوَتِكُمْ الْمُشَاقِّين لكم، والّذِينَ يَكِيدُونَكُمْ بما يَسْتَطِيعُونَ من كيد، إلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً حَاضِرِينَ مُرَاقِبينَ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَة تَصْدُرُ عَنْكُم أَوْ تُوَجَّهُ ضِدَّكم مِنْ أعدائِكُمْ، حِينَ تَنْدَفِعُونَ بِهِمَّةٍ ونَشَاطٍ وَقُوّةٍ وَتَضْحِيَة، في سبيل الدَّعْوَةِ إلى دين الله، ونَصْرِ الرَّسُول في جهاده.

جاء استعمال ضميرِ المتكلّم العظيم في ﴿كُنَّا﴾ وناسَبَهُ استعمال الجمع الدّالّ على عظَمَةِ المراد به ﴿شُهُودًا﴾.

وجاءت عِبَارَةُ: ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾: أي: إذْ تَنْدَفِعُونَ في عَمَلِكُم بهمة وقُوّةٍ ونَشَاطٍ مجاهِدِين في سبيل رَبّكم، لإشْعَارِهِمْ بأنَّ اللهَ يُثْنِي عَلَيْهِمْ بهذا الانْدِفاع، وهو رَاضٍ عَنْ جهادهم. فَهِمْتُ هذا لأنَّ الله عزّ وجلّ شاهِدٌ مُرَاقِبٌ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ، أفَاضُوا فِيه أمْ لم يُفِيضُوا، فَذِكْرُ إذْ تُفِيضُونَ فِيه إضافَةٌ تَحْمِلُ مَعْنَىٰ الثّناء عليهم بهٰذِهِ الإفَاضَة، ورضا الله عَنْهُم بها.

• ﴿.. وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ .. (٦١)﴾:

الْتَفتَ الْخِطَابُ هُنَا إلى أسْلُوبِ الخِطَابِ الإفرادِي لكُلِّ فَرْدٍ مُتَلَقٍّ له صَالحٍ للخطاب.

أي: وَمَا يَبْعُدُ عَنْ رَبِّكَ وَلَا يَخْفَىٰ عليه شيءٌ في الْوُجُود كُلِّه، صَغِيراً كَانَ أَمْ كبيراً، إذِ اللهُ مُحِيطٌ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

• ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾: أي: مِنْ مِثْلِ وزْنِ ذَرَّة. «مِنْ» زيدَت لتوكيد العموم والتنصيص عليه، وهي داخلَةٌ على فاعل «يَعْزُب» وهو «مِثْقَال» مجرور لفظاً مَرْفوعٌ محلاً.

• ﴿.. فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ .. ﴿٦١﴾﴾: أي: في كُلِّ الْوُجود، إذْ يَنْقَسِمُ الْوُجُودُ إلَىٰ أَرْضٍ وَمَا حَوْلَ الْأَرْضِ، وَمَا حَوْلَ الأرْضِ كُلُّهُ سَمَاءٌ لَهَا مَهْمَا امْتَدَتِ الْأَبْعَادُ حَتَّىٰ المنْتَهَىٰ بَعْدَ السَّمَاواتِ السَّبْعِ والكُرْسِيِّ والْعَرْش. فَكُلُّ مَا عَلَا سُكَّانَ الْأَرْضِ فَهُو سماء.

• ﴿.. وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ .. ﴿٦١﴾﴾: أي: ولَا أصْغَر مِنْ مِثْلِ وَزْنِ ذَرَّةٍ حَتَّىٰ أَقَلِّ مِقْدَارٍ في الْوُجُودِ غَيْرِ قَابِلٍ للانْقِسَام، ولَا أَكْبَرَ حَتَّىٰ أعْظَمِ مقْدَارٍ في الوجود.

وسبَقَ بيانُ القراءتين في «أصغر» و«أكبر» وتوجيههما نحويّاً.

قولُهُ تعالى في آخِر هذه الآية: ﴿.. إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .. ﴿٦١﴾﴾: الّذي أراه أنَّ هٰذا الاسْتِثْنَاءَ هُو اسْتِثْناء من مطويٍّ مَحْذُوفٍ لفظاً مُلَاحظٍ تقديراً، ويُمْكِنُ اسْتِخْرَاجُهُ من الْبَيَانِ الّذِي جَاءَ في الآية قَبْلَه، وتَقْدِيرُه: وَلَا شَيْءَ في الوجود كُلِّهِ من الذَّوَاتِ والصِّفاتِ والْأَحْدَاثِ إلّا هُو مُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً ولَا كَبِيرَةً إلَّا أَحْصَاها.

ومِثْلُ هٰذا الحذْفِ كثيرٌ في القرآنِ المجيد، والْمُتَأَمِّلُ المتَدَبِّرُ للمَعَاني يَكْشِفُ من المطويّاتِ مَا لَوْ صُرِّح بِهِ لكانَ المصْحَفُ مجلّدَاتٍ لَا يَسْتَطِيعُ الناس استيعابَها ولا حِفْظَها.

وبهذا انتهىٰ تدبّر الدَّرْس الخامس عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه ومَدَدِه وتوفيقه ومعونته.

(١٩)

التدبّر التحليلي للدرس السادس عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٦٢ ـ ٦٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾.

القراءات:

(٦٢) • قرأ يَعْقُوب: [لاَ خَوْفَ عَلَيْهُمْ] بفتح «خَوْفَ» وضَمِّ هاء «عَلَيْهُمْ». وَفَتْحُ «خَوْفَ» على أنّه مبنيٌّ في مَحَلِّ نَصْب اسم «لَا» النافية للجنس.

وقرأها حمزة: [لاَ خَوْفٌ عَلَيْهُمْ] بِرَفْع «خَوْفٌ» وضَمّ هاء «عَلَيْهُمْ» والرفع أحد الوجوه الجائزة إذا تكرَرَت «لا» النافية للجنس.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ برَفع «خَوْفٌ» وكَسْرِ هَاء «عَلَيْهِمْ».

وهي وُجُوه عَرَبيَّة جائزة، كما سبق بيانه بالنسبة إلى «لا» النافية للجنس التي تعمل عمل «إنَّ».

تمهيد:

أشعرت الآية الأخيرة من الدَّرْس السابق «الخامس عشر» بأنّ اللهَ يُثْني على رَسُولِهِ والمجاهِدِين في سبيله بالدَّعْوة إلى دينهِ الحقّ، وأنّ هٰذا

يؤهِّلُهُمْ لأنْ يكُونُوا أوْلياءَه المستحقِّين لنُصْرَتِهِ، وحِمَايته، وتأييده، ومعونتِه، وتوفيقه، ومنْحِهم العزَّة والتمكينَ في الأرْض، ولَوْ كَرِهَ المشركُون وسَائِرُ الكافِرين، ولَوْ كانَتْ قُواهُمْ هِيَ الْأَكْثَر، ولَوْ كانُوا مُمَتَّعين بِسُلْطانٍ لا يَسْتَطِيعُ المؤمنُون أن يَغْلِبُوه بحَسَب الظاهر، فجاء هذا الدرس «السادس عشر» مبيّناً بعْض ثَوَاب أَوْلياءِ الله، وصِفَتَيْن أولَيَيْنِ مِنْ صِفاتهم.

التدبّر التحليليّ:

قول الله تعالى:

• ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

• ﴿أَلَآ﴾: أداة اسْتِفْتاح وتنبيهٍ وتحقيق، إذْ هي مركَّبَةٌ مِنْ همزة الاستفهام و«لَا» النافية، وهمزة الاستفهام إذا دخَلَتْ على النَّفْي أفادتِ التحقيق، ويتعيَّنُ كَسْرُ «إنَّ» بَعْدَ «ألَا».

﴿إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾: **أَوْلِياء**: جمع وَلِيّ. **والْوَلِيُّ**: يأتي للدلَالَةِ على معانٍ كثيرة، منها: النّاصِر، والمحِبّ، والْعَبْد، والتابع، والّذي يَلِي عَلَيْكَ أَمْرَكَ وَيَتَوَلَّاه، وغيرها.

بعض هٰذِهِ المعاني خاصَّةٌ بالعباد، وَبَعْضُهَا خاصَّةٌ باللهِ في هذا الْبَيان، وَبَعْضُهَا مُشْتَرَكة.

فالْوَلِيُّ بِمَعْنَىٰ النّاصِر والمحبّ، من المعاني المشْتَرِكة، فأَوْلِيَاءُ اللهِ تعالى الّذِينَ يَنْصُرُونَهُ بمَعْنَىٰ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ نُصْرَةِ دينِهِ، يَنْصُرُهُمُ الله بِعِزَّتِه، كما قال اللهُ عزّ وجلّ في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نُزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾.

وأَوْلِياءُ اللهِ تَعالَىٰ الّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، يُحِبُّهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

والوليُّ بمعنى الْعَبْدِ المتحقّق بِعُبُوديَّتِه، وبمعْنَىٰ التابعِ بإرادتِه الحرَّةِ، من خَصَائِصِ العباد المؤمنين المتقين.

والْوَلِيُّ بِمَعْنَىٰ الَّذِي يَلِي أُمُورَ عبادِه المؤمنين المتَّقين، ويَتَوَلَّاهم، وقَدْ يَمْنَحُهُمْ بَعْضَ عَطَاءَاتِهِ عَلَىٰ خِلَافِ مَجْرَىٰ العاداتِ، من المعاني الخاصَّةِ باللهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانه.

وهذا المعنى هو المعنى الذي يَسْتَغِلُّهُ مُدَّعُو الكراماتِ لتَحْقِيقِ مطالِبَ دُنْيويَّةٍ لَهُمْ، لدَىٰ الَّذِين يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مِنْ أَوْلياء اللهِ ذوي الكراماتِ، المُسْتَجَابِي الدَّعوات، الّذِينَ يُتَقَرَّبُ إِلَىٰ اللهِ بإكْرامِهِمْ وتَعْظِيمِهِمْ وَمَنْحِهِمْ مَا يُرْضِيهم، وهذا الاستغلال من كبائر الإثم الّتِي يَقْتَرِفُهَا مُدَّعُو الكرامات.

حتَّىٰ الَّذِينَ يُكْرِمُهُمُ اللهُ عزّ وجلَّ بِبَعْضِ خوارِقِ العاداتِ، يَجِبُ عَلَيْهِمْ أنْ لَا يَسْتَغِلُّوها لِتَحْقِيقِ مطالِبَ دُنْيَويَّةٍ لهم، فإنْ فَعَلُوا ذَلِكَ سَلَبَهُمُ اللهُ مَا تَوَلَّاهم بِهِ مِنْ مَعُونَةٍ وتَوفيقٍ وإكرام، لكِنَّهُمْ إذا نَصَرُوا بها دين الله، فإنَّ اللهَ يَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ، ومن إكْرامَاتِه، وحينئذٍ يكونُونَ أَوْلياءَ اللهِ حقّاً، بِشَرْط أَنْ يَكُونُوا مؤمنين متّقين.

﴿.. لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أرَىٰ أَنَّ هٰـذا مِـنْ ثوابِ اللهِ لهم يَوْمَ القيامَة. فَهُمْ يَوْمَئِذٍ لَا يُسَلَّطُ علَيْهِمْ مَا يُخِيفُهُمْ مِنْ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ فيهم، بَلْ يَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ مطمَئِنِّين، راضِينَ رَبَّهُمْ، وَمَرْضِيِّينَ بعَطَاءَاتِهِ، ومُبَشَّرِينَ بأَنَّهُمْ من أَهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، فَهُمْ سُعَداء بذلك. ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ علَىٰ شَيْءٍ فَاتَهُمْ من دُنْيَاهُمْ، إِذْ يَجِدُونَ التَّعْوِيض العظيم بما

أعَدَّ اللهُ لَهُمْ مِنْ أجْرٍ جَزِيلٍ يَصِلُ إلَىٰ سَبْعِمِئَةِ ضِعْفٍ فإلى أضعافٍ كَثيرةٍ أُخْرَىٰ يَنالونَها من فَيْض عطاءات ربِّهم الذي لَا تَنْقُصُ خزائِنُهُ مَهْما أفاضَ مِنْها على عباده.

الخوف: مشاعر نفسيّة فيها ألَمٌ وَقَلَق، من تَوَقُّعِ حُلُولِ مَكْرُوه، أو فوات محْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه. يقال لغة: «خاف مِنْ كذا ـ وخَاف على كذا ـ وخافَ كذَا على نَفْسِه أو غَيْرِه».

الْحُزْن: مَشاعِرُ أَلَمٍ في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمَدِ، بسبب مَحْبُوبٍ أو مَرْغُوبٍ فيه قد فات، أو بسَبَبِ مَكْرُوهٍ نَازِلٍ أَوْ مُتَوَقَّعِ النُّزُول، كالحُزْنِ على محكومٍ عليه بالقتل، وهُوَ قَرِيب أو حبيب.

وهو ضِدُّ الفرح والسُّرُور، يُقال: «حزَنَهُ الأمْرُ حُزْناً، وأحْزَنَهُ إحْزَاناً». قال الجوهري: حزَنَهُ لغَةُ قُرَيش، وأَحْزَنَهُ لُغَةُ تميم.

قولُ الله عزّ وجلّ في وَصْفِ أوليائه:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾:

ذكَرَ اللهُ عزّ وَجلَّ في هٰذِه الآيَةِ وَصْفَيْنِ أَسَاسَيْنِ هُمَا أَدْنَىٰ أَوْصَافِهِمْ، وهُمَا مِنْ حُقُوقِ مَرْتَبَةِ التّقْوى، وكُلَّما ارْتَقَتْ دَرَجَاتُهُمْ في مَرْتَبَةِ الْبِرِّ، فَمَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، زادَتْ وِلَايَةُ اللهِ لهم، وزَادَتْ عِنَايَتُهُ بِهِمْ، وَإِكْرَامَاتُهُ لَهُمْ مِنْ فُيُوضِ عَطَاءَاتِه المعنويّة، وَتَأييدِه ونَصْرِهِ المبينِ.

الْوَصْفُ الأوّل: أَنَّهُمْ آمَنُوا إِيماناً صَحِيحاً مُسْتَوْفِياً كُلَّ عناصِرِ الْإِيمان، المطلُوبِ مِنَ الناسِ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، ولَاقَوْا رَبَّهُمْ وَهُمْ كَذَٰلِكَ.

الوصْفُ الثاني: أَنَّهُمْ كانُوا في أعمالهم النَّفْسِيَّةِ والْجَسَدِيَّة يَتَّقُونَ عُقُوباتِ الله المقرَّراتِ عَلَىٰ المعَاصِي والمخالفات، وهٰذِهِ التَّقْوىٰ تكُونُ

بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهَ بِهِ أَمْرَ إلْزام، وباجْتِنَابِ ما نَهَىٰ اللهُ عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيم، ولَاقَوْا رَبَّهُمْ وهُمْ مُتَّقُون.

قول الله تعالَىٰ مُبَيّناً مَا يُطَمْئِنُهُمْ اللهُ بِهِ حتَّىٰ لَا يخافُوا وَلَا يَحْزَنُوا:

• ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٦٤)﴾:

الْبُشْرَى: اسْم يُطْلقُ على الشيء السّارّ المفرِحِ الّذي يأتي به الْخَبَرُ أو الْعِلْم.

أي: تُوَجَّهُ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ في الحياة الدُّنيا بما يلي:

(١) بالنُّصُوصِ القرآنيّة الكثيرة الَّتي فيها تَبْشِيرُ الّذين آمَنُوا واتَّقُوا بِجنَّاتِ النعيم التي أعدَّها الله لهم، إذْ يَدْخُلُونَها يَوْم الدِّين خَالِدِين.

(٢) بالبِشَارات الَّتِي تُبَشِّرُهم بها الملَائِكَةُ قُبَيْلَ قَبْضِ أرْواحِهِمْ وهُمْ يُحْتَضَرُونَ، كما ثَبَتَ هٰذا فِي الصحيح عَن النبي ﷺ.

وتُوجَّهُ لهم أيضاً الْبُشْرَىٰ فِي الآخِرَة بمُشَاهَدةِ مَنَازِلهم في الجنَّة، وبِبشَارَات الملائكة لهم بَعْدَ الموت، وعِنْدَ الْبَعْث، وفي مَوْقف الحشر، وَبَعْدَ الْحِسَابِ وَفَصْل القضاء.

وقد سبَقَ بيانُ هذا الموضوع بتفصيل لدَىٰ تَدَبُّر الآية (٢٢) من سُورَةِ (الفرقان/ ٤٢ نزول)[١].

• ﴿.. لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ .. (٦٤)﴾: أيْ: هَـٰذِهِ الْـبُـشْـرَىٰ لأولياء اللهِ سَوف يتحقَّقُ وُقُوعُها، إذْ هِيَ جُزْءٌ مِنْ كَلِمَاتِ اللهِ الَّتِي وَعَدَ اللهُ بها عبادَه المؤمِنينَ المتّقِينَ، وهيَ مُعَبّرَاتٌ عَنْ عِلْمِهِ، المستَنِد إلى تَقْدِيرِهِ وقضائِه، الْمُتَعَلِّق بجزَائِهِ لِعبادِهِ المؤمنين المتقين.

---

(١) انظر الصفحات من (٤٤٤ ـ ٤٥٢) من المجلّد السَّادِس المشتمل على تدبر سورتي (يٓس/ ٤١) و(الفرقان/ ٤٢).

• ﴿.. ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾:

الفَوْزُ: يأتي بمَعْنَىٰ النجاةِ من الشرِّ، وبمَعْنَىٰ الظَّفَرِ بما فيه ربح وسعادة.

أي: ذلِكَ الّذي يَتَحقق لَهُمْ مِمَّا بُشِّرُوا بِهِ هُو الْفَوْزُ العظيم الرفيع المنزلة.

وبهذا تم تدبر الدرس السادس عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على توفيقه ومدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.



(٢٠)
التدبّر التحليلي للدرس السابع عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٦٥ - ٧٠)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

القراءات:

(٦٥) • قرأ نَافع: **[وَلاَ يُحْزِنْكَ]** مِنْ فِعْلِ «أَحْزَنَه».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ﴾ من فعل «حَزَنَه».

قال الجوهري: «حَزَنَهُ» لغة قُرَيش، وأحْزَنَهُ لغة «تَمِيم».

تمهيد:

دلَّت الآيَةُ الأولَىٰ مِنْ هٰذا الدرس وهي (٦٥) على أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ كانُوا يُوَجِّهُونَ للرَّسُول ﷺ أقوالاً تُحْزِنُهُ، وأنَّها أقوالٌ يَسْتَهْزِئون فيها بضَعْفِ قوَّتِه وقُوَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، عَنْ دَفْعِ اضطهاداتهم، وهو يقُول: إنَّ اللهَ العزيز الّذي بِيَدِه مَلَكُوتُ السَّماوات والأرض مُؤَيِّدُه وناصِرُه.

فكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَرْبِيَتُهُ وتَرْبِيَةُ الّذِين يَشْعُرُون بِمِثْلِ مَشَاعِرِهِ من أصْحَابه، وقَدْ يَسْتَعْجِلُونَ تأييد اللهِ وَنَصْرَه.

فأوصَىٰ اللهُ رَسُولَهُ بأنْ لَا تَحزُنَهُ أقْوالُهم مهما اشْتدَّت وخَزَاتُها، وما تَشْتَمِلُ عليه من استهزاء بقوَّتِهِ وقُوَّة أصحابه.

وأبَانَ لَهُ أنَّ الْقُوَّةَ الغالِبَةَ فِي الْوُجود كُلِّهِ للهِ جميعاً، وأنَّهُ سَمِيعٌ لما يَدْعُو بِهِ هُو وأصْحَابُه، عَلِيمٌ بما يَتَعَرَّضُونَ له من اضطهاد، ولَكِنْ لم تقْضِ حِكْمَتُهُ بإنْزَالِ نِقْمَتِهِ بِمَنْ يضْطهدهم ويُعادِيهم.

وَأَبَانَ لَهُ أَنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاواتِ والأرْضِ مِلكُهُ، ومَشْمُولُونَ بِسُلْطَانِ عِزَّتِهِ وقَهْرِه، فحينما تقتضي حِكْمَتُهُ إنْزَالَ نِقْمَتِه بالظالِمينَ الْمُجْرِمين أنْزَلَهَا بِهِمْ علَىٰ وَفْقِ مَشِيئَتِه الحكيمة، وبالمقدار الحكيم.

وانْتَقَلَ الدَّرْسُ إلى بَيَانِ بَاطِلِ المشركين، لإشْعَارِ الرَّسُولِ والدُّعَاةِ من أصْحَابِهِ، بأنَّ رِسَالَةَ الإقْنَاعِ الْفِكْرِيّ لَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ في مَكَّة، بشَأْنِ تَهْدِيم

عَقِيدَةِ الشِّرْكِ عِنْدَ كَثِيرٍ من أتْباعِ أئِمَّةِ الشّرْك فيها، أي؛ إنَّ أئِمَّة الشِّرْكِ إذَا وَصَلُوا إلىٰ حالَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها من إيمانِهِمْ عن طَرِيقِ إراداتهم الحرَّة، فإنَّ أكْثَرَ أتْبَاعِهِم فيها لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، مَتَىٰ تَخَلَّصُوا مِنَ المؤثّراتِ الاجْتِماعيَّةِ الضاغطة عليهم، فَمُتَابَعَةُ هؤلاءِ بالْإِقْنَاع مُتَابَعَةٌ مُجْدِيَة، والصَّبْرُ عليهم مما تُوجِبُه الحكمة في الدَّعْوة.

فجاء في الدَّرْسِ التَّوْجيهُ الإقناعِيُّ لِهَدْمِ شِرْكيَّاتِ المشركين، وبيان بُطْلَانِ مُعْتَقَداتِهِم بالْأَدِلَّةِ الكاشِفَةِ، وبيان أَنَّ المشركين لَا يَتَّبِعُون إلَّا الظنونَ التَّوَهُّمِيَّة، الَّتي لَا تَثْبُتُ أمَام أصْغَرِ ضَرْبَةٍ مِنْ ضَرَباتِ الحقِّ، في صراع الجدالِ بالَّتِي هي أحْسَن.

وجاء في الدَّرْس مَوْعظة الكَفَرَةِ المشركين بالتَّرْهِيب بعذاب اللهِ الشديد يوم الدين.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى لرسوله ﷺ:

- ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

الحزْنُ: ضدّ الفرَح والسُّرور، وهو مشاعِرُ ألم في النَّفْسِ طَوِيلِ الأمدِ، ومن أسبابِهِ مَكْرُوهٌ حَصَل، قَدْ مسَّ النّفْسَ بألَم.

الْعِزَّة: هي القوَّةُ الغالبة.

السّمِيعُ: صيغَةُ مبالَغةٍ للسّامع، وهو من أسماء اللهِ الحسْنَى، ويَدُلُّ على أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسْمَعُ دَواماً في الوجود كُلِّه، كُلَّ شَيءٍ قابلٍ لأَنْ يُسْمَع، مَهْمَا كَانَ ضئيلاً أو عظيماً.

العليم: صيغة مبالَغةٍ للْعَالم، وهو من أسماء الله الحسنىٰ، ويَدُلُّ على أنَّ اللهَ عزّ وجلَّ يَعْلَمُ دَواماً كُلَّ شيءٍ عَلَىٰ مَا هُوَ عَلَيْهِ في الواقع.

وقول الله لِرَسُوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ يَدُلُّ علىٰ أنَّ كُبَرَاءَ كُفَّارِ مَكَّةَ كَانُوا إبَّانَ التَّنْزِيلِ يُطْلِقُونَ وَيُرَدِّدُونَ وَيُشيعُونَ أقْوالاً تُحْزِنُ الرَّسُولَ ﷺ.

ودَلَّ قولُ اللهِ عزّ وجلَّ عَقِبَهُ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ علىٰ أنَّ الأقوال الّتي كانت تُحْزِنُهُ قُبَيْلَ نُزُولِ سورة (يُونس) وعِنْدَ نُزُولها، تَتعَلَّقُ بِضَعْفِهِ وضَعْفِ الّذِينَ آمَنُوا به واتّبَعُوهُ عَنْ مواجَهَةِ عِزَّةِ الكَفَرَةِ الَّتي يَعْتَزُّون بها وَيَضطهِدُونَ بها المؤمنين، ورُبما قالُوا: لَوْ كان صادقاً في أنَّه نبيٌّ نبَّأَهُ الله، ورسُولٌ أرْسَلَهُ لنَصرَهُ، ونَصرَ الّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، ولَمَا مَكَّنَ الكافِرِينَ بما جاءَ به من اضطهادهم وتَعْذِيبهم.

فقال الله عزّ وجلّ لرسوله وللمؤمنين وللكافرينَ ولكُلِّ الناس:

﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: إنَّ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ فِي الْوُجُودِ كُلِّه حتَّىٰ مَا كَانَ مِنْهَا في مِلْكِ عبادِهِ بتَمْلِيكِ اللهِ لَهُمْ شيئاً مِنْ قُوَّتِه ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ هِيَ مِلْكٌ لِلَّهِ يَتَصرَّفُ بِها كَيْفَ يَشَاءُ ضِمْنَ مَجَارِي حِكْمَتِه، ومِنْ تَصرُّفه الحكيم تَمْلِيكُ الكَفَرَةِ والظَّالمين، بَعْضَ الْقُوَىٰ في حَيَاةِ الابْتِلَاءِ، لِيَمْتَحِنَ النَّاسَ فيما آتاهم، وليُمَحِّصَ المؤمِنِينَ، ويُمَيِّزَ الصَّادِقين. ولفظ ﴿جَمِيعًا﴾ حَالٌ للعزّة.

وبما أَنَّ اللهَ عزّ وجلَّ سَمِيعٌ لما يَقُولُه الكافِرونَ ويُشيّعُونه ضِدَّ الرَّسُول وضدَّ الَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وعليم بمكْرِهم وكيْدِهم وتَدْبيراتِهم الظالمات الآثمات، وسَمِيعٌ لما يَقُولُهُ الرَّسُولُ والمؤمِنُون، وعَلِيمٌ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ وَمَشَاعِرِهم، خَتَمَ اللهُ عزّ وجلّ الآيَة بِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ مُتَّصِلاً بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فاللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ هو السَّمِيعُ دواماً لِكُلّ مَا هو قابلٌ لأَنْ يُسْمَعُ في الْوُجُودِ كُلِّه، الْعَلِيم بكُلِّ شيء.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ .. ﴿٦٦﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾: أداةُ استفتاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيق، وسبَقَ قَرِيباً تَتِمَّةُ الْكَلام حوْلَها.

أي: انْتَبِهُوا واعْلَمُوا متحقِّقينَ أَنَّ كُلَّ مَنْ في السَّمَاواتِ مِنَ مَلائِكَة، وأَنَّ كُلَّ مَنْ في الأرْضِ من ملائكة وإنْسٍ وجِنٍّ، هُمْ مِلْكٌ لِلَّهِ وعبيدٌ لَهُ، لأنَّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، ولا بقاء لهم إلَّا بإمدادٍ مِنْهُ لهم بالبقاء، فلا تَشُكُّوا في حِكْمَةِ اللهِ رَبِّكُمْ بإمْهَالِ أعْدَاءِ دَعْوَةِ الحقّ، التي بعَث اللهُ بها رسُولَهُ.

«مَنْ» اسم موصول مَوْضوع في الأصل لذي الْعِلْم، وهو مِنْ أَلْفَاظِ الْعُمُوم.

والَّذِين نَعْلَمُ أَنَّهُمْ في السَّمَاوات هم الملائكة، والّذين نَعْلَمُ أَنَّهُمْ في الأرض من ذوي العِلْم هم ملائكة وجِنٌّ وإنْس.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿.. وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾:

بَعْدَ البيان السَّابِقِ الّذي ظهر أنّ المقصودَ بِهِ طَمْأَنَةُ الرسولِ ﷺ وأصحابه، وتَسْلِيَتُهُمْ، اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ حضَّ الرَّسول وأصحابِهِ عَلَىٰ مُتَابَعَةِ مُجَاهَدَةِ الكافرين، رجاءَ إقناعِهِم ببُطْلَانِ مذاهِبِهِمُ الشِّرْكيَّةِ، إذْ جَمَاهِيرُ أتْبَاعِ أئمَّتِهِمْ لَمْ يَصِلُوا إلَىٰ حَالَةٍ ميؤوسٍ مَعَها من إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيق إراداتِهم الحرَّة، بَلْ لَدَيْهِم الاسْتِعْدَادُ الْقَلْبِيُّ لأنْ يُؤْمِنوا، وهذا ما تحقَّقَ في السَّنواتِ اللّاحِقات، وَعِنْدَ فَتْحِ مَكَّةَ دَخَلَ معظمهم في الإسلام، بَعْدَ أَنْ أَهْلَكَ اللهُ أئِمَّةَ الكُفْرِ والْفُجُور والطُّغْيان في مكّة.

فأَبَانَ اللهُ عزّ وجلَّ ثلاثَ قَضَايَا، هي ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ لحقيقةٍ واحِدَة،

مفَادُهَا إبْطَالُ شِرْكِ المشركين، وبيانُ أنَّهُ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ولَا شبهة حقيقة.

القضيَّة الأولى: دَلَّ عليها قول اللهِ عزّ وجلّ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾:

أي: إنَّ الّذِينَ يَعْبُدون آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، مَا يَتَّبِعُونَ فِي عبادَتهم شُرَكَاءَ للهِ عزّ وجَلَّ، لَا في رُبُوبيَّتِهِ ولَا فِي إلَهيَّتِه.

﴿يَدْعُونَ﴾: أصل الدُّعاء في اللُّغَةِ النّداء، ويأتي بمعنَىٰ الرَّغْبَةِ إلَىٰ اللهِ والطلَب منْهُ لِأُمُورِ الدُّنيا أو الْآخِرَة، ويأتِي بِمَعْنَىٰ مُطْلَقِ الْعِبَادَة، والظاهر أنَّ هذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من أشياء غير الله هي بطبيعَتِها تقَعُ دُونه، في مقابل اتّصافه ـ جلَّ جلالُهُ ـ بالْفَوْقِيَّةِ المطلقة، إذْ هو الْعَلِيُّ الأعلى.

﴿شُرَكَآءَ﴾: أي: شُرَكَاءَ لِلَّهِ في رُبُوبيّتِه، أو في إلَهيَّته.

القضيَّة الثانية: دَلَّ علَيْها قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾: أي: مَا يَتَّبِعُونَ في عبادَتِهم لآلِهَتِهم من دُون اللهِ إلَّا الظَّنَّ التَّوَهُّمِيَّ السَّاقِط، الَّذي تَرْفُضُ العقولُ السَّلِيمةُ الاعتماد علَيْه، لإثباتِ قضيَّةٍ ما، وهذا الظَّنُّ التَّوَهُّمِيُّ هو أضعف الظنُون.

ودَلَّ علىٰ أنَّهُ ظنٌّ تَوَهُّمِيٌّ أَنَّ المشركين لم يُقَدِّمُوا دَليلاً طوالَ دَمْغِهِمْ بالبراهين السَّوَاطِع، إلَّا أنْ يَقولُوا إنَّا وَجَدْنا آباءَنَا يَعْبُدُونَ هٰذِه الآلِهة فَعَبَدْنَاها، وظاهِرٌ أَنَّ هذا تَقْلِيدٌ أعمَىٰ، وهُوَ يَعْتَمِدُ على ظَنٍّ تَوَهُّمِيٍّ، وهو أضعفُ الظنُون السَّاقِطَةِ في موازينِ العقول.

«إنْ» حَرْف نفي مثل «ما».

القضيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عزّ وجل: ﴿.. وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: وَمَا هُمْ إلَّا يَكْذِبُون في ادّعَاءاتهم أَنَّهُمْ يَنْتَفِعُونَ

بعباداتِهِم لآلِهَتِهم، في مصالح دُنياهم، كقضايا الرِّزق، والصِّحَّةِ والسَّلَامَة، والنَّصْرِ على الأعْداء، وإنجاب الذُّرِّيَّة، ونَحْوِ ذلِكَ، فادّعاءاتُهُمْ في كُلِّ ذلِكَ ادّعاءاتٌ كاذِبَات، لا أَسَاسَ لَهَا من الصِّحَّة، يَفْتَرِيهَا سَدَنَةُ أَوْثَانِهِم، والدُّعَاةُ المنْتَفِعُونَ من شِرْكِيَّاتِ المشْرِكين.

الْخَرْصُ: هو في اللُّغَةِ الكذِب. يقال لغة: «خَرَصَ يَخْرُصُ» أي: كذَب. وكُلُّ مَا جاء في القرآن من مادّة «خَرَصَ» فَهُوَ بمَعْنَى «الكذب».

وقَدْ يأتي الْخَرْصُ في اللُّغَةِ بِمَعْنَى التَّقْدِير بالظَّنّ، كَخَرْصِ مقدارِ الثَّمَرِ وهو علَىٰ شجَرِه، وكَخَرْصِ مِقْدار حَبِّ الزَّرْع قَبْلَ حصاده، ولم يأت في القرآن المجيد بهذا المعنى، بل جاء بمعْنى الكَذِبِ المفترىٰ به على الحقيقة.

قول الله عزّ وجل خطاباً للنّاس جمِيعاً ومنهم المشركون المعنيّونَ بالمعالجة:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

سبق أنْ أنزل الله عزّ وجل في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قولَهُ بشأن آيَتي اللَّيْل والنهار من آياتِ الله الإنْعاميّة على عباده في كونِه:

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُ هٰذِه الآية في موضعِها من سُورَة النمل، ويُلاحظُ المتدبِّرُ المتأنّي أنَّ بَيْنَ هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تكامُلاً في الأُسْلُوب البياني وَتكامُلاً فِكْرِيّاً.

فآيَةُ سُورَةِ (النمل) بدأَتْ بالاسْتفهامِ التَّعْجيبي من أمْرِ الكافِرِينَ الّذِينَ

لم يَسْتَفِيدُوا من آيَتي اللَّيْلِ والنَّهارِ في دَلَالَتِهِمَا على توحيدِ رُبُوبِيَّة اللهِ في كونه، المسْتَلْزِم عَقْلاً تَوحيدَهُ في إلَهيّته.

أمّا آية سُورَة (يونس) فجاءت بأسْلُوب بيان هٰذِهِ الحقيقة بياناً إخْباريّاً، وهذا من التنويع الْبَديع في الأسْلُوبِ البيانيّ حوْلَ قضيَّةٍ واحِدَة.

وآيَةُ سُورَةِ (النمل) أبانَتْ أَنَّ في اللَّيْلِ والنّهارِ آياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون، أي: لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا إذَا تَفَكَّرُوا وَتَدَبَّرُوا، وهذا يُناسبُ حَال الّذِينَ توجَدُ لَدَيهم دوافع ذَاتية للبحث التفكُّرِي دُون تعليم.

أمّا آية سورة (يونُس) فقد أبانت أنّ في اللَّيْل والنهار آياتٍ لقوم يَسْمَعُون، أي: لَدَيْهِمُ الاستعداد لأنْ يُصْغُوا إلَىٰ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ يُحَدِّثُهم، ولأنْ يُوصِلُوا مَا سَمِعُوهُ بآذانِهم إلى مَرَاكِزِ سَمْعِهِم دَاخِلَ نُفُوسِهِم، ويُحَاكِمُوهُ بموازينِ عُقُولهم، فَيُؤْمِنوا بأنّه حق، وهذا يُنَاسِبُ حَال الّذين يَحْتَاجُونَ إلَىٰ مَنْ يُسْمِعُهُمْ أدِلّة الحقّ، وهم الّذِينَ لا تُوجَدُ لَديهم دَوَافع ذَاتِيَّة للبحث التفكُّرِيِّ دون تعليم، فَهُمْ يَحْتَاجُون إلى مَنْ يُسْمِعُهُمْ شَرْحاً مُفَصّلاً لِآيَاتِ اللهِ في كونه، ويُبَيِّنُ لهم أدِلَّة هٰذِهِ الآيَات على صفاتِهِ الجليلةِ، وإنعاماتِه على عباده.

فالمعنىٰ: اللهُ هُو الَّذي جَعَلَ لَكُمْ بِتَقْدِيرِهِ الحكيم وقضائِه وخَلْقِه، اللَّيْلَ الّذي يكُونُ بِغِياب الشَّمْسِ وغيابِ امْتِدَادِ أشِعَّتِهَا عمّا غابَتْ عنه من الأرض، لِتَسْكُنُوا فيه عَنْ حَرَكَةِ الْعَمَل والكَدْحِ لِكَسْبِ أَرْزَاقِكُمْ وتحقيقِ مصالحَ كثيرةٍ لَكُمْ مِنْ فَضْلِ رَبّكم، ومن السُّكُونِ مَنَامُكُمْ فيه، وهُو الّذي جَعَلَ لَكُمُ بتَقْدِيرِه الحكيم وقضائِه وخَلْقِهِ النَّهارَ مُبْصِراً لَكُمْ بِضِيَائه، كاشفاً لكم الأشياءَ الَّتي تُرِيدونَ إبْصارَها بأعْيُنِكُمْ، فهو بضيائه يَجْعَلُكُمْ تُبْصِرُون.

وفي استعمال فعلِ «جَعَلَ» إشارَةٌ إلَىٰ أَنَّ خَلْقَ المجموعَة الشمْسِيَّةِ قد كان أوّلاً، ثُمَّ جعل الله عزّ وجلّ بتدبيره الحكيم الأرضَ المظلِمَةَ تَدُورُ

حَوْلَ نَفْسِها باتّجاه الشَّمْسِ ضِمْنَ نِظَامٍ مُعَيَّن، وبِحَرَكَةِ الدَّوَرَانِ هٰذِهِ تَحَقَّق وُجُودُ اللَّيْلِ والنّهار بنظامٍ تَعَاقُبِيٍّ حَكِيم.

ولعلماء الكون بحوثٌ علميّة دقيقة تكشفُ حكمةَ الله في جعله الليل والنهار نظاماً متقناً ملائماً لما فطر الناس عليه.

إنَّ فِي بيانِ ذَلِكَ وَشَرْحِهِ، وتَحْلِيلِهِ تَحْلِيلاً عِلميّاً، وبيانِ عنايةِ اللهِ بعباده فيه، من قِبَلِ الدُّعَاةِ الشارحِينَ، لآيَاتٍ دَالّاتٍ على عظيم صفاتِ اللهِ وعظيم رحْمَتِه بعباده، ودَالّاتٍ على أنَّهُ واحِدٌ في رُبُوبيّتِه للكَوْنِ لَا شَرِيكَ لَه، فَهُو واحِدٌ في إلَهيَّتِهِ للعَابِدِينَ لَا شريكَ لَهُ فِي إلَهِيَّتِهِ الحقّ، وَهٰذِهِ الدَّلَالَاتُ يَنْتَفِعُ بها الَّذِين هُمْ مُسْتَعِدُّون لأَنْ يَسْتَمِعُوا إلَىٰ شَرْح وبيانات الدُّعَاةِ إلَىٰ الله، ويُوصِلُوا مَا سَمِعَتْهُ آذانُهُمْ إلى مَرَاكِزِ السَّمْعِ الواعي المتَفَهِّم دَاخِلَ أدْمِغَتِهِم، ويَنْقُلوها إلى قُلُوبهم فَيُؤْمِنُوا بما وَعَوْا مِمّا يجب عليهم أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ من أَرْكان العقيدة الإيمانيّة في الدّين الّذي اصطفاه اللهُ لعباده.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجلّ يَحْكِي بَعْضَ افتراءات المشركين على رَبّهم، بادّعاء أنَّهُ اتَّخذَ ولداً، مَعَ الرَّدّ عليه:

﴿قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَـٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَـٰنٍۭ بِهَـٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

سبَق لَدَىٰ تَدَبُّر الآيات من (٢٦ ـ ٢٨) من سورة (النجم/٥٣ مصحف/٢٣ نزول) بيانُ اتّخاذ بَعْضِ المشركين بَعْضَ الملائِكة آلِهَةً من دُونِ اللهِ، فَهُمْ يَعْبُدونَهُمْ ليكونُوا شُفَعَاءَ لَهُمْ عِنْدَ الله، وبيان اعتقادِ بَعْضِهِم الباطلِ أَنَّ الملائكة بناتُ اللهِ، وَسَبَقَ تَدَبُّر ما جاءَ فيها من رَدٍّ لِأَوْهامهم، وإبطالها بالأدِلَّةِ الكافية للإبطال.

وجاء هنا في الآية (٦٨) من سورة (يونس) توسُّعٌ في الرَّدّ على

الّذين كانُوا إبَّان التَّنْزيل يَزْعُمُونَ أَنَّ الملائكَةَ بَنَاتُ اللهِ، يُلائِمُ حالَةَ إصرارِهِمْ على باطِلِهِمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ مِنَ القرآنِ المجيد خمسونَ سُورَةٍ، فيها من المفهومات ما يَكْفِي لتصحيح المقاييس الفكريَّةِ لَدَىٰ المبْطِلِين، إذْ جَاءَتْ فيها حِوَارَاتٌ كافياتٌ من الجدالِ بالَّتي هي أحْسَن لتَصْحِيح المقاييس الفكريَّة لدى المناظرين.

• ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾: أي: قَالَ طَائِفَةٌ من المشركين: إنَّ الملائكَةَ بناتُ الله، وتشعر كلمة «اتّخَذَ» باحْتِمَالِ أنْ يكونَ قد اتّخَذَ ولَداً بالتبني ممّا خَلق.

كَلِمَةُ: «وَلَد» تُطْلَقُ في اللُّغَة على كُلِّ مَوْلُودٍ، ذكراً كان أمْ أنْثىٰ، وتُطْلَقُ على الواحد، والمثَنَّىٰ، والْجَمْع.

• ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾: أيْ: تَنَزَّهَ عَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً، إذْ هُوَ الْغَنِيُّ بِذَاتِه وصِفَاتِهِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ سِوَاه، فَهُو لَا تَكُونُ لَهُ صَاحِبَةٌ يَحْتَاجُ إلَىٰ مُعَاشَرَتِها كالإنْسِ والجنّ، ولَا يَحْتَاجُ أَنْ يُنْجِبَ مِنْ ذَاتِهِ وَلَداً يُرْضِي عَاطِفَتَهُ نَحْوَ ذُرِّيَّةٍ تَنْفَصِلُ جُرْثُمتُها عَنْ ذَاتِهِ، أو يَسْتَعِينُ بها فِي رُبُوبيَّتِهِ وَتَصاريفه لكونه، ولَا أَنْ يَتَبَنَّىٰ مَخْلُوقاً من مَخْلُوقاته في السماوات والأرض، بَلْ كُلُّ مَا خَلَقَ مِلْكُهُ، وذَوُو العلم منهم عَبِيدُه.

﴿سُبْحَانَهُ﴾: **التسبيح**: التنزيه والتقديس عن كُلِّ ما لا يَلِيقُ باللهِ عزّ وجلّ من صفات النقص، الّتي تتنافى مع أزليَّتِهِ، فالتَّسْبِيحُ تَمْجِيدٌ للهِ بالصفاتِ السَّلبيّة، وهو عكْسُ التوقير الذي هو تمجيد للهِ بالصّفات الوجوديّة.

قال النحاة: «**سُبْحان**»: اسم علَمُ لمعنى البراءة والتنزيه.

ورَوَىٰ الأزْهَري بإسناده: أنَّ ابْنَ الكَوّا سأل عليّاً رضوان الله عليه، عن «**سُبْحانَ الله**» فقال: كلمَةٌ رَضِيَها اللهُ لِنَفْسِه فأوصَىٰ بها.

• ﴿.. لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ .. ﴿٦٨﴾﴾: أي: كُلُّ مَا في السَّمَاواتِ والأرض مِنْ أشياء وأحْيَاء ولَوْ كانُوا مِنْ ذوي الْعِلْم مَمْلُوكُونَ لَهُ، إذْ كُلُّهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِهِ، فَهُمْ مِلْكُهُ، وَلَا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ المَخْلُوقُ المَمْلُوكُ لخالِقِهِ وَلَداً لَهُ، بل هو عَبْدٌ مِنْ عَباده إذا كان ذا حياةٍ وعِلْم، إنَّ الْوَلَدَ جُزْءٌ مِنَ الذَّاتِ مُنْفَصِلٌ عَنْها، واللهُ أحَدٌ، لم يَلِدْ ولم يُولَد، أمّا مَخْلُوقَاتُ اللهِ فقَدْ وُجِدَتْ مِنَ الْعَدَمِ بأمْرِ التَّكْوين، فَهِيَ أَثَرُ الْأَمْرِ التَّكْويني لِمَا قَدَّرَ اللهُ وقَضىٰ أَنْ يَخْلُقَه.

وَتَوَجَّهَ الله عزّ وجلّ للقائِلِينَ اتَّخَذَ اللهُ وَلداً فقالَ لَهُم:

• ﴿.. إِنۡ عِندَكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭ بِهَٰذَآۚ .. ﴿٦٨﴾﴾: أي: مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حُجَّةٍ تَحْتَجُّونَ بِهَا تُسَوِّغُ لكُمْ ادّعَاءَ أَنَّ اللهَ اتَّخَذَ وَلداً نَسبيّاً، أَوْ وَلَداً بالتَّبَنِّي.

«إنْ» حرْفُ نَفْيٍ بمعنى «ما» النافية. «سُلْطان»: أي: حُجَّة وبرهان. وهذا هو المعنى المراد هنا. ويأتي السُّلْطان بمعْنَىٰ الْقُوَّةِ والْقَهر.

و«مِنْ» في ﴿مِّن سُلۡطَٰنِۭ﴾ مزيدَة لتوكِيد عموم النفي والتنصيص عليه.

• ﴿.. أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾؟! استفهامٌ فيه معنَىٰ التثْريب والتّوبيخ لهم، إذْ قالوا بِدُونِ عِلْم: إنَّ اللهَ اتَّخَذَ ولداً، وهو جلَّ جلالُهُ مُنَزَّهٌ عن أنْ يتَّخِذَ ولَداً بالوِلَادة، أو بالتبنِّي، فَقَوْلُهُمُ الباطِل كذِبٌ مفْتَرَىٰ افتَرَوْهُ علَىٰ اللهِ رَبِّهم، وهو أَحَدُ وجُوه الكفر به، تبارَكَ وَتعالَىٰ عمَّا يقُولُونَ عُلُوّاً كبيراً.

وبَعْدَ أَنْ واجَهَهُم اللهُ عزّ وجَلَّ بالخطاب، أعْرضَ عَنْهم، وأمَرَ رَسُولَهُ أنْ يقول لهم محذّراً ومُنْذِراً لَهُمْ بعَذَابٍ أليم:

• ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٞ فِي

ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

• ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾: أي: يَخْتَلِقُونَ الكَذِبَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِم اخْتِلَاقاً، ويَقْذِفُون بِهِ على الله الْعَلِيّ الأعْلَىٰ بارِئِهِم ومُصَوِّرهم ومُمِدِّهِم دواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، فَيَصِفُونَ اللهَ بِما يَسْتَحِيلُ عقْلاً أنْ يَتَّصِفَ به، أو يَتَقَوَّلُونَ عَلَيْهِ أقْوالاً لَمْ يَقُلْها، ويَزْعُمُونَ أَنَّها من أقوال الله، أَوْ يَضَعُونَ مِنْ عِنْدِهِمْ أحْكَاماً مِنَ الْحَرَامِ والْحَلَالِ، ويَزْعُمُونَ أَنَّهَا أَحْكَامٌ مِنْ أَحْكَامِ اللهِ في دينِه لعباده.

«الكَذب» مَفْعُول به لِيَفْتَرُون.

• ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾: أي: لَا يَظْفَرُونَ بما يُرِيدُون، من نجاة من العذاب، وفَوْزٍ بما يُسْعِدُهم. يقالُ لُغَةً: «فَلَحَ يَفْلَحُ فَلَاحاً» و«أَفْلَحَ يُفْلِحُ إِفْلَاحاً» أي: ظَفِرَ بِمَا يُرِيد، ويُرادُ به في الاسْتِعْمَالِ القرآنِيّ النجاةُ من عذابِ الله، والفوزُ بنَعِيمِ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين.

﴿مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا﴾: أي: مَا يَتَقَلَّبُونَ فِيهِ ممَّا يَطِيبُ لَهُمْ ويَلَذُّ لَهُمْ، هُوَ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ضَئِيلٌ زَائِلٌ في الدنيا. لفظ «متاع» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: ما هم فيه متاعٌ في الدنيا.

المتاع: هو ما يُنْتَفَعُ بِهِ قَلِيلاً، ومَصِيرُهُ إِلَىٰ الزَّوالِ والفناء، ولَا بقَاءَ لِنَوْعِهِ ولا لِجِنْسِهِ.

• ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾: أي: وَفِي نِهَايَةِ رِحْلَتِهِمْ في الحياة الدنيا يَمُوتُونَ كما هُمْ يَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِين، ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ الْبَرْزَخِ الَّتِي تَكُونُ إِقَامَتُهُمْ في مدافِنِهم خلالَهَا مَهْما طَالَتْ، بِمَثَابَةِ زِيَارَةٍ لَا بَقَاءَ لَهَا بقاءً دائماً، نَبْعَثُهُمْ فنُحْيِيهم الحياةَ الأخرى، لِيَكُونَ مَرْجِعُهُمْ إِلَىٰ سُلْطَانِنَا القاهر، إِذْ نُحَاسِبُهُم ونَفْصِلُ الْقَضَاءَ بَيْنَهُمْ، وَنَحْكُمُ عَلَيْهِم يَوْمَئِذٍ بأَنَّهُمْ كَانُوا كافِرِين

في رِحْلَةِ امتحانهم، ونَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِأَنْ نُذِيقَهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ في دَارِ عَذَابِ الكافِرِينَ المجْرِمين.

﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: ثُمَّ نُنَفِّذُ فيهم مَا حَكَمْنَا عَلَيْهِم بِهِ من العذاب الشّدِيد، بِسَبَبِ ما كانُوا يَكْفُرُونَ كُفْراً إراديّاً بما أَوْجَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يُؤْمِنُوا بِهِ، دُونَ أَنْ يكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ ما بِكُفْرهم.

فيأمُرُ اللهُ عزَّ وَجلَّ الْمَلَائِكَةَ المكلَّفِين بِسَوْقِهِمْ إلى جَهَنَّم، وإلقائهم فيها كَبّاً على وُجُوهِهِمْ، فَيَهْوُونَ فِي هَاوِيتها، حَتَّىٰ يَصِلَ كُلٌّ مِنْهُمْ إِلَىٰ دَرَكَتِهِ الملائِمَةِ لمَا أَسْلَفَ مِنْ جرائمَ في الحياة الدُّنيا.

فاشتمل هذا التعليم الرَّبَّاني للرسُول ﷺ، ويُلْحَقُ به الدُّعاة إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، عَلَىٰ بيانِ وَشَرْح أربع قضايا:

القضيّة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

القضيّة الثانية: ﴿مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ما يتمتعون به.

القضيّة الثالثة: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾.

القضيّة الرابعة: ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس السابع عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه ومَدَدِه وتَوفيقه ومَعُونته.

❁ ❁ ❁

(٢١)
التدبّر التحليلي للدرس الثامن عشر من دُروس سورة (يونس)
الآيات من (٧١ ـ ٩٣)

وفيه ثَلَاثَةُ فصول:

الفصل الأول
لقطات من قصّةِ نُوح عليه السّلام وَقَوْمه
الآيات من (٧١ ـ ٧٣)

قال اللهُ عزّ وجل خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

القراءات:

(٧١) • قرأ رُوَيْس: **[فَاجْمَعُوا]** مِنْ فِعْلِ «جَمَعَ يَجْمَعُ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ مِنْ فعل «أَجْمَعَ يُجْمِعُ».

ومؤدّى القراءَتَيْنِ واحد، يقالُ لُغَة «جَمَعَ فُلَانٌ أمْرَه» أي: جمَعَ المتفرّق منه، وضمّ بعْضَهُ إِلَىٰ بعض، وعزَمَ عليه، ويقال: «جَمَعَ القَوْمُ لأعدائهم» أي: حَشَدوا مقاتِليهم وقُواهم لقتال أعدائهم.

ويقال لغة: «أَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ» أي: قومُوا بعملكُمْ مجتمعين غير متفرّقين.

فالمعنى من القراءتين: اجْمَعُوا المتَفرِّق مِنْ أَمْرِكُم واحْشُدُوا مَا شئتم، وقُومُوا بِعَمَلِكُمْ ضدِّي مجتمعين غير مُتَفرِّقين.

(٧١) • قرأ يَعْقُوبُ: [وَشُرَكَاؤُكُمْ] بالرَّفْع عطفاً علَىٰ ضمير ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ﴾ أي: ولْيُجْمِعْ شُرَكَاؤُكم الّذِين اتَّخَذْتُموهم آلِهةً من دُونِ اللهِ أَمْرَهم أيضاً.

وقَرَأها باقي القرّاءِ العشرة بالنَّصْبِ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ علىٰ تقديرِ: وادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ، أَوْ على أنَّ الواو هي واو المعيّة.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

(٧١) • قرأ يَعْقُوب: [تُنْظِرُونِي] بإثبات ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بحذف ياء المتكلم، ومثْلُ هذا الحذف كثير في القرآن، وهُوَ من أساليب العربيَّةِ في الإيجاز.

(٧٢) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وحفْصٌ، وأبُو جَعْفَر: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا﴾ بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

فتح ياء المتكلّم وإسكانُها وَجْهانِ عَرَبيان.

تَمْهيد:

اتْباعاً لِمَا جَاءَ في الآيـة (٦٥) الَّتي قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيها لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾.

عَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَتْلُو علَىٰ أئِمَّةِ المشْرِكينَ المعتزّينَ بِقُوَّتهم، والمستهزئين المحْتَقِرِين لِقُوَّةِ الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، وعَدَمِ

قُدْرَتِهِمْ علَىٰ الدِّفاعِ عَنْ نُفُوسِهِمْ ضدَّ مَا يُواجِهُونَ من اضطهاد المشركين، لقطاتٍ من قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام وقومه، جاءَ فيها بَيَانُ مَوْقِفِه تُجاهَ تَحَدِّيَاتِ قَوْمِهِ لَهُ، بأن يَرْجُموه، فقال لهم نوحٌ عليه السَّلام أجْمِعُوا أمْرَكم، واحْشُدُوا من الجنود والْقوىٰ مَا شئتم وَلا تُمْهِلُوني.

فَنَصَرَهُ اللهُ، فأنجاه والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بأنْ رَكِبُوا فِي السَّفِينَة الَّتِي أمَرَهُ اللهُ أَنْ يَصْنَعَهَا، وأغْرَقَ كُفَّارَ قَوْمِهِ جَمِيعاً، بالطوفان العظيم الّذِي أغْرَقَ بِهِ الْأَرْض.

وفي هذا البيان تحذيرٌ واضِحٌ لمشركي مَكَّةَ، بأَنَّهُمْ إذا وَصَلُوا إلى مِثْلِ الحالَةِ الّتي وصَلَ إلَيْهَا قَوْمُ نُوحٍ، أنْزَلَ اللهُ عزّ وجلّ بِهِمْ عذاباً مُهْلِكاً مُسْتَأْصِلاً.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزّ وجل لرسوله ﷺ:

• ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾:

أي: تابعْ يَا مُحَمّد تَأْدِيَةَ وَظيفَتِكَ الدَّعَوِيَّةِ فِي جُمْهُورِ مُشْرِكي قَوْمِكَ في مَكَّة، كَمَا أبَنَّا لَكَ في السُّورَةِ قَبْلَ هٰذا النَّصّ، ولَوِّحْ لِأَئِمَّتِهم وكُبَرائِهم بأَنَّهُمْ اقْتَرَبُوا بِاعْتِزَازِهِمْ بِقُوَّتِهم وتَحَدِّيك وَتَحَدِّي الّذين آمَنُوا بكَ واتَّبعُوكَ، إلَىٰ حَالَةٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ قَوْم نُوحٍ الّذينَ أنْذَرُوهُ وتوَعَّدُوهُ بالْقَتْل، فَلَمْ يَعْبأْ بِهِمْ،، بَلْ تَحَدَّاهُمْ بأنْ يُدَبِّروا مَا يَشَاؤُون، وبأنْ يَفْعَلُوا للتَّخَلُّص مِنْهُ ومن الّذينَ آمَنُوا بِهِ مَا يَشَاؤُون، ولَا يُمْهِلُوه، وأعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ إليهم رَسُولاً قَدْ تَوكَّلَ، فكانَتِ النتيجة أنْ أنجاه اللهُ وَنَصَرَهُ، وأَهْلَكَ كُفَّارَ قَوْمِه بالطُّوفان.

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾: الْوَاوُ عاطفة على ما جاء في الآية (٦٩) والتي بَعْدَها.

التلاوة: النُّطْقُ بألْفَاظِ مَا أمَرَهُ اللهُ بأنْ يَتْلُوه، تَتَبُّعاً لِحُرُوف وكَلِمَات مَا أوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلَيْهِ وأمَرَه بتِلَاوَتِه.

أصل مَعْنى فعل «تلا يَتْلُو تُلُوّاً» تبعَ. واسْتُعْمِلَ بمعْنَىٰ النُّطقِ بِآيات القرآن مع التَّتَبُّع الكامل لحرُوفه وكلماته وآياته.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يَعُودُ على المعْنِيِّينَ بالمعالجة في السورة، وهُمْ أئِمَّةُ الشِّرْك والتكذيب في مكَّة، الَّذين يَعْتَزُّون بِقُوَّتهم الغالِبَة، وَيَهْزَؤونَ ويَسْخَرُونَ مِنْ ضَعْفِ الرَّسُولِ وأتْباعه المؤمنين.

• ﴿نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ﴾: أي: خَبَرَ نوح ذَا الشَّأْنِ العظيم الكائنَ حينَ قالَ لِقَوْمِه الّذينَ تَوَعَّدُوه بأنْ يَقْتُلُوه رَجْماً بالحجارة إنْ لَمْ يَنْتَهِ عَنِ الدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ بَيْنَهُمْ، ومُقَاوَمَةِ شِرْكِيَّاتِهم الباطلات.

• ﴿يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ .. ﴿٧١﴾﴾.

يُقال لغة: «كَبُرَ، يَكْبُرُ، كِبَراً، وَكَبَارَةً» أي: عَظُمَ وَجَسُم. ويُقَالُ: «كَبُرَ الأَمْرُ» أيْ: عظُمَ عِظَماً مَعْنَوِيّاً.

مَقَامِي: يُطْلَقُ «الْمَقَامُ» عَلَىٰ مَكانِ القِيَام، وهو موضع القَدَمَيْن، ويُطْلَقُ على المجْلِس، ويُطْلَقُ على الْجَمَاعَةِ مِنَ النَّاس.

ويُطْلَقُ بالتوسُّعِ عَلَىٰ الْمَقَامِ المعْنَوِيِّ، مَحْبُوباً كَانَ أَوْ مَكْرُوهاً.

والْمُرَادُ بِكِبَرِ مَقَامِهِ عَلَيْهِم، ثِقَلُ وُجُودِهِ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ، داعِياً إِلَىٰ دِينِ اللهِ، ومُبَيِّناً بُطْلَانَ مَا هُمْ فِيهِ مِن شِرْكيَّاتٍ وظُلْمٍ وعُدْوان، فَهُمْ بِسَبَبِ انْزِعاجِهِمْ مِنْ وُجُودِهِ، وتَغَيُّظِهِمْ مِنْ قيامه بوظائف رِسالَةِ رَبِّهِ إِلَيْهِم، يُرِيدُونَ التخلُّصَ مِنْهُ بِقَتْلِهِ رَجْماً بالحِجَارَة.

• ﴿وَتَذْكِيرِي بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: دَلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أَنَّ نُوحاً عليه السَّلام، كانَ يُبلِّغُ قَوْمَهُ آياتِ ربِّهِ الْبَيَانِيَّةَ أوّلاً، ويُكَرِّرُ تَذْكِيرَهم بها حِيناً فَحِيناً، ولا يَسْأَمُ مِنْ ذَلِكَ.

• ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: فعَلَىٰ اللهِ وحْدَهُ تَوَكَّلْتُ، اسْتفيد الْقَصْرُ من تقديم المعمول ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ﴾ على عامِلِهِ ﴿تَوَكَّلْتُ﴾.

التَّوكّل على الله: التسليم إليه، وتفويضُ تَدْبير الأُمور وتَحْقيقِ مَا يَرْجُو المتّكلُ إليه، مع القيام بالأسْبَاب المستطاعة المادّيّة، والمعْنَوِيَّة طَاعَةً لِأَمْرِه ونَهْيه.

يُقال: تَوَكَّلَ الْعَبْدُ علَىٰ الله، أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ، اعْتِمَاداً صَادِقاً، مُسْتَسْلِماً لما يَخْتَارُهُ لَهُ مِن أَمْر، مع قيامه بالأسْبَابِ الكَوْنيّة، التي أمَر أَوْ أَذِنَ اللهُ باتِّخاذِها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشَيْءٍ مِنْها.

• ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾: أيْ: فَأَحْكِمُوا كُلَّ أَمْرِكُمْ الَّذِي تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ وَإِحْكَامَهُ، باتِّفَاقٍ عَامٍّ تُجْمِعُونَ عَلَيْه، واجْمَعُوا كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُونَ جَمْعَهُ مِنْ قُوى، وَادْعُوا كُلَّ شُرَكَائِكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لِمُؤَازَرَتِكُمْ بِكُلِّ مَا لَدَيْهِمْ مِنْ قُوىً مَعْنَوِيَّةٍ غَيْبِيَّة، إنْ كانَ لَدَيْهِم شيءٌ من ذَلِكَ عَلَىٰ مَا تَعْتَقِدُونَ فِيهِمْ مِنْ عَقَائِدَ باطِلَة، لَا حَقِيقَةَ لَها.

• ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾: **الْغُمَّة**: الأَمْرُ الْمُبْهَمُ. والكَرْبُ الضَّاغِطُ عَلَىٰ الصُّدُور.

أي: ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمُ الّذِي تُجْمِعُونَ عَلَيْهِ، وتُعِدُّونَ لَهُ مَا تَسْتَطِيعُونَ مِنْ قُوىٰ، لِلتخلُّصِ منِّي تَدْبيراً مُبْهماً، لَا تَعْرِفُونَ كَيْفَ تُنَفِّذونَه، ولا يَكُنْ أَمْرُكم تُجاهِي كَرْباً ضاغِطاً على صُدُورِكم، لَا تَعْرِفُونَ كَيْفَ تُنَفِّسُونَه، فإنِّي أُعْلِنُ لَكُمْ هٰذَا التَّحدِّي، لِتُوَاجِهُونِي بِمَا تُدَبِّرُونَ مِنْ كَيْدٍ ضِدِّي صَرَاحَةً وَعَلانِيَةً، وبِذَلِكَ تَخْرُجُونَ مِنْ غُمَّة الحيْرَة والتَّرَدُّد.

• ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ﴾: أي: وبَعْدَ أَنْ تُجْمِعُوا أَمْرَكُمْ، وَتَجمَعُوا كُلَّ قُواكم، وتُدَبِّرُوا كُلَّ مكايِدكُمْ، وتَتأكَّدُوا مِنْ أَنَّكم قادِرُونَ على التخلُّصِ مِنِّي دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضُوا لِأَيَّةِ مُشْكِلَات، اقْضُوا وَأَمْضُوا مَا دَبَّرْتُم من أَمْرٍ قاتلٍ مُوصلٍ إلى مَقَاتِلي في زَعْمِكُم.

• ﴿.. وَلَا تُنظِرُونِ ۝٧١﴾: أيْ: ولَا تُمْهِلُوني لحظةً واحدة، مَهْمَا ظَهَرَتْ لديكُمْ دَواعٍ لإمهَالي.. وهذا غاية في التَّحدِّي من نُوحٍ لِقَوْمِه.

وهذا يتضَمَّنُ بطَرِيقَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ تَحدِّياً لِأَئِمَّة الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، مُمَاثلاً لِتَحدِّي نُوحٍ لِقَوْمه، فَمَنْ كانَ مِثْلَ نوحٍ عليه السّلام مُتَوَكّلاً علىٰ اللهِ وحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وهو يُؤَدِّي رِسَالَةَ رَبِّه الَّتِي كلَّفَهُ أَنْ يُؤَدِيَها، فإِنَّهُ ضَامِنٌ مِنْ رَبِّه بِتَوَكُّلِهِ عليه، وتَحدِّيهِ لِقَوْمِهِ، أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ ولَا يَخْذُلَه، وأَنْ يَرُدَّ كَيْدَ أَعْدَائِه إِلَىٰ نُحُورِهم، وأَنْ يُعِيذَهُ مِنْ شُرُورِهم.

وعَلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ رسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لهم أيضاً كما قَالَ نُوحٌ عليه السلام لقَوْمه:

• ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٧٢﴾:

التولّي: الإدْبارُ والابتعاد، ويحْتمل هنا التولي عن الاستجابة لدعوته، والتولي عن قتله الذي كانوا قَدْ عَزَمُوا عليه، وعلىٰ كُلٍّ من الاحتمالين، فقد تابَعَ نُوحٌ عليه السَّلام تأدِيَةَ الملائِمِ من وظائف رسالته في قومِه تجاهَهُما.

أي: فإنْ تولَّيْتُم عن الاستجابة لما دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ مِنْ نَبْذِ الشِّرْكِ الَّذي تلازمُونَه، والإيمان باللهِ وحْدَه، لا شَرِيك له في رُبُوبيّته وإلَهيّته، فأدْبَرْتم وأدَرْتُمْ لبَلَاغاتي ظُهُورَكم وابْتَعَدْتم، وتَوَلَّيْتُمْ أَيْضاً عن إجْماعِ أَمْرِكُمْ للتَّخَلُّصِ مِنِّي بالْقَتْلِ، فإنّي أعْلِمُكم بما يلي:

أوّلاً: اعْلَمُوا أَنّي مَا سَأَلْتُكُمْ على الْخَيْرِ العظيم الَّذِي حَمَلْتُهُ لكُمْ وبَلَّغْتُكُمْ إيَّاه عَنْ رَبّي مِنْ أجْرٍ، حَتَّىٰ يَكُونَ تَوَلّيكُمْ ونُفُورُكُم مِنِّي، بِسَبَب اتّهامِكُمْ لي بمَصْلَحَةٍ شخصِيَّةٍ دُنْيَوِيَّةٍ لي عندكم، فأنْتُمْ تتخلَّصُونَ من بَذْلِ الأجْرِ لي، أَوْ تحقيقِ مصْلَحَةٍ دُنيويَّةٍ لي مِنْ قِبَلِكُمْ، بتَكْذِيبي، وعدم الاستجابة لدعوتي، إنّي أعْرِضُ عَلَيْكُمُ الحقَّ بلَاغاً عن رَبّي، والواجِبُ عليكم تُجاهَ رَبّكُمْ أَنْ تَسْتَجِيبُوا له.

كلمة «مِنْ» في: ﴿مِّنْ أَجْرٍ﴾ زِيدَتْ داخِلَةً على المفعولِ به لتوكيد عموم النَّفي في: ﴿فَمَا سَأَلْتُكُم﴾ وللتنصِيص عليه.

ثانياً: واعْلَموا: أنَّهُ مَا أجْرِي على مُجاهَدَتي لَكُمْ في تَبْلِيغ رِسَالَةِ رَبِّي، داعياً هادياً نَاصِحاً ومُذَكّراً، وصابراً على أذاكُمْ ووعِيدِكم لي بالْقَتلِ رَجْماً بالحجارة، إلّا على اللهِ رَبِّي وربّكُمْ الَّذِي جعَلَني نبِيَّاً رَسُولاً، وأرْسَلَني إليكم لِأُبلّغَكُمْ رِسَالَاته.

حرف «إنْ» في: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ حرف نَفْي، مثل «ما» النافية. وفي هذه العبارة قَصْرٌ بالنّفْي والاستثناء، وهو قَصْرٌ حقِيقيٌّ من قَصْرِ صِفَةٍ على مَوْصُوف. أي: مَا أجري إلّا على الله.

ثالثاً: واعْلَمُوا: أَنّي مِثْلُكُمْ مَأْمُورٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّي أَنْ أكُونَ واحداً من المسْلِمِينَ. فعَلَيَّ فَرْضُ الإيمان بما فَرَضَ عَلَىٰ سائرِ المكلّفين أنْ يُؤْمِنُوا به، وعَلَيَّ فَرْضُ الطاعَةِ لأوامره ونواهِيه الإلْزَامِيّة، وعَلَيَّ فَرْضُ الإسلام لَهُ في أَمْرِي كُلِّه مَعَ الإخْلَاصِ لَهُ في العمل.

فلَسْتُ مُجَرَّدَ مُبَلّغِ رِسَالاتِ رَبّه فقط، مع إعفائه من تكاليف ما أمَرَهُ بتَبليغه، بَلْ أنا في هٰذا مِثْلُ أيِّ فَرْدٍ مُكَلَّفٍ مُبلَّغٍ، وأنَا مَأْمُورٌ بِأَنْ أَكُونَ واحِداً مِنَ المُسْلِمين للهِ رَبِّي ورَبِّكُمْ وَرَبِّ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنْ كائنات.

ويَلْزَمُ عَقلاً من أنْ يكونَ مُسْلِماً أَنْ يكون مؤمناً، مُعْلِناً طاعَتَهُ لِرَبِّهِ،

وعبادَتَهُ لَهُ وحْدَه، إذْ لا يَصِحُّ إسْلَامٌ دُونَ إيمانٍ صادقٍ صحيح، ودون طاعةٍ لله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه، ودُون إخْلَاصٍ لَهُ في العمل.

قول اللهِ عزّ وجلّ بشَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلام وقومه:

• ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾: أي: فكان آخِرُ أَمْرِ قَوْمِ نُوحٍ مَعَهُ أَنْ كَذَّبُوهُ تَكْذِيباً غَيْرَ مَطْمُوعٍ في رُجُوعِهِمْ عَنْهُ، مَهْمَا أُمْهِلُوا هُمْ وذَرارِيهم، فَكَانَ من الْحِكْمَةِ إهْلَاكُهُمْ، إذْ أَنْهَوْا بِمَا وَصَلُوا إلَيْهِ مِنْ كُفْرٍ وعِنَادٍ وإصْرَارٍ علَىٰ الباطلِ امْتِحَانَهُمْ، فَلَا جَدْوَىٰ مِنْ إبقائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدّنيا، الّتي خَلَقَهَا اللهُ للابْتلاء، إذْ سَيُتَابِعُونَ كُفْراً وَفَساداً وإفْساداً وَشَرّاً وشَناراً، وَلَا يَلِدُوا إلّا مَنْ يَكْتَسِبُ مِنْهُم صِفَاتِهِمْ حَتَّىٰ يكونَ فاجراً كَفَّاراً، إذْ جَعَلُوا بيئَتَهُمْ مَحْصُورَةً مُغْلَقَةً، لَا تُعْتَقَدُ فيها إلّا شِرْكيَّاتُهُمْ، ولَا تُكْتَسَبُ فِيها إلّا قبائحهم.

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾: أي: فأمَرْنَا نُوحاً بأَنْ يَصْنَعَ الْفُلْكَ، ويَقْطَعَ رَجَاءَهُ من إيمانِ من لم يُؤْمِنْ بَعْدُ من قومه، ويُنْذِرَهم بإهْلَاكٍ شَامِلٍ لَا يُبْقِي على الأَرْضِ مِنْهُمْ دَيَّاراً، وَتَمَّ أَمْرُنَا الحكيم بالطُّوفان، وأمَرْنَا نُوحاً بأنْ يَرْكَبَ في الْفُلْكِ هو والّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأنْ يَحْمِلَ مِنْ كُلٍّ صِنْفٍ من الحيوانات زَوْجين، وأن يَحْمِلَ في الْفُلْكِ أرْزَاقَهُمْ، وَأَمَرْنَا السَّمَاءَ أَنْ تُمْطِرَ، وفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً، فأجْرَينا الْفُلْكَ على الماء بعِنايَتِنَا.

• ﴿وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾: أي: فَخَلَّصْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، وهُمْ رَاكِبُونَ في الْفُلْكِ، مِنْ شُرُورِ كُفّارِ قَوْمِهِ، ومِنَ الطُّوفانِ الَّذِي أَرْسَلْنَاهُ لإهْلَاكِهِم.

• ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾: أي: وَجعَلْنَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أقواماً وأُمَماً، كانوا في الأرْضِ خَلائِفَ لِمَنْ أَهْلَكْنَاهم.

﴿خَلَائِفَ﴾: جَمْعُ خَلِيفَة. **الْخَلِيفَةُ**: هو مَنْ يَخْلُفُ غَيْرَه، فَيَحُلُّ محَلَّهُ إذَا كان بمعْنَىٰ اسْم الفاعل كما هو المرادُ به هُنَا.

• ﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: أي: وأغْرقْنَا بالطُّوفَانِ الشّامِلِ، الّذِينَ كَذّبوا بآياتِنَا الإعجازِيَّة، وآياتِنَا الْبَيَانِيَّة، وآياتِنا الْكَوْنِيّة، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ أَنْذَرْنَاهم بِعِقَابِنَا المُعَجَّلِ على لِسَانِ رَسُولِنا نُوحٍ، وأنَّ هٰذا العقابَ سيَكُونُ إهْلَاكاً شَامِلاً.

• ﴿.. فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

أي: فانظر أيُّهَا المُتَفَكِّرُ المتدبّر المعْتَبِرُ بِتَصَارِيفِنا في عبادِنا، عَلَىٰ أيِّ حَالَةٍ وَخِيمَةٍ كانَتْ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ، الَّذِينَ أَنْذَرْناهم بعِقَابِنَا الشّدِيد المعَجَّلِ على لِسَان رَسُولِنَا نُوحٍ.

والْمَعْنَىٰ: فاعْتَبِرْ أيُّها المتفكِّرُ المتَدَبِّر الْحَرِيصُ عَلَىٰ نجاته وسعادته.

جاء في هذه الآية (٧٣) استعمال ضميرِ المتكلِّمِ العظيم، إذْ تضمَّنَتْ بيَاناً عَنْ عظمة رُبُوبيَّة الله ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه ـ في تصاريفه.

وهي ترمي إلى عدّة أهداف.

الهدف الأول: تَحْذِيرُ كُفّار مَكَّةَ يَوْمئذٍ من أنْ يَتَعَرَّضوا لمثل ما تَعَرَّض له قوم نوح عليه السلام.

الهدف الثاني: توجيه الرَّسُول ﷺ لأنَّ باستطاعته أَنْ يَتَحَدَّىٰ قومه، كما تحدّىٰ نوحٌ عليه السلام قومه.

الهدف الثالث: طَمْأَنَةُ قلوب المؤمنين بأَنَّ عاقبة أَمْرِهم أَنْ يَنْصُرَهُم الله، وينتَقِمَ مِنْ مضطّهِدِيهم.

الفصل الثاني
بيان عامٌّ بشَأنِ رُسُلٍ أَرْسَلَهُمُ الله عزَّ وجلَّ إلى أقوامهم بعد نوح عليه السلام وهو الآية (٧٤)

قال اللهُ عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

تمهيد:

في هذا الفصل حديثٌ إجماليٌّ عامٌّ عَنِ الرُّسُلِ الّذين أَرْسَلَهُمُ اللهُ إِلَىٰ أقوامِهِمْ مَا بَيْنَ نُوحٍ عليه السلام، وموسَىٰ وأخِيهِ هارُونَ عَلَيْهما السلام.

وقد سبَق أن أنْزَل اللهُ في التَّفْصيلات القرآنيّة بَياناً عن هود عليه السّلام وقومه عاد، وصالح عليه السلام وقومِهِ ثَمُود، وأصْحَابِ الرَّسِّ، وإبراهيم عليه السلام وقَوْمِه، ولُوطٍ عليه السلام وقومِهِ أهلِ قُرىٰ سَدُوم، وشُعَيْبٍ عليه السلام وقومه أهلِ مَدْين وأصحابِ الأيكة. ورُسُلٍ آخَرِينَ لم يَقُصَّ اللهُ علَيْنَا قِصَصَهُمْ، كما أبانَ الله عزَّ وجلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) بقولِهِ بَعْدَ ذكْرِ طائفة من الرسل:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾:

التدبّر التحليلي:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ . .﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَنِ، وُجِدَ في الأقوام الخلائِفِ خُرُوجُ عن صراط اللهِ الاعْتِقَادِيّ والسُّلُوكي، فاقْتَضَتْ أحوالُهُمْ إرْسَالَ رُسُلٍ إلَيْهِمْ، مُبَلِّغِينَ وَمُبَشِّرينَ وَمُنْذِرين.

﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾: أي: من بَعْدِ نوحٍ مُبَاشرةً، إذ اقتضت أحْوالُ الأقوام من بعد قومه إرْسَالَ رُسُلٍ إلَيْهِمْ. وجِيءَ بهذه العبارة لِئَلَّا يُفْهَمَ من: ﴿ثُمَّ﴾ أنَّ بَعْثَ الرُّسُلِ قَدْ كَانَ مُتَأَخِّراً عن حاجَةِ أقوامٍ فَسَدَتْ وانْحَرَفَتْ عن صِرَاطِ اللهِ، بَلْ كانَ مُباشَرَةً مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وقَوْمِه، إذْ دَخَلَ الانحرافُ إلى خلَائِفِهم من بَعْدِهم، فبَعَثَ إلَىٰ أقوامِهِمْ رُسُلاً.

﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ﴾: أُفْرِدَ لفْظُ الْقَوْمِ وهم أَقْوَامٌ مُتَعَدِّدُونَ، لأنَّ لَفْظ «قَوْم» اسْمُ جنْسٍ، فهو يُطْلَقُ عَلَىٰ أقوامٍ مُتَعَدِّدين، ولأنَّ أقوامَ رُسُلِ اللهِ جَمِيعاً هم بمثابَةِ أُمَّةٍ واحِدَة، كما قال اللهُ عزّ وجلَّ في سُورَةِ (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً للرُّسل:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾.

وهٰذِهِ الدَّلَالَة هيَ الأجْدَرُ بالْفَهْمِ التَّدَبُّرِيّ من مُجَرَّدِ بيان الجواز اللُّغوي.

﴿فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: أي: فجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالْبَيِّنَاتِ المخْتَلِفَاتِ الكافِياتِ لإقْنَاعِهِمْ بالحقِّ، وإقَامَةِ الْحُجَجِ الْبُرْهانيَّة عليهم.

البيّنات: جَمْعُ «الْبَيِّنَة» صِفَةٌ لموصُوف محذوف، يُفْهَمُ المرادُ به من السِّباق والسِّيَاق. ومعنى «البَيِّنَة» الواضِحَةُ الظاهرة، الَّتِي لَا شَكَّ فيها، ولَا غُمُوضَ، ولَا غَبَشَ عليها.

وقد أُطْلِقَتِ الْبَيِّنَةُ في القرآن علَىٰ الآيَاتِ والمعجزاتِ الواضحات الجليّات، وعلى البراهين الواضحة القاطعة، وعلى الصُّحُفِ والكُتُبِ المُنَزَّلَةِ من عِنْدِ الله، وعَلَىٰ الرُّسُل الذين تَدُلُّ صفاتُهُمْ على أنَّهُمْ رُسُلُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، وكُلُّ هٰذِهِ المعاني صالحة لأنْ تكونَ مُرَادَةً هُنا.

• ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ﴾:

دلَّتْ هٰذه العبارَةُ علَىٰ كلام مطويٍّ قَبْلَها يكْشِفُهُ حُسْنُ التدبُّر، إذ المعْنَىٰ: فجاءتْهُم رُسُلُهُمْ بالبَيِّناتِ، وبَلَّغُوهُمْ مطْلُوبَ اللهِ رَبِّهِمْ مِنْهُمْ، فَكَذَّبُوهم، فَتَابَعُوا تذكِيرَهُمْ وإقْنَاعَهُم، وتَبْشِيرَ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْهُمْ بالسَّعادَةِ الأبدِيَّة، وإنْذَارَ مَنْ يكْفُرُ مِنْهُمْ بالعذابِ الأَبَدِيِّ مِنْ رَبِّهِم، وصَبَرُوا عَلَيْهِمْ صَبْراً طَوِيلاً، كَشَأْنِ الرُّسُلِ الَّذِينَ فَصَّلَ اللهُ عزَّ وَجَلَّ في القرآنِ مجاهَدَتَهُمْ لِأَقْوَامِهِم، حتَّىٰ وَصَلَتْ أقوامُهُمْ إلى حالَاتٍ مَيْؤُوسٍ مَعَها مِنْ إيمانِهِمْ عَنْ طَرِيق إرَادَاتِهِم الحرَّة، واستَحْجَرَتْ قُلُوبُهُم، ووَصَلَتْ بأسْبابِهِمُ الإرادِيَّةِ إلى مِثْلِ بُيُوتٍ مُظْلِمَةٍ أُقْفِلَتْ أبْوابُهَا الْحَجَرية، وَوُضِعَ عَلَىٰ أَقْفَالِهَا الْخَتْمُ إشعاراً بالمنْعِ مِنْ فَتْحِهَا، وَطُبعَ علىٰ الْخَتْمِ بِطَابَعِ أَصْحَابِهَا أو بطابَعٍ شيطاني، إيذَاناً بأنَّ فَتْحها صَارَ أمْراً مَيْؤُوساً مِنْه، مَهْمَا أُمْهِلُوا وَتُوبِعُوا بالتَّذْكِير، والإطْماعِ والتحذير، والإقْنَاعِ الدّامغ، والموعِظَةِ الحسَنَةِ.

• ﴿فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۚ﴾: أيْ: فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ مَصِيرِهم الذي صَاروا إليه أنْ يكونَ لدَيْهم أيُّ اسْتِعْدَادٍ لأنْ يُؤْمِنُوا عَنْ طرِيقِ إرَادَاتِهِم الحرَّة، بما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ طَوالَ سيرَةِ رُسُلِهِم بَيْنَهُمْ داعِين ومُبَلِّغين ومبشرين ومُحذِّرين ومُذَكِّرين، ومُتَّخِذِين كُلَّ الْوَسَائِلِ المُمْكِنَةِ رَغْبَةً في استجابَتِهِمْ لِرَبّهِم فيما دَعَاهُمْ إليه، عن طريق بلاغاتِ رُسُله المؤيَّدِين بالمعجزات من لَدُنه.

وتَعْلَمُ من سُنَّةِ الله عزّ وجَلَّ أَنَّ مَنْ وَصَلَ من الأقوام إلى مِثْلِ هٰذِه الحالَة أَهْلَكَهُمُ اللهُ إهلاكاً عامّاً شاملاً، إذْ لا فائدة مِنْ إبْقَائِهم في مختبر الابتلاء، وهذا كَطَرْدِ الأشقياء المفْسِدِين، من المدارس أثناء المراحل الدراسيَّة، وقبْلَ انْتِهاء المدَّةِ المقرّرَةِ لها بصِفَةٍ عامَّة.

قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ في آيَةِ هذا الدَّرْس:

• ﴿.. كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

أي: إنَّ أنْظِمَتَنَا السَّبَبِيَّةَ في كَوْنِنَا، تَقْضِي بأنَّ مَنْ عُولِجَ من أصحاب الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ الْمَوْضُوعِينَ في الحيَاة الدّنيا موضِعَ الامتحان، مُعَالَجَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُحَاصِرَاتٍ لَهُ مِنْ كُلّ المداخِلِ إلى نَفْسِه. الشاملة لفكْرِه، وأهوائه وشهواته ووجْدَانَاتِه ومَطَالِبِهِ ورَغَبَاتِه العاجلات والآجلات، وهٰذِهِ المعالجات تكفِي لإيمان الذين لدَيْهم أقَلُّ استِعْدَادٍ للاستجابَة لِلْحَقِّ، أنْ تتراكَبَ علىٰ قُلوبهم النُّكَتُ السَّوْداءُ نُكْتَةً فَنُكْتَة، حتَّىٰ تَنْطَمِسَ بَصَائِرُهُم انْطِمَاساً كُلّيّاً، وَعِنْدَئِذٍ تُقْفَلُ كُلُّ المنافِذِ الَّتِي يَنْفُذُ مِنْهَا الضَّوْءُ أو النُّورُ إلَىٰ داخِلِها، وتُغْلَقُ أبوابُها إغْلَاقاً كُلِّيّاً، وتُوضَعُ عَلَيْها الأقْفالُ، وَتُوضَعُ علَىٰ الأَقْفَالِ الأخْتَام، ويُطْبَعُ عَلَى هٰذِه الْأَخْتام طابَعُ المنْعِ مِنْ فَتْحِها.

كُلُّ هذا على سبيل الاستعارَةِ التمثيليَّة، إذْ شُبِّهَ ما يَجْرِي في الْقُلُوب بما يَجْرِي في الْبُيُوتِ المظْلِمَةِ المغلَقَة الأبواب والمقْفُولَةِ بالأقفال، والمختومة، والمطبوع على خِتَامِها.

ولمّا كان ما يَجْرِي من أسْبابٍ فِي أنْظِمَةِ الكَوْن، إنَّما تتحقَّقَ نتائجُها بخَلْقِ اللهِ وَتَقْدِيرِه ضِمْنَ أنْظِمَتِهِ السببيَّة، نَسَبَ اللهُ إلَىٰ نَفْسِهِ أنَّهُ هو الّذِي يطْبَعُ على قُلُوبِ الكافِرين، وقَدْ عَلِمْنَا مِنَ التحليل السَّابقِ أَنَّ الْكَافِرين هُمُ الَّذِين اختارُوا لنفوسهم الأسْبَابَ الّتي تُوصِلُهُمْ إلى هذا الطَّبْع الذي يكون بخلق اللهِ على قلوبهم، كالَّذِي يُدْخِلُ يَدَهُ في النار فيُحْرِقُها اللهُ له.

فمعنى العبارة: مثل ذلِكَ الطّبْعِ الّذي وَصَلَتْ إليه أقوامُ الرُّسُلِ السّابقين، الّذين استحقوا بتكذيبهم رُسُلَ رَبهم الإهلاك الشامل، يَطْبَعُ الله على قُلُوب كُلّ الكافرين، في كُلِّ عصر، وكلّ أُمّة.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه ومَدَدِه ومَعُونته.

الفصل الثالث

عرض لقطات من قصة موسى وهارون عليهما السلام ملائماتٍ لمعالجة المعنيّين بالعلاج في السورة

وهو الآيات من (٧٥ ـ ٩٣)

قال الله عزّ وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

القراءات:

(٧٩) • أبدل ورش، والسّوسي، وكذلك أبو جعفر في الوصل الهمزة الساكنة واواً مَدّيَّة في: **[فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي]** فقالُوا: فِرْعَوْنُ وتُوني.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالتحقيق.

(٧٩) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[بكُلِّ سَحَّارٍ]** مبالغة «سَاحِر». وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿بِكُلِّ سَٰحِرٍ﴾ وبين القراءتين تكامُل في أداء المعنى المراد، إذْ دَلَّت القراءتان على أنَّ فِرْعَوْنَ طَلَبَ أوّلاً كُلَّ سَحَّارٍ، ثم طلَبَ كلّ ساحر.

(٨١) • قرأ أبو عَمْرو، وأبو جعْفر: **[بِهِ آلسِّحْرُ]** بزِيادَة همزة قبل همزة الوصْل.

وقرأها باقي القراء العشرة ﴿بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾.

فدَلَّت القراءتان على أنَّ موسَىٰ عليه السلام قال لَهُمْ أوَّلاً مُسْتَفْهِماً فقالُوا له نعم. وعند المباراة قال لهم مُثْبتاً غيْرَ مُسْتَفْهِم.

(٨٧) • قرأ ورش، وأبو عمْرو، وحفص، وأبو جعفر، ويَعْقُوب: ﴿بُيُوتًا﴾ ﴿بُيُوتَكُمْ﴾ بضَمِّ الباء. وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر الباء. وهما لُغتَان عَربيّتان.

(٨٨) • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: ﴿لِيُضِلُّوا۟﴾ من فعل «أضَلَّ».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[لِيَضِلُّوا]** من فعل «ضَلَّ».

فَدَلَّتِ القراءتان على أنّ موسى عليه السلام قال في دُعائِهِ لِرَبِّه: لِيَضِلُّوا، وقال أيضاً: لِيُضِلُّوا.

(٨٩) • قرأ ابْنُ ذَكْوَان: [وَلاَ تَتْبَعَانِ] بِكَسْرِ النون دون تشديد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ﴾ بِكَسْرِ النُّونِ مع التشديد.

ودَلَّت القراءتان على أنَّ الله عزّ وجل أكّدَ لموسى وهارون عليهما السّلام تَوْكِيداً مخفَّفاً، ثُمَّ أكَّدَ لهما النَّهْيَ تَوْكيداً مُشَدّداً.

(٩٠) • قرأ حَمْزَةُ، والكِسَائي، وخَلَف: [آمَنْتُ إِنَّهُ] بكَسْر همزة «إِنَّهُ» على أنَّ الجملة مسْتَأْنفة.

وقرأها باقي القراء العشرة: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ﴾ بفَتْحِ همزة «أَنَّهُ» على تقدير: آمَنْتُ بأَنَّهُ لَا إِلَه إِلَّا الذي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل.

فَدَلَّتِ القراءتان على أنَّ فِرْعَونَ قَال أولاً ما تَدُلُّ عليه عبارة: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَه إِلَّا الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسرائيل حين أدْركَهُ الْغرق، وقال بَعْدَها: آمَنْت ـ إِنَّهُ لَا إِلَه إِلّا الّذي آمَنَتْ به بنو إسرائيل.

(٩٢) • قرأ يَعْقُوب: [نُنْجِيكَ] مِنْ فعل «أَنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ من فعل «نَجَّىٰ».

والقراءتان متكافئتان، لأن الفعل المهمز أخُو الفعل المضعّف.

تمهيد:

في هذا الفصل بيان لقطات من قصة موسى وهارون عليهما السلام، وهٰذه اللّقطات مُلَائَماتٌ للمواقِف الّتي كانَ علَيْها المعنيّون بالمعالجة في السُّورَةِ من أئمَّةِ المكذِّبينَ الكافِرين المعانِدين في مَكَّة إبَّانَ نُزُولِ السّورة.

ففيه بيانُ اسْتِكْبَارِ فرعَوْنَ ومَلَئِهِ وإجْرَامِهِمْ، وادّعاءِ أَنَّ ما جاء به

مُوسَىٰ وهارون من آيات بيّناتٍ ومعجزاتٍ باهراتٍ هي من السِّحْر، وليست حَقّاً مُنَزَّلاً مِنْ لَدُن رَبّ العالَمِين، وإصرارِهم على تقالِيدِهم العمياء، واتهامِهِمْ لموسى وهارون بأنّ هَدَفَهُما من دعوتهما التَّوصُّلُ إلَىٰ حُكْم مِصْرَ بَدَلَ حُكامِها وأصْحَابِ السُّلْطانِ فيها، وهذا مُشَابِهٌ لما كان عليه أئمة الشرك والكفر في مَكَّة إبّانَ تنزيل السُّورة.

وفيه بيان حَالِ المؤمنين بموسى وهارون من بني إسرائيل في مِصْر، ومَا كَانُوا يُعَانونَهُ من اضطهاد، وهٰذَا الحالُ يُشْبِهُهُ حَالُ المؤمنين فِي مَكَّة إِبَّانَ نُزُولِ السُّورة.

وفيه بيانُ الْحَالِ الذي وصَلَ إلَيْه مُوسى عليه السّلام، ويُشْبِهُهُ الحال الذي وصل إليه رسُولُ اللهِ محمّد ﷺ إبَّانَ نُزُول السّورَة.

وفيه بيانُ العقاب الرَّبَّاني الّذي عاقب اللهُ بهِ فِرْعَوْنَ ومَلَاءَهُ وجُنُودَه، وفي هذا البيان تَلْوِيحٌ تَهْدِيديٌّ للمعنِيِّين بالْمُعَالَجة في السُّورَةِ من أئِمَّةِ الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكّة، وهذا التَّهْدِيدُ يُلَائِمُ أحوالهم الّتي وصَلُوا إِلَيْهَا إبَّانَ نُزول السورة.

وفي تدَبُّرٍ سَابقٍ للقَطَاتٍ من قِصَّةِ مُوسَى وهارون في سُوَرٍ سابقاتِ التَّنْزيل، بَعْضُ نَظَراتٍ تكامُليَّة بَيْنَها وبَيْنَ مَا جَاءَ في هذا الفصل، وأسْأَلُ اللهَ عزّ وجلَّ أَنْ يُيَسِّرَ لي دِرَاسَةً تكامُليَّة لكلِّ النصوص القرآنيَّة المتعلّقَة بموسى وهارون، وفرعون وقومِه، وبني إسرائيل، وأقتصر هنا على تَدَبُّر فقراتِ هذا الفصل.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

- ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

• ﴿ثُمَّ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ مِنَ الزَّمَن.

• ﴿بَعَثْنَا﴾: **الْبَعْثُ**: الإرْسَالُ، يقال لغة: «بَعَثَهُ، يَبْعَثُهُ، بَعْثاً، وبِعْثَةً» أي: أَرْسَلَهُ، ولَا يكونُ الإرْسَالُ غالباً إلَّا لأداء وظيفةٍ يُريدُ الْمُرْسِلُ تحْقِيقها. وجاء في هذه الآية استعمال ضمير المتكلم العظيم الملائم لِرُبُوبيَّة الله جلّ جلالهُ وعظم سلطانه.

• ﴿مِنْ بَعْدِهِم﴾: أي: من بَعْدِ مَنْ أشارتْ إليهم آيَةُ الْفَصْل الثاني.

فموسَىٰ وهارونُ بُعِثا بَعْدَ آخِرِ المشار إليهم، وهو شُعَيْبٌ عَلَيْه السلام.

• ﴿مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾: سبَق التعريف بهما مَرَّاتٍ عَلَيْهِما السّلام، وسَبَقَ بَيَانُ قِصَّةِ بَعْثهما.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أي: إلىٰ مَلِكِ مِصْرَ في عَهْدِ موسى عليه السلام[1]. ومَلَؤُهُ هُمْ وُزَرَاؤُه، ومَجْلِسُ مسْتَشَارِيه، وكِبَارُ أَرْكان مُلكِه.

ويُطْلَقُ علَىٰ الأعيانِ وكبراء القوم لفظ «مَلأ» لأنَّهُمْ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة.

• ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: بآياتنا البيانيّة، وآياتِنَا الاعجازيَّة التِّسْعِ، وأُولَاها آيَةُ الْعَصَا فآيَةُ الْيَد.

• ﴿فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾: أي: فبالَغُوا واشْتَدُّوا في كِبْرِهم واسْتِعْلائهم رَافِضين الاستجابة لدعوة الحقّ الرَّبَّانِيَّة الّتي جاءهم بها موسَىٰ وهارُون عليهما السلام.

• ﴿.. وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: استعمل فِعْلُ «كان» هُنَا بمعنَىٰ

---

(١) ذُكِرَ أنّ فِرْعَوْنَ مصر يومَئِذٍ «منفتاح الثاني» أحد فراعنة العائلة التاسعة عشرة، من الأُسَر التي مَلَكَتْ بِلَادَ مِصر.

الصَّيْرُورة، أي: وكانَتْ صِفَتُهمُ الْتِي صَاروا إلَيْها بَعْدَ مَسِيرَة موسىٰ وهارون الدعويَّةِ الطّوِيلَةِ في مِصْرَ، أَنَّهُمْ قَوْمٌ مُجْرِمُون، أي: مُرْتَكِبُو أقْبحِ وأَخَسِّ وأرْذَلِ الذُّنوب، فكَفَرُوا كُفْرَ حُجُودٍ وَعِنادٍ بالحقِّ الواضح الجلِيّ، الذي جاءهم من رَبِّهم، مع لوازم هذا الكُفْرِ من جرائم وظُلْمٍ وعدوان، وَبَغْيٍ وطُغيان.

المجْرِمُونَ في المصطلح القرآني هُمْ مُسْتَحِقُّو الخلُود في عذاب النار يوم الدّين.

هذه الآيَةُ تحدَّثَتْ بصِفَةٍ إجمالِيَةٍ عَن وَصْفِهِمُ العامّ، وبَعْدها أبَانَ اللهُ عزّ وجَلَّ بَعْضَ تَفْصِيلَاتٍ من قِصَّةِ فِرْعَوْنَ وملئه.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فَحِينَ جَاءَهُمُ الْحَقُّ الّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ آيَتَا الْعَصَا والْيد، مِنْ عِنْدِ قُدْرَتِنَا العظيمة الَّتِي نَفْعَلُ بها مَا نَشاءُ، وخَلَعَتْ قُلُوبَهُمْ آيَةُ الْعَصَا الَّتِي تَنْقَلِبُ ثُعْبَاناً عَظِيماً مُرْهِباً، كابَرُوا وعانَدُوا وقالوا: إنَّ هَذَا لسِحْرٌ مُبِينٌ، ولَيْسَ مِنْ آيات اللهِ رَبِّ السَّماواتِ والأرض، شَهَادةً مِنْهُ لموسَىٰ وهَارُون بأَنَّهُما نبيّانِ ورَسُولان صادقان.

وأكَّدُوا قولهم بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلَقَة» على سبيل الإعلام الدعائي، تضليلاً لجماهير المصريِّين، وإمعاناً في إبطالِ الحق.

قول الله تعالى:

• ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾؟؟

في هذا البيان مطويٌّ في المثَانِي يَسْهُلُ اسْتخراجه، أي: قال لهم موسى متعجِّباً مِنْ كلامهم ومستنكراً بأسلوب الاستفهام التعجُّبيّ الإنكاري:

أتَقُولُونَ قولاً مُوَجّهاً لْلحَقِّ: هٰذا سِحْر، وهو حَقٌّ جَلِيٌّ واضِحٌ مُبِينٌ، اعْتَرَفَ كُلُّ سَحَرَتِكُمْ بأنَّهُ حَقٌّ، فآمَنُوا وسَجَدُوا للهِ رَبِّ العالمين، وسألُوه أنْ يَغْفِرَ لهم ذنوبهم، ولا سيما أعْمَالُهُم السّحْرِيَّةُ الشّركيّة.

وبَعْدَ هذا قال لهم مستنكراً مُتَعَجّباً: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾؟! وهو انْقِلَابُ الْعَصَا حيَّةً حَقِيقِيَّةً ابْتَلَعَتْ ابتلاعاً حَقيقيّاً كُلَّ ما صَنَعَ سَحَرَةُ مِصْرَ مجتمعين، وآيَةُ الْيَدِ، ثمّ جاءَتْ بَعْدَهُمَا سائر الآياتِ التِّسع الَّتي أجْرَاها اللهُ لموسَىٰ وهارون في مِصْر، وكانُوا مع كلّ آية مِنْها يَعِدُونَ باسْتِجابَةِ مَا دَعَاهُمْ مُوسَىٰ عليه السلام إليه، إذا رفَعَ عَنْهُمْ ما أنْزَلَ اللهُ بِهِمْ مِمَّا يكْرَهُون، ثُمَّ يَنْكُثُونَ وَيَنْقُضّون عَهْدَهم، ويُصرُّونَ على كُفْرِهِم، وفي كُلِّ هٰذِهِ الآيَات كَانَ مُوسَىٰ وهارون يَظْفَرَانِ بالحجَّةِ الْبُرْهَانية، وَكَانَ فِرْعَوْنُ وملَؤُهُ يَخِيبُونَ، ولَا يَمْلِكُونَ إلَّا تَرْويجَ الدِّعايات الكاذِبَاتِ المفتريَات.

ومَا كانَ يَظْفَرُ بِهِ مُوسَىٰ وهارُونُ قد كَانَ فَلَاحاً حَقِيقيّاً، ولو كان مَا جاءا بِهِ سِحْراً مَا أفْلَحا، إذْ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ، مَهْمَا أحْكَمُوا وَسَائِلَهُمْ، دلَّ على هذا قَوْلُ مُوسى لهم: ﴿.. وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

ونَفْهَمُ من هٰذا البيانِ الّذي قالَهُ مُوسَىٰ عليه السَّلام، أنَّ مِنْ سُنَنِ الله الدَّائِمة الّتِي لا تَتَخلَّفُ فِي كَوْنه: أنَّ السَّاحِرِينَ لَا يُفْلِحُونَ، مَهْما اتَّخذُوا من وَسَائِلَ، ومَهْما أحْكَمُوا مِنْ أسْبَاب، إذْ يقْضِي اللهُ علَيْهم بالخيبَة.

الْفَلَاح: هو في اللُّغَةِ الظّفَرُ والنَّجاح.

قول اللهِ تعالىٰ حكايةً لمَا قالَهُ فِرْعَوْنُ وَمَلؤه لموسَىٰ عليه السّلام:

- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا نَحۡنُ لَكُمَا بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾:
- ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا﴾: أي: أجئتنا وَمَعَكَ العجائب.

• ﴿لِتَلْفِتَنَا﴾: أي: لِتَلْوِيَنا وتصْرِف اتِّجاهَنا عَنْ عَقَائِدِنا، ونظامِ حياتنا، يُقَال لغة: «لَفَتَ الشَّيْءَ يَلْفِتُهُ لَفْتاً» أي: لواه على غير وجْهِهِ وَصَرَفَهُ إلىٰ ذَاتِ الْيَمِين، أو ذاتِ الشمال.

واجَهُوا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام بالْخِطَاب، لأنَّهُ هُوَ الحَامِلُ الْأَوَّلُ للرِّسالَة، وهارون وزيرُهُ ومُعِينُه، وقَرَنُوا بِهِ أخَاهُ لدَى اتّهامِهما بأنَّ غَرَضَهُما انْتِزَاعُ مُلْكِ مِصْرَ من أصْحَابِهِ وَذَوِي السُّلْطانِ فيه.

والاستفهام في قولهم لموسَىٰ: ﴿أَجِئْتَنَا﴾؟؟ استفهامٌ إنكارِيٌّ أرادوا بِه سَتْرَ الْحَقِّ، وتَرْوِيجَ إشاعَةٍ إعلامِيَّةٍ كاذِبَة مُؤَلَّفَةٍ من ذِكْرِ الْوَسِيلَةِ والْهَدَفِ مِنْها.

أمّا الْوَسِيلَة: فَقَدْ عَبَّرُوا عنها بما دَلَّ على معناه قول اللهِ تعالَىٰ حكايَةً لقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾؟؟.

أي: أجِئْتَنَا وَمَعَكَ العجائِبُ السِّحْرِيَّةُ لِتَصْرِفَ اتْجاهَنا عَنْ عَقَائِدِنا ونُظُمِ حَيَاتنا الَّتِي وَرِثْنَاهَا عَنْ آبائِنَا، وتَجْعَلَنَا نُؤْمِنُ بِعَقَائِدَ أنْتَ تُمْلِيهَا عَلَيْنَا، ونَعْمَلَ بنُظُمٍ أنْتَ تَضَعُها لَنَا.

وأمَّا الْهَدَفُ مِنْها: فَقَدْ عَبَّرُوا عَنْهُ بما دَلَّ عَلَىٰ معْناه قَوْل الله تعالَىٰ حِكَايَةً لِقَوْلهم: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾:

أي: وَلِتَكُونَ لَكُمَا السُّلْطَةُ الْعُلْيا في مِصْر، بَدَلَ فرعون ووُزَرائِه وأعْوَانه، وتَجْعَلَا بَنِي إسْرَائيل هم المسْتَعْلِينَ علَىٰ المصريِّين أصْحَاب الْبِلَادِ الأَصْلِيّين.

الكِبْرِياء: المُلْك ـ العظمة والتَّجبُّر والتَّرفُّع عَنِ الانْقِيَاد.

والمراد بعِبارَة: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أَرْضُ مِصْرَ، فـ «ال» عَهْدِيَّة.

وبَعْدَ هٰذا القول أيْأَسُوهُمَا من الإيمان بِهما والإسلام لهما، فقالُوا:

﴿.. وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكُما، ولا بِمُسْلِمين لَكُما. ضُمِّن لفظ «مُؤْمِنين» مَعْنَىٰ لفظ «مُسْلِمينَ» فَعُدِّي تَعْدِيَتَه، فأغْنَت الجملة عن جُمْلَتَين.

زيدت «الباء» في عبارة: ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لتوكيد عموم النَّفْي والتنْصِيصِ عَلَيه.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبيِّناً ما فَعَلَ فِرْعَوْنُ ضِدَّ آيَةِ عَصَا مُوسَىٰ المدهشَةِ الْمُرْعبَة:

• ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيم] أي: عظيم السِّحْر شَدِيد المهارة فيه، فَدَلَّتِ القراءتان على أنَّهُ طَلَبَ إحضارِ كُلّ «سَحَّارٍ» عليم أوّلاً، وبَعْدَ ذلِكَ طَلَبَ إحْضَار كُلِّ «سَاحِرٍ» عَلِيمٍ بالسِّحْر.

والْغَرَضُ من الإتيان بِسَحرَةِ مِصْرَ في زمَانِه أن يُجْرِيَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مُوسَىٰ مباراةً بالسِّحْرِ، رَاجِياً أَنْ يَغْلِبَ سِحْرُ سَحَرَتِهِ مَا جاء بِهِ مُوسَىٰ عليه السلام، وَقَدْ سَبَقَ فِيمَا نَزَلَ مِنْ سُوَرٍ تَفْصِيلُ أَحْدَاثِ هٰذِهِ المباراة، إعداداً وإجراءً. واكْتَفَىٰ الْبَيَانُ هُنَا بِذِكْرِ لَقْطَةٍ من لَقَطاتِ سَاعَةِ إجراءِ المبارَاةِ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: فحِينَ جاء السَّحَرَة مِنَ الأقاليم المصريَّةِ ومُدُنها وقُراها، واجْتَمَع بهم فرعَوْنُ، وعَرَضَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ الَّذِي دَعاهم إليه، وَوَعَدَهُمْ بالْأَجْرِ الكبير المجْزِي، وبأنْ تكونَ لَهُمْ حُظْوَةٌ عِنْدَه، وأَعَدُّوا عُدَّتَهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِيما سبَقَ أَنْ أَنْزَلَ اللهُ مِنْ سُوَر،

وَحَضَرُوا مَكَانَ المباراةِ الَّذِي تَمَّ تَحْدِيدُهُ بتفاوضٍ سابقٍ بَيْنَ فِرْعَوْنَ ومُوسَىٰ علَيْهِ السلام، وَقَالَ السَّحرَة: إمَّا أَنْ تُلْقِي وإمَّا نَكُونَ أَوَّل مَنْ أَلْقَىٰ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ من أدواتكم ووسائلكم السِّحْرِيَّةِ ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟﴾ مَا أَلْقَوْهُ وسَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ واسْتَرْهَبُوهم ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ﴾ عَلَيْهِ السَّلَامُ واثِقاً بِنُصْرَةِ اللهِ لَهُ وفَاتّاً في عَضُدِهم ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ الَّذِي يُخَيِّلُ لِأَعْيِنِ الناسِ تَخْييلاً، ولَا يَقْلِبُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ بما آتانِي من آيَةٍ حَقِيقيَّةٍ، يَقْلِبُ بِهَا الْعَصَا فيَجْعَلُها بِخَلْقِه ثُعْباناً حَقِيقِيّاً، ذَا حَيَاةٍ وقُدْراتٍ وأفعالٍ حَقِيقِيَّةٍ غَيْرِ صُورِيَّةٍ، إِنَّكُمْ بِسِحْرِكُمْ مُفْسِدُونَ فِي الأرْض، مَعَ سَيِّدِكُمْ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وَجُنُودِه، وَ﴿.. إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ فَلَا يَجْعَلُهُ عمَلاً صَالحاً مُؤَدِّياً نتيجَةً نافِعَةً صالحة، لِأَنَّ غايَةَ المفْسِدِينَ مِنْهُ الإفساد لَا الإصلاح.

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ مُشيراً إلىٰ انْتِصَارِ آيَةِ مُوسَىٰ عليه السّلام، على كُلِّ سِحْرِ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ في المباراة بَيْنَهُمَا: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: وأحَقَّ اللهُ الْحَقَّ الّذِي أَرْسَلَ بِه مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَام، فَنَصَرَهُ وَجعَلَهُ هُوَ الثابتُ، وأَبْطَلَ سِحْرَ سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ فجعَلَهُ زَاهِقاً، وانْقَلَبَ السَّحَرَةُ علَىٰ سِيِّدِهم فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، وأَعْلَنُوا إيمَانَهُمْ بِرَبِّ مُوسَىٰ وَهارون، وخَرُّوا سَاجِدِينَ للهِ رَبّ العالِمين، وَكانَ هٰذا تَطْبيقاً لِجُزْئِيَّةٍ مِنْ جُزْئِيَّاتِ سُنَّةِ اللهِ فِي كَوْنِه، وهِيَ أَنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ التَّكْوينية الَّتِي يَقُولُ فيها للشيء الَّذي أرادَهُ وتَمَّ بِهِ قضاؤه: كُنْ، فَهُوَ يكُونُ فوراً على مرادِه جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سلطانه، ومن إحْقَاقِهِ لِلْحَقِّ نُصْرَةُ رُسُلِهِ وتأْيِيدُهُمْ في رِسَالاتِهِم الحقّ الَّتِي أَرْسَلَهُمْ بها.

قول اللهِ تعالى:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٨٣﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ هٰذِهِ الآيةَ تتحدَّثُ عَنِ المراحِلِ الأَخِيرَةِ، لمَسِيرَةِ مُوسَىٰ الدَّعوِيَّةِ في مِصْرَ لِدِينِ اللهِ الحقّ الَّذِي أَمَرَه بِتَبْلِيغِهِ لِلْمِصْرِيِّينَ، وَلِبَنِي إِسْرَائيلَ قَوْمِهِ عِرْقاً ونَسباً فِيها.

● ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾: أي: فَمَا آمَنَ بِه رَسُولاً مُسْلِماً لَهُ ومتّبعاً، ضُمِّنَ فِعْلُ «آمَنَ» مَعْنَىٰ فِعْل «أَسْلَم» فَعُدِّي تَعْدِيته، فاغنت الجملةُ عن جُمْلَتَيْن.

● ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾: أي: إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ بَنِي إِسْرائيلَ، الَّذِينَ يشْتَرِكُ مَعَهُمْ في السُّلالَةِ الواصِلَةِ إلَىٰ يَعْقُوبَ وإسحاقَ وَإِبْراهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلام.

أَمَّا مَنْ آمَنَ بِه كامرأة فرعون، ومَاشِطَةِ ابْنَتِه، وامرأةِ خازِنِه، ومُؤْمِنِ آل فِرْعَوْنِ، فإنَّهُمْ لَمْ يَتَّبِعُوهُ مُسْلِمِينَ لَهُ، إِذْ منَعَهُمْ خَوْفُهُمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وجَبَرُوتِهِ مِنْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ مناصِرِينَ له، ومُسْلِمين له.

وعبارَةُ: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ تُشْعِرُ بأنَّ كثيراً مِنْ مَلأ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وهُمْ من أعْيَانِهِمْ وَكُبَرَائِهم لَمْ يُؤْمِنُوا لِمُوسَىٰ وهَارُون عليهما السّلام إيماناً دِينيّاً، مع خضوعِهِمْ لَهُمَا خُضُوعاً قوميّاً.

الذُّرِّيَّة: النَّسْلُ مِنَ الذُّكُورِ والإِنَاث، أَصْلُها «ذُرِّيئَة» سُهِّلَتِ الهمزة، وأدْغِمَتْ بالياء قَبْلَها، وتُجْمَعُ عَلَىٰ «ذَرارِي».

● ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ﴾: أي: آمَنَ هؤلاءِ الذُّرِّيَّةُ مِنْ بَنِي إسرائيل لموسَىٰ، حالَة كَوْنِ نُفُوسِهِمْ مضْطَرِبَةً على قلقٍ وخَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَبَطْشِه وَجَبَرُوته، وخَوْفٍ من تَثْرِيبِ مِلَئِهِمْ من بني إسرائيل لهم، إذْ يُحَذِّرُونَهُمْ من نِقْمَةِ فِرْعَوْنَ وتَسَلُّطِهِ علىٰ كُلِّ بني إسرائيل بِسَبَبِ إيمانِ شبانِهِمْ وَذَرَارِيهم بموسَىٰ وَهارون وإِسْلامِهِمْ لَهُما.

• ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾: أي: علَىٰ خَوْفٍ مِنْ فرعَوْنَ أَنْ يَنْتَقِمَ مِنْهُم، مُعَذِّباً لهم.

الفِتْنَة: تأتي بمَعْنَىٰ التَّعْذِيب، وهذا المعنى هو المرادُ هُنا.

• ﴿.. وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

أبانَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بهٰذِه العبارة وَصْفَيْن ذَمِيمَيْن من أَوْصَافِ الْجَبَابِرَة في الْأَرْض، وهُمَا:

الْأَوّل: كونُ فرعَوْنَ مُسْتَعْلِياً في الأَرْضِ، أي: واضِعاً نَفْسَه مَوْضِعَ الْعُلُوّ، والمراد أَنَّهُ عَاتٍ مُتكبِّرٌ جَبَّار.

الثاني: أَنَّهُ مِنَ المسْرِفِين، أي: من المتجاوزينَ حُدُودَ آثَامِ الملُوكِ وطُغْيَانِهم، حتَّىٰ صَار من الطُّغَاةِ الجبَابِرَة العتاةِ الْبُغَاةِ المستَعْبِدِين لشُعُوبِهم، فهو من هذه الفئة.

الإسْرَاف: هو في اللُّغَة تَجَاوُزُ الْحَدِّ المأْلُوفِ في النَّاس عَدَمُ تجاوزه، فالمعاصي والمخالَفَاتُ لِلْحَقّ أَو الْوَاجِبِ أو الحكمةِ في التَّصَرُّفِ، إذا زَادَتْ عمَّا يَرْتَكِبُهُ مُعظَمُ النَّاسِ عادَةً كانَتْ إِسْرافاً.

قول الله تعالى:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

دلَّ هذا البيان على أنَّ الّذِينَ آمَنُوا بموسَىٰ وبما جاء به عن ربّه، وأَسْلَمُوا إسلاماً صَحِيحاً، وكانوا على خوف مِنْ فِرْعَوْن وخَوْفٍ من مَلَئِهِم الإسرائيليين، أَنْ يُعَذِّبَ الجميعَ فِرْعَونُ، شَكَوْا لِمُوسَىٰ عليه السَّلَام تَخَوُّفَهُم، أو رأَىٰ في سُلُوكِهِم آثار هٰذا الْخَوْف، فأمَرَهُمْ بأَنْ يَشُدُّوا

عزائِمَهُمْ مُتَوَكِّلين على اللهِ، ويَعْمَلُوا بما يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ إسلامُهُم غَيْرَ هيَّابِينَ وَلَا وَجِلِين، فاسْتَجابوا له وقالُوا: عَلَىٰ اللهِ تَوَكَّلْنَا. ودَعَوْا رَبَّهُمْ أَنْ لا يُمَكِّنَ الظَّالِمِينَ من تَعْذِيبِهم، وأنْ يُنْجِيَهُمْ من الْقَوْمِ الكافِرِينَ.

أي: وقال مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ للذُّرِّيَّةِ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُ مِنْ بَنِي إسْرَائيل: يَا قَوْمِ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ إيماناً صَحِيحاً صَادِقاً، وأَسْلَمْتُمْ لَهُ مُطِيعين لأوامره وَنواهِيهِ، فَعَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوَكَّلُوا في الثَّبَاتِ والمجاهَدَةَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ، واعْمَلُوا بما يجبُ عليكم أَنْ تَعْمَلُوهُ، صَابِرِينَ طَالِبِين الأَجْرَ والْمَعُونَةَ وقُوَّةَ العزيمةِ والثباتَ على الحقِّ مِنْه جَلَّ جلاله.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ﴾: أي: فعَلَيْهِ وَحْدَه تَوَكَّلُوا، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ من تقديم المعمول على عَامِله، فالمعنى: لا تَتَوَكَّلُوا إلَّا عَلَيْه وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ مِنْ قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصُوف.

أمّا الإيمان الصَّحِيحُ الصادقُ فثَمرتُهُ في السُّلُوكِ النّفسيّ صِدْقُ التوكُّلِ علَىٰ اللهِ، لطَرْدِ القلَقِ وتحْقِيق الطُّمَأْنينَة الداخِلِيَّة.

وأمّا الإسْلَامُ الصّحِيحُ الصَّادِقُ فالتوكُّلُ على اللهِ يُمِدُّ صَاحبَهُ بِقُوَّةِ العزيمة، والصَّبْرِ عَلَىٰ المجاهَدَة، والقيام بالتكاليف الإسلامِيَّةِ بثباتٍ وإتقانِ عَمَلٍ، دُون خوفٍ ولَا وَجَلٍ.

وللدَّلَالَة عَلَىٰ الفَرْقِ بيْنَ كَوْنِ التوكُّلِ أثراً من آثار الإيمان في السُّلُوك النفْسِيِّ، ومُمِدّاً بالْقُوَّةِ والْهِمَّةِ الْعَلِيَّةِ لَدَىٰ التطبيقاتِ الإسلاميَّة، جاءت العبارة: ﴿.. يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

- ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾: أي: فاسْتَجابُوا لِمَا أمَرهُمْ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، فأعْلَنُوا تَوكُّلَهُمْ علىٰ الله.

- ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾:

الفِتْنَة: اسْمٌ يُطْلَقُ على: «الاختبار، والتَعْذِيب، والتضليل، والإغراء للإغواء، والْبَلْبَلَة والاضطراب، وأصْلُ معنى الفتنة الصَّهْرُ بالنار للمعدنِ لاختبارِه، فيُطْلَقُ على الْإحْراقِ بالنّارِ والتَّعْذِيب بها.

فَدُعَاؤُهُمْ: ﴿.. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ معناهُ فيما يَظْهَرُ: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَوَاقِعَ فِتْنَةٍ لِلْقَوْمِ الظَّالِمين، أي: لَا تُمكِّنْهُمْ مِنْ فِتْنَتِنَا فِي دِينِنَا بإغراءاتِهِمْ، وتضليلاتِهِمْ، وتَعْذِيبهم لَنَا.

فإنّنا إنْ فُتِنَّا في دِيننا وَنَحْنُ طلِيعَةُ المؤمنين المسلمين، صِرْنَا وسِيلَةَ فَتْنَةٍ لِلآخَرين، إذْ يَتَأَثَّرُونَ بفِتْنَتِنَا عَنْ دِيننا فَيُتَابِعُونَنَا، فَنكُونَ نَحْنُ بِذَلِكَ فِتْنَةً لَهُمْ.

فَدُعَاؤُهُمْ هذا له لازِمَان: أَوَّلُهُما حِمايَتُهُمْ مِنْ أَنْ يُفْتَنُوا، ويكونُ هذا بتَثْبيتهم على الحقّ، وثَانِيهمَا حِمَايَةُ غَيْرِهِمْ من أَنْ يُفْتَتَنُوا بِهِمْ تَأَثُّراً بِهِمْ، فيما لَوْ ضَعُفُوا فَفُتِنُوا بتأثير وسَائِلِ الظَّالمِينَ الكَيْدِيَّة.

وفي وَصْفِ مُسَلِّطِي أدَواتِ الفِتْنَةِ بأنَّهُمْ ظالمِون، إشْعَارٌ بِمَا يَتَّخِذُونَهُ مِنْ ظُلْمٍ مَادِّيٍّ، وَظُلْمٍ مَعْنُويٍّ نَفْسِيٍّ وفِكْرِيّ.

ودُعَاؤُهُمْ: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ دَلَّ على أنَّهُمْ سَأَلُوا رَبَّهُمْ أَنْ يُخَلِّصَهُمْ بِرَحْمَتِهِ، مِمَّا هُمْ مُحَاطُونَ بِهِ مِنْ قُوَىٰ الْبَغْيِ والطَّغْيَانِ الْفِرعَوْنِيَّةِ الإكْرَاهِيَّة عَلىٰ الْكُفْر.

فَأَضَافُوا في هٰذا الدُّعاء وصْفَ فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِ، بأَنَّهُمْ قَوْمٌ كافِرُونَ بِمَا يَجِبُ عَلىٰ كُلِّ العبادِ المكلَّفِين أَنْ يُؤْمِنُوا به، إذْ هُوَ حَقُّ رَبِّهِمْ عَلَيْهِم.

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

• ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾: أي: وأوصلْنا أمْراً بِطَرِيق الوحْيِ الخاصِّ بالأنبياء والْمُرْسَلِين، إلى مُوسَىٰ رَسُولِنا وأخِيهِ هَارُونَ.

• ﴿أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾: «أَنْ» تفسيريَّة، وهي حَرْفٌ لتَفْسِيرِ مَضْمُونِ الْوَحْيِ الَّذِي أَوْحَىٰ اللهُ بِهِ إلى مُوسَىٰ وهارون عليهما السلام.

تَبوَّءَ المكانَ وبِه: أي: نزلَهُ وأقام به، والمعْنَى: اختَارَا وعَيِّنَا لكُما ولِقَوْمِكُما الإسرائيلِيّين بِمصْرَ مَكَانَ بُيُوتٍ ثَابِتَةٍ يَبْنُونَها قُرًى، غَيْرَ الْبُيُوتِ التَّنَقُّلِيَّةِ الَّتي يَتّخِذُها رُعَاةُ الْأَنْعَامِ، إذْ ما زَالَ الإسْرَائِيلِيُّونَ فيما أَرَىٰ يَسْكُنُونَ الخِيَامَ في أَرْضِ «جَاسَان» الخِصْبَة، مُنْذُ مَنَحها لآبائِهِمْ فِرْعَوْنُ الّذي وَلَّىٰ يُوسُفَ علَيْهِ السَّلام علىٰ مَمْلَكَةِ مِصْرَ مِنْ دُونِه، وأطْلَقَ يَدَهُ في تَصْرِيف أمُورِ مِصْرَ وشَعْبِها، فَبنُو إسْرائيلَ مَازَالُوا يَسْكُنُونَ الخيام، مُنْذُ قَدِمُوا إلى مِصْرَ في عَهْدِ يُوسُفَ عليه السّلام، لِأَنَّ مُعْظَمَ معايِشِهِمْ كانَتْ تَعْتَمِدُ على تَرْبِيةِ الْأَنْعَام، مع ما مَهَرُوه مِنْ صناعات، وتَرْبيةُ الأنْعَام تَعتَمِدُ علىٰ التّنَقُّلِ تَتَبُّعاً لمواقِعِ الكَلأَ الجيِّدِ الّذي تَرْعَاهُ المواشي.

• ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أي: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ في الأرضِ الَّتِي تختارانِهَا لِبناءِ البيُوتِ السَّكَنِيَّةِ الثَّابتَةِ ذَاتَ قِبْلَةٍ.

القِبْلَة: في اللُّغَةِ الْجِهَةُ، وتُطْلَقُ علَىٰ الكعْبَةِ المشَرَّفَةِ لِأَنَّ المسلِمين يَتَّجهون إلَيْها في صَلَواتِهِم. وكانَتْ قِبْلَةُ الْمُسْلِمِينَ بَيْتَ المقْدِسِ قَبْلَ أنْ يُحَوِّلَهُمْ الله إلى الكَعْبَةِ المشَرَّفَة.

فمعاني هٰذِهِ العبارة تدور حوْلَ ثَلَاثَة احْتِمَالَات.

الاحْتِمَال الْأَوّل: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ جهة واحِدَة، إذْ تَكُونُ أبوابُها ومَدَاخِلُها وَمَخَارِجُها مُتَّجِهَةً لَهَا.

الاحْتِمال الثاني: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ قِبْلَةٍ، مُتَّجِهَةٍ جِهَةَ بَيْتِ

المقْدِس، ويُؤَيِّد هذا الاحتمال أنْ قِبْلَةَ اليهود بَيْتُ المقْدِس.

الاحْتِمَال الثالث: واجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ ذَاتَ قِبْلَةٍ مُتَّجِهَةٍ جِهَةَ الكَعْبَةِ المشَرَّفَةِ في مَكَّة.

وقد يُؤيّدُ هذا الاحتمال ما رُوِي عن ٱبْن عباسٍ من أنّ الكَعْبَةَ كانت قِبْلَة مُوسَىٰ علَيْهِ السلام، وما رُوِي عن الْحَسَن من أنَّ الكعْبَةَ كانَتْ قِبْلَةَ كُلِّ الأَنْبِياء، ولَكِنْ لَا تَقْوىٰ هاتانِ الرِّوايَتَانِ علَىٰ إثباتِ أنَّهُمْ جَعَلُوا بُيُوتَهُمْ مُتَّجِهَةً لِجِهَةِ الكعبَةِ المشرَّفَةِ.

• ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ﴾: أمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ مُوسَىٰ وهارُون عليهما السلام وسَائِرَ المؤمنينَ المسْلِمينَ مِنْ بني إسرائيل بإقامة الصَّلاة.

والمراد بإقامَةِ الصَّلاة المداوَمَةُ والمواظبَةُ عليها في أوقاتها، وأداؤها على الوْجهِ الشّرْعيّ المطلوب فيها، أي: جَعْلُها مستقيمة.

يقال لغة: «أقام الرَّجُلُ الشَّيْءَ» أي: أدامه وواظب عليه، وأدّاهُ مُوفياً حَقَّه.

وهذا التكليف يدُلُّ عَلىٰ أَنَّ الدِّينَ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لِعبَادِه في كُلِّ رِسَالَاتِهِ لَهُمْ، يَشْتَمِلُ علَىٰ رُكْنِ الصَّلاة، وأنَّهُ أوَّلُ أَرْكان الإسلام في الرِّسَالَاتِ الرَّبَّانِيَّة، بَعْدَ إعْلَانِ الدُّخول في الدّين والمبايَعَةِ علَىٰ السَّمْعِ والطَّاعَة.

والصَّلاةُ الَّتي أَمَرَ اللهُ بِها بَنِي إسرائيل هي امْتِدَادٌ للصَّلاةِ الَّتِي كانَ إبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلام يُؤَدّيها، وفيها قيامٌ ورُكُوعٌ وسُجُود، والدَّليل على هذا قول اللهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿.. وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

• ﴿.. وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾: أي: وأَمَرْنا كُلّاً مِنْ مُوسَىٰ وهارُونَ بأَنْ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنين بالسَّعادَة الأبَدِيَّةِ في جَنَّاتِ النعيم يوم الدِّين، وبحياة طَيِّبَةٍ مُعَجَّلَةٍ في الدُّنيا، مع تأييدٍ ونَصْرٍ من الله.

قول اللهِ تَعَالى:

• ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى [لِيَضِلُّوا] من فعل «ضَلّ» أي: لِيَضِلُّوا وَيُضِلُّوا.

الزِّينَة: كُلُّ مَا يُتَزَيَّنُ ويُتَجَمَّلُ بِهِ من مَتَاعِ الحياة الدُّنْيا، ممَّا يُلْبَسُ أو يُرْكَبُ أو يُسْكَنُ أو يُوضَعُ في المساكِنِ والطرقاتِ مِنْ مُعَلَّقَاتٍ ونُصُبٍ وأصْبَاغ ونَفَائِسَ وجواهِرَ وحُلِيٍّ، وأدَواتٍ فاخراتٍ تُسْتَعْمَلُ فِي الطَّعَام والشَّرَاب، وحَدَائِق ذاتِ بِهْجَةٍ، حتَّىٰ ما تُزَيَّنُ بِهِ الْخُيُولُ والجِمَالُ والبِغَالُ والحمير، إلى غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا يَعْسُرُ حَصْرُه.

والمعنى الذي ظهر لي من دُعاء مُوسَىٰ وأخيه بدليل قول الله عزَّ وجَلَّ في الآية التالية (٨٩): ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ هو ما يلي: كانَ هٰذا الدُّعَاءُ في أَوَاخِرِ مَسِيرَةِ مُوسَىٰ وَهَارُونَ الدَّعَوِيَّة فِي مِصْرَ لِفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وسَائِرِ قَوْمِهِما من المصريّين، ورأَيا أَنَّ الابتلاء الاختباريَّ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهِم قَدْ بَلَغَ غايَتَه، وَوَصَلَ فِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ إلَىٰ حالَةٍ ميؤوسٍ من صلَاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الْحُرَّةِ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا إِنْزَالُ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِهِمْ الَّذِي يَجْعَلُهم إذا أَحَسُّوا بِهِ يُؤْمِنُون، ولكِنْ لَا فائِدَة مِنْ إيمانِهِمْ سَاعَتَئِذٍ إِذْ لَا يُقْبَلُ مِنْهُم، فإهْلَاكُهُمْ، وطَرْدُهُمْ مِنْ حَياةِ الابْتِلَاء هُوَ الأَمْرُ الْحَكِيمُ، وبإهْلَاكهم يَتَوَقَّفُ إضْلَالُهُمْ لسَائِرِ الْمصريين ولِمَنْ يَسْتَطِيعُونَ إضْلَالَهُ مِنَ النَّاس بوسَائلهم الإغرائِيَّةِ، أو الْقَهْرِيَّة.

شَرْح فِقَرَاتِ الدُّعاء:

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ وهم وزراؤهُ ومستشارُوه وأعْيَانُ مَمْلَكَتِهِ المناصِرُونَ له، والمؤيّدون لجَبَرُوته ﴿زِينَةً﴾ مِنْ زُخْرُفِ الحياة الدُّنيا ومَباهِجِها وحُلِيِّها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ من الذهب والفِضَّةِ والجواهِرِ يَكْنِزُونَها، ومن الأنْعَام والأَراضِي الّتِي تُنْتِجُ الحبَّ وثمرات الأَشجار ﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الّتي هِيَ حَيَاةُ الابْتِلَاءِ، الَّتِي تَبْتَلِي فيها الموضوعِينَ مَوْضِعَ الابتلاء بما يُلائِمُ نُفُوسَهُمْ، وَيَكْشِفُ مَا فيها مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرّ، وقَدْ جَعَلْتَ مَادَّةَ امْتِحَانِ هٰؤلَاءِ بَحَسَبِ خَصَائِصِ نُفُوسِهِمْ مَا مَنَحْتَهُمْ إِيَّاهُ من سُلْطانٍ وَزِينَةٍ وأمْوالٍ، وَسَبَقَ أَنْ عَلِمْتَ الشَّرَّ الذي في نُفُوسهم وقُلُوبِهِمْ، وأنَّ امْتِحَانَهُمْ سَيَكْشِفُ مَا فِيهَا مِنْ ضَلَالٍ عَنْ سَبِيلِكَ وإضْلَالٍ عَنْ سَبِيلِك.

﴿رَبَّنَا﴾ لَقَد امْتَحَنْتَهُمْ وَأَمْهَلْتَهُمْ إمْهَالاً طَوِيلاً [لِـ] تَكْشِفَ لَهُمْ وَلِغَيْرِهِمْ أَنَّ إرَادَاتِهِمُ الْحُرَّةَ الَّتي مَنَحْتَهُمْ إيَّاهَا لاختِبَارِهم لَا تَعْزِمُ إلَّا علَىٰ أَن **[يَضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ]** وَإلَّا على أَنْ **[يُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ]** وَصَارَ صَلاحُهُمْ وإيمانُهُمْ بالحقِّ أمْراً مَيْؤوساً منه، وَنَرَىٰ قياساً علَى مَا أَجْرَيْتَ رَبَّنَا في المهْلَكِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى غَايَةِ زَمَنِ الإمْهَالِ الطَّوِيلِ الّذِي تُمْهِلُ بِهِ عِبَادَكَ، ثم تُنْزِلُ بِهِمْ عذابك.

﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ بالْمَحْوِ والإزالَة (طَمَسَ الشَّيْءَ وَطَمَسَ عَلَيْهِ» أي: مَحَاهُ وأزالَهُ أو دَفَنَهُ وعَفَّىٰ أثَرَه) كما تُعَفِّي الرّيح آثارَ الأشياء بما تَجْعَلُ فَوْقَها مِن رُكامَاتِ تُرابٍ ورَمْل ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: واضغَطْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ ضَغْطَ إيلامٍ لَهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم شديد ﴿.. فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ وَهَذا مَا أبانَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ مِنْ شَأْنِ فِرْعَوْنَ إذْ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ وَأيْقَنَ بالْهَلَاك.

ذكرُوا وجُوهاً لحذف نون الرَّفْعِ من ﴿يُؤْمِنُوا۟﴾ والّذي أراه أَنَّ «لَا»

مِنْ ﴿فَلَا﴾ نُزِّلَتْ مَنْزِلَةَ «لَنْ» لأنَّها حملَتْ مَعْنَاها التوكيدي، بدلالَةِ الواقع، فَعمِلَتْ مِثْلَ عَمَلِها فَنصَبتِ الفعْلَ المضارِعَ بَعْدَها، وأصْلُ عَبارَة الدُّعَاء: «فَلَا يُؤْمِنُون» وقال الله: «لَنْ يُؤْمِنُوا» وبِتَحْمِيل «لَا» معْنَىٰ «لَنْ» وَدَمَجِ الجملَتَيْن، صَارَتِ العبارَةُ ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ﴾ واللهُ أعْلَم، وهَذا يَدْخُلُ تَحْتَ قَاعِدَة التَّضْمين بِوَجْهٍ عامّ، وهُوَ من مُبْتَكَراتِ القرآنِ الإيجازيَّة.

- ﴿حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حتَّى يَرَوْا بأعْيُنِهِمْ وَسَائِلَهُ مُقْبِلةً إليهم، أوْ حَتَّى يَذُوقُوا أوائلَه.

قول الله تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

مَا جاء في هَذهِ الآيَةِ دَلَّ عَلَىٰ الْفَهْمِ الّذي فَتَحَ اللهُ عليَّ بِهِ للآيَةِ السَّابقة (٨٨).

أي: قالَ اللهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ وهارونَ عَلَيْهِما السَّلام ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ بشَأْنِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه، أيْ: فَسَنُعَذِّبُهُمْ وَنُهْلِكُهُمْ مَعَ جُنُودِهم، ونُنْهِي وُجُودَهُمْ فِي حَيَاةِ الابتلَاء، وَنَطْمِسُ عَلَىٰ أمْوَالِهِمْ الَّتِي كَنَزُوهَا، وَنَضْغَطُ عَلَىٰ قُلُوبِهِم ضَغْطَ تَعْذِيبٍ وإيلَام، ونُخْرِجُهُمْ مِن قُصُورِهِمْ وَجَنَّاتٍ وعُيُونٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وكُلِّ زِينَةٍ لَهُمْ في مِصْر، ونُغْرِقُهُمْ في بَحْرِ «سُوف».

وبهذا تنتهي وظيفتُكُمَا في مصر.

- ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾: في سُلُوكِكُمَا وَفي قيادتِكُمَا لِبَنِي إسْرَائيلَ عَلَىٰ صِرَاطِ رَبّكُمَا طَاعَةً لِأوامِرِه، واجْتِنَاباً لنَوَاهِيه.

الاسْتِقَامَةُ: هي الاعْتِدَالُ والاسْتِواءُ، وعَدَمُ الاعْوِجاج والانحراف. ولمَّا كانَ صِرَاطُ اللهِ مُسْتَقِيماً مُعْتَدِلاً لَا عِوَجَ فيه، كَانَ المطْلُوبُ من سَالِكِيه أن يَسْتَقِيموا علَىٰ سَوَائِه، وأوّل المكلّفِينَ بذلك الرُّسُلُ عليهم السَّلام.

﴿.. وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ وفي القراءة الأخرى:

• [وَلاَ تَتَّبِعَانِ] بنون مكْسُورَةٍ غَيْرِ مُشَدَّدَة، وهي نون التوكيد الخفيفة جاءت بَعْدَ النهي، أمّا قراءة الجمهور فبنون التَّوكيد الثَّقِيلَةِ.

وقد أجاز يونس والفراء[1] وقُوعَ نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، وهو الأَصْوَبُ فيما أرىٰ، لأَنَّ المعنى في الآيَةِ على القراءتين يُلَائمهُ النَّهْي، ولَا حاجَة لاعْتَبارِ «لَا» نَافِيةً، وتَكَلُّفِ التخريجاتِ الفكريَّةِ عليها، التزاماً بعَدَم جواز وقوع نون التوكيدِ الْخَفِيفَةِ بَعْد الألفِ.

• ﴿.. سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: واحْذَرا بشِدَّةٍ من اتِّبَاعِ سَبِيلِ الْجَهَلَةِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ صِرَاط اللهِ الحقّ، من قَوْمِكُمَا الإسرائيليّينَ، بَعْدَ أَنْ أنْجِيكُمْ بِقُدْرَتِي، وأهْلِكَ عَدُوَّكُمْ، فَسَتَلْقَوْن من قَوْمِكُمَا بني إسْرَائِيلَ جُمْهُوراً جَهَلَةً لَا يَعْلَمُونَ، يَتخِذُونَ سُبُلاً فيها ضَلَالٌ مُبِينٌ، وَيَضغَطُونَ عَلَيْكُما بغَوْغَائِيَّاتِهِمْ أَنْ تَتَّبِعُوهم أوْ توافِقُوهم، كَما حَصَلَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ عبادتِهِم العِجْلَ، وَرَفْضِهِمْ أَنْ يأخُذُوا تَعْلِيمَاتِ كتابِ اللهِ بقُوَّةٍ وطاعَةٍ وعَزْم.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿۞ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾:

---

(١) يَرَىٰ سيبويه والكسائي عَدَم جواز مجيء نون التوكيد الخفيفة بعد الألف، وما جاء في هذه الآية يَدُلُّ على الجواز نظراً إلى المعنىٰ.

• ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾: فعل «جَاوَزَ» مثل فعل «جَازَ» يَتعدَّىٰ إلى مفْعولٍ واحد، تقول لغة: «جُزْتُ الطَّرِيق وجاوَزْتُه» إذا سَلَكْتَهُ وَمَشيْتَ فيه حتَّىٰ انْتَهيْتَ مِنْهُ، وابْتَعدْتَ عَنْ آخرِ جُزْءٍ مِنه.

﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾: الباء الجارَّة هُنا مَعْنَاها المصاحَبَة.

يُحدِّثُ اللهَ جَلَّ جَلاَلُهُ عَنْ نَفْسِهِ بضَمِيرِ المتكلّم العظيم، فيبيّنُ لَنَا أَنَّهُ كان مُصَاحِباً بني إسْرائيلَ بِقُدْرَتِهِ العظيمَةِ الْجَلِيلَةِ، حِينَ أَمَرَهُمْ بِعُبُورِ الْبَحْرِ حتَّىٰ جَعَلَهُمْ يُجَاوِزُون مكان الْفَلْقِ مِنَ الْبَحْرِ، ويَصِلُونَ إلىٰ الْبَرِّ بَعِيداً عَنْ سَاحِلِ الْبَحْر.

أَسْنَدَ اللهُ عزّ وجلَّ إلى نَفْسِهِ الْمُجَاوَزَةَ مُصَاحِباً مَعَهُ كُلَّ بَنِي إسْرَائيل بقيادة مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ، والمرادُ أَنَّهُ كانَ يجْتَازُ مَعَهُم بِعِنَايَتِه، ومَعُونَتِهِ، وحفظِهِ لهم، مع كُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا كُلُّ فَرْدٍ مِنْهم، هُوَ وَرَكَائِبُهُ وَمَاشِيَتُهُ.

أي: وسِرْنَا بالعِنَايَةِ والحفظ والمعونة مصاحِبينَ بَنِي إسرائيل، الطَّرِيق الْيَبَس الّذِي فَلَقْنَا الْبَحْرَ عَنْه، حتَّىٰ قَطَعْنَاهُ، وخَرَجْنَا مِنْهُ إلىٰ الْبَرِّ وَأَوْصَلْنَاهُمْ آمِنِينَ.

هذا التعبير البديعُ دَلَّ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، مَنَحَ بَنِي إسْرَائِيلَ بِقِيَادَةِ مُوسَىٰ ووَزِيرِه هَارُون عَلَيْهِما السَّلامُ، حِينَ عُبُورِ الطَّرِيق في الْبَحْرِ، شَرَفَ الْمَعِيَّةِ الرَّبَّانِيَّة لَهُمْ، مُعْتَنِياً بِهِمْ، وحافِظاً لَهُمْ ومُعِيناً.

وهذا المعنى المطابِقُ لما جاءَ فِي كتُب اللّغَة مِنْ معنى كلمة «جَاوَزَ» أولَىٰ فيما أرى من اعتبار الباء في: ﴿بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ للتَّعْدِيَةِ إلىٰ المفْعُولِ الثانِي، وأن يكُونَ المعْنَى: وأَقْطَعْنَا بَنِي إسْرَائيل الْبَحْرَ، أَوْ وَجَعَلْنَاهُمْ مُجَاوِزِينَ الْبَحْرَ حتَّىٰ بَلَغُوا الشَّطّ.

• ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ﴾: **[أتْبعَهُمْ]** بُمعْنَى: «تَبِعَهُمْ» يُقَالُ لغة: «تَبعَ الشّيْءَ، تَبعاً، وتَبَاعاً، وتُبوعاً» أي: سَارَ مُتَابعاً أَثَرَهُ لِيَلْحَق

بِهِ. ويقال أيضاً: «أَتْبَعَهُ، واتَّبَعَهُ» قال القراء: «أَتْبَعَ» أَحْسَنُ من «اتَّبَعَ».

﴿بَغْيًا﴾: أي: ظُلْماً وَتجاوزاً لِحُدُود الْحَقّ.

﴿وَعَدْوًا﴾: أي: وَجَرَىٰ وَرَاءَهُمْ هُوَ وَجُنُودُهُ جَرْياً بِسُرْعَةٍ لِيُدْرِكَهم، لأَنَّ بَنِي إِسْرَائيلَ قَدْ فَارَقُوا منازِلَهُمْ فِي مِصْرَ قَبْلَ أَنْ يُعِدَّ فِرْعَوْنُ جَيْشَهُ بأَيَّام، فَهُوَ بحَاجَةٍ إلى أَنْ يَعْدُوَ مُسْرِعاً لِيَلْحَقَ بِهِمْ، يقالُ لُغَةً: «عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، وعُدُوّاً، وتَعْدَاءً، وَعَدْواناً» أي: جَرَىٰ.

هذا الْفَهْمُ أَوْلَىٰ فيما أرى من اعْتِبَارِ «عَدْواً» بمُعْنَىٰ «ظُلْماً» إذْ هذا المعنى مساوٍ لمعنَىٰ «بَغْياً» والتأسِيسُ بالدَّلالَة علَىٰ معْنًى آخر، أَوْلَىٰ مِنْ تَوكيد المعْنَىٰ السَّابق بتَعْبِيرٍ مُسَاوٍ معْطُوفٍ عليه.

• ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾: أي: حَالَة كَوْنِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِه بَاغِين وَعادِينَ على تأويل المصْدَرِ بالمشْتَق، وهو كثير.

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾:

قَبْلَ هٰذا البيانِ، وبَعْد: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ كَلَامٌ طَوِيلٌ مَطْوِيٌّ، أبانَتْهُ نُصُوصٌ قُرْآنِيَّةٌ مُتَعَدِّدَة، ومنها ما جاء في الآيات من (٥٧ ـ ٦٦) من سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) وقَدْ سبَقَ تَدَبُّرُها، وَالتَّدَبُّرُ التكامُلِيُّ للنُّصُوصِ القرآنيَّةِ حَوْلَ مَوْضوعٍ واحدٍ يَكْشِفُ المطويات.

أي: واقْتَرَبَ جَيْشُ فِرْعَونَ مِنْ بني إِسْرَائيلَ الَّذِينَ أَوْقَفَهُمْ عنه التَّقَدُّم بَحْرُ سُوف، وَتَرَأَىٰ الْجَمْعَان، وقال الإِسْرَائيليون لموسَىٰ عليه السَّلام: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال لهم موسَىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾. فَأَوْحَىٰ اللهُ عزّ وجَلَّ إِلَىٰ مُوسَىٰ أن يَضْرِبَ بعَصَاهُ الْبَحْر، فانْفَلَقَ ذَات الْيَمِينِ وَذَات الشمال، فصار كُلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيم، وجَعَلَ اللهُ لبني إِسْرَائيل طَرِيقاً في الْبَحْرِ يَبساً، فَمَشَوْا فِيه، وأَعْمَىٰ اللهُ بَصائِرَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجَيْشه، فتَبِعُوا

بَني إسْرائيلَ في الطّرِيقِ وسَطَ الْبَحْرِ المفْلُوق، وحِينَ خَرجَ آخِرُ خارجٍ من بني إسْرَائيلَ مَعَ رِكابِهِ إلىٰ الشَّطِّ الآخر، وَسَارَ آخِرُ مُرافِقٍ لِجَيْشِ فِرْعَوْنَ في طَرِيق الْبَحْر، حتَّىٰ إذا تَوسَّطُوا أو اقْتَربُوا مِنَ الشَّطِّ الآخر، أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجلّ مُوسَىٰ أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بعصاهُ، لِيَلْتَئِمَ الماءان على فِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ وجنودِهِ، فضَرَبَ موسى عليه السلام البحر بعصاهُ فانْضمَّت مياه الْبَحْرِ فأغْرَقَتْ الْجَيْشَ الْفِرْعَوْنيَّ كُلَّه.

وَكَانَ مِنْ أمْرِ فِرْعَوْنَ سَاعَتَئِذٍ أَنَّهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ أي: بَلَغَهُ ونَاله:

﴿... قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ فأعْلَنَ إيمانَهُ وَإسْلامَهُ، في اللّحظاتِ الّتي لَا يُقْبَلُ فيها إيمَانٌ ولا إسْلامٌ مِمَّنْ كَانَ كافراً قَبْلَها، إذْ يكون زَمَنُ الامْتِحانِ قَدِ انْتَهىٰ.

فَقِيلَ لَهُ عَقِبَ ذَلِك:

﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾:

وَيَظْهَرُ أَنَّ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ أَو الملَكَ المأمُور بِقَبْضِ رُوحِهِ قَالَ لَهُ هَذَا الْقَوْل، وليْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِهِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ أَوْ يَنْظُر إليه.

هٰذِه العبارة مُقْتَطعَةٌ مِنَ الحدَثِ علىٰ طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي الاقْتطاع مِنْ مَاضِي الأَحْدَاثِ، أو ممَّا سَيأْتي أو سَوْفَ يأتي في أحْداثِ المستَقْبَل.

﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾: أي: أَأَلآنَ تُؤْمِنُ وَتُسْلِمُ وَقَد انْتَهىٰ زَمَنُ امْتِحَانِكَ، إنَّ إيمَانَكَ لَا يُقْبَلُ مِنْكَ الآنَ فَقَدْ دَخلْتَ عَتَبَةَ الدَّار الآخرة.

﴿.. وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾: أي: والحال أَنّكَ قَدْ عصَيْتَ بالكفر والتكذيب قبل أن يُدْرِكَكَ الغرقُ فَينَالَكَ بالتعْذِيب والإهلاك، وكُنْتَ قَبْلُ فِي حَيَاتِكَ السُّلْطانِيَّةِ القاهرة، مَلِكاً مُفْسِداً لقَوْمِكَ من الملُوكِ الطُّغاةِ الْمُفْسِدِين.

المفْسِدُ: الّذي يَعْمَلُ في إتْلافِ الأَشْيَاءِ والأَحْيَاءِ، وتَحْويلِها من

كَوْنِها صالحةً نَافِعَةً إلى كوْنِها غير صالحة ولا نافِعَة، أوْ إلَىٰ ضارَّةٍ وكَرِيهَةٍ تَنْقُلُ إلَىٰ غَيْرِها الْفَسَادَ بالْعَدْوىٰ، أو بالأعمال الْمَقْصودة.

ومنَ الإفساد نَشْرُ الكُفْرِ والْإلحاد والوثَنِيَّةِ في الأرض، وإخراج النفوس عن فِطَرِها السَّوِيَّةِ التي فَطَرَها اللهُ عَلَيْها، ونَشْرُ الفِسْقِ والفجورِ والْإبَاحيَّاتِ في النَّاس، ونَشْرُ الظُّلمُ، والْعُدْوانِ في المجتمع البشري، وإفْسَادُ الضَّمَائِرِ السَّوِيَّةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ على حُبِّ الْحَقِّ والْخَيْر، وكراهِيَةِ الْبَاطِلِ والشَّرّ.

قول الله تَعالَىٰ خِطَاباً لفرعَوْنَ بالْأَمْرِ التَّكْويني:

﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً . . . ﴿٩٢﴾﴾:

أي: تَمَّ الْقَضاءُ بأنْ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ، فصَدَرَ الْأَمْرُ التكويني بذلِكَ، فأخْرَجْنَا جِسْمَكَ الميّتَ بالْغَرَقِ من الْبَحْر، ولم نأْذَنْ للحِيتَانِ بأَنْ تأْكُله، ورَمَتْكَ أمْوَاجُ الْبَحْرِ علَىٰ الشَّاطِئ، وَجَعَلْنَاكَ عَلىٰ نَجْوَةٍ يُشَاهِدُكَ فِيها النَّاسُ مَيّتاً حقيراً لَا قِيمَةَ لَكَ.

ولا مَانِعَ من أَنْ يَكُونَ مَعْنَىٰ هٰذَا الْقَوْلِ، قَدْ أوصَلَهُ ملَكٌ أَوْ أكْثَرُ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ إلَىٰ نَفْسِ فِرْعَوْنَ الْمُدْرِكَةِ، الَّتِي انْفَصلَتْ عَنْهَا رُوحُ الحياة الْجَسَدِيَّة، بأمْرِ الله.

يُقَال لغة: «نَجَّىٰ فُلَانٌ الشيْءَ» أي: تَرَكَهُ بَنجْوة مِنَ الْأَرْض.

النَّجْوَة: المرتفِعُ مِنَ الْأَرْض.

أي: نُوصِلُ جَسَدَكَ إلى النَّجْوة ونَتْرُكُكَ عَلَيْهَا لِيَشْهَدَكَ النَّاس، فَيَرَىٰ الإسْرَائِيليُّون كَيْفَ فَعَلَ الله بفِرْعَونِ مِصْرَ، الَّذِي يُؤَلِّهُهُ المصريُّون، فَرَمَاهُ علَىٰ نَجْوَةٍ من الْأَرْضِ كسَائِر الْغَرْقَىٰ من جُنْدِه، إذْ كانَ رَمْيُهُ مِنْ جِهَةِ شَاطِئِ الْخُرُوجِ لا مِنْ جهة شاطئ الْعُبُورِ ولِيَرَىٰ الْمِصْرِيُّونَ كيف فَعَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِمَنِ ادَّعَىٰ أَنَّهُ إلَهُهُمْ، ثُمَّ ادَّعَىٰ أَنَّهُ رَبُّهُمُ الْأَعْلَىٰ.

﴿بِبَدَنِكَ﴾: أي: مَصْحُوباً بِبَدَنِك.

ما المراد بالْبَدَنِ هُنَا؟ إذا كان المرادُ بِهِ جَسَدَ فِرْعَوْنَ، فَقَدْ دَلَّ عليْه كافُ الخطاب في عبارة: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ إذْ حياتُه لَمْ تَنجُ من الموْتِ غَرَقاً، فَلَمْ يَبْقَ لِلتَّنْجِيَةِ إِلَّا جَسَدُه، وَأَمَامَنَا لِفَهْمِ عبارة: ﴿بِبَدَنِكَ﴾ احْتِمَالَان:

الاحْتمال الأوّل: أنْ يكُونَ المعْنَىٰ: مَصْحُوباً بكُلِّ بَدَنِك، لم يأْكُلِ السَّمَكُ مِنْهُ يَداً ولَا رِجلاً وَلَا شيئاً آخر.

الاحتمال الثاني: ما ذَكَرَهُ بَعْضُ المفَسِّرين من أنَّ المرادَ بالْبَدَنِ الدِّرْعُ النَّفِيسُ الّذِي كَانَ يَلْبَسُهُ إذا خَرَجَ مَعَ جَيْشِهِ في الحرب، فَمِنْ مَعَانِي الْبَدَنِ في اللُّغَةِ الدِّرْع، ولَهُ شَاهِدٌ من كلام كَعْبِ بْنِ مَالك، وتَنْجِيَةُ دِرْعِهِ معَهُ عَلَامَةٌ علَىٰ أنّه هُوَ فِرْعَوْن، إذَا غَيَّرَ الْمَوْتُ غَرَقاً بعْضَ صِفَاتِ جَسَدِه.

أقول: لا مَانِعَ مِنْ إرادة المعْنَيَيْنِ معاً، على طَرِيقَة القرآنِ الإيجازية، وهو مذهب معظم الفقهاء وعلماء أصول الفقه.

• ﴿.. لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ..﴾: أي: لِتَصِيرَ بِرَمْيِ جَسدِكَ على نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ قتيلاً غَرَقاً، عَلَامَةً دَالَّةً مَنْ يَأْتي خَلْفَكَ مِنَ المُلوك على أَنَّ مَن يَدَّعِي الإلَـٰهِيَةِ أَو الرُّبُوبيَّةَ يَنْتَقِمُ اللهُ مِنْهُ ومن ملَئِه وأنصاره وجُنُودِهِ انتقاماً مُهيناً فيه إبَادَةٌ وتَعْذِيب.

• ﴿.. وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾: فِي هٰذِه العبارة بيانٌ مِنَ الله عزَّ وجَلّ يتَحدَّثُ بِهِ عَنْ أحوالِ الناسِ تُجاهَ آيَاتِه في كُونِه، فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ غافِلُونَ عنْها، مُنْصرِفُون لأمُور دُنياهم، مَعَ أن اللهَ عزّ وجَلَّ قَدْ كَرَّمَ الإنسانَ، فَهو يُخاطِبُ فِكْرَهُ وأدواتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِ عَنْ طَرِيق آياتِهِ فِي كَوْنه، فَيَنْصَرِفُ الكثِيرُ من النَّاسِ عَنْ مُلاحَظَةِ آيَاتِه، انْشِغَالاً بالحسِّيَّاتِ كما تَنْشَغِلُ الأنْعَام أكْلاً وشُرْباً وسِفَاداً.

الْغَفْلَة: انصرافُ الذِّهْن عَنْ مُلاحَظَةِ مَا تَجِبُ مُلَاحَظَتُهُ وَمُرَاقَبَته، مع

وُجُودِه في مجال الإدْراكِ أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِه، وإمكان إدْرَاكه لَوْ لَا وُجُودُ الصَّارف أو السَّهْوِ عَنْه.

ممّا ورَدَ في السُّنَّة بشَأْنِ فرعون وهو يَغْرَقُ:

(١) عن ابْن عبَّاسٍ رضي اللهُ عَنْهُما قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ:

«أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ فقالَ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ قَالَ لِي جِبْرِيلُ: يَا مُحَمَّدُ لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ[1]، فَأَدُسُّهُ في فِيهِ، مخافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَة».

رواه أحمد، والترمذيُّ وحَسَّنَهُ، وابْنُ جَرِير، وٱبْنُ المنْذِر، وٱبْنُ أَبِي حَاتم، والطبراني، وٱبْنُ مَرْدَويه، وصحَّحَهُ الحاكم.

(٢) وعَنْ أبي هُرَيرَة رضي اللهُ عنْهُ، عنِ النبي ﷺ قال: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ: مَا كَانَ عَلَىٰ الْأَرْضِ شَيْءٌ أَبْغَضَ إِليَّ مِنْ فِرْعَونَ، فَلَمَّا آمَنَ جَعَلْتُ أَحْشُو فَاهُ حَمْأَةً وَأَنَا أَغُطُّهُ[2]، خَشْيَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَة».

رواه الطبرانيُّ في الْأَوْسط، وأخْرَج أبو الشيخ عن أبي أمامَةَ نَحْوَه مَرْفُوعاً.

وجاء حَدِيث ابن عباس من عدَّة طُرُق، قال الترمِذِيّ في بَعْضِها: حديث حسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيب.

وأخْرَجَ حديثَ أَبِي هُرَيرة مَرْفوعاً ٱبْنُ جرير، والبيهقي.

وأخرَج ٱبْنُ مَرْدَوَيْهِ عَن ٱبْن عُمَر نَحْوَه مَرْفوعاً.

أقول: لَمْ يَفْعَلْ جِبْرِيلُ عليه السّلام مَا فَعَلَ لو لَمْ يَكُنْ مَأذُوناً مِنْ

---

(١) **مِنْ حَالِ الْبَحْر:** مِنْ طِينِهِ الْأَسْودِ. يُطْلَقُ لفظ «الْحَالِ» في اللُّغة على الطين الأسْوَدِ والْحَمّأة، ضِمْن مَعَانٍ كثيرة يُطْلَقُ عليها.

(٢) **الْحَمأة:** القِطْعَةُ مِن الطِّين الأسْود. **أغُطُّهُ:** أي: أغْمِسُهُ في الماء، وأَضْغَطُ عَلَيْهِ.

رَبّه، وهِي حَرَكَةُ غَيْظٍ دَلَّتْ على ما في نَفْسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام مِنْ بُغْضٍ لِفِرْعَوْن، علَىٰ أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَفْعَلْهَا لَمَا قَبِلَ اللهُ إيمانَهُ وَإِسْلامَهُ وهُوَ يُصارِعُ الْمَوْتَ غَرَقاً، فَقَدِ انْتَهَىٰ زَمَنُ ابْتِلَائِهِ، ودَخَلَ عَتبَةَ الْآخِرَةِ، وشَاهَدَ مَا يَشْهَدُ المحْتَضَرُونَ في لَحظَاتِ الْمَوْتِ، وهَذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوص المتَعَدِّدَةُ، فَمَنْ تَوَجَّهَتْ لَهُمْ مقدماتُ نُذُرِ عَذَابِ الله لَهُمْ، وأَيْقَنُوا أَنَّهُم هَالِكُونَ لا مَحالَة، لَمْ يَنْفَعْهُمْ إيمانُهُمْ ساعَتَئِذٍ، ولَمْ تَنْفَعْهُمْ تَوْبَتُهُمْ، ولَوْ لَمْ تَمسَّ أَجْسَادَهُم المعَذِّبَاتُ الْقَوَاتل.

قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ مُتَحَدِّثاً عَنْ تَحْقِيقِ مَا وَعَدَ الله آبَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِبْراهِيمَ وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ، فِي أَرْضِ فِلِسْطِينَ، بَعْدَ وَفَاةِ هَارُون وَمُوسَىٰ علَيْهِما السَّلام، وَظُهورِ مُلْكِ طَالُوتَ فداوُدَ فَسُلَيْمان:

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

يَنْتَقِلُ البيان القرآنيُّ في هٰذه الآيَةِ مِنْ فَصْلِ عُبُورِ بني إسرائيل من طَرِيق الْفَلْقِ في الْبَحْرِ، وهَلَاكِ فرعَوْنَ وملَئِهِ، وكُلِّ الجنُود الَّذِين كانوا مَعَهُ غَرقاً فِي بَحْرِ «سُوف» إلَىٰ فَصْلٍ مُتَأَخِّرٍ من تَاريخ بني إسرائيل، وهُوَ الْفَصْلُ الّذِي ملَّكَهُمُ اللهُ فِيهِ مَا مَلَّكَهُمْ من الأرضِ الّتي بَارَكَ فيها مِنْ فِلِسْطِين وبِلَادِ الشَّام تَنْفِيذاً لِمَا كَانَ قَدْ وَعَدَهُ إبْراهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوب عليهم السّلام، وليَضَعَ بني إسْرَائيلَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بالْمَجْدِ والْمُلْكِ والثَّرَوَاتِ، والْعُيُونِ والجنَّاتِ والمقَامِ الكَرِيم، بَعْدَ أَنْ كَانُوا فِي الذُّلِّ والْعُبُودِيَّةِ والْهَوانِ في مِصرَ تَحْتَ سُلْطَانِ فرعَونَ ومَلَئِه وأَنْصارِه وجُنُودِه.

واخْتِيرَ هٰذا الْبَيانُ لما فِيهِ من عَرْضِ صُورَتَيْنِ مُتَنَاقِضَتَيْن بَيْنِ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ والّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنْ عُلُوّ في الأَرْضِ، وَجَبَرُوتٍ وسُلْطَانٍ وزِينَة، وما انْتَهَوْا إلَيْهِ بِكُفْرِهِمْ وطُغْيَانِهِمْ وفسادِهِمْ وإِفْسَادِهِمْ، مِنْ إِذْلَالٍ

وتَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِل، وبَيْنَ ما كَانَ عَلَيْهِ بَنُو إسرائيل في مِصْرَ مِنْ ذُلٍ ومَهانَةٍ واسْتِعْبَادٍ وتَسْخِيرٍ، وما انْتَهَوْا إلَيْهِ بإيمَانِهِمْ، ورَغْبَةِ صُلَحَائِهِمْ في الْعَمَلِ الصَّادِقِ بِدِين اللهِ وَنَشْرِهِ، مِنْ مَجْدٍ وسُلْطَانٍ وتَمْكِينٍ في الْأَرْضِ، ومَتَاعٍ طَيّبٍ حَسَنٍ، ورِزْقٍ وافِرٍ من الطّيّبات، ومَقَامٍ كَرِيم.

لكِنَّهُمْ لَمَّا كَفَرُوا وطَغَوْا وبَغَوْا وَفَسَدُواوأفْسَدُوا في الْأرض، سَلَبَهُمْ اللهُ مَا مَكَّنَهُمْ فيه، وضَرَبَ عَلَيْهِمُ الذِّلَّة والمسْكَنَة والشَّتَاتَ في الأرض، إلَّا بَحبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ من الناس.

• ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: كانَ هٰذا أيَّامَ طَالُوت ودَاوُد، وسُلَيْمَان، وذُيُول الْعُهُودِ الزاهِرَةِ لِهؤلاء.

﴿بَوَّأْنَا﴾: أي: أنْزَلْنَا وَأسْكَنّا. يُقَالُ لغة: «بَوَّأَ فُلَانٌ فُلَاناً المَكَانَ» أي: أنْزَلَهُ فيه، ويُقَالُ أيضاً «أبَاءَهُ المنزل».

﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: **الْمُبَوَّأُ**: المنْزِلُ الَّذِي مَنَحَهُمُ الله إيَّاهُ وأنْزَلَهُمْ فِيهِ، في الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكَ اللهُ فيها. ومَعْنَىٰ ﴿مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾: مُبَوَّءٌ نِعْمَ هُوَ مَنْزِلاً حَسَناً يفِيضُ بالخَيْرَات والمتاعِ الطّيب.

هذا التعبير هو من إضافَةِ الموصُوف إلى صفته، وأصْلُهُ: مُبَوَّأٌ صِدْقٌ، أيْ: حقَّقَ الموصُوف في الواقِعِ كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ من كمال صفاته، فاسْتَحَقَّ الثَّنَاء والْمَدْحَ بما يَدُلُّ علَىٰ كَمَال المطابَقَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّورَةِ المثْلَىٰ لنَوْعه، وذَلِكَ هُو الصِّدْقُ حَقّاً.

ونظيره قول العرب: «رَجُلُ صِدْقٍ» و«امْرَأَةُ صِدْقٍ» هذه صيغَةٌ عَرَبيَّة مِنْ صِيغ الثَّنَاء والْمَدْح. وقد جاء في القرآن على مَنْهجها: «قَدَم صِدْق ـ مَقْعَد صِدْق ـ لِسَانُ صِدْقٍ ـ مُدْخَل صِدْق ـ مُخْرَجَ صِدْق ـ مُبَوَّأ صِدْق».

• ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: أي: ورَزَقْنَاهُمْ فِي بِلَادِ الشَّامِ مِنْ أنواع الطيبَاتِ الكثيرات، مِنْ مآكِلَ ومَشَارِبَ ومَلابِسَ وَمَنَاكِحَ وغيرها. ومَعْلُومٌ

أَنَّ بِلَادَ الشَّام تَفِيضُ بالثَّمراتِ والزُّروعِ الكثيرة والمراعِي الخِصْبَةِ، وتَكْثُرُ فيها الْأَمَاكِنُ الصَّالِحَةُ لبناءِ المساكِن الطيِّبة.

• ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: الفاءُ في: ﴿فَمَا﴾ فَصِيحَةٌ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف. أي: فجاءَهُمُ الْعِلْمُ الدِّينيُّ الرَّبَّانِيُّ بِبَلَاغاتِ مُوسَىٰ وَهارُونَ والأنبياء والرُّسُل من بَعْدِهما عليهم السَّلام، واتَّبَعَ أحْكامَ دِينِ الله بَعْضُهُمْ، وخَالَفَهُمْ آخَرُونَ مِنْهُم، إذْ جَاءَ بَعْدَ صَالِحيهمْ خَلْفٌ فَاسِدٌ، وَرِثُوا الكتابَ الرَّبَّاني ولَمْ يَعْمَلُوا بأحْكامه، وحَرَّفُوا في دِينِ اللهِ فغَيَّرُوا وَبَدَّلُوا ووضَعُوا أحْكاماً جَاهِلِيَّةً مِنْ عِنْدِهم افتراءً عَلَىٰ الله.

وتَدُلُّ هٰذه العبارَةُ مَعَ النَّظَرِ إلَى تَارِيخِ بَنِي إسْرائيلَ على أَنَّ الله عزّ وجَلَّ سَلبَهُمْ مَا بَوَّأَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ مُبَوَّءٍ صِدْق، بِسَبَبِ كَثْرَةِ انْحِرَافِهِمْ عَنْ صِرَاطِ الله، وفَسَادِهِمْ وإفسادِهِمْ في الأرْض، ودُخولِ الشِّرْكِ والْوَثَنِيَّاتِ إلى مجْتَمعَاتِهم، وبسَبَبِ ظُلْمِهم وطُغْيانهم وعُدْوانِهِمْ على عباد الله بغَيْرِ حَقّ.

• ﴿.. إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وَلَا يَقْتَصِرُ الجزاءُ علىٰ مَا عَاقَبْنَاهُمْ بِهِ في الحياة الدّنيا، فإنَّ رَبَّكَ أيُّهَا المتلَقِّي لآيَاتِ الْقُرْآنِ المُجِيدِ، والمتَفَهِّمُ لما تَدُلُّ عليه سوف يَقْضِي يَوْم الْقِيامَة بَيْنَ بَنِي إسْرَائِيلَ في كُلِّ مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ فِي حياة الإبْتِلَاء، من حَقٍّ وباطلٍ، وخَيْرٍ وشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، وأفْعَالٍ حَسَنَةٍ وأفعالٍ قَبيحه، وبَعْدَ قَضَائِهِ بَيْنَهُمْ يُجَازِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بَحسَبِهِ، ضِمْنَ قاعِدَتي الْفَضْلِ لِلْمُحْسنين، والْعَدْلِ للمسيئين.

ونَحْنُ نعْلَمُ مِنْ نُصُوصِ القرآنِ المجيدِ أَنَّ كُلَّ الموضوعين موضع الابْتِلَاءِ في الحياة الدُّنْيا، سَوْفَ يَقْضِي اللهُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ فيما كَانُوا فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ، وسَوْفَ يُجَازِي كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بِحَسَبِ مَا كَسَبَ أو اكْتَسَبَ فِي رِحْلَةِ امتحانِهِ في الحياة الدنيا.

وبهذا تَمَّ تدبُّر الدَّرْس الثامن عشر من دُروس سورة (يونس).

والحمد لله على فتحه وتيسيره وتوفيقه ومدده ومعونته.



(٢٣)

التدبّر التحليليّ للدرس التاسع عشر من دُروس سورة (يونس) الآيات من (٩٤ ـ ٩٨)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾.

القراءات:

(٩٤) • قرأ ابن كثير، والكِسَائي، وخَلَف: **[فَسَلْ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[فَاسْأَلْ]**.

هاتان القراءتان لغتان عَرَبيّتانِ لفعل الأمرِ من «سَأَلَ».

(٩٦) • قرأ نافع، وابْنُ عَامر، وأبو جَعْفر: **[كَلِمَاتُ]** بالْجَمْع.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[كَلِمَتُ]** بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين: **[كَلِمَتُ رَبِّكَ]** و**[كَلِمَاتُ رَبِّكَ]** واحد، فالمفرد المضاف إلى مَعْرِفَةٍ يَعُمُّ.

تمهيد:

ظاهِرُ الآيتيْنِ الأولَيَيْنِ مِنْ هَـٰذا الدَّرْسِ يَدُلُّ علىٰ أنّهما موجَّهتان للرَّسُولِ محمّد ﷺ، ولكِنّ التّدبُّر المُتأنّي يَكْشِفُ أنَّهما مُوَجَّهتّان للرَّسُولِ ظاهراً، والمقْصُودُ إسْمَاعُ الشَّاكِّين في الأخبار الَّتِي سبَقَ بَيانُهَا عَنْ مُوسَىٰ وبَني إسْرَائِيلَ وفِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ، في الدَّرْسِ الثَّامِنَ عشر السّابِقِ.

وهي آياتٌ مَدنِيَّةُ التَّنْزيلِ، ضُمَّتْ بأمْرِ الْوَحْي إلى مَوْقِعِها مِنْ سُورَةِ (يُونس/ ٥١ نزول) المكيّة. ولعَلَّ بَعْض الَّذِينَ أسْلَمُوا فِي المَدِينَةِ ولمَّا يَدْخُلِ الإيمانُ في قُلُوبِهِم، ممَّنْ لهُمْ صِلَةٌ سَابِقَةٌ بِيَهُودِ المدِينَةِ، دَارَتْ فِي خَوَاطِرِهِمْ أفْكارٌ، وتَحرَّكَتْ فِي نُفُوسِهِمْ رَغَبَاتٌ في أنْ يَسْأَلُوا أَحْبَارَ يَهُودِ الْمدِينَةِ، عَمَّا وَرَدَ عَنْ بَنِي إسرائِيلَ في الْقُرْآن، دُونَ أَنْ يُفْصِحُوا عَنْ ذَلِكَ بألْسِنَتِهِمْ، وعَلِمَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ مَا تَحرَّكَتْ بِهِ نُفوسُهُمْ، فأنْزَلَ قُرْآناً خاطَبَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ بقولِهِ له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: بِشَأْنِ بَنِي إسْرَائِيلَ وَالرَّسُولِ مُوسَىٰ عليه السَّلام ﴿فَسْـَٔلِ﴾ أي: الْيَهُودَ ﴿ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أيْ: التوراة وسَائِرَ كُتُب الْعَهْدِ القديم ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ أي: ففي كتُبِهِمْ مَا يَتَّفِقُ مَعَ مَا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ مِنْ قِصَصٍ تتَعلَّق بِمُوسَىٰ وما جَرَىٰ لَهُ وَتَتعلَّقُ بِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَبِبَنِي إسرائيل، بصورة عامّة.

إنَّ هَـٰذَا الْأُسْلُوبَ الَّذِي خاطَبَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ، من أَفْعَلِ الأساليبِ لِمَسْحِ الخواطِرِ التشكيكيَّةِ، والأحاديثِ النَّفسِيّةِ الّتِي قَدْ تَدُور في نُفُوسِ بَعْضِ حَدِيثي الإسْلَامِ في المدينَةِ، دُونَ أَنْ يُعَبِّرُوا عَنْهَا بألْسِنَتهم، فالرَّسُول محمَّدٌ ﷺ لَمْ يَشُكَّ وَلَمْ يَسْأَل، ومُنْذُ نَزَلَتْ سُورَةُ (يُونُس) في الْعَهْدِ المَكيِّ كَانَ صَلَواتُ اللهِ عَلَيْهِ على كمال الإيمانِ وَالْيَقِينِ بِكُلّ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ، لَا يَعْتَرِي نَفْسَهُ بِشَأْنِهِ أَدْنَى شَكٍ، إلَّا أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُخَاطِبُ أُمَّةَ الرَّسُولِ بأُسْلُوبِ مُخَاطَبَتِهِ للرَّسولِ ﷺ في كثيرٍ من النصوص.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالىٰ:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

• ﴿فِي شَكٍّ﴾: أي: ساقِطاً في مَزْلَقِ شَكّ. **الشَّكُّ لُغَةً**: الظَّنُّ الضَّعيفُ الَّذي لم يَقْتَرِنْ بِدَليلٍ يُوقِعُ في الْحَيْرَةِ والتَّرَدُّد. وهذا غير الشَّك في اصْطِلاح الأُصُولِيّين وعُلَمَاء المنْطِق، الّذِي هُوَ التَّرَدُّدُ بَيْنَ احْتِمالَيْنِ مُتَكَافِئَيْنِ في الْقُوَّةِ، ومَعْلُومٌ أنَّ المعَانِيَ اللُّغَوِيَة هي الَّتِي يَجِبُ أَنْ تُفْهَمَ في ضَوْئها الكلماتُ القرآنيَّة.

• ﴿مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: ممَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ قُرْآنٍ بِشَأْنِ مُوسَىٰ وبني إِسْرَائيلَ، وفِرْعَوْنَ وَقَوْمِه.

• ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾: أي: فاسْأَلْ أحْبَارَ الْيَهُودِ وعُلَمَاءَهُمْ، الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ فِي كُتُبِهِمْ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فيها عَنْ مُوسَىٰ وَبَنِي إِسْرَائِيل، وفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، لِيُطْلِعُوكَ إذا صَدَقُوا عَمَّا كُتِبَ فِيهَا مِنْ أَخْبَارٍ مُدوَّنَةٍ لَدَيْهِم.

وقَدْ قرأْتُ مَا جاءَ في إِصْحَاحَاتِ سِفْرِ الْخُروج المعتمدة الآنَ عِنْدَهُمْ، فَوَجَدْت أَنَّهُمْ يُفَصِّلُونَ الْأَحْدَاثَ المشَارَ إِلَيْهَا تَفْصِيلَاتٍ كَثِيراتٍ، قَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ مُجْمَلاتٍ مُحَرَّرَات، خالياتٍ مِنْ تَزَيُّدَاتِ كُتَّابِ كُتُبِهِمْ، أو نَاقِلِي قِصَصِها.

سَبَقَ في التمهيد أنَّ هذا التوجيه للرَّسُولِ ﷺ في الظاهر، لَيْس هو المقصود به، بل المقصودُونَ بِهِ بَعْضُ حَدِيثي الإِسْلَامِ في المدينَةِ، الّذِينَ دَارَتْ في خَوَاطِرِهِمْ، واعْتَلَجَتْ في نُفُوسِهِمْ تَسَاؤلَاتٌ بِشَأْنِ أَخْبَارٍ مُفَصَّلَةٍ

جاءَتْ في القرآن المجيد، عن موسَىٰ وهارونَ وبَنِي إسرائيل، وفِرْعَوْنَ وقَوْمِهِ، وكَانَ لِهؤُلاءِ صِلَةٌ بِيَهُودِ المدِينَةِ قَبْلَ هِجْرَةِ الرَّسُولِ ﷺ إليها، ودُخُولِهِمْ فِي الإسْلام، وإِذْ عَلِمَ اللهُ مَا فِي نُفُوسِهِمْ دُونَ أنْ يُعْرِبُوا عَنْهُ بألْسِنَتِهِمْ، وَجَّهَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ لِرَسُولِهِ مَا لَوْ أَعْرَبُوا عَنْهُ بألْسِنَتِهِمْ، لَكَانَ الكَلامُ مُوَجَّهاً لَهُمْ، وللإشْعَارِ بهذا لَمْ يَضَعِ اللهُ هذا الْبَيَانَ في سُورَةٍ مَدَنِيَّةٍ مع أنَّهُ مَدَنِيُّ التّنْزِيل، بَلْ وَضَعَهُ فِي سُورَةٍ مَكِيَّةٍ، وَلَوْ أَنَّ الرَّسُولَ حَدَثَ في نَفْسِهِ شَكٌّ ما، لأنْزَلَ الله عَزَّ وجَلَّ هَـٰذا البيان مع إنْزَالِهِ سُورَةَ (يُونُس) أو غَيْرِهَا مِنَ السُّوَرِ المَكِّيَّة، ولم يُؤَخِّرْ إنْزَالَهُ إلَىٰ الْعَهْدِ المَدَنِي، وَقَدْ وَضَعَهُ فِي سُورَةٍ مَكيّةٍ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَوَّلِ سُورَةٍ مَدَنِيَّة هي سورَة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) من السُّوَر المكيّة (٣٥) سورة.

وللإشعار بأنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ لَمْ يَشُكَّ مُطْلَقاً جاء في أول البيان استعمال حَرْف «إنْ» الشَّرْطِيَّة الَّتي تُسْتَعْمَلَ فيما لَمْ يَقَعْ، أو فيما هو مستَبْعَدُ الوقوع، مِثْل قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

ومَعْلُومٌ عَقْلاً وَنصًّا، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ولَنْ يَكُونَ للهِ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ وَلَدٌ مَا.

- ﴿... لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

جاء الْبَيَان مُصَدَّراً بالتَّوكِيدِ والتحقيق بعبارَة [لَقَدْ].

- ﴿جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: جاءَكَ الْخَبَرُ الصَّادِقُ الْحَقُّ الْمُطَابِقُ لِلْوَاقِعِ تَمَاماً، مِنْ رَبِّكَ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً.

- ﴿... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾: أي: فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِّين. يقالُ لغة: «امْتَرَىٰ في الشّيْءِ» أي: شَكَّ فِيهِ.

• ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ نَهْيٌ لِلْمَقْصُودِ حقيقَةً بِتَوْجِيهِ البيانِ لَهُ، وهُوَ بَعْضُ حَدِيثِي الإسلامِ فِي المدينَةِ، إذْ بدأ يَتَسَلَّلُ إلَىٰ حديثي الإسلام فِيها النِّفَاقُ بالمكْرِ الْيَهُودِيّ فيها، ويُلْحَقُ بِهِ نُظَراؤه دواماً.

أي: وَلَا تَكُونَنَّ أيُّهَا المتلَقِّي للْبَيَانِ القرآنِيِّ الَّذِي تَعْتَلج في نَفْسِهِ تَسَاؤُلَاتٌ مِمَّا سَبَقَ بَيانُهُ آنِفاً، مِنْ فِئَةِ الَّذينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ الْبَيَانِيَّةِ المُنَزَّلَةِ في القرآنِ، فالشَّكُّ قَدْ يَكْبُرُ في النَّفْسِ بَتراكُمَاتِ الْأَوْهَام، حَتَّىٰ يَكُونَ فِيها بِقُوَّةِ الأمْرِ الْمَعْلُوم بأدِلَّةٍ صَحِيحَةٍ، وعِنْدَئذٍ يَكُونُ الشَّاكُّ فِي بدايةِ الحَرَكَةِ النَّفْسِيَّةِ مِنَ المكَذِّبينَ بآيَاتِ اللهِ، السَّاقِطِينَ في أَرْجَاسِ الكُفْرِ في مَصِيرِها الْأَخِيرِ.

فإذا وَصَلْتَ إلى دَرَكَةِ التَّكْذِيب بآيَاتِ اللهِ البيانيّة المنَزَّلَةِ في كِتَابِهِ، فإنَّكَ تَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ لكُلِّ شيءٍ، وأعْظَمُ خَسَارَةٍ تَخْسَرُهَا هِيَ خَسَارَتُكَ لِنَفْسِكَ، إذْ تَقْذِفُ بِهَا إلَىٰ عذابٍ أبَدِيٍّ في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ وفي القراءة الأخرى: [**كَلِمَاتُ رَبِّكَ**] مُؤَدَّىٰ [**كَلِمَتُ رَبِّكَ**] وَ [**كَلِمَاتُ رَبِّكَ**] واحد كَمَا سَبَقَ بيانه.

إنَّ عبارة ﴿حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أو [**كَلِمَاتُ رَبِّكَ**] وأشْبَاهُهُمَا مِثْل [**حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**] قد جاءَتْ في الْقُرْآنِ المجيد بمَعْنَىٰ تَحَقُّقِ كَلِمَةِ اللهِ الَّتِي تَضَمَّنَتْ تَعْذِيبَهُمْ أو إهْلَاكَهُمْ واسْتِئْصَالَهُمْ، إذْ أَصَرُّوا عَلَىٰ الكُفْرِ والْفَسَادِ والإفسادِ في الْأَرْضِ، والظُّلْم وَالْبَغْي والْعُدْوان، وَمُعَانَدَةِ الحقِّ، بَعْدَ أَنْ مَنَحَهُمُ اللهُ في امْتِحَانِهِمْ كُلَّ مَا تَقْضِي الحكْمَةُ باتِّخَاذِهِ لابْتلائِهِم

الْأَمْثَلَ، وَبَعْدَ أَنْ أَمْهَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إمْهَالاً طَوِيلاً كافِياً، فَلَو اسْتَمَرُّوا في الحياة الدُّنيا إلى الْأَبَدِ، لاسْتَمَرُّوا كَافِرِينَ ظالمين مُعَانِدِينَ إلى الأبَدِ.

وَجَاءَت كلمة «عَلَىٰ» مُنَاسِبَةً لِقَرَار الْعِقَابِ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مُوجِعاً مُؤْلِماً مُسْتَعْلِياً ضاغِطاً مُتَمكِّناً.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهلاكهم إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ، أو كَلِمَةُ رَبَّكَ بِتَعْذِيبهم تَعْذيباً أبَدِيًّا في نَارِ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ، لَا يُوجَدُ لَدَيْهِمُ اسْتِعْدَادٌ مَا لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، مَهْمَا أُمْهِلُوا وَذُكِّرُوا وَعُولِجُوا بالموعِظَةِ تَرْغِيباً وَتَرْهِيباً، ومَهْمَا جُودِلُوا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ بَيَانِيَّةٍ، أَوْ كَوْنِيَّةٍ، أَوْ إعْجَازِيَّة.

إنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يَرَوْا بِأَعْيُنِ رُؤُوسِهِمْ مَقَاعِدَ عَذَابِهِمْ في نَارِ جَهَنَّمَ، وَهَـٰذا يَكُونُ بَعْدَ مَوْتِهِم، أَوْ حَتَّىٰ يَرَوْا الْوَسَائِلَ الرَّبَّانِيَّةَ الْقَادِمَةَ إلى دِيارِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ وقُرَاهُمْ، وَفِيها مَا يُعَذِّبُهُمْ، وَيُهْلِكُهُمْ وَيُبِيدُهُمْ، كَمَا حَصَلَ لِعَادٍ وَثَمُودَ وقَوْم لُوطٍ، وقَوْم شُعَيْب، أَوْ حَتَّىٰ يُطْبِقَ عَلَيْهِمْ مَا يَكُونَ بِهِ تَعْذِيبُهُمْ وَإهْلَاكُهُمْ كَمَا أَطْبَقَ مَاءُ الْبَحْرِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَجُنُودِهِ، إطباقاً مُغْرِقاً مُعَذِّباً مُهْلِكاً مُسْتَأْصِلاً.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾:

أي: إنَّ سُنَّةَ اللهِ في إهْلَاكِ الْقُرَىٰ الْكَافِرَةِ الظالِمةِ لَمْ تَخْتَلِفْ، فَمَا أَهْلَكَ اللهُ قَرْيَةً إهْلَاكَ اسْتئصالٍ شَامِلٍ، إلَّا بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أنَّ الموضُوعِين فيها مَوْضِعَ الامْتِحَانِ لَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً، مَهْمَا أمْهِلُوا، ومَهْما عُولِجُوا بالْإِقْنَاعِ والترغيب والتَّرْهِيبِ، أَمَّا إيمانُهُمْ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا عَذَابَ اللهِ الْأَلِيمَ فَلَمْ يَكُنْ نَافعاً لَهُمْ، لأنَّ اللهَ لَمْ يَقْبَلْ إيمانَهُمْ سَاعَتَئِذٍ، فَلَمْ يَرْفَعْ عَنْهُمُ الْعَذَاب.

وَمَنْ تَوَهَّمَ خِلَافَ هَـٰذا، فَزَعَمَ أَنَّ اللهَ يَرْفَعُ الْعَذَابَ بَعْدَ إِنْزَالِ أَوَائِلِهِ في أَهْلِ قَرْيَةٍ، فَهَلَّا جَاءَ بِمَثَلٍ وَاحِدٍ عَنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ قَدْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ أَوْ كَلِمَاتُهُ، وَبَدَأَت أَوَائِلُ وَسائل تَعْذِيبهِمْ وَإِهْلَاكِهِم تَنْزِلُ عليهم، فَآمَنُوا حينئذٍ، فَنَفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ، فَرَفَعَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الإِهْلَاكِ والاسْتِئْصَالِ.

إنَّ أَحداً لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِي بِمِثَالٍ واحدٍ من واقع حَالِ الْمُهْلَكِينَ السَّابِقِينَ، أو مِنَ الْبَاقِينَ مُثْبِتاً أَنَّ اللهَ تعالىٰ كَشَفَ عَنْهُمُ الْعَذَابَ، إذْ آمَنُوا بَعْدَ أَنْ رَأَوْا بَوَادِرَ إِهْلَاكِهِمْ.

إِنَّهَا سُنَّةٌ ثَابِتَةٌ لَا تَتَخَلَّف، فَلَا يَطْمَعَنَّ كُفَّارُ قُرِيشٍ أو غَيْرُهُمْ، بِأَنْ يُؤَخِّرُوا إيمَانَهُمْ إِلَىٰ سَاعَةِ رُؤْيَتِهِمْ بَوَادِرَ عَذَابِ اللهِ المسْتَأْصِلِ قَدْ شَرَعَتْ تَنْزِلُ عَلَيْهِم.

لَكِنَّ قَوْمَ يُونُسَ قَدْ كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ رَسُولُهُمْ يُونُسُ بِهِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ مَرْحَلَةِ الْيَأْسِ الْكَامِلِ مِنْ إِيمانِهِمْ إِذَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا بالإقناع والترغيب والتَّرْهيبِ والتَّذْكِيرِ والمجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أَحْسَن.

وقَدْ تَصَرَّفُ يُونُسُ باجْتِهَادٍ مِنْهُ فَخَرَجَ مُغَاضِباً لَهُمْ، دُونَ إِذْنٍ مِنَ اللهِ لَهُ بالخروج، ظَانًّا ظَنًّا اجْتِهَادِيًّا أَنَّ اللهَ لَنْ يُضَيِّقَ عَلَيْهِ إِذَا خَرَجَ مُغَاضِباً لِقَوْمِهِ وَمُنْصَرِفاً عَنْهُمْ ومُنْذِراً لَهُمْ بِعَذَابِ الله، دُونَ أَمْرٍ صَرِيحٍ أَوْ إِذْنٍ من اللهِ لَهُ بِذَلِكَ، وَكَانَ الواجِبُ عَلَيْهِ بِوَصْفِهِ رَسُولاً أَنْ لَا يَعْمَلَ باجْتِهَادٍ مِنْهُ في هَـٰذا الأَمْرِ الْخَطِيرِ، فَصَدَّقَ اللهُ إِنْذَارَهُ بإجْرَاءِ الْعَلَامَاتِ الأُولَىٰ، فآمَنَ الْقَوْمُ، فَكَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ في الحياة الدُّنيا.

أمّا يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَآخَذَهُ اللهُ عَلَىٰ خُرُوجِهِ مُغَاضِباً بِغَيْرِ أَمْرٍ أَوْ إِذْنٍ لَهُ مِن رَبِّهِ، فَأَجْرَىٰ تَدْبِيرَهُ الخَفِيَّ، حَتَّىٰ جَعَلَ الحوتَ العظيم في

الْبَحْرِ يَلْتَقِمُهُ وَيَكُونُ فِي فَمِهِ سَجِيناً، فَدَعَا رَبَّهُ واعْتَرَفَ بِخَطِيئَتِهِ فَرَمَاهُ الْحُوتُ بأمْرِ اللهِ عَلَىٰ الشَّاطِئِ سَقِيماً، ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ قَوْمِهِ وَأَعْلَمَه بِأَنَّهُمْ آمَنُوا.

وَلَدىٰ التَّدْقِيق في أحْوال قَوْمِ يُونُس، وهُمْ أَهْلُ نِينَوىٰ، نُلاحِظُ أَنَّهُمْ غَيْر مُسْتَثْنَيْنِ مِنْ سُنَّةِ اللهِ في إِهْلَاكِ الْأُمَم، إِذْ لَمْ يَصِلُوا عِنْدَ إِنْذارِ يُونُس لَهُمْ بِعَذَابِ اللهِ وانْصِرَافِهِ عَنْهُمْ إِلَىٰ حَالَة ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ بل كانت الحكمة تقضي بإمْهَالِهِمْ ومُتَابَعَةِ إِقْنَاعهم، وتذكيرِهِمْ، وتَرْغيبِهِمْ وتَرْهِيبِهِمْ، فاجتهاد يونُسَ عليه السلام قَدْ كان اجتهاداً مجانِباً للصَّوَاب، ولَمْ يُجَارِهِ اللهُ عَلَيْهِ، بَلْ عَامَلَ قَوْمَهُ عَلَىٰ وَفْقِ سُنَّتِهِ في كُلِّ الْأَقْوام.

- ﴿فَلَوْلَا﴾: أي: فَهَلَّا، ومَعْنَاهَا التَّحَدِّي الإعْجَازي للّذِين يَتوهَّمُونَ أَنَّ الْإِيمَانَ يَنْفَعُ أَصْحَابَهُ الكَافِرين إِذَا آمَنُوا بَعْدَ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ أَوَائِلُ التَّعْذِيب، فهٰذا فِرْعَوْنُ لَمْ يَنْفَعْهُ إيمانُهُ حِينَ أَدْرَكَهُ الْغَرَق.

- ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾: أي: فَهَلَّا جَاءَ مُتَوهِّمُو أَنَّ الإيمانَ يَنْفَعُ عِنْدَ نُزُولِ الْعَذَابِ بِمَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ بِتَعْذِيبهم، بِمِثَالٍ تَارِيخيٍّ واحِدٍ، يخالفُ مَا أَبَانَهُ الله عَزَّ وجَلَّ مِنْ سُنَّتِهِ في عباده، وجاء هذا تمهيداً للبيان التالي عَنْ قوم يونس عليه السلام:

- ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾:

أي: لَكِنْ وَاقِعُ حَالِ قَوْمِ يُونُسَ يُوهِمُ أَنَّ سُنَّةَ اللهِ قَدْ خُولِفَتْ في إِهْلَاكِهِمْ، إِذْ كَشَفَ اللهُ عَنْهُمْ عَذَابَ الخِزْي في الحياة الدُّنيا، ومُسْتَبْصِرُ أَمْرِهِمْ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ ميؤوسٍ مَعَها مِن اصلاحِهِمَ عَنْ طَرِيقِ إِرَادَاتِهِمُ الحرَّة، وأَنَّ الأمْرَ بالنِّسْبَةِ إِلَيْهِم يَرْجِعُ إلى اجْتِهَادِ رَسُولِهِم يونس

عليه السلام الّذي لم يَكُنْ مَأْذُوناً به، كَمَا سَبَقَ إيضاحُه، فَهُمْ مَشْمُولُونَ بِسُنَّةِ اللهِ العامَّةِ في أَمْثَالِهم.

وبهذا تمّ تَدَبُّر الدرس التاسع عشر من دُرُوس سورة (يونس).

والحمد لله على فَتْحِهِ ومَدَدِه وتَوْفيقه ومعونته.



(٢٣)
التدبّر التحليلي للدَّرسِ العشرين من دروس سورة (يونس) الآيات من (٩٩ ـ ١٠٩) آخر السورة

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

القراءات:

(١٠٠) • قرأ شعبة: [**وَنَجْعَلُ**] بنون المتكلم العظيم.

وقرأها باقي القراء العشرة: [**ويَجْعَلُ**] بضَمِير الْغَائب الذي يَعُودُ عَلَىٰ اللهِ جَلَّ جلاله.

وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

(١٠١) • قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: [**قُلِ انْظُرُوا**] بكسر اللام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**قُلُ انْظُرُوا**] بضم اللّام.

والقراءتان وجهان عَرَبيان في النطق، وفي الضم مراعاةُ ضمّ الظاء.

(١٠٣) • قرأ أَبُو عَمْرو: [**نُنَجِّي رُسْلَنا**] مِنْ فِعْلِ «نَجَّىٰ» وبإسكان السين من «رُسْلَنا».

وقرأها يعقوب: [**نُنْجِي رُسُلَنا**] مِنْ فعل «أنْجَىٰ» وبضمّ السّين من «رُسُلَنا».

وقرأها باقي العشرة: [**نُنَجِّي رُسُلَنَا**] مِنْ فِعْلِ «نَجَّىٰ» وبضمّ السين من «رُسُلَنَا».

وهي قراءاتٌ متكافئاتٌ لغة.

(١٠٣) • قرأ حفْصٌ عَنْ عاصم، والكِسَائي، ويعقوب: [**نُنْجِ المؤمِنينَ**] مِنْ فِعل «أنْجَىٰ».

وقرأها باقي القرَّاء العشرة: [**نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ**] مِنْ فعل «نَجَّىٰ».

القراءتان متكافئتان لغة.

ووقف يَعْقُوب بالياء في «نُنَجّي». وحذَفَ باقي القرَّاء العشرة هَٰذِهِ الْيَاء وصْلاً ووَقْفاً.

تمهيد:

في هذا الدَّرْس الأخير من دُروس السّورة، تربيةٌ من اللهِ للرسُول ﷺ وللمؤمنين وتَعْلِيمٌ بشأنِ عِدَّةِ قَضَايَا ذاتِ قيمَةٍ عَقَدِيَّةٍ وَدَعَوِيَّة، وفيه توجيهٌ غيرُ مباشر من اللهِ للمعنيّين بالمُعالَجَةِ في السُّورة، إذْ جاء بأسْلُوب تَعْلِيم الرَّسُولِ فَكُلِّ داعٍ إلى دِينِ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يَقُول لهم ما جاء بيانُه في التعليم.

التدبُّر التحليلي:

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

• ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾:

اللهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ قَدْ خَلَقَ الجِنَّ والإنْسَ في الأَرْضِ لِيَضَعَ المؤهَّلِينَ مِنْهُمْ للتَّكْلِيفِ مَوْضِعَ الامْتِحان، والامْتِحَانُ يَقْتَضِي مَنْحَ الإرَادَةِ الحرَّة، لِيُرِيدَ الممتَحَنُ لِنَفْسِهِ مَا يَشَاءُ دُونَ إجبارٍ وَلَا إكْرَاهٍ بِشَأْنِ أيِّ شَيْءٍ هُوَ مُمْتَحَنٌ فِيه بَيْنَ مُرادَيْنِ فأكْثَر، مُتَنَاقِضَيْنِ، أَوْ مُتَضَادَيْنِ أَوْ مُتَخَالِفَيْن، لِيَجْرِي حسابُهُ وفَصْلُ القضاء بِشَأْنِهِ وَمُجَازَاتُهُ عَلَىٰ وَفْقِ مَا تَحَقَّقَتْ بِهِ إرَادَاتُهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، مِنْ حَسَنٍ أَوْ قَبِيحٍ، من صَالحٍ أَوْ غَيْرِ صالح، من إيمانٍ أو كُفر، من طاعَةٍ أو مَعْصِيَةٍ.

وهَـٰذا الأمْرُ الحكيم في الامْتِحَانِ، يَتَنافَىٰ مَعَهُ تَنافِياً تَامًّا إرادَةُ إكْرَاهِ الْمُمْتَحَنِ عَلَىٰ خِلَافِ مَا تَوَجَّهَتْ لَهُ إرادَتُهُ الجازِمَة، فَلَيْسَ للدَّاعِي إلَىٰ اللهِ، وَلَا لِذِي سُلْطَانٍ من المسْلِمِينَ، أَنْ يُكْرِهَ أحداً من النَّاسِ على أنْ يكونَ مُؤْمِناً بِمَا أَمَرَ اللهُ بالإيمانِ به.

على أنَّ الإيمانَ حَرَكَةٌ إراديَّةٌ قَلْبِيَّةٌ لَا يَمْلِكُ أَحَدٌ غير الرَّبِّ الخالِقِ

أَنْ يَجْعَلَهَا مَجْبُورَةً، وَيَسْلُبَها حُرِّيَّتَها، ولَيْسَ مِنَ المعقُولِ إكْراهُهَا، إذِ الإكْرَاهُ لَا يُتَصَوَّرُ إلَّا في الأعمال الظَّاهِرَةِ والسُّلُوكِ الْجَسَدِي، أمّا الأعْمَالُ الْقَلْبِيَّةُ والنَّفْسِيَّةِ فَخفِيَّةٌ لَا يَكُونُ فيها إكراه، قَدْ يَتَظَاهَرُ الإنْسَانُ كاذباً بأنَّه مُؤمِنٌ ويكونُ فِي بَاطِنِهِ كافراً، كما قد يَتَظاهَرُ الإنْسَانُ بالحبِّ، وهو كَارِهٌ مُبْغِض، وكما قَدْ يَتَظَاهَرُ بالتَّمنُّع، وهُوَ شَدِيدُ الرَّغبة.

ولتَثْبِيتِ حَقِيقَةِ حُرِّيَّةِ إرَادَاتِ الموضُوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامْتِحَانِ، وبَيَانِ أَنَّ إكْرَاهَهُمْ عَلَى الْإيمانِ إكراهٌ مُسْتَنكَرٌ في قواعِدِ الدِّينِ وَأُسُسِهِ. وَغَيْرُ مَقبُولٍ وَلَا مَعْقُول، جَاءَ الْبَيانُ في هَـٰذِهِ الْآية، خطاباً للرسُولِ ﷺ فلكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ من أُمَّته:

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ...﴾:

أي: وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَسَلَبَ كُلَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ الْمَوْضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ إراداتِهِم الحرَّة، فَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِين، وعندئذٍ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ كُلَّهُمْ مُؤْمِنِينَ مُجْتَمِعينَ عَلَىٰ الإيمانِ كما جَعَلَ الملائِكَةَ، وَلَكِنْ تتعطَّلُ حينئذٍ غايةُ وضْعِهِمْ مَوْضِعَ الامْتِحان، إذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونُوا مُمْتَحنين وَمَجْبُورِين، هَـٰذا تَنَاقُضٌ، وإراداتُ اللهِ لا تتناقضُ، فَلَمْ يَشَأْ رَبُّكَ أَنْ يُؤْمِنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً، إذْ شَاءَ تَخْيِيرَهُمْ بِمَنْحِهِمْ إراداتٍ حُرَّةً، لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهُمْ.

ولَيْسَ المرادُ منْ عَدَم مَشِيئَتِهِ أَنْ يُؤْمِنُوا كلّهم جَمِيعاً، أَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ بَعْضَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الإيمان، ويَجْعَلَ بَعْضَهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الكُفْر، تَنَزَّهَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُهُ ـ عَنْ هَـٰذا الْعَبَث، بَلْ شَاءَ الاحْتِمَالَ الثَّالث، وهُوَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّة لِيَبْلُوَهُمْ فيما آتاهم.

وَجَاءَ التوكيدُ بعبارتَيْ: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ للتنصِيص عَلَىٰ عُمُومِ ﴿مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ورفع احْتِمَال التخصيص، أو العُموم غير الشامل لكلّ الأفراد.

• ﴿... أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ استفهامٌ فِيهِ تَلْويم الداعي إلَىٰ اللهِ الّذِي يحاولُ اتّخاذَ وَسَائل إكْرَاهِيَّة لإكْرَاه غير المؤمنين على الإيمان، فهذا أَمْرٌ لَم يَشأْهُ اللهُ مع قَدْرَتِهِ عليه بالجبْر...

وهذا المعنى الَّذي دَلَّ عليه هَـٰذا البيان، جاء في نصوص قرآنية مُتَعَدِّدَةٍ، لإبْعَادِ الدُّعاةِ إلَىٰ دِينِ اللهِ عَنْ أيِّ تَصَوُّرٍ يَدْفَعُ بِهِمْ إلَىٰ محاولَةِ إكْرَاهِ غَيْرِ المؤمِنِينَ عَلَىٰ الإيمانِ، بَلِ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ اتّخَاذُ وَسَائِلِ الإقْناع الفكري، والموْعِظَةِ بالترغيب والترهيب، والمجادَلَة بالَّتِي هِيَ أَحْسَن للإقْنَاع أَوِ الإلْزَامِ أو الإفْحَام، فمن هذه النصوص ما يلي:

استعراض سائر النصوص القرآنية حول ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾:

(١) قول الله عَزَّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لسَلَبَ النَّاسَ إرادَاتِهِم الحرَّة، فجعَلَهُمْ مَجْبُورينَ، وحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ أُمَّةً واحِدَةً مُؤْمِنَةً، لا يُوجَدُ فيهم كافِرٌ واحد، إذْ لَا يُجْبِرُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَحَداً على الكُفْرِ ثُمَّ يُحَاسِبُهُ عليه، إنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَىٰ جَدُّهُ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الكُفر.

وبما أَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ جَعَلَ النَّاسِ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّة، فَلَا بُدَّ أَنْ تَخْتَلِفَ إرادَاتُهُمْ بحَسَبِ مَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنْ طَبيعَةٍ حُرَّةٍ، وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ بسَبَبِ ذَلِكَ، مَا دَامَ لَهُمْ تَنَاسُلٌ في الأرْضِ الَّتِي وَضَعَهُمُ اللهُ فِيهَا مَوْضِعَ الامْتحان.

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ فلكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أمّته:

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ

سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وإنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ، فَثَقُلَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وآلَمَكَ، إعْرَاضُ أَهْلِكَ وَعَشِيرَتِكَ، وقَوْمِكَ في مَكَّة عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوتِكَ، وكذلِكَ إدْبَارُ مَنْ أَدْبَرَ مِنْهُمْ وتوَلَّىٰ، ومُعَادَاةُ مَنْ عَادَاكَ مِنْهُمْ، ومشَاقَّةُ مَنْ شَاقَّكَ وَفَكَّرَ بأن يُعِدَّ لِحَرْبِكَ وحَرْبِ مَنْ آمَنَ بك (ذُكِرَ في البيانِ الإعْرَاضُ اسْتِغناءً بدَلالَتِه عَمَّا هُوَ أشَدَّ مِنْهُ وهو الإدْبارُ والتَّولِّي والمشاقَةُ والإعْدَادُ للحْربِ) فَاصْنَعْ مَا تَسْتَطِيعُ من أمْرٍ غَيْرَ الصَّبْر الّذِي أَمَرَكَ رَبُّكَ به، واعْلَمْ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَفِيدَ ممَّا تَصْنَعُ لِنَفْسِكَ ولِلْمُؤْمِنين في هَـٰذِهِ المرحَلَة شيئاً، فَلَا تَتَطَّلَّعْ نَفْسُكَ لإجراءِ آيَةٍ مادِّيَّةٍ خَارِقَةٍ، لَا يَشاءُ رَبُّكَ بِحِكْمَتِهِ إجْرَاءَها لِقَوْمِكَ في مَكَّة.

ولـمَّا كـانَ بَعْضُ أصْحَاب الرَّسُولِ ﷺ في هَـٰذِهِ الْـمَرْحَلَةِ، تَشْتَدُّ حَـرَكَاتُ نُفُوسِهِمْ لِأَنْ يُجْرِيَ اللهُ لِرَسُولِهِ آيَةً مادِّيَّةً خَارِقَةً، أَوْ يَنْصُرَهُ بِمُعْجِزَة، كَانَ من الْحِكْمَةِ أَنْ يُوَجِّهَ اللهُ لِرَسُولِهِ خِطَاباً فِيهِ شِدَّةٌ، والمقْصُودُ بِهَا بَعْضُ أصْحَابِ الرَّسُول ﷺ الَّذِينَ تَشْتَدُّ حرَكَاتُ نُفُوسهم لإجراء آيَةٍ مادِّيةٍ خَارِقَةٍ، يُؤَيِّد اللهُ بها رسُولَه، أو يَنْصُرُهُ بها على خُصُومِه وأَعْداءِ دَعْوَتِهِ، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لرسُوله:

﴿... فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ...﴾.

﴿أَن تَبْتَغِىَ﴾: أيْ: أَنْ تُرِيدَ وتَطْلُبَ، ومَعْلُومٌ أَنْ مَنْ أراد الشَّيْءَ وَطَلَبَهُ سَعَىٰ في تَحْقِيقِه، فالمراد فاتَّخِذْ إن اسْتَطَعْتَ نَفَقاً في الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً في السَّماء فَتَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ خارِقَةٍ تُكْرِهُهُمْ بِها علىٰ أَنْ يُؤْمِنُوا، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ [وَ] اعْلَمْ أَنَّهُ [**لَوْ شَاءَ اللهُ**] لَسَلَبَهُمْ إرادَاتِهِمْ الحرَّة، و﴿لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ مجبورين كَما خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مُجْبُورِين.

﴿... فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾ الَّذِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُمْ قادرون بوسائِلِهِم أنْ يُكْرِهُوا ذوي الإرادات الحرَّةِ حتَّىٰ يَكُونوا مؤمنين وقد خَلَقَهُمُ اللهُ لِيَبْلُوهُمْ فَمَنَحَهُمْ إراداتٍ حُرَّةً غَيْرَ مَجْبُورَة.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الشّورَى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨﴾.

أي: ولَوْ شَاءَ اللهُ لسَلَبَ الناسَ إراداتِهِم الْحُرَّةَ فجعَلَهُمْ مَجْبُورِين، ولَجعَلَهُمْ حِينئذٍ أُمَّةً واحِدَةً مؤمِنَةً مَهْدِيَّة، فاللهُ لَا يَرْضَىٰ لعباده الكُفْر، فَلا يُجْبِرُهم عليه.

ولكن لم يَشَأْ ذَلِكَ، بلْ شَاءَ أَنْ يَضَعَهُمْ مَوْضِعَ الامْتحان لِيَبْلُوهُمْ فيما آتاهم، ثم ليحاسِبَهم ويُجَازِيَهُمْ يوم القيامَةِ بحَسَب مَا كَسَبُوا أو اكْتَسَبُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا، فَيُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي جنَّته، لأنَّها مَكَانُ فيوضات رَحْمَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ لَا تُفارِقُ حِكْمَتَه، فَهُو يُدْخِلُ في جَنَّتِهِ المؤمنين.

وأمَّا الظَّالِمُونَ الْكَافِرُونَ فَيُدْخِلُهُمْ في دَارِ عَذَابِهِ خالِدِينَ، وَمَا لَهُمْ يَوْمَئِذٍ مِنْ وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهم فيشْفَعُ لَهم عنْد ربّهم، ليُعْفِيَهُمْ من العذاب الّذِي يَسْتَحِقُّونه بِكُفْرِهم، ومَا لَهُمْ من نَصِيرٍ يَنْصُرهم فَيَدْفَعُ أوْ يَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابَ رَبّهم:

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للناس:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٣﴾:

أي: ولو شاء الله أَنْ يَجْعلكم أمَّةً واحدةً لسَلبَكُمْ إراداتِكُمْ الحرَّة فجعلكم أمَّةً مُؤْمِنَةً مَهْدِية، ولكِنْ لم يُرِدْ ذَلِكَ، بَلْ أَرَادَ أنْ يَضَعَكُمْ مَوضع الامْتِحان فَمَنَحَكُمْ إرادَاتٍ حَرّة، لِيَبْلُوَكم فيما آتاكُمْ، ونتيجة لابتلائكم سيَكُونُ فيكم ضالُّون، وآخَرُونَ مُهْتَدُونَ، أمَّا الضَّالُونَ فيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالضَّلالة بمشيئته الحكيمة، وأمَّا المهتدون فيَحْكُمُ الله لَهُمْ بالهدايَةِ بمَشيئَتِهِ الحكيمة أيضاً.

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عِنْدَ مُحَاسَبَتِكم، وفَصْلِ قَضائِهِ ثُمَّ تكون مجازاتكُمْ بحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ ابْتِلَائِكُمْ.

(٥) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿. . . وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: ولَوْ شَاء اللهُ لجَعَلَكُمْ أيها النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً مؤمنَة مُسْلِمَةً، غَيْرَ مُخْتَلِفِينَ في طرائِقِكُمْ الَّتِي سَلَكْتُمُوهَا بإراداتِكُمْ، ويكُونُ ذَلِكَ بأَنْ يَسْلُبَكُمْ إرَادَاتِكُمْ وَيَجْعَلَكُمْ مَجْبُورِين، ولَكِنْ لَمْ يَشَأْ ذَلِكَ، وَإِنَّما شَاءَ أَنْ يجعلكُمْ ذوي إراداتٍ حُرَّةٍ، لِيَبْلُوكُم مُخْتبراً لكُمْ فيما آتاكُمْ، في أجسادكم وفي نُفُوسِكُمْ وفي الكوْنِ من حَوْلِكُمْ، ومَكَّنَكُمْ مِن الاخْتِيار الْحُرّ، ويَخْلُقُ لَكُمْ مَا تَخْتَارُونَ، إِذَا تَوَجهَتْ إراداتكُمْ لمَا تَعْمَلُونَ، مَا لَمْ يُعَارِضْ ذلِكَ قضاءً وقَدَراً سَابِقَيْنِ له.

وإذْ مَنَحَكُمْ إراداتٍ حُرَّةً، وَمَكَّنَكُمْ من الاسْتِبَاقِ التنافُسِيّ في فِعْلِ الخيرات، لتنالُوا الدَّرَجَاتِ الرَّفيعاتِ في جَنّاتِ النَّعِيم، فاسْتَبِقُوا متنافسينَ إلىٰ مَقَاصِدِكم فَاعِلِينَ الخيرات.

ومَا تَكْسِبُونَهُ أو تكتسبونَهُ في الحياة الدّنيا حياة امتحانكم، يُسَجَّلُ لكم أو عَلَيْكم، وبَعْدَ مَوْتكُمْ تُبْعَثُونَ إلى حياة الجزاء، وتُرْجَعُون إلىٰ رَبِّكُمْ جَمِيعاً، فَيُنَبئكُمْ بِكُلِّ أعْمالِكُمْ النَّفْسِيَّة والْجَسَدِيَّةَ الّتي اخْتَلَفْتُمْ فيها نتيجةَ

اختلافِ إرَاداتِكُمْ في حياة امتحانكم، لمحاسبتكم وفصْلِ القضاء بينكم ومجازاتكم.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

• وفي القراءة الأخرىٰ: [**وَنَجْعَلُ**] بضمير المتكلم العظيم.

بَعْدَ إثْبَاتِ الإرَادَاتِ الْحُرَّةِ للنَّاس الموضوعين في الحياة الدنيا موضِعَ الابتلاء، كانَ لَا بُدَّ في البيان من دَفْعِ تَوَهُّم أنّ هؤلاء مَتْرُوكُونَ لأنْفُسِهِمْ دُونَ مُتَابعَةٍ ومُرَاقَبَةٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، مُدَبِّر كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ في الكَوْنِ.

أَمَّا الكائناتُ الَّتِي لَيْسَ لَهَا إرَادَاتٌ حُرَّةٌ، فَاللهُ بِخَلْقِهِ المتتابعِ هُوَ الَّذِي يُجْرِي كُلَّ حَرَكَاتِهَا وَتَغَيُّرَاتِهَا وَتَصَارِيفها.

وَأَمَّا الكائنَات الَّتِي مَنَحَهَا اللهُ إرَادَاتٍ حُرَّةً، فَلَا تَتَّجِهُ إراداتُها الحُرَّةُ لِأَيِّ شَيْءٍ إلَّا بإذْنِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَـٰذا الْجَبْرُ في اختياراتِها لِمُرَادَاتِها، بل يَدُلُّ عَلَىٰ الْحُضُورِ والشهُودِ التَّامّ وشُمُولِ الْعِلم، فلا يَجْرِي شَيْءٌ في الوُجُودِ مِنْ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الحرَّةِ، إلَّا بإذْنِهِ وتَمْكِينِهِ ـ جلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ ـ حَتَّىٰ الإيمانُ والكُفر.

إنَّنا قَدْ نُسَلِّمُ أطْفالَنا ألْعاباً ليَلْعَبُوا بِهَا، وقَدْ نَجْعَلُهُمْ تَحْتَ إشْرَافِنا وَمُرَاقَبَتِنَا، وقَدْ نَتْرُكهمْ يُخَرِّبُونَهَا ونَحْنُ نُشَاهِدُ ذلِكَ، وهَـٰذا مِنَّا إذْنٌ وَتَمْكِينٌ، وَقَدْ يَكُونُ لمحاسَبَتِهِمْ ومُجَازَاتِهِمْ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا بإراداتِهِمْ الحرَّةِ.

فإذا أَخَذَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لُعْبَتَهُ الثَّقِيلَةَ، وأَرَادَ أَنْ يَضْرِبَ بها وَجْهَ أَخِيهِ،

أَوْ يَكْسِرَ بِها شَيْئاً نَحْرِصُ على سَلَامَتِهِ مِنَ الكَسْرِ، مَنَعْنَاهُ ولَمْ نَأْذَنْ له.

فالإِذْنُ يَكُونُ بِتَرْكِ الْعَامِلِ المختارِ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، ولكِنْ قَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بالْمُرَاقَبَةِ التَّامَّةِ والشُّهُودِ لِكُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ من اخْتِياراته.

فالمعنى: وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ ذَاتِ إرادَةٍ حُرَّةٍ مَوْضُوعَةٍ في الحياة الدُّنْيا مَوْضع الامْتِحَان، مُمَكَّنَةٍ مِن الإيمان والكُفْرِ بحُرِّيَّةٍ تامَّةٍ، أَنْ تُؤْمِنَ أَوْ أَنْ تَكْفُرَ إلَّا هِيَ مَصْحُوبَةٌ فِيما تَخْتَارُ بإذْنٍ وَتَمْكِينٍ من اللهِ رَبِّ الْعَالَمِين، دُونَ أَنْ تَكُونَ مَجْبُورَةً عَلَىٰ إيمانٍ أَوْ كُفْرٍ، بَلْ هِيَ مُحَاطَةٌ بالشُّهُودِ والمراقَبَةِ والْعِلْمِ الشَّامِلِ، ومُمَكَّنَةٌ مِنْ أَنْ تُرِيدَ مُرَادَاتِها بُحرِّيَّةٍ تامَّة.

جاء في الآيةِ الاسْتِغْنَاءُ بِذِكْرِ ﴿أَن تُؤْمِنَ﴾ عَنْ ذِكْرِ «أو تَكْفُرَ» والمَعْنَىٰ مُلَاحَظٌ فِيهِ هَٰذا المَطْوِيّ.

﴿... وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾:

أي: ويَجْعَلُ اللهُ رِجْسَ الحكْم بالكُفْرِ ولوازِمِهِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ، الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ بإرادَاتِهِمْ الحرَّةِ أَهْوَاءَهُمْ، وكِبْرَهُمْ، وشَهَوَاتِهِم، وَرَغَبَاتِهِمْ فِي الْفُجورِ، فلا يَضْبِطُونَها، بَلْ يَتَّبِعُونَها مُنْحَدِرِين إلى أَسْفَلِ سَافِلِين، حَيْثُ تَجْتَمِعُ كُلُّ الأَرْجَاسِ المصحوبَة بالعذاب الأَلِيم للّذِينَ هُمْ مُنْغَمِسُونَ فيها.

الرِّجْسُ: هو في الأصل القذر والنَّجَسُ، ثُمَّ حصَلَ تَوَسُّعٌ في إطْلاق اللَّفْظِ، فصَارَ يُطْلَقُ على الرَّذَائِل والقبائح المعنويّة، من العقائد والأفكار والنيَّات والأعمال الظاهرة والباطنة، ثُمَّ عَلَىٰ مَنْ تَجْتَمِعُ فيه هذه الرّذَائل والقبائح، فالمشركونَ وسَائر الكافِرين رِجْسٌ ونَجَسٌ.

العقل: يُطْلَقُ في التعبيرات القرآنيَّة على معنَيَيْن:

المعنى الأول: العقلُ العلمي، وبه تُدْرَكُ مسائل المعرفة، وتحفَظُ معقولةً في الذّاكِرَة.

المعنى الثاني: العقل الإرادي، وبه تُضْبَطُ النَّفْسُ عن اتّباع الأهواء والشهوات، والنّزعاتِ والنزغاتِ الجانحاتِ المؤدِّيات إلى عقاب الله وعذابه.

قول اللهُ تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾:

تعليم مِنَ اللهِ عَزَّ وجلَّ لِرَسُولِه ﷺ فلكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، أَنْ يُتَابعَ مُعَالَجَةَ المعْنِّيينَ بالمعالَجَةِ في السُّورَةِ، مَعَ سَائِرِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بَعْدُ مِنْ مُشْرِكي مَكَّةَ، بِلَفْتِ أنظارِهِمْ إلَىٰ آيَاتِ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ، وهي آيَاتٌ كثيراتٌ سَبَقَ ذِكْرُ كثيرٍ مِنْها بالتَّفْصِيل، فِيمَا سَبَقَ إِنْزَالُهُ مِنْ سُوَرٍ، وقَدْ جَاءَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ بعُنْوانٍ إجْمالِيٍّ عامٍّ لا تَفْصِيلَ فيه، فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟؟:

﴿ٱنظُرُواْ﴾: أي: انْظُرُوا نَظَرَ تَفَكُّرٍ وَتَدَبُّرٍ وبَحْثٍ عِلْمِيّ يُوصِلُكُم إلَىٰ عِلْمٍ يُشْبِهُ الْمُشَاهَدَ بالأَعْيُن.

﴿مَاذَا﴾: أي: مَا الَّذِي.

﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: مَا الَّذِي في السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ من آياتٍ تَكْوِينِيَّةٍ، دَالَّاتٍ عَلَىٰ صِفَاتِ الرَّبّ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ وهذه الصفات تَدُلُّ على وُجُودِ الذّات، وهي ذاتُ الله تَبارَكَ وتَعَالَىٰ.

والمعنى: فإذَا نَظَرْتُمْ هَـٰذا النّظر التدبُّرِيَّ تحقَّقْتُمْ من صِدْقِ رَسُولِكُمْ بما جاءكم بِهِ عَنْ ربكم.

وَبَعْدَ هَـٰذا التوجيه التَّكْلِيفيّ، أَبَانَ اللهُ عَزَّ وجلَّ لرَسُولِهِ فلكُلِّ دَاعٍ إلىٰ اللهِ من أُمَّتِهِ، أَنَّ الميؤوسَ مِنْ إيمانهم عن طريق إراداتهم الحرَّةِ، بَعْدَ

تَجْرِبَتِهِمُ الطَّوِيلَةِ الّتي كَشَفَتْ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا يَحْسُنُ الإعْرَاضُ عَنْهُمْ، لأَنَّ الآيَاتِ وَالْإِنْذَارَاتِ الكَثِيرَاتِ لَا تُغْنِي صَارِفَةً الكُفْرَ عَنْ قَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لأنْ يُؤْمِنُوا، بسبب عنادهم وتحجُّر قُلُوبهم. ضُمِّنَ فِعْل [تُغْنِي] بمَعْنَى «تكْفِي» معنى فعل «تَصْرف» فَعُدِّيَ تَعْدِيته.

فصار المعنى: لا تَكْفِي فتصرف عنهم، أي: الكفر المستقر في أعماقهم.

فقال تعالى: ﴿... وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

الآيات: العلامات، والمراد بها هُنَا الآيَاتُ الكونيَّةُ الرَّبَّانِيّة، والآياتُ الجزائيَّة الّتي تَدُلُّ عَلَيْها الآثار.

النُّذُر: أي: الإنْذَارات، وهي الأخبارُ بعواقب غير سَارّة، وَمِنْها الأخبارُ بالعقوبات الجزائية الرَّبَّانيّة على المكتسبات الإراديَّةِ للموضُوعين في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

﴿لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أُمْهِلُوا وَعُولِجُوا بالإقناع والترغيب والترهيب والمجادلة بالَّتِي هِيَ أَحْسَن، فلا مَطْمَعَ في إيمانهم مُسْتَقْبلاً.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾؟:

يُخَاطِبُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهَٰذِهِ الآيَةِ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أَصْحَابِهِ، بِشَأْنِ المعنيّين الأوّلِينَ بالمعَالَجَةِ في السُّورَةِ وَهُمْ أَئِمَةُ المشْرِكين، الميؤُوسُ من إصْلاحِهِمْ عَنْ طَرِيق إِرَادَاتِهِمْ الحرَّة.

أي: إنْ كَانَ هَؤلَاءِ يَنْتَظِرُونَ شيئاً، كالتَّخَلُّصِ مِنَ الرَّسُولِ محمَّدٍ ﷺ وَمِنْ دَعْوَتِهِ، ومِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، بِمَوْتِهِ أو بِمُحَارَبَتِهِ وَقَتْلِهِ وَقَتْلِ كُبَراء المؤمِنِينَ به، فإنَّهُمْ في الحقيقَةِ لَا يَنْتَظِرُونَ تَحْقِيقَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّ اللهَ خَاذِلُهُمْ وناصِرٌ رَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَاتَّبعُوه.

وَإِنْ كانُوا يَنْتَظِرُونَ شَيْئاً يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ لَهُمْ مُسْتَقْبلاً، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا يَوْماً يَكُونُ فِيهِ تَعْذِيبُهُمْ وإهْلَاكُهُمْ، مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قبلهم، قَوْمِ نُوحٍ، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقَوْم شُعَيب، عَلَيْهِمُ السَّلام، أَوْ فِرْعَوْنَ وجُنودِهِ؟!.

يُرَادُ بالاستفهام في العبارة تَيْئِيسُهُمْ من انْتِظَارِ مَا يَطْمَعُونَ فيه، مَعَ التَّلْويح بإنْذَارهم بعذاب رَبَّانِيّ يَسْتَأْصِلُهُمْ اللهُ به، والمعنى: ما ينتظرون في الحقيقة إلَّا إهلاكهم وتَعْذيبهم إذا لم يؤمنوا.

﴿خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: مَضَوْا مِنَ الأقوام مِنْ قبْلِهم، وهُمْ من جاء ذِكْرُهُمْ آنفاً.

﴿... قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾: أي: قُلْ لهم: إنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بما جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، فَانْتَظِرُوا أنْ لا يَتحقَّقَ لَكُمْ ما تَنْتَظِرُونه، إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ المنْتَظِرينَ أَنْ يَنْصُرَني رَبِّي، ويَنْصُرَ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني عَلَيْكُمْ، ويَخْذُلَكُمْ ويُحْبِطَ كُلّ مَكَايِدِكُمْ وَتَدْبِيراتِكُمْ، ويَرُدَّ سِهَامَكُمْ إِلَىٰ نُحُورِكم.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: ثُمَّ بَعْدَ الانتِظَارِ نُنْزِل بِكُمُ الْعِقَابَ الَّذِي تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُنَا، وَنُنَجّي مِنْكُمْ وَمِنْ شُرُورِكُمْ وَمَكَايِدِكُمْ رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، عَمَلاً بِسُنَّتِنَا الثَابِتَةِ، الّتي نُهْلِكُ فيها الذينَ كَفَرُوا مُعَانِدِينَ طاغِين باغين، وَنُنَجّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، وبمقْتَضاها أهلكْنا الظَّالِمِينَ السّابقينَ.

كذَلِكَ نَفْعَلُ بِمَنْ سَيأْتِي مِن الأَجْيَالِ اللَّاحِقَةِ، الَّتي يُؤَدِّي فيها الدُّعَاةُ وَظَائِفَ الرَّسُول، فَإِنَّنَا نُنَجِّيهِمْ وَنُنَجِّي الَّذِينَ اتَّبَعُوهم مؤمنين، من شُرُورِ الكافِرِينَ الطُّغَاةِ وَمَكَايِدِهِمْ العظمىٰ، وكَمَا كان حَقًّا عَلَيْنَا نَصرُ الرُّسُلِ والمؤمنين مَعَهُمْ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ المؤمنين الصادقين، وَلَوْ لَمْ يَكُنِ رَسُولُ رَبِّهِم بَيْنَهُمْ دَاعِيًا وهادياً وقَائداً. فاطْمَئِنُوا لنَصْرِ الله أيها المؤمنون، إِذَا تَحَقَّقْتُمْ بالشروط الَّتِي أبَانَهَا لتَأْييدِه ونَصْرِهِ.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا﴾ حرف ﴿ثُمَّ﴾ عطف على مطويٍّ مُقَدَّرٍ يَكْشِفُهُ التَّدَبُّرُ المتأَنِّي، والتَّقدير: لَقَدْ كَانَتْ سُنَّتُنَا أَنْ نُمْهِلَ الكُفَّارَ الظَّالِمينَ حتَّىٰ يَصِلُوا إِلَىٰ دَرَكَةِ الميؤوس من صَلَاحِهِمْ عَنْ طَرِيق إِراداتهم الحرَّة. ثمَّ إِذَا بَلَغُوهَا فإِنَّنَا نُهْلِكُهُمْ مُعَذَّبين، وَنُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا، دلَّ على هذا استعمال: [رُسُلَنَا] بالجَمْعِ.

وَمَا زَالَتْ هَـٰذِهِ سُنَّتُنَا بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ رَسُولِنَا مُحمَّدٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نُجْرِي سُنَّتَنَا هَـٰذِهِ فِي الأَجْيَال الْقَادِمَةِ بَعْدَ خَاتَم الْمُرْسَلِينَ، ولو لم يكُنْ بَيْنَهُمْ رَسُولٌ يَعيشُ بَيْنَهُمْ، فَنُنْجِي المُؤْمِنين مثْلَ ذَلِكَ الإِنْجاء.

﴿... حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾: أي: نَحْنُ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ إِنْجَاءً حَقًّا عَلَيْنا، ﴿حَقًّا﴾ نائب مَفْعُولٍ مُطْلقٍ، على أَنَّهُ صِفَتُه، وُصِفَ الإِنْجاءُ بأَنَّهُ حَقٌّ، أيْ: ثابتٌ، لِأَنَّ الله جَلَّ جَلَالُهُ أَوْجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، فجَعَلَهُ أمْراً حَقًّا ثَابِتاً، وسُنَّةً مِنْ سُنَنِه.

قول اللهِ تَعَالَىٰ خِطَاباً لرَسُولِه:

• ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: قُلْ يا مُحمَّد للمشركين الَّذِينَ يَعْبُدُون آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ رَبِّ العالمين: إنْ كُنْتُمْ مُنْغَمِسين في أَوْهَامِ شَكٍّ نَافِرٍ مِنْ دِينِي، فَأَنَا مُتَحَقِّقٌ مِنْ بُطْلَانِ دِينِكُمْ، ومِنْ أَنَّكُمْ لَسْتُمْ عَلَىٰ شيء، وَمُتَحَقِّقٌ مِنْ أَنَّ دِينِي هُو الحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَا تَشُوبُهُ شائِبَةٌ مَا، فأنَا لَا أعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُون مِنْ دُونِ الله، لأنَّ آلِهَتَكُمْ بَاطِلَةٌ بِيَقِين، وَلَكِنْ أَعْبُدُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ العالَمين جميعاً الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ، في آجالِكُمْ الَّتِي قَدَّرَ وَقَضَىٰ أَنْ يَتَوَفَاكُمْ فيها.

﴿يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾: أي: يُمِيتُكم بِقَبْضِ أَرْوَاحِكُمْ وَفَصْلِهَا عَنْ نُفُوسِكُم.

ومعنىٰ تَوَفِّي المَيِّت: استِيفَاءُ مُدَّتِهِ الَّتِي وُفِّيَتْ لَهُ، وهِيَ عَدَدُ الْوَحَدَاتِ الزَّمَنِيَّةِ الصُّغْرَىٰ المقَدَّرَةِ لحيَاتِهِ في الدُّنيا.

واخْتِيرَ في هَـٰذا الْبَيَانِ هَـٰذِهِ الظَّاهِرَة مِنْ ظواهِرِ أفْعَالِ اللهِ في الْعِبَادِ، لِمَا فيها مِنْ مَعْنَىٰ الْقَهْرِ الّذِي لَا تَمْلِكُ النُّفُوسُ مُعَانَدَتَهُ، وهَـٰذِهِ الظَّاهِرَة تُلَائِم الحالَة النفْسِيَّةَ للْمعَالَجِين في السُّورَةِ، الَّذِينَ اشْتَدَّ كُفْرُهُمْ ومُعَانَدَتُهم للْحَقّ الَّذِي جَاءَهُمْ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِم الْقَاهِرِ فَوْقَ عِبَادِهِ بِالْمَوْتِ الَّذِي لَا يَمْلِكُ النَّاسُ كُلُّهُمْ دَفْعَه.

• ﴿... وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: واعْلَمُوا أَنِي أُمِرْتُ مِنْ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبّ جميع العالَمِين، أنْ أَكُونَ مُؤْمِناً بِما أَمَرَ بِالإيمانِ بِهِ، وَواحداً مِنْ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَا إعْفَاءَ لِي مِنَ الْإيمان وَلَوْ كُنْت نبيًّا وَرَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ لَدُنْهُ للنَّاسِ أَجْمَعِين، فإنْ لَمْ أُؤمِنْ، فَأَنَا مُعَرَّضٌ لعقابِهِ يَوْمَ الدِّينِ كَسَائِرِ الكافِرِين، فَلَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ إذَا دَعَوْتُمُونِي إلَىٰ عبادَة آلِهَتِكُمْ، والكُفْرِ بما جاءَني عَنْ رَبِّي فأوْقِفُوا كُلَّ مُحَاوَلَاتِكُم وَعُرُوضِكُمْ وإغْرَاءَاتكُمْ في هَـٰذا المجال.

قَوْلُ اللهِ تعالَى:

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ

مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾:

أي: واعْلَمُوا أَيُّها النَّاسُ أَنَّ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَرَبَّ جَمِيعِ العالمين، أَوْحَىٰ إليَّ الْقَضَايَا الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا هَـٰذِهِ الآيات من (١٠٥ ـ ١٠٧).

وهي سَبْعُ قضايا تُشْعِرُ بأَنَّ المشركين كانوا يُتابِعُونَ الرَّسُولَ ﷺ بالمفاوضة والمراوضةِ أنْ يَشَارِكَهُم في عِبادةِ آلهتهم لِيُشارِكوهُ في عبادةِ رَبِّ العالمين، فشدَّد الله على رسوله لقطع الطريق عليهم.

القضية الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ تعالىٰ خطاباً لرسُوله: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: أَمَرَني رَبِّي بأَنْ أُقِيم وَجْهِي للدِّين، حالَةَ كَوْني مائِلاً عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ مِنَ الخارِجَاتِ عَنِ اسْتِقَامَتِهِ، وأن أَجْعَلَ اتّجاهَهُ مُلْتَزِماً دَواماً صِرَاطَ دِينِ اللهِ المستقيم.

إقامة الشيء لغةً تأتي بمَعَنَىٰ المواظَبَةِ والمداوَمَةِ عليه، مع إيفائِهِ حَقَّهُ لَدَىٰ أدائه. وتأتي بمعنَىٰ تَعْدِيل الشيْءِ وجَعْلِهُ مُسْتقيماً لَا عِوَجَ فيه.

الوَجْهُ: يُطْلَقُ في اللّغة على ما يواجهك من الرأس وفيه العينان والأنف والفم، ويُطلَقُ على الجهةِ والناحية، ويُطْلَقُ على السَّنَنِ والطريقة. ويطلق على القصد.

ونَفْهَمُ مِنْ هَـٰذا التكليفِ الرَّبّاني للرَّسُولِ، أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَمَرَ رَسُولَهُ بِأَنْ يَجْعَلَ اتّجاهَهُ في كُلِّ حياتِهِ مُلازِماً الطَّاعة لأوامِرِ الدِّينِ وَنَوَاهِيهِ في سُلوكه الشخْصِيِّ مع المواظبة والمداومة، وَأَنْ يُوَجِّهَ طاقَاتِه لِنَشْرِ دينِ اللهِ وَتَبْلِغيهِ للنَّاسِ، مع المتابعَةِ بالتَّذْكِير، والإقناع، والترغيب والترهيب، ما اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ سَبيلاً فمعنى ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ اجْعَلْ اتّجاه حركَةِ حَياتِكَ ملازماً لأداء واجبات الدين ونَشْرِهِ والدّعوَةِ إليه.

﴿حَنِيفًا﴾: **الحنيفُ**: في المفهوم الديني هو المائل عن كلّ الأدْيانِ والمذاهب الباطلة، وهذا لَا يَكُونُ إلّا بالاستقامةِ على دينِ الله الحقّ، ذي الصراط المستقيم، لأنّ كُلَّ الأدْيان والْمِلَلِ الباطلة مائِلَةٌ عَنْهُ إلى جهاتٍ مختلفات، مائِلَاتٍ السَّاحاتِ اللّواتي لَيْسَتْ على الصراط المستقيم.

فالمَيْلُ عَنْها جَميعاً لا يكون إلّا بالاستقامَةِ على صراطِ اللهِ المستقيم، إيماناً وعملاً، وسُلُوكاً ظاهراً وباطناً، جَسَدِيًّا ونَفْسِيًّا.

وَيَسْتَغِلُّ مُحَرفُو النُّصُوصِ كَلِمَةَ «حَنِيف» استغلالاً خبيثاً، للتلاعُبِ في مَفْهومَاتِ الدّين، أخْذاً من مَعَنَىٰ الْمَيْلِ اللُّغَوِيّ لدلالَةِ الكلمة.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ غير الرسول مأمُورٌ بأنْ يُقيم وَجْهَهُ للدّينِ حَنيفاً كالرَّسول ﷺ، كلٌّ بحسَب استطاعته ومؤهّلاته.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها قَوْل الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿... وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: وَلَا تكُونَنَّ مُشْرِكاً بِرُبُوبيَّةِ اللهِ ولا بإلٰهيَّتِهِ مِنْ فِئَةِ المشْرِكين.

جاء توكيد النّهْي في هَٰذِهِ العِبَارَة بِنُونِ التَّوْكيد الثقيلة، تَشْدِيداً في النَّهْي، وَإعْلاماً لِغَيْرِ الرَّسُولِ ﷺ بأنَّ رسُولَ اللهِ أَوَّلُ مَنْ يُشَدَّدُ عَلَيْهِ التَّحْذِيرُ مِنَ الشِّرْك، باعْتِبَارِهِ أَوَّلَ المطالَبِينَ بالإيمان والإسلام.

ومعلوم أنَّ غير الرسُول مَنْهِيٌّ عن أن يكون من المشركين كالرَّسُول ﷺ.

القضية الثالثة: دلّ عليها قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: ولا تَعْبُدْ مِنْ دُونِ اللهِ بالدُّعاءِ أو بغَيْرِهِ من الْعِبَادَاتِ، إلٰهاً أو آلِهةً لَا تَنْفَعُكَ فَتَرْجُو بِعِبَادَتِها نَفْعَها، وَلَا تَضُرُّكَ فَتَرْجُو بعبادَتِها دَفْعَ

ضَرَرِها، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ إلَهٍ يُتَّخذُ مِنْ دُونِ اللهِ لا يُحقِّقُ لعابِدِه نَفْعاً، وَلا يَدْفَعُ عَنْ عابِدِه ضرراً.

النَّهْيُ عَنْ عبادة أَحَدٍ مِنْ دُونِ الله هو نَهْيٌ عَنِ الشِّرْكِ، وقَدْ سَبَقَ هذا في القضيَّة الثانية: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فَما فَائِدَةُ إعادَةِ النَّهْي عن الشِّرْكِ بِعِبَارَةٍ أُخْرَىٰ؟.

أقول: لَقَدِ اقْتَرَنَتْ هَـٰذِهِ الإعادة بِبَيَانِ عِلَّةِ النَّهْي عَنْ دُعاءِ غَيْرِ الله، وهي أنَّ أيّ إلَهٍ أو آلِهَةٍ تُعْبَدُ مِنْ دُون اللهِ، لا تَمْلِكُ لعابِدِهَا نَفْعاً فَتَنْفَعَهُ به، وَلَا تَمْلِكُ ضَرّاً فَتَكُفَّهُ عَنْه.

واقتَرَنَتْ بِبَيَانِ أنَّهُ إنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ، وتَعَرَّضَ لعقاب اللهِ الَّذِي أعَدَّهُ للظَّالِمِينَ مِنْ دركَةِ الشِّرْك.

• ﴿... فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾: أي: فإنْ فَعَلْتَ مَا نَهاكَ رَبُّكَ عَنْهُ، فَعَبَدْتَ مِنْ دُون اللهِ بالدُّعاءِ أو بِغَيْرِهِ مِن العبادات، مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ من آلِهَةٍ، فإنَّكَ تَصِيرُ مِنَ الظَالِمِين ظُلْماً مِنْ دَرَكَةِ الشِّرْكِ إِذَن، فتستَحِقُّ العقاب الأبَدِيَّ الّذي يَسْتَحِقُّهُ المشْرِكون.

جاء في العبارة استعمال حرف «إِنْ» الشَّرْطِيَّة للدَّلَالَة علىٰ أنَّ الرَّسُول ﷺ لَا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أنْ يَكُونَ مِنَ المشركين، فهو لَنْ يَفْعَلَ شيئاً مِنْ شِرْكِيَّاتِ المشركين.

﴿فَإِنَّكَ﴾ جوابُ الشَّرْطِ فِي: ﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾.

﴿إِذًا﴾ هي «إِذَنْ» وهي حَرْفُ جوابٍ تَوَسَّطَ بيْنَ اسْمِ «إِنَّ» وخَبَرِها، ورُتْبَتُهَا التَّأخِير عَنِ الخبرَ، وإنَّما وُسِّطَتْ مراعَاةً للفاصِلَةِ في الآية.

﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بمحْذُوفِ خَبَرِ «إِنَّ».

الظُّلْمُ: تَجاوُزُ الحدِّ، وَوَضْعُ الشيءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، واسْتُعْمِلَ

الظُّلْمُ في الْقُرآن للدَّلالَة على أشَدِّ المعاصي المكفِّرَة، ومِنْهَا الشِّرْكُ بالله، واسْتُعْمِلَ فيما دُونَ ذَلِكَ مِنَ الكَبَائِرِ.

والمراد بعبارة: ﴿مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظُّلْم مِنَ دَرَكَة الكُفْرِ بالشِّرْك.

ومعلوم أنَّ حال غير الرسول في هذا كحال الرسول ﷺ.

القضيَّة الرابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ... ﴿١٠٧﴾﴾:

المسّ: اللَّمْسُ بالْيَد، ويُطْلَقُ علَىٰ وُصُول سَطح الشَّيْء إلى سَطْحِ الشَّيْءِ الْآخَرِ، دُونَ الدُّخُولِ فِي شَيْءٍ تَحْتَ السَّطْح.

أمّا إصابَةُ الشيء فَقَدْ تَمَسُّهُ، وَقَدْ تَدْخُلُ في الْعُمْقِ وَرَاءَ السطح، واسْتُعْمِلَتِ الإصَابَةُ للدَّلالَةِ على عَطَاءٍ في القضية السادِسة الآتية:

الضُّرُّ: سُوءُ الحَال في البدنِ أو المال، أو الأهل أو الولد، ونحو ذلك.

الكَشْف: يأتي بمعنى رفْع الغطاء عن الشيء، ويأتي كشْفُ الشَّيْءِ بمعْنَىٰ إظهاره، وكَشْفُ الضُّرِّ أو السُّوء يأتي بمَعْنَىٰ إزالَتِهِ، وهذا هو المراد بقوله تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾.

واخْتِيرَ لَفْظُ «الْمَسِّ» في التَّعْبيرِ عَنِ الضُّرِّ الّذِي يُؤْلِمُ الإنْسَانَ، لِأَنَّ أكثَرَ المؤلِمَاتِ يَصِلُ الإحسَاسُ بآلَامِهَا إلىٰ عُمْقِ النَّفْسِ بِمُجرَّدِ المسّ، أمَّا الْمُفْرِحَاتُ والسَّارَّاتُ فَتَحتَاجُ مُعْظَمُها إلىٰ إصَابَةٍ ذَاتِ نُفُوذٍ إلَىٰ ما وَرَاءَ السَّطْحِ، حتَّىٰ يَشْعُرَ الإنْسَانُ بِلَذَّاتِهَا والسَّعَادَةِ بِهَا.

فالمعنى: وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ رَبُّكَ بِضُرٍّ لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ العَظِيمة، فآلَمَكَ هَـٰذَا الضُّرُّ، وَطَلَبْتَ إزالَتَهُ، فلَا صَارِفَ ولا مُزِيلَ وَلَا كاشِفَ لَهُ إِلَّا اللهُ رَبُّكَ، فَلَا تَطْلُبْ مِنْ غَيْرِهِ إزالَةَ مَا نَزَلَ بِكَ مِنْ ضُرٍّ، مَعَ اتِّخاذِكَ

الْأَسْبَابَ الَّتِي جعَلَهَا رَبُّكَ في كَوْنِهِ أَسْبَاباً، لإزَالَةِ الضُّرِّ الَّذِي مَسَّكَ وَنَزَلَ بِكَ وآلَمكَ.

ومعلوم أنّ حَالَ غير الرسول في هذا كحالِ الرَّسُول ﷺ.

القضيَّةُ الخامسة: دَلّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾:

الإرَادَة: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ النفْسِيَّة، وبِهَا يَتِمُّ تَخْصِيصُ الْمُمْكِنِ بواحِدٍ مِن احْتِمَالَيْهِ أو احْتِمَالَاتِهِ، وَالْجَزْمُ بِهَا هُوَ الْقَضَاءُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ يَكُونُ الْخَلْقُ في الْوَقْتِ المحَدَّدِ بالإرَادَةِ وبالْقَضاء.

أَطْلِقَ الفِعْل في ﴿وَإِن يُرِدْكَ﴾ اكْتِفَاءً بِذِكْرِ الإرادة، عن ذِكْرِ القَضَاءِ، والْخَلق، لأنَّ مَا يُرِيدُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ يَقْضِيهِ إمضاءً لَهُ، وَيَخْلُقُهُ في الوقْتِ المُقَدَّرِ له.

هذا هُوَ القدر والقضاءُ المُسْتَتْبَعَانِ بالْخَلْق.

﴿بِخَيْرٍ﴾: المرادُ بالخير هنا ما يَرَىٰ فيه الناسُ نَفْعاً وحُسْناً ومُحَقّقاً لمَا تُحِبُّهُ النفوسُ، وتلَذُّهُ الحَواسُّ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا.

﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾: أي: فَلَا مَانِعَ وَلَا صَارِفَ لمَا يَتَفَضَّلُ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ عَطَاءِ مَا تُحِبُّ مِنْ خَيْر.

الرَّدُّ: المنْعُ والصَّرْف، والإرجاع، يقال لغة: «رَدَّهُ، يَرُدُّهُ، رَدّاً، وَتَرْدَاداً، وَرِدَّةً» أي: منَعَهُ وصَرَفَه ـ أو أرْجَعَه.

الفضل: هو في الأصْلِ الزيادة، والبقيَّة من الشيء، واسْتُعْمِلَ «الفضل» بمعْنَىٰ الابتداء بالإحْسَانِ، والعطاء من الخير، مادّيًّا كَانَ أمْ معنويًّا، واشْتَهر بهذا المعنى.

فالْمَعْنَىٰ: وَإِنْ يُرِدْكَ رَبُّكَ مُمَتَّعاً بِخَيْرٍ مِنْ حُظُوظِ الحياة الدنيَا، أنْفَذَ

رَبُّكَ مُرَادَهُ فيك، فقضاهُ ومَنَحَكَ إِيَّاهُ فَضْلاً مِنْهُ، وَلَا أحَدَ في الْوُجُودِ قادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ فَضْلَهُ فيَمْنَعَ وُصُولَهُ إِلَيْكَ أَوْ يَصْرِفَهُ عَنْكَ، ولَوِ اجْتَمَعَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ ضِدَّكَ حَرِيصِينَ على رَدِّ فَضْلِ اللهِ رَبِّ العالَمين عَنْكَ.

ومعلومٌ أنَّ حَالَ غَيْرِ الرَّسُولِ في هَٰذا مِثْلُ حَالِ الرَّسُولِ ﷺ.

يُلاحَظُ في القضيَّتَيْنِ «الرابعة» و«الخامِسَة» أنَّ الضُّرَّ اسْتُعْمِلَ لَهُ الْمَسُّ، وهَوَ خَلْقٌ مَسْبُوقٌ بقَضَاءٍ وقَدَرٍ هُما أَثَرُ إرادَةٍ جَازِمَة. وأنَّ الخَيْرَ اسْتُعْمِلَتْ لَهُ الإرادةُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا قَدَرٌ وَقَضَاءٌ ثُمَّ خَلْقٌ بأمْرٍ تَكْوِيني في الوقْتِ المحَدَّدِ بالْقَدَرِ والقضاء.

ويَخْطُر لي أَنَّ الحكْمَةَ مِنْ هَٰذا الإجْرَاءِ، مع التَّنْويعِ الْبيَانِيِّ الرَّائِع، كَوْنُ مَا يُكْتَبُ في صُحُفِ مَلَائِكَةِ التَّنْفِيذِ مِنْ مَسِّ الضُّرِّ مُعَرَّضاً للمحْوِ بإرَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾.

ويأتي المحْو استجابَةً لدُعَاءٍ، أو ثواباً على عَمَلٍ صَالحٍ قَامَ بِهِ الْعَبْد، أو لحكْمَةٍ أُخْرَىٰ.

أمَّا إِذَا أَرَادَ اللهُ عَبْدَهُ بِخَيْرٍ فَمُرَادُهُ مقْضِيٌّ، ونافِذٌ بالْخَلْقِ في الْوَقْتِ الْمُحَدَّدِ لَهُ، ولَا رَادَّ لِفَضْلِ اللهِ عَلَىٰ عَبْدِه.

القضية السادسة: دَلَّ عَلَيْهَا قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ...﴾: أي: يُصِيبُ اللهُ بالْخَيْر مَنْ يَشَاءُ إصَابَتَهُ بِهِ من عباده.

اسْتُعملَ هُنَا فِعْلُ ﴿يُصِيبُ﴾ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي سَبَقَتِ الإشارَةُ إِلَيْهَا، في التَّفْرِيق بَيْنَ «المسِّ» و«الإِصَابَة» على ما ظهر لي.

وأُؤَكِّدُ هُنَا أَنَّ مَشيئَةَ اللهِ مُقْتَرِنَةٌ بِحِكْمَتِهِ دَواماً، فَمَشِيئَاتُه كُلُّهَا حَكِيمَة، ومِنْهَا مَشِيئاتُهُ في عَطَائِهِ، وفِي مَنْعِه.

القضيَّة السّابعة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾.

الْغَفُور: أي: الكَثِيرُ والعظيم المغفِرَة. **المغْفِرَةُ**: سَتْرُ الذَّنْبِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ المذْنِبُ مِنْ عِبَادِ الله. أَصْلُ الْغَفْرِ في اللُّغَةِ السَّتْر.

الرَّحِيمُ: أي: الكثير والعظيم الرَّحْمَة. وسبَقَ البيان المفَصَّلُ في أوَائِلِ المجلَّدِ الأوَّل لدَىٰ تَدبُّرِ «بِسْمِ اللهِ الرحْمٰنِ الرَّحيم».

جاء بيان هَـٰذِهِ القضيَّةِ جواباً عَلَىٰ سؤالٍ قَدْ تُثِيرُهُ الْقَضِيَّةُ السَّادِسة المتضمّنَة أَنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُهُ «يُصِيبُ بالْخَيْرِ الْعَظِيم مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده» والسؤال هُو: نُلاحِظُ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قَدْ يُصِيبُ بالْخَيْرِ الْعَظِيم مَنْ نَعْلَمُ مِنْ أحْوَالِهم أَنَّهُمْ عُصاةٌ مُذْنِبُونَ، وَقَدْ يَكُونُونَ مِنْ مُرْتَكِبِي الكَبَائِرِ مِنَ المسْلِمين، فَمَا تَفْسِيرُ هَـٰذِهِ الظاهِرَة؟!.

فجاء الجواب: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ خَيْرٍ إيمَانِيّ، وإرَادَةِ خَيْرٍ للإسلام والمسْلمين، وبِهِ يَسْتَحِقُّون مَا يُصِيبُهُمُ اللهُ بِهِ مِنْ خَيْر عظيم، ويَعْلَمُ شِدَّةَ ضَعْفِهِمْ تُجاهُ ما فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ شَهَوَاتٍ وأهْوَاءٍ بَالِغَةِ الْعُنْفِ، فيَرْحَمُهُمْ ويَغْفِرُ لهم، إذا لجؤُوا إلَيْهِ مُسْتَغْفِرِينَ مُتَضَرِّعين.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

أَمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِأَنْ يُخَاطِبَ النَّاسَ جَمِيعاً، وفي مقدِّمتهم

أَهْلُهُ وعَشِيرَتُهُ وَقَوْمُهُ النَّاطِقُونَ بِلِسَانِهِ الْعَرَبِيّ، مُبيّناً لهم قضيَّتَيْنِ جِذْرِيَّتَيْن، أُولاهُمَا تَتَعَلَّقُ بِمَضْمُونِ الدِّين عَقِيدَةً وعَمَلاً، والأُخْرَىٰ تَتَعَلَّقُ بالْجَزَاءِ عَلَىٰ ما يَكْسِبُونَ مِنْ صَالِحَاتٍ، وعلَىٰ مَا يَكْتَسِبُونَ مِنْ سَيِّئاتٍ.

القضية الأُولى: دَلَّ عَلَيْها الفِقَرَةُ الأُولَىٰ مِنَ التعليم الرَّبَّانِيّ الذي أمَرَ الله به رسوله أَنْ يُخَاطِبَ الناس به: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: قَدْ جَاءَكُم الدِّينُ الَّذِي هُوَ حَقٌّ مِنْ رَبِّكُمْ.

الْحَقُّ: هُوَ الأَمْرُ الثَّابِتُ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ، ولَا غَبَشَ عَلَيْهِ، ولَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِمَّا سَبَقَ بَيْنَ يَدَيْهِ، ولَا يَأْتِيه الباطِلُ ممَّا سَيَأْتِي مُسْتَقْبلاً مِنْ خَلْفِهِ، وهَـٰذَا يَشْمَلُ مَا يُصَاحِبُهُ في الأَزْمَانِ المتتابعَة، إذْ كانَتْ مُسْتَقْبَلاً فصَارَتْ حَالاً مصاحِباً، فحَقائِقُ الدّينِ مُسْتَمِرَّةُ الْبَيَانِ المتَجَدِّد.

﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾: أي: من اللهِ الْمُهَيْمِنِ عَلَيْكُمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً، ومِنْهَا رِزْقُكُمْ وَإِمْدَادُكُمْ بالْبَقَاء، وَنَفْعُكُمْ وضُرُّكُمْ، وصِحّتُكُم وَمَرَضُكُمْ، وَحَيَاتُكُمْ ومَوْتُكُمْ، وَثَوَابُكُمْ، وعِقَابُكُمْ، إلَىٰ كُلِّ ثابتٍ وَمُتَغَيِّرٍ مِنْ أُمُورِكم.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها الفقرة الثانية من التَّعْلِيم الرَّبَّاني الذي أمر الله به رسوله أن يُخاطب الناس به: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾:

أي: وَيَتَضَمَّنُ الدِّينُ الْحَقُّ الَّذي جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ، دَعْوتَكُمْ إِلَىٰ أَنْ تَهْتَدُوا بِهُداه، وَتَحْذِيرَكُمْ مِنْ عَدَمِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، لِأَنّ عَدَمَ اسْتِجابَتِكُمْ لَهَا تَسْتَنْزِلُكُمْ إِلَىٰ أَوْدِيَةِ الْمَهَالِك، وتَسْتَدْرِجكُمْ إلى سُبُلِ الضَّلَالِ وَمَسَالِكِه، فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إنِ اهْتَدَيْتُم فَلَنْ تَنْفَعُوا اللهَ شَيْئاً، وإِنْ ضَلَلْتُمْ فَلَنْ تَضُرُّوا اللهَ شيئاً.

فمن اهْتَدَىٰ بإرادتِهِ الحرَّةِ، فاستَجَابَ لِدَعْوَةِ رَبِّهِ، وَاتَّبَعَ هُدَاهُ الَّذِي أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، وَأَبَانَهُ رَسُولُه، فَإِنَّما يَهْتَدِي لمنْفَعَةِ نَفْسِهِ وَخَيْرِهَا وَسَعَادَتِها الْأَبَدِيَّة الخالِدَةِ في جَنَّاتِ النعيم.

ومنْ لَمْ يَسْتَجِب بإِرَادَتِهِ الحرَّةِ لِدَعْوَةِ رَبِّهِ، فَضَلَّ مُتَبِّعاً هَوَاهُ ووَسَاوِسَ شياطينِ الإنْسِ والجنِّ، وسلَكَ مسَالِكَ الضَّلالِ، فإنَّما يَضِلُّ جَانِياً على نَفْسِهِ، إذْ يَجْلُبُ لَهَا مَا لَا يَسُرُّهُ مِنْ اكتِئَابٍ، وَضِيقِ صَدْرٍ، وقَلَقٍ، وَضَنْكٍ في الحياة الدُّنيا، ويَجْلُبُ لَهَا عَذاباً أليماً، وشَقَاءً أبَدِيًّا، فِي جَهَنَّمَ دَارِ عَذَابِ الْمُجْرِمِين يَوْمَ الدِّين.

واعْلَمُوا أَنِّي لَسْتُ وَكِيلاً ذَا هَيْمَنَةٍ وَسُلْطَانٍ عَلَيْكُمْ، ولَسْتُ مُجْبراً لَكُمْ أَنْ تَسْتَجِيبُوا لما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، كَالْوَكِيلِ علَىٰ رِعَايَةِ الْأَنْعَامِ، إِذْ يَرْعَاهَا ويَمْنَعُهَا مِنَ التَّعَرُّضِ للضُّرِّ والْأَذَىٰ، ويُهَيِّيءُ لَهَا مَا تَحْتَاج إِلَيْهِ مِنْ مَرْعَىٰ وسُقْيَا وَمَأْوَىٰ، ويَحْمِيهَا مِنَ الذِّئَابِ وَمَنازِلِ الْهَلاك. بَلْ أَنَا مُبَلِّغٌ وَمُذَكِّرٌ، ومُبَيِّنٌ للحَقِّ والباطل، والخير والشّرّ، والفساد والصَّلاح، والْهُدَىٰ والضلال، ومُبَشِّرٌ مَنْ أطَاعَ بالثواب العظيم من رَبّ العالمين، ومُنْذِرٌ مَنْ عَصَىٰ وكفَرَ بالعذاب الأليم من رَبّ العالمين، يَوْمَ الدِّين.

لقد أعْطَاكُمُ اللهُ قُدْرَاتٍ ذِهنيّةً دُرَّاكة، وإرَادَاتٍ حُرَّةً، فأنْتُمُ المسؤولُونَ عَنْ أنْفُسِكُمْ، وأنْتُمُ الَّذِينَ تَجْلُبُونَ لَهَا خيراً وسَعَادةً، أَوْ شَرّاً وشقَاءً، باختياراتِكُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ في دُنياكم، بإرادات حرَّةٍ تختارُونَ بها غَيْرَ مجْبُورِين مَا تَشَاءُون، إذْ لَا تَتَحَرَّكُونَ بالْجَبْر، ولَا تُسَاقُونَ بِالْإِكْرَاهِ والْقَهْر.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُوله ﷺ في آخِرِ آيَةٍ من السُّورَة:

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾:

أي: واتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ آناً فآناً مَعَ تَوَالِي الْأَزْمَان، فَمَا يَطْلُبُ مِنْكَ فِعْلَهُ أَوْ تَرْكَهُ وَحْياً فأدِّه عَلَىٰ وَجْهِهِ، وَمَا يَطْلُبُ مِنْكَ تَبْلِيغَهُ فَبَلِّغْه، وإِذَا طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تَكُفَّ عَنْ مُقَاتَلَةِ الكافِرِين الْمُشَاقِّيْنَ لَكَ وللمؤمنين فكُفَّ، وإذا طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تُعْرِضَ عن الميْؤُوس مِنْ استجابَتِهِمْ

بإراداتهم الحرَّة، فأعْرِضْ عَنْهم، إلَىٰ غيْرِ ذَلِكَ من تَعْلِيماتٍ يُوحىٰ بِها إلَيْكَ.

والْزَمْ خُلُقَ الصَّبْر علىٰ أَذَىٰ قَوْمِكَ لَكَ، والصَّبْرِ عَلَىٰ كَفِّ رَغَبَاتِكَ في أنْ تأتِي قَوْمَكَ بآيَةٍ عَظِيمَةٍ تُخِيفُهُمْ فَتُخْضِعُهُمْ، وَعَلَىٰ كَفِّ رَغَبَاتِكَ وَرَغَبَاتِ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ بإنْزَالِ عَذَابٍ مُهْلِكٍ لجَبَارَةِ كُفَّارِ قَوْمِكَ الميؤوس مِنْهُمْ، فَرَبُّكَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ حَكِيم.

واسْتَمِرَّ مُتَحَلِّياً بالصَّبْر حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بِنَصْرِكَ وَنَصْرِ المؤمنين، وَفْقَ الْوَجْهِ الَّذِي يُرِيد، وحَتَّىٰ يُهْلِكَ مَنْ يَشَاءُ إهْلاَكَهُمْ مِنْ مُشَاقِّيكَ الَّذِينَ يَكِيدُونَ وَيُدَبِّرونَ للخلاصِ مِنْكَ ومن الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبَعُوك.

واللهُ رَبُّكَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ، إذْ يَحْكُمُ بما يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الخير لَكَ وَلِدَعْوَتِكَ فِي رِسَالَتِك، وللمؤمنين، ولمُسْتَقْبَلِ هذا الدِّين، والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ويَعْمَلُونَ على نَشْرِهِ في العالمين.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر سُورَة (يُونُس).

والحمْدُ للهِ على فتحه وتوفيقه ومَعُونَتِهِ ومَدَدِه.



(٢٤)
ملحق
حول مستخرجات بَلاغيّة من سورة (يونس)

في سورة (يونس/٥١ نزول) نفائس بلاغيّة كثيرة، فتَحَ اللهُ عليَّ باسْتِخْراجِ ما يَلِي منها:

أوّلاً: الكناية

الكناية: هي اللّفظ المستَعْمَلُ فيما وُضِعَ لَهُ في اصطلاحٍ يَكُونُ به

التخاطب، للدَّلاَلَة بِهِ على معنىً آخر، لازمٍ له، أو مصاحبٍ لَه، أو يُشَارُ بِهِ عَادَةً إلَيْه، لما بيْنَهُما من الملابَسَةِ بوَجْهٍ من الوجوه.

والتعبيرات الكنائيَّة في هذه السورة كثيرة، أثناء الآيات، أو في أواخِرِها، ومنها في السورة ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

جاءت عبارة: ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَالَّةً بأسْلوب الكِنَايَةِ على الحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء يَوْمَ الدّين، فإنْبَاءُ النَّاسِ بمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِقَرَةٌ من فِقَرَاتِ الْحِسَابِ، فهي باللُّزُوم الذِّهْنِيّ تَدُلُّ عَلَيْه، والحسَابُ يَسْتَلْزِمُ فَصْلَ القضاء الذي يأتي بَعْدَهُ تَنْفِيذُ الجزاء.

وظهر أنَّ الكناية من الْأساليب غير المباشرةِ للإعْلام بالمقْصُودِ الأعظم من الخطاب، وهو هنا الإعلامُ بالجزاء يوم الديّن.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشَأْن كُفَّار قريشٍ إبَّانَ التَّنْزِيل:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ومنْهم مَنْ يَستمعُونَ إليكَ بآذانِهم، ولَكِنْ لَا يَصِلُ مَا يَسْمَعُونَ بها إلى أدمِغَتِهِمْ ومَرَاكِزِ الوعْي والتفكير في داخلهم، فَهُمْ في داخِلِهِمْ بمثابَةِ الصُّمّ الّذين لَا يَعْقِلُونَ.

ومِنْهُمْ مِنْ يَنْظُرُونَ إلَيْكَ بحدَقَات أَعْيُنهمْ، ولكن لا يَصِلُ مَا يَنْطَبعُ فيها إلى أَدْمِغَتِهِمْ وَمَرَاكِزِ الوعْي والتفكير في دَاخِلهم، فهم في دَاخلهم بمَثَابَةِ الْعُمْي.

جاءت في هذا النصّ عبارة: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وعبارة: ﴿أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ﴾ دالَّتَيْنِ بأسْلُوب الكِنَايَة علَىٰ أنَّ مراكز سَمْعِهم في داخِلِهِمْ مَحْجُوبَةٌ عن إدْرَاكِ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ قضايا الدِّين، ومَرَاكِزَ إدْرَاكِهِمْ للمَرْئيَاتِ مِنْ آياتِ اللهِ في كَوْنِهِ مَحْجُوبَةٌ عن إدْرَاك مَا تَنْظُرُهُ حَدَقاتُ أعْيُنِهم ممَّا يتعَلَّقُ بقَضَايَا الدِّين.

وجَاءَتْ هَـٰذِهِ الكِنَايَةُ بأُسْلُوبِ الاستفهام الَّذِي يُرَادُ به نَفْيُ قَدْرَةِ الْبَشَرِ على إِسْمَاع الصُّم، أَوْ هِدَايَةِ الْعُمْي عن طَرِيقِ أبْصَارِهم إلَىٰ الصِّراطِ السَّوِيِّ.

ولا يخْفَىٰ علَىٰ الْبَلِيغِ الأديب ما فِي هاتَيْنِ الكنايتَيْنِ من إبْدَاعٍ نَفِيسٍ مُعْجِب.

ثانياً: فَنُّ الاستقطاع من الأحداثِ الماضيَة أو الّتي سَتَحْدُث

من الإبداعات البلاغيّة التي اشتمل عليها القرآن ولم تكن معروفَةً لَدَىٰ الْبُلَغاء قبل القرآن، فَنُّ اسْتقطاع عِبَارَةٍ أَوْ مَشْهَدٍ ممَّا كان أو سيكونُ في المستقبل، وتقديمُهُ كأنَّهُ حَدَثٌ يَجْرِي الآن.

وفي القرآن من هذا الاستقطاع أمْثِلَةٌ كثيرة، ومِنْها في هـٰذِهِ السّورة، قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ حِينَ أدْرَكَهُ الغرق:

﴿. . . حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾:

الآية (٩١) جاءَتْ مُسْتَقْطَعَةً مِنَ الْحدَثِ لم تُسْبَقْ بتعبير مَلْفُوظٍ يَدُلُّ على أنَّها قِيلَتْ لَهُ وَهُو يُصَارِعُ الْغَرَقَ بَعْدَ أَنْ أعْلَنَ إيمانَهُ وإسْلامَه.

والتعبير عن هذا الفنّ بالاستقطاع، أولَىٰ فيما أَرَىٰ مِنْ تَقْدِير: فَقِيلَ له: آلْآنَ وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنْتَ مِنَ المفْسِدِين.

ثالثاً: الإيجاز

من إيجاز الحذف الّذي يكونُ قِصَرُ الكلام فيه بسَبَبِ اسْتِخْدَام حذْفِ بَعْضِ الكلام إكتفاءً بدلالَةِ القرائنِ علىٰ ما حُذِف، نَجِدُ في هَـٰذِهِ السُّورَةِ مَا فِي قَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ فيها يَحْكي حواراً جَرَىٰ بَيْنَ مُوسَىٰ عليْه السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ وَمَلَئِه:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْۖ﴾ هَـٰذا سِحْرٌ. حُذِفَ في النَّصِّ قَوْلُهم: «هَـٰذا سِحْرٌ» إيجازاً، وقد دَلَّ على المحْذُوفِ قَوْلُهُ لهم: ﴿أَسِحْرٌ هَـٰذَا﴾ وظاهِرٌ أنَّهُ لَيْسَ من الْعَسِير على مُتَدَبِّر النَّصِّ اسْتِخْرَاج هذا المطويّ في النص، فالْقَرِينَة الدَّالَّةُ عليه واضِحةٌ جَلِيَّة، لا تحتاج تأمُّلاً طويلاً.

❁ ❁ ❁

رابعاً: ذكر القواعد الكليَّة بَعْدَ ذِكْرِ بَعْضِ أفرادِها

من روائع القرآن المجيد إيراد الْجُمَلِ الكلّيّة، بَعْدَ الحديثِ عَنْ بَعْضِ أفرادِها، إيجازاً في التعبير، وتَنبيهاً علىٰ أنَّ مَا ذُكِرَ مِنْ أفرادِهَا مَشْمُولٌ بِقَاعِدَةٍ كُلِّيَّةٍ تَنْطَبِقُ على كثيرين.

ومن الأمثلة علىٰ هذا في سورة (يونس) ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾:

دلَّتِ القضيَّة الكلّيّة ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في آخر

الآيَةِ عَلَىٰ أنَّ الّذي مَسَّهُ الضُّرُّ فدَعَا رَبَّهُ، فَلَمَّا كَشَفَ اللهُ عَنْهُ الضُّرَّ أَعْرَضَ عَنِ الْعَمَلِ بواجِبَاتِهِ تُجاه رَبِّه، يَدْخُلُ في عموم المُسْرِفين الّذين زُيِّنَ لَهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُون.

(٢) قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾﴾:

دلَّتِ العَبَارَةِ الكُلِّيَّة ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ على أنَّ المهْلَكِينَ السَّابِقَيْن داخِلُونَ في عُمُومِ الْمُجْرِمين.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾:

دَلَّت القاعدة الكليّة الّتي خُتِمَتْ بها الآية، على دُخُولِ من افترى على اللهِ كذِباً أوْ كذَّب بآياته في عُمومِها.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿. . . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾:

دَلَّت هَـٰذه القاعِدَةُ الكُلّيَةِ على أنَّ مَا جاء من بيان في الآية قَبْلَها يَدْخُلُ تَحْتَ قاعِدَةٍ كُليَّة، هي تفصيل الله الآياتِ لِقَوْم يتَفَكَّرُون.

(٥) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾:

أي: وأحَقَّ اللهُ الحقَّ بكلماته فنصر موسَىٰ عليه السلام على سَحَرَةِ فِرْعون، تطبيقاً لسُنَّةِ اللهِ في كونه وهي أنَّهُ يُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ.

❁ ❁ ❁

خامساً: من الخروج عن مقتضىٰ الظَّاهر (الالْتِفَات)

ذكر البلاغيّون من فصول علم المعاني الخروجَ عن مقتضى الظاهر، وقَسَّمُوه إلى أنواع، ومنها «الالْتفَات».

وهو التحويل في التعبير الكلاميّ من اتّجاه إلى آخر من طُرق الكلام الثلاث: «التكلم ـ والخطاب ـ والغيبة» مع أنَّ الظاهر يقتضي الاستمرار على الطريقة المختارة أوّلاً، وأضاف السَّكَّاكيّ التعبير ابتداءً بواحِدَةٍ من هذه الطُّرُق إذا كان على خلاف مقتضى الظاهر.

وأرى إضافَة التَّنَقُّل مِنْ خِطَاب مُخَاطَبٍ أو أكْثر، إلَىٰ مُخَاطَبٍ آخَرَ أَوْ أَكْثَرَ، دُونَ تَصْرِيحٍ بما يَدُلُّ على الانتقالِ كما سيأتي في المثال الثاني.

فمن الالتفات في هذه السّورة مَا يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!:

كَانَ الظّاهر أَنْ يُقَالَ: مَاذَا تَسْتعْجِلُونَ من عَذَابِ رَبّكم. فالْتَفَتَ النَّصُّ عَنِ الْأسْلُوب المختار أوّلاً، لِحِكْمَةِ وَصْفِهِمْ بأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ، وأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ الْعَذَابَ المعجَّل واستئصَالَهُمْ به.

(٢) قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله، فلِلْمُؤْمنين، فَلِكُلِّ صَالحٍ للخطاب:

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

- كان الخطابُ مُوَجَّهاً للرسول ﷺ بقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ﴾.

• فالتفتَ النَّصُّ إلى خِطاب المؤمنين: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

• فالْتَفَتَ النصُّ إلى خِطَابِ كُلِّ صَالحٍ للخطابِ بأسْلُوبِ الخِطَاب الإفـــــرادي ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

❀ ❀ ❀

سادساً: مِنْ خروج الاستفهام عن أصل دَلاَلَتِهِ إلىٰ معانٍ أُخرى

ذكر البلاغيون من فصول علم المعاني خروج الاستفهام عن دَلالته الأصليّة، وهي طلَبُ الإفهام، إلى معانٍ أخرى كثيرة، لدواعٍ بَلاغيَّةٍ إذ يَبْتَعِدُ البليغ عن التعبير المباشر للدلالة عليها، فيُقَدِّمُ الكَلَام بأسْلُوب الاستفهام، ومنه في السورة الأمثلة التالية:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا ... ﴿٢﴾﴾.

ليس الاستفهام في هذا البيان لطلَب الإفهام، وإنَّما هو للتعجيب مِنْ أَمْرِ مُنْكِرِي رسالة الرسُول ﷺ، والإنكار عليهم.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لكُفَّارِ قُرَيش ثُمَّ مَنْ كَانَ علىٰ شاكِلتهم:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟.

الاستفهام في: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾؟ يُرَادُ بِهِ الحضُّ على التَّذكُّر،

والتَّلْويم علىٰ عَدَمِ التَّذكُّر. أي: أتَسْتَمِرُّونَ على عَدَمِ التَّذَكُّر الَّذِي يَجُرُّ لَكُمْ عذاباً أليماً خالداً؟ تَذَكَّرُوا فهو خَيْرٌ لكم.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾:

الاستفهام في هٰذِهِ الآيَةِ يُراد بهِ النفي، أي: لا أحَدَ أَظْلَمُ مِنْ هٰذَيْنِ الْمُجْرِمَيْن، ولكن قد يُشارِكُهُما في هٰذِهِ الدَّرَكَةِ ظالِمُونَ آخرون.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾؟:

الاستفهام في: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ يراد به الحثّ على التقوىٰ مع التلويم على عدم التقوىٰ.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾؟.

﴿... فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾؟:

- يرادُ بالاستفهام الأوّل بيانُ أنّه لا يوجد بَعْدَ الحقّ إلّا الضَّلال.

- ويُرادُ باستفهامَيْن آخر الآية (٣٢) وآخر الآية (٣٥) التلويم والتوبيخ مع التعجيب مِنْ أمْرِهم.

(٦) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾؟:

يراد بالاستفهام هنا النفي، أي: لَا تُجْزَوْنَ إلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُون.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾؟؟:

- الاستفهاماتُ الثلاثةُ يُرادُ بها التلويمُ والتثريب.

- وفي ﴿أَرَءَيْتُم﴾؟ معنى الحثّ على أَنْ يَتَفَكَّرُوا لِيَرَوْا سُوء افترائهم على الله.

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾:

يراد بالاستفهام هنا التوبيخ والتثريب.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ :

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾.

يراد بالاستفهام هنا الإرشاد إلَىٰ ما هو الصَّواب.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن كبراء مشركي مكّة إبَّانَ التنزيل:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾:

يُرَادُ بالاستفهام في هَـٰذِهِ الآيَةِ النفي، أي: لَا يَنْتَظِرُونَ في الواقع الذي سيجْري بقضاء اللهِ، إلّا مِثْلَ أيّام الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِم، وهي الأيّام الّتِي عُذِّبَ فيها المجْرِمُونَ واسْتُؤصِلُوا.

❀ ❀ ❀

سابعاً: من المجاز المرسَل

المجاز المرسل: هو المجاز الَّذِي تكُونُ الْعَلَاقَةُ فِيهِ بَيْنَ المعنَىٰ الحقيقي والمعْنَىٰ المجازيّ الَّذِي استُعْمِلَ اللَّفْظُ للدَّلالَةِ بِهِ عَلَيْهِ أَمْراً غَيْر المشابَهَة، أو قائماً علىٰ التَّوسُّع في اللُّغَةِ دُونَ ضَابِطٍ مُعَيّن.

ومن المجاز المرسل في السورة قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن القرآن:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾:

• أُطْلِقَ في هَـٰذِهِ الآيَةِ عَلَىٰ الْقُرآنِ أَنَّهُ شِفَاءٌ لمَا في الصُّدُور، وهو من إطلاق السَّبَب علىٰ المسَبَّب، وهذا من المجاز المرسل.

• وأُطْلِقَ على القرآنِ أَنَّهُ رَحْمَة لِلْمُؤْمِنِينَ، أي: هو أَثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ بعِبَادِه المؤمنين، وهو من إطلاق اسْمِ الشَّيءِ على آثاره، وهذا من المجاز المرسل.

ثامناً: مِنْ دَواعي اختيار اسْم الإشارة دون غَيْرِه من البدائل

ذكر عُلَمَاء عِلْم المعاني أنّ لاختيار اسم الإشارة دون غيره من البدائِل عِدَّةَ دواعٍ بَلاغيَّةٍ، وباستطاعة المتدبّر أَنْ يستفيد ممَّا ذَكَرُوه لِفَهْمِ الاختياراتِ لبَعْضِ أسماء الإشارة في سورة (يونس) ومنها الأَمْثِلَةُ التالية:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾:

استعمل في هَـٰذه الآيَة اسْمُ الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الموضُوع للمشار إليها البعيدة مع قُرْبها إذْ هي آياتُ القرآن الذي يُتْلَىٰ، للدَّلَالَةِ على ارتفاع مَنْزِلَتِهَا وَمَكَانَتِهَا المعْنَويَّة.

(٢) وقَول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ الكافِرينَ المكذِّبينَ بِيَوْم الدِّين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾:

اسْتُعْمِلَ في هَـٰذِهِ الآية اسْمُ الإشَارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إليهم الْبَعِيدِين مع قُرْبِ الحديث عنهم، للدَّلالَةِ على انْحَطاطِ مَنْزلتِهمْ انحطاطاً بَعِيداً في اتِّجاه أسْفَلِ سَافِلِين.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بَشَأْنِ المؤمنين من أَهْل مَرْتَبَةِ الإحْسَان:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

اسْتَعْمل في هَـٰذِهِ الآيَةِ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموضوع للمشار إلَيْهم الْبَعِيدِين، مع قُرْبِ الحديث عَنْهُمْ بأنَّهُمْ مُحْسِنُونَ، للدَّلالَةِ على ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهِمْ في اتِّجاه الْفِرْدَوس الأعْلَىٰ في جَنَّات النعيم.

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ الْفوزِ الَّذي يَنالُهُ أَوْلِيَاءُ الله:

﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾:

جاء في هذه الآية الإشارة إلى مضمون الْبُشْرَىٰ الّتي يُبَشَّرُ بها أولياءُ الله، والمتحدَّثُ عنها في الآية باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمُشار إليه الْبَعِيدِ مع قُرْبِ الحديث عن هذا المضمون، للدّلَالة على ارْتفاعِ هذا المضْمُونِ وَعِظَمِ مَنْزِلَته عند الله رَبّ العالمين.

❀ ❀ ❀

ثامناً: من الْقَصر

عقَدَ عُلماءُ المعاني باباً خاصّاً للقَصْر، وهو تخصيص شيءٍ بِشَيْءٍ بِعِبارَةٍ كلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليْه.

وَيُقَالُ فِي تَعْرِيفه: جَعْلُ شيءٍ مقصوراً على شيءٍ آخَرَ بواحِدٍ من طُرُق مخصوصَةٍ من طُرُق القوْلِ المفيد للقَصْر.

وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ وقَصْرٌ إضافي، وفي سورة (يونس) أمْثِلَةٌ كثيرة من أمْثِلَة الْقَصْر، منها ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ... ﴿٣﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْرٌ حقيقيٌّ دَلَّ عليه النفيُ والاستثناء. وهو من قَصْر صِفَةٍ على مَوْصُوف، أي: لَا تُوجَدُ شفاعَةٌ مقبولَةٌ عِنْدَ اللهِ لشَفِيع مَا، إلَّا شفاعَةُ مأْذُونٍ لَهُ بأَنْ يَشْفَعَ بِشَرْط أَنْ يَرْضَىٰ اللهُ لَهُ قَوْلاً.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ :

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا .. ﴿٤﴾﴾:

أي: إِلَيْهِ وَحْدَهُ تَرْجِعُونَ بَعْدَ بَعْثِكُمْ للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء. استُفِيدَ القصر من تقديم المعمول: ﴿إِلَيْهِ﴾ عَلَىٰ عامِلِه. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾. وهو قَصْرٌ حقيقي من قصر صفة رجوع النّاس بعد الموت أنّه رُجُوعٌ إلى الله.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾:

في هذه الآية قَصْران:

الأوّل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وهو قَصْرٌ حقيقي من قَصْرِ صِفَةٍ على موصوف.

وأداة القصر فيه تَعْرِيف طرفَي الإسناد المبتدأ والخبر.

الثاني: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو قَصْرٌ حَقِيقي من قَصْرِ صِفَة الْخَلْقِ عَلَىٰ كَوْنِها مُقْتَرِنَةً بالْحَقّ.

وأداة القصر فيه النَّفْيُ والاسْتِثْنَاء.

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ خِطاباً لرسُوله بشَأْنِ القرآن:

﴿... قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ... ﴿١٥﴾﴾.

في عبارة: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ...﴾ قَصْرٌ إضافِيّ، أي: ما أتَّبعُ في تِلَاوَتِي لِلْقُرْآنِ إلَّا مَا يُوحَىٰ إليَّ. وهو من قَصْر صفَة على مَوْصُوف، إذْ صِفَةُ اتّباعِهِ في التلاوة مقصورة على مَا يُوحَىٰ إليه من قرآن.

وأداة القصر فيه النفيُ والاستثناء.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ... ﴿٢٢﴾﴾:

أي: اللهُ وحْدَهُ هُو الذي يُسَيِّرُكم في البرّ والْبَحْر، في هذه العبارة قَصْرُ صفة التسْيير على الله رَبّ العالمين، وهو قصْرٌ حقيقيّ، أداتُهُ تَعْريفُ طَرَفَي الإسناد.

(٦) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ... ﴿٢٣﴾﴾:

أي: مَا تَبْغُونَ إلَّا جَانِينَ علَىٰ أنفُسِكُمْ إذْ تُسَبّبُونَ لأنْفُسِكُمْ بِبَغْيِكُمْ عذابَ رَبّكم. وفيه قَصْرُ صِفَةِ الْبَغْي على أنْفُسِهِم المبْغِيِّ عَلَيْها. وهو قَصْرٌ حقِيقِيّ.

وجاء في هذه الآية أيضاً: ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ... ﴿٢٣﴾﴾ ففي هذه

العبارة قَصْرٌ حقيقي، من قَصْر صفةٍ على موصوف، وقَدِ استفيد القصر من تقديم المعمول: ﴿إِلَيۡنَا﴾ علىٰ عامِلِه: ﴿مَرۡجِعُكُمۡ﴾.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ... ﴿٢٤﴾﴾:

أي: ما مَثَلُ الحياة الدُّنيا إلَّا كَمْوسِمٍ مِن المواسِم الزّراعيَّة.

والقصر في هذا التعبير قَصْرٌ إضافي، من قَصْرِ صِفَةِ الحياة الدُّنيا على الممثَّلِ بِهِ.

وأداة القصر فِيهِ: «إنَّما».

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ ... ﴿٢٦﴾﴾:

في هذه العبارة قَصْرُ مَا يكُونُ للّذينَ أحْسَنُوا في الحياة الدُّنيا على الحسنى وزيادة يوم الدّين.

وقد استفيد القصر من تقديم الخبر (الذي هو مُسْنَد) على المبتدأ (الذي هو مُسْنَدٌ إلَيْه) مع مُسَاعَدَةِ القرائنِ.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

في هذه الآية قصْرٌ إضافي، أداته النفي والاستثناء، وهو من قصر صفة اتّباعهم على الظنّ.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: ولكن الناسَ لا يَظْلِمُونَ إلّا أنْفُسَهُمْ، بِتَعْرِيضها لعذاب اللهِ الأليم يَوْم الدِّين، مع احْتِمال إنزال عذابٍ معجل فيهم.

استفيد الْقَصْر مِنْ تقديم المعمول: ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ على عامِلِهِ: ﴿يَظْلِمُونَ﴾.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ... ﴿٦٧﴾﴾:

يوجَدُ القَصْر في ثَلاثَة مَوَاضِعَ مِنْ هَـٰذا النّصّ:

- ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ قَصْرٌ بالنفي والاسْتثناء، وهو قَصْرٌ إضافِي، أي بِشَأْنِ إثبات شركاء للهِ سبحانَهُ وتعالى.
- ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: وما هم إلّا يكذبون، قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ إضافِيٌّ أيضاً.
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ...﴾ قَصْرٌ دَلَّ عليه تَعْريف طَرَفي الإسناد: (المبتدأ والخبر) وهو قصرٌ حقيقي.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةَ لقول نوحٍ لِقَوْمِهِ:

﴿... فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ... ﴿٧١﴾﴾ـ﴿... إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ... ﴿٧٢﴾﴾:

- استفيد القصر في العبارة الأولى من تقديم المعمول على عامله.
- ودَلَّ على القصر في العبارة الثانية النَّفْيُ والاسْتِثْناء.

وتوجد في السورة أَمْثِلَة أخرى من القصر يَسْهُل على البلاغيّ استخراجها، قياساً على هذه الأمثلة.

تاسعاً: التوكيد لدواعٍ بلاَغيّة

ذَكَرَ البلاغيون أنَّ الأصْلَ في توجيه الكلام أَنْ يكونَ خالياً مِنَ المؤكِّدات، وإنَّما يُؤَكَّدُ الكلام لداعٍ من الدواعي البلاغيّة، كأنْ يكون المخاطب بِهِ مُنْكِراً أَوْ تَظْهَرُ عَلَيْهِ عَلاماتُ الإنكار، أو شاكّاً أو تَظْهَرُ عليه علاماتُ الشَّكّ.

أقول: أو يكونُ المتكلّم في حالَةٍ نَفْسِيَّةٍ يُلائِمُهَا التعبير المؤكّدُ عمَّا في النَّفْسِ وَلَوْ كان المخاطَب عليماً خبيراً، وهو شبيه بتأوُّه الحزين، الّذِي يُؤَكّدهُ بالتكرير، أو بمتابعة البكاء أمام العليم الخبير بحزْنه، ومِنْه توكيد الداعي رَبَّهُ عباراته الّتي يَدْعُوه بها، واللهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بما يشْكُو منه.

والأمْثِلَة الّتي جاء فيها التوكيد في السورة لدواعٍ بلاغيَّةٍ كثيرة، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكاية لقول كبراء المشركين بشأن الرسول ﷺ:

﴿... قَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾:

أَكَّدَ الكافِرُون قولهم عن الرَّسُول بالمؤكدات: «إنَّ - والجملة الاسمية - واللّام المزحلقة» لشعورهم بأنّ المؤمنين مُكذّبُونَ لهم، وبأنّ جماهيرهم شاكُّونَ في اتّهامهم الرَّسُول ﷺ بأنَّهُ ساحر.

(٢) قول الله عزّ وجلّ مخاطِباً المشركين:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ۝٣﴾:

أَكّدَ اللهُ لهم هذا البيان مُراعَاة لحالَةِ إنكارهم بالمؤكدَيْن: «إنَّ - الجملة الاسمية».

(٣) قول الله عزّ وجلّ مُؤكّداً البيان للمشركين المكذبين بيوم الدين:

﴿... إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ... ٤﴾:

بمؤكّدين هما: «إنّ ـ والجملة الاسمية».

(٤) قول الله عَزَّ وجَلَّ مؤكّداً البيان للكافرين والشاكين:

﴿إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ٦﴾:

بالمؤكدات: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزحلَقة».

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ ... ٢٧﴾:

جاء في عبارة: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ تَوكيد عموم النفْي والتنصيص علَيْه بحرف «مِنْ» المزيدة الداخلة على «عاصِم» مراعاة لحالِ المكذبين بيوم الدّين.

(٦) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسوله ﷺ بشأن المكذّبين بالجزاء الرّبّانِي:

﴿۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ٥٣﴾:

جاء في عبارة: ﴿إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ﴾ التوكيد بالمؤكدات: «القسم ـ إنّ ـ الجملة الاسميَّة ـ اللّام المزحْلَقة».

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٥﴾:

جاء التوكيدُ في كُلٍّ مِنَ الجملَتين الأُولَيَيْنِ في هذه الآية بالمؤكدات:

«ألا ـ إنَّ ـ الجملَة الاسميّة» مراعاة لأحوال المكذبين والشاكين.

(٨) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾:

جاء التوكيد بالمؤكدات: «إن ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة» مراعاة لأحوال غير الشاكرين.

(٩) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾:

زيدَت «من» في: ﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ لتوكيد عموم النفي والتنصيص عليه.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿... وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾:

في كُلٍّ من الجملَتَيْن في هَٰذا النّصّ التوكيد بالمؤكدات: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللّام المزحْلَقَة» جواباً للسّائِلينَ عن الحكمة مِنْ إغراقه وإغراقِ جنوده الآتي بيانُهُ في السورة.

(١١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِدُعاء مُوسَى عليه السّلام:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾:

أكّدَ مُوسَىٰ في دُعائه لربِّهِ بمؤكّدَيْن: «إنَّ ـ والجملة الاسمية» مَعَ أَنَّ اللهَ جلَّ جلالُهُ عليم خبير، تعبيراً عَنْ حالَتِه وحالَة قَوْمِهِ النفسيّة، تجاه

تَفَوُّقِ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه بمتاعِ الحياة الدُّنيا وَزِيناتها، مع استخدام ما آتاه الله في الصَّدِّ عن سبيل اللهِ، والضلال والإضْلَال، ويُشْعِرُ هذا التأكيدُ بشيءٍ من الإلحاح في الطَّلَب أنْ يَطْمِسَ اللهُ على أموال فرعون وَمَلَئِه وأنْ يَشُدَّ على قُلُوبِهِمْ بما يُؤلمهم ويُعَذِّبُهم.

وفي السورةِ أمْثِلَةٌ أخرىٰ من السَّهْلِ على دَارِس علم البلاغة أنْ يَسْتَخْرِجَها، ومن السَّهْلِ على غَيْرِ الدارِسِ أَنْ يَقيسَ على الأمْثِلَةِ الّتي اسْتُخْرِجت في هذه الفقرة.

وبهذا تمّ هذا الملحق، والحمد لله على معونته ومَدَدِه وفتحه.



سورة هود

١١ مصحف ٥٢ نزول

وهي سورة مكيّة

قال ابن عباس وقتادة إلَّا آية:



﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾



(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ

١ ـ • سكت أبو جعفر على حروف الهجاء الثلاثة (ألف) (لاَمْ) (ر).
وقرأ باقي القرّاء العشرة بالوصْل.

٣ ـ • قرأ البزّي: **[وَإِنْ تَّوَلَّوْا]** بتشديد التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة **[وَإِنْ تَوَلَّوْا]** دون تَشْدِيد التاء.

٣ ـ • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: **[فَإِنِّيَ أخافُ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ

٧ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [ساحِرٌ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [سِحْرٌ]. القراءتان متكاملتان في أداء المعنى المراد.

٨ ـ • قرأ يعقوب: [يَأْتِيهُمْ] بضم هاء الضمير.
وقرأها ورش، والسُّوسي، وأبو جعفر: [يَاتِيهِمْ] بإبْدال الهمزة ألفاً مع كَسْرِ هاء الضمير.
وقرأها باقي القرّاء العشرة [يَأْتِيهِمْ].

٨ ـ • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ]. وكذلك قرأها حمزة في الوقف، ولَهُ التسهيل والإبدال.
وقرأها باقي القراء العشرة: [يَسْتَهْزِءُونَ].

١٠ ـ • قرأ نافع، وأبُو عمْرو، وأبو جعفر: [عَنِّيَ إِنَّهُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بإسكان ياء المتكلم.

وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ وَيَقُولُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ

---

١٥ ـ • قرأ حمزة، ويعقوب: [إِلَيْهُمْ] بضمّ هَاءِ الضّمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [إِلَيْهِمْ] بكسر هاء الضمير. وهما لغتان عربيَّتان.

٢٠ ـ • قرأ ابْن كثير، وابْن عامر، وأبو جعفر، ويعقوب: [يُضَعَّفُ] من فعل: «ضَعَّفَ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة [يُضَاعَفُ] من فعل: «ضاعَفَ».

ومؤدّى القراءتين واحد، وهما من التفنُّن في التعبير.

ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا

---

٢٤ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[تَذَكَّرُونَ]**.
وَقَرَأَهَا باقي القرّاء العشرة: **[تذَّكَّرُونَ]** أصْلُها: تَتَذَكَّرُون. أُدْغِمَتِ التاء بالذّال فصارت تَذَّكَّرُون.

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: **[إِنِّي لَكُمْ]** بكسر همزة «إِنّي».
وقرأها باقي القرّاء العشرة بفتح همزة «أنّي».
وهما وجهان عربّيان جائزان، فالكَسْرُ على تقدير: فقال: إنّي. والفتح على تقدير: بأنّي.

٢٥ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر **[إِنِّيَ أَخَافُ]** بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٢٧ ـ • قرأ الدُّوري عن أبي عمْرو: **[بَادِىءَ الرَّأْيِ]**.
وقرأها السّوسي: **[بَادِيءَ الرَّايِ]**.
وقرأها أبو جعفر: **[بَادِيَ الرَّايِ]**. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[بَادِيَ الرَّأْيِ]**.
وهي وجوه من الأداء متكافئة.

نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ

٢٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلَف: [**فَعُمِّيَتْ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَعَمِيَتْ**].
ومؤدّى القراءتين واحد.

٢٩ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْن عامر، وحفص، وأبو جعفر: [**إِنْ أَجْرِيَ إلاَّ**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٩ ـ • قرأ نافع، والْبَزّي، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [**وَلَكِنِّيَ أراكُمْ**] بفَتْحِ ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٣٠ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [**تذَكَّرُونَ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**تَذَّكَّرُونَ**] أصلُها، تَتَذَكَّرُون أُدْغِمَتِ التاء بالذّال.

٣١ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [**إِنِّيَ إذاً**] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ

---

٣٤ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [نُصْحِيَ إِنْ] بفتح ياء المتكلّم. وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٤ ـ • قَرأ يَعْقُوب: [تَرْجِعُونَ] بالبناء لما سُمِّي فاعله.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [تُرْجَعُونَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله.

وبين القراءتين تكامل: أي إنّ الله عَزَّ وجَلَّ يُرْجِعُهُم فهُمْ يَرْجِعُونَ بالخلق الرَّبّانِيّ مَجْبُورِين.

٤٠ ـ • قرأ حفص: [مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ] بِتَنوين لفظ «كُلٍّ».

وقرأها باقي القرّاء العشرة [مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ] دون تنوين لفظ «كُلِّ».

ومؤدّى القراءتين واحد.

ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ

٤١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[مَجْرِيهَا]** بالإمالَة مع فتح الميم.
وقرأها أبو عمرٍو **[مُجْرِيها]** بالإمالة مع ضمّ الميم.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[مُجْراها]** بالفتح مع ضم الميم. ومؤدى هذه القراءات واحد.

٤٢ ـ • قرأ قالُون، والبصري، والكسائي، وأبو جعفر: **[وَهْيَ]** بإسْكان هاء الضمير
وقرأها باقي القرّاء العشرة **[وَهِيَ]** بكسر هاء الضمير وهما نطقان عربيّان.

٤٢ ـ • قَرأ عاصم: **[يا بُنَيَّ]** بفتح الياء المشَدَّدة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَا بُنَيِّ]** بِكَسْرِ الياء المشدّدة.
والقراءتان نطقانِ عربيان لهذه الياء.

٤٦ ـ • قرأ الكسائي، ويعقوب: **[إنَّهُ عَمِلَ غَيرَ صَالِحٍ]**.
وقرأها باقي القراءِ العشرة: **[إنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالحٍ]**.
وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ، فابْنُ نوح عَمِلَ عملاً غَيْرَ صَالِحٍ كانَ فيه مُسْرفاً، حتّى صَارَ هو كلُّهُ بمثابَةِ العمل غير الصالح.

٤٦ ـ • قَرأ قالُون، وابن عامر: **[فَلَا تَسْأَلَنِّ]** بنون التوكيد الثقيلة مع حذف ياء المتكلم.

بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ

= وقرأها وَرْش، وأبو جعفر: **[فَلَا تَسْأَلَنِّي]** بنون التوكيد الثقيلة، وبإثبات ياء المتكلم وصلاً وحَذْفها وقفاً.

وقرأها ابن كثير: **[فَلَا تَسْأَلَنَّ]** وصلاً ووقفاً.

وقرأها أبو عمْرو: **[فَلَا تَسْأَلْنِي]** بإثبات الْياء وصلاً وحَذْفِها وقفاً.

وكذلك قرأها يعقوب وصَلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة **[فَلَا تَسْأَلْنِ]** وصلاً ووقفاً.

٤٦ و٤٧ ـ ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[إِنِّي أَعِظُكَ]** ـ و**[إِنِّي أَعُوذُ بِكَ]** بفتح ياء المتكلّم فيهما.

وقرأهما باقي القرّاء العشرة بإسْكانِ يَاء المتكلم.

٥٠ ـ ● قرأ الكِسائي، وأبُو جَعْفر: **[مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ]** بجرّ غيره.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِرَفع: **[غَيْرُهُ]** مراعاة لمحلّ لفظ **[إِلَه]**.

٥١ ـ ● قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وحفص، وأبو جَعْفَر: **[إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ]** بفتح ياء المتكلم. وقرأ نافع، والبزّي، وأبو جعفر: **[فَطَرَنِيَ أَفَلا]** بفتح ياء المتكلم. وقرأهُمَا باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا

٥٤ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أُشْهِدُ اللهَ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسْكان.

٥٥ ـ • قرأ يَعْقُوب: [ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِي] بإثبات ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ] بحذف ياء المتكلم في الحالين.

٥٧ ـ • قرأ البزّي: [فَإِنْ تَّوَلَّوْا] بتَشْدِيد التاء.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فَإِنْ تَوَلَّوْا] دون تشديد التاء.

قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدۡ

---

٦١ ـ • قرأ الكِسائي، وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بجرّ غيرِه، وقرأها باقي القرّاء العشرة برفع [غَيْرُهُ] مُراعاةً لمحلِّ لفظ [إله].

٦٦ ـ • قرأ نافع، والكسائي، وأبو جعفر: [وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ] بفتح الميم من «يومَئذٍ» على أنها حركة بناء لإضافته إلى غير مُتمكن.

وقرأها باقي القراء العشرة: [وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ] بجرٍّ لفظ «يومِ» علىٰ أنّه مُضاف إليه.

٦٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، ويعقوب: [أَلَا إِنَّ ثَمُودَا] عَلَىٰ أنّ ثَمودَ ممنوعٌ من الصرف لا يُنوّن، باعتبار أنّه اسم للقبيلة.

جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ

= وقرأها باقي القراء العشرة مصروفةً منونة [ألا إنَّ ثموداً] على اعتبار أن ثموداً اسم لجدّ القبيلة فيصرف.

٦٨ ـ • قرأ الكسائي: [ألاَ بُعْداً لِثَمُودٍ]. وقرأها باقي القراء العشرة: [ألاَ بُعْداً لِثَمُودَ] على أن لفظ «ثمود» ممنوع من الصرف.

والتخريج النحوي سبق بيانه.

٦٩ ـ • قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلُنَا] بإسكان السين.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [رُسُلُنَا] بضم السين.

والقراءتان نطقان عربيّان.

٦٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي: [قَالَ سِلْمٌ] بمعنى «سَلامٌ» فهما لغتان.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قال سَلامٌ].

٧١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، وابْنُ عامر: [يَعْقُوبَ] عطفاً على بإسحاق.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَعْقُوبُ] على أنه مبتدأ متأخر.

٧٧ ـ • قرأ أبو عمْرو: [رُسْلُنَا] بإسكان السّين.

ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ

= وقرأها باقي القراء العشرة [رُسُلُنَا] بضمّ السّين.

٧٧ - • قرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، ورُويس: بإشمام كَسْرَة السِّينَ من [سِيءَ] الضمّ.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالكَسْرة الخالصة دون إشمام.

٧٨ - • قرأ أبو عمْرو، وأبو جعفر: [وَلاَ تُخْزُونِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.
وكذلك يعقوب في الحالَيْن.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَلاَ تُخْزُونِ] بحَذْفِ ياء المتكلم في الوصل والوقف.

٧٨ - • قرأ نافع، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [ضَيْفِيَ أَلَيسَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٨١ - • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو جعفر: [فَاسْرِ] مِنْ فعل «سَرَىٰ».
وقرأها باقي القراء العشرة: [فَأَسْرِ] من فِعْل «أسْرَىٰ» «سَرى به» و«أسْرَى به» لغتان عربيّتان.

٨١ - • قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو: [إلاَّ امْرَأَتُكَ] بالرَّفْع على أنه بَدلُ من [أَحَدٌ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [إلا امْرَأَتَكَ] بالنّصب على أنّه مستثنىٰ من [بِأَهْلِكَ] أو من [أَحَدٌ] لأنّها إنْ سَرَت مَعَهُمْ أو لم تَسْرِ، أو الْتَفَتَتْ أو لم تلْتَفت، فمَحْكُومٌ عليها بأنْ يُصِيبَهَا مَا يُصِيبَ قومَها من عذابٍ وإهلاك.

بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

٨٤ ـ • قرأ الكسائي، وأبو جعفر: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِهِ].
وقرأها باقي القراء العشرة: [مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ].

٨٤ ـ • قرأ نافع، والبزّي، وأبو عمْرو، وأبو جعفر: [وإِنِّيَ أَرَاكُمْ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسْكان.

٨٤ ـ • قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وإِنِّيَ أَخَافُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٨٧ ـ • قرأ حفْص، وحمزة، والكِسائي، وخلف: [أَصَلاتُكَ] بالإفراد.
وقرأها باقي القراء العشرة: [أَصَلَوَاتُكَ] بالجمع.
ومؤدَّىٰ القراءتين واحد.

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى

---

٨٨ ـ • قرأ نَافع، وأبو عمرو، وَٱبْنُ عامر، وأبو جعفر: [وَمَا تَوْفِيقِيَ إلاَّ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسكانها.

٨٩ ـ • قرأ نافع، وٱبْن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر: [شِقَاقِيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٩٢ ـ • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ كثير، وأبو جعفر، وٱبن ذَكْوان: [أَرَهْطِيَ أعَزُّ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٩٣ ـ • قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.

وقرأها باقي القراء العشرة: [مَكَانَتِكُمْ] بالإفراد.

ومؤدّى القراءتين واحد.

مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ

---

١٠٤ ـ ● قرأ ورش، وأبو جعفر: [وَمَا نُوَخِّرُهُ] بإبْدال الهمزة واواً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [وَمَا نُؤَخِّرُهُ].

١٠٥ ـ ● قرأ ورش، والسوسي، وأبو جعفر: [يَوْمَ يَاتِ] بإبْدَال الهمزة ألفاً وصلاً ووقفاً. وحمزة في الوقف فقط.
وأثبت الياء في: [يَأْتِي] وصلاً نافع، وأبُو جعفر، وأبو عمْرو، والكسائي.
وأثبتها في الوصْلِ والوقْف: ابن كثير، ويَعْقوب.

فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا

= وحَذَفَها باقي القراء العشرة.

١٠٥ ـ • شدَّدَ البزّي التاء من **[لاتَّكَلَّمُ]** في الوصل مع المدّ الطويل.
وخففها باقي القراء العشرة.

١٠٨ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: **[سُعِدُوا]** بضمّ السّين.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[سَعِدُوا]** بفتح السّين.
وبين القراءتَيْن تكامل، أي: يُسْعِدُهم الله فيَسْعَدُون.

١١١ ـ • قرأ نافع، وابن كثير: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَا]** بتخفيف «إنْ» و«لَمَا» وقرأها أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب، وخلف في اختياره: **[وَإِنَّ كُلًّا لَمَا]** بتَشْدِيد «إنَّ» وَتخفيف «لَمَا».
وقرأها شعبة: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَّا]** بتخفيف «إنْ» وتشديد «لمَّا». وقرأها باقي القراء العشرة: **[وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا]** بتشديدِ «إنّ» وتشديد «لمَّا».
ولهذه القراءات تخريجات تنظر في كتاب «الدّر المصون» للسَّمِين الحلبي.

تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ

١١٤ ـ ● قرأ أبو جعفر: [زُلُفاً] بضم اللام.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [زُلَفاً] بفتح اللام.
كلاهما جمع «زُلْفَة» وضَمُّ اللام للاتباع. أي: وفي أوقات من الليل تتقرَّب فيها إلى الله بالصلاة.

١١٦ ـ ● قرأ ٱبْنُ جَمَّازٍ: [بِقْيَةٍ] بكسر الباء وإسكان القاف وفتح الياء دون تشديد.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [بَقِيَّةٍ].
ولعلّ قراءة ابْن جماز لغة في بَقِيَّة، وإن لم تثبتها المعاجم اللغوية.

١٢١ ـ ● قرأ شعبة: [مَكَانَاتِكُمْ] بالجمع.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٣﴾.

= وقرأها باقي القراء: [مَكَانَتِكُمْ] بالإفراد.

١٢٣ ـ • قرأ نافع، وحفص: [يُرْجَعُ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَرْجِعُ].

١٢٣ ـ • قرأ نافع، وابن عامر، وحفص، وأبو جعفر، ويعقوب: [عَمَّا تَعْمَلُون].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

(٢)
مما جاء في السُّنة بشأن سورة (هود)

(١) روى الترمذي عن ابْن عباس، قال: قال أبو بكرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ قَدْ شِبْتَ، قال:

«شَيَّبَتْنِي هود، والواقعة، والمرسلات، وعمّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ». إسناده حسن.

وجاء في رِوَايةٍ أنَّهُ قال: «شيّبَتْني هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا».

(٢) وروى أبو يَعْلَىٰ، عن عِكْرِمة قَالَ: قالَ أبو بكر: سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ: مَا شَيَّبَكَ؟. قال:

«شَيَّبَتْنِي هُودٌ، والوَاقِعَةُ، وعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ».

(٣)
موضوع سورة (هود)

بالتأمُّلِ المتأنِّي في آياتِ سورة (هود) يُلاحظُ المتدَبِّر أنَّ مَوْضُوعَها يَتَناوَلُ مُتَابَعَةَ مُعَالجةٍ دَعوِيَّةٍ، للَّذينَ لم يَصِلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ معها من

استجاباتهم لدَعْوَة الحقّ عَنْ طَرِيق إراداتهم الحرّة ومُتابَعَة توجيهاتٍ تَرْبَوِيَّة للرسول ﷺ وللمؤمنين ولا سيَّما حملةُ رِسالَةِ الدَّعْوَةِ إلى اللهِ منهم، وفي بَعْضِها يُقْصَدُ الدُّعاة من المؤمنين، ولو كَانَ الخطابُ في الظاهر مُوَجّهاً للرَّسُولِ صلوات الله عليه وسلامه.

وتتضمَّنُ السُّورَةُ خِطَابَاتٍ بَيَانِيَّةً دَعَوِيَّةً مُوَجَّهاتٍ للَّذِين لم يُؤْمِنُوا بَعْد، وفيها مُتَابَعَاتٌ لبَيَانِ قضَايَا سَبَقَ بَيَانُها في بَعْضِ السور النازلة قبل سورة (هود).

لكنّ هذه المتابعات تشتمل على إضَافَاتٍ، وتنويعٍ وتغييرٍ في الأساليب،تكشف جوانب رائعةً من إعجاز القرآن المجيد البياني.

وقد جاء في القرآن التعبير عن هذا التنويع والتغيير في العبارات والأساليب بعبارة «صَرَّفْنَا» أي: نَوَّعْنَا وغَيَّرْنَا، ومنها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

وكذلك في الآية (١١٣) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) وفي الآية (٥٠) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٤)
دروس سورة (هود)

نَظَرْتُ مُتَأَمِّلاً في آياتِ هَـٰذِهِ السُّورَةِ فظَهَر لِي أَنْ أُقسِّمَها إلَىٰ سَبْعَةِ دُروس.

الدّرس الأوّل: وهو الآية الأولى منها.

وفيها بيان عن القرآن بأنَّهُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ.

الدرس الثاني: وهو الآيات من (٢ ـ ٤).

وهو درسٌ تَعْلِيميٌّ مُوجَّهٌ من اللهِ لرَسُوله، وفيه بَيَانُ بَعْضِ ما يَجِبُ عليه أنْ يَقُولَهُ في دَعْوَتِهِ النَّاس إلى دينِ اللهِ الحقِّ.

الدرس الثالث: وهو الآيات من (٥ ـ ١١).

وفيه بيانُ أمارة لَدَىٰ المُستَعِدِّين للاستجابة مُسْتَقْبلاً، وتوجيه إقناعٍ لهم ابتداءً مِنْها، فانْطِلَاقاً منها إلى بَعْضِ مظاهر رُبوبيَّة اللهِ في كونه، وبيانُ حكمته من خلْق الناس في الحياة الدُّنيا، وإمْهالِهِ الموضوعين في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان، وما يقولُه الذين كفَرُوا بشأن نبأ البعث، واستهزائهم من تأخير تعْذيبهم تعذيبَ استئصال، إنكاراً له.

وفيه بيان واقع حالِ الإنسان غير المؤمن الذي يعمل الصَّالحات، تُجَاهَ مَا يَنْزِلُ بِهِ مِمَّا يَسُوؤُه، أو يَسُرُّه، إذ يكون في الضرّاء يؤوساً كفوراً، وفي السَّرَّاءِ فَرِحاً فَخُوراً، بَعِيداً عن إدْرَاك حِكْمَةِ اللهِ في ابتلاءاته.

الدّرس الرابع: وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

وفيه تَرْبية للرَّسُول ﷺ بشأن القرآن، وتعليمٌ له أنْ يَتَحَدَّىٰ المكَذِّبينَ بِهِ بأنْ يأتُوا بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيات.

الدرس الخامس: وهو الآيات من (١٥ ـ ٢٤).

وهو يتضمن وعيداً لمريدي الحياة الدنيا فقط، المكذبين للرسول وبما جاء به عن ربّه، وللذين يفترون على اللهِ الكَذِب.

وفيه ضَرْبُ مَثَلٍ للمؤمنين وللمكذبين.

الدرس السادس: وهو الآيات من (٢٥ ـ ١٠٨).

وفيه لقطات تكمِليّاتٌ لما سَبَقَ أنْ أُنْزِل في السور قبل سورة (هود) من قصص الرسل الآتية أسماؤهم عليهم السلام، أضعها في فصول:

الفصل الأول: لقطات من قصّة نوحٍ وقومه من (٢٥ ـ ٤٩).

الفصل الثاني: لقطاتٌ من قصّة هود وقومه عاد، من (٥٠ ـ ٦٠).

الفصل الثالث: لقطات من قصة صالح وقومه ثمود، من (٦١ ـ ٦٨).

الفصل الرابع: لقطاتٌ من قصة إبراهيم ولوط من (٦٩ ـ ٨٣).

الفصل الخامس: لقطات من قصّة شعيب وقومه من (٨٤ ـ ٩٥).

الفصل السادس: لقطات من قصّة موسى وفرعون من (٩٦ ـ ٩٩).

الفصل السابع: ختام تذييليّ فيه موعظة مع التذكير بالآخِرَة وما فيها من جزاء، من (١٠٠ ـ ١٠٨).

الدرس السابع: وهو الآيات من (١٠٩ ـ ١٢٣).

وهو درس تربويٌّ للرَّسُول ﷺ فللمؤمنين ولا سيما الدعاة إلى دين الله منهم.

(٥)
التدبّر التحليليّ للدرس الأوّل من دُروس سورة (هود) وهو الآية (١)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾.

• ﴿الٓر﴾: هذه من الحروف المقطّعة الَّتي بدأ اللهُ بها بعض السُّور، وقد سبَقَ بيان مَا يكْفِي بشأنها في تَدَبُّر أوّل سورة (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾: أي: هذا القرآن كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ أوّلاً، ثُمَّ فُصِّلَتْ عِنْدَ الله، وحِينَ أنْزِلَ المحكَمُ منه مع المفصَّل.

الإحكام في اللّغة الإتقانُ التَّامُّ، بوضْعِ كلِّ شيء في موضعِهِ، دُونَ زيادَةٍ، ولَا نَقْصٍ، ولا تَغْيِيرٍ في الصفاتِ المطلوبَةِ لكَمَالِه.

وعَلَىٰ هَـٰذا يَكُونُ الإحكام في البَيَانِ الكَلَامِيّ، جَعْلُهُ مطابقاً للمَعْنىٰ الْمُرَادِ مُطَابَقَةً تَامَّةً، فَهُو لَا يَحْتَمِلُ إلَّا المعنَىٰ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ.

أمّا التفصيلُ وهو التَّبْيين والشَّرح، فَيَدْخُلُ فِيهِ التعبيراتُ المجازيَّة، والتَّشْبِيهَاتُ، والاستعاراتُ، والاعتمادُ على اللّوازم الفكريَّة، وعلى المحاذِيف والمطويَّاتِ في المثاني، وضَرْبِ الأمْثَالِ، والإتْيان ببَعْضِ الجزْئِيَّاتِ لتُقَاسَ عَلَيْها أمثالُها، وهنا مَيْدَانٌ فَسِيحٌ جدّاً للتعبيرات الأدبيَّةِ، ذواتِ الأساليب والفُنُون الكثيرة، وباستطاعَةِ أهْلِ الزَّيْغِ أَنْ يتلاعَبُوا بدَلَالَاتِها، وَيُؤَوِّلُوهَا تأويلَاتٍ تتنافَىٰ مع الآيَاتِ المحكماتِ الّتِي هي أمُّ الكتاب.

وقَدْ أبانَ اللهُ عزّ وجلَّ في أوائِلِ سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول) أنَّ القرآن بَعْضُه آياتٌ مُحْكَمَات، وبَعْضُهُ آياتٌ مُتَشَابِهات، يتَّبِعُها الّذِين في قُلوبِهِمْ زَيْغٌ عن الحقِّ المُنَزَّلِ مِنْ رَبِّ العالمين ليفتِنُوا الناس عَنْ دِينِهِ، بِتَأْوِيلاتٍ يَخْدَعُونَ بها، مُسْتَغِلِّينَ الأهواء والشهواتِ لدى ضُعفاء الإيمان وضعفاء القُلوب، فقال الله عَزَّ وجَلَّ فيها خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾﴾.

فالراسِخُونَ في العِلْم يَرُدُّون المتشابِهَ إلَىٰ المُحْكَم، باعتبار أَنَّ الآياتِ المحكمات هُنَّ أُمُّ الكِتابِ الَّتِي يَجبُ الرُّجُوعُ إليها.

والَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتَعَامَوْن عن الآياتِ المحكمات، ويتلاعَبُونَ بتَأْوِيلِ الآياتِ المتَشَابِهَاتِ، وإخْرَاجِهَا عن الدّلالات المتَّفِقاتِ مَعَ الآيَاتِ المحْكَماتِ.

فقول الله عَزَّ وجَلَّ مثلاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ آيَةٌ مُحْكَمَة، تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ كُلَّ الحَمْدِ هو مُسْتَحَقٌّ للهِ المتَصَرِّفِ دَواماً في كُلِّ العَالَمِينَ، (أي: في كُلِّ مَا سِوَىٰ الله) بصِفَاتِ رُبُوبيّته.

هذه آيَةٌ مِنْ أُمِّ الكِتَابِ، وهي مُحْكَمَةٌ غَيْرُ قَابِلَةٍ لتَلاعُبِ أَهْلِ الزَّيْغِ بتَأْويلاتِهِمُ الباطلات.

أَمّا قول الله عَزَّ وجَلَّ للملائكة بِشَأْنِ قَضَائِهِ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ من الآية (٣٠) من سورة البقرة، فقد تَأَوَّلَهَا أَهْلُ الأَهْواءِ بأنّ آدَمَ خَلِيفَةٌ عن اللهِ في أرْضِهِ، وَأَلْحقُوا بِهِ ذُرِّيتَهُ، وأَعْجَبَتْ هَـٰذِهِ المقولَةُ الَّذِينَ لَا عِلْمَ عِنْدَهُمْ بأرْكانِ العقيدَةِ الإِسْلَامِيَّةِ، فحَمَلُوها وَرَوَّجُوا لَها، وأعْطَوْا للإنسانِ بَعْضَ خَصَائِصِ رُبُوبِيَّةِ اللهِ في كَوْنِهِ، وهُمْ غافِلُونَ عن أنَّ هذا مِنَ الشِّرْكِ، إذْ لم يُحَلِّلُوا عناصِرَ هذه المقولَة، وأعجبهم أن يكونوا خلفاءَ عن الله في أرْضه[1].

- ﴿... مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾:

لَدُنْ: ظرف زمانِيٌّ ومكانِيٌّ بمنزلة «عِنْد» إلَّا أَنَّهُ أقرب من «عند» وأخصّ منه. ولفظ« لَدُنْ» ملازم للإضافة التي تجرُّ ما بعْدها بالإضافة.

حكيم: الحكيم اسْمٌ من أسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ. ومعنى لفظ «الحكيم» الذي يَضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختارُ أفضل الأشياء وأتْقَنَهَا وأحْسَنَهَا من الأمور المخْتَلِفَة لما يُعْطِيَ أحْسَنَ النّتائج.

خَبِير: الخبير اسم من أسماء الله الحسْنَىٰ. ومعنى لفظ «الخبير» العليم بالشيء على سبيل الشهود والحضور المُصَاحِب لكلّ أجزاء العمل

(١) اقرأ رسالةً للمؤلف بعنوان: «لا يَصِحُّ أن يقال الإنسان خليفة عن الله في أرضِه فهي مقولَةٌ باطلة».

ظواهره وبواطنه. والخبيرُ بعَمَلِ نَفْسِهِ هو الّذي يمارِسُه فيجْمَعُ عَلَيْه لَدَىٰ ممارسَتِهِ لَهُ كُلَّ مَا يَحْتَاجُ من صفاته.

قال أهل اللّغة: الخبير هو العالم بالأمر أو الشيْءِ عن تَجْرِبَةٍ ومُمَارَسَةٍ.

فالمعنى: هذا كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مُنَزَّلٌ مِنْ لَدُنْ حَكِيم بالِغٍ غَايَةَ أبْعَادِ الحِكْمَة، خَبِيرٍ بَالِغٍ غايَة العِلْمِ المستَنِد إلَىٰ خِبْرَةٍ بِكُلِّ شيء.

ولَدَىٰ تَدبُّرِ ما جاء في القرآن عن القرآن، لا بُدَّ مِنْ جَمْعِ كُلِّ النّصوص القرآنيّة المتعَلِّقَةِ بالقرآن وَفْقَ تَرْتيبِ نُزُولِهَا، وتَدَبُّرِهَا تَدبُّراً تكامُلِيًّا مُتَأَنِياً، وعسَىٰ أَنْ يَكُونَ هذا في أواخِرِ ما نَزَلَ بِشَأْنِ القرآن، إذا فتح اللهُ وَأَمَدَّ بِمَعُونَتِهِ، وَقَدَّرَ وَقَضَىٰ، إِنَّهُ الوهَّابُ المنَّان.

وبهذا انتهى تَدبُّر الدرس الأول من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونته وَمَدَدِه وفتحه.



(٦)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس سورة (هود)
الآيات من (٢ ـ ٤)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

القراءات:

فتح ياء المتكلم مِنْ [**فَإِنِّيَ أَخَافُ**] نافع، وٱبن كثير، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

تمهيد:

يُكلّفُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ، أَنْ يُعِيدَ علَىٰ مسامِعِ الَّذِينَ لَمْ يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميؤوس من اسْتِجَابَتِهِم عن طريق إرَادَاتِهِم الحرَّةِ، الكُلِّياتِ العُظْمَىٰ للدَّعْوَةِ إلى دِينِ اللهِ الحقّ.

ويُلاحَظُ أَنَّ هَـٰذا التكليفَ لم يُسْبَقْ بما يَدُلُّ لفظاً عَلَيْهِ، بَلْ جَاءَ عَقِبَ وَصْفِ القرآن بأنَّهُ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ، بيانُ مَضْمُونِ التكليفِ الدَّعَوِيِّ، ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ الأَمْرَ التكليفيَّ مُلاحَظٌ ذِهْناً، ما جاء في الآيَةِ الأولى منه: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾. فمِثْلُ هذا لَا يَصْدُرُ إلَّا عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، فهو تعْلِيمٌ من اللهِ جلّ جلالُهُ لرَسُولِهِ أَنْ يَدْعُو بمضْمُونِ هذا التعليم.

وإِذْ جَاءَ في نُصُوصٍ متَعدّدَةٍ سابقةٍ تَوصِيَةُ اللهِ رَسُولَه أَنْ يُعْرِضَ عن دَعْوة من بَلَغُوا إلى دَرَكَةِ المَيْؤُوسِ من استجابتهم عن طريق إراداتهم، فَلَا بُدَّ أَنْ نَفْهَمَ أَنَّ المقْصُودِينَ بإعادَة دَعْوَتِهِم هم الّذين لم يَصِلُوا بَعْدُ إلى دَرَكَةِ الميؤوس من استجابتهم باختيارهم.

ويُؤَكِّدُ هذا الفَهْم بَعْضُ ما جاء في الدَّرْس الثالث الآتي إن شاء الله.

هذا الأُسْلُوبُ البيانيُّ المفاجئ الَّذِي لَمْ يَأْتِ قَبْلَهُ ما يَدُلُّ على أَمْرِ اللهِ رَسُوله أَوْ تَكليفه، هو من الإبداعات القرآنيَّةِ الإيجازيّة، التي يُدْرِكها الْفُطَنَاءُ دُونَ عَنَاء، ويُدْرِكُهَا المتَدَبِّرُونَ بالتأمُّل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾:

أي: أعِدْ يا مُحمَّدُ علَىٰ مَسَامِعِ المطْمُوعِ فِي اسْتِجَابَتِهِمْ ولَوْ ضِمْنَ حُدُودٍ دُنْيا، بَيَاناً دَعَوِيًّا تَفْسِيرُهُ ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ . . .﴾ إلَىٰ آخِرِ آياتِ هذا الدَّرْس.

فلفظ «أَنْ» من [أَلاَّ] تَفْسِيرِيَّة لِمَطْوِيّ في النَّصّ، من السَّهْلِ اسْتِخْرَاجُهُ، وهو نَحْو ما أوضَحْتُ آنفاً.

أي: أنْ لَا تجْعَلُوا أيَّ عِبَادَةٍ من عِبَادَاتِكُمْ مُوَجَّهَةً لِغَيْر الله.

العبادة: هي الخضوع والطاعَةُ والقِيَامُ بِمَا يُرْضي المعبود، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ فِعْلُه، ورَأْسُ العِبَادَةِ الدُّعاءُ بالْغَيْب لتحقيق مطالِبِ الدُّنيا والآخِرَة، والعِبَادَةُ حَقٌّ للرَّبِّ جلَّ جلالُهُ وحْدَهُ لا شريك له، فَمَنْ عَبَدَ مَعَ اللهِ غَيْرَه أَوْ عَبَدَ مَعْبُوداً غَيْرَه، كَانَ بِربِّهِ كافِراً، واسْتحقَّ الخُلُودَ يَوْمَ الدِّينِ في عَذَابِ النَّار.

﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾: أي: إنَّنِي رَسُولٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِنْهُ (أي: من الله) نَذِيرٌ لِمَنْ عَصَىٰ فَكَفَر بالخلود في عذاب النارِ يوْمَ الدِّين، وبَشِيرٌ بِجنَّاتِ النَّعِيم يوم الدّين خالداً فيها أبداً لِمَنْ آمَنَ وأطَاعَ.

النّذير: المُنْذر، وهو المخْبِرُ بعواقب غير سَارَّة، كَشَرٍّ قادم، أو عقوبَةٍ على مُكْتَسَبٍ إراديّ، من قَول، أو عملٍ، أو اعْتِقَادٍ، وكذلك التحذير من مَخُوفٍ مِنْهُ ماديٍّ أو مَعْنوِيّ.

البشير: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ، وهو بمعنى «مُبَشِّر» من فعل «بَشَّرَهُ» أي: أَخْبَرَهُ بما يَسُرُّهُ ويُفْرِحه، وقد يُسْتَعْمَلُ التبشير بمعنى الإخبار بما يَسُوءُ مع قَرِينَةٍ علىٰ سبيلِ التهكُّم.

قول الله تعالى:

• ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾:

• ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾: «أَنْ» هذه تفسيريَّةٌ أيضاً مثل «أَنْ» في ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾ وهَٰذِهِ الجملة معْطُوفَةٌ على الجملة السّابقة.

الاسْتِغفار: طَلَبُ المغفرة من اللهِ، وهي مصْدَرُ «غَفَرَ الشَّيْءَ» أي: سَتَرَهُ، والمرادُ بِطَلَبِ المغفرة من الله طَلَبُ التّغَاضِي عَنِ المعاقَبَةِ على الذُّنُوبِ الماضِيَة مع سَتْرِها عَنِ النّاس.

والاسْتِغْفَارُ من التخْلِيَةِ فجاء البَدْءُ به.

واختيارُ اسْمِ الرَّبِّ هُنَا من أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَىٰ لأنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يُهَيمِنُ على عباده بصِفَاتِ رُبُوبِيّتِهِ، ومِنْها الخلْقُ والْعَطَاءُ، والمنع والابتلاء والمحاسَبةُ والجزاء.

• ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾: أيْ: ثُمَّ ارْجِعُوا إلى طَاعَتِهِ، إِيمَاناً وعَمَلاً في السُّلوك النَّفْسِيِّ والسُّلوكِ الظاهر، مع استدامَةِ الرُّجُوعِ إليه آناً فآناً.

التوبة: هي في اللُّغَة الرُّجُوع، والمراد بالتوبة هُنَا بَعْدَ الإيمان والاستغفار، الرُّجُوعُ العَمَلِيُّ إلى الطاعَةِ، بفعل ما أمر الله به وترك ما نهى عنه.

• ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: يُمَتِّعْكُمْ في الحياة الدُّنيا بِمَعَايِشِكُمُ مَتَاعاً حَسَناً، إلى انْتِهَاءِ أَجَلِ كُلٍّ مِنْكُمْ المقدَّرِ لَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحانه، إذ يَمُوتُ عندئذٍ، ويَدْخل في الوجود البرزخيِّ حتى يَوْمِ البعث.

جُزمَ فِعْل [**يُمَتِّعْكُمْ**] على أنه جواب الطلب.

المتاع: كل ما يُنْتَفَعُ به إلى حينٍ، ثُمَّ يَنْتَهي ويَزُول، وقَدْ خصَّ اللهُ

عَزَّ وجَلَّ لفظ «المتَاعِ» لكُلِّ ما في الحياة الدُّنيا من لَذَّات وتحقِيقِ رغبات.

ووصَفَ الله عَزَّ وجَلَّ حَيَاةَ المحظوظين في دُنْيَاهُمْ بما يَسُرُّهم ويُرْضيهم بأنَّهَا حياةٌ طيِّبَةٌ، فقال عَزَّ وجَلَّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول):

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

ولا يُشْتَرَطُ فِي الحياة الطيِّبَةِ في الدُّنيا أَنْ تَكُونَ خالِيَةً مِنَ الأَمراضِ والأَكْدَارِ وما لا يَسُرُّ أحْيَاناً، بل يَكْفِي فيها أَنْ تكُونَ حالَةُ الْعَبْدِ النفسيَّة في رضاً عَنْ رَبّه، وهَـٰذه لَا تَكونُ إلَّا لِأَهْلِ الإيمان والطاعَةِ لَهُ، جلّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

• ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: أي: وَيُعْطي كُلَّ ذِي زيادَةٍ من إيمانٍ وعَمَلٍ صالحٍ وقُرُبَاتٍ، فَضْلَهُ جلَّ جَلَالُهُ الَّذي يُلائِمُ عظَمَةَ الرَّبِّ وجُودَهُ وكَرَمه.

أمّا في الآخِرَةِ فَيُؤْتِيهِ مَا يَتَمَنَّىٰ وَفَوْقَ مَا يَتَمَنَّىٰ، وأمَّا في الدُّنْيَا فَيَزِيدُهُ عَلَىٰ مَنْ دونَهُ في الْفَضْل، بهِبَاتٍ ومِنَنٍ وعَطَايَا أهَمُّها السَّعَادة القلْبيَّةُ والنّفسيَّةُ، مع إكراماتٍ أخرىٰ تُرْضِيهِ من حياةٍ طيّبةٍ ومَجْدٍ ومَكَانَةٍ اجتماعيَّة في الناس ذَاتِ شأنٍ رفيع.

الفضل: هو في الأصل الزيادة، والبقية من الشيء، واستُعْمل الفضل واشْتَهَرَ بمعنى الابتداء بالإحْسَان والعطاءِ من الخير مادّيّاً كانَ أَمْ معنويًّا.

• ﴿... وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾:

أي: وإنْ تُدِيروا ظهُورَكُمْ كافِرِينَ غَيْرَ مُسْتَجِيبينَ لِمَا أَدْعُوكم إليه مُبْتَعِدِين عَنْ صراط الله المستقيم، وعَنْ مواطِنِ تَنَزُّلَاتِ رَحَماتِ اللهِ، فإنّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كبيرٍ، هو عَذَابُ يَوْمِ الدِّين، في الجَحيم دَارِ عَذَاب الكافرين المجرِمين.

• ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾:

أي: إلَىٰ حِسَابِ اللهِ، وفَصْلِ قضَائِهِ، وتَنْفِيذِ جَزَائِهِ، مَرْجِعُكُمْ بَعْدَ البَعْث.

مَرْجِعُكُمْ: أي: رُجُوعُكُمْ، ومَكَانُ رُجُوعِكُم، وزَمَانُه. **مَرْجِع** مصدر ميمي، واسْم مكان، واسم زمان، وكُلُّها مرادَةٌ هُنا.

﴿وَهُوَ﴾ أيْ: واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ يَشَاؤهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعظم سلطانه ـ قَدِيرٌ.

قَدِير: صيغة مبالغة لقادر، وهو اسم من أسماء اللهِ الحسنى، وهُو يَدُلُّ علىٰ كمال قُدْرَةِ اللهِ على خَلْقِ وإيجَادِ أيِّ مُمْكِنٍ من الممكنَات العَقْلِيَّة مِن العَدَمِ المطْلَق، وعلَىٰ كمال قُدْرَتِهِ على إعْدَامِ أيِّ موجود من الموجوداتِ الممكِنَةِ غير واجِبَةِ الوجود عقلاً، إعْداماً مُطْلَقاً كامِلاً.

وبيان هَـٰذا مِنْ أُسُس القاعِدَةِ الإيمانيَّة، يُهَوِّنُ على ذِي الفِكْرِ السَّلِيم الإيمانَ بالبَعْثِ بَعْدَ الموت، الَّذِي يكُونُ بَعْدَهُ مَرْجِعُ النَّاسِ إِلَىٰ حِسَاب رَبِّهِمْ، وَفَصْلِ قَضائه، وتنفِيذِ جزائه، على مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِم في الحياة الدُّنيا، من كَسْبٍ إرادِيٍّ لم يَكُونُوا فِيه مَجْبُورِين، بَلْ كانوافيه ذَوي إرادات حُرَّةٍ، مَعَ إدْرَاكٍ وَاعٍ لما أُنْذِروا به، ولِمَا بُشِّرُوا به، ولِمَا هُو مَطْلُوب اللهِ مِنْهُمْ في رِحلَةِ امْتِحَانهم.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الدَّرْس الثاني من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونته ومدَدِه وتوفيقه وفتحه.

❀ ❀ ❀

(٧)
التدبّر التحليلي للدّرس الثالث من دُروس سورة (هود)
الآيات من (٥ ـ ١١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٥) ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ (٩) وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (١٠) إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (١١)﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[إلاَّ سَاحِرٌ]**.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[إلاَّ سِحْرٌ]**.

القراءتان متكامِلَتان في أداء المعنى المراد، أي: ما هو إلّا سَاحِرٌ، وما جاء به سِحْرٌ.

(٨) • قرأ يعقوب: **[يَأْتِيهُمْ]** بضمّ هاء الضمير.

وقرأها ورش، والسّوسي، وأبو جعفر: **[يَاتِيهِمْ]** بإبدال الهمزة ألفاً، مع كَسْرِ هاء الضمير.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَأْتِيهِمْ] بإثبات الهمزة ساكنة وكَسْرِ هاء الضمير.

(٩) • قرأ أبو جعفر: [يَسْتَهْزُونَ] وكذلك قرأها حمزة في الوقف، وله التّسْهيل، والإبْدال.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَسْتَهْزِءُونَ].

(١٠) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر: [عَنِّيَ إِنَّهُ] بَفَتْحِ يَاء المتكلّم.

وقرأها باقي القراء العشرة بإسْكان ياء المتكلم.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ إلماحٌ للرَّسُولِ ﷺ، ولكُلّ داعٍ إلى اللهِ من أصْحابه، بأنَّهُ يُوجَدُ في المشركين الّذِين قَدْ يَبْدُو من إصْرارهم على الكُفْرِ أَنَّهُمْ انْحَطُّوا إلَىٰ دَركةِ اليأْسِ من اسْتِجابَتِهِمْ، عن طريق إرادَاتِهم الحرَّة، لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، لكِنَّهُمْ في واقِع حَالِ نُفُوسهم لم يَبْلُغُوا درَكَة الْيَأْسِ من اسْتِجابتهم، بَلْ لَدَيْهم استِعْدادٌ ما للاستجابة لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِيَّة، ومِنَ الأمَارَاتِ الدَّالَّاتِ علىٰ هَـٰذا أَنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ في حَرَكَةِ اسْتِخْفَاءٍ حِينَ يُعْرِضُونَ عن الاستجابةِ لدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، ولَا يُواجِهُونَ دَعْوَةَ الرَّسُول ﷺ بِوَقَاحَةٍ واسْتِكْبَارٍ، رَافِضِينَ لَهَا، ومُعْلِنين تَكْذِيبَ الرَّسُولِ واتّهامَهُ بالافتراء علَىٰ رَبّه، فهؤلَاء تَحْسُنُ مُتابَعَةُ معالجَتهم ببيانَاتٍ دَعوِيَّة، تَذْكِيرِيَّة، مع تنويع الأساليب الإقْنَاعِيَّة، والتَّرْغيبيَّةِ والتَّرْهِيبيَّة، ومع اسْتِدْراجِهِمْ للمُجادَلَةِ بالّتي هي أحْسَن، رَجَاءَ أَنْ يَتَأَثَّرُوا فَيَسْتَجيبُوا.

واشْتَمَلَ هذا الدَّرْسُ عَلَىٰ لقَطاتٍ مِنْ مُعالَجَةِ هؤلاءِ فيها حِكْمَةٌ، وفيها إلْماحٌ للرّسُولِ ﷺ وللدُّعاةِ من أصحابه، أنْ يَعْتَنُوا بهَؤُلاء، إذْ في

داخل نُفُوسِهم جُذُورُ اسْتِعْدَادٍ للاسْتِجابة لدَعْوَةِ الحقّ والخيْرِ الرَّبّانية، ما دَامَ لَدَيْهِمْ حياءٌ يجعلهم يَثْنُونَ صُدُورهُمْ لِيَسْتَخْفُوا، ولا يَرْفُضُون دَعْوَةَ الحقّ بوَقَاحَةٍ واسْتِكْبَار، ومُجَاهَرَةٍ بالشِّقَاقِ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

• ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾:

• ﴿أَلَآ﴾: أداة استفتاحٍ وتَنْبيهٍ وتحْقيق، إذْ هِيَ مُرَكَّبةٌ مِنْ همزة الاستفهام، و«لا» النافية، وهمْزَة الاستفهام إذا دخَلَتْ على النفي أفادت التحقِيقَ، ويتعَيَّنُ كسْرُ همزةِ «إنَّ» بعد «ألا».

• ﴿يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾: أي: يَعْطِفُونَها ويَلْوونَها، يُقَال لُغَةً: «ثَنَىٰ الشَّيْءَ يَثْنِيهِ ثَنْياً» أي: عطفَهُ ولَوَاه.

• ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ﴾: أي: لِيَسْتَتِرُوا وَيَتَوارَوْا بحَرَكَةٍ مُتْقَنَةٍ تُخْفِيهِمْ عَنْ أَنْ يَشْهَدَ الرَّسُولُ إعراضَهُمْ عَنْ دَعْوَتِهِ في مَجْلِسٍ أو مَوقْفٍ مِنْ مواقِفِهِ، وهم ضِمْنَ جَمْعٍ يَسْتَمِعُونَ إليه، حياءً من الرَّسُول ﷺ، أوْ مُدَاراةً لَه.

• ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾: ﴿أَلَا﴾ كَسَابِقَتِها، حِينَ يَسْتُرون أجْسَادَهُمْ بثِيَابِهِمْ ويُغَطُّونَها بها، لئلَّا يَرَىٰ الرسُول ﷺ إعراضَهُم عن دَعْوَتِه وبلاغاته آياتِ ربّه.

يُقالُ لُغة: «اسْتَغْشَىٰ ثوبَهُ، واسْتَغْشَىٰ بِثَوْبِهِ» أي: تغطَّىٰ بِهِ لِيَسْتُرَ جِسْمَهُ بِهِ. وفي السّين والتاء معنى المبالغة والعناية الشديدة في السّتر.

• ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾: أي: يَعْلَمُ اللهُ رَبُّهُمْ العَلِيمُ كُلَّ مَا يُسِرُّونَهُ وَمَا يُعْلِنُونَهُ، وإذَا شاءَ أَعْلَمَ رَسُولَهُ بما فَعَلُوا وبِما يَفْعَلُون.

• ﴿... إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٥﴾: أي: إِنَّـهُ ـ جَـلَّ جَـلَالُـهُ وأَحَاطَ عِلْمُهُ بكلِّ شيْءٍ ـ عَلِيمٌ بِصَاحِبَةِ الصُّدُور الَّتي تكُونُ مَكْنُونَةً فيهَا، مُسْتَخْفِيَةً دَاخِلَها، كالنِّيَّاتِ وسَائِرِ أَعْمَالِ الْقُلُوب وحَرَكاتِها وخَوَاطِرِها.

ما دلَّتْ علَيْه هذه الآية:

بعْد أَنْ أوصَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ ﷺ والدُّعاةَ إلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِه، بالإعْرَاضِ عَن الميْؤوسِ من استجابَتِهِمْ لدَعْوَة الحقّ بإراداتِهِمُ الحرَّة، لتوجيه طاقاتِ مُجاهَدَاتِهِمْ لِغَيْر الميؤُوس من استجاباتهم، وكان هذا في آياتٍ واضحاتِ الدَّلالات في سُورَةِ (يونس/ ٥١ نُزُول).

وجاءَ في الدَّرْس الثّاني منْ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) تَعْلِيمُ الرسول ﷺ مَنْهَجاً دَعوِيّاً فِي آياتٍ ذَاتِ رِفْقٍ دَعوِيّ، ولِبَيَان المقْصُودِين بهذا الْعِلَاجِ الدَّعوِي في البيئَةِ المكِّيَّة، أرْشَدَتِ الآية (٥) الَّتي أسْتَعِينُ بِالله عَلَىٰ تَدبُّرِها تَدبُّراً مطابقاً للمرادِ بها، إلَىٰ أَنَّ المقْصُودِينَ بِهَـٰذَا الْعِلَاجِ أُنَاسٌ غَيْرُ ميْؤُوس من استجابتِهِمْ، ولهم أَمَارَاتٌ تَبْدُو في سُلُوكِهِمْ عِنْدَ وُجُودِهِم في مجالِسِ أو مَوَاقِفِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وتِلَاوَتِهِ بَعْضَ آياتِ القرآن المجيد.

ومن هـذه الأمَارَاتِ أنَّهُـم لَا يُدْبِرُونَ مُسْتَكْبِرِينَ، وَلَا يُواجِهُونَ الرَّسُولَ ﷺ بمايَكْرَهُ من أَقْوالٍ أو أعمال، بَلْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ثَنْيَ المحتاج إلى تَحْرِيكِ جَسَدِه، وهو يَسْتَخْفِي بهَـٰذِهِ الحَرَكَةِ مِنْ أن يَشْهَدَ الرَّسُول ﷺ إعراضَهُ، ولا يكونُ هذا السُّلُوكُ إلَّا من إنسان فيه حياء، أو في قَلْبِهِ جَذْرُ خَيْرٍ، وهذا الجَذْرُ يَحْتَاجُ تَغْذِيَةً وَتَنْمِيةً وَمُدَاراةً، وحُسْنَ تَعَهُّدٍ بِرِفْقٍ، فَهُو يَدْخُلُ ضِمْنَ المطْمُوعِ في اسْتِجَابَتِهِمْ.

ولهذا جاء في الدرس الثاني من السورة تعليم الرسول ﷺ أسْلُوباً دَعوِيًّا رَفيقاً لا عُنْفَ فيه.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ أَوْصَيْنَاكَ بِأَنْ تَدْعُوَهُمْ بِرِفْقٍ في الآيات من (٢ ـ ٥)

حتَّىٰ كأنَّكَ تدعوهم لأوَّلِ مَرَّة، هُمْ أُناسٌ لَمْ يَبْلُغُوا مَبْلَغَ الميْؤُوسِ من استجابَتِهِم بإراداتِهِمُ الْحُرَّة، بَلْ في قُلُوبِهِمْ جُذُور خَيْرٍ قابلةٌ لِأَنْ تَدْفَعَهُمْ إلى الاستجابَةِ إلى الإيمان والإسْلام بَعْدَ حِينٍ قَدْ يَطُولُ أَوْ يَقْصُر، ومن الأَمَارَاتِ الدَّالَّاتِ على مَا في قُلُوبِهِمْ من قابليَّةٍ للاسْتِجَابَةِ أَنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ ثَنْياً يُشْعِرُ بأنَّهُ ناشئٌ عَنْ حَاجَةٍ جَسَدِيَّةٍ، لِيَسْتَخْفُوا بِهِ عَنْ أَنْ تُشاهِدَ إعْراضَهُمْ عَنْ دَعْوَتِك، أي: ومثلُ هَـٰذا يكونُ في العادة عن حياءٍ أو مُدَارَاةٍ، أوْ جُذُورِ خير كامِنَةٍ في الْقَلْب، وهَـٰذِهِ مُرَشِّحَات دالَّاتٌ علَىٰ أَنَّهُمْ مَطْمُوعٌ في اسْتِجَابتهم لدَعْوَةِ الحقّ الرَّبَّانِية، فَلْتُسْتَأْنَفْ دَعْوَتُهُمْ بِرِفْقٍ آناً فآناً، مع الاستفادة من أحوالِ إقْبَالِهم.

ووجَّه الله عَزَّ وجَلَّ لَهُمْ إِقْنَاعاً غَيْرَ مُبَاشِرٍ، بأَنَّهُمْ لَوْ سَتَرُوا أجسادَهم بِثِيَابِهِمْ وَلَمْ يَكْتَفُوا بأَنْ يَثْنُوا صُدُورَهم، فإنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّون وَمَا يُعْلِنُونَ، وهو جلَّ جلالُهُ عَلِيمٌ بصاحِبَةِ الصُّدُورِ من نيَّاتٍ وخواطِرَ وحَرَكاتٍ إرَادِيَّةٍ نفسيَّةٍ وغَيْرِ إرادِيَّة.

هذا ما ظهر لي في تَدَبُّر هَـٰذِهِ الآية، واللهُ أعْلَمُ بمُرَادِه.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾:

• ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ زيدت «مِنْ» بَعْدَ «مَا» النافِيَة لتَوْكِيد العُموم والتَّنْصِيص علَيْهِ. «دابَّة» مبتدأٌ مَجْرُورٌ لَفْظاً بحرف الجرّ الزائِد مرفوعٌ مَحَلًّا.

والدَّابَّة: هِي كُلُّ ذِي حَيَاةٍ يَدِبُّ في الأَرْضِ، من أَكْبَرِ حَيَوانٍ يَدِبُّ فيها حتَّىٰ أصْغَرِ حيوانٍ كالفيروسات ومَا هِيَ أصْغَرُ مِنْها، والدَّبُّ المشْيُ بِهُدُوءٍ رُويداً رُوَيداً، وهَـٰذا يَشْمَلُ كُلّ ذي حياة، فالقادر منها علَىٰ السُّرْعَة لَهُ مشْيٌ بِهُدُوءٍ.

واخْتير لفظ: «في الأَرْضِ» دُونَ «على الأرض» ليشمل التَّعبيرُ ما يَدِبُّ في باطِنِ تراب الأرضِ وصُخُورِها مِنْ كلّ ذِي حياة.

• ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾: أي: إلَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ أَنْ يَرْزُقَهَا بِوَسِيلَةٍ ما مِنْ وسائِلِهِ الَّتِي يَخْتارُها.

«عَلَىٰ اللهِ» خَبَرٌ مُقَدَّمٌ على المبتَدأ في «رِزْقُهَا» لإفادة القَصْر، أي: لَا أَحَدَ يَرْزُقُها حتَّىٰ غايَةِ أجَلِ حَيَاتِهَا إلَّا اللهُ جلّ جلالُه وعظم سلطانه.

وفي النفي بـ «ما» النافية والاستثناء بأداة الاستثناء «إلَّا» دَلَالَةٌ عَلَىٰ قَصْرِ وجُوبِ رِزْقِها عَلَىٰ اللهِ بمَا أَوْجَبَ اللهُ تَبارَكَ وتَعَالَىٰ على نفسه.

الرِّزْقُ: كُلُّ ما يَحْتَاجُهُ أَوْ يَنْتَفِعُ بِهِ الحيُّ في حَيَاتِهِ، كالغذاء والماء والهواء والدّواء والكِسَاء.

وتَدلُّ عبارة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ باللُّزُوم العَقْلِيّ عَلَىٰ إحاطَةِ عِلْم اللهِ بِكُلِّ دَابَّةٍ وبالرّزْقِ الَّذِي تحْتَاجُ إِلَيْهِ أَوْ يكونَ لَهَا بِهِ نَفْعٌ ما، ويُهَيِّئُهُ اللهُ لَهَا، ويُقْدِرُهَا عَلَىٰ الانتفاع به.

وجاءَتْ هَـٰذِهِ العبارة اسْتِكْمالاً لقضيَّةِ شُمُولِ عِلْم اللهِ الّذي دلَّتْ عليه الآية (٥) من أنَّ الله يَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ ومَا يُعْلِنُون، وعَليمٌ بذات الصُّدُور.

وزاد البيان اسْتِكْمالاً دَالًّا على شُمُولِ عِلْم اللهِ دَقَائِقَ أشَدَّ صِغَراً مِنْ أصْغَرِ دَابَّةٍ وَرِزْقَها، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الآية (٦) الجاري تَدبُّرها:

﴿. . . وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾:

المُسْتَقَرُّ: المكان الذي يكونُ فِيه الاسْتِقْرَارُ والثُّبُوتُ والدوام الطويل.

المُسْتَوْدَع: المكان الذي تُوضَعُ فيه الوَدِيعَةُ مُدَّةً ما من الزَّمَن.

ويصلح كلٌّ منهما أن يكون اسم زَمَان، ومَصْدراً مِيمِيًّا.

والذي أفهمه من عبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ هو ما يلي:

واللهُ يَعْلَمُ اسْتِقْرَارَهَا، ومكانَ اسْتِقْرَارِها وَزَمَانَهُ في أَصْلَابِ الأصُولِ الذُّكور، ويَعْلَمُ اسْتِيدَاعَها، ومَكَانَ اسْتِيداعِهَا، وزَمَانَهُ في أرحامِ الأُمَّهات.

حَمْلُ «المسْتَقَرِّ» على مكانِ الاستِقْرار وزمانِه وعلى الاستقرار فيهما، يَدُلُّ عليه ما صَحَّ من أنّ اللهَ عزَّ وجَلَّ مَسَحَ على ظَهْرِ آدَمَ، فاسْتَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ ذُرِّيَاتِهِ وأشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفُسِهِمْ قائِلاً لَهُمْ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بلى شَهِدْنا[1]. فَنَواةُ كُلّ مَنْ قَدَّرَ اللهُ وَقَضَىٰ أَنْ يَكُونَ ذَا حَيَاةٍ فهو بها يَدِبُّ في الأرض، قد جَعَلَ اللهُ لَهَا اسْتِقْرَاراً في أصْلَاب أصُولِهَا الذُّكور، وَقَدْ يَطُولُ هَـٰذا الاستقرار بدْءاً من أوّل مَخْلُوقٍ من نوعِ الحيِّ، حتَّىٰ آخِرِ مَوْلُودٍ مِنْهُ.

وفي المقابلِ يَكُونُ «المسْتَوْدَعُ» أَرْحَامَ الأمَّهاتِ، إذْ يكُونُ وُجُودُ نَواةِ الأحْيَاءِ فيها وُجُوداً قَصِيراً جدّاً، بالنِّسْبَةِ إلى الاسْتِقْرَار الطَّوِيلِ الَّذِي تَكُونُ فيه في أصْلَاب أُصُولها، على أنَّ كلاًّ من أصلاب الذكور وأرحام الإناث يصلحُ أن يقال بشأنه: مستقرٌّ ومستودع.

هذا ما وضحَ لي وترجّح في فهم المستَقَرِّ والمستَوْدَع، والله أعلم.

• ﴿... كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾: أي: ولا يَقْتَصِرُ الأمْرُ عَلَى شُمُولِ عِلْمِ اللهِ وإحَاطَتِهِ بكُلِّ ما سَبَقَ بَيَانُهُ في الآيَة، بلْ هو مَسْبُوقٌ بِقَدَرٍ مِنْهُ وَقَضَاءٍ، ومُسَجَّلٌ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ، هُوَ اللَّوْحُ المحفوظ، دلَّت على المطويَّاتِ مِنْ هَـٰذا التدبُّر العبارة القرآنيَّة: ﴿كُلٌّ فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ إذْ لَا تُسَجَّلُ في الكِتَابِ المُبِينِ الَّذِي هُوَ اللَّوْحُ المحْفُوظ، ما لَمْ تَكُنْ مَسْبُوقَةً بقضاءٍ وقَدَرٍ من الرَّبّ الخالِقِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

---

(١) انظر تدَبّر الآية (١٧٢) من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) في أوّل المجلد الخامس من هذا الكتاب، ففيه تفصيل موسَّعٌ يفيد متدبر الآية (٦) من سورة (هود/٥٢ نزول).

وجاء إيثارُ الفصل في عِبارَةِ ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَمْ تُعْطَفْ على ما جاءَ قَبْلَها لِمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصال، إذْ ما قَبْلَهَا يُثير سُؤالاً، وَهو: هَلْ يَقْتَصِرُ الأمْرُ على شُمولِ عِلْم اللهِ لأطْوَارِ كُلِّ دابَّةٍ، ومُسْتَقَرِّهَا ومُسْتَوْدَعِهَا؟. فجاء الجواب: «كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» أي: بلْ يَزِيدُ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُدوَّنٌ أيضاً في كتاب مبين.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

أي: والله هُوَ الّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ في سِتَّةِ أحْقابٍ زَمَنِيَّة، سمَّاها اللهُ أيَّاماً، وهو أعْلَمُ بمقْدارِ كُلِّ يَوْمٍ مِنْها.

• ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾: أي: وكانَ عَرْشُ اللهِ قَبْلَ خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ عَلَىٰ الماء.

العَرْش: مَخْلُوقٌ أعْظَمُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ومُحِيطٌ بِها.

• ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ﴾: أي: وخَلَقَكُمْ أَيُّها النَّاسُ في الأرض ضِمْنَ ظُرُوفِ الحيَاةِ الدُّنيا لِيَمْتَحِنَكُمْ، وبالامْتِحَانِ تظْهَرُ دَرَجَاتُ وَدرَكَاتُ الموضوعينَ مِنْكُمْ مَوْضِعَ الامتِحان في اختياراتِهِمْ لأعمالِهِم الجسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ الإراديَّة، وبِهَـٰذَا يَنكَشِفُ أيُّكُمْ أَحْسَنُ عَملاً، فأحْسَنُ عَملاً في الدَّرجاتِ الصاعِدَاتِ في الحسْن، وفي المقابل المطويّ في النّصّ يَنْكَشِفُ أيُّكُمْ أسْوَأُ عَملاً فأسْوَأُ عملاً، في الدَّرَكَاتِ المنْحطَّاتِ في السُّوءِ.

ونَعْلَمُ من مَفْهُومَاتِ نُصُوصٍ أخْرَىٰ أَنَّ مَنْ بَلَغَ أَسْمَىٰ الدَّرَجاتِ، كانَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ أَهْلِ الفِرْدَوْسِ الأعْلَىٰ في جَنَّاتِ النَّعيم، وأَنَّ من انْحطَّ

إلَىٰ أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ، كان يَوْمَ الدِّين من أهْلِ الدَّرْكِ الأسْفَلِ من جهَنَّمَ دَارِ المجرمين، وبين الفردوس الأعْلَىٰ في الجنَّةِ، والدَّرْكِ الأَسْفَلِ في النار دَرَجَاتٌ وَدَركات، لها من زُمَرِ النَّاسِ أصْحَابٌ بِحَسَبِ مَا قَدَّمُوا مِنْ عَمَلٍ في رِحْلَةِ امتحانهم في الحياة الدنيا.

وخاطبَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بَعْدَ هذا البيان بقوله له:

• ﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

أي: وَنُؤَكِّدُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ أَنَّكَ إِنْ قُلْتَ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ إلى الإيمان والإسلام: إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الموتِ للحساب، وفصْل القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، وأَبَنْتَ لَهُمْ مَا فِي الآخِرَةِ من دَارٍ للنعيم ودَارٍ للعذاب، لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كُفْراً جُحُودِيًّا إنَّ مُحَمَّداً لَمِنَ المسَحَّرِينَ الَّذِينَ أثَّر السِّحْرُ على تَصَوُّرَاتِهِمْ وقُواهُمُ الإدْرَاكِيَّة، فَصَارُوا يَقُولُونَ دُونَ وعْيٍ مِنْهُمْ أقْوَالاً تَخْرِيفِيَّةً هي مِنَ الأباطيل، فمَا هذا الذي يَقُولُهُ عَنِ البَعْثِ إلَّا أثَرٌ مِنْ آثَارِ السِّحْر ظاهِرٌ واضِح في أقواله.

﴿مُّبِينٌ﴾: من فعلِ «أَبَانَ» اللازم، أي: ظَاهِر واضِح.

في هذه المرحَلَةِ مِنْ مَرَاحِلِ الرَّسُول ﷺ الدَّعَوِيَّة، سقَطَتْ ذَرَائِعِهُمُ الَّتِي كانُوا يَتَّهِمُونَهُ فيها بالجنُونِ، أو بالكذب، وبَقِيتْ لَدَيهم ذَرِيعَةُ اتِّهَامِهِ بأنَّهُ مَسْحُورٌ سحْراً شَدِيداً جَعَلَهُ يتحدَّثُ عن غَيْبِيَّاتٍ مُسْتَقْبَلِيَّاتٍ باطلات.

والغَرَض من التوكيد المُشدَّد للرسُول إسْمَاع الذين كَفَرُوا بما سيقولون إذا قال لهم: إنكم مبعوثون، لإعلامهم بأنّ الله عليم بما في نفوسهم من تكذيب بالحق.

قول الله عز وجل:

• ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾:

• ﴿إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي: إلىٰ نِهَايَةِ مُدَّة مَعْدُودَةِ الأيّام والسَّاعَاتِ والثواني ومَا دُونها. يُطْلَقُ لفظ «الأمّةِ» على المدّة الزَّمَنِيَّة، والحينِ، والوقْتِ، وهو المرادُ هنا.

والمعنى: ولَئِنْ أَخَّرْنَا عن الّذين كَفَرُوا العَذَابَ الّذي يسْتَحِقُّونَهُ في الدُّنيا، والَّذِي أنْذِرُوا بِهِ، إمْهَالاً لَهُمْ ورَحْمَةً بهم، ولقَطْع كُلِّ أعْذَارِهم، إلى نِهَايَةِ مُدَّةٍ مَعْدُودَةِ الأجْزاءِ الزَّمَنِيَّة، لَيَقُولُنَّ مُكذِّبينَ بالوَعْدِ ومُسْتَهْزِئين به: ﴿مَا يَحْبِسُهُ ۗ﴾؟ أي: مَا هو الشَّيْءُ الّذِي يَمْنَعُ إِنْزَالَهُ، غَيْرَ مُقَدِّرِينَ إِمْهَالَ اللهِ لَهُمْ، رَغْبَةً في أَنْ يَتُوبَ مِنْهُمْ تائِبُون، ويُؤْمِنَ مِنْهُمْ مُؤْمِنُون، وغَيْرَ مُلاحِظِينَ في تَصَوُّراتِهِمْ رَحْمَةَ اللهِ لهم، وإعطاءَهُمْ أوْسَعَ زَمَنٍ يَقْطَعُ بِهِ أعْذَارَهم.

• ﴿أَلَا﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ وتَنْبِيهٍ وتَحْقِيق.

• ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: أي: تَنَبَّهْ وَتَحقَّقْ أَيُّهَا المتَلَقِّي هَـٰذا الخطاب، أنَّ عَذَابَ اللهِ إذا صَدَرَ أمْرُهُ بإنْزالِهِ، فإنَّهُ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَا تُوجَدُ قُوَّةٌ في الكَوْنِ من دُونِ اللهِ تَصرِفُهُ عَنْهُمْ، ويَكُونُ حِينئِذٍ أَمْرُ اللهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ نَافِذاً فِيهِمْ حَتْماً، لَا تَبْدِيلَ فِيهِ ولَا تَحْوِيل.

• ﴿... وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: وأصَابَهُمْ وأحَاطَ بهم، يُقَالُ لغة: «حَاقَ بِهِ الأَمْرُ يَحِيقُ، حَيْقاً، وَحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً» أي: لَزِمَهُ وَوَجَبَ علَيْهِ وأحَاطَ به.

وَدَلَّت عبارة: ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ على أنَّ قَوْلَهُمْ: ﴿مَا يَحْبِسُهُ ۗ﴾؟ قَوْلٌ يَقْصِدُونَ بِهِ الاسْتِهْزَاءَ، فهو من قبيل الاستفهام الّذي خَرَجَ عَنْ أَصْلِ دَلَالَتِهِ إِلَىٰ إِرَادَةِ الاسْتِهْزَاءِ بِهِ، والمسْتَهْزَأُ بِهِ الوَعْدُ الإنْذَارِيُّ بإنْزَال العَذَابِ المعُجَّلِ بهم.

والمعنيُّونَ بِهَـٰذَا البيان المطْمُوعُ بإيمانِهِمْ الّذين وَصَفَتْهُمُ الآيَة (٥) بأنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ وهُمْ في مَوْقِعِ دَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ لِيَسْتَخْفُوا مِنْه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾:

هذه الآياتُ تَكْشِفُ بَعْضَ صِفَاتِ الإنْسَانِ الَّذِي لَمْ تُقَوِّمْ مَسِيرَةَ سُلُوكِهِ فِي الحياة الدُّنيا، قاعِدَةُ الإيمانِ باللهِ وبرسُولِهِ وبكتابه وباليَوْم الآخر.

وبَيَانُ هَـٰذِهِ الصِّفات للإنْسَانِ يُنَاسِبُ تَكْلِيفَ الرَّسُولِ ﷺ أنْ يُتَابِعَ دَعْوَتَهُ لِغَيْرِ الميؤوسِ مِنَ استجابَتِهِمْ.

وهَـٰذا البيان عن الإنسان مَوْصُولٌ بخَطِّ الحديث عن صِفَاتِهِ في السُّوَر الَّتِي نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (هود/ ٥٢) وجاء فيها حديثٌ عن صِفَاته.

جاء التوكيد بالقسم في ﴿وَلَئِنْ﴾ مَرَّتَيْنِ في هذا النّصّ، فاللّام موطّئةٌ للقسم كما يقول النحاة.

﴿أَذَقْنَا﴾: أطْلِق فِعْلُ الذَّوْقِ الّذِي يكُونُ باللّسان، والمراد بِه كُلُّ إحْسَاسٍ يُحِسُّ بِهِ، ممَّا لَهُ به لَذَّةٌ تُمْتِعُه، أو ألَمٌ يَكْرَهُهْ، وقَدْ تَكَرَّرَ في القُرآن هَـٰذا الإطْلاق، وهُوَ مِنْ تَعْمِيمِ الإحْسَاسِ الّذِي يَكُونُ باللّسان علىٰ كُلِّ إحْسَاسٍ يكون في أيِّ موضعٍ من مواضِع الجِسم.

يَؤوسٌ: أي عَظِيم اليَأْس، وهو انْقِطَاعُ الأَمَل والطّمع في المطلوب السَّارِ الممتع. يَؤوس: صيغَةُ مبالغَةٍ لاسم الفاعل «يَائس».

كَفُور: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كافر» أي: عَظِيمُ الكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ عليه الّتي كان يَسْتَمْتِعُ بها قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْه، ولَا يَلْجأُ إلى اللهِ يَسْأَلُهُ مُتضَرِّعاً أَنْ يُعِيد إليه النِّعْمَةَ الَّتِي نَزَعَهَا مِنْه، لِأَنَّهُ كَفُورٌ بِرَبِّهِ.

﴿رَحۡمَةً﴾: الرَّحْمَةُ صِفَةٌ مِنْ صفاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بجلالِهِ وعَظِيم سُلْطانه، والمراد بها هُنَا آثَارُهَا المُمْتِعَةُ السَّارَّةُ للإنْسَان المتحدَّثِ عنه.

النَّعْمَاء: السَّعَةُ ممَّا يُمْتِعُ النُّفُوسَ وَيَسُرُّها وَيَلَذُّها، وجَمْعُها: «أَنْعُم».

الضَّرَّاءُ: الشِّدَّةُ، وكُلُّ حَالَةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنفس.

الفَرِحُ: البَطِر المسْتَكْبِر المتَبَخْتِرُ المتعالِي على الناس.

الفَخُور: المتَباهِي بِمَا لَدَيْهِ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، أو بما فيه من صفاتٍ ذَاتِيَّةٍ مُتَمَيِّزَةٍ.

المعنى: إنَّ الإنْسَانَ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ باللهِ وَلَا بِاليَوْمِ الآخِرِ، ولَا يُؤْمِنُ بأنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يَمْنَحُ النّاسَ بِرَحْمَتِهِ مَا يُمْتِعُهم وَيَسُرُّهُمْ وَيَلَذُّهم، مِنْ مَتَاعِ الحياةِ الدُّنيا، لِيَبْلُوَهُمْ به، وهُوَ الَّذِي قَدْ تَقْتَضِي حِكْمَتُهُ أَنْ يَنْزِعَ مِنْهُمْ مَا كَانَ قَدْ وَهَبَهُمْ، وهو الّذي يَمْتَحِنُ بَعْضَ عِبادِه بالضَّرَّاء، ثُم قَدْ يَرْفَعُ عَنْهُمُ الضَّرَّاءَ، ويَمْتَحِنُهُمْ بالسَّرَّاءِ، تَدُورُ مَفْهُومَاتُهُ فِي الحَياةِ حَوْلَ الظّواهِرِ السَّبَبِيَّة، فمَا يَتَعَرَّضُ لَهُ فِيها مِمَّا يُحِبُّ ومِمَّا يَكْرَهُ، يَرْبِطُهُ بالأَسْباب، غَيْرَ مُؤْمِنٍ بأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الخَلَّاقُ مِنْ قَنواتِ الأَسْبابِ، على وَفْقِ مَا تَمَّ بِهِ قَدَرُه وقَضَاؤه بإرادَتِه الحكيمة، جلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

ومن آثارِ هذا التعلُّقِ بالأسباب، مع عَزْلِ الإيمان باللهِ ومقاديرِه وأقْضِيَتِهِ الحكيمة عَنِ التَّصَوُّرِ كُفْراً بِها، أو عدمَ اكتِرَاثٍ لَهَا، أَنْ يَكُونَ من صِفَاتِ الإِنْسَانِ ما يَلِي:

أوّلاً: إذَا أصَاب مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا مَا طَابَ لَهُ، وذَاقَ لَذَّاتِها، ومَرَّتْ عَلَيْهِ مُدَّةٌ وَهُوَ يَستَمْتِعُ بالسَّرَّاء، وَتَوَهَّمَ أنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ لَا تَنْقَطِعُ مَا دَامَ حيًّا، وَجَاءَتْ بَعْدَ ذَلِكَ أَسْبابٌ سلَبَتْهُ مَا كَانَ يَسْتَمْتِعُ بِهِ، فإنَّهُ حِينَئذٍ يَكُونُ يَؤُوساً كَفُوراً.

أمَّا شِدَّةُ يَأْسِهِ فَلأَنَّهُ لَا يَرَىٰ فِي المنْظُورِ القَرِيبِ أسْبَاباً تُعِيدُ له مَا نُزِعَ مِنْه، مِمَّا كَانَ قَدْ جَمَعَهُ بأَسْبَابٍ مختَلِفَةٍ فِي زَمَنٍ طَوِيلٍ مِنْ شَبَابِهِ وكُهُولَتِهِ، إذْ كَانَ ذَا قُوَّةٍ وهِمَّةٍ وحيلَةٍ وَنَشَاطٍ فِي العَمل.

وأمَّا شِدَّةُ كُفْرِهِ، فَلِأَنَّهُ لَا يَتَضَرَّعُ إلى ربِّهِ مُتَذَلّلاً داعياً، مُؤْمِناً بأَنَّهُ هُوَ الَّذي سَبَقَ أنْ وَهَبَهُ مَا يُحِبُّ مِنْ مَتاعِ الحياة الدُّنيا لِيَبْلُوَه، وهو الَّذي نَزَعَ مِنْه مَا كَانَ قَدْ وَهَبَهُ، لِيَتَضَرَّعَ إلَيه دَاعياً مستَغْفِراً تَائباً مُؤْمناً بأَنَّهُ هو الواهِبُ والسَّالِبُ، وهو المعطي والمانع، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير، فإذا شَاءَ أَنْ يُجَدِّدَ لَهُ عَطَايا مِنْ فَضْلِه يُمَتِّعُهُ بها، يَسَّرَ لَهُ أسْبَاباً تجلُبُ لَهُ مِنْ مِتاعَاتِ الحياة الدُّنيا مَا يُحِبّ، حَتَّىٰ يَعُودَ إلى مِثْلِ مَا كان عَلَيْهِ قَبْلَ السَّلْبِ أَوْ أَكْثَر، واللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لَا يُعْجِزُهُ شَيء.

هذا الَّذي نَفْهَمُه مِنْ قول اللهِ عزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾:

جاء في هذه الآية والتي بَعْدَها استعمالُ ضَمِير المتكلّم العظيم في: [**أَذَقْنا ـ مِنَّا ـ نَزَعْنَاها**].

وجاء التَّوكيد بالقسم أولاً، وبالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللَّام المزحلَقة» آخراً.

والمعنيُّ بالتوكيد الإنسانُ نَفْسُه، لأنَّهُ في حالة النعماء لا يَعْتَرفُ بأنَّهُ يَؤُوسٌ، ولا يَعْتَرِفُ دواماً بأنَّهُ كَفُورٌ بِرَبّه.

ثانياً: إِذَا أَصَابَ هذا الإِنْسَانُ نَعْمَاءَ مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ سَبَقَ أَنْ مَسَّتْهُ، لَمْ يُلَاحِظْ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الَّذِي كَشَفَ عَنْهُ الضَّرَّاء، وهُو الَّذِي مَنَحَهُ مَا هُوَ فِيه من نَعْمَاء لِيَبْلُوَهُ.

أَمَّا انْكِشَافُ الضَّرَّاءِ عَنْه فَيَقُولُ بِشَأْنِهِ ذَهَبَ السَّيِئَاتُ عَنِّي، لَمْ توضَعْ تاء التأنيث في ﴿ذَهَبَ﴾ لِأَنَّ «السّيئات» مجازيَّة التأنيث.

إِنَّهُ مَادّيٌّ سَبَبيٌّ لَا يُؤْمِنُ بِخُطَّةِ خَالقٍ رَبٍّ حكيم يُقَدِّرُ ويَقْضِي بِحِكْمَتِهِ، كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ مِنْ شُؤونِ عِبادِه. وقَدْ يَنْسُبُ ما جَرَىٰ لَهُ إلى المصَادَفَه.

وحين يَسْتَقِرُّ في النَّعْمَاءِ تَظْهَرُ في سُلُوكه آفتان:

الآفَةُ الأُولى: الفَرَحُ، أي: البَطَرُ والاسْتِكْبَارُ والتبخْتُرُ والتعالي على الناس، ولوازم هذه الآفة في السُّلوك.

الآفة الثانية: شِدَّةُ الفَخْر، ومِنْ مَظَاهر هَـٰذِهِ الآفَة أَنْ يَتَحَدَّثَ بأمْجادِهِ، وَعَبْقَرِيّتِهِ، وصِفَاتِهِ الَّتِي يَتَمَيَّزُ بها، وبأنَّهُ بها اسْتَطَاعَ أنْ يَجْلُبَ لِنَفْسِهِ مَا هُوَ فيه من نَعْماء، ويَصْرِف عَنْها مَا كَانَ فِيهِ مِنْ أشياءَ مَكْرُوهَةٍ كانَتْ تَسُوؤُه.

واستَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنَ عُمُومِ الإنْسَانِ الَّذِي أبانَت الآيتانِ (٩) و(١٠) صِفاته تُجاهَ النِّعَم والمصَائِبِ وتَقَلُّبَاتِهِمَا وُجُوداً فِيهِ وعَدَماً، المؤمنينَ الصَّابِرينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَات، فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

أي: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وأَسْلَمُوا واتَّقَوْا وَصَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات، فالصَّبْرُ على المكاره، والصَّبْرُ عَلَىٰ الطَّاعَات، والصَّبْرُ عن المعاصِي،

وعَمَلُ الصَّالحات، إنَّما هِيَ ثَمَرَاتُ إيمانٍ صَحِيحٍ، وإسْلَام صادقٍ، وتَقْوىٰ في السُّلُوك، وهَـٰذِهِ مَطْوِيَّةٌ فِي النَّصِّ، إذْ يَدُلُّ عَلَيْهَا اللُّزُومُ العَقْلِيُّ.

فَهؤُلَاء لَا يُصَابُونَ بآفاتِ اليأسِ والكُفُور، والاسْتِكْبَارِ والفخر، لِأَنَّ عقائِدَهُمُ الإيمانِيَّةَ تَحْمِيهِمْ مِنها.

وأبَان الله عَزَّ وجَلَّ ارْتِفَاعَ مَنْزِلَتِهِمْ عِنْدَهُ بالإشارة إليهم باسم الإشارة الموضوعِ للْبَعِيدِين: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾.

وأبانَ أنّ لَهُمْ عِنْدَهُ مَغْفِرَةً لِذُنُوبهم، وأَنَّ لهم أَجْراً كبيراً، وهذا الأَجْرُ الكبيرُ ينالُونَهُ يَوْمَ الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

وبهذا انْتَهىٰ تدبّر الدرس الثالث من دُروس سورة (هود).

والحمد للهِ على معونته ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الرّابع من دُروس سورة (هود) الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

تمهيد:

هذا الدَّرْس مَوصُولٌ بما سَبَقَ أنْ نَزلَ قبل سورة (هُود) من سُور، بشأن القرآن وَحَالِ الرسُول ﷺ تُجاهَ مَواقِف كُبَراءِ مُشْركي قريْشٍ، مِنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِيه ممَّا يُخَالِفُ شِرْكيَّاتِهِم ولوَازِمَها في السُّلُوك، وتُجَاهَ مُطَالَبَتِهِم الرَّسُولَ بمطالِبَ تَعنُّتِيَّةٍ، مِنْها مَا يتعلَّقُ بتَبْدِيل ما يُخالف معتقداتهم من آيات القرآن، ومِنْها مَا يَتَعلَّقُ بخوارقَ مَاديَّةٍ، أو إنْزَالِ كَنْزٍ عَلَيْهِ بآيَةٍ خارِقَةٍ، أوْ بَعْثِ مَلَكٍ مُصَاحِبٍ له يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ رَبِّ العالمين.

فمنها مَا جاء في الآيات من (١٥ ـ ١٧) من سورة (يونس/ ٥١ نزول). وفي الآيتَيْنِ (٣٧) و(٣٨) منها أيضاً. وفي الآيات من (٨٦ ـ ٨٩) من سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول). وفي الآيتَيْنِ (٨٦) و(٨٧) من سورة (القصص/ ٤٩ نزول) إلى سَائِرِ ما جَاءَ في السُّورِ قبل ذلِكَ.

ومُتَدَبِّر الآيات التي سَبَقَ أنْ نَزَلَتْ بأناة، يُلاحِظُ أنَّ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ من مُعَالجاتٍ وَتَرْبياتٍ رَبَّانِيَّه، مُتَّسِقٌ اتّسَاقاً مُلائِماً لِتَرْتيب نُزُولِ السُّور الَّتِي هِيَ مِنْها، وهذا يَتَطَلَّبُ دِرَاسَةً تَدبُّرِيَّة خاصَّةً شَامِلَة، أسْأَلُ اللهَ الوَهَّاب أَنْ يَفْتَحَ عَلَيّ بذلك في بحْثٍ مُسْتَقِلّ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ لرسوله ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾:

جاء في سورة (يونس/ ٥١ نزول) توصيةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بأن لا يَعْبأ بِطَلَبِ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مَكةَ المكابرِينَ المعانِدِين، أنْ يأْتي بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا

القُرْآن أو يُبَدِّلَ مَا لَا يُوافِقُ أهْوَاءَهُمْ مِنْهُ، وَعَلَّمَهُ مَا يُجِيبُهُمْ به، انظر تدبُّر الآيات من (١٥ ـ ١٧) منها.

وَلَكِنْ بَقِي احْتِمالُ أَنْ يَتْرُكَ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إلَيْهِ، مُدَارَاةً لكبراء قَوْمه، ولَوْ بِتَأْخِيرِ التَّبْليغ إلَىٰ وَقْتٍ آخَر، ورُبَّما يَرَىٰ الرَّسُول ﷺ أنَّهُ لَا حَرَجَ عليه في هذا التّأخير، فَكَانَ من الحكْمَةِ التَّرْبَوِيَّةِ أنْ يُبادِرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ بِكَفِّهِ عَنْ أنْ يَخْطُرَ لَهُ مِثْلُ هَـٰذا الخَاطِرِ الَّذِي يَخْطُرُ على أذْهَانِ البَشَرِ عادَةً، ولَوْ كَانُوا أفْضَلَ خَلْقِ الله، فاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، ولَا يُنْزِلُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيلِ تِباعاً إلَّا مَا تَقْتَضِيهِ حكمَتُه، ولَيْسَ مِمّا يُباحُ أو يُؤْذن بِهِ للرّسُولِ أنْ يَتْرك مؤقَّتاً تَبْلِيغَ ما أنْزَلَ رَبُّهُ إلَيْه وأمَرَهُ بِتَبليغِهِ، فضلاً عَنْ أنْ يَتْرُكَ تَبْلِيغَهُ تَرْكاً كلِّيّاً.

وجاءَتْ هَـٰذِهِ المُبَادَرةُ التربويَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ، بِطَرْحِ احْتِمَالِ أنْ يَتْرُكَ الرسُولُ تَبْليغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَلَوْ تَرْكاً مُؤَقَّتاً، اجْتِهَاداً مِنْهُ إذْ يَتَصَوَّرُ أَنَّهُ مَأْذُونٌ به، فقال الله عَزَّ وجَلَّ لَهُ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ . . . ﴿١٢﴾﴾:

أي: إذَا خَطَرَ لَكَ مِثْلُ هَـٰذا الخاطِرِ يَا مُحَمَّد، فاعْلَمْ أَنَّكَ غَيْرُ مأذُونٍ به، ولا يُقْبَلُ فيه اجْتِهادُكَ، وإنْ وَجَدْتَ أَنَّ صَدْرَكَ يَضِيقُ بِتَبليغِهِ إذَا بَلَّغْتَهُ، وأَنْتَ حَرِيصٌ على مُدَارَاةِ كُبَرَاءِ قَوْمِكَ رَجَاءَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيُسْلِمُوا، لِيُنْقِذُوا أَنْفُسَهُمْ مِنْ عذَاب النَّارِ يَوْم الدِّينِ، وتَرَىٰ أنَّكَ إذا بَلَّغْتَهُمْ كُلَّ مَا يُوحِي بِهِ إليكَ رَبُّكَ زِدْتَهُمْ نُفُوراً مِنْ دَعْوَتِكَ، وَمِنَ الاسْتِجابَةِ لَكَ، وَجَعَلْتَهُمْ يُتَابِعُونَ تَكْذِيبَكَ في نُبُوَّتِكَ وَرِسَالَتِكَ مُكَرِّرِينَ آناً فَآناً مَقَالَتَهُمُ الإعْلَامِيَّةَ السَّابِقَةَ: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾: أي: هَلَّا أُنزِلَ إلَيْهِ كَنْزٌ مِنْ رَبِّهِ يُغْنِيهِ لَوْ كَانَ رَسُولاً مَبْعُوثاً مِنْ رَبِّهِ حقًّا، أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حقًّا، جَاعِلِينَ هَـٰذا شَرْطاً لازِماً لِتَصْدِيقِهِ بأنَّهُ نبيُّ اللهِ وَرَسُوله.

فالمعنى: إذَا خَطَرَ لَكَ أَنْ تَتْرُكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَلَوْ تَرْكاً مُؤَقَّتاً، إذْ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِتَبْلِيغِهِ لِكُبَرَاءِ قَوْمِكَ الَّذِينَ تُدارِيهم حِرْصاً مِنْكَ عَلَىٰ إيمانِهِم وإسْلامِهِمْ، ولِئَلَّا يُرَوِّجُوا مَقُولَتَهُمُ الإعلاميّة الَّتِي يُقْنِعُونَ بِهَا جَمَاهِيرَ قَوْمِكَ: لَوْ كَانَ رَسُولاً مِنْ رَبِّهِ حَقًّا، فَهَلَّا أُنْزِلَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ يَشْهَدُ له بنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ.

«**لَعَلَّ**» أَصْلُها للتَّرجي، وَتُسْتَعْمَلُ اسْتِفْهامِيَّة، وهذا المَعْنَىٰ هُوَ الراجح هنا، أي: هَلْ أَنْتَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إليك، أو ضَائِقٌ به صَدْرُكَ، وتَوجيه هذا الاستفام يَدُلُّ على أنّ المستفهم عنه احتمالٌ من الاحتمالَاتِ الّتي قَدْ تخْطُرُ للرّسول أو تَحْدُثُ له.

﴿تَارِكُۢ﴾ اسم فاعِل من فعل «تَرَكَ» والمراد هنا المفهوم من النّص تَرْكُ التَّبْلِيغ، وهو أخفُّ من قول المشركين السابق له: ﴿ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ في الآية (١٥) من سورة (يونس/ ٥١ نزول).

واسْمُ الفاعل هُنَا مُسْتَعْمَلٌ في الدَّلَالَةَ على المستقبل، لأنّه بمَنْزِلَةِ الفِعْل المضارع، أي: أَتَتْرُكُ مُسْتَقْبَلاً بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ اجْتِهَاداً مِنْكَ؟.

﴿وَضَآئِقُۢ﴾: اسم فاعل من فعل «ضَاقَ يَضِيقُ» وهو كسابقه، والمعنى أَيَضِيقُ صَدْرُكَ مُسْتَقْبلاً لَدَىٰ تَبْلِيغكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ لِكُبَرَاء قَوْمِكَ؟.

• ﴿... أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ... ⟨١٢⟩﴾:

أي: أَتَتْرُكُ تَبْلِيغَ بَعْضِ مَا يُوحَىٰ إليكَ، مَنْعَ أَنْ يُرَوّجُوا ضِدَّكَ هَـٰذِهِ المقُولَةَ الإِعْلَامِيَّةَ الَّتِي تَتَأَثَّرُ بِها جَماهِيرُهُمْ؟.

«**لَوْلَا**»: هي هُنَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ بِمَعْنَىٰ «هَلَّا».

• ﴿... إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ ... ⟨١٢⟩﴾: أي: مَا أَنْتَ بالنِّسْبَة إِلَىٰ هَـٰؤُلَاء الَّذِينَ يُهِمَّكَ أَمْرُهُمْ إلّا مُنْذِرٌ لَهُمْ بَعذَابِ رَبِّهم، لأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا

دَرَكَةً مَيْؤُوساً مَعَهَا مِنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِكَ بإرَادَاتِهِمُ الحُرَّة، إذْ هُمْ مُسْتَيْقِنُونَ جَاحِدُونَ، لَا تُجْدِي مَعَهُمْ بيانَاتٌ وَلَا تَلْبِيَةُ طَلَبَاتٍ، فالحكْمَةُ تَقْضِي بِعَدَمِ الاستجابَةِ لطلباتهم.

• ﴿... وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾: أي: ولَسْتَ وَكيلاً عَلَيْهِمْ مُطَالَباً بِتَحْوِيلهِمْ مِنَ الكُفْرِ إلَىٰ الإيمان، إذْ هُمْ ذَوُو إراداتٍ حُرَّة، ولَا تَتَعَدَّىٰ وَظيفَتُكَ وَاجِبَ التَّبْليغ والبَيانِ والتّذكيرِ والنُّصْح، فإنْ لم يَسْتَجيبوا لَكَ فَعَلَيْهِمْ أن يَتَحَمَّلُوا عُقُوبَاتِ رَفْضِهِمْ لِدَعْوَةِ الحقِّ الرَّبَّانِيَّة، الّتِي دَمَغَتْهُمْ براهِينُها.

أمّا القادِرُ عَلَىٰ تَحْوِيلهم بِسَلْبهِمْ إراداتِهِمُ الحرَّة، وجَعْلِهِمْ مجبورينَ علَى الإيمان والإسْلَام، فَهُو اللهُ عَزَّ وجَلَّ، إذْ هو ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ، فهُو بِسُلْطَانِهِ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ فِي كُلّ شَيْءٍ مَا يَشَاء، لَكِنْ لَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ أنْ يَجْعَلَ عَبَاده الموضوعين مَوْضِعَ الامْتِحَانِ مجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرين، للتناقُضِ بَيْنَ الإرادة الحرَّةِ الَّتِي هي من شُرُوطِ الامْتِحَانِ وبَيْنَ الجَبْر الَّذِي يَقْتَضِي سَلْبَ الإرادَة الحرَّة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن القرآنِ والرَّسُول ﷺ أيضاً:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾:

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ﴾: أي: بَلْ يَقُولُ الّذِينَ كَفَرُوا: افْتَرَىٰ محمَّدٌ القُرْآنَ عَلَىٰ رَبِّه، وَيُكَرِّرُون هَـٰذِهِ المقالَةَ، ويَجْعلُونها إشاعَةً إعْلَامِيَّة. فـ «أَمْ» هُنَا. بمعنى «بل» للإضراب الانتقالي.

افتراه: أي: صنَعَهُ ونَسَبَهُ إلى رَبِّهِ.

هَـٰذِهِ دَعْوَىٰ تَتَضَمَّنُ أَنَّ البَشَرَ قَادِرُونَ على أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذا

القرآن، لِأَنَّ مُحمّداً الَّذِي افْتَرَىٰ بِزَعْمِهِمُ القرآن بَشَرٌ من البَشَر، فاقْتَضَتْ هَـٰذِهِ الدَّعْوَىٰ تَحدِّيَهُمْ بأَنْ يأتُوا بِمِثْلِ ما نزل مِنْه، أو بِمِثْلِ سُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ، ولَكِنَّ تَحَدِّيَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ سُورةٍ منهُ، وهو ما جاء في الآية (٣٨) من سُورَةِ (يُونُس/ ٥١ نزول) أغْرَىٰ بَعْضَهُمْ بأَنْ يأتِيَ بِمِثْلِ سُورَةٍ من قصار سُوَرِ القرآن، كسُورَة «المسَد» أو سُورَة «النَاس» أو سُورَة «الفيل» ويزْعُمَ مَعَ قبيلٍ من الغوغائيّين أنّ مَا جَاءَ بِهِ مُمّاثل لِسُورَةٍ قَصِيرَةٍ من سُوَرِ القرآن، كما حُكِيَ أَنَّ مُسَيْلِمَة الكذاب صنَعَ سُورَةً قال فيها: «يَا ضِفدَعُ يا بِنْتَ ضِفْدِعين، نُقِّي مَهْمَا تَنُقِّين، لَا الماءَ تُعَكِّرين، وَلَا الشَّارِبَ تمْنَعِين».

وقَطعاً لِلْجَدَلِ بِشَأْنِ صِحَّةِ المُمَاثَلَةِ وعَدَم صِحَّتِها، كَانَ مِنَ الحِكْمَةِ نَقْلُ التَّحَدِّي إلىٰ الإِتْيَانِ بعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ القرآن مُفْتَرَيَاتٍ، وهذا نظيرُ مَا فَعَلَ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السّلام مع نُمْرُود، إذْ قَالَ إبراهيمُ لَهُ: رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، فقال نمرُود: أنَا أُحْيي وأُمِيتُ، عَلَى سبيل المغالَطة، فَقَطَعَ إبراهِيمُ عليه السَّلامُ التَّحدِّيَ بما يَسْتَطِيعُ أنْ يُغَالِطَ فيه ويجادِل، وقال له: إنَّ اللهَ يأتِي بالشَّمْسِ من المشْرِقِ فأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ، فَبُهِتَ نُمْرودُ الكافِرُ بِرَبّه، ولم يَجِدْ جَواباً.

وفي هَـٰذا تَعْلِيمٌ جَدَلِيٌّ للدُّعَاةِ إلى دِينِ اللهِ من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنْ يَتْرُكُوا مَا يَحْتَمِلُ الجدَال وَمُرَاوغَة الخَصْم، ويَنْتَقِلُوا إِلَىٰ مَا لَا يَحْتَمِلُ جِدَالَهُ وَمُرَاوَغَتَهُ.

ولهذا عَلَّمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ وَكُلَّ دَاعٍ إِلَى اللهِ مِنْ أُمّتِهِ مَا يُجِيبُ بِهِ الكافِرين الَّذِينَ يَقُولُون: إنَّ محمّداً هو الّذِي يَصْنَعُ القُرْآنَ وَيَنْسُبُهُ إلىٰ الله عَزَّ وجَلَّ افْتِرَاءً، فقال تبارك وتعالى: ﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: واسْتَعِينُوا بِمَنْ تَسْتَطِيعُونَ الاسْتعانَةَ بِهِ من دُون اللهِ، لِصِنَاعَةِ

عَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ تَفْتَرُونَهَا على الله، إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بأنَّ القرآنَ قَوْلُ البَشَر، وأنَّ البَشَرَ قَادِرُونَ عَلَى أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِهِ، ويَدْخُلُ فِيمَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَعْبُدونها.

والمعنى: إنَّكُمْ كَذَّابُونَ مُرَاوِغُونَ غَيْرُ صَادِقِين، إذْ أَنْتُمْ في قُلُوبِكُم مُسْتَيْقِنُونَ عَالِمُونَ بأنَّ القرآن مُنَزَّلٌ على محمَّدٍ من ربّه، وَلَيْسَ مِنْ صُنْعِه، ولم يَفْتَرِه على رَبّه افتراء، لِكنَّكُمْ لَا تُرِيدُون أنْ تُؤْمِنُوا به وتَتَّبِعُوهُ تعالِياً واسْتِكْبَاراً، فأنْتُمْ تَجْحَدُونَ الحقَّ مكابَرَةً وعِناداً وَاتِّبَاعاً للهوى.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾؟:

هذا البيان من توابعِ التعليم الرَّبّانيّ من اللهِ لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِه.

وَالفاء في ﴿فَإِن﴾ جاءَتْ تَفْرِيعاً عَلَىٰ عبارة: ﴿... وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾.

المعنى: وقل لهم: فإنْ عَجَزْتُم، وَلَمْ يَسْتَجِبْ لكم مَنْ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وفيهِمْ آلِهَتُكُمْ، للإتْيَانِ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِ القرآن مُفْتَرياتٍ، فَاعْلَمُوا يَا مَنْ زَعَمْتُمْ أنَّ مُحَمّداً يَصْنَعُ القرآنَ ويَنْسُبُهُ إلَىٰ رَبِّهِ افْتراءً عليه، أَنَّمَا أُنْزِلَ القرآنُ مُحَاطاً ومُقْتَرِناً ومَقُولاً بِعِلْمِ اللهِ، أَلْفَاظاً، ومَضَامِينَ، وَوَسِيلَةَ تَنْزِيلٍ، وَتَبْلِيغاً لِلرَّسُولِ محَمَّدٍ ﷺ، فَلَيْسَ شَيْءٌ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ خَارِجاً عن إحَاطَةِ عِلْمِ اللهِ ـ جلَّ جَلالُه ـ به، وهذا يَدُلُّ أُولي الألْبَابِ عَلَىٰ أَنَّهُ كلامُ اللهِ حقّاً وَصِدْقاً.

وٱعْلَمُوا بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ لا إلَه إلّا اللهُ، وأَنَّ آلِهَتَكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونها مِنْ دُونه آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ لَمْ تُسْعِفْكُمْ بِأَنْ تَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِ القرآنِ مُفْتَرَيات.

وبَعْدَ أَنِ انكَشَفَ لَكُم عَجْزُكُمْ عَنِ الإِتْيَانِ بعَشْرِ سُوَرٍ مثل القرآن، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ؟. أي: وَمُؤْمِنُونَ لِأَنَّهُ لا يَكُون الإسْلام صَحِيحاً، ما لَمْ يَكُنْ مَسْبُوقاً بإيمانٍ صحيح صَادِق.

جاءت الدَّعْوَةُ إلى الدُّخول في الإسلام بأسْلُوب العرض بالاستفهام، تلَطُّفاً بهم، ومُدَارَةً لهم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدرس الرابع من دُرُوس سورة (هود).

والحمد لله على فتحه ومعونته ومَدَدِه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبّر التحليليّ للدّرسِ الخامس من دُروس سورة (هود) الآيات من (١٥ ـ ٢٤)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

القراءات:

(١٥) ● قرأ حمزة، ويَعْقوب: **[إِلَيْهُمْ]** بضَمّ هاء الضمير.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بكسر هاء الضمير **[إِلَيْهِمْ]**.

والقراءتان لغتان عربيّتان.

(٢٠) ● قرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو جَعْفر، ويعقوب: **[يُضَعَّفُ]** من فعل «ضَعَّفَ».

وقَرَأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة: **[يُضَاعَفُ]** من فعل: «ضَاعَفَ». ومؤدّىٰ القراءتَيْن واحد، وهما من التفنُّنِ في التعبير.

(٢٤) ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائيّ، وخلف: **[أَفَلَا تَذَكَّرُونَ]** من فِعْل «تَذَكَّرَ، يَتَذَكَّر».

وقرأها باقي القراء العشرة: **[أَفَلَا تَذَّكَّرُونَ]** أصْلُهَا «تتذَكَّرُون» أُدْغِمَتْ التَّاءُ بالذّال فصارت «تَذَّكَّرُون» وهذه القراءة تُلائم حَالَ مَنْ يُطْلَبُ مِنْهُمُ التَّذَكُّرُ بتكَلُّفٍ، لِأَنَّهُمْ في تَصَوُّراتِهِمْ بَعِيدُونَ عَن التَّذَكُّر، انْشِغَالاً بِمَتَاعَاتِهِمْ من الحياة الدُّنيا.

فبَيْن القراءَتَيْنِ تَكَامُلٌ في البيان.

تمهيد:

في هذا الدَّرْسِ يُبَيِّنُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سُنَّتَهُ في عِبادِه كُفَّارِهم ومُؤْمِنِيهم في الحياة الدُّنيا وفي الآخِرَة.

وجاءَ التّعْبير عن الكافرين بأَنَّهُمْ يُرِيدُونَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَهَا، أي: فقط، فَلَا يَعْبَؤُون بالآخرة، ولا يَعْمَلُونَ لَهَا، إذْ هم لا يؤمنون بها.

وَجَاءَ فيه طرْحُ مُقارَنَةٍ بَيْنَ الفَريقَيْن، وأنّ مِنْ فريقِ الكافرين، فَرِيقاً يَفْتَرُونَ على اللهِ كَذِباً، كالمشرِكين، وكالَّذِينَ زعموا أنّ للهِ ولَداً سُبْحانه، وكالّذِينَ يَصِفُونَ الله عَزَّ وجَلَّ بما هو مُنَزَّهٌ عَنْه.

وجاء فيه وَصْفُ الكافِرين بأَنَّهُمْ عُمْيٌ وَصُمٌّ في بَصَائِرِهِم، أمَّا المؤمِنُونَ فَهُمُ البَصِيرُون السَّمِيعون فيها، وبَيانُ أَنَّ الفَرِيقَيْنِ لَا يَسْتَوْونَ في مُكْتَسَبَاتِهِم الإِرَادِيَّةِ في رِحْلَةِ امتحانهم، فَهُمْ عند الله لَا يَسْتَوُونَ حُكْماً وَلَا جَزَاءً، وَلا دَارَ إقَامَةٍ في حَيَاةِ البقاء، فلِلْكَافِرِينَ دَارُ عَذابٍ سَيَخْلُدون فيها، وللمؤمنين دارُ نَعِيمٍ سَيَخْلُدُونَ فيها.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

توجد نصوص ثلاثة أخرىٰ حول موضوع هاتين الآيَتَيْن يَحْسُنُ تَدَبُّرُها معه تدبّراً تكامُليًّا.

تَدَبُّرٌ تكامُلِيٌّ للنُّصُوص القرآنيّة الواردة حول موضوع هاتين الآيتين:

جاءت في القرآن أربعة نُصُوص متكاملة فيما بَيْنَها في دَلَالَاتها، وهي في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وفي سورة (هود/ ٥٢ نزول) وفي سورة (آل عمران/ ٨٩ نزول) وفي سورة (النساء/ ٩٢ نزول) وفيما يلي تَدَبُّرُها تَدَبُّراً تكامُلِيّاً:

أولاً: مَا جاء في سورة (الإسراء/ ٥٠ نزول) وهوقول الله عَزَّ وجَلَّ فيها:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾.

وقَدْ سَبَقَ تَدبُّر هذا النصّ في مكانه من سورة الإسْراء، وخلاصَتُه ما يلي:

مَنْ كان من الموضُوعينَ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ في الحياة الدُّنيا يُريد باسْتمرارٍ حتَّىٰ نِهَايَةِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ لَذَّاتِهِ وأَنْواعَ مَتَاعِهِ مِنَ الحياة الدنيا العَاجِلَةِ، كَافِراً بالآخِرَة، ولَا يَسْعَىٰ للنّعِيم فيها سَعْياًما، قَدَّمْنَا لَهُ عُجَالَةً مِنْ مَتَاعِ الحَيَاةِ الدُّنيا، بمَشيئَتِنَا المقْتَرِنَةِ بحِكْمَتِنَا وَعِلْمِنَا بِعَبْدنا الَّذي نُعَجِّلُ لَهُ، لَكِنْ لَاحَظَّ لَهُ يَوْمَ الدِّينِ بِشَيْءٍ مِن نَعِيمِ الجَنَّة، بَلْ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ دَارَ عَذَابِ المجْرِمينَ يَوْمَ القِيَامَةِ يَحْتَرِقُ بِنَارِها حَالَةَ كَوْنِهِ مَذْمُوماً مَلوماً مَطْرُوداً بِعُنْفٍ وشِدَّةٍ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحمَاتِنا.

وَمَنْ أراد الآخِرَة مع إرَادَتِهِ حُظُوظَهُ المقَدَّرَةَ لَهُ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، وسَعَىٰ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ السَّعْيَ المطلوبَ مِنْهُ للظفر بنَعِيم جنَّاتِ النّعِيم في الآخِرَةِ، وهُوَ مُؤْمِنٌ بعَنَاصِرِ القَاعِدَةِ الإيمانيَّةِ في الإسلام، شَكَرَ اللهُ لَهُ إيمانَهُ وَسَعْيَه، وَأَنَالَهُ في الجنَّةِ الدَّرجَةَ المستَحَقَّة لَهُ بفَضْلِ اللهِ، والمُلائمَةَ لمَا قَدَّمَ مِنْ إيمانٍ وعَمَلٍ صالح.

ثانياً: ثم أنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ٥٢ نزول) الآيَتَيْنِ (١٥) و(١٦)، فَأَضَافَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيهما إلى ما جاء في سورة (الإسراء) بَيَانَ أَنَّ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَهَا بِتَجدُّدٍ حَتَّىٰ غايَةِ رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ، كافِراً بالآخرة وبما أعَدَّ اللهُ فيها للمحسنين والمُسِيئِين، واجْتَهَدَ في كَسْبِ

مَطالِبِهِ من الدُّنيا بالأَسْبَابِ الَّتي جعَلَهَا اللهُ فِي كَوْنِهِ ضِمْنَ أَنْظِمَتِهِ السَّبَبِيّة، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يمنَحُهُ نَتائِجَ أَسْبَابِهِ وَافِيَةً غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، فَيُصِيبُ من لَذَّاتِهِ وَمُتَعِهِ مِن دنياه مَا قَضَاهُ اللهُ لَهُ، متلائماً مَعَ مَا يتَّخِذُ مِنْ أَسْبابِها الموصِلَةِ إلى مَطْلُوبِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السّببيَّة، فإذَا أَخْطأَ السَّبَبَ أَوْ قَصَّرَ فيه أو لم يَسْتَوْفِ شُرُوطَهُ، لَمْ يَنَلْ مَطْلُوبَهُ وافياً.

أمثلة:

(١) مَنْ بَنىٰ ضِمْنَ شُرُوط البِنَاءِ المطْلُوب، واتَّخذَ الأَسْبَابَ اللَّازمَةَ لَهُ ضِمْنَ أنظِمَةِ اللهِ السّببِيَّة، وَفَّىٰ اللهُ إِلَيْهِ نَتيجَةَ عَمَلِه، فأعانَهُ على إِقامَةِ الصَّرْحِ الّذِي أرَادَ، ولَوْ كَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ كُفْراً بِرَبِّهِ.

(٢) وَمَنَ سَعَىٰ في صُنْعِ آلَةٍ كَطَائِرَةِ تَطِيرُ في السَّمَاء، واتَّخذَ الأَسْبَابَ اللّازمة لصُنْعِها، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّبَبِيَّة، وفَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَيْهِ نَتيجَةَ عَمَلِه، فأعَانَهُ على صُنْعِ آلَتِه الَّتي أرادَ صُنْعَها، لكِنَّهُ إذا أَخْطَأَ أَوْ أَخَلَّ أَوْ قَصَّرَ في الشُّرُوطِ أو في الأَسْبَابِ فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يَنْقُصُ لَهُ مِنْ مَصْنُوعِهِ بِمِقْدَار خَطَئِه، أو إخلالِه، أوْ تَقْصِيرِه، ولَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الإيمانِ والتَّقْوىٰ.

(٣) وَمَنْ اجْتَهَدَ فِي حَرْثٍ ليجنِيَ ثَمراتِ زَرْعٍ، واتَّخذَ الأَسْبَابَ اللّازمَةَ لِحَرْثِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببيَّة، وَفَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَيْهِ عَمَلَهُ في حَرْثِهِ، عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا اتَّخَذَ مِنْ أَسْبَاب.

فَلَوْ كَانَ صَاحِبَا حَرْثٍ مُتَجَاوِرَيْنِ، عَلَىٰ أَرْضٍ مُتَماثِلَةٍ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا مُؤْمِناً، وَكَانَ الآخَرُ كافراً.

أَمَّا الكَافِرُ فاتَّخذَ الأَسْبابَ اللَّازِمَة لِحَرْثِهِ، ضِمْنَ أَنْظِمَةِ اللهِ السّببيَّة، لَمْ يُخطِئْ وَلَمْ يُخِلَّ وَلَمْ يُقصِّرْ في شيءٍ مِنْها، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُوَفِّي لَهُ عَمَلَهُ في حَرْثِهِ علىٰ مِقْدَارِ مَا اتَّخَذَ مِنْ أَسْبابٍ، لَا يَنْقُصُه من الثّمَرَاتِ شيئاً.

وأمّا المؤمنُ بِربِّه فَلَمْ يَتَّخِذْ كامِلَ الأَسْبَابِ اللَّازِمَةِ لِحَرْثِه، على وَفْقِ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببيَّة، بَلْ أخْطأ، أَوْ أَخلَّ، أوْ قَصَّرَ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يُعْطِيهِ مَطْلُوبَهُ مِنْ حَرْثِه، بَلْ يُوَفِّيهِ مِنْ مَطْلوبه على مِقْدار عَمَلِه، وَقَدْ يَحْرِمُهُ مِنْ كُلِّ مَطْلُوبه إذا كانَ إخْلَالُهُ وَتقصيرُه يُفْضِي إلى الحِرْمان، ضِمْنَ أَنْظِمةِ اللهِ السَّبَبِيَّة.

هَـٰذِهِ هي سُنَّةُ اللهِ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا حياة الامْتحان، الشّامِلَةُ لكُلِّ الموضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا موضع الابتلاء، ولَكِنْ قَدْ يزيدُ المؤمِنين المتّقين مَعُونَة وَتَوْفِيقاً، لأَنَّهُمْ أَضَافُوا إلى الأَسْبَاب المادّيَّة أَسْبَاباً مَعْنَوِيَّةً تَعَبُّدِيَّة، قد جَعَلَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَسْبَاباً جالِبَةً لِمَعُونَاتٍ غيبيَّة داخلةٍ ضِمْنَ عُمُومِ أَنْظِمَةِ اللهِ السَّببيَّة.

التدبّر التحليلي لآيَتَيْ سُورَة (هود):

قول الله تعالى:

• ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾:

• ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم يَجْزِمُ فِعْلَين.

• ﴿كَانَ﴾: أرىٰ أنَّها زَائِدَةٌ لِتَوْكيدِ الدَّوام فِي فعل: ﴿يُرِيدُ﴾ أي: مَنْ يَكُنْ باسْتِمْرَارٍ يُرِيدُ. وأَصْلُ الكلام: مَنْ يُرِدْ بالكَيْنُونَةِ المسْتَمِرَّةِ الحَيَاةَ الدُّنْيا وزِينَتَها فَقَطْ، بدليل العقوبة المقرَّرة لهم.

• ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾: أي: نُعْطِهِمْ نَتَائِجَ أَعْمَالِهِم السَّببيَّة وافِيَةً تَامَّةً، بِحَسَبِ أَنْظِمَتِنا السَّبَبِيَّة. يُقَالُ لغة: «وَفَّى الحقَّ أو الكَيْلَ وَأَوْفَاهُ» أي: جَعَلَهُ تَامّاً.

• ﴿... وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾: أي: وهم فيها لا يُنْقَصُونَ مِنْ

نَتَائِجِ أَسْبَابِهِمْ شَيْئاً، فإذا قَدَّمُوا أَسْبَابَهُمْ وافيَةً أَعْطَاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النتائج وافِيَةً، وإذا نَقَصُوا مِنْها أَعْطَاهُمُ اللهُ بحَسب مَا قَدَّمُوهُ من أَسْباب.

البَخْسُ: النقص، يقال لغة: «بخَسَهُ حقَّهُ» أي: نقَصَ مِنْهُ.

قول الله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾:

أي: أولَئِكَ البَعِيدُونَ عَنْ مَهَابِطِ رَحَمَاتِ اللهِ بِسَبَبِ كُفْرهم، إذْ كَانُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ لا يُرِيدُون إلَّا الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزينَتها، لِعَدَم إيمانِهِمْ بالآخِرَة، ومَا فيها من جزاء عَلَىٰ ما يُقَدِّمُ النَّاسُ مِنْ مَكْسُوباتٍ في حَياةِ الابتلاء، أُولئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلَّا عَذَابُ النَّارِ الَّتِي يَكُونُونَ فيها خالِدين.

● ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا﴾: «**حَبِطَ**»: أي: بَطَلَ. فالمعْنَىٰ: ومَا كانُوا قَدْ صَنَعُوا في الحياة الدُّنيا مِنْ صَالِحَاتٍ، يَبْطُلُ يَوْم الدين، فَلَا ينالُونَ عَلَيْهِ ثواباً، لأَنَّهُمْ كانُوا كافِرينَ باللهِ وبرسولِهِ وبكتابِهِ وباليَوْم الآخِرِ، فَهُمْ لم يَصْنَعُوا مَا صَنَعُوا مِنْ صالحات في الحياة الدُّنيا ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ الله، فَلَا يَسْتَحِقُّونَ ثواباً عَلَيْهِ عنده.

● ﴿... **وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾**﴾: أيْ: ولَيْسَ لمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ في الدنيا ممَّا كانُوا يُحْمَدُونَ عَلَيْهِ مِنْ ثواب مُعَجَّلٍ في الدُّنيا، يُثِيبُهُمْ به رَبُّهُمْ، بسَبَبِ كُفْرِهم، وأنَّهُمْ لم يكُونوا يَعْمَلُونَ ابْتِغَاء مَرْضَاةِ رَبّهم، ونَيْلِ ثوابه، وما ينالُونَهُ من حظوظ دنْيَوِيَّة يَدْخُل ضِمْنَ أنظمة الله السّببية الكوْنية العَامَّة للْحياةِ الدُّنيا.

ثالثاً: ثم أنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قوْلَهُ في سُورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾:

فأفَادَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ بِوَجْهٍ عَامٍّ للمؤمِنين والكافِرين، بالنِّسْبَةِ إلىٰ مكْسُوباتهم الإراديَّة، ذاتُ ثلاثَة بنود:

البند الأول: مَنْ يُرِيدُ بما يُقَدِّمُ مِنْ عَمَلٍ صالحٍ كافراً كان أَمْ مؤمِناً ثَوَابَ الحياة الدُّنيا، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوابَهُ مِنْها على مِقْدار عَمَلِه.

وهذا يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ مِنَ المؤْمِنِين مَنْ يَعْمَلون الصَّالحاتِ وهم يُرِيدونَ بها ثوابَ الحَياةِ الدُّنيا، كالمَالِ، والمجْدِ، والثَّناءِ الحسَنِ، وحُبِّ الناس له، والعظمة والمناصِب والمراتب العليّة، «المراد بالثواب الحظوظ».

وهذا مُضافٌ إلىٰ ما اشتمل عليه النّصّان اللّذان سبَق تَنْزِيلهما في سُورتي (الإسْراء/ ٥٠ نزول) و(هود/ ٥٢ نزول).

البَنْدُ الثّاني: مَنْ يُرِيدُ بما يُقَدِّم مِنْ عَمَلٍ صالح ثوابَ الآخرة، وهذا خاصٌّ بالمؤمِنِين لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ ثَوَابَ الآخرة، يُؤْتِيهِ اللهُ ثَوَابَهُ مِنها.

البَنْدُ الثالث: مَنْ يَعْمَلُ أَعْمَالَهُ الصَّالِحَةَ من أَهْلِ الإيمان، مُلاحِظاً بِعَمَلِهِ لَهَا أَنَّهُ يَشْكُرُ رَبَّهُ علَى مَا أَوْلَاهُ من نِعَم، وأنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ فَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْكُرَ رَبَّهُ عَلَىٰ آلائِهِ وَمَا تفَضَّلَ وَيَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْهِ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ سَيُعْطِيهِ ثَوابَهُ كَطَالِبِي ثواب الآخرة، وسَيَجزِيهِ ثواباً أكْبَرَ وأعْظَمَ مُقَابِلَ كَوْنِهِ من الشَّاكِرِين.

وهذا مضافٌ أيضاً إلى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ النَّصَّانِ اللَّذان سبَقَ إِنْزَالُهما.

❀ ❀ ❀

رابعاً: ثمّ أنْزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قوْلَه:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَرْغِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ في أنْ يَبْتَغُوا بأعمالِهِم الصَّالِحَةِ ثَوَابَ الآخِرَةِ، ولو كانَتْ مَطامِعُ نُفُوسِهِمْ متعلّقَةً بِثَوَابِ الدُّنيا، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ ذُو فَضْلٍ، إذَا طَلَبُوا ثوابَ الآخِرَةِ لَمْ يَحْرِمْهُمْ مِنْ ثواب الدُّنيا، بَلْ يَجْمَعُهُما لَهُمْ، أشار إلى هذا قَوْلُ اللهِ تعالَىٰ: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾.

ولمَّا كانت المكْسُوبَاتُ الصَّالحات تَنْقَسِمُ إلَىٰ أقوالٍ وأفْعَالٍ جَسَدِيَّةٍ أو نَفْسِيَّة، كانَ مِنَ المناسِب أَنْ يَخْتِمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآيَة بقوله: ﴿... وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿١٣٤﴾﴾: أي: واللهُ بالكَيْنُونَةِ الدائِمَةِ الأزليّة الأبَدِيَةِ، سَمِيعٌ لكُلِّ مَا يُمْكِنُ عقلاً سَمْعُه، بَصِيرٌ لكُلِّ مَا يُمْكِنُ عَقْلاً رُؤْيَتُه، لا يخفَىٰ عليه من المسْمُوعَاتِ ولا من المرئيات شيء.

وفي هَـٰذا الختام للآيةِ تَذْكيرٌ بعُنْصُرٍ عظيمٍ من عناصر القاعدَة الإيمانيَّة في الدِّين الّذي اصْطَفاه اللهُ لعباده.

وظاهر أنَّ ما جاء في هذه الآية لم يأتِ نظيره في الآيات السابقات.

❁ ❁ ❁

أتابع تدبّر ما جاء في الدرس الخامس من سورة (هود):

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾:

البيّنَة: هي الواضحة الظَّاهِرَةُ الَّتِي لَا شَكَّ فيها ولا غُمُوضَ ولَا غَبَشَ عليها، من «بَانَ الشَّيْءُ يَبِينُ بَيَاناً» أي: اتَّضَحَ وظَهَرَ، فَهُو «بَيِّنٌ» وهِيَ بَيِّنَةٌ. وأُطْلِقَتِ «البَيِّنَةُ» في القرآن على الرّسَالَةِ الرَّبَّانيَّة الواضِحَة، وعلى الرَّسول، والصُّحُفِ والكُتُبِ المُنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَلَىٰ الآيَاتِ المعْجزَاتِ الواضِحاتِ الجَلِيَّات، وعلى البَرَاهِينِ الواضِحَة القَاطِعَة، وعلَىٰ الحقائِقِ الواضِحَةِ الجَلِيَّةِ الَّتِي تَشْهَدُ لَهَا قواطِعُ الحُجَج والبَرَاهِين.

ولفظ «بَيِّنَة» أو «البَيِّنَة» قَدْ يأتي صِفَةً لموصُوفٍ مَحْذُوفٍ، ويُقَدَّرُ في كُلِّ مَوْضُوعٍ مَا يُنَاسِبُهُ.

● ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ﴾: أي: ويَتْبَعُهُ مَا يَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ ومَا يَدْعُو إلَيْه ويُخْبِرُ بِهِ حَقٌّ.

يقالُ لغة: «تَلَاهُ، يَتْلُوهُ، تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ، فَهُو «تَالٍ» له.

والمرادُ بالشاهد هنا القرآن، بدَليلِ عَطْفِ التوراة كتاب موسىٰ عَلَيْه.

﴿إِمَامًا﴾: **الإمام**: مَا يُؤْتَمُّ بِهِ، وَمَنْ يُؤْتَمُّ بِهِ، أي: يُتَّبَعُ.

﴿مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾: أطْلَقَ اللهُ عزَّ وجَلَّ في القرآن لفظ «الأحْزَاب» بالجَمْعِ على أحْزَاب الكافرين: «قوم نوح، وعادٍ، وثَمُود، وقوم لوط، وقوم شعيب، وفرعَوْنَ ومَلَئِهِ وجُنُودِهم، وكُفَّارِ العَرَبِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ الله محمّداً ﷺ» وأطْلَقَ عَلَيْهِم جميعاً أَنَّهُمْ حِزْبُ الشَّيْطان.

أمَّا المؤمِنُونَ مِنْ كُلِّ أَتْباع الرُّسُل فَهُمْ أُمَّةٌ واحِدَة، وهُمْ حِزْبُ الله.

الحِزْبُ: الجماعَةُ المتَّفِقَةُ المتناصِرَةُ على أمْر، والجماعَةُ الّذِينَ تَشَاكَلَتْ مبادِئُهُمْ وأهْوَاؤُهُمْ، واتَّفَقَتْ أَعْمَالُهُمْ.

المَوْعِدُ: يُطْلَقُ على الوَعْد، وعَلَىٰ مَكَانِ الموعود به، وعلى زَمَانِه، والملائم منها في هذه الآية: «الوَعْدُ» و«مَكَانُ الموعُود به» وهي دَارُ عذاب المجرمينَ يَوْمَ الدّين.

• ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي: فَلَا تَكُ في شَكٍّ مِنْهُ.

المعنى الّذي ظَهَرَ لي بفتح من الله الَّذِي دَلَّت عَلَيْهِ فِقَرَاتُ هَـٰذِهِ الآيَة، هو مَا يلي:

المؤمنُ الصادقُ هو عَلَىٰ حَقَائِقَ وَاضِحَةٍ ظَاهِرَةٍ، مُؤيَّدَةٍ بِبَرَاهِينهَا وأدِلَّتِهَا الجَلِيَّة، وهيَ مَمْنُوحَةٌ لِمَدَارِكِهِ الفِكْرِيَّةِ والعَقْلِيَّةِ مِنْ رَبِّهِ، مِمَّا يَتَعَلَّقُ بالقَاعِدَةِ الإيمانيَّةِ والمَفْهُومَاتِ الدِّينيَّةِ الصَّحِيحَة، وَيَتْبَعُهُ شَاهِدٌ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ القُرْآنُ مع الرَّسُولِ المُؤَيَّدِ بالمعجزاتِ البَاهِرَاتِ، وَشَهَادَةُ هَـٰذا الشّاهِدِ مُطَابِقَةٌ لِلْبَيِّنَةِ الَّتِي هُوَ عَلَيْها مِنْ رَبِّهِ بِاسْتِعْلَاءِ تَمَكُّنٍ وَتَثَبُّتٍ من أَنَّهَا حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وهَـٰذا الشَّاهِدُ مَسْبُوقٌ بِشَاهِدٍ نَظِيرِهِ وهُوَ التَّوْرَاة الكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، وَفِيهِ بِشَأْنِ القَاعِدَةِ الإيمانيَّةِ وَنِظَام السُّلُوكِ الإسلاميّ مِثْلُ مَا فِي القرآن، حَوْلَ أَرْكَانِ الإيمانِ، وَنَظِيرُ قَوَاعِدِهِ الكلّيَةِ العَامَّةِ الناظِمَةِ للسُّلُوكِ الإِنْسَانِيِّ السَّوِيِّ.

أفَهذَا المؤمِنُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ بَيّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ يَتَخَبَّطُ في الضَّلالاتِ ويَتِيهُ فِي العَمَايَاتِ مِن أحْزَابِ الكُفْر؟.

إِنَّهُمَا لَا يَسْتَوِيَان، بَلِ المُؤْمِنُ مَوْعِدُهُ جَنَّاتُ النَّعِيم، وَمَنْ يَكْفُرْ بهذا الحَقِّ الرَّبَّاني مِنَ الأَحْزَابِ الَّتِي تَجْتَمِعُ تَحْتَ رعايَةِ حِزْب الشَّيْطان فالنَّارُ مَوْعِدُه.

فَلَا تَكُ أيُّهَا المؤمن فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْتَ عَلَيْهِ، إِنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَاثْبُتْ عَلَيْهِ، وَلَا تَعْبَأْ بأَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُون، اتّباعاً لِأَهْوائهم وشَهَواتِهِمْ، وانْسِياقاً وَرَاء الشّياطين وضلالاتهم وظُلُماتِهِم، وشُبُهَاتِهم، وزُخْرُفِ دِعَايَاتهم، وزُيُوف مذاهبهم.

تَدَبُّر فِقرَاتِ الآية:

• ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟: أي: أفَمَنْ هُو مُسْتَقِرٌّ ثابِتٌ مُتمكِّنٌ عَلَىٰ حَقَائِقَ بَيِّنَةٍ ظَاهِرَةٍ، هِيَ مِنْ قَضايَا الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ العُقُولَ والنُّفُوسَ عَلَيها، وفي مُقَدّمَتِهَا الإيمان باللهِ وكمال صفاته، وتنزُّهِهِ عمَّا لَا يليق به، ووَحْدَانيّتُهُ في رُبوبيَّته وفي إلَهيَّته، إلى سائرِ العقائد الإيمانيَّة، ومنها كمال حِكْمَةِ اللهِ في تصاريفه، كوَضْع الناس في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء، وإرْسَالِ الرُّسُل، وإنْزَالِ الكُتُب.

• ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾: أي: وَيَتْبَعُهُ شاهِدٌ مِنْ رَبِّه، يَشْهَدُ لَهُ بِصِحَّةِ الحقائِقِ البيّنَة الظاهِرَةِ، الَّتِي تَوَصَّلَ إلَيْهَا بحجج العقل وبراهِينه، وهَـٰذا الشَّاهِدُ هُوَ القُرآنُ الَّذِي يُبَلّغُهُ رَسُولٌ مُؤَيَّدٌ من رَبِّهِ بالآياتِ المعجزَاتِ البيّنَات.

• ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾: أي: ومِنْ قَبْلِ نُزُولِ القرآن نَزَلَ شَاهِدٌ آخَرُ مِنْ رَبّه، وهو التوراةُ الكِتَاب الَّذِي أنْزَلَهُ على مُوسَىٰ، حَالَةَ كَوْنِهِ إمَاماً يُؤْتَمُّ بِهِ فِي مَعْرِفَةِ الحقائق الإيمانيَّة الكُبْرىٰ وكُلّيَّاتِ الدِّين، وَحَالَةَ كَوْنِهِ أَثَرَ رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لعباده، بما فيه من حَقٍّ وهِدَايَةٍ وخَيْر.

كُلُّ هَـٰذِهِ العباراتِ مُسَلَّطٌ عَلَيْها الاسْتِفْهامُ الَّذِي صُدِّرَتْ بِهِ جُمْلَة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ ومُعَادِلُ هذا المسْتَفْهَم عنه مطويٌّ في المثانِي، ويُمْكِنُ اسْتِنْباطُهُ ذِهْناً، وتَقْدِيره: كَمَنْ يَتَخَبَّطُ في الضَّلالَاتِ، والمتاهَات الفكْرِيَّةِ، وتجْتَالُهُ شياطِينُ الإنْسِ والجِنّ، وتَسُوقُهُ أوْ تَقُودُهُ إلى شَقَائِهِ الأبَدِي في عذاب النار؟.

إنّ بَيْنَهما من الفرق كما بَيْنَ الجنَّةِ السَّامِيَةِ وسَواءِ الجحيم.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾: أي: أُولَئِكَ رَفِيعُو المنزلَةِ الفضلاء العُقَلاءُ

يُؤْمِنُونَ بالقرآن، وإيمانُهُمْ بالقرآن يَسْتَلْزِم إيمانَهُمْ بالرَّسُول الَّذِي يَتْلُوه بَلاغاً عن رَبّه.

جاءت الإشارة باسْم الإشارة الذي يُشَار به إلى الجماعَة، مُراعاةً لمعنى «مَنْ» في: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؟ إذ لفظ «مَنْ» يَصِحُّ أَنْ يُعَامَلَ مُعَامِلَةَ المفرد باعتبار لفظه، ويصِحُّ أَنْ يُعَامَلَ مُعَاملة الجمْعِ باعتبار مَعْنَاه، وقَدْ رُوعي في هذه الآيَة الاعتباران.

• ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾: أي: ومَـنْ يَـكْـفُـرْ بالقرآنِ وبالرَّسُول الَّذِي يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ، مِنَ الأحْزاب المضادّةِ لِحِزْب الله، والَّتِي تَتبعُ خُطُواتِ الشَّيْطان، فعِقَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ يَوْمَ الدِّين عذَابُ النَّار، ودَارُ العَذَاب النَّارُ هِي المكان الَّذِي يَتحَقَّقُ فِيه العَذَابُ الموعُود به.

• ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾: أي: فيا مَنْ أَنْتَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّك، لَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ أَنَّ القُرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ الله، وَلَا تَكُنْ في شَكٍّ مِنْ أَنَّ المبلِّغَ لَهُ عَنْ رَبِّهِ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حقًّا وَصِدْقاً، إذْ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ القرآنِ مُنَزَّلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ أَنْ يَكُونَ المبلِّغُ لَهُ عَنْ رَبّه صَادِقاً في دَعْوَىٰ أَنَّهُ نبيُّ اللهِ ورسُوله.

• ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: كُنْ علَىٰ يَقِينٍ لَا شَكَّ يُخَالِطُهُ، بأَنَّ القُرْآنَ هُوَ الحقُّ بالنِّسْبَةِ إلىٰ كُلِّ الاحْتِمالَات المضادّاتِ لَهُ، وَكُنْ عَلَىٰ يَقِينٍ بأنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ رَبِّ العالمين.

• ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾: أي: وعلى الناس جميعاً أَنْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا، لاقْتِرَانِهِ بالحجَجِ الواضِحَةِ السَّاطِعة، والبَراهين القاطِعَةِ، ومَقاييس الفِطَرِ السَّليمة، ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ، أي: لأَنَّهُمْ لَا يَسْتَجيبُونَ لِدَعْوَة الحَقِّ الّتِي تُخَالِفُ أَهْوَاءهم وشهواتهم ومطالِبَهُمْ مِنْ مَتَاعِ الحياة الدُّنيا العَاجِلَة، بَلْ يَتَّبِعُونَ ضَلَالَاتِ الشَّيْطانِ

وَوَسَاوِسَهُ، وتَلْبِيسَاتِهِ، وتَسْوِيلاته إذْ يُطْمِعُ مُتّبعي خُطُواته بالباطِلِ، فيَقُودُهم إلى عذاب السَّعِير، ويَتّبِعُونَ الأَئِمَّةَ المضلّين جُنُودَ إبليسَ من الناس.

قول الله عزّ وجل:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

دَلَّت هَاتَانِ الآيَتَانِ عَلَىٰ أئِمَةِ الإغْرَاءِ والإغواء والضَّلَالِ مِن الناسِ، الَّذِينَ يَتّبِعُهُمْ أكْثَرُ النَّاسِ، فَلَا يُؤْمِنونَ بِالحَقِّ الَّذِي يأتِيهِمْ مِنْ رَبّهم.

وَهؤلَاءِ الأَئِمَّةُ المُضِلُّونَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ أكَاذِيبَ، جُحُوداً باللهِ، أو إشْرَاكاً فِي رُبُوبِيَّتِهِ أوْ في إلَهيَّته، أو إصْدَاراً لأحْكام باطِلَةٍ فيها تَحْلِيلُ مَا حَرَّمَ اللهُ، أَوْ تَحْرِيمُ مَا أحَلَّ، وفيها وضْعُ قوانِينَ وَأَنْظِمَةٍ لَمْ يَأْذَنْ بها اللهُ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانه.

هـٰؤلَاءِ الـمُفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ لَا يُوجَدُ أَظْلَمُ مِنهم، وقَدْ يُوجَدُ مَنْ يُشَارِكُهُمْ في دَرَكَةِ الظُّلْم.

تَدَبُّر فقَرَاتِ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ:

• ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾: اسْتِفْهَامٌ يُرَادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ مَنْ هُوَ أشَدُّ ظُلْماً مِنَ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَىٰ اللهِ كذِباً.

افْتَرَىٰ الكَذِبَ: أي: اخْتَلَقَهُ وافْتَعَلَهُ عَامِداً وَهُوَ يَعْلَمُ أنَّه كَذِب.

أي: لَا أَحَدَ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً، إذْ هُوَ يَتَلَاعَبُ بأقْدَسِ المقَدَّسَاتِ الَّتِي اصْطَفَاهَا اللهُ دِيناً لعباده في حياة الابتلاء، فَيُفْسِدُ عقائِدَ الناسِ، ومَفْهُومَاتِهِم في الحياة، وَيُضِلُّهُمْ عَنْ سَبِيل الله الحقّ، سبيلِ الهُدَىٰ والرَّشَادِ والخير الموصل إلى جنات النعيم.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أُولئِكَ البُعَدَاءُ المنحطُّونَ إلى أسْفَل سَافِلِينَ، يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَوْمَ القيامة؛ لمحاسَبَتِهِمْ على كُفْرِهِمْ وافْتِرَاءَاتِهِمْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وفصلِ القَضَاء بِشَأْنِهِمْ.

• ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾:

﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾: أيْ: الشُّهُود، جَمْعُ «الشَّهِيد» وهم الَّذِينَ يُسْتَدْعَوْنَ لِتَقْدِيم شَهادَاتِهِمْ عَلَىٰ الَّذِينَ عَلِمُوا في الدُّنْيا أَنَّهُمُ افترَوْا عَلَىٰ اللهِ الكَذِبَ، من الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ وأعْوَانِهِمُ المشارِكِينَ لهم في الإغْراء والإغْوَاءِ والإضْلَالِ والمنَافِعِ الدُّنيويَّة.

أيْ: فَيُقَدِّمُ هَـٰؤُلَاءِ الأَشْهَادُ شهادَاتِهِمْ قائِلِين: هَـٰؤُلَاءِ الَّذِين كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ فِي الحياة الدُّنْيا، لِيُضِلُّوا النَّاس عن صراطه المستقيم، وفي مُقَدِّمةِ هؤلاء الأشهاد من كانوا في الدُّنْيَا شاهدين أحوالهم من الملائكة، ثمّ من الناس.

• ﴿... أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾: أي: وَيَحْكُمُ اللهُ عَلَيْهِمْ بأَنَّهُمْ ظالِمُونَ مِنْ أخسِّ دَرَكَات الظُّلْمِ، وأنَّهم مِنْ أهْلِ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ، عِنْدَئِذٍ يَقُولُ الأشْهادُ وَحَاضِرُوا مَجْلِس المحاكَمةِ من غَيْرِهم: أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ.

• ﴿أَلَا﴾: أدَاة اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبيهٍ وتَحْقِيقٍ.

اللَّعْنَة من اللهِ: الطَّرْدُ والإبعاد عن مهابط تنزُّلات رحْمَتِهِ إلى مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ نِقْمَتِهِ وغَضَبِهِ وعَذَابه.

واسْتُعْمِل حرْفُ «عَلَىٰ» للدّلالَةِ علىٰ نُزُولِ عَذَابِ اللهِ من فَوْقِهِمْ، لأنَّ لَعْنَةَ اللهِ مَصْحُوبَةٌ بِتَعْذِيبه لَهُم، والتَّعْذِيبُ من شَأْنِهِ أن يكون مُسَلَّطاً عليهم من فوقهم.

هذا اللّعْن هو غير اللّعْن الذي يؤَذِّنُ به المؤذّنُ بَيْنَ أصْحاب الجنَّة وأصْحابِ النّار، الّذِي جاء في الآية (٤٤) من سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول) لاختلاف الموقعين.

• ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾:

﴿يَصُدُّونَ﴾: أي: يَمْنَعُونَ ويَصْرِفُون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: أي: عن الطّرِيقِ المُوصِلِ إلى مَرْضَاةِ اللهِ ونَوَالِ آثارِ رَحْمَتِهِ في جنَّاتِ النعيم، ومعلوم أنّ سبيل الله مُسْتَقِيمةٌ لَا عِوَجَ فيها.

﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾: أي: يُرِيدُونها ويَطْلُبُونَها.

﴿عِوَجٗا﴾: **العِوَجُ**: بكسرِ العَيْنِ، هو عَدَمُ الاسْتِقَامَةِ في الأشياء المعنوية. أي: ويُرِيدُونَ سَبِيلَهُمْ سَبيلاً عِوَجاً، لا اسْتِقَامَةَ لَهَا، على خلاف سبيل اللهِ المستقيمة.

أُعِيد الضمير علَى مَا أرى في: ﴿وَيَبۡغُونَهَا﴾ عَلَىٰ مُطْلَقِ السَّبيلِ المفهومِ من عِبارَةِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: الَّذِينَ يَمْنَعُونَ وَيصْرِفُونَ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ المستَقِيمَةِ الَّتِي تُخَالِفُ أهواءَهُمْ، وَمَا يَحْرِصُونَ عَلَىٰ تَحْقِيقِهِ من مَطَالِبِهِمْ من الحياةِ الدُّنيا، وَيُرِيدُونَ سَبِيلَهُمُ الَّتِي يَسْلُكُونَها وَيَدْفَعُونَ الّذِين يَسْتَجِيبونَ لهم إلى سُلُوكِهَا، أنْ تَكونَ سَبيلاً عِوَجاً، لأنَّ أهْوَاءَهُمْ ومَصَالِحَهُمْ مِنَ الحياةِ الدُّنْيا لَا تَتَحقَّقُ إلّا بالسُّبُلِ غَيْرِ المسْتَقِيمة، أمَّا الآخِرَةُ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا، فَهُمْ لا يَعْبَؤُونَ بها وَلَا يَكْتَرِثون لَها، دَلَّ على هذا قولُ اللهِ تَعَالىٰ بشَأْنِهم:

• ﴿... وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾: جاء التَّوكِيدُ بضمير الفَصْلِ في ﴿هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ إصْرارِهِم بِعِنَادٍ على الكُفْرِ بالآخِرَة. ودَلَّ

تقْدِيمُ المعْمُولِ: ﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ على عامله: ﴿كَٰفِرُونَ﴾ على تخْصِيصهم الآخِرَةَ بِكُفرٍ زَائِدٍ لإِبْعَاد تَصوُّرَاتِ الجزاء عَنْ أذْهَانِهِمْ إبعاداً كُلّيًّا، وحَصْرِ كُلِّ هَمِّهِمْ وإرادَاتِهِمْ وعَزَائِمِهم بمَطَالِبِهِمْ من الحَيَاةِ الدُّنيا وَلَذَّاتِهِمْ وشَهَوَاتِهِمْ مِنْها.

هَٰذِهِ الآيَةُ يَصِفُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِها وَاقِعَ حَالِ الأَئِمَّةِ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ، مع حَالِ أنْصارِهم المُضِلّينَ، وهُمْ في الحياةِ الدُّنيا حَيَاةِ الابْتِلَاء، ولَيْسَتْ من تَوابعِ المشْهَدِ الذي هو من مشاهِدِ يَوْم الدِّينِ، الّذِي تَحدَّثَتِ الآية السابِقَةُ (١٨) عنه.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

يَعُود البَيَانُ في هَٰذِهِ الآيَاتِ إلَىٰ أجْواءِ يَوْم الدِّين، بالحديث عَنِ الّذين كانُوا في الدُّنْيَا يفترون على اللهِ الكَذِبَ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ وَيَبْغُونها عِوَجاً، على سَبِيلِ التَّنَقُّلِ بَيْنَ الأزْمَان، إذْ هِيَ كُلُّها بالنِّسْبَةِ إلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ كالحَاضر.

• ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أولئك الّذين كانوا يَفْتَرُونَ على اللهِ الكذِبَ في الدُّنيا، لَمْ يَكُونُوا قادِرين على أن يَفْلَتُوا مِنَ القَبْضِ عَلَيْهم، وإنْزَالِ عُقُوبَةِ رَبِّهِمْ بهم، إلّا أنَّ ظُرُوفَ الحَيَاةِ الدنيا قَدْ كَانَتْ ظُرُوفَ امْتِحَانٍ، والحِكْمَةُ فِي امْتِحَانِ الممتَحَنِ تقتضي تَمْكِينَهُ مِنْ حُرِّيَّةِ التَّحَرُّك، وتأْخِيرَ مُجَازَاتِهِ إلىٰ يوم الدِّين، باستثناء بَعْضِ جزاءات تَقْتَضِي الحِكْمَةُ تَعْجِيلَهَا، أمْثِلَةً لقانُونِ اللهِ في الجزاءِ، أوْ لِأَنَّ الطَّاغِينَ

المفْسِدِينَ قَدْ سَبَّبَ طغْيَانُهُمْ العظيمُ مَنْعَ مُعْظَمِ جَمَاهِيرِ النَّاسِ في بِيئَتِهِمْ مِنَ الإيمان بدينِ اللهِ واتّباعِ وصَاياه.

﴿لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ﴾: أي لَمْ يَكُونُوا قادِرينَ على الهَرَب إفْلَاتاً من القَبْضِ عليهم ومُعَاقَبَتِهِم. يُقَالُ لغة: «أَعْجزَ فُلانٌ» أي: سَبَقَ فلَمْ يُدْرَكْ، ويُقَالُ: «أَعْجزَ فُلَانٌ فُلاناً» أي: فَاتَهُ وَلَمْ يُدْرِكْه.

• ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أي: وما كان لَهُمْ في الحياة الدُّنْيا مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ نُصَرَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ، ويَحْمُونَهُمْ من عذابِ اللهِ لَوْ شَاءَ إنْزالَ عَذَابِهِ المعجَّلِ فيهم، ومَعْلُومٌ أنَّ كُلَّ مَنْ هُمْ سِوىٰ اللهِ هم مِنْ دُونِهِ لَا يَمْلِكُونَ شيئاً لَمْ يُمَلِّكْهُمُ اللهُ إِيَّاه، أو لَمْ يَأْذَنْ بِتَمَلُّكِهِمْ إيَّاه.

«مِنْ» فِي: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ زِيدَتْ لتَوْكيدِ نَفْي وُجُودِ كُلِّ وَلِيٍّ لَهُ قُدْرَةٌ ما عَلَىٰ نُصْرَتِهِم.

• ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: أيْ: يُزَادُ لَهُمُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَة، إلَىٰ مِثْلَيْهِ أَوْ أَكْثر، يُقَال لغةً: «ضَاعَفَ الشيْءَ، وضَعَّفَهُ، وَأَضْعَفَهُ» أي: زادَ عَلَيْه، وجَعَلَهُ مِثْلَيْهِ أَوْ أَكْثَرَ.

والسَّبَبُ في مُضَاعَفَةِ العَذَابِ لَهُمْ أَنَّهُمْ ضَالُّون في نُفُوسِهِمْ، وعَامِلُونَ على إضْلَالِ غَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ بالإغْرَاءِ والإغْوَاء واتِّخاذِ مُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الإضْلَالِ والإفْساد.

• ﴿... مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لَقَدْ كَانَتْ مَرَاكِزُ سَمْعِهِمْ ومَراكِزُ إبْصَارِهِمْ في داخِلِهِمْ، في الحياة الدنيا حَيَاةِ الابتلاءِ، مَحْجُوبَةً بِحُجُبٍ كَثِيفَةٍ طَاغيَةٍ تَحْجُبُ مَا تَتَلَقَّاهُ آذانُهُمْ مِنْ بَيانَاتٍ رَبَّانِيَّة، وتَحْجُبُ مَا تَتَلَقَّاهُ أَعْيُنُهُمْ مِنْ آيَاتِ اللهِ فِي كَوْنِهِ، فَلَا تَصِلُ إلَيْهَا حَتَّىٰ يُدْرِكُوها بِوَعْي.

ولَا بُدَّ أَنْ تكُونَ هَـٰذِهِ الحُجُب أطْبَاقاً مِنْ أهواء النفس، وشَهَواتِها، ومَطَالِبِهَا مِنَ الحياةِ الدُّنْيا العَاجِلَةِ، وقناعاتٍ زُخْرُفِيّاتٍ باطِلَاتٍ بأنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الحياة الدُّنيا حَياةٌ أُخْرَىٰ، يُجَازِي اللهُ فِيها عِبادَه عَلَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا، وتقاليدَ عَمْيَاءَ، وكِبْرٍ، وَرَغْبَةٍ فِي الفُجُور، إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُجُبٍ هِيَ أَطْبَاقٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْض.

● ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾:

البيان الرَّبَّاني يُتَابعُ الحديثَ عَنِ المضِلّين عن صراط الله، وهم الذين يفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ، ويَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله، فيَصِفُهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأَنَّهُمْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، إذْ جَلَبُوا لَهَا عَذَاباً أَبَدِيًّا خالِداً في الدَّرْكِ الأَسْفَلِ من النَّارِ، وأيُّ خُسْرَانٍ أعْظَمُ مِنْ أنْ يَخْسَرَ الإنْسَانُ نَفْسَهُ وهو حَيٌّ مُدْرك، ولِهَـٰذا جاء في البيان أَنَّهُمُ الأَخْسَرُونَ، أي: هُمْ أَكْثَرُ الخاسِرِينَ خُسْرَاناً.

ومَا كانُوا يَفْتَرُونَهُ في الحياة الدُّنْيَا مِنْ أَكاذِيبَ يَزْعُمُونَ بِهَا أَنَّهُ لا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ ولا جَزَاءَ، أَوْ يَزْعُمُونَ بِهَا أَنَّ شُرَكَاءَهُم يَنْصُرُونَهُمْ، فَيَحْمُونَهُمْ مِنْ عذاب اللهِ، أو يَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَ الله، تَضِلُّ عَنْهُمْ وَتَضِيعُ، فَلَا يَجِدُونَ لَهَا أثراً، عندئذٍ يَنْدَمُونَ، ولَكِنْ لَا يُجْدِيهم نَدَمُهُمْ شيئاً.

جاء لفظ ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ بِصِيغَةِ جَمْعِ القِلَّةِ، لِأَنَّ المُضِلِّينَ الأَئِمَّةَ في كُلِّ أُمَّةٍ يَكُونُونَ في العَادة أفراداً مَعْدُودِين قَلِيلِينَ.

﴿لَا جَرَمَ﴾: عبارةٌ تُسْتَعْمَلُ لِتَوْكيدِ الكلام وَتَوْثيقه، وقد تَحْمِلُ معنى القَسَم، فهي بمنْزِلَةِ: «حَقًّا ـ لَا بُدَّ ـ لَا شَكَّ ـ لا مَحَالَة».

أصل معنى الجرْمِ القَطْعُ، ويأتي بمَعْنَىٰ اكْتِسَابِ الذَّنْب.

أقول: فكَأَنَّ المعنى: لَا جَرم جَارِمٌ مَا أقولُ بِرَأْيٍ مُخَالِفٍ له. ثُمَّ حَصَل الاكتفاء بِعبارَة: «لَا جَرَمَ».

قول اللهِ تعالى بشأْنِ فَرِيق المؤمنين أصحاب الجنَّة:

• ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: اطْمَأَنُّوا وخَشَعُوا وتَوَاضَعُوا. يُقَالَ لُغَةً: «أَخْبَتَ إِلَيْهِ» أي: اطْمَأَنَّ إِلَيْه. و«خَبَتَ المكانُ» أي: اطْمَأَنَّ وانْخَفَض.

فالمعنى: إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بأَرْكانِ القاعِدَةِ الإيمانيَّةِ إيماناً صَحِيحاً صَادقاً بإرادَةٍ حُرَّةٍ، وعَبَّرُوا عنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ بأعْمالٍ صالِحَةٍ مِنْ مَرَاضِي الله، يَبْتَغُونَ بهَا رضوانَ اللهِ وثوابَهُ، واطْمَأَنُّوا خاشِعِينَ مُتَواضِعِينَ مُتَذَلِّلِين إلى رَبِّهِم غَيْرَ مُستكْبِرِينَ عَنْ عبادَتِه، هُمْ أَصْحَابُ مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ عند الله، وهُمْ أَصْحَابُ الجنَّةِ هُمْ فيها خالِدُونَ خُلُوداً أبَدِيًّا.

قول الله عَزَّ وجَلَّ يُبيِّن مَثَلَ كِلَا الفريقين وأنَّهما لَا يَسْتَوِيان:

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾؟.

أي: وَصْفُ الفريقِ الذي يَفْتَرِي عَلَىٰ اللهِ كالأَعْمَىٰ والأَصَمّ، وَوَصْفُ فَرِيقِ أصحاب الجنَّةِ كالبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ، فمن لا يَرىٰ آياتِ اللهِ الدّالَّات على قانون الجزاء الرَّبَّانِيّ، هُوَ كالأعْمَىٰ، ومَنْ لا يَسْمَعُ بَيانَاتِ اللهِ الحقّ في آياتِه المنزّلَاتِ هو كالأصم، بخِلافِ مَنْ يَرَىٰ ويَسْمَعُ فيُؤْمِنُ ويَسْتَجِيبُ لدَعْوَة الحقّ، وتوزيعُ وصْفَي العَمَىٰ والصمم وضدّهما على الفريقين ظاهِرٌ بداهَةً، وبَدَهِيٌّ أنَّ الفَرِيقَيْنِ لَا يَسْتَويان، وعَدم اسْتِوائهما عقلاً يَدُلُّ على أنّهما لا يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَوِيا جزاءً، بحَسَب حِكْمَةِ اللهِ الذي يقُومُ جزاؤه لعباده على العَدْلِ والفضل جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

• ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾؟ خطابٌ مُوجَّهٌ لكُلِّ مُتَلَقٍّ أو تَالٍ لآيَاتِ الله بأسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ الّذي يُرَادُ به الحضُّ عَلَى التَّذَكُّرِ، للمُسْتَعِدِّينَ له، والتَّلْويمُ عَلَىٰ عَدَمِ التَّذَكُّر للمتَهاوِنِينَ به.

أي: أفلا تَضَعُونَ هذه الحقائِقَ في ذَاكِرَاتِكُمْ، لِتَدْفَعَكُمْ إلَىٰ العَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا في سلُوكِكُم النَّفْسِيّ والجَسَدِيّ، لِتَغْنَمُوا مَرْضَاة رَبّكم، وتَظْفَرُوا بالخُلُودِ في جَنَّاتِ النَّعِيم.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الدَّرْسِ الخَامِسِ من دُروس سورة (هود).

والحمد لله على معونَتِه وتَوفيقهِ ومَدَدِه وفَتْحِه.



(١٠)

التدبر التحليلي للدرس السّادس من دُروس سورة (هود)
الآيات من (٢٥ ـ ١٠٨)

وفيه لقطات تكمِيليَّاتٌ لما سبَقَ أَنْ أُنْزِلَ في السُّوَرِ قبل سورة (هُود) مِنْ قِصَص (نُوحٍ، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وشُعَيب، وَمُوسَىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ» مع ختام تَذْييليّ فيه موعظةٌ وتذكير بالآخرة وما فيها من جزاء.

وَقد اخْتَرْتُ أنْ أُقَسِّمَ هذا الدَّرس إلى سبْعة فصول:

الفصل الأول: لقطات من قِصَّة نوح وقومه، وهو الآيَاتُ من (٢٥ ـ ٤٩).

الفصل الثاني: لقطات من قصة هود وقومه، وهو الآيات من (٥٠ ـ ٦٠).

الفصل الثالث: لقطات من قصة صالح وقومه، وهو الآيات من (٦١ ـ ٦٨).

الفصل الرابع: لقطات من قصة إبراهيم ولوط، وهو الآيات من (٦٩ ـ ٨٣).

الفصل الخامس: لقطات من قصة شعيب وقومه، وهو الآيات من (٨٤ ـ ٩٥).

الفصل السادس: لقطات من قصة موسَىٰ وفرعون، وهو الآيات من (٩٦ ـ ٩٩).

الفصل السابع: خِتامٌ تذييلي فيه موعظة وتذكِيرٌ بالآخرة وما فيها من جزاء، وهو الآيات من (١٠٠ ـ ١٠٨).

الفصل الأول من الدرس السادس

لقَطات من قِصَّة نوح عليه السلام وقومه

الآيات مِنْ (٢٥ ـ ٤٩)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ

ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

تمهيد:

هذا هو النّصّ الحادي عشر من أَصْلِ (٢٨) نَصًّا جاءت في القرآن بشَأْن نوحٍ وقومه.

وقَدْ تَدَبَّرْتُ بمَعُونَةِ اللهِ هَـٰذِهِ النُّصُوص فِي كتابي «نوح عليه السَّلام وقوْمُهُ في القرآن المجيد» وَرأَيْتُ أنَّها مُتَكامِلَةٌ فيما بَيْنَها.

ويُلاحَظُ في الآيَةِ (٣٥) مِنْ هَـٰذا النَّصّ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عَرَضَ قَضِيَّةً تَتَعَلَّقُ بالرَّسُولِ محمَّد ﷺ، وهي ادّعَاءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ أنَّهُ افْتَرَىٰ القرآنَ وَنسبَهُ إِلَىٰ اللهِ، وأنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، فقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في أَثْنَاءِ آياتٍ تَتَعَلَّقُ بِقِصَّةِ نوح عليه السّلام، يُعَلِّمُ رَسُولَهُ محمّداً الرَّدّ الذي يَحْسُنُ أن يَرُدَّ به عَلَىٰ المشركين:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾:

فَدَلَّ إدْخَالُ هَـٰذِهِ الآيَةِ في غُضُونِ آياتٍ تَحْكي لقَطَاتٍ من قصّة نوحٍ عليه السّلام مع قومه، وردِّه على مَقَالَاتهم على ما يلي:

(١) التعريض لِمُكذّبي الرَّسُول محمد ﷺ بأَنْ يَأْخُذُوا الرَّدَّ علَىٰ مَقَالَاتِهِم المُشابِهَات لمقالَاتِ قَوْمِ نوح، ممَّا أجابَ بِهِ نُوحٌ قَوْمه.

(٢) الإِلْمَاحُ إِلَىٰ أَنَّ قُلُوبَهُمْ وأَسَالِيبَ تَفْكِيرِهِمْ وإِدْرَاكِهِم لِلْأُمُور، أَخَذَتْ تَتَشَابَهُ مَعَ قُلُوبِ قَوْمِ نوح عليه السلام، وأساليب تفكيرِهِمْ وإِدْراكهم للأمور، فقُلُوبُهُمْ أَخَذَتْ تَتَحَجَّرُ، وبَصَائِرُهُمْ أخذَتْ تَنْطَمِسُ.

(٣) إشعارُ كُبَرَاءِ مُشْرِكي قُرَيْشٍ المُكَذِّبين بالحقّ جُحوداً وعِناداً، بأَنَّهُمْ قَارَبُوا أَنْ يَصِلُوا إِلَىٰ حَالَةٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ قوم نُوح، الَّتي اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعَاقِبَهُمُ اللهُ عِقاباً مُعَجَّلاً بالإهْلَاكِ العامّ، فَعَلَيْهِمْ إذاً عَقَلُوا أَنْ يَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ مِنْ أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِهِمُ العِقَاب المعَجَّلَ في الحياة الدُّنْيا، كَمَا أَنْزَلَ عِقَابَهُ الشَّامِلَ بِكُفَّارِ قَوْم نُوحٍ عليه السلام، وفي هذا تَلْوِيحٌ ظَاهرٌ بالتَّهْدِيدِ والوَعِيد.

وأَقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ فقرات آيات هذا الفَصْل، وأُحِيلُ القارئ المتدبِّر على كتابي «نُوح عليه السلام وقومُهُ في القرآن المجيد»،

التدبّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦)﴾:

هَـٰذِهِ اللّقطاتُ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السّلام مَعْطُوفَةٌ علَىٰ مَا جَاءَ من بَيَانَاتٍ بِشَأْنِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَرِسَالَتِهِ وَدَعْوَتِهِ فِي قَوْمِهِ.

أي: وَكَمَا أَرْسَلْنَا مُحَمّداً بِرِسَالَةٍ ذَاتِ قَاعِدَةٍ إيمانِيَّةٍ، وذَاتِ نِظَامٍ سُلُوكِيٍّ، أرْسَلْنَا نُوحاً فِي القُرُونِ الأُولَىٰ إلَىٰ قَوْمِهِ بِمِثْلِ هَـٰذا، ومِنْ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ المُشَابِهَةِ لِقِصَّةِ مُحَمَّدٍ مع قَوْمِهِ في مَكَّة مَا سَيأْتِي في الآيَاتِ التاليات.

جاء في أوّلِ هذا البيان الرّبّانيّ التوكِيدُ بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ ويَرَى المُعربُونَ أنَّ حَرْفَ اللّام واقع في جواب قَسَمٍ مَنْوِيّ، تقديرُهُ «أُقْسِمُ لَقَدْ» ولفظ «قد» حَرْف تحقيق، فَهُو مُؤَكِّد آخر، وهذا التوكيد يَنْسَحِبُ على كُلِّ مَا عَرَضَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في هَـٰذا النّصّ مِنْ قِصَّةِ نوحٍ، من الآية (٢٥ وحتَّى غاية الآية ٤٨)، والمقْصُودُون بالتوكِيدِ المكذِّبُون برسالة محمّد إبَّان التنزيلِ.

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ . . . ﴿٢٥﴾﴾:

أي: ونُؤَكِدُّ لَكُمْ أيُّها المكَذِّبُونَ برِسَالَةِ مُحمّدٍ أنَّ محمَّداً لَيْسَ بِدْعاً في تاريخ النَّاس، فَلَقْد أَرْسَلْنا قَبْلَهُ أنبِيَاءَ مُرْسَلِينَ لِأَقْوام كَثِيرينَ سَابِقِين، ومِنْهُمْ في القُرُونِ الأُولىٰ النبي الرسول نُوحٌ، فَقَدْ أَرْسَلْنَاهُ إلَىٰ قَوْمِه.

جاء التعْبير بضمِيرِ المتكلّم العظيم، لإشعار المكذبين بأنَّ المُرْسِلَ قادِرٌ على حمايَةِ رسُولِهِ محمّدٍ ونَصْرِه، وعقابِ مُكَذِّبِيهِ، وهو حكيم في تصاريفه.

• ﴿. . . إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿إِنِّي﴾ الأولى فيها قراءتان: إحداهما بِكَسْرِ الهمزة على تَقْدِير: فقال: إنِّي. والأُخرَىٰ بفَتْح الهمْزَةِ عَلَىٰ تَقدِير حَرْفِ جرٍّ مَحْذُوفٍ: بأَنّي. وياء المتكلم في ﴿إِنِّي﴾ الثانية فيها قراءتان: فتح الياءِ وَإِسْكَانُها.

جاء في هذا البيان الموجز ذكْرُ ثَلاثَةِ عُنوانَاتٍ لمقالَاتٍ ثلاثٍ

مُسْتَفِيضَاتٍ وَجَّهَها نوحٌ عليه السَّلام لقَوْمِه، هي أُمَّهَاتُ مضْمُونِ رِسالَتِه:

المقالة الأُوْلَىٰ: عنوانُها: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾:

نَذِيرٌ: أي: مُنْذِرٌ بعَذَابِ اللهِ يَوْمَ الدِّين لِمَنْ كَفَرَ وَكذَّبَ رَسُولَ رَبِّه، وكذَّبَ بآيَاتِه.

الإِنْذَارُ: التحْذيرُ والتَّخْويف، وهو الإعْلَامُ بما هُوَ مَخُوفٌ مِنْهُ مستقبلاً.

والمنذر: هو المخوِّفُ المحذِّر المخْبِرُ بخَطَرٍ داهِم، أو مَكْروهٍ قادِم، وهو اسْمُ فاعل مِنْ فِعْلِ: «أَنْذَرَ، يُنْذِرُ، إِنْذَاراً».

مُبِينٌ: مِنْ فِعْلِ: «أَبَانَ» بمَعْنَىٰ «وضَحَ وظَهَرَ» أي: فأنا واضِحٌ ظَاهر. ومِنْ فِعْلِ «أَبَانَ» المتعَدِّي، يُقال لُغةً: «أَبَانَ المتحَدِّثُ القَضِيَّةَ» مثلاً، أي: أوضَحَها وأظْهَرَها، أي: فأنا مُوضِحٌ مُظْهِرٌ لَكُمْ دِينَ اللهِ لِعِبَادِهِ في حياة الامتحان.

جاء في هذه الجملة التوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» وقُدّمَ فيها المعْمُول ﴿لَكُمْ﴾ على عَامِله ﴿نَذِيرٌ﴾ للدَّلالَةِ على معنَىٰ التخصيص، أي: إنّي لَكُمْ لَا لِغَيْرِكُمْ رَسُولٌ نَذِيرٌ مُبِينٌ واضِحٌ فِي رِسالَتِي مُوَضِّحٌ لَهَا بَلَاغاً عَنْ رَبِّي، وَرَبِّكُمْ، وَرَبِّ العَالَمِين.

المقالة الثانية: عُنْوَانُها: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: أدْعُوكُمْ إلى أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله، أو آمُرُكُمْ بِتَكْلِيفٍ مِنَ الله الَّذِي أَرْسَلَنِي إليكُمْ، بِأَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا الله، وَلَا تُشْركوا بعبادته أحداً.

ولَا بُدَّ أَنْ يَكونَ نُوحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ شَرَحَ لَهُمْ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُو الرَّبُّ الواحِدُ الَّذِي لَا رَبَّ غَيْرُهُ، وأَنَّ العِبَادَةَ حَقُّ الرَّبِّ وَحْدَهُ، وأنَّ عِبَادَةَ غَيْرِهِ ولَوْ مَعَ عبادَتِه كُفْرٌ بِحَقِّ رُبُوبِيَّتِه.

هذه العبارة تَدُلُّ علَىٰ أنَّ قَوْمَ نوحٍ كانوا مُشْرِكِينَ يَعْبُدونَ آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وجاءَ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) في الآية (٢٣) منها بيانُ أنَّ آلِهَةَ قَوْمِ نُوحٍ الَّتِي اتَّخَذُوا لَهَا أوثاناً هيَ: «وَدّ ـ سُوَاع ـ يَغُوث ـ يَعُوق ـ نَسْر».

المقالة الثالثة: عُنْوَانُهَا: ﴿. . . إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجُمْلَة مَعَ لَوَازِمها الفكرية على أنَّ نُوحاً عليه السَّلَامُ، قَدْ أَبَانَ لِقَوْمِهِ حَقَائِقَ عَن الدُّنْيا رِحْلَةِ الامْتِحَانِ، وعَنِ الآخِرَةِ حَيَاةِ الجَزَاءِ الخالِدَة، وأنَّهُ أبَانَ لَهُمْ إشْفَاقَهُ عَلَيْهِمْ من الكُفْر باللهِ جُحوداً أوْ شِرْكاً، لِأَنَّهُم سَوْفَ يكونُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ خَالِدِينَ أبداً فِي عَذَابِ النار عِقَاباً لَهُمْ عَلَىٰ كُفرِهِمْ بِرَبِّهِمْ.

ومِمَّا يُمْكِنُ فَهْمُهُ مِنْ لوازِم هَـٰذِهِ العبارة، أَنَّ نُوحاً عليْهِ السَّلام قد أَبَانَ لِقَوْمِهِ قَائِلاً لهم: إنَّ اللهَ رَبَّكُمْ واحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيّتِه، وهُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ مُمْتَحَنِينَ فِي هَـٰذِهِ الحَياة الدُّنيا، وهُوَ الَّذِي كلَّفَكُمُ الإيمانَ والطَّاعَةَ والإسْلَامَ، وأنْ تَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ، فأنتُمْ مَسْؤُولُونَ تُجاهَهُ عَمَّا أَمَرَكُمْ بِهِ، وعمَّا نَهَاكُمْ عَنْه، وسَوْفَ يَبْعَثُكُمْ بَعْدَ المَوْتِ إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ، لِيُحَاسِبَكُم على ما قَدَّمْتُمْ في رحلة امْتِحانكم، وليَفْصِلَ القضاء بَيْنَكُمْ، وليُجازِيكُمْ عَلَىٰ السَّيّئاتِ بمِثْلِهَا عَدْلاً، وعلَىٰ الحَسَنَاتِ بِمُضاعَفَتِهَا إلَىٰ أَضْعَافٍ كَثِيرَة جُوداً مِنْهُ وَفَضْلاً. وإنّي بدافع الرحْمَةِ بِكُمْ، والشَّفَقَةِ عليْكُم أخَافُ عَلَيْكُمْ إنْ كَفَرْتُم وَعَصَيْتُم أَوَامِرَ رَبكم ونَواهِيَهُ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيم، بِمَعْنَىٰ «مُؤْلم» مِنْ فِعْلَ «آلَمَهُ، يُؤْلِمُه، إيلَاماً».

وَوَصْفُ اليَوْمِ بأنَّهُ أَلِيمٌ هو من إطْلَاقِ الزَّمَنِ عَلَىٰ مَا يَجْرِي فِيه، وهذا مِنْ قبيل المجاز المرسَلِ، فالعذابُ فيه هو المؤلم، ولكِنَّ اسْتِمْرَارِيَّةَ

العَذَابِ فيه تُشْعِرُ بأَنَّ اليَوْمَ الّذِي هُو الزَّمَانُ هُوَ المؤلِم، إذْ لَا يَشْعُرُ المعذَّبُ فيهِ بأزْمَانٍ دَاخِلَهُ فيها راحةٌ، حَتَّىٰ يُفَرِّقَ بَيْنَ اليَوْمِ وبَيْنَ وَسَائِلِ التَّعْذِيب فيه، فَيُحِسُّ بأَنَّ اليَوْمَ نَفْسَهُ هُو المؤْلِم، إنَّ التَّعْبِيرَ عَنْ هَـٰذا الشُّعُورِ بإضَافَةِ وَصْفِ الإيلَام إلىٰ اليَوْمِ هُوَ مِنَ الصِّدْقِ الفَنِّيِّ البَدِيع.

هَـٰذِهِ العنوانَاتُ الثلاثة قَدْ اشْتَمَلَتْ عَلى تَلْخِيصٍ مُوجزٍ لِرَسَالةِ نُوْحٍ عليه السلام، ونظيرُهَا رِسَالَاتُ سَائِرِ المُرْسَلِين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إنها كُلّياتٌ كُبْرَىٰ ذَوَاتُ لَوَازِمَ فِكْرِيَّة، وبَيْنَ مَثَانِيها مَطْوِيَاتٌ، وَلَهَا تَفْصِيلَاتٌ اشْتَمَلَتْ عَلَيْهَا سَائرُ النُّصُوصِ الدِّينِيَّةِ في الإسْلام.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

اشْتَمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ تَلْخِيصٍ مُوجَزٍ للرَّدِّ الَّذِي رَدَّ بِهِ مَلَأُ قَوْمِ نُوحٍ عَلَى نُوحٍ وفُضَلاءِ أصحابِهِ الذينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ.

الملأ: أشْرافُ القَوْمِ وَأعْيَانُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العَامّة.

هَـٰذا الرَّدُّ قَدِ اشْتَمَلَ عَلىٰ بَيَانِ أَرْبَعِ قَضَايَا:

القضيّة الأولَى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُمُ الَّذِي جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ في الآية: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾: أي: والبَشَرُ لا يَصْلُحُونَ لِأنْ يَكُونوا أنْبِيَاءَ يُوحِي اللهُ إلَيْهِمْ، وَرُسُلاً يُرْسِلُهُمْ لِتَبْلِيغ رِسَالَاتِهِ للنّاس، زاعِمِينَ أنَّ البَشَرِيَّة تَمْنَعُ مِن الاتِّصالِ بِرَبِّ العَالَمِينَ، لتَلَقِّي رِسَالَةٍ مِنْه، وتَمْنَعُ مِنَ الاتِّصَالِ بأمِينِ الوَحيْ من الملائكة، لِتَلَقِّي رِسَالَةِ اللهِ عَنْه.

القضيّة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُمْ الّذِي جاء التعبير عنه في الآية: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾:

في ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾ عِدَّةُ قراءَاتٍ هِيَ وُجُوهٌ متكافِئَةٌ من الأداء، سبَق ذكرها في حَاشيَةِ نصِّ السُّورَة.

أي: وَلَوْ كُنْتَ يا نُوحُ عَلَىٰ حَقٍّ لَاتَّبَعَكَ العُقَلَاءُ وأَهْلُ الرَّأي السَّدِيدِ والمفكِّرونَ منَّا، لَا أَرَاذِلُنَا السُّفَهَاءُ نَاقِصُو العُقُولِ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أيَّ دَاعٍ يَخْدَعُهُمْ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ ولَا عَقْلٍ ولَا تَفْكيرٍ، بَلْ يَنْدَفِعُونَ مَع بَادِئِ الرَّأْيِ الّذي يَظْهَرُ لَهُمْ، دُونَ تأمُّلٍ ومُتَابَعَةٍ وتَمْحِيص، بَادِئُ الرَّأْيِ هُو أَوَّلُهُ، وتُبْدَلُ الهَمْزَةُ في الأداء يَاءً، فتصير «بَادِي».

[بَادِي ـ بَادِئَ] مَنْصُوبٌ عَلَىٰ الظَّرْفِيّةِ على تقدير حرف «في» أي: في بَادِي الرأْيِ، أصْلها عِنْدَ بادِي الرأي، حُذِفَ الظَّرْفُ المضاف، وأُنِيبَ المضاف إليه «بَادِي» منابَهُ، فانْتَصَبَ عَلَىٰ تَقْدِير الظرفيَّة.

وطَوىٰ النَّصُّ مقالَةً قَالُوها، فَحْوَاهَا: فإنْ أَرَدْتَ أَنْ نَتّبِعَكَ فاطْرُدْ هؤلَاء الأَرَاذِلَ عَنْ مَجَالِسِكَ وَجَمَاعَتِكَ، واجْعَلْ لَكَ جَمَاعَةً مِنْ كُبَرَاءِ القَوْمِ وَمَلئِهِمْ، بِدَلِيلِ الرَّدِّ الَّذِي رَدّ بِهِ نُوحٌ عليه السلام، إذْ جاء ضِمْنَ رَدِّهِ علَيْهِم قَوْلُهُ:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾.

الأَرَاذِل: جَمْعُ «الأَرْذَل» وهُوَ الدُّونُ الخَسِيسُ، والرَّدِيء مِنْ كُلِّ شَيْء.

القَضِيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُهُم الّذِي جاء التَّعْبِيرُ عَنْهُ في الآيَة: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾:

أي: وَمَا نَرَىٰ لَكَ وَلِمَنْ يُؤَازِرُكَ في دَعْوَتِكَ من الَّذِينَ آمَنُوا بِكَ وبرِسَالَتِكَ وَاتَّبَعُوكَ مِنْ فَضْلِ ما تَمْتَازُون بِهِ عَلَيْنا، من مالٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ مَكَانَةٍ اجتماعيَّةٍ، أو قُصورٍ وجَنَّاتٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِمَا يَعْتَبِرُونَهُ فَضْلاً بحَسَبِ مَفْهُومَاتِهِمُ الدُّنْيَوِيَّة.

أصْلُ الفضل الزِّيادَةُ مِمَّا يُحْمَدُ غالباً، مِنْهُ الزِّيادَةُ في الكمالات والمحاسن، والتَّفَوُّقُ فِي الصِّفَاتِ الفِطْرِيَّة أو الكسْبِيَّة.

والمراد: وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ تَسْتَحِقُّونَ بِهِ أَنْ نَنْتَمِيَ إِلَيْكُمْ، ونَتَّبِعَ طَرِيقَتَكُمْ، ونَتْرُكَ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ في فَهْمٍ أَوْ عِلْمٍ أو مُعْجِزَاتٍ وخوارِقِ عادات.

جاء في العبارة زيادَة حرف «مِنْ» لِتَوْكِيدِ عُمُوم النَّفْي والتَّنْصِيصِ عليه، أصل العبارة: وما نرى لكم علينا فضلاً.

القضيَّةُ الرابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُهُمُ الَّذِي جاءَ التَّعْبِيرُ عَنْهُ في الآية: ﴿... بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

لَقَدِ ارْتَقَوْا مِنَ الظَّنِّ التَّوَهُّمِيِّ بأنَّهُ لَيْسَ نبيًّا ولَا رَسُولاً حَقًّا مُرْسَلاً مِنْ رَبِّهِ، إِلَىٰ ظَنٍّ زَعَمُوهُ ظَنًّا قَوِيًّا، بِسَبَبِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أَوْرَدُوها في القضايا الثلاث السَّابِقَةِ.

ومع أَنَّ هذه الشُّبُهَاتِ لَا يَلْزَمُ مِنْها عَقْلاً أَنْ يكُونَ نُوحُ والدُّعَاةُ إلى الله من الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه كاذِبِينَ، لكِنَّهُمُ اتَّخَذُوهَا ذَرائِعَ لإعْلَانِ ظَنِّهِمْ بأَنَّ نُوحاً والدُّعاةَ إلى دِينِهِ من أصْحَابِهِ كاذِبُونَ، لَا واهِمُونَ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ علَىٰ حَقٍّ إِذْ تَهَيَّأَتْ لَهُمْ أُمُورٌ زَعَمُوا بِهَا أَنَّهُمْ يَدْعُونَ دَعْوَةَ حَقٍّ، أي: وَمَا نَظُنُّكُمْ وَاهِمِينَ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبين.

ومِنَ اللَّوازِم الفِكْرِيَّةِ لِهَذَا الاتِّهَام، الإشْعَارُ بأَنَّهُمْ سَيكُونُونَ سُفَهَاءَ مَحْرُومِينَ مِنَ العَقْلِ والبَصِيرَةِ لو آمَنُوا بِنُوحٍ وأَسْلَمُوا لَه واتَّبَعُوه.

ومِنْ لوازِمِهِ الفكريَّةِ أَيْضاً اتِّهَامُهُمْ نوحاً عليه السلام، والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ بالمصْلَحَةِ الشخصِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّة، كالمال والسُّلْطَانِ.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مبيّناً مَا رَدَّ به نوحٌ عليه السَّلامُ عَلَىٰ مقالات قَوْمِه السَّابِقَات:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

- قرأ حَفْصٌ، وحَمْزَةُ، والكِسَائي، وَخلَف: **[فعُمِّيَتْ]** أي: فأُخْفِيَتْ.

وقرأ باقي القراء العشرة: **[فعَمِيَتْ]** أي: فَخَفِيَتْ عليكم والتبَسَتْ.

وبَيْنَ القراءَتَيْنِ تكامُلٌ فِي بَيَانِ المرادِ، فالقَادَةُ تخْفَىٰ عَلَيْهم، والأتباعُ تُعَمَّىٰ عَلَيْهِم.

- في يَاءِ المتكلّم الفتح والإسْكان من **[إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ]** و**[وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ]** و**[إِنِّي إِذاً]**.

- قرأ حفْصٌ، وحمزة، والكِسَائي، وخَلَف: **[تذكَّرُونَ]**.

وقرأها باقي القرّاءِ العشرة: **[تَذَّكَّرُونَ]** أصْلُها تتَذَكَّرُونَ، أُدْغِمَتِ التّاءُ بالذّال، وهذه القراءَةُ تُناسِبُ دَفْعَ بَعْضِ المخاطَبين لتَكَلُّفِ التذكر.

التدبُّر التحليلي:

أبانَتْ هَٰذِهِ الآيَاتُ مَا أجَابَ بِهِ نُوحٌ علَيْه السَّلامُ، على القَضايَا الأرْبَعِ الَّتِي طَرَحُوها، بإجَابَاتٍ مُقْنِعَاتٍ مُفْحِماتٍ:

ويُمكنُ تَفْصِيلُ إجَابَاتِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام إلى عشْرِ قَضايا:

القضية الأولىٰ: دلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنى بَعْضِ مَارَدَّ بِهِ نوحٌ عليه السّلام علىٰ مَقَالاَتِ قَوْمِهِ له:

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾:

أيْ قالَ نوحٌ عليه السَّلامُ: يَا قَوْمِ الَّذِينَ أَنَا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مِنّي، أفكَّرْتُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ أكُونَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ جَلِيَّةٍ مِنْ رَبِّي تَشْهَدُ لِي بِأَنِّي صَادِق فِيمَا أُبَلِّغُ عَنْه، أَفَتُصَدِّقُونَنِي؟. فَكِّرُوا وَأَخْبِرُونِي؟.

أفكَّرْتُمْ في احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ رَبِّي قَدْ آتَانِي رَحْمَةً لَكُمْ مِن عِنْدِه، وهِيَ الدِّينُ وَمَا فِيهِ من قاعِدَةٍ إيمانيَّة وتَعالِيمَ وَوَصَايَا تَتَضَمَّنُ سَعَادَتَكُمْ ونَجَاتَكم، وفي هَٰذِهِ رَحْمَةٌ عظْمَىٰ لَكُمْ. أي: أفكَّرْتُم في مَضْمُونِ هَٰذه الرِّسَالَةِ الَّتِي جِئْتُكُمْ بها، والَّتِي هِيَ رَحْمَةٌ عظيمةٌ لكم؟ فَكِّرُوا وأَخْبِرُوني.

أَفَكَّرْتُمْ فِي احْتِمَالِ أَنْ تَكُونَ رِسَالَتِي بِدَلَائِلِها قَدْ خَفِيَتْ وعَمِيَتْ عَلَيْكُمْ يا كُبَرَاءَ قَومي وملأهم وسَادَتهم؟ تَفَكَّرُوا وأخبِرُوني؟.

أفكَّرْتُمْ في احْتِمَالِ أنْ تَكُونَ صِحَّةُ رِسَالَتِي قَدْ أُخْفِيَتْ وعُميت عليكُمْ، يا جماهير قومي بِتَأْثِيرِ إغْوَاءاتِ مُضَلِّلِيكُمْ؟ تفكَّرُوا وأَخْبِرُوني.

إذَا كُنْتُمْ لَا تُرِيدُونَ أنْ تُؤْمِنُوا بِي، وَبالدِّينِ الَّذِي أَرْسَلَنِي بِهِ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لِأُبَلِّغَكُمْ إِيَّاه، وهُوَ رَحْمَةٌ عظيمَةٌ من اللهِ لَكُمْ، فَنَحْنُ لَا نُكْرِهُكُمْ عَلَىٰ الدُّخولِ فيها والالْتِزَام بتَعَاليمها وأحْكَامِها، وإِنَّما نَدْعُوكُمْ إلىٰ الاستجابَةِ لِقَبُولِ ذلِكَ بكَامِلِ حُرِّيَّاتكم.

أَنُلْزِمُكُمُوهَا بِأُسْلُوب قَسْرِيٍّ وأَنْتُمْ لَهَا كارِهُونَ؟؟!

إنَّ هذا يَتَنَافَىٰ مَعَ حِكْمَةِ اللهِ في وضْعِكُمْ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان. ومِنْ كُبْرَيَاتِ قواعِدِ الدَّعْوَةِ الرَّبَّانِيَّةِ أَنَّهُ لا إكراهَ في الدِّينِ الّذِي هُوَ تَصْدِيقٌ وتَسْلِيمٌ وَخُضوعٌ إرادِيٌّ قَلْبِي.

الإلْزَامُ: الإيجابُ على سَبِيلِ الإكْراهِ والقَسْرِ، يقال لغة: «أَلْزَمَ فُلَاناً الشَّيْءَ» أي: أوجَبَهُ عَلَيْه إكْراهاً وقَسْراً وهو كارِه.

أَنَا وَمَنْ مَعِي نَدْعُوكُمْ إلى أَنْ تُؤْمِنُوا وَتُسْلِمُوا باخْتِيارِكُمْ الحرّ، عَنِ اقتناع بما نَدْعُوكُمْ إلَيْه، ورَغْبَةٍ فيه، لَا عَنْ إلْزَامٍ وَإِكْرَاهٍ وَكَرَاهِيَة. فالدِّينُ إيمانٌ وطاعَةٌ وإسْلامٌ واتّباعٌ اخْتِيَارِيٌّ، ناشِيءٌ عَنْ رَغْبَةٍ وإقْبالٍ إرادِيٍّ طَوْعِيٍّ.

إنَّهُ إذا قَوِيَتْ إرادَةُ الإنْسَان، واشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُ، كَانَ إقْبالُهُ إلى ما رَغِبَ فيه مَصْحُوباً بحُبٍّ وشَوْقٍ.

بهذا العَرْضِ الرائع أَبَانَ نُوحٌ عليه السّلام لِقَوْمِهِ أَنَّهم لَيْسُوا مُكْرَهِينَ عَلَىٰ الإيمانِ بِهِ واتِّبَاعِه، ولَكِنْ عَلَيْهِمْ إذا لم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ أَنْ يَتَحَمَّلُوا عَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ عِنْدَ رَبِّهم.

البَيّنَة: هي الواضِحَةُ الظَّاهِرَة الّتي لَا شَكَّ فيها ولَا غُمُوض ولَا غَبَشَ عليها، من فعل: «بَانَ الشَّيْءُ، يَبِينُ، بَيَاناً» أي: اتّضح وظهر، فهو «بَيّنٌ» وهي «بَيِّنَة».

ولفظ «بَيّنَة» في الآيَةِ صِفَةٌ لموصوفٍ محذوف، وقَدْ أُطْلِقَتِ «البَيِّنَةُ» في القرآن، على الرّسَالَةِ الرَّبَّانِيَّة الواضحة، وعلى الرَّسُول، وعلى الصُّحُفِ والكُتُب المنزَّلَةِ مِنْ عِنْدِ الله، وعلى الآيَاتِ المعْجِزَاتِ الواضحات الجَليَّات، وعلَىٰ البراهينِ الواضِحَة القَاطِعَة.

القضية الثانية: دلّ عليْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكاية لمعْنَىٰ بَعْضِ ما رَدَّ به نوح عليه السَّلامُ على مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ . . . ﴿٢٩﴾﴾:

يَرُدُّ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ بهٰذا البَيَانِ علَىٰ مَا يُشْعِرُ به قولُهُم:

﴿. . . بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ من اتِّهَامِهِ بالمصْلَحَةِ الشخصيَّة لَدَيْهم، وكانَ المالُ هو الشيءُ الّذي يُطْمَعُ فِيهِ في مجْتَمَعِهِم.

فبيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ على ما يُجَاهِدُهُمْ بِهِ أَيَّ أَجْرٍ مَالِيٍّ حتَّىٰ يَظُنُّوا بِهِ الكَذِبَ، وحتَّىٰ يَصُدَّهُمْ ذَلِكَ عَنِ الإِيمانِ بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ الله.

وَلَكِنْ لا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أَجْراً مَا مِنْ أَحَدٍ، ولا يَحْصُلُ على أَجْرٍ مَا مِنْ أَحَدٍ، بَلْ أَجْرُهُ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي أَرْسَلَهُ.

إنَّ عَدَمَ طَلَبِ الأَجْرِ مُطْلَقاً مِثَالِيَّةٌ خَيالِيَّة، لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ طَبيعَةِ الإِنْسَانِ وَحَاجَاتِهِ، وفِطْرَتِهِ الَّتي فَطَرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْها، ولَوْ كَانَ مِنَ المُرْسَلِينَ أُولِي العزم.

القَضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ بَعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ على مَقَالَات قَوْمِهِ لَه:

﴿... وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾:

زيدَت الباء في [**بِطَارِدِ**] لتوكيد عموم النفي.

دلَّ هذا الرَّدُّ مِنْ نوح عليه السلام علَىٰ مَلَإِ قَوْمِهِ، أَنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَطْرُدَ عَنْ مَجَالِسِهِ، أَوْ عَنْ جَمَاعَتِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مَنْ سَمَّوْهُمْ أَرَاذِلَهُمْ، حَتَّىٰ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، أَوْ حَتَّىٰ تَكُونَ هَٰذه الاسْتِجَابَةُ مَرْجُوَّةً لَيْسَ أَمَامَهَا عقَبَةُ وُجُودِ طَبَقَةٍ مِنَ النَّاسِ هُمْ أَرَاذِلُ قَوْمِهِم.

فَرَدَّ عَلَيْهِمْ بهَٰذا القول، وهُو يَتَضَمَّنُ رَفْضَ طَلَبِهِم أَنْ يَطْرُدَ من سَمَّوْهُمْ أراذِلَهُمْ، وذكَرَهُمْ عليه السَّلامُ بِوَصْفِ الَّذِينَ آمَنُوا، لَا بالوَصْفِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ قَوْمُهُم، لإرادة التعميم، ولبيان الدّاعي الّذي يوجِبُ عليه أَنْ لا يَطْرُدَهُم، وهُو وَصْفُ الإيمان، أي: هُمْ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، ممتَحَنُونَ في الحياة الدّنيا مِثْلَمَا أَنَّكُمْ مُمْتَحَنُونَ، وهُمْ مَسْؤُولُونَ عَنِ الإيمانِ والطَّاعَةِ والإِسْلامِ والعَمَلِ الصَّالِحِ مثْلكُمْ، وهُمْ مَبْعُوثُونَ بَعْدَ الموْتِ للحِسَابِ،

وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيقِ الجزاء، وهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ يَوْمَ الدِّينِ مِثْلُكُمْ، فَكَيْفَ أَطْرُدُهُمْ وأَنَا مُكَلَّفٌ مِنْ رَبِّي أَنْ أَدْعُوَهُمْ إِلَى دِينِ الله، وأَنْ أُبَلِّغَهُمْ أحْكَامَ شَرِيعَتِهِ لِعِبَادِه، وهَـٰذِهِ مِن اللّوازِمِ الفكريَّة لِقولِهِ عليه السلام: ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ وتَتَسَلْسَلُ اللَّوازِمُ الفكريَّةُ حتَّىٰ سائِرِ عناصِرِ مَوْضُوعِ امْتِحَانِ النَّاسِ في الحياة الدُّنيا.

وَقَوْلُهُ لَهُم: ﴿... وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ فيه رَدٌّ عَلَى مَا تضمَّنَهُ قولُهُمْ مِنْ وَصْفِهِمْ أنْفُسَهُمْ بأنَّهُمْ أهْلُ رَأْيٍ وفِكْرٍ وعَقْلٍ وتبَصُّرٍ بِبَوَاطِنِ الأُمُورِ وَحَقَائِقِها.

أي: أنْتُمْ تَزْعُمونَ أَنَّكُمْ أَهْلُ العَقْلِ والرُّشْدِ والتَّبَصُّر، وتَتَّهِمُونَ مَنِ اتَّبَعَني بأَنَّهُمُ اتَّبَعُوني عِنْدَ بَادِي الرَّأْي، دُونَ تَعَمُّقٍ في التَّفْكِيرِ وَلَا تَبَصُّرٍ، وَلَكِنّي أَرَاكُمْ قَوْماً تُتَابِعُونَ خُطُواتِكُمْ الفِكْرِيَّة إِلَىٰ مَوَاطِنِ الجَهْلِ، لَا إِلَىٰ مَوَاطِنِ المعْرِفَةِ والعِلْمِ الصَّحِيح. إنَّكُمْ كلَّما وَصلْتُمْ إِلَىٰ رَأْيٍ جَدِيدٍ قَدَّمْتُمُوهُ، كَانَ ذَلِكَ الرأْيُ الجَدِيدُ والقَوْلُ المُعَبِّرُ عَنْه جَهْلاً جديداً.

دلَّ على هذا الفَهْم قولُهُ لهم: ﴿تَجْهَلُونَ﴾ بصِيغَةِ الفِعْلِ المضارع الَّتِي تَدُلُّ عَلَىٰ التكرار والتَّجَدُّدِ، ولو كان المرادُ وصْفَهم بالجَهْلِ لَكَانَ المناسِبُ أَنْ يَكُونَ التعبير: ولَكِنِّي أَرَاكم قوماً جَاهِلين.

أَصْلُ الجَهْلِ مأخُوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «جَهِلَتِ القِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشْتَدَّ غلَيَانُها. وهو ضِدُّ: «تحلَّمَتْ». ويُقالُ: «جَهِلَ فُلَانٌ على غَيْرِهِ» أي: جَفَا وَتَسَافَه، وهَـٰذا المعْنَىٰ يُناسِبُ اتِّهَامَهُمْ للذِّينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ بِأَنَّهُمْ أراذِلُ قَوْمِهِمْ.

ويُطْلَقُ الجَهْلُ بِمَعْنَىٰ عَدَمِ العِلْمِ بالشَّيْءِ.

وإذا سَأَلَ سَائِلٌ: فيماذَا يَجْهَلُونَ بِتَكْرَار بِشَأْنِ القضايا الفكريَّةِ المتعلّقَةِ بالدِّينِ الَّذي يَدْعُوهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ للاستجابَة لِدَعْوَتِهِ؟

فإنَّ المتَدَبِّر يُجيب بأَنَّهُمْ يَجْهَلُونَ في أُمُورٍ كثيرَة قَدَّمُوهَا، لِرَفْضِ الاستجابَةِ لِدَعْوَةِ الحَقِّ الرَّبَّانِيَّة، ومِنْها ما يلي:

(١) يَجْهَلُونَ خَصَائِصَ الرُّبُوبِيَّةِ والإلَهِيَّة.

(٢) ويَجهَلُونَ قُدْرَة اللهِ على الوَحْي لبشَرٍ مِثْلِهم، وبَعْث مَنْ أوحى إلَيْهِ رَسُولاً لقَوْمِهِ، أو للنَّاسِ أجْمَعِينَ.

(٣) ويَجْهَلُونَ وَظِيفَتَهُمْ في الحياةِ الدُّنيا، وأَنَّهُمْ مُمْتَحَنُونَ فيها.

(٤) ويَجْهَلُونَ مَسْؤولِيَّتَهُمْ تُجاهَ رَبِّهِمْ المهيْمِنِ عَلَيْهِمْ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ، والَّذِي وَضَعَهُمْ في الحَيَاة الدُّنْيَا مَوْضِعَ الابْتِلَاء.

(٥) وَيَجْهَلُونَ أَنَّ الرَّسُولَ مُكَلَّفٌ مِثْلُهم، فَهُوَ يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ مَا يَأْمُرُهُ بِتَبْلِيغِهِ، ومُطَالَبٌ بالإيمان والعَمَلِ الصَّالِحِ، كَمَا هُمْ مُطَالَبُونَ.

(٦) وَيَجْهَلُونَ أَنَّ هؤلَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَهُمْ سُفَهاءَ وَأَرَاذِلَ قَوْمِهِمْ، هُمْ مِثْلُهُمْ في الإنْسَانِيَّةِ، والامْتِحَانِ، والتكْلِيف مِنْ قِبَلِ رَبّهم.

(٧) ويَجْهَلُونَ أَنَّ الرَّسُولَ عِليهِ السَّلام لَا يَمْلِكُ أَنْ يَنْتَقِي أَتْبَاعَهُ انْتِقاءً.

إلى غير ذلك ممَّا هُمْ يجْهَلُونَهُ من أمُور حيَاتِهم، وسُلُوكِهِمْ فيها الجَسَدِيّ والنفْسِيّ، الفَرْدِيّ والجماعِيّ.

القضية الرابعة: دَلَّ عليْها قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَة لمعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ نوح علَيْه السَّلامُ علىٰ مَقَالاتِ قومِه له:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ ... ﴿٣٠﴾﴾:

يُبَيّنُ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلام بِهَٰذ العبارَةِ لِقَوْمه أَنَّهُ إذَا طَرَدَ هَٰؤلَاء الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، اسْتِجَابَةً لِطَلَب مَلَأِ قَوْمِهِ، لِأَنَّهُمْ فِي نَظَرِهِمْ سُفَهَاءُ يَنْدَفِعُونَ مَعَ بَادِي الرأْيِ، وأَراذِلُ قَوْمِهِمْ، فَإِنَّهُ يَكُونُ تَحْتَ طَائِلَةِ العقاب

من اللهِ عَزَّ وجَلَّ الَّذِي نَبَّأَهُ وبَعَثَهُ رَسُولاً إِلَىٰ قَوْمِهِ، مَهْمَا كانَتِ الدَّوَاعِي لِهَـٰذا الطَّرْدِ، حتَّىٰ وَلَوْ كَانَ طَرْدُهُمْ يُمَهّدُ السَّبِيلَ أَمَامَ كُبرَاءِ قَوْمِهِ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا بِرِسَالَتِه، ويَتَّبِعُوا الحقَّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ رَبِّهِ، لِأَنَّ اللهَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَيْه، ولأَنَّهُ يكُونُ بذَلِكَ غَيرَ مُؤَهَّلٍ لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ.

وَيُبَيِّنُ لهم أَنَّهُ إذا طَرَدَ المُؤْمِنينَ بِهِ، فاسْتَحَقَّ عِقَابَ اللهِ وعَذَابَهُ، فَهَلْ مِنْ نَاصِرٍ يَنْصُرُهُ، فَيَحْمِيهِ ويُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِ؟

استفهامٌ يُرَادُ به النَّفْي، أي: لَا يُوجَدُ في الوجود كُلِّهِ ناصِرٌ يَنْصُرُنِي فيحْمِينِي وَيَقِينِي مِنْ عَذَابِ الله، وأَنَا مَسْؤُولٌ عِنْدَ الله عَنْ دَعْوَتِهِمْ إلى دينِه، وتَبْلِيغِهِمْ مَطَالبَ هَـٰذا الدِّينِ مِنْهُم، في رِحْلَةِ امتحانِ اللهِ لَهُمْ في الحياة الدنيا.

القضية الخامسة: دلَّ علَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَىٰ بعْض ما رَدَّ به نوحٌ عليه السّلام على مقالَاتِ قومه له:

﴿... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾: أي: أفَلَا تَضَعُونَ مَا سَبَقَ أَنْ بَيَّنْتُهُ لَكُمْ مِنْ حَقَائِقِ الدِّين في ذَاكِراتِكُمْ، لِتَكُونَ دَافِعاً لَكُمْ إِلَىٰ الإيمان بالحقّ الذي جاءكم من ربّكم، والإسلامِ له، وطاعَتِه فيما أَمَرَكم بِهِ ونهاكم عنه.

أَصْلُ «تَذَكَّرُون تَتَذَكَّرُونَ» وهمزة الاستفهام في ﴿أَفَلَا﴾ للاستفهام الإنْكارِي، بمعنىٰ استِنْكار عدَم تَذَكّرُهم، قال علماء العربية: هَـٰذِهِ الهمزة هي على نِيَّةِ التأخِير عَنِ الفاء العاطفة، إذْ أَصْلُ الكلام: «فَأَلَا تتذَكَّرُونَ» لَكِنَّ الاسْتِفْهَام في العربيَّةِ لَهُ الصدارة فَقُدِّم.

إنَّ نوحاً عليه السلام يُنْكر على مُكذِّبيه من قَوْمِهِ عَدَمَ تَذَكُّرِهم الحقائق الَّتِي سبَقَ أَنْ أبانَها فِي مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة، مع أَنَّهُمْ قَدْ كان الواجب عليهم أن يَضعوها في ذاكرتهم دَواماً، ولَا يَتْرُكُوا تَذَكُّرَها إهْمالاً فَتُمْحَىٰ

مِنْ ذاكراتهم. وَلَوْ أَنَّهُمْ حافظوا عَلَيْها فِي ذاكِراتِهِم لكانَتْ مَانِعَةً لَهُمْ مِن اجْتِرار الأفكار الَّتِي سبَقَ دَفْعُهَا وَإِسْقَاطُهَا بالحجج السَّاطِعَة، والبراهين القاطعة، ولكانت مُحَرِّضَةً لهم عَلَىٰ اتّباع الحقّ، ومانِعَةً لهم من رفْضِه بدافع الكِبْرِ الطَّبَقِيّ، أو بأيّ دافِعٍ آخر، وحتَّىٰ تكُونَ دَافِعَةً لهم إلى حِمَايَةِ نُفُوسِهِمْ من عَذَاب اللهِ الأبَدِيّ.

إنَّ مُدَاوِمَة تَذَكُّرِ الحقائِق، ذَاتُ حَرَكَةٍ فَاعِلَةٍ مُحَرِّضَةٍ عَلَىٰ التَّبَصُّرِ بالأُمُور، فالتَّأَثُّر بالنَّصائح والوَصَايا، والاتِّعَاظ بالآيات الواعِظَاتِ الكونيَّة والبيَانيَّة.

القضية السادسة: دَلَّ عليْها قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنىٰ بَعْضِ ما ردَّ به نوحٌ عليه السّلام على مَقَالاتِ قَوْمِهِ له:

• ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ . . . ﴿٣١﴾﴾:

دَلَّ هذا الرَّدُّ علَىٰ أَنَّ كُبَراء قَوْمِ نُوحٍ عليه السّلام قَدْ طَلَبُوا مِنْهُ مطالِبَ تَعْتَمِدُ على الخوارِقِ والمعجزات، نَظِيرَ طَلَب كُبَراءِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ من الرَّسُولِ محمّد ﷺ، ومِنْها أنْ يُلْقَىٰ إلَيْهِ كَنْزٌ، أو أنْ يُفَجِّرَ لَهُمْ مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعاً، أو تكونَ له جَنَّةٌ مِنْ نخيلٍ وعِنَبٍ، فيُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَهَا تَفْجيراً، أَوْ يَكُونَ لَهُ بيتٌ من زُخْرُفٍ، أي: مُزَيَّنٌ بالذَّهب، أوْ يُوَسِّعَ لَهُمُ الأَرْضَ فَيُزِيحَ عَنْ أَرْضِ مَكَّة جبالَها، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ مِنْ مَطَالب تَعَنُّتِيَّة.

فَمِنْ طَبيعَةِ النَّاسِ أَنْ يَتَصَوَّرُوا أَنَّ الرَّسُولَ المُتَّصِلَ باللهِ القادِرِ علَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِنَ التمكِينِ مَا يَسْتَطِيعُ بِهِ صُنْعَ الخوارِقِ على مَا يُرِيد، فَعَلَيْهِ أَنْ يُلَبِّيَ تَشَهِّيَاتِ قَوْمِهِ، مِنْ كُلِّ مَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ مِنْ خَوَارِقَ وَمُعْجِزَات.

لَكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يُعْطِي رُسلَهُ مِنَ الآياتِ الخوارِقِ إلَّا بِمِقْدارِ ما يَكْفِي لِلإِقْنَاعِ بِأَنَّهُ رَسُولٌ صَادِقٌ مُؤَيَّدٌ مِنَ اللهِ بالمعجزة، ويَكُونُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا يُرِيدُ سُبْحَانَهُ، لَا حَسَبَ تَشَهِّيَاتِ الأقوام.

فخزائِنُ اللهِ في كَوْنِهِ لَا يُعْطِي مَفَاتِيحَها لِرُسُلِه، حتَّىٰ يَتَصَرَّفُوا فيها كما يُرِيدُون، أَوْ كَما يُرِيدُ أَقْوَامُهُمْ، علَىٰ خِلَافِ قوانِينِ الكَوْنِ ونُظُمِهِ السَّبَبِيَّةِ وسُنَنِهِ الثابتة. إنَّما يُنْزِلُ مِنْهَا بِحِكْمَتِهِ عَلَىٰ مِقْدَارِ حاجَةِ النَّاسِ للاقْتِنَاعِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ، وحاجَةِ المؤمنين للتَّثْبِيت، أَوْ لِلْإِكْرام، ويُعْطِي الرَّسُولَ مِنْهَا مِقْدَاراً مُحَدَّداً، بُرْهَاناً عَلَىٰ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً، أَمَّا سُنَنُ الكَوْنِ فتَظَلُّ ثَابتَةً، باسْتِثْنَاءِ الحدَثِ الّذي تَجْرِي فِيه الآيَةُ أَو الكرامَة بِمُقْتَضَىٰ حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

لهذا كان رَدُّ نوح عليه السّلامُ على مَطَالِبِ كُبَرَاءِ قومِهِ التَّعنُّتِيَّة بقوله لهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾: أي: بَلْ أقولُ لَكُمْ: إنِّي رَسُولُ الله، أُبَلِّغُ عَنْهُ رِسَالَاتِهِ، إنَّما أنَا بَشَرٌ رَسُولٌ مَحْدُودُ الهِبَةِ الرَّبَّانِيَّةِ بالوَحْي إِلَيَّ، وبِبَعْثي رَسُولاً، وأنا مُكَلَّفٌ أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّي، ومَا يُعْطِيني من آيَةٍ خارِقَةٍ يَخُصُّنِي بِها، فإنّني أُقَدِّمُها علَىٰ مُرَادِه، فَلَا تُطَالِبُوني بِشَيْءٍ لَا أَمْلِكُه.

القضيَّة السّابعة: دلَّ عليها قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدّ به نوح عَليه السَّلام على مَقَالاتِ قَوْمِهِ له:

﴿... وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ... ﴿٣١﴾﴾:

أي: وَلَا أقولُ لَكُمْ إنِّي أعْلَمُ الغَيْبَ كُلَّهُ، بَلْ أَعْلَمُ مِنْهُ مَا يُعَلِّمُني اللهُ عَزَّ وجَلَّ.

دلَّ هَـٰذا الرَّدُّ علَىٰ أَنَّهُمْ صَارُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ أُمُورٍ هي مِنَ المغيَّبَاتِ، يَتَعنَّتُونَ بِسُؤَالِهِ عنْهَا، فَهُوَ بهَـٰذا الرَّدِّ يَقْطَعُ مُحَاولاتِهِمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ مَسَائِلَ مِنَ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُها، مثل: متَىٰ تَقُومُ السَّاعَة؟ أَوْ عَنْ مَسَائِلَ مِنْ أُمُورِ دُنياهُمْ المُتَعَلِّقَةِ بالأَرْزاقِ، أو الأَوْلاد، أو غير ذلك، رَغْبَةً في أَنْ يَسْتَكْثِرُوا مِنَ الخير، وأن لا يَمسَّهُم السُّوءُ ممَّا يَكْرَهُونَ مِنْ أُمُورِ الدُّنيا.

القضيَّة الثامِنَة: دلَّ عليها قولُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنىٰ بعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عليه السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ لَه:

﴿... وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ... ﴿٣١﴾﴾:

لمَّا كانَ مِنِ اعْتِرَاضَاتِ مَلأ قَوْم نُوح عَلَيْهِ السّلام، اعْتراضُهُمْ عَلَىٰ بَشَرِيّتِهِ، أَبَانَ لَهُمْ أَنَّهُ كَانَ بإمْكَانِهِ أَنْ يَقُولَ لهم، إنَّهُ مَلَكٌ، وَأَنْ يُلَبِّسَ عَلَيْهم، لكِنَّ صِدْقَ النُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ، لأنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيّ أَنْ يَكْذِبَ في كبِيرَةٍ وَلَا صَغِيرَةٍ، فقالَ لَهُمْ: وَلَا أقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَك، أي: وَلَوْ قُلْتُ لَكُم: إنَّنِي ملكٌ، لأَمْكَنَنِي أَنْ أُلَبِّسَ عليكم الأَمْرَ، وأخَادِعَكُمْ بِذَلِك. لكِنَّنِي بَشَرٌ رَسُولٌ مُوحىً إلَيْهِ بِرِسَالَةٍ من عنْدِ الله، ولَيْسَ مِنْ شأْنِ الرَّسُولِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ الكذِبَ ولَوْ لِتَأْيِيدِ دِينِ الله، فأنَا لَا أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي مَلَكٌ، بَلْ أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَكِنْ يُوحَىٰ إلَيَّ، فَأَنَا نَبِيٌّ من أنْبياء الله، ورسُولٌ من رُسُلِهِ الَّذِينَ هم بَشَرٌ مثلكم.

القضيّة التاسعة: دلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعنَى بَعْضِ ما رَدَّ بِهِ نُوحٌ عليه السَّلامُ علَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

﴿... وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴿٣١﴾﴾:

سبق في القضية الثالثة بيان أنَّ نوحاً عليه السلام قال لملأ قومِهِ المكذّبين له، بِشَأْن من سمَّوْهم أراذلهم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ... ﴿٢٩﴾﴾.

ويَظْهَرُ أَنَّ مَلأَ قَوْمِهِ قالُوا بشَأْنِهِمْ أيْضاً: هؤلاءِ لا خَيْرَ فيهم، فَلا يُرْجَىٰ مِنْهُمْ خير، ولَنْ يَنَالُوا خيراً، وأَنَّهُمْ حَاوَلُوا اسْتدراجَهُ إلى أن يقول عَنْهم، هؤلاءِ طبقَةٌ منْبُوذةٌ، خارجَةٌ عَنْ دائِرَة البشَرِيَّةِ الراقيَةِ المكلَّفَةِ، وإنَّما خُلِقُوا ليكُونُوا خُدَّاماً وعبيداً للْبَشَر، وهُمْ علَىٰ صُورَةِ البَشَرِ، وأَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَكُونُوا أفْضَل مِنْ ذَلِكَ عند الله، ويظهر أنّ هَـٰذِهِ النَّظْرَةَ

الطبقيَّةَ المقيتَةَ قَدْ تَكَرَّرَتْ في المجتمعات البَشَرية، فهِيَ تَظْهَرُ بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ في كلِّ الناس.

فأضافَ نُوحٌ عليه السَّلامُ إلى مقالَتِهِ السَّابِقَةِ هَـٰذِهِ المقالَة بشأنهم.

اللّام في ﴿لِلَّذِينَ﴾ هِيَ بمعْنَىٰ «عَنْ» كما يَقُولُ النُّحاةُ، ولا أرى مانعاً مِنْ تَقْدِير ما يُناسِبُ اللّام بَعْدَ فِعْل: ﴿أَقُولُ﴾ على أنّ اللّام هُنا للتَّقْوِيةِ، مِثْل: وَلَا أقولُ مُزْدَرِياً مِثْلَكُمْ لهؤُلَاء الذين آمَنُوا وعَمِلُوا صَالحاً: لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خيراً عِنْده، كيْف يصِحُّ لي أنْ أقولَ مِثْلَ هَـٰذا القَوْلِ الَّذِي لَا بُرْهَانَ لِي عليه، فأنَا لَا أعْلَمُ مَا في أنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ أحْكُمَ عَلَيْهِمْ أو أحْكُمَ لَهُمْ.

ويُمْكِنُ أن نعتبر اللّام للتعديَة علَىٰ أصْلِها، وأنّ الخطابَ موجَّهٌ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُهُمْ، ولكن حَصَلَ الالْتِفَاتُ عنْهُمْ في جُمْلَةِ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ وأصْلُ الكلام: ولَا أقولُ لِلّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنكُمْ لَنْ يُؤْتِيَكُمُ اللهُ خيراً، ولكن آثَرَ نُوحٌ عليه السّلامُ الالْتِفَات إلَىٰ ضمير الغائبين مبالغةً في تكريمهم، ولو في مَعْرِضِ رفْضِ أنْ يقول لَهُمْ هَـٰذه المقالة.

ونظيره في استعمالاتنا: أنَا لَا أَقُولُ لشيخي التَّقِيّ الصَّادِقِ هو كذَّاب. وهَـٰذا الاحْتِمالُ هُوَ مَا أرَاهُ الأجدر بالاعتماد، والله أعلم.

ومعلومٌ أنَّ الالْتِفَاتَ من الفنونِ البلاغيَّة المسْتَعْمَلَةِ في القرآنِ بكَثْرَة، والغرضُ الفنيُّ الأدبيُّ واضِحٌ هُنَا.

• ﴿تَزْدَرِىٓ﴾: أيْ: تَحْتَقِرُ وتَعِيب. أصلها «تَزْتَرِي» أُبْدِلَتْ تاء الافتعال دالاً بعد الزاي، وهو مطردّ.

• ﴿... ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾: أي: كيْفَ أقُولُ بِشَأْنِهِمْ: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ وأتَجَنَّىٰ عَلَيْهِمْ بهذا القول، مَعَ أنَّ الصِّدْقَ فِي الإيمانِ والطَّاعَةِ والعَمَل هُوَ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوب والنفوسِ، وَمَا فِي القُلُوبِ

والنُّفُوسِ لَا نَعْلَمُهُ نَحْنُ البشر، واللهُ أَعْلَمُ مِنْ كلّ ذِي عِلْم بما فِي أنْفُسِهم، وهُو ـ جلَّ جَلَالُهُ ـ الّذِي يُحاسِبُهُمْ ويُجَازِيهِمْ على ما في أنْفُسِهمْ مِنْ خَيْر أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

كَيْفَ أَحْكُم بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ خيراً؟ إنَّ هَـٰذا افْتِآتٌ عَلَىٰ اللهِ، فالحُكْمُ علَىٰ النَّاسِ من خصَائِصِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، الَّذِي يَعْلَمُ ما في النُّفُوسِ من خَيْرٍ أَوْ شَرّ، ويُجازِي على مقادِير مَا فِيها مِنْ ذَلِكَ، إنْ خَيراً فَخَيْرٌ، وإِنْ شَرّاً فَشَرٌّ.

القضية العاشرة: دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له:

﴿... إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣١﴾:

﴿إِذًا﴾ يراها النحويّونَ في مِثْلِ هَـٰذا الموضِع زائِدَةً غَيْرَ مُضيفَةٍ معنًى ما إلى العبارة، وأراهَا ظَرْفِيَّةً بمعنى «حِينَئِذٍ» واللهُ أَعْلَمُ.

وجاء توكيدُ الجمْلَةِ بـ «إنّ ـ والجملَةِ الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقة» مُرَاعَاة لِحَالِ كُبَرَاءِ قَوْمِهِ المكذِّبين له.

والمعنى: إنّي إذَا طَرَدْتُ هَـٰؤُلاء الَّذِينَ وَصَفْتُمُوهُم بأنّهم أَرَاذِلُكُمْ، أوْ قُلْتُ: عِنْدِي خَزَائِنُ الله، أَوْ قُلْتُ: إنّي أَعْلَمُ الغيب، أو قُلْتُ: إنِّي مَلَكٌ، أَوْ قُلْتُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً، فَإِنّي حِنَئِذٍ أَكُونُ ظالماً مِنَ الظَّالمِين الّذِين يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ اللهِ وعَذَابَه، وإِنّي لَا أُعَرِّضُ نَفْسِي لِعِقَابِ اللهِ وَعَذَابِهِ، فَلَا تَطْمَعُوا فِي أَنْ أَسْتَجِيبَ لَكُمْ فِي شيءٍ مِنْ ذَلِكَ أتجاوَزُ بِهِ حُدُود طاعَتِي لربِّي ظالماً آثماً.

وبهَـٰذِهِ القضايا العَشْرِ الّتِي فصَّلَهَا وَشَرَحَهَا نُوحٌ عليه السَّلامُ لِمَلأَ قومِهِ نُلاحِظُ أَنَّهُ قَدْ أَلْزَمَهُمْ وأفْحَمَهُمْ وَدمَغَهُمْ بِرُدُودِهِ وجَدلِيَّاتِهِ وَمُرَاجَعاتِهِ الدَّافعات، المقْرُونَاتِ بحُججِهَا وبَراهينها، وبِسَبَبِ ذَلِكَ انْقَطَعُوا عَنْ طَرح

الشُّبُهاتِ ومُتَابعَةِ الجَدَلِيَّات، فلَجؤُوا إلَىٰ تَحدِّيهِ بأَنْ يَأْتِيَهُم بِعَذَابِ اللهِ الذي كَانَ يَعِدُهُم بِهِ آناً فآنا.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾: أي: قَدْ نَاظَرْتَنا وَحاوَرْتَنا، وَصارَ بَيْنَنا وَبَيْنَك في الأقوال، ما يُشْبِهُ المصارَعَةَ والمغالَبَةَ بالقُوَى الجَسَدِيَّة.

أَصْلُ المجادَلَةِ في اللُّغَةِ المصارَعَة، يُقَالُ لُغَةً: «جَادَلَهُ فَجَدَلَهُ» أي: غالَبَهُ وصَارَعَهُ فصَرَعَهُ وغَلَبَهُ، وقَدْ يَتَكَافَأُ المتصارعان. ثُمَّ أُطْلِقَتِ المُجادَلَةُ عَلَىٰ المخاصَمَةِ الكلاميَّةِ، وعلى المحاورة حَوْلَ فِكْرَةٍ ما، لإثباتِها أو نَفْيِها.

«قد»: حَرْف تحقيق.

﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾: لم يَعْتَرِفُوا بأَنَّهُ قَدْ صَرَعَهُمْ فِكْرِيًّا، وغَلَبَهُمْ فِي حَلَبَاتِ المناظَرَات، ولَكِنِ اعْتَرَفُوا بأَنَّ نُوحاً عليه السَّلَامُ كانَ أَطْوَلَ نَفَساً مِنْهُمْ مُجْتَمِعِين في مُغَالَبَتِهِمْ في الفِكْرِ، حَوْلَ قَضَايا الدِّينِ الّذي جاءَهُمْ به، حَتَّىٰ ضَاقُوا ذَرْعاً بِمُناظراتِهِ ومُحَاوراتِه ومُجادَلَاتِه، فَقَرَّرُوا الكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ مُجادَلَتِه، وتَحَدَّوْه بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بِعَذَابِ رَبِّهِمْ الَّذي يُنْذِرُهُم به حِيناً فَحِيناً، إذا أَصَرُّوا عَلَىٰ تَكْذِيبِهِ، والكُفْرِ بما جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِ رَبِّ العالمين.

• ﴿... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

هَٰذِهِ عِبَارَةُ تَحَدٍّ مِنْ كُبَرَاءِ قَوْمِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ لَه، بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بما كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ إِهْلَاكٍ رَبَّانِيٍّ شَامِلٍ لَهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا، غَيْرِ العَذَاب الَّذي سَوْفَ يُلَاقُونَهُ يَوْمَ الدِّين.

إنَّهُمْ بِهَـٰذا التَّحَدِّي كانُوا يَتَوَهَّمُونَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ، فيما يَعِدُهُمْ بِهِ بَلَاغاً عَنْ رَبِّهِ، وغَيْرُ صَادِقٍ فِي أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ، لِطُولِ الإمْهَالِ الرَّبَّانِيِّ لَهُمْ.

الوَعدُ: يكُونُ في الإخبار بأمْرٍ مُسْتَقْبَلِيّ تَمَّ العَزْمُ عَلَىٰ تَنْفِيذِهِ بِشُرُوطِهِ، خيراً كَانَ أَمْ شرّاً، نفعاً كانَ أَمْ ضُرّاً.

وهُنَا لَا بُدَّ أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ أَحداً مِنَ النَّاس ـ مَهْمَا كَانَ كَافِراً عَنِيداً ـ مِنَ المستَبْعَدِ جدًّا أَنْ يَطْلُبَ عَلَىٰ وَجْهِ الحقيقةِ مِمَّنْ يَقُولُ: «إِنَّهُ رَسُولُ الله» أَنْ يُنْزِلَ بِهِ عَذَابَ الله.

إنَّمَا يَقُولُ هَـٰذا عَلَىٰ سَبِيلِ التَّحَدِّي، للإشْعَارِ بَأَنَّ مَا يُنْذِرُ بِهِ مِنْ عِقَابِ اللهِ، هُوَ بِهِ كاذب، أَوْ هُو عَاجِزٌ عَنْ تَحْقِيقه.

فَكُلُّ مَا جَاءَ مِنْ طَلَب أقْوامِ الرُّسُلِ مِنْ رُسُلِهِمْ إنْزَالَ عَذَابِ اللهِ عليهم، أَوْ تَعْجِيلَ العَذَاب لَهُمْ، يَنْبَغِي أَنْ يُحْمَلَ عَلَىٰ هَـٰذا الفَهْم، لَا عَلَىٰ أَنَّهم طَلَبُوا إِنْزَالَ العَذَابِ بِهِمْ حَقِيقَةً، فإنَّ أيَّ ذِي حَيَاةٍ لَهُ فِكْرٌ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ.

لكِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ خَاطَبَ مُسْتَعْجِلِي عَذَابِ اللهِ الَّذِي أَنْذَرَهُمْ به رُسُلُهم، بِحَسَبِ مَا ظَهَرَ مِنْ أقوالِهِمْ وَتَحَدِّيَاتِهم تَهَكُّماً بِهِمْ وسُخْرِيَةً مِنْهم، ومُجَارَاةً مِنْهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ لِظَاهِرِ أَقْوالِهم.

قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَا رَدَّ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ قَوْمِهِ:

• ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

اشْتَمَلَ رَدُّ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَىٰ تَحَدِّي مَلأ قَوْمِهِ له، علىٰ بَيَانِ خَمْسِ قَضَايَا:

القَضِيَّةُ الأُولَىٰ: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾:

أي: لسْتُ أَنَا الَّذِي آتِيكُمْ بِمَا أَنْذَرْتُكُمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ رَبّكُم، إِنَّمَا يأتِيكُمْ به اللهُ إنْ شَاءَ هُوَ لَا إِنْ شِئْتُ أنا، ولا إِنْ شئْتُمْ أنتم، أَمَّا أَنَا فَوَظِيفَتِي من اللهِ مَحْدُودَة، إِنِّي رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ مَا يأْمُرُنِي بتَبْليغِهِ، ممَّا يُوحِي بِهِ إِلَيَّ.

القَضِيَّةُ الثانِيَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿... وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وَمَا أَنْتُمْ بقَادِرِينَ عَلى الإفْلاتِ مِنْ عَذَاب اللهِ إنْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَهُ بِكُمْ، إِنَّكُمْ لَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَفِرُّوا مِنْه، ولَنْ تَسْتَطِيعوا أَنْ تُعْجِزُوا جُنُودَ الله عن طَلَبِكُمْ وَإِدْرَاكِكُمْ بالعِقَاب.

تَقُولُ لُغَة: «أَعْجَزَنِي فُلَانٌ» أي: عَجَزْتَ وَضَعُفْتَ عَنْ طَلَبِهِ وإِدْرَاكِه، فأَفْلَتَ مِنْك وَفَاتَك.

جاءت هذه العبارة جواباً على ما يَجُولُ في نُفُوسِهِمْ مِنْ تَكْذِيبٍ وتَحَدٍّ مُشْعِرٍ بأنَّ نُوحاً عليه السّلام عاجِزٌ عَنْ أَنْ يُحَقِّقَ مَا تَوَعَّدَهُمْ به.

القضيَّة الثالثة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ ... ﴿٣٤﴾﴾:

النُّصح: إرَادَةُ الخَيْرِ للمَنْصُوحِ.

• ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ﴾: أي: إنْ أَرَادَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ حُكْماً مُبْرَماً، وأَنْ يُنْزِلَ بِكُمْ عِقَاباً مُعَجَّلاً عَلَىٰ ضَلَالِكُمْ.

أي: وحِينَ يَقْضِي اللهُ عَلَيْكُم بالْعَذَابِ، بَعْدَ أَنْ يَحْكُمَ عَلَيْكُمْ بالغَوَاية، فإنّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَدْفَعَ عَنْكُمْ عَذَابَ رَبِّي، ومَهْمَا أَرَدْتُ أَنْ

أنْصَحَ لَكُمْ مُرِيدا لَكُمُ الخَيْرَ فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنْفَعَكُمْ حِينَئِذٍ، لِأَنَّنِي لَا أَمْلِكُ مِنْ رَبِّي رَفْعَ حُكْمِهِ عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ، وَقَضَائِهِ عَلَيْكُمْ بالعَذابُ والإهْلاك، إذْ تَكُونُ مُدَّةُ امْتِحانِكُمْ قَدِ انْتَهَتْ، وَجَاءَ وَقْتُ عِقَابِكُمْ.

إنّنِي مَهْمَا حَاوَلْتُ حِينَئذٍ أنْ أتَّخِذَ وَسِيلَةً أَدْفَعُ بِهَا عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ فإنَّ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُكُمْ بشيءٍ، وكما أَنَّنِي لَا أَمْلِكُ أَنْ آتِيَكُمْ بِالعَذَاب الّذِي أنْذَرْتُكُمْ به بَلَاغاً عَنِ الله، إنْ لَمْ يَشأِ اللهُ أَنْ يَأْتِيَكُمْ بِه، فإنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ أَيُّ عَمَلٍ أَعْمَلُهُ ابْتغَاءَ الخير لَكُمْ، وَدَفْع عَذَابِ اللهِ عَنْكُمْ، نُصْحاً لَكُمْ علىٰ افْتِرَاضِ أَنَّنِي أَرَدْتُ أنْ أنْصَحَ لَكُمْ شفَقَةً عَليكمْ، إنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ بالحُكْم عَلَيْكُمْ بالغَوَايَةِ، وحَقَّ عليكم بسَبَبِ ذلِكَ إنْزَالُ وَعِيدِ اللهِ فِيكُمْ، وعِقَابُهُ لَكُمْ في الدُّنيا وفي الآخِرَة.

القضيّة الرَّابعَة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾:

أي: هو الّذي خَلَقَكُمْ ضِمْنَ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ المتصاعِد، ويَخْلُقُكُمْ دواماً خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ تَرْقِيَةً أو تَنْكِيساً، ويُهَيْمنُ عَلَيْكُمْ دواماً بصِفَاتِ رُبُوبيَّتِهِ الشَّامِلَةِ لمعظَم أَسْمَائِهِ الحسْنَىٰ. فهو الذي يَرْزُقُكُمْ، وهو الَّذِي أَحْيَاكُمْ، وهو المُمْتَحِنُ لَكُمْ في الحياة الدُّنيا، وهو الذي يُميتكُمْ، وهو الذي يُحَاسِبُكُمْ يَوْمَ الدّين، ويَفْصِلُ القضاء بيْنَكُمْ، ثُمَّ يُجازِيكُمْ بحَسَبِ مَا قَدَّمْتُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِكُمْ في الحياة الدنيا.

القضيَّةُ الخامِسَةُ: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وفي القراءة الأخرى: [**وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ**] بالبناء للمعْلُوم:

أي: وإلَىٰ حِسَابِ رَبِّكُمْ، وفَصْلِ قضائِهِ بيْنَكُمْ، وتنفيذ جَزَائِهِ الّذِي يُجَازِيكُمْ بِهِ، تُرْجَعُونَ بالخَلْقِ الجبْرِي، فَتَرْجِعُونَ مُطَاوِعِينَ، لَا تَمْلِكُونَ باخْتِيارِكُمْ شَيْئاً، بَعْدَ أَنْ يَبْعَثَكُمْ إلَىٰ الحَياةِ الأُخْرَىٰ مِنْ مَدَافِنِكُمْ، هو الّذِي أَحْيَاكُمْ وهُوَ الَّذِي يُمِيتُكُمْ، وهو الَّذِي يُحْيِيكُمْ تَارَةً أخرىٰ يَوْمَ الدّينِ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ واتّهامِهِمُ الرَّسُولَ محمّداً ﷺ بأنهُ افْتَرَىٰ القرآنَ وَنَسَبَهُ إلى رَبِّهِ كَذِباً عليه:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

جاءَتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ مُعْتَرِضَةً ضِمْنَ عَرْضِ لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السلام مَعَ قَوْمِهِ، لِبَيانِ أَنَّ ما تَعَرَّضَ لَهُ محمَّدٌ ﷺ من كُبَراء قَوْمِهِ في مَكَّة، مَسْبُوقٌ بنَظائِرَ تَعَرَّضَ لَها نُوحٌ مِنْ مَلأِ قَوْمِهِ، فَقَدْ كَذَّبُوهُ فِي رِسَالَتِهِ، واتَّهَمُوهُ بالـمَصْلَحةِ الشَّخْصِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ فِيهِمْ، وَتَعَنَّتُوا عَلَيْهِ بِمَطالِبَ مِنَ الخَوارِقِ، وطَالَبُوهُ بِطَرْدِ الضُّعَفَاءِ وَالـمَساكِينِ عَنْ جَماعَةِ المؤمِنينَ بِهِ، وتَحَدَّوْهُ بِأَنْ يَأْتِيَهُمْ بما يَعِدُهُمْ بِهِ، وهَـٰذِهِ كُلُّها قَدْ فَعَلَ كُبراءُ مُشْرِكِي مَكَّةَ نَظائِرَها، ومنها مُتابَعَةُ إصْرارِهم علىٰ اتِّهام الرَّسُول مُحمَّدٍ ﷺ بأَنَّهُ اخْتَلَقَ القرآنَ وافْتَرَاهُ عَلَىٰ الله، والّذِي سَبَقَ في الآية (١٣) من هذه السّورَة بَيانُه.

وإِذْ سَبَقَ فِي مراحِلِ التَّنْزِيلِ إقَامَةُ الحجَجِ الـمُتعدِّدَةِ عَلَيْهِمْ، بأَنَّ القُرْآنَ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين، وأنّه لَيْسَ بإمْكَان البَشَرِ أَنْ يَفْتَرُوهُ أَوْ يَفْتَرُوا مِثْلَهُ، وسَبَقَ أَنْ تَحَدَّاهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ، أو بِمِثْلِ سُورَةٍ واحِدَةٍ من السُّوَرِ ذَواتِ الصفحات المتعدِّدَاتِ، فإنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِقَطْعِ هَـٰذا الإِصْرَارِ العَنِيدِ، الَّذِي لَيْس فِيهِ غَيْرُ الـمُكابَرَةِ بِحَماقَةٍ وَتَجاهُلٍ لِسَوابِقِ الجَدَلِيَّاتِ الـمُلْزِمَاتِ والـمُفْحِمات والـمُقْنِعَاتِ، لم يَبْقَ أَمَامَ الرَّسُولِ ﷺ إلَّا أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: إِنِ افْتَرَيْتُهُ فإِنِّي أكُونُ مُجْرِماً، وعَلَيَّ يَنْزِلُ عِقَابُ إِجْرَامِي، وإِذَا كُنْتُمْ أَنْتُمْ تكَذِّبُونَ بِالحَقِّ الَّذِي جاءَكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ عِناداً وَجُحُوداً، فإِنَّكُمْ تَكُونُونَ مُجْرِمِينَ إجْراماً كَبِيراً بِحَقِّ اللهِ رَبِّكُمْ عليكم، وتَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهِ عِقَابَ الكافِرِينَ خُلُوداً في عَذَابِ النَّارِ، وَيَقَعُ عَلَيْكُمْ هَـٰذا العَذَاب، وَأَكُونُ أَنَا بَرِيئاً مِمَّا تُجْرِمُونَ، إِذْ لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ.

• ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾: «أَمْ» بِمَعْنَىٰ «بَلْ» للإضراب الانتقالِي، أي: بَلْ يَقُولُ كبراء مُشْرِكي مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ عَنِ القرآنِ المجيد: إنَّ مُحمّداً افتراهُ عَلَىٰ الله، أي: اخْتَلَقَهُ كَذِباً.

الفِرْية: هي في اللُّغَةِ الكَذِبُ، والكلامُ المصْطَنَعُ المكْذُوبُ عَلَىٰ مَنْ نُسِبَ إلَيْه، عَنْ قَصْدٍ وَتَعَمُّدٍ وَعِلْم.

• ﴿... قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

«إنْ» تُسْتَعْمَلُ بَلَاغِيًّا لِلْأَمْرِ غَيْرِ الواقِع أوْ للمشْكُوكِ فِي وُقُوعه، والمرادُ بها هنا الأوّل.

أي: إنْ كُنْتُ افْتَرَيْتُ هَـٰذا القرآنَ عَلَىٰ رَبّي فافترائي لَهُ إجْرَامٌ عظيم، إذْ هُوَ كَذِبٌ عَلَىٰ اللهِ، والكَذِبُ عَلَىٰ اللهِ مِمَّنْ يَقُولُ: أَنَا رَسُولُ اللهِ وَيُؤَيِّدُهُ اللهُ بالآيَاتِ مِنْ أشَدِّ الجرائم الَّتِي لَا يُؤَخِّرُ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ عُقُوبَتَها، حِمَايَةً للنَّاسِ مِن الافْتِتَانِ به، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيَّ عِقَابُ إجْرَامِي هَـٰذا، وَلَا يُشَارِكُنِي فِيه أَحَدٌ.

وَقَدْ جَاءَ البَيَانُ الصَّرِيحُ عَنْ هَـٰذا في قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

الوَتِين: الشِّرْيَانُ الرئيسُ الَّذِي يُغَذِّي جِسْمَ الإنْسَانِ بالدَّمِ النَّقِيّ الخارِجِ مِنَ القَلْب، ويُجْمَعُ عَلَىٰ «وُتْنٍ» و«أَوْتِنَة».

وَإِذْ لم يَنْزِلْ بالرَّسُولِ عِقَابٌ مَا مِن اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهُوَ يُبَلِّغُ القرآنَ عَنْهُ تِبَاعاً، فَهُوَ إذاً غَيْرُ مُجْرِمٍ، وهُوَ إذاً غَيْرُ مُفْتَرٍ للقرآن، وكُلُّ هَـٰذِهِ البيانَاتِ لوَازِمُ للنَّصِّ قَرِيبَةٌ أَوْ بَعِيدَة، وَبَعْضُها يُفْهَمُ مِنْهُ بِقُوَّةٍ، وبَعْضُها يُفْهَمُ

صَرَاحَةً ممَّا نَزَلَ قَبْلَهُ في نُجُومِ التَّنْزِيل، وبَعْضُها يُفْهَمُ صَرَاحَةً مِمَّا نَزَلَ بَعْدَهُ فِي نُجُومِ التَّنْزِيل.

علىٰ أنَّ موضُوعَ اتِّهَامِ كُبَرَاءِ كُفَّارِ مَكَّةَ إِبَّانَ التَّنْزِيلِ مُحمّداً ﷺ، بأنَّهُ قَدِ افْتَرىٰ القرآنَ علىٰ رَبِّهِ مِنْ عِنْدِهِ، قَدْ جَاءَ الرَّدُّ عَلَيْهِ فِي القُرآنِ مُجزَّأً فِي بناءٍ فِكْرِيٍّ، سَبَقَ هَـٰذا النَّصَّ بَعْضُهُ في نُجُومِ التَّنْزِيل، ونَزَلَ بَعْدَهُ نُجُومٌ أُخْرَىٰ أَتَمَّتْ عناصر الرَّدِ القرآنِيّ وافِياً بحَسَبِ الشُّبُهَاتِ الّتي كَانُوا يَطْرَحُونها أو تَخْطُرُ علىٰ أَذْهانِهم.

وقد سبَق هذا النَّصّ الذي جاء في الآية (٣٥) من سورة (هود/ ٥٢ نزول) الآيات من (٤ ـ ٦) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) والآيتان (٣٧ و٣٨) من سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) والآية (١٣) من سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) الجاري تَدَبُّرُهَا.

ونَزَلَتْ بَعْدَه عِدَّة نصوص، وهي الآية (١١١) من سورة (يوسف/ ١٢ مصحف ٥٣ نزول) والآية (٤٣) من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) والآية (٢٤) من سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) والآية (٨) من سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) والآيات من (١٠١ ـ ١٠٣) من سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) والآية (٥) من سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) والآية (٣) من سورة السّجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول).

والدراسة التدبريَّة التكاملية لهذه النصوص تحتاج بحْثاً مُسْتقِلاً، أرْجُو أن يفتح اللهُ عليّ به مستقبلاً.

قول الله عَزَّ وجَلَّ مُتابعاً عَرْضَ اللّقَطاتِ المختاراتِ من قصّة نوحٍ عَلَيْهِ السلام وقَوْمِهِ في سورة (هود) بَعْدَ الآية الاعْتِراضيّة (٣٥):

• ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾:

دلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أيْأَس نُوحاً عَلَيْهِ السلام، من إيمانِ أَحَدٍ مِنْ قَوْمِهِ غَيْرِ الَّذِينَ سَبَقَ أَنْ آمَنُوا بِه، وكَانَ هَـٰذا بَعْدَ أنْ لَبِثَ فِيهِمْ قُرُوناً يَدْعُوهم إلى اللهِ وَنَبْذِ الشِّرْكِ الَّذِي كانُوا يُصِرُّون عليه عِناداً، والتزاماً بالتقليد الأعْمَىٰ، وبَعْدَ أَنْ صَبَرَ عَلَيْهِمْ صَبْراً طَوِيلاً، مَرَّ عَلَيْهِ فِيه أجْيَالٌ كَثِيرَةٌ مِنهم.

وفي هذا دَلالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ من الحكمة أَنْ يَهْجُرَهُمْ، وَيتوَقَّف عَنْ دَعْوَتِهِمْ، ودَلالَةٌ عَلَىٰ أنَّ الحِكْمَةَ تَقْتَضِي إنْهاءَ إبْقَائِهِمْ أَحْيَاءَ فِي هَـٰذِهِ الدَّار، دَارِ الابْتِلَاء، فقد انتهت المدّة المناسبة لابتلائهم.

- ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾: أي: فَلَا تَحْزَنْ، وَلَا تَكُنْ في غَمٍّ وَضِيق.
- ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾: أي: بِسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْعَلُون ضِدَّكَ مِنْ مُؤْذِيَاتٍ تَكْرَهُهَا، وَلَا بِمَا تَوَعَّدُوكَ بِهِ مِنْ رَجْمٍ إذا لَمْ تَنْتَهِ عن مُتَابَعَةِ دَعْوَتِكَ.

وظاهِرٌ أنَّ هَـٰذا البَيانَ الرَّبَّانِيَّ لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام، يَتَضَمَّنُ الإشَارَةَ إلَىٰ الحُكْم علَيْهم بالإهْلَاكِ الشَّامِل، فَالتَّيْئِيس مِنْ إيمَانِ أحَدٍ مِنْهُمْ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الحكْمَةَ تقضِي بِعَدَم إمْهالهم، إذ الغَايَةُ الابْتِلَائِيَّةُ قد استَنْفَدَتْ كُلَّ مَا يَلْزَمُ لها، وصَارَ إبْقَاؤهم في الحياة الدُّنيا خالِياً مِنَ الحكمة، والعقابُ الشَّامِلُ لَهُمْ قَدْ صَارَ هو الأمْرَ الحكيم، كما صَارَتْ مُتَابَعَةُ دَعْوَتِهِمْ غَيْرَ مُجْدِيَة.

والمعنىٰ الّذِي دَلَّ عليه ظاهر العبارة: فَلَا يَكُنْ فِي قَلْبِكَ حُزْنٌ وضِيقٌ بسَبَبِ مَا كانُوا يَفْعَلُونَ مَعَكَ مِنْ سُخْرِيَةٍ واسْتِهْزَاء، ومَا يُواجِهونَكَ بِهِ مِنْ شَتَائم.

وهذا يَتَضَمَّنُ الوعدَ بأنَّهُ مَنْصُورٌ عَلَيْهِمْ، وبأنَّهُ سيَتَخَلَّصُ من كُلِّ مُضَايَقَاتِهِم وإيذَاءَاتِهِمْ بإهْلَاكِ اللهِ لهم.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بَياناً لمَا كَانَ أوْحَىٰ بِهِ إلى نوح عَلَيْهِ السلام بَعْدَ مَا سَبَقَ:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾:

دَلَّ قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لنوح عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ عَلَىٰ أنَّ وَسِيلَةَ النَّجاةِ مِنَ الغَرَقِ بالمَاءِ الَّذِي يُهْلِكُ به كُفَّارَ قَوْمِهِ إهلاكاً شَاملاً، مَرْكَبَةٌ مَائِيَّةٌ تَقُومُ عَلَىٰ المَاءِ وتَجْرِي فِيه، وأَنَّ الماء الَّذِي سَيَنْزِلُ وَيَتَفَجَّرُ سَيغْمُرُ رُؤُوسَ الجِبَال، فَاتِّخَاذُ مَعَاقِلَ فيها لَا يَعْصِمُ مِنَ الغَرَقِ في المَاء، فَلَا فَائِدَةَ مِنَ التفكِيرِ في اتِّخاذ وسِيلَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ ذلِكَ.

فكان من روائِعِ البيان الإيجازي الّذِي يَعْتَمِدُ على لوازم الأفكار الاكْتِفَاءُ بِجُمْلَةِ ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ المعاني الَّتي يَسْتَدْعِيهَا فِكْرُ النَّبِيهِ الفَطِنِ لُزُوماً.

ودَلَّ قَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ علىٰ أنَّ التَّنْفِيذَ، وخُطَّةَ العَمَل، وهَنْدَسَةَ بِنَاءِ السَّفِينَةِ، وتَحْدِيدَ الموادّ الَّتِي تُصْنَعُ مِنها، وطَرِيقَةَ التَّنْفِيذ، أمُورٌ مَسْبُوقَةٌ بالوَحْي، ومَحْفُوفَةٌ بالعِنَايَةِ والمُراقَبَةِ التَّوجِيهيَّة، والتَّسْدِيدِ المُتَتَابع، حتَّىٰ تَبْلُغَ الفُلْكُ الغايَةَ المقْصُودَةَ مِنْ إحْكَامِ الصُّنْع للأَمْرِ الَّذِي تُهَيَّأُ له، كُلُّ هَـٰذا ضِمْنَ إمْكَانَاتِ نُوحٍ عَلَيْهِ السلام المُتَاحَةِ لَهُ في زمانه.

الفُلْك: مَرْكَبُ البَحْر، يُطْلَقُ علَىٰ الواحِدِ والاثْنَين والجَمْع، ويُذَكَّرُ وَيُؤَنَّثُ، فيُقَالُ: هيَ الفُلْكُ، وهو الفُلْك.

وفي كتابي «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» بيان الحكمة من تَقْدِيم عبارة ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ علَى عبارة ﴿وَوَحْيِنَا﴾.

• ﴿... وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (٣٧)﴾:

أي: وَلَا تُخَاطِبْنِي في إمْهَالِهِمْ، وَعَدَم إهْلَاكِهِمْ، فَقَدْ صَارَ إِهْلَاكُهُمْ غَرَقاً، بِطُوفَانٍ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِمَايَةَ نُفُوسِهِمْ مِنْهُ قَضَاءً مُبْرَماً.

وقَدْ أدَّتْ عبارةُ: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ عدَّةَ أغْرَاض:

الأوّل: أنَّ الأَمْرَ بِصُنْع سَفِينَةٍ في بَرٍّ لَا بَحْرَ فِيه، دَلِيلٌ عَلَىٰ أنَّ الماءَ سَيَصِلُ إلَيْها، وَيَعُمُّ وَيَطِمُّ، ويَرْفَعُهَا وهِيَ في مكانِهَا، فتجْرِي بِرُكَّابِهَا علَىٰ الماء، حتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ أَمْرَ إهلاكِ القوْم، ونجاةَ نُوحٍ وَمَنْ مَعَهُ، وَيَغِيضَ الماءُ، وَتَسْتَوِي السَّفِينَة عَلَىٰ أَرْضٍ يَابِسَة.

الثاني: أنَّ الإهْلَاكَ لكُلِّ الكافِرِينَ، أئِمَّتِهِمْ وَأتْباعِهِمْ، سَيَكُونُ بالغَرَقِ بالماء.

الثالث: التأكيدُ عَلَىٰ أنَّ الأَمْرَ قَدْ صَارَ أَمْراً مُبْرَماً مُقَدَّراً ومَقْضِيًّا، إنَّمَا يَنْتَظِرُ الوَقْتَ الَّذِي قَضَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أنْ يُغْرِقَهُمْ فِيه.

قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ يَصِفُ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشاهِدِ صُنْعِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام الفُلْكَ الّتِي أَوْحَىٰ اللهُ إلَيْهِ بأنْ يَصْنَعَها:

﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

المَلأُ: وجُوهُ القَوْمِ وَأعْيَانُهُمْ ورُؤسَاؤهم، لأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العَامَّة.

﴿يُخْزِيهِ﴾: **الخِزْيُ** الوُقُوعُ في الشَّرِّ والعذاب والمصائب والبلايا، والذُّلِّ والهَوَان، والافْتِضَاحُ بالقَبَائِحِ والسَّيِّئَات والآثام المخْجِلَةِ خَجَلاً شدِيداً.

• ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ﴾: في هَـٰذِهِ العبَارَةِ حِكايَةُ أعْمَالٍ صِناعِيَّةٍ قَائِمَةٍ مُقْتَطَعَةٍ مِنَ الماضِي، ومُقَدَّمَةٍ في التَّعْبِيرِ علىٰ أنَّها مَشْهَدٌ مِنْ مَشَاهِدِ بِنَاءِ السُّفُن، وَيَسْتَدْعِي ذِهْنُ اللّبيبِ مِنْ خِلالِ هَـٰذا العَرْضِ مُخْتَلَفَ الأَعْمَالِ الَّتِي يَحْتَاجُها بناءُ سَفِينَةٍ بَحْرِيَّة.

دَلَّ الفِعْلُ المضارع في ﴿وَيَصْنَعُ﴾ عَلَىٰ الحَرَكَةِ المتَجَدِّدَةِ في تَصْوِيرِ المشْهَدِ بعِبَارَةٍ كلامِيَّة، ويَنْطَلِقُ الذِّهْنُ إلَىٰ تَصوُّرِ زَمَنٍ قَدْ يَبْلُغُ قُرابَةَ سَنَةٍ فَأكْثَر، ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ فِيهِ الفُلْكَ مَعَ مُعَاوِنِينَ لَهُ من المؤمنين، والفِعْل معطوف على مطويٍّ مقدّر: أي: فنفَّذ نوحٌ أمرَ رَبّه وصَارَ يَصْنَعُ الفلك.

• ﴿... وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ...﴾.

لفظ «كُلَّما» هو «كُلُّ» دَخَلَتْ عليه «مَا» المصدريَّة الظَّرْفيّة، ولا تَدْخُلُ «كُلَّمَا» إلَّا علَىٰ الفِعْلِ الماضي، وهيَ مَبْنِيَّةٌ علَىٰ الفَتْح في مَحلّ نَصْبٍ عَلَىٰ الظرفية، والعامِلَ فيها جوابُها، وهو هنا فعل ﴿سَخِرُوا۟﴾ وهي تفيد التكرار.

• ﴿مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾: أي: مَرُّوا مُسْتَكْبِرينَ مُسْتَعْلِينَ عَلَيْهِ، ورُبَّما كان نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَصْنَعُ الفُلْكَ في مُنْخَفِضٍ من الأرض شبهِ وادٍ، لِيُسَنِّدَ مَا يَصْنَعُ من ذاتِ اليَمِينِ ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ، على سطحَيْن مُنْفَرِجَيْن من الأرض، مُلَائِمَيْنِ لانْفِرَاجِ جَانِبَي الفُلْك، فإذا مَرَّ مَلأٌ من قومه مَرُّوا مِنْ أعْلَىٰ، ولهٰذَيْنِ الأَمْرَيْنِ أوْ لِأَحدِهِمَا جاءَ التَّعْبير: ﴿مَرَّ عَلَيْهِ﴾ بخِلَافِ التَّعْبيرِ في: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾ (المطفّفين) إذْ لَيْسَ في واقِعِ هٰؤلَاءِ استعلاءٌ ماديٌّ أو مَعْنوي.

﴿سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾: أي: هَزِئُوا به، يقال لغةً: «سَخِرَ مِنْهُ، وسَخِرَ بِهِ، يَسْخَرُ، سَخْراً وسَخَراً، وسُخْراً، وسُخْرِيَةً، وسُخْرِيَّةً» أي: هزئ به.

ويظْهَرُ أنَّهُمْ كَانُوا يُوَاجِهُونَهُ عَلَيْه السَّلَامُ بعِبَارَاتِ السُّخْرِيَةِ، وأنَّهُمْ كانوا يَفْعَلُونَ ذلِكَ مِراراً وتَكْراراً مُتَعَجِّبِينَ ممَّا يَصْنَعُ ومُسْتَهْزئين به، ويَظْهَرُ أنَّهُمْ كَانُوا يَتداعَوْنَ لمشاهَدَةِ مَا يَصْنَعُ هٰذا النَّجَّارُ الّذِي يَقُولُ: إنَّهُ رَسُولُ اللهِ رَبِّ العالمين.

• ﴿قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

لمَّا تَضجَّرَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ سُخْرِيَاتِهِمُ المتكَرِّرَاتِ، قَال لهم مُتَحدِّثاً عَنْ نَفْسِهِ وعَنِ العامِلِينَ مَعَهُ مِنَ المؤمنين: «إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا» أي: بِسَبَبِ جَهْلِكُمْ بِمَا نَصْنَعُ، وَجَهْلِكُمْ بالغايةِ منه «فَإِنَّنا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ» مُقَابَلَةً لَكُمْ بِمِثْلِ عَمَلِكُمْ فقط، أي: لِعِلْمِنَا بِأَنَّكُمْ هالِكُونَ غَرَقاً بَعْدَ حِينٍ لَيْسَ بالبَعِيد، ولِعِلْمِنَا بأَنَّ رَبَّنَا سَيُنْجِينا مِنْكُمْ ومن الغَرَقِ في المَاءِ، بالمَرْكَبَةِ الَّتِي تَحْمِلُنا وتَجْرِي بِنَا سَالِمِينَ بعِنايةِ اللهِ وحفظه.

جواب الشرط في ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ جاء ذا شِقَّين:

الشِّقُّ الأول: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وهَـٰذا مَحْمُولٌ علىٰ الحال، أي: فإنَّا الآنَ نَسْخَرُ مِنْ جَهْلِكُمْ وسَفَاهَتِكُمْ وتعاليكُمْ بِحَمَاقَةٍ وغُرُور، إذْ نَعْلَمُ أنكُمْ هالكون غرقاً، وفي التشبيه معنى المماثلة.

الشِّقُّ الثاني: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾:

في هَـٰذِهِ العبارة تَعْرِيضٌ بأنَّ كُفّارَ قومِهِ هُمُ الَّذِينَ سَوْفَ يأتيهِمْ عذابٌ يُخْزِيهِمْ ويَحِلُّ عَلَيْهِمْ عذابٌ مُقيم.

أي: فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ إذْلالاً وَإِهَانَةً وافتضَاحاً، أمَامَ الخَلَائِقِ قَبْلَ دُخُولِ دارِ العذاب النّارِ، ومَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ فِي جَهَنَّمَ عَذابٌ مُقِيمٌ دَائِمٌ لَا انقطاع له.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾: أي: ويَنْزِلُ عَلَيْهِ حَالًّا عَلَىٰ كُلِّ جُزءٍ مِنْهُ، كَحُلُولِ النَّازِلِ بِالمكانِ للإقَامَةِ والاستقرار الدّائم، عذاب مقيم إقامة دائمة.

يقالُ لغةً: «حَلَّ المكانَ، وحَلَّ بِهِ، يَحِلُّ، حُلُولاً» أي: نَزَلَ به. وتَقُولُ: «حَلَلْتُ القَوْمَ، وَحَلَلْتُ بِهِمْ، وحَلَلْتُ عَلَيْهِمْ» أي: نزَلْتَ بأرْضِهِمْ نُزُولَ مُتَمَكِّنٍ مُقِيمٍ.

مُقِيمٌ: أي: ثابِتٌ مُسْتَقِرٌّ، من قولهم: «أقَامَ بالمكان» أي: لَبِثَ فيه واتَّخَذَهُ وطَناً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾:

قرأ حَفْصٌ: ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ بتَنْوِين «كلٍّ» على حَذْفِ المضاف إليه، أي: مِنْ كُلّ حيوان.

وقرأهَا باقي القُرّاء العشرّة: [**مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ**] دون تَنْوِين عَلَىٰ أنَّ «كُلِّ» مضَافَةٌ إلىٰ «زَوْجَيْن».

أي: وانْتَهَىٰ نوحٌ عليه السَّلامُ مِنْ صُنْعِ الفُلْكِ بِوَحْي من اللهِ ومُرَاقَبَةٍ محفوفَةٍ بالعِنَاية.

﴿حَتَّىٰٓ﴾ هي هنا الابتدائِيَّة وَهِيَ حَرْفٌ تَبْتَدِئُ بَعْدَهُ الجُمَلُ الاسميَّة والفعْلِيّة. وفيها معنى الغايةِ، بتقدير: حتّىٰ انتهىٰ وقت الإمْهَالِ وجاء وقت تنفيذ الإهلاك.

والمعنى: حتَّىٰ إذا جاء وقْتُ تَوْجِيهِ الأمْرِ بِتَنْفِيذِ القضاء بإهْلاكِ كفّار قَوْمِ نوح عليه السلام، والمرادُ بِمَجِيء الوَقْتِ اقترابُ مَجِيئِهِ، أو مَجِيءُ بوادِره.

وجاء التعبير بمَجيء الأمْر عن توجيه الأمْرِ التنفيذي، وعن مجيء أوائل الأسْبَابِ الّتي هي من عناصر التنْفِيذ. وجاء التعبير بكلمة «إذا» التي

هي ظرف للمستقبل، باعتبار أنَّ مجيء الأمرِ قَدْ كان بَعْدَ مُدَّةِ الإمْهَال.

• ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: أي: وفَارَ التَّنُّور بالماء الّذي تَفَجَّرَ مِنْ عيونٍ في أَرْضِهِ.

التنوُّر: هو الفُرْنُ الّذي يُخْبَزُ بِهِ، ورُوِي عن عليٍّ بْنِ أبي طَالِبٍ كرَّمَ اللهُ وجْهَهُ أنَّ التَّنُّور وجْهُ الأرض. ويُقَالُ لُغَةً لِكُلِّ مَفْجرِ مَاءٍ: تَنُّور. ويُمْكِنُ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَىٰ كُلِّ هَـٰذِهِ المعَاني.

يُقَال لغة: «فَارَ المَاءُ، يَفُورُ، فَوراً، وفَوَرَاناً» أي: خرج من الأرض وجرَىٰ مُتَدَفِّقاً، فَهُوَ فَوَّار.

أي: وَفَارَتِ الأَرْضُ مِنَ الأَمْكِنَةِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ تَتَفَجَّرُ فيها عُيُونُ الماء، حتَّىٰ المخابزُ البَعِيدَةِ عَنِ احْتِمَالَات تَفَجُّرِ الماء فيها، فَكَيْفَ بالعُيُونِ التي كَانَ المَاءُ يَتفَجَّرُ مِنْها، فإنَّ الذِّهْنَ يُدْرِكُ أنَّهَا زَادتْ تَفَجُّراً.

ويَدُلُّ عَلى أنّ المرادَ وجْهُ الأَرْضِ عُموماً كَما قالَ عَليُّ بْنُ أبي طالب رضي الله عنه، قولُ اللهِ عزّ وجلّ في سورة (القَمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾[1].

• ﴿... قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ... ﴿٤٠﴾﴾:

أي: قُلْنَا لِنُوح: احْمِلْ في الفُلْكِ مِنْ كُلّ أَنْواع البهائِم فِي بيئَتِكَ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ذَكَرٍ وأُنْثَىٰ. لفظ **[كُلّ]** مقطوع عن الإضافة، والتقدير من كلِّ نوع.

---

(١) انظر تدبُّر هَـٰذِهِ الآية في سورة (القمر/ ٣٧ نزول) المجلد الثالث ص (٣٦٦).

وجاءَ التَّقْييدُ بلَفْظِ ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾ لِئَلَّا يَحمِلَ أكْثَرَ مِنْ ذَكَرٍ وأنْثَىٰ مِنْ كُلّ نَوْع.

الزَّوْج: كُلُّ وَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ مِنْ جِنْسِهِ. **الزَّوْجَانِ**: الذَّكَرُ والأُنْثَىٰ.

وعلى قراءة الجُمْهُورِ: [**مِن كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ**] علَىٰ الإضافَةِ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ المرادُ أرْبَعَةَ أفرادٍ، ذكَرٍ وأُنْثَىٰ، وذَكَرٍ وأُنْثَىٰ، لأنَهُ أَحْوَطُ للتَّناسُلِ، إذْ قَدْ يُصَادِفُ أَنْ يكُونَ أحَدُ الزَّوْجَيْنِ عقيماً.

• ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: واحْمِلْ في الفُلْكِ كُلّ أَهْلِكَ باستِثْنَاءِ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ الرَّبَّانِيُّ بِأَنَّهُ مِنَ المغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ، بَلْ بَقِي علَىٰ دِينِ قَوْمِهِ مُشْرِكاً.

وكان هذا الاستثناءُ مُطْلَقاً لَمْ يُبَيَّنْ فِيه مَنْ هُوَ الَّذِي سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ، وَيُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَىٰ واحِدٍ مِنْ قَرابَتِهِ.

أَهْل نُوحٍ عليه السلام: هُمْ كُلُّ مَنْ هُو لَاحِقٌ به، مِنْ زَوْجَةٍ وَوَلَدٍ وأقارِبَ وعَشِيرَةٍ ذَاتِ قرابَةٍ وأزْواجهم وذُرِّيَّاتهم.

دَلَّ هذا البيانُ علَىٰ أنَّ أهْلَهُ قَدْ آمَنُوا بِهِ إلَّا مَنْ سَبَقَ عليه القَوْلُ بأنَّهُ كافِرٌ مِنَ المغْرَقِين.

• ﴿وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾: أي: واحْمِلْ في الفُلْكِ مَنْ آمَنَ مِنْ قَوْمِكَ من غَيْرِ أهْلِكَ.

• ﴿... وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾: أيْ: وَمَا آمَنَ بـالله وَبِمـا أَنْزَلَ اللهُ، مع نُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ إلّا قَلِيلٌ مِنْ قَوْمِهِ.

جاء هذا البيانُ الرَّبَّاني مُوَجَّهاً لمُتَلَقِّي القرآنِ من أمَّةِ محمَّد ﷺ، على سبِيل الاعْتِرَاضِ، ضِمْنَ حِكَايَةِ قِصَّةِ نوح عليه السّلام وقومه، لإفادَتِهِمْ أمْراً يُهِمُّ الدُّعَاةَ وَيَنْفَعُهُمْ، ويُفِيدُ البَاحِثِينَ في الظَّاهِرَاتِ الاجْتِمَاعِيَّة، ويُفِيدُ مُسْتَبْصِرِي حِكْمَةِ اللهِ في عُقُوبَاتِهِ العَامَّة.

أي: فَحَمَل نُوحٌ عليه السلام في الفُلْك مَا أمَرَهُ اللهُ بحَمْلِهِ مع أرزاقِهم وأدواتهم، وهذا مطويٌّ في النصّ ويُفْهم ذِهْناً.

قول الله تعالى:

﴿۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾:

سَبَقَ بَيَانُ أنّ في ﴿مَجْر۪ىٰهَا﴾ قراءات بالإمالَة مع فتح الميم، وبالإمالة مع ضمّ الميم، وبفتح الميم دُون إمالة، ومؤدّاها واحد، ضم الميم على أنه من فعل «أجرى».

أي: وبَعْدَ أَنْ حَمَل عليه السلام أزْوَاجَ البَهَائِم والأرْزاق والأدوات، قال للناس الذين مَعَهُ: ارْكَبُوا فِي داخِلِ السَّفينة.

وبَعْدَ أَنْ أحَاطَ بِهَا المَاءُ وارْتَفَعَتْ عليه مُبْتَعِدَةً عَن الأرض وَبَدأت تَتَحرَّكُ، قال نوحٌ علَيْه السَّلامُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

مَجْرِيها: في قراءة حفْص، وحمْزَة، والكسائي، وخَلَف، مَصْدَر ميمي مِنْ فِعْل: «جَرَىٰ» أي: باسْمِ اللهِ جَرْيُها.

مُجْرِيها: في القراءة الأخرىٰ، مصدر ميمي من فعلِ: «أَجْرَىٰ» أي: باسم اللهِ إجْرَاؤها.

مُرْسَاها: مصْدَر مِيمي من فِعْل «أرْسَىٰ» اللّازم، ومن فِعْلِ «أَرْسَىٰ» المتَعَدِّي، أي: باسم اللهِ رُسُوُّها، وباسم الله إرْساؤها.

فتكامَلَتِ القراءات في الدّلالَةِ على الجرْي والإجراء، والرُّسُوِّ والإرْسَاء.

والمعنى: نَسْتَعِينُ باسْمِ اللهِ في إجرائها بالمُوَجِّهَاتِ، ونَسْتَعِين باللهِ

فِي جَرْيِهَا علىٰ الماء، ونَسْتَعِين باسم اللهِ في إرْسَائِها بإلْقَاءِ المراسِي أو بغير ذلك، ونَسْتَعِين باسم اللهِ في رُسُوّها.

يُقَالُ لُغَةً: «رَسَتِ السَّفِينَةُ» وكَذَلِكَ: «أَرْسَتِ السَّفينةُ» أي: وقَفَتْ عَنِ السَّيْر.

وَتَكَامُلُ القراءَتَيْنِ في الدَّلَالَةِ على الجرْي والإجْرَاءِ والرُّسُوّ والإرْسَاءِ، هُوَ مِنْ بَدِيعِ التَّكامُلِ في الأَدَاءِ البَيَانِيّ.

وإذْ لَاحَظَ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَام، حينَ دَعَا أَهْلَهُ والمؤمنين مِنْ قومِهِ أَنْ يَرْكَبُوا في السَّفِينَةِ، وَاقِعَ حَالِ الخَطِيئَةِ الَّتِي لا يَخْلُو مِنْها ٱبْنُ آدم، ومَطْلَبَ السَّلَامَةِ، قَالَ فِي دُعَائِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فأثنىٰ على رَبِّهِ باسْمِهِ «الغفُورِ» طالباً بأُسْلُوب الكِنايَةِ أنْ يَغْفِرَ لِمَنْ مَعَهُ خطاياهم، وأثنىٰ عليْهِ باسْمِهِ «الرَّحيم» طالِباً بأسْلُوب الكِنَايَةِ أنْ يَرْحَمَهُمْ فَيُسَلِّمَ وَيُنْجِي كُلَّ راكِبي الفُلْك.

وَلَمْ يُلاحِظْ عِنْدَ هَـٰذا الدُّعاءِ ما سَيَنْزِل مِنْ عَذَاب على سائِرِ قومه، حتّىٰ يَذْكُرَ مِنْ أسْمَاءِ اللهِ مثل: «العَزِيز ـ الجبَّار ـ المنتقم ـ القاهر ـ الحكيم ـ القدير».

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَهِىَ﴾ فيها قراءتان، كَسرُ الهاء وإسْكانها، وهُمَا وجْهان عربيان في النُّطق.

[يا بُنَيَّ]: قرأ عاصِمٌ بفَتْح اليَاءِ المشَدَّدَة، وقرأها باقي القراء بِكَسْرِ اليَاءِ المشدَّدةِ، والقراءَتان نطقَانِ عربيّان لِهَذِهِ الياء.

﴿فِي مَعْزِلٍ﴾: أي: فِي مَكَانِ عُزْلَةٍ وانْفِرَادٍ، بعيداً عن القوم.

قالوا: اسْمُ هذا الوَلِد «يام» وهو رابعُ أبْنائِهِ من زَوْجَةٍ اسْمُهَا «واعِلَة» كانت كافِرَة مع كفار قومها.

• ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾: انْتَقَلَ البَيَانُ إلى تَقدِيم صُورة بَدْءِ جَرْيِ الفُلْكِ فِي الماء العظيم، الّذي صَارَ الموجُ فيه كالجبالِ الصُّغْرَىٰ شكلاً وارْتِفَاعاً، ولَا تَكُونُ الأمْوَاجُ في البَحْرِ مُتعَالِيَةً بحَسَب السُّنَّةِ المعتادة، إلَّا إذَا كَانَتِ الرِّيَاحُ العَاتِيَاتُ تُحرّكُها، فَوَصْفُ الموج بأنَّه كالجبالِ أغْنَىٰ عَنْ ذِكْرِ الرِّياحِ العاتِيَاتِ في الصُّورَة، لأنَّ الذِّهْنَ يَسْتَدْعِيها في التَّصَوُّر.

المَوْج: اسْمُ جِنْسٍ جَمْعِيّ، واحِدُهُ «مَوْجَة» ويُجْمَعُ عَلَىٰ «أمْواج».

ويُدْرِكُ الذِّهْنُ أنَّ المياه مازَالَتْ دُونَ مُسْتَوىٰ الجِبَالِ العالِيَة، ولَعَلَّهَا غَمَرَتِ الوِديانَ، وبَدَأَتْ تَرْتَفِعُ حَتَّىٰ وَصَلَتْ إلى المساكِنِ العالية في أَوَاسِطِ الجِبَالِ أَوْ قَرِيباً مِنها، واقْتَرَبَتِ السَّفِينَةَ تَدْفَعُها المياهُ، أو تُوَجِّهُها مُوَجِّهَاتُها إلى المساكِنِ المرتَفِعَة في الجبل، بَعِيداً عن البَلَدِ الَّتِي أدْرَكَها الغَرَق.

وكان لِنُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ٱبْنٌ قَدِ اتَّخَذَ لِنَفْسِهِ مَكَاناً مُنْعَزِلاً عَنْ أَبِيهِ وَقَوْمِه، ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ في الجبل، فلَمَّا اقْتَربَتِ السَّفِينَةُ من مَنْزِلِهِ وَرآهُ أبُوهُ نُوحٌ عليه السلام، نَادَاه من داخِلِ السَّفِينَة، كما أبانَ اللهُ عزّ وجلَّ.

﴿... وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

دلَّتْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ولم يَقُلْ لَهُ: «من الكافِرين» علَىٰ

أنَّ نوحاً عليْهِ السَّلامُ لَمْ يكنْ يَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهُ هَـٰذا قَدْ كَان كافراً، إِذْ كَانَ فِي مَعْزِلٍ عَنْه، ويَظْهَرُ أَنَّهُ قد كانَ كاتماً كُفْرَهُ غَيْرَ مُتَظَاهر به، عَصَبِيَّةً لِأبيه، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ في باطِنِهِ مع عَقِيدَةِ قَوْمِهِ الشِّرْكِيَّة، ولَعَلَّ اعْتِزَالَهُ قَدْ كَانَ اعْتِزَالاً تَوْفِيقِيًّا، فَهُو لا يُرِيدُ أَنْ يَنْصُرَ قَوْمَهُ علىٰ أَبِيهِ، وَلَا يُرِيدُ أَنْ يُتَابِعَ أَبَاهُ وَيَنْصُرَهُ ضِدَّ قَوْمِهِ، وقَدْ تَكُونُ لَهُ قَبَائِحُ خَاصَّةٌ يُمَارِسُهَا فِي عُزْلَتِهِ مُتَخَفِيّاً عَنْ عُيُونِ أَبِيهِ وإِخْوَتِهِ المؤمنين.

ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ نوحٌ علَيْهِ السَّلامُ قَدْ دَعَا ٱبْنَهُ هَـٰذا إلى الرُّكُوب مَعَهُ في الفُلْكِ بِشَرْطِ أَنْ يُعْلِنَ إيمَانَهُ وإسْلَامه، لكنَّ هَـٰذا الابْنَ اسْتَمَرَّ كَاتِماً كُفْرَهُ عَنْ أَبِيهِ حَتَّىٰ هَـٰذِهِ اللَّحْظَةِ، فَذَكَرَ لِأَبيه أَنَّهُ سَيَجِدُ لِنَفْسِهِ وَسِيلَةً تَعْصِمُهُ مِن الماء، غَيْرَ وَسِيلَةِ الرُّكُوبِ مع أَبِيهِ في الفُلْك، فأَجَابَ أَبَاهُ بِمَا أبانَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِقَوْلِه:

﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ... ﴿٤٣﴾﴾:

﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ﴾: أي: سَأَلْجَأُ إلى جَبَلٍ، يقال لُغَةً: «أَوَىٰ إلى كَذَا، وآوَىٰ إِلَيْهِ» أيْ: لَجَأَ إِلَيْهِ لِيَحْمِيَه.

﴿يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾: أي: يَحْفَظُنِي وَيَقِيني من الماء أَنْ أغْرَقَ فِيه، يُقَالُ لغة: «عَصَمَ الشَّيْءُ فُلاناً عِصْمَةً» أي: حَفِظَهُ ووَقَاهُ وحَمَاه.

المعْنَىٰ: سَأَلْجَأُ إِلَىٰ جَبَلٍ عَالٍ ذِي ذِرْوَةٍ رَفِيعَةٍ، أَصْعَدُ إِلَيْهَا فتَعْصِمُني من الغَرَقِ بالماء.

لَكِنَّ نُوحاً علَيْهِ السَّلام كان علَىٰ عِلْم مِنْ رَبِّه بِأَنَّ المياه سَتَغْمُرُ رُؤُوس شواهِقِ جِبَالِ أَرْض قَوْمه، وأنَّ وَسِيلَةَ النَّجاةِ الوحِيدَة هِيَ سَفِينَتُهُ فَأَبَانَ لابْنِهِ ذلك، والحَالُ لا يَسْمَحُ بالتَّرَيُّثِ وطُولِ الحِوَار والانتظار.

• ﴿... قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ... ﴿٤٣﴾﴾:

أي: لَا عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ بِالطُّوفَانِ العَامِّ الشاملِ، إلّا عَاصِمُ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فَجَعَلَ لَهُ السَّفِينَةَ وَسِيلَةَ النَّجَاةِ الوَحِيدَة.

لَكِنَّ ٱبْنَ نُوحٍ لَمْ يَسْتَغِلَّ هَـٰذِهِ الفُرْصَةَ الأَخِيرَةَ له، إذْ كَانَ كافراً يَكْتُمُ كُفْرَه، ولَمْ يَطُلِ الحِوَارُ بَيْنَ الأَبِ النبيّ الرَّسُولِ والابْنِ الّذي لَمْ يَسْتَجِبْ لِدَعْوَةِ أبيه، ولَمْ يَعْلَمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِن ابْنِهِ مَوْقِفَهُ مِنْ قَضِيَّةِ الإيمان، إذْ حَالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فَقَطَعَ حوارهما، وأَخَذَ المَوْجُ الفُلْكَ بَعِيداً إلَىٰ العُبَاب، ولم يَسْتَطِع الابْنُ أَنْ يُسْرِعَ إلى جَبَلٍ شَاهِقٍ، فَقَدْ دَاهَمَهُ الماءُ مُنْصَبًّا مِنَ الأَعْلَى وصَاعِداً مِنَ الأَدْنَىٰ فَكَانَ مِنَ المُغْرَقِينَ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عزَّ وجَلَّ:

• ﴿. . . وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: فكانَ مِنَ المغْرَقِينَ، لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الكافِرِينَ، وقَدْ سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ الرَّبَّانِيُّ المُبْرَمُ بِأَنْ يَهْلِكَ بالإغراق، مع كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام.

لكنَّ نُوحاً عليه السَّلام قَدِ اخْتَفَىٰ عَلَيْهِ المنظر، فَلَمْ يَعْلَمْ مَاذا جَرَىٰ لابْنِه، وشَغَلَهُ الهَمُّ الَّذي هُوَ فِيه عَنْه.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

دلَّ البيانُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ علَىٰ مَطْوِيَّاتٍ تُفْهَمُ باللُّزُومِ الذِّهْنِي، ومِنْها ما يلي:

(١) لَقَدَ تَمَّ تَنْفِيذُ أَمْرِ اللهِ بإغْراقِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عليه السلام.

(٢) لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ نوحٌ عَلَيْهِ السلام والَّذِينَ مَعَهُ في الفُلْكِ، كَيْفَ يَكُونُ الاتِّجاهُ؟ وَلَا أَيْنَ يَكُونُ الرُّسُوُّ؟.

(٣) لَقَدْ كانَتْ عِنَايَةُ اللهِ تُجْرِي الفُلْكَ إلَىٰ جَبَلِ الجُودِيّ، حيْثُ تَرْسُو عَلَيْهِ إذَا غَاضَ الماء.

وإذْ تَمَّ الإغراق المقدَّرُ المقضيُّ علَى مَا أراد اللهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ كانَ مِنَ الحكْمَةِ في البيانِ الإشارَةُ إلى ذَلِكَ إشارةً خفيفةً بهَـٰذِهِ الآية (٤٤).

لَقَدْ تَرَكَتِ الآيَةُ لِلْخيالِ اسْتِكْمَالَ رسْم مَشَاهِدِ جَرْيِ الفُلْكِ براكِبيها، بَعْدَ أن ارتَفَعَ المَاءُ إلَىٰ مَا فَوْقَ رُؤُوس الجِبَالِ الشواهِقِ، وبَعْدَ أَنْ تَمَّ إغْرَاقُ الكافِرين، وكُلّ ذِي حَياةٍ لَا يَعِيشُ في الماء، في كُلّ الأرضِ الّتِي غَمَرَتْهَا المِيَاهُ النَّابِعَةُ مِنَ الأَرْض، والمنْصَبَّةُ مِن السَّمَاءِ.

وجاء فيها الانتقالُ إلى تَصْوِير لَقَطَاتٍ مِنْ فَصْلِ نِهايَةِ مَسِيرة الفُلْكِ واسْتِوَائِهِ عَلَى اليابِسَة، وعلَىٰ مُوجَزٍ لِمَشَاهِد هَـٰذا الفَصْلِ بِأَوْجَزِ تَعْبِيرٍ وأَدَقِّهِ وأَتْقَنِهِ.

● ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: جاء التعبير بعبارة ﴿قِيلَ﴾ بالبناء لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ مَعَ العِلْمِ بأنَّ صَاحِبَ هَـٰذا الأمرِ التكويني هُو اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لإعْطَاءِ النَّصِّ فَنِّيَّةً بَدِيعَةً في الأداء، منْها التَّنوِيعُ في الأسْلُوبِ البيانيّ، ومِنْها الإيجاز، ومِنْهَا الإثَارَةُ ولَفْتُ الانْتِبَاهِ، وشَغْلُ الذِّهْنِ بالبَحْثِ عَنِ الفَاعِلِ الّذِي يُدْرِكُهُ بِأَدْنَىٰ تأمُّل.

وفي عبارة: ﴿يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ نِداءٌ مُوَجَّهٌ لِلْأَرْضِ وللسَّمَاءِ الّتِي تَتجَمَّعُ فيها السُّحُبُ فَوْقَ الأَرْض، إذْ أُنْزلَتَا مَنْزِلَةَ مَنْ يُخَاطَبُ وَيَفْعَلُ بإرادَتِه، وهُوَ في الواقِعِ أَمْرٌ مِنْ أَوَامِرِ التَّكْوِينِ الرَّبَّانِيّةِ، الّتي لا يَسْتَطِيعُ مَأمُورٌ بواحد مِنْهَا مَعْصِيَةَ الأمْر، لأنّهُ صادِرٌ عَنِ الرَّبِّ الخَلَّاق الّذي هو على كُلِّ شيءٍ قدير، ومَعْلُومٌ أنَّهُ إذَا أرادَ شَيْئاً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ: كُنْ، فَهُوَ يَكُونُ على وَفْقِ مَا قَدَّره اللهُ وقضاه.

وجاء نِدَاء الأرض سابقاً لِنِدَاء السَّمَاء لأنَّ المطلُوبَ منها وظيفتان:

الأولى: تَوَقُّفُ عُيُونِهَا عَنِ الإمْدَادِ بِتَدَفُّقِ المياه.

الثانية: ابتلاع مياهِهَا الّتِي كانت قد فاضَتْ بها، ليتَنَاقَصَ الماء، وتَسْتَوِي الفُلْكُ على اليابِسَة.

أمّا المطلوبُ من السَّمَاء فوظيفةٌ واحِدَةٌ هِي الإقْلَاعُ عن هُطُولِ الأمطار.

وأغْنَىٰ فِعْل ﴿ٱبْلَعِي﴾ عن أمْرِها بالتَّوقُّفِ عَنْ تَفَجُّرِ عُيُونها، لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ هَـٰذا البَلْعُ إلَّا بَعْدَ التَّوَقُّف، فَأَطَاعَتِ الأَرْضُ بِالأَمْرِ التكويني فَتَوَقَّفَتْ فَوْراً عَنِ التَّفَجُّر، وأخذَتْ تَبْلَعُ مَاءَهَا الَّذِي كانَتْ قَدْ دَفَعَتْ بِهِ إِلَىٰ سَطْحِها، وَفْقَ نِظام البَلْعِ الَّذِي يَحْدُثُ في الأَرْضِ للمياه.

• ﴿وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾: أي: ويا سَمَاءُ كُفّي وَأَمْسِكِي عَنْ إنْزَالِ الأَمْطَار، يُقَال لغة: «أقْلَعَ عَنِ الأَمْرِ» أيْ: كَفَّ عَنْهُ وتَركَه، و«أَقْلَعَ السَّحَابُ» أي: انكشف وانصرف.

فَكَفَّتِ السَّمَاءُ وأمْسَكَتْ فَوْراً عَنِ الأمْطار، وانْقَشَعَتِ الغيوم. وصَارَتِ السَّمَاءُ صَحْواً لَا غُيُومَ فيها.

• ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾: أي: ونقَصَ اللهُ المَاءَ عَنْ وجْهِ الأَرْضِ، وجَعَلَهُ يَتَغَلْغَلَ فِي مَسَارِبِهَا وتجاويفها، وفراغاتِهَا دَاخِلَها.

يُقَال لغة: «غَاضَ اللهُ المَاءَ» أيْ: نَقَصَهُ. والمبنيُّ لما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ: «غِيض» فالماء «مَغِيض».

ويقالُ أيضاً: «غَاضَ الماءُ، يَغِيضُ، غَيضاً، ومَغَاضاً، ومَغِيضاً» أي: نزل في الأرض، وغابَ فيها.

ويظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا الغَيْضَ زَائِدٌ على ابتلاع الأَرْضِ مَاءَهَا فَهُوَ نَقْصٌ مِمَّا

نَزَل مِنَ السُّحُبِ مِنْ أَمْطَارٍ غزيرَة، ولَوْلا إرادَةُ هذا المعنى لكانت عبارة: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ كَافِيَةً، لأنَّ لازِمَ دَلَالَتِها ابْتِلَاعُ الأَرْض ماءها، فجاءت عبارة: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ لإضافَةِ فِكْرَةٍ جدِيدَةٍ، هي نَقْصُ الماءِ فَوْقَ الذي حصَلَ بابْتِلاعِ الأرض ماءَها.

- ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: أي: وأمْضَىٰ اللهُ أَمْرَهُ وأنْهَاهُ بإهْلَاكِ الكافِرينَ، ونَجَاةِ مَنْ أَمَرَ بِنَجاتِه.

- ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾: أي: واسْتَوَتِ الفُلْكُ على جَبَلٍ اسْمُهُ الجُودِيّ، والمرادُ أنَّهَا تَوَقَّفَتْ عَنِ الجَرْي، واسْتَقَرَّتْ علىٰ اليابِسَةِ اسْتِقْرَاراً مُسْتَوِياً، غَيْرَ مائِلَةٍ ذَاتَ اليَمِينِ، ولا ذَاتَ الشِّمَالِ، ولَا إلَىٰ جِهَةِ مُقَدَّمِها، ولَا إلَىٰ جِهَةِ مُؤَخَّرِها، وكَانَ كُلّ ذَلِكَ بعِنَايَةِ اللهِ وحِفْظِهِ ورِعَايَتِهِ التَّامَّات.

- ﴿... وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾: جاء التعبيرُ بِعبَارة ﴿قِيلَ﴾ بصِيغَة الفِعْل الذي لم يُسَمَّ فَاعِلُهُ، كَنَظائِرِهِ في الآية، والقائلُ هو اللهُ عَزَّ وجَلَّ أوّلاً، ثُمّ كُلُّ مَلَكٍ مَأْمُورٍ بأَنْ يَقولَ هذا القول.

بُعْداً لِلْقَوْم الظَّالِمِينَ: أي: طَرْداً لِلْقَوْم الظَّالِمِينَ عَنِ الحياة الدُّنيا، طَرْداً جماعِيًّا، وإبْعَاداً لَهُمْ عَنْ مَهَابِطِ رَحْمَةِ اللهِ، بِسَبَبِ اسْتِجْماعِهِمْ لِكُبْرَيَاتِ أَوْصَافِ الظَّالِمِينَ، حتَّىٰ اسْتَحَقُّوا أَنْ يُعَرَّفُوا بأَنَّهُمُ القَوْمُ الظَّالِمُونَ.

بُعْداً: مَفْعُول مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف، أي: بَعُدُوا بُعْداً عَنْ رَحْمَةِ الله، وَطُرِدُوا طَرْداً.

ما في هذه الآية (٤٤) مِنْ إبْداعٍ بلاغيّ أَدَبيّ:

في هذه الآية إبداعات أدبيات رائعات منها ما يلي:

الأوّل: «المناسَبَةُ» التامَّةُ بَيْنَ: «ابْلَعِي» و«أَقْلِعِي» فبينَهُمَا تَنَاسُبٌ

بَدِيعٌ، وتَلَاؤُمٌ في اللَّفْظ، وهَـٰذا يَدْخُلُ فِيمَا يُسَمَّىٰ عنْدَ عُلَمَاءِ البديعِ: «ائْتِلَافَ اللَّفْظِ مَعَ اللَّفظِ، وائتِلاف اللَّفظِ مَعَ المَعْنَىٰ».

الثاني: «الطِّبَاق» بَين جُمْلَتَي: «ابْلَعِي» و«أقْلِعِي» فَهُمَا مِنْ جِهَةِ المعْنَىٰ مُتَضَادّان، إذَ البَلْعُ أخْذٌ، والإقْلَاعُ إمْسَاكٌ.

الثالث: «الاسْتِعَارَة» باسْتِعْمَالِ البَلْعِ الَّذي هُوَ لِلْأَحْيَاءِ ذَواتِ الحُلُوقِ الَّتِي تَبْلَعُ السَّوائل، للدَّلالَةِ عَلى انْسِيَاب الماء في مَسارِبِ الأرْضِ وَتجاويفِها، ضِمْنَ نِظام السُّيُولَة والجاذِبيَّةِ والفراغ.

و«الاستعَارَة» باسْتِعْمَالِ الإقْلَاعِ الَّذي هُو الكَفُّ الإراديُّ، للدَّلالَةِ علىٰ المعاني السَّبَبِيَّة الَّتي يَتَوَقَّفُ بِهَا نُزُولِ الأمطار.

الرابع: «الطِّبَاق» بَيْنَ الأرض والسَّماء، في: ﴿يَـٰٓأَرْضُ﴾ ﴿وَيَـٰسَمَآءُ﴾ فإذا جَمَعْنَا الطباقَيْنِ هذا والسّابِق ظهَرَ لنا ما يُسَمَّىٰ عند علماء البَدِيع «المُقَابَلَة» بين: «يا أَرْضُ ابْلَعِي، ويَا سَمَاءُ أقْلِعي».

الخامس: «الإشارة» في قول الله تَعالَى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ إلَىٰ أنَّ الأَرْضَ قَدْ تَمَّ فِيها أَمْرُ البَلْعِ، فبَلَعَتْ مَاءَها، وأنَّ السَّمَاءَ قَدْ تَمَّ فِيها أَمْرُ الإقْلَاعِ، فَأَقْلَعَتْ عَنِ الإمْطار، لِأَنَّ الماء لَا يَغِيضُ إلَّا إذَا تَمَّ ذَلِكَ.

و«الإشارَة» إلى انْكِشَافِ بَعْضِ مَا انْغَمَرَ بالمَاء مِنَ الأرْضِ وَمَا عَلَيْهَا من شجر، وبَعْضِ جبالٍ.

وقد ذكر البلاغِيُّونَ مِنْ ضُرُوبِ البَدِيعِ «الإشارة».

السَّادِس: «الإرْدَاف» في قول الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾.

الإرْدَاف: أن يُرِيدَ المتكلّم معنًى، فَلا يُعَبِّرَ عَنْهُ بِلَفْظِهِ الموضوعِ له، ولا يُعَبِّرَ عَنْهُ بدَلَالَةِ الإشارة، بَلْ يُعَبِّرُ عَنْهُ بِلَفْظٍ مُرَادِفٍ له، لتحقيق أغْرَاضٍ بيانِيةٍ لَا تتحقَّقُ باللَّفْظ الموضوعِ له.

وبيان الإرْداف في قول الله تعالى: ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ هو أَنَّ الأَصْلَ أَنْ يَأْتِي التَّعْبِيرُ بِنَحْوِ: «وهَلَكَ مَنْ قَضَىٰ اللهُ إِهْلَاكهُمْ، ونَجا مَنْ قَضَىٰ اللهُ نَجاتَهُمْ» ولكِنْ لَمْ يَأْتِ التَّعْبِيرُ كَذلِكَ، بَلْ عُدِلَ عَنْهُ إلى مَا يُؤَدِّي المعْنَىٰ نَفْسَهُ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ، يَدُلُّ بِعُمُومِهِ على المراد، مع غايَة الإيجاز، ومَعَ إضَافَةِ مَعانٍ أُخْرَىٰ لَمْ يَكُنْ لِيَدُلَّ عَلَيْهَا التَّعْبِيرُ الأَصْلِيُّ المباشر، ومن هَـٰذِهِ المعانِي أنَّ هَلَاكَ الهالِكِينَ ونَجاةَ النَّاجِينَ قَدْ كانَا تَنْفِيذاً لِلْقَضاءِ وَالأَمْرِ الرَّبَّانِيَّيْن، لِرَبْطِ الظَّاهِرَة بِجَذْرِهَا الاعْتِقَادِي، وهوَ أَنَّ قَضَاءَ اللهِ وأَمْرَ اللهِ التَّكْوِينيَّانِ نَافِذَانِ حَتْماً لَا يَتَخَلَّفَان.

وبيانُ الإرْداف في قول اللهِ تعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ﴾ هُوأَنَّ النَّصَّ اخْتِير فِيهِ التعبير بِلَفْظِ «اسْتَوَت» بَعْد أَنْ كانت الفُلْكُ تَجْرِي جَرْياً مُسْتَوِياً عَلَىٰ الماء، وكَانَ المتبادر أن يكُونَ التّعْبير: «وتَوَقَّفَتْ عَنِ الجَرْي، واسْتَقَرَّتْ عَلَىٰ الجُودي». ولَكِنْ جاءت عبارة: «واسْتَوَتْ» عَقِبَ قول الله تَعالَىٰ: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ لِيَكُونَ فِي هَـٰذا التَّعْبِير المخْتَارِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ قَضَىٰ للسفينَةِ بعِنَايَتِهِ، أَنْ يُوصِلَها إِلَىٰ مَكَان مِنْ جَبَلِ الجُودِي صالحٍ لِأَنْ تَسْتَقِرَّ عَلَيهِ مُسْتَوِيَةً، غَيْرَ مائِلةٍ، وَلَا مُصْفَحَةٍ، وَلَا مُنْكَفِئَةٍ، أي: فالمكانُ الّذِي اسْتَقَرَّتْ عَلَيْهِ غَيْرُ مُضَرَّسٍ، ولا مُحَدَّبٍ، ولا مُنْحَدِرٍ. ويَظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ شَقًّا عَلَىٰ قَدْرِها، ضَامّاً لَهَا، وكان تَوْقِيتُ وصُولِها إِلَيْهِ بالعنايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ، مع تَنَاقُصِ الماء الّذِي يَجْعَلُهَا في الشِّقِّ مُلاصِقَةً لِلْأَرْضِ، ومُحْتَبِسَةً في المكان المناسِبِ لاسْتِقْرَارِهَا مُسْتَوِيَةً قَائمة.

أَفَلَدَيْنَا كَلامٌ مُرادِفٌ يَدُلُّ على هَـٰذِهِ المعاني أَقَلُّ وأَدَقُّ وأَلْيَنُ لفظاً مِنَ التَّعْبِيرِ بِما جاء به: ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾؟!. ما أعْجَبَ البَيَان القرآنيّ؟!!.

السابع: «الإشارة» الاحْتِراسِيَّة، في قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إلى أنَّ المُهْلَكِينَ بالْغَرَقِ المَطْرُودِينَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ هُمُ الظَّالِمُونَ

فقط، دُونَ غَيْرِهِمْ ولَوْ أُهْلِكُوا مَعَهُمْ لِأَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَلَّفِين، مع الدَّلالَةِ علىٰ أنَّ الكُفْرَ والإفْسَادَ والْعِنَادَ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا أُغْرِقُوا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الظُّلْم، بَلْ هِيَ ظُلْمٌ عَظِيمٌ اسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ هٰذا الإهْلاكَ، واسْتَحَقُّوا عَلَيْهِ الطَّرْدَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

الثامن: «التَّنَاظُر» بَيْنَ صَدْرِ الآيَةِ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ وَبَيْنَ آخِرِها: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

التاسع: الانْسِيَابِيَّةُ، وحُسْنُ الرَّصْفِ، وحُسْنُ انتقاء الكلماتِ، والطَلاوَةُ الْجَمِيلة في مَقَايِيس الْجُمَل، إذْ تَسِيرُ عَلَى أمْوَاجٍ فيها كمالُ التَّلاؤُم، والْخُلُوُّ مِنْ أيَّةِ حَرَكَةٍ ناشِزَة.

فَلْنُلَاحِظْ ذلك في أمْواجِهَا الصَّوْتيّة، وفي مَحَطَّتِهَا الْخِتَامِيَّة، الَّتِي تَمْتَدُّ كَطَائِرٍ عِنْدَ الْهُبُوطِ، يأخُذُ حَرَكَةً مائِلَةً قَلِيلاً قَلِيلاً، ومُمْتَدَّةً بِتَبَاطُؤٍ، حتَّىٰ يَصِلَ إلىٰ الأرض، ولَيْسَ بَيْنَهُ وبَيْنَ السُّكُونِ إلَّا أنْ يُلامِسَ الأرض.

فمنْ عُنْف الأمْرِ في: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ إلى تناقُصِ الماءِ رُوَيداً رُوَيداً في: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ إلى سُكُونِ اسْتواءِ السَّفِينَة فِي: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ إلىٰ رِصيف الْهُبُوطِ المنْسَابِ دُونَ عُنْفٍ بَعْدَ طَلْعَةٍ غَائِرَةٍ عَلىٰ الْعُدُوّ نَاجِحَةٍ في: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

إنّ رِحْلَةَ النَّجاةِ فِي بَحْرٍ لُجّيٍّ ضِمْنَ أَمْواجٍ كالجِبالِ، وأمْطارٍ تَصُبُّ

صَبًّا كالجداولِ، إِذْ فَتَحتِ السَّماءُ أَبْوَابَها، قَدْ أَنْسَتْ نُوحاً حَالَ ابْنِهِ الَّذِي حَالَ الْمَوْجُ بَيْنَهُما.

لقَدْ صَرَفَتْه عَنْهُ أَهْوَالُ الرِّحْلَةِ الْمُخِيفَةِ الْقَاسِيَةِ، فَلَمَّا حَطَّتِ السَّفِينَةُ عَلَى الجُودِي مُسْتَوِيَةً مُسْتَقِرَّةً، وذَهَبَ الرَّوْعُ والْقَلَقُ الصَّارِفُ لِلأَفْكَارِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الانْشِغَالُ بأَحْدَاثِ الْوَضْعِ الْقَائم، عِنْدَئِذٍ تَوارَدَتْ عَلَىٰ نُوحٍ ذِكْرَيَاتُ أَرْضِهِ وَبَلَدِهِ وقَوْمِهِ، وَذِكْرَىٰ ابْنِهِ الَّذِي لَمْ يَدْرِ مَاذَا حَصَلَ لَهُ، فتفجَّرَتْ عَاطِفَةُ الأُبُوَّةِ الَّتِي فَطَرَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِي قُلُوبِ الآبَاءِ، فالْتَجأَ إِلى رَبِّهِ مُنَادِياً:

• ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾: أي: ونَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ نداءَ اسْتِغَاثَةٍ مَقْرُونَةٍ بانْفِعَالِ الخضوع والتَّضَرُّعِ والتَّذَلُّل. دَلَّ على هٰذا كلمة [نَادَىٰ] إِذْ لَوْ كَانَ مَا قَالَهُ سُؤَالاً عَادِيّاً هَادِئاً لكانَ المناسِبُ التَّعْبير بنَحْوِ «وَدعا» لكِنَّ الأَمْرَ كان نِداءً، فَهُو يَحْملُ معْنَىٰ التَّلَهُّفِ، وهو من رَسُولٍ حَلِيم، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقْتَرِنَ بالْخُضُوعِ والتَّضَرُّعِ والتَّذَلُّل. فقال في ندائه القَلْبيّ: «رَبِّ» أي: يَا رَبِّ، ولَمْ يَذْكُرْ أَدَاةَ النداء في لفظه، لِأَنَّ الأَصْلَ في دُعَاءِ الرَّبِّ عَدَمُ استعمال أداة النّداء، إذ اللهُ عَزَّ وجَلَّ قَرِيبٌ مِنْ عباده قُرْباً لَا يُحْتَاجُ مَعَه إلى أداة نداء، باستثناء أحوال خاصَّةٍ تَدُلُّ فيها الأداةُ على الاستغاثة من أجْلِ الدّين.

• ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾: أي: إنَّ ٱبني من أَهْلي الَّذِينَ وَعَدْتَنِي أَنْ تُنْجِيَهُمْ، وإِنَّ وَعْدَكَ هُوَ الْوَعْدُ الْحَقُّ الّذي لَا يُمْكِنُ أَنْ يُخَالِفَهُ الْوَاقِعُ.

ولَعَلَّهُ ظَنَّ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ رُبَّما يَكُونُ قَدْ أَنْجَاهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ غَيْرِ الرُّكُوبِ مَعَهُ في السَّفِينَةِ.

• ﴿... وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾: أي: وإنْ كُنْتَ أَنْجَيْتَهُ بِوَسِيلَةٍ أُخْرَىٰ، أو كُنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَهُ مع المغْرَقِينَ، فَأَنْتَ أَحْكَمُ الحاكِمِينَ، لَا

تَحْكُمُ إلَّا بما هو الحقُّ والخيْرُ، لأنَّكَ عَلِيمٌ بعِبَادِكَ، لا تَخْفَىٰ عَلَيْكَ مِنْهُمْ خَافِية.

لنَا أنْ نَفْهَمَ مِنْ هَـٰذا النصِّ هَـٰذا الّذي سبَقَ أَنْ شَرَحْتُه، لأنَّه لم يَسْبِقْ في دَلاَلَتِهِ أَنَّ نُوحاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ سَبَقَ لَهُ عِلْمٌ بأنَّ ابْنَهُ هَـٰذا قَدْ كَانَ مَحْكُوماً عَلَيْهِ بأنَّهُ مِن المغْرَقِين، أَوْ بأنَّهُ قَدْ كانَ من الكافِرِينَ، بَلْ جَاءَ في سَوابقِهِ بَيَانُ أَنَّهُ كَانَ في مَعْزِلٍ، أي: هُو مَسْتُورُ الحال، ورُبَّما كانَ قَدْ تَسَتَّرَ بحالِهِ عَنْ أبيهِ وقومه، ولَمْ يُخْبِرْهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بحَقِيقَةِ أَمْرِهِ في باطِنه، فَوَقَعَ في نَفْسِهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنَ الكافِرِينَ، فالْوَعْدُ بالنَّجَاةِ ضِمْنَ أَهْلِهِ النَّاجِينَ يَشْمَلُهُ، وَيَبْدُو أَنَّه لمَّا كَانَ فِي بَعْضِ أَهْلِهِ مَنْ هُمْ مُجَاهِرُونَ بِكُفْرِهِمْ كَزَوْجَتِهِ الَّتِي قيل: إنَّهَا أمُّ «يَام» الَّذِي كانَ كافراً، حَمَلَ الاسْتِثْنَاءَ عَلَيْهِمْ، ولَمْ يَسْأَلِ اللهَ بِشَأْنِهِم شيئاً.

هنا أَعْلَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نُوحاً عليه السلام بحَقِيقَة حال ٱبْنِهِ هَـٰذا، وأَبانَ لَهُ أَنَّهُ كانَ كافراً، وأَنَّ عَمَلَهُ كانَ عملاً غَيْرَ صَالحٍ، فَهُوَ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُغْرَقين:

- ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

أي: قال الله عَزَّ وجَلَّ: يا نُوحُ إنَّ ٱبْنَكَ هَـٰذا لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ الَّذِينَ وعَدْتُكَ بنجاتهم، أَوْ لَيْسَ مِنْ أهْلِكَ مُطْلَقاً، لأَنَّهُ بِكُفْرِهِ الإرادِيّ قَدْ قَطَعَ صِلَتَهُ بِكَ، فأَخْرَجَ نَفْسَهُ باختيارِهِ من دَائِرَةِ أَهْلِكَ.

وَهَـٰذا يَدُلُّ علىٰ أَنَّ الكُفْرَ يَقْطَعُ حُقُوقَ الصِّلاتِ النَّسَبِيَّة، فَلَا يَكُونَ لِلْكَافِرِ مِنْ قرابَتِهِ المؤمنِينَ حِمَايَةٌ، ولَا نَفَقَةٌ واجِبَةٌ، ولا ميراثٌ، وَلَا نحو ذلِكَ مِنْ حقُوق.

- قرأ جمهور القرّاءِ الْعَشَرَة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ﴾: أي: هُوَ كُلُّهُ

بِسَبَبِ كُفْرِهِ عَمَلٌ غَيْرُ صالح، وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الكُفْرَ الإرادِيَّ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ فاسِدٌ، وهُو لَا يَنْتُجُ عَنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ مُعْتَبَرٌ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، فَمَنْ فَسَدَ قَلْبُهُ وفَسَدَ اعْتِقَادُهُ فَسَدَ سَائِرُه، ثُمَّ يَفْسدُ كُلُّ عَمَلِهِ.

• وقرأ الكسائيُّ ويَعْقُوب: [**إِنَّهُ عَمِلَ غَيْرَ صَالِح**]: أي: إِنَّهُ عَمِلَ في الحياة الدُّنْيَا عملاً غَيْرَ صَالِحٍ، وذَٰلِكَ مَا كان يَرْتَكِبُهُ فِي عُزْلَتِه مِنْ قَبَائِحَ ورَذَائِلَ مع كُفْرِهِ.

فَدلَّتِ القراءتانِ بالتكامُلِ الدّلاليّ بيْنَهُمَا على فَسَادِ اعتقاده، وفساد سُلُوكه، وهذا من الإيجاز في القرآن المجيد.

ودَلَّ هَـٰذا البيانُ باللُّزُوم الفِكْريّ على أنَّ ٱبْنَ نوح هَـٰذا قد شملَهُ الغرقُ، فكان من الهالكين، لأنَّهُ كان من الكَافِرينَ ومِنَ الفاسِقين في حقيقة أمره.

ونَهَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نوحاً عليه السلام في هَـٰذِهِ الآيَةِ عَنْ أَنْ يَسْأَلَ رَبَّهُ مُسْتَقْبَلاً عمَّا يَجْرِي في تَصَارِيفِ اللهِ مِنْ أُمُور يَجْهَلُ نُوحٌ بواطِنَها، فالله عَزَّ وجَلَّ عَلِيم ببواطِنِ وظواهِرِ الأمور كُلّها، حَكِيمٌ في أَمْرِهِ كُلِّه، وكان هذا زِيادَةً تَعْلِيمِيَّةً لنُوحٍ دَعَتْ إليها المناسبة، وهي تَعْلِيمِيَّةٌ لكلِّ مُتَلَقٍّ للقرآن المجيد أيضاً.

أي: إذا كُنْتَ لَا تَعْلَمُ بواطِنَ الْأُمُور، وقَدْ رأيْتَ مِنْ تَصارِيفِ رَبّكَ شيئاً عَلَىٰ خِلافِ مَا تَرْغَبُ فيه، بحَسَبِ رَغبات نَفْسِكَ وعَواطِفِكَ، فَكُنْ عَلَىٰ ثِقَةٍ تَامَّةٍ بأنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حكيمٌ، وأنَّ تصاريفَهُ تَجْرِي عَلَىٰ وَفْقِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ.

• ﴿... إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: أُؤَكِّدُ لَكَ يَا نُوحُ التوجيهَ والنُّصْحَ بهَـٰذِهِ الموعِظَةِ الَّتِي تَضَمَّنَها قَوْلي لَكَ: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا

لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ فَدَلَّ هَـٰذا علَىٰ أنَّ النَّهْي نَهْيُ مَوْعِظَةٍ وإِرْشَادٍ للمسْتَقْبل، لَا نَهْيُ تَأْنِيبٍ على مَا مَضَىٰ.

والمعنى: إنّي أعِظُكَ دَفْعَ أَنْ تَكُونَ في المستَقْبَلِ مِنَ الجاهِلِينَ بهَـٰذِهِ الحقيقةِ، فَتَسْأَلَنِي مُستقْبَلاً سُؤالاً تُطالِبُنِي فِيه بأمْرٍ على خِلَافِ مُقْتَضَىٰ عِلْمِي وحِكْمَتِي وَعَدْلِي، مَهْمَا كَانَتْ دَوافِعُكَ الْعَاطِفِيَّة.

أَوْ إِنِّي أعِظُكَ نَاهِياً لَكَ عَنْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجاهِلِين، هذا الوجْهُ على تَضْمِينِ فعل ﴿أَعِظُكَ﴾ معْنَىٰ فِعْلِ «أنْهاكَ».

إنَّ هَـٰذا البيان الرَّبَّانِيَّ يَتَضَمَّنُ التَّوْجِيهَ للرِّضَا التَّامِّ عَنِ اللهِ عزَّ وجَلَّ فيما تَجرِي به مَقَادِيرُهُ وأحْكَامُهُ، مَهْما كانَتْ صَادرَةً ضِدَّ أَقْرَبِ الناسِ رَحِماً.

عنْدئِذٍ لَمْ يَكُنْ مِنْ نُوحٍ عليه السَّلام إلّا أنْ قَالَ لِرَبِّهِ مَا جَاءَ بيانُهُ في الآيَةِ التالية:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: قالَ نوحٌ عليه السَّلامُ لِرَبِّهِ: رَبِّ إِنِّي ألْجَأُ إِلَيْكَ عَائِذاً بِكَ مِنْ أَنْ أَنْدَفِعَ في المسْتَقْبَلِ مَعَ عَوَاطِفِي فَأَسْأَلَكَ سُؤَالَ مُتَسَرِّعٍ فِي أيِّ أَمْرٍ لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ، أُخَالِفُ فِيهِ مقْتَضَىٰ عِلْمِكَ وحِكْمَتِكَ، بَلْ أَدَعُ مَا أَجْهَلُهُ لِعِلْمِكَ وَحِكْمَتِكَ، وأَنْتَ سُبْحَانَكَ تَقْضِي بالْخَيْرِ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُه.

وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهُ يَنْبَغِي للمؤمِنِ أَنْ لَا يَسْأَلَ رَبَّهُ أمراً يَجْهَلُ هَلْ هُو خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ؟.

فالإنْسَانُ قَدْ يَدعو بالشَّرِّ أَوْ بالضُّرِّ، أو بما يُنافِي الْحِكْمَةَ والْعَدْلَ ظَانًّا أَنَّهُ يَدْعُو بالخير أو بالنَّفْع، أو بما فيه للهِ عَزَّ وجَلَّ رِضاً، وذلِكَ مِنْ قُصُورِ عِلْمِه، ومِنْ جَهْلِهِ بِبَواطِنِ الْأُمُور وعواقِبها. ودافِعُهُ إلى ذَلِكَ رَغْبَةٌ

عَمْيَاء، وَعَجَلَةٌ هَوْجاء، تُوَجِّهَانِ إرادَتَهُ إلى طَلَب مَا لَا خَيْرَ لَهُ فِيه، كما قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الإسْراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾.

وَلَمَّا كَانَ نِداءُ نوح عليه السَّلامُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ فِيهِ تَسَرُّعٌ مَبْنِيٌّ على غَيْرِ عِلْم بِحَقِيقَةِ حَالِ ٱبْنِهِ، فَقَدْ رَأَىٰ نَفْسَهُ بِهَٰذا التَّسَرُّع في الدُّعَاءِ مُرْتَكِباً مَا يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَغْفِرَ الله مِنْهُ، قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ: ﴿... وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾:
أي: وَإِنْ تُحَاسِبْنِي عَلَىٰ خَطِيئَتِي هَٰذِهِ وسَائِرِ خَطِيئاتي، وَإِنْ لَا تَغْفِرْ لِي مُتَجَاوِزاً عَنِّي، وَلَا تَرحمْنِي بِرَحْمَتِكَ، أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ الَّذِي يَخْسَرُونَ بَعْضَ مَنَازِلَ رَفِيعَةٍ يَسْتَحِقُّهَا أَهْلُ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ مِنَ الْمُرْسَلِينَ أُولي الْعَزْم.

وقَدْ عَلَّمَنَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ بهذا كَيْفَ يَكُونُ أدَبُ الْمُرْسَلِينَ مع رَبِّهِم، لِنَتَّخِذَهُمْ أُسْوَةً لَنا.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبيِّنًا مَرْحَلَةَ الْهُبُوطِ من السَّفِينَةِ إِلَىٰ اليابِسَة:

• ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾:

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ قَدْ مَرَّ زَمَنٌ مَا والْفُلْكُ واقِفَةٌ ثَابِتَةٌ بِشَكْلٍ مُسْتَوٍ عَلَىٰ المكان الّذِي احْتَضَنَهَا مِنْ جَبَلِ الْجُودِي، والماء يَتَنَاقَصُ مِنْ حَوْلِها شَيْئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ انْكَشَفَ مِنَ الْأَرْضِ مَا يصلُحُ لِلْهُبُوطِ عَلَيْهِ، وصَارَ جَافًّا يَابِساً لَا وَحلاً وَلَا زَلِقاً، عِنْدَئِذٍ جَاءَ الأمرُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِنُوحٍ بالْهُبُوطِ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ المكانِ الّذِي جَفَّ مِنْ ظَهْرِ الْجُودِي.

والمعنَىٰ: قِيلَ لِنُوح مِنْ قِبَلِ الْوَحْي: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ... ﴿٤٨﴾﴾: أي: يَا نُوحُ اهْبِطْ مِنَ الْفُلْكِ إِلَىٰ الْأَرْضِ اليابسَة، أنْتَ وَمَنْ مَعَكَ، وَمَا مَعَك من البهائم، مَصْحُوبِينَ

بِسَلَامٍ نَحْنُ نُسَلِّمُكُمْ بِهِ فَضْلاً مِنَّا، فَلَا تجِدُونَ مَا تكرَهُونَ، مِمَّا يُعَكِّرُ صَفْوَ أَمْنِكُمْ، ومَصْحُوبِين بِبَرَكَاتٍ مُتَنَوِّعَاتِ الخيراتِ، مِمَّا نَمُنُّ بِهِ عَلَيْكَ، وَعَلَىٰ أُمَمٍ سَتَتَنَاسَلُ مِمَّنْ مَعَكَ، هي أُمَمٌ صَالِحةٌ مُؤْمِنَةٌ مُسْلِمَة.

الباءُ في: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ لِلْمُصَاحَبَة، وحُذِفَ لفْظُ «عَلَيْكَ» من العبارة الأولى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ وَحُذف لَفْظُ «مِنَّا» في العبارة الثَّانية ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ لِدَلَالَةِ مَا فِي كُلِّ مِنْهُمَا عَلَىٰ المحْذُوفِ فِي الْأُخْرَىٰ، وهذا النوع من الحَذْفِ يُسَمَّىٰ عِندَ الْبَلاغِيينَ «الاحْتِبَاك».

ومعنى: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ بأمْنٍ مِنَّا، وهَـٰذا الْأَمْنُ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُطْلَب فيه الأمْنُ، كالْأَمْنِ مِنَ المُهْلِكَاتِ، وَمِنْ كُلِّ ذِي شرّ، وكالْأَمْنِ من الْمَوتِ جُوعاً أَوْ عَطَشاً، والْأَمْنِ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ الْقَاتِل، وشِدَّة الحرِّ القاتل، ونحو ذلك.

﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾: دَلَّ الْجَمْعُ عَلَىٰ أَنْوَاعٍ من الْبَرَكَات، والبركَةُ هِيَ الزِّيَادَةُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ عَنْ قَدْرِ الحاجَةِ وَالضَّرُورة، فَتَشْمَلُ الْبَرَكَاتُ الزِّيَادَة فِي خَيْرَاتِ الْأَرْضِ مِنَ الزُّرُوعِ والثمار، والزِّيَادَة مِنْ خيراتِ مَطَاعِمِ صَيْدِ الْبَرِّ والْبَحْر، وغيرَ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَمْتِعُ بِهِ النَّاسُ في الحياة الدُّنيا، حتَّىٰ الصِّحَّة النَّفْسِيَّة، وطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ وسَعَادته.

وحَرْفُ «عَلَىٰ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ السَّلَامَ والبَرَكَاتِ فَيْضٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مَحفُوفٌ بِعِنَايَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَدْخُلُ مَنْ مَعَهُ في عُمُومِ خِطَابِ الله لهُ بعِبَارَة: ﴿عَلَيْكَ﴾ أوْ في العبارة مَحذُوف مُقَدَّرٌ، تَقْدِيرُهُ: «وَعَلَىٰ مَنْ مَعَكَ» بِدَلِيلِ قَولِ اللهِ عَقِبَ ذَلِكَ: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: أي: وعَلَىٰ أُمَم تَتَفَرَّعُ وَتَتَوَزَّعُ في الْأَرْضِ هُمْ سُلَالَاتٌ مِمَّنْ مَعَكَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ، لِأَنَّ اللهَ جَعَلَ ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ مِنْ قَوْمِهِ بَعْدَ الطُّوفان، ولَكِنَّ هَـٰذِهِ الْأُمَمَ الَّتِي سَتَأْتِي سُلالاتٍ من الّذِينَ مَعَهُ، لَيْسوا كُلَّ سُلَالَاتِ الّذِين مَعَهُ، بَلْ هُمْ بَعْضُها،

لهذا جاء اللّفْظ مُنْكَّراً: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾ وقَدْ دَلَّ التَّاريخ المستَقْبَلِيُّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أتباعُ رُسُلِ رَبِّهم، الّذِين آمَنوا باللهِ وبِرُسُلِهِ، واتَّبعوا ما أَنْزَلَ اللهُ لَهُمْ.

أمَّا أُمَمٌ أُخْرَىٰ مِنْ ذُرِّيَّاتِهِ، فَقَدْ ذَكَرَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بقَوْلِهِ:

﴿... وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: وَأُمَمٌ أُخْرَىٰ هُمْ أيضاً سُلالاتٌ مِمَّنْ مَعَكَ، لا يَشْمَلُهُمْ فَضْلُ السَّلَامِ والبركاتِ، ولَكِنْ سَنُمتِّعُهُمْ قَلِيلاً مَتاعاً دُنْيويًّا مُعَجَّلاً، على مَقَادِيرِ أَزْمِنَةِ ابْتِلَائِهِمْ في الحياة الدُّنيا، وهُمْ مَهْمَا أَصابُوا مِنْها فَهُو قَلِيلٌ ضئيلٌ بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الآخِرَةِ، وبَعْدَ هَـٰذا المتاعِ الْقَلِيل الضئيل في الحياة الدُّنيا، تَأْتِيهِمْ مَنايَاهم، ثُمَّ يُلاقُونَ يَوْمَ الدِّين حسابَهُمْ بالْعَدْلِ علَىٰ مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ، وَبَعْدَ حِسَابِهِمْ وفَصْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، يُنَفَّذُ بأَمْرِ اللهِ عِقَابُهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَشُرُورِهِمْ الَّتِي قَدَّمُوها في الحياة الدُّنيا، وعِنْدَئِذٍ يَمَسُّهُمْ مِنَ اللهِ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ الأَخِيرَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾.

وبَعْدَ أَن انْتَهَىٰ فَصْلُ اللَّقَطاتِ المختاراتِ مِنْ قِصَّةِ نُوحٍ وَقَوْمِهِ في سُورَة (هود) خَاطَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ بِقَولِهِ:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: تِلْكَ أَنْباءٌ عَنْ نُوحٍ وَقَوْمِهِ هِيَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ عَنْكَ يَا مُحَمَّدُ نُوحِيهَا إِلَيْكَ، وَقَدْ سمَّاهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْباءً لِأَنَّها ذاتُ شَأْنٍ، فهي تَبْرُزُ عَلَىٰ غَيْرِها من أنْباءٍ لَيْسَ لَهَا مِنَ الشَّأْنِ الخطير مِثْلُ مالها.

وهَـٰذِهِ الأنباء مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُوحِيها إِلَيْكَ، لِأَنَّهَا لَيْستْ مِنَ الأَخْبَارِ الَّتِي كان الْعَرَبُ عَلَىٰ عِلْمٍ بها، إِذْ لَوْ كانُوا على عِلْمٍ بها لَتَداوَلُوهَا بَيْنهم.

أمَّا عِظَةُ هَـٰذِهِ القِصَّةِ للرَّسُولِ وَلِقَوْمِهِ الّذِينَ كَفَروا بِهِ وكَذَّبُوهُ وآذَوْهُ وَيُدَبِّرونَ لَهُ المكايِدَ، ويَضطهدون الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، فَقَدْ أبانها اللهُ عزَّ وجَلَّ بِقَولِهِ لِرَسولِهِ وَيُلْحَقُ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه: ﴿... فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾: أي: فاصْبِرْ يَا مُحمَّدُ عَلَىٰ أذى قَوْمِكَ، ولْيَصْبِرِ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ، فالْعَاقِبَةُ بالنَّصْرِ والظَّفَرِ والتمكينِ في الأرض للمتقين، وكَذَلِكَ الْعَاقِبَةُ يَوْمَ الدِّين بِدُخُولِ جَنَّاتِ النعيم، خالِدِينَ فيها أبداً هي للمتّقِين أيضاً، وجاء الاستِغْنَاءُ بِذِكْرِ المتقين أصْحَابِ الْمَرْتَبَةِ الدُّنيا، عن ذِكْر الأبرار والمحسنين، لِأَنَّ الأبرار والمحسنين، هُمْ مُتَّقُونَ وزِيادَةٌ مِنْ مَرْتَبَةِ الأبرار، فَمَرْتَبَةِ المحسنين.

والْوَعْدُ بالْعَاقِبَةِ الحسْنَىٰ للمتَّقِين، يَتَضَمَّنُ الْوَعِيدَ لِأَعدائِهِمُ الكافِرين، إذْ يَحِلُّ بهم الخذلَانُ والْخَيْبَةُ والذُّلُّ والمهانَةُ فِي الدُّنيا، ثُمَّ يَحِلُّ بِهِمُ الخِزْيُ وَالصَّغَارُ، وعَذَابُ النار، يَوْمَ الدِّينِ فِي جَهَنَّمَ وبِئْسَ الْمَصِير.

وبهذا انْتَهَىٰ هذا الْفَصْلُ الْأَوَّلُ مِنْ فُصُولِ الدَّرس السادس من دُرُوس سورة (هود).

والحمد لله على مَدَدِه وتوفيقه ومَعُونَتِهِ وفَتْحه.



الفصل الثاني من الدرس السادس
لقطات من قصة (هود عليه السّلام وقومه)
الآيات من (٥٠ ـ ٦٠)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي

فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾.

تمهيد:

هذا هو النصّ الثامن من النصوص الّتي جاءت في القرآن بشأن عادٍ قوم النبيّ الرَّسُول هود عليه السلام من أصل (٢٠) نصًّا جاءت في سور القرآن المجيد، ودراستُها دراسَةً تكامليَّة تدبُريَّةً تَحتَاجُ بَحْثاً مُسْتَقِلًّا[١].

وأقْتصر هُنَا على تدبّر فقراتِ هذا النصّ مستعيناً بالعزيز الفتَّاحِ الوهَّاب.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

- ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

(١) انظر الملحق الثاني من ملحقي تدبر هذه السورة.

• قرأ الكِسَائي، وأبو جَعْفر: [مَا لَكُم مِّنْ إلهٍ غَيْرِهِ] بِجَرِّ لفظ «غَيْرِه» مُرَاعَاةً للَفْظِ «إلَهٍ» المجرُور بحَرْف الجرّ الزائد لتوكيد عُمُوم النفي.

وقرأها بَاقِي الْقُرّاء العشَرَة [غَيْرُهُ] بالرَّفْع مراعاة لمحَلِّ لفظ ﴿إِلَـٰهٍ﴾ الذَّي هو الرَّفْعُ لأَنَّهُ مُبْتدأ.

عَاد: قَوْمٌ مِنَ الْعَرَب كانت مساكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحْقَافِ» من جنوب شِبْهِ الجزيرَةِ العربيَّة، وهيَ تَقَعُ في شَمال «حضْرَمَوت» ويَقَعُ في شَمَالِ الأحْقَافِ مَا يُسَمَّىٰ «الرّبْع الخالي» وفي شَرْقِها «عُمان»، وموضع بلادِهِمُ الآنَ رِمَالٌ قَاحِلَةٌ لَا أنيسَ فيها ولا دَيَّار.

وقد أرْسَلَ اللهُ إلَيْهِم رسُولاً مِنْهُمْ، هو «هُودٌ» عليه السّلام بْنُ عبد الله بْنِ رَبَاحِ بْنِ الْخُلُودِ بن «عادٍ» جَدّ هؤلاء القوم، على ما يَذْكُرُ أهْلُ التّاريخ، وينْتَهِي نَسَبُهُمْ إلى «سَام» بن «نوح» عليه السلام.

وتُعْتَبَرُ «عادٌ» من الْعَرَب البائِدَة، باسْتِثْنَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهم، وأنجاهم اللهُ عَزَّ وجَلَّ مَعَ رَسُولِهِمْ من الْهَلَاكِ الشّامِلِ الذي نَزَلَ بِكُفَّارِ قومهم.

وكانوا أشداء أقْوياء ممَّنْ زَادَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَسْطَةً في الْخَلْق، وكانوا مُتْرَفين، وكانوا أهْلَ بَطْشٍ جَبَّارِين، وكانت لهم أوثان يَعْبُدونها من دون الله هي: «صَدَاء ـ صَمُود ـ الْهَبَاء» على ما روى الطبري.

وكانوا يُنْكِرُون الدّار الآخِرَة ويقولون: إنْ هي إلَّا حياتُنا الدنيا نموتُ ونَحْيا وما نَحْنُ بمَبْعُوثِينَ.

• ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلَىٰ «عَادٍ» أخاهُمْ «هُوداً» نبيّاً وَرَسُولاً، وقد كانَ «هودٌ» عليه السلام مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً.

هذه العبارة معطوفَةٌ على مَا جاء في أوّلِ قصّة نوحٍ في السورة، وهو

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾.

• ﴿... قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ... ﴿٥٠﴾﴾:

أي: قَالَ هُود عليه السّلام مُتَلَطِّفاً بِقَوْمِه، ومُنَادِياً لَهُمْ بِصَوْتٍ جَهِيرٍ: يَا قَوْمِ (أصْلُهَا: يَا قَوْمي، حُذِفَتْ مِنْهَا ياء المتكلِّم وهَـٰذا جَائِزٌ في العربيَّة).

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوه وَحْدَهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحداً ولَا شيئاً، إذْ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ حَقٍّ هُوَ رَبٌّ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ رَبُّكُمْ بأنْ تَعْبُدوا مِنْ دُونِهِ أَحداً، وَجَعَلَ عِبادَةَ غَيْرِهِ مِن دُونِهِ شِرْكاً به، وهَـٰذا كُفْرٌ يَسْتَوْجِبُ الْخُلُودَ في عَذَابِ النَّارِ يَوْمَ الدِّين.

العِبادَةُ: هي الخضُوعُ والطَّاعَةُ وَالْقِيَامُ بِمَا يُرْضِي المعْبُود، وتَرْكُ مَا لَا يُرْضِيهِ، ورأسُ العبادَةِ الدُّعَاءُ بالغيْبِ لمطالِبِ الدنيا والآخرة، وأَبَانَ دينُ اللهِ للنَّاسِ أعْمَالاً تَعَبُّدِّيَّةً خاصَّةً بِعِبَادَةِ اللهِ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه ـ مِنْهَا الصَّلاة، والزَّكاة، والصِّيام، ومناسِكُ الحجّ والعمرة، إلى غير ذَلِكَ ممَّا لَا يُوَجَّهُ إلَّا للهِ عَزَّ وجَلَّ.

• ﴿... إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: مَا أَنْتُمْ بِعِبَادَتِكُمْ أشْياءَ مِنْ دُونِ اللهِ اتَّخَذْتُمُوا آلِهَةً لَكُمْ، لِتُحَقِّقَ لَكُمْ مَطَالِبَ مِنْ دُنياكُمْ، إلَّا مُفْتَرُونَ علَىٰ حَقِّ رَبِّكُمْ عَلَيْكُمْ. فاتِّخَاذُ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الافْتِراءِ على اللهِ.

الافْتِرَاء: اخْتِلَاقُ الكَذِب، واصْطِنَاعُهُ عَنْ تَعَمُّدٍ، يُقَالُ لغة: «افْتَرَىٰ الحديث يَفْتَرِيهِ افْتراءً» أي: اختلَقَهُ كذِباً عنْ عَمْد، والاسْمُ منه «الفِرْيَةُ» وجَمْعُها «الْفِرَىٰ» وأصْلُ مَعْنَىٰ الْفَرْيِ قَطْعُ الْجِلْدِ، ومِنْهُ سُمِّيَ قَطَّاعُ الْجُلُودِ فَرَّاءً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابِعاً بَيانَ لَقَطَاتٍ ممّا قالَ هود عليه السّلامُ لِقَوْمه:

• ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾:

إضَافَةً إلَىٰ الْقَضِيَّةِ الَّتِي جَاءَت في الآيَة (٥٠) السَّابِقَةِ، وَهِيَ الأمْرُ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، جَاءَ في هاتين الآيتين (٥١) و(٥٢) بَيَانُ أنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَكَرَ لِقَوْمِهِ في دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلى دِينِ اللهِ الحقّ، سِتَّ قَضَايا:

القضيَّةُ الأُولَىٰ: بيان هود عليه السلام لقومه أنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ أجراً على دَعْوَتِهِ، لَا حَالاً وَلَا مُسْتَقْبلاً، حتَىٰ يَنْفِرُوا مِنْ دَعْوَتِهِ ويَتَّهِمُوهُ بالمصْلَحَةِ الشَّخْصِيَّة الدُّنْيَوِيَّة، إنَّمَا يَبْتَغِي أجْرَهُ مِنَ اللهِ الَّذِي فَطَره، دَلَّ على هَـٰذِهِ القَضِيَّة: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾:

يَظْهَرُ أنّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ شَعَرَ مِنْ بَعْضِ أقْوَالِ مَلأ قومِهِ وكُبَرَائِهِمْ، أنَّهُمْ يَتَّهِمُونَهُ بأنَّهُ يَسْعَىٰ إلى مَصَالِحَ شخْصِيَّةٍ في قَوْمِهِ مِنْ وَرَاءِ دَعْوَتِهِ، فأبَانَ لَهُمْ أنَّهُ على خِلَافِ ذَلِك، لَكِنَّهُ غَيْرُ مُتَجَرِّدٍ تَمَاماً مِنْ طَلَبِ الْأَجْرِ، إلّا أنَّ الْأجْرَ الَّذِي يَطْلُبُهُ لَا يَطْلُبُهُ إلَّا مِنْ رَبِّهِ الَّذِي فَطَرَهُ، وهو الَّذِي اصْطَفَاهُ نَبيًّا وَرَسُولاً إلَىٰ قَوْمِهِ عَاد، وكلَّفَهُ تبليغَ رِسالَاتِهِ لَهُمْ.

«إنْ» في ﴿إِنْ أَجْرِىَ﴾ حرف نفي مثل «ما»: أي: ما أَجْرِيَ إلَّا عَلَىٰ الَّذِي فَطَرَنِي.

فَطَرَني: أي: خَلَقَني على نِظَامِ الْفَطْرِ، وهو الشّقُّ وإبْدَاعُ الشيْءِ مِنَ الْعُمْقِ، لِأَنَّ النُقْطَةَ الْقُصْوىٰ في عُمْقِ الأشياء هي الْعَدمُ، واللهُ وَحْدَهُ جلَّ جَلالُهُ هُو الخالِقُ مِنَ العَدَم.

في ياء المتكلّم من ﴿أَجْرِىَ﴾ ومن ﴿فَطَرَنِىٓ﴾ قراءتان الفتح والإسكان.

القضيَّة الثانية: حَثُّ هُودٍ عَلَيْهِ السّلام قومَهُ على أنْ يَعْقِلُوا بأسْلُوب الاستفهام، مع تَلْوِيمِهِمْ عَلَىٰ أنَّهُم لَا يَعْقِلُونَ، دَلَّ على هذه القضية من النّصّ: ﴿... أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾: أي: اعْقِلُوا ولَا تُجَانِبُوا مَنْهَجَ الْفَهْم السَّدِيد، والْعَقْلِ الرَّشيد.

الْعَقْلُ: عَقْلان: عَقْلٌ علمي، وعَقْلٌ إرادي، وكلاهُمَا مأخوذَان من الرَّبْط.

فالْعَقْل الْعِلْمِيّ: يكون باسْتِخْدام قُوى الْإدْراكِ والْفَهْم في مَعْرِفَةِ حَقَائِقِ الْأُمُور فَهْماً صَحِيحاً مُطَابِقاً لما هِيَ عَلَيْهِ في الواقِع، وعَقْلِها في الذَّاكِرَة، لِتَكُونَ دَافِعَةً إلى السُّلُوكِ الْقَويم المؤدّي إلى النتائج الْفُضْلَىٰ.

والْعَقْلُ الإرَادِيُّ: يَكُونُ باسْتِخْدامِ الإرَادَةِ الْحُرَّةِ الَّتِي وَهَبَهَا اللهُ للإنْسَان، فِي عَقْلِ أهوائِهِ وشَهَوَاتِهِ وَرَغَبَاتِ نَفْسِه، عَنِ الانْحرافِ والخروج عَنْ صِرَاطِ اللهِ المسْتَقِيم عَقِيدَةً وعَمَلاً.

القضيَّة الثالثة: دَعْوَةُ هُودٍ عَلَيْه السلام قَوْمَهُ إِلَىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ مِمَّا سَلَفَ مِنْهم من شِرْكٍ، باتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ الله، ومِنْ أنواع سُلُوكٍ هي من لوازم عَقِيدَةِ الشِّرْك، كالفِسْق والفجور، والظُّلْم والْعُدْوانِ وأكْلِ أَمْوالِ النَّاسِ بِغَيْرِ حَقّ.

الاسْتِغْفَارُ: طَلَبُ سَتْرِ الذُّنُوبِ والمعاصِي السَّابِقَةِ، سَتْراً يَقْتَضِي التجاوُزَ عَنْها، وعَدَمَ المؤاخَذَة عليها.

والدَّعْوَةُ إلى الاسْتِغْفار مِنَ الذُّنُوب تَتَضَمَّنُ باللُّزُوم الْفِكْرِي الكَفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الْوُقُوعِ بِمِثْلِها، وإلَّا لَمْ يَكُنْ للاسْتِغْفار معْنًى ولا جدْوىٰ.

دلَّ على هذه القضية مِنَ النّصّ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾.

القضية الرابعة: دَعْوَة هُود علَيْهِ السَّلَامُ قَوْمَهُ إِلَىٰ أَنْ يَتُوبُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ،

بالرُّجُوعِ الْفِعْلِيّ إلَيْه، يَعْبُدُونَهُ لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ أحداً ولَا شيئاً، وبطَاعَتِهِ في أوامره وفي نواهيه. دلّ على هذه القضيَّة من النّصِّ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾:

التوبَةُ: هِيَ الرُّجُوع، يُقَالُ لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، ومَتَابَةً، وتَابَةً» أي: رَجَعَ، وَيقال: «تاب الْعَبْدُ إلى رَبِّه» أي: رَجَعَ إلىٰ الطاعة والاستقامة بَعْدَ المعْصِية.

ودَلّ العطف بحرف العطف «ثُمَّ» علَىٰ أنَّ المرادَ الرُّجُوعُ الْعَمَلِيُّ الْفِعْلِيّ بتَجْدِيدِ الإيمانِ الصَّحِيحِ، ومُتَابَعَةِ تأدِيَةِ الأعْمَالِ الصَّالِحَة.

القضيَّة الرابعة: وَعْدُ هُودٍ عليه السَّلامُ قَوْمَهُ بأَنَّهُم إذَا استغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَابُوا إلَيْهِ بتَجْدِيد الإيمان دَواماً، وبالمواظَبَةِ على الأعمال الصَّالِحَةِ الَّتي تُرْضِيهِ، فَإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُرْسِلُ لَهُمْ أمْطَارَ السَّمَاءِ النافِعَة بِغَزَارَةٍ لإنْبَاتِ زُرُوعِهِمْ، وإكْثَار الخيرات لَهُمْ مِنَ الثمراتِ المختَلِفَات الأنواع والأصْنَاف. دلَّ على هذه القضيَّة مِنَ النّصّ: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾:

مِدْراراً: أي: كَثِيرَة الدَّرِّ، يقال لغة: «سَحَابٌ مِدْرار» أي: كَثِيرُ السَّحِّ من المطر. ويقال: «عَيْنُ مِدْرَار» أي: كَثِيرَةُ الدَّمْع. **مِدْرار**: تُقَال «للذكر والأنْثى» هو مِدْرار، وهي مِدْرار.

يُرَادبالسَّمَاء السُّحُبُ في جَوّ الْأَرْض، وفي فِعْلِ «يُرْسِل» مَعْنَىٰ الْبَعْثِ لِلقِيَام بِوَظَائِفَ نَافِعَةٍ مُفِيدَةٍ للنّاس، وهو مجزوم على أنه جواب الطلب.

القضيَّة الخامِسَة: وَعْدُ هُود عليه السَّلام قومَهُ بأنهم إذا اسْتَغْفَرُوا رَبَّهُمْ ثُمَّ تَابُوا إليه، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَزِيدُهُمْ قُوَّةً مُضَافَةً إلَىٰ قُوَّتِهِمْ المتَفَوِّقَة، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ القضيَّة مِنَ النَّصّ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ الفِعْلُ ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ مَجزُومٌ لِأَنَّهُ مَعْطُوف على المجْزوم **[يُرْسِلْ]**.

ودَلَّتْ هَـٰذِهِ القضيَّة على أنَّ عَاداً كانُوا أشِدّاء أقْوِياء، فَإذا آمَنُوا واتَّقَوْا زَادَهُمُ اللهُ قُوَّةً وتَمْكِيناً.

القضيَّةُ السادسَة: نَهْيُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمَهُ عَنْ أنْ يَتَوَلَّوْا عَنْ دَعْوَتِهِ، مُدِيرينَ ظُهُورَهم ومبْتَعِدِينَ عن الإيمان والإسلام وطاعَةِ اللهِ في أوامره ونواهيه، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ كانُوا مُجْرِمين، دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْقَضِيَّةِ مِنَ النَّصِّ: ﴿... وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: أي: وَلَا تَتَوَلَّوْا حَالَةَ كَوْنِكُمْ بِتَوَلِّيكُمْ عَنْ دَعْوَةِ رَسُولِ رَبِّكُمْ إلَىٰ دِينَ اللهِ الحقّ مُجْرِمِين.

التَّوَلّي: الْإدْبارُ، وَقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بابتِعَادٍ وَنَأْي.

المجْرِم: المتَعَدِّي بِذَنْبٍ كبير، والْمُجرمُونَ في الاصْطِلَاحِ القرآني الكافِرون، الّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ في عَذَابِ النار يَوْمَ الدّين.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكايَةً لِمَعْنَىٰ بَعْضِ مَا رَدَّ بِهِ قَوْمُ هُودٍ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ لَهُمْ إلَىٰ دِين اللهِ الحقّ:

- ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ... ﴿٥٤﴾﴾:

اشتمَلَ هَـٰذا الرّدُّ علَىٰ أرْبع قَضَايَا، هي عُنْوَاناتُ مَقَالَاتٍ مُفَرَّقَاتٍ واجَهُوهُ بها.

الْقَضِيَّةُ الأُولى: قَوْلُهُمْ لَهُ: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أي: مَا جِئْتَنا بآيَةٍ بَيِّنَةٍ خارِقَةٍ مِمَّا طَلَبْنا مِنْكَ أَنْ تَأْتِيَ بِهِ، ولَعَلَّ مَقالَتَهُمْ هَـٰذِهِ كانَتْ فِي بِدَايَاتِ دَعْوَتِهِ لَهُمْ، ثُمَّ لمَّا جَاءَهُمْ بآيَةٍ مُعْجِزَةٍ جَحَدُوهَا كَمَا جَحَدَ كُفَّارُ جَمِيعِ الأَقْوَامِ مُعْجِزَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، زَاعِمِينَ أنَّهَا مِنْ قَبيلِ السِّحْر.

الْبَيّنَة: تَأْتِي بمعْنَىٰ الحجَّة، وبمعنى الرّسالَةِ الرَّبَّانِيَّة الواضحة، وتُطْلَقُ علىٰ الرَّسُول، وعَلَىٰ الصُّحُفِ والكُتُبِ المنزّلَة، وعلىٰ الآية الخارقة المعْجِزَة، وهذا المعنىٰ هو المرادُ هُنا فيما يَظْهر.

القضيَّة الثانية: قولهم له: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾:

سبق في تدبّر الآية (٥٠) أنَّهُمْ كانوا يَعْبُدونَ آلهة من الأوثان هي: «صَدَاء ـ وصَمُود ـ والْهَبَاء» على ما روى الطبري.

أي: وَمَا نَحْنُ بتاركي عبادة آلِهَتِنَا مِنَ الْأَوْثان، حَالَة كَوْنِنَا مُلَازِمِينَ الإعْراضَ عَنْ قَوْلِكَ غَيْرَ مُتَأَثِّرِينَ به، مَهْمَا حَاوَلْتَ إقْنَاعَنَا وإقَامَة الحجج علينا.

أو: وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهتِنَا تَرْكاً صَادِراً عَنْ تَأَثُّرِنَا بِقَوْلِكَ.

أو: وما نَحْنُ بتارِكي آلِهتِنَا رِضاً مِنَّا عَنْ قَوْلِكَ، فَقَوْلُكَ لَا يُرْضينا ولا يؤثِّرُ فينا.

القضية الثالثة: قولُهُمْ لَه: ﴿... وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾: أي: وما نَحْنُ بمُؤْمِنِينَ بِكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، ومَا نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ لك، مَهْمَا حَاوَلْتَ وَاجْتَهَدْت في دَعْوَتِنا وإقناعنا.

جاءت الباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ زائدة في الْخَبَرِ لتَوْكِيد نَفْي إيمانهم به.

ضُمِّنَ لَفْظُ: «مُؤْمِنِينَ» معنى «مُسْلِمِينَ» فجاءت التعدية باللَّام في ﴿لَكَ﴾.

القضية الرابعة: قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾:

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: أي: أَصَابكَ، يُقَالُ لغة: «عَرَىٰ، واعْتَرىٰ، الدَّاءُ فَلَاناً» أي: أَصَابَهُ وأَلَمَّ به.

دَلَّتْ هذه العبارة على أنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ نَزَلَ بِهِ مَكْرُوهٌ سَاءَهُ، كَعَارِضَةِ مَرَضٍ، أو مُصِيبَةٍ في مَالٍ، أو نحو ذلك، فقال كُبَرَاءُ كُفَّارِ قومِهِ له: مَا نَقُولُ بِشَأْنِ مَا نزلَ بِكَ إلَّا أَصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ، أي: ولو اجْتَمَعَ كُلُّ آلِهَتِنَا علىٰ ضُرِّكَ لَأَهْلَكُوك، أو لَأَنْزَلُوا بِكَ مِنَ المصَائِبِ أَكْثَرَ مِمَّا أَنْزَلَ بِك بَعْضُهُم.

﴿إن﴾ حرف نفي مثل «ما». وفي العبارة قَصْرٌ بالنفي والاستثناء، وهو قَصْرٌ إضافيّ، أيْ: مَا نَقُولُ بِشَأْن مَا نَزَلَ بِكَ ممَّا تكْرَهُ إلَّا أصَابَكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بسُوء.

السُّوء: كُلُّ ما هُوَ قَبِيحٌ، أو مَكْرُوهٌ يُحْدِثُ في النَّفْسِ كراهيةً وألماً.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً عُنْوَانَاتِ الْقَضَايَا الَّتِي رَدَّ بِهَا هُودٌ عَلَيْه السّلام على مَقَالَاتِ كُفَّارِ قَوْمِهِ له:

﴿... قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾﴾:

- ياء المتكلم في: **[إني أُشهِدُ]** فيها قراءتان الفتح والإسْكان.
- في **[لا تنظرون]** قراءتان حَذْف ياء المتكلّم، وإثباتُها وهي قراءة يعقوب.

اشتمَلَ هَـٰذا الرَّدُّ الَّذِي رَدّ بِهِ هود عليه السَّلَامُ عَلَىٰ مَقَالَاتِ قَوْمِهِ له، عَلَىٰ عنوانَاتِ تِسْعِ مَقَالَاتٍ شَرَحَها لهم:

المقالة الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ ...﴾.

﴿أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾: أي: أسْأَلُ اللهَ أَنْ يَشهَدَ لِي بِمَا يَعْلَمُ مِنْ أَنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ.

﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾: أي: واعْلَمُوا عِلْمَ حضور وشُهُودٍ لا شَكَّ فيه ولا شبهة، فإذا استدعيتُمْ للشهادةِ فاشْهَدُوا لِي بهذا عند ربي.

﴿أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾: أيْ: أَنّي بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ، طاهِرٌ غايَةَ الطَّهارَةِ مِنْ رِجْسِ مَا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ الله.

فأعْلَنَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لكُفَّارِ قَوْمِهِ أنَّهُ يَتَبَرّأُ مِنْ شِرْكِهِمْ ومِنْ شُرَكائِهِم، وطَلَبَ مِنْهُمْ أنْ يَشهدُوا هَـٰذا شَهَادَةَ حَاضِرٍ عَلِيم، ولم يُدَارِهِمْ وَلَمْ يُجَامِلْهُمْ بإعْلَان هَـٰذِهِ الحقيقة، لأنَّ تبرُّأَهُ هذا مِنْ كُبْرَيَاتِ عَناصِرِ الإيمانِ بما جاءَ بِهِ عَنْ رَبَّه، وهُو أمْرٌ لَا يُسْكَتُ عَنْه، فعِبَادَةُ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هي أُولَىٰ مَا دَعَاهُمْ إلَيْهِ وأَمَرَهُمْ به.

المقالَة الثانية: دلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾:

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾: أي: فَدَبِّرُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ تَدْبيرَهُ ضِدِّي، مِن أذًى أَوْ ضُرٍّ أَوْ إهْلاكٍ، أنتم وآلِهَتُكُمْ مُجْتَمِعِين.

الكيْد: التَّدْبير الخفي أو الظَّاهر بحَقٍّ أو بباطلٍ، وفيه مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: ثُمَّ لَا تُمْهِلُوني، ولَا تُؤَخِّرُوا تنفيذ ما تُدبِّرونَهُ ضدِّي.

لَقَدْ أَدْرَكَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلْمَاحَهُمْ بتَهْدِيدِه بِضُرٍّ يَنْزِلُ بِهِ مِنْ قِبَلِ آلِهَتِهِمْ، إذْ قَالُوا لَهُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ كما سَبَقَ لَدَىٰ تَدَبُّرِ هَـٰذا الْقَوْل، أخْذاً مِنْ قَوْلِهِمْ: [**بَعْضُ**] أي: لَا كُلّ آلِهَتِنا، فَتَحدَّاهُمْ بِأَنْ يَكِيدُوهُ هُمْ مع آلِهَتِهِمْ جَمِيعاً، وأَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ لَا يَعْبَأُ بِهِمْ، وَلَا بِكَيْدِهِمْ ثِقَةً بِرَبِّهِ الَّذِي لَا يَجْرِي شَيْءٌ في الكَوْنِ إلَّا بِقَضَائِهِ وقَدَرِه، أَوْ بإذْنِهِ، جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُه.

المقالة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ المقالَةُ لِبَيانِ سَبَبِ عَدَمِ مُبالَاتِهِ بِكَيْدِهم مع آلِهَتِهم،

أي: لِأَنَّهُ قد تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ الَّذِي هُوَ رَبُّهُ وَرَبُّهُمْ، المهَيْمِنُ على الكَوْنِ كلِّه بصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِه الشَّامِلَةِ لِمُعْظَمِ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

التَّوَكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْه، وَتَفْوِيضُ تَدْبير الأمُور وتَحْقِيق ما يَرْجُو المتَوَكِّلُ إِلَيْه، مع القِيامِ بالأَسْباب الَّتِي أَمَرَ اللهُ بالقيام بها.

وبما أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بكُلِّ شَيء، وقَدِيرٌ عَلَىٰ كُلِّ شيء، وبِيَدِهِ مَفاتِحُ كُلِّ شيء، فإِنَّهُ لَا يَجْرِي شيءٌ في الوجودِ كُلِّه إِلَّا بِقَدَرِه وقضائِهِ، أو بِعِلْمِه وإِذْنِه، ولَنْ يَخْذُلَ اللهُ رُسُلَهُ ولَا أَوْلِيَاءَه، ولَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْعَاقِبَةُ الحسْنَىٰ لَهُمْ.

المقالَة الرَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْهَا قوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ المقالَة لبَيَان سَبَبِ ثِقَتِهِ بِرَبِّهِ الَّذِي تَوَكَّل عليه.

النَّاصِيَة: مُقَدَّمُ الرَّأْس، وشَعر مُقَدَّم الرأسِ إذا طال.

ذُكِرَت النَّاصِيَةُ والْمُرَادُ بِهَا كُلُّ الكائِنِ الْحَيّ، وهذا من إطلاق الْجُزْءِ وإرادة الكُلِّ، فَهُوَ مِنَ المَجَازِ المرسَل، والأَخْذُ بالناصِيَةِ القبض عليها.

والمعْنَىٰ: مَا مِنْ دابَةٍ تَدِبُّ ذَاتِ حَيَاةٍ وَلَهَا قُدْرَةٌ بَحرَكَتِهَا عَلَىٰ ضُرٍّ أو نَفْعٍ إِلَّا هِيَ واقِعَةٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الأخْذِ والْقَبْضِ الرَّبَّانِيّ لها، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً، ولَوْ كَانَتْ ذَات إرادَةٍ حُرَّةٍ، إِلَّا بإِذْنِ الله خالِقِهَا والْقَابِضِ عَلَيْها قَبْض إحاطَة، وَلَا يأْذَنُ اللهُ بِشَيْءٍ إِلَّا مَقْرُوناً إِذْنُهُ بِحِكْمَتِهِ.

أي: فَلا دَاعِي لأَنْ أبَالِي بِكَيْدِكُمْ وَكَيْدِ آلِهَتِكُمْ.

المقالَة الخامِسَةُ: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٦﴾:

أي: وإِنِّي على ثِقَةٍ بأَنَّ رَبّي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصُرَ في آخِرِ حَرَكَاتِ

الكَيْد أعْدَاءَهُ على أَوْليائِهِ حقًّا، لأنَّهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ في تَدْبيره لِكَوْنه، وَتَصارِيفِهِ لِشُؤُونِ عِبَادِه عَلِيمٌ حَكِيمٌ خَبيرٌ، يُجْرِىٰ مقاديرَهُ، وما يَقْضِي به، وَمَا يأذَنُ بِهِ، مُحَافِظاً فِيها عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيم، هو صِرَاطُ الْحَقِّ والْعَدْلِ والحِكْمَةِ واختِيَارِ أَفْضَل الأمُور وأحْسَنِها.

الصّراط المسْتَقِيمُ: هو الطّرِيقُ الواضِحُ الْجَلِيُّ الواسِعُ الممَهَّدُ الّذِي لا عِوَجَ فِيهِ وَلَا مُعْثِرات، أُطْلِقَ عَلَىٰ تَعْلِيمَاتِ الحقّ والْعَدْلِ والإحْسَانِ والْخَيْر وفَضَائِلِ السُّلُوكِ وَمَكَارِمِ الأخْلَاق.

المقالة السّادِسَة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾: أي: فإنْ تَتَوَلَّوْا «حُذِفت إحْدَى التّاءَيْنِ تَخْفِيفاً» فَقَدْ أَدَّيْتُ مَا أَوْجبَ عَلَيَّ رَبّي، وهُوَ أَنْ أبلِّغَكُمْ مَا أرسَلَنِي بِهِ لِأُبَلّغكُمْ إيَّاهُ، فَأَبْلَغْتُكُموهُ، دُونَ زِيادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَحْرِيف؛ وعَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَتَحَمَّلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُمْ عِنْدَ رَبكُمْ.

التَّوَلِّي: الْإِدْبَارُ، وقَدْ يَكُونُ مَصْحُوباً بالنَّأْي والابْتِعَادِ.

المقالَة السَّابِعَة: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: وَإِذَا أَصْرَرْتُم عَلَىٰ الكُفرِ عِناداً واسْتِكْبَاراً وجُحُوداً، فإنَّ رَبّي سَيُهْلِكُكُمْ مُعَذِّباً لَكُمْ، وعِنْدَئِذٍ يَسْتَخْلِفُ قَوْماً غَيْرَكُمْ في الأرْضِ، يَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بَعْدَكُمْ، إذْ أَثْبَتّمْ بالاختبار أنَّهُ لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْ إمْهَالِكُمْ أكْثَرَ مِمَّا أمْهَلَكُمْ، وفِي هَـٰذا تحْقِيق لسنَّتِه في عِبادِه، على تتابُعِ أجْيَالهم.

المقالة الثامنَة: دَلَّ عَلَيْها قَوْل اللهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾: أي: واعْلَمُوا أَنَّكُم بِكُفْرِكُمْ، ومَعْصِيَتِكُمْ أوامِرَ رَبِّكُمْ ونواهِيَهُ، وفِسْقِكُمْ وفُجُورِكم، وظُلْمِكُمْ وعُدْوانِكُمْ، وَتَجَبُّرِكُمْ علىٰ عِبَادِ اللهِ، لَا تَضُرُّونَ اللهَ رَبَّكُمْ شَيْئاً ما، لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ كلِّ عِباده به، وغَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِهِمْ لَه، إِنَّمَا تَضُرُّونَ نُفُوسَكُمْ بِتَعْرِيضِها لِلْعِقَاب الرَّبَّانِي، إذْ يَجْعَلُكُمْ يَوْمَ الدّينِ خالِدِينَ في عَذَاب النار أبداً.

المقالة التاسعة: دَلَّ عَلَيْها قولُ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ۝٥٧﴾:

حَفِيظ: صيغة مبالغة لـ «حَافِظ» **حِفْظُ الشَّيْءِ**: يكُونُ بِحِرَاسَتِهِ وَصِيَانَته، والمواظبة علىٰ رِعَايَتِهِ، ومُرَاقَبَتِهِ والْهَيْمَنَةِ عليه.

فالحفيظ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُهَيْمِناً وَدَائِمَ الْمُرَاقَبَةِ لِمَا يَحفَظُهُ.

الْمَعْنَىٰ: إنَّ رَبِّي مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ، مُرَاقِبٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، حَفِيظٌ لِكُلِّ شَيْءٍ يُرِيدُ حِفْظَهُ، فَلَا تَسْتَطِيعُ قُوَّةٌ مَا مِنْ دُونِ قُوَّة الله أَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً ما مَهمَا قَلَّ وَكَانَ ضَئِيلاً، إلَّا بإذْنِ اللهِ لِحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ السَّنِيَّة، ولا يَسْتَطِيعُ كائِنٌ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْ يَفْلَتَ مِنْ قَبْضَةِ سُلْطَانِهِ، أَوْ يَخْرُجَ عَنْ مَدىٰ هَيْمَنَتِهِ وَلَوْ مَلَكَ من الْقُوىٰ مَا يَدُكُّ بِهِ الْجِبَالَ العظمىٰ، أَوْ يَنْسِفُها نَسْفاً.

ويَبْدُو لِي أَنَّ هَـٰذِهِ الْمَقَالَةَ مُوجَّهَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، حَتَّىٰ يَطْمَئِنُّوا إِلَىٰ أَنَّهم مَحْفُوظُونَ بِحِفْظِ اللهِ، مَحْمِيُّونَ بِحِمَايَتِهِ مِنْ كُفَّارِ قَوْمِهِ وَمَكايدِهم.

قَوْلُ الله عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً فِقرَةَ خِتَام قِصَّةِ هُودٍ وَقَوْمِهِ، بِتَنْجِيَة هُودٍ عليه السَّلام والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وَإِهْلَاكِ كُفَّارِ عَادٍ، وَإِتْباعِهِمْ بِلَعْنَةٍ في الدُّنيا، ولَعْنَةٍ عُظْمَىٰ يَوْم الدين:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَـٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٨ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي وحِين جاء وقْتُ تَوْجِيهِ أمْرِنا بِتَنفيذِ القضاء الَّذِي قضيْنَاهُ بإهْلَاكِ كُفَّارِ عَادٍ قَوْم هُودَ عليه السلام، والمرادُ بمجيء الوقْتِ اقْتِرَابُ مجيئه، أو مَجيءُ بوادره.

• ﴿... نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وحِينَ اقْتَرَبَ وَقْتُ إهلاكِنا كُفَّارَ عَادٍ، أَمَرْنَا هوداً والّذِينَ آمَنُوا مَعهُ بالابْتِعَادِ عَنْ الْأَرْضِ المقَدَّر أَنْ يَكُونَ داخِلَ حُدُودها إهْلَاكُ الكافرين من قومه، فابتعدوا فنجيناهم مصحوبين ومشمولين بآثار رحمةٍ مِنَّا فِي الدُّنيا، وَقَضَيْنَا بِتَنْجيَتِهِمْ يَوْمَ الدِّين مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ، بِسَبَبِ إيمَانِهِمْ واتِّبَاعِهِمْ رَسُولَ رَبِّهم.

والمرادُ بالْأَمْرِ: الأمْرُ التَّكْوينيُّ التَّنْفِيذِيُّ، المسْبُوقُ بقَدَرٍ وَقَضاء.

ولمَّا كَانَ عَذَابُ الآخِرَةِ عَذَاباً شَدِيداً صَعْباً جاءَ وَصْفُهُ بأنَّهُ عَذابٌ غَلِيظٌ، يُقالُ لغة: «عَذَابٌ غَلِيظٌ» أي: شَدِيد الإيلام.

والغليظ في المادِّيَّاتِ هو ضِدُّ الرَّقِيقِ، فالعصا الغليظة هي ضِدُّ الْعَصَا الرقيقة الخفيفة، والثوبُ الْغَلِيظ هو ضِدُّ الثَّوْبِ الرَّقِيق النّاعِم.

• ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾:

• ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ أشَار إلى جَمَاعَةِ عاد باسْمِ الإشَارَةِ الموضوع للجماعَةِ البعيدة، للدَّلَالَةِ على هُبُوطِ مَنْزِلَتِهِمْ إِلَىٰ أَسْفَلِ سَافِلِين.

• ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: أي: أَنْكَرُوا آيات رَبّهمُ الْإِعْجَازية، والكَوْنِيّة، والجزائيَّة، والبيانيَّة، مَعَ عِلْمِهِمْ واسْتِيقَانِهِمْ بأنَّها حَقٌّ.

يُقال لغة: «جَحَدَ الأمْرَ، وجَحَدَ بِهِ، يَجْحَدُ جَحْداً، وجُحُوداً» أي: أنْكَرَهُ مَعَ عِلْمِهِ بِهِ، واسْتيقانِه في نَفْسِه بأنَّهُ حَقٌّ.

• ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾: أي؛ وَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ هُوداً، وَرُسُلاً أرسَلَهُمُ اللهُ من قَبْلِه إلَيْهِم، وربما كان لهم وجُودٌ في بدايات دعوة هود لهم. هذا ما ظهر لي في هذا وأمثاله في القرآن.

يُقالُ لغة: «عَصَاهُ، يَعْصِيهِ، مَعْصِيَةً، وعِصْيَاناً، فهو عَاصٍ، وعَصَّاءٌ، وَعَصِيٌّ» أي: خَرَجَ من دَائِرَة طاعَتِه، وخالَفَ أَمْرَهُ، أَوْ نَهْيَهُ.

• ﴿... وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝٥٩﴾: أي: واتَّبعَ جُمْهُورُ قَوْمِ عَادٍ مُطِيعِينَ أَمْرَ، ومُلْتَزِمينَ شَأْنَ، كُلِّ جبَّارٍ عَنِيدٍ مِنْ أئِمَّتِهِمْ وَقَادَتِهِم مِنْهم.

الْأَمْرُ: الطَّلَبُ بإلْزَام، والشَّأْنُ الشَّامِلُ لِلْأَفكارِ والعقائِدِ والسُّلُوك.

الْجبَّارُ: الْمُتَعَالِي المتكبِّر، والقاهِرُ الْعَاتي المتسَلِّط الّذي يُكْرِه النَّاسَ بالْقُوَّةِ والْعُنْفِ على مَا يُريد بِغَيْرِ حَقّ.

الْعَنِيدُ: هو مَنْ كَانَ شدِيدَ الرَّفْضِ لِلْحقِّ، وإنْ ظَهرَ لَهُ بالْبُرْهَانِ السَّاطِع، وشَدِيدَ الإصْرار على رَأْيِهِ أو اعْتِقَادِه، أو سُلُوكِهِ، أَوْ مَذْهَبه، وإنْ ظَهرَ لَهُ بُطْلَانُه.

يُقَالُ لغة: «عَنَدَ فُلَانٌ، يَعْنِدُ، عَنْداً، وَعُنُوداً، فَهُوَ عَانِدٌ، وعَنُودٌ، وَعَنِيدٌ».

• ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾:

• ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾: بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُمْ اتَّبعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، كَانَ مِنْ فَنِّيَّةِ الاختِيَار الْبيَانِي أَنْ يُخْتَارَ مِنَ البدائِلِ فِعْلُ «أُتْبِعُوا» أي: اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ والشَّرّ والإثْم فَأُتْبِعُوا لَعْنَةً في هٰذِهِ الدنيا، ويَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعِدُهُم عن كُلِّ مَهَابِطِ رحمَاتِ اللهِ لَعْنَةٌ أشَدُّ وأبْقَىٰ.

أُتبِعُوا لَعْنَةً: أيْ: جَعَلَ الله عَزَّ وجَلَّ لَعْنَةً خاصَّةً مُخْزِيَةً تتَوالَىٰ عَلَيْهِمْ طَارِدَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ رَحمَاتِهِ.

اللَّعْنُ: الطَّرْدُ والإبْعَادُ مِنْ كُلِّ خَيْر.

• ﴿أَلَآ﴾: أداةُ اسْتِفْتَاحٍ وتَنْبيهٍ وتَحْقِيق.

• ﴿إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ﴾: أي: كَفَرُوا جَاحِدِينَ رَبَّهُمْ، وسَاتِرِينَ

الأدِلَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُم، وأنَّهُ هو الإلَٰهُ الَّذِي لَا إلَٰه في الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ حَقُّ الإلَٰهِيَّةِ غَيْرُه، وكُلُّ إلَٰهٍ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِهِ تَعَالَىٰ باطِلٌ، أَوْ وَهْمٌ لَا حَقِيقَةَ له.

• ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾: أي: أَلَا طَرْداً لِعَادٍ عنِ الحياة الدُّنيا، بَعْدَ أن قَضتِ الحِكْمَةُ بأنَّهُ لَا فَائِدَةَ مِنْ إبْقَائِهِمْ أحْيَاءَ في حِيَاةِ الامْتِحَانِ، كما حَصَلَ لَدَىٰ إهْلَاكِ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلام.

وَجاء وَصْفُ «عَادٍ» بأَنَّهُمْ قَوْمُ هُود نَبِيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ لتحقيق غَرَضَيْن:

العرض الأول: مُراعَاةِ فواصل الآيات.

الغَرَضُ الثاني: بيان أنَّ المطرودينَ هُم عَادٌ الأولى قومُ هُودٍ عليه السلام، للدّلَالَة على أنه توجد عاد ثانية، وهُمْ ثَمُود قوم صالح عليه السّلام.

وهَٰذا من الإطناب المفيد لَفْظاً ومعْنَىٰ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الْفَصْلِ الثاني: «هود عليه السلام» من الدَّرْسِ السادس من دُرُوسِ سورة (هود).

والْحَمْد للهِ على مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وفَتْحِهِ.



الفصل الثالث من الدرس السادس
لقَطاتُ مِنْ قِصَّة «صالح عليه السلام وقومه ثمود»
الآيات من (٦١ ـ ٦٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ

قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾.

تمهيد:

جاء في آيات هذا الفصل ذكر لَقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ صالح عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمِهِ ثمود، وهَـٰذه اللَّقَطاتُ تُعالِجُ كُبراءَ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وأتباعَهُمْ إبّانَ نُزُولِ سُورَة (هود/ ٥٢ نزول) بِحَسَبِ مَوْقِفِهِم العِنَادِي الّذي مَا زَالُوا يُصِرُّونَ عَلَيْه، رافِضِينَ دَعْوَةَ الرَّسُول محمّدٍ ﷺ، ومُكذبينَ لَهُ، ومُكَذِّبين بالقرآن، ومُلِحِّينَ في طَلَبِ الآيات الخوارِقِ علَىٰ مَا يَتَشَهَّوْنَ.

وهذا هو النّصّ (١٣) بحسَب تَرْتيب النزول، من النصوص القرآنيّة المتعلّقة بهود عليه السلام وقومه ثمود.

وقد سبَقَ تَدَبُّرُه تَدبُّراً تكامُلِيًّا مع سائر النصوص القرآنية حول موضوعه، في «الملحق الثالث» من ملاحق تَدَبّر سُورَةِ (النمل/ ٤٨ نزول).

ولهـٰذا فإني أقتَصِرُ هُنَا عَلَى تَدَبُّرِ فِقَرَاتِ هذا النصّ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ

غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾:

• قرأ الكسائي، وأبو جَعْفَر: [**مَا لَكُمْ مِنْ إلهٍ غيرِهِ**] بِجَرِّ لفظ «غَيْرِهِ» مُرَاعَاةً لِلَفْظِ «إله» المجرور بحَرْف الجرّ الزائد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِرَفع «غَيْرُهُ» مُرَاعَاةً لمحلِّ لفظ «إله» وهو الابتداء.

• ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا﴾: أي: وَلَقَدْ أرسَلْنَا إلَىٰ قَبيلَةِ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحاً نبيّاً ورَسُولاً عَلَيْهِ السّلام، وهذه الجملة مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ قِصَّةِ هُودِ المعْطوفَةِ على قِصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِمَا السّلام.

وقد كان صالح عليه السلام مِنْ قومه ثمود نَسَباً ولُغةً ومَوْطِناً، أخْذاً مِمَّا هو مَعْرُوف من تاريخه، فعبارَةُ «أَخَاهُمْ» لَا تُفِيدُ كونَهُ مِنْهُمْ نَسَباً، إذ اسْتُعْمِلَ نَظِيرُهَا في نسبَةِ «لُوطٍ» عَلَيْهِ السّلامُ إلى قومه في القرآن، مع أَنَّهُ لم يَكُنْ مِنْهُمْ نَسَباً، وإنَّما كانَ صِهْراً لهم، ومُتكلّماً بِلُغَتِهم، وَمقيماً في أَرْضِهِم.

وقد اشْتَمَلَ بَيَانُ صَالحٍ لِقَوْمِهِ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ هَـٰذِهِ الآية، على سِتِّ قَضَايا:

القضيَّة الأولى: دلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايةً لمعْنَىٰ ما قالَهُ صالحٌ عَلَيْه السّلام لقومه في أوائل دَعْوَتِهِ لهم: ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾: **يا قَوْمِ**: بِحَذْفِ يَاء المتكلّم وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً عَلَيْها، وفي هَـٰذا النداءِ اسْتِعْطَافٌ بِرِفق.

فكَانَت بِدايَةُ دَعْوَتِهِ لِقَوْمِهِ مُمَاثِلَةً لِبدَاياتِ دَعَواتِ سائِرِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ

السَّلامُ لِأَقوامِهِم، وهي الدَّعْوَةُ إلى عبادة اللهِ عَزَّ وجَلَّ وحْدَهُ، دُونَ أَنْ يُشْرِكُوا بِعِبَادَتِهِ أَحَداً مَا، أو شيْئاً ما.

لقد بدأهُمْ بالأَمْرِ بعِبَادَة اللهِ وَحْدَه، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُمْ كانُوا مُشْرِكينَ يَعْبُدون أَوْثَاناً.

ومَعْلُومٌ أنَّ عِبَادَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ هُو الوَاجِبُ الْأَوَّلُ بَعْدَ الإيمانِ بِهِ رَبًّا لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ أَزَلِيًّا أَبَدِيًّا، وَبَعْدَ إعْلَانِ الإسْلَامِ له، وإعْلَان الحِرْصِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ.

وأَوَّلُ العبادَةِ للهِ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ تَكُونُ بطَاعَتِهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِفِعْلِهِ، وتَرْكِ مَا نَهىٰ عَنْه، وتَكُونُ بِدُعَائِهِ لِتَحْقِيق المطَالِب مِنْ أُمُورِ الدُّنيا وأمُور الآخِرَة، ثُمَّ بالتَّقَرُّب إِلَيْهِ بمَحَابِّهِ مِن فِعْلِ مَا يُرْضِيهِ فِعْلُه، وتَرْكِ مَا يُرْضِيهِ تَرْكُهُ.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: أي: لَيسَ لَكُمْ في الواقِعِ والحقيقَةِ إلَهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عَقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ، إِذْ هُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ في الْوُجُودِ سِوَاه.

والعبادة مِنَ الْعَبْدِ لَا تَجُوزُ أَنْ تَكُونَ إِلَّا لِمَنْ هُوَ رَبُّهُ حَقًّا، وَرُبُوبِيَّتُهُ الدَّائِمَةُ المتَصَرِّفَةُ فِيه تُوجِبُ عَلَيْهِ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ.

أمّا عبادةُ غَيْرِ مَنْ هُوَ رَبٌّ حَقًّا فَهِيَ شِرْكٌ به، وهذا الشِّرْكُ في إِلَٰهيَّتِهِ أَوَّلُ دَرَكَاتِ الكُفْرِ به، وأَحَطُّ وأخَسُّ مِنْها دَرَكَة الإشْرَاكِ بِرُبُوبِيَّتِهِ سُبْحانه، ثُمَّ دَرَكَةُ جُحُودِ الرَّبِّ جُحُوداً كُلِّيًّا، وتَزْدَادُ الدَّرَكَاتُ تَسَفُّلاً بارْتِكابِ جرائِم الْبَغْي والظُّلْم والْعُدْوانِ، والفِسْقِ والْفُجُورِ والْفَسَادِ والإفسادِ والنِّفَاق، والدَّعْوَةِ إِلَىٰ الكُفْرِ وارْتكاب الجرائم، حتَّىٰ تُوصِلَ أَصْحَابَها إلىٰ الدَّرْك الأَسْفَلِ من النّار.

القضية الثانية: دلَّ عَلَيْهَا قَوْل اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لمعْنَىٰ ما قالَهُ صَالِحٌ عليْهِ السَّلامُ لِقَوْمِه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾:

الإِنْشَاءُ: الإِحْدَاثُ المصْحُوب بالتَّكَامُلِ المتَدَرّج غَالِباً، يُقَال لغة: «أَنْشَأَ الشَّيْءَ إِنْشَاءً» أي: أَحْدَثَهُ إِحْدَاثاً مَصْحُوباً بالتَّكَامُلِ المتدَرِّجِ. ويُقَالُ لغة: «نَشَأَ الشَّيْءُ نَشْأً، ونُشُوءاً، ونَشْأَةً» أي: حَدَثَ وتَجَدَّدَ.

فأَبَانَ صَالحٌ عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ بهَـٰذا مَظْهَراً مِنْ مَظَاهِرِ رُبُوبيَّةِ اللهِ لهم، وهُو إِنْشَاؤُهُمْ مِنَ الأَرْضِ.

أَمَّا خَلْقُ آدمَ أبي الْبَشَرِ فَقَدْ كَانَ مِنْ طِين «تُرابٍ وماءٍ» وهَـٰذِهِ مَعْلُومَةٌ مَوْرُوثَةٌ فِي النَّاسِ مِنْ عَهْدِ آدَمَ عَلَيْهِ السّلام.

وأَمَّا ذُرِّيَّتُهُ مِنْ بَعْدِه فَمِنَ المعْلُوم لَدَىٰ كُلّ النَّاسِ أنَّ المادَّةَ الَّتِي تَتَكَوَّنُ مِنْهَا الأَجِنَّةُ مَخْلُوقَةٌ فِي الذُّكُور والإِنَاثِ من الدِّماء، والدِّمَاءُ مَخْلُوقَةٌ مِنَ الْغِذَاءِ النَّبَاتِيّ أو الحيواني، وَكُلُّ ذَلِكَ مَنْشؤُهُ مِن الماء والتُّرَابِ، وهُمَا مِنْ عَناصِرِ الأَرْضِ.

وبِمَا أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُو الَّذِي أَنْشَأَهُمْ مِنَ الأَرْضِ إِنْشَاءً مُتَدَرِّجاً فَهُوَ رَبُّهُم، أيْ: هُو خَالِقُهُمْ وَفْقَ نِظَامِ التَّرْبِيَةِ الَّتِي هِيَ الإِنْشَاءُ المتَدَرِّج، وهُوَ الْمُهَيْمِنُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ أَطْوَارِ وُجُودِهِم المسْتَمِرَّةِ والمتَجَدِّدَة.

القضِيَّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْها قوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنَىٰ ما قالَهُ صالحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾: أي: واسْتَعْمَرَكُمْ في الْأَرْضِ، بِأَنْ جَعَلَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقُدْرَاتِكُمُ الْفِكْرِيّةِ والْجَسَدِيَّةِ، مَا يَسْتَحِثُّكُمْ وَيَحُضُّكُمْ عَلَىٰ إِعْمَارِ الْأَرْضِ، بِبِنَاءِ مَسَاكِنها، واسْتِنْبَاتِ زُرُوعِها وَأَشْجَارِها، وإِنْشَاءِ جَنَّاتِها وَمَصَانِعِها وَسَائِرِ المنْشآتِ النَّافِعَاتِ فِيها، وَهَيَّأَ لَكُمُ الْأَرْضَ لِهَـٰذا الإعْمَارِ، ومَكَّنَكُمْ وهَدَاكُمْ لاتخاذ وَسَائِلِ إعْمارِها، لأنَّ مصالحكم وَمَنَافِعَكُمْ في الحياة الدُّنيا مُرْتَبِطَةٌ بإعْمَارِها. وكذَلِكَ جَعَلَكُمْ تَعْمُرُونَها بأشْخَاصِكُمْ إذْ تُقِيمُونَ فيها.

يُقَالُ لُغَةَ: «اسْتَعْمَرَهُ فِي الْمَكَانِ» أيْ: جَعَلَهُ يَعْمُره، بالأمْرِ أو بالتمكين والْهِدَايَةِ وَتَهْيِئَةِ الشُّرُوطِ والوسائل، أو بالإيجاد فيها.

ويقال: «عَمَّرَ الْأَرْضَ» أي: بَنَىٰ عَلَيْهَا وَأَهَّلَهَا.

الْقَضِيَّةُ الرَّابِعَة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ صالحٌ عَلَيْهِ السّلام لِقَوْمِهِ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾: أي: فإذَا آمَنْتُمْ باللهِ رَبِّكُمْ، وآمَنْتُمْ بأنَّهُ هُوَ الْمَعْبُودُ الْحَقُّ الّذِي لَا إلَه إلَّا هُو، وعَلِمْتُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُمِدُّكُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيَّتِه في الْأَرْضِ الَّتِي جَعَلَكُمْ تُقِيمُونَ فيها، وتَنْتَفِعُون مِنْ خَيْرَاتها، وتُنْشِئُون مُنْشَآتِكم عليها، فاسْأَلُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَخَطَايَاكُمْ، مِنْ شِرْكٍ وَظُلْمٍ وَعُدْوانٍ وكبائِرَ وَجَرَائِمَ وآثام.

غفَرَ الذَّنْبَ: أي: سَتَرَه، وهَـٰذا يَسْتَلْزِمُ بِفَضْلِ اللهِ التجاوُزَ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْهِ.

تقولُ لغة: «غفَرَ الشَّيْءَ، يَغْفِرُهُ، غَفْراً، وغُفْراناً، ومَغْفِرَةً» أي: سَتَرَه.

القضيَّة الخامِسَةُ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ لِقَوْمِهِ: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾:

يُقَالُ لغة: «تَابَ، يَتُوبُ، تَوْباً، وتَوْبَةً، وَمَتَابَةً، وَتَابَةً». أي: رَجَع. وتَابَ الْعَبْدُ إلَىٰ رَبِّهِ، أي: عَزَمَ عَلَىٰ الرُّجوع إلَىٰ الطاعَةِ والاسْتقامَةِ بَعْدَ الْمَعْصِيَةِ. وَيُقَالُ: «تَابَ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ» أي: قَبِلَ تَوْبَتَهُ وَرَجْعَته، فَرَجَعَ عَلَيْهِ بالْغُفْرَانِ والْعَفْوِ وفَضْل العطاء.

فالمعنى: ثُمَّ بَعْدَ الاستِغْفَارِ الَّذِي تَكُونُ به التَّخْلِيَةُ من قَاذُورَات الآثام، ارْجِعُوا إلَىٰ رَبّكم الّذِي كنْتُمْ قَدِ ابتعدتم بمَعَاصِيكُمُ الكُبْرَىٰ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلاتِ رَحَمَاتِه، فَلازِمُوا طَاعَتَهُ، بِفِعْلِ مَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ، وَتَرْكِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْهُ، فَبِهَـٰذِهِ التَّوْبَةِ الصَّادِقَةِ إلَيْهِ تَكُونُونَ قَدْ تَحَلَّيْتُمْ بِحِلْيَةِ عِبَادِ اللهِ المؤمنين المتقين.

دلَّ الْعَطْفُ بحَرْف الْعَطْفِ «ثُمَّ» عَلَى أنَّ المراد الرُّجُوعُ الْعَمَلِيُّ

الفِعْلِيّ، بتَجْدِيدِ الإيمانِ وَإِنْمَائِهِ آناً فآناً، وبمُتَابَعَةِ تأدِيَةِ الأعْمَالِ الصالِحَة.

القَضِيَّةُ السَّادِسَةُ: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعْنَىٰ مَا قَالَهُ صَالِحٌ عَلَيه السلام لِقَوْمِهِ: ﴿إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾: أي: إنَّ رَبّي الَّذِي بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً، والَّذِي هُوَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ كان أو هو كائِنٌ أَوْ سَيَكُونُ، وهو الله ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ قَرِيبٌ مِنْ كُلِّ عِبَادِه، بِعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَأَفْعَالِه، مُجِيبٌ دُعَاءَ مَنْ دَعَاهُ مُسْتَغْفِراً تَائِباً إِلَيْه، عَلَىٰ وَفْقِ حِكْمَتِهِ.

هَـٰذِهِ القَضِيَّةُ جَاءَتْ بِمَثَابَةِ التعلِيلِ لِقَوْلِهِ لَهُمْ: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

وجاء وَضْعُ عِبَارَةِ ﴿رَبِّى﴾ مَقَامَ الضَّمِير «إِنَّهُ» للدَّلَالَةِ على صِفَاتِ رُبُوبِيَّته الَّتِي مِنْها الْغُفْرَانُ واسْتِجَابَةُ الدُّعاء، وقَبُولُ الأعمالِ الصالِحة الَّتِي يُبْتَغَىٰ بها وجْهُه.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَا رَدَّ بِهِ بَعْضُ قَوْمِهِ ثمود:

● ﴿قَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾:

دلَّت هَـٰذه الآيَة عَلَىٰ أنَّ صَالحاً عَلَيه السَّلامُ لَمَّا رَفَضَ الاستجابَةَ لِدَعْوَتِهِ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ وَمَلَؤُهم، وَنَفَرُوا مِنْها وَصَدُّوا عَنْها، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ مُحَاوَلَاتِهِ المتَعَدِّدَاتِ بأسَالِيبَ مُخْتَلِفَاتٍ، وجَّهَ عِنَايَتَهُ لِدَعْوَةِ شُبَّانِ قَوْمِه، وأحْدَاثِ الْأَسْنَانِ فيهم، رَجَاءَ أَنْ يَكُونوا أقربَ إلى الاسْتِجابَةِ لِدَعْوَتِهِ مِن شُيُوخِ قَومِهِ، وذوي الأسْنَانِ فيهم.

ففي عبارة ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ فيها دَلَالَتَان:

الأولَىٰ: دَلالَةُ قَوْلِهِمْ: ﴿يَعْبُدُ﴾ إذْ هُوَ فِعْلٌ مُضارِعٌ يَدُلُّ عَلَىٰ الحالِ

والاسْتِقْبَال، مع التكرار والتجدُّد، وَمِثْلُ هذا التَّعْبِير إنَّما يَكُونُ لِلدَّلالَةِ علىٰ أمْرٍ مُتَكَرِّرٍ مُتَجَدِّدٍ في آبائهم، فَلا بُدَّ أنْ يَكُونُوا أحياءً.

الثانية: قَوْلُهُمْ: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾ إذْ لَمْ يَقُولُوا: آبَاؤُنَا الْأَوَّلُون، كما هُو حَالُ الْأُمَمِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُون عَن آبَائِهِم الموتَىٰ السَّابقين.

فَدَلَّ هَـٰذان الْأَمْرَانِ عَلَىٰ أنَّ صَالحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ تَوَجَّهَ فِي دَعْوَتِهِ للشُّبَّانِ وَأَحْدَاثِ الْأَسْنَانِ الْبَالِغِين، رَجاءَ أَنْ يَكُونُوا أَقْرَبَ للاسْتِجَابَةِ من آبائهم، الَّذِينَ مَارَسُوا كُفْرَهُمْ وَقَبَائِحَ عَادَاتِهِم عُمْراً مَدِيداً، فَتَصَلَّبَتْ قُلُوبُهُمْ وَنُفُوسُهُمْ على ذلِكَ.

• ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾:

﴿مَرْجُوًّا﴾: الرَّجاءُ في اللُّغَةِ تَوَقُّعُ مَرْغُوبٍ فِيه، أَوْ مَخُوفٍ مِنْه، والسِّيَاقُ في هَـٰذا الْقَوْلِ يَدُلُّ عَلَىٰ تَوَقُّعِ ما هو مَرْغوبٌ فيه.

أي: كُنَّا قَبْلَ أَنْ تَدْعُونَا إلَىٰ هَـٰذا الدّينِ الْجَدِيدِ نَتَوَقَّعُ أَنْ تكُونَ قائداً لَنا، وَسَيِّداً مِنْ سَاداتِ قَوْمِنا، لِمَا تَتَّصِفُ بِهِ مِنْ عَقْلٍ وَحِكْمَةٍ، وَفَضَائِلِ أَخْلَاقٍ وَمَحَاسِنِ شِيَم.

• ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾: أي: أَتَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَعْبُدَ الْأَوْثَانَ الَّتِي يَعْبُدُهَا آبَاؤُنَا الَّذِينَ هُمْ قَدْوَتُنَا في حياتنا، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ فينا؟!

الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ العبارةِ اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ فِيهِ مَعْنَىٰ الاسْتِنْكار.

• ﴿... وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾: أي: وإنَّنا لَفِي شَكٍّ ممَّا تَدْعُونَا إلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكِ عبادَةِ ما يَعْبُدُ آباؤنا، إذْ لَمْ نَصِلْ بَعْدُ إلَىٰ الاقْتِنَاعِ بأنَّ مَا تَدْعُونا إلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وهَـٰذا الشَّكُّ يُوقِعُنَا فِي الرَّيْبِ مِنْ غَايَتِكَ النَّفْسِيَّةِ، إذْ تَدْعُونا إلَىٰ خِلَافِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ

في تَقَالِيدِنا الدِّينيَّة، ومَوْرُوثَاتِنَا مِنْ أَعْمَالٍ وَعَادَاتٍ، ومَا عَلَيْهِ آبَاؤنا، وَشَكُّنَا هَـٰذا يَجْعَلُنَا نَرْتَابُ في أَنَّكَ تُرِيدُ مُلْكاً أَوْ إمَارَةً، أَوْ زَعَامةً، أَوْ رِيَاسَةً فِي قَوْمِنَا، وهَـٰذا أَمْرٌ يُقْلِقُنَا وَيُزْعِجُنا.

يُقَالُ لُغَةً: «أَرَابَ الْأَمْرُ فُلَاناً» أي: أَقْلَقَهُ وأَزْعَجَهُ، وأَوْقَعَهُ فِي الشَّكِّ والرَّيب.

الرَّيْبُ: الشَّكُّ، والظَّنُّ، والتُّهَمَة، والرَّيْبُ يَجْعَلُ صَاحِبَهُ يَتَرَدَّدُ مُحْتَاراً.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا رَدَّ بِهِ صَالِحٌ عَلَيْهِ السَّلَام:

• ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾؟

• ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؟. يُرَادُ بالاسْتِفْهام في: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ الْأَمْرُ بأنْ يَتَفَكَّرُوا لِيَرَوْا، أي: يَا قَوْم تَفَكَّرُوا لِتَرَوْا بِعُقُولِكُمْ وَاقِعَ أَمْرِي مَعَ رَبّي. تَفَكَّرُوا فِي أَنِّي إنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ رَبِّي بِأَنّي نَبيٌّ وَرَسُولٌ مُكَلَّفٌ مِنْهُ أَنْ أُبَلِّغَ رِسَالَتَهُ، أفَأَمْلِكُ أَنْ أَعْصِيَ رَبِّي فأخالِفَ مَا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ تَبْلِيغ رِسَالَتِهِ.

• ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾: أي: وآتاني مِنْ فَضْلِهِ رَحْمَةً عَظِيمةً.

وَنَفْهَمُ هُنَا أَنَّ الرحْمَةَ الَّتِي اختصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بها صالحاً عليه السلام دُونَ سائر قومه في عَصْرِه، هِيَ النُّبُوَّةُ والرِّسَالَةُ والْكِتَابُ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْه، والصِّفَاتُ الشَّخْصِيَّةُ الفِكْرِيَّةُ والنَّفْسِيَّةُ الَّتِي فَضَّلَهُ بها.

وهذه الرَّحْمَةُ تَتَضَمَّنُ تَكْلِيفَهُ أَنْ يَقُومَ فِي قَوْمِهِ بوظائِفِ رِسَالَةِ رَبّه.

• ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾؟! اسْتِفهامٌ يُرادُ بِهِ نَفْيُ وُجُودِ نَاصِرٍ يَنْصُرُه.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ بِاللُّزومِ الذِّهْنِي، عَلَىٰ أَنَّ شُيُوخَ قَوْمِهِ وَشُبَّانَهُمْ، قَدْ طَالَبُوهُ بِأَنْ يَكُفَّ عَنْ مُتَابَعَةِ الدَّعْوَةِ إلى الدِّينِ الَّذِي جَاءَهُمْ به.

فقالَ لهم: أَنَا مَأْمُورٌ مِنْ رَبِّي أَمْرَ إِلْزَامٍ مِنَ الدَّرَجَةِ الْقُصْوىٰ، بأنْ أَقُومَ بِوَظَائِفِ رِسَالَةِ رَبِّي الَّتِي حَمَّلَنِي تكالِيفَها، وفي مُقَدّمَتِها دَعْوَتُكُمْ إِلَىٰ الدِّينِ الَّذِي أَمَرَنِي بِتَبْلِيغِهِ لِقَوْمِي، مع مُتَابَعَةٍ وَتَوْكِيدٍ وَتَذْكِيرٍ.

وهَـٰذا الدِّينُ يَتَضَمَّنُ أَنْ تَتْرُكُوا شِرْكِيَّاتكُمْ، وضَلَالَاتِكُمْ، وأَنْ تُؤْمِنُوا باللهِ، وَبِرَسُولِهِ، وبِكِتَابِهِ، وأَنْ تَتَّبِعُوا أَحْكَامَ الدِّينِ الَّذِي جِئْتُكُمْ به مِنْ عِنْدِ رَبِّكُمْ، فما أَنَا إِلَّا مُبَلِّغٌ دِينَ رَبِّي الَّذِي اصْطَفاني نَبِيًّا وَرَسُولاً.

وَإِنْ لَمْ أَقُمْ بِمَا فَرَضَ اللهُ عَلَيَّ، بَعْدَ أَنِ اصْطَفَانِي بِالنُّبُوَّةِ، واجْتَبَانِي لِحَمْلِ رِسَالَتِهِ إِلَيْكُمْ، فَإِنِّي أكُونُ عَاصِياً لِرَبّي مَعْصِيَةً عُظْمَىٰ أَسْتَحِقُّ عَلَيها الْعِقَابَ الشّدِيدَ. وعِنْدَئِذٍ فَمَنْ هَـٰذا الّذِي يَنْصُرُني فَيَحْمِينِي مِنْ عَذاب اللهِ رَبّ العالَمِين؟!!.

جاء في العبارة اسْتِعْمَالُ حَرْفِ «إِنْ» في: ﴿إِنْ عَصَيْتُهُۥ﴾ لِيُشْعِرَهُمْ بأَنَّهُ عَازِمٌ عَزْماً لَا لِينَ فيه على أنْ يُطِيعَ رَبَّهُ وَلَا يَعْصِيَهُ.

وضُمِّنَ الفِعْلُ في: ﴿يَنصُرُنِي﴾ مَعْنَىٰ الْفِعْل في «يَحْمِينِي» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ بِحَرْفِ «مِنْ» أي: فَمَنْ يَنْصُرُني فَيَحمِيني مِنْ عَذَاب اللهِ؟!.

• ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ۝٦٣﴾: أي: فإنْ عَصَيْتُ رَبّي مُسْتَجِيباً لِمَا تُطَالِبُونَنِي به، فإنْ زِدْتُمُوني شَيْئاً لإنْقَاذِي وحِمَايَتِي وَنُصْرَتي بَعْدَ مَعْصِيَتِي لِرَبّي، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ إِضَافَةِ خَسَارَةٍ إلى خَسَارَتِي الَّتِي تُسَبِّبُها لي مَعْصِيَتِي.

﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾؛ أي: غَيْرَ نُقْصَانٍ وإبْعَادٍ لي من الخير، يُقَال لُغَةً: «خَسَّرَ فُلَانٌ فُلَاناً، يُخَسِّرُهُ، تَخْسِيراً» أيْ: نَقَصَهُ ـ أبعدَهُ مِنَ الْخَيْرِ ـ أَهْلَكَهُ.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابِعاً بَعْضَ أقوال صالحٍ عليه السلام لِقَوْمِه بَشأْنِ آيَةِ النَّاقَة:

• ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾:

هاتان الآيَتَانِ تُبيِّنانِ بإيجاز آيَةَ النَّاقَةِ المُعْجزَةِ الّتي آتاهَا اللهُ عزَّ وجَلَّ صَالِحاً عَلَيْهِ السّلام، تَلْبيَةً لِطَلَب قَوْمِهِ، ولَكِنْ أخْلَفَ مُعْظَمُ قَوْمِهِ وَعْدَهم فَلَمْ يُؤْمِنُوا عَلىٰ الرُّغْمِ مِنْ أنَّهَا جاءَتْ عَلَىٰ وَفْقِ طَلَبِهِمْ تَماماً.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِحَياتِهَا فيهم شُرُوطاً في طَعَامِها وشَرَابها، وحَذَّرَهم مِنْ أنْ يَمَسُّوهَا بسُوءٍ، مَهْمَا ضايقَهُمْ وُجودُها بَيْنَهُمْ.

لكِنَّهُمْ لم يَصْبِرُوا عَلَىٰ شُرُوطِ حياتِهَا بَيْنهم، فَعَقَرُوها، فَأَنْذَرَهُمْ صالح عَلَيْهِ السَّلامُ بأنَّ هَلاكَهُمْ سَيَكُونُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أيَّامٍ، وحَقَّقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إنْذارَ رَسُولِهِ صالحٍ لَهُمْ فأَهْلَكَهُمْ في الْيَوْمِ الموعُود.

• ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾: أي: وَيَا قَوْم هَـٰذِهِ نَاقَةٌ أَخْرَجَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَكُمْ كَمَا طَلَبْتُمْ وَوَصَفْتُم وعيَّنْتُمْ.

ولَمَّا كانَتْ هَـٰذِهِ الناقَةُ آيَةً خارقَةً من اللهِ لهم، سَمَّاهَا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَاقَةَ اللهِ» أي: نَاقَةَ آيَةِ اللهِ الخارِقَةِ المعْجزَة.

وَإذْ أخْرَجَهَا اللهُ لهم طِبْقاً لِطَلَبِهِمْ، كانَ مِنْ حِكْمَةِ ابْتِلائِهِمَ أَنْ يُلْزِمَهُمْ بواجبَاتٍ تُجاهَها، سَواءٌ آمَنُوا بِرَسُولِهِمْ أَمْ لم يُؤْمِنُوا. وَقَدْ جعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ هَـٰذِهِ التكاليفَ مَادَّةً مِنْ موادّ ابْتِلائِهِمْ وفِتْنَتِهِمْ بِمَا يَسُوؤُهم ويُضايِقُهُمْ، لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ عَيَّنُوا الآيَة، ولَمْ يُفَوّضُوا لله عَزَّ وجَلَّ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بآيَةٍ ما، تَشهد لصالح عليه السَّلامُ بأنَّهُ رَسُول اللهِ حَقًّا.

والواجباتُ الّتِي أُلْزِمُوا بِهَا وَجَاءَ بَيَانُها في مُخْتَلِفِ النصوص هي ما يلي:

(١) أَنْ يَتْرُكُوهَا تَأْكُلُ في أَرْضِ اللهِ عَلَىٰ مَا تَشاء.

(٢) أَنْ يَكُونَ مَاءُ ثَمُودَ قِسْمَةً بَيْنَ ثَمُودَ وَبَيْنَ النَّاقة مُنَاصَفَةً.

(٣) أَنْ لَا يَمَسُّوهَا مَسًّا مَا بِسُوءٍ يَسُوؤهَا مِمَّا يُؤْذِيها.

دَلَّ على وَاجِبَيْنِ مِنْها في سورة (هود):

• ﴿... فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾: فأبانَ صالح عليه السَّلامُ أَنَّهُم إِذَا مَسُّوها بِسُوءٍ قَبَضَ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ، لَا تَأْخِيرَ فيه ولَا تَأْجِيل.

• ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾:

أي فكان آخِرُ أمْرهِمْ أَنْ ضَاقَ صَدْرُهُمْ مِنْ وُجُودِ الناقَةِ الآيَةِ بَيْنَهُمْ بواجِبَاتِها، فَتآمَرَ بَعْضُهُمْ علَىٰ عَقْرِها، ورَضيَ بهذا سَائِرُهُمْ. فَعَقَرُوها.

العَقْر: في اللُّغة يأتي بمعْنَىٰ قَطْع إحْدَى قوائم البَعِيرِ لِيَسْقُطَ علىٰ الأرض، وَيَتَمَكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ نَحْرِه. ويُقَالُ أيْضاً: «عَقَرَ الْحَيَوَانَ» أي: ذَبَحَه.

وعَقِبَ عَقْرِ ثمود نَاقَةَ اللهِ بِزَمَنٍ غَيْرِ بَعِيدٍ جَرَىٰ فيه تَدبيرُ أشقيائِهم قَتْلَ رَسُولِهِم صالح وأهله، وجَرَىٰ فِيهِ إهْلَاكُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أشقياء ثمود التِسعة، قال صالحٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِقَوْمِهِ: تَمَتَّعُوا في دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّام، وفي الْيَوْمِ الرَّابِعِ يَكُونُ إنزالُ عَذَابِ اللهِ الأَلِيمِ الْمُهْلِكِ، الذي يَسْتَأْصِلُكُمْ بِهِ اسْتِئْصَالاً شَامِلاً.

• ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾: أي: انْتَفِعُوا في دَارِكُمْ بما فيها من أمْنٍ وَرَخَاء.

المتاع: كُلُّ شيءٍ يُنْتَفَعُ بِهِ والْفَنَاءُ يَأْتِي عَلَيْهِ في الدنيا. أَمَّا النَّعِيمُ فقد خَصَّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في القرآنِ بما يكُونُ في الْجَنَّةِ يَوْم الدين من لَذَّاتٍ وسَعَادَاتٍ، والدُّنيا لَا نَعِيمَ فيها، وإنَّمَا فِيهَا تَمَتُّعُ زَائِلٌ مَشُوبٌ بالمنَغِّصَات.

• ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾: أي: ثَلاثَةَ أيَّام بلَيَالِيهَا فَقَطْ، وفي اليوم الرابعِ بَدْأً مِنْ أَوَّلِهِ يَنْتَهِي اسْتِمْتَاعُكُمْ، وَيَأْتِي وَقْتُ عَذَابِكُمْ.

• ﴿... ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾: أي: ذَلِكَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ العظيمُ الْمُهْلِكُ لَكُم الّذِي سَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَعَ بَدْءِ الْيَوْمِ الرابعِ، وَعْدٌ صَادِقٌ حقًّا.

جاءَتِ الإشَارَةُ باسم الإشارة الموضُوع للمشَارِ إلَيْهِ الْبَعِيد، للدَّلَالَةِ عَلَىٰ عِظَمِ الْعَذَابِ الموعُودِ به، وشِدَّةِ إيلامِهِ لِلْمُعَذَّبِينَ به.

﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾: أي: غَيْرُ مَوْعُودٍ وَعْداً كَذِباً، يُقَالُ لُغَةً: «مَا كَذَبَ الرَّسُولُ قَوْمَهُ وَعْدَهُ» فَوَعْدُهُ غَيْرُ مَكْذُوب. ويُقَالُ: «كَذَبَ إبْلِيسَ آدَمَ حَدِيثَهُ» فَحَدِيثُهُ مَكْذُوبٌ.

فلا حَاجَةَ مَعَ هَـٰذا إلى تَقْدِيرِ مَعْمُولٍ مَحْذُوفٍ، كأَنْ نَقُول: مَكْذُوبٍ فيه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيّناً تَنْجِيَةَ صالح عليه السّلامُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وإهْلَاكَ كُفَّارِ قَوْمِهِم.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾:

القراءات:

• قرأ نافع والكِسَائِي، وأبُو جَعْفَر: [**وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ**] بفَتْحِ الميم مِن «يَوْمَئِذٍ» علىٰ أنَّها حَرَكَةُ بناءٍ لإضَافَتِهِ إلى غَيْرِ مُتَمكِّنٍ.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ بجَرِّ لفْظِ «يَوْمِ» عَلَىٰ أنَّهُ مُضَافُ إلَيْهِ.

• قرأ حفص، وحمزة، ويَعْقُوب: [**ألاَ إنَّ ثَمُودَ**] بَفَتْحِ الدَّال، على أنَّ ثَمودَ مَمْنُوعٌ من الصَّرْف لَا يُنوَّن، باعْتِبار أنَّهُ اسْمٌ للقبيلَة.

وقرأها باقي القراء العشرة مَصْرُوفَةً مُنوَّنَه: [**ألاَ إنَّ ثَمُوداً**] باعْتِبَارِ أَنَّ ثَموداً اسْمٌ لجدِّ القبيلَة فيُصْرَف.

• قرأ الكِسَائيُّ: [**لِثَمُودٍ**] مَصْروفَة. وَقرأها الباقونَ [**لِثَمُودَ**] مَمْنُوعَةً مِنَ الصَّرْف.

التدبُّر التحليلي:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: أي: فَلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنا الَّذِي قَضَيناهُ بتَنْجِيَةِ صَالِحٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه، وإهْلَاكِ سَائِرِ ثَمُود بسَبَبِ ظُلْمهم.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾:

النجاة: الْخَلَاصُ مِنَ المكْرُوه.

أي: خَلَّصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أنْ نُخَلِّصَهُمْ مِنَ الإهْلَاكِ، وهُمْ صَالِحٌ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بوَسِيلَةٍ هي مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا، وخَلَّصْنَاهُمْ مِنَ الْخِزيِ الَّذِي نَزَل بِكُفَّارِ ثَمُودَ يَوْمَئِذٍ قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، إذْ سَبَقَ إمَاتَتَهُمْ إذْلَالُهُمْ، وإسْقَاطُهُمْ على رُكبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، خَزَايَا، مُهَانِينَ، مُحْتَقَرِينَ، وتَعْذِيبُهُمْ عَذَاباً أليماً.

الْخِزْيُ: الْوُقُوعُ في الشَّرِّ والْعَذَاب والْبَلَايَا، والذُّلُّ والْهَوَانُ، والافْتِضَاحُ بالْقَبَائح.

فَدَلَّ هَـٰذا البيانُ على أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَمَرَ صَالحاً عَلَيْهِ السلامُ بأن يَبْتَعِدَ هُوَ وَالذِينَ آمَنُوا مَعَهُ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلِ الْعَذَابِ قَبْلَ الْمَوْعِدِ المحَدَّدِ لإنْزَالِه، وأنَّهُمْ خَرجُوا مِنْ أَرْضِ ثَمُودَ، وابْتَعَدُوا عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلِ الْعَذَابِ كَمَا أَمَرَ اللهُ، وأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ حَمَىٰ بِرَحْمَتِهِ الْمَكَانَ الَّذِي وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُصِيبَهُ شيءٌ مِمَّا نَزَلَ بالْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ المهْلَكِينَ، فَلَمْ يَنْزِلْ بِهِمْ خِزْيٌ وَلَا هَلاكٌ.

• ﴿... إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾: جاء في هذه العبارَةِ تَمْجِيدٌ للهِ بِقُوَّتِهِ وَعِزَّته.

﴿ٱلْقَوِيُّ﴾: أي: ذُو الْقُوَّةِ العظيمَةِ الكُبْرَىٰ، الَّتي يَفْعَلُ بِهَا مَا يَشَاءُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ، مَهْمَا احْتَاج الأَمْرُ الَّذِي يَفْعَلُهُ مِنْ قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: ذُو الْقُوَّةِ الْغَالِبَةِ لِكُلِّ الْقُوَىٰ.

وَأَرَىٰ في هَـٰذا البيانِ عَقِبَ بَيَانِ تَنْجِيَةِ صَالح عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، إِشَارَةً إِلَىٰ أَنَّ تنجيَتَهُمْ قَدْ كانَتْ ذَاتَ ظُرُوفٍ تَحْتَاجُ قُوَّةً عَظِيمَةً وعِزَّةً غالِبَةً.

فَهَلْ نَجَّاهُمُ اللهُ إِذْ كَانَ كُفَّارُ ثَمُودَ يُلَاحِقُونَهُمْ لِيَقْتُلُوهم؟ أو نَجَّاهُمْ مَعَ أَنَّ أَمْكِنَةَ وُجُودِهِم قَدْ كَانَتْ فِي مُحِيطِ تَنَزُّلَاتِ وَسَائِلِ تَعْذِيبِ كُفَّارِ ثَمُودَ وإِهْلَاكِهِمْ؟ اللهُ أَعْلَم.

• ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وَقَبَضَتِ الصَّيْحَةُ على الَّذِينَ ظَلَمُوا وَهُمْ كُفَّارُ ثَمُودَ، قَبْضَةَ تَعْذِيبٍ وَإِخْزَاءٍ وإِهْلَاكٍ مُسْتَأْصِل:

الصَّيْحَةُ: صَوْتٌ عَظِيمٌ مُمِيت.

اخْتِيرَتْ عِبَارَةُ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ للإشْعَارِ بِأَنَّ ظُلْمَهُمْ قَدْ كَانَ هُوَ السَّببَ في تَعْذِيبِهِمْ وإِخْزَائِهِمْ وإِهْلَاكِهِم.

• ﴿... فَأَصۡبَحُواْ فِي دَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾:

﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: أي: فَدَخلُوا في صَباحِ الْيَوْمِ المقرَّرِ لإهْلَاكِهِم فيه.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لَاصِقِينَ بالْأَرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمين أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ، بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا عَذَاباً أليماً وَخِزْياً ذَلَّتْ بِهِ نُفُوسُهُمْ، وَنَالَهَا صَغَارٌ وَمَهَانَةٌ، جَزَاءَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ تَعالٍ واسْتِكْبَارٍ على بارِئِهِمْ وَرَسُوله.

• ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾: أي: فَصَارَتْ حَالَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَاب اللهِ مَا نزلَ، تُشْبه حَالَةَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إِقَامَةٌ مُطْلَقاً فِي دَارِهِمْ، وَهَٰذا يَدُلُّ على استِئْصَالِ وُجُودِ أجْسَادِهِمْ الهلْكَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَمْسِ كُلِّ آثَارٍ لَهُمْ فِيها.

يُقَالُ لُغَةً: «غَنِيَ بالْمَكَانِ، يَغْنَىٰ، غِنًى، وَغَناءً» أي: أقام فيه. و«غَنِيَ الْقَوْمُ بِالْمَكَانِ» أي: طَالَ مُقَامُهُمْ فِيه.

والْمَغْنَىٰ: المنْزِلُ الَّذِي غَنِي بِهِ أَهْلُهُ، وجَمْعُهُ «الْمَغَانِي».

• ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾:

﴿أَلَآ﴾: أَدَاةُ اسْتِفْتَاحٍ وَتَنْبِيهٍ وَتَحْقِيقٍ.

﴿إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾: أي: إنَّ ثَمودَ كَفَرُوا جاحِدِينَ رَبّهم، وَسَاتِرِينَ الْأَدِلَّة الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبِيَّتِهِ لَهُمْ، وأَنَّهُ هُوَ الإلَٰهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ لَهُ حَقُّ الْإِلَٰهِيَّةِ غَيْرُهُ، وكُلُّ إِلَٰهٍ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِهِ جَلَّ وعَلَا بَاطِلٌ، أَوْ وَهْمٌ لَا حَقِيقَةَ له.

﴿... أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: أَلَا طَرْداً لِكُفَّارِ ثَمُودَ، مِنْ كُلِّ

مَوَاقِعِ نُزُولِ آثارِ الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ التي تَعُمّ كُلَّ شَيْءٍ، والسَّبَبُ فِي هذا أَنَّهُمْ أَبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلاتِ رَحماتِ الرَّحْمٰنِ، فاسْتَحَقُّوا الحكْمَ عَلَيْهِمْ بالإبْعَادِ والطَّرْدِ.

وَنُصِبَ لَفْظُ «بُعْداً» عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الثالث من فُصُولِ الدَّرْسِ السّادِسِ من دُروس سورة (هود).

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وَفَتْحِهِ وَتَوْفِيقِهِ.



الفصل الرابع من الدرس السادس

لقطات من قِصَّةِ إبْرَاهِيم ولوط عليهما السلام وقوم لوطٍ أهل سَدُوم

الآيات من (٦٩ ـ ٨٣)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ

لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

تمهيد:

فِي آيَاتِ هَـٰذا الفصل عَرْضُ لقَطاتٍ مِنْ قِصَّةِ لُوطٍ عَلَيْهِ السلام وقومه أهل سَدُوم، وفي أوَّلِهَا لَقَطاتٌ عَنْ إبراهيم عليه السَّلامُ، باعْتِبَارِ أنَّ رِسَالَةَ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ امْتِدادٌ لِرَسَالَتِه في بلاد الشَّام، فَقَدْ كَانَ أحَدَ المؤمنين بِهِ والتابِعِين لَهُ، ثُمَّ اصْطَفَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ نبيًّا ورَسُولاً وأَرْسَلَهُ إلَىٰ أَهْلِ سَدُوم، وكانُوا في خَمْسِ قُرىٰ تَقَعُ في الأرض الَّتِي قَلَبَهَا اللهُ عليهم، وجَعَلَ عَالِيَها سَافِلَها، وهِيَ الآنَ في قَاعِ الْبَحْرِ الميِّت.

وقَدْ سَبَقَ في المَلْحَقِ الخامس من ملاحق تدبُّر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) دِرَاسَة تكامُلِيّة لكُلّ النُّصُوصِ القرآنيَّة المتَعَلِّقَةِ بشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ وقَوْمِهِ، وَمِنْهَا آيَات هذا الفصل من فصول سورة (هود/ ٥٢ نزول)[1].

ولهذا أقتصِرُ هُنَا على تَدَبُّر آياتِ هذا الْفَصْل.

---

(١) انظر هذا الملحق الخامس في الصفحات من (٢٨٧ ـ ٣٥١) من المجلّد الخامس من هذا الكتاب.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عزَّ وجلَّ:

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ﴾ يُؤَكِّدُ اللهُ عزَّ وجلَّ الأَحْدَاث الَّتي جاءت في هذا الفصلِ، باللَّام الَّتي يَرَىٰ النحاة أنها واقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيّ، وبلفظ «قَدْ» الَّتي هي للتحقيق؛ لأنَ الْمَعْنِيِّينَ بالْعِلاج هُمْ كُبَراء كُفَّارِ قُرَيْشٍ إبَّانَ التنزيل وأتباعُهم.

• ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: وَقَرأ أبُو عمرو **[رُسْلَنا]** بإسْكان السّين، والقراءتان لغتان.

فعل «جاء» يُسْتَعْمَلُ لازماً، مثل «جَاءَ الرَّجُل» ومُتَعَدِّياً مِثْل: «جَاءَ النَّبأُ الرَّجُلَ» وعلى هذا اسْتُعْمِلَ هُنَا فِعْل: «جَاءَت» وفاعله «رُسُلُنَا» ونُصِب لَفْظُ «إبْرَاهِيمَ» على أنَّهُ مَفْعُولٌ به.

ولفظ «الْبُشْرَىٰ» اسْمٌ للتَّبْشِير، وهو الإخْبارُ بِمَا يَسُر، وجاء بيان المراد بها في الآية (٧١).

والمرادُ بعبارة: ﴿رُسُلُنَا﴾ الْمَلاَئِكَةُ الَّذِين أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِتَبشيرِ إبْرَاهِيم وَزَوْجَتِهِ العقيم سَارَة، بوَلَدٍ مِنْهُمَا اسْمُهُ «إسْحَاق» ولإعْلامِهِ بأَنَّهُمْ مَأْمُورُونَ بإهْلَاكِ قَوْم لَوْطٍ، بَعْدَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ عِنْدِهِ، وَيَحِينَ وقتُ إنْزَالِ الْعَذَابِ المهْلِكِ عَلَيْهم.

فالمعنى: ولَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا الّذِينَ أَرْسَلْنَاهُمْ مِنَ الْمَلَائِكَة إبراهيمَ نَبِيَّنَا وَرَسُولَنَا مَصْحُوبين بالْبُشْرَىٰ، بأنَّ اللهَ سَيَهَبُهُ وَزَوجَتَهُ «سَارَة» ولَداً مِنْهُمَا مَعَ كَوْنِها عَجُوزاً عَقِيماً.

وقد جاءُوه على صُوَرِ رِجالٍ بَشرٍ لَا يَعْرِفُهُمْ[1].

● ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ﴾: بَدَؤُوهُ بِالتَّحِيَّةِ قائِلِينَ لَه: «سَلَاماً» أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلاماً، فَلَفَظْ: «سَلاماً» مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾: أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ سَلامٌ. قال البلاغيُّون: «سَلَامٌ» جُمْلَةٌ اسْمِيَّة مع الْمُبْتَدأ المحْذُوف المقدّر ذِهْناً، و«سَلاماً» جمْلَة فِعْلِيَّةٌ مع العاملِ المحذوف، والْجُمْلَةُ الاسمِيَّةُ أَقْوَىٰ وَآكَدُ مِنَ الجملة الْفِعْلِيَّة؛ لِأَنّ في خَبَرِها ضَمِيراً يَعُودُ على الْمُبْتدَأ، ففيها إسنادان، وعلى هَـٰذا فقد رَدَّ إبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ التَّحِيَّةَ بِأَحْسَنَ مِنْهَا.

● ﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾: أي: فَذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لِضِيَافَتِهِمْ وَهُوَ يَجْهَلُ كَوْنَهُمْ مَلَائِكَةً، ولَمْ يُظْهِرْ بحَرَكَتِهِ علَامَاتِ إرادَةِ إكْرَامِهِمْ، فَمَا أَبْطَأَ عَنْ مَجِيئِهِ بِعِجْلٍ مَشْوِيٍّ بالدَّس في النَّارِ، أَوْ في حِجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنَّار.

الْمُرَادُ بِنَفْي اللُّبْث هُنَا عَدَمُ الإبْطاءِ، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ مُطْلقاً مِنْ شِدَّةِ سُرْعَةِ إحْضارِهِ ضِيافَته.

اللُّبْثُ: هُو في اللُّغَةِ الإقامَةُ بالمكان.

حَنِيذٍ: أي: مَشْوِيّ بالدَّسِّ في النَّار، أو في حِجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنّار.

● ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ... ﴿٧٠﴾﴾:

---

(١) جاء في الإصحاح (١٨) من سِفْر التكوين أنهم كانوا ثلاثة رجال، وجاء في الإصحاح (١٩) مِنْهُ أنّ مَنْ ذَهَبَ مِنهم إلى إهْلَاكِ قوم لوط في سَدُوم كانوا مَلَاكَيْن.

أي: فَلَمَّا رَآهُمْ لَا يَأْكُلُونَ مِنَ العِجْلِ السَّمِينِ الْحَنِيذِ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِم، إِذْ رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَمْتَدُّ إِلَى الطَّعَامِ حَتَّىٰ تَصِلَ إليه (جاء التعبير بأحَدِ لوازِمِ عَدَمِ الْأَكْلِ على سَبِيلِ الْكِنَايَة) اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمُ الَّذِي هُوَ عَلَىٰ غَيْرِ عَادَةِ الضُّيُوفِ، بَلْ هُوَ عَادَةُ الَّذِينَ يَأْتُونَ بِشَرٍّ، وَلَمْ يَخْطُرْ في بالِهِ ـ عَلَيْهِ السَّلَامُ ـ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ، إِذْ كَانَ مَظْهَرُهُمْ لَا يُشْعِرُ بِذَلِكَ.

﴿نَكِرَهُمْ﴾: أي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمْ.

﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾: أي: وَأَحَسَّ فِي نَفْسِهِ خَوْفاً مِنْ غَرَضِهِمُ الَّذِي جَاءُوا بِهِ، إِذْ هُمْ بَشَرٌ بِحَسَبِ الظَّاهر.

• ﴿... قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ ...﴾:

أي: قالُوا لَهُ: لَا تَخَفْ، وأكَّدُوا لَهُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةٌ أَرْسَلَهُمُ اللهُ إلى إِهْلَاكِ قَوْمِ لُوطٍ.

وطُوِيَ في النَّصِّ: وأَنَّهُمْ مَرُّوا بِهِ لِيُبَشِّرُوه بِمَوْلُودٍ غُلَامٍ مِن زَوجَتِهِ «سارَة» دَلَّ على هذا المطوي: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾: أي: وامْرَأَتُه سَارَة قائِمَةٌ مِنْ وراءِ حِجَابٍ تَتَسَمَّعُ الْحِوَارَ فَضَحِكَتْ لمَّا عَلِمَتْ مَا جاء في الْبُشْرَىٰ، وجَاءَ فِي سُورَة (الذَّاريات) أنَّها أقبَلَتْ في ضَجَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْها وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهَا خافَتْ أَنْ يَكُونَ الْغُلامُ الْمُبَشَّرُ بِهِ مِنْ زَوْجَةٍ غَيْرِهَا يَتَزَوَّجُها إبراهيم عليه السَّلام.

• ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾:

• قرأ حفص، وحَمْزَةُ، وابْنُ عامر: **[يَعْقُوبَ]** بفَتْحِ الباء نَصْباً.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[يَعْقُوبُ]** بضَمِّ الباء رَفعاً، على أَنَّهُ مُبْتَدأ، وعبارة: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ﴾ خَبَرٌ مُقَدَّم.

أَمَّا النَّصْبُ فهو على تقدير «فِعْلٍ» أي: وَوَهَبْنَاهَا مِنْ وَراء إسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وأبَانَ الواقِعُ أَنَّ يَعْقُوبَ جَاءَ ابْناً لإسْحَاق عليهما السلام.

﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا﴾: هَـٰذا كلامٌ صَادِرٌ عَنِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، اسْتُعْمِلَ فِيه ضَمِيرُ المتكلِّم العظيم الّذِي يَفْعَلُ مَا يَشَاء، ويَخْلُقُ ما يُرِيد، للإشْعَارِ بأنَّ بِشَارَةَ المَلَائِكَةِ لَهَا إِنَّمَا كَانَتْ بِأَمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، فَهِيَ بِشَارَةٌ مِنْهُ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ، إِذِ الْقَضَاءُ قَضَاؤُه، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ.

• ﴿قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾:

[يَا وَيْلَتَا] أصْلُهَا: يَا وَيْلَتِي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فَتْحَةً، وقُلِبَتِ الْيَاءُ أَلِفاً، وهَـٰذا أَحَدُ وُجُوهٍ عَرَبِيَّةٍ في المنادَىٰ المضَافِ لياء المتكلّم.

الويل: كَلِمَةُ عَذَاب، وتُسْتَعْمَلُ في التَّفَجُّع، والنُّدْبَة، والتَّحْذِير، والتَّهْدِيد، والإخْبَارِ بالْعِقَاب المقرَّر.

وقد تَصْدُر عبارَة: «يَا وَيْلَتي» أو «يَا وَيْلَتَا» عن أفواه النّساء، إذا طَرَأَ عَلَيْهِنَّ مَا يَعْجَبْنَ مِنْهُ أشَدّ الْعَجَب، ولا يَقْصِدْنَ وُقُوعَ العذاب، ولا الخوفَ منه، ولا شيئاً مِمَّا تُسْتَعْمَلُ لَهُ العبارة، وعلى هذا قالت «سارة» في تَعَجُّبِها: **[يَا وَيْلَتَا]** أي: يَا عَجَباً عظيماً.

• ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾؟!! الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ العبارة استفهامٌ تَعَجُّبيّ.

﴿عَجُوزٌ﴾: أي: كبيرة السِّنِّ هَرِمَةٌ، يُقَالُ: رَجُلٌ عَجُوزٌ، وامْرأة عَجوز، فَهُم «عُجُزٌ» وهُنَّ «عُجُزٌ» وَ «عَجَائِز».

وجُمْلَةُ: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ حَالِيَّةٌ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحال.

﴿شَيْخًا﴾ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ حَال، والعامل فيه ما في لفظ اسم الإشارة ﴿هَـٰذَا﴾ مِنْ مَعْنَىٰ الفعل على ما يَقُولُ النَّحْوِيُّون.

الشَّيْخُ: هو في اللُّغة مَنْ بلَغَ سِنَّ الشَّيْخُوخَة، وهو فَوْقَ الكَهْلِ، ودُونَ الْهَرِمِ، والْهَرِمُ هُوَ الَّذِي يَبْلُغُ أقْصَىٰ الْكِبر.

• ﴿... إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾: أي: إنَّ حُدُوثَ مِثْلِ هَـٰذا الْأَمْرِ الَّذِي لَمْ يُشَاهَدْ لَهُ نظِيرٌ في النَّاسِ لَشَيْءٌ عجيب. جاء توكيد هذه العبارة بالمؤكّدات: «إن ـ والْجُمْلَة الاسمية ـ واللّام المزحْلَقة».

• ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

• ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي: قَالَ الرُّسُل من الملائكة الذين جاءُوا إبراهيمَ بالْبُشْرَىٰ لامْرأته «سارة»: هَـٰذا القول بصيغة الاستفهام الذي فيه معنَىٰ العتاب.

والمعْنَىٰ: أنت امرأةٌ فَاضِلَة، وزَوْجَةُ نَبِيٍّ وَرَسُولٍ، وعِشْتِ في بَيْتِ نُبُوَّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وتَلَقَّيْتِ مَفاهِيمَ الإيمان طَوَال هَـٰذِهِ المدَّة، فَكَيْفَ تَعْجَبِينَ مِنْ حُدُوثِ شيءٍ هو مِنْ شأْنِ الله، قَدَّرَهُ وَقَضاهُ، وأصْدَرَ بِهِ أَمْرَهُ، علىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حينِهِ، وأَنْتِ تُؤْمِنِينَ بأَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ إذا أَرَادَ شَيْئاً فإنَّما يقول له: «كُنْ» فَهُوَ يَكُونُ علىٰ وَفْقِ أَمْرِ اللهِ التَّكْوِيني.

إنَّ مَنْ كَانَ مِثْلَكِ لَا يَلِيقُ به أَنْ يَعْجَبَ مِنْ أَمْرِ الله، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتِ أَنَّ اللهَ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُهُ يُبَشِّرُكِ بِوَلَدٍ لَكِ مِنْ زَوْجِكِ إبْرَاهِيم اسْمُهُ إسْحَاق.

• ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: في هَـٰذه العبارة بَيَانٌ لِلْحِكْمَةِ مِنْ خَرْقِ اللهِ سُنَّتَهُ لِسَارَةَ الْعَجُوز الْعَقِيم، زَوْجَةِ شَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ مِنْ بَعْدِهِ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام.

وهِيَ أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ إبْرَاهِيم قَدْ خَصَّكُمُ اللهُ فَأَفَاضَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ إكْرَاماً لَهُ، ولِجِهَادِهِ وصَبْرِه، ومَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾: صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ الجليلَةِ على ما يليقُ به، مِنْ آثارِهَا الْعَطَاءُ، والمعونَةُ والتَّوْفِيقُ، وإزالَةُ الْبُؤْسِ، والإمْدَادُ بِمَا يَسُرُّ ويُسَكِّنُ النَّفْسَ، ويُطَمْئِنُ الْقَلْبَ، ويُمْتِعُ ذَا الحياةِ بِمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، وَيَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَتَهُ، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرَّ والضُّرَّ والأَذىٰ، ويَهْدِيهِ إِلَىٰ مَا فِيهِ خَيْرُهُ وسَعَادَتُهُ في عَاجِلِ أَمْرِه وَآجِلِهِ، ويُبَيِّن لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وضُرٌّ وأذى، ونَحْو كُلِّ ذلِكَ.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: أي: وزياداتُه الكثيراتُ مِنْ كُلِّ خَيْر. **الْبَرَكَةُ**: هي الكَثْرَةُ مِنْ كُلّ خَيْر، وجُمِعَتِ الْبَرَكَةُ على «بَرَكَات» للدَّلالَةِ على اخْتِلَافِ الْأَنْواعِ والْأَصْنَاف.

﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي: هَاطِلَةً عَلَيْكُمْ كَالْغَيْث، وَمُظَلِّلَةً لَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ كَالْخَيْمَة، فَأَنْتُم مَغْمُورُونَ ومُظَلَّلُونَ بِرَحْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَرَكاته.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾: أي: يا أَهْلَ بَيْتِ إبراهيم، بحَذْفِ أَداة النِّداءِ «يا».

﴿... إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾: في هَـٰذه العبارة ثناء على اللهِ جَلَّ جَلَالُه بِصِفَتَيْنِ مُلَائِمَتَيْنِ لِفُيُوض عَطَاءاتِ رَحْمَتِه، وما يَمْنَحُهُ لِبَعْضِ عباده من زِيَادَاتِ الخير.

﴿حَمِيدٌ﴾: صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لاسم الفاعل «حامِد» أي: كَثِيرُ الحَمْدِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ والتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بمحابِّهِ. أو لاسم المفْعُولِ «محمود» أي: المحْمُودُ بصِفَاتِ ذَاتِه وَبِصِفَاتِ أَفْعَالِهِ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ حمْداً كثيراً، إِذِ الْحَمْدُ كُلُّهُ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

وقد كان إبراهيمُ عليه السّلام كثيرَ الْحَمْدِ للهِ عَزَّ وجَلَّ، فاللهُ يكافِئُهُ بالْحَمْدِ الكثير، ويَزيدُهُ وَيَزِيدُ أَهْلَ بَيْتِهِ مِنْ فُيُوضِ رَحْمَتِه.

﴿مَّجِيدٌ﴾: صيغَة مبالغة لاسم الفاعل «مَاجد». **الْمَجِيدُ** في اللّغة: هو الرَّفِيع العالِي الشريفُ العظيمُ ذو الْخَيْرِ الكَثِير. **وَالْمَجْدُ**: الكَرَمُ والشَّرَفُ والْعُلُوُّ والرِّفْعَةُ المعْنَوِيَّة.

قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

• ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الْفَزَعُ، وهُوَ الْخَوْفُ الَّذِي تَظْهَرُ لَهُ آثَارُ نُفُورٍ فِي حَرَكَاتِ الْجِسْمِ، واسْتِعْدَادٌ لِدَفْعِ المفْزُوعِ مِنْه.

أي: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إبراهِيمَ الْفَزَعُ الَّذِي أَثَارَهُ أَنَّ ضُيُوفَهُ لَمْ يَأْكُلُوا مِنْ طَعَامِهِ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ هُو وَزَوْجَتُهُ بإسْحَاقَ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، وتَلَقَّىٰ نَبَأَ إِهْلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ وتَعْذِيبِهِمْ، وكانَتْ نَفْسُهُ قَدْ هَدَأَتْ واطْمَأَنَّتْ، شَرَعَ يُجادِلُ رُسُلَنا فِي قَوْمِ لَوْطٍ، لِرَفْعِ الْعَذَابِ والإهْلاَكِ عنهم ولو إلىٰ حين.

الَّذِي دعا إلى تقدير فعل «شَرَعَ» أو نَحْوه، أَنَّ جوابَ لَمَّا يَكُونُ فِعلاً مَاضِياً لَا مُضارِعاً، والمتدبّر لِكِتاب الله عَزَّ وجَلَّ يُلاحِظُ كَثْرَةَ حَذْفِ مَا يُعْلَمُ وَيَسْهُلُ تَقْدِيرُه، ومِنْهُ في هَٰذا النّصّ أيْضاً عبارة مَطْوِيَّةٌ مُفَادُهَا: وَتَلَقَّىٰ نَبَأَ تَعْذِيب قَوْمِ لُوطٍ وإِهْلاَكِهِمْ.

لَقَدْ سَمَّىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ حِوَارَ إبراهيمَ عليه السلام مع الرُّسُلِ من الْمَلاَئِكَةِ الْمُرْسَلِينَ لإهْلاكِ قَوْم لوطٍ مُجادلَةً لَهُ سُبْحانه، لأنَّه هو ـ جلَّ جَلاَلُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ الَّذِي أرْسَلَهُمْ وَكَلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بإهْلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ، وَهُمْ مَلاَئِكَةٌ كِرَامٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون، ولَا نَعْلَمُ عَنِ الْمَعْصُوم كَيْف كانَتْ مُجادَلَةُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ للرُّسُل من الملائِكَة.

ورُوِي عَنِ قَتَادَة تَفْصِيلٌ لِمُجْمَلِ هَٰذِهِ المجادلَة، ولكِنَّهَا غَيْرُ مَرْفُوعة إلى الرَّسُولِ ﷺ.

لَقَدْ رَجا إبراهيم عليه السَّلامُ بِحِواره الَّذِي سمَّاه اللهُ مُجادَلَةً لَهُ، أَنْ

يَصْرِفَ اللهُ عَنْهُمُ الْعَذَابَ الشّامِلَ المهْلِكَ لَهُمْ جَميعاً، أَوْ يُؤَخِّرَهُ إلَىٰ أجَلٍ آخر، لعَلَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ يَتوبُونَ ويَسْتَغْفِرون، ويُؤْمِنُونَ، ويُقْلِعُونَ عَنْ فَوَاحِشِهِمْ، وَكَبائِرِ مُنْكَرَاتهم.

وقَبْلَ أَنْ يُعْلِمَنَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ بأنَّهُ أَوْحَى إلَى إبراهِيْمَ أَمْرَهُ لَهُ بِأَنْ يُعْرِضَ عَنْ هذا الذي شرَعَ يُجَادِلُ فيه، أَثْنَىٰ عليه بِثَلاثِ صِفَاتٍ جَلِيلَات فقال تبارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ مُؤَكِّداً هَـٰذا البيان بمؤكدات ثلاثة: «إنَّ ـ والْجُمْلَة الاسمِية ـ واللّام المزحْلَقَة».

﴿لَحَلِيمٌ﴾: **الْحَلِيمُ**: ذُو الْأَناة، القادر على ضَبْطِ نَفْسه عِنْدَ الْغَضَب، أوْ عِنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، والَّذِي يَعْقِلُ بإرادةٍ قَوِيَّةٍ نَوَازِعَ نَفْسِهِ، والَّذِي يَعْفُو ويَصْفَحُ.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: **الْأَوَّاه**: الرَّحِيمُ، الرَّقِيقُ الْقَلْب، الكَثِيرُ الحزْن، الَّذِي يَتَأَوَّهُ كَثِيراً من الشفقة، أو عِنْدَ الْفَرَقِ، ويُلَازِمُ هَـٰذِهِ الصِّفَاتِ كَثْرَةُ التَّضَرُّعِ للهِ، والْمُحافَظَةِ عَلَى طَاعَتِه.

﴿مُّنِيبٌ﴾: أي: ذُو رُجُوعٍ إلَىٰ اللهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وفِكْرِهِ، وهو اسم فاعل مِنْ فِعْلِ «أَنَابَ» يقال لغة: «أَنابَ فُلَانٌ إلى الشَّيْءِ» أي: رَجعَ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. ويُقَالُ أيْضاً: «نَابَ إلىٰ الشيءِ» أي: رجعَ إلَيْهِ واعْتَاده.

- ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾:

مِنَ الظَّاهِرِ أَنَّ هَـٰذا قَوْلُ الرُّسُلِ مِنَ الملائِكَةِ لإبْرَاهِيمَ عَلَيه السّلام، وهو مُسْتَقْطَعٌ مِنَ الْحَدَثِ الماضِي، ومُقَدَّمٌ بِنَصِّهِ دُون حِكَايَةٍ، وهَـٰذا مِنَ الإبْدَاعَاتِ الْجَمِيلَةِ في الْقُرْآنِ المجيدِ.

أي: يا إبْرَاهِيمُ أعْطِ لِهَذَا الأمرِ الذي تَوَجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ شَفَقَةً عَلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ عارِضَكَ (= جَانِبَ وَجْهِكَ) فَشَفَاعَتُك فِيهم غَيْرُ مُسْتَجابَة.

الإعْراض: وَسَطٌ بَيْنَ الْمُوَاجَهَةِ والإدْبَار.

ونُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ لَنَا بِتَنْفِيذِ التَّعْذِيبِ والإهْلَاكِ، فَنَحْنُ لَا نَمْلِكُ إلَّا تَنْفِيذَ أَمْرِ رَبِّكَ، فَدَعْ مُجَادَلَتَك لَنَا، وأعْرِضْ عَنْ هَـٰذا الْأَمْرِ إعْرَاضاً كامِلاً، فَقَوْمُ لُوطٍ لَا بُدَّ أَنْ يُعَذَّبُوا وأنْ يُهْلَكُوا، وإنَّهُمْ سَيأْتِيهِمْ فِي الْأَجَلِ المعَيَّنِ المبَيَّنِ لَنَا بِالْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ عَذَابٌ قَدَّرَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وقَضَاهُ، وهَـٰذا الْعَذَابُ نَازِلٌ بِهِمْ حَتْماً، وَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لَا رَادَّ لِقَضَاءِ اللهِ المبْرَم.

«آتٍ» من عبارة: ﴿ءَاتِيهِمْ﴾ اسم فاعلٍ كالفعل المضارع يَصْلُح للحَالِ والاستِقْبَالِ، وهو هُنَا مَحْمُولٌ علَىٰ الاستقبال.

﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي: غَيْرُ مَمْنُوعٍ وَلَا مَصْرُوفٍ وَلَا مُرْجَع. أصْل مَعْنَىٰ الرَّدِّ: الإرْجَاعُ والإعَادَة، وَلَا يَكُونُ صرف العذاب إلَّا إذا رُدَّ الْأَمْرُ بِهِ إلى الآمِر، وهَـٰذا لَنْ يَكُونَ.

إنَّ أَمْرَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِتَعْذِيب قَوْمِ لوطٍ وإهْلَاكِهِمْ قَدْ كَانَ أَمْراً مُبْرَماً وَحَكِيماً، وقَضَاءً مُسْتَنِداً إلى عِلْمِهِ تبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِحَقِيقَةِ أحْوَالِهِمْ، وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ ونُفُوسِهِمْ، وإلىٰ عِلْمِهِ بأَنَّ صَلَاحَهُمْ عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الْحُرَّةِ قَدْ صَارَ مَيْؤُوساً مِنْهُ، فَمُتَابَعَةُ الاشْتِغَالِ بِدَعْوَتِهِمْ إلى سَبِيلِ اللهِ مِنَ الْعَبَثِ الَّذِي لَا جَدْوَىٰ مِنْه، وَبَقَاؤُهُمْ في الْأَرْضِ هُوَ بِمَثَابَةِ بَقَاءِ بُؤْرَةٍ وَبَائِيَّةٍ تَنْشُرُ الْفَسَادَ في الناس، فَمِنَ الْحِكْمَةِ إبَادَتُهُمْ كَمَا أَبَادَ اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ قَوْمَ نُوحٍ عليه السلام، وَقَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وقَوْمَ صَالحٍ عَلَيْه السّلام.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

● ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ

رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾:

القراءات:

• قرأ أبو عَمْرو: [رُسْلَنَا] بإسْكانِ السين، وقَرأَهَا بَاقِي الْقُرَّاء الْعَشَرَةِ بِضَمِّ السّين.

• كَلِمَةُ: [سِيءَ] فيها قراءتان: الأولى بإشمام كَسْرَة السّين الضّمّ. والأخرى بالكَسْرَةِ الخالِصَةِ دُون إشْمام.

• وفي عبارة [ولاَ تُخْزُونِ] قراءتان: بِحَذْفِ ياءِ المتكلّم وبإثباتها.

• وفي عبارة [ضَيْفِي أَلَيْس] قراءتان: بإسْكانِ يَاء المتكلم وفتْحها.

التدبُّر التحليلي:

• ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾:

فعل «جاء» من: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾: من المتَعدّي فلفْظُ «لُوطاً» مفْعُولٌ به.

﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: سَاءَهُ مجيئُهُم إليه، يقالُ لغة: «سَاءَهُ الأمرُ يَسُوؤه» أي: أنْزَل بِه مَا يَكْرَهُ، وأحْدَثَ فِي نَفْسِهِ مَسَاءَةً.

«سِيءَ»: فِعْلٌ ماضٍ مَبْنِيّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهْ، أَصْلُهُ «سُوِىءَ» قُلِبَتِ الواو يَاءً وَكُسِرَتِ السّينُ لِتَنْسَجِمَ مع الياء. ﴿بِهِمْ﴾ نائب فَاعِلِ «سِيءَ».

• ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشْتَدَّ عَلَيْهِ الأمْرُ وثَقُلَ بِسَبَبِهِم، وَهُو على سبيل الكِنَاية، والأَصْلُ في هَٰذِهِ الْعِبَارَةِ أَنَّ الْبَعِيرَ إِذَا حُمِّلَ أَكْثَر مِنْ طَاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أيْ: ضَاقَتْ مَسافَةُ مدِّهِ لِذِرَاعِهِ؛ لِأَنَّ أَرْجُلَهُ الثَّلَاثَة لَا تَسْتَطِيعُ الثَّبَاتَ طَوِيلاً إِذَا رَفَعَ الرَّابِعَةَ في الْخَطْو.

ويُقَالُ أيْضاً: «ضَاقَ بالأَمْرِ ذَرْعاً» أي: لَمْ يُطِقْهُ وَلَمْ يَقْوَ عَلَىٰ تَحَمُّلِهِ. وأَصْلُ الذَّرْعِ بَسْطُ الْيَدِ، فَمَنْ لَمْ يَنَلِ الشَّيْءَ مَعَ بَسْطِ يَدِهِ إلَيْهِ يَكُونُ قَدْ ضَاقَ ذَرْعُهُ عَنْه، أي: عَجزَ عَنْ تَنَاوُلِهِ وَتَحمُّله.

ومَهْمَا يَكُنْ أَصْلُ العبارة فَقَدْ صَارَتْ عِبَارَةً يُكَنَّىٰ بِهَا عَنِ الْعَجْزِ عَنْ تَحَمُّلِ الْأَمْرِ الثَّقِيل، أَو الشّديد الصَّعْب.

- ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾: أيْ: يوم شديدُ المكارِه والمتَاعِب.
- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... ﴿٧٨﴾﴾:

دَلَّ هَـٰذا الْبَيَانُ عَلَىٰ أنَّ خَبَرَ اسْتِضَافَةِ لُوطٍ في مَنْزِلِهِ شباباً مُرْداً حِسَاناً غُرَبَاءَ قَدِ انْتَشَرَ في المدينة، فجاءَهُ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ الْفَاسِقُونَ يُهْرَعُونَ إلَيْهِ، رَغْبَةً فِي فِعْلِ الفاحِشَةِ الشَّاذَّة فِيهم ومَعَهُمْ جُمْهُورٌ مِنْ أتباعِهِمْ وأنْصَارِهِم.

عبارة: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ المرادُ بِقَوْمِهِ كُبَرَاءَهُمْ فَهُمْ أصْحَابُ الْكَلِمةِ المطاعَةِ فِيهِم وَمَعَهُمْ أتباعُهُمْ وأنْصَارُهم، ولَيْسَ مِنَ المعقول أنْ يَكونَ كُلُّ شَعْبِ سَدُوم قَدْ حَضَرُوا إلَىٰ بَابِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ، كما جاء في الإصْحَاحِ (١٩) من سِفْرِ التكوين.

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يَمْشُونَ أَوْ يَعْدُونَ فِي سُرْعَةٍ واضْطِرَاب، يُقَالُ لُغَةً: «هُرِعَ الرَّجُلُ» أي: مَشَىٰ أَوْ عَدَا فِي اضطرابٍ وَسُرْعَةٍ، وَرُبَما كانَتْ هَـٰذِهِ الحركَةُ بَيْنَ المشيْ والْعَدْو.

لَقَدْ أَسْرَعُوا باضْطَرابٍ تتحلَّبُ أشْدَاقُهُمْ يبتَغونَ الْفُجُورَ بالْمُرْدِ الْحِسَانِ.

- ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ... ﴿٧٨﴾﴾: أي: ومِنْ قَبْلِ مَجِيئِهِمْ هَـٰذا إلَىٰ دَارِ لُوطٍ عَلَيْهِ السّلام، كانُوا في نَادِيهِمْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ،

فَلَمَّا بَلَغَهُمْ نَبَأَ ضُيُوفِ لُوطٍ الْحِسَان، تَرَكُوا مَا هُمْ فِيه مِنْ سَيِّئَاتٍ كَانُوا يَعْمَلُونَها عَلَىٰ عَادَاتِهِمْ، سَعْياً لِلْحُصُولِ علىٰ لَذَّةِ مُمَارَسَةِ الْفَاحِشَةِ فِي شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، هِيَ أَحَبُّ إليهم من السَّيِّئَاتِ الَّتِي كَانُوا يَعْمَلُونها.

لفظ السَّيِّئَاتِ يُطْلَقُ غالباً علَىٰ مَا دُونَ الكبائر.

• ﴿... قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾:

أي: قال لُوطٌ علَيْهِ السّلام لَهُمْ مُسْتَعْطِفاً يا قَوْمِ، أي: ومِنْ حَقِّ الإنْسَانِ على قَوْمِهِ أَنْ لَا يَفْضَحُوهُ وَلَا يُخْزُوهُ بَيْنَ النّاس.

• ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾: إنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ وَجَدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وَعاجزاً عَنْ مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٍّ لِأَن يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ مِنْ عَادَاتِهِمْ وَتَقَالِيدِهِمْ، أَنَّهُمْ لَا يَعْتَدُونَ علىٰ نِسَاءٍ لَا حَقَّ لَهُمْ بِمُعَاشَرَتِهِنَّ إلَّا عَنْ طَرِيقِ الزَّواج حِفَاظاً عَلَىٰ أنْسَابِهِمْ، أَرَادَ أَنْ يُحْرِجَهُمْ بِعَرْضِ بَنَاتِهِ عَلَيْهم، وهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا بذَلِكَ، وَلَوْ فَعَلُوا لافْتَضَحُوا وَسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسائهم، وَلَفَجَرَتْ نِسَاؤُهُمْ نِكَايَةً بِهِمْ.

لكِنَّ عَادَةَ إتْيَانِ الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِمْ إثَارَة كَبِيرَة، وكانَتْ في نظرِهِمْ جَمِيعاً بِمَثَابَةِ الْأُمُورِ الْعَادِيَّة، كالطَّعَامِ والشَّرَابِ واللَّهْوِ واللَّعِب، ونحو ذلك.

وعَرْضُ لُوطٍ بناتِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَ مِنْهُ هَـٰذا الْعَرضَ كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ قَتْلَ مَنْ هُوَ فِي حِمَايَتِهِ وَجِواره: اقْتُلْنِي أو اقْتُلْ وَلَدِي بَدَلَهُ وَلَا تَقْتُلْهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَنْ يَقْتُلَهُ، وَلَنْ يَقْتُلَ وَلَدَه.

• ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: فاتَّقُوا أَنْ يُنْزِلَ اللهُ بِكُمْ عِقَابَهُ، إذا أصْرَرْتُمْ علَىٰ دُخُولِ دَارِي عَنْوَةً، وفِعْلِ مَا تَطْلُبُونَ فِي ضُيُوفي.

• ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾: في هَـٰذِهِ العبارة يَسْتَعْطِفُهُمْ بِأَنْ لَا يُخْزُوهُ في ضُيُوفه، فالضَّيْفُ لَهُ حُرْمَةٌ عظيمَة، وقَدْ كانَتْ أَقْوام عَصْرِهِمْ يَرَوْنَ للضَّيْفِ هَـٰذِهِ الْحُرْمَة، فَمَنْ تَعَرَّضَ ضَيْفُهُ لِسُوءٍ وَهُوَ عِنْدَهُ نَالَهُ مِنَ النَّاسِ خِزْيٌ عظيمٌ، وَنَزَلَ به ذُلٌّ وَهَوَان.

الضَيف: النازلُ عند غيره، يستوي فيه الْمفرد والمذكرُ وغيرهما. وقد يجمع ويُثنّىٰ ويؤنث.

• ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾:؟ أي: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ وَاحِدٌ فِيهِ رُشْدٌ وعَقْلٌ، يَمْنَعُكُمْ عَمَّا تَجَمَّعْتُمْ عَلَيَّ مِنْ أَجْلِهِ؟؟.

اسْتِفْهَامٌ يَتَضَمَّنُ وَصْفَهُمْ بِالسَّفَاهَةِ وَخِفَّةِ الْعَقْلِ وانْعِدَامِ الرُّشْدِ، بأسْلُوبٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ.

• ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: قَالُوا لَهُ: إِنَّكَ تَعرِضُ عَلَيْنا أَمْراً تَعْلَمُ أَنَّنا لَا نَقْبَلُهُ فِي أَعْرَافِنَا وَتَقَالِيدِنَا؛ لِأَنَّنَا لَا نَأْتِي نِسَاءَنَا إِلَّا بحَقِّ الزَّوَاجِ، لكنَّنا نَأْتِي الذُّكُورَ عَلَىٰ سَبِيلِ الشُّيُوعِ دُونَ عُقُودٍ وَلَا ضَوابط.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾: أي: قَالَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلام هَـٰذا القول.

«لَوْ» فيها معْنَىٰ الشَّرْط والتَّمَنِّي، أي: أَتَمَنَّىٰ لَوْ أَنَّ لِي بِصَدِّكُمْ ودَفْعِكُمْ عَنْ ضَيْفِي قُوَّةً، لَصَدَدْتكمْ ولَقَاتَلْتُكُمْ حِمَايَةً لِضَيْفِي وَشَرَفِي، أَوْ لَوْ كَانَ لَدَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَتِي وأَنْصَارِي يَحْمِينِي وَيَحْمِي أَهْلِي لَآوَيْتُ إِلَيْهِ، واعْتَصَمْتُ به، إِنَّهُ بهَـٰذا يُعْلِنُ لَهُمْ عَزْمَهُ الشَّدِيدَ عَلَىٰ حِمَايَةِ ضُيُوفِهِ، ومُرَادُهُ أَنْ يَقول لهم: جِئتُمُونِي بِمُصِيبَةٍ وَبَلَاءٍ عَظِيم، وأنا لا أَسْتَسْلِمُ مهما كَلَّفَنِي الأمر.

[آوي إليه]: أي: أَلْجأُ إِلَيْهِ لِينْصُرَني.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَـٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾:

رأى الرُّسُلُ مِنَ الملائكة القادِمينَ إلى لُوطٍ عليه السّلام على صُورَةِ شباب مُرْدٍ حِسَانٍ، مَا وَصَلَ إِلَيْهِ لُوطٌ مِنَ الشِّدَّةِ والقَلَقِ والاضْطِراب، والْخَوْفِ مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يَعْتَدُوا عَلَىٰ ضَيُوفِهِ فَكَشفُوا عَنْ حقِيقَتِهِمْ، وهي أَنَّهُمْ رُسُلٌ مِنَ الملَائِكَةِ أَرْسَلَهُمُ اللهُ لِأَداءِ وَظِيفَةٍ عَظِيمَةٍ.

﴿قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾: أي: فَلَا تَخْشَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْنا فإنَّا قادِرُونَ عَلَىٰ إهْلَاكِهِمْ جَمِيعاً.

ويَظْهَرُ أَنَّ لُوطاً عَلَيْهِ السَّلامُ قَدْ أغْلَقَ بَابَ دَارِهِ وأَوْصَدَهُ وأحْكَمَ تَثْبيتَهُ، وصَارَ التَّخاطُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كُبراء قَوْمِهِ مِنْ ورائِه، دلَّ عَلَىٰ هَـٰذا عبارَةُ: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ أي: فبينَهُمْ وبَيْنَهُ في ذلِكَ الْوَقْتِ حِجَابٌ، وهُو سُورُ الدار، والباب الموصود.

هُنا لَا بُدَّ أنْ يَغْضَبَ قَوْمُهُ ويَعْمَلُوا علَىٰ اتّخاذ وَسِيلَةٍ لِكَسْرِ باب داره، واقْتِحامِهَا عَنْوَةً.

وفي هَـٰذِهِ الأثناء تَابَعَ الرُّسُلُ مِنَ الْملَائِكَةِ بيَانَ الوظيفة الَّتِي جاءوا لِتَنفيذِها بأمْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وَبَيانَ خُطَّةِ إنْقاذِ لُوطٍ وأَهْلِهِ إلَّا امْرَأَتَهُ، من أَرْضِ سَدُوم الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها الْعَذابُ الشَّامِلُ الْمُدَمّر، وقالُوا له:

• ﴿... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

• وقرأ نافع، وٱبْن كَثِيرٍ وأبُو جَعْفَر: [فَاسْرِ] بهمزة وْصلٍ من فعل «سَرَىٰ».

• ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي: فَسِرْ فَوْراً بِأَهْلِكَ لَيْلاً مُبْتَعِداً بِهِمْ عَنْ أَرْضِ سَدُوم. يُقَالُ لغة: «سَرَىٰ اللَّيْلَ، وأَسْرَىٰ به» أي: قَطَعَهُ بالسَّيْر. ويُقال: «سَرَىٰ بِفُلَانٍ لَيلاً، وأسْرَىٰ بِهِ» أي: جَعَلَهُ يَسِيرُ فيه.

• ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بِطَائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازِكُمْ الْأَرْضَ الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْهَا الْعَذَابُ الْمُهْلِك. «القِطْعُ من اللَّيلِ» الطَّائِفَةُ مِنْه.

• ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بأرْض سَدُوم.

• ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾: قَرَأَ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو: [إِلاَّ امْرَأَتُكَ] بالرَّفْع. وقَرَأَهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [إِلاَّ امْرَأَتَكَ]: بالنَّصْب.

فقِرَاءَةُ ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ بالنَّصْبِ دَلَّتْ على اسْتِثْنَائِهَا مِنْ أَمْرِ السَّرَيانِ بأهْلِهِ، أي: دَعْهَا في أرْضِ قَوْمِهَا، وَلَا تَسْرِبها.

وقِرَاءَة [إِلاَّ امْرَأَتُكَ] بالرَّفْعِ دَلَّتْ علىٰ أنَّ امْرَأَتَكَ إذا تَبِعَتْكُمْ دُونَ أَنْ تَدْعُوَها لِتَسْرِيَ بها، فَسَتَلْتَفِتُ وسَيُصِيبُها مَا أَصَابَ قَوْمَهَا مِنْ قَبْلِها فِي أَرْضِهِمْ.

وجاء عند الإسْرَائِيلِيِّين في الإصْحاح (١٩) من سِفْرِ التكوين، أنَّ امْرَأة لوطٍ خَرَجَتْ مَعَ مَنْ خَرَجَ، وأَنَّها الْتَفَتَتْ وَنَظَرَتْ مَا وَرَاءَهَا، فَنَزَلَ عَلَيْها مَا جَعَلَهَا عَمُودَ مِلْحٍ.

• ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾: أي: إنَّ الشَّأْنَ مُصِيبُها (أي: سَيُصِيبُها)

إذَا الْتَفَتَتْ مَا أصَابَ قَوْمهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ رِجْزٍ وَعَذَابٍ وَهَلَاكٍ.

• ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾: أي: إنَّ مَوْعِدَ إنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ عَلَيْهِم هو وَقْتُ الصُّبْحِ.

• ﴿... أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ۝٨١﴾: في هذه العبارة حَثٌّ لَهُ عَلَىٰ أَنْ يُهَيِّىءَ نَفْسَهُ وَأَهْلَهُ إلّا امْرَأَتَهُ لِلرَّحِيلِ، بِقِطْعٍ من اللَّيْلِ، حَتَّىٰ يَكُونُوا بَعِيدِينَ عَنْ أَرْضِ الْعَذَاب قَبْلَ الصُّبْحِ.

وجاء في سورة (القمر/٣٧ نزول) بيان أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ طَمَسَ أعْيُنَهُمْ.

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾:

• ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: فَلَمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنا بتَعْذِيب قَوْم لُوطٍ وإهْلَاكِهِم.

• ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾: أي: رَفَعْنَا أَرْضَهُمُ الَّتِي عَلَيْهَا قُرَاهُمْ في الْجوّ، وَقَلَبْناها حَتَّى صَارَ أعْلَاهَا أسْفَلَها، وَصَارَ أَسْفَلُهَا أَعْلاهَا. فَتَصَوَّرْ أيُّهَا المتَدَبِّرُ كَيْفَ صَارَ حَالُ الْقَوْمِ بَعْدَ هَٰذا الْحَدَثِ الْجَسِيم.

• ﴿... وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ...﴾.

التَّرْتِيبُ الَّذِي يُفْهَمُ ذِهْناً، يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ حَدَثَ إمْطَارِ الْحِجَارَةِ عَلَىٰ قَوْم لُوطٍ سَابِقٌ لِحَدَثِ قَلْبِ أرْضِهِمْ وَدَفْنِهِمْ في الْأَعْمَاقِ. ولَكِنَّ فَنِّيَّةَ بَيَانِ الْحَدَثِ الْخَالِعِ لِلْقُلُوب، تَقْتَضِي الْبَدْءَ بِأَشَدِّ عَنَاصِرِهِ، وهو هنا حَدَثُ قَلْب الأرض، وبَعْدَهُ يأتي عرْضُ تَفْصِيلَاتٍ سابِقَةٍ له، ولهذا جاء عطف: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ بالواو الَّتي هي لمطْلَقِ الجمع، لَا تُفِيدُ تَرْتِيباً وَلَا تَعْقِيباً.

وَجاء التعبير بإنْزَال الحجارةِ عَلَيْهِمْ بعِبَارَةِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ للدّلالَةِ على أنَّ الحجارَةَ الَّتِي نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ تُشْبِهُ نُزُولَ الْمَطَرِ حِينَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ عَلَىٰ الْأَرْضِ فَيعُمُّ مَا نَزَلَتْ عَلَيْه.

• ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي: حِجَارَةً أصْلُهَا طِينٌ تَحَجَّرَ، ورُبَّمَا كانَ للنَّارِ أثَرٌ في جَعْلِهِ مُتَحجِّراً.

• ﴿... مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾: أي: قَد انْضَمَّ بَعْضُهُ إلَىٰ بَعْضٍ باتّسَاقٍ وَتراصُفٍ مُنْتَظِم، ونَزَلَ عَلَيْهِمْ كَطَلَقَاتِ رَصَاصِ الْمدْفَع الرَّشَّاش.

• ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِها مُعَلَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ بِعَلَامَاتٍ تَخُصُّ مُجْرِمِي قَوْمِ لُوطٍ، وَتَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ بِقَصْدٍ لإهْلَاكِ قَوْمِ لُوط.

• ﴿... وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾؛ أي: ليستِ الحجارَةُ هَٰذِهِ مِنْ ظالِمِي قَوْمِ لُوطٍ بِمَكَانٍ بَعِيدٍ عنهم، وَمَا هَٰذِهِ الحجارَةُ الْمُسَوَّمَةُ مِنْ كُلِّ الظَّالِمِينَ الّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإهْلَاكَ بها بمَكَانٍ بَعِيدٍ عَنْهُمْ في كُلّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ عَصْر.

وبهٰذَا تَمَّ تَدَبّر الفصل الرابع من فُصُول الدرس السادس من دُروس سورة (هود).

والْحمد لله على معونَته ومَدَدِه وتَوْفيقه وفَتْحه.



الفصل الخامس من الدرس السادس
لقَطات مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلام وقومه
الآيات مِنْ (٨٤ ـ ٩٥)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم

مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾»:

تمهيد:

جَاءَ في آياتِ هَـٰذا الفصل الخامس ذكر لقطات مِنْ قِصَّةِ شُعَيْبٍ عليه السلام وقومِهِ، وَهَـٰذِهِ اللَّقَطاتُ تُعَالِجُ كُبَرَاءَ كُفَّارِ قُرَيشٍ وأتباعَهُمْ، إبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول) بِحَسَب مَوْقِفِهِم العناديّ الّذي مَا زَالُوا يُصِرُّونَ عَلَيْهِ، رافِضِينَ دَعْوَةَ الرَّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، ومُكَذِّبين لَهُ، ومُكَذِّبينَ بالْقُرْآنِ، ويأْبَوْنَ تَرْكَ قَبائِحِهِمْ الَّتي يُمارِسُونَها، ويَظْلِمُونَ بها النَّاس الَّذينَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَظْلِمُوهم، ويَعْمَلُونَ أَعْمالاً شَبِيهَةً بأعْمالِ قوم شُعَيبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

وهَـٰذا هو النّصُّ الخامس بحَسَبِ تَرْتِيب النُّزُول، من النُّصُوص القرآنية المتعلِّقَةِ بِشُعَيْبٍ عَلَيه السَّلامُ وَقَوْمِهِ، وجَميعُها تِسْعَةُ نُصُوصٍ مُوَزَّعَة في تِسْعِ سُور من القرآن المجيد.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هَـٰذا النَّصّ مع تَدَبّر سَائر النصوص التسعة تَدَبُّراً تَكامُلِيًّا، في الملْحَق السادس مِن مَلَاحِقِ تَدَبُّر سُورَةِ (الأعراف/ ٣٩ نزول)(١).

ولهَـٰذا فَإنّي أقْتَصِرُ هُنَا عَلَىٰ تَدَبُّرِ فقَرَاتِ هذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالى:

• ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: وَلَـقَـدْ أَرْسَـلْـنَـا إلـى الـقَـوْم المعروفين باسم «مَدْيَنَ»، إذْ أُطْلِقَ عَلَيْهِم اسْمُ جَدِّهِم، النَّبِيَّ الرَّسُول أخَاهُمْ نَسَباً ولُغَةً وَمَوْطِناً «شُعَيْباً» عَلَيْه السلام.

كانَ هؤلاء القوم قوماً عَرَباً، وكانت مواطِنُهُمْ مَا بَيْنَ الحِجَازِ وخَلِيجِ الْعَقَبَةِ بِقُرْبِ سَاحِلِ الْبَحْرِ الأحْمر، شَمَالِيَّ الحجاز، وجَنُوب فلسْطِينَ، وقاعِدَةُ أَرْضِهِمْ تَقَعُ مَا بَيْنَ «مَعَان» إلى «الْعَقَبَة» فـ «تَبُوك» وتَمْتَدُّ جبال مَدْيَنَ في الحجاز امْتِدَاداً طَوِيلاً.

و«مَدْين» جَدُّ هؤلَاءِ القوم هو ابْنُ إبراهيم الخليل عليه السلام، من زَوْجَته «قَطُّورَة» الَّتي تَزَوَّجَهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجَتِهِ «سَارَة».

وذكرُوا أَنَّ إبراهيم عليه السّلَامُ أسْكَنَ «مَدْينَ» في دِيَارِهِم الواقعة وَسَطاً بَيْنَ مَساكِنِ ابْنه إسْمَاعِيلَ وَذُرِّيَّتِهِ في الحجاز، ومَسَاكِنِ ابْنِهِ إسْحَاقَ وَذُرِّيَّتِهِ فِي فِلسطين.

وظَهَرَ النَّبيُّ الرَّسُولُ «شُعَيْبٌ» عليه السّلام مِنْ ذُرّيّةِ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عليه السلام، وكانَ لِسَانُهُ ولِسَانُ قَوْمِهِ الْعَرَبِيَّةَ.

---

(١) انظر الملحق السادس من ملاحق تدبر سورة (الأعراف/ ٣٩ نزول): «دراسة تكامليّة للنصوص بشأن «شعيب عليه السلام وقومه» في الصفحات من (٣٥١ ـ ٤٢٩) من المجلّد الخامس من هذا الكتاب.

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥ . . . (٨٤)﴾:

• قرأ الكِسَائِي، وأبُو جَعْفَر: [مَا لَكُم مِّن إِلَٰهٍ غَيْرِهُ] بِكَسْرِ الرّاء، مُرَاعَاةً لِلَفْظِ «إِلَٰهٍ» الْمَجْرُور بَحَرْفِ الجرّ الزائد.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بِضَمّ الراء مُرَاعاة لمحَلِّ لفظ «إِلَٰه» وهو الرَّفع.

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ بحَذفِ يَاءِ المتكلّم وإبقاءِ الكَسْرَةِ دَلِيلاً عَلَيها. وفي هذا النداء اسْتِعْطَافٌ بِرِفْق.

• ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا كانَ في بدايَةِ دَعوتِهِ لِقَوْمِه، وهو مُمَاثِلٌ لِبدَايَاتِ دَعَوَاتِ سَائِرِ الرُّسُلِ عَلَيهِمُ السَّلام لأقوامهم.

لقَدْ بَدَأهم بالْأَمْرِ بعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وهي الْفَرِيضَةُ الرَّبَّانِيَّةُ الْأُولَىٰ بَعْدَ الإيمانِ به رَبّاً لا شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبِيَّتِهِ أَزَلِيًّا أَبَدِيًّا، وبَعْدَ إعْلَانِ الإسْلَامِ له، وإعْلَانِ الْحِرْصِ على طَاعَته.

ومعنى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾: لَيْسَ لَكُمْ في الواقِعِ والحقيقة إلَٰهٌ حَقٌّ يَصِحُّ عقْلاً أَنْ يُعْبَدَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، إِذْ هُو الرَّبُّ الَّذِي لَا رَبَّ فِي الْوُجُودِ سِوَاه، وهَـٰذِهِ العبارة قَدْ وَجَّهَهَا كُلُّ الرُّسُلِ لِأَقْوَامِهِم.

وَدَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارةُ عَلَىٰ أَنَّهُم كَانُوا مُشْرِكِينَ لَهُمْ عبادات شِرْكِيَّةٌ لِغَيْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وَتَدُلُّ عَنْ طَرِيقِ اللُّزُوم الذِّهْنِيِّ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ في اللَّفْظِ مُلَاحَظٍ في الذِّهْنِ بَعْدَ عبارَة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: اعْبُدُوا اللهَ وَوَحِّدُوهُ في العبادة، ولَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً؛ لأَنَّهُ مَا لَكُمْ في الواقعِ والحقِيقَةِ مِنْ مَعْبُودٍ حَقٍّ يَصِحُّ أنْ يُعْبَدَ سِوَاه.

• ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ . . . (٨٤)﴾:

﴿الْمِكْيَالَ﴾ ويُجمَعُ عَلَىٰ «مَكَايِيل» وِعَاءٌ خَاصٌّ يَتَعَارَفُ النَّاسُ عَلَىٰ مِقْدَارِ مَا يَسْتَوْعِبُ فِي فَرَاغِهِ، تُكَالُ بِهِ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تُوضَعُ فِيهِ، لمعْرِفَةِ مَقَادِيرِ جُحُومِهَا، جَامِدَةً كَانَتْ أَمْ سَائِلَةً. وَقَدْ يُرَادُ بالمِكْيَالِ الكَيْلُ.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾: وَيُجْمَعُ على «مَوَازِين» آلَةٌ تُوزَنُ بِهَا الْأَشْيَاءُ لِمَعْرِفَةِ مَقَادِير ثِقَلِها. وَقَدْ يُرَادُ بالميزانِ الْوَزْن.

ويُطْلَقُ لفظ «المِيزَان» أيضاً على الواحِدِ من «السِّنْج» الَّتِي تُوضَعُ بإحْدَىٰ كِفَّتَيْهِ، لِيُوزَنَ عَلَىٰ مِقْدَارها في الْكِفَّةِ الْأُخْرَىٰ.

دَلَّ نَهْيُ شُعَيْبٍ عَلَيْه السَّلَامُ قَوْمَهُ عَنْ نَقْصِ المكيالِ والْمِيزان، عَلَىٰ أَنَّهُمْ كانُوا يَنْقُصُونَ فِي مَعَايِيرِ مَكَايِيلِهِمْ وَمَوَازِينهم، فَيَجْعَلُونَ مِكْيَالاً نَاقِصاً يَكِيلُونَ بِهِ لِلنَّاسِ، وهُوَ مُشَابهٌ فِي الصُّورَةِ لِلْمِكْيَالِ الصَّحِيحِ الوافي، الَّذِي يَكِيلُونَ بِهِ لِأَنْفُسِهِمْ مِنْ أمْوال الناس، وقد يَكِيلُونَ لِأَنْفُسِهِم بمكَايِيلَ زَائدَةٍ عَلَىٰ المكاييل الصحيحة المُتَعَارَف عليها. ويَجْعَلُونَ مَوَازِين تَنْقُصُ مِنْ مِقْدَارِ الحقّ الّذِي للنّاس، وَمَوَازِينَ أخرىٰ وَافية أو زائِدَة يَزِنُون بِها لِأَنْفُسِهِمْ، هي مُشَابِهَةٌ في الصُّورَةِ لِلْمَوازين الصَّحِيحَة.

ولَمَّا كانَتْ أَعْمَالُهُمْ هَـٰذِهِ مِنْ أكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ، كَانَ مِنْ عَنَاصِرِ نُصْحِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ في دَعْوَتِهِ لهم، أَنْ يَنْهَاهُمْ عَنِ النَّقْصِ فِي المكيال، وعَنِ النَّقْصِ في الميزان.

• ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: أي: وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَرَاكُمْ بِسَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَفْرَةٍ مِنَ الرِّزْقِ، فَلَا دَافِعَ لَكُمْ لِتَأْكُلُوا أَمْوَالَ النّاسِ بالباطل إلّا الطّمَعُ في الثّراءِ الْوَاسِعِ مِنْ أَمْوَالِ الضُّعَفَاءِ، وأَهْلِ السَّذَاجَة الّذِينَ لَا يَكْتَشِفُونَ حِيَلَ المتَحَايِلِينَ، ولا تَلَاعُبَاتِ المتلاعِبين.

وهؤلاء المُتَحَايِلُون المطَفِّفُونَ يَسْتَهِينُون بِظُلْم عِبادِ اللهِ والعُدْوانِ عَلَىٰ حُقُوقِهم. في ياء المتكلّم هنا قراءتان: الإسكان والفتح.

• ﴿... وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ﴿٨٤﴾﴾:

عَذَابُ هَـٰذا اليومِ الْمُحِيط، إمَّا أَنْ يكونَ عَذَابَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنيا، كَالْأَيَّامِ الَّتِي عَذَّبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ وَأَهْلَكَ فيها مُجْرِمِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ المرادُ بِهِ عَذَابَ يَوْمِ الدِّين، بَعْدَ الْبَعْثِ للحساب، وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَحْقِيقِ الجزاء.

وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ العِبَارَةِ عَلَى هَـٰذَيْنِ المعْنَيْين معاً، واللهُ أعْلم.

وقَدْ جَاءَ في هَـٰذِهِ العبارة وَصْفُ هَـٰذا الْيَوْم بالإحَاطَةِ، لإعلامِهِمْ بأَنَّهُ يَوْمٌ لَا بُدَّ أَنْ يُدْرِكَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بالْعَذَابِ، إذْ أَزْمَانُ ذَلِكَ الْيَوْم المحِيطِ بِهِمْ مَمْلُوءَةٌ بأَحْدَاثِ تَعْذِيبِهِمْ، وبِوَسَائل تَعْذِيبهم، وَزَمَانُهُ جارٍ عَلَىٰ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لا مَحَالَةَ.

بخِلَافِ مَا لَوْ كَانَتِ الإحَاطَةُ وَصْفاً لِلعَذَابِ، فَقَدْ يُتَوَهَّمُ مَعَهَا أَنَّ الْعَذَابَ الَّذِي يُحِيطُ بالْقَوْمِ قَدْ لَا يُصِيبُ بَعْضَ أفرادِهِمْ المتخلِّلِينَ فِي الْوَسط.

فوصْفُ يَوْمِ الْعَذَاب بالْإحَاطَةِ بِهِم أَبْلَغُ في الدَّلَالَة على أَنَّهُ لا يَنْجُو مِنْهُمْ أَحَدٌ.

في ياء المتكلّم في هذه العبارة قراءتان: الإسكانُ، والفتح.

• ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

• ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾: أي: أتِمُّوا الْمِكْيَالَ والْمِيزَانَ وافِيَيْن، يُقَالُ لُغَةً: «أَوْفَىٰ الشَّيْءَ يُوفِيهِ إيفَاءً» أي: أَتَمَّهُ وافِياً كامِلاً غَيْرَ مَنْقُوص، وكذَلِكَ «وَفَّىٰ».

• ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي: بالْعَدْلِ، وهو التّسَاوِي بَيْنَ حَقِّ صَاحِبِ الحقّ، وبَيْنَ مَا يُؤَدَّىٰ إليه. **العَدْلُ**: هو إعْطَاءُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ.

• ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلَا تَنْقُصُوا النَّاسَ أشياءَهم، سَوَاءٌ أكان ذَلِكَ عَنْ طَرِيقِ الكَيْلِ أم المِكْيَال، أم عَنْ طَرِيق الْوَزْنِ أمِ الْمِيزان، أَمْ عَنْ طَرِيقٍ آخر، ففي هَـٰذِهِ العبارة تَعْمِيمٌ بَعْدَ تَخْصِيص.

الْبَخْسُ: النقْصُ، وفعل «بَخَسَ» مِثْلُ فعل «نَقَصَ» يتَعَدَّىٰ إلى مَفْعُولَيْنِ، يُقَالُ لُغَةً: «بَخَس فُلَانٌ فُلاناً حَقَّهُ» أي: نَقَصَهُ حَقَّهُ.

والنقْصُ عَنِ الحقِّ مع الْعِلْمِ لَا يَكُونُ إلَّا بِظُلْمٍ، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فِيهِ وَسَائِلُ الاحْتِيَالِ والْكَذِبِ والْمُخَادَعَة.

• ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿وَلَا تَعْثَوْا۟﴾: **الْعُثُوُّ**: أشَدُّ الْفَسَادِ، يقالُ لغة: «عَثِيَ، يَعْثَىٰ، عَثْوّاً» أي: أفْسَدَ إفْساداً شدِيداً كثيراً.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

الفَسَادُ: هو في اللُّغَةِ التَّلَفُ والْعَطَبُ، وتَحَوُّلُ الشيءِ مِنْ كَوْنِهِ صالحاً نَافِعاً إلى كوْنِهِ غَيْرَ صَالِحٍ وَلَا نافع، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضارّاً كرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَة.

والإفْسَاد: الإتْلَافُ وتَحْويلُ الشيْءِ عن صَلاحِهِ، وَقَدْ يَصِلُ إلَىٰ جَعْلِ الشيْءِ ضَارّاً كَرِيهاً مُفْسِداً لِلْأَشْيَاءِ الصَّالِحَة.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارة علَىٰ أنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ كانُوا مِنَ الَّذينَ يُفْسِدُونَ أشَدَّ الفساد بأعْمَالِهِمُ الْإِجْرَامِيَّةِ الظالِمَةِ الجائِرَة.

ويَشْمَلُ النَّهْيُ عن الإفْسَاد في الْأَرْض بِعُمومِهِ، النَّهْيَ عَنْ كُلِّ الْمُمَارَسَاتِ الظَّالِمَات الجائراتِ، ذَواتِ الْعُدْوَانِ على عباد الله، الَّتِي كانَ قَوْمُ شُعَيْبٍ يُمَارِسُونَها بانْتِشَارٍ عَامٍّ فِيهِم، ومِنْهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مِنَ المطَفِّفِينَ،

إِذَا كَالُوا للنَّاسِ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ، فَيَنْقُصُونَ المكيالَ وَالْمِيزان، ويَنْقُصُونَ في الكَيْلِ والْوَزْنِ، ويَبْخَسُونَ النَّاسَ أَشْيَاءَهُم، أي: يَنْقُصُونَ قِيمَتَهَا فَلَا يُعْطُونَهُمْ حُقُوقَهُمْ بِالْعَدْلِ.

• ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾:

الْبَقِيَّةُ: مَا يَبْقَىٰ مِنَ الشيء، وبَقِيَّةُ اللهِ هِي مَا يُبْقِيهِ اللهُ عزَّ وجلَّ لِعَبْدِه مِنْ خَيْرٍ عاجلٍ أَوْ آجلٍ، فالعاجل هو ما يَنْتَفِعُ به الإنْسَانُ في الحياة الدُّنيا، والآجِلُ لِيَوْم الدّين هو ما ادَّخَرَهُ اللهُ الكريم المنَّانُ وأبْقَاهُ لِعِبادِه المؤمِنين المتّقين، يَنالُونَهُ فِي جَنَّاتِ النّعِيم خالداً، غَيْرَ مَقْطُوعٍ وَلَا مَمْنُوع.

دَلَّ هَـٰذا المُوجَزُ القرآنيُّ عَلَىٰ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدَّم بَيَاناً إقْنَاعِيًّا لِقَوْمِهِ، بأَنَّ مَا يُبْقِيهِ اللهُ لهم مِنْ رِبْحٍ أذِنَ لَهُمْ بِهِ في تجاراتهم، وبَيْعِهِمْ وشرائِهم، وسائر مجالاتِ اكْتِسَاب أَرْزَاقهم، ومَا يُبْقِيهِ لهم مِنْ ثوابٍ جزيلٍ على طاعَتِهِمْ لِرَبِّهم، والْتِزَامِهِمْ صراطَهُ المسْتَقِيمَ، خَيْرٌ لَهُمْ في الدُّنيا والآخِرَة.

أمَّا مَا يأْكُلُونَهُ مِنْ أمْوالِ الناس بالباطل. بوسَائل التّطفيف في المكاييل والموازين، وبَخْسِ النّاسِ أشْيَاءَهم، والْعُثُوِّ في الأَرْضِ مُفْسِدِين، فَسَيَمْحَقُهُ اللهُ، ويَمْحَقُ مَعَهُ بَعْضَ حَلَالِ أمْوالِهِم، مَعَ مَا يُلاقونَهُ من عذابٍ بِهِ فِي الحياة الدُّنيا، ثُمَّ مِنْ عَذَابٍ على مَعْصِيَةِ اللهِ فيه بالْعَدْلِ يَوْمَ الدّين.

• ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بما أَدْعُوكُمْ إلى الإيمانِ بِهِ، وتَعْمَلُونَ بِما يُوجِبُهُ عَلَيْكُمْ إيمانُكُمْ.

فإنْ لم تُؤْمِنُوا فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنْفَعَكُمْ بِشَيْءٍ، وسَتَسْتَمِرُّونَ عَلَىٰ ظُلْمِكُمْ وَعُدْوانِكُمْ عَلَىٰ عِبادِ اللهِ، وعَلَىٰ قَبَائِحِكُمْ ومنكَرَاتِكُمْ.

• ﴿... وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾: **الحَفِيظ**: هو القائِمُ بعِنايَةٍ عَلَىٰ حِرَاسَةٍ وصِيَانَةِ ما هُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ حِفْظِه، والقَائِمُ بأداءِ حُقُوقِهِ بأَمَانَةٍ،

دُونَ خِيانَةٍ ما، والْمُواظِبُ عَلَىٰ الْقِيَامِ بِرِعَايَتِهِ وَفِعْلِ مَا يَجِبُ فِعْلُهُ، وَاجْتِنَابِ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ، مِنْ كُلِّ ما يَقْتَضِي حِفْظَهُ سَالِماً، لَا يَتَعَرَّضُ لِضُرٍّ أَوْ أذىً، ممَّا يَمْلِكُ رَدَّهُ أو دَفْعَهُ أَوْ تَحْوِيلَهُ.

كَحَارِسِ قَطِيعِ الْأَغْنَام أو الأبقارِ الْقَائِمِ بِصِيانَتِها، وعَمَلِ كُلِّ مَا يَقْتَضِي سَلَامَتَها، وَلَوْ بإكراهِهَا، وَسَوْقِهَا بِشِدَّةٍ وَعُنْفٍ إِلَىٰ مَوَاطِنِ سَلَامَتِها وَحِفْظِها مِنْ كُلِّ مَكْرُوه.

فالحفيظ مُكْرِهٌ مُجْبِرٌ سَائِقٌ أَوْ قَائِدٌ، يَصُونُ وَيَحْمِي، وَيُؤَدِّي وَظَائِفَ حِفْظِ مَا يَرْعَاهُ بِكُلِّ أَمَانَةٍ، وعَلَىٰ مِقْدار مَا يَسْتَطِيع.

فالمعنى: وَمَا أَنَا مُرْسَلٌ إليكُمْ لِأَكُونَ مُسَيْطِراً عَلَيْكُمْ، أَحْفَظُكُمْ بِسُلْطَانِ الْجَبْرِ والإكْرَاه، من عذابِ رَبِّكُمُ العاجلِ والآجلِ، إنَّما أنا مُبَلِّغٌ فقط رِسَالَةَ رَبِّي إِلَيْكُمْ.

وهذه العبارةُ تَحْمِلُ دَلَالَةً أُخرىٰ، وَهِيَ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ أَلْمَحَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ضِمْناً، أَنَّهُ مَهْمَا كانَ رَحِيماً بِهِمْ، حَرِيصاً عَلَىٰ دَفْعِ الضُّرِّ عَنْهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ، وفيهم عَشِيرَتُهُ وَرَحِمُهُ، وَهُوَ واحِدٌ مِنْهُمْ نَسَباً وَلُغَةً وَمَوْطِناً، وَمَهْمَا كانت لَهُمْ في قَلْبِهِ مكانَةٌ، ومَهْمَا كانَتْ لَهُ دَالَّةٌ عَلَىٰ رَبِّه، فإنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَكُونَ حَفِيظاً عليهم، يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، إِذَا أَرادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَنْ يُعاقِبَهُمْ، ويُنْزِلَ بِهِمْ نِقْمَتَهُ وَعَذَابَه.

إِنَّمَا يَقِيهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ إيمانُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ لِرَبِّهم، واتِّبَاعُهُمْ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾؟!

• قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِيّ، وخلف: **[أَصَلاَتُكَ]** بالإفراد.

وقرأها باقي القراء العشرة بالجمع: **[أَصَلَوَاتُك]**.

ومُؤَدّىٰ القراءتَيْنِ واحد، فلفظ «صَلَاة» بالإفراد اسْمُ جنْس، وهُوَ مُضَافٌ إلى ضَمِير المخاطَب، فَهُو يَعُمُّ كُلَّ صَلَوَاته.

في هَـٰذِهِ الآيَةِ تَلْخِيصٌ لِثَلاثِ مَقُولَاتٍ جَدَلِيَّة وَجَّهَهَا قَوْمُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ له:

المقُولَةُ الأولَىٰ: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟!.

لفظ «الصّلَاة» هُنَا مسْتَعْمَلٌ فيما هو مَعْرُوفٌ في كلِّ الرِّسَالاتِ الرَّبَّانِيَّة، والشُّعُوب الَّتِي فيها بقَايَا مِنْ دِينٍ رَبَّانِيٍّ، وهي الصَّلاَةُ ذَاتُ الْقِيَام، والرُّكُوع، والسُّجُود، والتِّلاوَاتِ، والأَذْكَارِ، والأدْعِيَةِ، فهِيَ عبادةٌ مَحْمُودَةٌ عِنْدَ كُلِّ الشُّعُوبِ، حَتَّىٰ الشُّعُوبِ الْوَثَنِيَّة، وفي موروثاتِهِم عن إبراهيم عليه السلام هذه الصلاة.

فَلَيْسَتْ عبارَةُ قَوْمِ شُعَيْبٍ هَـٰذِه لَهُ عبارَةَ اسْتِهْزَاءٍ به، وَلَيْسَتْ بِمَعْنَىٰ مُطْلَق القراءة، ولَيْسَتْ بِمَعْنَىٰ الدِّين، ولا غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَأْوِيلَاتٍ مَذْكُورَاتٍ في كُتُب التفْسِيرِ.

والاستفهامُ في هذهِ العبارة اسْتِفْهَامٌ تَعَجُّبِيٌّ إنْكارِيٌّ مِنْهُمْ، أنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ عبادَةِ رَبِّهِ بالصَّلاةِ، وأَنْ يَنْهَىٰ مَعَ ذلِكَ قَوْمَهُ عَنْ عبادَاتٍ هِيَ مِنَ الْمَوْرُثَاتِ لَدَيْهِم، الَّتِي يَرَوْنَ أَنَّهَا حَقٌّ ونافِعَةٌ لَهُمْ، فَآبَاؤُهُمْ كِبَارُ السِّنِّ الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ، وَهُمْ قَدْ وَرِثُوا هَـٰذِهِ الْعِبَادَاتِ عَنِ الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ آبَائِهِمْ، أَفَيُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ العِبَادَاتُ الْمَوْرُثَاتُ عِبَادَاتٍ بَاطِلَاتٍ، وآبَاؤُهُمُ الشُّيُوخُ والْهَرِمُونَ يَعْبُدُونها، وَكَانَ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ، وهُمْ قَدْ وَرِثُوا الدِّينَ عَنْ جَدِّهِمِ الأَعْلَىٰ إبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ المقولَةُ عَلَىٰ أَنَّ مُوَجِّهِيهَا هم الشُّبَّانُ وَبَعْضُ الكُهُولِ مِنْ قَوْمِهِ، إذْ تَحَدَّثُوا عَنْ آبائِهِمُ الَّذِينَ مَا زَالُوا أحْيَاءً. ودَلَّتْ عَنْ طَرِيق اللُّزُوم الذِّهْنِيِّ عَلَىٰ أنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَام تَوَجَّهَ للشُّبَّانِ وأحداثِ الأسْنَانِ ورُبَّمَا لِصِغَارِ الكُهُولِ، في دَعْوَتِهِ مُعْتَنِياً بإقْنَاعِهِمْ، بَعْدَ أَنْ وَجَدَ مِنْ شُيُوخِهِمْ وَذَوِي الأسْنَانِ فيهم إعْرَاضاً أَوْ إِدْبَاراً، شُعُوراً مِنْهُ بأنَّ الشُّبَّانَ وأحْدَاثَ الأسْنَانِ أَلْيَنُ عَرِيكَةً لِقَبُولِ الْحَقِّ والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

فَلَمْ يَسْتَجِبِ الشُّبَّانُ لَهُ، وأجابُوه بهَـٰذِهِ العبارة الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ مُتَمَسِّكُونَ بِتَقْلِيدِ آبَائِهِمْ، والاقتداء بهم، مُعْتَبِرِينَ عِبَادَةَ آبَائِهِمْ لآلِهَةٍ من دُونِ اللهِ حُجَّةً يَصِحُّ أَنْ يَحْتَجَ بها الْعُقَّلاء، مَعَ أنَّ هَـٰذِهِ الْحُجَّةَ بَاطِلَةٌ سَاقِطَةٌ؛ لِأَنَّ أَفْعَالَ النَّاسِ وَتقالِيدَهُمْ مَهْمَا تَوَاطَؤُوا عَلَيْها، لَيْسَتْ في الواقِعِ الْبَشَرِي حُجَّةً عَلَىٰ الحقيقَةِ الَّتِي تُثْبِتُهَا الْبَرَاهِينُ الْعَقْلِيَّةِ.

فَقَدْ يَكُونُ النَّاسُ قَدْ تَأَثَّرُوا بِضَلَالَاتِ المُضلِّين، الَّذِينَ زيَّنُوا لَهُمُ الباطِلَ فَرَأَوْه حَقًّا، أَوْ تَأَثَّرُوا بأوْهَامٍ لَا حَقِيقَة لها، لِقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وانْتِشَارِ الْجَهْلِ بَيْنَهُمْ، فَهُمْ بذلك لَا يَهْتَدُونَ إلى الحقّ والصَّوَاب، فَيَقَعُونَ في ضَلَالَاتٍ فِكْرِيَّةٍ اعتقادِيَّة، أو ضلالاتٍ سُلُوكِيَّة، ثُمَّ تَكُونُ مَوَارِيثَ فِي قَوْمِهِمْ. أَوْ دَعَتْهُمْ إلى مُمَارَسَاتِهِمُ الْبَاطِلَاتِ الفاسِدَاتِ الْمُفْسِدَاتِ أهْوَاؤهم وشَهَوَاتُهُمْ، وَرَغَبَاتُهُمْ مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنيا، ثُمَّ كانَتْ مَوَارِيثَ فِي قَوْمِهِم، وَعَادَاتٍ مُسْتَحْكِمَاتٍ في سُلُوكهم.

المقولَة الثانية: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَةُ: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾؟!

أي: أوَ صَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَل في أمْوالِنَا مَا نَشَاءُ، مُعْتَمِدِينَ عَلَىٰ مَهَارَاتِنَا فِي خِدَاعِ النَّاسِ والاحْتِيَالِ عَلَيْهِم؟!.

والمعنى: إنَّنَا حِينَمَا نُبَادِلُ الناسَ في مُعَامَلَاتِنَا، فإنَّنَا نَأْخُذُ مِنْهُمْ ونُعْطِيهِمْ بِحَسَبِ مَا لَدَىٰ كُلٍّ مِنَّا مِنْ مَهَارَاتٍ واحْتِيَالَات، فَنَحْنُ نَتَصَرَّفُ

مَعَهُمْ بِحَسَبِ قُدْراتِنَا وَمَهَارَاتِنَا واحْتِيَالاتنا، وهُمْ يَتصَرَّفُونَ مَعَنَا في تَعَامُلَاتِهِمْ بِحَسَبِ قُدْراتِهِمْ وَمَهَارَاتِهِمْ واحْتِيَالَاتِهِمْ.

إِنَّهُمْ يَفْعَلُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ مَا يَشَاءُونَ، وَنَحْنُ نَفْعَلُ في أَمْوَالِنَا ما نَشاءُ، فَكَيْفَ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنَا مَا نَشَاءُ؟!!

أَلَيْسَ هَـٰذا أمْراً عَجباً يَتَنافَىٰ مَعَ مُقْتَضيَاتِ صَلَوَاتِكَ الَّتِي تُصَلِّيها لِرَبّكَ؟!.

المقولةُ الثَالثَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿... إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾؟!.

أرَى أنَّ هَـٰذه العبارة هي على الاستِفْهَامِ الإنْكارِيّ، بِحَذْفِ أدَاةِ الاسْتِفْهَام. أي: أإنَّكَ المعْرُوفُ فينَا قَبْلَ أنْ تَدَّعِيَ أنَّك نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ لنَا، بأنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ في قَوْمِنا؟!.

فَكَيْفَ تُشَدِّدُ عَلَيْنَا فِي النَّهْيِ عَنْ عِبادَةِ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الوارِثُونَ لِهَـٰذِهِ العباداتِ عَنْ آبائِهِمْ، وكَيْفَ تُشَدِّدُ عَلَيْنَا فِي الإنكار، وتُكَرِّرُ نَهْيَنا عَنْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أموالِنَا مَا نَشَاءُ؟!.

إنّ هذا يَتَنافَىٰ مع مَا عُرِفَ عَنْكَ في قَوْمِكَ بأنَّكَ المتفرِّدُ مِنْ بَيْنِنَا بِصِفَتَيْنِ جَلِيلَتَين:

- صِفَةِ الْحِلْم مِنْ أعَلَىٰ الدَّرَجَاتِ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهَا الْبَشَر.
- وَصِفَة الرُّشْدِ مِنْ أعْلَىٰ الدَّرجاتِ أيضاً. **الرُّشْدُ:** والرَّشاد: هو السُّلُوكُ الفِكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقُ لِلْحَقِّ والصَّواب، أو لِمَا هو الأَفْضَلُ والأَحْسَنُ والأَكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عَنِ الضَّرَرِ.

لَقَدْ عُرِفْتَ يا شُعَيْبُ بهاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ الجليلَتَيْنِ، حَتَّىٰ صَارَ يُقَالُ لَكَ: إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ، المتميِّزُ الأَوْحَدُ بِغَايَةِ صِفَتَي الْحِلْمِ والرُّشْدِ.

أي: فَمَا الَّذِي جَرَى لَكَ حَتَّىٰ صِرْتَ تَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَاتٍ لَيْسَ فِيها حِلْمٌ وَلَا رُشْدٌ؟؟!!

مَا بَالُ شَخْصِيَّتِكَ النفْسِيَّةِ قَدْ تَبَدَّلَتْ وَتَغَيَّرَتْ، حَتَّىٰ صِرْتَ غَيْرَ حَلِيمٍ وَلَا رَشِيدٍ، وانْفَرَدْتَ بِمَفْهُومَاتٍ وَأَقْوَالٍ خاصَّةٍ، مُنَاقِضَةٍ لِمَفْهُومَاتِ عُقَلَاءِ قَوْمِكَ وأقْوالِهِمْ وَأَعْمَالِهِم؟!

لَا بُدَّ أن تكونَ هَـٰذِه المَقُولَاتُ مِنْهُمْ صَادِرَةً عَلَىٰ سَبِيلِ المغالَطَةِ والمُخَادَعَةِ لِأَتْبَاعِهِم، حَتَّىٰ يَتَأَثَّرُوا بأقوالِهِم الْجَدَلِيَّة. أوْ أَنْ تَكُونَ بَصَائِرُهُمْ مُنْطَمِسَةً بِتَأْثِيرِ اتِّبَاعِهِم أهواءَهُمْ، وشَهَوَاتهم، وشَرَهِهِمْ للإِثْرَاء، ولَوْ بالظُّلْم والْعُدْوانِ عَلَىٰ عباد الله، وبتَأْثِيرِ المُحافظة العَصَبِيَّةِ عَلَىٰ تَقْلِيدِهِمْ الأَعْمَىٰ لِآبَائِهِمْ وأَجْدَادهِم.

وقالُوا لشُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ مَقُولَاتٍ ثلاثاً أُخْرَىٰ مَطْوِيَاتٍ في مَثَانِي النَّصّ، يُمْكِنُ كَشْفُهَا واسْتِخْرَاجُها بالنَّظَرِ التَّأَمُّلِيِّ فِي إجابَاتِهِ الآتي ذِكْرُها وَتَدَبُّرُها، بَعْدَ ذِكْرِ المقولَاتِ المطويات:

المقولةُ المطويَّة الأولىٰ: إنَّكَ يَا شُعَيْبُ ذُو مالٍ كَثِيرٍ، فَكَيْفَ جَمَعْتَه؟. لَا بُدَّ أَنَّكَ مِنَ الَّذِينَ يَجْمَعُونَ أمْوَالَهُمُ الكَثِيرَةَ سِرّاً بالوَسَائِلِ الَّتِي تَنْهَانَا عَنْها.

والمقولَة المطوية الثانية: وَإِنَّكَ يَا شُعَيْبُ تُرِيدُ بِدَعْوَتِكَ الَّتِي جِئْتَنا بها، أَنْ تَكُونَ سَيِّداً ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْنَا، تُلْزِمُنَا بِمَا تَشَاءُ بِأَوَامِرِكَ وَنواهِيكَ، وتُكْرِهُنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ.

والمقولَةُ المطوية الثالِثَة: وَهَلْ أَنْتَ يا شُعَيْبُ ضَامِنٌ أَنْ تُحقّقَ مَا تُرِيدُ بِخِطَابَاتِكَ، وَأَحَادِيثِكَ، وجَدَلِيَّاتِكَ، وَأَنْتَ فِينا ضَعِيفٌ لَا تَمْلِكُ قُوَّةً تَسْتَطِيعُ بها أَنْ تُلْزِمَنَا بِمَا تُرِيدُ مِنَّا، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بِكَ وَلَا بِمَا جِئْتَنَا بِهِ؟.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيّناً مَا أجابَ بِهِ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ على مَقُولَاتِ قَوْمِهِ له المصَرَّحِ بها والمطويَّةِ فِي مَثَانِي النَّصّ:

• ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾:

يُلاحِظُ المتدبِّر المتأنِّي في هَٰذِهِ الآياتِ أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلامُ قَدْ أجابَ قَوْمَهُ عَلَىٰ مَقُولَاتِهِم المصَرَّح بِها في الآية (٨٧) والمطويّة في ثناياها بِبَيَانَاتٍ مُحْكَمَاتٍ قاطِعَاتٍ لجدليَّاتِهِمْ واتِّهاماتِهِمْ وتَثبيطاتِهِمْ، وزادَ عليها بَيَانَاتٍ تُعَرِّفُ بموقِفِه ثابتاً على القيام بوظائِفِ رسالَتِه، وبياناتٍ دَعَوِيَّةً إقناعِيَّةً وَتَرْهيبِيَّةً، ونُصْحِيَّةً، وقَدْ فصَّلْتُها إلىٰ ستَّةِ بَيَاناتٍ:

البيان الأول: دَلّ عليه قول الله عَزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي . . . ﴿٨٨﴾﴾؟!.

أي: قال لهم: يَا قَوْم أفكَّرْتُم وتَدَبَّرْتُمْ وَوَضَعْتُمْ فِي رُؤْيَتِكُم الْفِكْرِيَّةِ احْتِمَال أنّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي، معْتَصِمٌ بها، ومُسْتَمِسكٌ بالاعْتِمَادِ عَلَيْها؟.

فإذا ثَبَتَ لَدَيْكُمْ هَٰذا الاحْتِمَالُ الّذِي تُنْكِرُونَهُ الْآنَ، أَوْ تَشُكُّونَ فِيهِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فِيما آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ عِبادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، لَا تُشْرِكُونَ بِهِ مَعْبُوداً آخَرَ؟. أكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ فيما أَنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ التَّطْفِيفِ في الكَيْلِ والْوَزْنِ، ومِنْ بَخْسِ النَّاسِ أشْيَاءَهُمْ، ومِن اتِّخاذِ الْحِيَلِ لِتَأْكُلُوا أَمْوَال النَّاسِ بالباطل، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ الْعُدْوَانِ علىٰ الناس، ومِنْ الْعُتُوِّ في الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ؟.

أَخْبِرُونِي مَا هُوَ مَوْقِفُكُمْ مِنْ هَٰذا الاحْتِمَالِ، أَلَيْسَ هُوَ احْتِمالاً مُمْكِناً أَنْ يَكُونَ؟؟.

ضَعُوا هَٰذا الاحْتِمَالَ في أذْهَانِكُمْ، وفَكِّرُوا فيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ

بمَقَايِيس الْعَقْل، لَا بِمَقَايِيسِ التَّقْلِيدِ الأَعْمَىٰ، والمَصْلَحَةِ الدُّنيويَّةِ العاجِلَةِ الفانِيَةِ، دُونَ بَصِيرَةٍ فِكْرِيَّةٍ.

فَإِذَا قَبِلْتُمْ بِرُؤْيَتِكُم الْفِكْرِيَّةِ إمْكَانَ وُجُودِ هَـٰذا الاحْتِمَالِ، فاسْأَلُوني عَنِ البيّنَةِ الَّتِي أنا مُعْتَمِدٌ عَلَيْها، وَمُتَمَكِّنٌ مِنْهَا أُجِبْكُمْ، حَتَّىٰ أُثْبِتَ لَكُمْ بالْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَة أَنَّ مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وآمُرُكُمْ بِهِ، هُوَ الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ، وهُوَ الخيْرُ لَكُمْ في عَاجِلِ أَمْرِكُمْ وآجِلِهِ، وهُوَ مَا يقتضِيهِ الْعَقْلُ السَّلِيمُ، والمَصْلَحَةُ الاجْتِمَاعِيَّةُ للجميع.

وإذا شِئْتُمْ مُعْجِزَةً خارِقَةً تَكُونُ بمَثَابَةِ شَهَادَةٍ من اللهِ لي بأنِّي نبيٌّ ورَسُولٌ صادق مُرْسَلٌ مِنْهُ إليكم، فإنّي أسْأَلُ رَبّي أَنْ يَشْهَدَ لِي بأنّي رَسُولُهُ حَقًّا وَصِدْقاً، بإجراءِ مُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ كما أَجْرَىٰ لِغَيْرِي مِنَ الْمُرْسَلِين.

الْبَيِّنَةُ: هي هُنَا البراهِينُ الْجَلِيَّةُ الواضِحَةُ، أَوِ الآيَةُ والمعجزة الباهِرة.

لَقَدْ عَرَضَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ علىٰ قَوْمِهِ احْتِمَالَ أَنْ يَكُونَ عَلَىٰ بَيّنَةٍ وَاضِحَةٍ مِنْ رَبِّهِ، واسْتِعْدَادَهُ التَّامَّ لِأَنْ يُقَدِّمَ لَهُمْ هَـٰذِهِ الْبَيّنَة، إذَا كَانَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِقَبُولها، علَىٰ الرُّغْمِ مِنْ أنَّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ هُوَ مِنَ الْأُمُور الّتِي تُدْرِكُ الْعقُولُ صِحَّتَهَا، وأَنَّهَا حَقٌّ وَخَيْرٌ بالْبَدَاهَةِ الفِكْرِيَّة، أَوْ مَعَ تَفْكِيرٍ قَلِيلٍ لَيْسَ فِيهِ إجْهَادٌ لِلأَذْهَان.

البيان الثاني: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قالَهُ شعْيبٌ لِقَوْمِهِ:
﴿... وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ... ﴿٨٨﴾﴾:

دَلَّ هذا البيان علَىٰ أَنَّهُ يَرُدُّ علىٰ إتِّهامِهِمْ لَهُ بأَنَّهُ جَمَعَ أَمْوَالَهُ الكَثِيرَة بالْوَسَائِلِ الّتِي يَنْهَاهُمْ عَنْها، وَلَكِنَّهُ يُخْفِي عَنْهُمُ الطَّرَائِقَ الَّتي يَجْمَعُها بها، فهو يُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ ما عِنْدَهُ مِنْ أمْوالٍ رِزْقٌ حَسَنٌ مَوَافِقٌ لِشَرْعِ اللهِ، رَزَقَهُ اللهُ إيّاهُ.

أي: لَمْ أتجاوَزْ في كَسْبِ مَا لَدَيَّ مِنْ أَمْوَالٍ حُدُودَ مَا أَذِنَ رَبِّي جَلَّ جَلَالُهُ فِي اكْتِسَابِه، فَمَا رَزَقَنِي مِنْهُ كُلُّهُ رِزْقٌ حَسَنٌ لَا مَعْصِيَةَ للهِ فِيه، وَلَا عُدْوَانَ فِيهِ علَىٰ أَحَدٍ، وكُلُّهُ حَلَالٌ طَيِّبٌ قَدْ بَارَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِيهِ، فَلَمْ أَعْمَلْ فِيما سَبَقَ عَمَلاً نَهَيْتُكُمْ أو أَنْهَاكُمْ عَنْه.

وَمَا أُرِيدُ الآنَ وَلَا مُسْتَقْبلاً أَنْ أَقْصِدَ الشَّيْءَ الَّذِي أدْعُوكُم إلى اجْتِنَابِهِ فأَفْعَلَهُ.

يُقَالُ لُغَةً: «خَالَفَكَ فُلَانٌ إلَىٰ كَذَا» أيْ: قَصَدَهُ وأَنْتَ مُنْصَرِفٌ ومُتَوَلٍّ عَنْه. ويُقال: «خَالَفَ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ إلَىٰ مَكَانِ كَذَا» أيْ: قَصَدَ هَـٰذا المكانَ بَعْدَ أنِ انْصَرَفَ صَاحِبُهُ عَنْه.

قال الزَّمَخْشَرِي: يَلْقَاكَ الرَّجُلُ صَادِراً عَنِ الماء، فَتَسْأَلُهُ عَنْ صَاحِبِهِ؟ فَيَقُولُ: خَالَفَنِي إلىٰ الماء، يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إلَيْهِ وارِداً، وَأنا ذَاهِبٌ عَنْهُ صَادِراً.

أقول: إذَا كَانَتْ وَفْرَةُ المالِ الَّذِي عِنْدَ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الأنْعَام، فإنَّ تَرْبِيَةَ الأنْعَام الَّتِي تَأْكُلُ مِنَ الكَلأ المبَاحِ، قَابِلَةٌ لِأَنْ تَجْعَلَ مَالِكَها ذَا ثَرَاءٍ وَاسِعٍ جدًّا بِنَحْوِ عَقْدٍ فَأَكْثَرَ مِنَ السِّنِينَ، إذَا بَارَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِمَوَالِيدِهَا وَأَصْوَافِهَا وَأَوبَارِها وأشْعَارِها.

وَإِذَا كَانَتْ وَفْرَةُ الْمَالِ الَّذِي عِنْدَهُ مِنَ الزِّرَاعَةِ، فَمِنْ سُنَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فِي عَطَاءَاتِهِ لِبَعْضِ عبادِه، أَنْ يُبارِكَ لَهُمْ بِهَا، حَتَّىٰ يُنْبِتَ مِنَ الْحَبَّةِ الْوَاحِدَةِ سَبْعَ سَنَابِلَ، ويَجْعَلَ فِي كُلِّ سُنْبَلَةٍ مِئَةَ حَبَّةٍ، وبِسَنَوَاتٍ مَعْدُودَاتٍ يَكُونُ الّذِي بَارَكَ اللهُ لَهُ بِزِرَاعَتِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ مَالاً، دُونَ أَنْ يَلْجَأَ إِلَىٰ أكْلِ أمْوَالِ النَّاسِ بالْبَاطِلِ.

إلى غير ذَلِكَ مِنْ طُرُقٍ وأَسْبَابٍ يُبَارِكُ اللهُ بِهَا على بَعْضِ عِبَادِهِ في الرِّزْقِ الْحَلَالِ الطيِّبِ.

البيانُ الثالث: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِمَعنَىٰ مَا قالَهُ شُعَيْبٌ لِقَوْمِهِ: ﴿... إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ... ﴿٨٨﴾﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أنَّ قَوْمَهُ اتَّهَمُوهُ بأنَّهُ يُرِيدُ بِدَعْوَتِهِ أنْ يَكُونَ سَيِّداً فِي قَوْمِهِ، ذَا سُلْطَانٍ عَلَيْهِم. يُلْزِمُهُمْ بِمَا يَشَاءُ بأوامِرِهِ ونَوَاهِيهِ، ويُكْرِهُهُمْ علَىٰ طَاعَتِه، فأبَانَ لَهُمْ بهَـٰذِهِ العبارة مُرَادَه، رَدّاً علَىٰ اتّهامِهِمْ له.

أي: مَا أُرِيدُ بما أدْعُوكُمْ إلَيْه، وأكَرِّرُ عَلَيْكُمْ بِهِ نَصَائِحي سِيَادَةً عَلَيْكُمْ وَلَا سُلْطاناً، إنَّما أُرِيدُ لَكُمُ الإصْلَاحَ، والْخَلاصَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أنْتُمْ فِيهِ غَارِقُونَ، مَا اسْتَطَعْتُ إلَىٰ ذَلِكَ سَبِيلاً عَنْ طَرِيقِ الإقْنَاعِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، والمجادَلَةِ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ وَلَا إكْرَاه.

البيانُ الرابع: دَلَّ عَلَيْهِ قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَة لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلامُ لِقَوْمِه: ﴿... وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾:

التَّوْفِيقُ مِنَ اللهِ لِعَبْدِه: يَكُونُ بإلْهَامِهِ الصّوَاب، وبإعَانَتِه، وَتَيْسِيرِ السُّبُلِ لَهُ، لِلْعَمَلِ بما يُحَقّقُ لَهُ النتيجَةَ الَّتِي تُرْضِيهِ، فيما يَسْعَىٰ لَهُ ممَّا هُوَ له خَيْرٌ، مَعَ تَسْدِيدِه في خُطُواتِ سَعْيه.

أي: وَمَا إِصَابَتِي الرُّشْدَ في قَوْلي وفي عَمَلِي إلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وعطائِهِ وَتَسْدِيدِهِ.

- ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾: أي: عَلَىٰ اللهِ وَحدَهُ تَوَكَّلْتُ في أمْرِي كُلّه؛ اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ مِنْ تقديم المعمول: ﴿عَلَيْهِ﴾ على عامِلِهِ في: ﴿تَوَكَّلْتُ﴾.

التَّوَكُلُ عَلَىٰ اللهِ: هو الاسْتِسْلَامُ إلَيْه، والاعْتِمَادُ عليْه، وَتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ إلَيْهِ، لتَحْقِيقِ مَا يَرْجُو المتوكِّلُ، مع قِيَامِهِ بالْأَسْبَاب المُسْتَطاعَةِ له المادّيَّةِ والمعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَوَامِرِ الله ونَوَاهِيه.

• ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾: أي: وإلَيْهِ أَرْجِعُ في أُمُوري كُلِّها. يُقَالُ لغةً: «أَنَابَ فُلَانٌ إلَىٰ الشيءِ» أي: رَجَعَ إلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّة، فهو مُنِيب.

والمنِيبُ إلَىٰ اللهِ، هو ذو الرُّجُوعِ إلَيْهِ دَواماً بِقَلْبِهِ ونَفْسِهِ وفِكْرِه.

فالمعنى: وَمَا تَسْدِيدي في خُطواتِ سَعْيِي لِتَبْلِيغ رِسَالَةِ رَبِّي إلَّا بِمَعُونَةِ اللهِ وإلْهَامِهِ وتَقْدِيره وَقضائه، فإذا قَدَّر ذَلِكَ وَقَضَاهُ حَقَّقَ لي مَا عَزَمَتْ عَلَيْهِ إرادَتي، وحَقَّقَ لِي الْغَايَة الَّتِي أرْجُوها، وإلَّا فَلَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ في العطاء والمنْعِ، وهو الْعَلِيمُ الحكيم.

وإنِّي فِي قِيَامِي بوَظَائِفِ رِسَالَتِي الَّتِي كَلَّفَنِيهَا رَبِّي مُسْتَسْلِمٌ لَهُ، وَمُفَوِّضٌ تَدْبيرَ أُمُورِي إليه، مَعَ قِيَامِي بالأَسْبَابِ الماديَّةِ والمعْنَوِيَّةِ الَّتي أَسْتَطِيعُها.

وَإِني أَرْجِعُ إلَيْهِ دَواماً فِي كُلِّ أُمُورِي مَهْمَا جَدَّ فيها جَدِيدٌ، عَلَىٰ توالِي الْأَزْمَانِ الْمُتَتَابِعَة.

البيان الخامس: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

• ﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ، وفي اختِيَار هَٰذا الفِعْلِ رَائِحَةُ اكْتِسَابِ جُرْمٍ، فاخْتِيرَ في العبارة اخْتِياراً مُلائماً، وجاء تأْكِيدُ الفِعْلِ بنُونِ التوكيد الثقيلة.

﴿شِقَاقِيٓ﴾: أي: خِلافُكُمْ وعداؤُكُم لي. **الشِّقَاقُ**: الْخِلَافُ، والْعِدَاءُ الَّذي يَكُونُ مَعَهُ الْمُعَادِي فِي شِقٍّ مُضَادٍّ لِشِقِّ عَدُوِّهِ، وفي جِهَةٍ وَنَاحِيَةٍ مُبَايِنَةٍ لِجِهَتِهِ وَنَاحِيَتِهِ.

دلَّ البيانُ في هَٰذه الآيَةِ على أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلامُ رأىٰ أَنَّ قَوْمَهُ

يُصَعِّدُون مِنْ مَوَاقِفِ عِدَائِهِمْ لَهُ، ولِلَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فوَجَّهَ لهم التَّحْذِيرَ مِنْ أنْ تَحْمِلَهُمْ مُعَادَاتُهُمْ ومُشَاقَّتُهُمْ له على الإصْرار على شِرْكِيَّاتِهِمْ، وارْتِكَابِ جَرَائِمِهم الاجتماعِيَّةِ الْعُدْوانِيَّةِ الظَّالِمَةِ، الَّتِي تَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِها الْإِهْلَاكَ الشَّامِلَ، الَّذِي أَصَابَ الْأقوامَ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ اللهُ مِنْ قَبْلِهِم إهلاكاً جَمَاعِيًّا اسْتَأْصَلَهُمْ به.

أي: لَا يَحْمِلَنَّكُمْ مَا فِي نُفوسِكُمْ مِنْ مُخَالَفَتِي وَمُعَاداتِي، حَتَّىٰ ظَهَرَ في أعْمَالِكُمْ الاسْتِعْدَادُ والتَّهَيُّؤُ للانْتِقَامِ مِنِّي ومِنَ الَّذِين آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي، عَلَىٰ الإصرارِ عَلَىٰ الْبَاطِلِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، والإصْرَارِ عَلَىٰ الجرائِمِ الَّتِي تَرْتَكِبُونَها، والْقِيَامِ بأعْمَالٍ إجْرَامِيَّةٍ ضِدَّنا، فَهٰذا الإصْرَارُ سَيُسَبِّبُ لَكُمُ اسْتِحْقَاقَ الإهْلَاكِ الشَّامِلِ، الَّذِي اسْتَحَقَّهُ الْمُهْلَكُونَ السَّابِقُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ، فَيُصِيبكُمْ مِثْلُ العذاب والْهَلَاكِ الجماعِيّ الَّذِي أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أو قَوْمَ هُود، أو قَوْمَ صَالحٍ، أوْ قَوْمَ لُوطٍ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ بِبَعِيدِينَ مِنْكُمْ زَمَاناً في الماضي، ولا مَكَاناً فِي الأرض.

جاءت كلمة «بَعِيدٍ» في خبر «قوم لوط» بَدَل بَعِيدِين، معامَلَةً لوزن «فعِيلٍ بمعنى فاعل» معامَلَةَ مَا يَسْتَوِي فِيه المفرد والمثنىٰ والْجَمْعُ والمذكر والمؤنّث، إذا كان بمَعْنَىٰ اسْمِ المفعول، مثل «جَرِيح» وقَدْ جَاءَ في القرآن المجيد نَظِيرُ هذا الاسْتعمال في كَلِمَاتٍ مِنها: «قليل، وكثير، وظهير، ورفيق، وشَدِيد، ووكيل، وصَدِيق، وفَرِيق»[1].

والمعنى: فاحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ مِن إغْرَاقٍ شَامِلٍ أَهْلَكَهُمُ اللهُ به، أَوْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَاب قَوْمَ هُودٍ الَّذِينَ

---

(١) يَبْدو لِي أنَّ شَرْط النحاة في هذا شرطٌ أغْلَبِيٌّ، وليس شرطاً لازماً دواماً، إذْ هَٰذا العدد من الكلمات القرآنيَّة الَّتي استوى فيها المفرد والمذكر وغيرهما مع أنَّها بمعنى اسم الفاعل، يَدُلُّ على أنَّ شرطهم غير لازم.

أهْلَكَهُم الله بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، أَوْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصابَ قَوْمَ صَالحٍ الَّذِينَ أهْلَكَهُمُ اللهُ بالصَّيْحَةِ الَّتِي رَافَقَتْها زَلْزَلَةٌ وصاعِقَةٌ، أَوْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصابَ القَوْمَ الْقَرِيبِينَ مِنْكُمْ زَمَاناً وَمَكَاناً، الَّذِينَ أهْلَكَهُمُ اللهُ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ، وبِصَيْحَةٍ، وَبِبُرْكانٍ قَلَبَ بِهِ أرْضَهُمْ، فَجَعَلَ عَالِيهَا سَافِلَهَا، وهم قوم لوط.

البيان السادس: دَلَّ عَلَيْهِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَا قَالَهُ شُعَيب عليه السلام لِقَوْمِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾:

• ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾: أي: وادْعُوا رَبَّكُمْ طَالِبِينَ مِنه أنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ما سَبَقَ أنِ ارْتَكَبْتُمْ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ وَجَرائِمَ وآثام.

الْغَفْرُ: السَّتْرُ، ويَلْزَمُ مِنْ طَلَبِ سَتْرِ الذُّنُوب طَلَبُ التجاوُزِ عَنِ المؤاخَذَةِ عَلَيْها.

• ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ الاسْتِغْفَارِ الصادِقِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ إلَيْهِ قُلُوبُكُمْ، جَاهِدُوا أنْفُسَكُمْ جِهَاداً شَاقًّا في زَمَنٍ طَوِيلٍ، حَتَّىٰ تَرْجِعُوا إلَى رَبِّكُمْ، بِالْقِيَامِ بالْأَعْمَالِ الصَّالِحَة، وبِتَرْكِ الْأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ المُتَأَصِّلَةِ فِي عَادَاتِكُمْ، شيئاً فشَيْئاً، مُتَحَمِّلِينَ مَشَقَاتِ مُخالَفَةِ عَاداتِكُمْ، ومُصَارَعَةِ أهْوَائِكُمْ وَشَهَواتِكُمْ، والتَّغَلُّبِ عَلَىٰ عَقَبَاتِ نُفُوسِكُمْ واقْتِحَامِها.

• ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾: في هَٰذِهِ الْجُمْلَةِ المتَضَمِّنَةِ الثَّنَاءَ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بأنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، إطْمَاعٌ لَهُمْ بألَّا يَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ مَهْمَا أَسْرَفُوا عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبُوا، وَبأنْ لَا يَقْنَطُوا مِنْ أنْ يُحِيطَهُمُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ بِوُدِّهِ، إذَا اسْتَغْفَرُوهُ ثُمَّ تَابُوا إلَيْهِ شيئاً فَشَيْئاً، حَتَّىٰ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الاستقامَةِ عَلَىٰ صِرَاطِهِ الّذي أبَانَهُ لِعِبادِه، فِيما أَنْزَلَ عَلَىٰ رُسُلِهِ.

﴿رَحِيمٌ﴾: صِيغَةُ تَكْثِيرٍ لاسم الفاعل «رَاحِم» أي: ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ بَالِغَةٍ الْغَايَة.

الرَّحْمَةُ: صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ مِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، نُثْبِتُهَا لَهُ عَلَىٰ مَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظِيم سُلْطَانه، ومن آثارها: الْغُفْرَانُ والْعَفْوُ، والعطاءُ والمعُونَة، والتَّوْفِيقُ في الأُمور، وإِزَالَةُ الْبُؤْسِ والمَكارِه، والإمْدَادُ بمَا يَسُرُّ، وبمَا تَسْكُنُ به النَّفس، ويَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْب، ويُمْتِعُ ذَا الحياةِ بمَا يَطِيبُ لَدَيْهِ، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَاتِه، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرَّ والضُّرَّ والسُّوءَ والْأَذَىٰ، ويَهْدِيهِ إلى ما فيه خَيْرُهُ وسَعَادَتُهُ في عاجِلِ أمْرِهِ وعَاجِلِهِ، ويُبَيِّنُ لَهُ مَا فِيهِ شَرٌّ لَهُ وضُرٌّ وَأذىً لِيَجْتَنِبَهُ، ونحو ذلك.

• ﴿وَدُودٌ﴾: صِيغَةُ تَكْثِيرٍ لاسْمِ الفاعِلِ مِنْ فِعْل «وَدَّ».

الْوُدُّ: نَوْعٌ مِنَ الْحُبِّ الْهَادِئ الثابتِ النَّافع. **والْوَدُود**: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ، فَمَنْ وَدَّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَفَاضَ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ بِحَسَبِ حِكْمَتِه، وادَّخَرَ لَهُ السَّعَادَةَ الْعُظْمَىٰ إلَىٰ يَوْمِ الدين.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً لقَطَاتٍ مِنْ مَرْحَلَةِ تَهْدِيدِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ له:

• ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَـٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَـٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

• في يَاءَ المتكلّم مِنْ: ﴿أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ﴾ قراءتان: فَتْحُ هَـٰذِهِ الياء، وإسكانُهَا مَعَ المدّ في الوصل.

• وفي: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ قراءَتَان: بالإفراد، وبالجمع [**مَكَانَاتِكُمْ**] ومُؤَدَّىٰ

القراءتين واحد؛ لأنَّ اسْمَ الْجِنْسِ إِذَا أُضِيفَ إِلى مَعْرِفَةٍ كَانَ بِقُوَّةِ الْجَمْع.

أَحَسَّ قَوْمُ شُعَيْب عَلَيْهِ السَّلَامُ بالْعَجْزِ الكامِلِ عَنْ مُقَابَلَةِ حُجَجِهِ الْقَوِيَّةِ، بِمَا يَقِفُ مَعَهَا مَوْقِفَ النِّدِّ، ولَوْ في جَوْلَةٍ واحِدَةٍ مِنْ جَوْلَاتِ الصِّرَاعِ الْفِكْرِيّ، فَلَجَؤُوا إِلَىٰ تَهْدِيدِه بالْقَتْلِ رَجْماً بالحجارة، لَكِنَّ لَهُ رَهْطاً مِنْ عَشِيرَتِهِ لَا يُرِيدُون إِسْخَاطَهُمْ، وهُمْ عَلَىٰ مِلَّتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ بِحَسَبِ عَادَاتِهِم الْعَشَائِرِيَّة يَنْصُرُونَ شُعَيْباً نُصْرَةً عَصَبِيَّةً جاهِلِيَّة، فَهُمْ يَحْفَظُونَ لِعَشِيرَتِهِ كَرامَتَهُمْ.

لَقَدْ أَوْقَفُوا المناظَرَةَ القائِمَةَ عَلَىٰ الْفِكْرِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِهِمْ شُعَيْب عليه السلام، مُتَّهِمِينَ إِيَّاهُ بِأَنَّهُ يَقُولُ كَلَاماً لَا يَفْقَهُونَ كَثِيراً مِنْهُ، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مُتَابَعَةِ المناظرات الفِكْرِيَّةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَه.

وفي الآيَةِ (٩١) إيجازٌ لِأَرْبَعِ مَقُولَاتٍ وَجَّهُوهَا له:

المقولَةُ الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:

أي: مَا نَفْهَمُ كثيراً مِنْ أقوالِكَ الّتي تَقُولُها لَنا، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مُتابعَةِ الحديث الجدَلِيِّ مَعَكَ، فاقْطَعْ كَلَامَكَ مَعَنا. ﴿نَفْقَهُ﴾ هنا هي بمَعْنَى «نَفْهم». وهذا الْقَوْلُ يَدُلُّ دَلَالَةً صَرِيحَةً عَلَىٰ هُرُوبِهِمْ مِنْ الْمَعْرَكَة الْفِكْرِيَّةِ، بادِّعَاء أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ كثيراً ممَّا يَقولُ فِي مُنَاظَرَاتِهِ لهم.

إِنَّهُمْ فِي الحقيقَةِ قَدْ هُزِمُوا في معارِكِ الْفِكْرِ والمناظَرَةِ والْبَيانِ، وَلِهَذا تَحَوَّلُوا إِلَىٰ مَعْرَكَةِ الْقُوىٰ المادِّيَّةِ الَّتِي يَمْلِكُونَ مِنْهَا ما لَا يَمْلِكُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

المقولَة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾:

هَـٰذِهِ الجملة فيها توكيد بثَلاثَةِ مُؤَكِّدات: «إِنَّ ـ الْجُمْلَة الاسمية ـ اللَّامُ المزَحْلَقة إلىٰ الخبر».

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ يا شُعَيْبُ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّكَ ضَعِيفٌ فِينا، فَلَا قُوَّة لَكَ تَسْتَطِيعُ بِها مُواجَهَةَ قُوانا، إذَا أَرَدْنَا قَتْلَكَ رَجْماً بالحجَارَةِ، لنَتَخَلَّصَ مِنْكَ وَمِنْ دَعْوَتِكَ، فَقَدْ وَصَلَ أَمْرُكَ مَعَنَا إِلَىٰ أقْصَىٰ مَا نَحْتَمِلُ مِنْكَ، ولَمْ يَبْقَ لَنا إِلَّا أَنْ نَتَخَلَّصَ مِنْكَ بِوَسِيلَةٍ مَا.

وفي هَـٰذا تَهْدِيدٌ قَوِيٌّ لَهُ بِأَنَّهُم قَدْ بَدَؤُوا يُفَكِّرُونَ تَفْكِيراً جِدِّيًّا باسْتِخْدَام الْقُوَّةِ لإيقَافِ دَعْوَتِهِ، خَوْفاً مِنِ انْتِشَارِهَا بَيْنَ جماهِيرِهم.

المقولَة الثالِثة: دَلَّت عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَكَ﴾:

﴿رَهْطُكَ﴾: رَهْطُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ في قَوْمِهِ، وهَـٰذا هُو المرادُ هنا، وقَدْ يُرادُ برَهْطِ الرَّجُلِ قبيلَتُه، وقَدْ يُراد بهم قَوْمُه.

﴿لَرَجَمْنَكَ﴾: أي: لَقَتَلْنَاكَ رَجْماً بالحجارة، وهَـٰذِهِ عَادَةُ الشُّعُوبِ قَدِيماً إذَا خَرَجَ خَارِجٌ عَلَىٰ قَوْمِهِ رَجَمُوهُ بالْحِجَارَةِ حَتَّىٰ الموْت.

في هَـٰذِهِ العبارة إعْلَانُ غايَةِ الْعِدَاء، إذْ فيها دَلَالَةٌ علىٰ أَنَّهُ قَدْ وَصَلَ بِنَظَرِهِمْ إلى حالَةٍ يَسْتَحِقُّ فِيهَا أَنْ يُقْتَلَ رَجْماً بالحجارَةِ، تَنْكِيلاً به، وعِقَاباً له، لَوْلَا أَنَّ لَهُ عَشِيرَةً عَزِيزَةً على نُفُوسِهِمْ، وهُمْ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يُسْخِطُوهُمْ مُثِيرِينَ فِيهِمْ عَصَبِيَّتَهُمُ الْقَبَلِيَّة، ولَوْ كَانُوا غَيْرَ مُؤْمِنِينَ بِرِسَالَتِه، ولَا بمَا جاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ، إذْ مِنْ عَادَةِ القبائِلِ والْعَشَائِرِ أَنْ تَحْمِيَ الرَّجُلَ مِنْهَا بِدَافِعِ الْعَصَبِيَّة، ولَوْ خَرَجَ عَنْ مِلَّتِهَا وَلَمْ يَلْتَزِم طَرِيقَتَهَا.

المقولَةُ الرّابعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿... وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾:

أي: وَمَا أَنْت بذِي كَرَامَةٍ تَسْتَحِقُّهَا عَلَيْنَا حَتَّىٰ نُكْرِمَكَ عَنِ الرَّجْم مِنْ أجْلِهَا، بَعْدَ الَّذِي كَانَ مِنْكَ مِنْ خُرُوجٍ عَنْ مِلَّتِنَا، ومُخَالَفَةٍ لِطَرِيقَتِنا، واتِّخاذِ دِينٍ يُعَارِضُ دِينَنَا، وتَجَمُّعُ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ مِنْ قَوْمِنَا، حَتَّىٰ يكونُوا خارِجين علينا.

لَكِنَّ رَهْطَكَ وهُمْ عَشِيرَتُكَ الْأَقْرَبُونَ أعِزَّاءُ عَلَيْنَا، ذَوُو كرامَةٍ بَيْنَنَا، ونَحْنُ حَرِيصُونَ عَلَىٰ أَنْ لا نَجرَحَ كَرَامَتَهُمْ بَيْنَنَا، وَلَا نُؤْذِيَ مَشاعِرَهُمْ، ولَا أَنْ نُهِينَهُمْ بقَتْلِكَ.

العزيز: يأتي في اللّغة بمعنى القَويّ الغالِبِ الَّذِي لَا يُغْلَبُ. تقولُ الْعَرَبُ: «مَنْ عَزَّ بَزَّ» أي: مَنْ غَلَبَ سَلَب.

ويأتي بمَعْنَىٰ ذي الكرامَةِ الَّذِي لَا يَصِحُّ أنْ تُهانَ كَرَامَتُهُ، وهذا المعنى هو المراد هنا.

فأجاب شُعيبٌ عليه السَّلام على مَقُولات قومِهِ الأرْبَع بِتِسْعِ مَقُولَاتٍ جاء إيجازُها في الآيَتَيْنِ (٩٢) و(٩٣).

لم يَكْتَرِثْ شُعَيبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ لِتَهْدِيدَاتِ كُبَرَاء قَوْمِهِ وَوَعِيدِهِم، بل اسْتَمَرَّ يُوَاجِهُهُمْ بِمَقُولَاتِهِ الإقْنَاعِيَّة، لَكِنَّهُ ارْتَقَىٰ بِها إلى أسْلُوب التَّثْرِيبِ والتَّلْوِيمِ والتَّعْنِيفِ، واتَّخَذَ مَعَهُمْ مَوْقِفَ المُتَحَدِّي المنْذِر، المُتَرَقِّبِ الصَّامِدِ المتَوَكّل عَلَىٰ رَبِّه.

وفيما يَلي تَدَبُّرٌ لِمَقُولَاتِهِ التِّسْعِ لهم:

المقولَةُ الأُولَىٰ: دَلَّتْ عَلَيْها عبارَة: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟!.

أي: أعَشِيرَتِي الْأَقْرَبُونَ الَّذِينَ هُمْ عَبِيدٌ للهِ مِثْلُكُمْ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ، أكْرَمُ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ رَبِّكُمْ، الَّذي يُمِدُّكُمْ دَواماً بِعَطَاءَاتِ رُبُوبِيّته، والّذي أَرْسَلَنِي رَسُولاً إلَيْكُمْ، فَهُوَ يَحْمِينِي وَيَصُونُنِي وَيُنْجِينِي مِنْ شُرُورِكُم؟!!.

إنَّ هَـٰذا مِنْكُمْ لَأَمْرٌ يَسْتَدْعِي أشَدَّ الْعَجَب، لَقَدْ كَانَ مِنَ الْمَفْرُوضِ فيكُمْ وأنْتُمْ تَدَّعُونَ الْعَقْلَ والرُّشْدَ والْحِكْمَة، وَتَزْعُمونَ أَنَّكُمْ تَنْصُرُونَ

مَوْرُوثَاتِكُمُ الدِّينِيَّةَ الْبَاقِيَةَ فِيكُمْ مِنْ مِلَّةِ جَدِّكُمْ مَدْيَنَ بْنِ إبراهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السَّلام، أَنْ يَكُونَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ أعَزَّ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ مِنْ كُلِّ عَزِيز، وأكْرَمَ عِنْدَكُمْ مِنْ كُلِّ ذي كرامَة، فَمَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ مِنْكُمْ، أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ عِبَادَةِ اللهِ رَبِّكُمْ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُونَ بِعِبَادَتِهِ شَيْئاً، وأَدْعُوكُمْ إِلَىٰ طَاعَتِهِ، واجْتِنَابِ ظُلْم الْعِبَادِ، فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي يَصِحُّ في الْعُقُولِ السَّلِيمَةِ أَنْ تُنْكِرُوهُ مِنْ دَعْوَتِي.

الْمَقُولَةُ الثَّانية: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارَة: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّا﴾:

أي: واتَّخَذْتُمْ دِينَ اللهِ وَأَوامِرَهُ وَشَرَائِعَهُ وَمَطَالِبَهُ مِنْكُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكُمْ وَرَاءَكُم، فَجَعَلْتُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ظِهْرِيًّا، أي: مَنْبُوذاً مَنْسِيًّا مَتْرُوكاً وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ.

الظِّهْرِيُّ: هو في اللُّغة الشَّيْءُ الْمُحْتَقَرُ الْمَنْبُوذُ وَرَاءَ الظَّهْرِ، المتْرُوكُ المنْسِيُّ المسْتَهَانُ به.

والْيَاءُ في كلمة «ظِهرِيّ» هي يَاءَ النَّسَب، فالظِّهْرِيُّ هُوَ المنْسُوبُ إلَىٰ الظَّهْر، وكَسْرُ الظّاءِ جَاءَ مِنْ تَغْيِيرات النَّسَبِ الَّذِي يَرِدُ عَلَىٰ غَيْرِ قياسٍ، كَمَا قَالُوا فِي النَّسَبِ إلىٰ «دَهْرٍ» دُهْرِيّ بضَمّ الدَّال، وفي النِّسْبَةِ إلَىٰ «أَمْسِ» إِمْسِيٌّ، بِكَسْرِ الْهَمْزَة.

المقولَة الثالِثَة: دَلَّتْ عَلَيْها عِبارَة: ﴿... إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾﴾:

أي: إِنَّ مَا تَعْمَلُونَهُ مِمَّا يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عَلَيْكُمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ مِنْ تَدْبِيراتٍ لِقَمْعِ رَسُولِهِ، ولِقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ ونَصَرُوهُ، وللتَّنْكِيلِ بِهِمْ، وَمَا تَعْمَلُونَهُ لإيقافِ امْتِدَادِ الاسْتِجَابَةِ لدِينِهِ، أَعْمَالٌ يُحِيطُ بها اللهُ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ إِحَاطَةً تَامَّةً، بِعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَسَائِرِ صِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ.

إِنَّ الدِّينَ دِينُهُ، وإِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لَهُ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ،

وَالْمُؤْمِنُونَ بِي مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَنَحْنُ جَمِيعاً نُفَوِّضُ أُمُورَنَا إِلَيْهِ، وهو حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكيل.

المقولَةُ الرابعَة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: أي: عَلَىٰ مَوْضِعِكُمْ وَجِهَتِكُم وَنَاحِيَتِكُمْ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لِنُفُوسِكُم، المشَاقَّةِ والْمُعَادِيَةِ لِي وَلِدِينِي ولِلَّذِينَ آمَنُوا بِي واتَّبَعُونِي.

المكانَةُ: مُؤَنَّثُ المكَانِ، تُطْلَقُ عَلَىٰ الموضِعِ المادّيّ أوْ الْمَعْنَوِيّ، وتُطْلَقُ عَلَىٰ المنزلَة، والمرادُ هُنَا الموضع.

والمعنى: ويَا قَوْمِ اعْمَلُوا وأنْتُمْ على مَوضِعِكُمْ وجِهَتِكُمْ ونَاحِيَتِكُمُ الْمُشَاقَّةِ لِي، والنَّائِيَةِ عَنْ مَوضِعِ الحقِّ، وهِيَ المكانَةُ الَّتِي اخْتَرْتُمُوهَا لِنُفُوسكم.

اعْمَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ عَمَلَهُ ضِدِّي، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِي، وضِدَّ رِسَالَةِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ.

ولا يَخْفَىٰ مَا فِي هَـٰذِهِ المَقُولَةِ مِنْ تَحَدٍّ لَهُمْ أنْ يَفْعَلُوا مَا يَشَاءُونَ غَيْرَ عَابِئٍ بِتَدْبِيرَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

المقولة السادسة: دَلَّت عَلَيْها عبارَة: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾:

أي: إنّي مُتَابِعٌ القيامَ بِعَمَلِي، علىٰ وفْقِ مَا أَمَرَنِي بِهِ رَبِّي، وَعَلَىٰ وفْقِ مَا تَقْتَضِيهِ مِنِّي رِسَالَتِي، فَلَا أَتَوَقَّفُ، مع مُلَازَمَةِ مَكَانَتِي المضَادَّةِ والمُشَاقَّةِ لِمَكَانَتِكُمْ، حَتَّىٰ يَقْضِيَ اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.

ولا يَخْفَىٰ أَيْضاً مَا فِي هَـٰذِهِ المقولَةِ مِنْ أنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَتَحَدَّىٰ كُبَرَاءَ كُفَّارِ قَوْمِهِ، بِأَنَّهُ لَنْ يَتَوَقَّفَ عَنْ دَعْوَتِهِ، عَلَىٰ الرُّغْمِ مِنْ كُلِّ تَهْدِيداتِهِمْ وَتَدْبِيراتِهِم الكَيْدِيَّة.

المقولَةُ السابعَة: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾:

من الظاهِرِ في هَـٰذِهِ المقُولَةِ أَنَّ شُعَيْباً عَلَيْهِ السَّلامُ يُنْذِرُ كُفَّارَ قَوْمِهِ بأسْلُوبِ التَّلْوِيحِ لَا التَّصْرِيحِ، بأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِين سَوْفَ يَنْزِلُ بِهِمْ الْعَذَابُ الَّذِي يُخْزِيهِمْ، عِقَاباً لَهُمْ مِنْ رَبّهم.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والْهَوَانُ، والافْتِضَاحُ بالقبائِحِ والآثامِ المخْجِلَةِ الَّتِي تَجْلُبُ العقوبات الْمُهِينَاتِ المُذِلَّاتِ.

ويُطْلَقُ الخِزْيُ عَلَىٰ الوقُوعِ في الشّرِّ والْعَذَاب، والْبَلَايَا والنَّكَبَاتِ المصحوباتِ بِذُلٍّ وهوان.

اسْتِعْمَالُ شُعَيْب عليه السلام حرْف «سَوْف» دون حرف «السّين» احتياطٌ ذَكِيٌّ مِنْه، إذْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ عِلْمٌ بِقُرْبِ وقْتِ وقُوع الْعَذَاب الْمُخْزِي بِقَومِهِ، الذي سَيَأْتِيهِمْ مِنْ رَبّهم.

أكثر مَا يُسْتَعْمَلُ حَرْفُ «سَوْف» في القرآن المجيد، لِلدَّلَالَة علَىٰ مَا سَوْفَ يَكُونُ يَوْم الدّين، أو في المستقبل البعيد جدًّا.

المقولة الثامنةُ: دَلَّتْ عَلْيها عبارة: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾:

أي: وسَوْفَ تَعْلَمُونَ حِينَما يَنْزِلُ عليكم عَذَابُ اللهِ المخْزِي، مَنْ هُوَ كَاذِبٌ في ادِّعَاءِ أَنَّهُ عَلىٰ حَقٍّ، وأَنَّهُ يَنْصُرُ دِينَ اللهِ بِحَقٍّ وصِدْق.

هَـٰذا الْبَيَانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ قَوْمَ شعَيْب عليه السَّلامُ، كانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ الحقّ، وأَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ دِينَ اللهِ الموروُث عَنْ آبائِهِمْ، إلَىٰ جَدِّهِمْ مَدْيَنَ بْنِ إبراهيم عَلَيْهِ السلام.

وفي هَـٰذا الْبَيَانِ تَلْوِيحٌ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ.

المقولَةُ التاسعة: دَلَّتْ عَلَيْهَا عبارة: ﴿... وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ۝٩٣﴾:

أي: وانْتَظِرُوا انْتِظَارَ الْمُرَاقِبِ بِكُلِّ حَواسِّهِ، لِكُلِّ ما تَأْتِي بِه أحْدَاثُ المستَقْبَلِ، إنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ لِهَـٰذِهِ الأحداثِ.

إنَّهُ لَا يَتَحَدَّىٰ مِثْلَ هَـٰذا التَّحَدِّي إلَّا مَنْ كَانَ عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ رَبِّهِ بأنَّه سَيَنْصُرُهُ، وسَيَخْذُلُ وَيُخْزِي عَدُوَّهُ بالْعَذَابِ الأَلِيمِ الْمُهِين.

وَلَقَدْ وَجَّهَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَقُولَاتِهِ هَـٰذِهِ لِكُبَرَاءِ كُفَّارِ قَوْمِهِ، وَذَوِي السُّلْطَةِ الإدَارِيَّةِ فِيهم، بقَلْبٍ ثَابِتٍ شُجَاعٍ، ونفْسٍ مُطْمَئِنَّة واثِقَةٍ بِنَصْرِ اللهِ الْعَلِيِّ الْأَعْلَىٰ، الحَكِيمِ الْقَدِير، المنْتَقِمِ الْجَبَّارِ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ مُبيِّناً تَنْجِيَةَ شُعَيْبٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِهِ، وإهلَاكَ كُفَّارَ قَوْمِهِ:

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: ولمَّا جاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أمْرِنَا الَّذِي قَضَيْنَاهُ بَتَنْجِيَةِ شُعَيْبٍ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، وبإهْلَاكِ سائر قَوْمِهِ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ.

• ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾:

النَّجَاةُ: الْخَلاصُ مِنَ الْمَكْرُوه.

أي: خَلَّصْنَا الَّذِينَ قَضَيْنَا أَنْ نُخَلِّصَهُمْ مِنَ الإهْلَاك، وهُمْ شُعَيْبٌ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، بوَسِيلَةٍ هِيَ مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا.

• ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾: أي: وقَبَضَتِ الصَّيْحَةُ عَلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا، وهُمْ كُفَّارُ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السلام، قَبْضَةَ تَعْذِيبٍ وإهْلَاكٍ مُسْتَأْصِلٍ.

الصَّيْحَةُ: صَوْتٌ عَظِيمٌ مُمِيت.

اخْتِيرَتْ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ لِلإشْعَارِ بِأَنَّ ظُلْمَهُمْ كَانَ هُوَ السَّبَبَ فِي تَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِمْ.

• ﴿... فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾:

﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾: أي: فَدَخَلُوا في صَبَاحِ الْيَوْمِ الْمُقَرَّر أنْ يُهْلِكَهُمُ اللهُ فيه.

﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾: أي: في قُراهُمْ وأمَاكِنِ تَجمُّعِهِمُ المتَعَدِّدَةِ المتفَرِّقَة.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لَاصِقِينَ بالأَرْضِ عَلَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، مُلَازِمينَ أمْكنَتَهُمْ هَلْكَىٰ، بَعْدَ أَنْ ذَاقُوا عَذاباً أليماً، جَزَاءَ مَا كَانُوا فِيه مِنْ تَعَالٍ، وَمَا كَانُوا فِيهِ مِن اسْتِكْبَارٍ عَلَىٰ بَارِئِهِمْ وَرَسُولِهِ.

• ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾:

أي: فَصَارَتْ حَالَتُهُمْ بَعْدَ أَنْ نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ مَا نَزَلَ، تُشْبِهُ حَالَةَ الَّذِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ إقَامَةٌ ما فِي دِيَارِهِمْ، وهَـٰذا يَدُلُّ عَلَىٰ اسْتِئْصَالِ وُجُودِ أَجْسَادِهِمُ الْهَلْكَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَمْسِ كُلِّ آثَارٍ لَهُمْ فيها.

يُقَالُ لُغة: «غَنِيَ بالمكانِ، يَغْنَىٰ، غِنًى، وغَنَاءً» أيْ: أقَامَ فِيه. ويُقَالُ: «غَنِيَ الْقَوْمُ بالْمَكانِ» أيْ: طَالَ مُقَامُهُمْ فِيه.

والمغْنَىٰ: الْمَنْزِلُ الَّذِي غَنِيَ بِهِ أَهْلُهُ، وجَمْعُه: «المغاني».

• ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿أَلَا﴾ أداةُ اسْتِفْتَاحٍ، وتنبيهٍ، وتَحْقِيق.

والْمَعْنَىٰ: ألَا طَرْداً لِكُفَّارِ مَدْيَنَ، مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ نُزُول آثار الرَّحْمَةِ الرَّبَّانِيَّةِ الَّتِي تَعُمُّ كُلَّ شَيْءٍ صَالِحٍ لِتَلَقِّي آثار رَحْمَةِ اللهِ، والسَّبَبُ في هَـٰذا أَنَّهُمْ أبْعَدُوا نُفُوسَهُمْ عَنْ مَوَاقِعِ تَنَزُّلَاتِ رَحَماتِ الرَّحْمٰنِ، بإرادَاتِهِمُ الحرَّة، فاسْتَحَقُّوا الْحُكْمَ عَلَيْهِمْ بالْإبْعَادِ والطَّرْدِ.

لفظ «بُعْداً» مَنْصُوبٌ عَلَىٰ أَنَّهُ مَفْعُولٌ مُطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوف.

يُقَالُ لُغَةً: «بَعِدَ، يَبْعَدُ بَعْداً» ضِدُّ قَرُبَ، ويأتي بِمَعْنَىٰ: «هَلَكَ» ويُقَال أيضاً: «بَعُدَ، يَبْعُدُ، بُعْداً».

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الخامس، من الدرس السادس من دُرُوس سورة (هُود).

والحمد للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ وَمَدَدِه وفَتْحِهِ وَتَوْفِيقه.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس من الدرس السادس من دُرُوس سورة (هود)
لقطات مُوجَزات من قصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ وفِرْعَوْن
الآيات من (٩٦ ـ ٩٩)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾:

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآياتِ الأربع لقطاتٌ مُوجَزاتٌ جِدًّا مِنْ قِصَّةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِرْعَوْنَ فِي مِصر، جاء تَفْصِيلُها في نُصُوصٍ كثيرة مُوزَّعَةٍ في سُوَر القرآن الْمَجِيد، والْغَرَضُ مِن إيرادِهَا مُوجَزَةً في هَـٰذِهِ السُّورَةِ، تَذْكِيرُ المقْصُودِينَ بالْمُعَالَجَةِ بالتَّرْهِيب، وهُمْ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ضَغْطاً عَلَىٰ نوازِعِ الكِبْرِ فِيهِمْ، الَّذِي لَمْ يَبْلُغُوا فِيهِ مَبْلَغَ فِرْعَوْنَ، ولَيْسَ لَهُمْ فِي الْعَرَبِ مِثْلُ ما كانَ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ مِنْ قُوَّةٍ وجَبَرُوتٍ وَسُلْطَانٍ ومُلْكٍ كَبِيرٍ، فَلَمْ

يُغْنِهِمْ كُلُّ ذَلِكَ شيئاً حِينَ جَاء أَمْرُ اللهِ بإهْلاكِهِمْ غَرَقاً، ثُمَّ مَا سَيَنَالُونَهُ يَوْم الْقِيَامَةِ مِنْ عذابٍ أليمٍ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، مَلْعُونينَ مَطْرُودين مِنْ كُلِّ مَوَاقِعِ رَحمَاتِ اللهِ الَّتِي تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ يَتَعَرَّضُ لَهَا بإرَادَتِهِ الْحُرَّة، وَلَا يُبْعِدُ نَفْسَهُ عَنْها بِكُفْرِهِ وكِبْرِهِ وجرائِمه الكُبْرَىٰ، ومعانَدَتِهِ لِرَبّه، ومَعْصِيَتِهِ له، ومُحَادَّةِ رُسُلِهِ وأوْلِيَائِهِ مِنَ المؤمنين.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

- ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾:

﴿وَلَقَدْ﴾: اللام واقعة في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ كَمَا يَقُولُ النحاة، وحرف «قَدْ» للتحقيق، وجاء البيانُ مُؤَكّداً لِأَنَّهُ مُوَجَّهٌ لمعالَجَةِ أَئِمَّةِ مُشْرِكي مَكَّة.

- ﴿... أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾﴾:

الآيات: تُطْلَقُ عَلَىٰ الآياتِ الكونية، والآياتِ الإعجازيّةِ، والآياتِ الجزائِيَّة، والآيَاتِ الْبَيَانِيَّة. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: أي: مَصْحُوباً بآياتنا.

السُّلْطَانُ: يُطْلَقُ عَلَىٰ الْحُجَّةِ الدَّامِغَة الَّتِي لَا دَفْعَ لها، ويُطْلَقُ على الْقُوَّةِ الْقَاهِرَة، وتَدْخُلُ الآياتُ الإعجازِيَّةُ في عُمُومِ الْقُوَّةِ القاهِرَة.

لفظ «مُبين»: يأتي بمَعْنَىٰ الواضِح الجلِيّ في ذاته، ويأتي بِمَعْنَىٰ الْمُبِينِ الموضِحِ لغَيْرِه. ويَصْلُحُ اللَّفْظُ هُنَا للدَّلَالَة على المعنَيَيْن فَيُحْمَلُ عَلَيْهما.

وقَدْ دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أرسَلَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام مصحوباً بالآياتِ الْبَيَانِيَّةِ، وبالآيات الإعْجازِية، وبِسُلْطَانٍ مُبِينٍ مِنَ الحجج والْبَرَاهِينِ الكاشِفَةِ لِلْحَقِّ، وبِخَوارِقَ إعْجازِيَّةٍ ذَوَاتِ قُوىً قاهِرَة. ومنها آية العصا.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾:

أي إلى فِرْعونَ الَّذِي كان مَلِكَ مِصْرَ حِينَ كَلَّمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مُوسَىٰ، واصْطَفَاهُ نَبيّاً وَرَسُولاً، وآتَاهُ آياتٍ من لَدُنْهُ وسُلْطَاناً مُبيناً، وإلى مَلَئِهِ، وهُمْ أعْيَانُ قَوْمِهِ وسَاداتُهُمْ وأشْرَافُهُمُ الّذِين يَمْلَؤُونَ عُيونَ العَامَّة.

فاتَّبعَ الْمَلأُ أمْرَ سَيِّدِهِمُ الْمَلِكِ فِرْعَوْنَ، وتَبِعَهُمْ مِنْ ورائِهِمْ المصريُّونَ طائِعِينَ، إذْ كَانُوا ذَوِي خُضُوعٍ كامِلٍ لِسُلْطَانِ فِرْعَوْن.

أمْرُ فِرْعَوْن: شَأْنُهُ، وتَكْلِيفُهُ فِيمَا يأمُرُ به، أَوْ يَنْهَىٰ عَنْهُ، فَقَدْ كانُوا عَلَىٰ دِينِهِ، ويَعْمَلُونَ مِثْلَ أعْمالِهِ اتِّباعاً تَقْلِيديًّا، وكانُوا يُنَفِّذُونَ أَوَامِرَهُ ونواهِيَهُ طاعَةً لَهُ.

الْأَمْرُ التكليفيُّ يَشْمَلُ النَّهْيَ؛ لأنَّ النَّهْيَ عَنِ الشَّيْءِ أَمْرٌ بضِدِّهِ.

﴿... وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾﴾: أي: وَمَا شَأْنُهُ فِي دِينِهِ وأنواعِ سُلُوكِه، وَمَا أَمْرُهُ التَّكْلِيفِي بأمْرٍ مَوافِقٍ لِلْحقِّ والْخَيْرِ والفضيلة والصَّوَاب والْهُدَىٰ.

﴿بِرَشِيدٍ﴾ الباء زيدَت لتوكيد عموم النفي. **رَشِيد**: أي: ذي رُشْدٍ.

الرُّشْدُ: السُّلُوكُ الفكْرِيُّ، والنَّفْسِيُّ، والْخُلُقِيُّ، والْعَمَلِيُّ، الموافِقَ لِلْحقِّ والصَّوَاب، أو لِمَا هُو الْأَفْضَلُ والأَحْسَنُ والأَكْثَرُ نفعاً وتَحقيقاً للمَصَالِحِ الَّتي لَا شَرَّ فيها ولَا ضُرَّ، والأَبْعَدُ عَن الضَّرَرِ والفسادِ والإفسادِ في الأرض.

قول الله عَزَّ وجَلَّ يَصِفُ لَقْطَةً مِمَّا سَوْفَ يَكُون لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ يَوْم الدِّينِ:

• ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: أي: يَأْتِي فِرْعَوْنُ يَوْمَ الدِّين مُتَقَدِّماً عَلَىٰ قَوْمِهِ، كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيا مُتَقَدِّماً عَلَيْهِمْ رِيَاسَةً ومُلْكاً وَفي الْمَسِيرات.

يُقَالُ لغة: «قَدَمَ فلانٌ، يَقْدُمُ الْقَوْمَ، قَدْماً، وقُدُوماً» أي: سَبَقَهُمْ فَصَارَ قُدَّامَهُمْ.

﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾: أي: فَكَانَ بِمَثَابَةِ قَائِدٍ لَهُمْ يُحْضِرُهُمْ دَارَ الْعَذَابِ النَّارَ، لفظ «النار» هو على معنَىٰ: فأوردَهُمْ «مكَانَ النّارِ» منصوبٌ على أنه ظرف مكان.

قال الْجَوْهَرِي: «أَوْرَدَ فُلاَنٌ غَيْرَهُ» أي: أَحْضَرَهُ.

وفي حَدِيث أبي بَكْرٍ رضي اللهُ عنه، أنَّهُ أَخَذَ بِلِسَانِهِ، وقال: «هَـٰذا الَّذِي أورَدَنِي الموارد» أي: أورَدَنِي الموارد الْمُهْلِكَة، واحِدَتُها «مَوْرِدَة».

وقَدْ يَكُونُ المعنىٰ مأخُوذاً مِنْ وُرُودِ المَاء، يُقَالُ لغة: «أَوْرَدَ الرَّاعِي إبلَهُ الْمَاءَ» أي: جَعَلَ إبلَهُ تَصِلُ إلَىٰ الْمَاءِ لِتَرِدَ مِنْهُ.

وهَـٰذا الاسْتِعْمَالُ الْقُرَآنِيُّ هو على سبيل التهكُّم، نُزِّلَ إيرَادُهُمْ إلَىٰ دَارِ العذاب النار مُشَاةً عِطَاشاً، مَنْزِلَةَ الإبلِ الَّتِي يُورِدُهَا رَاعِيهَا الماء، لكِنَّهُمْ لَا يرِدُونَ مَاءً يُطْفِيءُ ظَمَأَهُمْ، إنَّما يَرِدُونَ نَاراً مُحْرِقَةً، وَحَمِيماً فيها يُقَطّعُ أَمْعَاءَهُمْ. **الْوِرْدُ**: الماءُ الَّذِي يَرِدُ عَلَيْهِ قَاصِدُه.

- ﴿... وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾:

﴿بِئْسَ﴾: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشَاءِ الذَّم عَلَىٰ سَبِيلِ المبالَغَة.

﴿ٱلْوِرْدُ﴾: فَاعِلُ «بِئْسَ». والمَخْصُوصُ بِالذَّمّ مَحْذُوفٌ مُلاحَظٌ تَقْدِيراً، تقديرُه: «وِرْدُهُمْ».

﴿ٱلْمَوْرُودُ﴾: أي: الَّذِي سَوْفَ يَرِدُونَهُ حَتْماً يَوْم الدِّينِ، عقُوبَةً لَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ وَجَرَائِمِهِم.

اسْتُعْمِلَ الفِعْلُ الْمَاضِي في: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ بَعْدَ اسْتِعْمَالِ الْفِعْلِ المضارِع في: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ عَلَىٰ سَبِيلِ الاستِقْطَاعِ مِنَ الْحَدثِ

الّذي سَوْفَ يَكُونَ لَا مَحَالَةَ يَوْمَ القيامَةِ، وتَقْدِيمِهِ كَأَنَّهُ حَدَثٌ جَرَىٰ وصَارَتْ لَهُ صُورةٌ مشْهُورَة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ أيضاً:

• ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾:

﴿ٱلرِّفْدُ﴾: الْعَطاءُ والصِّلَة، أطْلِقُ عَلَىٰ مَا يُعْطَوْنَهُ مِنْ عَذَابٍ رِفْداً على سبيل التهكُّم.

أي: وَأُتْبِعَ فِرْعَوْنُ وقَوْمُهُ الكافِرُونَ في هَـٰذِهِ الحياةِ الدُّنْيا لعنَةً عَظِيمَةً، جَعَلَتْهُمْ يَذُوقُونَ الْعَذَابَ وهُمْ يَغْرَقُونَ في الْبَحْرِ، ويُطْرَدُون طَرْداً جَماعِيًّا مِنَ الحياة الدُّنيا أذِلَاءَ مُهَانِين مَنْبُوذين خَزَايا.

وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكُونُ لَهُمْ نُزُلٌ في جَهَنَّمَ يُعْطَوْنَ فِيهِ عَطاءَ عَذَابٍ أليم، يَنالُونَهُ حَتْماً، ويُقَالُ لَهُمْ تَهكُّماً هَـٰذا رِفْدُكُمْ عند ربكم الّذِي كَفَرْتُمْ به.

وبهذا انتهىٰ تدبر الفصل السادس من الدرس السادس من دُرُوس السورة، والحمْدُ للهِ على مَعونته وتوفيقه ومَدَدِهِ وفتحه.

❁ ❁ ❁

الفصل السّابع من فُصول الدرس السادس
ختامٌ تَذييلي فيه مَوْعِظَةٌ وَتَذْكير بالآخِرَة وما فيها مِنْ جزاء
الآيات من (١٠٠ـ ١٠٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

تمهيد:

اقتَضَىٰ ذِكْرُ الْفُصُولِ السِّتة المتعلِّقَة بنوحٍ عليه السلام وقومِه، وهود عليه السلام وقومه، وصَالحٍ عليه السَّلام وقومِهِ، ولوطٍ عليه السلام وقومه، وشُعَيْبٍ علَيْهِ السَّلامُ وقَوْمِه، ومُوسَىٰ عليه السلام وفِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، أنْ يُعَقِّبَ اللهُ عزَّ وجلَّ عَلَيْها بِتَعقِيبٍ تَذْييليٍّ مُوَجَّهٍ أَوَّلاً للمعنيّين بالْعِلَاج في السُّورَةِ، وهُمْ كُبَرَاءُ مُشْرِكي قُرَيشٍ وأتْباعُهم إبَّانَ التنزيل، ثُمَّ إلىٰ سَائِرِ الكَفَرَةِ المعانِدِينَ الْمُجْرِمِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مَوْضوعٍ في الحياةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ خَطاباً للرسُول ﷺ، فلِكُلِّ متلقٍّ للقرآن المجيد من بَعْدِه:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾:

- ﴿ذَٰلِكَ﴾: الْمُشَارُ باسم الإشارة هُوَ مَا سَبَقَ أَنْ قَصَّهُ اللهُ في السّورة مِن قصص نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم ولُوط، وشُعَيْبٍ ومُوسَىٰ عليهم السَّلام، والأقوام الَّذِين أُرْسِلُوا إليهم.

• ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: بَعْضٌ مِنْ أنباء الْقُرَىٰ الَّتي أَهْلَكَ اللهُ كُفَّارَها. **الْقُرَىٰ**: جمع «الْقَرْيَة» وهي كلُّ مُجَمَّعٍ سَكَنِيٍّ صغيراً كانَ أَمْ كبيراً، ولَوْ كَانَ مَدِينَةً عظيمة جدًّا.

• ﴿نَقُصُّهُۥ﴾: أي: نُحَدِّثُكَ بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ المطابقِ للواقع تَماماً. يُقَالُ لغة: «قَصَّ الشَّيْءَ» أي: تَتَبَّعَ أَثَرَهُ شَيْئاً بَعْدَ شيء «قَصّاً وقَصَصاً».

• ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾: بَعْضُهَا كَنباتٍ قائمٍ عَلَىٰ سُوقِهِ، لَمْ تَمْحُهُ أَحْدَاثُ إِهْلَاكِ الأقوام الَّذِينَ كانُوا يَسْكُنُونَها. وهذا من التشبيه البليغ.

• ﴿وَحَصِيدٌ﴾: أي: ومِنْهَا كَنَبَاتٍ مَحْصُودٍ بالمنْجَلِ سَاقِطٍ عَلَىٰ الْأَرْضِ، أَوْ تَالِفٍ تَذْرُوه الرِّياح أو ذَرَتْهُ ولَمْ تُبْقِ لَهُ أثراً. **الْحَصِيد**: النبات المحصود بالمنجل، وهذا من التشبيه البليغ أَيْضاً.

المعنى: ذَلِكَ الَّذِي قَصَصْنَا عَلَيْكَ في السُّورَةِ هُوَ بَعْضُ أنْبَاءِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا في الْقُرُونِ السَّابِقَةِ، نَقُصُّهَا عَلَيْك، وَمَبَانِي هَـٰذِهِ الْقُرَىٰ الَّتِي أَهْلَكْنَا كُفَّارَهَا تُشْبِهُ زَرْعاً على أَرْضٍ، وهذا الزَّرْعُ قِسْمٌ مِنه قَائِمٌ عَلَىٰ سُوقِه، وقِسْم مَحْصُودٌ سَاقِطٌ عَلَىٰ الأَرْضِ، أَوْ تَالِفٌ تَذْرُوهُ الرياحُ أو ذَرَتْهُ ولَمْ تُبْقِ لَهُ أثراً.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾:

• ﴿وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ﴾ يَتَحَدَّثُ رَبُّنَا بِضَمير المتكلّم العظيم الْقَدِير عَلَىٰ مَا يَشاءُ، فَيَقُولُ بشأنِ الَّذِينَ أَهْلَكَهُمْ مِنْ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةِ لِبِعْثَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، ومُجْرِميها، أَنَّهُ ـ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مَا ظَلَمَهُمْ ظُلْماً مَا فِيمَا أَنْزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ وإِهْلَاك.

• ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾: نُزِّلَتْ كُلُّ أُمَّةٍ مُهْلَكَةٍ مُجْتَمِعَةٍ عَلَىٰ كُفْرِيَاتٍ وَجَرَائِمَ مُتَماثِلَة، مَنْزِلَةَ نَفْسٍ واحِدَة، فناسَبَ هَٰذا أنْ يأتِي الْجَمْعُ جَمْعَ قِلَّة في: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ إذِ الأمَمُ الَّذِينَ ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في السّورة لقطات مِنْ قِصَصِهِمْ كَانُوا سِتَّ أُمَمٍ، وهَٰذا الْعَدَدُ يُلائِمُهُ جَمْعُ الْقِلَّة، لا جَمْعُ الكثرة: «نفوسهم».

والسَّبَبُ في أَنَّهُمْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوا بالتَّعْذِيبِ والْإِهْلَاكِ، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ كُفْرِيَّاتِهِمْ وَجرائِمِهِمْ ومَعْصِيَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وعلى تَمَادِيهِمْ في الْغيّ، أبْلَغَهُمْ ذَلِكَ رُسُلُ رَبِّهِمْ المؤيَّدُونَ مِنْهُ بالآيَاتِ البيِّنات والمعْجِزَاتِ الْبَاهِرَاتِ، فاسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا نُهُوا عَنْه، فأوْقَعُوا أَنْفُسَهُمْ فِيما أُنْذِرُوا به.

وحَالُهُمْ هذا يُشْبِهُ حَال مَنْ دَخَلَ فِي نَفَقٍ مُظْلِم، وَجَدَ فِيهِ بَعْضَ لذَّاتٍ واسْتِمْتَاعَاتٍ تَسُرُّهُ وتُفْرِحُهُ، وأهْلُ الْعَقْلِ والرُّشْدِ يَنْصَحُونَهُ بأنْ لَا يَدْخُلَهُ؛ لِأَنَّ الدَّاخِلَ فِيهِ سَتُفاجِئُهُ الْمُهْلِكَاتُ والنّكَبَاتُ الْمُعَذِّبَاتُ عَذَاباً شَدِيداً، ثُمَّ يُشْوَىٰ بِجَسدِه عَلَىٰ الْجَمْرِ، وَكُلَّمَا تَوَغَّلَ خُطْوَةً فِي النَّفَقِ، سَمِعَ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ والتَّجْرِبَةِ يَنْصَحُونَهُ بالْخُرُوجِ، ويُحَذِّرُونَهُ مِنَ الْعَوَاقِبِ الْوَخِيمَة المؤلِمَةِ ومِنَ الْعَذَاب الشَّدِيدِ إذا لم يَخْرُج. لكِنَّهُ لَمْ يَعْبَأْ بِنُصْح النَّاصِحِينَ، ولا بتَحْذِيراتِ المُحَذِّرِينَ الرُّحَمَاءِ، واسْتَمَرَّ مُتَوَغِّلاً في النَّفَقِ، حتَّىٰ فَاجَأَهُ مَا سَبَقَ أَنْ أُنْذِرَ بِهِ، أَفَلَا يَكُونُ قَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ؟!.

مَنْ يُقَالُ لَهُ: هَٰذِهِ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، فَلَا تَدْخُلْ فيها، وعالَجَهُ الرُّحَمَاءُ بِمُخْتَلِف الوَسَائِلِ غَيْرِ الجبْرِيَّةِ أنْ لا يَدْخُلَها، فعَانَدَ، وَدَخلَها، فاحْتَرَقَ، أفَلا يكون قَدْ ظَلَمَ نفسه؟!.

• ﴿... فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ ... ﴿١٠١﴾﴾:

أَصْلُ معنى: «أغْنَاهُ» كَفَاهُ. والكِفَايَةُ عِنْدَ الحاجَةِ إلى مَا يَدْفَعُ المكْرُوهَ تَتَضَمَّنُ معْنَىٰ الْكَفِّ والصَّرْفِ، أي: كَفَاهُ فَصَرَفَ عَنْهُ ما يَكْرَه، فَضُمِّنَ فِعْل: «أَغْنَىٰ» مَعْنَىٰ فِعْل: «صَرَفَ» فَعُدِّي تَعْدِيَتَه بِحَرْفِ الجرِّ «عَنْ». ورُوِيَ أَنَّ «عَلِيًّا» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، بَعَثَ إِلَىٰ «عُثْمَانَ» رضيَ اللهُ عَنْهُ بِصَحِيفَةٍ، فقال «عُثْمَانُ» للرَّسُولِ: «أَغْنِهَا عَنِّي» أي: اصْرِفْهَا عَني.

المعنى: فَمَا كَفَتْهُمْ صَارِفَةً عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ بالدُّعَاءِ وغَيْرِهِ، مِنْ شَيْءٍ مِمَّا يَكْرَهون، حِينَ جَاءَ وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِ رَبِّكَ، المسْبُوقِ بِتَقْدِيره وقضائِهِ، والْقَاضِي بإنْزَال العذابِ بِهِمْ، وإهْلَاكِهِمْ إهْلَاكَ اسْتِئْصَالٍ في الحياة الدّنيا، ولَهُمْ يَوْمَ الدّينِ خُلُودٌ في عَذَابِ الجحيم.

حرَف الجرّ «مِنْ» في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زيد لتوكيد عموم النفي والتَّنْصِيص عليه.

● ﴿... وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾: أي: وَمَا زَادَهُمْ مَنْ كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ غَيْرَ خَسَارَةٍ وإِهْلَاكٍ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ.

والمعنى: إنْ كانُوا يتوَهَّمُونَ أَنَّ آلِهَتَهُمُ الَّذِينَ كانوا يَعْبُدونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ، يَنْقُصُونَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ شَيْئاً، فإنَّهُمْ لَمْ يَنْقُصُوهم شيئاً، بَلْ زَادَهُمْ إيمَانُهُمْ بِهِمْ تَعْذِيباً وخَسَارَةً وهَلَاكاً.

نُسِبَتِ الزِّيادَةُ إلى آلِهَتِهِمْ، وهِيَ إِلَىٰ إيمانِ المشركين بهم، وهَـٰذا مِنَ الْمَجَازِ المرسَلِ، مِنْ إِطْلَاقِ الشَّيْءِ وإرادة مَا يَتَعَلَّقُ به.

التَّتْبِيبُ: الْإِهْلَاكُ، والنَّقْصُ مِنَ الخير، وإلْحَاقُ الْخَسَارَةِ بالمتَبَّب. يُقَالُ لغة: «تَبَّبَهُ، يُتَبِّبُهُ، تَتْبيباً»: أي: أَهْلَكَهُ، ونَقَصَهُ حَقَّهُ، وأَلْحَقَ بِهِ خَسَارَة.

وظاهِرٌ مَا فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ مِنْ إقْنَاعٍ للمشْرِكِين بأنَّ آلِهَتَهُمْ لَنْ تَنْفَعَهُمْ شيئاً، حِينَما يأْمُرُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِتَعْذِيبِهِمْ وإهْلَاكِهِم.

قول الله تَعَالَى:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: ومثْل ذَلِكَ الأَخْذِ التَّعْذِيبيّ الإهْلاَكِيّ، الَّذِي أخَذَ بِهِ اللهُ أهْلَ الْقُرَىٰ الظَّالِمِينَ، الَّذِينَ قَصَّ الله عَزَّ وجَلَّ بَعْضَ أحْدَاثِ إهْلاَكِهِمْ في السّورَة، يَكُونُ أخذُ رَبِّكَ إذَا أَخَذَ أهْلَ الْقُرَىٰ حَالَةَ كَوْنِهِمْ ظَالِمِينَ، إنَّ أَخْذَهُ لِلْكَفَرَةِ الْمُجْرِمِينَ أَخْذٌ مُؤْلِمٌ لَهُمْ، وشَدِيدٌ عَلَيْهِمْ.

أُطْلِقَ لَفْظُ «الْقُرَىٰ» وأُرِيدُ أَهْلُهَا، وهو مَجَازٌ مُرْسَلٌ مِن إطْلاَقِ الْمَحَلّ وإرَادَةِ الحالّ بِهِ.

وأصلُ «الأَخْذِ» الْقَبْضُ علىٰ الشيء، وبالتوسُّع فيه صَارَ يُطْلَقُ عَلَىٰ معنَىٰ مَا يُؤْخَذُ لَهُ الشَّيْء، فإذا كَانَ الْأَخْذُ للتَّعْذِيب والإهلاك، كان المرادُ بِهِ التَّعْذِيبَ والإهْلاَكَ.

قولُ الله تَعَالَىٰ مبيّناً أنَّ عِقابَ الله المُعَجَّلَ في الدنيا آيَةٌ دَالَّةٌ على عقابِهِ المُؤَجَّل إلى يوم الدّين، ومُبَيِّناً بَعْضَ أمورٍ عَنْ يوْم الدّينِ ومَا يَجْرِي فيه.

• ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الآياتِ بَيَانُ ثَماني قضَايا تَتعَلّقُ بجَزَاءِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِعِبادِهِ في الآخِرَةِ يَوْمَ الدّين:

القضية الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ . . . ﴿١٠٣﴾﴾:

أيْ: إنَّ في ذَلِكَ الَّذِي قَصَّهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِنْ إهْلَاكِ كُفَّارٍ ومُجْرِمِي الْقُرُونِ السَّالفَة، لَآيَةً دَالَّةً عَلَىٰ صِدْقِ مَا أَنْذَرَ عِبادَهُ به، أو بَشَّرَهُم به مِنْ جَزَاءٍ بِالْعِقَابِ، أو جَزَاءٍ بالثَّوَابِ، في الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ يَوْمَ الدِّينِ، بَعْدَ بَعْثِ الموْتَىٰ من أَجْدَاثِهِم، وهَـٰذِهِ الآيَةُ واعِظَةٌ ونافِعَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَة، إدْراكاً مِنْهُ بِأَنَّ مَا تَحَقَّقَ في الدُّنيا مِنْ تَنْفِيذِ الإنْذَارِ بالْعِقَابِ المُعَجَّل، يُقَاسُ عَلَيْهِ الإنْذَارُ المؤَجَّلُ إلَىٰ الحياة الآخِرَةِ يَوْمَ الدِّين، فَهُو بعَقْلِهِ ورُشْدِهِ وبَصِيرَتِهِ يخافُ عَذَاب الآخِرَة.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول الله تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾:

دَلَّ ذِكْرُ الآخِرَة، أي: الحياة الآخِرَةِ في الْقَضِيَّةِ الْأُولَىٰ، عَلَىٰ الْيَوْمِ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ هَـٰذِهِ الحياة، وهُوَ يَوْمُ الدِّينِ، فَأَشَارَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ إلَيْه باسْمِ الْإشَارَةِ في عبارَة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ بأسْلُوب الخطاب الإفرادِيّ لكُلِّ مُتَلَقٍّ للقرآن المجيد.

أي: ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي تَكُونُ فِيهِ الحياةُ الآخِرَة يَوْمٌ مَجْمُوعٌ فِيهِ النَّاسُ، لِيُلَاقُوا فِيهِ حِسَابَهُمْ، وفَصْلَ الْقَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وتَنْفِيذَ الْجَزَاءِ الَّذِي يَقْضِي بِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مِنْ ثوابٍ بحَسَبِ أعمالِ المؤمنين المتَّقِين، أو عِقَابٍ لمستَحِقِّيهِ الكافِرِين المجرمين، والْعُصَاةِ المذْنِبين.

القضيَّةُ الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . . وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾:

معنى: ﴿مَّشْهُودٌ﴾ مَحْضُور. أمَّا حُضُورُ النَّاسِ فِيهِ فقَدْ دَلَّتْ عَلَيْهِ القضِيَّةُ الثانِية، فَحَمْلُ «مَشْهُود» عَلَيْهم لَا يُنَاسِبُ كمال القرآن، ويُقاسُ عَلَىٰ الناس الجنّ لِأَنَّهُم كانُوا مَوْضُوعِينَ فِي الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامتحان، فَهُمْ سَيُحْضَرُونَ للحسابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

بَقِيَ أنْ نَفْهَمَ أَنَّهُ مَحْضُورٌ مِنْ قِبَلِ اللهِ والملائكَةِ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾:

وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾. وقرأ أبو جعفر: [**والْمَلائِكَةِ**] بالجرّ.

وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾:

القضية الرابعة: دَلَّ عَلَيْهاقول الله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: وَمَا نُؤَخِّرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ المشْهُودَ الَّذِي يُجْمَعُ النَّاسُ فِيهِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وَتَنْفِيذِ الجزاء، إلَّا لِأَجلٍ مُحَدَّدٍ مَعْلُوم، مَعْدُودِ الْوَحَدَاتِ الزّمَنِيَّةِ الَّتِي يَنْتَهِي عِنْدَ انْتِهَائِها، وَتَبْدأ بَعْدَهَا أزْمَانُ ذَلِكَ الْيَوْم.

الأجل: يأتي بِمَعْنَىٰ أوَّلِ حُصُولِ شَيْء ما. وبِمَعْنَىٰ آخرِ زَمَنِ بَقَاءِ شيءٍ ما، ويأتي بِمَعْنَى المدَّةِ الْمَحْصُورَةِ بَيْنَ أَوَّلِ وآخِرِ زَمَنِ شيْءٍ ما.

فالساعة السادسة صَبَاحاً أجَلُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مَثَلاً، والسَّاعَةُ السَّادِسَةُ مَسَاءً أَجَلُ غُرُوبِ الشَّمْس مَثلاً، واثْنَتَا عَشْرَةَ سَاعَةَ أجلُ بَقَاءِ الشَّمْسِ طَالِعَةً في نَهَارِ يَوْم كذا. وأبْدَلَ ورْشٌ، وأبو جعفر همزة [**نُؤَخِّرُه**] واواً.

والصَّالحُ مِنْ هَٰذِهِ المعاني لِفَهْمِ عبارة: ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ هُوَ آخِرُ

أَزْمَانِ مَا قَبْلَ بَدْءِ أَوَّلِ زَمَنِ يَوْمِ الدِّينِ، فهذا هو الْأَجَلُ الَّذِي تُعَدُّ أجزاؤُهُ الزَّمَنِيَّةُ بِعِلْمِ اللهِ، إِنَّهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ سَرِيعُ الحِسَابِ، وَمُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً.

القضيَّة الخامسة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ... ﴿١٠٥﴾﴾: وَأَثْبَتَ يَاءَ [**يأْتي**] فِي الوَصْلِ والْوَقْفِ ابن كثير، ويَعْقُوب، وأثبتَها في الوَصْل فقط نافع، وأبو جعفر، وأبو عمرو، والكسائي.

أي: حِينَ يأْتي ذَلِكَ الْيَوْمُ، أو حِينَ يَأْتِي اللهُ في ذَلِكَ الْيَوم لِحِسَاب أهل المحْشَر وفَصْل القضاءِ بَيْنَهُمْ، لَا تتكَلَّمُ نفْسٌ مَا إِلَّا بإذْنِهِ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه، نَفْسُ مَلك أو رَسُولٍ أَوْ أَحَدٍ من الْخَلَائِقِ جَمِيعاً.

الْقَضِيَّةُ السَّادِسة: دلَّ عَلَيْها قَولُ اللهِ تعالى: ﴿... فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾:

أي: فبَعْضُ الْمَجْمُوعِينَ لِلْحِسَابِ، وَفَصْل الْقَضَاءِ مِنَ النَّاسِ شَقِيٌّ، تُظْهِرُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة أَنَّهُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ بالشَّقَاءِ الْأَبَدِي؛ لِأَنَّ مَا قَدَّمَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدنيا مِنْ كُفْرِيَاتٍ وجرائم بإرادَتِهِ الحرَّة، يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ النَّار.

الشَّقِيُّ: التّعِسُ ذُو الْحَالَةِ السَّيِّئَةِ الواقِعُ في الشَّقَاءِ بِما يَنْزِلُ بِهِ مِنْ عَذَاب الله.

وبعْضُ الْمَجْمُوعينَ سَعِيدٌ، تُظْهِرُ مَحْكَمَةُ الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيَّة أَنَّهُ مَحْكُومٌ لَهُ بِالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّة؛ لأنَّ مَا قَدَّمَهُ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ في الحياة الدّنيا مِنْ إيمان وعَمَلٍ صَالح، يَسْتَحِقُ مَعَ فَضْلِ اللهِ عَلَيْه أَنْ يَكُونَ سَعِيداً في جنَّاتِ النَّعِيم خالداً فِيها أَبداً.

السَّعِيدُ: ذُو الحالة الحسنة، الموفّقُ لِمَا يُحِبُّه وَيَرْضَاه، والسَّعِيدُ في الآخِرَة: المنعَّمُ بِنَعِيم الجنَّة.

القضية السابعة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾:

الزَّفِيرُ: دَفْعُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ حَتَّىٰ الغايَةِ، وإخْرَاجُهُ من الصَّدْر.

الشَّهِيقُ: أَخْذُ النَّفَسِ بِقُوَّةٍ إلى دَاخِلِ الصَّدْر، حَتَّىٰ امْتِلَاءِ الرِّئَتَيْنِ به.

دلَّ البيانُ في هذه القضيَّةِ علىٰ أَنَّ الَّذِينَ يَحْكُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الدِّينِ بالشَّقَاءِ الأَبَدِي، لِكُفْرِيَاتِهِم وَمَا يَنْتُجُ عَنْها مِنْ جرائم، سَوْفَ يَكُونُونَ في دَارِ الْعَذاب النَّار.

وقَدَّمَ البيانُ هُنَا لَقْطَةً مَشْهَدِيَّةً مِنْ أَحْوَالِهِمْ في النَّارِ معذَّبين، هي أَنَّهُمْ يَتَنَفَّسُونَ دَواماً مَا بَيْنَ زَفِيرٍ يَدْفَعُونَ به أَنْفَاسَهُمُ الحارَّةَ مِنْ رِئَاتِهِمْ حَتَّىٰ آخِرِ مَا فِيها، وَشَهِيقٍ يَجْذِبُونَ به السَّمُومَ الْحَارَّ إِلَىٰ أَعْمَاقِ رِئَاتِهِم، إِذْ يَجِدُونَ نُفُوسَهُمْ مُضْطَرِّينَ إِلَىٰ كُلٍّ مِنَ الزَّفير والشَّهيق، ولا هواء في النار إِلَّا السَّمُومُ الحارّ.

وَقَدَّمَ البيانُ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ خَالِدِينَ فِي دَار العذاب النار ما دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، أي: مَا دَامَ الكَوْنُ مَوْجُوداً، إِذِ الكَوْنُ الماديُّ لَا يَخْلُو مِنْ أَرْضٍ تَكُونُ مَكَاناً في النَّارِ للمعذّبين، وأَرْضٍ تَكُونُ مَكاناً في الجَنَّةِ للمنَعَّمين، وَلَا يَخْلُو مِنْ سَمَاوَاتٍ فَوْقَ هَٰذِهِ الْأَرْضِ وهذه الأَرْضِ.

أَمَّا قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿. . . إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾:

فَهُوَ استثناءٌ مِنْ عُمُوم: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ الشامل لمعاني الخلود وللأفراد الخالِدِين.

أي: إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ أَنْ يَسْتَثْنِيَهُ بحكْمَتِهِ مِنْ عُمُوم القضاءِ المبْرَم بالْخُلُودِ، فيمَا لَوْ يَشَاءُ أَنْ يُقَدِّرَهُ وَيَقْضِيَهُ مُسْتَقْبلاً، إِذْ مِنْ صِفَاتِهِ جَلَّ جَلَالُهُ أَنَّهُ يَمْحُو مَا يشاءُ مَحْوَهُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ إثْباتَه، وعنْدَهُ أُمُّ الكتاب، وَلَيْسَ

مِنَ التَدبُّرِ السَّليم أنَّ نُفكّرَ في تعْيينِ مَا يُمْكِنُ أن يَسْتَثْنِيَهُ مُسْتقبلاً؛ لأنّ الاستِثْنَاءَ لَمْ يَتنَاوَلْهُ بَعْدُ، بِدَلِيلِ اسْتِعْمَالِ الفِعْلِ المضارع في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فَمِنْ هذا نَفْهَمُ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ احْتَفَظَ لِنَفْسِهِ ضِمْنَ قَضَاءِ الْخُلُودِ بأنْ يَفْعَلَ مَا يُرِيدُ في مَدَىٰ الآبَادِ فيما لَوْ يَشَاءُ أَنْ يَفْعَلَ شَيئاً يُخَالِفُ في ظاهِرِهِ دَلالَةَ عُموم الْخُلُودِ في كُلِّ الأَجْزَاءِ الزَّمَنِيَّةِ المتَوالِيَةِ بِغَيْرِ نِهَاية، ولكلِّ الخالِدين.

وبهذا الْفَهْم أَسْتَبْعِد كُلَّ الآرَاء الّتِي طَرحها المفَسِّرُونَ بشَأْنِ تعْيِينِ المستَثْنَىٰ في قول اللهِ تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ إذ المعنىٰ: خالِدِينَ فيها خلوداً بقضاءٍ من رَبِّك مُبْرَمٍ، لَا تَعْرُوهُ مَشِيئة مُعَدِّلَةً مِنْ أحَدٍ، إلَّا مَشيئةَ رَبّك؛ لِأَنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُريد، و«ما» على هذا مَصْدَرِية.

القضية الثامنة: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾:

- قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخَلَفُ: **[سُعِدُوا]** بضَمّ السِّينِ علىٰ البِنَاءِ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[سَعِدُوا]** بفَتْحِ السِّين على أنَّ الفعل مَبْنِيٌّ لِلْمَعْلُوم.

وبَيْنَ القراءتَيْن تكامُلٌ، أي: يُسْعِدُهُم اللهُ، فَهُمْ يَسْعَدُون.

﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾: أي: غَيْرُ مَقْطُوعٍ، يُقَالُ لُغَةً: «جَذَّهُ، يَجُذُّهُ، جَذًّا» أي: قَطَعَهُ.

المعنى: وأمَّا الَّذينَ سُعِدُوا بفَضْلِ حُكْم اللهِ لَهُمْ بأنَّهُمْ مِنْ أهْلِ السَّعَادَةِ في الْجَنَّةِ يَوْمَ الدِّين خَالِدِينَ فيها، فإنَّهُمْ يَكُونُونَ في الْجَنَّةِ خالِدِين فيها، وإنَّهُمْ يُعْطَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسْبَابِ النَّعِيمِ الْمُسْعِدِ عَطَاءً غَيْرَ مَقْطُوع.

وتَحْلِيل قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ نَظِير التحليل التدبُّرِي الذي سَبَق للنّظِير الّذي جاء في الآية (١٠٧).

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الْفَصْلِ السَّابِعِ من الدَّرْسِ السادس من دُرُوسِ سُورَةِ (هود) وبه انتهىٰ أيضاً تَدَبُّر الدَّرْس السادس.

والْحَمْدُ للهِ على مَدَدِه وتَوفيقه ومَعُونته وفتحه.

❁ ❁ ❁

(١١)
التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُرُوس سورة (هود)
الآيات من (١٠٩ ـ ١٢٣) آخر السورة

قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ

وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

تمهيد:

في هذا الدَّرْس بيانٌ تَرْبويٌّ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ، فَلِلْمُؤْمِنين وَلَا سيما الدُّعَاةُ إلى اللهِ وإلى دينِهِ مِنْهم.

وبهذا يَتَبَيَّنُ لَنا أَنَّ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ علىٰ عُنْصُرَيْنِ أَسَاسَيْنِ:

العنصرُ الأوّل: مُتابَعَةُ مُعالَجَةِ أئمَّةِ المشْركِينَ وأَتْبَاعِهِمْ إبَّانَ التَّنْزيلِ، بمَا يَتَلَاءَمُ مع مَوَاقِفِهِم المسْتَمِرَّةِ والطَّارِئة قُبَيْل نُزُول سورة (هود).

العنصر الثاني: تَرْبِيَةُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لرسُوله ﷺ، فَلِلْمُؤْمِنينَ الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ ولَا سِيَّما الدُّعَاةُ إلى اللهِ وإلى دِينِهِ منهم، بِمَا يَتَلَاءَم مَعَ الْمَرْحَلَةِ الدَّعَوِيَّةِ الَّتِي وَصَلُوا إلَيْهَا إبَّانَ تَنْزِيلِ السُّورَة، والحالَةِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي كانُوا عَلَيْها، والْمَفْهُومَاتِ الدِّينِيَّة الَّتِي يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنُوا بها، وَيَتَصَرَّفُوا فِي مَسِيرَاتِهِم الدَّعَوِيَّةِ عَلَىٰ وفْقِها.

التدبُّر التحليلي:

قَوْل الله تعالى:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾:

الخطابُ في هَـٰذه الآيَة مُوجَّهٌ لِكلِّ مُتلَقٍّ لِلْقُرْآنِ أَوْ تَالٍ لَهُ بأسْلُوبِ الْخِطَابِ الإفْرادِيّ، لِيُعَالِجَ مَا لَدَىٰ بَعْضِ حَدِيثي الإسْلَامِ مِنْ شَكٍّ مَهمَا

كان ضعيفاً ضَئِيلاً، بِشَأْنِ مَا كَانَ يَعْبُدُ مَع قَوْمِهِ المشْرِكِينَ قَبْلَ إسْلامِهِ، مِنِ احْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ لَهُم نَفْعٌ مَا، أَوْ ضُرٌّ ما.

• ﴿فَلَا تَكُ﴾: أي: فَلَا تَكُنْ أيُّهَا المتلَقِّي لبياناتِ رَبِّكَ، حُذِفَتِ النون إيجَازاً في النُّطق، وهذا من المواضِع الّتي يجوزُ فيها حَذْف نون المضارع مِنْ «كان».

• ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾: أي: في شَكٍّ، يُقَال لغة: «امْتَرَىٰ في الشيء امْتِرَاءً» أي: شَكَّ فيه. والمعنىٰ: فلا تكُنْ شاكًّا.

• ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: ممَّا يَعْبُدُ مِنْ آلِهَةٍ هؤلاءِ المشْرِكُون، مُتَوَهَّماً أنَّها آلِهَةٌ تَنْفَعُ أو تَضرُّ، أَوْ لَهَا أقَلُّ مِقدارٍ مِنَ الإلَهيَّة.

• ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾: أي: لَا يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ عَنْ دَلِيلٍ مَا، إنّما يَعْبُدونَهُمْ تَقْلِيداً لِمَا كانَ يَعْبُدُ آباؤُهُم مِن قَبْلهِمْ، وهذا تَقْلِيدٌ أَعْمَىٰ لَا تُصَاحِبُهُ حُجَّةٌ مَا، ومَعْلُومٌ أَنَّ التَّقْلِيدَ الّذي لَا تُؤَيِّدُهُ حُجَّةٌ عَمَلٌ سَاقِطٌ بَاطِلٌ لَا يَقْبَلُهُ ذُو عَقْلٍ سَلِيم، فَكَمْ يُقَلِّدُ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً في أعْمَالٍ بَاطِلَةٍ، أو ضارَةٍ، أو فَاسِدَةٍ مُفْسِدَة، ولَا بَاعِثَ لَهُمْ فِيها إلَّا التَّقْلِيدُ، وقَدْ يُصَاحِبُهُ هوىً، أو اسْتِمتَاعٌ بِبَعْضِ الشهوات.

• ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾:

أي: وإنَّا لَمُعْطُوهُمْ حُظُوظَهُمْ الّتي سَبَقَ أَنْ قَدَّرْنَاها وَقَضَيْنَاها لَهُمْ في رحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، مِنْ المحَابِّ وَالمكارِهِ وافِياً تاماً، غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَجْلِ إصْرَارِهِمْ عَلَىٰ شِرْكِهِمْ وكُفْرِيَّاتِهِمْ وَلَوَازِمِهَا فِي السُّلُوك، إنَّهُمْ مَا دَامُوا في رِحْلَةِ الامْتِحَانِ فَمِنَ الحكْمَةِ إعْطاؤُهُم حُظُوظَهُمْ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنيا فيها، فإذا جاء وقْتُ الجزَاءِ جَازَيْنَاهُم بِمَا يَسْتَحِقُّونَ بالْعَدْل.

• ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾: يُقَالُ لغة: «وَفَّىٰ الْحَقَّ أو الكَيْلَ، وأَوْفَاهُ» أي: جَعَلَهُ تامًّا لَا نَقْصَ فِيهِ.

• ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: **النَّصِيبُ**: الحظُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ، واستُعْمِلَ في الْخَيْرِ والشَّرِّ، والجمع: «أنْصِبَةٌ، وأنْصِباءُ، ونُصُبٌ» أي: نُوَفِّي كُلَّ واحِدٍ منهم نَصِيبَهُ.

• ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾: جاءَتْ هَـٰذِهِ الْعِبَارَةُ حَالاً مُؤَكِّدَةً لمعْنَىٰ تَوْفِيَتِهِم أنْصِبَتَهُمْ الّتِي قَدَّرْنَا وَقَضَيْنَا أَنْ نُعْطِيَهُمْ إِيَّاهَا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الْحَيَاة الدُّنيا، فَلَا نَنْقُصُ شَيْئاً مِنْهَا بِسَبَبِ شِرْكِهِمْ وكُفْرِيّاتِهِم ولوازِمِها في السُّلُوكُ.

قولُ الله تعالى:

• ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾:

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ، بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ في تَوْفِيَةِ النَّاسِ أنْصِبَتَهُمْ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَياةِ الدُّنيا غَيْرَ مَنْقُوصَةٍ، بِتَقْدِيم مَثَلٍ تَاريخيٍّ يَتَعلَّقُ بالتَّوْرَاةِ الكتاب الّذي آتاه اللهُ عَزَّ وجَلَّ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلام، إذِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فآمَنَ بِهِ فَرِيقٌ، وكَفَرَ بِهِ فَرِيق، والَّذِينَ كَفُروا بِهِ لَمْ يُعَجِّلِ اللهُ لَهُمُ الْعُقُوبَةَ فِي الحياة الدُّنيا، ولَمْ يَقْضِ بَيْنَ المختَلِفِينَ فِيهِ، إذْ سَبَقَتْ كَلِمَةُ اللهِ الدَّالَّةُ على تقدِيره وقضائِهِ، بأَنْ يَجْعَلَ الحَياة الدّنيا حَيَاةَ ابْتِلَاءٍ يُوَفَّىٰ فِيهَا كُلُّ مُمْتَحَنٍ نَصِيبَهُ علىٰ وفْقِ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِه بِشَأْنِهِ، وبِأَنْ يَجْعَلَ الحياةَ الأُخْرَىٰ بَعْدَ الْبَعْثِ هِيَ حَيَاةَ الجزَاءِ، مَا لَمْ تَقْتَضِ الحِكْمَةُ تَعْجِيلَ شَيْءٍ مِنَ الْجَزَاءِ في الْحَيَاةِ الدُّنيا، منْعاً لتَفَاقُمِ الشّرِّ وطُغيانه، أو دَلِيلاً عَلَىٰ قَانُونِ الجزاء الرَّبَّانِيِّ.

فالمعْنَىٰ: ونُؤَكِّدُ لَكَ أَيُّها المتَلَقِّي لبيَانَاتِ الْقُرآن، مُقْسِمِينَ: لَقَدْ آتَيْنا مُوسَىٰ نبيَّنَا ورسُولَنَا كِتَابَ التوراة، فَاخْتُلِفَ فِيهِ، فآمن بِهِ مُؤمِنُونَ، وكَفَرَ بِهِ كَافِرُونَ، فَمَا قَضَيْنَا بَيْنَهُمْ في الحياة الدُّنيا، بَلْ أَجَّلْنَا جَزَاءَ الكافِرِينَ بِهِ إِلَىٰ

يَوْمِ الدِّين، وَوَفَّيْنَا كُلَّ وَاحِدٍ نَصِيبَهُ المقَدَّرَ المقضيَّ لَهُ في الْحَيَاةِ الدنيا مِمَّا يُحِبُّ وممَّا يكْرَهُ لابْتِلَائِه، وكَانَ هَذَا تَنْفِيذاً لِكَلِمَةٍ سَبقَتْ بأَنْ تَكُونَ الحياة الدُّنيا حياةَ ابْتلَاءٍ أمْثَلَ، وأَنْ تَكُونَ الحياةُ الْأُخْرَىٰ حياةَ جَزَاءٍ أمْثل، ولَوْلَا هَـٰذِهِ الكَلِمَةُ الَّتِي سَبقَتْ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ في الحياة الدّنيا، بثوابِ المؤمنين وعِقَابِ الكافِرين، وكذلك الحال بالنّسْبَةِ إلَىٰ المؤمِنِينَ والكافِرِينَ إبَّانَ تَنْزِيل السُّورَة: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وهي كَلِمَة تأجيل الحسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاءِ إلى يَوْمِ القِيامة، وَمَا زَالَ عَامَّةُ مُشركي مكة دُونَ أئمتهم يَحْتَاجُونَ مُتَابَعَةَ عِلَاج: ﴿... وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ أي: وإنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِن كَوْنِ الْقُرآنِ كِتَاباً مُنَزَّلاً مِنْ لَدُنَّا، وهَـٰذا الشَّكُّ أَوْقَعَهُمْ في الرَّيْبِ بِشَأْنِ صِدْقِ الرَّسُولِ واتِّهامِه بأنَّه ذُو غايَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ مِنْ دَعْوَتِهِ، كالسِّيَادَةِ والسُّلْطَانِ والْمَالِ ونحو ذلِكَ مِنْ مطالِبِ النَّاس في الْحَيَاةِ الدنيا.

قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾:

وقرأ نافع، وابْنُ كَثِيرٍ: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَا]** وقرأ أبو عَمْرو، والكسائي ويَعْقُوب، وخلف باختياره: **[وَإِنَّ كُلًّا لَمَا]** وقرأ شُعْبَة: **[وَإِنْ كُلًّا لَمَّا]**.

فَمَنْ قرأ **[إِنْ]** سَاكِنَةً دُونَ تَشْدِيد، فَتُفْهَمُ عَلَىٰ أَنَّها «إِنْ» المخفَّفَة مِنَ الثقيلة، فهي في المعنى مِثْلُ **[إِنَّ]** وقَدْ أجاز الخليلُ وسيبويه والْبَصْرِيُّونَ إعمالَها مخفَّفَةً، فيكونُ لفظ **[كُلًّا]** اسْمَها منصوباً بها، والتنوينُ فيهِ عِوَضٌ عَنِ المضافِ إلَيْهِ المحذوف، والتقدير: وإنَّ كلَّ المختلِفين في الإيمان والكُفْرِ، السَّابِقِينَ والْحَاضِرِينَ والآتِينَ، لَا بُدَّ أنْ يُوَفِّيَهُمْ رَبُّكَ أعْمالَهُمْ، إنْ خَيْراً فَخَيْرٌ وإنْ شَرّاً فَشَرّ.

﴿لَمَّا﴾ لَهَا فِي هَـٰذا الموضِع عِنْدَ النُّحَاةِ تَخْرِيجَاتٌ مُتَعَدِّدَاتٌ

مُتَكَلَّفَاتٌ، والَّذي يَدُلُّ عَلَيْهِ مَعْنَىٰ النَّصِّ أنها حَرْفٌ زِيدَ لِتَشْديدِ التَّوْكِيدِ في العِبارة.

والمعنىٰ: وَإنّ كُلَّ الموضُوعِينَ في الْحَيَاةِ الدُّنْيا مَوْضِعَ الامْتِحَان، لَا بُدَّ لَيُحَاسِبَنَّهُمْ رَبُّك حِسَاباً يُوَفِّيهِمْ بِهِ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ تَوْفِيةً مُطَابِقَةً لِأَعْمَالِهِم الَّتِي قَدَّمُوهَا في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ، خَيْرِهَا وشَرِّها.

وأثْبَتَتِ النُّصُوصُ الكثيرة في القرآن، أنَّ المؤمنين المتَّقِينَ يَزِيدُهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ زِيَادَاتٍ كَثِيراتٍ مُدْهِشَاتٍ. وأنَّ الْعُصَاةَ قَدْ يَغْفِرُ اللهُ لَهُمْ أَوْ يَعْفُو عَنْ كثير مِنْ ذُنُوبِهِمْ، فالتَّوْفِيَةُ الوارِدَةُ هُنَا في هَـٰذِهِ الآيَةِ لَيْسَ المرادُ بِهَا جَعْلَ الْجَزَاءِ الْفِعْلِيّ مُطابِقاً للأعمالِ الَّتِي قَدَّمُوها؛ لِأَنَّ الجزاءَ بِفَضْلِ اللهِ على الصَّالحات يكُونُ أكْثَرَ مِنْ أعمال العبادِ كَثْرَةً لَا يَسْتَطِيعُونَ تخيُّلَها؛ ولأنَّ الجزاء بالعقاب قَدْ يَكُونُ أقَلَّ مِنْ مَعَاصِي العِبَادِ، إذْ قَدْ يَتَفضَّلُ اللهُ عَلَيْهِمْ بالْغُفْرَانِ أو بالْعَفْو عَنْ كَثِيرٍ مِنها.

التَّوْفِيَةُ: إعطاء الحقّ وَافِياً تَامًّا غَيْرَ مَنْقُوص.

• ﴿... إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾: أي: إنَّ رَبَّكَ بِكُلِّ مَا يَعْمَلُونَ تِباعاً مِنْ عَمَلٍ نَفْسِيٍّ أَوْ جَسَدِيٍّ، ظاهِرٍ أو بَاطِنٍ، خَبِيرٌ، فَهُوَ يُوَفِّيهِمْ حِسَابَهُمْ عَلَىٰ كُلِّ مَا يَعْلَمُ مِنْ أعْمَالِهِمْ عِلْمَ خِبْرَة.

الخبير: هو الذي يَعْلَمُ الأَشْيَاء عِلْمَ شُهُودٍ وحُضُورٍ مُصَاحِبٍ لكلّ أجزائها الظَّاهِرَة والباطِنَة.

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ خِطَاباً لِرَسُولِهِ ويُلْحَقُ بِهِ كُلُّ إِمَامٍ من أئِمَّةِ المتَّقِين من أُمَّته:

• ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ ثَلاثُ وَصَايا لِلْمُؤْمِنين، أوصَاهُمُ اللهُ بِها، مِنْ خِلَالِ خِطَابِ اللهِ لِرَسُولِه:

الوصِيَّةُ الأولىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾:

الاسْتقامة: الاعْتِدَالُ والاسْتواء، ويَكُونُ بِعَدَمِ الاعْوِجَاجِ والالْتِوَاء.

﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾: أي: اسْتَقِمْ اسْتِقَامَةً مُمَاثِلَةً لِمَا أُمِرْتَ بِهِ، إذْ كُلِّفْتَ أَنْ تَلْتَزِمَ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِكَ صِرَاطَ رَبِّكَ المسْتَقِيم، وعَلَّمَك أنْ تَدْعُوَهُ فِي صَلَوَاتِكَ بِقَوْلِكَ كَمَا جَاء في سورة (الفاتحة/ ١ مصحف/ ٥ نزول):

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ . . .﴾.

إنَّ صِرَاطَ اللهِ المستقيم يَشْمَلُ كُلّ أَوَامِرِ اللهِ ونواهِيهِ لعباده، الَّتِي تَتَعلَّقُ بِسُلُوكِهِمْ النَّفْسِيّ والفِكْرِيِّ والْجَسَدِيّ، والْتِزامُ هٰذا الصِّرَاطِ يَكُونُ بِعَدَمِ الْخُرُوجِ عَنْهُ مِنْ جِهَةِ حَدّهِ الْأَيْمَنِ، أَوْ مِنْ جِهَةِ حَدهِ الْأَيْسَر، عَلَىٰ تَوالِي أزْمَانِ مَسِيرَةِ الإنْسَانِ في حَيَاتِهِ، وهَـٰذَا الالْتِزَامُ هو أسْمَى دَرَجَاتِ التقوى، الَّتِي يَبْرَأ بِهَا المتَّقِي من كُلِّ مَعْصِيَةٍ للهِ عَزَّ وجَلَّ.

هَـٰذِهِ الاستقامَةُ دَواماً أشَقُّ على السَّالِكِين في الحياة مِنْ طَفْراتٍ وانْدِفاعَاتِ أعْمَالِ الْبِرِّ وأعْمَالِ الإحْسَانِ، كَبَذْلِ أَمْوَالٍ طائِلَةٍ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ مِنْ غَيْرِ الواجبات، وكالاسْتِشْهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ، في بَعْضِ أحْوالِ الإنْسَانِ الانْدِفَاعِيَّةِ لِفِعْلِ الْخير العظيم، فهَـٰذِهِ قَدْ تَسْهُلُ عَلَىٰ العُصَاة، ولكِنْ يَصْعُبُ على الإنْسَانِ الالْتِزَامُ عَلَىٰ طاعَة الله طَوال حَيَاتِه.

ولعل هذه الاستقامة هي التي جَعَلْتِ الرسول ﷺ يقول: «شَيَّبَتْنِي هُودُ وأخَواتُها».

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾: أي: وَمَنْ تَابَ مِنْ كُفْرِهِ وشِرْكِهِ السَّابِقِ، وسَارَ على صِرَاطِ اللهِ المستقيم مَعَك.

الوصية الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿... وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾: هَـٰذا الخطاب مُوَجَّهٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، نَهَاهُمْ فِيهِ الله عَنِ الطَّغْيانِ.

الطُّغْيَان: تجاوُزُ الحدِّ الطَّبِيعيّ المقبولِ إِلَىٰ مَوَاقِعِ الضَّرَرِ والفساد والإفساد. والطُّغْيَانُ في الدِّينِ يَكُونُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللهِ في أَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ وَوَاجِبَاتِ شرائِعِهِ في شُرُوطِهَا وأَرْكانِهَا وَمَقَادِيرها.

ويَدْخُلُ في الطُّغْيَانِ: الْغُلُوّ في الدِّين بإيجاب ما لم يُوجِبْهِ اللهُ إذْ لَمْ يَقُمْ على إيجابه دلِيلٌ صَحِيحٍ، وبِتَحْرِيمِ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ، إِذْ لَمْ يَقُمْ عَلَىٰ تَحْرِيمِهِ دَلِيلٌ صَحِيح.

ومن الطغيان في الدّين: الاسْتِهَانَةُ بأحكام اللهِ في أوامِرِهِ ونواهِيه، ووصاياه، واستباحَتُها، وعَدَمُ الاكْتراث لها، والْعُدْوانُ عَلَىٰ عِبَادِ اللهِ في أَنْفُسِهِمْ، أو أموالهم، أو أعراضِهِمْ، أو في شَيْءٍ يَخُصُّهُمْ.

﴿... إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: أي: إنَّ اللهَ رَبَّكُمْ بَصِيرٌ دَوامـاً، بِكُلِّ مَا تَعْمَلُونَ فِي حَيَاتِكُمْ تِبَاعاً، زَمَناً فَزَمَناً. وَلَازِمُ هَـٰذا البيانِ أَنّه ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ سَيُعَاقِبُ الطَّاغِينَ مِنْكُمْ بَعَدْلِهِ وَلَوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ مُعْلِنِينَ إِسْلَامَكُمْ لِرَبِّكُمْ، فهَـٰذا لَا يُعْفِيكُمْ مِنَ الْعِقَابِ إِذَا طَغَيْتُمْ، مُتَجَاوِزِينَ حُدُودَ الله.

يُقَالُ لغةً: «طَغَىٰ، طَغْياً، وطُغْيَاناً» أي: جاوز الحدَّ المقبول، وصَارَ ضارّاً، أو مُفْسِداً، أوْ ظَالماً جائراً، أو مُعْتَدِياً.

الوصِيَّة الثالثة: دَلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

- ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: وَلَا تَمِيلُوا إلى بَعْضِ إغْرَاءَاتِ

وتضليلاتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا بِكُفْرِهِمْ وَفُجُورِهِمْ أَوْ نِفَاقِهِمْ سَاكِنِينَ إِلَيْهِمْ ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِم.

يقال لُغَةً: «رَكَنَ فُلَانٌ إِلَىٰ فُلَانٍ، يَرْكَنُ، رَكْناً، وَرُكُوناً. وَرَكِنَ إِلَيْهِ يَرْكَنُ» أي: مَالَ إِلَيْهِ وسَكَنَ، واعْتَمَدَ عَلَيْهِ.

• ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: فَيَنْزِلُ بِكُمْ عَذَابٌ يُشْبِهُ مَسَّ النَّار، إذا رَكَنْتُمْ إِلَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا سَاكِنِينَ إِلَيْهِمْ، ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ فِي مَسِّ النّارِ عَذَاباً أليماً.

• ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾: أيْ: فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَالْحالُ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ الَّذِي يَقْضِي بِتَعْذِيبِكُمْ مِنْ نُصَرَاءَ يَنْصُرُونَكُمْ، فَيَدْفَعُونَ أَوْ يَرْفَعُونَ عَنْكُمْ عَذَابَ اللهِ الَّذِي يُسَبِّبُهُ رُكُونُكُمْ للّذِينَ ظَلَمُوا سَاكنِينَ إِلَيْهِمْ ومُعْتَمِدِينَ عَلَيْهِمْ.

• ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: أي: وَإِذَا طَمِعْتُمْ بِأَنْ تَتَّخِذُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللهِ لِيَنْصُرُوكُمْ، واسْتَجَابَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ سَيَنْصُرونَكُمْ، وَاتَّخَذَ هَٰؤُلَاءِ أَسْبَاباً لِرَفْعِ الْعَذَابِ الّذِي يُشْبِهُ مَسَّ النَّارِ عَنْكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ رَفْعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وبَعْدَ مُجَاهَدَاتِهِمُ الطَّوِيلَةِ لِنُصْرَتِكُمْ، تَعْلَمُونَ أَنّكُمْ لَا تُنْصَرُونَ، فَقَدْ نَزَلَ بِكم العذابُ بِتَقْدِيرٍ وقَضَاءٍ مِنَ اللهِ عُقُوبَةً لَكُمْ، وعُقُوبَاتُ اللهِ لَا رَادَّ لَهَا، وَلَا حَامِيَ مِنْها، وَلَا رَافِعَ لَهَا إِذَا نَزَلَتْ إِلَّا اللهُ الَّذِي أَنْزَلَها، بِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِه.

وهَٰذا مُجَرَّبٌ في تاريخ المؤمنينَ وَذَوِي السُّلْطَانِ فيهم، فإنَّهُمْ مَا رَكَنُوا إِلَىٰ الكَفَرَةِ الظَّالِمِينَ إِلَّا كَانَتْ عَاقِبَةُ أَمْرِهِمْ عذاباً أليماً يُشْبِهُ مَسَّ النار، ثُمَّ وَجَدُوا أَنْفُسَهُمْ غير مَنْصُورين.

قول الله عَزَّ وجلَّ:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

● وقرأ أبو جعفر: [**وزُلُفاً**] بضمِّ اللّام. **الزُّلَف**: جَمْعُ الزُّلْفَة، وهي الطَّائِفَةُ مِنْ أوّلِ اللّيْلِ، وَكَذلِكَ الزُّلُف بِضَمّ اللّام، وقد تكونُ جمع زَلِيف.

والظاهِرُ أَنَّ الْمُرادَ بِطَرَفِي النَّهارِ: وَقْتُ صَلاةِ الْفَجْرِ، وهَـٰذا هُوَ الطَّرَفُ الْأَوَّلُ، وَوَقْتُ صَلاتِي الظُّهْرِ والْعَصْرِ، وهذا هو الطَّرَفُ الثاني، والزَّوَالُ هُوَ الْوَسَطُ بَيْنَ طَرَفي النّهار.

أَمَّا الزُّلَفُ مِنَ اللّيْلِ وَهِيَ الطَّائِفَةُ مِنْ أوَّلِ سَاعَاتِ اللَّيل ففي مُقَدِّمَتها وقْتُ صَلاةِ المغرب، وبَعْدَهُ يَدْخُلُ وَقْتُ صَلاةِ الْعِشاء.

والبيانُ في هَـٰذِهِ الآيَةِ للصَّلَوَاتِ وأوقاتِها بَيَانٌ مُجمَلٌ، وَلَكِنْ جاءَتِ السُّنَّةُ النَّبِوِيَّةُ مُفَصِّلَةً بِوُضُوحٍ للصَّلَوَاتِ الخمس، وأعداد رَكعاتِ كُلٍّ مِنْها، ولِأَوْقَاتِهَا، وهَـٰذا ممَّا تَرَكَهُ القرآنُ الْمَجِيدُ لِلْبَيَانِ النَّبوي، وفي جَعْلِ صَلاتِي الظُّهْرِ والْعَصْرِ في طَرفِ النَّهارِ الثاني، وجَعْلِ صَلاتِي المغْرِبِ والْعِشَاءِ في زُلَفٍ مِنَ اللَّيلِ، فُسْحَةٌ لِأَحْكَامِ الْجَمْعِ بَيْنَ صَلاتِي الظّهر والْعَصْر، والْجَمْعِ بَيْنَ صَلاتَي المغْرِبِ والْعِشَاءِ، في حَالَاتِ الْعُذْرِ، عَلَىٰ مَا جَاءَ بَيَانُهُ فِي السُّنَّةِ.

● ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ الأمْرُ في هَـٰذِهِ الْعِبارَةِ هُوَ أَمْرُ إيجابٍ وإلْزام لِكُلِّ مُكَلَّفٍ، بِشَرْطِ إيمانِهِ وإسْلامه، والمرادُ بإقَامَتِها المحافَظَةُ على أدائِهَا دَواماً في أوقاتِها، على الوجْهِ الشَّرْعِيّ المطْلُوبِ فيها، عَلَى وَفْقِ بَيانَاتِ السُّنَّةِ النَّبويَّة.

أقَامَ الشَّيْءَ: أي: جَعَلَهُ مُسْتَقِيماً، **وأقَامَ الْعَمَلَ**: أي: أدَامَهُ وَوَاظَبَ عَلَيْه في الأَوْقَاتِ المحدَّدَةِ له.

وَدَلَّت عبارة: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ عَلَىٰ أنَّ إقَامَةَ الصَّلاةِ المفْرُوضَة، هِيَ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي يَعْمَلُها الموضوعُ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، وأَنَّ اللهَ يَمْحُو بِها السَّيِّئَاتِ الَّتِي يَفْعَلُهَا في النهار أو في

الليل، إذا كانَتْ مِنِ الصَّغائِرِ. وقَدْ دَلَّتْ عَلَىٰ هَـٰذا بياناتٌ مُتَعَدِّداتٌ في القرآنِ الكريم، والسُّنَّةِ الشَّريفة.

فَمِنَ القرآن قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً للّذين آمنُوا:

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

ومِنَ السُّنَّةِ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنِ ابْنِ مسعود رضي اللهُ عنه قال:

جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فقال: يَا رَسُولَ الله، إنّي عَالَجْتُ امْرَأَةً فِي أقْصَىٰ الْمَدِينَةِ، وَإِنّي أصَبْتُ مِنْهَا مَا دُونَ أَنْ أَمَسَّها، فَأَنَا هَـٰذا، فاقْضِ فِيَّ مَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَقَدْ سَتَرَكَ اللهُ لَوْ سَتَرْت نَفْسَكَ، قالَ؛ فَلَمْ يَرُدَّ النَّبِيُّ ﷺ شيئاً. فَقَامَ الرَّجُلُ فَانْطَلَقَ، فأَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلاً دَعاهُ، وتَلا عَليه هذه الآية:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَـٰذا لَهُ خَاصَّةً؟ قال: «بَلْ لِلنَّاسِ كافَّةً».

﴿... ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾:

﴿ذِكْرَىٰ﴾: اسم للتَّذْكِير. وتأتي اسْماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسِيلَةُ الَّتِي تُتَّخَذُ أداةَ للتَّذَكُّر، كالرَّتيمة، وكبِطَاقةٍ خاصَّة تُذَكِّرُ بموعدٍ ما.

فالمعنى: ذلِكَ الْبَيَانُ بِشَأْنِ المحَافَظَةِ والمواظَبَةِ على الصَّلَوَاتِ الخمس المفروضَة في كلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ، أنْزَلَ اللهُ بِهِ نصّاً قرآنيًّا لِيَكُونَ مُذَكِّراً وبِمَثَابَةِ تَذْكِرَةٍ لِمَنْ هُمْ حَرِيصُونَ على أنْ يَتَذَكَّرُوا ما فِيهِ طاعَةٌ لِرَبِّهم،

والْتِزَامٌ بِفِعْلٍ أَمَرَ بِهِ، وتَرْكٍ نَهَىٰ عِنْه، عند كُلِّ زَمَنٍ أو حَدَثٍ يَدْعُو إلىٰ تَذَكُّرِ مَطْلُوبِ اللهِ من عِبَادِه.

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾:

إنَّ أَوَامِرَ الله عَزَّ وجَلَّ ونَواهِيَهُ الصَّرِيحَةَ والمطْوِيَّةَ فِي ثَنَايَا الآيَاتِ مِنْ هَـٰذا الدَّرْسِ السَّابعِ، يَحْتَاجُ الالْتِزَامُ بِهَا مَشَقَّاتٍ نَفْسِيَّةً وَجَسَدِيَةً، وَتَحمُّل هَـٰذِهِ المشَقَّاتِ يتَطَلَّبُ صَبْراً مِنْ مُسْتَوىٰ مَرْتَبَةِ الإحْسان، فَجَاءَ فِي هَـٰذِهِ الآيَةِ الأَمْرُ بالصَّبْرِ، ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّهُ صَبْرٌ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ الْوَعْدُ بأَن الله لَا يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِين، بَلْ يُعْطِيهِمْ هَـٰذا الْأَجْرَ الْعَظِيم في الحياة الدنيا نَصْراً مُبِيناً، ومَجْداً عَظِيماً، وحظوظاً وافِرة، ويُعْطِيهِمْ إِيَّاهُ في الآخِرَةِ مَنَازِلَ رَفِيعَةً جدّاً في جَنَّاتِ النعيم، بِحَسَبِ مَقَادِير صَبْرِهِم.

وَالْأَمْرُ بالصَّبْرِ في هَـٰذِهِ الآيَةِ مُوجَّهُ للرَّسُولِ ﷺ أوّلاً، فَلِكُلِّ داعٍ إلى اللهِ من أُمَّتِهِ، فالدُّعاةُ إِلَىٰ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإلى دينِهِ الّذي اصْطَفَاهُ لعباده، هُمُ الّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ للمؤذِيَاتِ في مجْتَمَعاتِهم، وهُمُ المرَشَّحُونَ لِأَنْ يَكُونوا مِنَ المحْسِنِينَ أصْحَابِ الْمَرْتَبَةِ الْعُلْيَا مِنْ مَرَاتِب المؤمِنِين، ودُونَها مَرْتَبَةُ الأبرار، ودُونَ هَـٰذِهِ مَرْتَبَةُ المتَّقِين.

الصَّبْر: قُوةٌ خُلُقِيَّةٌ مِنْ قُوىٰ الإرادة، تُمَكِّن الإنْسَانَ مِنْ ضَبْطِ نَفْسِهِ لتَحمُّلِ المتاعِبِ والمشقَّاتِ والآلام، وضَبْطِها عَنِ الانْدِفاع بعَوامِلِ الضَّجَرِ والْجَزَعِ والسَّأَمِ والمَلَلِ والْعَجَلَةِ، والرُّعُونَةِ والْغَضَبِ والطَّيْش، والْخَوْفِ والطَّمَعِ، والأهواءِ والشهَواتِ والْغَرَائِز.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ

مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

قَرَأَ ابْنُ جَمَّازٍ [بِقْيَةٍ] بِكَسْرِ الباء وإسكان القاف وفَتْح الْيَاءِ دون تَشْدِيد، ولَا بُدَّ أنْ تكون لُغَةً بِمَعْنَىٰ [بَقِيَّة] ولكِنْ لَمْ تُدَوِّنْهَا مَعَاجِمُ اللُّغَة.

﴿فَلَوْلَا﴾: بِمَعْنَىٰ: «فَهَلَّا» فلَفْظ «لَوْلَا» حَرْفُ تَحْضِيض.

﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾: أي: مَا وُسِّعَ عليهم فيه من أرْزاقٍ وأمْوَالٍ كانوا بها مُتَرَفِّهِينَ رَفاهِيَةً زَائِدَة، جَعلَتْهُمْ مُسْتَكْبِرين بَطِرِينَ.

يقال لغة: «أَتْرَفَتِ النِّعْمَةُ فُلَاناً» أي: أَبْطَرَتْهُ.

المعنَىٰ: فاحْرِصُوا أيُّهَا المؤمِنُونَ المسْلِمُونَ، أَنْ تَكُونَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلَىٰ الْخيْرِ، وَيأْمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَر، مَا توالَتِ الْقُرُونُ، وَأَنْ تَكُونَ هَـٰذِهِ الْأُمَّةُ ذَاتَ تَأْثيرٍ في بَقَاءِ ظُهُورٍ إسْلَامِيٍّ يُعْلِنُ شِعَارَ الْإِسْلَامِ، ويَحْرِصُ عَلَىٰ الاعْتِزَازِ بِهِ والدَّعْوَةِ إلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا كَأَهْلِ الْقُرونِ السابِقَةِ الَّتِي اسْتَحقَّتِ الْإِهْلَاكَ، بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَمْ تَبْقَ فِيهِمْ بَقِيَّةٌ صَالِحَةٌ مِنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ، يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ، إلَّا أفْراداً قَلِيلِينَ، لَمْ تَكُنْ لهم قُوَّةُ تَأْثِيرٍ عَلَىٰ جماهِيرِهِمُ الْمُفْسِدِين، وكانَ هؤلَاءِ مِنَ الَّذِينَ أَنْجَيْنَاهُمْ مِنَ الْإِهْلَاكِ الشَّامِلِ الذي أنْزَلْنَاهُ بأقْوَامِهِمْ، أمَّا الَّذِينَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَقَدْ كَانوا ظالِمِينَ، واتَّبَعُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانوا مُجْرِمِينَ، ولو كانوا قابلين لأَنْ يكون منهم إصْلَاحٌ ما لِفَسَادِهِم بِتَأْثِيرِ الَّذِينَ يَدْعُونَهم، ويأْمُرُونَهم بالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَهُمْ عن المنكر والفساد لمَا أَهْلَكْنَاهُمْ، فمن سُنَّةِ رَبِّكَ أَنَّهُ مَا كَانَ لِيُهْلِكَ أَهْلَ الْقُرَىٰ، بِسَبَبِ ظُلْمٍ كَبِيرٍ مِنْهُمْ، والْحَالُ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي أفرادهِمْ تَحَوُّلٌ بإِرَادَاتِهِمُ الحرَّةِ مِنَ الفساد والإفسادِ إلى الصَّلاح والإصْلاح.

• ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ . . . ﴿١١٦﴾﴾:

أي: فتَفْرِيعاً عَلَىٰ تَوصِيَتِنَا لَكُمْ يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ بأنْ يَسْتَمِرَّ فيكُمْ مُصْلِحُونَ، أَخْذاً مِنْ إيحاءَاتِ الآياتِ السَّابِقَاتِ، ولا سِيَما مَا جَاءَ في الآية (١١٣).

نَقُولُ لَكُمْ: هَلَّا كَانَ مِنَ الْقُرُونَ الَّتِي أَهْلَكْنَاهَا مِنْ قَبْلِكُمْ أَصْحَابُ بَقِيَّةٍ من الخير الّذِي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ، ذُوُو دِينٍ وعِلْمٍ بِمَسائِلِه، ومُجَاهَدَةٍ صادِقَةٍ في تَعْلِيم الدِّينِ، والأَمْرِ بالْمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر وعَنِ الْفَسادِ في الأَرْضِ، حَتَّىٰ لَا تَقْتَضِيَ الحِكْمَةُ إهْلاكَهُمْ، فَلَا نَحْكُمَ عَلَيْهِمْ بالإهْلَاكِ الشَّامل.

لكنَّهُمْ قَدْ خلَوْا مِنْ أَولي بَقِيَّةٍ مِنَ الْخَيْرِ الَّذي جَاءَ بِهِ الرُّسُلُ.

- ﴿... إِلَّا قَلِيلًا ...﴾ أي: إلَّا نَزْراً يَسِيراً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ تَأْثِيرٌ مَا فِي أَقْوَامِهِمْ.

- ﴿... مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾: أيْ: وهَـٰذا النَّزْرُ الْيَسِيرُ الْقَلِيلُ قَدْ أَنْجَيْنَاه مَعَ مَنْ أنْجَيْنَا مِنْ مُؤْمِنِي أقْوامِهِمُ المهْلَكِينَ إهْلَاكاً جَمَاعِيًّا شَامِلاً.

- ﴿... وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ...﴾: أي: واتَّبَعَ الْمُهْلَكُونَ الَّذِينَ ظَلَمُوا فِي حياتِهِمْ قَبْلَ أَنْ نُهْلِكَهُمْ، الاسْتِمْتَاعَ بما أتْرِفُوا فيه ظَالِمِينَ مُسْتَكْبِرِينَ مُفْسِدِينَ.

- ﴿... وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: وكانوا كافرين مُرْتَكِبِينَ كُبْرَيَاتِ المعَاصِي والآثام، والْبَغْي والْعُدْوان.

- ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾: أي: وَمَا كَانَ أمْرُ رَبِّكَ المسْبُوقُ بِقَضَائِهِ وقَدَرِه لِيُوَجِّهَهُ لِتَنْفِيذِ إهْلاكِ أَهْلِ الْقُرَىٰ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمِ الكَبِير، والْحَالُ أَنَّ لَدَىٰ كَثِيرٍ مِنْ أَفْرَادِهِم الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يَتَحَوَّلُواعَنْ طَرِيق إراداتِهِمُ الحرَّةِ إلى الصَّلاح، بإصْلَاحٍ مِنْهُمْ لِمَا هُمْ فِيهِ مِنْ فَسَادٍ وإفْسَادٍ، فَهَـٰذِهِ مِن سُنَّةِ رَبِّك الدَّائِمَة في

عباده، فاحْذَرُوا يا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ أَنْ تَصِلُوا إلى هَـٰذِهِ الدَّرَكة المهلِكَةِ السَّاحِقَةِ الماحِقَة.

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: ولَوْ شاء رَبُّكَ أيُّها المتَلَقِّي للقرآنِ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً، لَسَلَبَهُمْ إرادَاتِهِم الحرَّةَ، ولَجعَلَهُمْ مَجْبُورِينَ، وحِينَئِذٍ يَجْعَلُهُمْ مَجْبُورِينَ عَلَىٰ الْإِيمانِ والْإِسْلَام بالفِطْرَةِ الَّتِي يَفْطُرُهُمْ عَلَيْها؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، ولَيْسَ مِنْ حِكْمَتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ ـ أَنْ يَخْلُقَ مَخْلُوقاً مَجْبُوراً عَلَىٰ الْكُفْرِ، ثُمَّ يُعَاقِبَهُ عَلَىٰ كُفْرِهِ الَّذِي لَا كَسْبَ لَهُ فِيهِ بإرادةٍ حُرَّةٍ.

لكِنَّهُ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَهُمْ ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَبْلُوَهُمْ فِيمَا آتَاهُمْ، ومِنْ شَأْنِ ذَوِي الْإِرَادَاتِ الْحُرَّةِ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ في مُرَادَاتِهِم واخْتِيَارَاتِهِمْ، وَمَا دَامُوا ذَوِي إرادَاتٍ حُرَّةٍ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدنيا، فإنَّهُمْ لَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِين، ومِنْ مَظَاهِرِ اخْتِلَافِهِمْ أَنْ يَخْتَارَ بَعْضُهُمُ الْإِيمانَ والإِسْلَامَ والطاعَةَ لِرَبِّهِ، وأَنْ يُرِيدَ بَعْضُهُمُ الكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيَان.

لَكِنْ مَنْ يَخْتَارُ الْإِيمانَ بِصِدْقٍ وإِرَادَةٍ جَازِمَةٍ، يَشْرَحُ رَبُّكَ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وتَطْبِيقَاتِهِ في السُّلُوكِ النَّفْسِيّ والظَّاهر، بِرَحْمَتِهِ وتوفِيقِهِ ومَعُونَتِهِ له.

• ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾: أيْ: وَخَلَقَهُمْ رَبُّكَ ذَوِي إرَادَاتٍ حُرَّةٍ لِيَكْشِفَ بالامْتِحَانِ اخْتِلَافَهُمْ في مُرَدَاتِهِمْ وأعْمَالِهِمْ، مِنَ الْحَقِّ والْبَاطِلِ، والْخَيرِ والشَّرّ، والإيمَانِ والكُفْرِ، والطَّاعَةِ والْعِصْيَانِ، والرَّحْمَةِ والْعُدْوان،

لِيَجْزِيَهُمْ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ، على مَا قَدَّمُوا في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ في الحياة الدُّنيا، مِنْ صَالِحَاتٍ وسَيِّئَاتٍ.

والْجِنُّ فِي هَـٰذا كالإنْسِ في وضْعِهِمْ في الحياة الدنيا مَوْضِعَ الامْتِحانِ، ذَوِي إرَاداتٍ حُرَّةٍ، ينْجُمُ عَنْهَا الاختِلافُ في الْمُرَادَات، بَيْنَ المتناقِضَات والأضْدَاد والمخْتَلِفَات، الَّتِي تَقْتَضِي الثوابَ أو الْعِقَاب، بِمُقْتَضَىٰ عَدْلِ اللهِ أوْ فَضْلِهِ.

﴿... وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾:

أي: وإذْ عَلِمَ رَبُّكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لآيَاتِ القرآنِ أنَّ أكْثَرَ الإنْسِ والْجِنِّ، سَيُرِيدُونَ بإراداتِهِم الحرَّةِ الكُفْرَ دُونَ الإيمانِ، والْجُحُودَ والْعِصْيَانَ، دُون الطَّاعَةِ والإذْعان، في رِحْلَةِ الامْتِحَان، فَقَدْ تَمَّتْ كَلِمَتُهُ فِي الْحُكْم علىٰ الْعِبَادِ بأَنْ يَمْلأَ جَهَنَّمَ يَوْمَ الدِّينِ مِنْ مُجْرِمِي الْجِنَّةِ ومِنْ مُجْرِمِي النَّاسِ، الكافِرِينَ كُفْراً إرادِيًّا بِجُحُودٍ، وهُمْ يَعْلَمُونَ الْحَقَّ وَلَكِنَّهُمْ يَجْحَدُونَه.

وجاءَ في بيانَاتِ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّة أنَّ الْجَبَّار يَضَعُ قَدَمَهُ عَلَىٰ النَّارِ، الَّتِي تَطْلُبُ المزيدَ مِنْ أَجْسَادِ الكُفَّار، فينْضَمُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وحِينَئِذٍ تَقُولُ: قَط، قَط، أي: امْتَلأْت، امْتَلأْت.

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لرسُوله ﷺ:

● ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

أي: وتَدَبَّرْ كُلَّ نَبأٍ نَقُصُّ عَلَيك مِنْ أنْبَاءِ الرُّسُلِ مع أقْوامِهِمْ، مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ، إذْ نُبَيِّنُ لَكَ فيما نَقُصُّ ما لاَقاهُ الرُّسُل مِنْ مُجْرِمي أقوامِهِمْ مِنْ مُؤْذِياتٍ مُحْزِنَاتٍ لَهُمْ، وكيْفَ نَصَرْنَاهُمْ نَصْراً مُبِيناً، فيكُونُ بِذَلِكَ تَثْبِيتُ لِفُؤَادِكَ، عَلَىٰ مُتَابَعَةِ مَسِيرَتِكَ الدَّعَوِيَّةِ بِقُوَّةٍ وَثَبَاتٍ وَصَبْرٍ ومُصَابَرَة، ثِقَةً مِنْكَ بأنَّكَ مُؤَيَّدٌ وَمَنْصُورٌ مِنْ رَبِّكَ لا مَحالَة.

التَّنْوين في: ﴿وَكُلًّا﴾ تنوينُ عِوَضٍ عَنِ المضافِ إلَيْه، والتقدير: «وكُلَّ نبَأٍ» وهو مَفْعُولٌ بِه لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ فيما أرَىٰ، تقديرُهُ «تَدَبَّرْ» أي: وتَدَبَّرْ كُلَّ نَبَأٍ نَقُصُّ عَلَيْكَ مُدْرِكاً مَا نُثَبِّتُ به فُؤَادَكَ مِنْ أنباءِ الرُّسل.

الْمرادُ بالْفُؤَادِ عُمْقُ الْقَلْب، إذْ إنَّ كُلَّ أَرْكان الإنسانِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ تَثْبُتُ بِقُوَّةٍ وشَجَاعَةٍ، إذَا ثَبَتَ عُمْقُ الْقَلْب.

وَجاءَ فِعْلُ ﴿نَقُصُّ﴾ فِعْلاً مُضَارِعاً للدَّلَالَةِ عَلَىٰ الاسْتِقْبَال، وهو ما سَيأْتِي قَصُّهُ في السُّوَرِ الَّتِي سَتَنْزِلُ بَعْدَ سُورَةِ (هود/ ٥٢ نزول).

• ﴿. . . وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾:

أي: وَجَاءَكَ يَا مُحَمَّدُ في هَـٰذِهِ السُّورَةِ مِنْ أنْبَاءِ الرُّسُلِ مع أقْوَامِهِمْ، الْحَقُّ المتضَمِّنُ مَا يَثْبُتُ بِهِ فُؤادُكَ، وهُوَ أيْضاً مَوْعِظَةٌ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَتَعِظَ مِنْ غَيْرِ المؤمنِينَ، بِمَا عَاقَبَ اللهُ بِهِ مُجْرِمِي الْقُرُونِ الماضِية، وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ تُبَصِّرُهُمْ بتَأْيِيدِ اللهِ وَنَصْرِهِ لِأَوْلِيَائِه، وخِذْلَانِه لأعدائه.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: اسْمٌ للتَّذْكِير، وتَأْتِي اسْماً لِلتَّذْكِرَةِ، كَمَا سَبَقَ بيانُهُ في الآية (١١٤).

أي: فالمؤمِنُونَ يَتَذَكَّرُونَ مَا جَاءَ في هَـٰذه القِصَصِ الَّتِي جاء بيانُهَا في هَـٰذه السُّورَةِ، فَيَصْبِرُونَ عَلَىٰ مَا يُلَاقُونَهُ مِن اضْطِهادٍ وأذىً، من قِبَلِ الْكَافِرِينَ الْمُجْرِمِين، ويُتَابِعُونَ نُصْرَةَ دِينِ اللهِ، ونُصْرَةَ رَسُولِهِ، واثِقِينَ بأنَّ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَىٰ لِلْمُؤْمِنِيْنَ المتَّقِين، المُجاهِدِينَ الصَّابِرِين الصَّادِقِين، وأنَّ الْعَاقِبَةَ الْوَخِيمَةَ سَتَكُونُ لِمُضْطَهِدِيهِم أعْداء اللهِ وَرَسُولِه، أمَّا الدُّعَاةُ مِنْهُمْ فَيَتَأَسَّوْنَ بالرَّسُولِ ﷺ في جِهَادِهِ وصَبْرِهِ، وَمُتَابَعَةِ مَسِيرَاتِهِم الدَّعَوِيَّةِ صَابِرِين مُحْتَسِبِينَ أُجُورَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ، فاللهُ لَا يُضِيعُ أجْرَ الصَّابِرِينَ المجاهِدِينَ في سَبِيلِهِ.

قول الله عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُولِهِ ﷺ:

• ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾: وقُرئ: [مكاناتكم]﴾ بالْجَمْعِ، والمؤدَّىٰ واحد.

المكانة: مُؤَنثُ المكان، والمرادُ مَكَانَتُهُمُ الاعْتِقَادِية والسُّلوكية والعدائيَّة.

أي: وقُلْ يا مُحَمَّدُ للَّذينَ لَيْسَ لَدَيهِمْ اسْتِعْدَادٌ، لِأَنْ يُؤْمِنُوا بِكَ ولا بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْمَلُوهُ، مِنْ مَكايِدَ وأَنْوَاعِ مَكْرٍ سَيِّىءٍ وَتَدْبِيرَاتٍ لِقَمْعِي وقَمْعِ دَعْوَتِي واضطِّهادِ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي، حَالَةَ كَوْنِكُمْ ثَابِتِينَ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمُ الكُفْرِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ الإجْرَامِيَّة.

إِنَّا عَامِلُونَ بِما يُرْضِي رَبَّنَا مِنَّا، ثَابِتُونَ عَلَىٰ مَوْقِعِ إيمانِنَا وإسْلامِنَا وجِهَادِنَا ومُجَاهَدَتِنَا وَصَبْرِنَا وَمُصَابَرَتِنَا في ابْتِغَاءِ مَرْضَاةِ رَبِّنا.

وانْتَظِرُوا نَتَائِجَ أَعْمَالِكُمُ الكُفْرِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ الإجْرَامِيَّةِ الوخِيمَةِ المخْزِيَةِ المؤلِمة لَكُمْ والمهلِكَة في الدنيا، ثم مَا يُجازيكُمْ بِهِ يَوْمَ الدِّين من عَذَاب خالدٍ في الجحيم.

إِنَّا مُنْتَظِرُونَ تَأْييدَ اللهِ وَنَصْرَهُ لَنَا، وتَمْكِينَهُ لَنَا فِي الأَرْضِ، وَمَا يَهَبُنَا مِنْ عِزَّةٍ ومَجْدٍ وَرِزْقٍ حَسَنٍ فِي الدُّنْيا، ثُمَّ مَا يَتَفَضَّلُ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ يَوْمَ الدِّين، فِي مَنَازِلِ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فيها بلا نِهَايَة.

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

وقُرئ: [يَرْجِعُ] بالبناء للمعلوم. وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكامُلٌ في البيان، أي: يُرْجِعُ اللهُ كُلَّ الأَمْرِ إلَيْه، فَهُوَ يَرْجِعُ إِلَيْهِ بالْجَبْرِ طائعاً.

وقُرِئ: [عَمَّا يَعْمَلُونَ] بِضَمِير الغائبين، وبَيْنَ القراءتَيْنِ تَكَامُلٌ في

الْأَدَاءِ الْبَيَانِي، فالمُتلَقُّونَ يُقَالُ لهم: «عَمَّا تَعْمَلُونَ» وغير المُتلَقِّين يُقَالُ بِشَأْنِهِمْ: «عَمَّا يَعْمَلُون».

في هَـٰذِهِ الآيَةِ الأَخِيرَةِ مِنْ آياتِ السُّورَةِ رَبْطٌ وَتَذْكِيرٌ بخَمْسِ كُلِّيَّاتٍ كُبْرَىٰ مِنْ كُلِّيَّاتِ الدِّين:

الْكُلِّيَّة الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛

أي: وَللهِ وَحْدَهُ عِلْمُ كُلِّ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ الَّذِي يَخْفَىٰ عَلَىٰ كُلِّ خَلْقِ اللهِ، مِنْ مَلَائِكَةٍ وإِنْسٍ وَجِنٍّ وغَيْرِهِمْ مِنْ ذَواتِ الإِدْراكِ، ويَلْزَمُ مِنْ عِلْمِهِ الْغُيُوبَ كُلَّهَا عِلْمُهُ بِمَا يَعْلَمُهُ خَلْقُهُ مِمَّا هُوَ مَشْهُودٌ لَهُمْ أَوْ مَشْهُودٌ لِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ، فهَـٰذا مِنْ بابِ أولَىٰ، وَجَاءَ فِي نُصُوصٍ أُخْرَىٰ بَيَانُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلماً، مِن الْوَاجِبَات العقليَّةِ، والمستحيلاتِ الْعَقْلِيَّةِ، والجائِزَاتِ العقليَّةِ، ومَا كانَ وَمَا هُو كَائِنٌ وَمَا سَيَكُون، وتأتِي التَّعْبِيراتُ عَنْ هَـٰذِهِ الحقيقَةِ في القرآنِ بأفانِينَ مِنَ الْقَوْل.

الْكُلِّيَّةُ الثَّانِية: دَلَّ عَلَيْها قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ ـ [**وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**] في القراءة الأخرى.

أي: وَإِلَيْهِ جَلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُهُ يَرْجِعُ شَأْنُ كُلِّ شَيْءٍ في الوجود كُلِّه إيجاداً وإعداماً وتَصَارِيفَ. وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ التَّكْوِينِيُّ في إيجاد أيِّ شَيْءٍ، أوْ إعْدَامِه، أو التَّصْرِيفِ فيه، والأَمْرُ التكليفي، والْأَمْرُ الَّذِي يَأْذَنُ بِهِ لِذَوِي الإِرَادَاتِ الحرَّةِ أَنْ يَتَصَرَّفُوا به ضِمْنَ سُنَنِهِ فِي كَوْنِهِ، ثُمَّ هُوَ الخالِقُ لِمَا يُرِيدُونَهُ مِنْ مُرَادَات.

وإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ والشَّأْنُ كُلُّهُ يَوْمَ القِيامَةِ، فيُحَاسِبُ العبادَ الذينَ كانُوا فِي الحياةِ الدُّنْيا مَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان، ويَقْضِي بِشَأْنِ كلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ على وَفْقِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ بِمَا كَسَبَ أَوِ اكْتَسَبَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهِ،

ويكُونُ قَضَاؤُه بِعَدْلِهِ أو بِفَضْلِهِ، ثُمَّ يُجَازِي كلَّ فَرْدٍ بِحَسَبِ الْقَضَاء الّذي قضاهُ بِشَأْنه.

الكُلّيّة الثَّالِثَة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾:

خِطَابٌ بأسْلُوبِ الخطاب الإفرادِيِّ، مُوَجَّهٌ لِكُلِّ مَوْضُوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، إذْ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَلَقَّىٰ خِطَابَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ويَعْمَلَ بما يأمُرُهُ به. فَهُو مُكَلَّفٌ بالْأَمْرِ الرَّبَّانِيّ أنْ يَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِعِبَادَتِهِ أحداً.

وعبادة اللهِ عَزَّ وجَلَّ تَكُونُ بِطَاعَتِهِ في أَوَامِرِهِ ونَواهِيهِ، والتَّقَرُّب إلَيْهِ بما يُحِبُّ مِنْ عَبْده، مِنْ أفْعَالٍ لِمَا يُرْضِيه فِعْلُهَا أَوْ يُحبُّهُ ويُثيبُ عَلَيْهِ، وتَرْك لِأَشْيَاءَ يُرْضِيهِ تَرْكُهَا أَوْ يُحِبُّه ويُثِيبُ عليه.

وهي تَشْمَلُ الالْتِزَامَ بِكُلِّ أحْكَامِ الدِّينِ وشَرَائعه.

الْكُلّيّة الرَّابعَة: دَلَّ عَلَيها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾:

أي: وسَلِّمْ أيُّهَا الْعَبْدُ كُلَّ أُمُورِكَ بِقَلْبِكَ إلِيْهِ، مع قيامِكَ بالأسْبابِ المستطاعَةِ المادّيَّةِ والمعْنَويَّة، طَاعَةً لِأَمْرِهِ، وطَاعَةً لنَهْيِهِ، فالتوكُّل على اللهِ وَظِيفةٌ قَلْبِيَّةٌ ونَفْسِيةٌ، ولَيْسَ وَظيفَةً جَسَدِيَّةً تَقْتَضِي تَرْكَ الْأَسْبَاب، فالقيام بالأسْباب من شريعةِ الله لعبادِهِ.

والمُخْطِئُونَ فِي تَصَوُّرَاتِهم، والمضَلِّلُونَ المفْسِدُونَ مَفَاهِيمَ النَّاسِ لِدِينِهِمْ، يَجْعَلُونَ التَّوَكُّلَ من الوظائِفِ الْجَسَدِيَّةِ الَّتِي يَتْرُكُونَ بِها اتِّخَاذَ الْأَسْبَابِ، الَّتي جعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ تَحْقِيقَ المطالِبِ مُرْتَبِطاً بِهَا، لِأُمُورِ الدُّنيا ولِأُمُور الآخِرَة.

الْكُلِّيَّةُ الْخَامِسَة: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿. . . وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ وفي القراءة الأخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾:

أي: هو جَلَّ جَلالُهُ عَلِيمٌ بِكُلِّ أعْمَالِ عبادِهِ الْجَسَدِيَّةِ والنَّفْسِيَّةِ والْقَلْبِيَّة، لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْها خَافِيَة مَا.

الغَفْلَةُ: انْصِرَافُ قُدْرَاتِ الْعِلْمِ عَنْ مُتَابَعَةِ كُلّ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْلَم، ولَوْ كانَ انْصِرَافاً يَسِيراً في أقَلّ مِقْدَارٍ من الزَّمَن، واللهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ، بل شهودُه العَلْمِيُّ لكلّ شيءٍ شُهُودٌ دائم.

وبهذا تمّ تَدبُّر سورة (هود/ ٥٢ نزول) والحَمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.



(١٢)
الملحق الأول
حول مستخرجات بلاغيّة من السورة

لم أُثْبِتْ في هذا الملحق كلَّ ما يُمْكِنُ لي اسْتِخْراجُهُ مِنْ بلاغيّاتٍ في سورة (هود) وإنَّما اقْتَصَرْتُ على اسْتِخْرَاجِ بَعْضِ الأمْثِلَة،لتعويد القارئ علىٰ الاستخراج، مستفيداً مِمَّا سبَقَ أنِ اسْتَخْرَجْتُهُ من بلاغياتِ السُّور الّتي سَبَقَ تَدَبُّرُهَا.

أوّلاً: من الإطْنَابِ المفيد في السُّورَة ما يلي

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿... أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾﴾

جاء في هَـٰذِهِ العبارة وصْفُ «عادٍ» بِأَنَّهُمْ قَوْمُ هُودٍ، مع الْعِلْمِ من سِيَاقِ القِصَّةِ أنَّهُمْ قومُ هودٍ، والغرضُ مِنْ هذا الإطْناب تَحْقِيقُ غَرَضَيْن:

الغَرَض الأوّل: مراعاة فواصل الآيات.

الْغَرَضُ الثاني: الدَّلالَةُ عَلَىٰ أَنَّهُ تُوجَدُ عَادٌ أُخْرَىٰ غَيْرُ قَوْمِ هُودٍ عليه السّلام، وهُمْ ثَمُودُ قَوْمُ صالحٍ عليه السّلام، إذْ هُمْ خلائِفُ مَنْ أَنْجاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ قَوْمِ عاد بإيمانهم.

هذا إطنابٌ، وهو من الإطنابِ المفيد لفظاً ومعنًى.

ثانياً من القصر في السورة ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ... ﴿٦﴾﴾:

في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ قَصْرُ صِفَةٍ على موصُوفٍ، وهو قَصْرٌ حقيقي. والأدَاةُ المستعملَةُ فيه النفي بـ «ما» والاستثناء بـ «إلَّا».

(٢) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لما يقولُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِشَأْن نبأ الْبَعْث:

﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾:

في عبارة الّذِين كفروا: ﴿إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قَصْرُ مَوْصُوفٍ وهو نَبأُ الْبَعْثِ، على صِفَةٍ وهي كَوْنُهُ مَظْهَراً من مظاهِرِ أقوالٍ سِحْرِيَّة، وهُوَ قَصْرٌ إضَافي، أي: بالإضافَةِ إلى كَوْنِهِ حَقًّا أوْ كَذِباً مَصْنُوعاً بأسَالِيبَ بَلِيغَةٍ ساحِرَةٍ.

والأدَاةُ المسْتَعْمَلَةُ فيه النَّفيُ بِحَرْفِ النفي «إنْ» والاستثناء بحرف: «إلَّا»:

ثالثاً: مِنَ المجاز المرْسَل في السّورة ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لقول نوحٍ لقومه:

﴿... إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾:

جاء في هٰذه العبارة وَصْفُ الْيَوْمِ بأنَّه أَلِيمٌ، وهُوَ مِنْ إطْلَاقِ الزَّمَنِ على مَا يَجْرِي فيه، وهذا من المجاز المرسَل، فالْعَذَابُ فِيهِ هُوَ المؤلم، ولَكِنَّ اسْتِمْرَارِيَّة الْعَذَاب فيه تُشْعِرُ بأنَّ الْيَوْمَ الَّذِي هو الزَّمانُ هو المؤْلِمُ، إذْ لَا يَشْعُرُ المعذَّبُ بأزْمَانٍ داخِلَهُ فيها راحَةٌ حتَّىٰ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْيَوْم وبَيْنَ وَسَائِلِ التَّعْذِيب فيه، فَيُحِسُّ بأنَّ الْيَوْمَ نَفْسَهُ هو المؤْلِمُ، وهٰذا مِنَ الصِّدْق الْفَنِّيِّ الْبَدِيع.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأن المشركين:

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾:

في عبارة: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ مَجازٌ مُرْسَلٌ، إذ المعْنَىٰ: وَمَا زَادَتْهُمْ عَقِيدَتُهُمْ بآلِهَتِهِمْ غَيْرَ خَسارَةٍ، نُسِبَتْ زِيَادَةُ الْخَسَارَةِ إلىٰ آلِهَتِهِمْ وهِيَ إلَىٰ الإيمانِ بآلِهَتِهِمْ، وهٰذا مِنَ المجاز المرْسَلِ، وهُوَ مِنْ إطْلَاقِ الشَّيْءِ وإرادَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ.

(٣) وقولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾:

أُطْلِقُ في هٰذِهِ الآية لفظ «الْقُرَىٰ» وأرِيدَ أَهْلُها، وهُوَ مَجازٌ مُرْسَلٌ مِن إطْلَاقِ المحَلِّ وإرادَةِ الْحَالِّ بِهِ.

ووُصِفَ فيها الْأَخْذُ بِأَنَّهُ أَلِيمٌ، والمرادُ لَازِمُ الْأَخْذِ وهو ما تَبِعَهُ مِنْ وَسَائِلِ تَعْذِيبٍ مُؤْلِمٍ، وهو أيضاً من المجاز المرسل.

رابعاً: مِنْ باب الوَصْلِ والْفَصْلِ في السُّورة ما يلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾:

اخْتِيرَ في هَـٰذِهِ الآيَـةِ فَصْلُ جُمْلَـةِ: ﴿كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾ فَلَـمْ تُعْطَفْ بحَرْفِ العطف «الواو» على مَا جَاءَ قَبْلِهَا، لمَا بَيْنَهُمَا مِنْ شِبْهِ كَمَالِ الاتِّصَال، إذْ مَا قَبْلَهَا يُثِيرُ سُؤَالاً، وهـو: هل يَقْتَصِرُ الأَمْرُ على شُمُول عِلْم اللهِ لِأَطْوَارِ كُلِّ دابَّة؟

فجاء الجـواب: ﴿كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾: أي: بَـلْ يَـزِيـدُ عَـلَيْـهِ أَنَّـه مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ أيضاً في كتابٍ مُبِين.

خامساً: مِنَ التشبيه الْبَلِيغ في السورة ما يلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾:

جاءَ في هذه الآيَةِ تَشْبِيهُ الْقُرَىٰ الَّتِي أهْلَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أهْلَها بأنَّ قِسْماً مِنْهَا يُشْبِهُ زَرْعاً قائماً، وأَنَّ قِسْماً آخَرَ مِنْها يُشْبِهُ زَرْعاً مَحْصُوداً بالمِنْجل.

أي: بَعْضُها كزَرْعٍ قَائِمٍ عَلَىٰ سُوقِهِ، لَمْ تَمْحُهُ أَحْدَاثُ إهْلَاك الأقوام الّذِينَ كَانُوا يَسْكُنُونها.

وبَعْضُها كَزَرْعٍ مَحْصُودٍ بالمِنْجَلِ سَاقِطٍ على الْأَرْض، وقَدْ مَرَّتْ عليه القرون فصَارَ أطْلَالاً، أَوْ عَفَتْ آثارُهُ.

وفي كُلٍّ من هَـٰذَيْنِ التَّشْبِيهَيْنِ قَدْ حُذِفَتْ أَدَاةُ التَّشْبِيهِ وَوَجْهُ الشَّبَه، فَهُوَ مِنَ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغ.

سادساً: مِنَ الكِنَايَة في السورة ما يلي:

(١) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ إبراهيم عليه السَّلَام وضُيُوفِهِ الملائكة الذين لم يكن يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلَائِكَة:

﴿... فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ... ﴿٧٠﴾﴾:

جاء في عبارة: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ التَّعْبِيرُ بأَحَدِ لوازِمِ عَدَمِ الْأَكْلِ مِنَ العِجْلِ الْحنيذِ الَّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ إبراهيم عليه السَّلامُ عَلَىٰ سَبِيل الكِنَايَة، والكِنَايَةُ مِنْ بَدِيعِ الْقَوْلِ غَيْرِ المباشر.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلام والرُّسُلِ من الملائكة الَّذِين جاءُوهُ ضُيوفاً وهو لَا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ مَلَائِكة إذْ جاءوا على صُوَرِ شباب مُرْدٍ حِسَانٍ.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾:

عبارة: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ كِنَايَة عن ثَقِلِ أَمْرِ مَجيئهِمْ ضُيُوفاً عَلَيْه، عَلىٰ نَفْسِهِ وقَلْبِهِ، لِمَا يَعْلَمُ مِنْ فِسْقِ قَوْمِه، وخَوْفِ أَنْ يَفْضَحُوهُ فِي ضَيْفِهِ.

أَصْل هذه العبارة: أَنَّ الْبَعِيرَ إِذَا حُمِّلَ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أي: ضَاقَتْ مَسَافَةُ مَدِّهِ لِذِرَاعِهِ، فاسْتِعْمَالُ ضِيقِ الذَّرْعِ بِمَعْنَى ثِقَلِ الْأَمْرِ كِنَايَةٌ ذَاتُ دَلَالَةٍ غَيْرِ مُبَاشِرَةٍ، وهي مِنَ الْكِنَايَاتِ الْجَمِيلَة.

سابعاً: من الإشارة إلى القريب باسْم الإشارة الموضوع للبعيد

يُشَارُ إلى القَرِيب باسم الإشارة الموضوع لِلْبَعِيد لداعٍ بلاغيّ، ومن الدواعي البلاغية الدَّلَالَةُ عَلى ارتفاع مَنْزِلَةِ المشار البعيد، أو انْحِطَاطِ مَنْزِلَتِهِ وَتَسَفُّلِها، أو عِظَمِ المشار إلَيْه، ومِنْها فِي السُّورَةِ ما يلي:

(١) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْن فُضَلَاءِ المؤمنين:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ... ﴿١٧﴾﴾.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِهِمْ أَيْضاً:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ الكافرينَ المجرمين:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴿٢٠﴾﴾.

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأنهم أيضاً:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

(٥) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بِشأن عِظَمِ العذاب الذي وُعِدَ بِهِ قَوْمُ لوط:

﴿... ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ذَلِكَ العذابُ الموعودون به عذابٌ عَظيم شَدِيدُ الإيلام لهم.

ثامِناً: من خروج الاستفهام عن أصْلِ دَلالَتِهِ الَّتِي هي طَلَبُ الإفْهام ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَة لبعض مَا قَالَ نُوحٌ عليه السلام لِقَوْمه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

﴿أَرَءَيْتُمْ﴾؟ أي: فَكِّرُوا لِتَرَوْا.

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾؟: أي: لَا نُجْبِرُكُمْ عَلَيْها.

(٢): وقول الله عَزَّ وجَلَّ في حكاية الحوار بين الرُّسُلِ من الملائكة و«سارة» زَوْجَةِ إبراهِيمَ عَلَيْهِ السلام:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ... ﴿٧٣﴾﴾:

أي: لَا تَعْجَبِي مِنْ أَمْرِ الله.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لما قال لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِفُسَّاقِ قَوْمِه:

﴿... أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾:

استفهام يتضَمَّنُ وَصْفَهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ الْعَقْلِ وانْعِدامِ الرُّشْدِ بأسْلُوبٍ غير مُبَاشِر.

أي: لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشيد.

تاسعاً: من توكيد الجُمَلِ الخبريَّة لَدَواعٍ بَلاغية مَا يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ يُعَلِّمُ رَسُولَهُ فَكُلَّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ بياناً دَعَوِيًّا لِغَيْرِ المؤمنين:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾:

الداعي للتوكيد أنَّ المدْعُويين مُنْكِرُون، وفي العبارة مؤكّدان: «إنّ ـ والجملة الاسْمِيّة».

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ أيضاً معلّماً:

﴿... وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝٣﴾:

كالمثال السَّابق.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بياناً لمَا سَيقُولُهُ مُنْكِرُو الْبَعْث إذَا أُنْبِئُوا به:

﴿... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾:

في عبارة ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ﴾ التوكيد بمُؤَكِّدَين: (إنَّ ـ والجملة الاسمية).

وفي عبارة ﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ التوكيد بالقسم وبنُون التوكيد الثقيلة، والغرض إسماع الّذين كَفَرُوا بما سيقولون، لإعلامهم بأنَّ الله عَلِيمٌ بما في نفوسهم مِنْ تكْذِيب بالحقّ.

ونظيره في الآيتين (٩) و(١٠).

(٤) وقول الله عَزَّ وجَلَّ بشأنِ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ويَبْغُونَها عِوَجاً.

﴿... وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ١٩﴾:

ففي هَـٰذِهِ الآية التوكيد بِضَمِير الفصل في: ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ للدَّلَالَة على إصْرارِهِمْ بعِنادٍ عَلَىٰ الْكُفْرِ بالآخِرَة.

وأكْتَفِي بهَـٰذِهِ المستخرجات البلاغية من هذه السورة.

والحمد لله على مَعُونَتِهِ ومَدَدِه وتَوفيقه.



(١٣)
الملحق الثاني
دِرَاسة تكامليّة للنصوص القرآنية بِشأنِ هود عليه السلام وقومه عاد

جاء ذكر «هود» عَلَيْهِ السّلام وقومِهِ عاد في عِشرينَ نَصًّا في القرآن المجيد، من (١٩) سورة، وجاء في معظمها ذكْرُ لقطاتٍ مِنْ قصَّتِهِ مع قَوْمِهِ متكاملاتٍ فيما بَيْنَها.

ومِنْ شأْنِ التَّدَبُّر المتأنِّي دِرَاسَةُ هَـٰذِهِ النُّصُوصِ دِرَاسَةً واعِيَةً بِنَظْرَةٍ شُمُولِيَّةٍ تَكْشِفُ التَّكَامُلَ فيما بَيْنَها.

وأنْقُلُ هَـٰذِهِ النُّصُوصَ مِنَ المصْحَفِ أوّلاً، مُرَتَّبَةً وَفْقَ تَرْتِيبِ نُزُول سُوَرِها، وبَعْدَ ذَلِكَ أشْرَعُ إنْ شَاءَ الله بِتَدَبُّر مَا جَاءَ فيها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا علَىٰ مَا يَفْتَحُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ به.

النص الأول:

قولُ الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ (٧) ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ (٨) وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١٤)﴾.

النّصُّ الثاني:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١)﴾.

النّصُّ الثالث:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤)﴾.

النّصّ الرابع:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْقَمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول).

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (١٨) إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ (٢١)﴾.

النّصّ الخامس:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

النَّصُّ السَّادِس:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْأَعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

النصّ السابع:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

النصّ الثامن:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

النصّ العاشر:

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) أيْضاً حِكَايَةً لقول شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِقَوْمِهِ:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

النص الحادي عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول) حكايَةً لِقَوْلِ مُؤْمِنِ آلِ فِرْعَوْنَ يَنْصَحُ عَشِيرَتَهُ الأقْرَبين:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

النّصّ الثَّاني عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (فُصِّلَتْ/٤١ مصحف/٦١ نُزُول):

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

النصّ الثالث عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الأحْقَاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول):

﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

النصّ الرابع عشر:

قول الله عَزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾.

النّصّ الخامس عشر:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾.

النص السادس عشر:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بَعْدَ الْحَديث عَنْ قَوْمِ نُوحٍ، وهُمْ عَادٌ:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

النصّ السابع عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ۖ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

النَّصّ الثامن عشر:

قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (العَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

النَّصّ التَّاسع عشر:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نُزُول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾.

النص العشرون:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣) تحذيراً للمنافقين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

مقدمة

تدبُّر هذه النصوص (٢٠) في مواضِعها مِنْ سُورِها بَعدَ النَّظرِ في سَوابِقِها ولَواحِقِها يَكْشِفُ للمتدبّر أَنَّ إيراد كُلِّ نَصٍّ مِنْها فِي السُّورَةِ الَّتِي وَرَدَ فيها، قَدَ اسْتَدْعَتْهُ مُناسَبَةٌ داعِيَةٌ لإيرادِه فيها.

وعَسَىٰ أنْ نَكْتَشِفَ بَعْدَ تَدَبُّرِهَا أَنَّها متكامِلَةٌ فيما بَيْنَها، ولَمْ يُكَرَّر فيها إلَّا مَا يَقْتَضِيهِ إيرادُ القِصَّة، وَحَلْقَاتُ الرَّبْط، وفِقَراتُ الإنْذَارِ وتَوْجِيهِ العِظَة، وَمَا كَان هُود عَلَيْهِ السَّلام يُكَرِّرُهُ على قومه «عاد».

عَادٌ وَرَسُولُهُمْ هودٌ عليه السّلام:

عادٌ: قومٌ مِنَ العرب، كَانَتْ مَسَاكِنُهُمْ في أرْضِ «الأحْقَاف» مِن جَنُوبِ شِبْهِ الْجَزيرَةِ الْعَرَبِيَّة، وهي تَقَعُ في شَمالِ «حَضْرَمَوت». ويَقَعُ في شَمَالِ «الأحْقَافِ» مَا يُسَمَّىٰ «الرّبع الخالي» وفي شَرْقها «عُمَان» وَمَوْضِعُ بِلادِهِمُ الْيَومَ رِمَالٌ قَاحِلَةٌ لَا أَنِيس فِيها وَلَا دَيَّار، وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ إلَيْهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هو «هُودٌ» عليه السّلام.

نسب هود عليه السلام: هو على مَا ذَكَرَ المؤرّخُون «هُود» بْنُ عبد اللهِ بْنِ رَبَاح بْنِ الْخُلُودِ بن «عَاد» جدِّ هؤلاَ القوم، ويَنْتَهِي نَسَبُهُمْ إِلَىٰ «سَام» بن «نوحٍ» عليه السّلام.

وتُعْتَبَرُ «عَادٌ» عنْدَ المؤرّخِين من الْعَرب البائدة، أي: باستِثْناء الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ، وأنجاهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مع رَسُولِهِمْ من الْهَلاَكِ الشَّامِلِ الَّذِي نَزَل بِكُفَّارِهِمْ.

وكانَ هؤلاء القومُ أشِدّاءَ أقْوِيَاءَ مِمَّنْ زَادَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بَسْطَةً في الْخَلْق، وكانُوا مُتْرَفِينَ فِي الحياة الدُّنيا بالنِّسْبَةِ إلى أَهْلِ زَمَانِهِمْ، فَقَدْ أمَدَّهُمُ اللهُ جَلَّتْ حِكْمَتُهُ بِأَنْعَام وَبَنِين، وجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وأَلْهَمَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا مَصَانِعَ وهي المنشآتُ المدنيّةُ والْعَسْكرية كالقصور والقلاع والمباني، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ التَّرَفِ بِحَسَبِ أزْمَانِهِمْ، وضِمْنَ حُدُودِ تَقَدُّمِ النَّاسِ الحضارِيِّ حِينَئذٍ، ومِنْها مَصَانِعُ لجمع المياه.

وَكَانُوا أَهْلَ بَطْشٍ، فإذا بَطَشُوا بَطَشُوا جَبَّارِينَ، وكَانُوا أصْحَابَ آلِهَةٍ مِنَ الأوثانِ يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله.

وعن ٱبْن إسْحَاق أَنَّ أصْنَامَهُمْ: «صَدَاء - صَمُود - الْهَبَاء» كَمَا رَوَىٰ الطَّبَري.

وكانُوا يُنْكِرُونَ الدّارَ الآخِرَةَ، والْبَعْثَ للحِسَاب، وفَصْلِ القضاء وتنفِيذِ الجزاء، دَلَّ على هذا قول الله عَزَّ وجَلَّ عنهم في سُورَة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) حَاكِياً قَوْلَهُمْ:

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

وكانَ كُفْرُهُمْ بآياتِ رَبِّهِمْ وَبِرَسُولهم «هُودٍ» عَلَيْهِ السَّلام كُفْرَ جُحُودٍ، مع أَنَّهُمْ مُسْتَيقِنُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ، ومُسْتَبْصِرُونَ الْحقّ بِبَرَاهِينِهِ، إلَّا أَنَّ اسْتِكْبَارَهُمْ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ مَنَعَهُمْ مِنْ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَتَّبِعُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ، وَيَتْرُكُوا ما هُمْ فِيه مِنْ قَبَائِحَ وَجَرَائِمَ وطُغْيَانٍ في الْأَرْض.

والنَّظَرُ التكاملي للنصوص الواردة بشَأْنِ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام وقَوْمِهِ يأتي في سِتَّةِ فصول:

❁ ❁ ❁

الفصل الأول
لقطات من مجريات دعَوة هود عليه السّلام لقومه عاد

أوّلاً:

بداياتُ دَعْوَةِ هود عليه السَّلامُ لِقَوْمِهِ قد كانت مُمَاثِلَةً لبدايَات سائِرِ رُسُلِ اللهِ في دَعَوَاتِهِمْ لِأَقْوامهم، وتَتَلَخَّصُ بما يلي:

(١) الدَّعْوَة إلى عبادة اللهِ وَحْدَهُ لَا شريكَ له.

(٢) الدَّعْوَةُ إلى اتِّقَاءِ عَذَابِ اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ، بِنَبْذِ الشِّرْكِ، وطاعَةِ اللهِ باتِّباع مَا أنْزَلَ اللهُ لعبادِه من وصَايا وشرائع.

(٣) بَيانُ الرَّسُولِ لِقَوْمِهِ أَنَّهُ لَا يَسْأَلُهُمْ عَلَىٰ دَعْوَتِهِ ومُجَاهَدَتِهِ لَهُمْ أَجْراً، وأنَّ أجْرَهُ على رَبّ العالَمِينَ الَّذِي أَرْسَلَهُ.

(٤) بَيَانُ أَنَّ الْآلِهَةَ الَّتِي اتَّخَذَهَا قَوْمُهُ، والَّتِي يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله آلِهَةٌ بَاطِلَةٌ، لَيْسَ لَهَا مِنَ الرُّبُوبِيَّةِ شَيْءٌ، فَلَيْسَ لها من الإلَهِيَّةِ شيءٌ، وأنَّ اتّخاذَهَا آلِهَةً مِنْ دُون اللهِ افتراءٌ علَىٰ الله.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ البدايات في النُّصُوص مَا يلي:

(أ) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾:

أي: كذَّبتْ عادٌ الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللهُ إلَيْهِمْ، وكَانَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ آخِرَهُمْ، فجَحَدُوا رِسَالَاتِهِمْ، وكذَّبُوهُمْ بِما جاءُوهُمْ بِهِ بَلاغاً عَنْ رَبِّهِمْ.

وكان هودٌ عَلَيه السَّلَامُ أخاً لَهُم نَسَباً وإقامَةً ولُغَةً.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ عَرْضٌ رَفيق بأداةِ العَرْض «ألا» وهي تُسْتَعْمَلُ للْعَرْض، والتحضيض، والاستفتاح، والتَّنْبيه.

والذي عرضه هُودٌ عليه السلامُ على قَومِهِ أنْ يتقوا عِقَابَ اللهِ وعذابه المؤجَّلَ إلى يَوْمِ الدِّين، مع مَا قَدْ يَنْزِلُ بِهِمْ من عقابٍ مُعَجَّلٍ في الدنيا، وقد تحقَّقَ بإهْلَاكِهِمْ بالرِّيحِ العقيم مع ما رافقَها مِنْ مُعَذِّبَاتٍ مُهْلِكَات.

﴿تَتَّقُونَ﴾: مضارع فعل «اتَّقَىٰ» أي: جعَلَ بَيْنَهُ وبَيْنَ مَا يَحْذَرُ وِقَايَةً تَحْمِيهِ، مِنْ ضُرٍّ أَوْ أذىً أوْ عُقُوبَة، والوقاية مِنْ عُقُوبَةِ اللهِ تكُونُ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ أَمْرَ إِلْزام، وتَرْكِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ نَهْيَ إِلْزَامٍ، ومعلوم أنّ الإيمان الصَّحِيحَ الصَّادِقَ أوَّلُ مَأمُورٍ به في الدِّينِ الَّذِي اصْطَفَاهُ اللهُ لعباده، وأَنَّ الكُفْرَ وَأَدناهُ الشِّرْكُ أَوَّلُ مَنْهِيٍّ عَنْهُ في الدِّين الّذِي اصْطفاهُ اللهُ لعباده في رِحْلَةِ امتحانِهِمْ في الحياة الدنيا. والفعل المضارع ﴿تَتَّقُونَ﴾ يَقْتَضِي المداوَمَة المتكرّرة.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾: أي: إنّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ لَكُمْ مُتَّصفٌ بِخُلُقِ الأمانة بوجْهٍ عامّ، وأمِينٌ عَلَىٰ رِسَالَاتِ رَبِّي، أُبَلِّغُها لَكُم كما أتلَقَّاهَا بالْوَحْي عَنْهُ، لَا أَزِيدُ فيها شيئاً مِنْ عِنْدِي، ولَا أَنْقُصُ مِنْها شَيْئاً.

وبما أنّي رَسُولٌ لَكُمْ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّي:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾: أي: فَاتَّقُوا عَذَابَ اللهِ بالْعَمَلِ بما يأمُرُكُمْ بِهِ، وباجْتِنَابِ مَا يَنْهاكُمْ عَنْه، وأطِيعُوني فيما أَدْعُوكُمْ إليه، لِأَنَّكم إذا لَمْ

تُطيعُوني فيما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ وأنَا فيكُمْ رَسُولٌ مُبَلِّغٌ عَنِ اللهِ رَبِّكم، كُنْتُمْ مُسْتَحِقِينَ لِعِقَابِهِ وعَذَابِهِ، فَلَيْسَتِ القضيَّةُ قَضِيَّتِي الخاصَّة بي، وإنما هِيَ قَضِيَّةُ اللهِ رَبِّي، وَرَبِّكُمْ، وَلَهَا عَلاقَةٌ بِي وبكُمْ معاً.

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾:

إنَّ أَوَّلَ مَا يَتَبَادَرُ إِلَىٰ أَذْهَانِ الأَقْوَام المدْعُوِّينَ مِنْ قِبَلِ أيِّ داعٍ من الدُّعَاةِ إِلَىٰ مَبْدإ، أو فِكْرَةٍ، أَوْ عَمَلٍ، أَوْ جَمَاعَةٍ، أَنْ يَتَّهِمُوهُ بأَنَّ لَهُ مصلحة شخصيَّةً مِنْهُمْ، يَحْصُلُ عَلَيْهَا مِنْ جرّاءِ اتِّبَاعِهِمْ لَهُ فيما يَدْعُوهُمْ إِلَيْه، فَكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ في الدَّعْوَةِ أَنْ يُعْلِنَ الرَّسُولُ تَجَرُّدَهُ مِنْ أَيَّةِ مَصْلَحَةٍ شَخْصِيَّةٍ يَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ يَدْعُوهُمْ إلى دِينِ الله رَبِّهِ وَرَبِّهم.

وَلَكِنْ لَيسَ مَعْنَىٰ هَـٰذا أَنَّهُ لَا يَطْلُبُ أجْراً ما مطْلقاً، فهَـٰذِهِ مِثَالِيَّةٌ خياليَّةٌ بالنِّسْبَةِ إلى البشر، فقال هودٌ لِقَوْمِهِ:

﴿... إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾: أي: ما أَجْرِي الذي أستحقُّهُ إِلَّا عَلَىٰ كفَالَةِ رَبِّ الْعَالَمِين الَّذِي كَلَّفَنِي أَنْ أبلّغَكُمْ رِسَالَاتِهِ، وأُجَاهِدَكُمْ لإقْنَاعِكُمْ بالْحَقّ.

(ب) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إلىٰ قَبِيلَةِ «عَادٍ» أو القوم المعروفين باسم «عاد» النبيَّ الرَّسُولَ «هُوداً» وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ نَسَباً ولُغَةً ومَوْطناً.

وقَامَ هُودٌ بِدَعْوَةِ قوْمِهِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، قَالَ لَهُمْ مُسْتعْطِفاً مُتَرَفِّقاً: يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له، مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ يَسْتَحِقُّ أَنْ تَعْبُدُوهُ ويَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعبُدُوه إِلَّا هُوَ.

واعْلَمُوا أنَّكُم إذَا عَبَدْتُم مِنْ دُونِهِ إلَهاً أَوْ آلِهَةً أسْخَطتُّمْ عليكم اللهَ رَبَّكُمْ، فأنْزَلَ بِكُمْ عِقَابَهُ وَعَذَابَهُ، ألا تَعْقِلُونَ فَتَتَّقُونَ عَذَابَ رَبِّكم يَوْمَ الدِّينِ، مَعَ مَا قَدْ يُعَجِّلُ لَكُمْ مِنْ عِقَاب في الدُّنيا إذا عانَدْتُمْ وكنْتُمْ مُفْسِدِينَ مُجْرِمينَ.

هذه الفكرة جاءَت مضافة في هذا النص على سَابقه، فَهِمْنَاهَا من ذكر الفاء في ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟.

جـ - وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

فَأَضَافَ هَـٰذا النّصّ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلام ذكَر لَهُمْ في بيانٍ لاحِقٍ للبيَانَيْنِ السَّابقَيْن، أَنَّ اتّخاذَهُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللهِ هُوَ مِنَ الافتراء عَلَىٰ اللهِ، بِقَوْلِهِ لهم: ﴿...إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: مَا أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ عَلَىٰ اللهِ، إِذْ تَجْعَلُونَ للهِ شَرِيكاً فِي إِلَهِيَّتِهِ، الَّتِي تَسْتَلْزِمُ أَنَّكُمْ تَجعَلُونَ للهِ شَرِيكاً في رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ أَنَّ اللهَ أَمَرَ بِعِبَادَة غيره، وَكُلٌّ مِنْهُمَا باطِلٌ.

وَأَضافَ هَـٰذا النَّصُّ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلامُ، أبانَ لِقَوْمِهِ أَنَّ اللهَ الَّذِي يَطْلُبُ مِنْهُ أَجْرَهُ على قِيَامِهِ بِوَظَائِفِ رِسَالَتِهِ، هُوَ الَّذِي فَطَرَهُ، فَقَالَ لَهم: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟.

فَطرني: أي: خَلَقَنِي عَلَىٰ نِظَامِ الْفَطْر، وهُوَ الشَّقُّ، وإبْدَاعُ الشَّيْءِ مِنَ الْعُمْقِ، لِأَنَّ النُّقْطَةَ الْقُصْوَىٰ فِي عُمْقِ الأشْيَاءِ هي الْعَدَمُ.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾: أي: أَلَا تُفَكِّرُونَ فَتَعْقِلُونَ، هذا حَثٌّ على أنْ يَعْقِلُوا بأُسْلُوبِ الاسْتِفْهَامِ، مع تَلْوِيمِهِمْ عَلَىٰ أَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.

والمعنَىٰ: اعْقِلُوا وَلَا تُجَانِبُوا مَنْهَجَ الْفَهْمِ السَّدِيدِ، والْعَقْلِ الرَّشِيد.

ثانياً:

ثُمَّ وَسَّعَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ دَائِرَةَ شَرْحِهِ لِعَنَاصِرِ دَعْوَتِهِ، فَدَعَاهم إِلَىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ، ثُمَّ يَتُوبُوا إِلَيْه، فإنْ فعلُوا ذَلِكَ أَرْسَلَ اللهُ عَلَيْهِمْ أَمْطَارَ السَّمَاءِ مِدْرَاراً، وزَادَهُمْ قُوَّةً إلى قُوَّتِهِمْ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّوَلِّي عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ الْخُطْوَةِ الدَّعَوِيَّةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ۝٥٢﴾:

دعَا هُودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمَهُ إلىٰ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ مِمَّا سَلَفَ مِنْهُمْ مِن شِرْكٍ، باتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً يَعْبُدُونَها مِنْ دُون الله، ومن أنواع سُلُوكٍ هي من لوازم عَقِيدَةِ الشِّرْك، كالْفِسْقِ والفجور، والظُّلْم والْعُدْوان، وأكْلِ أمْوالِ النَّاسِ بالباطل.

والدَّعْوَة إلى الاستغفار تتضَمَّنُ باللُّزُومِ الفِكْرِيّ الكَفَّ عن مُتَابعةِ الوقُوعِ بالمعاصِي والمخالفات.

الاستغفارُ طَلَبُ سَتْرِ الذُّنُوبِ والمعاصي السَّابقة سَتْراً يَقْتَضِي التجاوُزَ عَنْها، وعَدَم المؤاخَذَةِ عليها:

- ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: أي: ثم ارْجِعُوا إلى رَبّكم رُجُوعاً عَمَلِيًّا بالْتِزَامِ طاعَتِهِ، في فِعْلِ مَا أَمَرَكُمْ بِهِ، وتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْه.

- ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾: أي: فإن اسْتَغْفَرْتُمْ رَبَّكُمْ مِنْ سَابِقِ كُفْرِكُمْ وَذُنُوبِكُمْ، وواظَبْتُمْ بَعْدَ ذَلِكَ على طَاعَتِهِ، فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ

يُرْسِلُ أمْطارَ السَّمَاءِ النافعة عَلَيْكُم بِغَزَارَةٍ لإنباتِ زُرُوعِكُمْ، ولإكْثَارِ الثمراتِ المختلفاتِ الأَنْواعِ والأَصْنَافِ.

﴿مِّدْرَارًا﴾: أي: كثيرَة الدَّرِّ مِنَ الأَمْطار. يُقَالُ لغة: «سَحَابٌ مِدْرارٌ» أي: كثير السَّحِّ من المطر، يقال «للذكر والأنثىٰ» هو مِدْرار، وهي مِدْرار.

• ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾: الفِعلُ في ﴿وَيَزِدْكُمْ﴾ مَعْطُوفٌ على فِعْلِ [**يُرْسِلْ**] المجزوم على أنَّهُ جواب الطَّلَب.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الجملةِ علىٰ أنّ عَاداً كَانُوا أشِدّاءَ أقْوِياء، فإنْ آمَنُوا واتَّقَوْا وَوَاظَبُوا على طَاعَةِ رَبِّهِمْ زَادَهُمُ اللهُ قُوَّةً وتَمْكِيناً.

• ﴿... وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾: أي: ولا تُدِيرُوا ظُهُورَكُمْ لِدَعْوَتِي، مُبْتَعِدِينَ عَنِ الإيمان والإسْلام وطَاعَةِ رَبِّكُمْ في أوامِره ونواهِيهِ، حَالَةَ كَوْنِكُمْ مُجْرِمِينَ بهذا التَّوَلِّي.

التَّوَلّي: الإدْبَارُ، وقَدْ يكونُ مصحوباً بابْتِعَادٍ وَنَأْيٍ.

الْمُجْرِم: المتعَدِّي بذَنْب كبير، والمجْرِمُونَ في الاصْطِلَاحِ القرآني هم الكافِرُون الّذِين يَسْتَحِقُّون الْخُلُودَ في عَذَابِ النار يَوْمَ الدِّينِ.

ثالثاً:

ثُمَّ وسَّعَ هُودٌ عليه السَّلَامُ دائِرَةَ وَعْظِهِ لِقَوْمِهِ «عادٍ» فأبانَ لَهُمْ نِعَمَ اللهِ الكثيرَةَ الَّتِي أنْعَمَ بها عليهم، الَّتِي يَجِبُ علَيْهِم أنْ يَشْكُرُوهُ عَلَيْها، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ عِقَاب اللهِ الشّدِيد قائلاً لَهُمْ: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾:

دَلَّ على هذا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُبَيِّناً لَقْطَةً ممَّا قَالَهُ هُودٌ لِقَوْمِهِ أَخْذاً مِمَّا جَاءَ مِنْ قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ في سُورَةِ (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول):

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾

وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾:

● ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾: اسْتِفْهَامٌ فِيهِ معْنَىٰ الإنْكَارِ عَلَيْهِمْ، والتَّلْويم لهم، لاتِّهَامِهِ إيَّاهُمْ بالْعَبَثِ، وَلَوْ كَانَ مَا يَبْنُونَهُ لِتَحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ دُنْيَوِيَّةٍ أَوْ أُخْرَوِيةٍ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَلُمْهُمْ.

﴿بِكُلِّ رِيعٍ﴾: أي: بكُلِّ طَرِيقٍ. **الرِّيْعُ**: السَّبِيلُ سُلِكَ أَمْ لم يُسْلَكْ ـ والطَّرِيق المنْفَرِجُ بَيْنَ الْجَبَل. والظاهر أنّ لفظ «كُلِّ» لإفادَةِ الكَثْرَة، لا للاسْتِغْرَاق.

﴿آيَةً تَعْبَثُونَ﴾: أي: عَلامَةً مُرْتَفِعَةً لَا مَصْلَحَةَ لَكُمْ فيها، ولا نَفْعَ فيها، فالاشْتِغَالُ بِبنَائِها، وإنْفَاقُ الْأَمْوَالِ الطَّائِلَة فيها عَبَثٌ لَا فَائِدَةَ فيه.

وهذا يَدُلُّ على أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ بِنَاءٍ حضاريّ، وأنّهم كانُوا يَتَفَاخَرُونَ ببناء الآيات المرتفعات، كالتماثيلِ الّتي يَضَعُها بَعْضُ الملُوكِ والرُّؤسَاءِ لِأَنْفُسِهِمْ، ويَنْصِبُونَها فِي مَوَاضِعَ بارزَةً مِنَ الطُّرُقِ والميَادِينِ، لِيَشْهَدَهَا الْغَادُونَ والرَّائِحُونَ، وكالمِسَلَّاتِ الَّتِي كَانَ قُدَمَاءُ المصْرِيّينَ يَنْصِبُونَهَا للتَّفَاخُرِ بِسُلْطَانِهِمْ، وعَظَمَةِ مُلْكِهِمْ.

إنَّها لَوْ كَانَتْ أَبْنِيَةً حَضَارِيَّةً نَافِعَةً، لمَا لَامَهُمْ عليها رسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السلام، بل كانت أَبْنِيَةً لِمُجَرَّدِ التَّفَاخُر والتعاظم، فهِي عَبَثٌ لَا نَفع فيه.

الْعَبَثُ: هو الْعَمَلُ فيما لَيْسَ لَهُ فَائِدَةٌ تُرْجَىٰ مِنْهُ، فَتَضِيعُ الطَّاقَةُ المبْذُولَةُ فِيه دُونَ تحْقِيقِ مَصْلَحَةٍ تُقْصَدُ مِنْ قِبَلِ أَهْلِ الْعَقْلِ والرُّشْدِ.

● ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾: أَرَىٰ أَنَّ الكَلَامَ هُنَا مُسْتَأْنَفٌ، ولَيْسَ الاسْتِفْهَامُ الإنكارِيُّ التَّلْويميُّ مُسَلّطاً عليها، لِأَنَّ اتّخاذ

المصَانِع الَّتِي اتَّخذُوها لَيْسَ مِنْ قَبِيلِ الْعَبَث، بل فيها مصالح للحياة الدُّنيا. أي: وأنْتُمْ تَتّخِذون مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخلُدُون.

المصانع: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «المصنَعَة» و«المصْنَع» وهِيَ كُلُّ مَا يُصْنَعُ من أبْنِيَةٍ، وقُصُورٍ، وحُصُونٍ، وأحواضِ مياه، ونَحْوِها.

قَال الْأَصْمَعِيّ: العربُ تُسَمِّي الْقُرَىٰ «مصانع» واحِدَتُها «مَصْنَعَة».

فالمعنى: وَأَنْتُمْ قَدْ أَنْعَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عليكم نِعَماً كثِيرَةً وفِيرَة، مِنْ مظاهِرِها أنّكُمْ تَبْنُونَ مُدُناً وقُرىٰ وقُصُوراً وَحُصُوناً وَأَحْوَاضَ مِياه، وهَـٰذِهِ أنْسَتْكُمُ الموْتَ والدَّار الآخِرَةَ بَعْدَ الْبَعْثِ، فَتَرَكْتُمُ الْعَمَلَ فِيما يَقِيكُم عَذَابَ اللهِ يَوْمَ الدِّينِ، وكانَ الواجبُ علَيْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا نِعَمَ اللهِ عَلَيْكُم بالْإيمان الصَّحِيحِ الصَّادِقِ، وبالإسْلَامِ لَهُ والعَمَلِ بمراضِيه، لَا أَنْ تَسْتَخدِمُوا نِعَمَ اللهِ عليكم في مَعْصِيَتِهِ.

وعبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أَكَّدَتْ فِكْرَةَ زِيادَةِ نِعَمِ اللهِ عَلَيْهِم، الَّتي جَعَلَتْهُمْ يُبَالِغُونَ فِي إِنْشَاءِ المنْشآتِ الحضَارِيَّة الَّتِي تَفَوَّقُوا فِيها عَلَىٰ الْأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِهِمْ، حتَّىٰ صَارُوا يَبْنُونَ المباني الْعَبَثِيَّة للتَّفاخُرِ، غُلُوّاً في الدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ أغْنِيَاءُ مُتْرَفُونَ، وَتَدُلُّ مَظاهِرُهُم علَىٰ أنَّهُمْ نَسُوا الموْتَ، وَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ خَالِدُونَ، فجاءَتْ عِبارَةُ هودٍ عليه السَّلام: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بمَثَابَةِ قَوْلِهِ: أَلَعَلَّكُمْ صِرْتُمْ تَتَوَهَّمونَ أَنَّكُمْ تَخلُدُونَ في هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، الَّتِي تُبَالِغُونَ في اتِّخَاذِ مَا يُتْرِفُكُمْ فيها، نَاسِينَ الموْتَ، والْبَعْثَ، ويَوْمَ الدِّين.

كلمة «لَعَلّ» تَدُلُّ علىٰ معْنَىٰ التَّوَقُّع، وسِيقَتْ هُنَا مَسَاقَ الشَّيْءِ المسْتَفْهَمِ عَنْهُ.

- ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾: أي: وقد أنْعَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْكُمْ بالْقُوَّةِ المتفوّقَةِ عَلَىٰ كُلِّ الأَقْوَامِ مِنْ حَوْلِكُمْ، حتَّىٰ صِرْتم بامْتِلَاكِكُمْ

لِلْقُوىٰ الَّتِي سَبَقْتُمْ بِها مَنْ حَوْلَكُمْ جَبَّارِينَ في الْأَرْضِ، فإذا بَطَشْتُمْ بأعْدَائِكُمْ أَوْ بِخُصُومِكُمْ بَطَشْتُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ جَبَّارِينَ ظالِمِينَ طُغَاةً بُغَاةً بِغَيْرِ حَقٍّ.

الْبَطْشُ: «التَّنَاوُلُ بِشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة ـ الْأَخْذُ الشَّدِيدُ ـ السَّطْوُ في سُرْعَة».

الْجَبَّار: «مَنْ يُكْرِه النّاسَ بالقُوَّة والعنف على ما يُريدُ بغير حقّ ـ المكْرِهُ الْمُجْبرُ بِسُلْطَانه ـ المتكبِّر ـ الْعَاتِي المتَسلّط بِقُوَّة».

فالمعنى: وقَدْ كَانَ الواجب عليكُمْ إذْ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكُمْ بالْقُوَّةِ السابقَة المتَفَوِّقَه. أنْ تُقِيمُوا الحقَّ والعَدْلَ، لَا أَنْ تَكُونُوا مُسْتَكْبِرِينَ عُتَاةً، تَتَسَلَّطُونَ عَلىٰ النَّاسِ بالْقُوَّة، وتُكْرِهُونَ النَّاسَ على مَا تُرِيدُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وتَبْطِشُونَ جَبَّارِينَ.

• ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٣١﴾: أي فَاتَّقُوا عِقَابَ اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً، بَعَدَمِ اسْتِخْدَام مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِمَّا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ، ومِنْ قُوىً مُتَفَوِّقَة، في معْصِيَتِهِ، وفي ظُلْم عباد الله، والْعُتُوّ والطُّغيانِ في الْأَرْض، وأَطِيعُوني فيما أُوصِيكُمْ به بلاغاً عَنْ رَبكم، لِتَنْجُوا مِنْ عَذاب اللهِ، ولتَظْفَرُوا بالْفَوْزِ العظيم.

• ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾:

أي: إِذَا كُنْتُمْ تَتَوَهَّمُونَ أَنَّ مَا اتَّخَذْتُمُوهُ مِنْ أَبْنِيَةٍ وَوَسائِلِ قُوَّةٍ وَتَرَفٍ هو مِنْ صُنْعِكُمْ، وتجْهَلُونَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ هُوَ الَّذِي أَمَدَّكُم بِكُلِّ ذَلِكَ، لِيَبْلُوَكُمْ فِيما آتَاكُمْ، فَانْظُرُوا إِلَىٰ مَا أَمَدَّكُمْ بِهِ مِمَّا تَعْلَمُونَ يَقِيناً أَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكُمْ لَكُمْ، فَقَدْ أَمَدَّكُمْ بأنْعَامٍ، وَأَنْتُم تَعْلَمُونَ وَتُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُ مِنْ عَطَاءِ اللهِ لكم، وأَمَدَّكُم بِبَنِينَ، وَأنتم تَعْلَمُونَ أيضاً وتُوقِنُونَ بأَنَّهُ مِنْ

فَضْلِ اللهِ عليكم، وأمَدَّكُمْ بِجنَّاتٍ وعُيُونِ مَاءٍ، وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ ذَلِك. فَلَا تُقَابِلُوا نِعَمَ اللهِ عليكم الَّتِي أمَدَّكُمْ بها، وجَعَلَها وَافِرَةً كَثِيرَةً عِنْدَكُمْ بالكُفْرِ والْجُحُودِ والعِصْيان.

إنِّي أخافُ عليكم، وأَنْتُمْ قَوْمِي وعَشِيرَتي عَذَابَ يَوْم عَظِيمٍ هو يَوْمُ الدِّين، يَوْم الجزاءِ الأكْبَرِ، مع مَا قَدْ يُعَجِّلُ اللهُ لَكُمْ في الدُّنيا مِنْ عِقَاب، إذَا كانَ هذا البيَان صَادِراً مِنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام بَعْدَ أَنْ أنْذَرَهُمْ بِعِقَابٍ مُعَجَّل.

الفصل الثاني

الجدليّات بَيْنَ «عاد» ورسُولهم «هود» عَلَيْهِ السلام

أوّلاً:

اتَّهَم كُبَرَاءُ «عادٍ» رَسُول رَبِّهِمْ «هوداً» عَليه السلام بالسَّفَاهَةِ، وبأَنَّهُمْ يَظُنُّونَهُ كاذِباً، لأنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُهُمْ، ولَيْسَ مَلَكاً مِنَ الْمَلَائِكة.

فَرَدَّ «هُودٌ» عَلَيْهِمْ بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، دلَّ عَلَىٰ هَـٰذا قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

مَلأُ الْقَوْم: هُمْ كُبَرَاؤُهم، وسَرَاتُهُمْ، وَذَوُو الْوَجَاهَةِ فِيهِمْ، الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيونَ العامَّة.

دَلَّت عبارة: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ عَلَىٰ أنَّ بَعْضَ مَلأ

قَوْمِهِ قَدْ آمَنُوا بِهِ، فعبارة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وَصْفٌ تَقْيِيدِيٌّ يُخْرِجَ الـمَلأَ الَّذِينَ لَمْ يَكْفُروا.

لَقَدْ وَاجَه هَـٰؤلَاء المَلأُ الكافِرُونَ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ بشَتيمَتَيْنِ:

الشتِيمَةُ الأُولى: دَلَّتْ عَلَيْها عِبارَةُ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾:

السَّفَاهَةُ: هِيَ الخِفَّةُ والطَّيْشُ مِنْ نَقْصِ الْعَقْل، وهي ضِدُّ الرُّشْد. وأَكَّدُوا مَقُولَتَهُمْ بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللَّام المزحْلَقَةِ ـ والرُّؤْيَةِ الجماعِيَّةُ».

أي: إنَّنَا نَعْتَقِدُ اعْتِقَاداً جَمَاعِيًّا جَازِماً، أَنَّكَ مُنْغَمِسٌ فِي سَفَاهَةٍ.

لَقَدْ قَابَلُوا دَعْوَة رَسُولِهِمْ المستَنِدَةِ إلَىٰ مَنْطِقِ الْعَقْلِ وَحُجَجِهِ وبَراهِينِه، بالطَّعْنِ والتَّجْرِيحِ وَالشَّتِيمَةِ، مع أنَّ هَـٰذِهِ المقابلَة لَا يَفْعَلُها عَاقِلٌ مُنْصِفٌ طَالِبُ حَقّ.

الشَّتِيمَةُ الثَّانية: دَلَّتْ عَلَيْها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾:

أكَّدُوا هَـٰذِهِ الشّتِيمَةَ الثَّانِيَةَ بِمِثْلِ مَا أَكَّدُوا بِهِ الشَّتِيمَةَ الأُولى، لكِنَّ اتِّهَامَهُمْ لَهُ بأَنَّهُ كَاذِبٌ مِنَ الْكَاذِبِينَ قَدِ اعْتَمَدُوا فِيه على الظَّنّ، إذْ لَيْسَ لَدَيْهِمْ حُجَّةٌ صَالِحَةٌ يُقَدِّمُونَها لإثْبَاتِ بُطْلَانِ مَا جَاءَهُمْ به، وإثباتِ صِحَّةِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِرْك.

وظَنُّهُمْ لَا يَعْدُو أنْ يكُونَ مِنْ قبيلِ الْأَوْهَامِ السَّاقِطَة، أو الادّعَاءِ الكاذب.

فرَدَّ عليهم هودٌ عَلَيْهِ السَّلام بالَّتِي هِيَ أحْسَنُ، رَدّاً يُمْكِنُ تَفْصِيلُهُ إلَى تِسْعِ مقَالَات:

المقالَةُ الأُولى: ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾: أي: لَا تُوجَدُ بي سَفَاهَةٌ مَا مَهْمَا كانَتْ قَلِيلَةً ضَئِيلَةً.

فَدَفَعَ شتيمَتَهُمْ لَهُ بالنَّفْي المجرَّدِ، ولم يَرُدَّ عَلَىٰ الشتيمَةِ بِمِثْلِها وَلَا بأقَلّ منها، وهذا مِنْ كَمَالِ التَّهذِيبِ والأدَبِ الرَّفيع.

إنَّ رَدَّ الشَّتَائِم بِمِثْلِهَا أَوْ بأَشَدَّ مِنْها، يُحَوِّلُ سَاحَةَ الدَّعْوَةِ الحكيمَةِ إلَىٰ الله، إلى سَاحَةِ سُفَهَاءَ يَتَقَاذَفُونَ بالشَّتَائِم.

المقالَةُ الثانية: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾: أي: ولَكِنَّ مَا أُبَلِّغُكُمْ إيَّاهُ مِمَّا يُخَالِفُ مُعْتَادَكُمْ، ويُخَالِفُ تَقَالِيدَكُمْ لِآبَائِكُم، إنَّمَا هُو بِسَبَبِ كَوْنِي نَبيًّا رَسُولاً مَبْعُوثاً إلَيْكُم مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّي وَرَبِّكُمْ وَرَبِّ الْعَالَمِينَ جَمِيعاً.

المقالَةُ الثالِثة: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾: أي: وبما أَنِّي نَبِيٌّ وَرَسُولٌ مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين، فأنَا أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِهِ إلَيْكُمْ، الَّتي يُنَزِّلُها عَلىٰ وَفْقِ سُنَّةِ التَّدرُّجِ نَجماً فَنَجماً.

المقالَةُ الرَّابِعَة: ﴿... وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾: أبَانَ هودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه في هذه المقالَة صِفتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ الَّتي لا بُدَّ أَنْ يتَّصِفَ بها كُلُّ رَسُولٍ، هما: النُّصْحُ، والْأَمَانَة.

النُّصْحُ: إرَادَةُ الخير للمنْصُوح، وعَدَمُ غِشِّه فِي شيء.

الأمانَةُ: صِفَةٌ يَتحَقَّقُ بها تَبْلِيغُ الرِّسَالَةِ كمَا تَحَمَّلَهَا الرَّسُولُ، دُونَ زيادَةٍ عَلَيْها، ولَا نَقْصٍ مِنْها.

المقالَةُ الخامسة: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾: **ذِكر**: أي: كتَابٌ مُنَزَّلٌ من رَبِّهم لهدايتهم ويجب عليكم أنْ تذكُروه.

دلَّتْ هَٰذِهِ الْعِبَارَةُ عَلَىٰ تَعَلُّلِ قَوْمِ هود بِبَشَرِيَّتِهِ لِرَفْضِ رِسَالَتِهِ، ولَيْسَ لَهُمْ مِنْ حُجَّةٍ غَيْرُ التعجُّب والاسْتِغْرَاب.

فكان الرَّدُّ الحكيم يَقْتَضِي أن يُرَدَّ التعجُّبُ بِمِثْلِهِ، مَعَ توجيه مَا يُشْعِرُ باسْتِنْكار تَعَجُّبِهِمْ.

فجاءت عبارة هود بأسْلُوب الاستفهام التَعَجُّبيّ.

المقالَة السَّادِسة: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾:

أي: وضَعُوا في ذَاكِرَاتكم دَواماً أَنَّكُمْ سُلاَلَةُ الْقَوْم الَّذِينَ آمَنُوا بِنُوح عَلَيْهِ السَّلام، وأنجاهُمُ الله بالْفُلْكِ المشْحُونِ، حِينَ أَهْلَكَ الَّذِينَ كَذَّبُوهُ وَكَفَرُوا بِمَا جَاءَهُمْ بِهِ عَنْ رَبِّهِمْ، فَلَا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِقَابٍ مُشَابِهٍ للعقاب الّذي عَاقَبَ اللهُ بِهِ كُفَّارَ قَوْم نُوح.

المقالَةُ السَّابِعَة: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾: أي: وقَدْ امْتَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَزَادَكُمْ فِي خَلْقِهِ لِأَجْسَادِكُمْ سَعَةً، فأَنْتُمْ أَكْثَرُ طُولاً وَعَرْضاً مِنْ قَوْم نُوح عليه السلام، وهذه المنّة تَسْتَدْعِي مِنْكُمْ أَنْ تَشْكُرُوا رَبَّكُم عَلَىٰ مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ نِعَمٍ، فَتُؤْمِنُوا بِرَسُولِهِ، وَتَتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْهُ، وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلياء.

المقالة الثامنة: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾: أي: وإِذْ زَادكُمْ في الْخَلْقِ بَسْطَةً، وآتاكُمْ نِعماً كَثِيرَةً، فَاذْكَرُوا آلاءَ اللهِ عَلَيْكُمْ، أي: اذْكُروا دَواماً نِعَمَهُ عَلَيْكُمْ، لِيَكُونَ ذِكْرُكُمْ لَهَا دَافِعاً وَمُحَرِّضاً على أنْ تَحْمَدُوه وَتَشْكُرُوه على مَا أَوْلَاكُمْ مِنْ فَضْلِهِ، فَتَعْبُدوهُ وَحْدَهُ وَلَا تُشرِكُوا بِعِبَادَتِهِ شيئاً، وتُطِيعُوه بِفِعل مَا أَمَرَكُمْ به، وتَرْكِ مَا نَهَاكُمْ عَنْه.

الآلاَء: هي النِّعَم، واحِدُها: «أَلْيٌ» و«إِلْيٌ» أي: نِعْمة.

المقالَةُ التاسعة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي: رَاجِينَ بِالإيمان والطاعَةِ أَنْ تُفْلِحوا.

الفلاح: النجاة، والْفَوْزُ بحَياةٍ طَيّبَةٍ في الدُّنيا، وسَعَادَةٍ عظيمةٍ خالِدَةٍ في الآخِرَة. **وأَصْلُ الفلاح:** البقاءُ في النَّعِيمِ والْخَيْر.

ثانياً:

طالَبَتْ «عادٌ» رسُولَهُمْ «هوداً» عَلَيْهِ السلام بأنْ يأتِيَهُمْ بِبَيِّنَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنَّهُ رَسُولُ اللهِ حقّاً، غيْرَ مَضْمُونِ رِسَالَتِهِ.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المطَالَبَةِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾:

• ﴿قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾: أيْ مَا جِئتَنَا بِبَيِّنَةٍ خَارِقَةٍ، ويَظْهَرُ أَنَّ مَقَالَتَهُمْ هَـٰذِهِ كانَتْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ مُعْجِزَةٍ تَشْهَدُ لَهُ بِأَنَّهُ رسُولُ رَبِّهِ حَقًّا وَصِدْقاً.

ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُمْ بآيَةٍ مُعْجِزَةٍ بِحَسَبِ سُنَّةِ اللهِ المتَّبَعَةِ فِي كُلِّ رُسُلِهِ جَحَدُوهَا، كَمَا جَحَدَ كُفَّارُ جَمِيعِ الْأَقْوَام مُعْجِزَاتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ، زَاعِمين أَنَّهَا مِنْ قَبِيلِ السِّحْرِ.

• ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي عِبَادَةِ آلِهَتِنَا مِنَ الْأَوْثَانِ، حَالَةَ كَوْنِنَا مُلازِمِينَ الإعْرَاضَ عَنْ قَوْلِكَ غَيْرَ مُتَأَثِّرِينَ بِهِ، مَهْمَا حَاوَلْتَ إقْنَاعَنَا وَإِقَامَةَ الحجَجِ علينا.

أَوْ ومَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا تَرْكاً صَادِراً عَنْ تَأَثُّرِنَا بِقَوْلِكَ.

أَوْ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا رِضاً مِنَّا عَنْ قَوْلِكَ، فَقَوْلُكَ لَا يُرْضِينَا، وَلَا يُؤَثِّرُ فِينَا.

• ﴿... وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾: أي: وَمَا نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ بِكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، وَمَا نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ لَكَ، مَهْمَا حَاوَلْتَ واجْتَهَدْتَ فِي دَعْوَتِنَا وإِقْنَاعِنَا.

زيدت الباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لِتَوْكيد نَفْيِ إيمانِهِمْ به.

وضُمِّنَ لَفْظ: «مُؤْمِنين» معنى: «مُسْلِمِينَ» فجاءت التعدية باللّام في ﴿لَكَ﴾ مُرَاعَاةً لِمُسْلِمِين.

ثالثاً:

ثُمَّ وَجَّهَتْ «عَادٌ» لِرَسُولهم «هُودٍ» عليه السَّلام عبارات يَقْطَعُونَ بِهَا أمَلَهُ بأَنْ يُؤْمِنُوا، لِيَكُفَّ عَنِ الْقِيَامِ بِدَعْوَتِهِ، ويَيْأَس مِنْ تَأْثِيرِ دَعْوَتِهِ فِيهِمْ.

دلَّ على هذا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) حكايَةً لِقَوْلِهِمْ لَهُ:

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿سَوَآءٌ﴾ هَـٰذِهِ بِمَعْنَىٰ التَّسْوِية، وتَأْتِي بَعْدَهَا هَمْزَةُ التَّسْوِيَة الَّتِي يُؤَوَّلُ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَرٍ، والتقدير هُنَا: وَعْظُكَ وَعَدَمُهُ سَواءٌ عَلَيْنَا. وبَعْدَ هَمْزَةِ التَّسْوِيَةِ تَأْتِي «أمْ» كما في الآية.

الْوَعْظُ: النُّصْحُ بالْفِعْلِ أوْ بالتَّرْكِ، المقْرُونُ بِمَا يُثِيرُ الرَّغْبَةَ أو الرَّهْبَةَ فِي النَّفْسِ، للانْتِفَاعِ بالنُّصْحِ، واتِّباعِ مَا هَدَىٰ إلَيْهِ فِعْلاً أَوْ تَرْكاً.

قال ٱبْنُ سِيدَة: الوَعْظُ تَذْكِيرُكَ للإنْسَانِ بما يُلَيِّنُ قَلْبَهُ مِنْ ثَوابٍ وعِقَاب.

والْمَوْعِظَةُ: مَا يَكُونُ بِهِ الْوَعْظُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ فِعْل.

والْمَعْنَىٰ: لَنْ تُؤَثِّرَ عَلَيْنَا يَا هُودُ بِوَعْظِكَ، فَكُفَّ عَنه، ويَدُلُّ هذا علىٰ أنَّ هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَكْثَرَ مِنْ وَعْظه لهم، ومِنْ تَخْوِيفِهِم مِنْ عَذابِ رَبِّهِمْ، إذا اسْتَمَرُّوا عَلَىٰ مَا هُمْ فِيه مِنْ كُفْرٍ وعِنَادٍ وإصْرَارٍ على الْتِزَام البَاطِلِ، واتِّبَاعِهِمْ أهواءَهم وشَهَواتِهِمُ في مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

• ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾: أي: مَا نَحْنُ فِيهِ إِلَّا عَادَةُ الأَوَّلِينَ مِنْ آبائِنا وَأَجْدادِنَا، ونحْنُ علىٰ آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ، وَلَمْ يُهْلِكِ اللهُ آباءَنَا، وَلَمْ يُنْزِلْ بِهِمْ مِثْلَ مَا تُنْذِرُنَا بِهِ.

• ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾: أي: لَمْ يُعَذَّبْ آباؤنَا مِنْ قَبْلُ حَتَّىٰ نُعَذَّبَ نَحْنُ، وإِذْ نَرىٰ أَنَّ مَا تُنْذِرُنَا بِهِ اخْتِلَاقٌ وَكَذِبٌ، فَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ في الدُّنيا وَلَا في الآخِرَة.

رابعاً:

ويظْهَرُ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ تَعرَّضَ لِمَا يَسُوؤُهُ في نَفْسِهِ أَوْ مالِهِ أَوْ نحو ذلك، فقالَ لَهُ قَوْمُهُ: إِنَّ مَا نَزَلَ بِكَ هُوَ مِنْ قِبَلِ بَعْضِ آلهتنا الَّتي تَدَّعِي أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّها لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ.

فَرَدَّ عَلَيْهِمْ مُتَحَدِّياً أَنْ يَكِيدُوهُ هُمْ وآلِهَتُهُمْ جَمِيعاً بما يَسْتَطِيعُونَ، وَأَبَانَ لَهُمْ تَوكُّلَهُ عَلَىٰ اللهِ، وأَعْلَنَ لَهُمْ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَهُمْ رِسَالَاتِ رَبِّهِ، وأَنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُهْلِكَهُمْ وَيَسْتَخْلِفَ قَوْماً غَيْرَهُمْ، وأَنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئاً، وَأَنَّ اللهَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ حَفيظ.

دَلَّ على هَـٰذا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مُبَيِّناً قَوْلَ عَادٍ لِرَسُولِهِمْ هُود، ومَا رَدَّ بِهِ عليهم:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾:

تَصَيَّدَ المتَحَدِّثُونَ باسْمِ «عَادٍ» عَارِضَ السُّوءِ الَّذي أصَابَ هوداً عَلَيْهِ السَّلامُ فَقَالُوا لَهُ:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ... ﴿٥٤﴾﴾:

﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾: أي: أصابَكَ وألَمَّ بِكَ ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أي: بما يَسُوؤُكَ من مَكْرُوه. ولَفْظُ «إنْ» حرف نفي بمعنى «ما».

والمعْنَىٰ: مَا نَقُولُ بِشَأْنِ ما نَزَلَ بِكَ إلَّا أنَّ بَعْضَ آلِهَتِنَا قَدْ أصَابَكَ بِسُوءٍ، لِأَنَّكَ تَكْفُرُ بها وَتَدْعُو قَوْمَكَ إلى نَبْذِ عبادَتِها، وإلَىٰ عِبَادة الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ له.

أي: ولو اجْتَمَعَ كُلُّ آلِهَتِنَا عَلَىٰ ضُرِّكَ لِأَهْلَكُوكَ، أو لأنْزَلُوا بِكَ من المصائبِ أكْثَرَ مِمَّا أنْزَلَ بِكَ بَعْضُهُمْ.

فرَدَّ عَلَيْهم رَسُولُهُم هودٌ عَلَيْهِ السلام بما يلي:

• ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: أسْأَلُ اللهَ أنْ يَشْهَدَ لِي بِمَا يَعْلَمُ أنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلِهَةٍ تَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ اللهِ.

واعْلَمُوا أنْتُمْ عِلْمَ حُضُورٍ وَشُهُودٍ لَا شَكَّ فِيهِ ولَا شُبْهَة، فإذا اسْتُدْعِيتُمْ للشَّهَادَةِ عِنْدَ رَبِّي، فاشْهَدُوا لِي بأنّي بَعِيدٌ كُلَّ الْبُعْدِ، طَاهِرٌ غَايَة الطَّهَارَةِ مِنْ رِجْسِ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ من دُونَ الله.

وأنَا أتَحدَّاكم أنْتُمْ وآلِهَتُكُمْ جَمِيعاً أنْ تَكِيدُوني لإهلاكي، أو الإضرار بي ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾: أي: فَدَبِّرُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ تَدْبِيرَهُ ضِدِّي، وَلَا تُمْهِلُونِي في التَّدْبِير، وَلَا فِي تَنْفِيذِ مَا تُدَبِّرُونَه.

وَأبَانَ لَهُمْ أنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَىٰ اللهِ رَبِّهِ فِي تَحدِّيهِ لَهُمْ، فقال عليه السَّلام:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾: أي: فَهُوَ الَّذي يُحْبِطُ كَيْدَكُمْ وَيَنْصُرُني.

وقال لهم: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾:

الناصِيَة: مُقَدَّمُ الرَّأس، وشَعَرُ مُقَدَّم الرَّأسِ إذا طَال، ذُكِرَتِ الناصِيَة والمرادُ كُلُّ الكائِنِ الحيّ، والأَخْذُ بالنَّاصِيَةِ هو القبضُ عليها.

أي: مَا مِنْ دَابَّةٍ تَدِبُّ ذَاتِ حياة، ولَهَا قُدْرَةٌ بحَرَكَتِهَا عَلَىٰ ضُرٍّ أَوْ نَفْعٍ، إلَّا هِيَ وَاقِعَةٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الأَخْذِ والْقَبْضِ الرَّبَّانِيّ لها، فَهِيَ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَفْعَلَ شيئاً، ولو كانت ذَاتَ إرادةٍ حُرَّةٍ، إلَّا بإِذْنِ اللهِ خالِقِهَا والْقَابِضِ عَلَيْها قَبْضَ إحَاطَة، وَلَا يَأْذَنُ لَهَا بِشَيْءٍ إلَّا مَقْرُوناً إِذْنُهُ بِحِكْمَتِهِ، فَلَا دَاعِيَ لِأَنْ أبالِيَ بِكَيْدِكُمْ وَكَيْدِ آلِهَتِكُمْ.

وقال لهم أيضاً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

أي: وإنِّي عَلَىٰ ثِقَةٍ بِأَنَّ رَبِّي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَنْصُرَ في آخِرِ حَرَكَاتِ الكَيْدِ أَعْدَاءَهُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ حَقًّا، لِأَنَّهُ - جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ - فِي تَدْبِيرِهِ لِكَوْنِهِ، وفي تَصَارِيفِهِ لِشُؤُونِ عِبادِه عَلِيمٌ خَبِيرٌ حَكِيمٌ، يُجْرِي مَقَادِيرَهُ وَمَا يَقْضِي بِهِ، وَمَا يأْذَنُ بِهِ، مُحَافِظاً فِيها على صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، هُوَ صِرَاطُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ والْحِكْمَةِ واخْتِيَارِ أفْضَلِ الأُمُورِ وأحْسَنِها.

وقال لَهُمْ أيضاً: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾: أي: فَإنْ تَتَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ مُبْتَعِدِينَ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِي، فَقَدْ أَدَّيْتُ ما أَوْجَبَ عَلَيَّ رَبِّي، وهو أَنْ أُبَلِّغَكُمْ مَا أرسَلَنِي بِهِ لِأُبَلِّغَكُمْ إيَّاه، وقَدْ فَعَلْتُ مَا أَمَرَنِي به، دُونَ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ وَلَا تَحْرِيفٍ، وعَلَيْكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تَتَحَمَّلُوا نَتَائِجَ اخْتِيَارَاتِكُم عِنْدَ رَبِّكُمْ.

وقال لهم أيضاً: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾: أي: وَإِذَا أَصْرَرْتُم عَلَىٰ الكُفْرِ عِنَاداً واسْتِكْبَاراً وَجُحُوداً، فإنَّ رَبِّي سَيُعَذِّبُكُمْ ويُهْلِكُكُمْ، وَعِنْدَئِذٍ يَسْتَخْلِفُ فِي الأَرْضِ قَوْماً غَيْرَكُمْ، يَضَعُهُمْ مَوْضِعَ الامتحانِ بَعْدَكُمْ، إذْ أَثْبَتُّمْ بالاخْتِبَارِ أَنَّهُ لَا فَائِدَةَ تُرْجَىٰ مِنْ إمْهَالِكُمْ أَكْثَرَ مِمَّا أَمْهَلَكُمْ، وفي هَـٰذا تَحْقِيقٌ لِسُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ على تَتابُعِ أَجْيَالِهِم.

وقال لهم أيضاً: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾: أي: واعْلَمُوا أَنَّكُمْ بِكُفْرِكُمْ، ومَعْصِيَتِكُمْ أَوَامِرَ رَبِّكُمْ وَنَوَاهِيَهُ، لَا تَضُرُّونَهُ شيئاً؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ عَنْ إيمانِ كُلِّ عبادِهِ بِهِ، وغَنِيٌّ عَنْ طَاعَتِهِمْ له، إِنَّمَا تَضُرُّون نُفُوسَكُمْ، بِتَعْرِيضها لِعِقَابِ رَبِّكُمْ، إِذْ يَجْعَلُكُمْ يَوْمَ الدِّينِ خالِدِينَ في عَذَاب الجحيم أبداً.

وَقال لهم أَيْضاً: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾: أَي: إنَّ رَبّي مُهَيْمِنٌ عَلَىٰ كُلّ شيءٍ، مُرَاقِبٌ لِكُلِّ شيءٍ، حفيظٌ لِكُلِّ شيْء يُرِيدُ حِفْظَهُ، فَلَا تَسْتَطِيعُ قُوَّةٌ مَا مِنْ دُون قُوَّة اللهِ أَنْ تَفْعَلَ شيئاً ما إِلَّا بإِذْنِهِ، لحِكْمَةٍ مِنْ حِكَمِهِ السَّنِيَّة، ولا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ أنْ يَفْلَتَ من سُلْطانه.

الفصل الثالث

تَوجُّهُ كُبَراء قَومِ هُودٍ لتَضْلِيلِ جَمَاهِيرِهِمْ مَخَافَة أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ

تُوحي قِصَّةُ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بأَنَّهُ حِينَ يَئِسَ مِن اسْتِجَابَةِ كُبَراءِ قومِهِ لِدَعْوَتِهِ، وَجَّهَ عِنَايَتَهُ لِدَعْوَةِ جَمَاهِيرِ قَوْمِهِ وَعَامَّتِهِمْ.

فَخَافَ كُبَرَاءُ قَوْمِهِ أَنْ يَجِدَ لَدَىٰ الْعَامَّةِ والجماهير أعْدَاداً كَثِيرةً تَسْتَجِيبُ لَهُ، فَوَجَّهُوا نَشَاطاً دِعَائِيًّا إِقْنَاعِيًّا لِصَدِّهِمْ عَنْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ.

ورَكَّزُوا في إِقْنَاعَاتِهِمْ التَّضْلِيلِيَّةِ عَلَىٰ كَوْنِهِ بَشراً مِثْلَهُمْ، وعلى قَضِيَّة الْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ الَّتِي يَدْعُو إِلَىٰ الإيمان بها، وأَنَّ اللهَ سيُجَازِي النَّاسَ في الحياة الآخِرَة، وهَـٰذِهِ قَضِيَّةٌ لا تَقْبَلُهَا العقول.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذِهِ المرحلَةِ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (المؤمنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بِشَأْنِ الْقَوْم الّذِينَ أَنْشَأَهُمْ بَعْدَ إهلاك قَوْمِ نُوح، وهم قَوْمُ عَادٍ، ورسُولُهُمْ المعنيُّ بالْأَحْداث هو «هود» عليه السلام فيما يظهر:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ

ٱلۡأَخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

قول الله تعالى:

- ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فأرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ هُو «هُودٌ عَلَيْهِ السلام» بِرِسَالَةٍ مضْمُونها «أنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إلَهٍ غَيْرُه أفَلَا تَتَقُونَ» وقَدْ سَبَقَ كثيراً تَحْلِيلُ مِثْلِ هذه العبارة.

قولُ الله تعالَىٰ:

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا . . .﴾:

الواو في ﴿وَقَالَ﴾ تَعْطِفُ عَلَىٰ مَحْذُوف، هَـٰذا المحذوف هُو كُلُّ مَا قَالُوه فِي قِصَّتِهِمْ مَعَ رَسُولِهِمْ، وَرَفْضِهِمُ الاسْتِجَابَةَ لِدَعْوَتِهِ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهُوا لجماهِيرِهِم بُغْيَةَ صَدِّهِمْ عَنِ الاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَة هُود.

وفَاعِلُ «قَالَ» هُمْ كُبَرَاءُ قَوْمِ هُودٍ وَسَادَتُهُمْ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِثَلَاثِ صفات:

الصفة الأولى: أنَّهُمْ كَفَرُوا بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ هود عليه السلام.

الصفة الثانية: أَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الحياة الآخرة بَعْدَ الْبَعْث، وزَعَمُوا أَنَّهَا أُكْذُوبَةٌ كَذَبَهَا هُودٌ وافْتَرَاها عَلَىٰ الله.

الصِّفَة الثالِثَة: أنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قَدْ أتْرَفَهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنيا. أيْ:

أَكْثَرَ لَهُمْ ووسَّعَ عَلَيْهم في الرِّزْقِ والمال، فَكَانُوا بِهِ ذَوِي رَفَاهِيَةٍ زائدة.

فقالوا لجماهيرهم:

﴿... مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ أي: تَشْرَبُونَ مِنه.

أي: قَالَ الملأُ مِنْ عَادٍ لجماهِيرِهِمْ: مَا هَـٰذا الَّذِي يَدَّعِي أَنَّهُ رَسُولُ رَبِّكُمْ وَيَأْتِيكُمْ بِبَلَاغَاتٍ عَنْه، إِلَّا بَشَرٌ مِنَ الْبَشَرِ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ مِنْ طَعَام، ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ مِنْهُ مِنْ شراب، فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِأَنْ يَكُونَ رَسُولاً يَتَلَقَّىٰ عَنِ اللهِ الأوامرَ والنواهي والتعليماتِ، إِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ رَسُولُ اللهِ مَلَكاً مِنَ الملائِكَة.

هذه مَقْولَةٌ تَضْلِيلِيَّة كاذِبَة، بل الحكمة تقتضي أن يكون الرَّسُولُ إلى البشر بشراً مِثْلَهُمْ.

وقَالُوا لجماهِيرِهم أيضاً:

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾: أي: ونُقْسِمُ لَكُمْ بأَنَّكُمْ أَيُّهَا الجماهِيرُ إنْ أطَعْتُمْ واتَّبَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ يَدْعُوكُم إِلَىٰ نَبْذِ مَا كَانَ عَلَيْهِ آباؤكُمْ وَأَجْدَادُكُمْ، مِنْ عِبَادَةِ آلِهَةٍ مِنْ دُونِ اللهِ، وتَرْكِ عَادَاتِكُمْ وَتَقَالِيدِكُمُ الْمَوْرُوثَةِ، إِنَّكُمْ حِينَئِذٍ لَخَاسِرُونَ.

عبَاراتٌ مَشْحُوناتٌ بالمؤكِّداتِ بُغْيَةَ الإقْنَاعِ بالباطِلِ الَّذِي يُرِيدُ كبراء عَادٍ إِقْنَاع جماهِيرِهِمْ بِهِ.

وقالُوا لجماهِيرِهِمْ أَيْضاً بأَسْلُوبِ الاستفهامِ الإِنْكَارِيِّ الاسْتِهْزَائي بوَعْدِ هُودٍ بشأن البعْثِ والحياة الآخِرَة:

- ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ

هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾:

﴿أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾: أي: مُخْرَجُونَ مِنَ الْأَرْضِ إِلَىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ بَعْدَ أَنْ صِرْتُمْ تُرَاباً وعِظَاماً.

﴿﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾﴾: **هيهاتَ**: اسْم فعل ماضٍ بمعنى «بَعُدَ» أي: مَا تُوعَدُونَهُ مِنَ الْبَعْثِ لِلْحَيَاةِ الْأُخْرَىٰ أَمْرٌ مُسْتَبْعَدٌ لَا تُصَدِّقُهُ الْعُقُول.

وبعْدَ هذا الاستِبْعَاد الَّذِي لَا يَقْتَرِنُ بِحُجَّة عَقْلِيَّة، تَصَوَّرُوا أَنَّ جَمَاهِيرَهُمُ اقْتَنَعُوا، فَقَالُوا لَهُمْ جَازِمِين: مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا يَمُوتُ مَنْ يَمُوتُ فيها، ويَحْيَا مَنْ يَحْيَا فِيها فقط، وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ إِلَىٰ حَيَاةٍ أُخْرَىٰ.

وَشَعرَ الكُبرَاءُ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْوَذُوا عَلَىٰ نُفُوس جَمَاهِيرهم، فَقَالُوا لَهُمْ بِشَأْنِ الرَّسُول هودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: مَا هُوَ إِلَّا رَجُلٌ كاذبٌ في ادّعائِهِ أَنَّهُ رَسُولُ الله وما نَحْنُ بِمُؤْمِنِينَ به، وما نَحْنُ بِمُسْلِمِينَ له.

الفصل الرابع

الْمَرَاحِلُ الْأَخِيرة مِنْ مَسِيرَةِ دَعْوَةِ هُودٍ الَّتِي انْتَهَتْ بِإِهْلاك كُفَّار قَوْمِهِ

تُشْعِرُ النُّصُوصُ بِأَنَّ هُوداً عليه السَّلَامُ قَدْ أَنْذَرَ كُفَّار قَوْمِه بِإِهْلَاكٍ عَامٍّ شَامِلٍ.

فأَعْلَنُوا إِصْرَارَهُمْ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ، وَتَحَدَّوْهُ بأَنْ يَأْتِيَهُمْ بمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِيما يَعِدُهُمْ بِهِ.

ونَجِدُ الدَّلَالَةَ عَلَىٰ هذا فِي عِدَّةِ نُصُوصٍ.

(١) فَمِنْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الْأَحْقَافِ/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً لِرَسُولِهِ فَلِكُلِّ صَالِحٍ لِلْخِطَابِ مِنَ المكلّفِين الممتَحَنِين:

﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتَلَقِّي لهَذَا الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ الرَّبَّانِيِّ، عن رَسُولِنَا «هودٍ» أخي «عَادٍ» أحداثاً جرَتْ إذْ أَنْذَر قَوْمَهُ الذين كانوا مُقِيمِينَ بأَرْضِ الْأَحْقَاف، والْحَالُ أَنَّهُ قَدْ مَضَتِ النُّذُرِ مِنْ قَبْلِ بِعْثَتِهِ، وَمَضَتْ النُّذُرُ في القرونِ الّتِي جَاءَتْ فِي الأزمَان بَعْدَه، قائلاً لِقَوْمِهِ «عَادٍ»: لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ، فإذَا لَمْ تَسْتجِيبُوا لي، وَقَد أَقَمْتُ فيكُم زَمناً مَدِيداً أُبَلّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي، فإنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ يَكُونُ فِيهِ هَلَاكُكُمْ هَلَاكاً جماعِيًّا سَاحِقاً مَاحِقاً.

قَالُوا له: أجِئْتَنَا لِتَصْرِفَنَا عَنْ آلِهتِنَا، فاعْلَمْ أَنَّنَا لَنْ نَسْتَجِيب لِدَعْوَتِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّنَا نُكَذِّبُكَ بِبَلَاغَاتِكَ وَبِإِنْذَارَاتِكَ، فأتِنَا بِمَا تَعِدُنَا بِهِ مُنْذِراً مُتوعّداً إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وأعْلِمْنَا عَنِ الْوَقْتِ الَّذِي يأتي فيه هَـٰذا الْيَوْمُ الْعَظِيمُ، الَّذي تَزْعُمُ أَنَّ هَلَاكَنَا يَكُونُ فِيهِ.

قَالَ لَهُمْ: مَا الْعِلْمُ كُلُّهُ إِلَّا عِنْدَ الله، وأَنَا لَا أَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ، إِنَّني لَا أَعْلَمُ إِلَّا مَا يُعْلِمُنِي اللهُ بِهِ، وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ، وأَمَرَنِي رَبِّي أَنْ

أُبَلِّغُكُمْ إِيَّاه، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ أُولي أَلْبَابٍ تُعَالِجُونَ الْقَضَايا بِعَقْلٍ وَرُشْدٍ، ولَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَسْتَجِيبُونَ لانْفِعَالاتِ غَضَبِكُمْ آناً فآناً، وَقَدْ عَطَّلْتُمْ مَوَازِينَ عُقُولِكُمُ الَّتِي فَطَرَكُمْ اللهُ عَلَيْها.

﴿تَجْهَلُونَ﴾: أَصْلُ الجهل مأخوذٌ مِنْ قَوْلِ العرب: «جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جَهْلاً» أي: اشتَدَّ غَلَيَانُها، ضِدُّ تَحَلَّمَتْ، فالجهل تَعْبِيرٌ عَنْ ثَوَرَانِ الْغَضَبِ فِي النَّفْسِ وهِيَاجِهِ، والعاقِل الرَّصِينُ لَا يَجْهَل.

وَلَمْ يَطُلْ بِهِمُ الزَّمَانُ حَتَّىٰ رَأَوْا عَارِضاً (أي: سَحَاباً قَادِماً) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ فَظَنُّوه سَحَاباً قادِماً بِغَيْثٍ، فَقَالُوا: هذا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا مَطراً نَافِعاً.

فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِمْ لَمْ يَجِدُوه سَحَاباً مُمْطِراً، بَلْ وَجَدُوا وَسَائِلَ العذاب الَّذِي أَنْذَرَهُمْ بِهِ رَسُولُهُمْ هُودٌ عَلَيْهِ السّلام، وهو مَا تَحَدَّوْهُ أَنْ يأْتِيَهُمْ بِهِ مُسْتَعْجِلِينَ مُسْتَهْزِئين. إِنَّها رِيحٌ شَدِيدَةٌ بَارِدَةٌ فِيها عَذَابٌ أَلِيمٌ لَهُم، فيها قُدْرَةٌ عجيبَةٌ على أَنْ تُدَمِّرَ كُلَّ شيءٍ بأَمْرِ رَبِّها.

فأَهْلَكَهُمُ اللهُ بها، فأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ فِي أَرْضِهِمْ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ، أَمَّا الْأَحْيَاءُ فيها باسْتِثْناء المؤمنين الذين أنجاهم اللهُ فَقَدْ هَلَكُوا جَمِيعاً.

بِمِثْل هذا الجزاء العقابيّ يَجْزِي اللهُ كلَّ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مبيّناً رَدّ مَلإِ قَوْم هُود عليه السلام على دَعْوَتِهِ لهم إلىٰ عبادة الله وحْدَهُ لَا شَريكَ له: ويظْهَرُ أَنَّهُ كَانَ هَـٰذا بَعْدَ أَنْ أَنْذَرَهُمْ بعِقَاب الله المعجّل، وفي أوَاخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعْوِيَّة بَيْنَهُم:

﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ

مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

إنَّ النِّسْبَةَ الغالِبَةَ من قوم هُودٍ عليه السَّلام قَدْ كَذَّبُوهُ، وكَذَّبُوا بالذِّكْرِ الَّذِي أُنْزِلَ إلَيْهِم من رَبّهم، ولَمْ يَكْتَرِثُوا لِمَا وَعَدَهُمْ بِهِ مِنْ فَلاحٍ إذَا اسْتَجَابُوا لِدَعْوَتِهِ واتَّبَعُوه، واسْتَهَانُوا بِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ خَالِدٍ يَوْمَ الدِّينِ، فِي جَهَنَّمَ دَارِ الْمُجْرِمِينَ، وبِمَا أَنْذَرَهُمْ بِهِ مِنْ إهْلَاكٍ مُعَجّل، نظير الإهْلَاكِ الَّذِي عَاقَبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ قَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِهِم، وتَنَاسَوْا أَنَّهُمْ سُلَالَةُ أَوْلَادِ نُوحٍ النَّاجِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْك، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ بما جاء بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رَبِّهِ، واتّباعهم له.

لَقَدِ اسْتَنْكَرَ كُفَّارُ عَادٍ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِهِ لَهُمْ أَنْ يَعْبُدُوا اللهَ وَحْدَه، وَيَتْرُكُوا مَا كَانَ يَعْبُد آباؤُهُمْ مِنْ أَوْثَانٍ اتَّخَذُوها شُرَكَاءَ للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا أَشْرَكُوا.

وتَحَدُّوا رَسُولَهُمْ بأنْ يأتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ إهْلَاكٍ عَامٍّ شَامِلٍ، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ غَيْرُ صَادِقٍ فِي أَنَّ مَا يُنْذِرُهُمْ بِهِ هو إنْذَارٌ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ، وأنَّ هُوداً كَانَ مُبَلِّغاً لَهُ عَنْ اللهِ جلَّ جَلالُهُ.

- ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؟!!

استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء بما يَدْعُوهُمْ هُودٌ عليه السَّلَامُ إلَيْه، من عبادة اللهِ وَحْدَه، وتَرْكِ عبادة مَا كانَ يَعْبُدُ آباؤهُمْ مِنْ شُرَكَاء.

- ﴿... فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾:

إنَّهُمْ قَدْ تَحَدَّوْه بأنْ يَأْتِيَهُمْ بِمَا كَانَ يُنْذِرُهُمْ بِهِ مِنْ عَذَابٍ مُعَجَّلٍ يَسْتَأْصِلُهُمْ، إذْ كَانُوا يَجْزِمُونَ بأَنَّهُ رَجُلٌ كاذِبٌ غَيْرُ صَادِقٍ فِيما يُخْبِر عَنِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وَغَيْرُ صَادِقٍ في ادِّعَاءِ أَنَّهُ نَبِيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ إليهم.

لَقَدْ غَشَّتْ أهواؤهم وَتَقَالِيدُهُمُ الْعَمْيَاءُ عَلَىٰ بَصَائِرِهِمْ، فَجَعَلَتْهُمْ لَا

يَسْتَبْصِرُونَ بَراهِينَ الْحَقّ، ويَرَوْنَ آيَاتِ اللهِ الإعجازِيَّةَ غَيْرَ دَالَّاتٍ علىٰ أَنَّ هُوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيُّ اللهِ وَرَسُولُهُ حقّاً.

فأجابَهُمْ هُودٌ عليه السَّلامُ بما دَلَّ عَلَيْهِ البيانُ التالي:

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: قَدْ قَضىٰ اللهُ بأنْ يُوقعَ عَلَيْكُمْ عِقَابَهُ بإهْلَاكِكُمْ إهْلَاكاً عَامّاً شَاملاً، بَعْدَ أَنْ قَدَّرَ ذَلِكَ بِمُقْتَضَىٰ عَلْمِهِ وحِكْمَتِهِ، فَانْتَظِرُوا عِقَابَ اللهِ لَكُمْ إنِّي مَعَكُمْ مِنَ المنْتَظِرين.

الرِّجْسُ: يُطْلَقُ عَلَى العقاب والعذاب، وهذا هُو المرادُ هُنَا.

الغَضَبُ: ضِدُّ الرِّضا، ومِنْ لوازِمِه تَوَجُّهُ الإرادة للانتقام.

وأبَانَ لَهُمْ هُودٌ عليه السلام أنَّ آلِهَتَهُمْ الَّتِي يَعْبُدُونها مِنْ دُونِ اللهِ، لَيْسَتْ أكْثَرَ مِنْ أسْمَاءٍ تُلْفَظُ بالألْسِنَة، دُونَ أنْ يَكُونَ لَهَا فِي الواقِعِ حَقِيقَةٌ ذَاتُ أثَرٍ مَا فِي نَفْعٍ أوْ ضُرّ، مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلطان.

السُّلْطان: هُنَا الحُجَّةُ الملْزِمَة.

وتَحَقَّقَ بَعْدَ هَـٰذا البيانِ الأَخِيرِ إنْزَالُ عِقَابِ اللهِ السَّاحِقِ الماحِق لكُفَّارِ «عاد» وأنْجَىٰ اللهُ هوداً عليه السلام والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ، وقَطَعَ آخِرَ مَنْ بَقِي مِنْهُمْ.

دَلَّ على هذا قولُ اللهُ تعالى:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾:

يُقَال لغة: «قَطَعَ اللهُ دَابِرَ الْقَوْمِ، أي: قَطَعَ آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُم، فَأَهْلَكَهُ مَعَهُمْ. **والدَّابِرُ**: في اللُّغَةِ التَّابع.

﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾: أي: ولَمْ يَكُنْ كُفَّارُ عَادٍ مُسْتَعدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا أُمْهِلُوا، فكَانَ مِنَ الحِكْمَةِ إِنْهَاءُ ظُرُوف امْتِحَانِهِمْ فِي الحياة الدُّنيا إِهْلَاكاً جَماعِيًّا شَاملاً.

(٣) وَقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) حَكَاية لما دَعَا به هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَام:

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: قَالَ هُودٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي آخِرِ مَسِيرَتِهِ الدَّعَوِيَّة لِقَوْمِهِ، بَعْدَ أَنْ يَئِسَ مِنْ إيمانهم واسْتِجَابَتِهِمْ لِدَعْوَتِهِ، رَبِّ انْصُرْنِي بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لِي.

فقال اللهُ لَهُ وَحياً: عَمَّا قَلِيلٍ (أي: من الزمَان) لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ، إذْ يَأْتِيَهِمْ عذَابُنَا فِي الصَّبَاحِ.

وَنَزَلَ بِهِمْ عِقَابُ اللهِ في الْوَقْتِ المقَدَّرِ لإهْلاكِهِمْ، فَأَخَذَتْهُمْ مَعَ الرِّياحِ الَّتِي أَرْسَلَهَا عَلَىٰ أَرْضِهِمْ، الصَّيْحَةُ الْعُظْمَىٰ، وهِيَ صَوْتٌ عَظِيمٌ مُهْلِك، وتُطْلَقُ الصَّيْحَةُ عَلَىٰ العَذَاب، وَكَانَ أَخْذُهَا لَهُمْ مِنَ الحياة أَخْذاً بالْحَقِّ، إذْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾: أي: فَجعَلْنَاهُمْ بَعْدَ إهْلَاكِهِمْ مِثْلَ الْغُثَاءِ، وهُو مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ رَغْوَةٍ، ومِنْ فُتَاتِ الْقُمَامَاتِ والْأَشْيَاء الَّتِي عَلىٰ وَجْهِ الْأَرْضِ.

﴿... فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾: أي: فَطَرْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ مِنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلَاتِ آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ.

(٤) وَقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي

يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾:

في هذا النصّ بيانٌ مُوجَزٌ جدًّا لِوَسِيلَةِ إهْلَاكِ كُفَّارِ «عَاد» مع إلماحٍ سَرِيعٍ لمشَهَدِ إهْلَاكِهِمْ، بإبْرَازِ لَقْطَةٍ تَصْوِيريَّةٍ مِنْهُ، تكَرَّرَتْ طَوالَ يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ عَلَيْهم.

الرِّيحُ الصَّرْصَر: هي الرّيحُ الشّدِيدَةُ الْبُرُودَةِ، الْقَوِيَّةُ السَّرِيعَة، الَّتِي تَصْطَدِمُ بالْأَشْيَاءِ، فَتَنْطَلِقُ بِها أَصْوَاتٌ يَتَوَاتَرُ فيها مَا يُشْبِهُ حَرْفَي الصَّادِ والرَّاء، فَسُمِّيَتْ صَرْصراً.

﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾: أي: فِي يَوْمِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وآلام.

﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: أي: شَدِيدٍ وَقَوِيّ، تَتَكَرَّرُ فِيهِ نوازِلُ النَّحْسِ بِتَتَابُعٍ وَتَلاحُقٍ، حَتَّىٰ تَحقَّقَ إهْلَاكُ الْقَوْمِ جَمِيعاً.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تَقْتَلَعُ النَّاسَ اقْتِلَاعاً شَدِيداً مَهْمَا اسْتَمْسَكُوا بِثَوابِتَ فِي الْأَرْضِ، فإذا انْتَزَعَتْهُمْ بِعُنْفٍ، وَرَفَعَتْهُمْ، طَرَحَتْهُمْ صَرْعَىٰ، أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولِينَ مَطْرُوحِينَ.

﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ﴿٢٠﴾﴾: أي: فيكُونُونَ بَعْدَ انْتِزَاعِهِمْ وَطَرْحِهم مُتَنَاثِرِينَ صَرْعَىٰ، كأسافِلِ نَخْلٍ مُنْقَلِعَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، ومُنْقَلِبَةٍ وَمَطْرُوحَةٍ عَلَيْها، وَقَدْ عَدَتْ عَلَيْهَا الْأَوَاكِلُ فأَكَلَتْ بُطُونَهَا فَجَوَّفَتْهَا.

يُوصَفُ «النَّخْلُ» باعتباره اسْمَ جِنْسٍ بالتَّذْكِيرِ وبالتَّأْنِيث، فيقال: نَخْلٌ مُنْقَعِرٌ، ونَخْلٌ مُنْقَعِرَة.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾: أي: فانْظُرْ أَيُّها المتفكّرُ المتدبِّرُ. عَلَىٰ أَيَّةِ حَالٍ كانَ عَذَابِي لِكُفَّارِ «عَادٍ» قَوْمِ هودٍ، وكَيْفَ كَانَتْ نُذُرِي لَهُمْ التي بلَّغَها لَهُمْ رَسُولي. «نُذُرِي» أي: إنْذَاراتي بالعقاب الأليم.

أضاف هٰذا النّصّ إضافاتٍ لَمْ تأتِ في النُّصُوص السابقة.

(٥) وَقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بِشَأْنِ هود عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَوْمِهِ:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةًۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾:

جاءَ في هذا النّصِّ إضَافَةُ أنَّ فِي أهْلَاكِ كُفَّارِ «عَادٍ» آيةً تَدُلُّ عَلَىٰ سُنَّةِ اللهِ فِي عِقَابِهِ لِعِبَادِهِ الْمُجْرِمِينَ، لِيَعْتَبِرَ بِها المعتبِرُونَ. وجاءَ فيه بَيَانُ أنَّ أكْثَرَهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَعِدِّينَ للإيمان مَهْمَا أُمْهِلُوا فَاقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللهِ أَنْ يُهْلِكَهُمْ. وَمَعَ قُدْرَةِ اللهِ الْغَالِبَةِ فَهُو رَحِيمٌ بِعِبَادِهِ..

(٦) وَقَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

• ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: وحِينَ جاء وقْتُ تَوْجِيهِ أمْرِنا بِتَنْفِيذِ الْقَضَاء الَّذِي قَضَيْنَاهُ بإهْلَاكِ كُفَّارِ «عاد» قوم «هود» عَلَيْهِ السَّلام، والمراد بمجيء الوقْتِ اقترابُ مجيئِه، أَوْ مَجيءُ بوادره، أمَرْنَا «هُوداً» والَّذِينَ آمَنُوا معه، بالابْتِعَاد عَنِ الأرض المقدَّرِ أَنْ يكونَ دَاخِلَ حُدُودِها إهْلَاكُ كُفَّارِ قَوْمِهِ، فابْتَعَدُوا فَنَجَّيْنَاهُمْ مَصْحُوبِينَ ومَشْمُولِينَ بآثارِ رَحْمَةٍ مِنَّا فِي الدُّنيا، وقَضَيْنَا بِتَنْجِيتِهِمْ يَوْمَ الدّينِ مِنْ عذابٍ غَلِيظٍ، بِسَبَبِ إيمانِهِمْ واتِّبَاعِهِم رسُولَ رَبِّهِم.

يُقَالُ لغة: «عَذابٌ غليظ» أي: شديدُ الإِيلَام. والغليظ في المادّيّات هو ضدّ الرقيق.

والمرادُ بالْأَمْر في: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ الْأَمْرُ التكوينيّ التَّنْفِيذِيُّ المسْبُوقُ بقَدَرٍ وقضاء.

وتِلْكَ الْبَعِيدَة مِن قبيلَةِ عادٍ إلى أسْفَلِ سافِلِينَ جَحدُوا بآياتِ رَبِّهم الإعجازية، والكونيّة، والجزائيّة، والبيانيّة، مع عِلْمِهِمْ واسْتِيقَانِهِمْ بأنها حقٌّ، وعَصَوْا رُسُلَهُ هُوداً والَّذِينَ جَاءُوا قَبْلَه إلَيْهِمْ، واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ مُتَعَالٍ مُتَكَبِّرٍ فيهم، عَنيدٍ شَدِيد الرَّفْضِ للحقِّ، وَإِنْ ظَهَرَ لَهُ بالبرهانِ أَنَّهُ حقٌّ.

وجَعَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَعْنَةً مُخْزِيَةً تتوالَىٰ عَلَيْهِمْ طَارِدَةً لَهُمْ مِنْ كُلِّ مَوَاقع آثَارِ رَحمَاتِهِ في الدنيا وفي الآخِرَةِ.

والسَّبَبُ في ذلِكَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا جاحِدِين رَبَّهم، وسَاتِرِينَ الأدِلَّةَ الَّتِي تُثْبِتُ حَقَّ رُبُوبيّتِهِ لهم.

أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ إلى الدّرْكِ الْأَسْفَلِ من الجحيم.

(٧) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾:

الْجُحُودُ: إنْكَارُ الشَّيْءِ والتكْذِيبُ بِهِ مع العلم بأنَّهُ حَقٌّ.

﴿فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ أي: في أيّامٍ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ فيها أنْوَاعَ الْعَذَابِ والضُّرِّ والشِّدَّةِ والمؤلِمَاتِ الْقَاسِيَاتِ.

وسبَقَ بَيَانُ مَا جاء في سورة (القمر) وهو قوله تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

وجاء في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) قول اللهِ تَعَالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾:

ومن تَدَبُّرِ هَـٰذه النُّصُوصِ مجْتَمِعَةً نُدْرِكُ أَنَّ يَوْمَ النَّحْسِ الأول قَدْ تَمَّ بِهِ إهْلَاكُ عَامَّةِ الْقَوْمِ الكافِرِينَ الْمُجْرِمِينَ، فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ. وأَنَّ سَائِرَ الْأَيَّام النَّحِسَاتِ الَّتي كانتْ مع الأوّلِ سَبْعَ لَيَالٍ وثَمَانِيَةَ أيَّامٍ، بدَأَت مَعَ فَجْرِ الْيَوْم الأَولِ، وانْتَهَتْ مَعَ غُرُوبِ شَمْسِ نَهَارِ الْيَوْم الثامِنِ، وفِي هَـٰذِهِ الأيَّامِ بَعْدَ الْيَوْم الْأَوَّل دُمِّرَتْ مَسَاكِنُهُمْ وَكُلُّ مُنْشآتِهِمْ، وَمَاتَ كُلُّ ذِي حَيَاةٍ فِيها، وَتَحَوَّلَتْ جَمِيعُ أرْضِهِمْ بالتفْتِيتِ أكْوَاماً مِن الرَّمْلِ النَّاعم، مَنْ دخَلَ إلَيْهَا غاصَ فيها.

أَطْلِقَ الْيَوْمُ وَأُرِيدَ بِهِ النهار.

﴿حُسُومًا﴾: أي: مُتَتَابِعَةً مُتَوالِيَةً في الشَّرِّ والتَّعْذِيب، من شأنِهَا أنْ تَحْسِمَ مَادَّتَهُمْ وَتَسْتَأْصِلَهُمْ، وأصْلُ الْحَسْمِ الْقَطْعُ، يُقَالُ لُغَةً: «حَسَمَ الْعِرْقَ» أي: قَطعَهُ وَكَوَاه، لئلَّا يَسِيلَ الدَّمُ مِنْه.

ولفظ «حُسُوم» جَمْعُ «حَاسِم» مثل «شاهد» و«شُهُود».

صَرْعَىٰ: أيْ: هَلَكَىٰ، مقْتُولِينَ، مَطْرُوحِين.

الْخِزْيُ: الوقُوعُ في الشَّرّ والعذاب والنكَبَات ـ الذّلُّ والهوان ـ الافْتِضاح بالقبائحِ المخجلة خجلاً شَدِيداً.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ... ﴿٨﴾﴾ أي: فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ في أَرْضِهِمْ مِنْ آثَارٍ بَاقِيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ مَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ به على النَّاسِ، لَقَدْ صَارَ كُلُّهُ مُتبرّاً تَتْبِيراً.

فالتكامُلُ في هَـٰذِهِ النُّصُوصِ واضِحٌ، ضِمْنَ تَكْرِيرِ تَوْجِيهِ الأنْظَارِ لقَضِيَّةِ الجزاء الرَّبَّانِيّ بِالْعِقَابِ، الَّذِي تحقَّقَتْ أمْثِلَتُهُ الكثيرةُ فِي الواقِعِ رَغْبَةً فِي أنْ يَعْتَبِرَ بِهَا أُولو الأَلْبَاب.

ومَزِيدٌ مِنَ التَّأَمُّلِ التَّدبُّرِي يَكْشِفُ أَنَّ كُلَّ النُّصُوصِ القرآنِيَّة الوارِدَة حَوْلَ مَوْضُوعٍ واحِدٍ، هِي مُتَكَامِلَةٌ فيما بيْنَها، ولَيْسَ فِيها تكْرِيرٌ تَطَابُقِيّ، باسْتِثْنَاءِ تَرْسِيخِ قضايا الْإيمَانِ، وقضايا الجزاء، وَمَا يَسْتَدْعِيهِ الْعِلَاجُ الدَّوائِيّ.

وجاء في سورة (الذَّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول): وَصْفُ الرِّيح الَّتِي أهْلَكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بها عَاداً، فقال تعالَىٰ فيها:

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾:

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾: أي: الرِّيحَ الَّتِي لَا تَأْتِي بالْمَطَرِ، بَلْ قَدْ تَأْتِي بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ والتَّدْمير.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالْبَالِي الْمُتَفَتِّتِ مِن كُلِّ شيءٍ، وقَدْ أتَتْ هَـٰذِهِ الرّيحُ عَلَىٰ أرْضِ «عَاد» وكُلِّ مَا فِيهَا فجعَلَتْهَا رِمَالاً قاحِلَة.

الفصل الخامس

نصوص خاصَّةٌ بِتَوْجِيهِ الكافِرِين برسالة محمَّدٍ ﷺ للاتّعَاظِ بما جَرَىٰ للكافرينَ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ السَّالِفَة

تُوجَدُ في القرآن الْمَجيد نُصُوصٌ مُوجَزَةٌ جدًّا، لَيْسَ فِيها تَفْصِيلٌ متَعَدِّدٌ لِأَحْدَاثِ الكافِرِينَ الْأَوَّلِينَ الَّذِينَ أُهْلِكُوا، والْغَرَضُ مِنْها التوجِيهُ للاتِّعَاظ بما جَرَىٰ للمُجْرمين السَّابِقِين مِنْ جَزاءٍ مُعجَّلٍ في الدُّنْيا، بإهْلَاكٍ شَامِلٍ، دالٌّ عَلَىٰ الجزاء المؤجَّلِ إلى يَوْمِ الدِّين، على أَنَّ هَـٰذا الْغَرَضَ

مُتَحَقِّقٌ مِنْ إيرادِ النُّصُوصِ الَّتِي فِيها تَفْصِيلٌ مُوَسَّعٌ أَوْ مُتَوَسِّطٌ بحَسَب المناسَبَةِ الدَّاعِيَةِ في السُّورة.

وقد ظهر لي من النصوص الموجزَة جدًّا والّتي فيها ذكر عَادٍ ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ الْفَجْر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾:

﴿إِرَمَ﴾: اسم بلاد «عاد» وهو في الأصل اسم جَدّ عَادَ.

﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: في هذه العبارة دَلالَةٌ على أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ مَسَاكِنَهُمْ عَلَىٰ أَعْمِدَة، ولم يَكْشِفِ الآثارِيُّون حَتَّىٰ الآن المطْمُور بالرِّمال من أَرْضِهِمْ.

(٢) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) في الحديث عن اللهِ، وقُدْرَتِهِ وَجزائه:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١﴾:

﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: قَوْمَ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلام، وأمَّا عَادٌ الثَّانِية فالغالِبُ أَنَّهُمْ «ثمودٌ» لِأَنَّهُمْ مِنْ سُلَالَةِ عاد أيضاً.

(٣) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عَنْ مُشْرِكي قُرَيش:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝١٢ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ۝١٣ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ۝١٤﴾:

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي: فتحَقَّقَ في الواقِع التَّطْبِيقِي وَعِيدِي الَّذِي كُنْتُ أَوْعَدْتُهُمْ إيَّاه، فَكَانُوا بِهِ مِنَ المعذَّبِينَ المهْلَكِينَ.

(٤) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (صٓ/٣٨ مصحف/٣٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فَتَحَقَّقَ في الواقِعِ التطبيقي عِقَابِي لهؤلاء الْمُجْرِمِينَ.

(٥) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الْفُرْقَان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) في مَعْرِضِ إنْذارِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ بِعِقَابٍ مُمَاثِلٍ لِلْعِقَاب الَّذِي أَنْزَلَهُ اللهُ بِكُفَّارِ الْقُرُونِ السَّابِقَةَ:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾:

أي: وَكُلَّ قَوْم مِنْ هَـٰؤُلَاءِ الأقوام وَصَفْنَا لَهُ أحْوَالَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي أهْلَكْنَاهَا، لِيَتَّعِظَ بها وَيَعْتَبِر، وَكُلًّا مِنْهُمْ أهْلَكْنَاهُ إهْلاكاً فيه تَحْطِيمٌ وَتَفْتِيتٌ وإِهْلَاك.

(٦) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (إبْرَاهِيمَ/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) فِي مَعْرِض مُعَالَجَةِ كُفَّارِ مَكَّة بالخطاب المباشر:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾:

أي: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبأُ إِهْلَاكِ الأقْوام السَّابِقَةِ، الَّذِين لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعَوَاتِ رُسُل رَبِّهِمْ، بل أسْكَتُوهم رَادّين أيْدِيَهُمْ الَّتِي يُشيرُونَ بها عِنْدَ الحديث، وَجَاعِلِينَهَا في أفواهِهِم.

(٧) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في مَعْرِضِ بَيَانِ إهْلَاكِ عَدَدِ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَة خطاباً للكافرين:

﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وَكَانُوا عَالِمِينَ بالْحقِّ وَمُدْرِكِينَ لَهُ، لَكِنَّهُمْ كَانُوا رَافِضِينَ اتِّبَاعَ الْحَقِّ جُحُوداً.

(٨) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) مُبيِّناً سُنَّتَهُ الحكيمَة فِي إمْهَالِ الكافرين، ومُخَاطِباً رَسُولَهُ ﷺ:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: فَكَيْفَ كَانَ إنكارِي، الّذي نَتجَ عَنْهُ عِقَابِي وانتقامي، بَعْدَ أَنْ أَمْهَلْتُهُمْ إمْهَالاً طويلاً.

(٩) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) يُنْذِرُ المنافِقِينَ بِعِقَابٍ مُمَاثِلٍ لِعِقَاب المهْلَكِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الكافِرِين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

المؤتفكات: أي: الْمُنْقَلِبات، وهي قُرَىٰ قَوْمِ «لُوط» عَلَيْهِ السَّلام.

وجَّهَ اللهُ في هذا النَّصِّ تَحْذِيراً خَاصّاً بالمنافِقِينَ وإنْ كانُوا دَاخِلِينَ في عُمُومِ الْكَافِرِينَ، لِكَيْلَا يَتَوَهَّمُوا أَنَّهُمْ بِنفاقِهِمْ يَنْجُونَ مِنْ عِقَابِ اللهِ المعَجَّلِ في الدُّنيا.

الفصل السَّادس

تحْذِير الرُّسُلِ أَوْ بَعْضِ المؤمِنِينَ أقْوَامَهُمْ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِثْلُ مَا نَزَلَ بالمهْلَكِينَ السَّابقين

(١) كَانَ لَدَىٰ أَهْلِ مَدْيَنَ عِلْمٌ بِإِهْلَاكِ كُفَّارِ قوم نُوحٍ، وقوم هود، وقوم صالحٍ، وقَوْمِ لُوطٍ، فقالَ لَهُم رَسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَام، مَا أَبَانَهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بِقَوْلِهِ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

أي: وَلَا يَحمِلَنَّكُمْ خِلَافُكُمْ وَعِدَاؤُكُمْ لِي على الإصْرَارِ عَلَىٰ الباطِلِ الَّذِي تُؤْمِنُونَ بِهِ، والإصْرَارِ عَلَىٰ الجرائِمِ الَّتِي تَرْتَكِبُونَها، فهذا الإصرار سَيُسَبِّبُ لَكُمْ اسْتِحقَاقَ الإهْلَاكِ الشَّامِلِ، الَّذِي اسْتَحقَّتْهُ الأقْوَامُ الْمُهْلَكَةُ مِنْ قبلكم، فَيُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ، أو قَوْمَ هُودٍ، أو قَوْمَ صَالِحٍ، أو قَوْمَ لُوطٍ، فأحداث إهْلَاكِ قومِ لُوطٍ قَرِيبٌ مِنْكُمْ زَمَاناً وَمَكَاناً.

(٢) وَكَانَ لَدَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَآلِهِ عِلْمٌ بإهْلَاكِ قَوْمِ نُوحٍ وعَادٍ وثمودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدهِمْ، فَنَصَحَهُمْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَحَذَّرَهُمْ مِنْ أَنْ تَنْزِلَ بِهِمْ سُنَّةُ اللهِ بالمُجرمين، فَقَالَ لَهُمْ مَا أبانَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾:

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ...﴾: أي: مِثْلَ سُنَّةِ اللهِ الَّتِي جَرَتْ في قوم نوحٍ وعَادٍ وثمودَ والَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم، إذْ أَهْلَكَ اللهُ هؤلَاء الأحْزَابَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ

وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، عِقَاباً لَهُمْ بالْعَدْلِ، ومِنْ صِفَةِ اللهِ الدَّائِمَةِ أَنَّهُ لَا يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبَاد، بَلْ يَجْزِيهِمْ بِحَسَبِ أعْمَالِهِمْ، فَلَا يَظْلِمُ أحداً مثقالَ ذَرَّة.

(٣) وَكَانَ لَدَىٰ كُفَّارِ قُرَيْشٍ وَسائِرِ الْعَرَب عِلْمٌ بإهْلَاكِ اللهِ كُفَّارَ الْقُرُونِ الْأُولى الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ، فَعَلَّمَ اللهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَ لِقَوْمِهِ، مَا جاء بَيَانُهُ فِي سُورَة (فصلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) فقال اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيها لرسُولِهِ ﷺ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾: المرادُ بالصَّاعِقَةِ الْعَذَابُ المهْلِكُ، الَّذِي يَصْعَقُ بِهِ (أي: يَمُوتُ) مَنْ يَنْزِلُ عَلَيْهِ.

• ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: أي: مِنْ قَبْلِ وُجُودِهِمْ وهُمُ الرُّسُلُ الَّذِين جَاءُوا لِلْأَقْوَام قَبْلَهُمْ، ومِنْ بَعْدِ وُجُودِهِمْ وَهُمُ الرُّسُلُ الّذِينَ جَاءُوا إِلَيْهِمْ، فَهُودٌ ومَنْ جَاءَ قَبْلَهُ فِي عَادٍ قد جَاءُوا مِنْ بَعْدِ أَنْ صَارَ لِعَادٍ شأنٌ يُذْكَرُ بَيْنَ الْأَقْوَام، فَهُمْ جَاءُوا مِنْ خَلْفِهِمْ وَعَاشُوا فِيهم وأنْذَرُوهُمْ، وكذلك ثمود.

• ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾: أي: قَالُوا: لَوْ شَاءَ رَبُّنَا أَنْ يُرْسِلَ رُسُلاً إِلَيْنا لَأَنْزَلَ مَلَائكة، وبناءً عَلَىٰ هَـٰذِهِ التّعِلَّة الباطِلَةِ قَالُوا لِرُسُلِهِمْ: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾. وفي آخِرِ مَسِيرَةِ دَعْوَةِ رُسُلِهِمْ، أَنْزَلَ الله عَلَيهم عَذَاباً صَعِقُوا بِهِ فصارُوا هَلْكَىٰ بسَبَبِ كُفْرِهِمْ، وَتَكْذِيبهِمْ رُسُلَ رَبِّهِمْ، وإفسادهم في الأرض.

وبهذا تَمَّ الملحق الثاني من مَلاحِقِ سُورَة (هود) وفيه دِرَاسَةٌ تكامُلِيَّةٌ فِيها شيءٌ مِنَ التَّدَبُّر التحليلي.

والحمد للهِ على مَعُونَتِهِ وَمَدَدِهِ وتوفِيقِه وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

سورة يوسف

١٢ مصحف ٥٣ نـزول

الراجح أنها مكّيّة كُلُّها

وقيل إلّا الآيات من (١ ـ ٣) والآية (٧) فهي مَدَنية



(١)
نصُّ السّورة وما فيها من فَرْش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا

---

١ ـ • سكت أبو جعفر على الحروف الثلاثة من [الٓر] سكتة لطيفة بدُونِ تنفُّس.

٤ ـ • قرأ ابْنُ عامِرٍ، وأبو جَعْفر: [يَا أَبَتَ] بفتح التاء. وقرأها باقي القراء العشرة بكسْرِ التاء.

٤ ـ • قرأ أبو جعفر: [أَحَدَ عْشَرَ] بإسكان العين. وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة بفتح الْعَيْن.

٥ ـ • قرأ حفص: [يَا بُنَيَّ] بفتح ياء المتكلم. وقرِأها باقي القراء العشرة بالكَسْر: [يَا بُنَيِّ].

٧ ـ • قرأ ابن كثير: [ءَايَةٌ] بالإفراد. وقرأها الباقون بالجمع.

وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا

١٠ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[غيَابَات]** بالْجمع. وقرأها الباقون بالإفراد.

١٢ ـ • قرأ نافع، وأبو جَعْفَر: **[يَرْتَع ويَلْعَبْ]** من فعل: «ارتَعَىٰ» وبالياء. وقرأهما ابْنُ كثير: **[نَرْتَع ونَلْعَبْ]** من فعل «ارتَعَىٰ» وبالنون.
وقرأهما أبو عَمْرو، وابْنُ عامر: **[نَرْتَعْ ونَلْعَبْ]** من الرَّتْع، وبالنون.
وقَرَأها باقي القراء العشرة **[يَرْتَعْ ويَلْعَبْ]**. وبين هٰذِهِ القراءات تكامُلٌ في بيان أقوالهم.

١٣ ـ • قرأ نَافِعٌ: **[لَيُحْزِنُني]** مِنْ فِعْل: «أَحْزَنَهُ يُحْزِنُهُ».
وقرأها باقي القراء العشَرة: **[لَيَحْزُنُني]** من فعل: «حَزَنَهُ يَحْزُنُهُ».
حَزَنه وأَحْزَنَهُ وجهان عربيان.

١٣ و١٤ ـ • قَلَبَ همزة «الذئب» ياءً ورش، والسّوسي، والكسائي وأبو جَعْفر.
وخلف في اختياره. وحمزة في الوقف.
ونطقها الباقون بالهمزة.

١٥ ـ • قرأ نافع، وأبو جعفر: **[غيَابَاتِ]** بالجمع.
وقرأها باقي القراء العشرة: **[غَيَابَةِ]** بالإفراد.
ومؤدى القراءتين واحد.

يَشۡعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن مِّصۡرَ لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ

١٩ ـ • قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخلَف: [يَا بُشْرَىٰ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَا بُشْرَايَ] بإضافة ياء المتكلم المفتوحة.

٢٣ ـ • قرأ نافع، وابن ذكوان، وأبو جعفر: [هِيتَ لَكَ].

وقرأها هشام [هِئْتَ لَكَ]

وقرأها ابْن كثير: [هَيْتُ لَكَ].

وقرأها باقي القراء العشرة: [هَيْتَ لَكَ].

إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ

٢٣ ـ • قرأ نافع، وابنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [رَبِّيَ أَحْسَنَ] بفتح ياء المتكلّم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٢٤ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عَامِرٍ، ويَعْقُوبُ: [المخْلِصِينَ] بِكَسْرِ اللّام.
وقرأها باقي القراء العشرة: [المخْلَصِينَ] بفتح اللّام.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٢٩ ـ • قرأ أبو جعفر: [الْخَاطِينَ] وكذلِكَ حمزة في الوقف، وله التسهيل أيضاً.
وقرأها باقي القراء العشرة: [الْخَاطِئِينَ].

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ

---

٣١ ـ • قرأ أبو جَعْفر: [مُتَّكاً] بحذف الهمزة، وإبقاء التنوين.
وقرأها باقي القراء العشرة [مُتَّكأً] بإثبات الهمزة والتنوين.

٣١ ـ • قرأ أبو عمرو، وعاصم، وحمزة، ويعقوب: [وَقالَتِ اخرُجْ] بكَسْرِ التاء.
وقرأها باقي القراء العشرة: [وقَالَتُ اخرُجْ] بضم التاء.
وهما وجهان عربيّان.

٣١ ـ • قرأ أبو عمْرو في الوصْلِ [حَاشَىٰ لله] بإثبات الألف بعد الشين.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [حَاشَ لله] بحذف الألف بعد الشين وقفاً ووصلاً.

٣٣ ـ • قرأ يعقوب هنا خاصّة: [السَّجْنُ] بفتح السّين، مصْدر «سَجَنَ».
وقرأا باقي القراءُ العشرة: [السِّجْنُ] على أنه اسْمُ المكان الذي يُسْجَنُ فيه.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَرَانِي] بفتح ياء المتكلم من «إنّي» في الموضعين.
وقرأها باقي القراء العشرة بالإسكان.

٣٦ ـ • قرأ نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر بفتح ياء المتكلم من [أَرَانيَ أَعْصِرُ] و[أَرَانِيَ أَحْمِلُ]. وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسكان.

فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ

---

٣٦ ـ • أبْدَلَ الهمزة ألفاً مِنْ [راسِي] السوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها باقي القراء العشرة [رَأْسِي] بإثبات الهمزة.

٣٦ ـ • أبْدَلَ الهمزة ياء مِنْ [نَبِّينا] أبو جعفر، وقرأها الباقون: [نَبِّئْنا].

٣٧ ـ • قرأ ابْنُ ورْدان: [تُرْزَقَانِهِ إلاَّ] بِكَسْرِ الهاءِ من غيرِ صِلَة، والباقون بالكسر مع الصِّلَة.

٣٧ ـ • قرأ السُّوسِي، وأبو جَعْفَر: [نَبَّاتُكما] بإبدال الهمزة ألفاً، وكذلِكَ حمزة في الوقف.

وقرأها الباقون [نَبَّأْتُكمَا] بإثبات الهمزة ساكنة.

٣٧ ـ • فتح ياء المتكلّم من: [رَبِّيَ إنّي] نافع، وأبُو عَمْرو، وأبو جعفر.

وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

٣٨ ـ • فتح ياء المتكلّم من [آبائِيَ إبْراهِيمَ] نافِع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ إِن كُنتُمۡ لِلرُّءۡيَا تَعۡبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمٖۖ وَمَا نَحۡنُ بِتَأۡوِيلِ ٱلۡأَحۡلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ فَأَرۡسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ

---

٤١ ـ • أبدل الهمزة ألفاً من [رَاسِهِ] السّوسي، وأبو جعفر. وقرأها الباقون [رَأْسِهِ].

٤٣ ـ • فتح ياء المتكلم مِنْ [إِنِّيَ أَرَىٰ] نافع، وابْن كثير، وأبو عمْرو، وأبُو جعفر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٤٣ ـ • قرأ السُّوسي: [رُويَايَ] و[لِلرُّويَا] وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأهما أبو جعفر: [رُيَّايَ] و[لِلرُّيَّا].
وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [رُءْيَايَ] و[لِلرُّؤْيَا].

٤٥ ـ • قرأ نافع، وأبو جعْفر بِمَدِّ ألف «أنا» مِن [أَنَا أُنَبِّئُكُمْ].
وقرأها باقي القرّاء العَشَرَة بفَتْح النون دُون ألف.

٤٥ ـ • قرأ يعقوب بإثبات ياء المتكلّم وصْلاً ووقفاً مِنْ: [فَأَرْسِلُونِي]. وحَذَفها باقي القُرّاء العشَرَة.

٤٦ ـ • فتح ياء المتكلّم مِنْ [لَعِلِّيَ أَرْجِعُ] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عامِرٍ، وكبو جعفر، وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ

---

٤٧ ـ • قرأ السّوسي، وأبو جعفر: [دَاباً] بإبْدَالِ الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها حَفْصٌ: [دَأَباً] بإثبات الهمزة وفَتْحها.
وقرأها باقي القراء العشرة: [دَأْباً] بإثْبَاتِ الهمزة وإسكانها.

٤٩ ـ • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف [تَعْصِرُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأها الباقون بياء الغائبين: [يَعْصِرُونْ].

٥٠ ـ • قرأ ابْنُ كثير، والكِسائي، وخَلَفٌ في اختياره [فَسَلْهُ].
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [فاسْأَلْهُ].

٥١ ـ • قرأ أبو عَمْرو في الوَصْلُ: [حَاشَىٰ لله] بإثبات الألف بعد الشين.
وقرأها باقي القراء العشرة: [حَاشَ لله] بَحَذْفِ هذه الألف.

٥١ ـ • قرأ ورْشٌ، وابن ورْدان: [الْعَزيزلاَنَ] بنَقْلِ حركة الهمزة إلى اللّام مع حذف الهمزة.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [الْعَزِيزِ الآنَ].

٥٣ ـ • فتح ياء المتكلم من: [نَفْسِيَ إِنَّ] و[رَبِّيَ إِنَّ] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ

---

٥٦ ـ • قرأ ابن كثير: [حَيْثُ نَشَاءُ] بضمير المتكلم العظيم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [حَيْثُ يَشَاءُ]: أي: يوسُف عليه السلام.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنَىٰ المراد.

٥٩ ـ • قرأ نافع، وأبو جَعفر: [أَنِّيَ أُوفي] بفتح ياء المتكلم.
وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

٦٠ ـ • أثبت ياء المتكلّم في: [تقْرَبُوني] يَعْقُوب.
وَحذَفَها باقي القرّاء العشرة.

٦١ ـ • قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائِي، وخلف: [لِفِتْيَانِهِ].
وقرأها الباقون: [لِفِتْيَتِهِ]. والمؤدّى واحد.

مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى

---

٦٣ - • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: **[يَكْتَلْ]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَكْتَلْ]**.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٦٤ - • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلَف: **[حَافِظاً]**. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[حِفْظاً]**.

٦٦ - • قرأ ورْش: **[تُوتُونِ]** وكذلك حمزة في الوقف.
وقرأها دُوري أبي عمرو وصْلاً: **[تُؤْتُونِي]**.
وقرأها السُّوسي، وأبو جعفر وصلاً: **[تُوتُونِي]**.
وقرأها ابن كثير، ويعقوب في الوصل والوقف: **[تُؤْتُونِي]**.
وقرأها باقي القرّاء العشرة في الوْصل والوقف: **[تُؤْتُونِ]**.

نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى

٦٩ ـ • فتح ياء المتكلم منْ: [إِنِّيَ أَنَا] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر. وقرأها الباقون بالإسكان.

٦٩ ـ • أثبت نافع، وأبو جعفر ألف «أَنَا» ممدودةً من: [أَنَآ أخوك].
وحَذفَها باقِي القُرَّاء العشرة.

٧٠ ـ • قرأ ورش، وأبُو جعفر: [مُوَذِّنٌ] وكذلك حمزة في الوقف بإبدال الهمزة واواً.
وقرأها باقي القرّاء العشرة: [مُؤَذِّنٌ].

٧٦ ـ • قرأ يعقوب: [يَرْفَعُ درجاتٍ مَنْ يَشَاءُ]: وقرأها نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامر، وأبو جعفر: [تَرْفَعُ درجاتِ مَنْ نَشَاءُ] وقرأها باقي القرّاء العشرة: [نَرْفَعُ دَرجاتٍ مَنْ نَشاءُ].

عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّاۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ

٨٠ ـ • قرأ البزّي بخُلْفٍ عنه: [فَلَمَّا اسْتَايَسُوا] وقرأها باقي القراء العشرة: [فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا] وهو الوجه الثاني للبزّي.

٨٠ ـ • فتح ياء المتكلم مِنْ [لِيَ أَبِي] نافع، وأَبُو عَمْرو، وأبو جعفر وأسكنها باقي القراء العشرة.

٨٠ ـ • فتح ياء المتكلم مِنْ [أَبِيَ أَوْ] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

٨٢ ـ • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: [وَسَلِ الْقَرْيَةَ]. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [واسْأَلِ الْقَرْيَةَ].

ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن

٨٦ ـ • فَتح ياء المتكلّم من [وَحُزْنِيَ إِلَى اللهِ] نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وأبو جعفر.

وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٨٧ ـ • قرأ البزّي بخُلْفٍ عَنْه: [وَلا تَايَسُوا] و[لاَ يَايَسُ]. وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [وَلاَ تَيْأَسُوا] و[لاَ يَيْأَسُ]. وهو الوجه الثاني للبزّي.

٩٠ ـ • قرأ ابْنُ كثير، وأبو جعفر: [قالُوا إنَّكَ].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قَالُوا أإنَّكَ].

٩٠ ـ • قرأ قُنْبُل: [يَتَّقِي] في الوصل والوقف.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَتَّقِ].

كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ

٩٤ ـ • أثبت ياء المتكلم في: [لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِي] يعقوبُ في الوصل والوقف.
ولَمْ يُثْبِتْهَا باقِي القرّاء العشرة: فقالُوا: [لَوْلاَ أَنْ تُفَنِّدُونِ].

٩٦ ـ • فتح ياء المتكلم من: [إنّيَ أَعْلَمُ] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

٩٨ ـ • فتَحَ ياءَ المتكلم من: [ربِّيَ إِنَّهُ] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

١٠٠ ـ • قرأ ابْنُ عامر: [يَا أَبَتَ] وقرأها باقي القُرَّاء العشرة: [يَا أَبَتِ] بكَسْرِ التاء.

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم من: [بِيَ إِذْ] نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.
وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ

١٠٠ ـ • فتح ياء المتكلم من: [إِخْوَتِيَ إِنَّ] ورش وأبو جعفر.
وأَسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

١٠٨ ـ • فتح ياء المتكلم من: [سَبِيلِيَ أَدْعُو]: نافع، وأبو جعفر: وأَسْكَنَهَا باقي القراء العشرة.

١٠٩ ـ • قرأ حفص: [نُوحِيَ إِلَيْهِمْ].
وقرأها حَمْزَةُ، ويعقوب: [يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ] وقرأها باقي القراء العشرة: [يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ].

يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ».

١٠٩ - ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**أفَلا يَعْقِلُونَ**]؟
وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفَلا تَعْقِلُونَ**]؟.

١١٠ - ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابْنُ عامر، ويعقوب: [**قَدْ كُذِّبُوا**].
وقرأها الباقون: [**قَدْ كُذِبُوا**].

١١٠ - ● قرأ ابْنُ عامر، وعاصم، ويعقوب: [**فَنُجِّيَ**].
وقرأها باقي القراء العشرة: [**فَنُنْجِي**].

(٢)
موضوع سورة (يوسف)

تشتمل سورة (يُوسُف) على مقدمة تمهيديَّة تتعلَّقُ بالقرآن، وبما قَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيه مِن قَصَصٍ هو أحْسَنُ الْقَصَص، للدُّخُولِ إلى قِصَّةِ يُوسُف عليه السلام، الرائعةِ، مع أبيه يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإخْوَتِهِ مِنْ أبيهِ الَّذِينَ كادُوه ليتخَلَّصُوا مِنْه، ومَا جَرَىٰ له بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّىٰ صارَ ذَا الكَلِمَةِ الْأُولَىٰ بَعْدَ الْمَلِكِ في مِصْرَ، وكَيْفَ حَقَّقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رُؤْياهُ الَّتِي رآهَا في صِغرِه، وقَصَّها على أبيه، وطلب منه أَبُوهُ أَنْ لا يَقُصَّها على إخْوَتِه.

وتشتمل على خاتمه تُبَيِّنُ أنَّ إنزال هَـٰذِهِ الْقِصَّةِ على مُحَمَّدٍ ﷺ من

الشَّوَاهِد على نُبُوَّتِه ورِسَالَتِهِ للذين لم يسْتَجِيبوا بَعْدُ لَدَعْوَتِهِ مِن المشركين المعنيّين بالمعالجة، وفي هذه الخاتمة ما يلي:

(١) توجيهٌ للرسول ﷺ وللدُّعاة إلى اللهِ من أمَّتِهِ بشأن الدعوة إلى الله.

(٢) ومُتَابَعَةُ معالَجَةٍ للذّين لم يَسْتجيبوا بَعْدُ للدَّعْوَة.

(٣) وبشارَة للرَّسول ﷺ وللمؤمنين بأنَّ النَّصْرَ قَادِمٌ لَا محالَةَ، ولو نَفَدَت طاقَةُ الصَّبْرِ والانتظار.

(٤) وبيانٌ ختامي يَتَعَلَّقُ بما في القَصَصِ الَّتِي يَقُصُّها الله عَزَّ وجَلَّ في كتابه مِنْ عِبْرَةٍ يَعْتَبِرُ بها أولو الألباب.

(٥) وبيانٌ يتعلَّقُ بالقرآن وأنَّهُ مَا كان حَدِيثاً يُفْتَرىٰ عَلىٰ اللهِ جلَّ جلاله، أي: ما يستطيع أحَدٌ أَنْ يَفْتَرِيه، بَلْ هُو تصْدِيق الذي سبقه من كتُب وصُحُفٍ رَبَّانِيَّة، وتفصيل كلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بأصُولِ الدّينِ وكُلّيَّاتِهِ، وهُدىً ورَحْمَةٌ لِقَوْمٍ لَدَيْهِمْ الاستِعْدَادُ الْقَلْبِيُّ والنَّفْسِيُّ لأَنْ يُؤْمِنُوا، إذْ يُحِبُّونَ الْحَقَّ والْخَيْرَ والفضيلَةَ ومَا هُو الأحْسَنُ والأَكْمل، ويَحْرِصُونَ عَلَىٰ الالْتِزَامِ بما يُرْضِي اللهَ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ وإحْسَانه ـ وبما يَنالُونَ بِهِ الجزَاءَ الكَرِيمَ في جنَّاتِ النَّعِيم يَوْمَ الدّين.

فموضوع السورة متابَعَةُ معالجةِ الذين كفَرُوا بالرَّسُول وكذّبوا بالقرآن، وقصَّةُ يوسف على طولها من عناصِرِ هذه المعالجة، ومع هذه المعالجة توجيهات وتربيات للرسول وللمؤمنين.

(٣)
دُروس سورة (يوسف)

يَسْهلُ على المتدبّر أن يقسم سورة (يوسف) إلى ثلاثة دُروس:

الدَّرس الأول: الآيات من (١ ـ ٣).

وهو درسٌ يشتمل على مُقَدِّمَةٍ تمهيديّة للدُّخول إلىٰ ذكْرِ المختار عرضُهُ من قِصَّةِ يُوسُف عليه السَّلام، مُنْذُ صِباهُ حتَّىٰ بُلُوغِهِ مَنْزِلَةً سُلْطانِيَّةً في مِصْر، كانَ فيها صاحِبَ الكَلِمَةِ الأولَىٰ بَعْدَ الْمَلِك، وحتَّىٰ أواخِرِ حياتِه المجيَدةِ فيها.

الدَّرْسُ الثاني: الآيات من (٤ ـ ١٠١).

وهو يشْتَمِلُ على قِصَّةِ يوسُف مع أبيه يعقوبَ عليهما السلام، ومع إخوته الَّذِينَ كادُوه، ووصولِهِ إلى مِصْرَ غُلَاماً رقيقاً، إلى سائِرِ المختاراتِ لِلبَيَان ممَّا جَرَىٰ لَهُ في مصر، وحتَّىٰ أواخِرِ حياته.

وقد رأيْتُ تقسيم هذا الدَّرْس إلى (١٣) فَصْلاً:

الفصل الأول: الآيات من (٤ ـ ٦).

وهو فصل يَتَعَلَّقُ بالرُّؤيا الَّتِي رآها «يوسف» في صِغَرِه، وقَصَّهَا على أبيه «يعقوب» عليهما السلام.

الفصل الثاني: وهو الآيات من (٧ ـ ١٠).

وهو فصل يتضمّن بَيَانَ حَسَدِ إخْوَةِ يوسُفَ مِنْ أبيه له، وتآمُرُهُمْ عليه، للتخلّص مِنْهُ بقَتْلِهِ أو إبْعادِه.

الفصل الثالث: الآيات من (١١ ـ ١٤).

وهو فصل يتضمَّنُ طَلَبَ إخْوَتِهِ مِنْ أبيهِمْ أَنْ يُرْسَلَهُ مَعَهُمْ إلى المراعي، حَيْثُ يَرْعَوْنَ أنْعَامَهُمْ، لِيُنَفِّذُوا مَا اتَّفَقُوا عليه، وما جرى من حوارٍ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ أبيهم.

الفصل الرابع: الآيات من (١٥ ـ ١٨).

وهو فصل يتضمَّنُ موافقة يعقوبَ عليه السلام على طَلَبِ إخوته، وخُرُوجَهُمْ بِهِ، وإلقاءَهم إيَّاهُ في جُبٍّ يَقَعُ على طريقِ المسافِرِينَ إلى مصر،

وَعَوْدَتَهُمْ إلى أبيهم عِشَاءً يَبْكُونَ بُكاءً مصطنعاً، مُدَّعِين أَنَّ الذِّئب قَدْ أَكَلَه، وفَعَلُوا بِهَـٰذِهِ الأكْذُوبَة الشيْءَ الَّذي كانَ أبوهم يعقوبُ عليه السلام قد خافَهُ إذْ قال لهم: وأخافُ أَنْ يأْكُلَهُ الذِّئْبُ.

الفصل الخامس: الآيات من (١٩ ـ ٢١).

وهو فصل يتضَمَّنُ بيانَ التقاط بعض السَّيَّارَة المسافِرِينَ للغُلَامِ يوسف، إذْ رَكِبَ الدَّلْوَ الَّذِي أَرْسَلَهُ وارِدُهُمْ في الجبّ واسْتَخْرَجَهُ ثَقِيلاً، وفَرِحَ بِهِ الرَّكْبُ وأَخْفَوْه لِيَبِيعُوه عَبْداً رَقِيقاً في مِصْر، وباعوه بثَمَنٍ بخْسٍ، فأَنْزَلَهُ مَنِ اشتراه وكانَ ذَا مَكَانَةٍ إدَارِيَّة مَرْمُوقَة مَنْزِلاً كرِيماً.

الفصل السادس: الآيات من (٢٢ ـ ٢٩).

وهو فصل تَضَمَّنَ بيانَ بلُوغِ «يوسف» عليه السلام أشُدَّهُ، ومُرَاوِدَة امرأة العزيز لَهُ عَنْ نفسه، وما رافقها من أحداث.

الفصل السابع: الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

وهو فصل يتضمَّن بيانَ انتشارِ خَبَر مُرَاوَدَةِ امْرَأَةِ العزيز لَهُ بَيْنَ عِلْيَةِ نساء مِصر، والتَّشْنيع عليها في أحاديثهنّ، ومَا صَنَعَتْ لإسْكاتِ شَائِعَاتِهِنَّ، والحكْمِ عَلَيْهِ بالسِّجْنِ لسَتْرِ أمْرِها.

الفصل الثامن: الآيات من (٣٦ ـ ٤٢).

وفيه بيان أحداثٍ ذَاتِ شَأْنٍ جَرَتْ لَهُ في السِّجْن.

الفصل التاسع: الآيات من (٤٣ ـ ٤٩).

وفيه بيانُ حُلْم مَلِكِ مِصْرَ الَّذِي رآهُ في منامِهِ، وسُؤالُهُ المعَبّرِينَ عَنْ تَأْوِيلِهِ، وتذَكُّرُ الَّذِي يَسْقِي الْمَلِكَ الشّرَابَ أَنَّ يُوسُفَ في السِّجْن يُعَبّر الْأَحْلَام، وطَلَبُهُ من الْمَلِكِ أَنْ يَذْهَبَ إلَيْهِ لِيَسْتَفْتِيَه، وتعْبِيرُ يوسُف عليه السَّلام رُؤيَا الملك.

الفصل العاشر: الآيات من (٥٠ ـ ٥٧).

وهو فصلٌ يتَضَمَّنُ طَلَبَ الْمَلِكِ مِنْ رِجَالِهِ أَنْ يَأْتُوهُ بِيُوسُفَ مِنَ السِّجْن، لَكِنَّ يوسُفَ عليه السَّلام طَلَبَ إعادَةَ النظر في قضِيَّة سجْنِهِ لِرَدِّ اعتباره، ودَفْع كُلِّ تُهَمَةٍ عَنْهُ.

ويتضَمّن بيان استخلاصِ الملك يوسُفَ لنفسه وَجَعْلِهِ ذا وِلايَةٍ على خَزَائِنِ الأرض.

الفصل الحادي عشر: الآيات من (٥٨ ـ ٦٧).

وهو يتَضمَّنُ أحْدَاثاً بارِزَةً خِلَالَ سَنَوَاتِ الْجَدْب، ومنها مجيء أخْوَتِهِ من الشّام إلى مِصْرَ، لشِراء الحُبوب من الدَّوْلَةِ المصرِيّة، والأحْدَاثُ المرافقة، والمكيدَة الّتي كادَها يوسف عليْه السَّلام إذْ طَلَبَ من إخْوَتِهِ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ هُو، أنْ يَأْتُوه بأخٍ لهم من أبيهم، وهو شقِيقُهُ بَنْيامين، إذْ حَدَّثُوهُ عَنْهُ وَعَنْ أبيهم.

الفصل الثاني عشر: الآيات من (٦٨ ـ ٩٣).

وهو يَتَضَمَّنُ الأحْدَاث الَّتِي انْتَهَتْ بِكَشْفِ يُوسُفَ نَفْسَهُ لِأَخْوَتِهِ، وإِعْلَانَهُمْ أَنَّهُم كانوا خاطِئِينَ، وعَفْوَهُ عنهم، ودُعَاءَهُ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لهم.

الفصل الثالث عشر: الآيات من (٩٤ ـ ١٠١).

وهو يتضمن الأحْدَاثَ ذَاتَ الشَّأْنِ الّتِي انْتَهَتْ بإحْضَارِ أبيه وسَائِر أَهْلِهِ إلى مِصْرَ، وإسْكانِهِمْ فيها مُعَزَّزِينَ مُكَرَّمِين.

الدَّرْسُ الثالث: الآيات من (١٠٢ ـ ١١١) آخر السورة.

وهو دَرْسٌ يتضَمَّنَ الخاتِمَة للسُّورة، وفيها توجيهٌ وتربيَةٌ للرَّسُولِ ﷺ وأصحابه، ولا سيما الدُّعاة إلى اللهِ منهم.

وفيها مُتَابَعَةُ عِلَاجٍ للذّين لم يَسْتَجِيبُوا للرسُولِ ﷺ، ولم يَصِلُوا إلى

دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ مَعَهَا من الاسْتِجَابة لدعوة الحقِّ الرَّبَّانِية، الَّتِي كَلَّفَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَسُولَهُ والمؤهَّلِينَ مِنْ أُمَّتِهِ أَنْ يُبَلِّغُوها للنَّاس.

(٤)
التدبر التحليلي للدّرْس الأوّل مِنْ دُرُوس سورة (يوسف) وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال اللهُ عزّ وجلّ:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾:

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآياتِ تَمْهيدٌ للدُّخول إلى ذِكْرِ المختارِ عَرْضُهُ مِنْ قِصَّةِ «يوسف عليه السلام»، منْذُ صِباهِ، حَتَّىٰ بُلُوغِهِ مَنْزِلَةً سُلْطَانِيَّة في مِصْرَ، كَانَ فيها صاحِبَ الكَلِمَةِ الأولَىٰ بَعْدَ الملِك، وحتَّىٰ أواخِرِ حياتِهِ المجيدة.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾:

الخطابُ هنا مُوجَّهُ لِعُموم الْعَرب لِأَنَّهم أَهْلُ اللِّسَانِ العربي، رغبة في أنْ يَعْقِلُوهُ ويُبَلِّغوه.

• ﴿الٓر﴾ هذه من الحروف المقطَّعَة الَّتي بدأ الله عَزَّ وجَلَّ بها بعْضَ السُّور، وقد سَبَقَ بيانُ مَا يَكْفِي بِشَأْنِها في تَدَبُّرِ أول سورة (القلم/ ٤ نزول).

• ﴿. . . تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝١﴾: جاء في أول سورة (يونس/ ٥١ نزول): قول اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ فوَصَفَ كتابَهُ بأنَّهُ حَكِيمٌ، أي: مُحْكَم، والمحكَمُ هو الَّذي وُضِعَ فيهِ كُلُّ شيْءٍ في أفْضَلِ المواضِعِ وأحْسَنِهَا وأتْقَنِهَا مِنْهُ، واخْتِيرَ لَهُ أفْضَلُ الْأَشْيَاءِ وأتْقَنُهَا وأحْسَنُهَا مِنْ كُلِّ الْبَدَائِلِ الْقَابِلَةِ للاختيار.

وهُنَا في سُورَة (يوسف/ ٥٣ نزول) وصَفَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ كِتَابَهُ بأنَّهُ مُبينٌ، أي: هو واضِحُ الدَّلالَاتِ الَّتِي يُرَادُ إعْلَامُ المكلَّفين بها من فِعْلِ «أَبَانَ يُبِينُ» بمَعْنَىٰ وَضَحَ وظَهَر. ومُبينٌ أَيْضاً مِنْ فِعْلِ «أَبَانَ الشَّيْءَ» أي: أَوْضَحَهُ وَأَظْهَرَه، والمعْنَىٰ علَىٰ هَـٰذا: مُوضِحٌ مُظْهِرٌ بِبيَاناتِهِ المتكامِلَةِ المتَعَاضِدَة في النُّصُوصِ المختَلِفَة، مَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُبَيّنَهُ لعباده، وإنَّمَا يَسْتَبِينُهُ المؤهَّلُونَ لِلْبَحْثِ والاسْتِنْبَاطِ وتَتَبُّعِ الْمَعَارِفِ الدَّقِيقَةِ بِمُخْتَلِفِ وَسَائِلِ الْمَعْرِفَة.

وجاءت الإشارةُ إلى آيات القرآن باسم الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، للدَّلَالَةِ على ارْتِفاعِ مكانَتِها في بلاغَتِها، وفي المعانِي السَّامِيَة الَّتِي اشْتَمَلَتْ علَيْهَا دَلَالَاتُ جُمَلِها.

ويُرْجَعُ في باقي التَّدبُّرِ إلَىٰ مَا جاء في الآيَةِ الْأُولَىٰ مِنْ سُورَة (يُونس).

قول الله تعالَىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾:

يتحدَّثُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِضَمِيرِ المتَكلِّمِ العظِيم؛ لأنَّ القرآنَ بإعجازِه البيانيِّ، وبإعجازه في مضامِينِه، ودَلَالَاتِهِ، وحَقَائِقِهِ، وعُلومه، وهِدَايتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصْدُرَ إِلَّا مِنَ الرَّبِّ العظيم، فالملائِمُ لإعجازه أنْ يقول اللهُ عَزَّ

وجَلَّ بِشَأْنِهِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ والضمير المنصوبُ في: «أَنْزَلْنَاهُ» يَعُودُ على الْكِتَابِ في الآيَةِ الأولى.

﴿قُرْءَٰنًا﴾: أَصْل كلمة: «قُرْآن» مَصْدَرُ فعل: «قرأ» يُقَالُ لغة: «قَرَأَ الكِتَابَ، يَقْرَؤُه، قِرَاءَةً، وقُرْآناً» أي: تَتَبَّعَ كلمَاتِهِ نظراً ونَطَقَ بها.

وإذْ جَاءَ في الآيَةِ الأولىٰ ذِكْرُهُ بعُنوانِ «الكِتَاب» إشارَةً إِلَىٰ وُجُوبِ كِتَابَتِهِ وَتَدْوينِهِ، وهو مَا تَحَقَّقَ عَقِبَ إِنْزَالِ كُلِّ نَجْم مِنْه، كانَ من المناسِبِ بيانُ أَنَّهُ قُرْآنٌ يُقْرَأُ مِنَ المكْتُوبِ مِنْه، بتَتَبُّعِ كَلِمَاتِهِ نَظَراً والنُّطْقِ بها.

ونُصِبَ لفظ «قُرْآناً» علَىٰ أَنَّهُ «حَالٌ» فالمعْنَىٰ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ حَالَةَ كَوْنِهِ قُرْآناً، أي: يُكْتَبُ ويُقْرأُ المكْتُوبُ مِنه، وفي هذا التوجيه الرَّبَّانِيّ إِلْزَامٌ بِكِتَابَةِ كُلِّ مَا يَنْزِلُ مِنْ آيَاتِهِ، وجَعْلِهِ بَيْنَ النَّاسِ كِتَاباً مُحَرَّراً يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ، وَيَقْرَؤُونَه، مَحْمِيًّا من التَّحْرِيفِ والتغيير، بالزّيادة، أو النَّقْصِ، أو التَّبْدِيل.

﴿عَرَبِيًّا﴾: أي: وأنْزَلْنَاهُ عَرَبيًّا، فِي حُرُوفِهِ، وكَلِمَاتِهِ، وجُمَلِهِ، وتَرَاكِيبِهِ، وأَسَالِيب فُصَحَاءِ الْعَرب وبُلَغَائِهم، في الدَّلَالَةِ علىٰ مَا يَقْصِدُونَ الدَّلَالَةَ عَلَيْه من المعاني، بِصَرِيحِ العبارات، أَوْ كِنَايَاتِها، أَوْ تَشْبِيهاتها، أو حَقَائِقها وَمجازاتها، أو غَيْرِ ذَلِكَ من أساليب البيان لَدَىٰ فُصَحاءِ الْعَرَبِ وبُلَغَائهم.

والعَرَب هُمْ عُمُومُ أَهْل اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ، قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَ علىٰ حواضِرِهم الأَخْلَاطُ غَيْرُ الْعَرَبيّة، فَتُغَيِّرَ مِنْ لِسَانِ سُكَّانِها، اللِّسَانِ الْعَرَبِّي الْقُحِّ المَوْرُوثِ، الْخَالِي من الخليطِ الدَّخيل المغيِّر لجَوْهَرِه.

وقَدْ اخْتار اللهُ عَزَّ وجَلَّ اللِّسَانَ الْعَرَبِيّ، ليُنْزِلَ بِهِ خاتِمَةَ كُتُبِهِ للنّاسِ أجْمَعِين؛ لِأَنَّ لُغَةَ الْعَرب أفْصَحُ اللُّغَات، وأكْثَرُهَا بياناً لدَقَائِقِ المعاني الإنْسَانِيّة، وأَوْسَعُها مُفْرَدَاتٍ إِبَّانَ التَّنْزِيل؛ ولأَنَّ لِسَانَ خاتَمَ رُسُلِهِ للناس أَجْمَعِين هو اللِّسانُ الْعَرَبِيُّ الْقُحّ، ولأَنَّهُ أفْصَحُ النَّاسِ وأَبْلَغُهُمْ بَيَاناً، وأفْضَلُ خَلْقِ اللهِ أجْمَعِين.

قال ابن كثير في تفسيره: أُنْزِلَ أشْرَفُ الكُتُبِ، بأشْرَفِ اللُّغَاتِ، على أَشْرَفِ الرُّسُلِ، بِسِفَارَةِ أشْرَفِ الْمَلَائِكة، وكَانَ ذَلِكَ في أشْرَفِ بقاع الْأَرْضِ، وابْتُدِئَ إِنْزَالُهُ في أشْرَفِ شُهُورِ السَّنَةِ وهو رمضان.

أقول: وفي أشْرَفِ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيه، وهِي ليلَةُ القدر، فاخْتِيرَ لَهُ الكمالُ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ مَعَ كَمَالِهِ الذَّاتِيّ.

• ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أن تَعْقِلُوهُ أيُّهَا الْعَرَب، وتُبَلِّغُوهُ للنَّاس أجْمَعِين، إِذْ رِسَالَةُ هَـٰذا الدِّين رِسَالَةٌ عَامَّةٌ للنَّاسِ أَجْمَعِينَ.

«لعَلَّ» أصْلُ معْنَاهَا التَّرَجّي وهُو التَّوَقُّع، وهذا المعْنَىٰ لَا يَلِيقُ بالرَّبِّ الْعَلِيم بكُلِّ شيءٍ مَا كَانَ وَمَا هُوَ كائِنٌ ومَا سَيكُون، ولكِنْ يَلْزَمُ مِنْ تَوَقّعِ مَا هُوَ مَرْغُوبٌ فيه الرَّغْبَةُ فِيه، فَيُحْمَلُ لفْظُ «لَعَلَّ» علىٰ هذا.

فالْمَعْنَىٰ: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا رَاغِبينَ أَنْ تَعْقِلُوهُ فتُبَلِّغُوه للناس، فَعقْلُهُ وَتَبْلِيغُهُ ممَّا يُرْضِي رَبَّكُمْ عَنْكُمْ.

والمرادُ بعَقْلِهِ إمْسَاكُهُ حِفظاً في الذَّاكِرَة، وتَدَبُّرُ مَعَانِيهِ وعَقْلُها، والْعَمَلُ بأحْكَامِهِ الَّذِي يَتحقَّقُ بِعقْلِ أهْواءِ النفوس وشَهَوَاتِها ونزعَاتها بإرادةٍ قَوِيَّةٍ عَنْ مُخَالَفَةِ أوامِرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونواهيه.

قول الله تعالى:

• ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٣﴾:

يَتَحَدَّثُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بضمير المتكلّم العظيم؛ لِأَنّ مَا يَقُصُّهُ جَلَّ جَلالُهُ يَتَنَاسَبُ مع عَظَمَةِ رُبُوبِيَّتِهِ اخْتِياراً للمضْمُون، وبَلِيغِ الْبيانِ، وأسَالِيبِهِ الرائعة.

﴿نَقُصُّ﴾: تقولُ لغة: «قَصصْتُ الشَّيْءَ» إِذَا تَتَبَّعْتَ أثَرَهُ شَيْئاً فَشيئاً.

ويقال: «قَصَّ عَلَيْه الْخَبَرَ يَقُصُّهُ قَصّاً وقَصَصاً» أي: حَدَّثه بِهِ على وجْهِهِ، مُتَتَبِّعاً ما يَعْلَمُ مِنْ أجْزَائِهِ جُزْءاً فَجُزْءاً. و«الْقَصَصُ» بفَتْحِ القافِ مَصْدَرُ «قَصَّ» بمعنَىٰ تَتَبَّعَ أجْزاءَ الشَّيْءِ المقْصُوص. ومنهُ رِوَايَةُ الْخَبَرِ، وقد يأتي بمَعْنَىٰ الْخَبَرِ الْمَقْصُوصِ، وبمعنى الأثَر، مِنْ إطلاق المصْدَرِ عَلَىٰ اسْمِ المفْعُول.

أمَّا «القِصَصُ» بِكَسْرِ القَافِ فهي جمْعُ «الْقِصَّةِ» وهي الحكايَة التي تُرْوَىٰ بِتَتَبُّعِ الْحَاكِي مَا يَعْلَمُ مِنْ أجْزَائِها وتَفْصِلَاتِها.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾: أي: أحْسَنَ الْقَصِّ، بانْتِقَاءِ أَحْسَنِ الأَنْبَاءِ النَّافِعَةِ المفِيدَةِ ذَوَاتِ الْعِبَر، واخْتِيارِ أفْصَحِ وأبْلَغِ الْعَبَاراتِ، وأحْسَنِ وسَائِلِ البيانِ ذي التأثير في نُفُوسِ أُولى الأَلْبَاب.

﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾: أي: بَوَحْيِنَا إلَيْكَ هَـٰذا الْقُرآنَ «مَا» مَصْدَرِيَّة تُؤَوِّلُ مَا بَعْدَهَا بِمَصْدَر. «هَـٰذا الْقُرْآن» مَفْعُول به وبَيَانُه، لِفِعْل «أَوْحَيْنَا». يُقَالُ لُغة: «أوْحَىٰ فُلَانٌ إلَىٰ فُلَانٍ الْكَلَامَ» أي: أَلْقَاهُ إلَيْهِ.

و«الباء» في ﴿بِمَآ﴾ أَرَىٰ أنَّهَا ظَرْفِية بمعْنَىٰ «في» وهذا أَحَدُ معانِي «الباء» الجارّة.

فالْمَعْنَىٰ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ أَحْسَنَ الْقَصَصِ الّذِي نَنْتَقِي فيه أَنْفَعَ الأَنْبَاء، ونَخْتَارُ لَهُ أفْصَحَ وأَبْلَغَ الْبَيَانِ، وأحْسَنَ الوسائِلِ ذاتِ التَّأْثِير في نفوس المعْتَبِرينَ ذَوِي الألباب، الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فيَتَّبِعُونَ أحْسَنَهُ، ويَتَلَقَّوْنَ بَيَانَاتِ رَبِّهِم بِقَبُولٍ حَسَن.

وهَـٰذا الْقَصَصُ يأتي في ضِمْنِ وَحْينَا إلَيْكَ هَـٰذا الْقُرْآن، آناً فآناً بحَسَبِ نُجُوم التنزيل الَّتِي نُنَزِّلُها عَلَيْك، ومِنْهُ مَا سَنَقُصُّهُ عَلَيْكَ فِي هَـٰذِهِ السُّورَةِ مِنْ قِصَّةِ عَبْدِنَا يُوسُف.

• ﴿... وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣﴾:

أي: والْحَالُ قَدْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُوحِيَ إِلَيْكَ الْقُرْآنَ من الجاهِلِينَ، الَّذِينَ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِمَسَائِلِ الدِّينِ الَّتِي أَنْزَلْنَاها وَنُنْزِلُهَا في هَـٰذا القرآن، ولَا بالْقِصَصِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْها، ولَكِنَّ جَهْلَكَ جَهْلُ غَفْلَةٍ لَا جَهْلُ نُفُورٍ وابْتِعَادٍ عَنْ إدْرَاكِ المعارفِ الدِّينيَّة، وعِلْمٍ بِقِصَصِ السَّابقين، وهَـٰذا نَظِيرُ قَوْلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لَهُ فِي سورة (الضُّحى/ ١١ نزول): ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ أي: وَوَجَدَكَ جاهِلاً فَعَلَّمَكَ. وعُذْرُ الرَّسُولِ ﷺ أَنَّهُ أُمِّيٌّ مِنْ قَوْمٍ أُمِّيِّين.

الْغَفْلَةُ: هِي انْصِرَافُ الذِّهْنِ عَنِ الشَّيْءِ مَعَ وُجُودِهِ في مجالِ الإدْراكِ، أَوْ وُجُودِ أدِلَّتِهِ وإمْكانِ إدْرَاكِهِ، لَوْلَا وُجُودُ الصَّارِفِ.

«إنْ» في: ﴿وَإِن كُنتَ﴾ هي المخفَّفَةُ مِنَ الثقيلة، وتفيد تَوْكِيدَ الْجُمْلَة.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الدَّرْس الأول من دُروس السورة.

والحمْدُ للهِ على معونتِهِ ومَدَدِه وتوفيقه وفَتْحِهِ.



(٥)
التدبّر التحليلي للدَّرْسِ الثاني من دُروس سورة (يوسف) وهو الآيات من (٤ ـ ١٠١)

وفيه (١٣) فصلاً.

الفصل الأول
مِنْ قِصَّةِ يوسُف عليه السَّلام
الآيات من (٤ ـ ٦)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَـٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَـٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ

كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

القراءات:

(٤) • قرأ ابْنُ عامر، وأبو جعفر: [**يا أَبتَ**] بِفَتْح التاء، وقرأها باقِي الْقُرَّاءِ الْعَشَرَةِ: [**يَا أَبتِ**] بِكَسْرِ التاء، وهُمَا نُطْقَانِ عربيان.

(٤) • قرأ أبو جعفر: [**أَحَدَ عْشَرَ**] بإسْكَانِ العين، وقرأها بَاقي القرّاء الْعَشَرَة بِفَتْحِ الْعَيْن: [**أَحَدَ عَشَر**] إسْكانُ الْعَيْنِ مِنْ نُطْقِ بَعْضِ قَبَائِلِ العرب.

(٥) • قَرأ حفْصٌ عَنْ عَاصم: [**يَا بُنَيَّ**] بفتح الياء. وقرأها باقي القرّاء العشَرَة: [**يَا بُنَيِّ**] بِكَسْرِ الياء، فتح هَـٰذِهِ الياء في قراءة حَفْصٍ دليلٌ على أنّ المحذُوف بالتّصغير غير ياء المتكلم، وأصلها يا بُنَيِّيَ، والغرض من التصغير التحبُّب.

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ بَيَانُ ما يَتَعَلَّقُ مِنْ قِصَّةِ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، بالرُّؤيا الّتِي رآها في مَنَامِهِ وهو غُلَام، وذِكْرِها لِأَبِيهِ «يَعْقُوب» عَلَيْهِ السَّلام، ومَا أَوْصَاهُ بِهِ أَبُوه.

جاء عند الإسرائيليين في سفر التكوين أنَّ يعقوب (= إسرائيل) عليه السّلام خَطَبَ من خاله «لَابَان» ابْنَتَهُ الصُّغرىٰ «رَاحِيل» فوافق خالُهُ على أَنْ يَخْدُمَهُ سبْعَ سِنين صَدَاقاً لابنته، ففعل يعقوب، فزوَّجَهُ بِنْتَهُ الكُبْرَىٰ «لِيْئَة» ولم تكن مثل «راحيل» حُسْناً، فَدَخَلَ بها مَساءً وهو يظنُّهَا «راحيل» وفي الصباح اكتشف الحقيقة، فقال لخاله: ألم أَخْدِمْك سبع سنين مقابل أَنْ

تُزَوّجَنِي راحيل، لماذا خَدَعْتَنِي، فاعْتَذَرَ خالُهُ بأنَّه ليس من عادَتِهِمْ تَزْوِيج الصُّغرى قبل الكبرى، وقال له: أُعْطِيكَ «رَاحِيل» أيْضاً على أَنْ تخدُمني سبع سِنِينَ أخْرَىٰ، وأُدْخِلُكَ عليها بَعْدَ أسْبُوع، وأعطَىٰ «لابان» ابْنَتَهُ «لَيْئَة» جاريةً اسْمُها «زِلْفَة» وأعْطَىٰ ابْنَتَهُ الصُّغْرَىٰ «راحِيلَ» جارِيَةً اسْمُها «بِلْهَة» ودَبَّتِ الغيرَةُ بين الأخْتَيْن بسبب المواليدِ، فوهَبَتْ كُلٌّ مِنْهُمَا جارِيتَها لِزَوْجِها لِيُنجب مِنْها أولاداً، وكانَ قضاءُ اللهِ أَنْ يَتَأَخَّرَ إنجاب «رَاحيل» وبسبب ذلك وهبته جاريتها لِيُنْجِب مِنْها أولاداً.

أمَّا «لَيْئَة» فقد وهَبَهَا اللهُ من الأولاد من زَوْجها «يعقوب» ما يلي:

١ ـ رأُوبين ٢ ـ شِمْعُون ٣ ـ لَاوي ـ ٤ ـ يَهُوذا ٥ ـ يَسَّاكَرَ ٦ـ زَبُولُون ٧ ـ وولَدَت ابْنَةً سمَّتها: دِينَة.

وأمّا «بِلْهَة» جاريةُ «رَاحِيل» فقد وهبها اللهُ من يعقوب ولَدَيْن:

١ ـ دَان ٢ ـ نَفْتَالي.

وأمَّا «زِلْفَة» جارية «لَيْئَة» فقد وهبها الله من يعقوب ولَدَين:

١ ـ جاد ٢ ـ أَشِير.

وأما «رَاحِيل» فقد وهبها الله عزَّ وجَلَّ أخيراً ولَدَيْن، هما:

١ ـ يُوسُف، ومعناه يَزِيد ٢ ـ بَنْيَامِين.

فيوسُف عليه السَّلام هو الذكر الحادي عشر بحسب تَرْتيب الأولاد الذكور من «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام، وبعده «بَنْيَامِين» شقيقه من أبيه وأمّه، وكانا أصْغَر أولاد أبيهما.

ومجموع أولاد «يعقوب = إسرائيل» الذكور (١٢) ذكراً. سِتَّةٌ من «لَيْئَة» واثنان من «بِلْهَة» جارية «راحيل» الّتي وهبتها لزوجها. وابْنَان من

«زِلْفَة» جارية «لَيْئَة» الّتي وَهَبَتْها لزوجها. وأخيراً ابْنَانِ من «رَاحيل» الّتي تأخَّرَ إنجابُها كثيراً، أكبَرُهما «يوسف» علَيْهِ السَّلام.

أمَّا قِصَّةُ «يُوسف» عليه السّلام فالْمَرْجِعُ الصَّحِيحُ الْمُهَيْمِنُ فيها هو ما جاء في السُّورَة المسَمَّاةِ باسْمه.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى لرسوله فلكُلِّ متَلَقٍّ لكلام الله:

• ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾:

أي: تَلَقَّ وتَدَبَّرْ وَضَعْ في ذَاكِرَاتِكَ، للاسْتدعَاءِ عِنْدَ المناسَبَات الداعِيَاتِ، الْأَحْدَاثَ الَّتِي بَدَأَ أَوَّلُهَا إِذْ قَالَ يُوسُفُ وهُو غُلَامٌ لأبيه «يَعْقُوب = إِسْرَائيل» عليه السَّلام يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ في المنام حُلْماً، أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً مِنْ كَوَاكِب السَّمَاءِ والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ عَلَىٰ شَكْلِ سُجُودِ الْبَشَرِ لعظيم مِنْ عُظَمَاءِ النَّاسِ.

فَفَهِمَ الأَبُ النبيُّ الرَّسُولُ تَعْبِيرَ هَـٰذِهِ الرُّؤْيَا، إِذْ أَدْرَكَ أَنَّ ابْنَهُ يُوسُفَ سَيَكُونُ لَهُ بِتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ مَجْدٌ كَبِيرٌ، يَسْجُدُ لَهُ وهو فيه إِخْوَتُهُ الْأَحَدَ عَشَرَ وأبَواه، أو أَبُوهُ ومَنْ هِي بمَثَابَةِ أُمِّهِ.

﴿يَـٰٓأَبَتِ﴾ أو [يَا أَبَتِ] التّاء عوضٌ عَنْ ياء المتكلم عَلَىٰ ما ذَكَرَ النُّحاة، وهَـٰذِهِ تُكْسَر وتُفْتَح، ويَرَىٰ النُّحاةُ أَنَّها تَاءُ التَّأْنِيث.

وهذا الْإِجْرَاء خاص بكلمَتي «أب» و«أمّ» في النداء.

وأرَىٰ أنَّ هَـٰذِهِ التّاء يُرادُ بها الاستعطاف، إذْ يُؤْتَىٰ بها عوضاً عَنْ ياء المتكلّم.

﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾: يُرادُ بالكَوْكب النَّجْم، أي: أحَدَ عَشَرَ نجماً.

أمّا الكواكب عند علماء الفَلَك فهي توابع الشَّمْس المشابهةُ للأرض، والَّتِي تُنِيرُ بانْعكاسِ ضَوْءِ الشَّمْسِ عنها.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾: يظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السَّلام رأىٰ الكواكِبَ والشَّمْسَ والْقَمَرَ على صُوَرِ سَاجِدِينَ كسُجُودِ الْبَشَرِ، فجاء التعبيرُ بِصيغة جَمْعِ المذكر السَّالم، ومعلومٌ أَنَّ الْأَحْلَامَ لها مَفْهُومَاتُها الرَّمْزِيَّة فيما تُقَدِّمُهُ من صُوَر وأشْكَالٍ وصِفَاتٍ وأحْوالٍ وجَمْعِ المختلفاتِ والأَضْدّاد.

قول الله تعالىٰ حكاية لما قَالَ «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيه السلام لابنه:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾:

أي: قال يا ابْنِي الْحَبِيب لَا تَذْكُرْ رُؤْيَاكَ هَـٰذِهِ لإخْوتِكَ قَاصّاً لَهَا عَلَيْهِم، فَيُدَبِّرُوا في الخَفَاء كَيْداً يُسَدِّدُونَ بِهِ لَكَ سَهْمَ مُصِيبَةٍ للتَّخَلُّصِ مِنْك، فإنَّكَ إذا قَصَصْتَها عليهمْ فَهِمُوا مِنْها أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ سَيَرْفَعُ مَقَامَكَ، وسَيَجْعَلُ جَمِيعَ إخْوَتِكَ يَسْجُدُون خاضِعِينَ لَكَ مَعَ أَبِيكَ وَأُمِّكَ أو مَنْ هِيَ بِمَثَابَةِ أُمِّكَ، وهَـٰذا أمْرٌ يُثِيرُ حَسَدَهُمْ، فتَغْشَىٰ بَصَائِرُهُمْ بِدُخَانِ نَارِ الْغَضَبِ، فيُدَبِّرُونَ مِنْ كَبَائِرِ الإثْم مَا يَتَخَلَّصُونَ بِهِ مِنْك.

﴿لَا تَقْصُصْ﴾: أي: لَا تَذْكُرْ ولَا تُحَدِّث.

﴿رُءْيَاكَ﴾: أكثر مَا تُسْتَعْمَلُ «الرُّؤيا» لمَا يُرَىٰ في المنام من حُلْم.

الكيد: التدبير الخفيُّ أو الظّاهر، وفيه مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. يُقالُ لغةً: «كَادَ فُلانٌ فُلَاناً كَيْداً» أي: دَبَّرَ ضِدَّهُ أَمْراً يَسُوؤُه. ويُطْلَقُ الكيدُ على الحرْب ووسَائِلِه.

وضُمِّنَ فعل: «يَكِيدُ» معْنَىٰ فِعْلٍ يَتَعَدَّىٰ باللَّام مُلَائِمٍ لما يُنْزِلُ بالْمَكِيد

مُصِيبَةً، فَعُدِّي فعل «يَكِيدُ» تَعْدِيته، وممّا يُلَائِمُ هُنَا فِعْلُ «يُسَدِّدُ» فالمصيبَةُ في الكَيْدِ تُسَدَّدُ كما يُسَدَّدُ السَّهْمُ مِن قِبَلِ الرَّامِي لِيُصيبَ مَقْتلاً مِنْ مَقَاتِلِ الْمَكِيدِ.

[كيدا] أي: كيْداً شَدِيداً فيه مَكْرُوهٌ كَبِيرٌ لَكَ.

كان «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيْهِ السَّلام يَعْلَمُ ما في نُفُوسِ أَبْنائِهِ العشَرَة مِنْ حَسَدٍ شَدِيد لِأَخِيهم من أبيهم «يُوسُف» لأنَّ أبَاهُمْ يُحِبُّهُ حُبًّا شَدِيداً، ولأَنَّهُ أجْمَلُ مِنْهُمْ صُورَةً، فَقَدْ آتَاهُ اللهُ شَطْرَ الْحُسْن، فإذَا سَمِعُوا رُؤْيَاه وأدْرَكُوا تَعْبِيرَهَا تَوَقَّدَتْ نِيرانُ حَسَدِهم.

• ﴿... إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾:

أعْلَمَ «إسْرَائيلُ» عليه السلام ابْنَه «يُوسف» عليه السَّلام، بأنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي إلَىٰ مَغَامِزِ العِلَل في نَفْسِ الإِنْسَان، فيَضْغَطُ عليها لإثارَتِها وَتفجير ما فيها، لإيقاع العداوة بيْنَ النَّاس، والإفْسَادِ بيْنَهُمْ وَتَقْطِيعِ أَوْصَالِهِم، حَتَّىٰ يُوصِلَهُمْ إلى الْقَتْلِ، أو التقاتل، ولَوْ كانُوا إخْوَةً أشقاء. **والحسَدُ**: مِن أقوىٰ عواملِ الإفْسادِ بيْنَ الأَقْرَبِينَ.

وصحّ في الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ عند البخاري ومسلم وغيرهما، أنَّهُ قَال:

«إنَّ الشَّيْطَانَ لَيَجْرِي مِنَ ٱبْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّم».

ودَلَّتْ عبارة «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام هَٰذِهِ عَلَىٰ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أعْلَمَ بَنِي آدَمَ في الرِّسَالَاتِ السَّابِقَاتِ بعَدَاوة الشَّيْطَانِ لَهُمْ، وبأنَّ عداوَتَهُ مُبِينَةٌ ظَاهِرَةٌ مُنْذُ أخْرَجَ آدَمَ وَحَوَّاءَ مِن الجنَّةِ، إذْ جَعَلَهما بِوَسَاوِسِهِ وتَسْوِيلاتِهِ يَعْصِيَانِ رَبَّهمَا، فيَسْتَحِقَّانِ أَنْ يُهْبِطَهُما رَبُّهُما مِنَ الجنَّة إلىٰ الأَرْض:

«**الشَّيْطان**»: اسْم جنْسٍ يَقَعُ على كلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ مُتَمَرِّدٍ مُفْسِدٍ، من الجنِّ والإنْس، وإبليسُ إمَامُ الشَّياطين وَرَئيسُهُمْ.

قول الله تَعَالَىٰ مُتابعاً بَيَانَ مَا قَالَهُ «يعقوب = إسْرائيل» لابْنِهِ «يُوسُفَ» عَلَيْهما السّلام:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦﴾:

أرىٰ أَنَّ هَـٰذِهِ الآيَةَ مَعْطُوفَةٌ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ بَيْنَها وَبَيْنَ الآيَةِ السَّابقة لَهَا، وَهَـٰذا المطْوِيُّ يَتَعَلَّقُ بِتعبيرٍ للرُّؤيا بَشَّرَ به الأَبُ الرَّسُولُ ابْنَهُ، مَضْمُونُهُ، سيُعْطِيكَ اللهُ مَجْداً يا بُنَيَّ يَجْعلُكَ به ذا رِئَاسَةٍ عَظِيمَةٍ يَخْضَعُ لَكَ بِهَا النَّاسُ حَتَّىٰ إِخْوَتُكَ وأبُوكَ وأُمُّكَ أو مَنْ هِي بِمَثَابَةِ أُمِّكَ.

وعلَىٰ هَـٰذا المطْوِي جاء الْعَطْفُ بِعِبَارَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: وَكَذَلِكَ الَّذِي سَيَمُنُّ اللهُ بِهِ عَلَيْكَ سَيَمُنَّ عليك أيْضاً بما يلي:

﴿يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾: أي: يَصْطَفِيكَ فَيَجْعَلُكَ نَبِيًّا وَرَسُولاً، ومثلُ هذا الخبر وما يَلِيه في الآيَة، لا يُخْبِرُ بِهِ «يَعْقُوبُ = إسرائيلُ» عليه السَّلَامُ ما لَمْ يَكُنْ قَدْ أُوحِي بِهِ إِلَيْهِ حِينَئِذٍ أَوْ قَبْلَ ذَلِكَ.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾: أي: ويُعَلِّمُكَ بَعْضَ تَأْوِيلِ الْأَحْلَام. تأويلُ الأحلام هُوَ مَا تَؤُولُ إِلَيْهِ أي: ترجع إِلَيْه دَلَالَاتُها الرَّمْزِيَّةُ أو الصَّريحة أحْيَاناً، ممَّا كانَ، أَوْ هُوَ كائِنٌ، أَو سَيَكُون.

وجاء إطلاق لفظ: ﴿ٱلْأَحَادِيثِ﴾ عَلَىٰ «الأحْلَام» لأنَّ المرادَ الأحْلَامُ الَّتِي هِي مِنْ نَوْعِ الأَحَادِيثِ الرَّمْزِيَّةِ أو الصَّرِيحَة، الَّتِي تُلْقَى إِلَىٰ النَّفْسِ مِنْ عَالَم الْغَيْب، وقَدْ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ مَلَكٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُحَدِّثَ النَّفْسَ الَّتِي شَاءَ اللهُ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِهَا، وهَـٰذِهِ الأَحَادِيثُ الصَّادِقَةَ الَّتِي تَأْتِي بِهَا

الْأَحْلَامُ، شَوَاهِدُ مُتَكَرِّرَةٌ في الْبَشَرِ عَلَىٰ عِلْمِ اللهِ الشَّامِلِ لِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ المتَعَلِّقِ بأحْدَاثِ المسْتَقْبَلِ.

ويَذْكُرُ عُلَمَاءُ تَعْبِير الأحْلام أن اسْمَ الملَكِ المكلَّف أنْ يُلْقِي رُمُوزَ أحاديثِ الأحلام «صِدِّيقُون» واللهُ أعْلَم.

﴿... وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

أي: وَسَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ أَبِيكَ يَعْقُوبَ، بِهِبَاتِهِ مِنْ خَيْرَي الدُّنيا والْآخِرَة إتّماماً مِثْلَ إتْمَامِهِ نِعْمَتَهُ عَلَىٰ أبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إبْرَاهِيمَ وإسْحَاقَ، إذْ أَتَمَّ عَلَيْهِمَا نِعْمَتَهُ، فَوَهَبَهُما مِنْ خَيرِ الدُّنْيَا مَا أرْضَاهُمَا به، وقَضَىٰ بأنْ يَهَبَهُمَا مِنْ خَيْرِ الآخِرَةِ مَا يَجْعَلُهُمَا مِن أَهْلِ الرَّفِيقِ الْأَعْلَىٰ فِي جَنَّاتِ النَّعِيم.

وأَثْنَىٰ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بأَنَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، إشَارَةً إلى أنَّ هِبَاتِهِ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ يَقْتَضِيها عِلْمُهُ بِعِبَادِه، وتَقْتَضِيها حِكْمَتُهُ الَّتِي يَخْتَارُ بِهَا الجزَاءَ الْحَكِيم، ويَضَعُ بها كُلَّ شيءٍ في مَوْضِعِهِ الملائِمِ له.

﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَۚ﴾ هُمَا عطْفُ بَيَانٍ عَلَىٰ «أَبَوَيْكَ».

و«آل يَعْقُوبَ» هم الصَّالِحُونَ الْفُضَلاءُ مِنْ بَنِي إِسْرَائيل، لَا الَّذِينَ كانُوا فَاسِقِينَ كَفَرَةً فاسِدِين ومُفْسِدِينَ في الأرض، الَّذِينَ كَفَرُوا بِرُسُلِ رَبِّهم وكَذَّبُوا بآيَاته، ولا الَّذِينَ كانوا عُصَاةً مُسْرِفين فِي مَعَاصِيهم.

أنْواعُ الأحْلَام:

جاءَ في بيانات الرَّسُول ﷺ مَا يَدُلُّ على أنَّ الأحْلَامَ عِدّة أنواع، وقَدْ قَسَّمَها ابْنُ حَجر في الفتح إلى سَبْعَةِ أنواع.

النوع الأول: الرُّؤيا الحقُّ، وهي الّتِي تَكُونُ مِنَ اللهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ،

وجاءَ وَصْفُها في بَيان الرَّسُول ﷺ بأنَّهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً من النُّبُوَّة، وبأنَّها الرُّؤْيَا الصالِحَة، وَبأنَّها بُشْرَىٰ مِنَ اللهِ.

وهذه هِيَ الَّتِي سمَّاهَا يَعْقُوب عليه السَّلام «أَحاديثَ» كما سَبَقَ في تَدبُّر الآيَة (٦) وهي الّتِي لَهَا تَأْوِيلَاتٌ فِي عِلْمِ تَعْبِيرِ الرُّؤْيَا.

النَّوْعُ الثَّانِي: الرُّؤْيا الَّتِي يُحدِّثُ بِهَا الإنْسَانُ نَفْسَه، وهِيَ من نَوْعِ مَا يُسَمَّىٰ أحْلَامَ الْيَقَظَة، ولَكِنَّهَا تكُونُ فِي المنام.

النَّوْعُ الثالث: الرُّؤيا الَّتِي هِيَ حُلْمٌ، وفيها تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطان، وَتُنْذِرُ بِشَرّ، والسُّنَّةُ تُرْشِدُ الْمُسْلِمَ أنْ يَتَعَوَّذَ باللهِ مِنْ شَرِّها، ومِنْ شَرِّ الشَّيْطَان، إِذَا رَأَىٰ شيئاً مِنها، وأَنْ يَتْفُلَ ثَلاثاً عَنْ شِمَالِهِ، وَأَنْ لَا يُحَدِّث بِهَا أَحَداً.

النَّوْعُ الرَّابعُ: مَا يَهُمُّ بِهِ الإنْسَانُ فِي يَقَظَتِهِ، فَيَرَاهُ فِي مَنَامِه.

النوع الخامس: تَلاعُبٌ يَتَلَاعَبُهُ الشَّيْطَانُ بالْإنْسَان، وهُو لا دَلَالَة له، والسُّنَّةُ أَنْ لَا يُحدِّثَ الْمُسْلِمُ بِهَا أَحَداً.

النوع السَّادِس: رُؤيا مَا يَعْتَادُهُ الرَّائِي فِي الْيَقَظَة.

النوع السّابع: رُؤيا الأضغاث.

وأرَىٰ أَنّ بَعْضَ هَـٰذِهِ الْأَنواع الَّتِي ذَكَرَهَا ابْنُ حَجرٍ قَدْ تَتَداخل، فتكونُ أَقَلَّ مِنْ سَبْعَة.

أقول: وقَدْ عَرفَتِ الشُّعُوبُ كُلُّها الْقَدِيمَةُ والحديثَةُ الأحْلَامَ ومَا لِبَعْضِهَا مِنْ تَعْبِيراتٍ صادقات.

والرُّؤَىٰ الَّتِي تُنْبِىءُ عَنْ أُمُورٍ سَتَحْدُثُ، ثُمَّ تَقَعُ بَعْدَ ذَلِكَ، هِي بمَثَابَةِ بُرْهَانٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ سَابِقِ قَضَائِهِ وَقَدَرِه فِي عِبادِه، وعَلَىٰ شُمُولِ عِلْمِهِ، وهِيَ تَدُلُّ على أَنَّ عالَمَ الْغَيْب حَقِيقَة.

وقَدْ أثْبَتَ الْقُرْآنُ المجيد هَـٰذِهِ الرُّؤَىٰ فِي نُصُوصٍ مُتَعَدِّدَة، فَمَنْ أنْكَرَهَا فَهُوَ في حُكْمِ الإسْلَام كافِرٌ حَتْماً، لإنكاره ما هُو ثابتٌ بِيَقينٍ في كلامِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ.

وقَدْ رَوَىٰ البخاريّ في صحيحه، عَنْ عائشَةَ رَضي اللهُ عَنْها أَنَّهَا قالَت:

«أَوَّلُ مَا بُدِىءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ في النَّوْم، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ».

ممّا جَاءَ في السُّنَّة حول الرُؤَىٰ المنامِيّة:

(١) رَوَىٰ الْبُخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

«لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلَّا الْمُبَشِّرَات».

قالُوا: وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قال:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَة».

(٢) وروَىٰ الإمام مالِكٌ، عن عطاء بْنِ يَسَارٍ أَنَّ النبي ﷺ قَالَ جَوَاباً لِسُؤَالِهِمْ:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَىٰ لَهُ».

(٣) ورَوىٰ البخاري ومُسْلم عَنْ أبي قَتَادَة قال: قال رسول الله ﷺ:

«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، والْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فإذَا رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّث بِهِ إلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِذَا رَأَىٰ مَا يَكْرَهُ فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّهِا وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ، ولْيَتْفُلْ ثَلاثاً، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَداً، فإنَّهَا لَا تَضُرُّهُ».

(٤) وروى البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ يَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا المؤمِنِ، وَرُؤيا المؤمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّة، وَمَا كَانَ مِنَ النُّبُوَّةِ فإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ».

قال مُحَمَّدُ بن سِيرين: وأنَا أقُولُ: الرُّؤْيَا ثَلاثٌ: حَدِيثُ النَّفْس، وتَخْوِيف الشَّيْطان، وبُشْرَىٰ مِنَ الله، فَمَنْ رَأَىٰ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلَا يَقُصَّهُ على أَحَدٍ، ولْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ.

ويَتَرَجَّحُ لَدَيَّ وُجُودُ علاقَةٍ بين الْعَدَدِ (١/ ٤٦) جزءاً مِن النبوّة، الّذي ذَكَرَهُ الرَّسُولُ ﷺ فِي الحديث لِرُؤْيَا المؤمنِ، وبين عَدَد «كرُو مُوسُومات» الإنْسَانِ الّتي هي (٤٦) كما يُقَرِّرُ عُلَمَاءُ الْأَحْياء، وأنَّ الاسْتِعْدَادَ الَّذِي يَجْعَلُ الإنْسَانَ المؤمنَ مؤهَّلاً لاسْتِقْبَالِ الرُّؤْيَا الصالِحَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الله، هو مِنْ جِهَةِ «كُرُومُوسُوم» واحِدٍ مِنْ «كُرُومُوسُومَاته» الَّتِي هي (٤٦) أمَّا النبيُّ فاسْتِعْدَادُهُ الفِطْرِيُّ يَكُونُ مِنْ كُلِّ «كُرُومُوسُومَاتِه» أو مِنْ عَدَدٍ كثيرٍ مِنْها، واللهُ أعْلَم.

(٥) وروى مُسْلِمٌ عَنْ جَابر قال: جاء رَجُلٌ إلَىٰ النّبِي ﷺ فقال: رأَيْتُ في المنَام كَأَنَّ رَأْسِي قُطِعُ. قَالَ: فَضَحِكَ النبيُّ ﷺ فقال:

«إذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحِدِكُمْ فِي مَنَامِهِ فَلَا يُحَدِّثْ بِهِ النَّاسَ».

(٦) ورَوىٰ البخاريُّ عن ابْنِ عُمَر، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال: «مِنْ أَفْرَىٰ الْفِرَىٰ أَنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَيْنَيْهِ مَا لَمْ تَرَيَا».

أي: مِنْ أَكْذَبِ الكَذِب المفتَرَىٰ أَنْ يَدَّعِيَ الإنسانُ أَنَّهُ رَأَىٰ فِي مَنَامِهِ شَيْئاً، وهُوَ لَمْ يَرَ ذَلِكَ.

(٧) وروى الإمام أحْمَد عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَين، ولَنْ يَفْعَلَ».

وفي رواية عند أحْمَد: «عُذِّبَ حَتَّىٰ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ وَلَيْسَ عَاقِداً».

أي: كَانَ عَذَابُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يُكَلَّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، فإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ عُذِّبَ، وهُوَ لَنْ يَسْتَطِيعَ ذَلِكَ، والسَّبَبُ في ذَلِكَ أنَّ الْكَذِبَ في الرُّؤىٰ المنامِيَّة فِيه طَرَفٌ من الكذِب عَلَىٰ اللهِ.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّر الفصل الأول من قصة يوسف الدّرْس الثاني من دُرُوس السورة.

والحمْدُ للهِ على توفيقه ومَدَدِه ومَعُونَتِه وفتحه.



التدبر التحليلي للفصل الثاني مِنْ قصة يوسف
الآيات من (٧ ـ ١٠)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿لَقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

القراءات:

(٧) • قرأ ابْنُ كَثِير: [آيَةٌ] بالإفراد.

وقرأَها باقِي الْقُرَّاء العشرة: [آيَاتٌ] بالجمع.

فالْإِفْرَادُ هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ كَوْنِ كُلِّ قِصَّةِ يوسف عَلامَةً تَدُلُّ على أشْيَاءَ كَثِيرَة، والجَمْعُ هُوَ عَلَىٰ معْنَىٰ كَوْنِ قِصَّة يوسُفَ تَشْتَمِلُ عَلَىٰ آيَات هي عَلامَات تدلُّ على معارف يَسْتَفِيدُها المتدبّرون.

(١٠) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [غَيَابَاتِ] بالجمع. وقرأها باقي القراء العشرة بالإفراد، ومؤدّي القراءتين واحد.

تمهيد:

في هٰذا الْفَصْلِ مُقَدّمَةٌ تُبيِّنُ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِ قِصَّةِ يُوسفَ وإِنْزَالِ قُرآنٍ بها يُتلَىٰ، وهي في الآية (٧).

وفِيه بَيَانُ مُلْتَقى الْحَسَدِ الَّذِي اجْتَمَعَ عَلَيْه إخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ أبيه الْعَشَرَة، وتآمُرُهُمْ على التخلُّصِ مِنْهُ، إذْ رَأَوْا أنَّ أبَاهُمْ يُؤْثِرُهُ وأخَاهُ «بَنْيَامِينَ» بِالْحُبِّ الْأَكْبَرِ، وبِالْعَطْفِ الأَكْثَرِ، وتَوَهَّمُوا أنَّهُمْ إذَا تخلَّصُوا من يوسُفَ صَارَ حُبُّ أبِيهِمْ مُتَعَلِّقاً بِهِمْ، لَا يُنَازِعُهُمْ عَلَيْهِ يُوسُف، أمَّا شَقِيقُهُ «بنْيَامِين» فَقَدْ كان الأصْغَر، ولَمْ تكُنْ لَهُ عِنْدَ أبيه الحظوةُ العُظْمَىٰ الَّتِي هي ليُوسُفَ، بِحَسَبِ مَا كانُوا يَرَوْن، وإنْ كان يُفَضِّلُهُ علَيهم بالحبّ.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تعالى:

• ﴿۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾:

يُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ للمتَلَقِّينَ بعبارة ﴿لَقَدْ﴾ الَّتِي يَرَىٰ النحويّون أنَّ اللّام فيها جوابُ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ. و«قَدْ» للتحْقيق. ﴿كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ﴾: أي: مَوْجُودٌ في قصّتهم الّتي نحدّثك بها:

• ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾: أي: عَلامَاتٌ نَافِعَاتٌ مُفِيدَاتٌ لِطَالِبِي الْمَعْرِفَةِ بِوَسَائِلِها وَمِنْ مَظَانِّها. وذَلِكَ لِأَنَّ طَالِبَ المعْرِفَةِ لقضيَّةٍ مَا، إذْ هُوَ يَجْهَلُ حَقِيقَتَها أَوْ بَعْضَ صِفَاتِهَا يَسْأَلُ أَهْلَ الْعِلْمِ بِهَا، فإِنْ لَمْ يَجِدْ بَحث عَنْهَا فِي كِتَابٍ شَارِحٍ، فَهُو بمثَابَةِ سَائِلٍ لِلْعَالِمِ الَّذِي كَتَبَ الكِتَابَ، فإِنْ لَمْ تَكُنْ مُدَوَّنَةً فِي كِتَابٍ اسْتَخْدَمَ وَسَائِلَ الْمَعْرِفَةِ الكَوَاشِفَ، فَكَانَ بِمَثَابَةِ سَائِلٍ

لَهَا: هَلْ عِنْدكِ الجوابُ الحقُّ؟ ويَتَنَقَّلُ فِي الْوَسَائِلِ حَتَّىٰ يَصِلَ إلى الجواب الّذِي يُرْضِيه.

أمْثِلَة:

(١) الطبيبُ الْبَاحِثُ عَنِ الْعِلَّةِ فِي صَدْرِ المريضِ الَّذِي يُعَالِجُهُ، يَسْأَلُ جِهَازَ الْأَشِعَّةِ لِيُقَدِّمَ لَهُ صُورَةً كَاشِفَةً لحالَةِ صَدْرِهِ من الدَّاخل، فَتَدُلُّهُ الصُّورَةُ بِرُمُوزِها على الْعِلَّةِ في صَدْرِ المريض.

(٢) وكذلِكَ الْأَطباءُ يَسْأَلُونَ فاحِصِي دِمَاءِ المرضَىٰ، لِتُجيبَهُمُ الْكَوَاشِفُ المخْبَرِيَّةُ عَنِ الْخَلَلِ الْحَادِثِ فيها، بُغْيَةَ وَصْفِ الْعِلَاجِ الْمُلَائِمِ لِلْمَرَض.

(٣) ومُسْتَنْبِتُ الزُّروعِ في أَرْضٍ ما، يَسْأَلُ عَنْ طَرِيقِ تَحْلِيلِ التُّرْبَة، أو عَنْ طَرِيق تَجْرِبَةٍ صَغِيرَةٍ، هَلْ تُصْلُحُ هَـٰذِهِ الْأَرْض لِأَسْتَنْبِتَ فِيهَا هَـٰذا النَّوْعَ أو هَـٰذا الصِّنْفَ من الزُّروعِ أو مِنَ الْأَشْجَار، ويأْتِيهِ الْجَوَابُ بالْإثبات أو بالنَّفْي، والعاقلُ الرَّشِيدُ يَسْتَفِيدُ مِمَّا قَدَّمَ لَهُ التحليلُ أو قَدَّمَتْ لَهُ التّجْربَة مِنْ جوابٍ علىٰ سؤالِهِ الْعَمَلِي.

وكذلك أحوال كلّ الْبَاحِثِين عَنِ المعارف، إنَّهُم يَسْأَلُونَ أسْئِلَةً بِأَلْسِنَتِهِمْ، أَوْ أسْئِلَةً بأعمالهم عَنْ طَرِيقِ الوسَائِلِ الكَوْنِيَّة الكواشف أو عَنْ طَرِيقِ التجارِبِ الخاضِعَةِ للصَّوَابِ والْخَطأ، حَتَّىٰ يَصِلُوا إلى الجوابِ الصَّحِيح.

وبهذا نُدْرِكُ حِكْمَةَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي اخْتِيَارِ كلمة «السَّائِلِين».

فالمعنى: نُؤَكّد لَكَ أيُّهَا المتَلَقِّي لِآيَاتِ هَـٰذه السُورَةِ، أَنَّه يُوجَدُ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ الَّتِي نُحَدِّثُك بِها في هَـٰذِهِ السُّورَة، عَلَامَاتٌ دَالَّاتٌ عَلَىٰ مَعَارِفَ مُفِيدَةٍ لِلْمُتَدبِّرِينَ الباحِثِينَ عَنِ الْمَعْرِفَةِ، الّذين يَتَتَبَّعُونَ سَائِلِينَ

بألْسِنَتِهِمْ، أو بأعْمَالِهِمْ عَنْ طَرِيقِ الْوَسَائِلِ الْكَوْنِيَّةِ الكَوَاشِف، أو عَنْ طَرِيق التجارِبِ، بغْيَةَ الْوُصُولِ إلى الأَجْوبَةِ الصَّحِيحَةِ النَّافِعَةِ.

أي: فتلَقَّ، وتَدَبَّرْ، واعْلَمْ كثيراً مِنَ المعَارِفِ، وانْتَفِعْ بها.

قول اللهِ تعالى:

• ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾:

دَلَّت هَـٰذِهِ الآيَاتُ عَلَىٰ مُلْتَقَىٰ الْحَسَدِ التَّآمُرِيّ الكيديّ، الَّذي اجْتَمَعَ فيه إخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ أبيهِ الْعَشَرَةُ عَلَىٰ التخلُّصِ مِنْه، ومَا جَرَىٰ بَيْنَهُمْ مِنْ شَكْوىٰ وَتَفَاوُضٍ في الطَّرِيقَةِ الَّتِي يتخلَّصُونَ بها مِنْه، بالقتل، أَوْ بأنْ يَطْرَحُوهُ فِي أرْضٍ بَعِيدَةٍ مَهْجُورَةٍ، لَا يَسْتَطِيعُ وهو غَلامٌ أنْ يَهْتَدِيَ فِيها إلى الرُّجُوعِ إلى أبيه، وكَانَ اقْتِرَاحُ أكْثَرِهِمْ بُعْداً عَنِ ارْتِكَابِ جريمَةِ الْقَتْلِ، أَنْ يُلْقُوهُ فِي جُبٍّ تُدَلَّى فِيهِ دِلَاءُ القوافِلِ السَّيَّارَة، فَيَتَعَلَّقُ بواحِدٍ مِنْها، فَيَلْتَقِطُهُ أَصْحَابُها فَرِحِينَ بِهِ، ويَتّخُذونَهُ رَقِيقاً بحَسَب عَادَاتِ النَّاسِ حينئذٍ.

• فالشَّكْوَىٰ مِنْ أبيهم «يعقوب = إسرائيل» عليه السلام، دلَّ عليها قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايَةً لِمَقَالَتِهِمْ:

• ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾:

﴿وَأَخُوهُ﴾: أَيْ: وأَخوهُ الشَّقِيقُ «بَنْيَامِينُ» وأُمُّهُمَا «رَاحِيلُ» الَّتِي خَطَبَهَا يَعْقُوبُ مِنْ خاله «لَابَان» وَخَدَمَهُ سَبْعَ سِنِينَ لِيُدْخِلَهُ عليها زَوْجَةً لَهُ، فَخَدَعَهُ وأَدْخَلَهُ عَلَىٰ أخْتِهَا الكُبْرَىٰ «لَيْئَة». ثُمَّ وافَقَ عَلَىٰ تَزْويجه الصُّغْرَىٰ الَّتِي أَحَبَّها وَخَطَبَهَا، ووافق أن يُدْخله عليها بَعْدَ أسْبُوع، على أَنْ يَخْدُمَهُ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرَىٰ، كما سَبَقَ بيانه.

الْعُصْبَة: الجماعَةُ مِنَ الناس، وهو اسْمُ جَمْعٍ لَا واحِدَ لَهُ مِنْ لفظه. قالَ أكْثَرُ أَهْلِ اللُّغَة: تُطْلَقُ الْعُصْبَةُ على الجماعَةِ مِنْ عَشَرَةٍ إلَىٰ أَرْبَعِين. ورُوِيَ عن ابْن عبَّاسٍ أنّها مِنْ ثَلاثَةٍ إلى عَشَرَة، وإلى هذا ذَهَبَ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَة.

أي: كَيْفَ يُحِبُّ أَبُونَا أخَوَيْنَا الصَّغِيرَيْنِ أكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لَنَا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ عَشَرَة، ونَحْنُ أَهْلُ الكَسْبِ والْعَمَلِ والْحِمَايَةِ والْقُوَّة؟!

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: أي: إنَّ أَبَانَا لخَارِجٌ في هَـٰذا عَنْ صِراط الحقِّ والرُّشْدِ، ضَالٌّ عمَّا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عَدْلٍ بالحبِّ بَيْنَ الْأَوْلَادِ وَضلالُهُ مبينٌ واضح.

لقدْ أعْشَىٰ الحَسَدُ بَصائِرَهُمْ عَنْ إدْراك أَنَّ الْحُبَّ قَدَرٌ رَبَّانِيٌّ جَبْرِيٌّ، لَا يَمْلِكُ الإنْسَانُ بإرَادَتِهِ دَفْعَهُ وَلَا رَفْعَهُ، وأنّ الإنْسَانَ وَلَوْ كَانَ نَبِيًّا رَسُولاً لَا يُطْلَبُ مِنْهُ الْعَدْلُ فِي الحبّ.

ولِهَـٰذا قال الرَّسُولُ مُحَمَّدٌ ﷺ بالنِّسْبَةِ إلى زَوْجَاته:

«اللَّهُمَّ هَـٰذا قَسْمِي فيما أَمْلِكُ، فَلَا تُؤَاخِذْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِك» يَعْنِي الحبَّ وَتَعَلُّقَ الْقَلْب، فَقَدْ كانَتْ «عائِشَةُ» رضي الله عَنْها أحَبَّ إلَىٰ قَلْبِهِ مِنْ سَائِرِ زَوْجَاته.

جاء في عبارتهم توكيد الجملتين فيها:

فالجملة الأولى: جاء توكيدها بلام الابتداء والجملة الاسمية: ﴿لَيُوسُفُ﴾. والجملة الثانية جاء توكيدها بالمؤكّدات: «إنّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحْلَقة»: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

● والتفاوُضُ الكَيْدِيُّ في الطّرِيقَةِ الَّتِي يَتَخَلَّصُونَ بِهَا مِنْ يُوسُف قَدْ كَانَ أوَّلاً بِطَرْحِ احْتِمَالَيْن:

الاحْتمالُ الأول: أَنْ يَقْتُلُوه، ولَوْ كَانَ قَتْلُهُ مِنَ الكبائِرِ العظمَىٰ.

الاحْتِمَالُ الثاني: أَنْ يَطْرَحُوهُ فِي أَرْضٍ مَتَاهَةٍ لَا يَسْتَطِيعُ وهُو فِيها أَنْ يَهْتَدِي إلى الرُّجُوعِ إلى أَبِيه، وبهَـٰذا الطَّرْحِ إمَّا أنْ تَأْكُلَهُ الذِّئَابُ وإمَّا أَنْ يَسْتَرِقَّهُ بَعْضُ مَنْ يَظْفَرُ به.

• ﴿ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾: أي: اطْرَحُوهُ في أرضٍ، فلَفْظُ ﴿أَرْضًا﴾ منْصُوبٌ عَلَىٰ أنّهُ ظرْفُ مَكانٍ. ودَلَّ التنكير علَىٰ إرادةِ أَرْضٍ مَهْلَكَةٍ أو مَتَاهَةٍ يَضِلُّ فيها، فَلَا يَسْتَطيع الْعَوْدَةَ مِنْها إلَىٰ أبيه.

• ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾: أي: يَكُنْ مَكَانُ اتِّجَاهِ وجْهِ أَبِيكُمْ، الَّذِي فيه عَيْنَاهُ النَّاظِرَتَانِ، خالِياً مِنْ يُوسُفَ الَّذِي سَيْطَرَ حُبُّهُ عَلَىٰ قَلْبِه، فَلَا يَرَىٰ أَمَامَهُ غَيْرَكُمْ، فَتَحُلُّوا أَنْتُمْ مَحَلَّهُ.

• ﴿... وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾: أي: وَتَصِيرُوا مِنْ بَعْدِ ذَنْبِكُمُ الْعَظِيم قَوْماً صالِحِينَ بالاسْتِغفار، والتَّوْبَةِ، وفِعْلِ الصَّالِحَاتِ، يَغْفِرِ اللهُ ذَنْبَكُمْ، ويَقْبَلْ تَوْبَتَكُمْ.

«يَخْلُ» مجْزُومٌ بحذف حرف الْعِلَّة على أَنَّهُ جواب الطَّلَب ﴿وَتَكُونُوا۟﴾ مَعْطُوفٌ عليه بالجزْم أيضاً.

• **﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾**: **[في غياباتِ الْجُبِّ]** في القراءة الأخرىٰ.

• ﴿وَأَلْقُوهُ﴾: أيْ: وَاطْرَحُوهُ، أَوْ وضَعُوهُ. إلْقاءُ الشيء يأتي بمعنى طَرْحِهِ، وبِمَعْنَىٰ وضْعِهِ، وبمَعْنَىٰ قَذْفِهِ ورَمْيِه، لَكِنَّ اسْتِعْمَالَ حرف «في» بعبارة: ﴿فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يُشْعِرُ بأنَّ صاحِبَ الاقتراح من إخْوَتِهِ أرادَ إنْزَالَهُ بِرِفْقٍ، ووَضْعَهُ فِي أَسْفَلِ الْجُبِّ بمكانٍ صَالِحٍ يَتَمَكَّنُ وهو فِيه مِنْ رُكُوبِ دَلْوِ مَاءٍ يُنْزِلُهُ وَارِدٌ وَيَمْتَحُهُ فَيُخْرِجُهُ مِن الْبِئْر.

غَيَابَةُ الْجُبّ: أي: أَسْفَلُ مَكانٍ فِيهِ. وتُطْلَقُ الْغَيَابَةُ على كُلِّ شَيْءٍ غَابَ عَنِ الْبَصَر. **الْجُبُّ**: الْبِئْرُ الواسِعَةُ الَّتِي لَمْ تُطْوَ بِالْبِنَاءِ دَائِرَتُها.

ويَظْهَرُ أن «ال» فِي الْجب عَهْدِيَّة، إِذْ هي بِئْرٌ يَعْرِفُونَها، ويَنْزِلُون إِلَىٰ أَسْفَلِها بالحبال، وفي أَطْرَافِ الْمَاءِ الَّذِي فِيهَا مجالِسُ جَافَةٌ مِنْ عِدَّةِ جَوانب، وَعَلَيْهَا تُحْمَلُ قِرَاءَةُ **[غَيَابَاتِ]** ويُؤَكِّدُ هَـٰذا الْفَهْمَ قَوْلُهُ: ﴿**يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ**﴾.

الالْتِقَاط: أَخْذُ شيءٍ عُثِرَ عَلَيْهِ علَىٰ سَبِيلِ المصَادَفَةِ، دُونَ سَابِقِ تَوقُّعٍ، وقَدْ يَكُون ضائِعاً مِنْ أَصْحَابِهِ.

السَّيَّارَة: الْقَافِلَةُ الَّتِي تَسِيرُ مُسَافِرَةً مِنْ مكانٍ إلى مَكَانٍ آخَرَ، وهُمْ رُفْقَةٌ مُسَافِرُون ومَعَهُمْ دَوَابُّهُمْ وَزَادُهم.

ويَظْهَرُ أَنَّ الْغُلَامَ الضَّائِعَ الملْتَقَط قَدْ كَانَ يُسْتَرَقُّ، ويُبَاعُ عَبْداً.

● ﴿... إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ⁽١٠⁾﴾ أي: إِنْ كُنْتُم فَاعِلِينَ فِعْلاً ما، تُرِيدُونَ بِهِ التَّخَلُّصَ مِنه. وفي اسْتِعْمَالِ حَرْفِ «إنْ» إِشْعَارٌ مِنْهُ بأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلُوا شَيْئاً للتَّخلُّصِ مِنْ يُوسفَ وَيُرِيدُ مِنْهُم أَنْ يَسْتَبْعِدُوا هَـٰذَا الأَمْرِ عَنْ تَصوُّرَاتِهِمْ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ، وإِنَّمَا وَافَقوهُ على اقتراحِهِ بإِلْقَائِهِ فِي الْجُبّ المعْهُودِ لَهُمْ.

جاء في الإصحاح (٣٧) من سِفْر التكوين عِنْدَ الإِسْرَائِيليين، أَنَّ الَّذِي نَهَاهُمْ عَنْ قَتْلِهِ، واقْتَرَحَ عَلَيْهِمْ إِلْقَاءَهُ في الْجُبِّ هو أَخُوهُ الأَكْبَرُ «رَأُوبين» ولَكِنَّ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَهُمْ تَحْرِيفاً كثيراً.

وبهذا انتهىٰ تَدبُّر الفصل الثاني من قصة يوسف والحمد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفصل الثالث من قصة يوسف
الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

القراءات:

(١٢) ● قرأ نافع، وأبو جَعْفر: **[يَرْتَعِ وَيَلْعَبْ]** من فِعْل: «ارْتَعَىٰ» وبالياء في الفعلَيْن.

وقرأهُمَا ابْنُ كثير: **[نَرْتَعِ وَنَلْعَبْ]** من فِعْل: «ارْتَعَىٰ» وبالنُّونِ في الفِعْلَيْن.

وقرأَهُمَا أبُو عَمْرو، وابْنُ عامر: **[نَرْتَعْ وَنَلْعَبْ]** من «الرَّتْع» وبالنُّون في الفِعْلَيْن.

وقرأهُمَا باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ]** من «الرَّتْع» وبالياء في الفعلين.

وفي هذه القراءات تَفَنُّنٌ وتكامل. يُقال لغة: «ارْتَعَىٰ» أي: رَعَىٰ كَيْفَ يَشَاءُ في سعَة. ويقال: «رَتَعَتِ الْمَاشِيَةُ رَتْعاً» أي: رَعَتْ كَيْفَ شَاءَتْ في خِصْب وَسَعَةٍ. ويقال: «خَرَجْنَا نَرْتَعُ ونَلْعَبُ» أي: نَنْعَمُ وَنُحَرِّكُ أجْسَامَنَا باللَّعِبِ النّافِعِ رِيَاضَةً لها.

(١٣) ● قرأ نافِعٌ: **[لَيُحْزِنُنِي]** من فِعْل «أَحْزَنَه» وقرأها باقي القرّاء العشَرَة: **[لَيَحْزُنُنِي]** من فعل «حَزَنَهُ».

يُقَال لغة: «حَزَنَهُ الْأَمْرُ حُزْناً» ويُقَال: «أَحْزَنَهُ الْأَمْرُ إحْزَاناً» قال الْجَوْهَرِيّ: «حَزَنَهُ» لُغَةُ قُرَيش، و«أَحْزَنَهُ» لُغَةُ تميمٍ.

• وقَلَبَ همزة الذّئب ياءً وَرْشٌ، والسُّوسي، والكِسَائي، وأبُو جَعْفَر، وخلف في اختياره، وحمزة في الوقف، ونطَقَها الباقون بالهمزة.

تمهيد:

في هذه الآيات بَيَانُ مُطالَبَةِ إخْوَةِ يُوسُفَ أبَاهُمْ بأنْ يُرْسِلَ مَعَهُمْ يُوسُفَ إلَىٰ المرَاعِي إذْ كانُوا رُعَاةَ أغْنَام، مَعَ عِتَابِهِم لأبيهِمْ علىٰ أنَّهُ لَا يَأْمَنُهُمْ عَلَيْهِ وَهُمْ إخْوَتُهُ، وهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ وَحَافِظُون. وبَيَانُ مَا جَرَىٰ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أبِيهِمْ مِنْ حِوَارٍ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالَىٰ مبيّناً معْنَىٰ ما قالَهُ إخوة يوسف لأبيهم، ليأْذَنَ لَهُمْ بأنْ يأْخُذُوا مَعَهُمْ أخَاهُمْ يوسُفَ إلىٰ المراعي التي يُرعُونَ بها أغنامهم، وَغَرَضُهُمْ تَنْفِيذُ مَا دَبَّرُوا مِنْ كَيْدٍ للتَّخَلُّصِ مِنْه:

• ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾:

نَادَوْهُ بِنِدَاءِ الْبَعِيد: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ لإشْعَارِه بأنَّهُمْ عَاتِبُونَ عَلَيْه في ابْتِعَادِه عَنِ الثِّقَةِ بِهِمْ، إذْ لَا يَأْمَنُهُمْ على أخِيهِمْ يُوسُف، فَلَا يأذَنُ لَهُمْ بِأَنْ يُخْرِجُوهُ إلى المراعي مَعَهُم.

• ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾؟: أي: أيُّ عُذْرٍ أَوْ أَيُّ بَاعِثٍ كائنٌ لَكَ حَالَةَ كَوْنِكَ لَا تَأْمَنُنَا عَلىٰ يُوسُفَ، وَقَدْ طَلَبْنَا مِنْكَ أَنْ يَخْرُجَ مَعَنَا إلى المرَاعِي عِدَّة مَرَّات، وهذا يُفْهَمُ ذِهْناً مِنْ توجيه العتاب.

﴿تَأْمَ۫نَّا﴾ أصْلُها «تأْمَنَنا» أُدْغِمَتِ النُّونُ بالنّون فصارانا نُوناً مشَدَّدَة.

وفي ﴿تَأْمَنَّا﴾ عِدَّةُ قراءَاتٍ في الأَدَاءِ يَعْرِفُهَا عُلَمَاءُ القراءات.

يُقَالُ لُغَةً: «أمِنَ فُلَانٌ فُلَاناً عَلَىٰ كَذَا، يَأْمَنُهُ، أَمْناً، وأَمَاناً، وأَمَانَةً، وأَمَناً، وأَمَنَةً» أي وَثِقَ بِهِ، واطْمَأَنَّ إلَيْه.

• ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾: أي: وإنّا لَنُرِيدُ لَهُ الخيْرَ والنَّفْعَ، ولَا نُضْمِرُ لَهُ غِشًّا. **النُّصْحُ**: الْخُلُوصُ من الشَّوَائب. وقد جاء في هذه العبارة التوكيد بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة». وهم بهٰذا كاذِبُونَ مُخَادِعُون.

• ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾:

﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾: **الإرْسَالُ**: التوجيهُ لأداء مُهِمَّةٍ مَا بِتُؤَدَةٍ وتَرَفُّقٍ وَأَنَاةٍ وَتَعَقُّلٍ وحِكْمَة. **الْغَدُ**: الْيَوْمُ الَّذِي بَعْدَ يَوْمِكَ.

«مَعَنَا» أي: مُصَاحِباً لَنَا. «مَع» ظَرْفٌ يُفيدُ المصاحَبَةَ واجْتِمَاعَ شَيْئَيْنِ في مكانٍ واحدٍ أو زَمَانٍ واحد.

• ﴿يَرْتَعْ﴾: أي: يَتَّسِعْ في خِصْبِ المأكَلِ، مأخوذٌ من قَوْلِ الْعَرَب «رَتَعَ الإنْسَانُ أوِ الْبَعير» أي: أَكَلَ كَيْفَ شاءَ. وكُلُّ مخصِبٍ راتع.

• ﴿وَيَلْعَبْ﴾: أيْ: وَيُمَارِسْ رِيَاضَةً نَافِعَةً في المراعي والْهَوَاءِ الطَّلْقِ والْأَرْضِ الواسِعَة، فالْمُرادُ باللَّعِب هُنَا اللَّعِبُ النَّافِعُ المفيد، وهُوَ يَسُرُّ «يَعْقُوبَ» عَلَيْهِ السَّلام، ويَرَاهُ مَطْلُوباً مِنْ مَطالِب تَقْوِيَةِ الْأَجْسَاد ونَمَائِها وصِحَّتها.

• ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾: أيْ: وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ مِمَّا يُؤْذِيهِ وَيسُوؤه. **حِفْظُ الشيء**: يكونُ بحراسَتِه وصِيَانَتِهِ. وبأداءِ حُقُوقِهِ بأمَانَة، وبعَدَمِ الخيانةِ فيه، وبالمواظبَةِ على القيام بِرِعَايَتِه، وفِعْلِ مَا يَجِبُ فِعْلُه، وتَرْكِ مَا يَجِبُ تَرْكُهُ بالنسْبَةِ إلَيْه.

وهذه الجملةُ جاءَتْ مُؤَكَّدَةً كَسَابِقَتِها.

قول الله تَعالىٰ مَبَيّناً مَا أَجَابَ بِهِ «يعقوبُ» عَلَيه السلام أبناءَهُ العشرة:

• ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾:

أَبَانَ «يَعْقُوبُ» عَلَيه السَّلامُ لِأَبْنَائِهِ سَبَبَيْنِ كَانَا يَجْعَلَانِهِ لَا يَأْذَنُ بِخُرُوجِ يُوسُفَ مع إِخْوَتِهِ إِلَىٰ المراعِي.

السَّبَبُ الْأَوَّل: أَنَّهُ يَحْزُنُهُ مُسْتَقْبَلاً غِيابُهُ عَنْ نَاظِرَيْهِ، ولَوْ في نَهَارٍ واحِدٍ، لِشِدَّةِ تَعَلُّقِهِ به. ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾ ولَعَلَّهُ طَوَىٰ عَلَيْهِ السَّلامُ في بيان هَـٰذا السَّبَبِ، تَخوُّفَهُ مِنْ أَنْ يَكِيدُوه فَيَفْعَلُوا بِهِ مَكْرُوهاً، يَدْفَعُهُمْ إِلَيْهِ حَسَدُهُمْ لَه، ولَا سِيمَا إذا بلَغَهُمْ بوَسِيلَةٍ مَا حُلْمُهُ الّذِي رَآه الدَّالُّ عَلَىٰ مَا سَيَخُصُّهُ اللهُ بِهِ مِنْ مَجْدٍ عظيم يأتيه مُسْتَقْبلاً.

لام الابتداء في ﴿لَيَحْزُنُنِيٓ﴾ دَخَلَتْ عَلَىٰ فعل مُضَارع يُرادُ به المستَقْبَلُ، على خِلَافِ مَا يَرَىٰ النحاة مِنْ أَنَّها تجعَلُ المضارع خالصاً للحال، فيظهَرُ أنّها كذلِك في الغالب[1].

أَكَّدَ «يَعْقُوبُ عليه السلام» جُمْلَتَه بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحْلقة».

﴿أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ﴾: أي: ذَهَابُكُمْ به. «أَنْ» مَصْدَرِيَّة ناصِبَة.

السَّبَبُ الثَّاني: أَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْهِ الْهَلَاكَ مِنْ ذِئْبٍ يَفْتَرِسُهُ وهُمْ عَنْهُ

(١) وأَسْتَبْعِدُ أَن يكُون المعنى: إِنَّهُ لَيَحْزُنُني الآنَ شُعُورِي بأن تَذْهَبُوا به غداً، على مَذْهَبِ قَولِ الشاعِرِ الأَنْدَلُسِي:

كُـلَّـمَـا فَـكَّـرَ بـالْـبَـيْـنِ بَـكَـىٰ ... ويْـحَـهُ يَـبْـكِـي لِـمَـا لَـمْ يَـقَـعِ

غَافِلُونَ، مُنْشَغِلُونَ فِي أُمُورِهِمْ الْخَاصَّةِ بِهِم ﴿... وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾: أي: وأَخَافُ أَنْ تَغْفُلُوا عَنْهُ، إذْ تتْرُكُونَه عِنْدَ مَتَاعِكُمْ فَيأْتِيهِ الذِّئْبُ الضَّارِي الجائِعُ فَيفْتَرِسَهُ وَيأْكُله، إذْ يَجِدْهُ غُلاماً لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدَافِعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَعَلَّ أَمْكِنَةَ مَرَاعِيهم كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِذِئْبٍ ضَارٍ يَفْترسُ الْمَوَاشِي، وَقَدْ يَسْطُو عَلَىٰ بَعْضِ ضُعَفَاءِ النَّاسِ، وَقَدْ يَكُونُ هَٰذا هو السَّبَب في تَعْرِيفِ الذِّئْبِ بِأَدَاةِ التَّعْرِيفِ «ال» وبهذا الفهم تكُونُ «الْ» عَهْدِيَة، واللهُ أعْلم.

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً مَا رَدَّ بِهِ أَبْنَاؤُهُ على السَّبَبِ الثَّاني غَيْرَ عَابِئِينَ بالإجَابَةِ عَلَىٰ السَّبَبِ الأَوَّلِ إذْ هُوَ مُثِيرُ حَسَدِهِمْ:

﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾:

الْعُصْبَة: سَبَق بَيانُ مَعْنَاهَا اللُّغَوِي لَدَىٰ تَدبُّر الآية (٨).

اللّام في ﴿لَئِنْ﴾ واقِعَةٌ فِي جوابِ قَسَمٍ مَنْوي، وتُسَمَّىٰ الموطّئة لِلْقَسَم.

أي: نُقْسِمُ لَكَ يا أَبَانَا لَئِنْ أكَلَهُ الذِّئْبُ الَّذِي تَخَافُ مِنْهُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ عَشَرَةُ رِجَالٍ أَشِدَّاء إِنَّا حِينَئِذٍ لَخَاسِرُونَ.

﴿إِذًا﴾ يَرَىٰ النُّحَاةُ أَنَّها إذا افْتقَرَ ما قَبْلَهَا إلى مَا وَقَعَ بَعْدَهَا فَهِيَ لَغْوٌ، أي: مَزِيدَةٌ لمجرَّدِ التوكيد، كَقَوْلِ الشَّاعر:

وَمَا أَنَا بالسَّاعِي إلَىٰ أُمِّ عَاصِمٍ ... لِأَضْرِبَهَا إِنِّي إذاً لَجَهُولُ

والَّذِي أَراه أَنَّهَا بِمَعْنَىٰ حِينَئذٍ، وأَنَّ التنوينَ فيها تَنْوينُ الْعِوَضِ عَنْ جُمْلَةٍ بَعْدَهَا كما قالوا في نحو: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: حِينَ إِذْ بَلَغَتِ الرُّوحُ الْحُلْقُوم.

والتقدير هنا: إِنَّا حِينَ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ ونَحْنُ عُصْبَةٌ لَخَاسِرُونَ.

﴿لَّخَـٰسِرُونَ﴾: **الخاسِرُ**: يأتي في اللُّغَةِ بمَعْنَىٰ؛ المغْبُونِ في تجارَتِه الّذي نَقصَ مَالُه. وبمعْنَىٰ: الْهَالِك. وبِمَعْنَىٰ الضَّالّ. والْمَعْنَىٰ الملائِمُ هُنَا الضَّالُّون، أي: إنَّا نكُونُ حِينَئذٍ ضَالِّينَ بَعِيدِينَ عَنِ المنْهَجِ الْقَويم الَّذي يَسْلُكُهُ الْعُقَلاءُ الرَّاشِدُون مِنْ حِمَايَةِ الصّغار وحفظِهِم مِنْ كلّ ضُرٍّ وأذى.

أَكَّدُوا كلامَهُمْ بالْقَسَم وبَعْدَهُ بالمؤكِّداتِ: «إنَّ ـ وَالْجُملة الاسمية ـ واللَّام المزَحْلَقَة» لِيُشْعِرُوا أَبَاهُمْ بأَنَّهُمْ بَعِيدُونَ جِدًّا عَنْ إرَادَةِ التخَلُّصِ مِنْهُ، ليخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل الثالث مِنْ قِصَّة يوسف من الدّرْس الثاني من دُروس السورة.

والْحَمْدُ لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه، وفَتْحه.



التدبّر التحليلي للفصل الرابع من قصة يوسف
الآيات من (١٥ ـ ١٨)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

القراءات:

(١٥) • قرأ نَافِع، وأبو جعفر: [**غَيَابَاتِ**] بالْجمع. وقرأَهَا باقي القراء العشرة بالإفراد [**غَيَابَةِ**] بالإفراد. وقَدْ سبَق في تَدَبُّر الآية (١٠) بيانُ وَتَوجِيهُ هاتَينِ القراءتين.

تمهيد:

فِي هَـٰذِهِ الآيات بيانُ مَا يَدُلُّ على موافَقَةِ الأَبِ «يَعقُوبَ» عليه السَّلام، علىٰ أنْ يَذْهَبَ أبْنَاؤُهُ العَشَرَةُ بأخِيهِمْ يُوسُفَ مَعَهُمْ إلى المراعي لِيَرْتَعَ وَيَلْعَبَ كَمَا طَلَبُوا مُلِحِّين وعَاتبين.

وفيها بيانُ تَنْفِيذِ مَا دَبَّرُوهِ مِنْ إلقائِهِ فِي غَيَابَةِ الْجُبّ، وبَيَانُ الْحِيلَةِ والْفِرْيَةِ الَّتِي اصْطَنَعُوهُمَا لِأَبيهم، ومَا أَجَابَهُمْ به عَلَيْهِ السَّلام.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالى:

• ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وهُوَ غُلَامٌ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَذْهَبَ وَحْدَهُ إلى المراعي النائية[١]، وأَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَىٰ أَنْ يَعْمَلُوا بِرَأْيِ كَبِيرهم «رَأُوبِين» الَّذِي اقْتَرَحَهُ عَلَيْهِمْ سَابِقاً، وهُوَ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ كما سَبَقَ بيانُهُ في تَدبُّرِ الآيَةِ (١٠).

وجوابُ «لمَّا» الحينيَّةِ هَـٰذِهِ مَطْوِيٌّ مَحْذُوفٌ مِنَ اللَّفْظِ تَقْدِيرُهُ: نَفَّذُوا مَكِيدَتَهُمُ الَّتِي أَجْمَعُوا عَلَيْهَا وَهِيَ أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْبِئْرِ الَّتِي تَسْتَقِي مِنْها الْقَوَافِلُ السَّيَّارَةُ عَادَةً.

وأَوْحَىٰ اللهُ إلَيْهِ وَحْياً إلْهَامِيًّا فِي ذَلِكَ الْحِينِ، كَمَا أَوْحَىٰ إلَىٰ أمّ مُوسَى عليه السلام بأنْ تَضَعَهُ فِي التابُوتِ وتَقْذِفَهُ فِي الْيَم. ومَضْمُونُ هَـٰذا الْوَحْي إلىٰ يُوسُف أخذاً مِن صَرِيح اللَّفْظِ وَمِنَ المطْوِيَّاتِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا:

---

(١) حرَّف الإسرائيليّون في الإصحاح (٣٧) من سَفر التكوين في هذا، فزعَمُوا أَنَّ يعقوب هو الذي أُرْسَله وحْدَه وراءهم، وأنَّ عُمُره كان سَبْعَ عشرة سنة.

لَنُنْجِيَنَّك، ولَنُنْزِلَنَّكَ مَنْزِلاً كَرِيماً، ولَنَمُنَّنَ عَلَيْكَ بالْوُصُولِ إلى مَجْدٍ عَظِيم، ولَيَأْتِينَّ إلَيْكَ إخوَتُكَ خَاضِعِينَ، طَالِبِينَ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ وأَنْتَ فِي مَقَامٍ رَفِيع، ولَتُنَبِّئَنَّهُمْ بأمْرِهِمْ هَـٰذا الَّذِي فَعلُوهُ فِيكَ إذْ وَضَعُوكَ فِي الْجُبِّ لِيُبْعِدُوكَ عَنْ أبيكَ الَّذِي يُؤْثِرَكَ عَلَيْهِمْ بالْحُبّ، وهُمْ حِينَئِذٍ لَا يَشْعُرُونَ أَدْنَىٰ شُعُورٍ بأَنَّكَ أخُوهُمْ يُوسُف.

الشُّعُور بالشيء: الْعِلْمُ به ولَوْ مِنْ أَدْنَىٰ دَرَجَاتِ الإحساس به، وهو أوَّلُ مراحِلِ إدْرَاكه، ولعَلَّهُ مأخُوذٌ في اللُّغَة من الشَّيء يلامِسُ الشَّعَرَ، فَيُحِسُّ بِهِ الإنْسَانُ إحْسَاساً خَفِيفاً، ثُمَّ انْتَقَلَ تَوَسُّعاً إلى الإدْرَاكَاتِ الْفِكْرِيَّةِ الْأُولَىٰ الْخَفِيفَة.

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ . . .﴾:

الْعِشَاءُ: أوَّلُ ظلَامِ اللَّيْلِ، وفيه تَضْعُفُ رُؤيَةُ الأعْيُنِ للأشياء، وهو في الغالِبِ الْوَقْتُ الَّذِي يَكُونُ بَيْنَ المغْرِبِ والْعِشاء.

﴿يَبۡكُونَ﴾: أي: يَبْكُونَ بُكاءً كَذِباً لِيُخْفُوا بِهِ جَرِيمَتَهُمْ ضِدَّ أَخِيهِمْ يُوسف.

• ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾: أي: نَتَنَافَسُ في السِّبَاق. **الاسْتِبَاق**: يكُونُ في الْعَدْو علىٰ الأرجل، أو علَىٰ ظُهُورِ الخيل. ويكُونُ فِي رَمْي السِّهَام، وهو المسَمَّىٰ «التَّنَاضُل» يُقَال لغة: «انْتَضَلَ الْقَوْمُ، وتَنَاضَلُوا» أي: اسْتَبَقُوا في الرَّمْي. **الاسْتِبَاق**: كالتَّسَابُق يأتي بمعْنَىٰ المشاركة في المسابقة.

• ﴿عِندَ مَتَٰعِنَا﴾: أي: عِنْدَ طعَامِنَا وشرابنا وفُرُشِنَا وَأدَوَاتِنَا. **المتاعُ**: يُطْلَقُ على كلِّ هَـٰذِهِ الأشياء. وأصْلُهُ: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ بِهِ ويُرْغَبُ في اقتنائِهِ ومَصِيرُهُ الزَّوالُ والفناء.

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا﴾: أي: وما أنْتَ بمُؤْمِنٍ بِقَوْلِنا وَلَا بِمُصَدِّقٍ لنَا فِيهِ ﴿وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾.

• ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾: أي: وَجَاءُوا مُمَوِّهِينَ عَلَىٰ قَميصِهِ بِدَم كَذِبٍ، زَاعِمِينَ أَنَّ الدَّمَ الَّذِي على القَمِيصِ دَمُ يُوسُفَ الذي أَكَلَهُ الذِّئبُ.

جاء في الإصحاح (٣٧) من سفر التكوين: «أَنّ إِخْوَةَ يُوسُفَ خَلَعُوا عَنْهُ قَميصَهُ، الْقَمِيصَ الْمُلَوَّنَ الَّذي عَلَيْه» وجاء فيه: «أَنَّهُمْ أَخَذُوا قَمِيصَ يُوسُفَ، وذَبَحُوا تَيْساً مِنَ الْمِعْزَىٰ، وغَمَسُوا الْقَمِيصَ بالدَّم. وأَرْسَلُوا القميصَ المُلوَّنَ وأَحْضَرُوهُ إِلَىٰ أَبِيهِم. وقَالُوا وَجَدْنَا هذا. حَقِّقْ أَقَمِيصُ ابْنِكَ هَـٰذا أَمْ لَا؟».

وجاء عند المفسّرين أنَّ يَعْقُوبَ عليه السَّلامُ كَذَّبَ أَبْنَاءَهُ فِي ادِّعَائِهِمْ، وقَال لهم: مَتَىٰ كَانَ هَـٰذا الذِّئْبُ حَكِيماً يَأْكُلُ يُوسُفَ وَلَا يَخْرِقُ الْقَمِيصَ؟.

أي: انْكَشَفَ تَمْوِيهُهُم الكاذبُ، إذْ جَاءُوا بالْقَمِيصِ سَلِيماً مَغْمُوساً بِدَمِ تَيْسٍ ذَبَحُوه.

ووُصِفَ الدَّمُ بأَنَّهُ كَذِبٌ عَلَىٰ معْنىٰ جَعْلِ الكَذِبِ في الأَعْمَالِ كالْكَذِبِ في الأَقْوَال، فَعِنَاقُ الإنْسَانِ وتَقْبِيلُهُ مَنْ يُبْغِض، مِثْلُ قَوْلِهِ لَهُ: أَنَا أُحِبُّكَ، هَـٰذا كذِبٌ بالْقَوْل، والْعِنَاقُ والتَّقْبِيلُ كَذِبٌ بالْعَمَل، كُلٌّ مِنْهُمَا فيه ادّعَاءُ الحبّ، وكُلٌّ مِنْهُمَا مُخَالِفٌ للحَقِيقَةِ والْوَاقِعِ، فهَـٰذا كَذِبٌ وهَـٰذا كَذِب.

هَـٰذا الْفَهْمُ أَوْلَىٰ في نَظَري مِن تَأْوِيلِ الكَذِبِ بِأَنَّهُ مَكْذُوبٌ فيه، وأَوْلَىٰ مِنْ تَقدِيرِ اللُّغويين: بدَمٍ ذِي كَذِب.

ومِنْهُ مَا رُوِيَ أَنَّ النَّبيّ ﷺ قَالَ للّتِي جَعَلَتْ تُوهِمُ أَنَّهَا تَقْتُلُ الصِّبْيَانَ من رَأْسٍ بأَنامِلِهَا: هَـٰذا مِنْ كَذِبِ الأَنَامِلِ.

إنَّهُمْ بتَقْدِيم ثَوْب يوسُفَ لِأَبيهِمْ مَغْمُوساً بِدَمِ تَيْسٍ مِعْزَىٰ، يَدَّعُونَ ادِّعَاءً كاذِباً أَنَّهُ دَمُ يُوسُف، وهَـٰذا ادِّعاءٌ عَمَلِيٌّ كَذِب.

وأمَّا الْبُكَاءُ وَلَوْ كَانَ مَصْحُوباً بدُمُوعٍ فَهُوَ لَا يَدُلُّ على صِدْقِ الْحُزْن، لأنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ يَتَصَنَّعُونَ الْبُكَاءَ ويَتَبَاكَوْنَ وَهُمْ كاذِبُونَ مُخادِعُون، وبَعْضُهُمْ قَدْ يكُونُ قادِراً على أنْ تَفِيضَ دُمُوعُهُ تَصَنُّعاً.

المعنى: وَجَاءَ إِخْوةُ يُوسُفَ الْعَشَرَةُ عِنْدَ أَوَّلِ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ مَعَ غياب الشَّفَقِ الْأَحْمَرِ يَبْكُونَ بكَاءَ مُصْطَنَعاً، هُمْ كاذِبُونَ فِيه، وحِينَ سَأَلَهُمْ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ سَبَبِ بُكَائِهِم؟ قالُوا لَهُ صَارِخين: يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَتَنَافَسُ فِي رِيَاضَةِ السِّبَاقِ، وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا مَجْمَعِ طَعَامِنَا وَشَرَابِنَا وَفُرُشِنَا وَأَدوَاتِنَا، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الذِّئبُ فَقَتَلَهُ وَأَكَلَهُ، ومَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ بِنَا وَلَا مُصَدِّقٍ لَنَا، لِأَنَّكَ كُنْتَ تَشُكُّ فِينَا وتَخْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَّا، فَلا تأذَنُ لَنا بأَنْ نَأْخُذَهُ مَعَنا إِلَىٰ الْمَرَاعِي، حتَّىٰ أَلْحَحْنا عَلَيْكَ بِذَلِكَ، فَكَيْفَ تُصَدِّقُنا؟ إِنَّكَ لَا تُصَدِّقُ مَا نَقُولُ لَكَ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِين حَقًّا، فَلَا فَائِدَةَ مِنْ مُحَاوَلَتِنَا إِقْنَاعَكَ بِصِدْقِنَا، وَهَـٰذا قَمِيصُهُ مُلَطَّخٌ بِدَمِ الذِّئْبِ الَّذِي أكله، فَعَلَيْكَ أَنْ تَقْبَلَ هَـٰذا الواقِعَ، سَوَاءٌ أَصَدَّقْتَنَا أَمْ لَمْ تُصَدِّقْنَا.

قوْلُ الله تعالَىٰ حكايَةَ لمعْنَىٰ ما رَدَّ به يَعْقُوب عليه السَّلَامُ على أبنائه:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾:

• ﴿سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾: **التَّسويلُ**: التَّحْسِينُ والتَّزيين، والإغْراءُ والتَّسْهِيلُ، والإطْمَاعُ بالباطِل.

أَمْراً: أي: أمْراً كَيْدِيًّا كِدْتُمْ بِهِ أخَاكُمْ حَسَداً لَهُ، ولَمْ يُعْلِم اللهُ نَبِيَّهُ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام تَفْصِيلَ مَكِيدَتِهِمْ ابْتلاءً لَهُ بأحَبِّ النَّاسِ إلى قَلْبِه.

• ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾: أَيْ: فَأَمْرِي الَّذِي أَعْتَصِمُ بِهِ تُجاهَ مَكِيدَتِكُمْ، هُوَ صَبْرٌ جَمِيلٌ عَلَىٰ حُزْنِي الَّذِي لَا أُبْدِي فِيهِ تَضَجُّراً وَلَا جَزَعاً، وَلَا أَقُولُ فِيه إِلَّا مَا يُرْضِي رَبِّي.

• ﴿... وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾: أَي: واللهُ وَحْدَهُ الَّذِي أَسْأَلُهُ أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَا تَصِفُونَ في ادِّعَائِكُمْ أَكْلَ الذِّئبِ لولَدِي الحبيب، تَبْغُونَ إلقاءَ الْيَأْسِ في قَلْبِي مِنْ طَلَبِهِ والْبَحْثِ عَنْه.

المسْتَعانُ: أي: المطْلُوبُ مِنْهُ الْعَوْنَ.

مَا تَصِفُونَ: أي: مَا تَذْكُرُونَ مِنْ وَصْفِ الْحَدَثِ الَّذِي افْتَرَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ قَدْ صَنَعْتُمْ غَيْرَه.

المعنى: قَالَ يَعْقُوبُ: لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا وَصَفْتُمْ فيما زَعَمْتُمْ، بَلْ حَسَّنَتْ وزَيَّنَتْ وسَهَّلَتْ لكُمْ أَنْفُسُكُمُ الحاسِدَةُ لِأَخِيكُمْ أمراً آخَرَ غَيْرَ الَّذِي ذَكَرْتُمْ ووصَفْتُمْ، وهُو مَا كِدْتُمُوهُ أَخَاكُمْ يُوسُفَ، وَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَىٰ مَعْرِفَةِ الحقيقَةِ إِذَا لَمْ يُعْلِمْنِي اللهُ بها، وَلَا قُدْرَةَ لِي عَلَىٰ رَدِّ وَلَدِي الَّذِي أَحْزَنْتُمونِي بِمَا صَنَعْتُمْ بِهِ، فأَمْرِي الَّذِي أمْلِكُهُ صَبْرٌ جَمِيلٌ أعْتَصِمُ بِهِ تُجَاهُ مَكِيدَتِكُمْ، وهو صَبْرٌ لَا أُبْدِي فِيهِ جَزَعاً وَلَا تَضَجُّراً، لِأَنِّي أعْلَمُ أَنَّ اللهَ الرَّبَّ الحكيم ابْتَلانِي بِهِ، وأَسْأَلُ اللهُ وَحْدَهُ أَنْ يُعِينَنِي عَلَىٰ تَحَمُّلِ مَا تَصِفُونَ فِي حَدِيثِكُمُ المفترىٰ، بشأنِ وَلَدِي يُوسف.

وبهذا انتهى تَدَبر الفصل الرابع من قصَّة يوسف من الدرس الثاني من دُروس السورة.

والحمد لله عَلَىٰ معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❀ ❀ ❀

التدبّر التحليلي للفصل الخامس مِنْ قِصة يوسف
الآيات من (١٩ - ٢١)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

القراءات:

(١٩) • قرأ عَاصِم، وحمْزَةُ، والكِسَائِيُّ، وخَلَف: **[يَا بُشْرَىٰ]**.

وقرأها بَاقِي الْقُرَّاء العشرة: **[يَا بُشْرَايَ]** بإضافة ياء المتكلِّمِ المفْتُوحَة.

وتُفِيدُ القراءتَانِ أَنَّ وَارِدَ الْقَافِلَةِ السَّيَّارَة قَالَ: يَا بُشْرَايَ، ثُمَّ لَمَّا خَاطَبَ رِجَالَ القافِلَةِ قَال: يَا بُشْرَىٰ، لأَنَّها بَشَارَةٌ لَهُ وَلَهُمْ معاً، ولَيْسَ الْغُلَامُ مِلْكاً لَهُ وَحْدَهُ، بَلْ هُو لِسَائِرِ رِجالِ القافِلة:

تمهيد:

اشْتَمَلَتْ هَـٰذِهِ الآيَاتُ الثَّلَاثُ على فَصْلِ الْتِقاطِ القَافِلَةِ لِيُوسُفَ مِنَ الْجُبِّ، وَبَيْعِهِ فِي مِصْرَ عَبْداً رَقِيقاً، وبيانِ مَا امْتَنَّ بِهِ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ تَكْرِيم مَكانِ إقامَته، والتَّمْكِينِ لَه، ومَنْحِهِ أَسْبَابَ تَعلُّمِهِ تَأْوِيلَ الأحْلامِ الصَّادِقَةِ الَّتِي هِي مِنْ قَبِيلِ الْأَحَادِيثِ والَّتِي هِي من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولَيْسَتْ أَضْغَاثَ أَحْلَام، ولَا هِيَ مِنْ قَبِيلِ أحاديث النَّفْسِ للنَّفْسِ، مَعَ تَعْلِيقٍ رَبَّانِيّ مُلَائِمٍ لِأَحْداثِ هَـٰذا الفصل.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾:

بدأ هَٰذا الْفَصْلُ بالعطف على الْفَصْل السَّابق من فُصُول قِصَّةِ يوسف عَلَيهِ السَّلام، وكانَ الْفَصْلُ السَّابِقُ قَدْ وصَفَ جَعْلَ إِخْوَتِهِ لَهُ فِي غَيابَةِ الْجُبّ، وعَودَتَهُمْ إلىٰ أبيهِمْ عَشَاءً مُتَبَاكِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّ الذِّئبَ الضَّارِيَ قَدْ أَكَلَه، ومَعَهُمْ حِيلَةٌ مُفْتَراةٌ وهِيَ تَلْطِيخُهُمْ قَمِيصَهُ المتميّز بدَمِ تَيْسِ مِعْزَىٰ ذَبَحُوه.

وهُنَا يَرِدُ سُؤَالٌ: فَمَاذا كَانَ مِنْ أمْرِ يُوسُفَ بَعْدَ ذَلِك؟ وجاء الْجَوَابُ في هذا الفصل.

• ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾: أي: وجَاءَتْ قَافِلَةٌ سَيَّارَةٌ عَلَىٰ الطَّرِيقِ الَّتِي يَقَعُ الْجُبُّ قَرِيباً مِنْها، ومِنْ عَادَةِ القوافِلِ أَنْ تَسْتَقِيَ من الماء الّذي هُوَ في قَعْرها، ولَيْسَ الْجُبُّ بَعِيداً عَنْ مَسَالِكَ الطُّرُقُ، بدليلِ قولِ أخيهِم صَاحِب اقتراح وضْعِهِ في الْجُبّ: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾.

• ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾: **الوارِدُ**: السَّابِقُ الّذي يَرِدُ الْمَاءَ لِيَسْتَقِيَ لِرِفَاقِهِ، أو جَمَاعَتِهِ، أَوْ أَهْلِهِ.

أي: وَجَاءَتْ قَافِلَةٌ سَيَّارَةٌ مُحْتَاجَةٌ لاسْتِقَاءِ الماءِ مِنَ الْجُبِّ، فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ لِيَسْتَقِيَ لهم مِنْ مَائها.

• ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥۖ﴾: أي: لِيَمْتَحَ بِهِ مَاءً مِنَ الْجُبّ. **الدَّلْو**: ظَرْفٌ يُرْبَطُ الرِّشَاءُ بِهِ لإِدْلَائِهِ فِي الْبِئْرِ واسْتِخْرَاجِ الماءِ به، ولَفْظُهُ مؤنَّث، وقَدْ يُذَكَّرُ.

• ﴿قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ **[يا بُشْرَايَ]** وقَدْ سبَقَ بَيَانُ التكامُلِ بيْن القراءَتَيْنِ.

أي: فَمَتَحَ دَلْوَهُ يَحْسَبُ أَنَّهُ قَدِ امْتَلأَ مَاءً، وإنْ كَانَتْ حُمولَتُهُ أَثْقَلَ مِمَّا يَحْتَوِي الدَّلْوُ مِنْ مَاء، فَلَمَّا رَأَىٰ يوسُفَ رَاكِباً الدَّلْوَ ومُسْتَمْسِكاً بالرِّشَاءِ، قَالَ: [يا بشراي هذا غلام] أي: أَتَّخِذُهُ عبداً رَقيقاً وأبِيعُهُ، وبَعْدَ ذَلِكَ أَدْرَكَ أَنَّهُ وَارِد رِفَاقِهِ فَهُوَ لَهُ وَلَهُمْ، فَقَالَ: ﴿يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ﴾: أي: يَا بُشْرَىٰ لِي وَلَكُمْ أَيُّها الرِّفَاقُ، هَذَا غُلَامٌ نَسْتَرِقُّهُ، ويَدُلُّ عَلىٰ هَـٰذا مَا سَيَأْتِي من أَنَّهُمْ أَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وبَاعُوهُ بثَمَنٍ بخسٍ.

الْبُشْرَىٰ: اسْمٌ للشَّيْءِ الَّذِي يُبَشَّرُ بِهِ.

الْغُلَامُ: الصَّبِيُّ مُنْذُ وِلَادَتِهِ وحتَّىٰ سِنِّ الْبُلُوغ، ويَظْهَرُ أَنَّ يُوسَفَ كَانَ عُمْرُهُ مِنْ (١٠ ـ ١٤) سنة، ودُونَ البلُوغ.

والنّدَاء بحرف النِّدَاء «يَا» هُنَا، هُوَ عَلَىٰ مَعْنَىٰ: يَا فَرْحَةُ ويَا مَسَرَّةُ احْضُرِي لاسْتِقْبَالِ بُشْرَىٰ، هَـٰذا غُلَامٌ نَسْتَرِقُّهُ، إذْ هُوَ مُلْتَقَطُهُمْ مِنَ الْجبّ.

● ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً﴾: أي: وأَخْفَاهُ أَصْحَاب الْقَافِلَةِ حَتَّىٰ لَا يَكْتَشِفَهُ أَهْلُهُ في تِلْكَ الْأَرْضِ فَيُطَالِبُوا بِهِ، واعْتَبَرُوهُ بِضَاعَةً مِنَ الْبَضَائِعِ الّتِي يَحْمِلُونَهَا للاتِّجار بها[1]. **بضاعَةً**: منْصُوبةٌ على أَنَّها حَال.

الْبِضَاعَةُ: مَا يُتَّجَرُ بِهِ، وجَمْعُها «الْبَضَائِعُ».

● ﴿... وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾: تَدُلُّ هَـٰذِهِ الجملَةُ بأسْلُوب كنائِيٍّ على أنَّ اللهَ ـ جلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ يُتَابعُ بِتَدْبِيراتِه مَا يَعْمَلُهُ الَّذِينَ أَخْفَوْا يُوسُفَ على أَنَّهُ بِضَاعَةٌ مُعَدَّةٌ للبيع، لِيُوصِلَهُ إِلَىٰ مِصْرَ، ويُنْزِلَهُ

---

(١) جاء عند الإسرائيليّين في الإصحاح (٣٧) من سفر التكوين: «واجْتَازَ رِجالٌ مِدْيَانِيُّونَ تُجَّار ـ فَسَحَبُوا يُوسُفَ وأَصْعَدُوهُ مِنَ البِئر وباعُوا يُوسُفَ للإسْمَاعِيلِيّين بِعِشْرِينَ من الفضّة. فأتوا بيُوسُفَ إلى مِصر (٢٩).
وفيه قبل هذا: «وإذَا قَافِلَةُ إسْمَاعِلِيينَ مُقْبِلَةٌ مِنْ جِلْعَادَ، وجِمَالُهُمْ حَامِلَةٌ كَثيراء وبلسَاناً ولَاذَناً ذاهبين ليَنْزِلُوا بها إلى مِصْرَ.

فِيهَا مَنْزِلاً كريماً، ثُمَّ لِيَجْعَلَهُ صَاحِبَ الْكَلِمَةِ الأولىٰ مِنْ دُون مَلِكِهَا، آمراً وناهِياً وَمُتَصَرِّفاً.

قول الله تعالى:

• ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾:

فعل «شَرَاهُ» يأتي بمعنَىٰ «بَاعَهُ» يُقَالُ لغة: «شراهُ، يَشْرِيهِ، شِرىً» أي: باعَهُ، ويأتي بمعنَىٰ: أخَذَهُ بثَمَن، وهَـٰذا المعْنَىٰ يُقَالُ فِيهِ: «اشْتَرَاهُ».

أي: وَبَاعَهُ رِجَالُ الْقَافِلَةِ فِي مِصْرَ بِثَمَنٍ بِخْس، أي: بِثَمَنٍ نَاقِصٍ عَمَّا يُبَاعُ بِهِ نَظِيرُهُ من الْأَرِقَّاءِ حِينَ بَاعُوهُ، وفِي المكان الّذِي بَاعُوهُ فِيه، فالثَّمَنُ الّذي بَاعُوهُ بِهِ دَرَاهِمُ مَعْدودَة.

• ﴿... وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾: أي: وكانُوا غَيْرَ رَاغِبِينَ في الاحْتِفَاظِ بِهِ، وغَيْرَ مُقَدِّرِينَ لِقِيمَتِهِ الَّتِي يُشْتَرَىٰ مِثْلُهُ بِمِثْلِهَا.

يُقَالُ لُغَةً: «زَهِدَ فُلانٌ فِي الشَّيْءِ» أي: تَرَكَهُ عازِفاً عَنْهُ، مُحْتَقِراً له، لَا يَرَىٰ لَهُ قِيمَةً جَدِيْرَةً بالاحْتِفَاظِ به. ورُبَّما كان هَـٰذا لأَنَّ رِجَالَ الْقَافِلَةِ التِّجَارِيَّةِ شُرَكَاءُ فيه، أو لا يَعْرِفُونَ قيمَة أمْثالِهِ، ورُبّما لم يُظْهِرْ يُوسفُ من نَفْسِهِ مَا يُرَغِّبُ في الاحْتِفَاظِ به، أَوْ يَدُلُّ علىٰ نَجابَتِهِ ليتَخلَّصَ منهم.

قول الله تعالَىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾:

جاء في الإصْحاح (٣٩) من سفر التكوين عِنْدَ الإسْرَائيلِيّين أَنَّ الَّذِي اشْتَرَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْرَ مِنْ قَافِلَةِ الإسْمَاعِيلِيِّين رَئِيسُ الشُّرَطِ، واسْمُهُ «فُوطِيفَار» وجاء في هذه السُّورَةِ وصْفُهُ بالعَزِيز، أي: صاحِبُ القوّة الغالبة، وهذا الوصف يلائم رئيس الشرطة.

أي: وقال الرَّجُلُ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِزَوْجَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾: أي: اجْعَلِي مَكَانَ إقَامَتِهِ مَكَاناً كَرِيماً.

المثْوىٰ: مَكَانُ الإقامَةِ. يُقَالُ لغةً: «ثَوىٰ بِالْمَكَانِ، يَثْوِي، ثَوَاءً، وثُوِيًّا»، أي: أَقَامَ بِهِ واسْتَقَرَّ.

والمثْوىٰ الكَرِيم: هُوَ الجامعُ لأحْسن صِفاتِ أَمْكِنَةِ الإقامَةِ في دار السَّكن، وهو بلوازِمِهِ يَشْمَلُ الْمُعَامَلَةَ الكريمَةِ كمُعَامَلَةِ الْأُمِّ لِوَلَدِها.

• ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾: أي: فإذَا أَكْرَمْتِ مَثْواهُ وأَحْسَنْتِ تَعَامُلَكِ مَعَهُ، فَإِنَّنَا نَرْجُو أَنْ يَنْفَعَنا مَنَافع حَسَنَةً، بما وَهَبَهُ اللهُ مِنْ أمَارَاتِ النَّجابَةِ والصّفاتِ الخُلُقِيَّةِ الفاضِلَة، أو نَتَّخِذَهُ ولَداً لَنا بالتَّبَنِّي، ويَظْهَرُ أنَّهُمَا لَمْ يُنْجِبا، فَهُمَا يُرِيدَانِ وَلَداً لهما بالتَّبَنِّي يكُون نَجِيباً وَبَارّاً بهما، وقَدْ كانَ التَّبَنِّي أمْراً مَقْبُولاً ونِظَامِيًّا عُرفاً، لَكِنْ جاء الإسْلَامُ فأَلْغَاهُ.

• ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أيْ: وكَذَلِكَ التَّكْرِيم الَّذِي تَحقّقَ لَهُ في بَيْتِ الَّذِي اشْتَرَاهُ، مَكَّنَ اللهُ لَهُ بَعْدَ سِنِينَ في أَرْضِ مِصْرَ، ويَظْهَرُ أَنَّ هَـٰذا بِسَبَبِ عِلْمِ الناسِ، بمالَهُ من حُظْوَةٍ وَتَمَكُّنٍ لَدَىٰ رَئِيسِ الشُّرْطَةِ عَزِيزِ مِصْرَ، وهَـٰذا تَعْوِيضٌ لَهُ عَمَّا فَعَلَ بِهِ إخْوَتُهُ.

التَّمكين: الإقْدَارُ عَلَىٰ التَّصرُّفِ الْمُوصِلِ إِلَىٰ تَحْقِيقِ المطْلُوب، مَعَ التّثْبيتِ في المكانِ المعْنوِيّ، والْقُدْرَةِ علىٰ التَّحرُّكِ فِيه بِحُرِّيَّة.

• ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ﴾: أي: ولِنُعلِّمَهُ بِسَبَبِ التَّمكِينِ الَّذِي مَكَّنَّا لَهُ فِي مِصْرَ بَعْضاً مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحْلَام الصَّادِقَةِ الَّتِي هي مِنْ نَوْعِ الْأَحَادِيثِ الرَّبَّانِيَّة، الَّتِي قَدْ يُلْقِيها أو يَرْمُزُ إِلَيْهَا مَلَكٌ مُكَلَّفٌ بإلْقَاءِ أَحادِيثِ الْأَحْلَام في النفوس الإنْسانِيّة، حِينَ يكُونُ الإنْسَانُ نائِماً، إنَّ التَّمْكِينَ الَّذِي وهَبَهُ اللهُ إيَّاهُ بِسَبَبِ كَوْنِهِ ذَا حُظْوَةٍ عِنْدَ عَزِيزِ مِصْرَ، جَعَلَهُ يَسْتَمِعُ إِلَىٰ مَا يَرَاهُ عِلْيَةُ الْقَوْمِ في أَحْلامِهِمْ، ويُرَاقِبُ بِذَكَائِهِ مَا يَتَحَقَّقُ لَهُمْ بَعْدَها، أو

يتحقَّقُ للمعنِيِّينَ بها، ويَرْبِط بَيْنَ مَا تَحقَّقَ وبَيْنَ رُمُوزِ الأحْلَامِ، لاكْتِشَاف دَلَالَاتِها الرَّمْزِيَّة، وَفَتَحَ اللهُ بَصِيرَتَهُ، حَتَّىٰ صَارَ يُدْرِكُ كثيراً من رُمُوز الأحْلَامِ ودَلَالَاتِها، وبالفتح الرَّبَّانِيّ مَع دِقَّةِ الملاحَظَةِ الَّتِي وَهَبَهُ اللهُ إيَّاهَا فِي فِطْرَتِهِ عَلَّمَهُ مِقْداراً وَافِراً من تَأْوِيلِ الأحاديث.

التَّأْوِيلُ: بَيَانُ مَا يَؤُولُ إلَيْهِ الشَّيْءُ، أي: يَرْجِعُ أو يَصِير.

- ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾: أي: واللهُ عَزَّ وجَلَّ غَالِبٌ كُلَّ مُغَالِبٍ لِمَقَادِيرِه، قَدِيرٌ عَلَىٰ تَنْفِيذِ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ وأصْدَرَ بِهِ أمْرَ التنفيذ.

الْغَالِبُ: هُوَ الْقَدِيرُ عَلَىٰ إحْبَاطِ كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ مُعَانِدُ مُرَادِه.

وأَمْرُ الله: هو أَمْرُهُ التَّنْفِيذيُّ لقضاءٍ مسْبُوقٍ بتَقْدِير، ومن أصُولِ الإيمان باللهِ، الإيمانُ بالحقيقةِ التاليَة: إنَّما أَمْرُه إذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُول لَهُ: كُنْ فَهُو يَكُونُ. ولَوْ عَارَضَ كُلُّ أَصْحَابِ الْقُدْرَاتِ تنفِيذَ أمْرِه.

فالمعنى: واللهُ غالِبٌ بِقُدْرَتِهِ عَلَىٰ تَنْفِيذِ أَمْرِهِ كُلَّ مُعَانِدٍ ومُعَارِض ومُغَالِبٍ لَا يُرِيدُ مَا أراده الله.

جاءَ هَـٰذا الْبَيَانُ فِي أواسِط ذِكْرِ قِصَّةِ يُوسُف، الَّتِي أجْرَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فيها مَقَادِيرَهُ، لِيُحقِّقَ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الرُّؤْيَا الْحَقُّ الَّتِي رَآهَا يُوسُف، وَكَانَ هَـٰذا مِنْ خِلَالِ تَدْبِيرِ إخْوَتِهِ العشَرَةِ أمْرَ إبْعَادِه عَنْ أبيهِ، حَتَّىٰ لَا تَكُونَ لَهُ السِّيَادَةُ والرِّيَاسَةُ عَلَيْهِم، فَعَنْ طَرِيقِ الْبِئْرِ الَّذِي طَرَحُوهُ فِيه لِيَخْلُوَ لَهُمْ وَجْهُ أَبِيهِمْ، أَوْصَلَهُ اللهُ بألْطَافه إلى بَيْتِ عَزيزِ مِصْرَ، ومَكَّنَ لَهُ فِي أرْضِ مِصْرَ بِظِلِّ الْعَزِيزِ، وَسَيُوصِلُهُ إلَىٰ الْكُرْسِيِّ الْأَوَّلِ بَعْدَ كُرْسِيّ مَلِكِ مِصْرَ، وَلَمْ يَنْسَ أبُوهُمْ وَلَدَهُ يُوسُفَ، ولَمْ تَخلُ لَهُمْ قُبَالَةُ وَجْهِهِ، وحقق اللهُ مُرادَهُ، وغَلَبَ بِقُدْرَتِهِ علَىٰ تَنْفِيذِ مُرَادِه، فأحْبَطَ مَا صَنَعَهُ إخْوَةُ يُوسُفَ مِنْ تَدْبير.

فَمِنْ صِفَاتِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ: أَنَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أمْرِهِ، جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطَانُهُ.

• ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: لا يَعْلَمُون هٰذِهِ الحقيقة فَيُعَانِدُونَ سُنَنَ اللهِ، وَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ بَيَانَاتُهُ الصَّرِيحَةُ أو الرَّمْزِيَّة، فَيُحَاوِلُونَ بتَدْبِيرَاتِهِمْ ومَكَايِدِهِمْ تحْقِيقَ مُرَادَاتِهِمْ، كَأَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَىٰ إحْبَاطِ تَدْبِيرات الله لتحقيق مراده وتنفيذ أمْره.

وبهذا انتهىٰ تَدَبُّرُ الفصل الخامس من قصة يوسف.

والحمدُ لله على معونَتِهِ ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



التدبر التَّحليليّ للفصل السادس من قصة يوسف الآيات من (٢٢ ـ ٢٩)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

القراءات:

(٢٣) • قرأ نَافع، وابْنُ ذَكْوانَ، وأبُو جعْفر: [**هِيتَ لَكَ**] بفتح التاء.

وقَرَأَها هِشام: [**هِئْتَ لَكَ**] بالهمزة الساكنة وفَتْحِ التاء، أي: تَهَيَّأْتُ لَكَ.

وقَرَأها ٱبْنُ كثير: [**هِيتُ لَكَ**] بالياء المدّيّة وضَمِّ التّاء.

وقرأها باقي القراء الْعَشَرَةِ: [**هَيْتَ لَكَ**] بِفَتْحِ الهاءِ وإسْكان الياء وفتح التاء.

ومُؤَدَّى القراءات هذه ما عَدَا: [**هِئْتُ لَكَ**] واحِدٌ، لِأَنَّهَا لُغَاتٌ بِمَعْنَىٰ: هَلُمَّ. تَعَالَ. وهي اسْمُ فِعْلٍ بهذا المعْنَىٰ. أما «هِئْتُ لَكَ» فَهِي بمعنى: تَهَيَّأت لك.

(٢٣) • قَرَأَ نَافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعفر: [**رَبِّيَ أَحْسَنُ**] بفَتْحِ يَاءَ المتكلّم. وقرأهَا باقي القرّاء العشرة بالإسْكَان.

(٢٤) • قرأ ٱبْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وٱبْنُ عَامِرٍ، ويَعْقُوب: [**الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللام، اسْم فاعل، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**المخْلَصِينَ**] بفَتْح اللَّام، اسْم مَفْعُول. وبيْنَ القراءتَيْن تَكَامُلٌ فِي أَدَاء المعْنَىٰ المراد.

(٢٩) • قرأ أَبُو جَعْفر: [**الْخَاطِينَ**] بحَذْف الهمزة بعد الطاء، وهو لُغَة.

وقرأها بَاقي القرّاء العشَرَةِ: [**الْخَاطِئِينَ**] بإثبات الْهَمْزَةِ بَعْدَ الطَّاء.

تمهيد:

في هَـٰذِهِ الآيَاتِ وهي الفصل السادس من قصَّة يوسف عليه السلام، بَيَانٌ لِحَدَثٍ ذِي شَأْنٍ تَعَرَّضَ لَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ بَلَغَ أَشُدَّهُ، واكْتَمَلَتْ رُجُولَته، وَهُوَ مُراوَدَةُ زَوْجَةِ الْعَزِيزِ الَّذِي اشْتَرَاهُ رَقِيقاً، عَنْ نَفْسِهِ لِيُعَاشِرَهَا بالْجِمَاعِ، فَقَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، وأرادتْ أَنْ تُلْزِمَهُ

بِالْعُنْفِ فَفَرَّ مِنْهَا إلى جِهَةِ الْبَابِ، وَشَدَّتْهُ مِنْ قَمِيصِهِ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ شَدّاً عَنِيفاً تَمَزَّقَ بِهِ الْقَمِيصُ، وعِنْدَ بُلُوغِهِ الْبَابَ كَانَ سَيِّدُهَا الْعزِيزُ قَدْ حَضَرَ بِقَضاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، فَبَادَرَتْ واتَّهَمَتْ يُوسُفَ بأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوءاً، فَكَشَفَ يُوسُفُ الحقيقَةَ، وعَرَفَ سَيِّدُها أَنَّهَا هِيَ المذْنِبَة فَطَلَبَ مِنْ يُوسُفَ أَنْ يُعْرِضَ عَنْ هٰذا الْأَمْرِ الَّذِي جَرىٰ، وطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لِذَنْبِهَا وَأَبَانَ لَهَا أَنَّها مِنَ الْخَاطِئِينَ خطأً لَا يَفْعَلُهُ إِلَّا الرِّجَال، أَمَّا النِّسَاءُ فَتَمْنَعُهُنَّ أُنُوثَتُهُنَّ عَنْ أَنْ يَصِلْنَ إِلَىٰ مِثْلِ هٰذا الَّذِي وَصَلَتْ إليه.

التدبُّر التحليلي:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ﴾: أي: وحِينَ بَلَغَ دَرَجَةَ اكْتِمَالِهِ المقدَّرِ لَهُ، بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْها، ونَضَجَتْ رُجُولَتُهُ.

الْأَشُدُّ: الاكْتِمَال، وأَشُدُّ كُلِّ شَيْءٍ اكْتِمَالُ تَنَامِيهِ بِحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَة للاكْتِمَالِ، فَاكْتِمَالُ كُلِّ شيءٍ يَكُونُ بحَسَبِ صِفَاتِهِ الْقَابِلَةِ للتنامي. والاكْتِمَالُ في النُّمُوِّ الْبَشَرِيّ يَتَنَاوَلُ مُخْتَلِفَ الْقُوىٰ والصِّفَاتِ الْجَسَدِيَّةِ، والْفِكْرِيَّةِ، والنفْسِيَّة، عَلَىٰ وَفْقِ الْهِبَاتِ الفِطْرِيَّةِ الَّتِي فَطَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْها.

- ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾: **الْحُكْمُ**: فِقْهُ الأُمُور، ومَعْرِفَةُ الْحَقِّ والْبَاطِلِ وَحُدُودِهما، ومَعْرِفَةُ الْخَيْرِ والشَّرِّ وحُدُودِهما، والْحَسَنِ والسَّيِّءِ وَحُدُودِهما، والْجَمِيل والْقَبِيح وَحُدُودِهما.

وبناءً عَلَىٰ فِقْهِ الأُمُورِ يُصْدِرُ مَنْ أُوتِيَ الْحُكْمَ أَحْكَامَهُ الْعِلْمِيَّة، وَأَحْكَامَهُ الْقَضَائِيَة، مُطَابِقَةً لِلْحَقِّ والْعَدْلِ والْخَيْرِ والْأَحْسَنِ والأفْضَلِ، بِمِقْدَارِ اسْتِطَاعَتِهِ الْبَشَرِيَّة.

فالمعنىٰ: آتَيْنَاهُ بِفَضْلٍ مِنَّا فِقْهاً فِي الْأُمُورِ يُمَكِّنُهُ مِنْ إِصْدار الْأَحْكَامِ الْعِلْمِيَّةِ والْقَضائِيَة بِدَرجَةٍ مُمْتَازَة. وَآتَيْنَاهُ عِلْماً فَضَّلْنَاهُ بِهِ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِنا.

• ﴿... وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾: أي: آتَيْنَا يُوسُفَ حُكْماً وَعِلْماً لِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِناً، قَدِ ارْتَقَىٰ فِي عِبَادَاتِه إِلَىٰ مَرْتَبَةِ الإِحْسَانِ، فَجَزَيْنَاهُ عَلَىٰ إِحْسَانِهِ جَزَاءً مُعَجَّلاً بِأَنْ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً، وَكَذَٰلِكَ الْجَزَاءِ الْمُعَجَّلِ الَّذِي جَزَيْنَاهُ إِيَّاهُ، نَجْزِي كُلَّ الْمُحْسِنِين مَا تَوالَتِ الْعُصُور، وتَتَابَعَتِ الْأَجْيَالُ.

قول اللهُ تَعَالَىٰ:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

• ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾: **المراوَدَةُ**: طَلَبُ الرَّجُلِ مِنَ المرأَةِ أَنْ يَفْجُرَ بِهَا، أَوْ طَلَبُ المرأةِ مِنَ الرَّجُلِ ذَلِكَ، وقَدْ يَكُونُ الطَّلَبُ بالحركَاتِ الإغْرَائِيَّة. يُقَالُ لُغَةً: «رَاوَدَهُ، يُرَاوِدُهُ، مُراودَةً، وَرِوَاداً، عَنِ الْأَمْرِ، وعَلَىٰ الأمْر» أي: طَلَبَ مِنْهُ فِعْلَه.

واخْتِيرَ التعبيرُ بعبارة: ﴿ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا﴾ دُون سائر البدائل للإشعار بأنها ذَاتُ أَمْرٍ يَنْبَغِي أَنْ يطاعَ مَعَ مَا للمخالَطةِ من إثارَةٍ، وإزالةٍ للحواجز النفسية.

عَنْ نَفْسِهِ: أي: عَنْ أن يَفْعَلَ هُو نَفْسُهُ مَعَها فاحِشَةَ الجمَاع لِعِشْقها له.

• ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾: أيْ: وَشَدَّدَتْ فِي إِحْكَام إِغْلَاقِ الْأَبْوَابِ المتَعَدِّدَةِ حَوْلَ الْحُجْرَةِ أو الْغُرْفَةِ الَّتِي هَيَّأَتْها للمُضَاجعَةِ والْمُجَامَعَة.

• ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾: أي: وقَالَتْ بِصَرِيح العبارَةِ الكلامِيَّةِ هَلُمَّ تَعَالَ إليّ، ورُبَما كانَتْ قَدِ اضطَّجَعَتْ وَكَشَفَتْ عَنْ مَفَاتِنِها. وقالَتْ لَهُ أيْضاً: [هِئْتُ لكَ]: أيْ تَهَيَّأْتُ لَكَ تَهَيُّؤَ الأُنْثَىٰ لِمُعَاشِرِهَا الذَّكر.

• ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي: عِياذاً باللهِ وَلُجُوءاً إِلَيْهِ، واعْتِصَاماً به لحمايَتِي ووقايَتِي من الوقُوعِ بهذا الإثْمِ العظيم.

وإضافة «مَعَاذ» إلى لفظ الجلالَة، هو على معنىٰ: أطْلُبُ إعاذَةَ اللهِ لي، والنَّصْبُ في «مَعَاذَ» على أنّهُ مفعولٌ مطْلَقٌ لِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تقْديره: أَعُوذُ مَعَاذَ اللهِ.

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾: يَظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَرادَ بعِبَارَتِهِ مَعْنَيَيْنِ مَعاً: **أوّلُهما**: يَتعلّقُ باللهِ رَبِّهِ الّذِي أحْسَنَ إقَامَتَهُ في بَيْتِ عزيزِ مِصر، بَعْدَ أَنْ خَلَّصَهُ مِنْ وَرْطَةِ الْبِئْر. **وثَانِيهما**: يَتَعَلَّقُ بالْعَزِيزِ رَبِّ الْبَيْتِ، فَهُوَ رَبُّهُ، أَيْ: مَالِكُهُ بِمُقْتَضَىٰ الاسْتِرْقَاق، فَقَدْ أَحْسَنَ مَثْوَاهُ فِي بَيْتِهِ، يُشِيرُ بهذا إلىٰ قَوْله لامْرَأتِهِ حِينَ قَدِمَ بِهِ إِلَيْهَا رَقِيقاً: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾.

ولَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ يوسُفُ قد قالَ نَظِيرَ هَـٰذِهِ العبارةِ ذات المعْنَيْين باللّغة الّتي كان المِصْرِيُّونَ يَتكَلَّمُونَ بها في ذلِك الزّمَان، ورُبَّما كانت تعْبيراً قرآنيًّا مُوجزاً، أوْجَزَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ به عبارَتَيْنِ قالَهُما يوسف في عبارة واحدَة، مِثل: إنَّ الله أحْسَنَ مَثواي، وإنَّ العزيز أحْسَنَ مثواي.

• ﴿... إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾: أي: إنَّهُ لَا يَظْفَرُ ولا يَفُوزُ بِسَعَادَاتِهِمُ الظَّالِمُونَ المتجاوِزُونَ حُدُودَ رَبِّ الْعَالَمِين، والمتجاوزون حُدُودَ الْحَقِّ والْوَاجِب.

الْفَلاحُ: الظفَرُ والْفَوْزُ في عَاقِبَةِ الأَمْر.

الظُّلْمُ: تَجاوُزُ الْحدِّ الّذِي يَجِبُ عقْلاً أَو دِيناً عَدَمُ تجاوُزِه.

فأبانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لامْرَأَةِ الْعَزِيز أَنَّ الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُوهُ إلَيْهِ ظُلْمٌ كبيرٌ عُقُوبَتُهُ الْحِرْمَانُ مِنَ الْفَلاح.

وأَبَانَ لَهَا أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَعِدٍّ لِأَنْ يَقَعَ بهذا الظُّلْم، مَهْمَا دَعَاهُ إلَيْهِ شبقُهُ.

واسم امْرأة الْعَزِيزِ هَـٰذِهِ في كُتب الْعَرَبِ: «زَلِيخَا» وعِنْدَ الإسْرَائيليّين «رَاعِيل».

قَوْلُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

وفي الْقِرَاءة الْأُخْرَىٰ: [**إنَّهُ مِنْ عِبَادِنا الْمُخْلِصِينَ**] بِكَسْرِ اللَّام.

فأثْبَتَتِ الْقِرَاءَتَان أَنَّهُ مُخْلِصٌ لِرَبِّهِ صَادِقُ الإخْلَاصِ في تَصرُّفَاتِه ومَكْسُوبَاتِهِ يَبْتَغِي بِهَا رَضْوَانَ اللهِ وَثَوَابَهُ الجزيلَ الْكَرِيمَ، وهُوَ مُخْلَصٌ مِنْ قِبَلِ رَبِّهِ، صَفَّاهُ اللهُ وَنَقَّاهُ من الشوائب، واخْتَارَهُ واصْطَفَاهُ نَبِيًّا رَسُولاً.

• ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ...﴾:

الْهَمُّ بالْعَمَلِ: رَغْبَةٌ نَفْسِيَّةٌ لَمْ تَصِلْ إلى مُسْتَوَىٰ الإرادة الجازمة، يُقَالُ لُغَةً: «هَمَّ فُلَانٌ بِأَنْ يَفْعَلَ كَذَا» أي: رَغِبَ بِقُوَّةٍ في أنْ يَفْعَلَهُ، لَكِنْ لَمْ تَصِلْ إرَادَتُهُ الْجَازِمَةُ إلىٰ مُسْتوىٰ التَّنْفِيذ.

فالْهَمُّ حَرَكَةٌ نَفْسِيَّة فَوْقَ تَوَجُّهِ النَّفْسِ ورَغْبَتِها السَّاكِنَةِ، ودُونَ الإرَادَةِ الجازِمَةِ الباعِثَةِ عَلَىٰ التَّنفِيذ.

نَظَرْتُ في الاسْتِعْمَالَات القرآنيَّة والحدِيثيَّة لمَادَّة: «هَمَّ بالأمْر، يَهُمُّ، هَمًّا» فَوَجَدْتُ أَنَّ هَـٰذه المادَّةَ تَدُورُ حَوْل معْنَىٰ تَوَجُّهِ النَّفْسِ لعَمَلٍ مَا دُونَ أَنْ يَصِلَ إلَىٰ إرادَةٍ جَازِمَةٍ مُقْتَرِنَةٍ بالتَّنْفِيذ مَعَ عَدَمِ وجُودِ عَقَبَةٍ مَانِعَة، فَدَلَّنِي هذا عَلَىٰ أَنَّ الهَمَّ بشَيْءٍ ما هُوَ دُونَ الإرَادَةِ الجازِمَةِ الَّتِي هي مَنَاطُ المسؤوليَّة في الإسْلَام.

وتَأَمَّلْتُ في عِبارَةِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ﴾ فَرَأَيْتُ أَنَّ المرادَ بِهَا أَمْرٌ غَيْرُ رَغْبَتِهَا فِي أَنْ يُعَاشِرَها بالجماع؛ لِأَنَّ هَـٰذِهِ الرَّغْبَةَ قَدْ بَلَغَتْ عِنْدِهَا مَبْلَغاً هُوَ فَوْقَ الإرادَةِ الجازِمَةِ العادِيَّة، إِذْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ الْعَزْمِ الّذي يَتَحَدَّىٰ الْعقَبَاتِ الَّتِي يَصْعُبُ اقْتِحامُها، إِذْ دَعَتْهُ بإِغْراءاتِها، وبِصَرِيح اللَّفْظِ: «هَيْتَ لَكَ» و«هِئْتُ لَكَ».

وتأمَّلْتُ فِي عبارة: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ فرأيْتُ أَنَّ المرادَ بِهَا أَمْرٌ غَيْرُ انْدِفَاع نَفْسِهِ لمُعَاشَرَتِها بالجماع، فَقَدْ سَبَقَ أَنْ قَالَ لَهَا: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ وسَيَأْتِي أَنَّهُ فَرَّ مِنْها مُتَّجِهاً شَطْرَ الْبَاب الْخَارِجِيِّ؛ لِئَلَّا يَتَصارَعَ مَعَهَا وَهِيَ أُنْثَىٰ، وأَنَّهَا جَذَبَتْ ثَوْبَهُ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ فَقَدَّتْهُ: أيْ: شَقَّتْهُ طُولاً، غَضَباً وَثَأْراً لِكَرَامَتِها؛ ولأنَّها سيِّدَتُهُ ويجِبُ عَلَيْه طاعَتُها عُرْفاً.

فالَّذي كانَ مِنْها بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَوضُوعِ مُرَاوَدَتِها لَهُ، أَقْوَىٰ مِنْ إرادَةٍ جازِمَةٍ عَادِيَّة، إِذْ كَانَ عَزِيمةً شَدِيدَةً فِيها تَحَدٍّ لِلْعَقَباتِ، فلا يُلائمه التعبير عنه بالْهَمِّ.

والذي كان منه بالنّسْبَةِ إلى مَوْضُوعِ مُرَاوَدَتِهَا لَهُ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوَىٰ الْهَمِّ، إِذْ كان مستعيذاً باللهِ بعزيمَةٍ قويّةٍ، ولا يُلائم هذا أنْ يقال بشأنه: همَّ بالفاحشة.

ونظَرْتُ في قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الْآيَةِ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ﴾ فَرَأَيْتُ أَنَّ السُّوءَ الَّذِي صَرَفَهُ اللهُ عَنْهُ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ الْفَحْشَاءِ الَّتِي تَكُونُ بالزِّنى. وأنَّ السُّوءَ مُسْتَعْمَلٌ في القرآن للدَّلَالَة على ما يَسُوءُ، والأَصْلُ في العطف التغايُرُ لَا الترادُف[1]. وقد اتَّهَمت امرأة العزيز يوسُفَ أَمَام زوجها بِأَنَّهُ أراد بها سوءاً، ولـم تَتَّهِمْهُ بأنّهُ أرادَ أن يفجُرَ بها ويفعل الفاحشة.

---

(١) وجاء في سورة (البقرة) بَيَانُ أَنّ الشيطان يأمُرُ بالسُّوءِ والفحشاء (الآية ١٦٩) فالسُّوءُ شيءٌ، والفحْشَاءُ شيْءٌ آخر.

لكلِّ هٰـذا رَأَيْتُ أَنَّ الصَّوابَ في التّدبُّر، هُو أنَّها هَمَّتْ بِضَرْبِهِ وأَنَّهُ هَمَّ بِضَرْبِها، فَكُلٌّ مِنْهُمَا يَدْخُلُ في عُمُومِ لَفْظِ «السُّوء» وهُوَ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ بَعْضُ أَهْلُ التَّأْوِيلِ.

• ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾: أي: لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَاناً جَلِيًّا مِنْ رَبِّهِ، مَنَعَهُ مِنْ ضَرْبِهَا لَضَرَبَهَا لِيَمْنَعَ عَنْ نَفْسِهِ مُحَاوَلَاتها الإلْزَامِيَّة، فجواب لَوْلَا مَحْذُوفٌ مَطْوِيٌّ يَسْهُلُ تقديرُه متَّىٰ أدْرَكَ المتدبّر المرادَ بالْهَمِّ.

ولَمْ يَرِدْ عَنِ المَعْصُومِ بَيَانُ هَـٰذا الْبُرْهَانِ الْجَلِيِّ الَّذِي رَآه والصادِرِ عَنْ أَمْرِ رَبّه، فالواجِبُ فِي التدَبُّرِ السَّلِيم عَدَمُ تَعْيينِهِ، والأقْوالُ في هَـٰذا مِنَ التكهُّنَاتِ الَّتِي لَا دَلِيلَ عَلَيْها، والاحْتِمالَاتُ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ وَاحِدٌ مِنْهَا بُرْهَاناً جَلِيًّا كَثِيرَةٌ جدّاً، وتَعْيِينُ وَاحِدٍ مِنْها بلا دَلِيلٍ من الْكَذِبِ عَلَىٰ اللهِ؛ لِأَنَّهُ بُرْهَانٌ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه.

• ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾: أي: مِثْل ذَلِكَ الَّذِي كانَ مِنْهُ مِنْ عِفَّةٍ عَنِ الْفَحْشَاءِ مَعَ دَوَاعِي اكْتِمَالِ أشُدِّهِ ورُجُولَتِهِ، وإمْسَاكِ نَفْسِهِ عَنْ مُقَاوَمَةِ امْرَأةِ الْعَزِيزِ بِمَا يُؤْذِيها ضَرْباً ودَفْعاً وهيَ سَيِّدَتُهُ، ولُجُوئِهِ إلَىٰ الْهَرَبِ، كَانَ مِنَّا لَهُ عَوْنٌ وتَثْبِيتٌ وتَقْوِيَةٌ لِعَزِيمَتِهِ، لِنَصْرِفَ عَنْهُ الْوُقُوعَ بالسُّوءِ الَّذِي يُدَانُ بِهِ فِيمَا لَوْ ضَرَبَها، أو دَفَعَهَا عَنْهُ بِعُنْفٍ قَدْ يُؤْذِيها بِه، فيَكُون دَلِيلاً ضِدَّه، ولِنَصْرِفَ عَنْهُ الْوُقُوعَ بالْفَحْشَاءِ الَّتِي هي مِنْ كبائِرِ الْإِثْمِ.

﴿... إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ والمخْلِصِينَ، لَقَدْ أخْلَصَ في عِبَادَتِهِ لَنَا، فَاصْطَفَيْنَاهُ وَجعَلْنَاهُ مِنْ عِبَادِنَا المخْلَصِين.

تَحْرِير معنىٰ مادّة (الْهَمّ) في النُّصوص:

ظهر لي بالتَّتَبُّع للنَّصُوصِ القرآنيَّةِ والْحَدِيثيَّة أَنَّ مادَّة «هَمَّ بِالْأَمْرِ، يَهُمُّ، هَمًّا» تَدُلُّ عَلَىٰ تَوَجُّهِ النَّفْسِ لِعَمَلٍ ما، دون أَنْ يَصِلَ هَـٰذا التَّوَجُّهُ

إلى إرادةٍ جازِمَةٍ دافِعَةٍ إلىٰ التَّنْفِيذِ، مَعَ عَدَمِ وُجُودِ عقَبَةٍ تَمْنَعُ مِنْه.

يأْتِي الْهَمُّ بالأَمْرِ فَوْقَ مُسْتَوىٰ الرَّغْبَةِ المجرَّدَة، فَهُوَ أَوَّلُ الحَرَكَةِ النفسيَّةِ لِتَقْرِيرِ تَنْفِيذِ مَا اتَّجهَتِ الرَّغْبَةُ لَهُ، ويَبْدُو أَنَّهُ دُونَ مُسْتَوىٰ القرار الإرَادِي الجازم، فهو وسَطٌ بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَتَوَجُّهِ الإرادَةِ الجازمة، ولهذا كَانَ الْهَمُّ الَّذِي لم يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الإرادة الجازمة مَعْفُوّاً عَنْهُ في حَالَةِ الْهَمِّ بالْمَعْصِيَة، أمَّا في حالة الْهَمِّ بِفِعْلِ الحسَنَةِ دُونَ التَّنْفِيذِ، فإنَّ الله عزَّ وجَلَّ يَثِيب عليه بقُوَّةِ حَسَنَةٍ وَاحِدَة، دُونَ مُضَاعَفَةٍ إلَىٰ عَشْر حَسَنَاتٍ، أَمَّا عِنْدَ التنفيذِ فإنَّ الله عَزَّ وجَلَّ يُضَاعِفُهَا إلى عَشْرِ حَسَنَاتٍ، وكُلُّ هَـٰذا مِنْ فَضْلِ اللهِ تعالى.

أدلَّةٌ من القرآن:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ...﴾:

في بيانِ حَادِثَةِ هَـٰذا الْهَمّ ذَكَرَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ عدَّة أقوال، مِنْها: محاوَلَةُ اليهود اغْتِيالَ الرسُول ﷺ. وقِيلَ: نَزَلَت فِي كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ وَأَصْحَابِهِ حِينَ هَمُّوا بأنْ يَغْدُرُوا بمحمد ﷺ وبأَصْحَابِهِ فِي دَارِ كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ.

وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذا الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الْقَرَارِ الجازِم، وأَنَّ الله عَزَّ وجَلَّ قَدْ صَرَفَهُ بأَلْطَافِه.

(٢) وقول الله عَزَّ وجَلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول).

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾:

هٰذا النصّ يُشِيرُ إلىٰ مَوْقِعَةِ أُحدٍ كَمَا ذَكَرَ جُمْهُور المفسّرين، أمَّا الطَّائِفَتَان اللّتَانِ هَمَّتَا بالفَشَل، فَقَدْ روىٰ الْبُخاري عن عُمَر، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ الله يَقُول: فِينَا نَزَلَت: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآبِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا . . .﴾ الآية. قال: نَحْنُ الطَّائِفَتَانِ «بنُو حارثة» و«بَنُو سَلَمة» وَمَا يَسُرُّني أنَّها لم تَنْزِلْ لقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾.

فَهاتَانِ الطَّائِفَتَان قَدْ هَمَّتَا أَنْ تَفْشَلا، أي: هَمَّتَا بعَمَلٍ مَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إلى الْفَشَلِ، ولَكِنَّ هَمَّهُمَا لَمْ يَصِلْ إلَىٰ مُسْتَوىٰ الْقرار الإرادِيِّ الجازم، فَلَمْ يَتَخَلَّ اللهُ عَنْ وِلَايَتِهِمَا.

(٣) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول)

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ . . . ﴿٥﴾﴾.

أي: وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بأَنْ يَأْخُذُوا رَسُولَهم ويَقْتُلُوه، ولَكِنَّ هَمَّهُمْ لَمْ يَصِلْ إلَىٰ مُسْتَوَىٰ القرار الجازم، إلَّا في أمْثِلَةٍ مَعْدُودَةٍ، ومِنْ قِبَلِ بَعْضِ الْأَفْراد، ولكِنَّهُ كَانَ نُزُوعاً قَوِيًّا بَلَغَ دَرَجَةَ أَوَّلِ الحركاتِ النفسيَّة المتَّجِهَةِ لتحقيقِ مَا رَغِبُوا فِيه.

(٤) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ مُشْرِكِي مَكَّةَ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ . . . ﴿١٣﴾﴾:

من المعْروفِ في أخبار السّيرةِ النبويَّةِ أنَّ فَرِيقاً مِنْ مُشْرِكِي مَكَّةَ قَد دَبَّرُوا مَكِيدَةَ قَتْلِ الرَّسُولِ ﷺ، لَكِنَّ مُعْظَمَ المشْرِكِينَ قَدْ حَصَلَ في نُفُوسِهِمْ هَمٌّ بإخْرَاجِهِ مِنْ مَكَّةَ ولَمْ يَفْعَلُوا، إذْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إرادَةٌ جازِمَةٌ بَلَغَتْ مَبْلَغَ أَمْرِهِ بأن يَخْرُجَ، فكانَ خُرُوجُهُ ﷺ في اللَّيْلَةِ الَّتي حَاوَلَ فِيها مُدبِّرُو قَتْلِهِ تَنْفِيذَ مَكِيدَتِهِم.

أدِلَّةٌ مِنَ السُّنَّة:

(١) روىٰ البخاري ومُسْلمٌ عن عبد اللهِ بْنِ عباس، عن الرَّسُول ﷺ، فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ، قال:

«إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ والسَّيِّئَات، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَىٰ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وإنْ هَمَّ بِها فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ عَشَرَ حَسَنَاتٍ إلى سَبْعمائَةِ ضَعْفٍ، إلَىٰ أَضْعَافٍ كَثيرة، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، وإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً واحِدَةً».

فَدَلَّ هَـٰذا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْهَمَّ بِفِعْلِ الحَسَنَةِ أَوْ بِفِعْلِ السَّيِّئَة قَدْ لَا يَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ الإرادَةِ الجازِمَة، فَلَا يَقْتَرِنُ بالتَّنْفِيذ، لَكِنْ تَفَضَّل اللهُ عَلَىٰ عبادِهِ المؤمنين فَجَعَلَ الْهَمَّ بِفِعْل حَسَنَةٍ مَأْجُوراً بِقُوَّةِ حَسَنَةٍ وَاحِدَة، لَكِنْ إذا فَعَلَهَا بإرَادَةٍ جَازِمَةٍ فإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَكْتُبُهَا عِنْدَهُ بِقُوَّةِ عَشْرِ حَسَنَاتٍ إلَىٰ سَبْعَمَائَةِ ضِعْفٍ إلَىٰ أَضْعَافٍ كثيرة. وجَعَلَ الْهَمَّ بِفِعْلِ سَيِّئَةٍ أَمْراً مَعْفُوّاً عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إلى مسْتَوَىٰ الإرادة الجازِمَة، لَكِنْ إذا فَعَلَهَا بإرادَةٍ جَازِمَة فإنّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَكْتُبُهَا عِنْدَه بِقُوَّةِ سَيِّئَةٍ واحِدَةٍ فقط.

(٢) وروى البيهقيُّ في سُنَنه الكبرى بسنَدِهِ عن أبي وائلٍ شَقِيقِ بْنِ سَلَمَة قَالَ: جَلَسْتُ إلَىٰ شَيْبَةَ بْنِ عثمان في المسْجِدِ الحرامِ فَقَالَ لي جَلَسَ إلَيَّ عُمَرُ بن الخطَّاب رضي اللهُ عنْهُ مَجْلِسكَ هَـٰذا فَقَالَ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ لَا أَتْرُكَ صَفْرَاءَ وَلَا بَيْضَاءَ إِلَّا قَسَمْتُهَا «يَعْنِي الكعْبَةَ» قالَ شَيْبَةُ فَقُلْتُ إِنَّهُ كَانَ لَكَ صَاحِبَانِ فَلَمْ يَفْعَلَاهُ: رَسُولُ اللهِ ﷺ وأَبُو بَكر رضي الله عنه، فقال عُمَرُ هُمَا المرْءَانِ اقْتَدِي بِهِمَا.

وأَخْرَجَهُ الْبُخَارِي في الصحيح مِنْ حَدِيثِ سُفْيَانَ الثوري.

فاسْتَعْمَلَ فِعْلَ «هَمَمْتُ» فيما لَمْ يَصِلْ عِنْدَهُ إلى دَرَجَةِ الإرادة الجازِمَة.

(٣) وروى مسلم، وأحمد وغيرُهُما، عن عُرْوَة، عن عَائِشَة، عن حذامَة بنت وهب أخْتِ عكاشة قالت: حَضَرْتُ رسُولَ اللهِ ﷺ في ناسٍ وَهُو يَقُولُ:

«لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَنْهَىٰ عَنِ الغِيلَةِ، فَنَظَرْتُ فِي الرُّومِ وَفَارِسَ، فإذَا هُمْ يُغِيلُونَ أَوْلَادَهُمْ وَلَا يَضُرُّ أَوْلَادَهُمْ ذَلِكَ شَيْئاً».

يُقَالُ لغة: «غالَتْ، وأغَالَتِ المرأةُ وَلَدَهَا» أي: أرضَعَتْهُ الْغَيْل، وهو اللّبَنُ الّذِي تُرْضِعُهُ المرأةُ وهي حامل.

فجاء في هذا الحديث استعمالُ فعل «هَمَمْتُ» فيما هو دون الإرادة الجازمَة.

وهكذا كُلُّ ما وَرَدَ من الأحاديث التي فيها فِعْلُ: «هَمَّ، يَهُمُّ».

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

• ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾: أي: وأَسْرَعَ كُلٌّ مِنْ يُوسُفَ وَزَوْجَةِ الْعَزِيزِ في سِبَاقٍ بَيْنَهُمَا قَاصِدَيْنِ الْبَابَ، أَمَّا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتَح الْبَابَ ويَفِرَّ، وأمَّا امرأةُ الْعَزِيز فَهِيَ تُرِيدُ أن تَحْجُزَ بَيْنَهُ وبَيْنَ البَاب لِتَمْنَعَهُ مِنَ الخروج.

• ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾: أي: وشَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ فَشَقَّتْهُ طُولاً. **الْقَدُّ**: القَطْعُ أَوِ الشَّقُّ طُولاً. أَمَّا القَطْعُ عَرْضاً فَهُو القَطُّ. **من دُبُرٍ**: أي: مِنْ جِهَةِ الظهر. **الدُّبُر**: عَقِبُ كُلِّ شيءٍ وآخِرُه.

دَلَّتْ هَـٰذِهِ العِبَارَةُ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ كَانَ أَسْبَقَ مِنْهَا إلى جِهَةِ الباب، وَكَانَتْ هِيَ مِنْ وَرَائِهِ، فَأَمْسَكَتْ بِثَوْبِهِ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ، وشَدَّتْهُ بِعُنْفٍ لِتَمْنَعَهُ

مِنْ أَنْ يَفْتَحَ الْبَابَ ويَفِرَّ، فَشَقَّتْهُ بِجَذْبَتِهَا طُولاً، مِنْ مَكَانِ قَبْضَتِهَا ويَتَّجِهُ الشَّقُّ إِلَىٰ أَسْفَلَ فَأَسْفَل حتَّىٰ الْحَدِّ الَّذِي انْتَهَىٰ إليه.

• ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾: أي: وَقَدَّرَ اللهُ وقَضَىٰ أَنْ يُصَادِفَا سَيِّدَهَا الّذِي هُو زَوْجُها لَدَىٰ الْبَابِ، يَفْتَحُهُ لِيَدْخُلَ إلى سَاحَةِ الْقَصْرِ، فَوَجَدَهُمَا فِي حَالَةٍ مُرِيبَة.

أَلْفَىٰ فُلانٌ الشيءَ: أيْ: وَجَدَهُ، ويأتي بمَعْنَىٰ وجَدَهُ مُصَادَفَة.

وأُطْلِقَ عَلَىٰ زَوْجِهَا لَقَبُ «سَيِّدِها» للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الزَّوْجَ في ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانَ يُقَالُ لَهُ «سَيِّد» على سَبِيلِ الاحْترامِ، ولأَنَّهُ الآمِرُ ذُو الْقِوَامَة في أعرافِهِمْ ونُظُمِهِمْ.

لَدَىٰ: ظَرْفُ مَكَانٍ بِمَعْنَىٰ عِنْد: وقَدْ تُسْتَعْمَلُ في الزَّمان، وهي اسم جامد، وإذا أُضِيفَتْ إِلَىٰ ضمِير قُلِبَتْ أَلِفُهَا يَاءً، مثل: «لَدَيْهِ ولَدَيْها».

• ﴿... قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾:

أَسْرَعَتِ امْرأَةُ الْعَزِيزِ لِتَسْتُرَ الْمَوْقِفَ الْمُرِيبَ الَّذِي شَاهَدَهُ عِنْدَ الْبَاب مِنْ زَوْجَتِهِ وفَتَاهُ الرَّقِيقِ يُوسُف، فَشَكَتْهُ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِهَا سُوءاً، أي: ضَرْباً وإِيْذَاءً كما سَبَقَ بَيَانُ هَـٰذا، بِسَبَب تَمْكِينِهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فِي قَصْرِهِ، وعَرَضَتْ عَلَىٰ زَوْجِهَا اقْتِراحاً بِأَنْ يَسْجُنَهُ أَوْ يُعَذِّبَهُ عَذَاباً أَلِيماً.

أي: قَالَتْ: لَيْسَ جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ ضَرْباً وإيذاءً إِلَّا أَنْ يُودَعَ فِي السِّجْنِ، أَوْ يُعَذَّبَ عَذَاباً أَلِيماً، ولَمْ تَتهِمْهُ بِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَفْعَل الفاحِشَةَ مَعَهَا؛ لِأَنَّهَا هِيَ طَالِبَةُ ذَلِكَ والْحَرِيصَةُ عَلَيْهِ، وما زَالَتْ حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَتُرِيدُ إِكْرَاهَهُ عَنْ طَرِيقِ التَّهْدِيدِ بما ذَكَرَتْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهَا لِلْنِّسْوَةِ اللّائي لُمْنَهَا وَدَعَتْهُنَّ لِإِبْدَاءِ عُذْرِهَا كَمَا سَيَأْتِي في الآيَة (٣٢): ﴿... وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

• ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾: أي: قَالَ يُوسُفُ لِزَوْجِهَا أَنَا لَمْ أُرِدْ جَازِماً إيذَاءَهَا بِضَرْبٍ ولَا غَيْرِه، ولَكِنْ هِيَ طَلَبَتْ مِنِّي أَنْ أُضَاجِعَهَا وَأُعاشِرَهَا مُعَاشَرَةَ الرَّجُلِ لِزَوْجَتِهِ، فآثَرْتُ الْفِرَارَ إلى جِهَةِ الْبَابِ، فَلَحِقَتْنِي وَجَذَبَتْنِي لِإكْرَاهِي علَىٰ الرُّجُوع.

لم يَفْهَمْ يُوسُفُ أَنَّ امْرأة الْعَزِيزِ تَتَّهِمُهُ بأنَّه رَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِها، من قولها لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ وَلَوْ أَنَّهُ فَهِمَ هَـٰذا الْفَهْمَ لَقَالَ: «هِي الَّتِي رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي» لِيَرُدَّ عَلَيْها الاتِّهام، إنَّمَا قَالَ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ أي: فأبَيْتُ، فأرَادَتْ أَنْ تُكْرِهَنِي لِأَنَّهَا صاحِبَةُ الأَمْرِ والنَّهْيِ، فآثَرْتُ الفرار عَلَىٰ المقاومَة.

• ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: أيْ بأنَّها هِيَ الَّتِي كانَتْ تُلاحِقُهُ فِي سَاحَةِ الْقَصْرِ وَهُوَ هَارِبٌ مِنْهَا إِلَىٰ جِهَةِ الْبَابِ الْخَارِجِي، فَدَلَّ هَـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُ فَتَحَ بَاباً دَاخِلِيًّا مِنَ الْأَبْوَاب الَّتِي غَلَّقَتْهَا وَخَرَجَ مِنْهُ إِلَىٰ سَاحَةِ الْقَصْرِ، وهيَ سَاحَةٌ مُعَرَّضَةٌ لِأَنْ يُوجَدَ فِيها بَعْضُ سُكانِ الْقَصْرِ وَمُرْتَادِيه.

أهل الإنْسَان: أَقارِبُهُ وعشيرتُهُ وأَصْحَابُهُ، وقَدْ يَشْمَلُ الْخَدَم.

وَهُنَا لَا بُدَّ أَنْ تُكَذِّبَ المرْأَةُ الشَّاهِدَ، وتَعْكِسَ الْقَضِيَّةَ، وتَزْعُمَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي كَانَ يُلَاحِقُهَا، فَقَالَ الشَّاهِد:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن

كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: دَعُوا شَهَادَتي، وَخُذُوا بأَدِلَّةِ آثَارِ الواقِعَةِ، فَمِنْ آثَارِهَا أَنَّ ثَوْبَ يُوسُفَ قَدْ قُدَّ عِنْدَ اسْتِبَاقِهِمَا الْبَابَ، فإنْ كَانَ هُوَ الَّذي لَحِقَهَا وَهِيَ فَارَّةٌ مِنْهُ وَأَدْرَكَهَا عِنْدَ الْبابِ فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ قَدْ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ، أي: مِنْ جِهَةِ صَدْرِهِ، إذْ تَدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهَا، وَإِنْ كَانَتْ هِيَ الَّتي لَحِقَتْهُ وَهُوَ فَارٌّ مِنْهَا فَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَجْذِبَ ثَوْبَه مِنْ جِهَةِ ظَهرِه، فَيَكُونَ قَدُّهُ مِنْ دُبُرٍ.

وسَبَقَ أَنْ عَرَفْنَا أَنَّ **الْقَدَّ** هُوَ الْقَطْعُ أَو الشَّقُّ طُولاً.

فإنْ كانَ الْقَدُّ مِنْ قُبُلٍ كَانَ دَلِيلاً عَلَى صِدْقِها، ودَلِيلاً عَلَىٰ أَنَّهُ كَاذِبٌ في ادِّعَائِهِ مِنَ الكاذبين. وإنْ كَانَ الْقَدُّ مِنْ دُبُرٍ كَانَ دَلِيلاً على صِدْقِهِ، ودَلِيلاً عَلى أَنَّهَا كَاذِبَةٌ فِي ادِّعَائِها.

المرادُ بالْقَمِيص: الثَّوْبُ الذي يَشْتَمِلُ على الْجَسَدِ كُلِّهِ، ويُطْلَقُ على الشِّعَار وهُو يكون تَحْتَ الدّثار.

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: نَظَرَ زَوْجُهَا الْعَزِيزُ فِي قَمِيصِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، فرأىٰ أَنَّهُ قُدَّ مِنْ جِهَةِ ظَهْرِهِ لَا مِنْ جِهَةِ صَدْرِهِ، فأَدْرَكَ صِحَّةَ شَهَادَةِ الشَّاهِدِ، وأَنَّهَا هِيَ الَّتِي كانَتْ تُلاحِقُه، وأَدْرَكَ صِدْقَ قَوْلِ يُوسُفَ: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾.

فَوَجَّهَ كلامَهُ لِزَوْجَتِه:

﴿... قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾: أي: إنَّ اتِّهَامَكِ لِيُوسُفَ بِأَنَّهُ أَرَادَ بِكِ سُوءاً مِنْ ضَرْبٍ ونَحْوِهِ هو كَيْدٌ مِنْكِ، وهو مِنْ صِنْفِ كَيْدِكُنَّ أَيَّتُها النِّسَاءُ، إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ.

الكَيْد: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. ويُطْلَقُ على الْحِيلَةِ. ويَكُونُ بالحقِّ أو بالْبَاطِلِ، وَبالْخَيْرِ أَوْ بالشَّرّ.

وأَرَادَ الْعَزِيزُ بإِدَارَتِهِ الحكيمَةِ طَيَّ الْحَادِثَةِ وَعَدَمَ إِشَاعَتِها فَقَالَ:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ أي: أَعْطِهِ عَارِضَكَ وَتَجَاهَلْهُ كَأَنَّهُ لم يَكُن.
- ﴿... وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾: أي: والْتَفَتَ إلى زَوْجَتِهِ فَقَالَ لَهَا هَٰذا الْقَوْل.

الاسْتِغْفَار: طَلَبُ سَتْرِ الذَّنْبِ، ويَلْزَمُ مِنْهُ عَدَمُ المؤاخَذَةِ عَلَيْه.

الْخَاطِىءُ: هُوَ المذْنِبُ عَنْ عَمْدٍ.

وذَكَرَ أَنَّهَا من الْخَاطِئِينَ وهو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سَالِم، للدَّلالَةَ عَلَىٰ أَنَّ جُرْأَتَهَا فِي المراوَدةِ الصَّرِيحَةِ إِنَّمَا يَفْعَلُهَا الرِّجَالُ، أَمَّا النِّسَاءُ فَيَقْتَصِرْنَ عَلَىٰ الإغْرَاءَاتِ بالحركات والزِّينَةِ والتخضُّعِ فِي الْقَوْلِ وإبْدَاءِ المفاتِن.

ولَا نَمْلِكُ دَلِيلاً عَلَى أنَّ المصْرِيين يومَئذٍ كَانَ لَدَيْهِمْ دِينٌ رَبَّانِيٌّ، يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الزِّنا، ويَسْتَغْفِرُونَ رَبَّهُمْ مِنْ ذُنُوبِهِمْ في الفواحِش أو من الاتِّهَام بالباطل، أو غيرِ ذلِكَ.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّرُ الْفَصْل السّادس من قصّةِ يوسف.

والحمد لله على مَدَدِهِ وتوفيقه ومَعُونَتِه وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليليّ للفصل السابع من قصة يوسُف
الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ

وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾:

القراءات:

(٣١) • قرأ أبو جعفر: **[مُتَّكاً]** بحذْفِ الْهَمْزَةِ وإبْقَاءِ التَّنْوين.

وقرأها باقِي القرّاء العشرة: **[مُتَّكأً]** بإثْبَاتِ الْهَمْزَةِ والتَّنْوين.

(٣١) • قرأ أَبو عَمْرو، وعَاصِم، وحمزة، ويَعْقُوب: **[وَقَالَتِ اخْرُجْ]** بِكَسْرِ التاء. وقرأهَا بَاقِي القراء العشرة: **[وَقَالَتُ اخْرُجْ]** بِضَمّ التَّاء. وهما وجْهَان عَرَبِيَّان.

(٣١) • قَرأ أبو عَمْروٍ فِي الْوَصْلِ: **[حَاشَىٰ لِلهِ]** بإثْبَاتِ الألف بَعْدَ الشّين.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[حَاشَ لِلهِ]** بحذْفِ الألف بَعْدَ الشِّين وقفاً ووصْلاً.

(٣٣) • قرأ يعْقُوبُ هُنَا خاصَّةً **[السَّجْنُ]** وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[السِّجْنُ]** على أنّه اسْمُ المكانِ الّذِي يُسْجَنُ فيه.

تمهيد:

في هـٰذا الْفَصْل بَيانُ أَبْرَزِ أَحْدَاثِ انْتِشَارِ خَبَرِ حُبِّ امْرأَةِ الْعَزِيز، لِفَتَاهَا الرَّقِيقِ «الْعِبْرَانِيّ» في عِلْيَةِ الْقَوْمِ ولَا سيما بَيْنَ نِسَائِهِمْ.

وَمَا فَعَلَتْهُ امْرأَةُ الْعَزِيزِ لإسْكَاتِ أَلْسِنَةِ النِّسْوَةِ اللَّائِي لُمْنَها.

وَمَا بَدَا لِلْعَزِيزِ وأهْلِ مَشُورَتِهِ مِنْ سَجْنِ يُوسُفَ لِسَتْرِ الْوَرْطَةِ الَّتِي سَقَطَتْ فيها زَوْجَتُهُ، وإيقَافِ انْتِشَارِها في المجتمع المصْرِي حِينَئذٍ، حَتَّىٰ إِذَا نُسِيَتِ الحادِثَةُ وسَكَتَ النَّاسُ عَنِ الْحَدِيثِ فيها أخْرجُوه سِرّاً.

التدبُّر التحليلي:

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾:

يَظْهَرُ أَنَّ الشَّاهِدَ الَّذِي شَهِدَ لِيُوسُفَ مِنْ أَهْلِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ، أو مَنْ كَانَ مَعَهُ، قَدْ نَقَلَ الْخَبَرَ لِبَعْضِ خَاصَّتِهِ واسْتَكْتَمَهُ إِيَّاهُ، لَكِنَّ هَـٰذا قَدْ تَحَدَّثَ بِهِ لِبَعْضِ خَاصَّتِهِ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ فِي المجْتَمَعِ الْبَشَرِيِّ أَنَّ كُلَّ سِرٍّ جَاوَزَ الْاثْنَيْنِ شَاعَ.

وَوَصَلَ النَّبَأُ إِلَىٰ نِسْوَةِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ، فَعَظُمَ عِنْدَهُنَّ أَنْ تَعْشَقَ امْرأَةُ الْعَزِيزِ فَتَاهَا الْعَبْدَ الرَّقِيقَ عِنْدَها، فِصِرْنَ يَتَحَدَّثْنَ بِأَمْرِهَا لَائِمَاتٍ لَهَا عَلَىٰ مَا سَقَطَتْ فِيهِ، وَيُعْلِنَّ أَنَّهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ بِحَسَبِ مَا يَرَيْنَ، إِذْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مِثْلِهَا وَهِيَ امْرأَةُ عَزِيزِ مِصْرَ أَنْ تَعْشَقَ عَبْداً رَقِيقاً خَاضِعاً لِسُلْطَتِهَا فِي قَصْرِهَا، هَـٰذا أَمْرٌ مُسْتَنْكَرٌ غَيْرُ مَعْهُودٍ لَدَىٰ نِسَاءِ عِلْيَةِ الْقَوْمِ وسَرَاتِهِمْ.

نِسْوَة: عَلَىٰ صِيغَةِ جَمْعٍ مِنْ جُمُوعِ الْقِلَّة، وهِي «فِعْلَة» وهَـٰذا الْجَمْعُ لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ مثل «نِسَاء».

[تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ]: يَظْهَرُ أَنَّهُمْ كَانُوا يُكَرِّمُونَ خَاصَّةَ عَبِيدِ كِبَارِ القوم، فيقولُون: هُوَ فَتَاهُمْ. ومعنى الفَتَىٰ في اللُّغَةِ الشَّابُّ.

وجاء اسْتِعْمَالُ الْفِعْلِ المضارع ﴿تُرَٰوِدُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّهَا مَا زَالَتْ تَدْعُوه إِلَىٰ مُضَاجَعَتِهَا ومُعَاشَرَتِهَا مُعَاشَرَةَ الأزواج.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾: أي: أصابَ قَلْبَها حُبُّهُ: «حُبًّا»: تَمْييز مُحَوَّلٌ عَنْ فَاعل.

الشَّغَافُ: غِلَافُ الْقَلْبِ، أَوْ سُوَيْدَاؤُهُ وَحَبَّتُه، وجَمْعُه «شُغُف».

﴿... إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾: أكَّدْنَ ضَلَالَهَا الواضِحَ عَمَّا يَجِبُ لِأَمْثَالِهَا فِيما يَرَيْنَ، بالمؤكّداتِ: «إنَّ ـ والجملة الاسْمِيَّة ـ واللام المزَحْلَقَة».

ويَظْهَرُ أَنَّهُنَّ جَعَلْنَ يُشِعْنَ النَّبَأَ لِتَشْوِيهِ سُمْعَتِها فِي المدينة، وَذُكِرَ أَنَّها مَدِينَةُ «مَنْفِيس» قاعِدَةِ مِصْرَ السُّفْلَىٰ.

قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾:

• ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾: أي: فحِينَ سَمِعَتْ كلامَ مَنْ أَخْبرَهَا، بأنَّ النِّسْوَة اللَّوَاتِي تَعرِفُهُنَّ يَلُمْنَها مُتَحدِّثَاتٍ بأنَّ امْرَأَة الْعَزِيزِ مَا زَالَتْ تُرَاوِدُ فَتاهَا عَنْ نَفْسِهِ، وَهَٰذا أَمْرٌ مُسْتَهْجَنٌ مِنْهَا جدًّا، إِذْ لَا يَلِيقُ بِمِثْلِهَا وَهِي زَوْجَةُ عَزِيزِ مِصْرَ، أَنْ تَعْشَقَ عَبْداً هُوَ فِي بَيْتِهَا وَتَحتَ سُلْطَانِ أَمْرِهَا وَنَهْيِهَا، هَلَّا عَشِقَتْ شَاباً مِنْ أَبْنَاءِ سَرَاةِ المصْرِيِّينَ وَذَوِي السُّلْطَانِ فِيهم.

وهَٰذا مِنْهُنَّ مَكْرٌ يُرِدْنَ بِهِ التَّشْهِيرَ بِسُمْعَةٍ سَيِّئَةٍ لها.

فَلَمَّا سَمِعَتِ الْخَبَرَ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ تَدْعُوهُنَّ إِلَىٰ طَعَامٍ عِنْدَها، غَدَاءٍ أَوْ عَشَاءٍ.

• ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾:

وأعْتَدَتْ: أي: وأعَدَّتْ وَهيَّأَتْ بعِنَايَةٍ.

مُتَّكأً: أيْ: مَا يَتكِئْنَ عَلَيْهِ عِنْدَ جُلُوسِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ وشَرَابِهِنَّ، ويَظْهَرُ أَنَّهُ كانَ مَقْعَداً طَوِيلاً ذَا حَشَايَا صَالحاً لِأَنْ يَتَّكِئْنَ عَلَيْها، فأُطْلِقَ عَلَيْهِ لَفْظُ «مُتَّكأ» بالْإفْراد.

وتَهْيِئَةُ المتَّكأِ فِي دَعْوَةٍ إلَىٰ طَعَامٍ وشَرَابٍ يَسْتَدْعِي أَنْ تَضَعَ خِوَاناً أمَامَهُ، لِتَجْعَلَ مَا أَعْتَدَتْ مِنْ طَعَامٍ وَشَرَابٍ عَلَيْه.

• ﴿وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾: أي: لِتَقْشِيرِ أَوْ تَقْطِيعِ الْفَاكِهَةِ، ولَعَلَّهَا جعَلَتْهَا حَادَّةَ الشَّفَرَاتِ، لتكُونَ سَرِيعَةَ الْقَطْع.

• ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾: أي: وقَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ليُوسُفَ حِينَ بَدَأْنَ يُقَطِّعْنَ الْفَاكِهَةَ لِيَأْكُلْنَ مِنْهَا، اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ، وظَاهِرٌ أَنَّهَا لَا تَأْمُره بأَنْ يَخْرُجَ مِنْ غُرْفَتِهِ إلَىٰ مَكَانِ مُتَّكَئِهِنَّ، إلَّا إذَا كَانَ فِي أَحْسَنِ زِينَةِ الشَّبَابِ المكْتَمِلِ.

• ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾: أي: فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَعْظَمْنَهُ، وَدَهِشْنَ مِنْ فَرْطِ حُسْنِهِ، فَقَدْ آتَاهُ اللهُ شَطْرَ الْحُسْنِ، مَعَ رُجُولَةٍ مُكْتَمِلَةٍ مَلَكَتْ قُلُوبَهُنَّ، فَجَرَتْ سَكَاكِينُهُنَّ مِنْ تَقْطِيعِ الْفَاكِهَةِ الَّتِي في أَيْدِيهِنَّ، إلىٰ تَجْرِيحٍ لِأَيْدِيهِنَّ وَهُنَّ لَا يَشْعُرْنَ مِنْ شِدَّةِ دَهْشَتِهِنَّ بِمَا رَأَيْنَ.

• ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وسَالَتْ دِمَاءُ جِرَاحَاتِهِنَّ، ولَعَلَّهُنَّ أَخَذْنَ يُعَالِجْنها، مَسْحاً وَضَغْطاً ولَفّاً بِالْمَنَادِيلِ.

• ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ﴾ وفي القراءة الأخْرَىٰ: [**حَاشَىٰ لله**]:

جاءَ في لِسَانِ الْعَرَب لابْنِ منظور: «حَاشَىٰ للهِ، وحَاشَ للهِ» أي: «بَرَاءَةً للهِ، ومَعَاذاً للهِ» والمعْنَىٰ: نَبْرَأ إلى الله مِنْ قُدْرَتِنَا عَلَىٰ مُقَاوَمَةِ هَـٰذا الْجَمَالِ والشَّبَابِ المكْتَمِلِ، دُونَ أَنْ تَتَأَثَّرَ أَنْفُسُنَا وقُلُوبُنَا بِعِشْقِهِ والتَّعَلُّقِ

الشَّدِيدِ بِهِ. ولُجُوءاً للهِ لِيُعِيذَنَا مِنْ تَأْثِيرِ هَـٰذا الْحُسْنِ الَّذِي لَمْ نَشْهَدْ نَظِيرَهُ وَلَا قَرِيباً مِنْهُ على أفْئِدَتنا.

• ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾: «ما» هنا عَامِلَةٌ عَمَلَ «لَيْسَ» على لُغَةِ أَهْلِ الحجاز إبَّانَ التنزيل. و«هَـٰذا» اسْمُها. و«بَشَراً» خَبَرُها.

قُلْنَ هذا لِأَنَّهُنَّ لَمْ يَسْبِقْ لَهُنَّ أَنْ شَهِدْنَ بَشَراً على مِثْلِ هَـٰذا الْجَمَالِ الْبَدِيعِ الرَّائع الَّذِي يَمْتَلِكُ عَوَاطِفَ الْقُلُوب.

﴿... إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾: إنَّ النَّاسَ يتَخَيَّلُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ الْكِرَامَ حِسَانُ الْوُجُوهِ والأَجْسَام حُسْناً فَائِقاً، فتبَادَرَ لِأَذْهَانِهِنَّ أنْ يَصِفْنَهُ بِأَنَّهُ كَمَلَكٍ كَرِيمٍ، أيْ: جَامِعٍ لِأَكْمَلِ صِفَاتِ الْحُسْنِ وأسْناها.

بِخِلَافِ الْجِنِّ والشَّيَاطِينَ، إذْ يَتَخَيَّلُهُمُ النَّاسُ قَبِيحِينَ، مُخِيفِينَ، مُرْعِبِين.

عِنْدَئِذٍ اسْتَغَلَّتِ امْرأَةُ الْعَزِيز دَهْشَتَهُنَّ مِنْ حُسْنِهِ، وتَقْطِيعَهُنَّ أَيْدِيَهُنَّ.

• ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي في حُبِّهِ الَّذِي دَخَلَ إلىٰ سُوَيْدَاءِ قَلْبِي وَأَنْتُنَّ لَمْ تَرَيْنَهُ، هُوَ هَـٰذا الَّذِي أَدْهَشَكُنَّ لَمَّا رَأَيْتُنَّهُ، وَقَطَّعْتُنَّ أَيْدِيَكُنَّ ذَاهِلَاتٍ وأَنْتُنَّ تُقَطِّعْنَ الْفَاكِهَةَ، أَفَأُلَامُ عَلَىٰ أَنَّهُ شَغَفَنِي حُبًّا.

عِنْدَئِذٍ لَا بُدَّ أَنْ يَقُلْنَ لَهَا جَمِيعاً: لَا لَوْمَ عَلَيْكِ فِي أَنْ تُحِبِّيهِ حُبًّا يَمْلِكُ بِقُوَّةٍ نَفْسَكِ وَقَلْبَكِ، وَلَا لَوْمَ عَلَيْكِ فِي أَنْ تُرَاوِدِيهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَوْ كُنَّا بَدَلَكِ لَفَعَلْنَا مِثْلَمَا فَعَلْتِ، وكانَتْ تَعْلَمُ صِفَاتِ نِسَاءِ مُجْتَمَعِهَا، فَقَالَتْ لَهُنَّ لِيُعِنَّهَا عَلَىٰ إقْنَاعِهِ وإخْضَاعِهِ لِطَلَبِهَا:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ﴾: أي: فاشْتَدَّ فِي عِفَّتِهِ وَعِصْمَةِ نَفْسِهِ

عَنِ الْوُقُوعِ في الْخَطِيئَة، دَلَّتِ السِّينُ والتَّاءُ عَلَىٰ الشِّدَّةِ فِي عِصْمَةِ نَفْسِهِ وامْتِنَاعِهِ عن الاستجابَةِ لِمُرَاوَدَتها له.

ويَظْهَرُ أَنَّهُنَّ تَعاطَفْنَ مَعها، فَجعَلْنَ يُعَطِّفْنَهُ عَلَيْها لِيُلَبِّيَ طَلَبَها، حَتَّىٰ لَا يُؤَثِّرَ حُبُّهَا الشَّدِيدُ لَهُ عَلَىٰ عَقْلِهَا فَتُجَنَّ، فَلَمَّا رَأَتْ مِنْهُنَّ هَـٰذا الْعَطْفَ عَلَيْها، قَالت:

• ﴿... وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أيْ: بِـــــــهِ ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أَقْسَمَتْ أمَامَ صَوَاحِبِها النِّسْوَةِ وَبِحَضْرَةِ يُوسُف، أنْ تَعْمَلَ على سَجْنِهِ وإذْلَالِهِ وإهَانَتِه، إنْ لَمْ يُطِعْهَا فِيما تَأْمُرُهُ بِه.

اللَّام في ﴿لَئِنْ﴾ وَاقِعَةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ: ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بنُونِ التَّوْكيد الثَّقِيلَةِ. ﴿وَلَيَكُونًا﴾ بِنُونِ التَّوْكِيدِ الْخَفِيفَةِ، ويُوقَفُ عَلَيْهَا بالْألف.

الصَّاغر: الذليل الوضيع المهان.

ولَمَّا سَمِعَ يُوسُفُ هَـٰذا التَّهْدِيدَ، وَرَأَىٰ أَنَّ النِّسْوَةَ اللَّائِي كُنَّ لَائِمَاتٍ لَها، صِرْنَ مُحَرِّضَاتٍ لَهُ عَلَىٰ الاسْتِجَابَةِ لِطَلَبِها، تَوَجَّهَ لِرَبِّهِ دَاعِياً:

﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

لَقَدْ آثَرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ السِّجْنَ «وَفِي القراءة الأُخْرَى: السَّجْنَ، مَصْدَرُ: سَجَنَهُ سَجْناً» عَلَىٰ الْوُقُوعِ في فَاحِشَةِ الزِّنى الَّتي تُطَالِبُهُ بِهَا امْرَأَةُ الْعَزيز، وَيُؤَازِرُهَا فِي الْحَثِّ والإقْنَاعِ صَوَاحِبُهَا النِّسْوَة.

فَقَالَ: رَبّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْوُقُوعِ في كَبِيرةِ الزِّنى الَّذِي يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ، وَقَدْ كَثُرَ الضَّغْطُ عَلَيَّ، وَإِنْ لَمْ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ، باتِّخَاذِهِنَّ مُخْتَلِفَ الْوَسَائِلِ والْحِيَلِ والضُّغُوطِ النَّفْسِيَّة، لإغْرَائِي وإقْنَاعِي

واسْتِثَارَةِ شَفَقَتِي، فَإِنَّنِي أَمِيلُ إلى الاسْتِجَابَةِ لَهُنَّ فأَقَعُ في مَعْصِيَتِكَ، وأَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ، الَّذِينَ تَشْتَدُّ فِيهِمْ حَرَارَةُ الشَّهْوَةِ، فَيَقَعُونَ فِي الإِثْمِ.

﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾: مِنْ فِعْلِ «صَبَا، يَصْبُو، صَبْواً، وصَبْوَةً» أي: مَالَ إِلَىٰ اللَّهْوِ، والصَّبْوَةُ إِلَيْهِنَّ هُو الْمَيْلُ إلى الاسْتِمْتَاعِ بما حَرَّمْتَهُ من ارتكاب فاحِشَةِ الزِّنى. وفعل ﴿أَصْبُ﴾ مجزُومٌ على أنَّهُ جوابُ الشَّرْطِ وجزاؤه.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾: أَصْلُ الْجَهْلِ مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: جَهِلَتِ الْقِدْرُ، تَجْهَلُ جَهْلاً، أي: اشْتَدَّ غَلَيَانُها، وهُوَ ضِدُّ تَحَلَّمَتْ، وَلَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ الرِّجالِ مكْتَمِلِي الرُّجُولَة، مَا للشَّهْوَةِ إِلَىٰ النِّسَاءِ مِنْ غَلَيَانٍ شَدِيدٍ دَافِعٍ إلى مُعَاشَرَتِهِنَّ.

ويُطْلَقُ الجهْلُ عَلَىٰ الغضب، والسَّفَهِ، وعلى عَدَمِ الْعِلْم بالشيء.

قول الله تعالى:

• ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: فعَجَّلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لَهُ إجَابَةَ دُعَائِهِ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَ امرأة الْعَزِيز، وكَيْدَ صَوَاحِبِهَا النِّسْوَةِ اللَّائي حَاوَلْنَ بِوَسَائِلِهِنَّ الضَّغْطَ عَلَيْهِ، لِيُلَبِّيَ طَلَبَ امْرَأَةِ الْعَزِيز.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: أي: إِنَّهُ هُوَ وَحْدَهُ السَّمِيعُ لِكُلِّ صَوْتٍ يُمْكِنُ أَنْ يُسْمَعَ في الْوُجُودِ كُلِّه، وَهُوَ وَحْدَهُ الْعَلِيمُ بِكُلِّ شيء.

وفي ذِكْرِ هَٰذا تَذْكِيرٌ بِبَعْضِ عَنَاصِرِ القاعِدَةِ الإيمانِيَّة، وتَرْسِيخٌ لَهَا في قُلُوبِ المؤمِنِينَ، وَرَبْطٌ لظَاهِرَةِ اسْتِجَابَةِ الدُّعَاءِ بما يُلائِمُهَا مِنَ الْقَاعِدَةِ الإيمانِيَّة، مَعَ إِسْمَاعِ الْكَافِرِينَ والشَّاكِّينَ بما جاء في هَٰذا البيان.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾:

أي: وَبَعْدَ مُدَّةٍ مُتَراخِيَةٍ نِسْبِيًّا أخذَتْ أنْباءُ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ وَفَتاهَا تَشِيعُ وتَفْشُو، وهَـٰذا مِمَّا يُشَوِّهُ سُمْعَةَ الْعَزِيز رَئِيس الشُّرْطَةِ فِي مِصْر، واسْتَمَرَّ فِيها يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام مُسْتَعْصِماً، بَدَا لِلْعَزِيز وَمَنْ حَوْلَهُ مِنْ أنْصارِهِ وأَهْلِ مَشُورَتِهِ أَنْ يَسْجُنُوا يُوسُفَ، لِيُلْصِقُوا بِهِ التُّهمَة، وَيُوقِفُوا فُشُوَّ النَّبأ، عَلَىٰ الرُّغْم من أَنَّهُمْ رَأَوْا آيَاتِ براءَةِ يوسف، وإدانة امرأةِ العزيز.

فأقْسَمُوا لِيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ، يَكُونُ فِيه النَّبأُ قَدْ نُسِيَ، وسَكَتَتْ عَنْ تَنَاقُلِهِ الْأَلْسِنَةُ والْأَسْمَاعُ، فَسَجَنُوهُ.

فَاعِلُ ﴿بَدَا﴾ مَطْوِيٌّ يُفْهَمُ مِنَ السِّياق. أي: بَدَا لهم أن يَسْجُنُوهُ واللَّامُ في ﴿لَيَسْجُنُنَّهُۥ﴾ واقِعَةٌ في جواب قَسَمٍ مَنْوِي، أي: وأقْسَمُوا لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِين.

وفي الْعِبَارَةِ مَطْوِيٌّ ثَالِثٌ وهُو: فَسَجَنُوهُ.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل السابع من قِصَّةِ يوسف.

والحمْدُ لله على معونته ومَدَدِه وتوفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليلي للفصل الثامن من قِصَّةِ يوسف
الآيات من (٣٦ ـ ٤٢)

قال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

القراءات:

(٣٦) • قرأ نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر: **[إِنِّيَ أَرانِي]** بفتح ياء المتكلّم من «إِنِّي» في الموضعين، وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٣٦) • قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر بفتح ياء المتكلّم من **[أَرَانِيَ أَعْصِرُ]** و**[أَرَانِيَ أَحْمِلُ]**. وقرأهما باقي القراء العشرة بالإسكان.

(٣٦) • أبْدَلَ الهمزة أَلِفاً من: **[رَاسِي]** السُّوسي، وأبو جعفر، وكذلك حمزة في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[رَأْسِي]** بإثْبَاتِ الهمزة.

(٣٦) • أبْدَلَ الْهمزة ياءً مِنْ: **[نَبِّينَا]** أبو جعفر. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَبِّئْنَا]**.

(٣٧) • قرأ ابْن وِرْدان: **[تُرْزَقَانِهِ إلاَّ]** بِكَسْرِ الْهَاءِ مِنْ غَيْرِ صِلَة.

وقرأها باقي القرّاء العشَرَة بالكَسْرِ مَعَ الصِّلَة.

(٣٧) • قرأ السُّوسِي، وأبو جَعْفر: **[نَبَّاتُكُمَا]** بإبْدالِ الْهَمْزَةِ أَلِفاً، وكذلِكَ حَمْزَةُ في الوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَبَّأْتُكُمَا]** بإثْبَاتِ الهمزة سَاكِنَة.

(٣٧) • فَتَح ياء المتكلّم مِن: [**رَبِّيَ إِنِّي**] نَافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر. وأسْكَنَهَا بَاقي القرّاءِ العشرة.

(٣٨) • فتح ياء المتكلّم من: [**آبَائِيَ إِبْرَاهِيمَ**] نافع، وابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامِر، وأبو جَعْفر. وأسْكَنَهَا بَاقِي الْقُرَّاءِ العشرة.

(٤١) • أبْدَلَ الْهَمْزَة ألفاً مِن: [**رَاسِهِ**] السّوسي، وأبو جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**رَأْسِهِ**].

تمهيد:

في آيات هَـٰذا الْفَصْل بيانُ الأحْدَاثِ ذَاتِ الشَّأْنِ من قصَّة يوسف، خلالَ وُجُودِه في السِّجْنِ الَّذِي لَبِثَ فِيهِ بضْعَ سِنِينَ. (**البِضْع**: من ثلاث إلى عشرة).

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالَىٰ:

• ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْأَخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

الفتَىٰ: الشّابّ أوَّلَ شبابِه، فَوْقَ المراهَقَةِ ودُونَ الرجولة، يُثَنَّىٰ على «فَتيَان» و«فتوَان»، ويجمع على «فِتْيَان» و«فِتْيَة».

هَـٰذان الفَتيان كانَ أَحدُهما رئِيسَ سُقَاةِ المَلِكِ، وكَانَ الآخَرُ رئيس خَبَازي قَصْره، فأذْنَبَا فَسَخِطَ فِرْعَوْنَ عَلَيْهما، فأمَرَ بسَجْنِهما، فاجْتَمَعَا فِي السِّجْنِ مع يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام، على ما ذكر الإسرائيليُّون.

وعُرِفَ يُوسُف بَيْنَ السُّجنَاءِ بأنَّهُ يُعَبِّرُ الأحْلَام، فَيَجْرِي الْوَاقِعُ عَلَىٰ وَفْقِ تَعْبِيرِه.

فَرَأَىٰ رَئِيسُ سُقَاةِ الْمَلِكِ في حُلْمِهِ أَنَّهُ يَعْصِرُ الْعِنَبَ ويَصْنَعُ مِنْهُ خَمْراً. ورأىٰ رَئِيسُ خَبَّازِي قَصْرِ الْمَلِكِ أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبزاً وأَنَّ الطَّيْرَ تَأْكُلُ مِنْه، فَقَصَّ كُلٌّ مِنْهُمَا رؤيَاهُ عَلى يُوسُفَ، وطَلَبَ مِنْهُ أنْ يُنَبِّئَهُ بِتَأْويله. وأثْنَيا عَلَيْهِ بأَنَّهُمَا يَرَيَانِهِ مِنَ الْمُحْسِنِين.

• ﴿أَعۡصِرُ خَمۡرًاۖ﴾ في هذه العبارة مَجازٌ مُرْسَلٌ، أي: أعْصِرُ عِنَباً يَؤُولُ أمْرُهُ إلى أَنْ يَكُونَ خَمْراً، أُطْلِقَ عَلَىٰ المعْصُورِ اسْمُ مَا يَؤُولُ إليه، باعتبار أَنَّ الغرض مِنْ عَصرِهِ أنْ يُتْرَكَ حَتَّىٰ يَكُونَ خَمْراً.

• ﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾: أي: أَخْبِرْنَا بِمَا يَؤُولُ إلَيْهِ مَا رَأَيْنَا، أَيْ: يَرْجِعُ أو يَصِيرُ إليه، بِحَسَبِ مَا تَرَىٰ مِنْ دَلَالَتِهِ الرَّمْزِيَّة.

﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: أي: مِنَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ في أقْوَالِهِمْ وأفعالِهِم، ومِنَ الَّذِينَ يُحْسِنُونَ في تَعْبِير الرُّؤَىٰ، وأكَّدُوا عبارتهم بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية».

الإحْسَانُ: أعْلَىٰ مَرَاتِبِ السُّلُوكِ الإنْسَانِي الاخْتِيَاريّ.

لَكِنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام لَمْ يَذْكُرْ لَهُمَا تَأْوِيلَ مَا رَأىٰ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي حُلْمِهِ، إلَّا بَعْدَ أَنْ قَامَ بِوَظِيفَةِ الدَّعْوَةِ إلىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، مُمَهّداً بِمَا وَهَبَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ عِلْمِ مَا سَيَأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمَا.

• ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ... ٣٧﴾.

ويَظْهَرُ أَنَّهُ تَرَكَهُمَا مُدَّةً صَارَ يُخْبِرُهُمَا فِيها عمَّا سَيأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ، مِنْ أهْلِهِمَا، أوْ مِنَ الدائرَةِ المُكَلَّفَة في الْقَصْرِ الْفِرْعَوْنِيّ أَنْ تُقَدِّمَ لَهُمَا أرْزَاقَهُمَا مِنْ مَأْكُولٍ ومَشْرُوبٍ؛ لأَنَّهُمَا سَجِينَانِ من سُجَنَاءِ موظفي الْقَصْر، ولَمّا كان وَقْتُ مَجيء الرِّزْقِ مَعْلُوماً، كَانَ الإخْبَارُ عَنْهُ قَبْلَ مَجيئِهِ من التأويل، أي: ممَّا سَيؤُولُ إلَيْهِ الواقع مطابقاً للنبأ.

وَكَانَا يَتَعَجَّبانِ مِنْ أمْرِهِ، كَيْفَ يُخْبِرُهُمَا عَمَّا سَيَأْتِيهِمَا مِنْ طَعَامٍ وهُوَ سَجِينٌ مَعَهُمَا فِي السِّجْنِ، ولا يَأْتِيهِ أحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُخْبِرُهُ؟!

ويَظْهَرُ أنَّهُمَا سَألَاهُ كَيْفَ تَعْرِفُ هَـٰذا الَّذِي صِرْتَ تُخْبِرُنَا بِهِ دَاوماً يَوْماً فَيَوْماً، وَوَقْتاً فَوقتاً بالتَّتابُعِ، إنَّ هَـٰذا لا يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ على سَبيلِ المصَادَفَةِ؟ فقال لَهُمَا:

• ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾: أي: ذلِكُمَا الإخْبارُ التَّتابُعِيُّ طَوالَ هَـٰذِهِ الْمُدَّةِ الَّتِي مَرَّتْ، هُو بَعْضُ مَا عَلَّمَنِي رَبِّي.

ومِنَ مُقْتَضَىٰ طَبيعَةِ النُّفُوسِ هُنَا أنْ يَسْألَاهُ: ألَسْتَ علَىٰ دِينِ قَوْمِنَا؟ ألَكَ رَبٌّ غَيْرُ الرَّبِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ الشَّعْبُ المصْرِي؟.

قَالَ: نَعَمْ.

• ﴿... إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾:

أيْ: قَوْمُكُمَا المصْرِيُّونَ لَا يُؤْمِنُونَ باللهِ رَبِّ كُلِّ شيءٍ في الْوُجُودِ سِوَاهُ، وخَلَقَ النَّاسَ لِيَبْلُوهُمْ فِي ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، ثُمَّ لِيُجازِيَهُمْ عَلَىٰ مَا كَسَبُوا أوِ اكْتَسَبُوا فِي رِحْلَة امْتِحَانهم، وهَـٰذا الجزاء يكُونُ في الحياة الآخِرَةِ، الَّتِي قَدَّرَهَا وَقَضَاهَا في خُطَّةِ التكْوين. وقَوْمُكُمَا هُمْ بالحَياةِ الآخرة هَـٰذِهِ هُمْ كافِرُونَ، وسَيُلَاقُونَ مَصِيرَهُمْ حتماً في عذاب جَهَنَّمَ دَارِ تَعْذِيب الكافِرِينَ المجْرِمين؛ لأنَّهُمْ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم ولم يَسْتَجِيبُوا لدعوتهم.

س: إذاً فَمَاذَا اتَّبَعْتَ مِنْ دِينٍ غَيْرِ دِينِ قَوْمِنَا؟. ج: تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمِكُمْ.

• ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾: **المِلَّة**: الدِّين والشريعة.

ويَقتضِي الحوارُ هُنَا أَنْ يَسْأَلَاهُ عَنْ آبائِهِ: إبْرَاهِيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوبَ، وأنْ يَشْرَحَ لَهُمْ قِصَصَهُمُ المتَعَلِّقَةَ بالدِّين، وترجَمَةً عَنْ صِفَاتِهِمْ، ومُجَاهَداتِهِمْ في سَبيلِ الدَّعوةِ إلَىٰ دِينِ اللهِ الحقّ، ومَا لَاقَوْهُ من الْكَافِرِينَ المجْرِمين، وأَنَّ دِينَهُمْ قَائِمٌ عَلَىٰ تَوحِيد اللهِ في رُبُوبيَّتِهِ وفي إلَهيَّته. وبَدَأَ بجَدِّه إبْرَاهِيمَ لأنَّهُ أبو الأنبياء والمرسلين من بَعْدِه، والحكمة تقتضي في مِثْلِ هذا المقام البدْءَ بالأصْلِ فَفُرُوعه.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾: أي: مَا وُجِدَ وَلَا يُوجَدُ وَلَنْ يُوجَدَ لَنا عُذْرٌ، نَحْنُ وَلَا سَائِرُ عِبَادِ اللهِ، في أَنْ نُشْرِكَ باللهِ مِنْ شيءٍ مَا.

اللّام في ﴿لَنَآ﴾ هي لَامُ الجحود، إذْ جَاءَتْ بَعْدَ كَوْنٍ مَنْفِيّ، وهَـٰذه الصِّيغَةُ من أبْلَغِ صِيَغِ النَّفْي.

وحرْفُ الْجَرِّ «مِنْ» في ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زِيدَ لتوكيد عُمُومِ كلِّ شيءٍ.

• ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾: أي: ذَلِـكَ الَّـذِي هُـوَ مَضْمُونُ مِلَّةِ آبَائِي فَضْلُ اللهِ عَلَيْنا وعَلَىٰ النَّاسِ جَميعاً، إذْ بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ لِكُلِّ الْأُمَم، فَمَا مِنْ أُمَّةٍ إلَّا بَعَثَ اللهُ لها رسُولاً بَلَّغَهَا رِسَالَةَ رَبِّها لِعِبَادِه، وهِي رِسَالَةُ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبوبيَّتِهِ وفي إلَهيَّتِهِ، وَأَنْ لَا يَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً.

• ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ مِنْذُ الْأَجْيَالِ الْبَشَرِيَّةِ الْأُولَىٰ وإلَىٰ أَنْ تَقُومَ السَّاعَة، لَا يَكُونُ مِنْهُمْ شُكْرٌ لِرَبِّهِمْ عَلَى مَا يُفِيضُ عَلَيْهِمْ مِنْ نِعَمِهِ، بالإيمانِ اعْترافاً بأنَّهُ وَاحِدٌ في رُبُوبيّتِهِ، وبأنَّهُ وَاحِدٌ فِي إلَهيَّتِهِ، وَبِعِبادَةٍ مَا يُعَبِّرُونَ بها عَنْ صِدْقِ إيمانِهِمْ، وهَـٰذا أدْنَىٰ دَرَجَاتِ الشُّكْرِ، بَلْ هُمْ يَكْفُرُونَ، فَيَتَّخِذُونَ لِأَنْفُسِهِمْ افْتِرَاءً عَلَىٰ اللهِ شُرَكَاءَ للهِ مِنْ دُونه فِي رُبُوبِيَّتِهِ، أَوْ فِي إلَهيَّتِهِ.

وصَارَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُتَابِعُ دَعْوَةَ هَـٰذَيْنِ السَّجِينَيْنِ معه إلى دِينِ اللهِ الْحَقِّ، بدْءاً مِنْ عَنَاصِرِ قَاعِدَةِ الإيمان الأُولَىٰ، فقال لهما فِي بَعْضِ مَجَالِسِ الدَّعْوَةِ لهما:

• ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾: أي: يَا صَاحِبَيْنِ فِي السِّجْنِ لِي، اللَّذَيْنِ أنِسْتُ فِي السِّجْنِ الْمُوحِشِ بِصُحْبَتِهِمَا، وبِمُحَادَثَتِهِمَا، وَعَرَفَا مِنْ أَمْرِي شَيْئاً مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي، أُوَجِّهُ الدَّعْوَة لكُمَا إِلَىٰ دِينِ اللهِ الحقِّ، بأسْلُوب الإقْنَاعِ الْقَائِمِ عَلَىٰ مَنْطِقِ الْحَقِّ، فَأُسَائِلُكُمَا:

• ﴿... ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾:

دلَّ هَـٰذا السُّؤَالُ عَلَىٰ أَنَّ الْمِصْرِيِّينَ فِي زَمَانِهِ، حُكَّامَ الْأَرْضِ الَّتِي هُوَ فيها، وَجَمَاهِيرَ سُكَّانِها، يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ أَرْبَابٍ مُتَفَرِّقِين، ويَتَّخِذُونَ لَهُمْ أَوْثَاناً يَعْبُدُونَها مِنْ دُونِ الله.

فَبَدَأَهُمَا مِنْ جَذْرِ انْحِرَافِهِمَا وَانْحِرَافِ قَوْمِهِمَا عَنِ الحقِّ، وهُوَ إيمَانُهُمْ بِتَعَدُّدِ الْأَرْبَابِ.

إنّ سُؤَالَهُ عَنْ تَعَدُّدِ الأرْبَاب في مُقَابِلِ الإيمان بِرَبٍّ واحِدٍ لِلْكَوْنِ كُلِّهِ، يَفْتَحُ بَابَ مُنَاظَرَةٍ فَلْسَفِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ عِمَادُهَا النَّظَرُ في هذا الْكَوْنِ الكَبِير، هَلْ يَخْضَعُ لِنِظَامٍ وَاحِدٍ مُتَكَامِلِ الْأَجْزَاءِ، أم يَخْضَعُ لِأَنْظِمَةٍ مُتَعَدِّدَة؟.

فإذَا ظَهَرَ بالتَّأَمُّلِ وَبِالْبَحْثِ الْعِلْمِيّ، أَنَّهُ يَخْضَعُ لِنظَام واحِدٍ مُتَكامِلِ الْأَجْزَاءِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ لَهُ خَالِقاً وَاحداً، ولَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ الْمَهَيْمِنُ عَلَيْهِ بِصِفَاتِ رُبُوبِيَّتِهِ دَواماً رَبّاً واحِداً.

إذْ لو كَانَ لَهُ أَرْبَابٌ مُتَعَدِّدُون، لتَعَارَضَتْ إرَادَاتُهُمْ في تَصْرِيفِ أَحْدَاثِهِ المتَجَدِّدَةِ، وتَعَارُضُهَا يُؤَدِّي إلى التَّنَازُعِ والتخاصُم والتصادُم في المرادات، وهُوَ يُؤَدّي إلَىٰ الْفَسَادِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ اخْتِلَالُ النظامَ والاضطرابُ والدَّمَارُ حَتْماً.

وبما أَنَّ هَـٰذا الْفَسَادَ لَمْ يَحْصُل، وبما أَنَّ هذا الكَوْنَ الْفَسِيحَ جدًّا مُسْتَمِرٌّ مِلْيَارَاتِ السِّنِينَ ضِمْنَ نِظَامٍ واحِدٍ مُتَمَاسِكٍ مِنْ أقْصَىٰ الْكَوْنِ إلَىٰ أَقْصَاهُ، فَلا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الرَّبُّ المُهَيْمِنُ عَلَيْهِ واحداً.

وبَعْدَ هَـٰذا الْبُرْهَانِ الْعَقْلِي يُقَالُ لِذَوِي المدارِكِ السَّطْحِيَّة: أَيُّهُمَا خَيْرٌ لَكُمْ وأفْضَلُ وأَكْرَمُ: أَنْ تَكُونُوا عَبِيدَ رَبٍّ وَاحدٍ عَظِيمٍ هُوَ المتصَرِّفُ الْأَوْحَدُ بالْكَوْنِ كُلِّه؟ أمْ أَنْ تَكُونُوا عَبيداً لِأَرْبَابٍ مُتَعَدِّدِينَ، يَتَشَاكَسُونَ فيما بَيْنَهُمْ، ويَتَنَازَعُونَ فِي رُبُوبِيتِهِمْ لَكُمْ، وكُلُّ واحدٍ مِنْهُمْ يَطْلُبُ مِنْكُمْ مَطَالِبَ مُخَالِفَةً لِمَطَالِبِ الآخَرِينَ؟.

والجوابُ: لَا رَيْبَ أَنَّ الرَّبَّ الواحِدَ خَيْرٌ وأَفْضَلُ وأكْرَم.

إنَّ هَـٰذا الرَّبَ هو اللهُ الواحِدُ الْقَهَّار، الَّذِي لَا يُوجَدُ شَيْءٌ في الكَوْنِ إلَّا هُو واقِعٌ تَحْتَ سُلْطَانِ قَهْرِهِ، يَفْعَلُ بِهِ مَا يَشَاءُ إيجاداً وإعداماً، وإعطاءً ومَنْعاً، وَنَفْعاً وَضُرّاً، وحَرَكَةً وسُكُوناً، إلى غيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّصارِيف في الذَّاتِ وفي الصِّفَات.

الْقَهَّارُ: الغالِبُ الَّذِي لا يَحُدُّ غَلَبَتَه شيء، الْمُجْبِرُ على ما يُرِيد. وهو اسْمٌ مِنْ أسْمَاءِ الله الحسنى.

وكان للمصْرِيين على ما ذكر المؤرِّخُونَ نحو ثلاثينَ رَبًّا، أَكْبَرُهم عِنْدَهم «آمُونَ رُع» ودُونَهُ: «أوزُوريس» و«أَزِيس» و«هُورُوس».

وكانُوا يَعْبُدونَ هَـٰذِهِ الأَرْبَابَ، ويَتَّخِذُونَ لَهَا رُمُوزاً، كَشأْنِ سَائِرِ المشْرِكِينَ، فَوَجَّه يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ لصَاحِبَيْه في السَّجْنِ الدَّعْوَة إلى نَبْذِ عبادَةِ هَـٰذِهِ الْأَرْبَابِ المتعَدِّدَةِ المتفرقَة فَقَال:

- ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ . . .﴾:

أي: مَا تعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ الواحِدِ الْقَهَّارِ الّذِي لا رَبَّ في الوجُودِ غَيْرُهُ، فَلا إلَه سِوَاهُ، مَا تَعْبُدُونَ إلَّا أَسْمَاءً لَا رُبُوبيَّةَ لَهَا فَلا إلَهِيَّةَ لَهَا، فَهِي أسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمْ، وجَعَلْتُموها أرْباباً وآلِهَةً، ورُبَّما كانَتْ هَٰذِهِ الأَسْمَاءُ غَيْرَ ذَوَاتِ مُسَمَّيَاتٍ مُطْلقاً، فأَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بأوْهَامٍ، وتَعْبُدُون أَوْهاماً.

• ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾: أي: مَا أَنْزَلَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بالْإِذْنِ بِعِبَادَتِها حُجَّةً وَلَا بُرْهَاناً، فِي بَيَانٍ كَلامِيٍّ أَنْزَلَهُ على رسُولٍ مِنْ رُسُلِه، ولَا في آيَاتٍ كَوْنِيَّةٍ دَالَّاتٍ عَلَيْه، ولا في مَقَايِيسَ فِكْرِيَّةٍ عَقْلِيَّةٍ تَهْدِي إلَيْه، فَكُلُّ ذَلِك يُقَالُ بِشَأْنِه: «إنْزَال» إذْ خَلْقُ اللهِ وَعَطَاؤُهُ وبَيَانَاتُهُ كُلُّها إنْزَالٌ؛ لأَنَّهُ الْعَلِيُّ الْأَعْلَىٰ دَوَاماً فكُلُّ تَصَارِيفِهِ إنْزَال.

السُّلْطان: هُنَا، الحجَّةُ والْبُرْهَانُ، وأدواتُ الحجَّةِ والْبُرْهان.

• ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾: أي: التَّصرُّفُ المسْبُوقُ بتَقْدِيرٍ حَكِيم وقَضَاءٍ حَكِيمٍ في الْوجود كُلِّهِ لَيْسَ لِأَحَدٍ إلَّا للهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، لأنّه هو الرَّبُّ وحْدَه.

الْحُكْمُ: الْقَضَاءُ الّذِي يأْتِي التَّنْفِيذُ عَلَىٰ وَفْقِهِ، ومِنَ الْحُكْمِ تَوْجِيهُ أَوَامِرِ التَّكليفِ.

• ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾: أي: وَجَّهَ أَمْرَهُ التَّكْلِيفِيَّ لِكُلِّ الَّذِينَ وَضَعَهُمْ في الْحياةِ مَوْضِعَ الامْتِحَانِ، فَقَالَ لهم مخاطِباً: لَا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّايَ. أيْ: لِأَنَّني أَنَا رَبُّكُمْ فَلا رَبَّ لَكُمْ غَيْرِي، ومَنْ لَهُ الْخَلْقُ فَلَهُ الْأَمْرُ، فاعْبُدُوني، وَلَا تُشْرِكُوا بِعِبادَتي شيئاً، وبِمَا أَنَّكُمْ عَبِيدِي وإمَائي، فَتَجِبُ عَلَيْكُمْ طَاعَتِي، وإذا عَصَيْتُمُوني فإنَّكُمْ تَسْتَحِقُّونَ عَذَابِي.

• ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: ذَلِكَ الَّذِي حَدَّثْتُكُمَا عَنْهُ مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ فِي رُبُوبِيّتِهِ، وَفِي إلَهِيَّتِهِ، وأَنَّ الْحُكْمَ للهِ وَحْدَهُ فِي الْوُجودِ كُلّه، وَأَنَّهُ أَمَرَ

كُلَّ الَّذِينَ وضَعَهُمْ في الحياة مَوْضِعَ الامْتِحَانِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُونَ بعِبَادَتِهِ شَيْئاً، هُوَ الدِّينُ الْقَيِّمُ.

الْقَيِّمُ: أي: المسْتَقِيم الَّذِي لَا عِوَجَ فِيهِ عَنِ الحقّ، والخيْرِ، ومَحَاسِنِ السُّلُوك.

• ﴿... وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾: وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُرِيدُونَ أَنْ يَعْلَمُوا تِباعاً حَقَائِقَ دِينِ اللهِ الْقَيِّم، لئلَّا يُؤَثِّرَ الْعِلْمُ بِهَا عَلَىٰ نُفُوسِهِمْ، فيُدْرِكُوا أَنَّهَا حَقّ، فتكُونَ بمَثَابَةِ غُصَّةٍ تَمْنَعُهُمْ مِنَ الانْطِلَاق الْفَاجِرِ، لتَحْقِيقِ أهْوَائِهِم وشَهَوَاتِهِم ورَغَبَاتِهِمْ مِنَ الحياة الدُّنيا، فِسْقاً، وظُلْماً، وعُدْواناً وطُغْيَاناً، أو هُمْ لَا يُوجّهون إرَادَاتِهِم لِلْعِلْمِ بها، انْشِغَالاً بمَا هُمْ فِيه مِنْ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وعَدَمَ مُبالَاةٍ بِها، ولا اكْتِرَاثٍ لها.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ مُبَيِّناً تَعْبِيرَ يُوسف عليه السلام لصاحِبَيْه في السِّجْنِ حُلْمَهُما، بَعْدَ أنْ دَعَاهُمَا إلى الدِّين الْقَيِّم، قائلاً لهما:

• ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾:

• ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ﴾: أي: يا صَاحِبَيْنِ لي في السِّجن، الإضافة على تقدير: «في».

• ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾: أي: أَمَّا أَحدُكُما الَّذِي رأَىٰ أَنَّهُ يَعْصِرُ خمْراً، فإنَّهُ يَخْرج مِنَ السِّجْنِ، ويَعُودُ إلى عَمَلِهِ فِي قَصْرِ فِرْعونَ، فَيَسْقِي رَبَّهُ (أي: سَيِّدَهُ الْمَلِكَ) خَمْراً كَمَا كَانَ يَسْقِيه.

• ﴿وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾: أي: وأمَّا خَبَّازُ الْمَلِكِ الَّذِي رأَىٰ أَنَّهُ يَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِهِ خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْه، فإنَّهُ يُحْكَم

عَلَيْهِ بالْقَتْلِ، فَيُسْتَدْعَىٰ لِتَنْفِيذِ الحكم بِقَتْلِهِ، فَيُصْلَبُ وَيُتْرَكُ مَصْلُوباً حَتَّىٰ تَأْتِي الطَّيْرُ فَتَأْكُلَ لَحْماً مِنْ رَأْسِهِ.

الرّأس من الإنْسَان: مِنَ الرَّقَبَةِ فَمَا فَوْق.

• ﴿... قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾: أي: أُنْهِيَ تَعْبِيرُ الْأَمْرِ «وهُمَا حُلْمَاكُما» الَّذِي تَطْلُبَانِ مِنِّي أَنْ أُفْتِيَكُمَا فِيهِ، وهذا ما عِنْدِي فيه.

الاسْتِفْتَاءُ: طَلَبُ بَيَانِ مَا يُشْكِلُ فِي المسائِلِ. والْأَحْلَامُ فِي مُعْظَمِها ذَواتُ دَلَالَاتٍ رَمْزِيَّة، فَهِيَ مِنَ الْمُشْكِلَات الَّتي لا يُفْتِي فيها إلَّا مَوْهُوبٌ يَتَفَرَّسُ في دَلَالَاتِ الرُّمُوز، وتَعْبِيرُها يَعْتَمِدُ عَلَىٰ الظَّنّ.

• ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: وقَالَ يوسف عليه السلام بظنٍ راجح اعتمد فيه على تَعْبيره للرُّؤيا، للّذي أفْتَاهُ بأنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنَ السِّجْنِ، وَيَعُودُ إلى عَمَلِهِ فِي قَصْرِ فِرْعَوْنَ، فَيَسْقِيهِ خَمْراً، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ أيْ: اذْكُرْ مَا شَهِدْتَ مِنِّي عِنْدَ سَيِّدِكَ فِرْعَوْن، وفي نَفْسِ يُوسُفَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سَبباً فِي تَذَكُّرِ فِرْعَوْنَ أَمْرَ يُوسُفَ الَّذِي يَعْلَمُ بَرَاءَتَهُ، فيَأْمُرَ بإخْرَاجِهِ مِنَ السِّجْن.

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: ظَاهِرُ الْعِبَارَة وَمَا فيها من التَّرْتِيب بحَرْفِ العَطْفِ «الفاء» يُفِيدُ أَنَّ الَّذِي نَسِيَ ذِكْرَ رَبِّهِ هُو سَاقِي الملِك، وهو الّذِي أَوْصَاهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ سَيِّدِه فِرْعَوْن.

﴿ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾: أي: تَذْكِيرَ رَبِّهِ بِهِ، على جَعْلِ الذّكْر بمعنى التَّذْكير. أو ذِكْرَهُ عِنْدَ رَبِّهِ، أُقِيم المضاف إليه مَقَامَ المحذُوفَيْن، وعَمَلُ يُوسف عليه السلام كان مِن قبيل اتِّخاذ الأسباب، ولَيس فيه ما يُلَامَ عليه به أو يُعَاتب.

ولكِنْ جاءَ عِنْدَ المفسِّرين عن ٱبْن عباس، قال: قال رَسُول الله ﷺ:

«لَوْ لَمْ يَقُلْ يُوسُفُ الْكَلِمَةَ الَّتِي قَالَهَا (أي: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾) مَا لَبِثَ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ حَيْثُ يَبْتَغِي الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ الله». وفي مَعْنَىٰ هذا الحديث عدَّة مراسِيل. واللهُ أعْلَمُ، فالنَّصُّ القرآنيُّ يُفِيدُ أَنَّ النِّسْيَانَ حصَلَ بَعْدَ قولِهِ: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ لَا قَبْلَهُ.

وجاء عند الإسْرائيليين في الإصحاح (٤٠) من سفر التكوين، ما يلي:

«٢٣ ولَكِنْ لم يَذْكُرْ رَئِيسُ السُّقَاةِ يُوسُفَ بَلْ نَسِيَهُ».

• ﴿... فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾: أي: فأقام في السِّجْنِ بَعْدَ خُرُوج صَاحِبَيْهِ مِنْهُ بِضْعَ سِنِين.

البِضْعُ: هو من الثلاثَةِ إلى العشرة، ويُشْعِرُ مَا جاء عِنْدَ الإسرائيليين في الإصحاح (٤١) من سفر التكوين، أَنَّهُ لَبِثَ فِي السِّجْنِ أَكْثَرَ مِنْ سنَتَيْنِ بَعْدَ خُروجِ صاحِبَيْهِ مِنْهُ.

واللهُ أعلم.

وبهذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الفصل الثامن من قِصَّةِ يوسف.

والحمدُ لله على معونته، ومَدَدِه، وتوفيقه وفتحه.



التدبر التحليلي للفصل التاسع من قِصَّة يوسُف عليه السلام
الآيات من (٤٣ ـ ٤٩)

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ

أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّيٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

القراءات:

(٤٣) • فتح ياء المتكلم من: [إِنِّيَ أَرَىٰ] نَافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر، وأسْكَنَهَا باقي القُرَّاء العشرة.

(٤٣) • قرأ السّوسي: [رُوياي] و[لِلرُّويَا] وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأهُما أبُو جعفر: [رُيَّايَ] و[لِلرُّيَّا].

وقرأهما باقي القراء العشرة: [رُؤْيَايَ] و[لِلرُّؤْيَا].

(٤٥) • قرأ نافع، وأبو جَعْفر: [أَنَآ أُنَبِّئُكُمْ] بِمَدِّ أَلِفِ «أنَا».

وقرأها باقي القرّاء العشرة: بفتح النون دُون ألف، وهما لغتان عربيتان.

(٤٥) • قرأ يعَقوب بإثباتِ ياء المتكلم وصلاً ووقفاً من: [فَأَرْسِلُونِي].

وحَذَفَها باقي القراء العشر، وحذف ياء المتكلم من لغة العرب، وهي مقدّرة ذهناً.

(٤٦) • فتح ياء المتكلّم من: [لَعَلِّيَ أَرْجِعُ] نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القرّاء العشرة.

(٤٧) • قرأ السُّوسي، وأبو جعفر: [دَاباً] بإبْدال الهمزة ألفاً. وكذلك حمزة في الوقف.

وقرأها حفْصٌ: [دَأَباً] بإثْبَاتِ الهمزَةِ وفَتْحِها.

وقرأها بَاقي القرّاء العشرة: [دأْباً] بإثبات الهمزة وإسْكانها.

(٤٩) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلَف: [تَعْصِرُونَ] بتَاءِ المخاطَبِينَ.

وقرأها باقي القراء العشرة: [يَعْصِرُونَ] بياء الغائبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني.

تمهيد:

في آيات هذا الفصْل بَيَانُ رُؤيا فرْعَون مَلِكِ مصْرَ في أيّام يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام وهُو في السِّجْن، وطَلَب الْمَلِكِ مِنْ مَلَئِهِ ووزرائِهِ وأَهْلِ مَشُورَتِهِ أَنْ يُفْتُوهُ فِي رُؤْياه، ورَدِّهِمْ عَلَيْه بأنَّها أضْغَاثُ أحْلَام، وبأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ تأويلَ الأحلام، وَبيانِ تَذَكُّرِ رَئِيس سُقَاةِ الْمَلِكِ الَّذِي خَرَجَ من السِّجْنِ وعَادَ إلَىٰ عَمَلِهِ في قَصْرِهِ، يُوسُفَ وأَنَّهُ ذُو عِلْمٍ بِتَعْبِيرِ الْأَحْلَام، وطَلَبِهِ مِنَ الملِكِ أَنْ يُرْسِلَهُ إلى السِّجْنِ لِيَسْأَلَ يُوسُفَ فيُفْتِيَهُ فيما رأَىٰ الملِكُ، فَأَفْتَاهُ يُوسُف، وعَادَ الرَّجُلُ إلى الْمَلِكِ بالْفَتْوَىٰ الَّتِي سَمِعَها مِنْه، وأَخْبَرَ الْمَلِكَ بما أفْتَاهُ بِهِ يُوسُفُ عليه السلام.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

سِمَان: جمع «سَمِينَة» وهي كثيرة اللّحم والشّحم.

عِجَاف: جمع «عَجْفَاء» وهي الهزيلةُ قَليلةُ اللّحم والشّحْم.

تَعْبُرُونَ: أي: تَحسِنُونَ تَفْسِيرَ رُمُوزِ الأحلام. يُقَالُ لُغَةً: «عَبَرَ فُلَانٌ الرُّؤْيَا عَبْراً، وعِبَارَةً» أي: فَسَّرَ رُمُوزها. وكذلك «عَبَّرَهَا».

العطف في أوَّل هَـٰذِهِ الآية هو من عَطْفِ الأحْدَاثِ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْض، إذْ لَهَا تَعَلُّقُ بِقِصَّةِ يُوسُفَ العامّة.

وجاء عند الإسْرَائيليّين في الإصْحَاحِ (٤١) من سفر التكوين: أَنَّ السَّنَابِلَ السَّبْعَ اليابِسَةَ الرَّقيقَةَ الْمَلفُوحَة بالرِّيحِ الشرقيَّةِ ابْتَلَعَتِ السَّنَابِلَ الحسَنَةَ.

• ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ﴾: **الْـمَـلأُ**: أشرافُ الْقَوم وسراتُـهُـمْ الَّذِينَ يَمْلَؤُونَ عُيُونَ العامَّة، وهُمْ ورزاؤُهُ، وأهْلُ مَشُورَتِهِ فِي قَصْرِهِ وَعِلْيَةُ الْقَوْم، ورُبَّمَا دَعَا الكهَنَةَ والسَّحَرَة، ليَقُصَّ عليهم رؤياه، عَسَىٰ أَنْ يَجِدَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ مَنْ يُؤَوِّلُ لَهُ رُمُوزَ رُؤْياه، إذْ أَهَمَّهُ أَمْرُها.

أي: يا أيُّها المَلأُ أبِينُوا دَلَالَاتِ رُمُوزِ رُؤيَاي.

• ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ تُحسِنُونَ تَفْسِيرَ رُمُوزِ الْأَحْلَام. اللام في: ﴿لِلرُّءْيَا﴾ هي لام التقوية لتقدُّم المعمول على عامله: ﴿تَعْبُرُونَ﴾.

فأجابه الملأ قائلين:

• ﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾:

أَضْغَاثُ الْأَحْلَام: مَا كَانَ من الأحْلام مُلْتَبِساً مُخْتَلِطاً يَصْعُبُ تَعبيرُهُ وتأْويلُهُ. أصْلُ **الضِّغْث**: كُلُّ مَا جُمِعَ وقُبِضَ عَلَيْهِ بِجُمْعِ الكَفّ، كحَشِيشٍ، وأعوادٍ مخْتَلطَة ولو لم تكُنْ مُتجانِسَةَ.

أي: قالُوا لَهُ هَـٰذِهِ الرُّؤْيا الَّتِي رَأَيْتَها هِي مِنْ نَوْعِ أضْغَاثِ الأحْلَام، الَّتِي لَا تَعْبِيرَ لها. وَمَا نَحْنُ بِتأْوِيلِ الْأَحْلَامِ ذَوَاتِ الدَّلَالَةِ بِعَالِمِينَ.

﴿بِتَأْوِيلِ﴾ مُتَعَلِّقٌ باسْم الفاعل «عَالِمِين» مُتَقَدّمٌ عليه. والباء في: ﴿بِعَالِمِينَ﴾ زائِدَةٌ لِلتَّوكِيدِ.

فأظْهَرَ المسْؤولُونَ الَّذِينَ جَمَعَهُمُ الملِكُ واسْتَفْتَاهُمْ جَهْلَهُمْ بتأْويل الْأَحْلَام ذَوَاتِ الدَّلالات، الَّتِي لَيْسَتْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ أَضْغَاثِ الْأَحْلام.

عندئذٍ تذكر رَئِيسُ سُقَاةِ الملِك أَحَدُ صَاحِبَي يوسُفَ في السِّجْن، مَا كَانَ أوصَاهُ به يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، إذْ قَالَ له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ فقال الله تَعَالَىٰ بِشَأْنه:

• ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾:

الَّذِي نَجَا مِنَ الْقَتْلِ مِنْ صاحِبَيْ يوسُفَ في السِّجْنِ هو الَّذِي رأىٰ فِي حُلْمِهِ وَهُوَ في السِّجْنِ أَنَّهُ يَعْصِرُ خمراً، فَعَبَّرَهُ يُوسفُ عليه السَّلام بأنَّهُ يُخْرَجُ مِنَ السِّجْنِ، ويُعَادُ إلىٰ عَمَلِهِ في قَصْرِ الملِكِ كَبِير سُقَاةِ الملك.

﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾: أي: وتَذَكَّرَ وَصِيَّة يُوسُفَ لَهُ بَعْدَ حِينٍ من الزَّمن. لفظ: «أُمَّة» يأتي بمَعْنَىٰ المدَّةِ مِنَ الزَّمن، والحِينِ والْوَقْت.

ولَفْظُ «ادَّكَرَ» أَصْلُهُ «اذْتكَر» بإضافة تاء «افْتَعَلَ» إلَىٰ فعل «ذَكَرَ» وقُلبَتْ التاء دالاً والذال دالاً، وادْغِمَتا دَالاً مُشَدَّدَة، فصار الفعل «ادَّكَرَ».

قال للْمَلِكِ ومَلؤُهُ حَوْلَهُ إذْ رَأىٰ عَجزَ المسْؤولِينَ عَنْ تَعبير رُؤْيَا الملك، أَنَا آتِيكُمْ بِنَبَأ تَأْوِيلِ الرُّؤْيا، إذْ أَسْتَفْتِي فِيهَا السَّجِينَ الْعِبْرَانيَّ الَّذي كُنْتُ مُصَاحِباً له فِي سِجْنِ رَئِيس الشُّرْطَة، فَهُوَ ذو عِلْمٍ بِتَعْبِيرِ الأحْلَامِ، فَأَرْسِلُونِي إِلَيْهِ لأَسْتَفْتِيَهُ، وآتِيكُمْ بِمَا يَذْكُرُ مِنْ تَأْوِيل.

جاء اختِصَارُ هَـٰذا كُلِّه بِعِبَارَة: ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ ففي طَيِّ هَـٰذِهِ العبارة كُلُّ ما سَبَقَ بيانُهُ تَفْصِيلاً.

فأمَرَ الْمَلِكُ بإرْسَالِهِ إلى يُوسُفَ سَجِينِ رَئِيسِ الشُّرْطَة، فأرْسَلُوهُ إلَيْه، فَلَمَّا وَصلَ إلَيْهِ قَال له:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾:

هَٰذِهِ الآيَةُ جاءَتْ مُخْتَزَلَةً، وفِي طَيِّهَا أَنَّ سَاقِي الْمَلِكِ هَٰذا جاء إِلَىٰ يُوسُفَ، واعْتَذَرَ لَهُ بأَنَّهُ نَسِيَ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَ الْمَلِكِ، وأَنَّ الْمَلِكَ رَأَىٰ رُؤْيَا أَهَمَّتْهُ، وَسَأَلَ عَنْ تَعْبِيرها، فَلَمْ يُنْبِئْهُ أَحَدٌ مِنَ الَّذِينَ اسْتَفْتَاهُمْ بِتَأْوِيلها. وقَصَّ عَلَيْهِ رُؤْيَا الملِك، بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾.

الصِّدّيق: أي: الْعَظِيمُ الصِّدْقِ، على وزْنِ «فِعِّيل» وهو من صِيَغِ التكثير والمبالغة، ولَهُ في الْعَرَبِيَّة نظَائِرُ قَليلَةٌ لا يُقَاسُ علَيْها.

﴿لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ﴾: أيْ: أرْجو أَنْ أَرْجِعَ إِلَىٰ الْمَلِكِ وَمَلَئِهِ بِمَا تَرَىٰ مِنْ تَأْوِيلٍ لرُؤْيَاهُ، (ال) في «النَّاس» هنا عَهْدِية.

﴿... لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾: أي: إِذَا رَجَعْتُ إِلَىٰ النَّاسِ بِتَأْوِيلِك أَرْجُو أَنْ يَعْلَمُوا تَأْوِيلَها، فَيَعْمَلُوا بما يَنْبَغِي أَنْ يَعْمَلُوه، إِذَا كَانَتْ ذَاتَ دَلَالَةٍ على عَمَلٍ مَا، يَجْلُبُ لِلنَّاسِ خَيْراً، ويَدْفَعُ عَنْهُمْ ضُرّاً.

فَأَجَابَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ تَأْوِيلِ الرُّؤْيا، وأَبَانَ لَهُ التَّدْبِيرَ الَّذِي يَجِبُ اتِّخَاذُهُ، لِحِمَايَةِ النَّاسِ ومَوَاشِيهِمْ في مِصْرَ مِن مَجَاعَةٍ عَظِيمَة قَادِمَة:

• ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

﴿دَأَبًا﴾: أيْ: دَائِبِينَ جَادِّين ملازمِينَ الْعَمَلَ من غَيْرِ فُتُور. يقال لغَةً: «دَأَبَ فُلانٌ فِي عَمَلٍ ما، أو أَمْرٍ ما، يَدْأَبُ، دَأْباً، ودَأَباً، ودُؤوباً» أي: جَدَّ فِيهِ واجْتَهَدَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاط، ويقال: «دَأَبَ الشيْءَ» أي: لازَمَهُ واعْتَادَهُ مِنْ غَيْرِ فتور.

﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾: أي: سَبْعُ سَنواتٍ صِعَابٍ على النَّاسِ، لِمَا يَحْدُثُ فِيها مِنْ جَدْبٍ وقَحْطٍ وانْقِطَاعِ أمْطار، وتَوَقُّفِ الْأَرْضِ عَنِ الإنْبَات.

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾: أي: يأكُلُ النَّاسُ وتأكُلُ مَواشيهم فيها، ما زَرَعْتُم وادَّخَرْتُمْ لَهُنَّ في سَنواتِ الْخِصْبِ.

أُسْنِدَ الْأَكْلُ إلى سَنواتِ الْقَحْطِ مَعَ أَنَّ الأكْلَ لِلْأَحْيَاءِ الآكِلَةِ فِيهَا، وهو ممَّا يُسَمَّى عِنْد البلاغيّينَ المجاز العقلي[١].

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ﴾: أي: إلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَحْفَظُونَهُ وَتَدَّخِرُونَهُ وتَمْنَعُونَ مَدَّ الأيْدِي إلَيْهِ، احْتِيَاطاً للطَّوَارِئِ المُلْجِئَة، والحاجاتِ الشَّدِيدات، الَّتِي قَدْ يُسْمَحُ فِيها بالأخْذِ من الاحْتِيَاطِيّ بمقادير الضرورة.

إحْصَانُ الشيء لغة: مَنْعُهُ وَصِيَانَتُه.

جاء في هَـٰذه الآيَاتِ بَيَانُ مَا يجبُ اتّخَاذُهُ مِنْ تَدْبيراتٍ، مُدْمَجاً فيها بيانُ رُموزِ رُؤْيَا الْمَلِك.

فالبقرات السَّبْعُ السِّمَانُ رَمْزُ سَبْعِ سَنَواتٍ فِيها خِصْبٌ كثِير، والبَقَراتُ السَّبْعُ الْعِجَافُ رَمْزُ سَبْعِ سَنَوَاتِ فيها قَحْطٌ وجَدْبٌ وشِدَّة.

وأكْلُ العِجَافِ للسِّمَانِ، فِيهِ إرْشَادٌ إلى وجُوب ادِّخار الْأَقْوَاتِ النّاتِجَات في سَنَوَاتِ الخِصْب، بالمقدَار الَّذِي يَكْفِي لِميرَةِ النَّاسِ في سَنَواتِ الجدْب، مع زياداتٍ احتياطِيَّة للطوارئ غَيْرِ المرتقَبَة.

وبَعْدَ سنواتِ القحْط تَعُودُ الأحوال العامَّة إلى مِثْلِ ما كانت عليه قبل سنوات الخِصْب الزائد.

فجاء في الآيَاتِ المفاجأَةُ بِبيَانِ مَا يَجِبُ تَدْبِيرُه.

---

(١) الإسناد العقلي: هو إسْنادُ الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له، لعلاقَةٍ من علاقات المجاز، وهي هنا الظرف الزمانيّ وأهله.

• ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: قَالَ: يَجِبُ على الملِكِ وَوُزَرَائِهِ، أَنْ يُكَلِّفُوا الشَّعْبَ المصْرِيَّ زِرَاعَةَ مَا يُنْتِجُ الْأَقْوَاتَ، كَالْقَمْحِ والشَّعِير طَوالَ سَبْعِ سِنِي الْخِصْبِ، دائِبِينَ جَادِّينَ مُجْتَهِدِينَ بِهِمَّةٍ وَنَشَاطٍ.

فَمَا حَصَدُوا مِنْ هَـٰذِهِ الأَقْوَاتِ فلا يَفْصِلُوا حَبَّهُ عَنْ سَنَابِلِهِ، بلْ عَلَيهِمْ أنْ يَدْعُوهُ فِيها حِمَايَةً لَهُ مِنَ السُّوس، إلَّا قَلِيلاً مِنْ بَعْضِ مَا يَأْكُلُ النَّاسُ مُقْتَصِدِينَ، لِمصْلَحَةِ ادِّخَارِ الْأَقْوَاتِ لِسَنواتِ الجدْب والقَحْط، وعلىٰ الإدَارَةِ الملكيَّةِ أَنْ تَعْمَلَ عَلَىٰ جَمْعِ المحاصِيلِ وادِّخَارِهَا فِي أَمَاكِنَ صَالِحَةٍ للحفظ والادِّخَارِ دُونَ أَنْ تَتَعَرَّضَ للتَّلَفِ، وأَنْ تَكُونَ مَحْمِيَّةً مِمَّنْ يَعْتَدِي عَلَيْهَا، وأَنْ تَكُونَ مِلْكاً للدَّوْلَةِ، بُغْيَةَ تَأْمِينِ أَقْوَاتِ النَّاسِ فِي سَنَوَاتِ الجَدْبِ والقحط.

كُلُّ هَـٰذا يُفْهَمْ مِنَ المطْوِيَّاتِ فِي البيان الرَّبَّاني.

• ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أي: ثُمَّ يَأْتِي بعدَ الدَّأَبِ فِي زِرَاعَةِ الأقواتِ وادِّخارِهَا فِي سَنَابِلِها، طَوَالَ سَنَواتِ الخِصْبِ سَبْعُ سَنَواتٍ شِدَادٍ صِعَابٍ، يَحْتَاجُ الشَّعْبُ فِيها أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَخْزُونِ الدَّولَةِ المدَّخَرِ، وعَلَىٰ الْإِدَارَةِ حِينَئِذٍ أَنْ تُحْسِنَ تَلْبِيَةَ مَطَالِبِ النَّاسِ مِنَ الأقوات المدَّخَرَةِ، بِحَسَبِ حَاجَاتِهِمْ دُونَ إِسْرَافٍ وبِمِقْدَارِ مَا يَكْفِي، ليكفِي المدَّخَرُ مَا بَقِيَ من زَمَنِ القحط.

وحاجاتُ النَّاسِ المقدَّرَةُ فِي سَنَوَاتِ القَحْطِ تَسْتَهْلِكُ المخزُونَ المدَّخَرَ مِنَ الْأَقْواتِ، الَّتِي سَبَقَ أَنْ قَدَّمَهَا الْعَامِلُونَ، وادَّخَرَهَا المشْرِفُونَ عَلَىٰ التَّمْوِين، لإِطْعَامِ الناسِ مِنْهَا فِي سَنَوَاتِ القَحْطِ والجدْبِ، إلَّا قَلِيلاً

مِمَّا تَمْنَعُونَ الاقْتِرَابَ مِنْهُ وتَحْمُونَهُ، وتَجْعَلُونَهُ احْتِيَاطِيًّا للضرورات، ومُحْصَناً محفوظاً.

• ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

• ﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾: أي: فِيهِ تَنْزِلُ الأمْطَارُ النَّافِعَةُ الَّتِي يُنْبِتُ اللهُ بِها الزُّرُوعَ، ويُخْرِجُ بِهَا الثمرَاتِ على اخْتِلافِ أنواعِهَا.

يُقَالُ لغة: «غَاثَ اللهُ الْبِلَادَ، يَغِيثَها، غَيْثاً، وغِيَاثاً» أيْ: أَنْزَلَ بها الغيثَ، وهو المطَرُ النّافع.

• ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾: أي: وفِيهِ يَعْصِرُونَ الْعِنَبَ لِيَكُونَ خَمْراً، ويَعْصِرُونَ مَا يَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ الدُّهْنَ، كالسِّمْسِم، والزَّيْتُونِ، وَسَائِرِ الحُبُوبِ الَّتِي يُسْتَخْرَجُ مِنْها دُهْنٌ نَافِعٌ، بالْعَصْرِ ضَغْطاً وتَثْقِيلاً عَلَيْهِ بالْأَثْقَال. وفي القراءة الأُخرىٰ: [وَفِيهِ تَعْصِرُونَ].

أيْ: ثُمَّ تَعُودُ الْبِلَادُ إِلَىٰ سَابِقِ عَهْدِهَا، قَبْلَ سَنَوَاتِ الْخِصْبِ الكثير والْقَحطِ الشّدِيد، فيأْتِي بَعْدَ سَنَوَاتِ الْقَحْط السَّبْعِ عَامٌ مِثْلُ سَائِرِ الأَعْوَامِ المعْتَادَةِ في الْبِلَادِ قَبْلَ السَّبْعَينِ، وفي هَـٰذا الْعَام يُغَاثُ النَّاس بالْأَمْطَارِ عَلَىٰ وَفْقِ سَابِقِ عَهْدِهِم، وَفِيهِ يَتَمَكَّنُونَ مِنْ عَصْرِ مَا يَسْتَخْرِجُونَ بِهِ مِنْ شَرَابٍ أو دُهْنٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ممَّا لَهُمْ بِهِ مَنَافِعُ فِي حَيَوَاتِهِمْ.

وبهَـٰذا انْتَهَىٰ تَدَبُّر الْفَصْل التاسِعِ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ يوسف.

والحَمْدُ للهِ علىٰ مَعُونَتِهِ ومَدَدِهِ وتَوْفِيقِهِ وَفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفصل العاشر من قِصّة يوسف عليه السلام الآيات من (٥٠ ـ ٥٧)

قال الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِۦ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ

رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

القراءات:

(٥٠) • قرأ ابْنُ كثير، والكِسَائي، وخَلَفٌ في اختياره: [**فَسَلْهُ**].

وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: [**فَاسْأَلْهُ**].

القراءتان لغتان عَرَبِيَّتان.

(٥١) • قرأ أبو عَمْرو في الوصْلِ: [**حَاشَىٰ للهِ**] بإثباتِ الْألف بعد الشِّينِ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حَاشَ للهِ**] بحذف الألف بعد الشين.

حَاشَ، وحَاشَىٰ لغتان عَرَبِيّتَان.

(٥١) • قرأ ورشٌ، وابن وْردَانَ: [**العزيزلاَنَ**] بِنَقْلِ حَركَةِ الهمزة إلى اللّام.

وقرأهَا بَاقِي القرّاء العشرة: [**الْعَزِيزِالْآنَ**].

(٥٣) • فتح ياء المتكلم من: [**نَفْسِيَ إِنَّ**] ومن [**رَبِّيَ إِنَّ**] نافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفَر. وأسْكَنَها باقي القرّاء العشرة.

(٥٦) • قرأ ابْنُ كثير: [حَيْثُ نَشَاءُ] بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ العظيم.

وقرأهَا باقي القرّاء العشرة: [حَيْثُ يَشَاءُ] أي: يُوسُف علَيه السَّلام.

وبَيْنَ القراءَتَيْن تَكَامُلٌ في أدَاء المعنىٰ المراد، فمَا يَشَاؤُهُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بإرَادَتِهِ الحرَّة، لَا يتحقَّقُ لَهُ فِي الواقِعِ إلَّا إذا شَاءَهُ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَعظُمَ سُلْطَانُه، وهكذَا كُلُّ مَشيئاتِ الْعِباد.

تَمْهيد:

طُوِيَ بَيْنَ هَـٰذا الْفَصْلِ والَّذِي قَبْلَهُ أحْدَاثُ عَوْدَةِ رَسُولِ الملِكِ إلَىٰ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام، واسْتِفْتَائِهِ عَنْ رُؤيا الْمَلِكِ، وَإخْبَارِهِ الْمَلِكَ بما أفْتَىٰ بِهِ يُوسُفُ، فأعَجَبَتْهُ فَتْوَاهُ.

عِنْدَئِذٍ طَلَبَ الْمَلِكُ أَنْ يَأْتُوهُ بِيُوسُفَ، فأرْسَلَ رَسُولاً يَدْعُوهُ إلَىٰ مُقَابَلَةِ الْمَلِكِ، فأبَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنْ يَسْتَجِيبَ للطَّلَبِ حَتَّىٰ يَرُدَّ اعْتِبَارَهُ بِشَأْنِ التُّهَمَةِ الَّتِي أُلْصِقَتْ بِهِ، وأَنْ تُسْتَدْعَىٰ امْرأةُ الْعَزِيزَ والنِّسْوَةُ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيهِنَّ، ويُعَادَ التحْقِيقُ في قَضِيَّة سِجْنِهِ.

فاسْتَجَابَ الْمَلِكُ لِطَلَبِهِ، وثبتَتْ براءَتُهُ وَاعْتَرَفَتِ امرأَةُ الْعَزِيزِ بِذَنْبها، واعْتَرَفَ النِّسْوَةُ بِبَرَاءَتِهِ ممَّا اتُّهِمَ بِه.

عِندئِذٍ فَرِحَ يُوسُفُ بما جَرَىٰ فارْتَاحَ قَلْبُه وَسَكَنَتْ نَفْسُهُ.

واسْتَدْعَاهُ الملِكُ لِيَسْتَخْلِصَهُ لِنَفْسِهِ، فاستجابَ لِدَعْوَتِهِ حِينَئِذٍ، وقالَ الْمَلِكُ لَهُ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ مَا تُرِيدُ أَنْ نُسْنِدَ إِلَيْكَ مِنْ عَمَلٍ يُلائِمُكَ؟ ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾.

وجاء فيه تَعْليقٌ رَبَّانِيٌّ يُلائِمُ ما وَصَلَ إلَيْهِ يُوسُفُ بفضْلِ اللهِ، جَزَاءَ إحْسَانِهِ في اخْتِيَارَاتِهِ وأعْمَالِهِ الصالحة الظاهرةَ والْبَاطِنة، مع وَعْدِهِ بالأجْرِ العظيم يَوْمَ الدِّين.

التدبُّر التَّحْليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾: **ما بال**: أي: ما شأنُ.

أي: عَلِمَ الْمَلِكُ بتَعْبيرِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام للرُّؤْيا، ومَا أَشارَ بِهِ مِنْ تَدْبير اقتصَادِيٍّ لِحِمايَةِ الشَّعْبِ من الْجُوعِ في سَنَواتِ الْجَدْبِ والْقَحْط، فأعْجَبَهُ التَّأْويلُ والتَّدْبير، وقال للَّذِينَ يُوجِّهُ لَهُمْ الأَمْرَ مِنْ حَاشِيَتِهِ في العادَة: ائتُوني بِيُوسُفَ مِنَ السِّجْن.

فأَرْسَلُوا إلَيْهِ رَسُولاً لِيُحْضِرَهُ، فَلَمَّا جاءَهُ الرَّسُولُ وأخْبَرَهُ بأَنَّ الْمَلِكَ يَطْلُبُ حُضُورَهُ إلَيْهِ، قَالَ للرَّسُولِ ارْجِعْ إلى رَبِّكَ، أيْ: إلَىٰ سَيِّدِكَ الْمَلِكِ، فَأَبْلِغْهُ عَنِّي السُّؤَالَ التَّالِي: مَا شَأْنُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ لَمَّا رَأَيْنَنِي انْبِهاراً بِمَا رَأَيْنَ من الْحُسْنِ الَّذِي آتانِي اللهُ إيَّاهُ، وشَهِدْنَ ضِدِّي بأنِّي أرَدْتُ إنْزَالَ سُوءٍ وَأذىً كَضَرْبٍ وَدَفْعٍ ونَحْوِهِما بِزَوْجَةِ الْعَزيز؛ لِأَنَّنِي أبَيْتُ أَنْ أَسْتَجِيب لِمُرَاوَدَتِها لي عَنْ نَفْسِي، فَنَصَرْنَها ضِدِّي بِكَيْدٍ افْتَرَيْنَهُ عَلَيَّ ﴿إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ أي: فَهُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَكْشِفَ كَيْدَهُنَّ، ويَقِيَنِي شَرَّهُ.

الكيد: تَدْبيرُ أَمْرٍ فيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه.

فَاستجاب الملِكُ لِطَلَبِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فاسْتَدْعَىٰ النِّسْوَةَ وَزَوْجَةَ الْعَزيز، وأَعادَ التَّحْقِيقَ في الأَمْرِ الَّذِي اتُّهِمَ بِهِ، وأُودِعَ مِنْ أَجْلِهِ فِي سِجْنِ رَئِيسِ الشُّرْطَة، وخَاطَبَهُنَّ:

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾:

• ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾: أي: مَا شَأْنُكُنَّ وَحَالُكُنَّ مَعَ يُوسُفَ، حِينَ مُرَاوَدَتِكُنَّ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ، هَلْ حَاوَلَ إيذاءَ سَيِّدَتِهِ امْرَأَةِ الْعَزِيزِ بِضَرْبٍ أَوْ نَحْوِهِ؟.

الْخَطْبُ: الأمْرُ والشَّأْنُ والحَالُ الَّتي تَجْرِي بِهِ المخاطَبَة.

• ﴿قُلْنَ حَشَ لِلَّهِ﴾ وفي الْقِرَاءَةِ الأخرى: [**حَاشَىٰ لِلَّهِ**]: جاء في لسان العرب لابْن منظور: «حَاشَىٰ للهِ، وحَاشَ للهِ» أي: بَرَاءَةً للهِ وَمَعَاذاً للهِ. والمعْنَىٰ هنا، نَبْرأُ إلَىٰ اللهِ مِنِ اتِّهَامِهِ بسُوءٍ، وَنَعُوذُ باللهِ مِن اتِّهامِهِ؛ لِأَنَّنا ما عَلِمْنَا عَلَيْهِ سُوءاً.

• ﴿الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾: أي: الآنَ ظَهَرَ الحقُّ. يُقَالُ لُغَةً: «حَصْحَصَ الشَّيْءُ» أي: ظَهَرَ بَعْدَ خَفَاءٍ.

المعنى: قَالَ الْمَلِكُ لِلنِّسْوَةِ صَوَاحِبِ امْرَأَةِ العَزِيزِ وهِيَ مَعَهُنَّ بَعْدَ أَنِ اسْتَدْعَاهُنَّ للتَّحْقِيقِ مَعَهُنَّ فِي أمْرِ يوسف: مَا شَأْنُكُنَّ حِينَ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ، هَلْ حَاوَلَ إيذاءَ امْرَأَةِ الْعَزِيز هَـٰذِهِ بِضَرْبٍ أَوْ نَحْوِهِ، حَتَّىٰ اسْتَحَقَّ أَنْ يُسْجَنَ بِمَا فَعَلَ؟.

قُلْنَ: نَبْرَأُ إلَى اللهِ وَنَعُوذُ بِهِ مِن اتِّهَامِهِ بِشَيْءٍ مِن ذَلِكَ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوء.

عِنْدَئِذٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيز: الْآنَ ظَهَرَ الْحَقُّ، أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لي، وإنَّهُ فَرَّ مِنِّي فَلَحِقْتُهُ، ولَمَّا أَدْرَكْتُهُ شَدَدْتُهُ مِنْ قَمِيصِهِ فانْشَقَّ طُولاً، وَإِنَّهُ لَصَادِقٌ مِنَ الصَّادِقِين.

عنْدَئِذٍ قال يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لمَّا بَلَغَتْهُ نَتِيجَةُ تَحْقِيقِ المَلِكِ مع النِّسْوَةِ وامْرَأَةِ الْعَزِيز، وأَنَّ بَرَاءَتَهُ ظَهَرَتْ لِرِجَالِ الْقَصْرِ ولِكُلِّ مَنْ يُهِمُّهُ الأمْرُ مِنْ خَارِجِ الْقَصْرِ الفرعَوْني.

• ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾:

• ﴿ذَٰلِكَ﴾ أَشَارَ بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ إلى طَلَبِهِ إِعَادَةَ التَّحْقِيقِ فِي قَضِيَّةِ اتِّهَامِهِ.

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾: أي: لِيَعْلَمَ عَزِيزُ مِصْرَ الَّذِي اسْتَأْمَنَنِي على قَصْرِهِ وأَهْلِه أَنَّنِي لَمْ أَخُنْهُ بِشَيءٍ وهُوَ غَائِب، وليَعْلَمَ أَنَّ اللهَ لَا بُدَّ أَنْ يَكْشِفَ كَيْدَ الخائِنين، فَهُوَ لَا يَدَعُ كَيْدَ الْخَائِنِينَ سَاتِراً لخيانَاتِهِمْ وَمُلْصِقاً التُّهْمَةَ بالْبَرِيئين، وفي هَـٰذا تَعْرِيضٌ بمَا كَشَفَهُ تَحْقِيقُ الْمِلك، وتَبْرِئَةُ النِّسْوَةِ لَه، واعْتِرافُ امْرَأَةِ الْعَزِيز بأَنَّهَا هِيَ الَّتِي رَاوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِه.

• ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ﴾: أي: ومَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي مِنَ الْهَمِّ بِدَفْعِ امرأةِ الْعَزِيزِ عَنِّي بالْقُوَّةِ، وَلَوْ نَتَجَ عَنْهُ إيذاءٌ لها، إلَّا أَنَّ هَـٰذا الْهَمَّ لَمْ يَصِلْ إِلَىٰ مُسْتَوَىٰ الإرَادَةِ الَّتِي يَنْجُمُ عَنْهَا التَّنْفِيذ.

• ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾: أي: إنَّ النُّفُوسَ لَأَمَّارَةٌ فِي حَالَةِ الْغَضَبِ أَو الدِّفَاعِ بِفِعْلِ سُوءٍ يَكُونُ بِهِ دَفْعٌ لمَكْرُوه، أَوْ في أحوالٍ مُشَابِهَةٍ لحالَةِ الْغَضَبِ والدِّفَاع، أَرَادَ بالنَّفْسِ الجنْسَ، فاللفظ بِقُوَّةِ الجمع.

• ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ۚ﴾: أي: إِلَّا نَفْساً رَحِمَهَا رَبِّي، فَصَرَفَ عَنْهَا أَنْ تَأْمُرَ صَاحِبَهَا بِالسُّوءِ أَمْراً يَصِلُ إلى حَدِّ الْإِرَادَة الجازِمَة، ويظْهَرُ أَنَّهُ يُرِيدُ أَنَّهُ ذُو نَفْسٍ رَحِمَهَا اللهُ، فتَوَقَّفَتْ عِنْدَ حُدُودِ الْهَمِّ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾.

• ﴿. . . إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ جاءَ بهذه العِبارة كنايَةً عَنِ الدُّعَاءِ بأَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُ هَمَّهُ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مُؤَاخذاً عَلَيْهِ، إذْ يَرَىٰ أَنَّ نبيًّا مِثْلَهُ لَا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يَهُمَّ بالسُّوءِ وَلَوْ لَمْ يَصِلْ إلى مُسْتَوىٰ الإرادَةِ الجازِمَة.

قول الله تَعالَىٰ:

• ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾:

• ﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾: أي: اخْتارُهُ وأصطَفِيهِ لِنَفْسي، وأجْعلُهُ فِي مملَكتِي مُخْتَصّاً بِي.

• ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾: أيْ: فجاءُوا بِهِ، فَلَمَّا كَلَّمَهُ ورَأَىٰ ذَكاءَهُ النَّادِرَ، وعَقْلَهُ الرَّصِينَ الْحَصِيفَ الرَّاجِحَ.

• ﴿قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾: أي: قال له: إنَّكَ في أَقْرَبِ الْقُرْبِ مِنَّا ذُو مَكَانَةٍ رَفِيعَةٍ عالِيَةٍ ثَابِتَة، مَأمُونٌ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ.

المعْنَىٰ: وَلَمَّا رَأَىٰ الْمَلِكُ صِدْقَهُ، وأمَانَتَهُ، وعِفَّتَهُ، وفَائِقَ ذَكَائِهِ ورجَاحَةَ عَقْلِهِ، وَحُسْنَ بَيَانِهِ قَالَ: ٱئْتُونِي بِهِ أجْعَلْهُ خَالِصاً مصطفىً لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ زَادَ إعْجَابُهُ بِهِ، وقَالَ لَهُ إِنَّكَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِين.

لَدَينا: مثل عندنا، إلّا أنّ «لَدىٰ» أكثر دلالة على كثرة القرب من «عند».

جاء عِنْدَ الإسْرَائِيلِيّين: «أنّ فِرْعَوْن مِصْرَ حينئذٍ قَالَ لعَبِيدِهِ: هَلْ نَجدُ رَجُلاً مِثْلَ يُوسُفَ فِيهِ رُوحُ الله. ثُمَّ قال فرعَوْنُ لِيُوسُف: بَعْدَمَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هَـٰذا لَيْسَ بَصِيرٌ وحَكِيمٌ مِثْلَكَ. أنْتَ تَكُونَ عَلَىٰ بَيْتِي، وعَلَىٰ فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي. إلّا أنَّ الْكُرْسِيَّ أكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ. ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. وخَلَعَ فِرْعَوْنُ خاتَمَهُ مِنْ يَدِه وجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُف...

وقال فِرْعَونُ لِيُوسف: أَنَا فِرْعَوْنُ، فَبِدُونِكَ لا يَرْفَعُ إِنْسَانٌ يَدَهُ وَلَا رِجْلَهُ فِي كُلِّ أَرْضِ مِصْر».

أَمَّا البيانُ الْقُرْآنِيُّ فَقَدْ جاءَ فِيهِ مَا يَلِي حكايَةً لما قَالَ يُوسُفُ لفرعون:

﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: اجْعَلْنِي صَاحِبَ السُّلْطَةِ العامَّ على التَّمْوِينِ ووسَائِلِهِ في أرضِ مَمْلَكَتِكَ كُلِّهَا بِمِصْر، ووصَفَ نَفْسَهُ بِصِفَتَيْنِ تُؤَهِّلَانِهِ لِهٰذا المنصب، هُمَا الحفظُ والْعِلْم، فقال لَهُ: ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أي: حَفِيظٌ للأقْوَاتِ، عَلِيم بأَسْبَابِ تَهْيِئَتِها وَحَمْلِ الشَّعْبِ عَلَىٰ اتِّخَاذِ مَا يَلْزَمُ لِزراعَتِها، وحَصَادِهَا، وَجَمْعِها بِسَنَابِلِهَا، وَتَخْزِينِها تَخْزِيناً مَصُوناً، وعَلِيمٌ بِتَوْزِيعِ الْأَقْوَاتِ على الشَّعْبِ في سَنَوَاتِ الجدْبِ والْقَحْطِ بِمَقَادِيْرَ حَكِيمَةٍ، يَجْرِي فيها تَوْزِيعُ المخْزُونِ بأَثْمَانِهِ مُقَسَّماً عَلَىٰ سَبْعِ سَنَوَات، حَتَّىٰ لا يُسْتَهْلَكَ كُلُّ المخزُونِ قَبْلَ مَجِيءِ سَنَةِ الخِصْبِ الثامِنَة، وعَلِيمٌ بِعَزْلِ احْتِيَاطِيٍّ للضَّرُورَات المفاجِئات.

حَفِيظ: أي: كثير الحِفْظِ، صِيغَةُ «فَعِيل» من صِيَغِ المبالَغَةِ، والتَّكْثِير.

عَلِيم: أي: كثير الْعِلْمِ المؤهِّلِ للقيام بهٰذا المنْصِبِ الخطير.

وطُوِي في النَّصِّ بَيانُ أَنَّ الْمَلِكَ اسْتَجابَ لِطَلَبِ يُوسُفَ، فَجَعَلَهُ صَاحِبَ السُّلْطَانِ المطْلَقِ عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ في مَمْلَكَتِهِ.

قولُ اللهِ تَعَالَىٰ:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

• ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: أي: وَكَذٰلِكَ المنْصِبِ الْخَطِيرِ الَّذِي مَنَنَّا عَلَيْهِ بِهِ ضِمْنَ

مَجارِي أَلْطَافِنا، إذْ جعَلْناهُ صاحِبَ السُّلْطَةِ الْعَامَّ عَلَىٰ خَزَائِنِ أَرْضِ مِصْرَ بأَمْرِ الْمَلِكِ، مكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي أَرْضِ مِصْرَ، يَخْتَارُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ لِبِنَاءِ قُصُورِهِ، وَإِقَامَاتِهِ الدَّائِمَةِ أو المؤقَّتَةِ، بِحَسَبِ مقتَضيَاتِ إدَارَتِهِ لقضايا التَّمْوِينِ فِي الأَقَالِيمِ، والمراكِزِ الإدارِيَّةِ لِعُمُومِ الْمَمْلَكَة.

﴿يَتَبَوَّأُ﴾: أيْ: يَنْزِلُ وَيُقِيمُ إقَامَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَة. يُقَالُ لغة: «تبَوَّأَ المَكَانَ، وتبَوَّأَ بِهِ» أي: نَزَلَهُ وأقام به.

المبَاءَةُ: المنْزِلُ.

• ﴿حَيْثُ يَشَآءُ﴾ أي: في أيِّ مَكَانٍ يَشَاءُ أَنْ يَتَّخِذَهُ مَنْزِلاً يُقِيمُ فِيهِ إقَامَةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَة، بشَرْطِ أَنْ يَشَاءَ اللهُ لَهُ ذَلِكَ أخذاً من القراءة الأخرىٰ: **[نَشَاءُ]**.

«**حَيْثُ**»: ظَرْفُ مَكَانٍ مبنيٌّ على الضمّ، ويَلْزَمُ الإضافَةَ إلى جُمْلَةٍ فِعْلِيَّة أو اسْمِيَّة، والغالبُ فيه أَنْ يَكُونَ في مَحَلِّ نَصْبٍ ظَرْفَ مكان، كما جَاءَ هُنَا فِي الآيَة.

• ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ﴾: أي: نُعْطِي مِنْ آثَارِ رَحْمَتِنَا عَطَايَانَا الَّتِي نُوصِلُهَا فَتُصِيبُ مَنْ نَشَاءُ أَنْ نَمُنَّ عَلَيْه، ليَسْتَمْتِعَ بِهَا فِي الدُّنْيَا مَتَاعاً حَسَناً.

• ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: فِي هَـٰذِهِ العبارة كِنَايَةٌ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، الَّذِينَ يُعَجَّلُ لَهُمْ ثَوَابٌ مَا فِي الدُّنيا، فَمَا مَنَنَّا بِهِ عَلَىٰ يُوسُفَ مِنْ مَنْصِبٍ خَطِيرٍ في مصْرَ، وَتَمْكِينٍ لَهُ فِي أَرْضِهَا يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ، هُوَ مِنَ الأَجْرِ المعجَّلِ لَهُ فِي الدُّنيا، لِأَنَّهُ في اختِيَارَاتِهِ وأعْمَالِهِ البَاطِنَةِ والظَّاهِرَةِ مِنَ المحسنين.

• ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾:

أي: وَمَا نَمْنَحُهُ بَعْضَ عبادِنا مِنْ أجْرٍ مُعَجَّلٍ فِي الحياة الدُّنيا لَا يُؤَثِّرُ عَلَىٰ أَجْرِ الآخِرَة، ويُؤَكِّدُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنَّ أجْرَ الآخِرَةَ خَيْرٌ كَمًّا وَكَيْفاً مِنْ أَجْرِ الْحَيَاةِ الدُّنيا، لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، وهُمْ أَهْلُ مَرْتَبَةِ التَّقْوَىٰ عَلَىٰ دَرَجَاتِها، أي: فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ أَهْلِ مَرْتَبَةِ الْبِرّ، وأَهْلِ مَرْتَبَةِ الإحْسَانِ، ومِنْهُمْ يوسُفُ عليه السّلام.

وبهٰذا تَمَّ تَدَبُّرُ الفَصْل العاشر من فصول قِصَّةِ يوسف عليه السلام.

والحَمْدُ للهِ عَلَىٰ مَعُونَتِهِ، ومَدَدِه، وتَوْفِيقِهِ، وفَتْحِهِ.

❊ ❊ ❊

التدبر التحليليّ للفصل الحادي عشر مِن قِصّةِ يوسُفَ عليْه السلام الآيات من (٥٨ ـ ٦٧)

قال الله عَزَّ وجلَّ:

﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

القراءات:

(٥٩) • قرأ نافع، وأبو جعفر: [**أَنِّيَ أُوفي**] بفتح ياء المتكلم وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٦٠) • أثبت ياء المتكلّم في [**تَقْربُونِي**] يعقوب. وحذفها باقي القراء العشرة.

(٦١) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**لِفِتْيَانِهِ**].

وقرأها باقي القراء العشرة: [**لِفِتْيَتِهِ**].

ومُؤَدَّى القراءتين واحد.

(٦٣) • قرأ حمزة، والكسائي، وخلف: [**يَكْتَلْ**].

وقرأها باقِي القرَّء العشرة: [**نَكْتَلْ**].

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكاملٌ في أَدَاءِ المعنَىٰ المراد.

(٦٤) • قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [**حَافِظاً**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة: [**حِفْظاً**].

ومؤدّى القراءتين واحد.

(٦٦) • قرأ وَرْش: [**تُوتُونِ**] وكَذَلِكَ حَمْزَة في الوقف.

وقرأها دُوري أبي عَمْرو وَصْلاً: [**تُؤْتُوني**].

وقرأها السُّوسِي، وأبو جعْفر وصْلاً: [**تُوتُوني**].

وقرأها ابْنُ كثير، ويعقوب في الوصل والوقف: [**تُؤْتُوني**].

وقرأها باقي القرّاء العشرة في الوصل والوقف: [**تُؤْتُونِ**].

تمهيد:

طُوِيَ بَيْن هذا الْفَصْلِ وَبَيْنَ الَّذِي قَبْلَهُ بَيَانُ أَحْدَاثِ السَّنَوَاتِ السَّبْعِ

الْخَصِيبَاتِ، وَمَا قَامَ بِهِ يُوسُف عليه السَّلاَم من إِدَارَةٍ حَكِيمَةٍ فِي جَمْعِ ما يَحْتَاجُ الشَّعْبُ مِنْ أَقْوَاتٍ خِلاَلَ سَنَواتِ الْقَحْطِ الَّتِي تَأْتِيَ بَعْدَهَا، وتجاوَزَهَا لأنَّ الذّهْنَ يُدْرِكُ أَنَّهَا جرَتْ على أحْسَنِ وجه وأحْكمه.

وعَرَضَ مَجِيءَ إخْوَةِ يوسُفَ الْعَشَرَةِ إِلَىٰ مِصْرَ مِنْ أرْضِ كَنْعَانَ، لِشِرَاءِ أقواتٍ لَهُمْ ولِأَبِيهم وسَائِر أَهْلِهِمْ مِنْ صَاحِبِ سُلْطَانِ التَّمْوِينِ فِي مِصْرَ، ودُخولَهُمْ عَلَيْهِ وَمَعْرِفَتَهُ لَهُمْ دُونَ أَنْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ أخُوهُمْ يُوسُفَ، وَمَا دَبَّرَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِنْ تَدْبِيراتٍ لِيَأتُوا بأخِيهم «بَنْيَامِينَ» الَّذِي لَمْ يأَتِ مَعَهم؛ لأنَّ أبَاهُمْ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام لا يَسْمَحُ لَهُ بأَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ بَعْدَ أنْ فَقَدَ يُوسُفَ لمَّا أَخَذُوهُ مَعَهُمْ إِلَىٰ المرَاعِي، وزعَمُوا أَنَّ الذِّئبَ قَدْ أكَلَه.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

• ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾: أي: لَمْ يَعْرِفُوا أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسُف.

تَدُلُّ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ الوافِدِينَ لشِرَاءِ الْقُوتِ مِنْ غَيْرِ المصريّين، لَا بُدَّ أَنْ يُوافِقَ ذُو السُّلْطَانِ الْأَعْلَىٰ، يُوسُفُ، وقَدْ سَمَّاه فرعون كما ذكر الْإِسْرائِيليُّون: «صَفْنَات فَعْنِيحَ» عَلَىٰ طَلَبِهِمْ؛ لأَنَّ الْأَقْوَاتَ المدَّخَرَة خاصَّةٌ نِظَاماً بِالْمِصْرِيّين.

وتَدُلُّ الْقَرَائِنُ عَلَىٰ أَنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ سَأَلَهُمْ عَنْ تَحمُّلِهِمْ مَشَقَّةَ السَّفَرِ مِنْ أَرْضِ كنعانَ إِلَىٰ مِصْرَ لشرَاء الْقُوتِ وهُمْ لَيْسُوا بِمِصْرِيّين، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّهُمْ غُرَبَاءُ أَيْضاً فِي أرْض كنْعَانَ، هاجَرَ إِلَيْهَا جَدُّهُمْ مِنَ الْعِرَاقِ فراراً بِدِينِهِ، وَأَنَّ لَهُمْ أباً شَيخاً كبيراً غَيْرَ قَادِرٍ عَلَىٰ الْعَمل، وسأَلَهُمْ: هَلْ لَهُمْ مِنْ أَبِيهِمْ إِخْوَةٌ ذُكُور غَيْرُهم، فذكرُوا لَهُ أَنَّ لَهُمْ أَخاً غَائِباً اسْمُهُ

يُوسُف لا يَعْرِفُونَ مَصِيرَه، وأَنَّ لَهُمْ أَخاً آخَرَ مِنْ أَبِيهِمْ يَحْتَفِظُ أَبُوهُ به وَلَا يَسْمَحُ لَهُ بِأَنْ يَخْرُجَ مَعَهُم.

فَوافَقَ عَلَىٰ بَيْعِهِمْ مَا طَلَبُوا مِنَ الْقُوتِ، وأمَرَ عُمَّالَهُ بِأَنْ يَكِيلُوا لَهُمْ، وبأَنْ يُوفُوا لَهُمُ الكَيْلَ.

• ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

• ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾: يُقَالُ لُغَةً: «جَهَّزَ فُلَانٌ المسافِرَ مثلاً» أي: أعَدَّ وهَيَّأَ لَهُ جِهَازَه. **الجهاز**: بفتح الجيم وكَسْرِهَا كُلُّ ما يُحْتَاجُ إليهِ، فجهاز المسافر، مَا يَحْتَاجُ إلَيْهِ في سَفَرِهِ، وجِهَازُ الْعَرُوسِ، مَا تَحتَاجُ إِلَيْهِ لَدَىٰ انْتِقَالِهَا إلى بَيْتِ زَوْجِها، وَهَكَذَا.

أي: ولَمَّا أعْطَاهُمْ مَا طَلَبُوا مِنَ الأقوات، ومَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ في عَوْدَتِهِم إلى أرْضِ كنْعَان، وكَانَ قَدْ أَنْزَلَهُمْ مَنْزِلاً كَرِيماً، وأحْسَنَ ضِيَافَتَهُمْ مُدَّة إقَامَتِهِمْ عِنْدَهُ فِي مِصْر، وَصَارُوا عَلَىٰ وشَكِ الارْتِحَال مُسَافِرِين.

• ﴿قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾:

أي: اعْمَلُوا عَلَىٰ إقْناع أَبِيكُمْ بأَنْ يَبْعَثَ مَعَكُمْ في المرَّةِ الْقَادِمَةِ أخَاكُمْ، حَتَّىٰ أَعْلَمَ صِدْقَكُمْ فِيمَا ذَكَرْتُمْ، فإنَّنِي سَأُوفي لَكُمْ ولَهُ الكَيْلَ، وأُنْزِلُكُمْ جَمِيعاً في ضِيَافَتِي مَنْزِلاً كَرِيماً. أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الكَيْلَ فَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ شَيْئاً، وَأُنزلُ ضُيُوفي خَيْرَ مَنْزِلٍ إيواءً وإطْعَاماً وشَرَاباً وتَكْرِيماً، وأَنَا خَيْرُ المنزلين، أي: في مِصْرَ لِكُلِّ ضُيُوفِي، ولَيْسَ لَكُم فقط.

وقال لهم أيضاً:

• ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾:

أي: فإنْ لَمْ تَأْتُوني بأخِيكُمْ مِنْ أَبِيكُمُ الَّذِي ذَكَرْتُموهُ لِي، ظَهَرَ لِي أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ، فعِنْدَئِذٍ لا أَبِيعُكُمْ مَا تَطْلُبُونَ مِنْ مِيرَةٍ؛ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ رَعَايَا مَمْلَكَتِنا، وَلَا تَقْرَبُوني مَهْمَا حاوَلْتُمْ ذِكْرَ أَعْذَارٍ؛ لأنني لَا أَستقبلكم.

• ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾:

أي: سَنُحَاوِلُ إِقْنَاعَ أَبِيهِ بمُخْتَلِفِ الْوَسَائِلِ ليوافِقَ عَلَىٰ طَلَبِ إِرْسَالِهِ مَعَنَا، وسَنُبَيِّنُ لَهُ أَنَّ صَاحِبَ سُلْطَانِ الْمِيرَةِ فِي مِصْرَ طَلَبَ مِنَّا هَـٰذا، وأَنْذَرَنا بأَنَّنَا إِذَا لَمْ نَأْتِ بِهِ فإِنَّهُ سَيَرْفُضُ طَلَبَنا الْمِيرَة، ونَهانَا عَنْ أنْ نَقْرَبَهُ لِأَنَّنَا لسْنَا مِنْ رَعَايَا مَمْلَكَتِهِ.

وأَكَّدُوا لَهُ أَنَّهُمْ سَيَفْعَلُونَ مَا فِي وُسْعِهِمْ، وأَنَّ أَبَاهُمْ سَيُوافِقُ إِذَا طَمْأَنُوهُ بالْأَيْمَانِ والْمَوَاثِيقِ أَنْ يَحْفَظُوهُ مِنْ كُلِّ سوء.

وَوَدَّعُوا صَاحِبَ سُلْطَانِ الْمِيرَة عَائِدِين إلى أَرْضِ كَنْعَانَ مِنْ بِلادَ الشّام، ومَعَهُمْ ما اشْتَرَوْا مِنْ مِيرَةٍ فَرِحِين، تَحْمِلُها جِمَالُهُمْ.

قول الله تعالَىٰ:

﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾: وفي القراءة الأخرى:

• **[لِفِتْيَتِهِ]**: فِتْيَان، وفِتْيَةٍ، جمعان للفظ «فَتَىٰ» وهو الْخَادِم. ويطلق على العبْد الرقيقِ، وكان الأرقاء كَثِيرينَ، فقد كان الاسترقاق نظاماً منتشراً في الأمم.

• ﴿ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ﴾: **بضاعتهم**: هي الأَثْمَانُ الَّتِي اشْتَرَوا بِها الْقَمْحَ ونَحْوَه. **ورحال**: جَمْعُ: «رَحْل» وهو ما يُوضَعُ على ظهر البعيرِ من وعاءٍ للمتاعِ وغَيْرِهِ، كالْخُرْجِ والْعِدْلِ.

وجاء عند الإسرائيليين أنَّ البضاعَة التي اشْتَرَوا بِها الْقَمْحَ كَانَتِ فِضَّةً، وأَنَّها وُضِعَتْ في أفْوَاهِ الْعُدُولِ الْمَمْلُوءَةِ بالْقَمْح. (٤٢ تكوين فقرة ٢٦).

• ﴿... لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾:

أي: لعلَّهُمْ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا هِي فِضَّتُهُم الَّتِي اشْتَرَوْا بِهَا، إذا رَجَعُوا إلَىٰ أَهْلِهِمْ وَفَتَحُوا عُدُولَهُمْ، ولَيْسَتْ داخِلَةً فِي عُدُولِ الْقَمْحِ خطأً مِنَ الكَيَّالِينَ الَّذِينَ يَكِيلُونَ للشَّارِينَ، ويَضَعُونَ الْأَثْمَانَ بالْقُرْبِ مِنْ صُبَرِ الْقَمْحِ.

فإذا عَرَفُوا أَنَّهَا فِضَّتُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ، لِيَعْرِفُوا سَبَبَ وضْعِها في أفْواه عُدُولهم، فإنْ كَانَ على سبيل الخطَأ رَدُّوها، وبهَـٰذا يَظْهَرُ أَنَّهُمْ أُمَنَاء، وإنْ كان أمْراً مَقْصُوداً فالرَّجُلُ اختصَّنَا بمزيد إكْرام، ويظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ عليه السّلام خَافَ أن لا يَعُودُوا اكتفاءً بما أخذُوا، فتنقطعَ صِلَتُهُ بأهْلِهِ في أرض كنعَان، وَلَمْ يَشَأْ أَنْ يُعَرِّفَهُمْ بِنَفْسِهِ قَبْلَ أن يسْتَدْرِجَهُمْ إلى مَعْرِفَتِهِ بِحِيلَةٍ ما يَضْغَطُ بِها على نفوسهم ومَشَاعِرهم.

قول الله تعالَىٰ:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾: وفي القراءة الأخرى: **[يَكْتَلْ]** أي: نَكْتَل ويَكْتَل، فبيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ في أداء المعْنَىٰ المراد:

أي: فلمَّا رَجعُوا إلى أبيهم «يعقوب = إسرائيل» عَلَيْهِ السَّلام، بَادَرُوهُ بأنْ قَصُّوا عَلَيْهِ قِصَّتَهُمْ مع صَاحِب سُلْطانِ التَّمْوِينِ فِي مِصْرَ بالتَّفْصِيلِ، إذْ سَأَلَهُمْ عَنْ أَبِيهِمْ وَعَنْ جَمِيعِ أَوْلادِه، وعَرفَ أَنَّ لَهُمْ أخاً صَغيراً مِنْ أبيهم اسْمُهُ «بنْيَامِين» وأنَّ أَبَاهُ لَا يأذَنُ لَهُ بالخروج والسَّفرِ مَعَ إخْوَتِهِ خَوْفاً عَلَيْهِ مِنْ أنْ يُصِيبَهُ أذىً، أو ضُرٌّ، إلى سَائِرِ مَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ وَأَجَابُوهُ عَلَيْهِ بِصِدْق.

وقالوا لأبيهِمْ: فَلَمَّا عَلِمَ أَنَّ لَنا أَخَاً صَغِيراً مِنْ أَبِينا قَالَ لَنَا ائْتُوني

بِهِ، فَإنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي، وَلَا آذَنُ لَكُمْ بأَنْ تَقْرَبُوا مِنِّي لَتَطْلُبُوا مِنِّي شِرَاءَ مِيرَتِكُمْ، ويَظْهَر أنَّ طَلَبَهُ إحْضارَ أخيهم «بنْيَامِين» قد كان لِيُعَرِّفَهُ بنَفْسِهِ، ولِيُشْعِرَ أَبَاهُ من طرْفٍ خفِيّ بأنه يوسف، مع قرينَةِ رَدّ فضتهم إليهم.

وقالوا لأبيهم: فإذا شئت أن نكتال قَمْحاً بِثَمَنِهِ في الرِّحْلَةِ الْقَادِمَة، فأرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وإنَّا لَهُ لحافِظُونَ، مُؤَكِّدين اجْتِهَادَهُمْ بِحِفْظِه بـ «إن ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة».

• ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾: أي: حُرِمْنَا الكَيْلَ مُسْتَقْبلاً، يُقَالُ لُغَةً: «مَنَعَهُ الشيْءَ، ومَنَعَهُ مِنْهُ، يَمْنَعُهُ، مَنْعاً» أي: حَرَمَهُ إيَّاه.

فأجابَهُمْ أبوهُمْ بما يلي:

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: أنتم لسْتُمْ أُمَنَاءَ على أخيكم، لكن الأمْر الذي ذكَرْتُموهُ مع حاجتنا إلى الميرَة لحَيَاتِنَا قَدْ يُلْجِئُنِي إلَىٰ الْمُوَافَقَةِ على إرْسَالِ ٱبْنِي «بَنْيامين» مَعَكُمْ تَلْبِيَةً لطلَب سُلْطانِ التموينِ في مِصْرَ، ولَكِنْ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلَّا كَمَا أمِنْتُكُمْ عَلَىٰ أخِيهِ الشَّقِيقِ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ، إنَّ مَا جَرَىٰ مِنْكُمْ لِيُوسُفَ يَجْعَلُنِي لَا آمَنُكُمْ عَلَىٰ «بَنْيَامِين» ولَكِنْ مَاذَا أفْعَلُ إذا كانَتِ الضَّرُورَةُ مُلْجِئَةً، فأنْتُمْ تَقُولُونَ: لَنْ يَكُون لَكُمْ كَيْلٌ مَا لَمْ تَأْخُذُوا «بَنْيامِينَ» مَعَكُمْ، وأنا لا أستطيع أنْ أسَافر معكم.

• ﴿... فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾:

أي: وَإذَا أَرْسَلْتُهُ مَعَكُمْ فإنَّنِي أسْأَلُ اللهَ أَنْ يَحْفَظَهُ، وَأَنْ يَرْحَمَهُ ويَرْحَمَنِي، فاللهُ خيْرٌ حَافِظاً مِنْ كُلِّ حَافِظٍ، وهو أرْحَمُ الراحِمين.

وفي القراءة الأخرى: [فَاللهُ خَيْرٌ حِفْظاً].

حَافِظاً: حالٌ من لفظ الجلالة. **حِفْظاً**: تَمْييز لرفع إبهام أفعل التفضيل «خَيْر».

ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحد، وهما من التَّفَنُّنِ في التعبير.

قول الله تعالى:

● ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَـٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَـٰذِهِۦ بِضَـٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾:

أي: ولمَّا فَتَحُوا أوْعِيَتَهُمُ الَّتِي فِيهَا الْقَمْحُ الَّذِي جَلَبُوهُ مِنْ مِصْرَ، وجَدُوا فِضَّتَهُمُ الَّتِي اشْتَرَوْهُ بها في أفْوَاهِهَا.

● ﴿رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾: أي: أُعِيدَتْ إلَيْهِمْ عَنْ قَصْدٍ لاعَنْ خَطأ، فَهِيَ في صُرَرِهِمْ في أفواه عُدُولِهِمْ.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾؟ على الاستفهام أوْ عَلَىٰ النَّفْي، أَيْ: أيَّ شَيْءٍ نَطْلُب أكْثَرَ مِمَّا أكْرَمَنَا بِهِ سَيِّدُ أَرْضِ مَصْرَ، إذْ أوفَىٰ لَنَا الكَيْلَ فَملأَ لَنَا عُدُولَنَا، وأنْزَلَنَا ضُيُوفاً عِنْدَهُ فَكَانَ خَيْرَ المنزلِينَ مِنَ النَّاسِ إيواءً، وطَعَاماً وشراباً، ورَدَّ إلَيْنَا فِضَّتَنَا؛ لِنُسْرِعَ الرَّجْعَةَ إلَيْهِ مَصْحُوبِينَ بأخِينا الصَّغِيرِ حَتَّىٰ يَزِيدَ في إكْرَامِنا؟؟.

وعلى النَّفي: يكُونُ المعنى: لسْنَا نَبْغِي أي: لَسْنَا نَطْلُبُ أكْثَرَ مِنْ هَـٰذا، والمؤدَّىٰ واحد.

هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا «أي: فِضَّتُنَا» رُدَّتْ إلَيْنَا إكراماً من سَيِّدِ أَرْضِ مِصْر، ورَدُّها إلَيْنا يَحُثُّنَا عَلَىٰ سُرْعَةِ الرَّجْعَةِ إلَيْهِ، مَصْحُوبِينَ بأَخِينَا الصَّغِير الَّذِي طَلَبَ مِنَّا إحْضَارَهُ مَعَنَا، وجَعَلَ إحْضَارَهُ شَرْطاً لمواجَهَتِهِ والموافقَةِ على مَا نَطْلُبُ مِنَ المِيرَة.

• ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾: أي: ونَجْلُبُ لِأَهْلِنَا الْمِيرَة، أي: القوت.

يقال لغة: «مَارَ فُلانٌ أَهْلَهُ، يَمِيرُهُم، مَيْراً» أي: جلَبَ لَهُمُ الطَّعَامَ، وهَيَّأَهُ لهم. **المِيرَة**: مَا يُجْمَعُ مِنَ الأقْوَاتِ والطَّعام.

• ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾: أَدْخَلُوا هَـٰذِهِ الْجُمْلَةَ فِي كلامِهِمْ لِطَمْأَنَةِ أَبِيهِمْ عَلَيْهِ، وهي لَيْسَت مِنَ الدَّواعِي المحَرِّضَةِ عَلَىٰ السَّفَرِ به.

• ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾: أي: وَنَزْدَادُ بِأَخْذِ أَخِينَا مَعَنَا كيلاً مِنَ الْقَمْحِ بِمِقْدَارِ حِمْلِ بَعِير. وهَـٰذِهِ الزيادة دافِعَةٌ لَنَا حَتَّىٰ يَشْتَدَّ حِرْصُنَا على حفظ أَخِينَا.

فَدَلَّتْ هَـٰذِهِ العبارَةُ عَلَىٰ أَنَّ قَافِلَتَهُمْ هِيَ من الجمال، ورُبَّمَا يكُونُ مَعَهُمْ حَمِيرٌ وغَيْرُهَا من الدَّواب لِرُكُوبِهِمْ، وحَمْلِ أَزْوادِهِمْ وعَلِيقِ دَوابّهِمْ.

وتَدُلُّ عَلَى أنَّ الوافِدَ إلى مِصْرَ لَا يُسْمَحُ لَهُ بأَنْ يَشْتَرِيَ أَكْثَرَ مِنْ حِمْلِ بَعِيرٍ واحِدٍ.

• ﴿... ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾: أي: ذَلِكَ الكَيْلُ الَّذِي جلَبْنَاهُ في رِحْلَتِنَا، كَيْلٌ قَلِيلٌ بالنِّسْبَةِ إلى حَاجَاتِنَا وَحَاجَاتِ أَهْلِينَا مِنَ الْقَمْحِ، فَنَحْتَاجُ مَزِيداً مِنْه.

كلمة «يَسِير» تأتي بمعنى «قَلِيل» وهذا هو المناسِبُ هنا. وتأتي بمعنى: «سَهْل» و«حقير» و«هَيِّن».

قول الله تعالى مُبَيّناً رَدَّ يعْقُوبَ على أبنائِهِ العشرة:

﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَادْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

• ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾:

الْإِيتَاءُ وَالْإِعْطاء والْأَخْذُ: أَلْفَاظٌ عُمِّمَت في الاسْتِعْمَال، فصَارَتْ تَدُلُّ عَلَىٰ الحسِّيَّاتِ الْجَسَدِيَّة، والمَعْنويَّاتِ الْفِكْرِيَّةِ والنَّفْسِيَّة، فتُطْلَقُ على إعطاء الْعَهْدِ والْوَعْدِ والْمَوْثِق، وأَخْذِ الْعَهْدِ والْوَعْدِ والْمَوْثق.

وهذا شأْنُ كثيرٍ من الحسِّيَّاتِ، إذْ جَرَىٰ في اللُّغَةِ تَعْمِيمُها على المعْنويَات، وهَـٰذا من التوسُّع اللُّغوي، وقَدْ يكُونُ أَصْلُهُ قائماً على التَّشْبِيهِ والاستعارة أو المجاز المرسل، ولكِنْ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ مُتَدبِّرِ آياتِ القرآن إلا أَنْ يَنْظُرَ فيما انْتَهَىٰ إلَيْهِ الاسْتِعْمَالُ اللُّغَوِيُّ، ودَرَجَ على الألْسِنَة.

الْمَوْثِقُ: الْعَهْدُ المؤَكَّدُ الْمُحْكَمُ المثبَّتُ بِمَا يَمْنَعُهُ مِن التفلُّت، أو الْإِفْلاتِ مِنْه.

• ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَوْثِقاً مَرْبُوطاً بِوِثَاقٍ «= حَبْلٍ» مِنَ اللهِ. والْوِثَاقُ مِنَ اللهِ هُوَ الْيَمِينُ المشَدَّدُ فيها.

• ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾: هَـٰذا تَفْسِيرُ الْمَوْثِقِ مِنَ الله، أَيْ: نُقْسِم لَكَ يا أبَانَا لَنأْتِيَنَّكَ بِأَخِينَا «بِنْيَامِين» ولَنَكُونَنَّ لَهُ لَحَافِظِين.

فاللَّامُ في: ﴿لَتَأْتُنَّنِي﴾ واقِعَةٌ في جوابِ قَسَمٍ مَنْوِيٍّ مُلاحَظٍ ذِهْناً.

• ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾: أي: أَسْتَثْنِي حَالَةَ إحَاطَةِ عَدُوٍّ بِكُمْ فَلَا تَسْتَطِيعُونَ التَّغَلُّبَ عَلَيْهِ وَلَا دَفْعَهُ عَنْكُم. ولَكُمْ أَنْ تَسْتَثْنُوهَا في قَسَمِكُمْ.

يُقَال لغة: «أُحِيطَ بِهِ» أي: دَنَا هَلَاكُه، وأَصْلُ الْعِبَارَةِ من إحَاطَةِ الْعَدُوّ بِعَدُوِّه، وإحَاطَةِ الْمُهْلِكَاتِ بالشيء.

• ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾: أَيْ: فَلَمَّا عَاهَدُوهُ، وَوَثَّقُوا عَهْدَهُمْ بِوِثَاقٍ مِنَ اللهِ، وهُوَ الْقَسَمُ باللهِ، مَعَ تَوْكِيدِه والتَّشْدِيدِ فيه.

• ﴿... قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾: أي: قَالَ أَبُوهُمْ يَعْقُوبُ عليه السلام بَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِمُ الْعَهْدَ الَّذِي وَثَّقُوهُ بِالْقَسَمِ، اللهُ عَلَىٰ مَا أقولُ وَتَقُولُونَ وَكيل.

الْوَكِيل: هو الَّذِي يُسَلَّمُ إِلَيْهِ أَمْرٌ مَا تَسْلِيماً كاملاً، أيْ: فَأَنَا أُفَوِّضُ للهِ أمْرِي، وأكِلُ إِلَيْهِ أمْرَ مَنْ يَنْقُضُ ميثَاقَهُ وَيَخُونُ مَا اسْتُؤْمِنَ عليه، ثِقَةً بِعَهْدِهِ الَّذِي وَثَّقَهُ بِقَسَمِهِ باللهِ، فَجَعل اللهَ رَقيباً عَلَيْهِ ومُحَاسِباً ومُجازِياً، وكفَىٰ باللهِ وَكيلاً.

وأذِنَ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلامُ لابْنِهِ «بِنْيَامِينَ» بالسَّفَرِ مع إخْوَتِهِ إِلَىٰ مِصْرَ، استجابَةً لِطَلَبِ سَيِّدِ الْأَرْضِ فيها، المُتصرِّفِ في شُؤُونِ التَّمْوين، وَوَجَّهَ لَهُمْ وَصِيَّةً بأنَّهُمْ إذَا وَصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ، فَلَا يَدْخُلُوا مِنْ بابٍ وَاحِدٍ، وأَمَرَهُمْ بأنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتفَرِّقَةٍ:

• ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: وقال يَعْقُوبُ لِأَوْلَادِه جميعاً حِينَ عزَمُوا على الرَّحِيلَ إلى مَصْرَ لِجَلْبِ أقواتِهِمْ مِنها: يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ وادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، فَهَلْ هِي أَبْوابُ المدينَةِ يومَئذٍ، كما ذكَرَ بعْضُ المفَسِّرين؟ أمْ هِي أبْوَابُ قَصْرِ التَّموينِ؟ لَمْ أَجِدْ مَا يُفِيدُ تَعْيِينَ أَحَدِهِمَا، واللهُ أَعْلَمُ.

وفي سَبَبِ وَصِيَّةِ «يعقُوبَ» عَلَيْهِ السَّلامُ أوْلادَهُ بأنْ لَا يَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ واحِدٍ عِدَّة احْتِمالات:

الاحتمال الأول: خوفُهُ عَلَيْهِمْ مِن أَعْيُنِ الحاسِدِين، إذْ كَانُوا ذوي جَمَالٍ، وهَيْئَةٍ حَسَنَةٍ، ومَنْظَرِ رُجُولَةٍ مَهِيبَةٍ، وألْبِسَةٍ فاخِرَةٍ، وهذا مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ، وقال به محمد بْنُ كَعْب، ومجاهد، والضَّحَّاك، وقتادَة، والسُّدِّي، وغيرهم. ومَعْلُومٌ أَنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ.

ولَكِنْ لَمْ يُوصِهِمْ هَـٰذِهِ الوصِيَّة في الرِّحْلَةِ الأولى، حِينَ لم يَكُنْ «بَنْيَامِين» مَعَهُمْ، ورُبَّما دَفَعَهُ لهذا حرصه الشديد علَيْه وخوفه من أن يتعرَّض لأذىً.

الاحتِمَال الثاني: خَوْفُهُ من أنْ يَلْفِتَ دُخُولُهُمْ مِنْ بَابٍ واحِدٍ أَنْظَارَ الشُّرْطَةِ والحرَّاس، فَيَظُنّوا أَنَّهُمْ جَواسِيسُ يُرِيدُونَ بالْمَمْلَكَةِ شرًّا، كالإطلاع علىٰ عَوْراتِها لصالح دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ طامعةٍ بها.

وهذا الاحتمال يُقَال فيه مَا يُقَالُ بشأن الاحتمالِ الأوّل.

الاحتِمَال الثالث: أنَّ يَعْقُوب عليه السَّلامُ ظَنَّ ولَوْ ظَنًّا ضَعِيفاً، أَنَّ رَدَّ الْفِضَّةِ في أفواه عُدُولِ الْقَمْحِ في الرِّحْلَةِ السَّابِقَة، مَعَ إصْرَارِ سَيِّدِ أَرْضِ مِصْرَ عَلَىٰ أَبْنَائِهِ بِأَنْ يَأْتُوا بأَخِيهِم الأصْغَر «بَنْيَامِين» هُوَ مِنْ تَدْبِيرِ ٱبْنِهِ يُوسُفَ الغائب عَنْهُ من نحو عشرين سَنَة، فأرادَ أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ، لعلَّ يوسُفَ يَرَىٰ بَنْيَامِينَ مُنْفَرِداً فيَخْلُوَ بِهِ وَيُعَرِّفَهُ بِنَفْسِهِ، ويُبْعِدُ هذا الاحتمال قوله: ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾.

وقَدْ يُرَشِّحُ هذا الاحْتِمَالَ مَا جَاءَ في الآية (٨٧) إذْ قَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ:

﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أقول: لا مانع من أن يكون يعقوب عليه السَّلام قَدْ قَصَدَ الاحتمالات الثلاثة معاً.

وقال يعقوب عليه السلام لأبْنَائِهِ:

• ﴿وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾: أي: وَمَا أَصْرِفُ عَنْكُمْ بِوَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ شَيْئاً مِنْ أثَرِ حُكْمٍ آتٍ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ.

• ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾: أي: مَا الْحُكْمُ فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ الَّذِي يَتِمُّ بِهِ تَنْفِيذُ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ، إِلَّا للهِ وَحْدَهُ.

هذا البيانُ يَدُلُّ عَلَىٰ أنَّ المؤمِنَ مَأْمُورٌ بواجِبَيْن:

الواجب الأول: هو الواجِبُ السَّبَبِيّ الَّذِي يُكَلَّفُ المؤْمِنُ أَنْ يَتَّخِذَهُ في أُمُورِهِ كُلِّهَا، فَكُلُّ مَا جَعَلَ اللهُ لَهُ سَبباً كَوْنِيًّا فَعَلَىٰ المؤمِنِ أَنْ يَقُومَ بِهِ تَحْقِيقاً لمطْلُوبٍ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ، أَوْ دَفْعاً لِمَكْرُوهٍ يُخْشَىٰ مِنْ حُصُولِهِ.

الواجب الثَّاني: هو الْوَاجِبُ الإيمانيُّ الْقَلْبِي، الَّذِي لَا يَقْتَضِي أَنْ يَنْقُصَ المؤمِنُ من اتِّخَاذِ الأسْبَابِ الْعَمَلِيَّةِ شَيْئاً، وهو إيمَانُهُ بِأَنَّ حُكْمَ اللهِ في قضائِهِ المبْرَمِ نَافِذٌ لَا مَحالَة، سَوَاءٌ أكَانَ مُسَايِراً لِلْأَسْبَابِ المتَّخَذَةِ، وهُو الأمْرُ الْغَالِبُ فِي تَقْدِير اللهِ وقَضَائِهِ وحُكْمِهِ، أم كَانَ مُخَالفاً لِمَسِيرَةِ الأسْبَابِ، إِذْ يتحَقَّقُ في النهايَةِ حُكْمُ الله، وَتَنْقَطِعُ الأسْبَابُ فَلَا تَتحقَّقُ النَّتَائِجُ الْمَرْجُوَّة بها.

• ﴿... عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

أي: فَمَعَ مُطَالَبَتِي باتِّخاذِ الْأَسْبَابِ، وَإِيمَانِي بِأَنَّهَا لَا تَصْرِفُ مِنْ تقدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ وحُكْمِهِ شَيْئاً، فإنَّنِي أَتوَكَّلُ عَلَيْهِ داعِياً لِيُحَقِّقَ مَا أُحِبُّ، وَيَصْرِفَ مَا أَكْرَه.

وعَلَيْهِ وَحْدَهُ فَلْيَتَوَكَّلِ المتَوَكِّلُونَ، مع قِيامِهِمْ بالْأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ، الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ أَسْبَاباً تَجْرِي مِنْ قَنواتِها أَوَامِرُ اللهِ المنَفِّذَةُ لِأَحْكَامِهِ فِي كَوْنِهِ.

التوكُّلُ عَلَىٰ اللهِ: الاسْتِسْلَامُ إِلَيْهِ، وتَفْوِيضُ تَدْبِيرِ الأمُورِ وتَحْقِيقِ مَا يَطْلُبُ المتَوَكِّلُ إِلَيْهِ، مَعَ القِيام بالأسْبابِ المستطاعَةِ الماديَّةِ والمعْنَوِيَّةِ طَاعَةً لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

يُقَالُ لُغَةً: «تَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ» أي: اعْتَمَدَ عَلَيْهِ بِقَلْبِهِ اعْتِمَاداً صَادِقاً،

مُسْتَسْلِماً لِمَا يَخْتَارُهُ لَهُ وَيُقَدِّرُهُ وَيَقْضِيهِ مِنْ أَمْرٍ، مَعَ قيامِهِ بالأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ الَّتِي لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ اتّخاذَها، دُونَ تَفْرِيطٍ بشَيْءٍ مُسْتَطَاعٍ مِنْها.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر الفصل الحادي عشر من قصَّةِ يوسف عليه السلام.

والحمْدُ للهِ على معونته، ومَدَدِهِ، وتَوْفيقِهِ وفَتْحِهِ.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليليّ للفصل الثاني عشر مِنْ قِصَّة يوسف عليه السَّلام الآيات من (٦٨ - ٩٣)

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ۞ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا

مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓا۟ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ :

القراءات:

(٦٩) • فتح ياء المتكلم من: [إِنِّي أَنا] نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وقرأها باقي القرّاء العشرة بالإسكان.

(٦٩) • أثبت نافع، وأبو جعفر ألف «أَنَا» مَمْدُودةً من: **[أَنَا أَخُوكَ]**. وحَذَفَها باقي القرّاء العشرة.

(٧٠) • قرأ ورْشٌ، وأبو جعفر: **[مُوَذِّنٌ]** بإبدال الهمزة واواً، وكذلِكَ حمزة في الوقف. وقرأها باقي القراء العشرة: **[مُؤَذِّنٌ]**.

(٧٦) • قرأ يعقوب: **[يَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ يَشَاءُ]**. وقرأها نَافع،وابن كثير، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جَعْفَر: **[تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ]**.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء]**.

وفي هذا القراءات تكامل فكري في بعضها، وتكامل في الأداءِ البياني في بَعْضها. ففي «يَرْفَعُ» و«يَشَاء» يَعُود الضمير على لفظ الجلالة. وفي «نَرْفَعُ» و«نَشَاءُ» فيهما ضَمِيرُ المتكلّم العظيم. وفي «تَرْفَعُ» و«نَشَاءُ» خطابٌ مِنَ اللهِ لِعَبْدِه في: «تَرْفَعُ» وحَدِيثٌ بضمير المتكلّم العظيم في: «نَشَاءُ».

(٨٠) • قرأ البزّي بخُلْفٍ عنه: **[فَلَمَّا اسْتَايَسُوا]** بإبْدَالِ الهمزة ألفاً من اسْتَأْيَسَ.

وقرأها باقي القرّاء العشرة: **[فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا]** مِن فعل «اسْتَيْأَس»، ودون إبدال. وهو الوجه الثاني للبَزّي.

(٨٠) • فتح ياء المتكلّم مِنْ «لِيَ» في: **[لِيَ أَبِي]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر.

وَمِنْ: **[أَبِيَ أَوْ]** نافع، وابْنُ كثير، وأبو عمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَهُمَا باقي القرّاء الْعَشَرَة فيهما.

(٨٢) • قرأ ابن كثير، والكسائي، وخلف: **[وَسَلِ الْقَرْيَةَ]**. وقرأَهَا باقي القرّاء العشرة: **[واسْأَلِ الْقَرْيَةَ]**.

(٨٦) • فتح ياء المتكلّم من: [وَحُزْنِيَ إِلَىٰ اللهِ] نافع، وأبو عَمْرو، وٱبْن عامر، وأبو جعفر. وأسْكنها باقي القرّاء العشرة.

(٨٧) • قرأ البزّي بخُلْفٍ عنه: [وَلاَ تَايَسُوا] و[لاَ يَايَسُ]. وقرأهما باقي القرّاء العشرة: [وَلاَ تيْأَسُوا] و[لاَ يَيْأَسُ] وهو الوجه الثاني للبزي.

(٩٠) • قرأ ابن كثير، وأبو جعفر: [قَالُوا إِنَّكَ] دون همزة استفهام، وقرأها باقي القرّاء العشرة: [قَالُوا أَإِنَّكَ] بإثبات همزة استفهام.

(٩٠) • قرأ قُنْبُل: [يَتَّقِي] بإثبات الياء الأخيرة في الوصل والوقف. وقرأها باقي القرّاء العشرة: [يَتَّقِ] بحَذْفِها للجزم.

تمهيد:

في آيات هذا الفصل عَرْضُ ما اتَّخذَهُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ مِن تَدْبِيرٍ لِيَحْتَفِظَ بأخِيه «بَنْيَامِينَ» عِنْدَه، دُونَ أَنْ يَعْلَمَ سَائِرُ إِخْوَتِهِ بأنَّهُ أخُوهُمْ يُوسُف، ولِيَرَىٰ مَاذَا يَصْنَعُونَ، وهَلْ مَا زَالُوا يَحْمِلُونَ حَسَداً في قُلُوبِهِمْ ضِدَّ يُوسُفَ وبَنْيَامِينَ شَقِيقِهِ؛ لأنَّ أَبَاهُمْ يُحِبُّهُمَا أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ أبْنَائِهِ؟ وَلَيَضْغَطَ بَعْضَ الضَّغْطِ عَلَىٰ قُلُوبهم قَبْلَ أَنْ يَكْشِفَ نَفْسَهُ لهم، وَيَأْمُرَهُمْ بِأَنْ يَأْتُوا بِأَبِيهِمْ وَجَمِيعِ أَهْلِهِمْ إِلَىٰ مِصْر، لِيَعِيشُوا فِي خَيْرَاتِها وَفِي أَخْصَبِ أَرْضِهَا، مُمَكَّنِين فِيها بِعِزٍّ ومَنَعَةٍ ونَعْمَةٍ وسَعَةٍ في الرِّزْقِ ومَطَالِبَ مُسْتَجابَة.

ويَبْدأُ هَـٰذا الْفَصْلُ مِنْ حَدَثِ دُخُولِهِمْ ومَعَهُمْ أَخُوهُم الأَصْغَرُ «بَنْيامِينَ» لِلْوُصُولِ إلى صَاحِبِ سُلْطَانِ التَّمْوينِ في مِصْرَ، وهُوَ في الحقيقَةِ أخُوهُمْ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، ويَنْتَهِي بِقَوْلِهِ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ عَرَفُوه وعَفَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ إِذْ طَرَحُوهُ في الْجُبِّ، ﴿وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾.

التدبُّر التحليلي:

قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ إخوة يوسف:

• ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾:

أي: ورَحَلَ إخْوَةُ يُوسُفَ وَمَعَهُمْ «بِنْيَامِين» مِنْ أرْضِ كَنْعَانَ مُتَّجِهِينَ لِمِصْرَ لجلْبِ الميرَةِ، ولمَّا دَخلُوا المدينَةَ، أَوْ قَصْرَ التَّمْوينِ في مِصْرَ، مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أبُوهُمْ، أيْ: مِنْ أبْوابٍ مُتفرِّقَةٍ.

«حَيْثُ» ظرف مَكانٍ مبنيٌّ على الضمّ، وقَدْ سَبَقَ مَا يَتَعَلَّقُ به لدى تدبر الآية (٥٦).

وأكَّدَ اللهُ صِحَّةَ مَا قَالَهُ يعقوب لأبنائِهِ: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ فَقَالَ تعَالَىٰ:

• ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ سَبَقَ تَدَبُّر عبارة يعْقُوب المناظِرَة لِهَٰذِهِ العبارة، وَقَدْ فَهِمْنَا مِنْهَا وُجُوبَ اتّخاذِ الأَسْبَاب، مَعَ الإيمانِ بأنَّهُ لَا يَجْرِي في الكَوْنِ شَيْءٌ إلَّا بِقَضَاء اللهِ وَقَدَرِهِ، أو بإذْنِهِ.

أي: مَا كَانَ يَعْقُوبُ بأمره لأبنائِهِ باتِّخَاذِ الاحْتِيَاطِ السَّبَبِيّ، لِيَصْرِفَ عَنْهُمْ شيْئاً مِنْ أَثَر حُكْمٍ آتٍ مِنَ اللهِ يَقْضِي بِتَنْفِيذِ مَا تَمَّ بِهِ تقدير اللهِ وقضاؤُه.

«مِنْ» في: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ زِيدَت لتوكيد عُمُوم لفظِ «شيءٍ» المنفي بحرف «ما».

• ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾: أي: لَـكِـنْ أوْصَـىٰ أبْـنَـاءَهُ بِـمَـا أَوْصَاهُمْ بِهِ لِيَقْضِيَ حَاجَةً فِي نَفْسِهِ، وهِيَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَجِبُ عَلَىٰ المؤمِنِ من اتِّخَاذِ الْأَسْبَابِ الْعَمَلِيَّةِ، لتَحْقِيقِ مُسَبَّبَاتِها، مَعَ إيمَانِهِ بأنَّهُ لا يَتَحَقَّقُ شَيْءٌ فِي الْكَوْنِ إلَّا مَا قَدَّرَهُ اللهُ وقَضَاهُ، أَوْ أَذِنَ بِهِ، ومَعَ صِدْقِ التَّوَكُّلِ الْقَلْبِيِّ عَلَىٰ اللهِ لِتَحْقِيقِ مَرْغُوبٍ فِيهِ، أَوْ لِصَرْفِ مَكْرُوهٍ فِيهِ ضُرٌّ أَوْ أذىً.

وهَـٰذِهِ الحاجَةُ الَّتِي في نَفْسِهِ قَضَاهَا بِبَيَانِهِ، ونَالَ بِقَضَائِهَا تَسْجِيلَ الْأَجْرِ الْعَظِيم عِنْدَ رَبِّهِ؛ لِأَنَّهَا مِنْ فُضْلِيَاتِ الطَّاعَات.

وأَثْنَىٰ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَىٰ يَعْقُوبَ بِقَوْلِهِ:

• ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾: أي: وإِنَّهُ لَصَاحِبُ عِلْمٍ بالحقَائِقِ الدِّينِيَّةِ الكُبْرَىٰ الَّتِي عَلَّمْنَاهُ إِيَّاهَا، ومَنْها الإيمانُ بأَنَّهُ لَا يُوجَدُ شيءٌ أو يُعْدَمُ إِلَّا بتَقْدِيرِ اللهِ وَقَضَائِهِ، أَوْ إِذْنِهِ، وأَنَّ عَلَىٰ المؤمِنِ أَنْ يَتَّخِذَ الأَسْبَابَ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ في نِظَامِهِ لِكَوْنِهِ مُحقِّقَةً في الظَّاهِرِ لمُسَبَّبَاتِهَا، وأَنْ يَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللهِ في أُمُورِهِ كُلِّهَا، لينالَ بِتَوَكُّلِهِ ثوابَ المتوكّلينَ، ولِيُمِدَّه اللهُ بمعونَتِهِ وتَوْفِيقِهِ وتَسْدِيدِهِ وتحقيق ما يَرْغَبُ فيه.

وجاءت عبارة ﴿لِّمَا عَلَّمْنَـٰهُ﴾ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ أَنَّ الْعِلْمَ المطَابِقَ لِلْحَقِّ هو من تَعْلِيمِ اللهِ، سواءٌ أكان عن طَرِيقِ الوَحْي، أَوْ عَنْ طَرِيق الْفَهْم بِوَسَائِلِ المعرفَةِ الَّتِي آتاهَا اللهُ لِعَبْدِه. كُلُّ ذَلِكَ تَعْلِيمٌ مِنَ اللهِ، وللرُّسُلِ تَعْلِيمٌ اخْتَصَّهُمُ اللهُ بِهِ، وهُو مَا كَانَ عَنْ طَرِيقِ الْوَحْيِ الْجَلِيّ، أو التكليم مِنْ وَرَاءِ حِجابٍ، أَوْ طَرِيق إِرْسَالِ رَسُولٍ مِنَ الْمَلَائِكَة، ومَعْلُومٌ أَنَّ أَمِينَ الوحِي للأنبياء والمرْسَلِينَ هو جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام.

• ﴿. . . وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾: أي: ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ الْقَضَايَا الدِّينِيَّة، إِذْ لَمْ يُوجِّهُوا أَدَوَاتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهِمْ لاسْتِقْبَالِ وَارِدَاتِهَا الرَّبَّانِيَّةِ، بَلْ وَجَّهُوهَا لِمَعْرِفَةِ مَا يَرْغَبُونَ فِيهِ مِنْ مَتَاعَاتِ الحياةِ الدُّنْيَا وَزِيناتِهَا وشَهَوَاتِهِمْ وأهوائِهِمْ مِنْها.

قول اللهِ تَعالَىٰ:

• ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وَهُو فِي مَجْلِسِهِ السُّلْطَانِيّ رَحَّبَ بِهِمْ، وأَنْزَلَهُمْ مُكَرِّماً لَهُمْ فِي حُجُرَاتٍ.

ولَيْسَ بِبَعِيدٍ مَا قِيلَ مِنْ أَنَّهُ أَنْزَلَ كُلَّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ في حُجْرَة، وَأَخَّرَ «بَنْيَامِينَ» فَأَنْزَلَهُ مَعَهُ في الْحُجْرَةِ الْخَاصَةِ به.

• ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾: أي: ضَمَّ إلَيْهِ أخَاه، تَقُولُ لُغَةً: «أَوَيْتُ فُلاناً، وآوَيْتُهُ إليَّ» أي: ضَمَمْتَهُ إِلَيْكَ وَأحطْتَهُ بِعِنَايَتِك، وأَنْزَلْتَهُ عِنْدَكَ مَنْزِلاً يُرْضِيهِ.

• ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ﴾: أي: وَلَمَّا آوَىٰ إلَيْهِ أخَاهُ قَالَ لَهُ: إِنِّي أَنَا أخُوكَ يُوسُف.

• ﴿... فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٦٩﴾: أي: فَلَا تَكْتَئِبْ وَلَا تَحْزَنْ بِمَا كَانَ إخْوَتُنَا مِنْ أبينا يَعْمَلُونَ بِنَا، حَسَداً لَنَا لِأَنَّ أَبَانَا يُؤْثِرُنا بمَزِيد من الحبّ، فَقَدْ أكْرَمنا اللهُ بما يُفْرِحُنَا مِنْ مَجْدٍ عظيم، وسُلْطَانٍ كبير في مِصْرَ.

وتدل هذه العبارة على أنّهم قد كانت لَهُم أعْمالٌ كبيرة تَنِمُّ عَنْ حَسَدِهِمْ، غير حادثة التخلّص من يوسف بطرحه في البئر.

ولا بُدَّ أَنْ يكونَ «يُوسُفُ» قَدْ قَصَّ عَلَىٰ أخيهِ «بَنْيَامِينَ» قِصَّتَهُ، بَدْأً مِنْ طَرْحِ إخْوَتِهِ لَهُ في الْجُبِّ، حَتَّىٰ وُصُولِهِ إلَىٰ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانٍ ومَجْدٍ عَظِيمٍ في مِصْر.

وَزَادَ يُوسُفُ في تَكْرِيم إخْوَتِهِ ضُيُوفاً عِنْدَه، وكَانَ كَمَا جَاءَ في مَكْتُوبَاتِ الإسْرَائِيليّين يَزِيدُ «بَنْيَامِينَ» إكْراماً فِي الطَّعَام والشَّراب، ولَعَلَّهُ كَانَ يَقْصِدُ أَنْ يُدْرِكُوا بأنْفُسِهِمْ أَنَّهُ يُوسُف، لَكِنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَبْعِدُونَ هَـٰذا التّصَوّر.

قول اللهِ تَعَالَىٰ:

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾:

جاءَتْ نِسْبَةُ التَّجْهِيزِ إِلَىٰ يُوسُفَ عَليه السَّلام لِأَنَّهُ الآمِرُ، والمُرَادُ خُدَّامُهُ وعَبِيدُهُ، وهذا من المجاز المرسل.

أي: فَلَمَّا هيَّؤُوا جهَازَ أَبْنَاءِ يَعْقُوب. **الْجَهاز**: بِفَتْحِ الجيم وكَسْرِها كُلُّ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْه. فجهاز المسافِرِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي سَفَرِهِ مَعَ أَحْمَالِهِ الَّتِي اشْتَرَىٰ مَا فِيهَا لِيَنْقُلَهَا.

- ﴿ٱلسِّقَايَةَ﴾: الإناءُ الَّذِي يُسْقَىٰ بِهِ. ويُسَمَّىٰ أيضاً «صُوَاعا».

- ﴿فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾: **الرَّحْل**: مَا يُوضَعُ عَلَىٰ ظَهْرِ الْبَعِيرِ مِنْ وِعَاءٍ للمتاعِ وغيره، كالْخُرْجِ، والْعِدْل ونحوهما.

أي: فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجهازِهِمْ وَدَسَّ إِنَاءَ شَرابِهِ في رَحْلِ أخِيهِ «بَنْيَامِين» وجاء عند الإسْرَائِيلِيِّينَ أَنَّهُ طَاسٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مُتَجِهِينَ إِلَىٰ مَنَازِلِهِمْ في أَرْضِ كنْعَان «فِلِسْطِينَ» وبَعْدَ أَنْ قَطَعُوا مَسافَةً خارِجَ حُدُودِ الْمَدِينَةِ، تَبِعَهُم جُنُودُ وَلِيِّ التَّمْوِينِ فِي مِصْر وسَيِّدِهِ الْأَوَّل، ولَمَّا اقْتَرَبُوا مِنْهُمْ نَادَىٰ مِنْهُمْ مُنَادٍ في الرَّكْبِ، وهو ما جاء بيانُهُ في قوله تَعَالَىٰ:

- ﴿. . . ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

قول الله عَزَّ وجَلَّ:

الْعِيرُ: مَا جُلِبَ عَلَيْهِ الطَّعَامُ مِنْ قَوَافِلِ الْإِبلِ والْبِغَالِ والحمير. أُطْلِقَ لَفْظُ «الْعِيرِ» وأُرِيدَ أَصْحَابُ الْعِير.

أي: وبَعْدَ أَنْ قَطَعُوا مَسَافَةً مُتَجِهِينَ إلىٰ أَرْضِهِم تَبِعَهُمْ جُنودٌ، ونَادَىٰ مُنَادِي الجُنودِ قائِلاً: أَيَّتُهَا العِيرُ إِنَّكُم لَسارِقُون.

﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾: أي: نَادَىٰ مُنَادٍ يُعْلِمُ بأمْرٍ ما.

لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ يُوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَعْلَمَ أَخَاهُ «بنْيَامِينَ» بالمَكِيدَةِ الَّتِي اصْطَنَعَهَا، لِيَحْتَفِظَ بِهِ عِنْدَهُ، إِذْ لَا يُسْمَحُ لَهُ بِحَسَبِ الْقَانُون الْفِرْعَوْنِي بِأَنْ يَحْتَفِظَ بِغَرِيبٍ فِي مَمْلَكَتِهِ إِلَّا بِذَنْبٍ، ومِنَ الذُّنُوب الَّتِي تُمَكِّنُهُ مِنَ الاحْتِفَاظِ بِهِ أَنْ يَكُونَ سَارِقاً، ولِيَضْغَطَ ضَغْطاً مَا عَلَىٰ قُلُوبِ إِخْوَتِهِ، ويَكْشِفَ مَا فِي نُفُوسِهِمْ.

- ﴿قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾:

أي: قَالَ إخْوَةُ يُوسُفَ عَنْ بُعْدٍ، وأَقْبَلُوا عَلَىٰ الْجُنْدِ المنَادِينَ الَّذِينَ يَتَّهِمُونَهُمْ بِأَنَّهُم سَارِقُون: مَاذَا تَفْقِدُونَ؟.

- ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾.

وقال رَئِيسُ الرَّهْطِ مِنَ الْجُنْدِ: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾:

زَعِيم: أي: كَفِيل.

أي: قَالَ الْجُنْدُ بِلِسَانِ رَئِيسِهِمْ نَفْقِدُ إنَاءَ شَرَابِ الْمَلِكِ، وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ مُكَافَأَةٌ، هِيَ حمْلُ بَعِيرٍ مِن القَمْحِ إذا جَاءَ بِهِ قبل التفْتِيش، وقَالَ رَئِيسُهُمْ وأَنَا كَفِيلٌ بمَنْحِهِ هَـٰذِهِ الجائِزَة.

وفي إضَافَةِ «صُواع» إلى «الْمَلِك» دَلَالَةٌ عَلَىٰ أَنَّ مَا يُوجَدُ في قُصور ودَاوئِرِ الدَّوْلَةِ هِي مِلْكٌ لِلْمَلِكِ، ففي سَرِقَتِهِ جَنَايَةٌ عَلَىٰ حَقِّ الْمَلِكِ، وهَـٰذِهِ جِنَايَةٌ خَطِيرَة.

- ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾:

- ﴿قَالُوا۟﴾: قال المتَحَدِّثُ مِنْ أَبْنَاءِ «يَعْقُوب = إسرائيل» مع مُوافَقَةِ سائرهم.

• ﴿تَٱللَّهِ﴾: **التاءُ** هي تَاءُ القسم، والصَّحِيح أنَّ الْعَرَبَ لَا يُدْخِلُونَ تَاءَ القسمِ في غير الله. والغالِبُ اسْتِعْمَالُهَا فِي الْمُقْسَمِ عَلَيْهِ ذي الخطر.

• ﴿لَقَدْ عَلِمْتُم﴾ أي: مِنْ رِحْلَتِنَا السَّابِقَة.

• ﴿مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: مَا جِئْنَا جَواسِيسَ لِصَالِحِ دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ، ولَا لِنَسْرِقَ، فَجَعَلُوا السَّرِقَةَ مِنَ الْفَسَادِ في الْأَرْضِ.

• ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: أي: وَمَا كُنَّا فِي حَيَاتِنَا كُلِّها مُنْذُ نَشْأَتِنَا سَارِقِينَ، إذْ نَحْنُ أُسْرَةُ أَمَانَةٍ واسْتِقَامَةٍ ودِينٍ، وقَدْ جِئْنَاكُم ببضاعَتِنا الَّتِي وَجَدْنَاهَا في متاعنا.

• ﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾؟ أي: فَمَا جَزَاءُ سَارِقِهِ إنْ ظَهَرَ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَتِكُمْ وُجُودُ صُواع الْمَلِكِ فِي وَاحِدٍ مِنْها، وبهَٰذا يَظْهَرُ أَنَّكُمْ كَاذِبُونَ في ادِّعَاءِ أَنَّكُمْ جَمِيعاً لَسْتُمْ سَارِقِينَ.

إنَّ وجُودَ سَارِقٍ واحِدٍ فِيهِمْ يَكْفِي لِجَعْلِهِمْ كاذِبِينَ في قَوْلِهِمْ: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾: أي: لَيْسَ أيُّ وَاحِدٍ مِنَّا سَارِقاً.

• ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أيْ: قَالَ المتَحَدِّثُ مِنْ رَكْبِ أَبْنَاءِ يَعْقُوب: جَزَاءُ السّارق في نظام بَلَدِنا، أوفي شريعَةِ أَسْرَتِنَا، هو ما يلي: مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ وظَهَرَ أَنَّهُ سارقٌ فَهُو جَزاؤُه، أيْ: يَكُونُ هُوَ عَبْداً مُسْتَرَقّاً عقُوبَةً لَهُ، وَرُبَّما كَانَ ذَلِكَ مُدَّةً من الزَّمَنِ بِحَسَبِ نَوْعِ المسْرُوقِ وقِيمَتِهِ، وقَدْ تَصِلُ المدَّة إلى سَنَة.

كذلك نَحْنُ في بلادنا أو في شَرِيعَتِنَا نَجْزِي الظَالِمِينَ بالسَّرقة.

وأقَرَّ سَائِرُ الإخْوَةِ مَا ذَكَرَهُ المتَحدِّثُ بِلِسَانِهِمْ، وقَدْ يَكُونُ كبيرَهُم «رأُوبِين».

وسَكَتَ «بَنْيَامِين» وهُوَ يَعْلَمُ مَا دَبَّرَهُ أخُوهُ يُوسُف ليَحْتَفِظَ بِهِ عِنْدَه.

وجاء عند المفسرين أنّ استرقاق السارق لمدّة ما شريعة عند يعقوب والله أعلم.

• ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾:

أي: فأمَرَ رَئِيسُ الْجُنْدِ فِتْيَانَهُ بأنْ يَبْدَؤوا بِتَفْتِيش أَوْعِيَةِ الكِبَارِ قَبْلَ تَفْتِيش أوعِيَةِ أصْغَرِهِمْ، وهو «بَنْيَامِين» شقيقُ يوسُف. ثُمَّ بَعْدَ أَنِ انْتَهَوْا مِنْ تَفْتِيشِ أَوْعِيَةِ الكِبَارِ وَلَمْ يَجِدُوا صُواعَ الْمَلِكِ فيها، أَمَرَ رَئِيسُ الْجُنْدِ بِتَفْتِيشِ أَوْعِيَةِ «بَنْيَامِين» فَوَجَدُوا صُواعَ الْمَلِكِ في بَعْضِهَا فاسْتَخْرَجُوه مِنْه.

الْوِعَاء: كُلُّ ظَرْفٍ يُنْقَلُ يُوضَعُ فِيهِ شيءٌ ما، جَمْعُهُ «الأوعِيَة، مِنْ جِلْدٍ، أو قُمَاشٍ، أو مَعْدِنٍ، أو فخَّارٍ، أو زُجَاجٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ، صَغيراً كانَ أمْ كبيراً

وقال الله تعالى عمَّا دَبَّرَ:

• ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَۖ﴾: كَمَا أَلْهَمْنَا يُوسُفَ تَدْبِيرَ مَكِيدَةِ صُوَاعِ الْمَلِكِ، ودَسِّهِ في بَعْضِ أَوْعِيَةِ «بَنْيَامِينَ» لِيَحْتَفِظَ بِهِ، كِدْنَا لِتَحْقِيقِ مُرَادِ يُوسُفَ كَيْداً آخَرَ أتْمَمْنَا بِهِ تَحْقِيقَ مُرَادِه، فَأَلْهَمْنَا إِخْوَتَهُ أَنْ يَذْكُرُوا نِظَامَهُمْ في عُقُوبَةِ السَّارِقِ، وهِيَ اسْتِرْقَاقُهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، وَبهذا تَسَنَّىٰ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يُقَرِّرَ مُعَامَلَةَ سارِقِهِمْ عَلَىٰ وَفْقِ نِظَامِهِمْ، على خِلَافِ نِظَامِ الدَّوْلَةِ المِصْرِيَّةِ الفِرْعَوْنِيَّةِ الَّذي يَدِينُ لَهُ فِرْعَون، وهِيَ أَنْ يُضْرَبَ السَّارِقُ وَيُغْرَّمَ ضِعْفَ مَا سَرَقَ، عَلىٰ مَا جاءَ عِنْدَ المفسِّرِينَ، واللهُ أعلم.

الكَيْدُ: تَدْبِيرُ أَمْرٍ فِيهِ مَكْرُوهٌ لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّهُ، ظاهِر أَوْ خَفِيٌّ، وقَدْ يَكُونُ تَدْبيراً بالحقِّ والْعَدْلِ.

واللّام الجارَّة في ﴿كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: كِدْناً كيداً لِتَحْقِيقِ مُرادِ يُوسُفَ من الاحْتِفَاظ بأخيه، وأصْلُ فعل «كادَ» يَتَعدَّىٰ بنفسه، يُقَالُ لغة: «كادَهُ، يَكِيدُهُ، كَيْداً، وَمَكِيدَةً» أي: خَدَعَهُ وَمَكَرَ بِهِ.

• ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾:

أي: مَا كَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَسْمُوحاً لَهُ في النِّظَامِ الْعَامِّ الَّذِي يَقْضِي بِهِ الْمَلِكُ، أَنْ يَسْتَرِقَّ السَّارِقَ أَوْ يَحْتَفِظَ بِهِ مَسْجُوناً وَلَوْ إِلَىٰ مُدَّةٍ مَحْدُودَة. لَكِنْ لَهُ أَنْ يُعَامِلَ رَعَايَا دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ بِحَسَبِ الْأَنْظِمَةِ الْمَرْعِيَّةِ لَدَيْهَا، ضِمْنَ نِظَامِ المعامَلَةِ بِالْمِثْل، فَأَجْرَىٰ اللهُ لَهُ التَّدْبِيرَ الَّذِي يُمَكِّنُهُ مِنَ الاحْتِفَاظِ بأَخِيهِ، مُعَامَلَةً لِرَعَايا دَوْلَةٍ أُخْرَىٰ بِمِثْلِ مَا تُعَامِلُ بِهِ رَعَاياها، وهَٰذِهِ حِيلَةٌ نِظَامِيَّة.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾: أي: إلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ تَدْبِيراً آخَرَ، فَإِنَّهُ قَدِيرٌ عَلَىٰ أَنْ يَفْعَلَ مَا يَشاءُ، ومِنْهُ أَنْ يَجْعَلَ يُوسُفَ هُو الْمَلِكَ المسَلَّط عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وعنْدَئِذٍ لَا يَكُونُ مُلْزماً بالتَّقَيُّدِ بِنِظَام الْمَلِك، واحْتِمالَاتُ مَشِيئَاتِ اللهِ لَا حَصْرَ لَهَا.

• ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: يَقُولُ اللهُ عَنْ نَفْسِهِ بِضَمِيرِ المتكَلِّم الْعَظِيم: نَرْفَعُ مَنْ نَشَاءُ رَفْعَهُ دَرَجَاتٍ قَلِيلَاتٍ أَوْ كَثِيراتٍ، مِنْ دَرَجَاتِ الدُّنيا أو الآخِرَة، فَنُعْطِي مَثلاً السُّلْطانَ أو الْمُلْكَ فِي الدُّنيا، وجَنَّاتِ عَدْنٍ أوِ الْفِرْدَوسَ الأعلىٰ في الآخِرَةِ، مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنا.

والْمُؤْمِنُونَ أُولُو الْأَلْبَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّ مشيئَاتِ اللهِ مَهْمَا كَانَتْ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَه، فَكُلُّ مَشيئةٍ يَتِمُّ بِهَا قَضَاؤُهُ أَمْرٌ حَكِيمٌ لَا مَحالَة.

• ﴿. . . وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾: فِي هَٰذِهِ العِبَارَةِ إشْعَارٌ بأَنَّ مِمَّنْ يَرْفَعُهم اللهُ دَرَجاتٍ، يَرْفَعُهُمْ بِسَبَبِ تَفَوُّقِهِمْ فِي الْعِلْم النافِع، ولَا سِيمَا مَا يَتَعلَّقُ بِحَقَائِقِ الْعِلْمِ الْكُبْرَىٰ، الَّتِي يُدْرِكُ الْعلِيمُ بِهَا عظيم

صِفَاتِ اللهِ جَلَّ جَلالُهُ، وعَظِيمَ آثَارِهَا فِي كَوْنِهِ وفي تَصَارِيفِهِ لَهُ، عَبْرَ مَجْرَيَاتِ الأَحْدَاث.

قول الله تَعَالَىٰ:

﴿۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧﴾:

دَلَّتْ هَـٰذِهِ الآيَةُ عَلَىٰ أَنَّ إخْوةَ يُوسُفَ رَجَعُوا بأَحْمَالِهِمْ إِلَىٰ مِصْرَ مَعَ الْجُنُود، وَأَنَّهُمْ دَخلُوا عَلَىٰ يوسُفَ يَسْتَرْضُونَهُ وهُمْ لَا يَعْرِفُونَ أَنَّهُ أَخُوهُمْ.

وأَنَّهُمْ أَرَادُوا أَنْ يتَبَرَّؤُوا مِنْ سَرِقَةِ أَخِيهِمْ مِنْ أَبِيهِم «بِنْيَامِينَ» ويَتَحَامَلُوا عَلَىٰ وَلَدَي زَوْجَتِهِ «رَاحِيلَ» مُشْعِرِين مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ بِعَتَبِهِم علىٰ أَبِيهِمْ إذْ يُؤْثِرُهُمَا بِحُبِّه.

وَيَظْهَرُ أَنَّ يُوسُفَ سَأَلَهُمْ: كَيْفَ حَصَلَتْ هَـٰذِهِ السَّرِقَةُ فِيكُمْ وَأَنْتُمْ أَوْلَادُ شَيْخٍ فاضل. ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾.

جاء عند ابن كثير بالنِّسبَةِ إلى السَّرِقَةِ الَّتِي أَلْمَحُوا إليها روايتان:

الأولى: عن سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر عَنْ قتادة قال: كَانَ يُوسُفُ قَدْ سَرَقَ صَنَماً لِجَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ فَكَسَره. وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذِهِ السَّرِقَةَ يُشْكَرُ عليها وتعتبر من فضائله.

الثانية: عَنْ مُجَاهِد فيما رَوىٰ محمَّدُ بْنُ إسحاق، أَنَّ عَمَّتَهُ ابْنَةَ إِسْحَاق وكانت أَكْبَرَ أولاد إِسْحَاق، كانت عِنْدَهَا مِنْطَقَةُ إِسْحَاق، وأَنَّهُمْ كَانُوا يَتوارَثُونَها بالكِبَر، وكانَ مَنِ اخْتَبأَهَا مِمَّنْ وَلِيَهَا كَانَ لَهُ سَلَماً (أيْ: أَسِيراً لَهُ) لَا يُنَازِعُ فيه، فهو يَصْنَعُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، وَكَانَ يَعْقُوبُ حِينَ وُلِدَ لَهُ يُوسُفُ قَدْ حَضَنَتْهُ عَمَّتُهُ، وَكَانَتْ وَلُوعَةً بِهِ، فَلَمْ تُحِبَّ أَحداً حُبَّها إِيَّاهُ، حَتَّىٰ إذا تَرَعْرَعَ وبَلَغَ سَنَوَاتٍ تَاقَتْ إِلَيْهِ نَفْسُ أَبِيهِ يَعْقُوب عَلَيْه السلام،

فأتَاهَا فقالَ لَهَا: يَا أُخيَّةُ، سَلِّمِي إلَيَّ يُوسُف، فَوَاللهِ مَا أَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ يَغيبَ عَنِّي سَاعَةً، قَالَتْ: فَوَاللهِ مَا أَنَا بتَارِكَتِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَدَعْهُ عِنْدِي أيّاماً أنْظُرْ إلَيْهِ وأسْكُنْ عَنْهُ، لَعَلَّ ذَلِكَ يُسَلِّينِي عَنْهُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِها أَخُوها يعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلام، عَمَدَتْ إلَىٰ مِنْطَقَةِ إسْحَاقَ، فَحَزمَتْهَا عَلَىٰ يُوسُفَ مِنْ تَحْتِ ثِيَابِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: فَقَدْتُ مِنطَقَةَ أَبِي إسْحاقَ، فانْظُرُوا مَنْ أَخذَها، ومَنْ أَصَابَها؟.

فالْتُمِسَتْ فَلَمْ يَجِدُوها، ثُمَّ قَالَتْ: اكْشِفُوا أهْلَ الْبيتِ، فَكَشَفُوهم، فَوجدُوهَا مَعَ يُوسُف، فَقَالَتْ: واللهِ إنَّهُ لِي لَسَلَمٌ (أي: هُوَ لأَسِيرٌ لي) أصْنَعُ فِيهِ مَا شِئْتُ، فَأتَاهَا يَعْقُوب، فأَخْبَرَتْهُ الْخَبَرَ، فقال لَهَا: أَنْتِ وذَاكِ إنْ كَانَ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ سَلَمٌ لَكِ (أي: هُو أسِيرٌ لَكِ) مَا أَسْتَطِيعُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَأمْسَكَتْهُ عَمَّتُه، فَمَا قَدَرَ على أَخْذِهِ أبُوهُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حتَّىٰ ماتت.

وظاهِرٌ أَنَّ هَـٰذِهِ مَكِيدَةٌ مِنْ عَمَّتِهِ لتَحْتَفِظَ بِهِ، ولَيْسَتْ سَرِقَةً مِنْ يُوسُف، ومَا كَانَ لإخْوَتِهِ أَنْ يُشِيرُوا إلَيْهَا، لَكِنْ مَا زَالَ فِي نُفُوسِهِمْ حَسَدٌ لِيُوسُفَ ولبَنْيَامِين.

• ﴿... فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ۝٧٧﴾:

أفهم مِنْ هَـٰذِهِ العبارة أنّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أسَرَّ في نَفْسِهِ مَقُولَتَهُمُ الظَّالِمَةَ بِشَأْنِهِ، وَلَمْ يُبْدِ لَهُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَعْنُونَهُ بها، لِأَنَّهُ لَمْ يَكْشِفْ بَعْدُ لَهُمْ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يُوسُف، ولَمْ يَسْأَلْهُمْ عن اتّهامِهِمْ أخاهم الغائب بالسَّرِقةِ، وكيف كانت سَرِقَتُهُ.

ورُبَّمَا قَالَ في نَفْسِهِ دُونَ أَنْ يُسْمِعَهُمْ، أو أَسْمَعَهُمْ وهو الْأَرْجَحُ رَجاءَ أَنْ يُدْرِكُوا بأنْفُسِهِمْ أَنَّهُ أخُوهُمْ يُوسف: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًاۖ﴾: أي أنْزَلَ وأحَطُّ مَكَاناً مِنْ «بَنْيامِينَ» ومِنْ أَخِيهِ الْغَائِبِ الَّذِي ذَكَرْتُمْ أَنَّهُ سَرَقَ مِنْ قَبْل.

ويظهر أن يوسف عليه السلام أراد أن يَسْتَثِيرهُمْ لِيَسْأَلُوهُ عَنْ سَبَبِ شَتِيمَتِهِ هَـٰذِهِ لَهُمْ فَلَمْ يَسْأَلُوهُ، وقال أيْضاً: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾: أي: واللهُ أعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَلِيم بِمَا تَصِفُونَ بِهِ أَخَاكُمُ الْغَائِبَ بأنَّهُ قَدْ سَرَقَ، وَتَذْكُرُونَهُ بِغَيْبَتِهِ بِمَا يَجرَحُ أَمَانَتَهُ، فهَـٰذا مِنْكُمْ طَعْنٌ لَهُ وهُوَ غائِب، ولَيْسَ لَدَيْكُمْ بَيِّنَةٌ تُثْبتُونَ بها إدَانَته، أي: فَلَسْتُ أُصَدِّقكُمْ في قولكم: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: وهو أخوه الشقيقُ يوسف هَـٰذا ما ظَهر لِي واللهُ أعْلَمُ.

عِنْدَئذٍ لَجؤُوا إلَى الاسْتِعْطَافِ لِيُفْرجَ عَنْ «بِنْيامِينَ».

• ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٧٨﴾:

أي: نَادَوْهُ نِدَاءَ المتلَهِّفِ المستَغِيثِ: يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ، أيْ: يَا أَيُّهَا السَّيِّدُ الَّذِي يَمْلِكُ فِي مِصْرَ الْقُوَّةَ الْغَالِبَةَ مِنْ بَعْدِ الْمَلِك، أعْطِنا أخانَا «بِنْيامِينَ» الَّذِي لَا يَصْبِرُ عَلَىٰ فراقِهِ أبُونَا الشَّيخُ الكبير، فَقَلْبُهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ تَعَلُّقاً شَدِيداً، وَإِذَا لَمْ يَرْجِعْ مَعَنَا رُبَّمَا نَزَلَ بِهِ حُزْنٌ مُهْلِكٌ له.

وَإِذَا كَانَ لَا بُدَّ مِنَ الْعِقَابِ فَخُذْ أَحَدَنَا وَضَعْهُ مَكَانَهُ. إنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ، فَقَدْ أَوْفَيْتَ لَنَا الكَيْلَ مَرَّتَيْنِ، وَأَحْسَنْتَ إلَيْنَا بِرَدِّ بِضَاعَتِنَا مِنَ الْفِضَةِ إلَيْنَا، وَوَضَعْتَهَا في أَفْوَاهِ عُدُولِنَا.

• ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾:

﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾: أي: عِياذاً باللهِ، ولُجوءاً إلَيْهِ، واعْتِصَاماً به، لِحمَايَتِنَا وَوِقَايَتِنَا مِنْ أَنْ نَأْخُذَ الْبَرِيءَ الَّذِي لَمْ يَسْرِق، ونَضعَهُ مَكَانَ الَّذِي وَجَدْنَا مَتَاعَنَا وهُو صُوَاع الْمَلِكِ عِنْدَهُ فِي وِعائِهِ، إنَّا حِينئذٍ لَنَكُونُ ظَالِمِينَ. «مَعَاذَ» مَصْدَرٌ مَنْصُوبٌ بِفِعل محذوف.

ولا أَرَىٰ هُنَا: ﴿إِذًا﴾ كَمَا يَقُولُ النُّحَاةُ لَغْواً لِأَنَّ مَا قَبْلَهَا يَفْتَقِرُ لِمَا بَعْدَهَا، بَلْ هِيَ بِمَنْزِلَةِ «حِينَئِذٍ» في المعنىٰ، أي: إنّا حِينَئِذْ نَأْخُذُ مَنْ لَمْ نَجِدْ مَتَاعَنَا عِنْدَهُ، ونَضَعُهُ فِي مَكَانِ مَنْ وَجَدْنَاهُ عِنْدَهُ، نَكُونُ ظَالِمين.

• ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ أي: فَلَمَّا يَئِسُوا يأْساً بالِغاً أَقْصَاهُ مِنْ تَلْبِيَةِ العزيز لمَطْلَبِهِمْ انفردُوا مُتَناجِينَ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

يُقالُ لغة: «خَلَصَ فُلَانٌ مِنَ الْقَوْمِ يَخْلُصُ خُلُوصاً وَخِلَاصاً» أي: اعْتَزَلَهُمْ وانْفَرَدَ عَنْهم.

﴿نَجِيًّا﴾ النّجِيُّ المناجِي، وهو الْمُحادِثُ سِرًّا، قالَ الأخْفَش: وَقَدْ يكونُ النِّجِيُّ جماعَةً، مِثْلَ: «الصَّدِيق» قال تَعالى: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا﴾ قال الفرّاء: وقَدْ يكونُ النّجِيُّ اسْماً ومَصْدراً[1].

أقول: وَمَا ذَكَرَهُ الأَخْفَشُ يَدُلُّ عَلَىٰ المعنَىٰ بِلَا تأويل، فالمعْنَىٰ اعْتَزَلُوا وانْفَرَدُوا حَالَة كَوْنِهِمْ مُتَناجِين، يَتَشَاوَرُونَ سِرّاً، بِشَأْنِ هَـٰذه الْوَرْطَةِ الَّتِي سَقَطُوا فِيها، بَيْنَ أبيهِمْ الَّذِي أعْطَوْهُ مَوْثِقاً مِن اللهِ أَنْ يُرْجِعُوا مَعَهُمْ «بِنْيَامِين»، وبين عَزِيزِ مِصْرَ الَّذِي أبَىٰ أنْ يأَخُذَ أحداً مِنْهُمْ وَيَضَعَهُ مَكَانَهُ.

• ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ رَأُوبِين ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟: أي: لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنّ أباكُمْ أَخذَ عَلَيْكُمْ عهداً مُوثّقاً بالأيمانِ المغَلَّظَةِ المشَدَّدَة ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾؟ أي: وعَلِمْتُمْ تَفْرِيطَكُمْ فِي يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ إِذْ طَرَحْتُمُوهُ فِي الْجُبِّ وكُنْتُمْ تُرِيدُونَ قَتْلَهُ، وَكَذَبْتُمْ على أبِيكُمْ زَاعِمِينَ أَنَّ الذِّئبَ قَدْ قَتَلَهُ، وَجِئْتُمُوهُ بِقَمِيصِهِ مُلَطَّخاً بِدَم ذَبِيحَةٍ ذَبَحْتُمُوهَا تَمْوِيهاً وَكَذِباً، وَلَمْ يُصَدِّقْ أَبُوكُمْ كَذِبَكُمْ ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: فَلَنْ أَتْرُكَ أَرْض مِصْرَ وَلَنْ أُغَادِرَها ﴿حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ﴾ أي:

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور.

حتَّىٰ يُبيحَ لِي أَبي بِأَنْ أَرْجعَ إلَيْه ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ﴾ أي: أو يَقْضِيَ اللهُ لِي بأمْرٍ آخَرَ يُخَلِّصُنِي مِنْ هَـٰذِهِ الْوَرْطَة ﴿... وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: وهُوَ خَيْرُ الْقَاضِينَ بالأَمْرِ الحَكِيم ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ﴾ أي: «بِنْيَامِين» ﴿سَرَقَ﴾ أي فَاحْتَفَظ به عَزِيزُ مِصْرَ عُقُوبَةً لَهُ عَلَىٰ سَرِقَتِهِ ﴿وَمَا شَهِدْنَآ﴾ أي: عَلَىٰ أَنَّهُ سَرَقَ ﴿إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ إذْ كَشَفَ جُنودُ عَزِيزِ مِصْرَ صُواعَ الْمَلِكِ فِي وِعَائِهِ، فأَخَذُوهُ إلى الْعَزِيز عَلَىٰ أَنَّهُ هُو السَّارِقُ، واسْتَحَقَّ أَنْ يُؤْخَذَ مُسْتَرَقًّا بالسَّرِقة، وقُلْنَا للعزيز خُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ فأَبَىٰ، هَـٰذا مَا شَهِدْنَاه بحَسَبِ الظَّاهر ﴿... وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حُرّاساً وَلَا مُشَاهِدِينَ حَتَّىٰ نَعْلَمَ صِحَّةَ اتِّهَامِهِ بالسَّرِقَةِ، لمُجَرَّدِ وُجُودِ صُواعِ الْمَلِكِ في مَتَاعِهِ، فَقَدْ سَبَقَ وُجُودُ بِضَاعَتِنَا مِنَ الفِضَّةِ فِي أَفْوَاهِ عُدُولِنَا، وَلَمْ نَكُنْ سَارِقِينَ، فلَعَلَّ لِوُجُودِ صُوَاعِ الْمَلِكِ فِي مَتَاعِ أخينا «بَنْيَامِينَ» سِرًّا لَمْ نُدْرِكْهُ بَعْدُ ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ أي: الَّتي كُنَّا قَدْ وَصَلْنَا إلَيْهَا قَافِلِينَ، حينَ نَادَانَا جُنُودُ الْعَزِيزِ مُتَّهِمِينَ لَنَا بالسَّرِقَةِ، فالأمْرُ قَدْ كَانَ أمْراً مُعْلَناً عَلَىٰ الأَشْهَادِ، ولم يكُنْ سِرّا بَيْنَ الْجُدْرَان، واسْأَلِ [الْعِيْرَ] أي: واسْأَلْ أصْحَابَ الْقَوَافِلِ ﴿ٱلَّتِيٓ أَقْبَلْنَا﴾ أي: قَافِلِين ونَحْنُ ﴿فِيهَاۖ﴾ أي: ضِمْنَها، وهي عَدَدٌ مِنَ الْقَوافِلَ الرَّاجِعَةِ مَعَنا مِنْ مصر ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: ونُؤَكِّدُ لَكَ يا أبانا أنَّنا لَصادِقُونَ في كُلِّ مَا أَخْبَرْنَاك به.

وارْتَحَلَ الإخْوَةُ باسْتِثْنَاءِ «رأُوبين» أكْبَرِ الإخْوَة، فَقَدْ بَقِيَ فِي مِصْر، وباستثناء «بَنْيَامِينَ» الَّذِي أَمْسَكَ العزيزُ بِهِ بِتُهْمَةِ السَّرِقة، ولمَّا وَصَلُوا إلى أبِيهِمْ قَالُوا لَهُ كَمَا أَوْصَاهُمْ أَكْبَرُهُمْ «رأوبين».

﴿قَالَ﴾ أي يَعْقُوب عليه السلام لأبنائه، أنْتُمْ لَسْتُمْ صَادِقين ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ أي: بَلْ زَيَّنَتْ وَحَسَّنَتْ ﴿لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ تَخَلَّصْتُمْ بِهِ مِنْ «بَنْيَامِينَ» كَمَا تخَلَّصْتُمْ قَبْلُ مِنْ يُوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ﴾ أي: فَصَبْري عَلَىٰ

المصيبةِ الَّتِي نَزَلَتْ صَبْرٌ جميلٌ، لَا أتضجَّرُ فِيهِ، وَلَا أَعْمَلُ عَمَلاً لَا يَرْضَىٰ عَنْهُ رَبِّي، ثُمَّ تواردَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ ظُنُونٌ رَجَا فِيها أَنْ يَكُونَ مَا جَرَىٰ تَمْهيداً لِرَدِّ جَمِيعِ أَبْنَائِهِ الْغَائِبينَ إليه وفيهم يوسُفُ. فقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ وأثْنَىٰ عَلَىٰ الله ثَنَاءً فِيه مَعْنَىٰ الاسْتِجْدَاء والاسْتِعْطَاف قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ أي: إنَّهُ هو العليم بحالي ومَا أنا فيه مِنْ حُزْنٍ، والْعَلِيم بكُلِّ شيءٍ، وهُو الحكيم في تَصاريفهِ في كونه، وفي عباده، مُخْتَارٌ دواماً مَا هو الأحْكَمُ والأصلح.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾: أي: وابتعَدَ «يعقوبُ = إسرائيل» عليه السلام عن أولاده، وأدار ظَهْرَهُ إليهم، واعْتَزَلَ ﴿وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أي: يا حُزْنِي الشَّدِيد عَلَىٰ يُوسف دُمْ، وصَارَ يَبْكِي بُكاءً كثيراً علىٰ يوسُفَ وعلى بنْيَامِين شقيقِهِ، الألف في «أسفَا» بَدَلٌ مِنْ ياء المتكلّم في النّداء ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ أي: انْقَلَبَ سَوادُ عَيْنَيْهِ بَيَاضاً مِنْ كثرةِ البكاء، حَتَّىٰ ضَعُفَ بَصَرُهُ جدًّا، وتُعْرَفُ هَـٰذِهِ الحالَة عند الأطباء بالماء الأبيض (السَّاد = الكتاراكْت) وبها تَضْعُفُ الرُّؤْيَةُ في الْعَيْنِ ضَعْفاً شَدِيداً، قَدْ تَصِلُ أحياناً إلى انْعِدَام الرُّؤية: ﴿... فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ أي: فهو مَغْمُومٌ مَكْرُوبٌ مُمْتَلِئٌ حُزْناً في نَفْسِهِ وهو لَا يَبُثُّهُ، بَلْ يُمْسِكُ بِهِ دَاخِلَ نَفْسِهِ، كاظِماً لَهُ، ولا يَتَنَافَىٰ هَـٰذا الحزْنُ مع الرِّضا بقضاء اللهِ وَقَدَرِهِ؛ لأنَّهُ أَلَمٌ نَفْسِيٌّ غَيْر إراديّ لَا يَمْلِكُ الإنسانُ دَفْعَهُ ولَا رَفْعَه، لَكِنْ يَمْلِكُ أَنْ لَا يَعْمَلَ أو يَقُولَ مَا لَا يُرْضِي اللهَ عزَّ وجلَّ، فَهُوَ مُطَالَبٌ بِمَا يَمْلِكُ، وَلَا يُؤَاخَذُ عَلَىٰ شيءٍ غَيْرِ خاضِعٍ لإرَادَتِهِ، ولِهَذَا قال الرَّسُول محمّد ﷺ لمّا مات ولَدُه إبراهيم: «إنَّ الْعَيْنَ لَتَدمَعُ، وإنَّ الْقَلْبَ لَيَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنا، إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَإنَّا عَلَيْكَ يا إبراهِيمُ لمَحْزُونُونَ».

وسَمِعَهُ أَبْنَاؤُهُ يَذْكُرُ يُوسُفَ بَعْدَ أَنَّ مَرَّ على فِراقِهِ قُرَابَةُ عِشْرِينَ سَنَة، فَلَامُوه علىٰ ذلك:

﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

﴿تَٱللَّهِ﴾: «**التّاءُ**»: تَاءُ القسم، والصّحِيحُ أنَّ العَرَبَ لَا يُدْخِلُونَ تَاءَ القَسَمِ فِي غَيْرِ اللهِ، والغالِبُ اسْتِعْمالُها في المقْسَمِ عليه ذي الخطر.

﴿تَفْتَؤُا۟﴾: أي: قالُوا تَاللهِ لَا تَزَالُ تَذْكُرُ يوسف، يُقالُ لُغَةً: «ما فَتِىءَ يَفْعَلُ كَذَا ولا يَفْتَأُ يَفْعَلُ كذا» أي: ما زال ولا يَزالُ يفْعَلُ كذا. والنفي بَعْدَ الْقَسم في ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟﴾ ملحوظ ذِهْناً وإنْ لم يُذْكر لفظاً.

- ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾: أي: حَتَّىٰ تكُونَ شَدِيدَ المرَضِ مُشْرِفاً عَلَىٰ الْهلاك.

«**الْحَرَضُ**»: هو في اللُّغَةِ الشَّدِيدُ المرض. وهو من الوصف بالمصْدَر، يقالُ لغة: «حَرِضَ فُلانٌ يَحْرَضُ، حَرَضاً» أي أذابَهُ الْهَمُّ والحزْنُ حَتَّىٰ أشرف على الهلاك.

- ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ﴾: أي: أو تكُونَ مِنَ الموتَىٰ بِسَبَبِ شِدَّةِ حُزْنِكَ.

فَرَدَ عَلَيْهم أبُوهم «يَعْقُوبُ = إسرائيل» عَلَيْه السلام:

- ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾:

﴿بَثِّى﴾: **البثُّ**: الْحَالُ، والْمَرَضُ الشَّدِيدُ الَّذِي هو فَوْقَ الاحْتمال، **والْبَثُّ** الشَّكْوَىٰ الَّتِي يُصَرّحُ بِها الشَّاكِي بِلِسَانِهِ عَنْ أَوْجَاعِهِ وآلَامِهِ المادّيَّة أو المعنويَّة.

﴿وَحُزْنِىٓ﴾: **الْحُزْنُ**: الْغَمُّ، وأَلَمٌ في النَّفْسِ يَحْدُثُ بِسَبَبِ حُصُولِ أَمْرٍ مَكْرُوه، أو بسبب فَوَات مَحْبُوب.

وعَطْفُ الْحُزْنِ على الْبَثِّ يَقْتَضِي المغايَرَة، فالمعْنَىٰ: مَا أَشْكُو حالي وضَعْفِي وَمَرَضِي وحُزْنِي إِلَّا إلىٰ الله بَيْنِي وبَيْنَهُ، ولَا أَشْكُو لِأَحَدٍ سِوَاه، وهَـٰذِهِ الشَّكْوَى لِرَبِّي لَا أُلَامُ عَلَيها؛ لِأَنَّهَا تَتَضَمَّنُ مَعْنَىٰ الدُّعَاءِ للهِ بأَنْ يَرْفَعَ عَنِّي أَسْبَابَ بَثِّي وحُزْنِي.

﴿... وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾: أي: وإِنْ كُنْتُم تَلُومُونَنِي على شَكْوَايَ لِرَبِّي بالدُّعَاءِ والالْتِجَاء، أَوْ عَلَىٰ حَالِي الَّتِي لَا أَمْلِكُ التَّغْيِيرَ فِيها، أَوْ عَلَىٰ حُزْنِي الَّذِي لَا أَمْلِكُ صَرْفَهُ، فَإِنِّي أَعْلَمُ عِلْماً يأتِينِي مِنَ اللهِ بما يَلِيقُ بِي أَوْ لَا يَلِيقُ مَا لَا تَعْلَمُونَهُ أَنْتُمْ، أَنَا رَاضٍ عَنِ اللهِ بِكُلِّ مَا تَجْرِي بِهِ مَقَادِيرُه، وَحَالِي الَّتِي أَنَا فيها مِنْ قَضَائِهِ وقَدَرِهِ، والْحُزْنُ الَّذِي يُلَازِمُنِي مِنْ قَضَائِهِ وَقَدَره، وشَكْوَايَ لَهُ دُعَاءٌ يُرْضِيهِ؛ لأَنَّهُ مِنَ العبادَةِ، فَمَا لَكُمْ وَلِي، دَعُونِي فيما أنا فيه.

يُضَافُ إِلَىٰ هَـٰذا أَنَّهُ مَا زَالَ يَتَرَقَّبُ تَحْقِيقَ رُؤيا يُوسُف، ومَا سَيَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ مَجْدٍ عظيم يَسْجُدُ لَهُ وهو فيه إِخْوَتُهُ وأَبُوه ومَنْ هِيَ بِمَنْزِلَةِ أُمِّه، وإِلْهَامَاتٌ بِأَنَّ الأَحْدَاثَ الَّتِي تَجْرِي تُشْعِرُ باقتراب الفرج.

وإِذْ وَضَحَ في قَلْبِهِ هَـٰذا الإِحْسَاسُ الَّذِي كادَ أَنْ يَصِيرَ وَحْياً، وأَنَّ يُوسُفَ أَحَدُ أركان هَـٰذِهِ الأحداثِ، وأَنَّهُ عِلْمٌ يَأْتِيهِ مِنَ اللهِ، قَالَ لِأَبْنَائِهِ:

• ﴿يَـٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

• ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾: أي: فَتَتَبَّعُوا بِكُلِّ حواسِّكُمْ الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُحِسُّوا بها، لِتَتَعَرَّفُوا.

• ﴿مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾: أي: مُتَلَقِّطِين بِتَحَسُّسِكُمْ مِنْ أَخْبَارِ يُوسُفَ وأَخِيهِ، مَا يَكْشِفُ لَكُمْ أُمُوراً يَقْضِي اللهُ بها الْفَرَجَ الَّذِي أَطْمَعُ فيه.

ضُمِّنَ الفِعْلُ في ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ مَعْنَىٰ الفِعْل في [**التقطوا**] وحُذِف

الْمَعْمُولُ مِنْ كليهما، والتقدير: «مِنْ أَخْبَارِ» فصَارَ المعْنَىٰ: فَتَحسَّسُوا مُلْتَقِطِينَ مِنْ أَخْبَارِ يُوسُفَ وأَخِيهِ بَنْيَامِينَ مَا تَسْتَطيعُونَ التقاطه.

• ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾: **الرَّوْح**: يُطْلَقُ في اللُّغَةِ على نَسِيمِ الرِّيحِ، وعلى الرَّاحَة، وعلَىٰ الرَّحْمَة. وأَجْمَعُ هَـٰذِهِ معنَىٰ «الرَّحْمَة» إذْ تأتي الرَّحْمَةُ بِالرَّاحَةِ من عَنَاءِ الكَرْبِ والْغَمِّ والحزْن، وتَأتي بالنَّسِيمِ المريح.

فالمعْنَىٰ: وَلَا تَنْقَطِعْ آمَالُكُمْ وَمَا تَرْجُونَ مِنْ فَرَجٍ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، فَرَحْمَةُ اللهِ مُسْعِفَةٌ لِلّذِينَ يلْجؤُونَ إِلَيْهِ، ويَتَوَكَّلُون عَلَيْه.

• ﴿... إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾:

أي: أمَّا المؤمِنُون فإنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ رَحِيمٌ بِعِبادِه، وأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فإذَا لَجؤُوا إِلَيْه، وَتوكَّلُوا عَلَيْهِ، وَدَعَوْهُ مُخْلِصِينَ، رَحِمَهُمْ فأغَاثَهُمْ وأَسْعَفَهُمْ بالْفَرَجِ مِنْ لَدُنْه.

وجاء في سُورَة (الْعَنْكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قَولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأن الكافِرِين.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

ونفهم من هذه الآيَة أنّ المرادَ بِرَوْحِ اللهِ رَحْمَتُهُ.

وَذَهَبَ إِخْوَةُ يُوسُفَ التِّسْعَة إِلَىٰ مِصْرَ اسْتجابَةً لِطَلَب أبِيهِمْ، وفي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأخِيه، وَوَصَلُوا إلى قَصْرِ الْعَزِيزِ (وَهو يُوسُفُ) في حَقِيقَةِ الأمر، وعَزَمُوا عَلَىٰ أَنْ يَدْخُلُوا عليه مُسْتغِيثِينَ مُسْتَجْدِينَ عَطْفَهُ.

• ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾:

• ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾: أي: مَسَّنا ومَسَّ أَهْلَنا سُوءُ الْحَال من شِدَّةِ الحاجَةِ إِلَىٰ القُوتِ، وابْيَضَّتْ عَيْنا أبينا من الحزْنِ حتى كاد أن يكون أعْمَىٰ.

• ﴿وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ﴾: أي: وَأحْضَرْنَا مَعَنَا لشراء الْقَمْحِ بِضَاعَةً من الْفِضَّةِ قَلِيلَة.

• ﴿فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ﴾: أي: فَأَعْطِنَا كَيْلاً وافِياً لا نَقْصَ فيه عَمَّا كُنْتَ أوفَيْتَ لَنا سَابِقاً.

• ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾: أي: وَأعْطِنَا فَوْقَ إيفَاءِ الكَيْلِ صَدَقَةً زائدَةً مِنْ عِنْدِكَ، وفي هَـٰذا الطَّلبِ إشَارَةٌ إلَىٰ أنَّهُمْ يَطْلُبُونَ الْمنَّ على أخِيهِمْ «بَنْيَامِينَ» بِالعتْقِ مِنَ الاسْتِرْقَاقِ الَّذِي ظَنُّوا أنَّهُ اسْتَحَقَّهُ، إذِ انْطَلَتْ عَلَيْهِمْ مُكيدةُ صُواعِ الْمَلِكِ الَّذِي دُس في وِعَاءٍ مِنْ أوعيَتِه.

• ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يَظْهَرُ أنَّهُمْ أدْرَكُوا أنَّ هَـٰذا الْعَزِيز مُؤْمِنٌ باللهِ وبالْيَوْمِ الْآخِر، ومُؤْمِنٌ بالْجَزَاءِ الرَّبَّانِيِّ، فخَاطَبُوهُ بِمَا يُؤْمِنُ بِهِ تَذْكِيراً، واسْتَثَارُوا فِيهِ، الرَّغْبَةَ فِي الْجَزَاءِ الْحَسَنِ الَّذِي يَجْزِيهِ اللهُ المتَصَدِّقين.

عِنْدَئِذٍ رَأَىٰ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ أَنَّ وَسَائِلَهُ الإشاريّة الإيمائِيَّة لَمْ يَفْهَمُوا مِنْهَا أَنَّهُ هُو أَخُوهُمْ يُوسُف، واشْتَدَّتْ فِيهِ عَاطِفَتُهُ نَحْوَ أبِيهِ الْحَزِينِ، ورأىٰ أَنَّ مَا أجْراهُ يَكْفِي للضَّغْطِ عَلَىٰ نُفُوس إخْوَتِهِ بِشَيْءٍ يُوجِعُهُمْ، فأَرَادَ أَنْ يَكْشِفَ لَهُمْ نَفْسَهُ، فَسَأَلَهُمْ:

• ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾:

الاسْتِفْهَامُ في هَـٰذِهِ الْعِبَارَةِ اسْتِفْهَامٌ تَقْرِيري، أي: قَدْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بأخَوَيْكُمْ يُوسُفَ وبَنْيَامِين، مِنْ مَكايِدَ للتَّخَلُّصِ مِنْهُمَا وإبْعَادِهِمَا عَنْ أبِيكُمْ، وَلَوْ بالْقَتْلِ، والْحَالُ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ، أي: غاضِبُونَ ثائِرُونَ بِدَافِعِ الْحَسَدِ، إذْ رَأيْتُمْ أنَّ أَبَاكُمْ يُفَضّلُهُمَا عَلَيْكُمْ بالْحُبِّ، وَأَرَدْتُمْ أَنْ يَخْلُوَ لَكُمْ وَجْهُ أبيكُمْ، فَيَمْنَحكُمْ كُلَّ حُبِّهِ الّذي يُحِبُّهُ أبْنَاءَهُ.

هُنَا اسْتَجْمَعَ الْإِخْوَةُ الْأَحْدَاثَ، مَعَ مَا يَقُولُهُ الْعَزِيزُ لَهُمْ فِي هَـٰذا اللِّقَاءِ، وتَفَرَّسُوا فِي وَجْهِهِ فَرَأَوْهُ مُخَالِفاً فِي بَيَاضِهِ وَقَسَمَاتِهِ سَائِرَ الْمِصْرِيِّين، فغَلَبَ عَلَىٰ ظَنِّهِمْ أَنَّهُ أَخُوهُمْ يوسف:

﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ ... ﴿٩٠﴾﴾ بالاستفهام، وفي القراءة الأخْرَىٰ [**قالُوا إنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ**] بالإثباتِ.

فَدَلَّتْ القراءتانِ عَلَىٰ أَنَّهُمْ قَالُوا لَهُ أَوَّلاً مُسْتَفْهِمِينَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ﴾ وبَعْدَ ذَلِكَ قَالُوا كُلُّهُمْ أَوْ بَعْضُهُمْ مُثْبِتِين: [**إنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ**] مُؤَكِّدِين بـ (إنّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللّام المزحْلَقَة).

هُنَا أعْلَنَ يُوسُف عَلَيْهِ السلام أنَّهُ هُو يُوسُف، وأنَّ بَنْيَامِينَ أَخُوهُ الشَّقِيقُ.

• ﴿... قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾:

• ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي: قَدْ أنْعَمَ عَلَيْنا وَأَحْسَنَ إلَيْنا، يقال لغة: «مَنَّ عَلَيْهِ، يَمُنُّ، مَنًّا» أي: أنْعَمَ عَلَيْهِ نِعْمَةً طَيِّبَةً، وأحْسَنَ إلَيْهِ بِعَطِيَّة.

وَأَبَانَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام أَنَّ مِنَّةَ اللهِ عَلَيْهِ وعلَىٰ أخِيهِ قَدْ كَانَتْ بِسَبَبِ الْتِزَامِهِمَا بِتَقْوَىٰ اللهِ، وبِسَبَبِ إحْسَانِهما بالصَّبْرِ علَىٰ مَا نَالَهُمَا مِنْ أذىً جَلَبَهُ لَهُمَا حَسَدُ إخْوتِهِمَا لَهُمَا، وأبانَ لَهُمْ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ الجزائيَّةِ فِي عِبادِه، فقال لَهُمْ: إنَّ الشَّأْنَ ذا الْخَطَرِ الَّذِي يَجِبُ وَضْعُهُ في الْحُسْبَانِ هو مَا يلي: مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ يَجْزِهِ اللهُ جَزَاءَ الإحْسَانِ؛ لأَنَّ الصَّبْرَ الكثير مِن مَرْتَبَةِ الإحْسَان، ومِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ أَنَّهُ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين.

فَلَمَا سَمِعَ إخْوَةُ يُوسُفَ الْعَشَرَة هَـٰذا الكَلَامَ مِن أخِيهِمْ يُوسُف.

• ﴿قَالُواْ﴾ لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ﴾ مُقْسِمينَ وَمُؤَكِدِينَ ﴿لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فَضَّلَكَ اللهُ عَلَيْنَا، واعْتَرَفُوا بِمَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوهُ مِنْ قَبْلُ ضِدَّه وضِدَّ أَخِيهِ بَنْيَامين فقالوا: ﴿... وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: ولَقَدْ كُنَّا لمذْنِبين. «إنْ» هي المخفَّفَةُ مِن الثقيلَة، وهي مُهْمَلَةٌ عَنِ العَمَلِ لِدُخولها على الْفِعْل، على مَا ذَكَرَ النحاة.

ولمَّا اعْتَرَفُوا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ بأَنَّهُم كانُوا مُذْنِبين، طَمْأَنَهُمْ يُوسُفُ بالْعَفْوِ عَنْهُمْ:

• ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾:

• ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾: أي: لَا لَوْمَ يَقْتَضِي إنْزَال عِقَابٍ عَلَيْكُمُ اليوم. ﴿يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: هَٰذا دُعَاءٌ دَعَا يُوسُفُ به اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُم خطايَاهُمْ، وأثنىٰ على اللهِ بقوله: ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ رجاءَ أنْ يَسْتَجِيب اللهُ دُعَاءَهُ فيغْفِر لإخْوَتِهِ.

هكذا شَأْن عظماء الرِّجال يَعْفُونَ عِنْدَ المَقْدِرَةِ، ومن روائع الأمْثِلَة ما فَعَلَهُ الرَّسُولُ محمّدُ ﷺ لمَّا دَخَلَ مَكَّة فاتحاً مُنْتَصِراً، قَالَ لِأَهْلِ مَكَّة الَّذِين آذَوْهُ وقاتَلُوه: «اذْهَبُوا فَأَنْتُم الطُّلَقَاءُ».

وَجَاء عند الإسْرائيليين في الإصحاح (٤٥) من سِفْر التكوين:

«والآنَ لَا تَتَأَسَّفُوا. . . . لأَنَّهُ لاسْتِبْقَاءِ حَيَاةٍ أَرْسَلَنِي اللهُ قُدَّامَكُمْ. ٦ لأَنَّ لِلْجُوعِ في الأرض الآن سَنَتَيْن. وخَمْسُ سِنِينَ أَيْضاً لا تكون فيها فلاحَةٌ ولَا حَصَاد. ٧ فقد أَرْسَلَنِي اللهُ قُدَّامَكُمْ لِيَجْعَلَ لَكُمْ بَقِيَّةً فِي الأرض ولِيَسْتَبْقِي لَكُمْ نَجَاةً عَظِيمَةً. ٨ فالآن لَيْسَ أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمُوني إلَىٰ هُنَا بَلِ اللهُ. وقَدْ جَعَلَنِي أباً لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّداً لِكُلِّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً على كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٩ أَسْرِعُوا واصْعَدُوا إلَىٰ أَبِي وقولُوا لَهُ هَٰكَذَا يَقُولُ ابْنُكَ يُوسُفُ. قَدْ جَعَلَنِي اللهُ سَيِّداً لِكُلِّ مِصْر. انْزِلْ إلَيَّ. لَا تَقِفْ».

نُلاحِظ بهذا أَنَّ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام تجاوز عَنْ إسَاءَةِ إخْوَتِهِ لَهُ، وَنَظَرَ إلى تَدْبِيرِ اللهِ مِنْ خِلَالِ إسَاءَتِهِم، وأنَّ اللهَ هو الذي جاء به رَقِيقاً إلى مِصْر، لِيَبْتَلِيَهُ، فَأَظْهَرَ تَقْواهُ وإحْسَانَهُ، وآتَاهُ حِكْمَةً وَعِلْماً، وآتاهُ عِلْمَ تَعْبيرِ الأحْلَام الَّتِي هي من قَبيلِ الْأَحَادِيثِ الرَّبَّانِية، وأوْصَلَهُ إلَىٰ المكانَةِ الَّتِي وصَلَ إلَيْهَا فِي مِصْرَ، وجَعَلَهُ سَبَباً لِنَقْلِ أبيهِ وإخْوَتِهِ وسَائِرِ أَهْلِهِمْ لِيَظْفَرُوا بِنِعْمَةٍ وَرَخَاءٍ وأَرْضٍ طَيِّبَةٍ فِي مِصْرَ.

وللهِ في تَدَابِيرِهِ أَلْطَافٌ عجيبَةٌ، ومِنْهَا أَنَّهُ أَوْصَلَ يُوسُفَ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ سَيِّداً فِي كُلِّ مِصْرَ، عَنْ طَرِيقِ طَرْحِهِ ذَلِيلاً حَزيناً فِي الْجُبِّ، وبَيْعِهِ رَقِيقاً لِرَئِيس الشُّرْطَةِ فِي مِصْر، إلى آخِرِ الأحْداثِ الَّتِي جَرَتْ لَهُ فيها.

وبَعْدَ أَنْ طَمْأَنَ إخْوتَهُ بِأَنَّهُ لَنْ يُعَاقِبَهُمْ، بَلْ سَيُكْرِمُهُمْ وَيُوَسِّعُ عَلَيْهِمْ فِي أَرْزَاقِهِمْ، ويَمْنَحُهمْ أخْصَبَ أَرْضٍ وأحْسَنَهَا لِرَعْي أنْعَامِهم، وَسَيُمَكِّنُ لَهُمْ فِي مِصْرَ، قَالَ لَهُم:

• ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾: أي: يَصِرْ بَصِيراً. وحَسَّنَ اسْتِعْمَالَ «يَأْتِ» بمعنى يصِير، لتكون في مقابل: «اذهبوا».

وهَلْ تَأْثِيرُ إلْقَاءِ قَمِيصِ يُوسف على وَجْهِ أبِيهِ يعقوب، بِسَبَبٍ غَيْبِيّ نَزَلَ بِهِ وَحْيٌ لِيُوسُفَ؟.

أو بسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الكَوْنِيَّةِ، كأنْ يَكُونَ لِعَرَقِ جِسْمِ يُوسُفَ تَأْثِيرٌ فِي شِفَاءِ عَيْنَيْ أبيه؛ لِأَنّ الْمَاءَ الْأَبْيَضَ الَّذِي أَصَابَهما قَدْ كَانَ بِسَبَبِ حُزْنِهِ عَلَىٰ فِرَاقِهِ، وهُوَ يَعْلَمُ رِيحَ وَلَدِهِ يُوسُفَ، ويُسْعِدُهُ أَنْ يَشُمَّهُ؟.

وكُنْتُ قرأت بَحْثاً لطبيب مِصْرِيّ اكتَشَفَ عَلَاقَةً عِلاجِيَّةً شِفَائِيَّةً، بَيْنَ عَرَقِ جِسْمِ الْغَائِبِ الْحَبيب، وَبَيْنَ بَيَاضِ الْعَيْنِ بِسَبَبِ الْحُزْن.

اللهُ أعْلَمُ، لَكِنَّ تأْثِيرَ رَائِحَةِ الْعَرَقِ في شِفَاءِ الْعَيْنِ مِنَ البياضِ الَّذِي يُصِيبُهَا يَحْتَاجُ إثباتُهُ إلَىٰ تكْرِيرِ التّجْرِبَةِ وتكْرارِ حُدُوثِ الشّفَاءِ.

فيبقىٰ تأثير السَّبب الْغَيْبِيّ هو الأمْرَ الراجح، حَتَّىٰ يتحقَّقَ الأمْرُ الآخر.

وبهذا تمّ تدبُّر الفصل الثاني عشر من فصول قصة يوسف.

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.



التدبّر التحليليّ للفصل الثالث عشر من قصة يوسف عليه السلام الآيات من (٩٤ ـ ١٠١)

قال الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ۖ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

القراءات:

(٩٤) • أثبت ياء المتكلّم في: **[تُفَنِّدُونِي]** يعقوب في الوصل والوقف.

ولم يُثْبِتْها باقي القرّاء العشرة بل قرؤها: **[تُفَنِّدُونِ]**.

(٩٦) • فتح ياء المتكلم من: **[إِنِّيَ أَعْلَمُ]** نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَها باقي القراء العشرة.

(٩٨) • فتح ياء المتكلم من: **[رَبِّيَ إِنَّهُ]** نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر. وأسْكَنَهَا باقي القراء العشرة: **[رَبِّي إِنَّهُ]**.

(١٠٠) • قرأ ابْنُ عامر: **[يَا أَبَتَ]** بفتح التاء وهو وجْهُ عَرَبّي.

وقرأها باقي القراء العشرة: **[يَا أَبَتِ]** بِكَسْرِ التاء.

(١٠٠) • فتح ياء المتكلم مِنْ: **[بِيَ إِذْ]** نَافع، وأبو عَمْرو، وأبُو جَعْفر. وأسْكَنها باقي القراء العشرة.

(١٠٠) • فَتَحَ ياء المتكلّم من **[إِخْوَتِيَ إِنَّ]**. ورش وأبو جعفر وأسْكَنَهَا باقِي القرّاء العشرة.

تَمْهيد:

هذا الفصْلُ هو الفَصْلُ الأخير مِنْ قِصَّةِ يُوسُف في السُّورة، وهو يَشْتَمِلُ علَىٰ أبْرَزِ أحْدَاثِ عَوْدَةِ إخوةِ يُوسُف إلى أَرْضِ كنْعَانَ، لِلْقُدُوم بأبِيهِمْ وجَمِيعِ أَهْلِهِمْ إلىٰ مِصْرَ، كما طَلَبَ أخُوهُمْ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، وفيه بيانُ قُدُومِهِمْ جَمِيعاً إلى مِصْر، واحْتِفَاءِ يُوسُفَ بِهِمْ احْتِفَاءً كَرِيماً، وأَنَّهُمْ خَرُّوا لَهُ سُجّداً، وتحَقَّقَتْ رُؤيا يُوسُف الَّتِي رَآها قَبْلَ نَحْوِ رُبْعِ قَرْنٍ. وفيه بَيَانُ دُعَاءِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام، ومَا سَأَلَ رَبَّهُ مِنْ أَنْ يَخْتِمَ لَهُ بالحسْنَىٰ.

وقد كان السجود عادة تعظيم الناس لملوكهم أو من هم بمثابة المُلُوكِ ولم يكن قد نزل به تحريم ديني.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

• ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾:

• ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾: أي: ولَمَّا خَرَجَتْ قافِلَةُ إِخْوَةِ يُوسُفَ مِنْ مِصْر، مُنْفَصِلَةً عَنْ حُدُودِ الْمَدِينَةِ وَتوابعها.

يُقال لُغةً: «فَصَلَ الْقَوْمُ عَنِ الْبَلَد» أي: خَرَجُوا مُنْفَصِلينَ عَنْ حُدُودِها. **والْعِيرُ**: ما جُلِبَ عليه الطعام من قوافِلِ الإبلِ والبِغال والْحَمِير، والمرادُ الْعِيرُ ومَعَ الْعِيرِ أصحابُ العير.

• ﴿قَالَ أَبُوهُمْ﴾: أي: «يعقُوبُ = إِسْرائيل» عَلَيْهِ السَّلَام، وهُوَ في مَنْزِلِهِ مِنْ أَرْضِ كَنْعَان، والرَّكْبُ مَا زَالَ في أَرْضِ مِصْرَ، والمسافَةُ بَيْنَهُمَا بَعِيدَةٌ جدًّا.

• ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾: أَكَّدَ لَهُمْ بالمؤكّدات: «إنّ ـ والجملة الاسمية ـ واللَّام المزَحْلَقَة» أي: بما يُسَاوِيهَا فِي لُغَتِهِ، أَنَّ رِيحَ ابْنِي يُوسُفَ قَدْ وَصَلَتْ إلىٰ حَاسَّةِ الشَّمّ عِنْدِي، وهي رَائِحَةُ عَرَقِ بَدِنِه.

• ﴿... لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾: أي: لَوْلَا أَنْ تَتَّهِمُونِي بِضَعْفِ الرَّأْيِ والتفكير من الخرف الّذي يُصَابُ به الْهَرِمُونَ، لَقُلْتُ لَكُمْ: إِنَّ يُوسُفَ قَادِمٌ إليَّ، أَوْ أَثَرٌ مِنْ آثَارِهِ. هذا الجواب محذوفٌ ومن السَّهْلِ استخراجُهُ ذِهْناً.

يُقَالُ لُغَةً: «فَنِدَ، يَفْنَدُ، فَنَداً» أي: ضَعُفَ رَأْيُهُ مِنَ الْهَرَم، وأتىٰ

بالباطل. ويُقَال: «فَنَّدَ فُلانٌ فُلاناً، وأَفْنَدَهُ» أي: نَسَبَهُ إلى ضَعْفِ الرَّأيِ مِنَ الْهَرَمِ، وَاتَّهَمَهُ بِأَنَّهُ يَأْتي بالباطل.

قال يعقوبُ عليه السَّلام هذا الكلامَ لِمَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِهِ وهُم أَوْلَادُ أَوْلَادِه ونِسَاؤُهُمْ، فَكَانَ جَوَابُهُمْ ما يلي:

• ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾:

سَبَقَ أَنْ قال أَبْنَاؤُهُ العشرة:

﴿... لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

ويظهر أنَّ هَـٰذا الكلامَ قَدْ سَمِعَهُ أَوْلَادُهُمْ مِنْهُمْ، واسْتَقَرَّ في ذَاكِرَاتِهِمْ، فَلَمَّا وَجَدُوا جَدَّهُمْ يَقُولُ: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قَالُوا لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ أي: نُقْسِمُ عَلَىٰ أَنَّكَ مَا زِلْتَ تُفَضِّلُ يُوسُفَ وأخَاهُ علَىٰ سَائِرِ أَبْنَائِكَ، وهَـٰذا خُرُوجٌ مِنْكَ عَن طَرِيقِ الحقّ، وما زِلْتَ تَعِيشُ في ذِكْرَىٰ يُوسُفَ وَتَطْمَعُ في عَوْدَته، وقَدْ مَضَى على غِيابِهِ نَحو رُبْع قَرْن، إنَّكَ تَشْغَلُ فِكْرَكَ وَنَفْسَكَ بِأَوْهامٍ وأباطِيل.

لقَدْ تَرَبَّىٰ أَحْفادُهُ عَلَىٰ الْجفَاءِ وقِلَّةِ الْأَدَبِ مَعَ جَدِّهِم، أَخْذاً مِنْ آبائِهِمْ.

ومَرَّتِ المدَّةُ الَّتِي تَقْطَعُهَا الْقَافِلَةُ العائِدَةُ مِنْ مِصْرَ إلى أرض كَنْعَانَ مِنْ بِلَادِ الشَّام، وَوَصَلَتْ إِلَىٰ مَنَازِلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ فيها، وبَعَثَ أَبْنَاؤُهُ مَنْ يُبَشِّرُ أَبَاهُمْ بيُوسُفَ وَبنْيَامِينَ، ويُلْقِي عَلَىٰ وَجْهِهِ قَمِيصَ يُوسُف.

• ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ... ﴿٩٦﴾﴾:

﴿أَن﴾: مَزِيدَةٌ للتوكيد. ﴿ٱلْبَشِيرُ﴾. أَيْ: الْمُبَشِّرُ بِمَا يَسُرَّ يَعْقُوب.

﴿أَلْقَىٰهُ﴾: أي: أَلْقَىٰ قَمِيص يُوسُفَ ﴿عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ أي: على وَجْهِ

يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام ﴿فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا﴾: أي: فَرَجَعَ حَادَّ الْبَصرِ، بَعْدَ أنْ صَارَ كَلِيلاً بِسَبَبِ الماء الأبْيضِ الَّذِي نَزَلَ عَلَىٰ عَيْنَيْهِ مِنْ أَثَرِ الْحُزْنِ على فِراقِ يُوسُفَ وَأخِيهِ بَنْيَامِين.

عندئذٍ قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السلام للذِّينَ قَالُوا لَهُ: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾:

• ﴿... قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾:

يُشِيرُ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِقَوْلِهِ هَـٰذا إلى مَا سَبَقَ أَنْ قَالَهُ لِبَنِيه حينما لَامُوهُ عَلَىٰ أَنَّهُ مَا يفتأ يَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ يكُونَ حَرَضاً أو يكُونَ مِنَ الْهَالِكِين: ﴿... إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فَدلَّ بِهَـٰذا عَلَىٰ أَنَّهُ كَانَ عَلَىٰ عِلْم بِأَنَّ يُوسُفَ حَيٌّ، وأَنَّهُ سَيَلْقَاهُ، وأنّ هَـٰذا الْعِلْمَ قَدْ أَتَىٰ إلَيْهِ من الله، ولَكِنَّهُ كَانَ حَزِيناً على فِرَاقِهِ؛ لِأَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ امْتَحَنَهُ بِشِدَّةِ حُبِّهِ لَهُ، وتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِ.

ولمَّا وَصَلَ أبْنَاؤُهُ الْعَشَرَةُ الَّذِينَ فَعَلُوا مَا فَعَلُوا للتَّخلُّصِ مِنْ يُوسف، وَدَخلُوا عَلَيْه:

• ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾:

• ﴿يَـٰٓأَبَانَا﴾: اسْتِعْطَافٌ بِحَرْفِ النداءِ الَّذِي يُنَادَىٰ بِهِ الْبَعِيدُ عَادَةً، فكأنهم يَتَخَضَّعُونَ مُبْعِدِينَ في التضرُّعِ، وبِاجْتِمَاعِهِمْ جَمِيعاً على مُنَاداتِهِ بِصِفَةِ أُبُوَّتِهِ لَهُمْ.

• ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾: أي: اسْأَلِ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا ذُنُوبَنَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا فِيما مَضَىٰ مِنْ عُمْرِنا.

• ﴿إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ﴾: أي: إِنَّا كُنَّا مُذْنِبِينَ، فَأَكَّدُوا اعْترافَهُمْ بِذَنْبِهِم بما يُمَاثِل التوكيد بـ «إنّ ـ والْجُمْلَة الاسميَّة».

يُقَال لغة: «خَطِئَ، يَخْطَأُ، خَطَأً، وخَطْأً، فَهُوَ خَاطِئٌ» أي: أَذْنَبَ عَنْ عَمْدٍ.

فَأَجَابَهُمْ «يَعْقُوبُ = إسْرائيل» عَلَيْهِ السَّلام:

• ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾:

وَعَدَهُمْ وَعْداً أَبْعَدَ أجلَ تَنْفِيذِه، بَحَرْفِ التَّنْفِيس «سَوْفَ» الّذِي يُسْتَعْمَلُ للدَّلَالَةِ عَلَىٰ المؤجَّلِ الْبَعِيدِ التَّحقُّقِ بُعْداً يَتَنَاسَبُ مَعَ حَيَاة المتكلِّم، وأغْلَبُ الْوَعْدِ بحرف «سَوْفَ» مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَكُونُ تَحْقِيقُهُ يَوْمَ الدِّين.

﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾: أيْ: سَوْفَ أَسْأَلُ رَبِّي أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ، أي: بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَنِي اللهُ بِيُوسُفَ وأخِيهِ بَنْيَامِينَ، وَأَجِدَ فِيكُمُ الاستِقَامَةَ والصَّلَاحَ والإصْلَاحَ، والتَّخلُّصَ مِنْ دَاءِ الْحَسَدِ.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾: فِي هَـٰذِهِ الْجُمْلَةِ ثَنَاءٌ عَلَىٰ اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُؤَكَّدٌ بأدَاوتٍ من التوكيد مَعَ الحصْرِ بتَعْرِيفِ طَرَفِي الإسْنَاد، «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ وضمير الفصل».

الْغَفُورُ: الكثِيرُ الْمَغْفِرَةِ للذُّنوب بِسَتْرِها المستَلْزِمِ عَدَمَ المؤاخَذَةِ عَلَيْها.

الرَّحِيمُ: العظيم الرَّحْمَةِ، ذاتِ الآثارِ الْجَلِيلَةِ في الْغُفْرَانِ والْعَفْو، وفُيوضِ عَطاءَاتِهِ وإنْعَامَاته، بِمَنْحِ الْخَيْرَاتِ والْمَحَابِّ، ودَفْعِ السَّيِّئاتِ، ورَفْعِ المكارِه.

وهُنَا طَوَىٰ النَّصُّ في السُّورَةِ ذِكْرَ ارْتِحَالِ يَعْقُوب وأبْنَائِهِ وجَمِيعِ أَهْلِهِمْ، وجَمِيعِ مَا يَسْتَطِيعُونَ نَقْلَهُ مِنْ مُمْتَلَكَاتِهِمْ، إلَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْر. وقَدَّمَ لَقَطَاتٍ مِنْ مَشْهَدِ دُخُولِهِمْ عَلَىٰ يُوسُفَ فِي مِصْرَ:

• ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾:

• ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾: أي: وصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ بَعْدَ مَسِيرِهِم إِلَيْهَا مِنْ أَرْضِ كَنْعَان، فَلَمَّا دَخلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ وهُوَ في قَصْرِهِ.

• ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾: أي: أَنْزَلَ أَبَوَيْهِ عِنْدَهُ فِي قَصْرِهِ الخاصِّ بِهِ، وَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ وأَحاطَهُمَا بِعِنَايَته.

أَمَّا أَبُوهُ يَعْقُوبُ فظاهِر، وأَمَّا أُمُّهُ الَّتِي وَلَدَتْهُ «رَاحِيل» فكانَتْ قَدْ مَاتَتْ مُنْذُ سِنِينَ، بَعْدَ أَنْ أَنْجبَتْ «بَنْيَامِينَ» والظَّاهِرُ أَنَّ المرادَ خَالَتُهُ «لَيْئَةُ» الَّتِي كانَتْ بَعْدَ مَوْتِ أُمِّهِ بِمَنْزِلَةِ أُمِّهِ.

ويُقَالُ عَنِ الأبِ والْأُمّ مَعَا فِي المثَنَّىٰ: «أَبَوان» على سبيل التغليب، كما يُقَالُ عَنِ الشَّمْسِ والْقَمَر: «القمران».

• ﴿. . . وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: وقال لإخْوَتِهِ وأَبْنَائِهِمْ وجميع أَهْلهم، ادْخُلُوا مَا تَخْتَارُونَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، فإنِّي أَعْمَلُ عَلَىٰ تَمْلِيكِكُم أَفْضَلَ أَرْضٍ تُلائِمُكُمْ فيها، حَالَةَ كَوْنِكُمْ آمِنِينَ لَا تَخافَوْنَ أَنْ تَتعَرَّضُوا لِسُوءٍ مِن أَحَدٍ فِيها إِنْ شَاءَ اللهُ، وقَدَّم التَّعْلِيقَ عَلَىٰ مَشِيئة اللهِ قَبْلَ الْوَعْدِ بِتَأْمِينهم في كلِّ مِصْر، تَشْرِيفاً لحقّ اللهِ في التَّعْلِيق عَلَىٰ مَشِيئَتِهِ؛ لِأَنَّهُ إِذا لَمْ يَشَأْ ـ جلَّ جَلَالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ لَمْ يَكُنْ لمشِيئاتِ الْعِبادِ آثَارٌ تَطْبِيقِيَّةٌ في الْوَاقع.

وَكَانَ الْمِصْرِيُّونَ قَدْ اشْتَرَوْا بِمَا يَمْلِكُونَ مِنْ أَرْضٍ أَقْوَاتَهُمْ، مِمَّا اخْتَزَنَ يُوسُفُ لِفِرْعَوْنَ مِنْ أَقْواتٍ فِي سَنَوَاتِ الخِصْبِ، ادّخاراً لِسَنَوات

الجدْبِ والْقَحْط، حَسَبَ دَلَالَةِ رُمُوزِ رُؤيَاه، فصارت أَرْضُ مِصْرَ حينَئِذٍ مِلْكاً لِفْرَعَوْن.

وجاء في الإصحاح (٤٦) من سفر التكوين أنَّ أبْنَاءَ وأحفاد يعقوب الَّذين جاءوا إلى مصر مع يوسُف وابْنَيْه كانوا (٧٠) ولم يَذْكُرِ كتَّابُ الإصحاحِ الزُّوجات والبنات.

وجاء في الإصحاح (٤٧) من سفر التكوين ما يلي:

«١ فَأَتَىٰ يُوسُفُ وَأَخْبَرَ فِرْعَوْنَ وقَالَ أبِي وإِخْوَتِي وغَنَمُهُمْ وَبَقَرُهُمْ وكُلُّ مَا لَهُمْ جَاءُوا مِنْ أَرْضِ كنْعان. وهُوَذَا هُمْ فِي أَرْضِ جَاسَان[1].

٢ وأَخَذَ مِنْ جُمْلَةِ إخْوَتِهِ خَمْسَ رِجالٍ وأوقفَهُمْ أَمَامَ فِرْعَون.

٣ فَقَالَ فِرْعَوْنُ لإِخْوَتِهِ: مَا صِناعَتُكُمْ؟ فقالُوا لِفِرْعَوْنَ: عَبِيدُكَ رُعَاةُ غَنَمٍ نَحْنُ وآبَاؤُنَا جَمِيعاً. ٤ وَقَالُوا لِفِرْعَوْن: جِئْنَا لِنَتَغَرَّبَ في الأرض. إذْ لَيْسَ لِغَنَم عَبِيدِكَ مَرْعَىٰ. لأنَّ الْجُوعَ شَدِيدٌ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ. فَالْآنَ لِيَسْكُنْ عَبِيدُكَ فِي أَرْض جَاسَان.

٥ فكلَّمَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ قَائِلاً: أَبُوكَ وَإِخْوَتُكَ جَاءُوا إِلَيْكَ.

٦ أَرْضُ مِصْرَ قُدَّامَكَ. فِي أَفْضَلِ الْأَرْضِ أَسْكِنْ أَبَاكَ وَإِخْوَتَكَ. لِيَسْكُنُوا فِي أَرْضِ جاسَان. وإِنْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يُوجَدُ بَيْنَهُمْ ذَوُو قُدْرَةٍ فاجْعَلْهُمْ رُؤَسَاءَ مَوَاشٍ علىٰ الَّتِي لي».

فأقام بنو إسْرَائيل في أرضِ جاسَان نحو (٢٠٠) سنة حتَّىٰ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ فِي عَهْدِ مُوسَىٰ عَلَيْه السَّلام.

---

(١) **جَاسَان**: منطقة خصيبةٌ في مصر، كثيرة المرعَىٰ للقطعان والمواشي، واقعة شرق الدَّلْتَا. وهي المعروفة الآن بالشرقية الممتدّة من جوار أبي زعْبَل إلى البحر، ومِنْ بَرِّيَّة جعفر إلى وادِي توميلات. وهي جزءٌ من أرض «رعمسيس».

وَيَبْدُو لي أنَّ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَقَامَ فِي قَصْرِه فِي مِصْرَ حَفْلاً تَكْرِيميًّا لأبيهِ وإخْوَتِهِ، احْتِفَاءً بِمَقْدَمِهِمْ مِنْ أَرْضِ كنْعَانَ، مُهَاجِرِينَ إِلَىٰ مِصْر، وَدَعَا إلَيْهِ عِلْيَةَ الْمِصْرِيين، وفي هَـٰذا الاحْتِفَالِ أعْلَنَ تَكْرِيمَهُ لِأَهْلِهِ الْمُهَاجِرِينَ إِلَيْهِ.

• ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾: أيْ: ورفَعَ أَبَاهُ وخَالَتَهُ أُخْتَ أُمِّهِ، وأجْلَسَهُمَا عَلَىٰ الْعَرش الموضُوعِ في صَدْرِ المجْلِسِ.

الْعَرْشُ: سَرِيرٌ وَاسِعٌ يُتَّخَذُ عَادَةً لِجُلُوسِ الْمُلُوكِ عَلَيْه، فِي مَجَالِسِهِمْ الَّتِي يَسْتَقْبِلُونَ فيها مَنْ يَأْذَنُونَ لَهُمْ بالمثُولِ لَدَيهم، وَيَكُونُ مَلأُ الْمَلِكِ عَلَىٰ مَقَاعِدِهِمْ ذَاتِ الارتفاع المنخفض عَنِ ارْتِفَاعِ سَرِيرِه، مِنْ ذَاتِ الْيَمِين ومِنْ ذَاتِ الشِّمَالِ.

واعْتَادَ الْمُلُوكُ أَنْ يُزَيِّنُوا عُرُوشَهُمْ بالجواهِرِ الكَرِيمَةِ، وبالْفُرُشِ الْوَثِيرَة. ورُبَّمَا اتَّخَذَ يُوسُفُ عَرْشاً مجاوراً لِلْعَرْش الذي أجْلَسَ عليه أبويه.

• ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾: أيْ: وَخَرَّ إخْوَةُ يُوسُفَ لَهُ سُجّداً عِنْدَ الدُّخُولِ عليه وهو على عرْشه.

كَانَ هَـٰذا السُّجُودُ تَحِيَّةً مُتَعَارَفاً عَلَيْهَا لَدَىٰ الْقُدُوم عَلَىٰ عَظِيم، مَلِكٍ، أو ذي سُلْطَانٍ كبير. ولَم يَكُنْ قَدْ نَزَلَ تَشْرِيعٌ بِتَحْرِيمِهِ، وبِجَعْلِهِ خاصًّا بِعِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. **الْخُرُورُ**: سُقُوطٌ مُتَتابعٌ بِلَا تَوَقُّف، ومِنْهُ خرور الماء.

وتَدُلُّ الرُّؤيَا عَلَىٰ أَنَّ أبويْهِ سَجَدا لَهُ، فَرُبَّما كَانَ هَـٰذا عِنْدَ وُصُولِهِمَا إلَىٰ مِصْرَ، وقَبْلَ أَنْ يُقِيمَ يُوسُفُ هَـٰذا الاحْتِفَالَ وَيَرْفَعَ أبوَيْهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ تكريماً لَهما. واللهُ أعلم.

وبَعْدَ أن انْتَهَىٰ الاحْتِفَالُ التكريميُّ البهيج قَالَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ لِأَبِيهِ «يَعْقُوبَ = إسرائيل» عَلَيْهِ السّلام خَمْسَ مَقَالَاتٍ اسْتَدْعَتْها ذاكِرَتُهُ

لِلْأَحْدَاثِ الَّتِي جَرت لَهُ في حياتِه، مُنْذُ كَوْنِهِ غُلاماً، عَبْرَ أَيَّام مِحْنَتِهِ، وحَتَّىٰ بُلُوغِهِ مَرْكَزَ السُّلْطَانِ الأَوَّلِ مِنْ بَعْدِ فِرْعَوْنَ مَلِكِ مِصْر.

المقالَة الأولى: دَلَّ عَلَيْها قَوْلُ الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾: أَيْ: هَـٰذا التَّأْوِيلُ الْوَاقِعِيُّ لِرُؤْيَايَ الَّتِي رَأَيْتُهَا مِنْ قَبْلُ إِذْ كُنْتُ غُلاماً، الَّتِي رَأَيْتُ فِيهَا أَحَدَ عَشَر كَوْكَباً والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ.

فقَدْ سَجدَ لِي وَأَنَا في هَـٰذا الْمَرَكَزِ العظيم في مِصْرَ إِخْوَتِي الأَحَدَ عشَر، وسَجَدَ لِي مَنْ كانَ رَمْزُهُمَا فِي الرُّؤْيَا الشَّمْسُ والْقَمَر.

وقَدْ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وجلَّ هَـٰذِهِ الرُّؤْيَا الَّتِي قَدَّمَتْ لَنَا تَعْبِيراً ظَنِّيًّا بِرُمُوزِها، حَقًّا واقِعاً مَشْهُوداً.

المقالَةُ الثانية: دَلَّ عَلَيْهَا قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾:

أي: وقَدْ فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ بِي إِذْ أخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ، يُقالُ لُغَةً: «أَحْسَنَ بِهِ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ» أي: فَعَلَ مَا هُوَ حَسَنٌ.

ومِنْ أَدَبِ يُوسُفَ مع رَبِّهِ أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ مَا تَعرَّض لَهُ مِنْ رِقٍّ، وما اتُّهِم بِهِ فِي بَيْتِ الْعَزِيزِ، وَمَا ابْتُلِيَ بِهِ فِي السِّجْنِ، وإنَّما ذَكَرَ ما تَفَضَّلَ اللهُ بِهِ عَلَيْهِ إِذْ أَخرَجَهُ مِنَ السِّجْن.

وَكَانَ إِخْرَاجُهُ مِنَ السِّجنِ مَصْحُوباً بِبَرَاءَتِهِ، وبِمَجْدٍ عظيم نَالَهُ، إِذْ عَبَّرَ لِفِرعَوْنَ رُؤْيَاهُ تَعْبِيراً نَالَ اسْتِحْسَانَهُ، وطَابَقَ الواقِعَ فِيما بَعْدُ.

المقَالَة الثالِثَة: دَلَّ عَلَيْها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنى ما قالَهُ يوسف عليه السلام: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾:

﴿ٱلْبَدْوِ﴾: أهْلُ البادِيَة، وهي الْفَضَاءُ الواسِعُ الّذِي فيه المرعَىٰ والماء للماشية، وسُكَّانُ البادِيَة تَكُونُ بُيُوتُهُمْ مِنْ الخيام، ويَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التَّنَقُّلُ والتَّرْحَالُ، طَلَباً لِلْكَلأِ والماء.

﴿نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: **نَزْغُ الشَّيْطَانِ**: وساوسه وتسويلاتُه الَّتي يَحْمِلُ بها الإنْسَانَ على المعاصِي وارْتكاب الآثام والذُّنوب.

ويقال لغة: «نَزَغَ فُلانٌ بَيْنَ الْقَوْمِ» أي: أفْسَدَ بَيْنَهُمْ وحَمَلَ بَعْضَهُمْ علَىٰ بَعْض.

والنَّزْغ: الكلَامُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ الإغْرَاءُ والإفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ.

والنَّزْغُ في الحسِّيَّات: النَّخْسُ، والْغَرْزُ بإبْرَةٍ أَوْ نَحْوِهَا، للإثارَة والدَّفْع لأمْرٍ مَا. ﴿بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾: أي: نَزَغَ الشَّيْطَانُ مُتَرَصّداً في المكان الواقع بَيْنِي وبَيْنَ إخْوَتي، فيُبْرِزُ لَهُمْ مِنْ جِهَتي تفضيل أبي لي بالحب، ويَنْخَسُ فيهم الْحَسَدَ لِيُثِيرَهُ ويُعْظِمَ فيهم أُوَارَه.

المعنىٰ: وأحْسَنَ بِي وَبِكُمْ، إذْ تَلَطَّفَ بِنَا جَمِيعاً، فَجَاءَ بِكُمْ مِنْ جَمَاعَاتِ الْبَدْوِ، إلَىٰ المراكِزِ الْحَضَرِيَّةِ فِي مِصْرِ، وَهَيَّأَ لَكُمْ وَسَائِلَ الْعَيْشِ الطَّيِّبِ الرَّغْدِ بألْطَافه الخفيَّة، مِنْ بَعْدِ الْأَحْدَاثِ غَيْرِ السَّارَّة، الَّتِي كَانَ سَبَبُها نَزْغَ الشَّيْطَانِ الَّذِي نَزَغَهُ بَيْنِي وَبَيْنَ إخْوَتِي، إذْ اسْتَثَارَ حَسَدَهُمْ اسْتِثَارَةً شَدِيدَةً، جَعَلَتْهُمْ يَعْمَلُونَ عَلَىٰ إبْعَادِي عَنْ أَبِي وَلَوْ بِقَتْلِي، ولَكِنَّ اللهَ حَمَانِي بألْطَافِهِ الخفيّة.

المقالة الرابعة: دَلَّ عليها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حكايةً لمعنى ما قَالَهُ يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾:

اللُّطْفُ: الرِّفْقُ، والرِّقَّة، **فاللَّطِيفُ**: هُوَ الَّذِي يُجْرِي تَدَابِيرَهُ وأعمالَهُ برِفْقٍ لَا عُنْفَ فِيهِ ولَا خُشُونَة. **واللَّطِيفُ**: هُو الَّذِي يَدْخُلُ ويَخْرُجُ بِرِقَّة دُونَ أنْ يُحَسَّ بِهِ، ومِنَ الْأَجْسَادِ اللَّطِيفَةِ الَّتِي تَكُونُ مَعَنَا وَلَا نُحِسُّ بها الملائكة.

ومِمَّا يُجْرِيه اللهُ مِنْ أُمُورٍ وَتَدْبِيرَاتٍ، قَدْ تَكُونُ مِنَ اللُّطْفِ بِحَيْثُ تَكُونُ أعْمَالُ مُرِيدِي الضُّرِّ والْأَذىٰ، هِيَ الموصِلَةَ لِلْخَيْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي شاءَ اللهُ إيْصَالَهُ، لِلْفَرْدِ أو الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ يَكِيدُهُمْ حَاسِدُوهم، أَوْ أعداؤهم، وَدَبَّرُوا لَهُمْ كَيْداً، لِيُوقِعُوا بِهِمْ شرّاً، فَيُوقِعُ اللهُ بِهِ خيراً لِلْمكيدين.

وَمِنْ هذا مَا حَصَلَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إذْ أوْصَلَهُ اللهُ إلى المجْدِ الْعَظِيم في مِصْر، مِنْ خِلَالِ طَرْحِ إِخْوَتِهِ لَهُ في الجبِّ، وَاسْتِرْقَاقِهِ، ثُمَّ سَجْنِهِ، إِلَىٰ آخِرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي جَعَلَتْهُ الرَّجُلَ الثَّانِي فِي مِصْرَ بَعْدَ الْمَلِك.

وَمِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَىٰ اسْمُ «اللَّطِيف» وهو عَلَىٰ مَعْنَىٰ الرِّفْق، وَعَلَىٰ معنى أَنَّ أعْمَالَهُ تَجْرِي دُونَ أَنْ تُدْرَكَ بإحْسَاسٍ، حتَّىٰ تَظْهَرَ نَتَائجها، وقد تجري عَلَىٰ خلافِ المظْنُونِ من الأسْباب.

المقالة الخامسة: دَلَّ عليها قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عليه السلام: ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٠٠﴾: في هَـٰذه العبارة ثناءٌ مِنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام عَلَىٰ رَبِّهِ مؤكَّدٌ بـ «إِنَّ ـ والْجُمْلَة الاسْميّة ـ وضَمِيرِ الْفَصْل» مع الْحَصْر بِتَعْرِيف طَرَفَي الإِسْناد.

﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾: أي: الْمُحِيط بِكُلِّ شيءٍ عِلْماً. ولفظ «الْعَلِيم» اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الحسْنَىٰ.

﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾: أي: الَّذِي يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها، ويَخْتَارُ أَفْضَلَ الأشياء وأَتْقَنَهَا وأَحْسَنَهَا فِي الْأُمُورِ المخْتلِفَةِ لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النَّتَائج.

وَلَمَّا كَانَتِ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْحَكِيمُ ذَا عِلْمٍ بِكُلِّ الاحْتِمَالَاتِ الْمُمْكِنَاتِ، حَتَّىٰ يَخْتَارَ مِنْهَا مَا هُوَ الْأَحْكَمُ، كَانَ اخْتِيَارُ ذِكْرِ الْعَلِيمِ الْحَكِيم مَعاً اخْتِيَاراً كَامِلَ التَّلَاؤُم، مَعَ التَّكَامُلِ الْفِكْرِيّ بَيْنَهُمَا، في الثَّنَاءِ عَلَىٰ التَّصَارِيفِ الرَّبَّانِيَّة فِي الكَوْنِ بصُورَةٍ عَامَّةٍ، وفي العبادِ ذوي الإِرادات الْحُرَّة بِصُورَةٍ خاصَّة.

وفي آخِرِ فقَرَاتِ قِصَّةِ يُوسُفَ في السُّورَةِ، ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ دُعَاءً دَعَا بِهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَام رَبَّهُ، ويَظْهَرُ أَنَّهُ دَعَاهُ عِنْدَ اقْتِرابَ انْتِهَاءِ أَجَلِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيا، ولَيْسَ مِنْ تَوَابعِ الكَلَامِ الَّذِي قَالَهُ لِأَبِيهِ في الآية (١٠٠) من السُّورة، إذْ قَالَ فِي دُعائِهِ:

• ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١)﴾:

حَمِدَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلامُ رَبَّهُ فِي هَـٰذا الدُّعَاء أوّلاً، وأَتْبَعَ الْحَمْدَ بِبَيَانِ مَا يَرْجُو مِنْ رَبِّهِ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ بِهِ.

• أَمَّا الْحَمْدُ فَقَدْ لَخَّصَهُ بِثَلاثِ عِبَارَات:

الْعِبَارَة الْأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾: أَيْ: أَحْمَدُكَ رَبِّ عَلَىٰ مَا قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ، إذْ آتَاهُ اللهُ قِسْماً كَبِيراً مِنْ مُلْكِ فِرْعَوْنِ مِصْرَ، كَانَ فِيهِ ذَا السُّلْطَانِ الأَوَّلِ بَعْدَ فِرْعَوْن.

جاء في الإصْحاح (٤١) من سِفْرِ التكوين، بَعْدَ بَيَانِ تَعْبِيرِ يُوسُفَ لِحُلْمِ فِرْعَوْن، ما يلي:

«٣٧ فَحَسُنَ الْكَلَامُ فِي عَيْنَيْ فِرْعَوْنَ وَفِي عُيُونِ جَمِيعِ عَبِيدِهِ. ٣٨ فقالَ فِرْعَوْنُ لِعَبِيدِهِ: هَلْ نَجِدُ مِثْلَ هَـٰذا رَجُلاً فِيهِ رُوحُ الله. ٣٩ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: بَعْدَمَا أَعْلَمَكَ اللهُ كُلَّ هَـٰذا لَيْسَ بَصِيرٌ وَحَكِيمٌ مِثْلَكَ. ٤٠ أَنْتَ تَكُونُ عَلَىٰ بَيْتِي وَعَلَىٰ فَمِكَ يُقَبِّلُ جَمِيعُ شَعْبِي. إلَّا أَنَّ الْكُرْسِيَّ أَكُونُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنْكَ. ٤١ ثُمَّ قَالَ فِرْعَوْنُ لِيُوسُفَ: انْظُرْ. قَدْ جَعَلْتُكَ عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ. ٤٢ وَخَلَعَ فِرْعَوْنُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِه، وجَعَلَهُ فِي يَدِ يُوسُف. . . .».

وجاء في الإصحاح (٤٥) من سِفر التّكوين، بَعْدَ بَيَانِ أَنَّهُ كَشَفَ نَفْسَهُ لِإخْوَتِهِ وَقَالَ لَهُمْ أَنَا يُوسُفُ أخُوكم، وقال لهم أيضاً ما يلي:

«٨ فالآنَ لَيسَ أَنْتُمُ أَرْسَلْتُمُوني إِلَىٰ هُنَا، بَلِ اللهُ... وَهُوَ قَدْ جعَلَنِي أباً لِفِرْعَوْنَ (أي: بِمَثَابَةِ الأَب) وَسَيِّداً لِكُلّ بَيْتِهِ وَمُتَسَلِّطاً عَلَىٰ كُلِّ أَرْضِ مِصْر.».

الْعِبَارَة الثانية: دَلَّ عَلَيْها قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعْنَىٰ مَا قَالَهُ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلام: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ﴾: أَيْ: وأَحمَدُكَ رَبِّ عَلَىٰ مَا عَلَّمْتَنِي مِنْ بَعْضِ عِلْم يَتعَلَّقُ بتأويل الأَحْلَام الَّتي هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْأَحَادِيثِ. وَهِي الأَحَادِيثُ الرَّمْزِيَّةُ أو الصَّرِيحَةُ، الَّتي تُلْقَىٰ إِلَىٰ النَّفْسِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ، وقَدْ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ مَلَكٍ يُكَلِّفُهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يُحَدِّثَ النَّفْسَ الَّتي شَاءَ اللهُ أَنْ يُحَدِّثَهَا بِهَا، وهي الأحاديث الصادقَةُ الَّتي تأْتِي بِهَا الأَحْلَام.

العبارة الثالثة: دَلَّ عليْهَا قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لمعنى مَا قَالَهُ يوسُفُ عليه السلام: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: وأَحْمَدُكَ يَا خَالِقَ السَّمَاواتِ والأَرْضِ ضِمْنَ نِظَام الْفَطْرِ، الَّذي هُوَ الشَّقُّ، الَّذي يكُونُ بِهِ الإيجادُ مِنْ نُقْطَةِ الْعُمْقِ، وَهِيَ الْعَدَمُ.

وهَـٰذا الْحَمْدُ يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً الثَّنَاءَ عَلَىٰ الله بالصِّفَاتِ الَّتي يَقْتَضِيهَا الْخَلْقُ الْبَدِيعُ، ومِنْهَا الْقُدْرَةُ الْعَظِيمة، والإرادة الحكيمة، والْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شيء، إِلَىٰ سَائِرِ الصِّفَاتِ الَّتي يَقْتَضِيهَا الْخَلْقُ المتْقَنُ الْبَدِيع.

- وأمَّا ما رَجَاهُ يُوسُفُ مِنْ رَبِّهِ وسَأَلَهُ إيَّاه فِي ذَٰلِكَ الْوَقْتِ فَقَدْ جَمعَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ في مَطْلَبَيْن:

الْمَطْلَبُ الْأَوَّل: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَلِيَّهُ فِي الدُّنْيَا والْآخِرَة، يَتَوَلَّىٰ بِفَضْلِهِ

كُلَّ أمُورِهِ، اخْتِيَاراً، وإلْهَاماً، وَتَوْفِيقاً لِلْعَمَلِ بمَا يُحَقِّقُ لَهُ المعيشَةَ الطيّبَةَ فِيما بَقِيَ لَهُ مِنْ حَيَاةٍ فِي الدُّنيا، وَبِمَا يُحَقِّقُ لَهُ رِضوانَ الله، وبما يُحَقِّقُ لَهُ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةِ في الآخِرَةِ في المنازِلِ الرَّفِيعَة فِي جَنَّاتِ النَّعِيم. وأَنْ يَكونَ لَهُ نَاصِراً ومُؤَيِّداً ومُعِيناً، ومُمِدّاً بِمُخْتَلِفِ الْقُوىٰ.

دلَّتْ عَلَىٰ هَـٰذا المطلب عبارة: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ الصّيغَة صِيغَة خبر، والمرادُ بها الإنْشَاء، أي: رَبِّ كُنْ أَنْتَ ولِيّيَ في الدُّنيا والآخِرَة.

المطْلَبُ الثاني: دَلَّتْ عليه عبارة: ﴿... تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾:

أي: رَبِّ تَوَفَّنِي عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِي في الحياة الدنيا مُؤْمِناً مُسْلِماً، فالإسلام المقْبُولُ عِنْدَ اللهِ لَا بُدَّ أَنْ يكُونَ أثراً مِنْ آثَارِ إِيمَانٍ صَحِيحٍ كامِلٍ مَقْبُولٍ عِنْدَ الله. وأَلْحِقْنِي رَبِّ بالصَّالِحِينَ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمْ قَبْلِي، وفي مُقَدِّمَتِهِم الرُّسُلُ والأنبياء، أي: فاجْعَلْ مَنْزِلَتِي في الفِرْدُوسِ الأعْلَى مِثْلَ مَنَازِلِهم.

جاء في القرآن وصْفُ إبْرَاهيمَ ولوطٍ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ ومجموعة من الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ بأَنَّهُمْ مِنَ الصَّالحين. وتوفي يوسف عليه السلام وقد بلغ من العمر (١١٠) سنة.

وبهذا تمَّ تدبر الفصل الثالث عشر من قصة يوسف عليه السلام، وهو الفصل الأخير منها.

والحمد لله على معونته ومَدَدِهِ وتوفيقه وفتحه.

❊ ❊ ❊

(٦)

التدبر التحليلي للدرس الثالث من دُرُوس سورة (يوسف) الآيات من (١٠٢ ـ ١١١) آخر السورة

قال اللهُ عزَّ وجلَّ:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

القراءات:

(١٠٨) • فتح ياء المتكلّم من: [**سَبِيلِيَ أَدْعُو**] نافع، وأبو جعفر. وأَسْكَنَها باقي القرّاءِ الْعَشَرَةِ.

(١٠٩) • قرأ حَفْصٌ: [**نُوْحِي إِلَيْهِمْ**]. وَقرأها حمزةُ، ويعقوبُ: [**يُوحَىٰ إِلَيْهُمْ**] وقرأها بَاقي القراء العشرة: [**يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ**] والمؤدَّىٰ وَاحد.

(١٠٩) • قرأ ابْنُ كثير، وأَبُو عَمْرو، وحمْزَة، والكِسَائِي، وخَلَف: [**أَفَلا يَعْقِلُونَ**]؟ وقرأها باقي القراء العشرة: [**أَفَلا تَعْقِلُونَ**]؟.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ تكامُلٌ فِي الأداء البياني.

(١١٠) ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، ويَعْقُوب: **[قَدْ كُذِّبُوا]**.

وقرأها باقي القرّاء الْعَشَرَةِ: **[قَدْ كُذِبُوا]**.

(١١٠) ● قرأ ابْنُ عَامر، وعاصم، ويَعْقُوبُ: **[فَنُجّيَ]**.

وقرأهَا باقِي القُراءِ العشرة: **[فَنُنْجِي]**.

تَمْهيد:

في هَـٰذا الدَّرْس الثالِث من دُرُوس السُّورة، مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةِ مُنكِري أنّ الْقُرْآن تَنْزِيلٌ مِنْ عِنْدَ اللهِ، بَدِلِيلِ الْقِصَّةِ المفَصَّلَةِ الرائِعَةِ بِشأْنِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَام، الَّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ دَقَائِقَ تَفْصِيلِيَّة لَمْ يَكُنْ لِلرَّسُولِ محمّد ﷺ عِلْمٌ بها، ولَمْ يَقْرَأهَا فِي كِتَابٍ إذْ هو أُمِّيٌّ لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ، ولَا قَرَأَهَا أَحَدٌ عليه، وفيها تَفَاصِيلُ دقِيقَةٌ تُصَحِّحُ مَا لَدَىٰ أَهْلِ الكِتَابِ بِشَأْنِهَا، ولا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِها مَا لَمْ يَأْتِ وحْيٌ مِنَ اللهِ الْعَلِيم مُبيِّناً لَها.

وهذه المعالجة مَوصُولَةٌ بِمَا جَاءَ في الدَّرْسِ الأوّل من دُرُوسِ السُّورَةِ بِشأْنِ القرآن.

وفيه مُتَابَعَةُ مُعَالَجَةٍ للرَّسُولِ ﷺ فَلِحَمَلَةِ رِسَالَةِ الدَّعْوَةِ مِنْ أُمَّتِهِ، مَبْنِيَّةٍ عَلَىٰ مَا جَاءَ مِنْ مُعَالَجَاتٍ في السُّوَرِ قَبْلَ سُورَةِ يوسُف، وقَدْ أُدْمِجَ فِيها مُعَالَجَةُ الَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبوا لِدَعْوَةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيَانٌ لواقِعِ حَالهم، وإنْذَارٌ لَهُمْ بعاقِبَةٍ وَخِيمَةٍ كَعَاقِبَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا وعَانَدُوا وأجْرَمُوا مِنْ قَبْلهم.

وفيه طَمْأَنَةٌ لِلرَّسُولِ ولِلْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ الله، عِنْدَ آخِرِ نُقْطَةِ صَبْرٍ يَصْبِرُونَها عَلَىٰ مكايدِ الكَفَرَةِ المجْرِمين، ضِدَّ دَعْوَةِ الْحَقّ الرَّبَّانِيَّة، وضِدَّ حَمَلَتِها الدُّعَاةِ إلى اللهِ وإلى صِرَاطِهِ المستقيم، فالأمْثِلَةُ التاريخيَّةِ في هَـٰذا

كثِيرَة، وهِيَ كاشِفَاتٌ لِسُنَّةِ اللهِ في إمْهَالِ عِبادِه، حتَّىٰ يَقْطَعَ أَعْذَارَهُمْ، وَيُعْطِيَهُمْ غَايَةَ الزَّمَنِ الْمُوَسَّعِ لابْتِلَائِهِم.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تَعَالَىٰ يتحدَّثُ بضَمِيرِ المتكلِّم العظيم:

- ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وفَصَّلْنَاهُ بِشَأْنِ قِصَّةِ يُوسُف بْنِ يَعْقُوبَ بنِ إسْحَاقَ بْنِ إبراهيم، مَعَ كَثِيرٍ مِنْ دَقَائِقِ الأحْدَاثِ المتعلِّقَةِ بِيُوسُف، هو بَعْضُ أنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ تِبَاعاً فِيمَا نُنْزِلُ عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ مِنْ نُجُومِ التَّنْزِيلِ، لِنَشْهَدَ لَكَ بِهِ أَنَّكَ رَسُولٌ حَقًّا، تُبَلِّغُ عَنْ رَبِّك مَا يُوحِي بِهِ إِلَيْكَ، ويأْمُرُكَ بِتَبْلِيغِهِ للنَّاسِ، ولِيَسْتَفِيدَ مَنْ شَاءَ مِنْ أَهْلِ الْفِكْرِ ممَّا نُوحِيه إليْكَ مِنْ عُلُومٍ وَعِبَر، والمسْتَفيدونَ هُمْ أُولُو الأَلْبَاب.

أنْبَاء: جمع «نَبَأ» والنَّبَأُ هو الخبَرُ الْبَارِزُ ذُو المضْمُونِ النافع المفيد.

الْغَيْبُ: كُلُّ مَا غَابَ مِنْ أَحْدَاثٍ وأشْيَاءَ وحَقَائِقَ عَمَّنْ غَابَ عَنْه، وهُو ذُو دَوَائِرَ مُخْتَلِفَةٍ، فَمَا هُوَ غَائِبٌ عَنْ بَعْضِ الْخَلَائِقِ قَدْ يَكُونُ مَشْهُوداً أو مَعْلُوماً عِنْدَ بَعْضِهِمُ الآخِر، فَبَعْضُ مَا هُوَ مَشْهُودٌ أو مَعْلُومٌ لِلْمَلَائِكَةِ أو لِلْجِنِّ هُوَ غَيْبٌ بالنِّسْبَةِ إلى الإنْس. وعِلْمُ كُلِّ الْغَيْبِ مِمَّا اخْتَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِهِ، لَا يُشَارِكُهُ فِيه أَحَدٌ، ولَيْسَ كُلُّ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنَّهُ غَيْبٌ هو ممَّا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا الله عَزَّ وجَلَّ.

﴿نُوحِيهِ﴾ **الوحْيُ**: في المفْهُوم الدّينيّ الخاص، هو إعْلَامُ اللهِ تَعَالَىٰ رسُولاً مِنْ رُسُلِهِ، أَوْ نَبيًّا مِنْ أنبيائه، مَا يَشَاءُ مِنْ كلامٍ أَوْ مَعْنًى، بوسيلَةٍ أو طَرِيقَة تفيد العِلْمَ اليقينيَّ الْقَاطِعَ بما أَعْلَمَهُ اللهُ به.

• ﴿... وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾:

أي: وَمَا جَاءَكَ عَنِ الماكِرين في قِصَّةِ يُوسُفَ خَبَرٌ مَوْثُوقٌ بِهِ تعْتَمِدُ عَلَيْه قَبْلَ وَحْينَا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّد، ومَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ حَاضراً شَاهِداً، حِينَ اتَّفَقُوا عَلَىٰ أَنْ يَقُوموا بِتَنْفِيذِ مَا مَكَرُوه مُجْتَمِعين غَيْرَ مُتفَرِّقين.

الْمَكْر: تَدْبِيرُ أَمْرٍ في خَفَاء، بخَيْرٍ أو بِشَرّ.

﴿إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ﴾: أي: حِينَ اتَّفَقُوا على مَا مَكَرُوه بِيُوسُفَ، وحِينَ نَفَّذُوهُ مُجْتَمِعِينَ غَيْرَ مُتفَرِّقِين.

والّذِينَ مَكَرُوا بِيُوسُف فِي قِصَّتِهِ، ونَفَّذُوا مَكْرَهُمْ مجْتَمِعِينَ، هم:

(١) إِخْوَتُهُ مِنْ أَبِيهِ إِذْ طَرَحُوهُ في الجب.

(٢) عَزِيزُ مِصْرَ وأَصْحَابُ مَشُورَتِهِ، وامْرَأَتُهُ وصَوَاحِبُها، إِذْ لَفَّقُوا لَهُ تُهْمَة إرادَةِ السُّوءِ بامْرَأَةِ العزيزِ، وعَمِلُوا على سَجْنِهِ، لِإيقَافِ انْتِشَارِ أَنَّ امْرأَةَ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ.

أي: وأَنْبَاءُ الْغَيْب هَـٰذِهِ الَّتِي نُوحِيهَا إِلَيْكَ، شَاهِدٌ عَلَىٰ أَنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ، وَشَاهِدٌ على أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وفي هَـٰذا حُجَّةٌ عَلَىٰ المكَذّبين، وَدَلِيلٌ هَادٍ لِلّذِينَ لَدَيهِمُ اسْتِعْدَادٌ لِقَبُولِ الحقِّ والاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِهِ، حِرْصاً عَلَىٰ نَجاتهم والظَّفر بالسَّعَادَة فِي جَنَّاتِ النعيم.

قول اللهِ تَعَالَىٰ لِرَسُولِهِ فلِكُلِّ دَاعٍ إِلَىٰ اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ:

• ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: وبمناسَبَةِ مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْب بِشَأْنِ قِصَّةِ يوسف، ومَا فِيهَا من حُجَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ تَدُلُّ على أَنَّ القرآنَ حَقٌّ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبّك، وأَنَّكَ يَا مُحَمَّدُ رسُولُ اللهِ حَقّاً وصِدْقاً، نُعْلِمُكَ بِحَقِيقَةٍ مِنْ حَقَائِقِ المجْتَمَعِ

الْبَشَرِيّ، مُسْتَنِدَةٍ إِلَىٰ عِلْمِنَا بالنَّاسِ وبِحَرَكاتِ نُفُوسِهِم الإِرَادِيَّة، وهي: مَا أَكْثَرُ النَّاسِ بِمُؤْمِنِينَ إيماناً صَحيحاً كامِلاً، ولَوَ حَرَصْتَ على إيمانِهِمْ، واسْتَخْدَمْتَ كُلَّ وَسِيلَةٍ مُمْكِنَةٍ لإقْنَاعِهِمْ بالْحَقِّ الرَّبَّانِي الذي يَجِبُ عَليهم أَنْ يُؤْمِنُوا به لِيَسْعَدُوا، فَإِنْ لَمْ يُؤمِنُوا كَانُوا في الشَّقَاءِ خَالِدِينَ يَوْم الدِّين، أَمَّا الإِيمانُ الّذِي لا يَسْتَوفي عَنَاصِرَهُ الواجبة فهو غير مقبول عند الله.

فَقُمْ بوَظَائِفِكَ الدَّعوِيَّةِ التَّبْلِيغيَّة، ولا تَحْمِلْ هَمَّ مَنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكَ؛ لِأَنَّ لِكُلّ مَوْضُوع في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحان إرادَةً حُرَّةً لَا يَجْعَلُهَا مَجْبُورَةً إلَّا خَالِقُها، وخالِقُهَا قد مَنَحَها الإرادَةَ الحرَّة لِيَبْلُوهَا فَهُوَ لا يُجْبِرُهَا، إِذْ إِجْبارُهَا يَقْتَضِي سَلْبَها إرادَتها الحرَّة، وهذا السَّلْبُ يَقْتَضِي رَفْعَهَا مِنْ دَائِرَةِ الامْتِحانِ، فَيَعُودُ عَلَىٰ أَصْلِ الغايَةِ من خَلْقِهَا لابْتِلَائِها بالنَّقْض، ومَعْلُومٌ أَنَّ إرَادَاتِ اللهِ لَا تَتَناقَضُ فِيما بَيْنَها.

وَقَدْ أَبَانَ اللهُ أَنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَكُونُونَ مُؤْمِنِينَ، لِعِلْمِهِ بِمَا فِي نُفُوسِهِمْ، لَكِنَّ الْأَقَلَّ مِنْهُمْ مُسْتَعِدُّونَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا، فالْحِرْصُ عَلَىٰ إيمانِهِمْ جَمِيعاً لَا جَدْوَىٰ مِنه، والْعَمَلُ فِيهِ عَمَلٌ ضَائِعٌ غَيْرَ رَشِيد.

يُقَالُ لغةً: «حَرَصَ عَلَىٰ الشَّيْءِ، يَحْرِصُ، حِرْصاً» أي: اشْتَدَتْ رَغْبَتُهُ فِيهِ. «وَحَرَصَ عَلَىٰ إنْسَانٍ مَا» أي: أَشْفَقَ عَلَيْهِ، وجَدَّ في نَفْعِهِ وَهِدَايَتِهِ.

والباء في ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ مَزِيدَة لِلتَّوْكِيد.

فَعَلَىٰ الدُّعَاةِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَعْرِفُوا مَنْهَجَهُمُ السَّوِيَّ فِي دَعْوَتِهِم، وفي المجاهَدَةِ لِلْقِيَام بِوَظَائِفِهِمُ الدَّعَوِيَّة.

قول اللهِ تَعالَىٰ يَشْهَدُ لِرَسُولِهِ بِأَنَّهُ مَا سَأَلَ وَلَا يَسْأَلُ الَّذِينَ يَدْعُوهم إِلَىٰ دِينِ رَبِّهِ أجراً مَا، مَادِّيًا أَوْ مَعْنَوِيًا، ومُبَيّناً أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي يُنَزِّلُهُ عَلَيْهِ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ جَمِيعاً، وَلَيْسَ لِلْعَرَبِ فقط:

- ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾:

أي: فَمَا هُوَ المنفِّرُ لَكُمْ مِنَ الْقُرْآن أَيُّهَا المدْعُوُّونَ المكَذِّبُونَ به، وَرَسُولُنا لَمْ يَسْأَلْكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ عَلَىٰ تَعْلِيمِكُمْ كِتَابَ رَبّكُمْ، وَمُجَاهَدَتِكُمْ بِهِ لِهِدَايَتِكُمْ بُغْيَةَ نجاتكُمْ وَفَوْزِكُمْ بالسَّعَادَةِ العظمىٰ يَوْمَ الدِّين أَجْراً ما؟؟ إنَّهُ يُجَاهِدُكُمْ مِنْ أَجْلِكُمْ، لَا لِمَصْلَحَةٍ يَبْتَغِيهَا عِنْدَكُمْ.

واعْلَمُوا أَنَّ الْقُرْآن لَيْسَ هُوَ ذِكْراً لَكُمْ وَحْدَكُمْ، بَلْ هُو ذِكْرٌ لِلْعَالِمِينَ كُلِّ الْعَالَمِينَ الموضُوعِينَ فِي الحياةِ الدُّنيا مَوْضِعَ الامْتِحَان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾: أي: مَا هُوَ إِلَّا بَلَاغٌ للعالمينَ مِنْ رَبّهم، فيهِ هدايَتُهُمْ لنَجَاتِهِمْ وفوْزِهم، ويُطْلَبُ مِنْهُمْ أَنْ يَتَبَلَّغُوهُ، وَيَتَدَبَّرُوا مَعَانِيَهُ، ويَحْفَظُوهُ فِي ذَاكِرَاتِهِمْ، وَيَذْكُرُوا مِنْهُ عِنْدَ كُلِّ مُنَاسَبَةٍ مَا يُلَائِمُهَا مِنْ حَقَائِقِهِ وعُلُومِهِ، وَمِنْ أحكامِهِ وشرائِعه، ومِنْ مَطْلُوبِ اللهِ مِنْهُمْ فِي أوامِرِهِ ونواهيه، وما يُلائِمُهَا مِنْ زَواجِره ونُذُرِهِ.

وبهذا يَكُونُ ذِكْراً لَهُمْ، يَهْدِيهِمْ إلَىٰ ما فِيهِ خَيْرُهُمْ، ويُحَذِّرُهُمْ مِمَّا فِيهِ شَرُّهُمْ.

أُطْلِقَ الذِّكْرُ، وهُوَ حَلْقَةٌ من حَلقَاتِ سِلْسلَةٍ تَسْبِقُهَا حَلْقَةُ التَّبَلُّغِ، فَحَلْقَةُ التَّدَبُّرِ، فَحَلْقَةُ الْحِفْظِ، وبَعْدَ الذّكْرِ يَأْتِي التطبيقُ النَّظَرِيُّ أو الْعَمَلِيّ، واسْتِجْمَاعُ هَـٰذِهِ الْحَلْقَات هُوَ الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ تَدَبُّرَ لَفْظَةِ «الذِّكْر». وبهذا نَفْهَمُ أبْعَادَ تَسْمِيَةِ اللهِ لِلْقُرآنِ بأنَّهُ ذِكْرٌ، وَوَصْفِهِ بأنَّهُ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِين.

وَلَيْسَ المرادُ مُجرَّدَ الذِّكْرِ باللِّسَانِ. ولفظ «الْعَالَمِين» يَشْمَلُ الْمَوْضُوعِينَ مَوْضِعَ الابْتِلَاءِ في الحياة الدُّنيا من الإنْسِ والجنّ.

قول اللهِ تَعَالَىٰ يَتَحَدَّثُ عَنِ المعنيّين بالمعالَجَةِ إبَّانَ التَّنْزِيلِ، ويُقَاسُ عَلَيْهِمْ أَشْبَاهُهُمْ في كلّ عصر:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾: أي: وَكَمْ، عَلَىٰ مَعْنَىٰ التكْثير، فالمعنى: وَكَثِيرٌ. قال النحويّون: «كَأَيِّنْ = كَأَيٍّ» بإثبات نُونٍ أو تنوين، اسْمٌ مَركَّبٌ مِنْ كاف التشبيه، ولفظ «أيٍّ» المنوَّن، وهي بمعنَىٰ «كَمْ» وتوافِقُها في خَمْسَةِ أمُور: ١ ـ الإبهام ٢ ـ الافتقار إلى التمييز ٣ ـ البناء ٤ ـ لُزُوم التَّصْدير في الكلام ٥ ـ إفَادَة التكثير، وهو الغالِبُ فِيها.

وخبر «كأين» يكون جملة.

﴿مِّنْ ءَايَةٍ﴾: تمْييز لكَلمةِ «كَأَيِّنْ» مَجْرُورٌ بحرف «مِنْ» والْمُرادُ بالآيَةِ مَا بَثَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ عَلامَاتٍ دَالَّاتٍ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَعَظِيم صِفَاتِهِ، ومَظاهِرِ جزائه لعباده في الكون.

فالمعنى: وآياتٌ كثيراتٌ مُنْبَثَّاتٌ في السَّمَاواتِ والْأَرْضِ مِنْ الآيَاتِ الدَّالَّاتِ على وجُود اللهِ، وعَلَىٰ عظيم صفاته، وعَلَىٰ قَانُون جزائِهِ لِعبَادِه، يَمُرُّ عَلَيْها المعْنِيُّونَ بالمعالَجَةِ، والْحَالُ أَنَّهُم عَنْهَا مُعْرِضُونَ.

الإعْرَاض: إعْطَاءُ الْعَارِض، وهو وَسَطٌ بَيْنَ الإقْبَالِ بالْوَجْهِ والإدْبَارِ، ويَدُلُّ على عَدَم الإكتراث، وعَدَم المبالَاتِ.

والسَّبَبُ في هَـٰذا انْصِرَافُهُمْ إلى شهواتِهِمْ وأهوائِهِم ومَطَالِبِ أجْسَادِهِمْ وَنُفُوسِهِمْ مِن مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا، وحُبُّهُمْ لِلْعَاجِلَةِ، وَتَرْكُهُمْ للآخِرَةِ اسْتِبْعَاداً لها.

ولَوْ عَقَلُوا لَدَلَّتْهُمْ آيَاتُ اللهِ في كَوْنِهِ عَلَىٰ خالِقِ الكَوْنِ ومُتْقِنِهِ، وعَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَلِيلَة، وعَلَىٰ الحقّ الَّذِي جَاءَ فِي كِتَابِهِ، وبَلَّغَهُ رَسُولُهُ، ولكانُوا مُؤْمِنِينَ وَمُسْلِمِينَ حَقّاً.

وآيَاتُ اللهِ في السَّمَاوَاتِ والْأَرْضِ لَا يَسْتَطِيعُ إحْصَاءَهَا إلَّا اللهُ خالِقُ الكَوْن، ففي كُلِّ شَيْءٍ ممَّا خَلَقَ صَغِيراً أم كبيراً آيَاتٌ كثيرات.

وآيات اللهِ الجزائيَّة ظَاهِرَةٌ فِي آثَارِ الْأُمَمِ الْكَافِرَةِ، الَّتِي أَهْلَكَهَا اللهُ إِهْلَاكاً جَمَاعِيًّا بِسَبَبِ كُفْرِهَا وَجَرَائِمِهَا.

قول اللهِ تعالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ المعَنِّيين بالْمُعَالَجَةِ أيْضاً:

• ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾:

أي: وَحِينَ تَرَىٰ مِنْ هَـٰؤلَاءِ عِبَارَاتٍ إيمانِيَّةً، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ فِي الدُّعاء: اللَّهُمَّ مَنْ كَانَ أَقْطَعَنَا لِلرَّحِمِ، وأَكْثَرَنَا تَفْرِيقاً لِقَوْمِنَا، فَاجْعَلْهُ الْقَتِيلَ الْمَغْلُوبَ عِنْدَ النِّزَال في الْحَرْب، فَإِنَّ إيمَانَهُ باللهِ مَمْزُوجٌ بِشِرْكٍ وثَنِيٍّ شَنِيع، إذْ هُوَ مُنْغَمِسٌ بأَوْحَالِ تَقَالِيدِه الاعْتِقَادِيَّةِ الشِّرْكِيَّةِ، لَا يَنْفَكُّ عَنْ إيمانِهِ بِالْأَوْثَانِ، وَلَا يَنْفَكُّ عَنْ مُحَارَبَتِهِ لِقَضِيَّةِ وَحْدَةِ اللهِ في رُبُوبِيَّتِهِ، ولِقَضِيَّةِ وَحْدَةِ اللهِ في إلَهِيَّتِهِ، ولا يَنْفَكُّ عَنْ تَكْذِيبِهِ بِكِتَابِ اللهِ المنَزَّلِ، وتَكْذِيبِهِ لِنَبِيِّهِ الْمُرْسَلِ.

المعْنَىٰ: فَلَا تَطْمَعْ باسْتجابَةِ هَـٰؤلَاءِ المعانِدِينَ المكابِرِينَ الجاحِدِين لِدَعْوَتِكَ، إِذَا سَمِعْتَ مِنْهُمْ أَقْوَالاً تُشْعِرُ بأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ باللهِ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يُؤْمِنُون باللهِ إيمَاناً صَحِيحاً، بلْ إيمانُهُمْ مَشُوبٌ بِشِرْكٍ لَا يَنْفَكُّونَ عَنْه، وهم مُصِرُّونَ على التمسُّكِ بِه.

قول اللهِ تَعَالَىٰ بِشَأْنِ هَـٰؤُلَاءِ المعنِّيِّينَ بالمعالجة أَيْضاً يُلَوِّح بإنْذَارِهِم وسيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْعِلَاجِ بالْوَعِيد لَهُمْ ولغيرهم الذين يُؤَثِّر فيهم الوعيد:

• ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾:

• ﴿أَفَأَمِنُوٓاْ﴾؟ أي: أفَحَاصِلٌ لَدَيْهِم أَمْنٌ فَهُمْ لَا يَخَافُونَ، والاستفهامُ إنْكَارِيٌّ وَتَعْجِيبِيٌّ مِنْ طُمَأْنِينَتِهِمْ وَعَدَمِ خَوْفِهِمْ مِنْ مُفَاجَاءَاتِ عِقَابِ اللهِ لَهُمْ، فِي عَاجِلِ أَمْرِهِمْ أَوْ آجِلِهِ.

يُقَالُ لغة: «أمِنَ، يأْمَنُ، أَمْناً، وَأَمَاناً، وأَمْناً، وأَمَنَةً»: أي: اطْمَأَنَّ وَلَمْ يَخَفْ.

• ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ﴾: **الغاشية**: النّازِلَةُ الَّتِي تُغَطِّي وتُجَلِّلُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شرّ.

المعنى: أفَحَصَلَ لَدَيْهِم أَمْنٌ مِنْ أَنْ تَأْتِيهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ نَازِلَةٌ مُجَلِّلَةٌ، تَغْشَاهُمْ مِنْ عَذَابِ اللهِ، فَتَعُمُّهُمْ، فَلَا يَسْتَطِيعُونَ فِرَاراً مِنْهَا، وَلَا نَجَاةً مِنْ مُؤْلِمَاتِهَا وَمُهْلِكَاتِها، أَوْ تَأْتِيَهُمْ السَّاعةُ فَجْأَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُونَ بِمُقَدِّمَاتٍ لَهَا.

بَغْتَةً: أيْ: فَجْأَةً، أُطْلِقَ الْمَصْدَرُ عَلَىٰ مَعْنَىٰ اسم «الفاعل» أي: أو أنْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ مُفَاجِئَةً.

الشُّعُور: هو أَدْنَىٰ الإدْراك الْعِلْمِي لشَيْءٍ ما.

والمرادُ بالسَّاعَةِ الزَّمَنُ الَّذِي يُنْهِي اللهُ بِهِ نِظَام الحياةِ الدُّنيا، ولكُلِّ إنْسَانٍ سَاعَتُهُ الَّتِي تَنْتَهِي عَنْدَها حَيَاتُهُ الدُّنيا.

وبَعْدَ السَّاعَةِ يكونُ عِنْدَ اللهِ حِسَابُ كُلِّ إنْسَانٍ موضوعٍ في الحياة الدُّنيا مَوْضِعَ الامتحان، وفَصْلُ القضَاء بشأنِه، ثُمَّ تَنْفِيذُ جزائِهِ بحَسَب ما قضىٰ اللهُ بشَأْنِهِ.

قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ خطاباً لِرَسُوله فلِكُلِّ دَاعٍ إلى اللهِ مِنْ أُمَّتِهِ مُعَلِّماً الْعُنْوانَ الْعَامَّ لِلدَّعْوَةِ الإسْلَامِيَّة:

• ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾:

أي: قُلْ لِمَنْ تَدْعُوهُمْ للاسْتِجَابَةِ لِدَعْوَتِكَ: هَـٰذِهِ سَبِيلي الَّتِي أَسْلُكُهَا فِي دَعْوَتي، أُلَخِّصُهَا لَكُمْ بِثَلَاثِ عِبَارَاتٍ، وهي:

العبارة الأولىٰ: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾: أي: نَحْنُ حَمَلَةُ رِسالَةِ دَعْوَةٍ إِلَىٰ اللهِ، فَلَسْنا مُجْبِرِينَ وَلَا مُكْرِهِينَ، إِنَّما نَحْنُ دُعَاةٌ فَقَطْ، فَلَا نُكْرِهُ كافراً عَلَىٰ الإيمان، ولَا نَقْتُلُ كافِراً مِنْ أَجْلِ كُفْرِه، إِذْ قَدَّرَ اللهُ لَهُ عُمْراً يَمْتَحِنُهُ فِي رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا ضِمْنَ حُدُودِهِ، فَلَا يَجُوزُ لَنَا أَنْ نَنْقُصَ مِنْ عُمُرِهِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللهُ لَهُ وقضاه، ما لم يَعْمَلْ عَمَلاً يَمْنَعُ بِهِ مَسِيرَةَ الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللهِ، أَوْ يَعْتَدِي بِهِ عُدْواناً يَسْتَحِقُّ عَلَيْهِ الْقَتْل.

ونحن نَبْنِي دَعْوَتَنا عَلَىٰ بَصِيرَة، أيْ: عَلَىٰ عِلْمٍ صَحِيحٍ، وَحُجَجٍ بُرْهَانِيَّة قَاطِعَةٍ.

الْبَصِيرَة: الْعِلْمُ الصَّحِيحُ، والحجَّةُ الْكَافِيَةُ للإقْنَاعِ، وللإجابَةِ عَلَىٰ كُلِّ أَسْئَلَةِ الشَّكِّ، وَحَلِّ المشْكِلات.

وتَدُلُّ عِبارَةُ ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ على إِلْزَام المسْلِمينَ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ ﷺ بالْقِيَامِ بالدَّعْوَةِ إلى اللهِ على بَصِيرَة، فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ نُصْرَةُ الحقِّ الرَّبانِيِّ بِالْبَاطِلِ والأكاذيب والضَّلَالاتِ والتمويهاتِ المزَيِّفَاتِ السَّاتِرَاتِ للمفترَيَاتِ، فَمَنْ لَمْ يَلْتَزِم بهذا فَهُوَ لَيْسَ من أَتْبَاع محمّد.

العبارة الثانية: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾: أي: وَأُنَزِّهُ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي اللهَ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِكَمالَاتِهِ جَلَّ جَلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه.

ومِنْ تَنْزِيهِهِ عَدَمُ مُشَابَهَتِهِ لِلْحَوادِثِ، وَعَدَمُ نِسْبَةِ الزَّوجَةِ أو الوَلَد له، فَهُو أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ، ولم يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحدٌ، ومِنْ تَنْزِيهِهِ أَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي رُبُوبِيَّتِهِ، وَلَا فِي إِلَهِيَّتِهِ.

العبارة الثالثة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: أي: وَمَا أَنَا وَلَا كُلُّ مَنِ اتَّبَعَنِي اتِّبَاعاً صَحِيحاً مَقْبُولاً عِنْدَ رَبِّهِ مِنَ المشْرِكين.

فَنَحْنُ لَا نُشْرِكُ بِرُبُوبِيَّةِ اللهِ أحَداً وَلَا شَيْئاً، ونعْتَقِدُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَجْرِي فِي الكَوْنِ، إِنَّمَا يَجْرِي بَخَلْقِ اللهِ تَنْفِيذاً لِقَدَرِهِ وقَضَائِهِ، أو تَنْفِيذاً لِمَا

أَذِنَ بِهِ لِعِبَادِهِ المخَيَّرِينَ الممْتَحَنِينَ أَنْ يَخْتَارُوهُ بإرادَاتِهِمُ الْحُرَّة، لِيَبْلُوهُمْ فِيما آتاهم.

ونَحْنُ لَا نُشْرِك بإلَهِيَّتِهِ أحَداً وَلَا شيئاً، فلا نَعْبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا نُشْرِكُ بعِبَادَتِهِ شَيْئاً مِنْ مَطَالِب الحياة الدُّنيا، بَلْ نَجْعَلُ عباداتِنَا خَالِصَةً للهِ وَحْدَه.

قول الله تَعَالَىٰ رَدّاً على الَّذِينَ مَا زَالُوا إِبَّانَ نُزُولِ سُورَةِ (يوسف) يَعْتَرِضُونَ عَلَىٰ كَوْنِ الرَّسُولِ مُحَمّدٍ ﷺ إنْسَاناً بَشَراً مِنَ الْبَشَرِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ مَلَكاً، وبهذا التَّعَلُّلِ الباطِلِ يُكَذِّبُونَ بِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالته، ولا يُصَدِّقُونَهُ فيما يُبَلّغ عَنْ رَبه، ويُوجِّهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ الخِطَابَ لِرَسُولِهِ مَعْرِضاً عَنِ المكَذِبين، لِيَسْمَعُوا دُونَ مُوَاجَهتِهِمْ بالْخِطاب:

• ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾﴾؟ وفي القراءة الأخرى: **[أفلا يعْقِلُونَ]**؟.

أي: إنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بإبْرَاهِيمَ وإسْمَاعِيل نَبِيَّيْنِ رَسُولين، ويُؤْمِنُونَ بموسَىٰ وَهَارُونَ كذلِكَ ويُؤْمِنُونَ بِعِيسَىٰ، وَهَـٰؤُلَاء بَشَرٌ مِنَ الْبَشَر، فَكَيْفَ يَجْحَدُونَ نُبُوَّةَ ورِسَالَةَ مُحَمّدٍ بِعِلَّةِ بَشَرِيَّتِهِ، هَـٰذا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ، يَجْعَلُ اعْتِرَاضَهُمْ عَلَىٰ بَشَرِيَّتِكَ يَا مُحَمَّدُ اعْتِراضاً سَاقِطاً حَتَّى مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِهِمْ.

وَفَوْقَ هَـٰذا نَقُولُ لَكَ يَا مُحَمَّدُ: مَا أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مُنْذُ أَوَّلِ نَشْأَةِ النَّاسِ في الأرْضِ حَتَّىٰ بِعْثَتِكَ الْخَاتِمَةِ، إلَّا رِجالاً، وطَرِيقَتُنَا فِي إرْسَالِهِمْ أَنَّنَا نُوحِي إلَيْهِم، وهؤلَاءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ نَصْطَفِيهِمْ وَنُوحِي إِلَيْهِمْ، هُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ الَّتِي نُرْسِلُهُمْ فِيها، وأَهْلُ الْقُرَىٰ يعرِفُونَ آبَاءَهُمْ وأُمَّهاتِهِمْ، وَأَزْمَانَ وِلَادَاتِهِمْ، وَنَشَأَتَهُمْ بَيْنَهُمْ، فَلَا لَبْسَ في أَمْرِهِمْ.

وَمِنْ حَقِّ ذَوِي الْعَجَبِ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَعْجَبُوا مِنْ عِنَادِهم وإصْرَارِهِم

علَىٰ تَكْذِيبِكَ، وَكُفْرِهِمْ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ، دُونَ أَنْ يَخَافُوا أَنْ نُنْزِلَ بِهِمْ عِقَاباً عَامًّا سَاحِقاً مَاحِقاً، مع أَنَّهُمْ سَارُوا فِي الأَرْضِ، وشَاهَدُوا بأَعْيُنِهِمْ أَثَارَ الْمُهْلَكِينَ مِنْ كُفَّارِ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وأَدْرَكُوا بعُقُولهم عَاقبَةَ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهِمْ مِنْ قَبْلِهِمْ مُعَانِدِينَ، ومُقَاوِمِينَ لِدَعَواتِهِمْ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ...﴾: اسْتِفْهَامٌ إنْكارِيٌّ لَهُمْ، وتَعْجِيبٌ مِنْ أَمْرِهِمْ: والمعنى لَقَدْ سَاروا في الْأَرْض، وَنَظَرُوا بأَعْيُنهِمْ آثَارَ المهْلَكِين السابِقين، وَنَظَرُوا بأفْكَارِهِمْ عَاقِبَةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

أفَلَيْسَتْ حَالَتُهُمْ هَـٰذِهِ تَدْمَغُهُمْ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُون.

وبِمَا أَنَّ إِهْلَاكَ كُفَّارِ الْقُرُونِ السَّالِفَةِ أَمْرٌ مُحَقَّقٌ مَشْهُودُ الآثَارِ، فَهُوَ دَلِيلٌ بُرْهَانِيٌّ واضِحٌ عَلَىٰ صِدْقِ الْوَعِيدِ الّذي سَوْفَ يَكُونُ في الدار الآخِرَة يَوْمَ الدّين.

والْتَفَتَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لِلْمُكَذِّبِينَ قَائِلاً لهم:

﴿وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۚ﴾: أي: مِنْ كُلِّ مَتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا الّتي تَصْرِفُكُمْ عَنْ أَنْ تَتَّقُوا عَذَابَ اللهِ وَنِقْمَتَهُ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾؟ عَقْلاً عِلْمِيًّا، وَعَقْلاً إرَادِياً، فَتَحْجُزُوا أَنْفُسَكُمْ عن الكُفْرِ وَمَعْصِيَةِ الله.

وَخَاطَبَ الرَّسُولَ في الْقِرَاءة الْأُخْرَىٰ بقَوْلِهِ تَعالَىٰ لَهُ: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ وفي هذه القراءة خطابٌ لَهم تَعْريضاً لَا بأسْلُوب المواجَهة.

وَيَتَسَاءَلُ المتسائِلُ هُنَا: هَلْ كَانَ عِقَابُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ لمُجْرِمِي الْقُرُونَ الْأُولَى، عقِبَ ظُهُورِ كُفْرِهِمْ، أَمْ كَانَ بَعْدَ إمْهَالٍ طَوِيلٍ وَصَلَ بِهِ المؤمِنُونَ إلى قَرِيبٍ مِنْ حَدِّ الْيَأْسِ مِنْ نَصْرِ اللهِ لَهُمْ؟؟.

ويأتي الجوابُ الرَّبَّانِيُّ عَلَىٰ هذا، فقال اللهُ تَعالَىٰ:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾:

• ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ﴾: أي: حَتَّىٰ إِذَا صَارَ الرُّسُلُ واجِمِينَ حَيَارَىٰ، كَالْيَائِسِينَ مِنْ تَحْقِيقِ مَا أَنْذَرُوا مُجْرِمِي أَقْوَامِهِمْ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَمَا طَمْأَنُوا بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ مِنْ تَأْيِيدِ اللهِ وَنَصْرِهِ. ولم يَصِيرُوا يَائِسِينَ حَقِيقَةً.

صِيغَةُ «اسْتَفْعَلَ» تَأْتِي للدَّلَالَةِ على مَعَانٍ مُتَعَدِّدَة، مِنْهَا صَيْرُورَةُ الشيء مُشَابِهاً بِبَعْضِ صفاتِهِ للشَّيْءِ الآخَرِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ أَصْلُ الفِعْلِ، مِثْلُ: «اسْتَحْجَرَ الطِّينُ» أي: صَارَ في قَسَاوَتِهِ كالْحَجَرِ ولم يَصِرْ حَجراً. وَ«اسْتَنْوَقَ الْجَمَل» أي: صَارَ في بعض صِفَاتِهِ كالنَّاقَةِ، ولم يَصِرْ ناقَةً في الحَقِيقَةِ. و«اسْتَنْسَرَ الْبُغَاثُ» أي: صَارَ الْبُغَاثُ كالنَّسْرِ في الاستِعْلاء، ولم يَصِرْ نَسْراً في الحقِيقةِ.

الْبُغَاثُ: طَائِرٌ أَصْغَرُ مِنْ الرَّخَمِ، بَطِيءُ الطَّيرانِ.

لَجأْتُ إِلَىٰ هَـٰذا الْمَعْنَى لأنَّ الرُّسُلَ لَا يَيْأَسُونَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَلَا مِنْ تَحْقِيقِ وَعْدِهِ وَوَعِيده، ولكِنْ قَدْ يَصِلُونَ أَمَامَ ضَغْطِ أَتْبَاعِهِم المؤمنينَ بهم إِلَىٰ حَالَةٍ مِنَ الْوُجُوم والحَيْرَةِ تُشْبِهُ حَالَةَ الْيَائِسِ، وَلَيْسُوا بِيَائِسِين، لكِنَّ طَاقَاتِ الصَّبْرِ عنْدَهُمْ قَارَبَتِ الانْتِهَاءَ وَلَمْ تَنْتَهِ بَعْدُ.

• ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ وَفِي الْقراءةِ الْأُخْرَىٰ [**كُذِّبُوا**].

• أَمَّا قِرَاءَةُ [**كُذِّبُوا**] فظَاهِرَةٌ، أي: وَظَنُّوا أَنَّ بَعْضَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهُمْ قَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ الشُّعُورِ بأَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ كَذَبُوا عَلَيْهِمْ، إِذْ وَعَدُوهُمْ بِنَصْرِ الله، وبإِنْزَالِ عِقَابِهِ بِالمجْرِمِين، إِذْ تَقَاطَرَتْ آخِرُ قَطَرَاتِ صَبْرِهِمْ مِنْ نُفُوسِهِمْ، وهذا ظَنٌّ مِنَ الرُّسُلِ لم يَصِلْ إِلَىٰ الْعِلْم.

• وأَمَّا قِرَاءَة: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ﴾ بتخفيف الذَّال، فَضَمِيرُ ﴿وَظَنُّوٓاْ﴾ لا يَصِحُّ أَنْ يَعُودَ عَلَىٰ الرُّسُل؛ لِأَنَّ الرُّسُلَ لَا يَقَعُ فِي ظَنِّهِمْ أَنَّ

الْوَحْيَ كَذَبَهُمْ فِيمَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ وَعْدٍ وَوَعِيد. لَكِنْ قَدْ يَقَعُ في نُفُوسِ بَعْضِ أتْبَاعِهِمْ مِنْ ضُعَفَاءِ الإيمانِ، شَكٌّ في أنَّ مَا وَصَلَ إلَىٰ الرُّسُل مِن بَيَانَاتِ الْوَعْدِ والْوَعِيد قَدْ يَكُونُ كَاذِباً غَيْرَ مُطَابِقٍ للواقع، ومِنْهُ احْتِمَالُ الْخَطَأ فِي التَّلَقِّي لأخبار الْوَعْدِ والْوَعِيد، ومِثْلُ هَـٰذِهِ الظُّنُونِ قَدْ تَقَعُ فِي نُفُوسِ ضُعَفَاءِ الإيمان إذا نَفَدَ صَبْرُهم.

وبناءً عَلَىٰ هَـٰذا الْفَهْمِ فَلَا إِشْكَالَ فِي هَـٰذِهِ القراءة.

• ﴿جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾: أي: جَاءَ الرُّسُل والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم نَصْرُنَا بإهْلَاكِ الْمُجْرِمِينَ، وتَنْجِيَةِ المؤمِنِينَ، وكانَ ذَلِكَ بإرْسَالِ وسائِلِ التَّعْذِيبِ والإهْلَاك.

• ﴿فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ﴾: أي: فَنُجِّيَ مِنَ العذاب والإهْلَاكِ بأمْرٍ مَنَّا مِنْ نَشَاءُ تَنْجِيَتَهُ، وهُمُ المؤمِنُونَ الصَّادِقُونَ بإيمانِهِمْ.

ومن المعْلُوم أنْ مَشِيئَاتِ اللهِ لَا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ، فَهِي حَكِيمَاتٌ دَوَاماً.

وفي القراءة الْأُخرى: [**فَنُنْجِي مَنْ نَشَاءُ**]: أي: فَنَحْنُ نُنْجِي مِنَ العَذاب والْهَلَاكِ مَنْ نَشَاء، فَدَلَّتْ هَـٰذِهِ القراءةُ على أنَّ الْفِعْلَ الحقيقيَّ هُوَ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولكِنَّ اللهَ يَتَّخِذُ لِتَنْفِيذ مَقَادِيره وَأقْضِيَتِهِ أسْبَاباً، وهُوَ الْفَعَّالُ مِنْ خِلَالِ قَنَوَاتِ الأسْبَاب.

• ﴿. . . وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾: أي: وَنُنْزِلُ بأسَنَا بالْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، فَنُعَذِّبُهُمْ وَنُهْلِكُهُمْ، وَلَا يَسْتَطِيعُ أحَدٌ أنْ يَرُدَّ بَأْسَنَا عَنْهُمْ، أو أنْ يَحْمِيَهُمْ بِوَسِيلَةٍ ما، فَبَأْسُ اللهِ لا رَادَّ له إلَّا هُوَ جَلَّ جَلَالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانُه.

البأس: العذابُ الشَّدِيد.

الْمُجْرِمُونَ: الكَفَرَةُ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الْخُلُودَ فِي عَذَابِ اللهِ.

وَخَتَمَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ السُّورَةَ بِبَيَانٍ عَنِ القرآنِ، مُلْحَقٍ بِالْبَيانِ الَّذِي جاءَ في أَوَّلِ السُّورَةِ عَنْهُ.

قول الله تَعَالَى:

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

في هَٰذِهِ الآيَةِ الخِتَامِيَّةِ للسُّورَةِ سِتَّةُ بَيَانَاتٍ عَنِ القرآن:

البَيَانُ الْأَوَّلُ: أَنَّ في الْقَصَصِ الْقُرْآنِيّ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ، دلَّ على هَٰذا الْبَيان قولُ اللهِ تَعالَىٰ في الآية: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ﴾:

أي: نُؤَكِّدُ بِعِبَارَة ﴿لَقَدْ﴾ أَنَّهُ يُوجَدُ في الْقَصِّ الَّذِي قَصَصْنَاهُ وَنَقُصُّهُ فِي القرآن عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَاب.

القَصَصُ: بفتح القاف مَصْدَرُ «قَصَّ» بمعْنَىٰ: تَتَبَّعَ أجْزاءَ الشَّيْءِ المقْصُوصِ، ومِنْهُ رِوَايَةُ الخبر.

الْعِبَرَةُ: الاتِّعَاظُ والاعْتبار بما مَضَىٰ الخاضِعِ لسُنَنِ اللهِ في كَوْنِهِ، وأَصْلُ العِبْرَة: الانْتِقَالُ عُبوراً مِنْ حَادِثَةٍ جَرَتْ، إلَىٰ حَادِثَةٍ لم تَجْرِ، أَوْ مِنْ قَضِيَّةٍ إِلَىٰ قَضِيَّةٍ مُشَابِهَةٍ، بِقِيَاسِهَا عَلَيْها، والحكُم عَلَيْها بأَنَّها سَتَحْدُثُ مِثْلَ الماضِيَةِ، إِذَا تَمَاثَلَتِ الصِّفَاتُ والأَسْباب. أو الحكْمُ عَلَيْها بِمِثْلِ حكم القضيَّةِ المقِيسِ عَلَيْها، ومَرْجِعُ هَٰذا القياسِ ثَبَاتُ سُنَنِ اللهِ فِي كَوْنِهِ.

أولُو الأَلْبَاب: أي: أَهْلُ الْعُقُولِ الْحَصِيفَةِ النَّظِيفَة. **الأَلْبَابُ**: هي الْعُقُولُ الواعِيَةُ الدَّرَّاكَةُ، الَّتِي تَعْقِلُ المعارِفَ فَتُمْسِكُ بها، وتَعْقِلُ النفوسَ

عَنِ اتّباع الْهَوَىٰ، والشهوَاتِ المحرَّمَات الجالبات للشَّرِّ والضُّرّ.

الْبَيَانُ الثّاني: أَنَّ القرآن لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ حَدِيثاً قَابِلاً بِلَفْظِهِ وَلَا بِمَضْمُونِهِ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، أي: لِأَنْ يُوضَعَ وَضْعاً بَشَرِيًّا، وَيُدَّعَىٰ أَنَّهُ تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا الْبَيان قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في الآية: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾: أي: لَيْسَ مِنْ شَأْنِ صِفَاتِهِ اللَّفْظِيَّةِ أَوِ المعْنَوِيَّةِ أَنْ يَكُونَ حَدِيثاً قابِلاً لِأَنْ يُفْتَرىٰ علَىٰ اللهِ.

يُقَالُ لغة: «افْتَرَىٰ الْحَدِيثَ افْتِرَاءً» أي: اختلَقَهُ كذِباً عَنْ عَمْدٍ. والاسم مِنْه «الْفِرْية» وجَمْعُها «الفِرَىٰ».

الْبَيَانُ الثالث: أنَّ الْقُرْآنَ مُصدِّقُ الَّذِي سَبَقَهُ مِنْ كُتب اللهِ، كالتوراة، والزَّبُور، والإنْجيلِ، وصُحُفِ إبراهيم، الَّتِي لَمْ يَدْخُلْ فيها تَحْرِيفٌ عَمَّا أُنْزِلَتْ علَىٰ رُسُلِ اللهِ السَّابقِين.

دَلَّ عَلَىٰ هَـٰذا البيان قول اللهِ تعالى في الآية: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: أي: لَمْ يَكُنْ حَدِيثاً قابِلاً لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، وَلَكِنْ كَانَ حَدِيثاً مُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ الله. الاسْتِدْرَاكُ هُنَا فيه تأكِيدُ كَوْنِهِ حَدِيثاً غَيْرَ قَابِلٍ لِأَنْ يُفْتَرَىٰ، فهو مِنْ تأكِيدِ الشَّيْءِ بما يُوهم خِلَافه.

- ﴿تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: **تَصْدِيقُ الشَّيْءِ**: **والتَّصْدِيقُ بِهِ**: بَيَانُ أَنَّهُ حَقٌّ وصِدْقٌ.

الَّذي بَيْنَ يَدَيْه: أي: الَّذِي سَبَقَهُ مِنْ كُتُب اللهِ المنزَّلَةِ عَلَىٰ رُسُلِهِ.

البيان الرابع: أَنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلٌ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ قَضَايَا العقائد الإيمانِيَّة، وأمَّهَاتِ قَضَايا السُّلُوكِ الإنْسَانِيِّ الّتي هِيَ مَطْلُوب اللهِ مِنْ عباده، في رِحْلَةِ ابْتِلَائِهِمْ فِي ظُرُوفِ الحياة الدنيا.

دَلَّ على هذا البيان قول الله عزَّ وجَلَّ في الآية: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

تفصِيلُ الأشياء: هو تمييزُ بَعْضِها عن بَعْضٍ لإبراز حُدود كلٍّ منها. **فالتفصيل**: هو التَّبْيينُ، وكشْفُ حُدودِ الأَجْزَاءِ المتلاصِقَةِ في الظاهر، بإظهار مَا بَيْنَها مِنِ انْفِصَالٍ، ولَوْ لَمْ يَكُنْ مَرْئِيًّا، لِتَمْييزِ بَعْضِها عَنْ بَعْضٍ فِي الإِدْرَاكِ الفكريّ.

والمرادُ بعبارة: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كُلُّ شيءٍ من قضايا العقائِدِ الإيمانيَّة الَّتِي يَجِبُ الإيمانُ بها، وأمَّهاتِ قضَايا السُّلُوكِ الإنسانيّ الَّتِي هي مَطْلُوبُ اللهِ مِنْ عبادِهِ فِي رِحْلَةِ امْتِحَانِهم.

البيانُ الخامِسَ: أنَّ الْقُرْآنَ هُدىً. **الْهُدَى**: الرَّشَادُ، والدلالةُ علَى الخَيْرِ، وهُو ضِدُّ الضَّلَال، وفي القرآن دَلَالَةٌ لِلْأَفْرَادِ والجماعات، إلى مَا فِيهِ صَلاحُ دُنْياهُمْ، وسَعَادَتُهُم في آخِرَتهم، دَلّ عليه عبارة ﴿وَهُدَى﴾.

ولفظ «الْهُدَىٰ» مَصْدَرُ «هَدَاهُ يَهْدِيه، هُدىً» أُطْلِقَ عَلَىٰ القرآن للدَّلَالَة عَلَىٰ أنَّ كُلَّ شيءٍ فِيهِ يَهْدِي إلى الحقّ، والخير، وفضائل الأعْمال الظاهِرَةِ والباطِنَة، فَهُوَ بِمَثَابَةِ عَيْنِ الْهُدَىٰ.

وقَدْ تَكَرَّرَ في القرآن وَصْفُ القرآن بأنَّهُ هُدىً، لعظيم قيمة هَٰذه الْوَظيفَةِ مِنْ وَظَائِفه.

البيان السادس: أنَّ القرآنَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ والمؤمِنَات: دَلَّ عليه في الآية عبارة: ﴿... وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾:

الرَّحْمَة: صِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ، من آثارِهَا إرادة الخير للمرْحُوم.

والقرآنُ أثَرٌ مِنْ آثار رَحْمَةِ اللهِ بعِبَادِه، وفي آيَاتِهِ عَطَاءٌ ثَرٌّ مِنْ عَطَاءَاتِ الْخَيْر للنَّاسِ أَجْمَعِينَ، بما فيها من دَلَالَاتٍ علَىٰ كلِّ مَا فِيهِ

صَلَاحُ دُنيا النّاس، وَسَعَادَتُهُمْ في آخِرَتِهِمْ، وبهذا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بأَنَّهُ رَحْمَةٌ، وهذا مِنْ إطْلَاقِ اسْمِ الشَّيْءِ عَلَىٰ آثاره، فَهُو مَجازٌ مُرْسَل.

ولمَّا كان المؤمنون هم الّذِينَ يَسْتَفِيدُون من الرَّحْمَةِ الّتِي تَشْتَمِلُ عليها آيات القرآن المجيد، كانَ من الحكْمَةِ في البيان تقييد رَحْمَتِهِ بأنها خَاصَّةٌ بالقوم الذين يُتَابِعُونَ مَا يَتلَقَّوْنَ مِنْ آياته بالإيمان الدافع للعَمَلِ الصَّالح.

وبهذا تَمَّ تَدَبُّر سُورَةِ يُوسف، والحمد لله على معونته، وتوفيقه وَمَدَدِه المتواصِلِ وفتَحْه.



(٧)
ملحق
حول مستخرجات بلاغية من سورة «يوسف»

توجَد في سورة «يوسف» اختيارات بلاغيّاتٌ نفيسات، اسْتَخْرَجْتُ مِنْهَا مَا يلي:

أولاً:

من النفائِسِ في القرآن المحاذِيفُ المطْوِيَّةُ في المثانِي، الّتِي تَدُلُّ عَلَيها دَلَالاتٌ لَفْظِيَّةٌ أَوْ فِكْرِيَّة.

ومن النصوص التي تُوجدُ محاذيف في مَثَانيها في هذه السورة، ما يلي:

(١) قول الله عَزَّ وجَلَّ حكَايَةً لقول «يعقوب = إسرائيل» لابْنِهِ «يوسف» عليهما السلام:

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾:

فعل «كَادَ، يَكيدُ» يَتعَدَّىٰ بِنفْسِه، يقال لغة: «كَادَهُ، يَكِيدُهُ» ولَكِنْ ضُمِّنَ في الآيَةِ فِعْلُ «يَكيْدُ» مَعْنَىٰ فِعْلِ «يَتعدَّىٰ» بحَرْفِ «اللَّام» مِثْلَ «يُسَدِّدُ».

فالمعنى: فَيَكِيدُونَكَ مُسَدِّدِينَ لَكَ سَهْمَ ضُرٍّ أَوْ أذًى.

(٢) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ مُتَابِعاً حكايَةَ قَوْلِ «يَعْقُوب» «لِيُوسُف» عليهما السَّلام:

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾﴾:

أي: وَكَذَلِكَ الْمَجْد الَّذِي يَهَبُهُ اللهُ لَكَ حِينَ يَتحقَّقُ في الواقع تَعْبِيرُ رُؤياك، إِذْ يَجْعَلُكَ فِيهِ ذَا رِياسَةٍ عَظِيمة، يَخْضَعُ لَكَ بها الناسُ حَتَّىٰ إِخْوَتُكَ وَأبُوكَ وَزَوْجَتُهُ، يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ.

(٣) قول الله عَزَّ وجَلَّ حَكَايَةً لِمُفَاوَضَةِ الكَيْدِ الَّذِي كَادَهُ إِخْوَة يُوسُفَ مِنْ أبيه بغية إبعاده عَنْ أبيه:

﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾:

أي: يَصِيرُ مَكَانُ اتِّجَاهِ وَجْهِ أَبِيكُمْ خَالِياً مِنْ يُوسُف، فَلَا يَرَىٰ غَيْرَكُمْ، فَتَحُلُّوا أَنْتُمْ مَحلَّه.

(٤) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ يَحكِي قِصَّة ذَهَابِ إِخْوَةِ يُوسف بِهِ إلى المراعي:

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾:

جوابُ «لَمَّا» الحينيّة مَطْوِيٌّ محذوف مِن اللَّفْظِ، ومن السَّهْلِ إدْراكُه

ومُلَاحظتُهُ ذهْناً، والتقدير: نَفَّذُوا مَكِيدَتَهُمُ الّتي أجْمَعُوا عَلَيْها، فوضَعُوهُ في غيابَةِ الْجُبِّ، ليلْتَقِطَهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ حِينما يُرِيدُونَ اسْتِخْرَاجَ مَاءٍ مِنْهُ.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ﴾ لَنُنْجِينَّكَ، ولَنُنْزِلَنَّكَ مَنْزِلاً كَرِيماً، ولَنَمُنَّنَّ عَلَيْكَ بالْوُصُولِ إلَىٰ مَجْدٍ عَظِيمٍ، ولَيَأْتِينَّكَ إِخْوَتُكَ خَاضِعِينَ، طَالِبِينَ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ، وَأَنْتَ فِي مَقَام رَفِيع و﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا﴾ الّذي فَعَلُوهُ فِيكَ إذْ وَضَعُوكَ فِي الْجُبِّ لِيُبْعِدُوكَ عن أَبِيكَ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يومَئِذٍ أنَّكَ أخُوهُمْ يوسف.

(٥) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ أبوهم يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبنائِهِ العشرة: لَسْتُمْ صَادِقِين فِيما ادَّعَيْتُمْ ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ فَأَمْرِي الَّذِي أَعْتَصِمُ بِهِ ﴿صَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ لَا أُعْلِنُ فِيهِ تَضَجُّراً وَلَا أَقُولُ فِيهِ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبِّي.

(٦) قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشَأْنِ يوسُفَ عليه السَّلام:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾:

أي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ﴾ يُوسُفُ ﴿أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾ جزاءَ إحْسَانِهِ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ، إذْ كَانَتْ أعْمَالُهُ واخْتِيَارَاتُهُ مِنْ مَرْتَبَةِ الإحْسان، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ سَائِرَ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ مِنْ عبادِنَا الموضُوعِينَ مَوْضِعَ الامْتِحَان.

(٧) قولُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بشأن يُوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ وامْرأةِ العزيزِ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها:

﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن

نَّفْسِيٓۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾:

أي: وأرادَ أنْ يَفْلَتَ مِنْ مُرَاوَدتها، ففتح باباً مِنْ أبواب مَخْدَعِها وخرج هارباً إلى ساحة القصر، واتّجه بِسُرْعَةٍ قَاصِداً البَابَ الخارِجيّ ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ وَكَانَ أسْبَقَ مِنها إلى جِهَةِ الْبَابِ الْخَارِجيّ، وشَدَّتْ قَميصَهُ لِمَنْعِهِ من الْفِرَارِ ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ فَلَمَّا رَآهُمَا الْعَزِيزُ ﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِىۚ﴾ فَكَذَّبَتْهُ، وَزَعَمَتْ أَنَّهُ لَحِقَهَا لِيَضْرِبَهَا، وأنَّها هَرَبَتْ مِنْهُ إلى جِهَةِ الْبَاب ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ بأنَّهُ رَآهُ هارِباً مِنْهَا وأنَّهَا هِيَ الَّتي لَحِقَتْهُ، وَجَذَبَتْهُ مِنْ ثَوْبه، فَكَذَّبَتِ الشاهِدَ مِنْ أَهْلِهَا قَرِيباً أَوْ عَامِلاً مِنْ عُمَّال الْقَصْر، فَقَالَ الشَّاهِدُ: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

(٨) قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ بِشَأْنِ رُؤْيَا الْمَلِكِ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: وسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ تَبْلَعُهُنَّ سَبعُ سُنْبُلاتٍ أُخَرَ يَابِسَاتٍ.

(٩) وقول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا . . .﴾:

أي: أنَا آتِيكُمْ بِنَبَأ تَأْوِيلِ رُؤيَا الْمَلِكِ، إذْ أَسْتَفْتِي فيها السَّجِينَ الْعِبْراني، الّذِي كنْتُ مُصَاحِباً لَهُ فِي السِّجْنِ ﴿فَأَرْسِلُونِ﴾ إلَيْهِ لِأَسْتَفتِيَهُ وآتِيكُم

بِمَا يَذْكُرُ مِنْ تَأْوِيلِهِ، فَأَرْسَلُوهُ إِلَىٰ يُوسُفَ وهُوَ في السِّجْنِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ قَالَ له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾.

(١٠) قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾:

أي: فَارْتَحلُوا مِنْ أَرْضِ كَنْعَانَ هُمْ وَأَهْلُهُمْ وَمَنْقُولاَتُهُمْ، وَوَصَلُوا إِلَىٰ مِصْرَ ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ في قَصْرِهِ الْخَاصِّ ﴿أَبَوَيْهِ وَقَالَ﴾ لأَخْوَتِهِ وَأَهْلِهِمْ جَمِيعاً: ﴿ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

ثانياً: من المجاز المرْسَل:

قول الله عَزَّ وجَلَّ في الحديثِ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام:

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ . . . ﴿٣٦﴾﴾:

أي: إِنِّي أَراني أعْصِرُ عِنباً يَؤُولُ أَمْرَهُ إِلَىٰ أَنْ يَكُونَ خَمْراً، وهَـٰذا مِنْ اسْتِعْمَالِ اللَّفْظِ باعْتِبَارِ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ الْوَاقِعُ.

ثالثاً: من المجازِ الْعَقْلِي:

المجاز العقلي: إسْنادُ الفِعْلِ أو مَا في معناه إلى غَيْرِ مَا هُو لَهُ لعلاقَةٍ مِن عَلاقَاتِ المجاز. ومِنْهُ في السُّورَةِ قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ:

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

أُسْنِدَ الأَكْلُ إِلَىٰ السِّنينَ، وهو للنَّاسِ الَّذِين يَعِيشُونَ فِي مِصْرَ فِي

هَٰذِهِ السِّنِين، التي هي سَنَواتُ الْجَدْبِ، مَا سَبَقَ أَنِ ادُّخِرَ مِنْ أَقْوَاتٍ في سَنَواتِ الْخِصْب.

رابعاً:

المفاجَأة بالنَّصِيحَةِ التَّدْبيريَّةِ مُدْمَجاً فيها تَعْبِيرُ الرُّؤْيا، ويَدخل هذا فيما يُسَمَّىٰ عِنْدَ الْبَلاَغِيّين «الإدْماج».

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾:

أي: سَتَأْتِي سَبْعُ سَنواتٍ خَصِيباتٍ، والتدبيرُ الواجِبُ فيها أن تَزْرَعُوا أقْواتَكُمْ فيها دَأَباً، وأَنْ تَذَرُوا ماحَصَدْتُمْ فِي سُنْبُلِهِ إلَّا قَلِيلاً ممَّا تأْكُلُونَ، وأَنْ تَدَّخِرُوهُ. ثم يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ سَنواتٍ مُجْدِبَاتٍ شِدَادٍ يأكُلُ النَّاسُ فِيها ممَّا ادَّخَرْتُمْ في السَّنَوات الْخَصِيبات. ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ تَرْجِعُ فيه تَصارِيفُ الكَوْنِ إلَىٰ مِثْلِ ما كانَتْ عَلَيْهِ قَبْل أَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَة، وفيه يُغَاثُ النَّاسُ، وفيه يتهَيَّأُ لَهُمْ أَنْ يَعْصِرُوا مَا يَعْصِرُونَ مِنْ ثمرات.

خامساً: الحكمة في اخْتيارِ الْبَدَائِل عن الأصل المتبادر للتعبير عن المراد:

ضِمْنَ هذا الْفَنِّ الْكُلِّيِّ الَّذِي تَقْتَضِيه دَواعٍ بَلاَغِيَّةٍ مُخْتَلِفَة، نَجِدُ في السُّورَةِ أَمْثِلَةً مُتَعَدِّدَةً:

المثال الأول: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ فِي الحدِيثِ عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ:

﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ... ﴿٢٣﴾﴾:

جاء اخْتِيَارُ ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ بَدَلَ المُتَبادِرِ التَّعْبِيرُ بِهِ، وهو: «امْرَأَةُ الْعَزيز» لتوجيه مَزِيدٍ مِنَ الثَّناءِ عَلَىٰ عِفَّةِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلام؛ لأنَّ

عِفَّة مُسْتَرَقٍ خادمٍ يَكُونُ فِي بَيْتِ سِيِّدَتِهِ يُخَالِطُهَا وتُخَالِطُهُ، ويَرَىٰ مَفَاتِنَهَا، وَقَدْ زَالَتْ مِنْ بَيْنِهِمَا الْحواجزُ، وهُوَ في عنْفُوانِ رُجُولَتِهِ المكْتَمِلَةِ، ثُمَّ تتزَيَّنُ لَهُ أَحْسَنَ زينَتِها، وتَدْعُوهُ إلَىٰ نَفْسِها، فَيَعِفُّ، ويَسْأَلُ رَبَّهُ أَنْ يَعْصِمَهُ، ويتمَنَّعُ بِقُوَّةٍ، عَلَىٰ الرَّغْمِ من الإلْحَاحِ الشَّبيهِ بالإكْرَاه، هو من أعْظَمِ عِفَّةِ الرِّجالِ عمَّا لَمْ يَأْذَنِ اللهُ بِهِ.

المثال الثاني: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لما قَالَهُ الْعَزِيزُ لِيُوسُفَ ولزَوْجَتِهِ:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾:

جاء اختيار لفظ ﴿الْخَاطِئِينَ﴾ وهو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالم، بَدَلَ الأَصْلِ المتبادر وهو: «الْخَاطِئَات» للدّلالَة على أنَّ الْجُرْأَةَ عَلَىٰ المُرَاوَدَةِ والطَلَبِ الصَّرِيحِ لَا تَكُونُ عَادَةً مِنَ النِّسَاء، بَلْ يَقْتَصِرْنَ على الإغراء والحركات، إنَّما تَكُونُ هَـٰذِهِ المُراوَدَةُ المُقْتَرِنَةُ بالطَّلَب الصَّرِيحِ من الرِّجالِ الْخاطِئينَ، فَاخْتِيرَ في التَّعْبيرِ مَا يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّها كانت مِنَ الخاطِئين.

المثال الثالث: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ يُوسُفَ لِأَبِيهِ بِشَأْنِ الرُّؤْيا الَّتِي رَآها:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾:

جاء في هذه الآيَة اختيارُ لفظ ﴿سَاجِدِينَ﴾ وهو جَمْعُ مُذَكَّرٍ سالم، بدَل الأصل المتبادِر، وهو: «سَاجِدَةً» أو: «ساجدات» مراعَاةً لواقِعِ حَالِ السُّجُودِ الإراديّ الَّذِي يَكُونُ مِنَ الأحْيَاءِ العالِمِينَ.

المثال الرابع: قول الله عَزَّ وجَلَّ:

﴿الر ۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾﴾.

جاء في هَـٰذِهِ الآيَةِ اخْتيارُ اسْم الْإشَارَةِ للمشارِ إليها الْبَعِيدَة، مع أنَّ المشَارَ إليها وهِيَ: «آياتُ الكِتَابِ» قَرِيبةٌ، للدَّلَالَةَ عَلَىٰ ارْتِفَاعِ مَنْزِلَتِهَا ارْتِفَاعاً بَعِيداً عن مُسْتَوىٰ كَلَامِ النَّاسِ.

المثال الخامس: قول اللهِ عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِ إخْوَةِ يُوسُفَ العشرةِ لأبيهم «يعقوب = إسْرَائيل» عليه السَّلام:

﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾:

نَادَوا أباهُمْ بِحَرْفِ النداء الموضوع للمنادَىٰ الْبَعِيدِ، لِيُشْعِرُوهُ بأنَّهُمْ عَاتِبُونَ عَلَيْهِ، إذْ يُبْعِدُهُمْ عَنْهُ نَفسِيًّا، وَيُقَرِّبُ «يُوسُفَ» وَشَقِيقَهُ «بَنْيَامِين».

المثال السادس: قول الله عَزَّ وجَلَّ حِكَايَةً لِقَوْلِهِمْ أيضاً:

﴿قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾:

نَادَوْا أَبَاهُمْ بِحَرْفِ النِّدَاءِ الموضُوعِ للمنادَىٰ الْبَعِيد، للإشْعَارِ بالتَّخَضُّعِ والتَّذَلُّلِ والانْخِفَاضِ الْبَعِيدِ، بُغْيَةَ الاسْتِعْطَافِ، ورَجَاءَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمْ.

سادساً: التوكيد بالمؤكداتِ لدَواعٍ بلاغيَّة:

أذْكُرُ في هَـٰذ الفِقَرةِ طائِفَةً من النُّصُوص الَّتِي فيها التوكيد، دُونَ تحليل، اعتماداً على نَظَائِرها الكثيرة المشْرُوحَةِ في المستخرجات البلاغيّة من السُّوَرِ التي سبَقَ تَدَبُّرُها:

(١) ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾.

(٢) ﴿... إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.

(٣) ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾.

(٤) ﴿... وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.

(٥) ﴿... إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ ... ﴿١٣﴾﴾.

(٦) ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(٧) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾.

(٨) ﴿... إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾.

(٩) ﴿... إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾.

(١٠) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ... ﴿١١١﴾﴾.

وأَكْتَفِي بِهَٰذِهِ المستخرجات والحمد لله على مَدَدِه ومعونته وتوفِيقِهِ وفَتْحِه.



خاتمة المجلّد العاشر

هذا ما فتح اللهُ به علَيَّ في تَدَبُّر المجلد العاشر مِنْ كتاب «معارج التفكّر ودَقائق التدبُّر» المشتمل على تدبّر ما يلي:

(١) سورة (يونس/ ٥١ نزول) وملحق مستخرجات بلاغية مِنْها.

(٢) وسورة (هود/ ٥٢ نزول) وملْحَق مستَخْرَجات بلاغِيَّة مِنها، ومُلْحَقُ دِراسَة تكامُلِيَّة للنُّصُوصِ بِشَأْنِ هُود عليه السلام وقومه عاد في القرآن المجيد.

(٣) وسورة (يوسف/ ٥٣ نزول) ومُلْحَق مستَخْرَجات بلاغِيَّة مِنْهَا.

وقد انْتَهَيْتُ مِنْ تَسْطِيرِ هذا المجلّدِ في الْيَوْم الأخِيرِ مِنْ شَهْرِ رمضانَ لسنة ١٤٢٢ هجريّة، وأَسْأَلُ اللهَ الْعَلِيم الحكيمَ الْوَهّاب أَنْ يَكْتُبَ لَهُ الْقَبُولَ الحسَنَ، وأَنْ يَنْفَعَ بِهِ نَفعاً كثيراً واسعاً، وأَنْ يَجْعَلَ عَمَلِي فِيهِ خالصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيم.

وقَدِ اجْتَهَدْتُ في الالْتِزَامِ بالقواعِدِ الأرْبعين الّتي اشْتَمَلَ عَلَيْهَا كتابي «قواعد التَّدَبُّر الأمْثَلِ لِكِتَابِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ».

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَىٰ مَا أَوْلَيْتَ وَتَفَضَلْتَ وأعْطَيْتَ، تبارَكَ اسْمُكَ، وتَعَالَىٰ جَدُّكَ، وتقدَّسَتْ صِفَاتُكَ.

رَبِّ أَوْزِعْنِي وَوَفِّقْنِي واقْضِ لي أَنْ أكُونَ لَكَ عَبْداً شَكُوراً، ما أبقيتَنِي في هَـٰذِهِ الحياة الدُّنيا حتَّىٰ آخِرِ نَفَسٍ مِنْ أنْفَاسِي، وأَنْ أكُونَ عِنْدَكَ يَوْمَ الدِّينِ مِنَ المحسنين الأبْرَارِ المتقين.

وآخر دَعْوَانا أنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وسَلامٌ على عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ، والصلاة والسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا محمَّدٍ وآلِهِ وصَحْبِهِ ومَنْ تَبِعَهُمْ بإحْسَانٍ إلَىٰ يَوْم الدِّين.

مكة المكرمة في ٣٠ رمضان ١٤٢٢ هجرية
عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني
و١٥/ ١٢/ ٢٠٠١ ميلادية

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

سورة يونس
١٠ مصحف/ ٥١ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

سورة هود

١١ مصحف ٥٢ نزول٢٦٦

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة

سُورَة يوسف

١٢ مصحف ٥٣ نزول

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

❁ ❁ ❁